مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الخَامِسَ عَشَرَ

سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَة التَّفْسِيرِ البَلَاغِي

المُجَلَّدُ الخَامِسَ عَشَرَ

سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 1-11-768-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 1-11-768-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ التَّاسِعُ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف: 164]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الشروعُ في تفصيل طوائف أهل القرية

هذه الآية من قصّة القرية حاضرة البحر معطوفةٌ على الآيات الّتي سبقتها عَطْفَ القصّةِ على القصّة، وهي تمثّل جانبًا من الأحداث الّتي جرت مع أصحاب القرية وانقسامهم إلى فِرَقٍ مختلفةٍ، لذا قال المفسّرون عن هذه الآية إنّها معطوفة على قوله ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ [الأعراف: 163](1)، وفيها بيانُ طوائفِ هذه القرية وحالِ كلِّ طائفة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٞ﴾: أصلها (أمّ)، والأُمّة: كلُّ قوم في دينهم من أُمّتهم، وكلُّ من كان على دينٍ واحدٍ مخالفاً لسائر الأديان فهو أمّة على حدةٍ، والأُمَّة: كُلُّ جماعَةٍ يَجمَعُهُم أَمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا(2). وتُطلَقُ الأُمَّةُ على عالِمِ دَهْرِهِ المُنفَرِدِ بِعلمِهِ، وكان إبراهيم عليه السلام أمّة(3). ومِن مَعانيها: الشِّرْعَةُ والدِّينُ، يُقالُ: فُلانٌ لا أُمَّةَ له، أيْ: لا دينَ لَهُ، وكذلك كُلُّ مَن كان على دينٍ حقٍّ مُخالفٍ لِسائِرِ الأديانِ فهو أمَّة، ويُقال لِكُلِّ جيلٍ مِنَ النّاسِ والحَيوانِ: أُمَّةٌ. والجَمعُ: أُمَمٌ(4). والمعنى في الآية: جماعة منهم.

2) ﴿تَعِظُونَ﴾: العِظَةُ: الموعظة. وأَصْلُه: التَّخْويفُ والإِنْذارُ، وَعَظْتُ الرّجلَ أَعِظُهُ عِظَةً وموعظة: واتَّعَظَ: تقبّل العِظَة، وهو

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 161/2.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمم).
(3) الخليل، العين: (أمم).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية: (أمم).

تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوَه ممّا يرقُّ له قلبُهُ. ومن أمثالِهم المعروفة: لا تَعِظيني وتَعَظْعَظي، أي: اتَّعِظي أنتِ ودَعي موعظتي[1]، والواعِظُ: النَّذيرُ، ومِن مَعانيه أيضًا: النُّصْحُ والإرْشادُ والتَّحْذير[2]. وعرّفه الراغبُ بأنّه: زجرٌ مقترِنٌ بتخويفٍ[3].

3) ﴿مَعۡذِرَةً﴾: قال الفراهيدي: عذر: عَذَرْتُه عَذْراً ومَعْذِرَةً. وأَصل العُذْرِ: إزالَةُ الشَّيْءِ عن جِهَتِه، والعُذْرُ اسمٌ، عذرتُه بما صنع عَذْراً ومَعْذِرة وعَذَرْتُه من فلانٍ، أي: لُمْتُ فلاناً ولم أَلُمْهُ[4]. والعُذْرُ: تحرّي الإنسانِ ما يمحو به ذنوبَه، العُذْرُ: الحُجَّةُ التي يُعْتَذَرُ بها، وكُلُّ ما يَرْفَعُ اللَّوْمَ فهو عُذْرٌ، يُقال: اعْتَذَرَ عن فِعْلِه، أيْ: أَظْهَرَ عُذْرَهُ. والمعذرة الاسم، ولي في هذا الأَمْرِ عُذْرٌ، أيْ: خُروجٌ مِن الذَّنْب. والجَمْعُ: أعْذارٌ[5].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيانُ حالِ فِرْقَةِ اللّائمينَ للنّاصِحينَ ليأْسِها من صلاحِ المعتدينَ في السبتِ

واذكُر أيها الرسول ﷺ حين قالت جماعةٌ مِن أهلِ تلك القريةِ الّتي اعتَدَتْ يومَ السّبت؛ للآمرينَ بالمعروف والنّاهينَ لهم عن هذا المنكَر: لمَ تزجرون أولئكَ المعتدينَ، اللّهُ مُهلِكُهم في الدنيا بمعصيتهم إياه، أو معذِّبُهم عذابًا شديدًا في الآخرة؟ فأجابوهم: نفعلُ ذلك مَعذِرةً إلى رَبِّكم في قيامنا بركنِ الأمرِ بالمعروف والنّهيِ عن المنكر، عَلَّهُم يعودون عن عَدْوِهم ويتّقون اللّه تعالى في أمرهم، فيخافونه، ويتوبون من معصيتِهم ربَّهم وتعدّيهم على ما حرَّم عليهم.

---

(1) الخليل، العين: (وعظ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وعظ).
(3) الرّاغب، المفردات: (وعظ).
(4) الخليل، العين: (عذر).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذر).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في الآية ومحلُّه:

عطف القصّة على القصّة لدخولها في حكمها

الواو عاطفة، والظرف في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ [الأعراف: 163] داخلٌ في حكمه؛ أي: واسأَلْهُم يا رسول الله عن حال أهل تلك القرية، حين قالت جماعة منهم؛ لأقوام آخرين من الصُّلحاء الذين لم يُقْلِعوا عن وعظِ الصيادين، ولم يتركوه رجاءً للنَّفْعِ، وطَمعًا في فائدة الإنذار: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا﴾؛ أي: لم تستمرون في وعظ قوم ﴿ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ﴾؛ أي: مخزيهم في الدنيا بعذاب الاستئصال ﴿أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ موجعًا؛ لعدم إقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والاصطياد[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ(إذ) في القصّة ودلالاتُها وإعرابها:

تصويرُ المشاهد القصصيّة واستحضارُها أمام القارئ

إذ: اسمٌ أو ظرفٌ للزمان للماضي، وتُعْرَبُ على أنّها مفعولٌ فيه مبني على السكون في محلِّ نصبٍ، أو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذْكُر، ويَكثُر ورودُها في القَصص القرآنيِّ؛ لأنَّ أغلب ما يأتي بعدها هو مَشاهدُ قَصصيّةٌ يُراد للسامع أن يستحضرها مَشاهدَ حيّةً تجري أمامه، لذلك توالت هنا عدَّة مرّات في سياق تذكير بني إسرائيل بصنائع أجدادهم السابقين، وتاريخهم الطويل في التمرُّد والعصيان. وفائدتُها ظاهرةٌ في تصوير المشاهد الفنّيّة على أنّها مشاهدُ حيّةٌ يراها القارئ أمامه من خلال هذه الحروف والألفاظ الّتي أَخذتْ على عاتقها تصويرَ هذه المشاهد.

فائدة تنكير لفظ ﴿أُمَّةٞ﴾:

التقليل أو التحقير؛ إذ تعطيل عمل المصلحين في المجتمع مذمومٌ في شرع الله

تنكيرُ ﴿أُمَّةٞ﴾ هنا قد يفيد التّقليلَ على اعتبار أنَّ هذه الفئةَ الأصلُ فيها أن تكون قليلةً في المجتمع؛ حتّى لا يتعطّل الركنُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/196.

الأكبر والقطبُ الأعظم وهو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. أو التّحقير على اعتبار أنّها فئة مذمومة مرذولة لتعطيلها دورَ المصلحين في المجتمع.

معنى (من) في ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ وعود الضمير فيها:

المثبِّطون لعملِ المصلحين هم فئةٌ من المجتمعات ولا يمثِّلون حالَ الجميع

(من) هنا للتبعيض؛ لأنَّ من قام بهذا جماعة منهم وليس جميعَهم، والضمير في ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ عند ابن عاشور عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾ [الأعراف: 163]، وليس عائدًا إلى أهل القرية؛ لأنَّ المقصود توبيخُ بني إسرائيل كلِّهم، فإن كان هذا القول حصل في تلك القرية كما ذكره المفسرون كان غيرَ منظور إلى حصوله في تلك القرية، بل منظورًا إليه بأنَّه مظهرٌ آخر من مظاهر عصيانهم وعتوِّهم وقلَّة جدوى الموعظة فيهم، وأنَّ ذلك شأن معلوم منهم عند علمائهم وصلحائهم، ولذلك لمّا عُطفت هذه القصة أُعيد معها لفظُ اسمِ الزَّمان فقيل: وإذ قالت أمَّة، ولم يقل: وقالت أمَّة[1].

معنى اللّام و(ما) في ﴿لِمَ﴾:

اللّام في ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ للتَّعليل[2]، و(ما) اسم استفهام، حُذفتْ ألفُه لدخول حرف الجر عليه، والمستفهَم عنه من نوع العِلَل.

بلاغةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ وغَرَضُه:

الاستفهامُ الإنكاريُّ دلَّ هنا على معاني التّعجيب والتيئيس

في قوله ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا﴾ الاستفهام إنكاريّ تعجيبيّ، ويمكن حملهُ على التَّيئيس من استجابة القوم، فعندئذٍ يَحملُ هذا الاستفهام في جوانحه معانيَ التَّهكُّمِ والسُّخريةِ، فالاستفهام إنكاريٌّ في معنى النّفي، فيدلُّ على انتفاء جميع العِلَلِ الّتي من شأنها أن يوعَظَ لتحصيلها، وذلك يُفضي إلى اليأس من حصول اتّعاظهم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/150 - 151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/151.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/151.

دلالاتُ التّعبير بـ﴿تَعِظُونَ﴾:

توجيهُ المذنبينَ والعصاةِ وإرشادُهم ينبغي أن يكون مستمرًّا لاينقطعُ

المعنى المحوريُّ لمادّة (وعظ) تقوم على كلامٍ أو عملٍ يُنَبَّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعله أو ما هو مُقْدِمٌ عليه ليتوقَّفَ عنه، وقَيْدُ التَّوقُّفِ يُؤخَذُ من التّذكير بالعواقب. وكأنَّ الأصل في معنى التَّركيب أنّه خاصٌّ بالزّجر عمّا له عواقبُ سيِّئةٌ فحسب، ثم عُمِّمَ في الحضِّ على ما له ثواب[1]. وتبيّن من المعنى الاصطلاحيِّ للوعظ أنّه يقوم على الأمر بفعل الخير وتركِ الشَّر بطريقةٍ فيها تخويفٌ وترقيقٌ يَحمِلان على الامتثال، وعلى هذا كان التّعبير بهذه اللّفظة في هذا الموضع على لسان المثبِّطين للآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر هو الأنسبُ، ودلَّ التّعبيرُ بالمضارع على تجدُّدِ واستمرارِ هذه الفريضة عند القائمين بها، وأنّهم يقومون بهذا الأمر والنّهي في كلِّ ما تسنَّى لهم من الأوقات.

نكتة تنكير ﴿قَوۡمًا﴾:

أفاد التّنكير معاني التّكثير والتّحقير

تنكير لفظة ﴿قَوۡمًا﴾ أفاد معنى التّكثير لهذه الفئة المُعتدية، كما يُفهم من قوله: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، فأَسنَدَ العدوانَ لأهل القرية جميعًا تجوُّزًا لكثرتهم كما يبدو، ثمّ إنَّ تاريخَ بني إسرائيل الطويلَ المليءَ بالمعاصي مع أنبيائهم يساعد على معنى التّكثير. كما يفيد التّنكيرُ أيضًا معنى التَّحقير، كما يدلُّ عليه مقامُ اقترافِهم للاعتداء في اليوم المعظَّم عند اليهود، وهو السّبت.

غرضُ مجيء أوصاف الإهلاك أو العذاب:

تحققُ وعيدِ اللهِ على المعتدينَ

يقول ابن عاشور: "ووصْفُ القوم بأنَّ اللّه مُهْلِكُهم: مبنيٌّ على أنّهم تحقّقت فيهم الحال الّتي أخبرَ اللّه بأنّه يُهلِكُ أو يعذِّبُ مَن تحقَّقتْ فيه، وقد أَيقنَ القائلون بأنّها قد تحقَّقت فيهم، وأيقنَ المقولُ

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).

لهم بذلك؛ حتَّى جاز أن يصفَهم القائلون للمُخاطَبين بهذا الوصف الكاشف لهم بأنَّهم موصوفون بالمصير إلى أحدِ الوعيدَيْن[1]".

نُكتةُ التّعبيرِ باسم الفاعل:

التـيـقّـن مـن إهــلاك الـلـه تعالى للظالمين

يدلُّ التّعبير باسم الفاعل في ﴿مُهۡلِكُهُمۡ﴾ و﴿مُعَذِّبُهُمۡ﴾ على الاستقبال من ناحيَةٍ، ويدلُّ على تمكُّن الفعل بصاحبِه حتّى باتَ اسمًا له من ناحيةٍ أخرى، يقول أبو السعود: "وإيثارُ صيغةِ اسم الفاعل مع أنَّ كلًّا من الإهلاك والتَّعذيب مترقَّبٌ؛ للدَّلالة على تحقُّقِهما وتقرُّرِهما البتَّةَ كأنَّهما واقعانِ، وإنَّما قالوه مُبالغةً في أنَّ الوعظَ لايَنْجَعُ فيهم، أو ترهيباً للقوم، أو سؤالاً عن حكمة الوعظِ ونفعِه، ولعلهم إنَّما قالوه بمحضَرٍ من القوم؛ حثًّا لهم على الاتِّعاظ، فإنَّ بتَّ القولِ بهلاكهم وعذابهم بما يُلقي في قلوبهم الخوفَ والخشية[2]".

غرضُ ذكرِ لفظِ الجلالة في وصْفِ (القوم):

ذِكْــــرُ اسـم الـجـلالـة يـفـيـد هنا تربيةَ المَهابَةِ وتوكيدَ الحُكْمِ

ذِكْرُ لفظِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾ من شأنه أن يولِّدَ في النّفس تربية للمَهابةِ، ولا سيِّما وأنَّ خبره هنا اسم فاعل، فأفاد ذلك مزيدًا من التّخصيص أو التّقرير في وقوع الهلاك أو العذاب فيهم لا مَحالة.

بلاغةُ مجيءِ الأوصافِ بالجُمَلِ الاسميّةِ التي أخبارُها أوصافٌ مشتقَّة:

أفـادت أسـمـاءُ الــفــاعــل الخبريّة معانيَ التّخصيص

من المقرّر في علم المعاني أنَّ الخبر الفعليَّ يُفيد تقويةَ الحكم وتوكيدَه، وقد يُفيد التّخصيصَ بالقرائن، ولا مانع هنا من حمْلِه على التّخصيص على معنى أنَّ الله وحده تعالى هو من يتولّى - دون غيره - إهلاكَهم في الدنيا أو عذابَهم في الآخرة، والقرينةُ الدافعةُ للتّخصيص أنّه جاء على لسان المثبِّطين للدعاة في دعوتهم، فكأنّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/151.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/44 - 45.

يقولون لهم: دَعُوكُم من بذل الجُهْدِ في سبيل ردِّهم عن الباطل؛ فاللّهُ وحده هو من يتولّى جزاءهم في الدّارَيْن دون غيره.

نُكتةُ التّعبير عن القوم بالضمائر:

الإضمـارُ بعد الإظهارِ بابٌ من بلاغة الإيجاز

الضمائر في قوله تَعالى: ﴿مُهۡلِكُهُمۡ﴾ و﴿مُعَذِّبُهُمۡ﴾ و﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ تعود على الفئة الباغية الّتي اعتَدَتْ في السّبت، وعدَلَ القرآن عن التّصريح بذِكْرِهم إيجازًا؛ لأنّه تقدّم ذكرُهم من ناحية، وإمّا لأنّه جاء على لسان هذه الفئة التي وقفت تتفرّج دون أن تحاول تغيير المنكر، بل إنّها قامت بدورٍ سلبيٍّ أكبر من خلال معاتبةِ الفئةِ المنكِرةِ لهذا الفعل، فيمكن أن يكون هذا الإضمار ناشئًا عن خوفهم من التّصريح باسمهم أو وَصْفِهم، أو يكون ناشئًا عن تحقيرهم لهم بحيث إنّهم لا يستحقّون أن يُذكَروا باسْمِهِم.

نكتةُ تقديمِ الإهلاك على العذاب:

تقديمُ العقوبةِ الأشدِّ أو المقدَّمةِ في الزّمنِ له أثرُه في توهين عزيمةِ الواعِظِينَ

تقديمُ الإهلاكِ على التَّعذيبِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ من باب تقديم الأشدِّ، وهو المصيرُ الذي يستحقُّه مَن يرتكبُ هذه المعصيةَ؛ فالإهلاكُ أشدُّ من عذابهم في الدّنيا، وربّما يكون سببُ التّقديم له من باب التأخّر الزمني لعذاب الآخرة عن إهلاك الدّنيا، وربّما لأنّه جاء على لسان هذه الفئة المثبِّطة للفئة الآمرة بالمعروف والنّاهية عن المنكر، فقدَّموا ذِكْرَ المصيرِ الأشنعِ الذي يمكن أن ينتظرَهم على معصيتِهم حتّى يكونَ هذا أقوى في توهين همّة هذه الفئة المنكِرة؛ فَطالَمَا أنَّ الله قادرٌ على إهلاكِهِم فما نَفْعُ دعوتِهم ونُصْحِهِم!!.

معنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالتُها:

أفـادت (أو) الـتّـنـويـعَ في وقـوع إحـدى العـقوبـتين أو اجـتـمـاعـهـمـا عليهم

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾ ليست للإضراب، بل هي عاطفةٌ تفيد التّنويعَ، على معنى: إمّا مُهلِكُهم بالاستئصال أو بعذابٍ شديدٍ دون الاستئصال، أو مُهلكُهم في الدُّنيا ومعذِّبُهم في

الآخرة؛ وأيًّا ما كان المراد في ﴿أَوْ﴾ هنا هي المانعة للخلوِّ من وقوع أحدِ الجزاءَيْن، لا المانعة لجمعهما، فهي لا تنفي اجتماعهما[1].

دلالةُ عطفِ ﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾ على ﴿مُهْلِكُهُمْ﴾:

عطفُ الأقلّ على الأشدِّ، أو رُوعِيَ في العطف الترتيبُ الزَّمنيُّ

أفاد عطفُ العذابِ على الإهلاك في قوله: ﴿مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾ عَطْفَ العقوبة الأقلّ على الأشدّ، وإن كان كلاهما شديدًا، لأنّه أكّد أنّ هذا العذاب شديدٌ، أو رُوعِيَ في العطف الترتيبُ الزمنيُّ من حيثُ ظرفُ العقوبةِ في الدنيا أو في الآخرة، ولكن لن يخلو الأمر من حصول أحد الأمرين أو كليهما معًا، وفي هذا دعوةٌ للواعظين للتوقّف عن وعْظِهم بسبب توقّع حصولهما.

غرضُ تأكيد العذاب بالمفعول المطلق ووصفه بالشدّة دون الإهلاك:

الذَّنْبُ العظيمُ يستوجب عذابًا أليمًا

النّظم الكريم قال: ﴿مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ فأكّد العذاب بالمفعول المطلق ﴿عَذَابٗا﴾ ووَصَفَه بالشدّة، بخلاف الإهلاك فلم يأتِ معه هذه المؤكِّدات، وربّما كان ذلك لأنّ العذاب إن كان دنيويًّا فهو متفاوتٌ في اللّين والشدّة بحسب المُعَذِّب أو نوع الذَّنْب، فأرادوا أن يؤكِّدوا للنّاصحين لهم أنّهم يعرفون أنّ ذنْبَ المعتدين كبيرٌ جدًّا ولكنّهم يعرفون أنّ عذاب اللّه شديدٌ جدًّا. وقد يكون لأنّ الإهلاك يقع مرّة واحدة ويموت مستحقّوه، بينما العذاب الأخرويّ فهو دائم وشديد، وفي هذا وعيدٌ ما بعده وعيدٌ، وتعريضٌ بهم بأنّ ما أصابهم في الدّنيا ليس بشيءٍ إزاءَ ما ينتظرهم في الآخرة؛ فإنَّ نجاتكم من الإهلاك لا تعني أنّ ما يأتي بعده أيسرُ منه!

الموقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً﴾:

تركُ العطف يقع كثيرًا في أسلوب المحاورات

الجملةُ غيرُ معطوفةٍ على ما تقدَّمها، وهذا التَّركُ للعطف يقع كثيرًا في أثناء أسلوب المحاورات[2]، وعطْفُها على الكلام السابق

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/376.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/152.

سيوهِمُ أنّه من بقيّة كلام الفئة المثبِّطة، والأمرُ ليس كذلك، والمعنى: إنَّما نَعِظُهم لنُعْذَرَ عند الله تعالى، بقيامِنا بواجب الوعظ والإرشاد.

بلاغةُ المتشابِه اللّفظيّ في وصف العذاب:

التَّغايرُ في ذكر أوصاف العذاب لـتـتـلاءم مع السـيـاق الـذي جاءت فيه

وردت مادّة (عذب) ومشتقّاتها في القرآن الكريم ما يزيد على (370) مرّة، وجاء هذا العذاب موصوفًا بصفات كثيرة بعضها أكثر ورودًا من بعض، ومن هذه الصفات: العذاب العظيم، الأليم، الشَّديد، المهين، القريب، المقيم، النُّكر، وغيرُها، ومن حيث المبدأ يمكن أن نَّقول: إنَّ كلَّ صفة من هذه الصفات تُغايِرُ أختَها، فلا ترادُفَ بينها ألبتّة، ولا تَسدُّ صفةٌ منها مَسَدَّ أختِها، وليس التغايرُ في ذكرها تلوينًا في الخطاب، ولا افتنانًا في الكلام، إنّما تأتي كلُّ صفة منها متلائمةً مع السياق الذي جاءت:

فمثلًا جاء وصف العذاب بأنّه (مُهين) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾ [الأحزاب: 57] في سياق الحديث عمّن اجترؤوا فيه على الله ورسوله، فَظنُّوا أنّهم من العظمة والكِبْر بحيث يَقدرون على فَعلَتِهم هذه، فجاء العذابُ من جنس العمل، ووُصِفَ بأنّه عذابٌ مُهينٌ؛ لينزعَ عنهم كلَّ ذرّة من كِبْر وخُيَلاء.

وجاء وصفُ العذابِ بالعِظَم في مواضع استوجَبتْ ذلك من مِثْل قوله تعالى في شأن قصّة الإفك حول أمّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النور: 14 - 16].

فالبُهتانُ العظيم شأنُه عند الله عظيمٌ، لذا استوجَبَ هذا العذابَ.

وجاء وَصْفُه بالشدّة في سياقاتٍ استوجبتْ هذا الوصفَ من مِثْلِ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِمَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشورى: 16].

فمِثْلُ هذه المحاجَّةِ بعد أن استُجيبَ له تستوجبُ عذابًا يوسَمُ بالشدّة، وفي آية الأعراف هنا استوجب العذاب وصفه بالشدّة؛ لأنّهم جمعوا بين الاعتداء في يوم السبت على حرمات اللّه، حيث أمرهم أن يعظّموا يوم السبت ولا يصيدوا فيه سمكًا، وبين الاحتيال على حبس السَّمك في يوم السبت في حفائرَ، ويصطادونها بعده، وضَمُّوا إلى ذلك عدمَ الاستجابة للوعظ.

وكذلك الحال في وصْفِه بـ(أليم) من مثْلِ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل: 116 - 117]، فإنّك مهما تأملت وصفًا للعذاب يفوق كونه أليمًا لهذه المواضع فلن تجد.

وكذلك الحال في وصفه بالقرب كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النبأ: 38 - 40] فالتّذكير بمشاهدِ الآخرةِ في سياق إبراز النّدم على ما فات من الأعمال في يوم لا ينفع فيه مثل هذا النّدم - يناسبه وَصْفُ العذاب بالقُرْب؛ لتنزجرَ النّفوس ولا تغترَّ بالمتاع سريعِ الانقضاء.

تتكامل القراءتان المتواترتان في إبراز حرص الفئة الواعظة على نصح الفئة المعتديّة

التّوجيه البلاغيّ والنّحويّ للقراءات المتواترة في ﴿مَعۡذِرَةً﴾:

في قوله: ﴿مَعۡذِرَةً﴾، قراءتان: القراءة الأولى: قرأ حفصٌ وحده بالنَّصب ﴿مَعۡذِرَةً﴾. القراءة الثّانية: قرأ الباقون بالرفع (مَعذِرَةٌ)[1]،

(1) ابن مجاهد، السَّبعة في القراءات، ص: 296، وابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 166، وابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 1/272.

والتّوجيه النَّحْويّ للوجه الأوّل بالنَّصب على المصدر، إذ يفيد معنى التّوكيد كأنّهم يقولون: نعظهم اعتذارًا، ويجوز كونها مفعولًا لأجله، أي نعظهم لأجل الإعذار وإقامة الحجّة.

وتوجيه قراءة الرّفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف دلَّ عليه الكلام مثل قولهم: موعظتُنا معذرةٌ لهم[1].

بلاغة التّعبير بـ﴿مَعْذِرَةً﴾:

بذلَ الوعّاظ جُهْدَهم واستفرغوا وُسْعَهم في نُصح قومهم

ورد في أصل مادّة (عذر) قولهم: اعتذر الرجل وتَعَذّر نَشَأ له ما يعوقه عن عمل ما واقعًا ثم إخبارًا، وكذلك يقال: أعذر: ثَبَتَ له عذر، وأحْدَثَ عُذْرًا، وأَبْدَى عذرًا، وكَثُرت ذنوبه وعيوبه[2]، والمعذرة مصدر ميمي للفعل (اعتذر) على(مَفْعَلة)، وأُقيم مقام الاعتذار، والمصدر الميمي في دلالته على الحدث أقوى من دلالة المصدر العام، فالتعبيرُ بالمصدرِ الميمي يصوِّرُ المعنى المصدري واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجود، أما المصدرُ الصريحُ فيصوِّرُ الحدثَ مجردًا عن الواقع، والتّعبير بالمصدر المؤوَّل يدلُّ على شدّة رغبتهم في استفراغ الوُسْعِ في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

نُكتةُ التّعبير بالربوبيّة وإضافته إليهم:

الإضافة إلى لفظ الربوبيّة فيها تشريف للمضافين وقد يكون فيها نوعٌ من التّعريض

في ذكر كلمة الربّ تسريةٌ وتسليةٌ على لسان المصلحين؛ إذ من شأن الربِّ أن يرعى عباده وأن يُصلِحَهم، وأنّه يستحقُّ منكم أن تقوموا بما يُصلِحُ حالَ قومِكم، وفي إضافة الربِّ إلى ضمير المخاطَبين تشريفٌ لهم، وتعريضٌ بهذه الفئة المثبِّطة على عدمِ قيامهم بواجب الوعظ مثلهم، ونكوصِهم عن قيامهم بركن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر[3].

(1) قمحاويّ، طلائع البشر في توجيه القراءات العشر، ص: 79.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عذر).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 45/3.

غرضُ تعدية المعذرة بـ(إلى):

تتعدّى المعذرة بـ(إلى) في العادة ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: 94]، لكنَّ الآلوسيَّ يرى أنّ المعذرة تعدّت هنا بـ(إلى) لتضمُّنِ المعذرة معنى الإنهاء والإبلاغ(1)، والتّضمين أقوى من القول بتناوب الحروف في أنّه يجمع قوّة الفعلَيْن أو الاسميْن المُضمَّنيْن، فالمُراد: فعلنا ما فعلنا معذرةً تبلغُ بنا إلى ربّكم.

بلاغة التّضمين تكمن في الجمع بين قوّة المُضمَّن والمضمَّن فيه

بلاغةُ الإيجاز في التّعبير عن انقسام أهل القرية إلى ثلاثِ فِرَقٍ:

أوجزتِ الآيةُ أحوالَ أهلِ تلك القرية وأنّهم انقسموا إلى ثلاث فرقٍ: فرقة العادين الّذين اعتَدَوْا في السّبت، المتجاوزين حدودَ اللّه عن تعمُّد وإصرار، وفرقة الواعظين الّذين أمروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر، الناصحين لهم بالانتهاء عن تعدِّيهم وفسوقِهم، وفرقة المثبِّطين اللائمين للناصحين ليَأْسِهم من صلاح العادين في السبت، الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾ وبيّنت بألفاظها القليلة حال تلك الفرق الثلاث، وهذا ضربٌ من الإيجاز عظيم.

صوّرت ألفاظُ الآيةِ القليلةُ بضربٍ من الإيجاز انقسامَ أهل القرية إلى فِرَقٍ ثلاث

نُكتةُ العطفِ ودلالاتُه في ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾:

ذكر الواعظون العلّة الثانية التي جعلتهم يُنكِرون على الفئة المعتديّة، فكانت العلّة الأولى تقوم على الإعذار إلى اللّه من خلال تطبيق فَرْضِيّته في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والعلّة الثانية تتعلّق بالمدعوِّين من قومهم خوفًا عليهم ورفقًا بحالهم؛ رجاءَ أن يكونوا من المتّقين، وبذلك يكونون قد جمعوا بين ثمرة العملَيْن: الدنيويِّ والأخرويِّ، وجمعوا بين الركنَيْن الماديّ والمعنويّ في الدعوة، من منع قومهم من الاستمرار في المعصية، ومن إرضاء اللّه تعالى،

الجمع بين النّفع الدنيويّ والأُخرويّ، وبين رضا الخالق ونَفْعِ المخلوق

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 392/15، والآلوسيّ، روح المعاني: 86/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 151/9.

وجمعوا كذلك بين رضا الخالق والحرص على المخلوق، فكان هذا العطف بين العلّتَيْن محقّقًا لهذا كلّه.

فائدةُ العُدولِ في قراءة ﴿مَعۡذِرَةً﴾ بالنّصب:

على قراءة النّصب لـ ﴿مَعۡذِرَةً﴾ يقع هنالك عدولٌ حيث تكون الجملة: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ فعليّة قد عُطف عليها جملةٌ اسميّة، وهي قولهم: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، وفائدة العدول حينئذٍ من الفعليّة إلى الاسميّة الإشارة إلى رغبتهم الدائمة باتّقاء قومهم والحرص عليهم، ويكون خبر هذه الجملة الاسميّة ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ للإشعار بضرورة اتّقائهم في كلّ حين.

العـدولُ عن الظّاهر ضربٌ بلاغيّ له مسوّغاتُه البيانيّةُ والنّفسيّةُ

وهناك نوعٌ آخر من العُدول في نظم الجملتيْن السابقتيْن، ففي الجملة الأولى كان الكلام موجّهًا لضمير المخاطَب، وهم الفئة المثبِّطة، وفي الجملة الثّانية إلى ضمير الغَيْبة العائد على المعتدين، وفائدةُ هذا العدول في الضمائر التّعريضُ بالمخاطَبين في قول الواعظين لهم: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾، أي: ينبغي أن تفعلوا فِعلَنا وأن تحذوا حَذْوَنا، وفي العلّة الثانية المعطوفة عاد ضمير الغَيْبة إلى المعتدين؛ لأنّهم ليسوا حاضرين في هذا المشهد الحواريّ، فكان الأليقُ بهذا المقام وقوع هذه الضمائر على ما وقعت عليه.

نُكْتَة مجيء حرفِ الرّجاء (لعلّ):

مجيء حرف الرّجاء (لعل) في الجملة الكريمة يدلُّ على رغبة الواعظين بهداية قومهم وتمنّيهم له، وأنّهم لم يقطعوا الرّجاء بعدُ في هدايتهم وانصرافهم عن عدوانهم، فحرف(لعل) يدلُّ على الرّجاء في أصله. وقد يُستعمل في التمنّي كما هو مقرّرٌ في علم المعاني؛ لإبراز المُتمنَّى بصورة الأمر صعب الوقوع أو محاله، كقول فرعون: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 36 - 37] وحملها هنا على

المصلحون يرجون دائمًا هداية أقوامهم

الرجاء أولى لأنّها مُشعرة بأنَّهم يرون أنَّ الرَّجاء لم ينقطع بعدُ، بل ما زال بعض رجاء باستجابة بعضهم، وأنّ العُصاة لم يَصِلوا من وجهة نظرهم إلى مرحلة اليأس الكامل.

بلاغة التّعبير بـ﴿يَتَّقُونَ﴾:

المعنى المحوري الذي تقوم عليه مادّة (وقي) يقوم على حفظٍ من الأذى أو الضرر باتخاذ حاجز دونه[1]، والتّعبير بالمضارع هنا يدلُّ على ضرورة استمرار عمليّة الاتّقاء عند كلِّ طارىء ومُنْعَطَفٍ يمرّون به في حياتهم.

محور الكلمة يدلُّ على الحفظ، ومضارعها دلَّ على التجدّد الاستمراريّ

نكتة حذف مفعول التّقوى:

يمكن أن يكون تقدير الكلام هنا: لعلّهم يتّقون محارمَ اللّه من الاعتداء في السبت أو غيره، ويمكن أن يكون التّقدير: يتّقون غضبَ اللّه من خلال اجتناب موجباته، أو يتّقون عذابَه أو هلاكَه، فحذفُ المفعول للتّعميم هنا هو الأولى؛ ليشمل هذا كلّه، إذ لا تعارض بينه كلّه.

حذف المفعول هنا للتّعميم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العظة والنّصيحة والوصيّة:

تقدَّم في شرح المفردات أنَّ العظة: هي الزّجر المقترن بالتّخويف، أو التّذكير بالخير فيما يرقّ القلوب، والنّصح هو تحرّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاحُ صاحبه، وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الودَّ أي أخلَصْتُه، وناصِحُ العسل خالصُه، والنّاصحُ الخيّاط، فأصل النّصيحة من الإخلاص أو الإحكام[2]، وقد ذكر القرآن الكريم على لسان نوح ﷺ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾ [هود: 34] فالموعظةُ نصيحةٌ،

النّصيحة تعمُّ العِظَةَ والوصيّة؛ فالعِظَةُ زجر المقترن بوعد أو وعيد، والوصيّة نصيحة مؤكّدة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي).
(2) الرّاغب، المفردات: (نصح).

ولكنّها تحوي ترغيبًا أو ترهيبًا، فكلُّ موعظة نصيحة، وليست كلّ نصيحةٍ موعظةً، فالنّصيحة أعمّ والموعظة أخصّ.

وأمّا الوصيّة فهي التقدُّم إلى الغير بما يعمَلُ به مقترنًا بوعظٍ(1)، ويظهر من الاستعمال القرآنيّ لـ(وصّى) و(أوصى) أنّها تأتي بمعنى النّصيحة المؤكّدة قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132] وقال: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: 13].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (وصى).

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾ [الأعراف: 165 - 166]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

نتيجةُ الحوار الجدليِّ بين الفِرقتين

بعد أن عرضتِ الآياتُ السابقةُ انقسامَ أهل هذه القرية إلى فرقٍ ثلاث، وتناولتِ الحوارَ الجدليَّ بين فرقتَيْن منهم حول معصيتهم، جاءت هاتان الآيتان الكريمتان لِتُجمِلا ما حَلَّ بأهل هذه القرية جميعًا، وبيان مصير كلّ فِرقة منهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسُواْ﴾: ذكر ابن فارس أنّ النّون والسِّين والياء أصلان صحيحان يدلُّ أحدُهما على إغفال الشيء، والثاني على ترك الشيء[1]، ولعلّ الأصلَيْن يعودان إلى أصلٍ واحدٍ؛ فإنَّ تركَ الشيء ثمرةُ إغفاله. "والنِّسيانُ: تركُ الإنسان ضبطَ ما استُودِعَ إمّا لضعفِ قلبِه، وإمّا عن غفلةٍ، وإمّا عن قصدٍ، حتّى يَنْحَذِفَ عن القلب ذِكْرُه"[2]. والنِّسيانُ: جَهْلُ الإنْسانِ بما كانَ يَعْلَمُهُ ضَرورَةً مع عِلْمِه بِأُمورٍ كَثيرَةٍ، لا بِآفَةٍ. أو هو عدمُ ذِكر ما قد كان مذكورًا؛ وهو ضِدُّ الذِّكْرِ. ومِن مَعانيه: الغَفْلَةُ والسَّهْوُ والتَّرْكُ[3].

2) ﴿بَـِٔيسِۭ﴾: أي: شَديدٍ، فمادة (بأس) تدلُّ على الشدَّة[4]، والبُؤْسُ والبَأْسُ والبَأْساءُ: الشدَّةُ والمَكروهُ، إلّا أنَّ البُؤْسَ في الفقرِ والحَربِ أكثَرُ، والبأسُ والبأساءُ في النِّكايةِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).
(2) الرّاغب، المفردات: (نسي).
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (نسي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس).
(5) الرّاغب، المفردات: (بأس).

3) ﴿عَتَوۡاْ﴾: العين والتاء والواو أصلها يدلُّ على الاستكبار[1]، والعُتُوُّ: النُّبُوُّ عن الطاعة[2]، والعُتوُّ: التَّجَبُّرُ والتَّكَبُّرُ، وأَصْلُ العُتوِّ: مُجاوَزَةُ الحَدِّ، وكُلُّ مَن جاوَزَ الحَدَّ في كِبْرٍ أو فَسادٍ أو كُفْرٍ فهو عاتٍ، والجَمْعُ: عُتاةٌ. ويأْتي العُتُوُّ بِمعنى العِصْيانِ. ويُطْلَق على التَّمَرُّدِ وشِدَّةِ الإفْسادِ. والعاتي: الشَّديدُ الفَسادِ المُتَمَرِّدُ الذي لا يَقْبَلُ الحَقَّ. ومِن مَعانيه أيضًا: البَغْيُ، والطُّغْيانُ، والعِنادُ[3].

4) ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: أصل (خسأ) يدلُّ على الإبعاد[4]، والخُسوءُ: الزَّجْرُ باستهانةٍ، يقال: خَسَأْتُ الكَلبَ فَخَسَأَ، أي: زَجَرتُه مستهينًا به فانزجَرَ[5]. ومعنى الآية: صاغِرينَ ذليلينَ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

عــاقـبــةُ كـلٍّ مــن الـفِـرقـة النَّاهية والفِرقة العاصية

بيّنتِ الآيتان الكريمتان أنَّه بعد أن استمرَّ أهلُ العصيان في عصيانهم، وتناسَوا ما ذُكّروا به من الواعظين لهم، أنجى اللّه الذين ينهون عن المنكر من العذاب، وأخذ الذين ظلموا باعتدائهم بعذابٍ شديدٍ بسبب خروجهم عن طاعة اللّه وإصرارهم على المعصية.

فلمّا تمرَّدتِ الطائفةُ العاصيةُ، وتجاوزت ما نهاها اللّه عنه وتجاوزوا الحدَّ في عصيان اللّه، ولم يتَّعظوا ولم يعودوا عن غيِّهم، قلنا لهم: كونوا قِردَة أذلّاء مُبْعَدينَ من كل خيرٍ، فكانوا كذلك؛ فتمَّ مُرادُ اللّه.

وترشد الآية إلى ثمرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبركتِه؛ فقد نجَّى اللّهُ تعالى الناهينَ عن المنكر، وأهلكَ الذين باشروه ولم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عتو).
(2) الرّاغب، المفردات: (عتا).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عتو)، والكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 598.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (خسأ).

ينتهوا عنه، وأنَّ إطلاقَ لفظِ السوء على المعصية مُؤْذِنٌ بأنَّ المعصيةَ مهما كانت صغيرةً تُحدِث السوءَ في نفس فاعلها.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في العطف:

تعجيلُ اللهِ عقوبةَ المعتدين، وإنجاءُ المؤمنين

(الفاء) هنا عَطَفَتْ ما بعدَها على ما تقدَّمها، وتعطي الفاءُ معانيَ التّعقيبِ السريعِ، فبمجرَّد أن تناسَوْا تذكيرَ الواعظين واستمرُّوا بمعصيتِهم حتّى استمرؤوها؛ وقعتِ العقوبةُ على المعتدين، والنّجاةُ للمؤمنين. ولا يخفى أيضًا أنَّ الفاء فيها معنى الإفصاح وتطوي وراءها أحداثًا كثيرة من محاولات الواعظين واستكبار المعتدين، وحوارات المتثاقلين مع الواعظين.

معنى (لمّا) ودلالتُها في الاستعمال اللّغويّ والقرآنيّ:

ارتبطت العقوبة في الآية الكريمة بالأسباب التي دعت إليها

(لمّا)، تدخل على الفعل الماضي، فتَقتضي جملتَيْن وُجِدت ثانيتُهما عند وجودِ أولاهما، فهي حرف وجوب لوجوب، أو وجود لوجود، أي: وجوبُ وجودِ الجملة الثانية لوجودِ الأولى. ورأى بعض النّحاة أنّها ظرفٌ بمعنى (حين)[1] تضمَّن معنى الشَّرط، ويكون قوله: ﴿نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ جملةً لا محلَّ لها من الإعراب، أو في محلِّ جرّ بإضافة (لمّا) إليها، والعاملُ فيها جوابها، وهو قوله: ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، وهي جملةٌ لا محلَّ لها مِن الإعراب؛ لأنَّها جوابُ شرط غير جازم[2]، وبهذا فقد تحقَّق الفعلان في الزمن الماضي، وكان وقوع الفعل الثاني مترتِّبًا على وقوع النّسيان.

بلاغة استعمال أسلوب الشرط في الآية:

سنّةُ اللهِ في إهلاكِ الظالمين وحفظِ المؤمنين لا تتخلَّفُ ألبتّةَ

أسلوب الشّرط قويٌّ في إثبات مفعولِه، إذ يربط جوابَه بتحقُّقِ فعلِه، فتكون النتيجة مرتبطةً تمامًا بالسبب، وفي هذه الآية جاء

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 309.

(2) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/67 - 68.

هذا الأسلوبُ الشرطيُّ ليبيِّنَ سنَّةً من سُنن الله التي لا تقبلُ التغييرَ والتّبديلَ في استئصالِ الظالمين المداومين على ظُلمِهم عند انقطاع الأمل في رجوعهم للحقّ، شأنُها في ذلك شأنُ كثيرٍ من سنن الله الكونية والاجتماعيّة التي وردت في القرآن الكريم على هذا الأسلوب الشرطيّ، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: 11] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [محمد: 7]، ثمّ جاء جواب الشرط ليشملَ أمرين معطوفيْن: الإنجاءُ أولًا للمؤمنين، والأخذُ للمعتدين، فحوى الجواب وعدًا ووعيدًا.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾:

شبّهتِ الآيةُ الكريمة تركَ ما أُمروا به بنسيانهم له بجامع غير المبالاة وعدم الاهتمام

في الآية استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، حيث شبّه التَّرك بالنِّسيان بجامع عدم المبالاة وحَذف المشبَّه وأبقى المشبّهَ به، والقرينةُ المانعة من إرادة المعنى الحقيقيِّ أنَّ الإعذارَ من النِّسيان معقولٌ ومقبول، ولكنَّ المؤاخذةَ عليه تبيّن أنّه لم يكن مجرَّد نسيان، فسُمِّي نسيانًا مُبالغةً؛ إذ أقوى منازل التَّرك أن يُنسى المتروكُ[1]. ويجوز أن يكون مجازًا مُرسَلًا لعلاقة السَّببيَّة[2].

عَوْدُ الضَّمير في ﴿نَسُواْ﴾:

الضَّمير في ﴿نَسُواْ﴾ عائدٌ إلى ﴿قَوۡمًا﴾ أي: المعتدين الذين تركوا ما ذكَّرهم به الصّالحون[3]، وهذا إيجازٌ بديع في إضمار ما تمَّ إظهارُه.

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول ﴿مَا﴾:

دلَّ نظمُ الآية الكريمة على أنّ عدم الانتفاع بالتّذكير مُؤْذِنٌ بوقوع العذاب

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾: موصولةٌ، قال ابن عطيَّة: "ويَحتملُ أن يُرادَ به الذِّكْرُ نفسُه، ويَحتمِلُ أن يرادَ به

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 469/2.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 135/9.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 208/5.

ما كان فيه الذِّكر[1]"، إضافة إلى أنّ (ما) تدلّ على العموم، بمعنى أنّهم تناسَوا كلَّ شيء يمكن أن يفيدَهم إذا تذكّروه، فيفيد نسيانَهم للمنزل عليهم، ونسيانَهم لتذكير قومهم لهم.

نُكتةُ مجيء جملةِ صلة الموصول بالفعليّة المبنيّةِ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

نظمُ الجملةِ الكريمة يدعو المعتدين للانشغال بمضامين الدعوة دون وسائلها

جاءت جملةُ صلة الموصول ﴿ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ مبنيَّةً لما لم يُسَمَّ فاعله إيجازًا من ناحية وذلك للعلم بالفاعل، ودفعًا لهم للانشغال بمضمون فعل التّذكير نفسه دون النّظر إلى فاعله من ناحية أخرى.

معنى الباء في ﴿بِهِۦٓ﴾:

الباء للسببيّة أو للتعدية أو للمصاحَبة

يمكن أن تكون الباء هنا سببيّةً بمعنى: فلمّا نسوا ما ذُكّروا به من عدم التّعدّي بسبب موعظة الواعظين، أو تكون الباء للتعدية على معنى: فلمّا نسوا التّذكرةَ لهم، أو يمكن أن تدلَّ الباء على معنى المصاحبة والملابسة، بمعنى أنَّ الدُّعاة النّاصحين ما انفكّوا عنهم بالنّصيحة والموعظة التي لابَسَتْهم في كلّ أوقاتهم، وكلُّ هذه المعاني سائغةٌ رائقةٌ ولها وَجاهَتُها المعقولة.

الموقع النَّحْويّ والبيانيّ لقوله: ﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ﴾:

دلَّت جملة جواب الشرط على تحقّق الوعد والوعيد

الجملة هنا وقعت جوابًا للشرط غير الجازم، ولا محلَّ لها من الإعراب، وجاءت بالفعل الماضي لما تقدَّم من أنَّ (لمّا) إذا دخلت على الفعل الماضي كان جوابها ماضيًا أيضًا، وجاء جواب(لمّا) هنا دون اقترانه بالفاء التي تربط جواب الشَّرط بمحذوفٍ، وذلك حتّى تبيِّن أنّه بمجرد حدوث فعل الشَّرط تحقَّق جوابه على الجميع دون حاجة إلى تقدير محذوفات.

نكتة مجيء الاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ﴾:

دلَّ الاسم الموصول هنا على التّعظيم لهذه الفئة التي أَمرت

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 469/2.

عظَّم القرآن شأن الفئة الآمرة بالمعروف والنّاهيةِ عن المنكر

بالمعروف ونَهت عن المنكر، وقامت بحقِّ اللّهِ في الوعظ والنّصح للفئة المعتدية، ومن شأن الاسم الموصول أن يأتي فيه التّعريف على دُفعتيْن؛ لأنَّ الاسم الموصول مبهَمٌ ويحتاج إلى جملة صلة الموصول لإزالة إبهامه، وجملة صلة الموصول جاءت بالفعل المضارع الدّالِّ على استحضار صورة هذه الفئة الإيجابيّة أمام القارىء وهي تمارس مهمة الوعظ من ناحية، ودالّة أيضًا على ضرورة التجدّد الاستمراريّ لهذا الركن العظيم حتّى لا يعمَّ العذابُ جميعَ الأمّة.

بلاغةُ الحذفِ أو الذكرِ لجزاء الفريق الثالث القائل: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا﴾:

انقسم أهل القرية ثلاث فِرَقٍ معتدية، واعظة، ومثبّطة، فصرَّح القرآنُ بجزاء أوّل فرقتيْن، ولم يُصرِّح بمصيرِ الثالثة لتذهبَ النّفس فيه كلَّ مَذْهبٍ

يُفهم من صريحِ العبارات ومفهومِ الإشارات من هذه الآيات التي تناولتْ قِصّةَ القريةِ حاضرة البحر، أنَّ أهلها انقسموا ثلاثَ فِرَقٍ: فرقة عَصَتْ وصادَتْ، وفرقة نَهتْ وجاهَرتْ وتكلَّمت واعتزَلَتْ، وفرقة اعتزلَتْ ولم تعصِ ولم تَنْهَ، وأنّ هذه الفرقةَ لمّا رأت مجاهرة النّاهيةِ وطغيانَ العاصيةِ وعُتوَّها قالت للنّاهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا﴾! ثمّ اختُلفَ بعد ذلك في مصير هذه الفرقة الثالثة، فقيل إنّها هلكت مع العاصية عقوبةً على ترك النّهي، ويدلُّ على ذلك ظواهرُ النّصوص والأحاديث الكثيرة. وقال أكثرهم: بل نجت مع الفرقة النّاهية لأنّها لم تعصِ ولا رضيت[1]. ومالَ بعضُ المفسّرين إلى أنّ القرآن الكريم قد سكتَ عن مصير الفرقة الثالثة؛ تَبكِيتًا لهم وتقليلًا من شأنهم لأنّهم سكتوا عن الحقّ.

معنى أل في ﴿ٱلسُّوٓءِ﴾:

العبرةُ بعموم اللّفظ لا بخصوصِ السَّبب

يمكن أن يُراد بالسّوء هنا اعتداؤهم في يوم السّبت، فتكون (أل) عهديّةً، على اعتبار حديث القرآن عن أهل هذه القرية على وجه الخصوص. ويمكن أن تكون (أل) جنسيّة يُراد بها كلُّ المعاصي والذنوب؛ لأنَّ هذه المعاصي على عمومها تستوجب أمريْن: إنكارها،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 754/2.

وترتّب العقوبة عليها، ويكون المعنى هنا أنّ اللّه تعالى ينجّي الذين ينهون عن المعاصي والذنوب في كلّ زمان ومكان؛ فالعبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب.

نُكْتَةُ تقديم الإنجاء على الأخذ:

تقديمُ الوعدِ على الوعيد قد يكون من باب إكرام المؤمنين، وترهيب الكافرين

تقديم الإنجاء هنا هو للعناية بشأن فرق الواعظين النّاهين عن المنكر؛ فبدأ بهم إكرامًا لهم لفضيلة عملهم، وقد ساعد على هذا التّقديم سياق السورة الكريمة في ذكر النّعم التي أنعم اللّه بها على بني إسرائيل عبر تاريخهم الطّويل، وما تقدّمها من قوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]، ثمّ ثنّى بجزاء المعتدين؛ لأنّه أَطْنَبَ فيه ورتَّبَ عليه بعد ذلك أحكامًا كثيرة.

بلاغة العطف في ﴿وَأَخَذۡنَا﴾:

عَطْفُ ذكرِ المعتدين بعد ذكرِ نجاةِ الواعظين

هذا النّوع من العطف يَحسُنُ بين المتقابلات، وهي في الآية: ﴿أَنجَيۡنَا﴾ و﴿وَأَخَذۡنَا﴾؛ لأنّ العطف يقع بين حالَيْن متقابلَيْن: التّغاير والتّشريك، فالعطف هنا للتّشريك بين الجزاءيْن، فالأوّل للمؤمنين، والثّاني للمعتدين، وحَسُنَ العطفُ للتّغايُرِ بين حالَيْهما بين وعدٍ ووعيدٍ.

نُكْتَةُ التّعبير عن الإهلاك بالأخذ:

عبّر القرآن عن إهلاكهم بالأخذ بجامع الزوال

الأخذُ كنايةٌ عن عذابِ الاستئصالِ الذي أصابهم، فلا قرينةَ صارفةٌ من إرادة المعنى الحقيقيِّ للأخذ، وقد يكون من باب الاستعارةِ التَّصريحيّة التَّبعيّة بأن شَبَّه إهلاكَهم بأخذِهم؛ بجامعِ الزوالِ.

فائدةُ العدولِ في الأفعال من المضارعيّة إلى الماضويّة:

في العدول تلوينٌ للخطاب وتجديدٌ في أسلوب الكلام

كان الظاهرُ أن يُقال لو كان في غير القرآن: (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين يظلمون)؛ لتحصل المقابلة بين جملتَيْ صلة الموصول: ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾ و(يظلمون)، لكنّ القرآن الكريم عَدَلَ إلى الفعل

الماضي في ﴿ظَلَمُواْ﴾؛ ليبيِّنَ تَحقُّقَ الظّلمِ فيهم وتَمكُّنَه من نّواصيهم حتّى بات قديمًا متأصِّلًا فيهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

عبّر عن الفئة المعتدية بالاسم الموصول ذمًّا لها

دلَّ الاسم الموصول هنا على الذَّمّ والتّحقير لهذه الفئة التي اعتدت في السَّبت، ولم تستجب لِنُصْحِ الواعظين، ومن شأن الاسم الموصول أن يأتيَ فيه التّعريف على دفعتيْن؛ لأنّ الاسم الموصول مُبْهَمٌ ويحتاج إلى جملة صلة الموصول لإزالة إبهامه، وجملةُ صلة الموصول جاءت بالفعل الماضي الدّالّ على تَمكُّنِ هذا الظلم فيهم حتّى بات وصفًا قديمًا لهم.

غرضُ التّعبير عن معصية الاعتداء بوصفها ظلمًا:

الظُّلمُ هو الشجرةُ الخبيثةُ التي انبثقت منها كلُّ تلك الذنوب والمعاصي

يعرّف الرَّاغبُ الظّلمَ تعريفًا دقيقًا جامعًا مانعًا لم يُضِفْ عليه أحدٌ من العلماء بعده شيئًا جديدًا، بل قد أفادوا منه كثيرًا، يقول: "والظُّلمُ عند أهلِ اللغةِ وكثيرٍ من العلماء: وَضْعُ الشَّيءِ في غير مَوْضِعِهِ المُخْتَصِّ به، إمّا بِنُقْصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعُدولٍ عن وقْتِهِ أو مكانِه...، والظلمُ يُقالُ في مجاوزةِ الحقِّ الذي يَجري مَجْرى نقطةِ الدائرةِ، ويُقالُ فيما يَكْثُر وفيما يَقِلُّ من التَّجاوزِ، ولهذا يُسْتَعْمَلُ في الذَّنْبِ الكبيرِ وفي الذَّنْبِ الصغيرِ"[1].

وجاء الظلم في القرآن الكريم وصفًا لبعض الأقوام السابقة كقوم نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وأصحابِ الأَيْكةِ، وقوم فرعونَ، ولأهلِ الكتاب وغيرهم. وجاء وصفاً للشياطين كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾ [الحشر: 16 - 17]. وجاء كذلك وصفاً لأعمال

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ظلم).

الشِّرك والكفرِ والفسقِ والنِّفاقِ والمعاصي في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن الكريم.

فالظّلمُ هو الشجرةُ الخبيثةُ التي انبثقتْ منها كلُّ تلك الأغصانِ المنتنةِ؛ فالتعدّي هنا سمّاه القرآن الكريم ظُلْمًا؛ فـ "العَدْوُ: التجاوزُ ومنافاةُ الالتئام، فتارةً يُعتبَرُ بالقلب فيُقال له: العَداوَةُ والمُعاداةُ، وتارة بالمشْي فيقال له: العَدْوُ، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له: العُدْوان والعَدْو. وتارة بأجزاء المَقَرِّ فيُقال له: العُدَواءُ. والعَدُوُّ ضَرْبان: أحدُهما: بِقَصْدٍ من المُعادي نحو قوله ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ﴾ [النساء: 92]. والثَّاني: لا بِقَصْدِهِ بل تَعْرِضُ له حالَةٌ يتأذّى بها كما يَتأذّى مما يكون من العِدَى نحوُ قولِه: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 77]. والاعْتِداءُ: مُجاوَزَةُ الحقِّ، وقد تكون على سبيلِ الابْتِداءِ وعلى سبيل المجازاة"[1].

وعلى هذا فقد عبّر القرآن الكريم عن هذا التّعدّي بكونه ظُلْمًا؛ لما فيه من ظلمِ النّفس أولًا، والانحرافِ عن الجادّة ثانيًا.

معنى الباء في ﴿بِعَذَابِۭ﴾، وفائدة التّنكير:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾، للتّعدية، وهي باءُ النّقل، ويمكن أن تكون للمُصاحَبَة، وفيها دلالةٌ على مصاحبة العذاب لهم، كقول القائل لمن أساء: (أخذناه بالعقاب)، وتنكير عذاب للتّفخيم والتّهويل[2]. وعليه يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: أخذناهم من مراقِدِهم مصحوبينَ بعذاب شديد[3].

عذاب الله تعالى إذا أصاب الظالمين فإنّه لا ينفكُّ عنهم حتّى يُهْلِكَهم

معاني القراءات في ﴿بَـِٔيسِۭ﴾:

تعددتِ القراءاتُ القرآنيّة المتواترةُ لقوله: ﴿بَـِٔيسِۭ﴾ فقد

(1) الرّاغب، المفردات: (عدا).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 136/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2991/6.

تكامل القراءات القرآنيّة المتواترة في وصـف هـذا العذاب بالشدّة

قرأها نافع وأبو جعفر: بعذابٍ (بيسٍ)، بكسر الباء من غير همز وتنوين السِّين، وقرأها ابن عامر (بِئْسٍ) بكسر الباء وهمزة ساكنة بعدها وتنوين السِّين، وقرأها أبو بكر عن عاصم - في أحد وَجْهَيْهِ - (بَيْئَسٍ) بفتح الباء وهمزة مفتوحة بعد الياء الساكنة وتنوين السِّين، وقرأها الباقون ﴿بَـِٔيسِۭ﴾ بفتح الباء وهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وتنوين السِّين[1].

وجاءتْ جميعُها مع اختلاف لغاتِ العرب ولهجاتِها على أنَّها صفةٌ مُشبَّهةٌ تعني العذاب الشَّديد المهلِكَ الموجِعَ.

غرضُ وصفِ العذاب بالبئيسِ وتنكير الصفة:

قوله: ﴿بَـِٔيسِۭ﴾ مشتقٌّ من البأس، وهو الشِّدة والقوَّة، وهو على وزن (فَعيل) إمّا وصفًا مشبّهًا أو مصدرًا، جاء الوصف به للمبالغة في الشدّة[2].

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

الباء للسببيّة، وهي عند الآلوسيِّ مُتعلِّقَةٌ بـ ﴿وَأَخَذْنَا﴾ كالباء الأولى، ولا ضير فيه؛ لاختلافهما معنًى، أي: أخَذناهم بما ذُكِرَ مِنَ العذاب؛ بسبب فِسقهم المستمرِّ، ولا مانعَ مِن أنْ يكون ذلكَ سببًا للأخذ كما كان سببًا للابتداء، وكذا لا مانعَ مِن تَعْليله بما ذُكِرَ بعدَ تعليلِهِ بالظُّلْم الَّذي في حيِّز الصِّلة؛ لِأنَّ ذلك ظُلْمٌ أيضًا، ولَم يَكْتَفِ بالأوَّل لِما لا يَخْفى[3].

معنى (ما) بين المصدريّة والموصولة:

ارتبـط العـذاب بالفسق ارتباطَ السبب بالنّتيجة

(ما) في مثل هذه الحالات إمّا أن تكون مصدريّة تُؤوَّل مع ما يأتي بعدها على معنى: أخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بكونهم

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/427 - 428، وابن الجزريّ، تحبير التّيسير، ص: 380.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/136.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/136 - 137.

يفسقون، أو موصولة على معنى: بسبب الذي كانوا يفسقونه. ولا شكَّ أنّه على كونِهِ موصولةً أفاد الاسمُ الموصولُ ذمًّا ونعيًا عليهم؛ لكونه جاء التّعريف به بعدُ على مرحلتيْن: إبهامٌ ثمّ إعلامٌ.

نُكْتَةُ دخول (كان) على الجملة التَّعليليّة:

شدّةُ ملازمتهم للمعاصي استوجبت شِدّةَ العذاب

دلَّ دخول (كان) على جملة تعليل العذاب على أنَّ كلَّ معاصيهم التي استوجبتَ العذابَ أصبحت الآن خبرًا ماضيًا مضى وانقضى؛ إذ دلَّ دخولُ (كان) على انقضاء المعاصي وفواتها عند وقوع العذاب، حتّى كأنّها لم تغنَ بالأمس، وكذلك يدلّ دخولها على أنَّ العصيان هو شأنهم الذي كانوا عليه فلم يفارقهم قِيدَ أُنملة، بل كان ملازمًا لهم لا ينفكّون عنه.

بلاغة التّعبير بـ﴿يَفْسُقُونَ﴾ مادّة وصيغة:

تُصوِّرُ الألفاظُ القرآنيّةُ الأحداثَ الماضيةَ تصويرًا حيًّا أمام قارىء القرآن

المعنى المحوري الذي تدور حوله مادّة (فسق) هو: خروج الشيء عن حَدِّه أو حَيِّزه لحِدّةٍ أو فساد: كحال تلك الفَواسق في طبائعها، وما يصدر عنها، كالفأر يفسد المأكولات ويَقْرِض غيرها، وقد حملوا تسمية الخمسة المذكورة في السنّة (فَواسِق) على معنى الخُبْث المعنوي[1]، وهي: قوله ﷺ: «خَمسٌ فَواسِقُ، يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَم: الحَيَّةُ، والغُرابُ الأبْقَعُ، والفَأْرَةُ، والكَلْبُ العَقورُ، والحُدَيّا»[2].

فَمادَّةُ (فسق) تدور حول الخروج بسبب الفساد، وأمّا صيغتُها المضارعيّة في التّعبير عن حدثٍ مضى وانتهى فإنّما تدلُّ على استحضارِ صورة تَعَدّيهم حُدودَهم أمام القارىء كأنّها تقع الآن، فضلًا عن كون المضارع يفيد دائمًا معاني التجدّد الاستمراريّ، الذي يفيد هنا تجدُّدَ العذاب بتجدُّدِ موجباته.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسق).

(2) البخاري، الجامع الصّحيح، برقم: (3314)، ومسلم، الصّحيح، برقم: (1198)، واللّفظ له، وغيرهما.

نُكتةُ تَغايُرِ وصفِ معصيتِهِم بينَ العَدْوِ والظُّلمِ والفِسْقِ:

وَصَـفَ الـقـرآنُ فَـعْـلَـتَـهُـم الشَّنيعةَ عُدوانًا وظُلمًا وفِسقًا؛ لأنّها خروجٌ عن الـجـادّة وتَـعَـدٍّ عــلى حــرمــة السّبت، وظُلمًا لأنفسِهم قبل كلّ شيء

ممّا تقدَّم ذِكره في معاني العَدْو والظّلم والفسق يتبيّن لنا أنّه لا تَرادُفَ ألبتّةَ بين هذه الألفاظ، وأنّ كلَّ لفظة تأتي في موضعها الأليق بها، والذي يترتّب منه على تبديلها بغيرها إمّا ذَهابُ الرَّوْنق الذي يكون معه سقوطُ البلاغة، وإمّا فساد المعنى الذي يكون منه فسادُ الكلام[1]، فقد سمّى القرآن فَعْلَتَهم ابتداءً على أنّها كانت عُدوانًا من هذه الفرقة من أهل القرية؛ لأنّهم تجاوزوا حَدَّهم وخالفوا أوامرَ ربّهم في حُرْمةِ الصّيد في يوم السّبت، دون غيرهم من أهل القرية الذين التزموا النّهي عن الصّيد.

ثمّ سمّاها ظلمًا في معرِض الحديث عن أخذهم؛ لأنَّ القرآن الكريم بيّن في آياتٍ كثيرةٍ سنّته الثابتةَ في أخذ القرى الظّالمة واستئصال شأفَتِها، وبيَّن أنّ الظُّلمَ مُؤذِنٌ بزوال العُمْران، فالظّلم هو المعنى الأشمل الذي يضمّ عدوانهم وغيره. ثمّ جاء التّعبير عن فَعلتِهم بوصفها فسقًا في معرِض التّعليل الدقيق لسبب أخذهم بالعذاب البئيس، فقد خرجوا عن الجادّة بفِسْقِهم، فاعتدَوْا بصيدهم، فوقعوا في الظّلم بمعناه العامّ.

معنى الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾:

ترتيبُ عقوبة جديدة متفرِّعة عــلى الــذَّنْــب السابق

الفاء عاطفةٌ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها، وهي تُفيد التّرتيبَ والتّعقيبَ السريع، حيث رتّبت الفاء عقوبة جديدة لم تتأخّر على ذنبٍ آخرَ تفرّع عن الذنب السابق.

نكتة التّعبير عن الشَّرط بـ(لمّا):

(لمّا)، تدخل على الفعل الماضي، فتقتضي جملتَيْن وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما، فهي حرفُ وجوبٍ لوجوب، أو وجودٍ لوجود، أي: وُجوبُ وُجودِ الجملة الثّانية لوجود الأولى، ورأى بعض

(1) الخطّابيّ، البيان في إعجاز القرآن، ص: 26.

النّحاة أنّها ظرفٌ بمعنى (حين)[1] تضمَّن معنى الشَّرط، ويكون قولهُ: ﴿عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ جملةً لا محل لها من الإعراب، أو في محلِّ جرّ بإضافة (لمّا) إليها، والعامل فيها جوابها، وهو قوله: ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، وهي جملة لا محلّ لها مِن الإعراب؛ لأنَّها جواب شرط غير جازم[2]، وبهذا فقد تحقّق الفعلان في الزمن الماضي، وكان وقوع الفعل الثاني مترتّبٌ على وقوع العتوّ.

تحقُّقُ الفعلين في الزّمن الماضي، ووقـوعُ الفعل الـثـاني مـترتِّـبٌ على وقوع العُتوِّ

بلاغة استعمال أسلوب الشرط في الآية:

أسلوب الشّرط يربط جوابه بتحقّق فعله، فتكون النتيجة مرتبطة تمامًا بالسبب، وفي هذه الآية جاء هذا الأسلوب الشَّرطيُّ ليبيّن جزاءَ اللّه للظالمين المداومين على ظلمهم، وتكبّرهم وعدم رجوعهم للحقّ، شأنها في ذلك شأن كثيرٍ من سنن اللّه الكونية والاجتماعيّة التي وردت في القرآن الكريم على هذا الأسلوب الشرطيِّ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: 11].

سـنّـة الـلـه في إهـلاك الظالمين لا تتخلّف ألبتّةَ

غرض التَّعبير عن النِّسيان بالعُتُوِّ:

المعنى المحوريُّ للعُتوِّ هو امتدادُ الشيء مادّة، أو بقاءٌ في صلابة، أو تماسكٌ دقيق، وبقاء ذلك الشيء حتَّى عتا امتدادًا وتماسُكًا وصَلابة، كأن لم تُؤثر فيه السُّنون الطوال[3]، وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ﴾ إمّا بمنزلة التَّأكيد لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾؛ صيغ بهذا الأسلوب لتهويل النسيانِ والعتوِّ، ويكون المعنى: أنَّ النسيان، وهو الإعراض، وقع مقارنًا للعُتوِّ[4]. ويمكن أن تكون هذه عقوبةً أخرى، حيث عاقبهم أولًا بالبؤس والشقاء في المعيشة، ولكنَّ هؤلاء القوم لم يَزِدْهُم البؤسُ والسوءُ إلا عتوًّا وإصرارًا على الفسق والظّلم، فَدَمْدَمَ عليهم ربُّهم

الـــدَّوامُ على فـعـل المعصية يستوجب عقوبةً أشدّ

(1) ابن هشام الأنصاريّ، مغني اللّبيب، ص: 309.
(2) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/67 - 68.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عتو).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/153.

بذَنْبهم، ومَسَخهم مَسْخَ خَلْقٍ وبَدَنٍ، فكانوا قِردةً بالفعل، أو مَسْخَ خُلُقٍ ونَفْسٍ فكانوا كالقردة في طَيْشها وشرِّها وإفسادها لما تَصِلُ إليه أيديها(1).

معنى ﴿مَّا﴾ في ﴿مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾:

أوامــــر الـلـه ونواهيه عظيمةٌ

(ما) اسم موصول بمعنى (الذي)، والتّقدير: عن الأمر الذي نُهوا عنه، والتّعبير بالاسم الموصول هنا يفيد تعظيمه ورفع شأنه.

نُكْتَةُ مجيء جملة صلة الموصول بالفعليّة لما لم يُسمّ فاعله:

الحذف للإيجاز ولـلانـشـغـال بـالـفـعـل عن الفاعل

جملة ﴿نُهُواْ﴾ صلةُ الموصولِ لا محلَّ لها من الإعراب، وقد جاءت مبنيَّةً لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنّ الفاعل معلومٌ مقرّرٌ في عقول المخاطَبين، فحَذْفُه جاء إيجازًا من ناحية، ودعوةً لهم للانشغال بمضمون النّهي دون الانشغال بالنّاهي.

نُكتةُ العُدولِ عن ذكرِ ذَنْبِهم على وجه التّعيين:

حرمة الخروج عن طاعة الله مـهـمـا كـانـت صوره وأشكاله

لم يَقُل النّصُّ الحكيم: (فلمّا عتوا عن اعتدائهم)، أو: (حرمة اصطيادهم في يوم السّبت)، وإنّما قال: ﴿عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾؛ ليبيّن أنّه لا يَهُمُّ نوعُ المعصية وشكلُها بقَدْرِ كونها خروجًا عن طاعة اللّه فيما نهى عنه، فمناطُ الأمر أنّهم ما التزموا بما نهوا عنه بغضّ النّظر عن طبيعته وماهيّته.

بلاغة الإطناب في وَصْف ما وقعوا به:

من صوَر البلاغة إعـادة ذكـر أمرٍ تـقـدَّمَ بـصـورةٍ جـديـدةٍ لزيادة رسـوخ مدلوله فـــي نـفـوس السّامعين

أعادت هذه الآية وَصْفَ اعتدائهم بصورة أخرى عند من يرى أنّه نفس الذّنب الأوّل، وعلى هذا الرّأي تكون الإعادة من باب الإطناب في الوصف؛ يقول ابن عاشور حول هذه الصورة الفنّيّة: "تَكْريرٌ لِنَظيرِهِ الَّذي تَقَدَّمَ آنِفًا لِزيادَةِ رُسوخِ مَدْلولِه في نُفوسِ السّامِعينَ اهْتِمامًا بِما تَضَمَّنَهُ لِكَوْنِهِ مَعْنًى لَمْ يَسْبِقْ سَماعُهُ لِلْمُخاطَبينَ فَلَمْ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/370.

يَقْتَنِعَ فيه بِمَرَّةٍ واحِدَةٍ، وَمِثْلُ هَذا التَّكْريرِ وارِدٌ في كَلامِ العَرَبِ، قالَ لَبيدٌ:

فَتَنازَعا سَبِطًا يَطيرُ ظِلالُهُ *** كَدُخانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرامُها

مَشْمولَةٍ غُلِثَتْ بِنابِتِ عَرْفَجٍ *** كَدُخانِ نارٍ ساطِعٍ أَسْنامُها[1]

فَإِنَّهُ لَمّا شَبَّهَ الغُبارَ المُتطايِرَ بِالنّارِ المَشْبوبَةِ واسْتَطْرَدَ بِوَصْفِ النّارِ بِأَنَّها هَبَّتْ عَلَيْها ريحُ الشَّمالِ وَزادَتْها دُخانًا وَأَوْقَدَتْ بِالعَرْفَجِ الرَّطيبِ لِكَثْرَةِ دُخانِهِ، أَعادَ التَّشْبيهَ ثانيًا لِأَنَّهُ غريب مبتكر"[2]، والحقيقة أنّهم اقترفوا ذنبيْن: فعل المعصية، ونسيان ما ذُكّروا به وتجاهله.

الموقع النحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ﴾:

الجملة هنا وقعت جوابًا للشرط غير الجازم، ولا محلَّ لها من الإعراب، وجاءت بالفعل الماضي لما تقدّم من أنّ (لمّا) إذا دخلت على الفعل الماضي كان جوابها ماضيًا أيضًا، وجاء جواب(لمّا) هنا دون اقترانه بالفاء التي تربط جواب الشّرط بمحذوف، وذلك حتّى تبيّن أنّه بمجرَّدِ حدوثِ فعل الشّرط تحقّق جوابُه على الجميع دون حاجة إلى تقدير محذوفات.

دلّ جـواب (لمّا) عـلى تـعجيل وقوع عذاب الله وتحقّقه فيهم

معنى اللّام في ﴿لَهُمْ﴾:

اللّام هنا لام التّخصيص؛ فالعقوبةُ وقعت عليهم دون غيرهم، والقول وُجّه لهم دون غيرهم.

نكتة تقديم شبه الجملة: ﴿لَهُمْ﴾:

تقديم شبه الجملة هنا أفاد معنى التّخصيص أيضًا؛ لأنَّ العقوبة وقعت عليهم دون غيرهم، ويمكن أن يكون التّقديم أيضًا من باب تعجيل ذكر المضرّة.

استحقّتِ الفِرقةُ المعتديةُ عقوبةً لم تكن لغيرها

---

(1) لبيد بن ربيعة العامريّ، ديوان لبيد، الأبيات: 7 - 8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 748/1.

تخرج صيغ الأمر عن الوجوب إلى أغراض مجازيّة أخرى، وهنا دلّت على التّكوين وسرعة التحقّق

دلالة الأمر بـ﴿كُونُواْ﴾:

الأمر هنا ليس على ظاهره لأنّه لا يُعقل أن يكون أمرُ المسخِ مَنوطًا بإرادتهم وضمن مقدورهم، وإنّما يُحمل على دلالات مجازيّة، فقيل: إنّه للتّسخير[1]، على معنى التّكوين، لذا قال ابن عاشور: "كونوا: أمر تكوين، وتكوينهم قردة يَحتمِلُ أن يكون بتصيير أجسامهم أجسامَ قردةٍ مع بقاء الإدراك الإنساني - وهذا قول جمهور العلماء والمفسرين - ويَحتمِل أن يكون بتصيير عقولهم كعقول القردة مع بقاء الهيكل الإنساني، وهذا قول مجاهد. والعِبرة حاصلة على كلا الاعتبارين، والأوّل أظهر في العِبرة؛ لأنَّ فيه اعتبارهم بأنفسهم واعتبار النّاس بهم، بخلاف الثّاني. والثّاني أقرب للتّاريخ"[2]، ويمكن أن يكون هذا الأمر دالًّا على سرعة تحقّق عقوبة اللّه فيهم، فكأنّه أمرٌ قد وُجّه إليهم فبادروا جميعًا إلى تحقيقه دُفعة واحدة.

نكتة تنكير ﴿قِرَدَةً﴾:

أفاد تنكير قردة هنا معنى التّحقير لهم، فسواء أكان هذا المسخ حقيقيًّا أو معنويًّا، ففيه من التّحقير لهم والتّقليل من شأنهم؛ لفظاعة ما ارتكبوا وتكرار عصيانهم.

غرض الوصف بـ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾:

استحقّوا الوصف بالذلّ والإبعاد لتمرُّدِهم على شريعة الله وإبعادِهم المصلحين عن تحقيق دورٍ فاعلٍ فيهم

المعنى المحوريّ لـ(خسأ) هو إبعادُ ما هو دقيق القدر عن الحَوْزة أو الأثناء، كما في طَرد الكلب والخنزير من الحَوزة، وكمنعه من الدنوّ منها كذلك. ومن الصُّور الماديّة لهذا المعنى أيضًا: تخاسأ القومُ بالحجارة: تراموَا بها، فهذا التَّرامي دفع بقوّة للحجارة، يُراد به إبعادُ المرمى لكن بإصابته.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي مُبْعَدين، ويكون

(1) القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 544/1.

الخاسئُ بمعنى الصاغرِ القميء، والمعنى الثاني: لازمٌ للأول فالمعنيان تتأتّى إرادتهما معًا[1]. فيلاحظ من المعنى المحوريّ لهذه الكلمة أنّ وَصْفَهم بهذا الوصف المنطوي على معنى الإبعاد متّسقٌ مع جريمتهم في إبعاد شريعة الله عنهم، وإبعادِ الواعظين عن تحقيق دورٍ تأثيريٍّ في حياتهم.

بلاغة المتشابه اللّفظيّ في قصّة أصحاب السّبت:

وردت الإشارة إلى هذه القِصّة من قِصَصِ بني إسرائيل في عدّة سورٍ من القرآن الكريم، ومن عادات القرآن الكريم الإجمالُ ثمّ البيان، لذا أَجْمَلت سورةُ البقرة ما جرى مع أهل هذه القرية إجمالًا تناسَبَ مع السياق الذي جاءت فيه؛ فقد استعرضت سورةُ البقرة جانبًا طويلًا من تاريخ بني إسرائيل مع أنبيائهم، وما جرى معهم من أحداثٍ وتحدّياتٍ في مرحلة التّيه، وذلك في سياق بيان طبيعة هذه الشخصيّة المتمرِّدة التي وَضعتِ المعوّقاتِ الكثيرةَ في طريق أنبيائهم من أجل صدِّهم عن تحقيق الخلافة التي أوكلت إليهم في الأرض المقدّسة، فكتب الله عليهم التّيهَ في الصّحراء جرّاء أفعالهم ونَقْضِهمُ العهودَ والمواثيقَ التي أُخذت عليهم.

لذا جاءتِ الإشارةُ إلى قِصّة القرية التي كانت حاضرةَ البحرِ في سورة البقرة بشكلٍ موجزٍ يتلائم مع المقام الذي جاءت فيه في كشف نقضِهمُ العهودَ والمواثيقَ، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٦٦﴾ [البقرة: 63 - 66].

وجاءت الإشارة إلى هذه القِصّة في موضعيْن آخريْن من سورة النّساء بما يتلائم والسّياق الذي جاءتا فيه، فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خسأ).

وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

[النساء: 46 - 47]

فكانتِ الإشارةُ إلى أصحاب السّبت من باب الوعيد لأهل الكتاب بتذكيرهم بما جرى لأسلافهم الذين عَصَوْا أنبياءهم ولم يلتزموا بما هو مقرّرٌ عليهم في شريعتهم، وشأنُ هؤلاء المخاطَبينَ في زمن النّبيّ محمّدٍ ﷺ سيكون كشأن أولئك السابقين إن لم يلتزموا القرآنَ الذي جاء مصدِّقًا لما معهم في توراتهم وشريعتهم.

فجاءت الإشارة إلى السّبت على أنّه اسمٌ لليوم الذي نَقض فيه أجدادُهمُ الميثاقَ الذي أُخذ عليهم بأن لا يصطادوا فيه، لكنّهم ما التزموا بهذا الميثاق الغليظ الذي أُخذ عليهم، ولم يشكروا هذه النّعم التي قُدّمت إليهم فوقعوا في العصيان.

ثمّ جاءت أخيرًا وفي سورة مكيَّةٍ إشارة مجملة ليوم السّبت في سورة النّحل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل: 123 - 124] في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام بكونه إمامًا في الخير، طائعًا خاضعًا لله، ثمّ بعد ذلك أوصى القرآنُ النّبيَّ ﷺ أن يتّبع دين إبراهيم عليه السلام، وذكّر المؤمنين باختلاف أهل الكتاب في شأن يوم السّبت سواءً أكان هذا الاختلاف بشأن تعيينه عيدًا لهم دون يوم الجمعة مخالفة للمسلمين، أم بسبب افتراقهم إلى فئاتٍ ثلاث في حرمة الاصطياد فيه[1]؛ فإنَّ التّذكير هنا منصبٌّ أيضًا على المؤمنين لتحذيرهم من هذه الاختلافات حتّى لا يصيبهم ما أصابهم.

وهكذا نرى أنّ السّورة الوحيدة التي فَصَّلتْ ما جرى في يوم السّبت إنّما كانت سورةَ الأعراف التي تجلّى فيها استعراضُ رحلةِ هذا الدّين الطويلةِ عبر كوكبةِ الأنبياء المصطفَيْن بدءًا من آدم عليه السلام وانتهاءً بسيّدنا محمّدٍ ﷺ، وما جرى معهم من أحداثٍ وتحدّياتٍ شاقّة استطاعوا أن يجتازوها وأن يصبروا عليها.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 612/4.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظُّلم والشرك والكفر والنّفاق والجَور والهضم والطّغيان:

الظّلمُ أعـمُّ من الجور والهضم؛ لأنّـه يشمل أيَّ عدولٍ أو انحرافٍ عــن الــجــادّة المستقيمة

تقدّم الحديث عن أنّ لفظة الظّلم تعمُّ لتشمل كلّ الذّنوب والمعاصي صغيرها وكبيرها، فقد سمّى القرآنُ الشِّركَ والكفرَ: ظُلمًا؛ فقال على لسان لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، وقال عن الكفر: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254]، وكذلك النّفاق وسائر المعاصي فإنّه من خلال العَوْد لدلالاتها المعجميّة والاصطلاحيّة واستعمالاتها القرآنيّة - نجد أنَّ لفظة الظّلم تعمُّها جميعًا.

أمّا في التّفريق بين الجَوْر والهَضْم والظُّلم فيقول صاحب الفروق اللغوية: "الجَوْر خلافُ الاستقامةِ في الحُكْم، وفي السيرة السلطانية، تقول: جارَ الحاكم في حُكْمِه والسلطانُ في سيرته؛ إذا فارقَ الاستقامةَ في ذلك، والظلم ضررٌ لا يستحق ولا يُعقب عِوضاً، سواءً أكان هذا من سلطان أم حاكم أو غيرهما، ألا ترى أنَّ خيانةَ الدَّانِق والدرهم تُسمّى ظلماً ولا تُسمّى جَوْراً، فإن أُخِذ ذلك على وجه القَهْر أو المَيْلِ سمِّيَ جَوْرًا، وهذا واضح.

وأصلُ الظّلم نقصانُ الحق، والجَوْر: العدولُ عن الحق، من قولنا: جارَ عن الطريق، إذا عَدل عنه. وخُولِفَ بين النقيضين فقيل في نقيض الظلم: الإنصاف؛ وهو إعطاء الحقّ على التَّمام، وفي نقيض الجَوْر: العدل؛ وهو العدول بالفعل إلى الحق"[1].

وقد استعمل القرآن الكريم كلمة الجَوْرِ في قوله: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾ [النحل: 8 - 9]؛

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 226.

فجاءت وصفًا للسبيل المائل. وبهذا يتبيّن أنّ لفظة الظّلم أعمّ في الدّلالة وفي الاستعمال من لفظة الجَوْر.

أمّا الهَضْم: فقد عرّفه الراغب فقال: "هو شَدْخُ ما فيه رَخاوةٌ...، واستُعير الهَضْمُ للظُّلم"[1]، وقال السَّمين الحلبي: "الهضمُ: النقصُ، ويقال: هَضَمْتُه، واهتَضَمْتُه، وتهضَّمْتُه: أي نقصتُه حقَّه، وقيل: الظّلم والهضم متقاربان"[2]، ولكن هل هما حقاً كذلك؟ يفرّق بينهما صاحب الفروق قائلًا: "الهضْمُ: نقصانُ بعضِ الحقّ، ولا يُقال لمن أُخِذ جميعُ حقِّه هضم، والظُّلم يكون في البعض وفي الكل"[3]. وعلى هذا فالظّلم أعمُّ من الهضم، فكلُّ هضمٍ ظلمٌ، وليس العكس، ولم ترد لفظة (الهضم) إلّا في موضع واحد في القرآن الكريم مع لفظة الظّلم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝١١٢﴾ [طه: 112]. وأمّا الطغيانُ فهو: "تجاوزُ الحَدِّ بالعِصيان"[4]، أو هو: "مجاوزَةُ الحدِّ في المكروه مع غَلَبةٍ وقَهْر"[5].

وقدِ اجتمعت كلمتا الظّلم والطّغيان في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم: 52]، فَدَلَّ ذلك على أنَّ الطّغيان ظلمٌ مخصوصٌ؛ لأنَّ فيه تجاوزًا وغلبةً وقهرًا.

العُتوّ والعُثوّ:

يشترك العُتُوُّ والعُثُوُّ في تحقُّق الفساد في كليهما

تقدّم سابقًا أنّ المعنى المحوريّ لـ(عتوًا) هو امتدادُ الشيء مادّة، أو بقاءٌ في صلابةٍ أو تماسك دقيق، وبقاء ذلك الشيء حتَّى عتا امتدادًا وتماسُكًا وصَلابة، كأن لم تُؤثر فيه السنون الطِّوال[6]. والعثوّ

(1) الرّاغب، المفردات: (هضم).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 293/4.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 226.
(4) الرّاغب، المفردات: (طغى).
(5) العسكريّ، الفروق، ص: 224، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 508/3.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عتو).

في الفساد الذي يُدرك حسًّا أو حكمًا[1]، وقد وردت في خمسة مواضع في القرآن الكريم على نظمٍ واحدٍ: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة: 60، الأعراف: 74، هود: 85، الشّعراء: 183، العنكبوت: 36].

فتشترك الكلمتان في تحقّق الفساد فيهما، ولكنّه يكون مع (عتت) فيه امتدادٌ مع صلابة وتماسك.

(1) الرّاغب، المفردات: (عثى).

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾

[الأعراف: 167]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تتابعُ عقوباتِ الله على يهود

أجمل الإمام الرّازيّ المناسبة لهذه الآية مع ما تقدّمها فقال: "اعلَمْ أنّه تعالى لمّا شرح ها هنا بعضَ مصالح أعمال اليهود وقبائح أفعالهم، ذكر في هذه الآية أنّه تعالى حكم عليهم بالذلّ والصَّغار إلى يوم القيامة[1]".

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأَذَّنَ﴾: يقول ابن فارس "الهمزة والذّال والنّون أصلان متقاربان في المعنى متباعدان في اللّفظ، أحدهما: أُذُنُ كلّ ذي أُذُن، والآخر: العِلم، وعنهما يتفرّع الباب كلّه"[2]. ولا شكّ أنّ هنالك تقاربًا بين الأصليْن فبالأُذُنِ يقعُ العِلْمُ ولا سيّما علم المسموعات، لكن بين العلم والإِذْن فرقٌ؛ فإنّ الإِذْنَ أخصُّ ولا يكاد يُستعمل إلّا فيما فيه مشيئةٌ به، راضيًا منه الفعلَ أم لم يرضَ؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 100] فمعلومٌ أنّ فيه مشيئتَه وأمرَهُ[3]، والإِذْنُ في كلام العرب يأتي إمّا على معنى الأمر على غير وجه الإلزام، ومنها التّخليةُ بين المأذونِ له والمُخلّى بينه وبينه، ومنها العلم بالشيء[4]، وهو المراد هنا، وجاء على صيغة (تفعَّل)؛ للدَّلالة على المطاوعة في معنى قوّة حصول العلم.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 34/8.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 449/2.

2) ﴿يَسُومُهُمْ﴾: السِّين والواو والميم أصلٌ يدلُّ على طلب الشيء، يُقالُ: سامَ الشَّيءَ يَسومُهُ سَوْمًا، أَيْ: ذَهَبَ لِطَلَبِه، وَمِنْهُ سَوْمُ الماشيَةِ، أي: رَعْيُها وَطَلَبُها الحَشيشَ. وَقيلَ أَصْلُ المُساوَمَةِ مِنَ التَّسْويم، وَهوَ تَمْييزُ الشَّيْءِ بِعَلامَةٍ، يُقالُ: سَوَّمَ الشَّيْءَ يُسَوِّمُهُ، أَيْ: مَيَّزَهُ بِعَلامَةٍ[1]. ومجرى الابتغاء في قوله ﴿يَسُومُهُمْ﴾ كذا، أي يطلب لهم سوء العذاب. وفي هذا الفعل معنى القَسَم: كعَلِمَ اللّه[2]، وشَهِدَ اللّه، لتأكُّدِ إذاقةِ اللّه بني إسرائيل الإهانةَ.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

توعُّد الله اليهودَ بالعقوبات لكُفرِهم وفُسوقِهم وإفسادِهم في الأرض

واذكُرْ يا رسولَ اللّه وقتَ أن أَعلَمَ اللّه تعالى هؤلاء اليهودَ وأسلافَهم إعلامًا صريحًا بأنّهم إن غيَّروا وبدّلوا ولم يؤمنوا بأنبيائهم، لَيُسلِّطَنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يُذيقُهم سوءَ العذاب، ويُذلُّهم ويُهينهم في حياتهم الدنيا إلى يوم القيامة - كضَرْبِ الجزيةِ عليهم، وغير ذلك من صنوف العذاب، إنَّ ربّك لسريعُ العقابِ لمن أقام على الكفر، وجانَبَ طريقَ الحقّ، وإنّه لغفورٌ رحيمٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا[3].

وتُرشد الآيةُ الكريمةُ إلى تأكيد اللّهِ إذاقةَ بني إسرائيل الذِّلةَ والإهانة باطِّرادٍ، وإن بدا للنّاس أنَّهم يُسيِّرون دفَّةَ الأمور في أرض النَّاس، ويتحكَّمون في مال الدنيا وخيراتها، وهم قد اقتطَعوا من أرض المسلمين قطعةً طاهرة مقدسة، إلَّا أنها فترة قصيرة في حُكم الزَّمن وتعاقب الدُّول، وعَرَضٌ من أعراض الحياة الدُّنيا، وسيبقَوْن الأذلّاءَ دومًا وإن بدَوْا في غَطْرسةٍ واستكبارٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوم).
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 296/2.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 414/4.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف للآية على ما تقدّمها:

عطفُ القِصَّةِ على القصَّةِ من شأنه أن يَجمع أطرافَ الخبر من كافّة نواحيه

قوله: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ عطفٌ على جملَة: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾ [الأعراف: 163] متعلّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: اذْكُر، أي: اذكر أيّها النَّبي ذلك الوقتَ حين تَأذَّنَ ربُّك لَيبعثَنَّ عليهم(1)، وهي من عطف القِصّةِ على القصّةِ؛ لأنّها تتناول مشاهدَ متنوّعةً من هذه القصة، فالحديثُ فيها عن اليهود المقصودين بقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾، وهم المعاصِرون للنبيِّ ﷺ، فهذه العقوبة المقرَّرةُ هنا ليست حِكْرًا على أصحاب القرية المذكورين، بل هي لأحفادِهم ممَّن اقتفَوْا آثارهم بنقض العهود والتّمرُّد على الشرائع.

نكتة تَكْرارِ مجيء (إذ) ودلالتها:

كثرةُ (إذ) في القصص القرآنيّ؛ لأنَّ أغلبَ ما يأتي بعدها مشاهِدُ حيَّةٌ يُراد للسامع استحضارُها

إذ: اسمٌ أو ظرفٌ للزَّمان للماضي، وتعرب على أنّها مفعولٌ فيه مبني على السُّكون في محل نصبٍ، أو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ، ويشير ابنُ هشام إلى استعمالاتها بأنَّها قد تأتي ظرفًا وهو الغالب، نحو: ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة: 40]، قال: "والغالبُ على المذكور في أوائل القِصص في التَّنزيل أن تكون مفعولاً به بتقدير: اذكر"(2).

ويرى ابن قيِّم الجَوزيَّة أنَّ هذه طريقة بديعة عجيبة في القرآن هي من باب "الاكتفاء عن غير الأهمِّ بذكر الأهمِّ لدلالته عليه، فأحدهما مذكور صريحًا والآخر ضمنًا، ولذلك أمثلة في القرآن يُحذف منها الشَّيءُ للعلم بموضعه، فمنها قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾ [البقرة: 34] ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم﴾ [البقرة: 49] ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا﴾ [البقرة: 50] ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا﴾ [البقرة: 125]، وهو كثير جدًّا بواو العطف من غير ذكر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/154.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 94.

عامل يعمل في "إذ"؛ لأنَّ الكلام في سياق تَعْداد النِّعم وتَكرار الأقاصيص، فيشير بالواو العاطفة إليها، كأنَّها مذكورة في اللفظ لعِلْمِ المخاطَب بالمراد"[1].

ويَكْثُر ورودُها في القِصص القرآنيّ لأنّ أغلب ما يأتي بعدها هو مشاهدُ قصصيّةٌ يُراد للسَّامع أن يستحضرَها مشاهدَ حيَّةً تجري أمامه، لذلك توالت هنا عدّة مرّات في سياق تذكير بني إسرائيل بصنائعِ أجدادِهم السَّابقين، وتاريخِهم الطَّويل في التمرّد والعصيان. وفائدتُها ظاهرةٌ في تصوير المشاهد الفنّيَّةِ على أنّها مشاهدُ حيَّةٌ يراها القارئُ أمامه من خلال هذه الحروف والألفاظ الّتي أَخذتْ على عاتقها تصويرَ هذه المشاهد.

بلاغة التَّعبير بـ﴿تَأَذَّنَ﴾:

تدلّ مادّة (تَأَذَّنَ) وبنيتُها على أنّ الله تعالى أعلَمَهُم بهذا الوعيد وحذَّرهم منه، وهو متضمِّنٌ معنى القَسَمِ

يرى ابنُ عطية: بنية ﴿تَأَذَّنَ﴾ هي التي تقتضي التكسّب، من (أَذِنَ) أي: عَلِمَ، وآذَنَ أي: أَعْلَمَ، إلّا أنّ (تعلَّمَ) وما جرى مجرى هذا الفعل إذا كان مسندًا إلى اسم الله ﷻ لم يَلحقْه معنى التكسُّبِ الذي يلحق المُحدَثين، فإنّما يترتّب بمعنى (عَلِمَ) صفة لا بتكسّب، بل هي قائمة بالذّات، فمعنى هذه الآية: وإذ أعلَمَ اللّهُ ليبعثنَّ عليهم، وتقتضي قوّةُ الكلام أنّ ذلك العِلْمَ منه مقترِنٌ بإنفاذٍ وإمضاء، كما تقولُ في أمرٍ قد عزمتَ عليه غايةَ العزم: عَلِمَ اللّهُ لأَفعلَنَّ كذا[2].

وفي هذا الفعل معنى القَسَم: كعَلِمَ اللّهُ، وشَهِدَ اللّهُ، ولذلك أُجيب بما يُجاب به القَسَمُ حيث قال: ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: (ليُرسِلَنَّ عليهم ويُسَلِّطنَّ)، كقوله: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ [الإسراء: 5][3].

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 360/1.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 756.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 296/2.

بلاغةُ الالتفات في قوله: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾:

إخبارُ النّبيّ ﷺ عمّا جرى مع عصاة بني إسرائيل بضمائر الغَيْبة تهوينًا وتحقيرًا لهم

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ التفاتٌ من ضمير التكلُّم في ﴿قُلۡنَا لَهُمُ﴾ إلى الغَيْبةِ، وغرضُ الالتفات العامّ هو تلوينُ الخطابِ وجذْبُ الاهتمام، ويختصّ بكلّ موضعٍ بنِكاتٍ بيانيّةٍ دقيقةٍ، ولعلّ النُّكتةَ فيه هنا النّعيُ عليهم بالإعراض عن مخاطبتِهم مباشرةً إلى الإخبار عنهم إخبارًا، على أنّ الأمر بدهيٌّ ومُسلَّمٌ وقد تقرّر وانقضى في علم اللّه ﷻ، وأنّه ممّا لا جِدالَ فيه.

نُكْتَة مجيء وصف الرُّبوبيّة وإضافته إلى ضميره ﷺ:

في ذكر الرّبوبيّة مضافة إلى ضميره ﷺ تسريةٌ وتلطيفٌ وتشريفٌ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ في ذِكْر وصف الرّبوبيّة تسريةٌ وتسليةٌ لقلب النّبيّ ﷺ؛ لأنّ المربّي هو الذي يعتني بمن يربّيه ولا يتركه لحظةً، وفي إضافة لفظ الربوبيّة إلى ضميره عليه الصَّلاة والسَّلام تكريمٌ وتشريف له.

بلاغةُ توالي المؤكِّداتِ في ﴿لَيَبۡعَثَنَّ﴾:

تضمّن التّوكيد وعيدًا للمعتدين وطمأنةً للمؤمنين

اللّام هنا هي الواقعة في جواب القَسَم، والنّون هي نون التّوكيد الثَّقيلة؛ وذلك لأنَّ التَّأذُّنَ في قوله: ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ تضمّن معنى القَسَم[1]؛ لأنّه من شأن هذه المؤكِّداتِ أن تَفُتَّ من عَضُدِ اليهود وأن تزيدَ من ترهيبِهم وزَجْرِهم عن معاصيهم الكبيرة من ناحية. ومن شأنها كذلك أن تَرفعَ من يقين المؤمنين وتزيدَ من استبشارهم بنصر اللّه.

معنى البعث وغرض تعديته بـ(على):

معنى البعث أقوى في الدَّلالةِ، وتضمَّن معانيَ التقييض والإلهام والتّسليط

البعث هو إثارةُ الشيء وتوجيهُه[2]، وهو هنا مجازٌ في التَّقييض والإلهام، وهو يُؤذِنُ بأنَّ ذلك في أوقات مختلفة، وليس ذلك يومًا فيومًا؛ ولذلك اختِير فعلُ ﴿لَيَبۡعَثَنَّ﴾ دون نحو: لَيُلزِمنَّهم، وضُمِّن

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 34/8.

(2) الرّاغب، المفردات: (بعث).

معنى التَّسليط فَعُدِّيَ بـ (على) كقوله: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ﴾ [الإسراء: 5]، وقوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133][1]، وفي التّضمين بلاغةٌ لا تجدُها في غيرها، حيث يقتضي التّضمينُ قوّةَ الفعلَيْن معًا، فكأنّه يقول: أَرسَلْنا مُسلِّطينَ عليهم مَن يَسومُهُم سوءَ العذاب.

ودلالةُ الفعل ﴿لَيَبۡعَثَنَّ﴾ على معنى الإثارة والتوجيه أقوى من مجرَّدِ الإرسال، فلذلك عَدَلَ عن التَّعبير بـ (ليُرسِلَنَّ)؛ لما تضمَّنَه البعثُ من معانٍ ليست في الثَّاني، فاللّه تعالى يُخبِر بأنَّه سَيَبعثُ على بني إسرائيل مَن يعذِّبُهم ويُؤذِيهم مدَّةَ بقائهم في هذه الحياة الدنيا. وأنَّ هؤلاء الذين سيقومون بإهانتِهم وإذلالهم ليسوا موجودين في الأصل، بل سيَخلُقُهم اللّه ويحييهم لهذا الغرض في كلِّ موقف وحادثة تَستَدعي تعذيبَهم. وهذا يزيد في رُعْبِ اليهود وإغاظتِهم، ويُظهِر قدرةَ اللّه وحكمتَه في تدبير أمور خلقِه.

فائدة مجيء القيد ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

فائدة مجيء القيد بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ غايةٌ لما في القَسَم من معنى الاستقبال، وهي غاية مقصود منها جعلُ أزمنة المستقبل كلّه ظرفًا للبعث؛ لإخراج ما بعد الغاية. وهذا الاستغراق لأزمنة البعث، أي: أنَّ اللّه يُسلِّط عليهم مَن يعذِّبُهم ويؤذيهم مدَّةَ بقائهم في خلال المستقبل كلِّه، والبعث مُطلَق لا عامٌّ[2].

تسليط من يعذبهم ويؤذيهم مدةَ بقائهم في الدنيا غير مغيّا بوقتٍ محدّدٍ

وجهُ تقديم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على فعل السَّوم:

وتقديمُ شبهِ الجملةِ على فعل إذاقتِهمُ العذابَ يدلُّ على تمكُّن ظرفيَّةِ وقوعِ الخسفِ بهم على مدى الأوقات، "إلا أنهم يَرُدُّ اللّه لهم الكَرَّةَ حتى يجتمعوا ويكونوا أمةً؛ لأنهم لو بَقوا مُقطَّعين في الأرض لن تقوم لهم قائمة - كما قال: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾

من عَادَةِ اللّهِ أن يَردَّ لهمُ الكَرَّةَ ويجعلَهم أُمّةً؛ ليكونَ العذابُ واقعًا موقعه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/155.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/155.

[الأعراف: 188] - ولم يكن العذابُ والهلاكُ، ولم يجد موقعًا يقع عليه، فصار من عادة الله أن يردَّ لهم الكَرَّةَ ويجعلَهم أمة حتى يكونوا أمة فيُسلِّطُ عليهم مَن يُعذِّبهم؛ ليكونَ العذابُ واقعًا مَوقِعَه، والله ﷻ أصدقُ من يقول"[1].

معنى ﴿مَن﴾ في ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾:

﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الذي)، وهو مفعول ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾، وجملة ﴿يَسُومُهُمْ﴾ صِلةُ الموصولِ لا محلَّ لها من الإعراب[2].

بلاغة التّعبير بالسَّوْمِ مادَّة وصيغةً:

التعبير بالسَّوْمِ يُنبِئُ عن تطلُّبٍ لهؤلاء القوم وترصُّدِهم، والمضارعُ فيه استحضارُ الصورة أمام القارئ

تقدَّم أنّ المعنى المحوريَّ للسَّوْم هو امتدادُ بقاءٍ، أو مرورٌ وذَهابٌ في حيِّزٍ بلا حدّ[3]، يُقال سامَهُ الأمرَ، أي: كلَّفه إيّاه، وأَولاه إيّاه، أو حمَّله إيّاه. والسَّوْمُ يأتي بمعنى أن تُجشِّمَ إنسانًا مَشقَّةً، أو سوءًا، أو ظُلمًا، أي: تُحمِّلَه ذلك وهو عاجزٌ عن المخالفة. وحقيقةُ السَّوْمِ أنَّه تقديرُ العِوَضِ الَّذي يُستبدَلُ به الشَّيءُ[4]، ويدلُّ السَّوْمُ على طلب الشيء، ومنه السَّوْمُ في الشراء والبيع[5].

فالتَّعبيرُ بالسَّوْمِ يُنبِئُ عن تطلُّبٍ لهؤلاء القوم وترصُّدِهم، وعدم خلوِّهم عمَّن يتابع تقلُّبَهم في البلدان، كما هو الحال في الأسواق المفتوحة من سَوْمِ السِّلع، وهو حالة من الإذلالِ والخضوعِ والانكسارِ تحت سَطْوةِ العذاب، لا يستطيع المجرمُ التحرُّرَ منها أبدًا. وأفاد التّعبيرُ بالمضارعيّة استحضارَ الصورة أمام القارئ.

بلاغة الاستعارة في التّعبير عن معاملتهم بالسَّوْم:

تشبيهُ حالهم بمن يَسومُهُم بضاعتَهم من المكرِ والخديعةِ ونقضِ العهود ليُعاوِضَهم الخِزْيَ والهوانَ

استُعملَ السَّوْمُ مجازًا في المعاملة اللّازمة بتشبيهها بالسَّوْمِ

(1) الشَّنقيطيّ، العذب النّمير: 4/292.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/69.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/156.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوم).

المقدَّر للشَّيء[1]، حيث شبّه القرآنُ الكريم إصابةَ العذابِ لهم وتَذوُّقَهم له بحالِ من يَسومُهُم بِضاعَتَهم ليستبدِلَها منهم بجامِع المراوحةِ والمناورةِ، على سبيل الاستعارة التَّصريحيّة التَّبعيّة.

نُكْتَةُ إضافةِ السُّوءِ إلى العذابِ:

المبالغةُ في وصفِ شـدّة الـعـذابِ الواقعِ عليهم

أضافَ السوءَ إلى العذابِ في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾؛ لأنَّ العذابَ كلَّه سوءٌ، فَسُوؤُهُ الأشدُّ فيه[2]، وأصلُها العذابُ السُّوءُ، فتقدَّمَتْ فيه الصِّفةُ على موصوفِها وأُضِيفَتْ إليه مبالغةً في وصفِ شدّة العذاب؛ فَسوؤُهُ ثابتٌ مقرَّرٌ حتّى بات مضافًا إليه.

معنى اللّام في ﴿ٱلۡعَذَابِۗ﴾:

(أل) هنا جِنسيَّةٌ استغراقيّةٌ؛ لتشملَ كلَّ أنواع العذاب المادّيّ والمعنويّ الذي يوقِع النِّكاية في اليهود.

الموقع البيانيّ لعبارة التذييل:

الـجـمـلـة التَّعليليّة وقعت جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عمّا سبقه ولم يُعطَفْ عليه؛ إمّا لكمالِ اتّصاله؛ لأنّه مؤكِّد لمضمون ما سبقه مِن بعثِ مَن يتسلَّطُ عليهم بسوءِ العذابِ، وإمّا أن يكون استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ مقدّرٍ، وكأنَّ سائلًا قال: (لمَ يُفعل هذا بهم؟)، فجاءت الجملةُ تعليليّةً جوابًا عن سؤالٍ تقدَّمَها - ولو تقديرًا - وهو الأقرب.

غرضُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في فاصلةِ الآية:

تتابعتِ المؤكِّداتُ في بابَي الـوعْـدِ والـوعـيـدِ لِـتَـطْـمـيـنِـهـم ودعـوتِـهـم لإعلانِ التوبة

تتابعتِ المؤكِّداتُ في الفاصلة الكريمة لتُقرِّرَ مضامينَ الوعد والوعيد، فأمّا مجيءُ هذه المؤكِّدات من: إنّ، والجمل الاسميّة، واللّام المزحْلَقة، مع المعتدين العصاة - فظاهرٌ بيِّنٌ؛ لأنّ المؤكِّداتِ تتبايَنُ كثرةً وقِلَّةً بحسب أحوالٍ تقتضيها. وهؤلاء المعتدون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/155 - 156.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/156.

يحتاجون لهذه المؤكِّداتِ لإزالةِ شكوكِهِم وطُعونِهم، وظَنِّهم بأنّ عذابَ اللّه لن يُصيبَهم.

أمّا توالي هذه المؤكِّدات في صِفَتَي المغفرة والرّحمة؛ فإنّما جاءت تطميعًا لهم، وتأليفًا لقلوبهم، ودفعًا لهم لإعلان التّوبة من معاصيهم، والالتحاقِ بصفوف المؤمنين.

سِرُّ دخول لفظ الرّبّ وإضافته:

في لفظ الرّبّ تسريةٌ وتسليةٌ لقلبِ الحبيب عليه الصّلاة والسّلام، وفي إضافتِها لضميرِه عليه أزكى السلام؛ تشريفٌ ما بعده تشريف.

معنى أل في ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾:

المناسبُ أن تكون (أل) هنا جِنسيّةً استغراقيّةً، تشملُ ألوانَ العقابِ جميعَها، عاجلَها وآجلَها، صغيرَها وكبيرَها، المادّيَّ منها والمعنويَّ.

نُكتةُ وصفِ العقاب بالسُّرعة:

شَبَّهتِ الآيةُ القدرةَ على عقابهم والتمكُّنَ منهم بالأمر السريع

الأصلُ أنَّ أمر اللّه نافذٌ سريعٌ لا يحتاج إلى تأويل، ورأى بعضُهم أنّ السُّرعة استُعيرت لعدم التَّردد ولتمام المقدرة على العِقاب، بجامعِ عدمِ التأخُّرِ، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي لهم، والسرعة تقتضي التحقّق، أي إنَّ عقابَه واقعٌ وغيرُ متأخِّرٍ؛ لأنَّ التأخُّرَ تقليلٌ في التحقّق، إذ التأخُّرُ استمرارُ العدم مدّة ما[1].

غرضُ تقديمِ الوعيد على الوعد:

اقتضى السّياقُ العامُّ والخاصُّ تقديمَ الوعيد على الوعد

تقدَّم في الآية قوله: ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ فاقتضى هذا أن يتقدَّم الوعيد على الوعد في فاصلة الآية؛ ليحصل التَّطابق والموافقة في الجنس الواحد، ولإشعار اليهود بأنَّهم مقصودون بالتَّهديد والوعيد على تَكَرُّرِ شَناعةِ ما صنعوه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/156.

وعلى سوءِ فِعالهم السابقةِ، فضلًا عن أنَّ الآياتِ سِيقتْ في بيان حالِ الفئةِ التي اعْتَدتْ من بني إسرائيل، وتجاوزتْ حُرْمةَ الصّيد في يوم السّبت.

نكتة الإضمار بعد الإظهار في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾:

الإضمارُ للفظ الربوبيّة هنا من باب الإيجاز لتقدُّم ذِكرِها في الوعيد، والتّقدير: (وإنّ ربّك لغفورٌ رحيمٌ). ومن العادات المعروفة في القرآن أنّه حيث أمكن الإيجازُ دون إخلالٍ بالمعنى عُمِدَ إليه، فيختار القرآنُ أسلوب الإضمارِ بعد الإظهارِ لِتَقدُّمِ العلم به، إلّا إذا دَعَتْ حاجةٌ للإظهار في موضع الإضمار.

الإيجازُ من العادات المعروفة في القرآن، والإضمار هنا بعد الإظهار لتقدُّم العلم به

غرضُ تتابُعِ وصفَيْن في سياق الوعد إزاءَ وصفٍ واحدٍ في سياق الوعيد:

من لطائفِ النَّظمِ العزيزِ الاقتصارُ في سياق الوعيد ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ على صفة واحدة هي سرعةُ العقاب، بينما في سياق الوعد ذَكَر صفتين اثنتَيْن هما المغفرةُ والرحمةُ في: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لترغيبِ العصاة من اليهود وغيرِهم في التَّوبة، وحَثِّهم عليها لِيُبادِروا إليها حتّى لو عَظُمتْ ذنوبُهم، ثمّ حتّى تحصل الطمأنينة في النّفوس بعد تقديم ذِكر سرعةِ العقاب على المغفرة والرّحمة.

أكَّدَتِ الآيةُ الكريمةُ سَعةَ رحمةِ الله تعالى التي سَبقت عذابَهُ بذِكْرِ صفتَيْن عظيمتَيْن دالَّتَيْنِ عليها

دلالةُ المبالغة في ذِكْرِ صفاتِ الله سبحانه:

اقتَضَى مقامُ الوعد والوعيد في هذه الآية الكريمة ذِكْرَ هذه الصفاتِ الواردةِ فيها (سريع، غفور، رحيم)، بصيغِ المبالغة على وَزْنَي (فَعِيلٍ) و(فَعُولٍ)؛ لتستقرَّ معاني هذه الصفات في النّفوس ويتحقّق أثرُها فيها.

ترسُّخُ الآثارِ الجليلة لأسماء الله الحسنى في النّفوس

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

أفاد الإيجازُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى انقسامَ أحوال النّاس إلى فِرقٍ مختلفةٍ: فريق العصاة، وهؤلاء استحقّوا سرعة العقاب، وتعجيلَ جزائهم لهوانهم على اللّه.

أشـارت الألـفـاظُ المذكورة في الآية إلى تفصيلاتٍ استُغـنـي عن ذِكْرِها بوجود ما يدلّ عليها

وفريق المؤمنين الذين امتثلوا لأوامر الله، ولكنْ قد تَزِلُّ أقدامهم. وفريق العصاة التائبين من عصيانهم، فهذان الفريقان الأخيران استحقّا صفتَي المغفرة والرَّحمة؛ لكرم الله وجميل سَتْره وتجاوزه، فكلُّ هذه التّفصيلات قد طُوِيَتْ في الآية الكريمة لوجود ما يدلّ عليها.

بلاغة المحسّنات البَديعيَّة في الآية:

في فاصلة الآية طِباقُ إيجابٍ من خلال ذكر أسماء الله الحسنى في الوعد والوعيد، وهناك مقابلات بين أساليب التّوكيد بينها، وكذلك في تكيرها.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإرسال والبعث:

البـعـثُ فيه إثارة وجَلَبةٌ، وتَخالُطَته الشدَّةُ والقوّةُ بخلاف الإرسال

ذكر د.محمد الهلال في تفسيره بعضَ الفروق بين هاتيْن اللّفظتيْن فقال: الإرسال؛ **أولًا**: يكون بإرسال شيء جديد؛ أي: برسالة جديدة، أو منهج جديد، أو تغيير، أو تعديل في المنهج السابق، حسب الزمان والمكان. **ثانيًا**: الإرسال: لا يصاحبه إثارةٌ ولا تهييجٌ، ولا حثٌّ كما في البعث. ثالثًا: الإرسال: من مكان إلى مكان، أو إلى مكان جديد. رابعًا: الإرسال: هو أقل شدةً، وقوةً، ومَشقَّةً مقارنة بالبعث.

أمّا البعث؛ أولًا: البعثُ: هو إحياءُ منهجٍ كان موجوداً سابقاً، وغفَل عنه النّاس، فإذا أراد الله ﷻ إحياء المنهج نفسه، الذي غَفَل عنه النّاس، بعث الله رسولاً، أو نبيًّا، لإحياء معالم ذلك المنهج السابق، الذي اندثر؛ أي باختصار: بعثُ شيءٍ قديم، وليس هناك من جديد. ثانيًا: البعث: يصاحبه إثارةٌ، وحَضٌّ، وتهييجٌ على القيام بالعمل وحَثٌّ عليه. ثالثًا: البعث: يكون إلى المكان نفسه، أو القرية، أو المدينة. رابعًا: البعث: إرسال، وفيه شدة، ومشقة، وقوة، وعمل؛ أشد من الإرسال[1].

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 126/1.

من هنا يتبيّن أنّ مجيء كلمة ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ هي الأليق في المقام الذي جاءت فيه؛ لما يُصاحِبُ البعثَ من إثارةٍ وجَلَبةٍ، ولمخالطَتِه الشدّة والقوّة، ولأنّه سيكون لنفس المُرسَل إليهم، وفي ذات أماكنهم.

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٦٨﴾ [الأعراف: 168]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كتابةُ اللهِ على المعاندين من بني إسرائيل الذِّلَّة والتّفرُّق

عطفُ قِصَّةٍ على قصّةٍ، وهو عَوْدٌ إلى قِصص الإخبار عن أحوالهم، فيجوزُ أن يكون الكلام هنا يتحدَّثُ عن تفرُّقِهم بعد اجتماعِهم على أنّه من النِّعم، كما تَقطَّعوا اثنتي عشرة أسباطًا أُممًا. ويمكن أن يكون معطوفًا على العقوبات السَّابقة فيكون التّفرُّق هنا مذمومًا(1)، كأنَّه قيل: وَقَطَّعْناهُمْ أي: بسببِ ما حصل لهم مِن السَّبيِ المترتِّبِ على العذابِ تقطيعًا كثيرًا، بأنْ أكثَرْنا تَفريقَهم(2). والظاهرُ أنّ المعنى الثاني هو المرادُ هنا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾: أَصلُ القَطْعِ: فَصْلٌ وإبانَةُ الشَّيءِ عن شَيْءٍ آخَرَ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا وقَطيعَةً، أَي: فَصَلْتُهُ، وضِدُّهُ الوَصْلُ، والقِطْعَةُ: الحِصَّةُ المَفْصولَةُ مِنْ شَيْءٍ. وَيَأْتي القَطْعُ بِمَعْنَى: الهَجْرِ والتَّفْريق، والتَّقاطُعُ: التَّهاجُرُ، وَمِنْ مَعاني القَطْعِ أَيْضًا: البَتُّ والقَصُّ والعُبورُ(3). والمعنى هنا: وفرَّقنا بني إسرائيل.

2) ﴿أُمَمٗاۖ﴾: الأُمَّةُ: كُلُّ جَماعَةٍ يَجمَعُهُم أَمرٌ ما، وقيل: جَماعَةٌ مِن النّاسِ أُرْسِلَ إلَيْهِم رَسولٌ، سواءٌ آمَنوا أو كَفَروا. وتُطلَقُ الأُمَّةُ على كُلِّ مَن كان على دينِ حقٍّ مُخالِفٍ لِسائِرِ الأديانِ فهو أمَّة، وعلى عالم دَهْرِهِ المُنفَرِدِ بِعلمِه. ومِن مَعانيها: الشِّرْعَةُ والدّينُ، يُقالُ: فُلانٌ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 157/9.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 145/8.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).

أُمَّةَ له، أيْ: لا دينَ لَهُ، وكذلك البرهةُ من الزَّمن، ويُقال لِكُلِّ جيلٍ مِنَ النّاسِ والحَيوانِ: أُمَّةٌ. والجمعُ: أُمَمٌ[1].

والمعنى في الآية: جماعاتٍ متفرقةً.

3) ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم﴾: يُقال: بَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلِقَ، وبَلَوْتُه: اختبرتُه كأنّي أَخْلَقْتُه من كثرةِ اختباري له، وسُمِّيَ الغمُّ بلاءً من حيث إنه يُبلي الجسمَ، ويكون البلاءُ في الخير والشَّر. واللّه تعالى يُبلي العبدَ بلاءً حسنًا وبلاءً سيّئًا، وهو يرجع إلى هذا؛ لأنَّ بذلك يُخْتَبَر في صبرِه وشكرِه[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إجـراءُ اللـه العادةَ بتفريقِه اليهودَ في أقطار الدنيا لحكمةٍ يَعلمُها

يُخبِرُ اللّه تعالى بأنَّ هؤلاء اليهودَ قد مَزَّقهم في الأرض شرَّ مُمزَّقٍ؛ بسبب عصيانهم وفُسوقِهم، وصيَّرَهُم فِرَقًا متقطِّعةَ الأوصالِ، مشتَّتةَ الأهواءِ، بعد أن كانوا مجتمعينَ. ومن هؤلاء اليهود قِلّةٌ آمنت باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهم الصالحون القائمون بحقوق اللّه وحقوق عباده، فَصَلُحَ حالُها، وحَسُنَتْ عاقبتُها، ومنهم كثرةٌ منحطَّةٌ عن رتبة أولئك المؤمنين الصالحين، منهم المقتصِدون، ومنهم المسرِفون على أنفسهم بالمعاصي، وعاملناهم معاملة المبتَلَى المتحَن تارةً بالنِّعم الكثيرة كالصّحة والخِصْب وسَعةِ الأرزاقِ، وتارةً بالنِّقَم المتنوّعةِ كالجَدْبِ والأمراضِ والشَّدائدِ؛ رجاءَ أن يَرجِعوا فَيُنيبوا عند أحدِ الابتلاءَيْنِ عمَّا هم فيه إلى طاعة ربهم، ويَتركوا ما نُهوا عنه من المعاصي والسيئات[3].

وتُرشِد الآيةُ إلى أنَّ أنواعَ العقوباتِ التي نزلتْ باليهود في مختلف العصور والأمم، هو أنَّ اليهود هم المسؤولون عن كلِّ اضطهادٍ وقع

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية: (أمم).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بلوي، بلى).

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/414 - 415.

بهم، وأنهم مُستَحِقُّونَ لهذه العقوباتِ: بسبب أنانيَّتِهم وأطماعِهم التي لا حدودَ لها، وبسببِ غرورِهم وتعاليهم، فاليهود يَعتبرون أنفسَهم أبناءَ اللّه وأحِبّاءَهُ، وشعبَه المختارَ. ومن قديم الزمن وهم يَقسِمونَ العالمَ إلى قسميْنِ متقابلَيْنِ: قسمُ إسرائيلَ وهم صفوةُ الخلق وأصحابُ الحَظْوة عند اللّه، وقسمٌ آخر يسمونه الأمم (الجوييم)، أي: غير اليهود، ومعنى (جوييم) عندهم، وَثَنيُّونَ وكَفَرةٌ وبهائمُ وأنجاسٌ.

وكذلك بسببِ عُزْلَتِهم وعصبيَّتِهم وخيانتِهم للبلاد التي آوَتْهُم، فهم متعصِّبون متحزِّبون، لا يَجمَعُهم حبُّ بعضِهم لبعضٍ، ولكن تجمعُهم كراهيةُ من ليس على مِلَّتِهم، كما يجمعُهم الحقدُ على العالم بأَسْره[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة عطف الآية على ما تقدّمها:

الواو للعطف في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهي من عطفِ القِصَّة على القِصَّة، وهو عَوْدٌ إلى قِصص الإخبار عن أحوالهم[2].

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ﴾:

شبّه تفريقَهم بتقطيعِهم على سبيل الاستعارة التَّصريحيّة

المُرادُ بالتَّقطيع هنا التَّفريقُ، وجاء الفعل الماضي مضعّفًا للمبالغة في شدَّة التَّقطيع، وقد نقل الطبريُّ عن جماعة من المفسرين: "ما في الأرض بقعةٌ إلَّا وفيها معشر من اليهود"[3]، وهي استعارة تصريحيّة تبعيّة، شبَّه فيها تفريقَهم بالتَّقطيع بجامعِ الانفكاكِ بعد الاجتماع، والقَطْعُ موضوعٌ لإزالة الاتصالِ بين الأجسام التي بعضها ملتصق ببعض؛ فالجامعُ بينهما إزالةُ الاجتماعِ التي هي داخلة في مفهومها،

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 5/414 - 415.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/157.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/533.

وهي في القطْع أشد[1]. فاللّه تعالى فَرَّق بين بني إسرائيل في البلاد والأقطار، فجعل منهم أُمَمًا متفرِّقةً في مواطنها وحدودها.

بلاغةُ الالتفات مِنَ الغَيْبة إلى التَّكَلُّم:

عَوْدُ ضَمير الفاعل في: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ﴾ على الذّاتِ العَلِيَّة، وأمّا ضميرُ المفعول فيعود على الفئة المعتديّة من بني إسرائيل. وفي صَدْر هذه الآية التفاتٌ بالضمائر من الغَيْبة إلى التكلّم: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾ [الأعراف: 167 - 168].

تـعـرَّض بنـو إسـرائـيـل عبر تـاريـخـهـم الـطَّـويـل إلى نكباتٍ وويلاتٍ وأَسْـرٍ وقَـتْـلٍ بسبب عصيانهم وجحودهم

وغرضُ هذا الالتفات هنا إظهارُ أنَّ هذه العقوبةَ من الشدّة بمكان، بحيث استَحقَّتْ أَنْ تُسنَد إلى الذّات العليَّةِ مباشرةً بضميرِ التكلُّم، وذلك لأنّها تركتْ آثارًا ملموسةً في حياة بني إسرائيل، سجّلها التاريخ وحَفِظها لهم، فقد أدّى هذا التفرُّقُ لهم أن سَلَّط اللّه عليهم مَن مَزَّق ممالكهم، ودَمَّر حُكْمَهم وسَباهم لقرونٍ طويلة.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(في) ظرفيّة مجازيّة، شبَّهتْ قوّةَ ملابسةِ التّقطيع إيّاهم على الأرض بإحاطتها فيهم إحاطةَ الظّرف بالمظروف.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

يَحتمل أن يكون التّعريف للعهد أو الجنس

اللّام في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ يمكن أن تكون لامَ العهد، أي: الأرض المباركة التي أقاموا فيها، ويمكن أن تكون لامَ الجنس، والمراد من الأرض الجنس، أي: في أقطار الأرض[2]. على اعتبار كثرة ما أصابهم من تقطيعٍ في أقطار الأرض المختلفة، وهو الأظهرُ وعليه جماهير المفسِّرين؛ إذ إنَّ اليهودَ مُبَدَّدون في شرق الأرض وغربها وجنوبها وشمالها.

---

(1) الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 493/3.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 157/9.

ذِكْرُ ظرفيّة الأرض مُشعِرٌ بشدّة تفرُّقهم فيها، ومُشعِرٌ بانقلابها إلى نِقْمةٍ عليهم

فائدةُ ذِكْرِ شبهِ الجملة الظرفيّة وتقديمها على المفعول:

معلومٌ أنَّ هذا التّقطيعَ لهم لم يكن إلّا في الأرض، سواءٌ أكانت أرضًا محدَّدة أم في سائرِ أنحاء الأرض، ولكنْ في ذِكْر هذا القيد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وفي تقديمه على المفعول الثاني ﴿أُمَمًاۖ﴾ لـ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ﴾ على اعتبار أنّها مضمَّنةٌ معنى (صيَّرناهُم)، أو على كونها ﴿أُمَمًاۖ﴾ حال[1]، ما يُشعر بشدّة هذا التّقطيع، وبأنّه ملموسٌ مشاهَدٌ لا تزال آثارُه في هذه الأرض، وبأنّهم بَدَلًا من أن تكون هذه الأرض محلَّ عمارةٍ لهم، وموضعَ تسخيرٍ لهم، صارت محلَّ تفريقٍ وتمزيقٍ وذهابٍ لبأسهم عليها.

نكتةُ تنكيرِ ﴿أُمَمًاۖ﴾:

تنكيرُها قد يفيد التّكثيرَ أو التّعظيمَ لكثرتها وقوّتها، ويمكن من بابٍ آخر أن يفيد التّحقيرَ لهم لشدّة ضَعْفِهم بعد تَمزُّقِهم، وهو الأظهرُ.

الجملة لم تُعطف على سابقتِها لكمالِ اتّصالها بها أو لكونها استئنافًا بيانيًّا

الموقع البيانيُّ والنَّحويُّ لقوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾:

الجملةُ مُستأْنَفةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ، ولم تُعطف على قوله ﴿أُمَمًاۖ﴾ لكمال اتّصالها بها، أو لشبْهِ كمالِ هذا الاتّصال؛ فقولُه تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ صفةٌ أو بدلٌ من ﴿أُمَمًاۖ﴾، ومعروفٌ ومقرّرٌ أنّه لا عاطَف بين التّابع والمتبوع. وإمّا أن يكون سببُ فَصْلِها أنّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: كيف كان حالُ هذه الأمم؟ فجاء الجوابُ أنّهم الصالحون الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم، على قولٍ. ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: مُنحطّون عن الصّلاح، وهم كَفرتُهم وفسَقَتُهم، أي: ومنهم قومٌ دون أهل الصّلاح.

وهذه الجملةُ الكريمةُ تدلُّ على أنَّ القرآن الكريم يستعملُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 40/3.

الإنصافَ والعدالةَ وتقريرَ الحقائق مع أعدائه وأتباعه على السَّواء، فهو يمدحُ مَن يستحقُّ المديحَ، ويَذمُّ مَن هو أهل الذَّمِّ، وما أحوجَ النّاسَ في كلِّ زمان ومكان إلى التَّخلُّقِ بهذه الأخلاق(1).

تـأتي (مـن) لمعانٍ جليلة تتعلّقُ بأحوال أصحابها

معنى (من) في: ﴿مِّنۡهُمُ﴾:

(من) إمّا أن تكون هنا بيانيَّةً؛ لأنّها توضّح وتبيِّنُ حالَ ما تقدَّمها، أو ابتدائيّةً، أو تبعيضيّةً؛ لأنّها تبيّن أحوالَهم على التفصيل.

تشوَّقتِ النّفوسُ بعد أشباهِ هذه الجُملِ المسنَدَة إلى معرفة المسنَدِ إليه

غرضُ تقديم شبه الجملة: ﴿مِّنۡهُمُ﴾:

الغرضُ من تقديم قوله: ﴿مِّنۡهُمُ﴾ في الموضعَيْن؛ التشويقُ للمسنَدِ إليه الذي يأتي بعدهما في تسمية أهلِ الصلاح منهم، أو المسرِفين على أنفسهم بالمعاصي والسيئات.

يَحتمِلُ التّعريفُ العهدَ والجنسَ

معنى (ال) في ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾:

(أل) هنا جِنسيَّةٌ تستغرِقُ كلَّ مَنِ اتّصف بالصلاح واستَحقَّ أن يكون اسمًا له، ويمكن أن تكون عهديّةً والمُراد به من تَمسّكَ بشريعة نبيّهم موسى عليه السلام ومن جاء بعده من أنبيائهم.

سرّ المقابلة بين ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ و﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾:

قَسَّمتِ الآيةُ أحوالَهم من حيث العلْويَّةُ أوِ الدُّونيَّةُ

قابَلَ القرآنُ بين الصّالحين وبين غيرِهم بوَسْم غيرِهم بالدّونيَّة، دون أن يقول: الفاسدون أو المُسيؤونَ أو غير ذلك؛ للإشارة إلى أنَّ الصّالحين هم أصحابُ المنزلة العليا، وأنَّ غيرَ الصّالحين في المنزلة الدُّنيا، مهما كانت أحوالُهم في أسباب المادّة والقوّة، فَهُمْ في مرتبة الدونيَّةِ في مقابل المرتبة العلويّة.

الـثَّـنـاءُ على الصّالحين من بني إسرائيل وإنصافُهم

دلالة تقديم ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾:

تقدَّم ذِكْرُ ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ في الآية من باب تحفيزِهم على العمل الصّالح، وللإشارة إلى إنصافِهم بتقديم ذكرِ أصحاب الفضل

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/415.

والمنزلة؛ بكونهم أهلَ الصلاح فيهم ممّن تمسَّك بشريعة موسى والمصدِّقين للأنبياء المبعوثين من بعده، وليتَّفِق كذلك مع تقديم البلاء بالحسنات على البلاء بالسّيئات.

الموقع النحويُّ لقوله: ﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾:

انتصب ﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ على الظَّرفية؛ وصفًا لمحذوفٍ دلَّ عليه قوله: ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾ أي: (ومنهم فريقٌ منحطٌّ عن الصالحين)[1].

نُكْتَةُ التّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَۖ﴾:

الإشارة للصّالحين باسم الإشارة للبعيد يأتي لعلوّ منزلتهم عن غيرهم

المشارُ إليه هنا هم الصالحون، والمعنى: ومنهم فريقٌ دون الصّالحين، فأفاد اسمُ الإشارة المستعمَلُ للبعيد تنزيلَ البُعْدِ المعنويِّ في الدّرجة منزلةَ البُعدِ الحسّيِّ؛ لتفخيم شأن الصّالحين ورفْعِ منزلتِهم عن غيرهم.

معنى الواو في ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم﴾ ودلالتها:

صوَّرَتِ الآيةُ أحوالَ بني إسرائيل المختلفةَ

الواو عاطفةٌ، عَطَفتْ قولَه: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم﴾ على ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ويفيد هذا العطفُ اشتراكَ العاطفِ والمعطوفِ في كونِهما من النِّعَمِ أو النِّقم لبني إسرائيل، وذلك بحسب مفهوم التّقطيعِ لهم، وعلى كلِّ الأحوال فهو عطفُ حالةٍ على حالة أخرى من أحوالهم. ويصبح المعنى: أي عاملناهم معاملَةَ المبتَلى الممتحَن تارةً بالنِّعم الكثيرة كالصحة والخِصْب وسَعة الأرزاق، وتارةً بالنِّقَم المتنوعة كالجَدْبِ والأمراض والشدائد؛ لعلَّهم يَرجِعون إلى طاعة ربهم، ويَتركون ما نُهوا عنه من المعاصي والسيئات[2].

معنى الباء في ﴿بِٱلۡحَسَنَٰتِ﴾:

الباءُ للسَّببيَّة؛ فقد تحقَّقَ البلاءُ فيهم، وظَهَرتْ مختلِفُ أحوالِهم بسبب الحسنات والسّيئات[3].

---

(1) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 70/3.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 414/5.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 158/9.

مظاهر البلاء في الخير وفي الشرّ كثيرة لا تنتهي

معنى (ال) في: ﴿بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

(أل) جنسيّةٌ استغراقيّةٌ تَعمُّ كلَّ ما يَصلح أن يكون حسنةً أو سيّئةً؛ إذ إنَّ الحسنات والسّيئات هي تفصيلٌ للبلوى التي عامَلَهُم بها، وهي غيرُ محدودةٍ بحدٍّ، فتشملُ البلاءَ بالنِّعَم التي لا تُحصى ولا تُعدّ، وتشملُ كذلك البلاءَ بالنِّقَم وهو لا نهايةَ له.

نكتةُ تقديمِ البلاءِ بالحسنات على السّيّئات:

يقتضي المقامُ تقدُّمَ أحدِهما على الآخر مع مَنْعِ خلوِّ الأمرِ من أحدِهما أو كلَيْهما

تقدَّمَ البلاءُ بالحسنات على البلاء بالسَّيِّئاتِ في هذا الموضع؛ لأنّه جاء في سياق الحديث عن النِّعَم التي أنعمَها الله تعالى على بني إسرائيل، وجُلُّ هذه النِّعَم كان بالحسنات، فَضْلًا عن أنّه تقدَّمها قوله ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾، فتناسبا في تقديم ما تتشوَّقُ إليه النّفسُ. لكنّه في موضع آخَر قدَّم البلاءَ بالشرِّ على البلاء بالخير؛ وذلك حتّى تكتملَ صورةُ البلاء في القرآن، فقد يَسبِقُ أحدُ البلاءَيْن الآخَرَ، ولكنَّ الأمرَ لا يخلو من أحدِهما، فطبيعةُ البلاءِ مانعٌ من خلوِّ أحدِهما عن الظّهور أو اجتماعهما معًا - فقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: 35]، ولا يخفَى هنا أنّ ذِكْرَ الموتِ استَلْزَم تقديمَ الشرِّ لما جُبِلَتْ عليه أغلبُ النّفوسِ من كراهيةٍ لذِكْرِ الموتِ، ورغبةٍ في الخلود.

نكتةُ فَصْلِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ عن سابقتها:

استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ

جملة: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ جملةٌ تعليليَّةٌ وقعتِ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: لِمَ فُعِل بهم ما فُعل؟ أي: رجاء أن يتوبوا، أي: حين يذكرون مدَّةَ الحسنات والسَّيِّئات، أو حين يرون حُسْنَ حالِ الصّالحين وسوءَ حالِ مَن هم دون ذلك؛ على حسب الوجهيْن المتقدّميْن[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 158/9.

غرض التّعبير بالحرف الدّالّ على الرّجاء:

عبَّر القرآن بـ(لعلّ) وهي حرفٌ مشبّهٌ بالفعل مفيدٌ للتوقُّع وللتّرجّي أو الإشفاقِ، مع أنّ الأمر المقترِن بحرف التّرجِّي الذي يقول عنه القرآن مُحقَّقُ الوقوعِ لا يَتخلَّفُ عن مراد اللّه تعالى؛ لأنَّ (لعلَّ) من اللّه واجبٌ، وذلك لأنّ حرفَ الرجاء يحمل في طيّاتِه دعوةً لهم مشوبةً بالرّجاء أن يمتثلوا ويعودوا إلى الجادّة، فحرفُ الرّجاءِ يَجعل الأمر ظنّيًّا ويترك لهم حرّيةَ الاختيار وإطلاقَ المشيئةِ.وقد يكون (لعل) هنا مستعملٌ في التّمنّي لإبراز المتمنّى على أنّه مرجوُّ الوقوع.

لا يخلو حرفُ (لعلّ) من بقاء معنى الرّجاء فيه

غرض التّعبير بـ﴿يَرۡجِعُونَ﴾:

المعنى المحوريُّ لـ(رجع) تدور حول: تحوّلٍ عن الاتّجاه أو الحال إلى عكسه - كما يتردّد الماء في الغدير؛ لأنّه محتَبِسٌ فيه لا يَسترسِلُ بعيدًا، وكما يتحوّل الماء الصافي العذب المُرْويُّ إلى عَرَقٍ كريهِ الريح[1]. والمرادُ هنا تحوُّلهم عن المعاصي ونقضِ العهود إلى التّوبة والامتثال والصّلاح، والتّعبيرُ بصيغة المضارعة تُفيد تجدُّدَ هذه الدّعوة لهم عند كلّ معصية قد يُقْدِمون عليها، وفي كلّ وقتٍ يمكن أن يفتحوا فيه قلوبَهم وآذانهم لسماعِ الحقّ.

دعوةَ بني إسرائيل لمراجعةِ حالهم والتّحوّل عن مسارِهم إلى الامتثال لأمر الله تعالى

نُكتةُ حذفِ متعلِّق ﴿يَرۡجِعُونَ﴾:

لم تبيّن الآية الكريمة مُتَعَلِّقَ ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ أَهُوَ الرّجوعُ عن المعاصي عمومًا، أمِ الرّجوعُ عن التّحايل في الاصطياد في يوم السّبت، أمِ الرّجوعُ إلى اللّه عن غيره بالتّوبة والصّلاح، ولا شكَّ أنّ حذف المتعلِّقِ يعمُّ ذلك كلّه، وهو الأولى.

الحذف لتعميم ما يمكن أن يتعلّق به

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجع).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّفريق والتَّقطيع والتَّمزيق والتَّشييع:

لفظةُ التّقطيعِ كانتِ الأنسبَ في وصـف مـا جـرى مع بني إسرائيل في هذا الموضع

بَيَّن صاحبُ "الفروق اللغوية" أنَّ التّفريقَ هو جعلُ الشيءِ مُفارِقًا لغيرِه، حتّى كأنّه جعل بينهما فَرْقًا بعد فَرْقٍ حتّى تَفارَقا[1]. وتقدَّم أنَّ التَّقطيعَ موضوعٌ لإزالة الاجتماع في الأشياء المتماسكة، الحسّيّة والمعنويّة، وإزالة الاجتماع في التَّقطيع أشدُّ وأقوى من التَّفريق. أمّا التَّمْزيقُ فهو في الأصل قَطْعُ الثّوبِ وتخريقُه[2]. أمَّا التَّشييع فهي أن يَنتسِبَ الرَّجلُ إلى جماعةٍ يميل إليها مَحبَّةً وتَعصُّبًا، وأصلُها من الشّياع وهي الحَطَبُ الدِّقاقُ الَّتي تُجعل مع الجَزْل في النّار؛ لتشتعلَ كأنَّه يجعلها تابعًا للحطب الجَزْل لتشرق[3].

وكلُّ مفردةٍ من هذه المفردات تأتي في موضعها الأخصِّ بها في القرآن لا تُشاركُها فيه غيرُها من الألفاظ المقارِبة، فالتَّقطيعُ تفرّقٌ مخصوصٌ يكون في الأشياء الصُّلبة، واستُعير هنا لتشبيه تفرُّقِهم به فيصعب اجتماعُهم بعدها، والتّمزيق نوعٌ مخصوصٌ من التّقطيع، وكان عقوبة لسبأ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾ [سبأ: 19] فهو تقطيعٌ إلى أشلاء وخروقات صغيرة، فهو أشدّ من التّقطيع، ولذا ناسَبَ وَصْفُ بني إسرائيل هنا بلفظة التّقطيع دون غيرها لاحتمال أن يكون هذا التّقطيع إلى أسباطٍ نعمةً أخرى مضافةً إلى نِعَمِهم السابقةِ.

الابتلاء والاختبار والفتنة:

الابـــتـــلاء هـو الأنسبُ في المقام هنا؛ لأنّه أعمُّ في الدّلالة وكائنٌ في الخير وفي الشرّ

تقدَّمَ سابقًا معنى الابتلاء، وأمّا الفتنةُ فأصلُها من إدخال الذّهب بالنّار لتظهرَ جودتُه من رداءتِه، وجُعلتِ الفتنةُ كالبلاء في

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 170.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مزق).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغوية، ص: 312.

أنّهما يُستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان من شدّةٍ ورخاء[1]. قال أبو هلال العسكريُّ في التفريق بين الفتنة والاختبار، هو: "أنَّ الفتنة أشدُّ الاختبار وأبلغُه، وأصله عَرْضُ الذَّهب على النّار لتبيِّن صلاحَه من فسادِه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]. ويكون في الخير والشّرّ، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: 15]. وقال تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجن: 16 - 17]؛ فجَعَلَ النّعمةَ فتنةً لأنّه قَصَدَ بها المبالغةَ في اختبارِ المنعَم عليه بها، كالذّهب إذا أُريد المبالغةُ في تعرّف حالِهِ أُدْخِل النّار، والله تعالى لا يَختبر العبدَ لتغييرِ حالِهِ في الخير والشّرّ، وإنّما المراد بذلك شدّة التّكليف.

أمّا الفرقُ بين الاختبار والابتلاء: فهو أنَّ الابتلاء لا يكون إلّا بتحمُّلِ المكارهِ والمشاقِّ.

والاختبار: يكون بذلك وبفعل المحبوب، ألا ترى أنّه يُقال: اختبَرَهُ بالإنعام عليه، ولا تقول: ابتلاهُ بذلك، ولا هو مُبْتَلى بالنّعمة، كما قد يقال إنّه مُختبَرٌ بها.

ويجوز أن يقال: إنَّ الابتلاءَ يقتضي استخراجَ ما عند المبتَلَى من الطّاعة والمعصية، والاختبارَ يقتضي وقوعَ الخبر بحاله في ذلك، والخبر: العلمُ الَّذي يقع بِكُنْهِ الشّيء وحقيقتِه، فالفرقُ بينهما بيِّنٌ"[2]. فلفظةُ الابتلاءِ هي الأنسبُ في المقام هنا؛ لأنّها أعمُّ في الدّلالة على سَعةِ الابتلاءِ، وأنّه كائنٌ في الخير وفي الشرّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (فتن).

(2) العسكريّ، معجم الفروق اللّغوية، ص: 10، و12، و396.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف 169]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طولُ عهدِ بني إسرائيل بينهم وبين موسى عليه السلام أدَّى إلى قسوةِ قلوبِ أكثرِهم

ولَمّا كانَ العَذابُ الَّذي وقَعَ التَّأذُّنُ بِسَبَبِه [مُمْتَدًّا] إلى يَوْمِ القِيامَةِ، تَسَبَّبَ عَنْهُ قَوْلُهُ: ﴿فَخَلَفَ﴾ أيْ: نَشَأ، ولَمّا كانُوا غَيْرَ مُسْتَغْرِقِينَ لِزَمانِ البُعْدِ، أتى بِالجارِّ فَقالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ أيْ: قَوْمٌ هم أسْوَأُ حالًا مِنهم[1]. والآيةُ تَفْريعٌ عَلَى قَوْلِه تعالى في الآية السابقة: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ﴾ إنْ كانَ المُرادُ تَقْطيعَهُمْ في بِلادِ أعْدائِهِمْ وإخْراجَهُمْ مِنْ مَمْلَكَتِهِمْ، فَتَكُونُ الآيَةُ مُشيرَةً إلَى عَوْدَةِ بَني إسْرائيلَ إلَى بِلادِهِمْ وبناء بَيْتِ المَقْدِسِ بَعْدَ خَرابِهِ. وإنْ كانَ المُرادُ مِنْ تَقْطيعِهِمْ في الأرْضِ أُمَمًا تَكْثيرَهُمْ والامْتِنانَ عَلَيْهِمْ، كانَ قَوْلُهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ تَفْريعًا عَلَى جَميعِ القِصَصِ المُتَقَدِّمَةِ الَّتي هيَ قِصَصُ أسْلافِهِمْ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَخَلَفَ﴾: الخاء واللّام والفاء أصولٌ ثلاثة: أحدُها: أن يجيءَ شيءٌ بعد شيءٍ يقوم مقامه، والثاني: خلافُ قُدّام، والثالث: التغيُّرُ، ويقولون: هو خَلَفُ صدقٍ من أبيه، وخَلْفُ سَوءٍ من أبيه، فإذا لم يذكروا صدقًا ولا سَوءاً قالوا للجيّد: خَلَفٌ، وللرَّديء: خَلْفٌ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/159.
(3) ابن فارس، مقاييس في اللّغة: (خلف).

وأضاف الراغب الأصفهاني: "وخَلَفَ ضدُّ تقدّم وسَلَف، والمتأخّرُ لقُصورِ منزلتِهِ يُقال له: خَلْفٌ، ولهذا قيل: الخَلْفُ الرديءُ، والمتأخّرُ لا لقصور منزلته يقال له: خَلَفٌ، قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾"[1].

ويظهر من كلام الرّاغب أنّ (خَلْفٌ) تُقال في كلتا الحالَيْن: قصور المنزلة أو التّأخّر، وبهذا يظهر أنَّ المُعوَّلَ عليه في التّفريق بينهما هو السياق، فعلى معنى الذّمّ قال تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۞﴾ [مريم: 59]. وبعضُ العلماءِ مَن جعل (الخَلَف) في الصّالحين، و(الخَلْف) في الرديئين واستدلّوا بقول لبيد:

ذَهَبَ الّذينَ يُعاشُ في أكنافِهمْ *** وبَقيتُ في خَلْفٍ كجِلدِ الأجرَبِ[2]

2) ﴿وَرِثُواْ﴾: الإرْثُ: وهو أن يكون الشيءُ لقوم، ثمّ يصير إلى آخرين بنسبٍ أو سببٍ[3]، أو هو: ما يُخَلِّفُهُ المَيِّتُ بعد مَوْتِهِ من مالٍ ونَحْوِهِ، ويُسَمّى أيْضاً: الوِرْثُ، والتُّراثُ، والميراثُ، والمَوروثُ، يُقالُ: وَرِثَ أباهُ، يَرِثُه، إرْثاً، فهو وريثٌ، أيْ: صارَ إلَيْه مُلْكُهُ بعد مَوْتِهِ، ومِن مَعانيه: أَصْلُ الشَّيْءِ، وبَقيَّتُهُ، والأَمْرُ القَديمُ[4]. والمعنى هنا: أخذوا التَّوراة.

3) ﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ العَرْض: خلافُ الطُّولِ، وأصلُه أن يُقال في الأجسام، ثمّ يُستعمل في غيرها، والعَرْضُ خُصّ بالجانب، وعَرَضَ الشيءُ بدا عرضُه. والعَرَضُ: ما لايكون له ثباتٌ، ومنه استعار المتكلّمون العَرَضَ لِما لا ثَباتَ لهُ إلّا بالجَوْهَر كاللّون والطّعم، وقيل: الدّنيا عَرَضٌ حاضِرٌ؛ تنبيهًا على أن لا ثباتَ لها[5]. والمراد هنا: ما يَعرِضُ لهم مِنَ الدُّنيا ممّا لايكونُ له ثباتٌ، والأَدْنَى: الأمرُ الأقربُ، وهي الدُّنيا[6].

4) ﴿وَدَرَسُواْ﴾: دَرَسَ الدّارُ معناه بقيَ أثرُها، وبقاءُ الأثرِ يقتضي انْمِحاءَهُ في نفسه، فلذلك فُسِّرَ الدُّروسُ بالانْمِحاءِ، ودَرَسْتُ العِلمَ: تناولتُ أثرَه بالحِفظ، ولَمّا كان تناوُلُ ذلك بمداومةِ القِراءةِ، عبَّرَ عن إدامةِ القِراءةِ بالدَّرسِ[7].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(2) لبيد بن أبي ربيعة، ديوان لبيد، ص: 24.
(3) ابن فارس، مقاييس في اللّغة: (ورث).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ورث).
(5) الرّاغب، المفردات: (عرض).
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 659.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (درس).

سوءُ وراثةِ التَّوراةِ وجعلُها بضاعةً للبيع والشِّراء، حسب مقتضياتِ الأغراض والأهواء

۞ المَعنى الإِجْماليُّ:

فَخَلَفَ من بعد أولئك القومِ الذين قَطَّعناهُم في الأرض أُممًا خَلْفُ سوءٍ، وَرِثوا كتابَ اللّه وهو التوراة فقرؤوهُ وتعلَّموه، ووَقفوا على ما فيه من تحليلٍ وتحريمٍ وأمرٍ ونَهْيٍ، ولكنّهم لم يتأثّروا به بل خالَفوا أحكامَه، واستَحَلُّوا محارمَه مع علمهم بها، فَهُم يتهافَتون على حُطام الدنيا ومتاعها، ويتقبّلون المالَ الحرامَ بشراهةِ نفسٍ، ويأكلون السُّحْتَ أكلًا كثيرًا، ويقولون وهم والِغونَ في المعاصي ومُصِرُّونَ على الذُّنوب: إنّ اللّه سيَغفرُ لنا ذُنوبَنا ولا يؤاخذنا بما أكلنا من أموال، لأنّنا من نَسْلِ أنبيائه، فنحنُ شعبُه الذي اصطفاه من سائر البشر، إلى غير ذلك من الأقاويل التي يفترونها على اللّه وهم يعلمون[1].

وإن يأتِ هؤلاء اليهودَ متاعٌ زائلٌ من أنواع الحرام يأخذوه ويستحلُّوه، مصرِّين على ذنوبهم وتناوُلِهم الحرامَ، أَلَمْ يُؤخَذْ على هؤلاءِ العهودُ بإقامةِ التَّوراةِ والعملِ بما فيها، وألَّا يقولوا على اللّه إلا الحقَّ، وألَّا يكذبوا عليه، وعَلِموا ما في الكتاب فَضَيَّعوه، وتركوا العملَ به، وخالَفوا عهدَ اللّه إليهم في ذلك؟! والدَّارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتَّقون اللّه، فيمتثلون أوامرَه، ويجتنبون نواهيَه، أفلا يَعقل هؤلاء الذين يأخذون دنيءَ المكاسب أن ما عند اللّه خيرٌ وأبقى للمُتَّقين؟[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى شناعةِ مَن فَهِمَ كتابَ اللّه ولم يكن عنده فيه إشكال، وكان في أمرِه مُسْتَبصِرًا، ثم يَعمد إلى مخالفةِ أمرِه واتباعِ هواه وشهواتِه؛ فهذا السُّلوك أعظمُ للذَّنب، وأشدُّ لِلَّوم، وأفظَعُ للعقوبة.

---

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 5/425 - 426.

(2) نُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 172.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في ﴿فَخَلَفَ﴾ ودلالتُها:

الفاء للعطف والتَّعقيب والتَّرتيب السريع؛ لبيان أنّ أَمْرَ مَن جاء بعدهم لم يَطُلْ كثيرًا في التّحوّل والتبدّل.

فائدةُ مجيءِ القَيْد ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ومعنى ﴿مِنۢ﴾:

(من) ابتدائيّة، والمقصودُ بمن بعدهم أي: مَن جاء مَن أصلابِهم وذُرّياتِهم بعد ذلك، والمقصود: من ذرّية من اعتدَوْا في السّبت، ومن وَقَعتْ عليهم عقوبةُ التّقطيعِ والتّقسيمِ في الأرض، وقد يكون اليهودُ المعاصِرون للنبيّ ﷺ هم المقصودون بذلك[1].

فائدة تقديم شبه الجملة الظرفيّة على الفاعل:

تقديمُ شبهِ الجملة الظرفيّة له مسوّغاتُه اللّفظيّة والمعنويّة

لتقديم شبهِ الجملة الظّرفيّة غَرَضانِ، أحدُهما: يتعلّق بالمعنى؛ فالمقصود هنا أنّ هذه الذّريّةَ التي تتحدّث عنها الآيةُ هم من أصلابِ أولئك الذين اعتَدَوا في السّبت، وليسوا من أصلابِ غيرِهم، ولذلك قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾، أي: من بعد مُضيِّهم وهلاكِهم جاء مِن نَسْلِهم مَن فَعَل مثلَ فَعْلَتِهم. وفي هذا التّقديم أيضًا تعريضٌ باليهود المعاصِرين للنَّبيّ ﷺ، فقد يكونون هم المقصودين أو أجدادَهم القريبين.

وأمّا الغرضُ الآخَرُ: فهو يتعلَّقُ بالرَّوْنقِ وجَرْسِ الكلام، فقد توسَّطَتْ شبهُ الجملةِ الظرفيّة بين الفعل والفاعل المشتقَّيْن من أصلٍ واحدٍ؛ تجنُّبًا للتَّكرار في قولنا: (فخلف خلفٌ من بعدهم).

نُكتةُ تنكيرِ ﴿خَلۡفٌ﴾:

التّحقيرُ والذّمُّ لصفاتِهم، وأنهم ليسوا أهلًا لوراثة الكتاب

التّنكيرُ هنا أفاد معنى التّحقيرِ والذّمِّ لما ذكَرَتْه الآيةُ من صفاتِهم، إذ هؤلاء الخَلْفُ قد خالَفوا أسلافَهم الصالحينَ في اتِّباعِ ما أنزله الله في التوراة، وأخذوا ما يُناسبُ أهواءَهم وشهواتِهم،

[1] ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/159.

وتَركوا ما يُقَرِّبُهم إلى الله من الطَّاعة والإخلاص. ويَدلُّ التنكيرُ هنا على أنَّهم ليسوا بأهلٍ لوراثةِ الكتاب، بل حالُهم خلافُ ما يجبُ أن يكونوا عليه من التَّقوى والأمانةِ والنَّزاهةِ والعِفَّةِ.

الموقع النّحويُّ والبيانيُّ لقولِه: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الجـمـلـةُ في موقع رفعٍ صفةٌ للخَلْف، ودَلَّتْ على إقامة الحُجّةِ عليهم

مقرَّرٌ في علم النّحو أنَّ الجُمل بعد النّكراتِ صِفاتٌ، وموقعُ الجملةِ هنا صفةٌ مرفوعةٌ لـ ﴿خَلۡفٌ﴾، وأفادتْ هذه الصِّفةُ أنَّ هذا الخَلْف قد وَصَلَهُمُ البيانُ؛ بأنْ قرؤوا التوراةَ وعَلِمُوها، وصاروا مرجِعًا فيها لأقوامهم ومعاصريهم، فأُقِيمَتْ عليهمُ الحُجّةُ؛ لأنَّ الكتابَ قد انتقلَ إليهم إرْثًا، فالحجَّةُ قائمةٌ عليهم.

بلاغة الاستعارة في التّعبير بالإرْث:

شبّهت الآية حمل الكتاب والتّمكّن منه بالإرث له

يقول ابن عاشور: يُطلق الإرْثُ مجازًا على مصير شيءٍ إلى حدٍّ بدون عِوَضٍ ولا غَصْبٍ؛ تشبيهًا بإرْثِ الميّت، فقوله: ﴿وَرِثُواْ﴾ مجازٌ في القيام مقامَ الغير، والمعنى: فخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ في إرْثِ الكتاب[1]. والمقصود بقوله: مجاز أنّها استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ شبَّه فيها معرفةَ الخَلْفِ بالوحي بالإرْثِ، بجامعِ التمكُّن في كليهما.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

عهديَّة تُشير إلى التَّوراة، والسِّياقُ في تَبْكيتِهم على إضاعةِ ما تحمَّلوه

(أل) عهديَّةٌ تشير إلى التَّوراة؛ لأنّها تتحدَّث عن بني إسرائيل، ولا مانعَ من إرادة الجنس لأنَّ الكُتبَ السماويّةَ يُصدِّق بعضُها بعضًا، فالتّكذيبُ لأحدِها تكذيبٌ لها جميعًا. والصوابُ الأولُ؛ لأنَّ المقامَ تقريرٌ لهم وتبكيتٌ على إضاعةِ ما تحمَّلوه من كتابهم المكلَّفينَ بالعملِ به وتعليمِ الناس وإفتائهِم منه - وهو التوراة -، وجماهيرُ المفسرين على أنَّ الكتاب هنا هو كتابُ موسى عليه السلام[2]. كما أنَّ المقامَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8ب/134، و9/160.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/534، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/395، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/498، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 307، والشَّنقيطيّ، العذب النمير: 4/296 - 297.

في الآية الكريمة ليس مقامَ إيمانٍ وكفرٍ بالكتبِ المنزَّلةِ، بل مقامُ تحمُّلٍ واتباعٍ وتبليغٍ.

الموقع النّحويّ والبيانيّ لقوله: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾:

الجملة نَحْويًا صفةٌ أو حالٌ، وبيانيًّا فهي استئنافٌ

من النّاحية النّحْويّة قد تكون صفةً ثانيةً لـ﴿خَلۡفٌ﴾، وقد تكون حالًا من ضميرِ ﴿وَرِثُواْ﴾[1]، ومن النّاحيّة البيانيّة فالجملةُ لم تُعطف على سابقتِها وجاءتْ مُستَأْنَفَةً بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: كيف خالَفوا الكتابَ؟ فجاءَ الجوابُ بأنّهم يُقدِّمونَ متاعَ الدنيا الزائلَ على ما عند اللّه.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَأۡخُذُونَ﴾:

أفادَ المضارعُ التّجدُّدَ الاستمراريَّ واستحضارَ الصورة

التعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿يَأۡخُذُونَ﴾؛ تفيدُ الحدوثَ والتَّجَدُّدَ؛ لأنَّ هذا الوصفَ لا يخلو منه زمانٌ من الأزمنة، فَضْلًا عن إرادةِ استحضارِ تلك الصّورةِ القبيحةِ من الإفتاءِ والحُكْمِ بالباطلِ، وتَفَشّي الرِّشوةِ فيهم، وغيرِ ذلك من صورِ انتفاعِهم من مناصِبِهم الدينيةِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بالأخذِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الأخذُ على حقيقتِه إنْ أُريدَ بالعَرَضِ الأدنى الأمورُ المحسوسةُ، أو على المجازِ إنْ أُريدَ الذّنوبُ

يقول ابن عاشور: "إنّ التَّعبير بلفظ (الأخذ) في الآية الكريمة معناه الملابسةُ والاستعمالُ فهو مجاز، أي: يُلابِسونَهُ، ويجوز كونُه حقيقةً، فيَصْدُقُ بالتّناولِ باليدِ وبغيرِ ذلك، فهو من عُمومِ المجاز"[2].

وعلى المعنى المجازيّ تكون استعارةً تصريحيَّةً بتشبيهِ ملابَستِهم وتعامُلِهم مع العَرَضِ الزائلِ بالأخذِ؛ بجامعِ الانتفاعِ والتملُّك له. أو بتشبيهِ ملابَستِهم للذُّنوبِ والمعاصي بالأخذِ؛ بجامعِ وُقوعِها في حسابِهم. وأمّا إذا كان المرادُ بعَرَضِ هذا الأدنى الرِّشا وغيرَها من الأموالِ المحرَّمةِ فيكون الأخذُ على حقيقتِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 160/9، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 70/3.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 160/9، و161.

فائدةُ التّعبيرِ باسم الإشارةِ للقريب ﴿هَٰذَا﴾:

التَّعبيرُ باسم الإشارةِ الدَّالِّ على القريبِ فيه إيماءٌ إلى تحقيرِ هذا العَرَضِ الَّذي رَغِبوا فيه[1].

فائدةُ مجيءِ الوصفِ ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾:

الأدنى صفةٌ لموصوفٍ محذوف، تَقْديرُهُ: (الشيءُ الأدنى)، والمرادُ به الدّنيا، وهو من الدُّنوِّ للقُرْبِ بالنّسبة إلى الآخرةِ، وهو مُذَكَّرُ دُنيا[2]، وحَذْفُه هنا أفادَ التّحقيرَ له.

نكتةُ العطفِ في ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿يَأْخُذُونَ﴾؛ لأنَّ كِلا الخَبَرَيْنِ يُوجِبُ الذَّمَّ، واجتماعُهما أشَدُّ في ذلك[3].

دلالةُ التعبيرِ بالمضارعِ:

استحضارُ الصّورةِ البشعةِ لمقولتِهم والتجدُّدِ فيها

التّعبيرُ بالمضارع يفيدُ التجدُّدَ الاستمراريَّ لقولهم، ويُفيدُ مع ذلك استحضارَ هذه الصّورةِ البشعةِ لمقولتِهم تلك، ويرى ابن عاشور أنّ القولَ يَحْتَمِل أن يكون باللّسانِ، وهو الظّاهرُ بدلالةِ ما يأتي بعده، ويمكن أن يكون كلامًا نفسيًّا؛ لأنّه فرعٌ عنه، فهم يُعلِّلونَ به أنفسَهم حين يَجيشُ فيها نازعُ النّهي[4].

نكتةُ مجيءِ حرفِ التَّنْفيسِ في ﴿سَيُغْفَرُ﴾:

لِفَرْطِ ثقةِ بني إسرائيل بأنفسِهم يَظنُّونَ أنّ الله سيَغْفِر لهم ذنوبَهم في المستقبل

السّين: حرفُ تنفيسٍ للاستقبال، وهو مختصٌّ بالمضارع ويُخلِّصُه للاستقبالِ، وليس مُقْتَطَعًا من (سوف) كما يزعمُ بعضُ الكوفيين، ولا مُدَّةُ الاستقبالِ معه أَضْيَقُ منها مع سَوْفَ خِلافًا للبصريين[5]، والمعنى هنا: يقولون بعد أن يأخذوه: سيُغفَرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 161/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 141/6.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 162/9.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 161/9.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 158.

لنا أفعالُنا السيئةُ؛ لِفَرْطِ ثِقَتِهِم بأنفسِهم، وبأنّهم قريبونَ من ربّهم.

سِرُّ بناءِ الفعلِ ﴿سَيُغۡفَرُ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

للإيجازِ، وللاهتمامِ بالفعلِ دونَ النّظرِ إلى الفاعل

يقول ابن عاشور: "بُني فعل (يُغْفَر) في الآية الكريمة على صيغة المجهول؛ لأنَّ الفاعل معروف، وهو اللّه تعالى، إذ لا يصدر هذا الفعِل إلّا عنه ﷻ، وللدَّلالة على أنَّهم يقولون ذلك على وجه العموم لا في خصوصِ الذَّنْبِ الَّذي أُنْكِرَ عليهم، أو الذي تَلَبَّسوا بهِ حينَ القولِ"[1]. فالحذفُ هنا للإيجازِ، وفيه إشارةٌ أخرى أنّهم ركَّزوا على وقوعِ المغفرةِ لهم بغضِّ النّظرِ عن فاعلِها.

بلاغةُ حذفِ نائبِ الفاعل:

حُذِفَ نائبُ الفاعلِ إيجازًا لأنّه معلومٌ من السِّياقِ، وتقديرُه ذنوبنا

نائبُ الفاعلِ محذوفٌ لِعِلْمِه من السّياق، والتقديرُ: (سيُغفر لنا ذلك، أو ذُنوبُنا)؛ لأنَّهم يحسبون أنَّ ذنوبهم كلَّها مغفورةٌ، ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80]، أي: يُغفر لنا بدون سببِ المغفرةِ، وهو التَّوبة كما يُعلم مِن السّياق، وهو جَزْمُهم بذلك عَقِبَ ذِكْرِ الذَّنْبِ دون ذكرِ كفّارةٍ أو نحوِها[2].

معنى اللّامِ في ﴿لَنَا﴾:

تَحْتَمِلُ اللّامُ معانيَ متنوّعةً يُسَوِّغُها السِّياق

اللّامُ في ﴿لَنَا﴾ قد تكون للتَّعديةِ، أو للاستحقاقِ على اعتبارِ أنّهم يَظنّون استحقاقَهم للمغفرةِ، ويمكن أن يكونوا قَصَدوا بها التّخصيصِ بِظَنِّهم أنَّ المغفرةَ لا تكون إلّا لهم. ويمكن على معنى آخر أن تكون لامَ التّعليل؛ فالمغفرةُ كانت بظنِّهم لأجلِ مَنْفعتِهِم، فهذا كلُّه معقولٌ مُتَخيَّلٌ في حَقِّهم.

دَلالةُ الواو في قوله: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ﴾:

العطفُ أو الحال

الجملةُ الكريمةُ معطوفةٌ على الَّتي قبلها، وفائدةُ العطفِ هنا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/161.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/161.

كشفُ حالِهم وتصويرُ موقفِهم لِلقارئِ المتدبِّر، ويمكن أن تكونَ الواو حاليّةً من ضميرِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾.

نكتة التّعبير بـ(إن) دون (إذا):

عبّر بـ(إنْ) لقلّةِ الوقوعِ أو لكشفِ إصرارِهم على المعصية

(إنْ) و(إذا) حرفا شَرْط، وإن كان الأوّلُ منهما جازمًا دون الآخر من النّاحية النّحويّة، أمّا من النّاحية البيانيّة، فإنّنا نأتي بـ(إنْ) للأمرِ المشكوكِ به أو لمن نُنزِّلُه هذه المنزلةَ لأغراضٍ بلاغيّةٍ، بخلافِ (إذا) تمامًا؛ فإنّنا نأتي بها للأمرِ المحقَّقِ أو لمن ننزِّلُه هذه المنزلةَ خروجًا عن مقتضى الظاهر دون مقتضى الحال.

والتّعبيرُ بـ(إنْ) هنا قد يكون على ظاهرِه، والمرادُ به إبرازُ نُدْرَةِ وقِلَّةِ تَدافُعِ المنافعِ والمتاعِ نحوَهم مع وجودِ كُفْرِهم. أو يكون خروجًا عن مقتضى الظّاهر بإنزال إتيانِ العَرَضِ المماثِلِ لهم منزلةَ نادرِ الوقوعِ؛ للدّلالةِ على أنّه لا ينبغي أن يكون موقفُهم كذلك، بل هو في حُكْمِ نادرِ الوقوعِ لأنّه إصرارٌ على المعصية.

بلاغة التّعبير بالجملة الشرطيّة:

الجُمَلُ الشَّرْطيّة أقوى في ربطِ السببِ بالنّتيجة

التّعبيرُ بالجُمَلِ الشرطيَّةِ أقوى في تحقيقِ المعنى من الجُمَلِ غيرِ الشرطيّةِ؛ لأنّ الجملةَ الشرطيّةَ تُرتِّبُ نتيجةً على سببٍ، فجوابُ شرطِها مرهونٌ بتحقُّقِ فعلِه، وهنا عَلَّقتِ الجملةُ الشرطيَّةُ فِعْلَ الأخذِ بإتيانِهِمُ العَرَضَ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَرَضٌ﴾:

من المعلوم أنَّ النَّكِرَةَ في سياقِ الشَّرْطِ تَعُمُّ؛ فهيَ هنا شاملةٌ لكلِّ عَرَضٍ، سَواءٌ كان حسيًّا أو معنويًّا.

نُكتةُ المجازِ في ﴿يَأْتِهِمْ عَرَضٌ﴾:

إسنادُ الإتيانِ إلى العَرَضِ من بابِ الاستعارةِ التَّصريحيّةِ أو المجازِ العقليّ

يقول ابن عاشور: "واستُعِيرَ إتيانُ العَرَضِ لبذلِهِ لهم إنْ كان المرادُ بالعَرَضِ المالَ، وقد يُراد به خُطورُ شَهْوَتِه في نفوسِهم إنْ كان المرادُ بالعَرَضِ جميعَ الشهواتِ والمَلاذِّ المحَرَّمةِ، واستعمالُ الإتيانِ

في الذَّواتِ أنسبُ من استعمالِه في خُطورِ الأعراضِ والأمورِ المعنويةِ؛ لِقُرْبِ المشابهةِ في الأوَّلِ دون الثّاني"(1)، فَعَلى الاستعارةِ يكونُ قد شَبَّهَ بَذْلَهم للمنافعِ المادّيّةِ وانتفاعَهُم بها بالإتيانِ بجامعِ التَّمَكُّنِ منها وقُرْبِها. وقد يكونُ في إسنادِ الإتيانِ إلى العَرَضِ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ العَرَضَ لا يأتي وإنّما يُؤْتَى به.

الموقعُ البيانيُّ لقولِه: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم﴾:

الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ بماذا رَدَّ عليهم ربُّهم لمّا قالوا ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾؟

يقول ابن عاشور: -الجملة الكريمة- "جوابٌ عن قولهم: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ إبطالًا لمضمونِه؛ لأنَّ قولهم: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ يتضمَّنُ أنَّهم يزعمون أنّ اللّه وَعَدَهُم بالمغفرةِ على ذلك، والجملةُ معترِضَةٌ في أثناء الإخبارِ عن الصّالحين وغيرِهم. والمقصودُ من هذه الجملةِ إعلامُ النَّبيِّ ﷺ لِيَحُجَّهُم بها، فَهُمُ المقصودُ بالكلام، كما تشهدُ به قراءةُ: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بتاء الخِطاب"(2).

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبير بالميثاق:

شَبَّهَ العهدَ بالميثاقِ لأكثر من جامعٍ بينهما

أصلُ الميثاقِ: حبلٌ أو قَيْدٌ يُشَدُّ به الأسيرُ أو الدّابَّةُ، والميثاقُ عَقْدٌ مُؤَكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ(3). وهو مستعارٌ في قوله ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لتعاليمِ التَّوراةِ وأحكامِها وعُهودِها عليهم، فَحَذَفَ المستعارَ له وهو المشبَّه وتَرَكَ المستعارَ منه وهو المشبَّهُ بِهِ بجامعِ حُصولِ النَّجاةِ بهما، أو بإيصالِهما إلى بَرِّ الأمانِ، أو لِقوَّتِهما وكثرةِ فُروعِهما، أو لإمكانيّةِ نَقْضِهما، وذلك على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التَّبَعيَّةِ.

غرضُ الاستفهامِ ونوعُه:

الاستفهامُ تقريريٌّ توبيخيٌّ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم﴾ للتَّقرير، والمقصودُ منه التَّوبيخُ، وهذا التَّقريرُ لا يَسَعُهُم إلّا الاعترافُ به؛ لأنَّه صريح

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/162.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/162.

(3) الرّاغب، المفردات: (وثق).

كتابِهم[1]. ولا شكّ أنَّ الاستفهامَ التّقريريَّ أبلغُ في نفس السَّامع من مجرَّدِ الإخبارِ؛ لأنّ الاستفهام فيه - وإنْ كان ممّا لا يُحتاجُ معه إلى جوابٍ؛ لأنّه معلومٌ مقرَّرٌ - له نكهة الاستفهام تبقى قائمةً فيه؛ لكونه بمنزلةِ المثيرِ الذي يَحتاج إلى استجابة، فيدفعُ هذا الاستفهامُ التّقريريُّ المخاطَبَ فيه إلى إنعامِ النّظرِ والتّفكُّرِ بهذا السؤالِ في داخلِه، والبحثِ عن أجوبةٍ في نفسه له.

سرُّ بناءِ فعلِ الأخذِ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

بناءُ الفعل للمجهول من باب الإيجازِ، وللانشغالِ بالعهدِ نفسِه عن معرفة صاحبه

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جاء بناءُ فعلِ الأخذِ لما لم يُسَمَّ فاعلُه للإيجازِ للعلم به، فاللّه تعالى هو الذي أخذ عليهم هذا العهدَ، فَضْلًا عن نكتةٍ أخرى في حذفِ الفاعلِ وهي دعوتُهم للانشغالِ بالعهدِ نفسِه وضرورةِ الوفاء به، دون الانشغال عن ذلك بمعرفة مَن أخذه على وجه الخصوص.

فائدة تعدية فعل الأخذ بـ(على):

تضمَّنَ فعلُ الأخذِ معنى الفَرْضِ فتعدّى بـ(على) التي أعطتْ معنى الفوقيّة والاستعلاء

تضمَّن الفعل ﴿يُؤْخَذْ﴾ معنى الفعل (يُفرض) الذي تعدّى بـ(على)، فتكون قيمة التّضمين في قوّة الفعلَيْن: يُؤخذ ويُفرض، فيكون المعنى: أَلَم يُفرض عليهم العهودُ بإقامة التوراة والعمل بما فيها، حتّى كان حقًّا مأخوذًا منهم، إضافةً إلى معنى الاستعلاء في(على) وهي تُشعِر بهذه الفوقيّة من اللّه تعالى في أخذِهِ ميثاقَ الكتابِ منهم.

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيْهِم﴾:

الحديثُ كان عن بني إسرائيل وعمَّا جرى معهم من أحداث

قدَّمَ شبْهَ الجملةِ على نائب الفاعل ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنَّ مدارَ الحديث والعناية كانت منصبَّةً عليهم في استعراضِ تاريخِهِم الطّويل، وما جرى معهم من أحداثٍ وعقوباتٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 162/9.

نكتةُ إضافةِ الميثاقِ إلى الكتاب:

يقول ابن عاشور: "إضافةُ الميثاقِ إلى الكتاب على معنى (في) أو على معنى اللّام، أي: الميثاق المعروف به، والكتاب هو توراة موسى"[1]. فهو من إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه؛ لأنَّ الميثاقَ هو العهدُ، وهو وصيةُ موسى عليه السلام التي بَلَّغَها إليهم عن الله تعالى في مواضع كثيرة: أن لا يشركوا بالله شيئًا، وأن يتبعوا رسولَه محمدًا ﷺ إذا جاءهم.

الميثاق هو العهد، وهو وصية موسى التي بلغها إلى بني إسرائيل عن الله

وفيها إيماءةٌ إلى بني إسرائيل الذين خالَفوا عهدَ الله وكتابَه، وقالوا على الله ما لايَحِقُّ، وتركوا دراسة ما في كتابه من المعاني والأحكام. فالآيةُ دالَّةٌ على أَنَّ بني إسرائيل كانوا مُلزَمين بالامتثالِ لأوامرِ الله والإقرارِ بحقِّ رسولِه، ولا يجوز لهم أن يقولوا على الله إلا الحق.

معنى (أل) في ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ والمراد به:

الألفُ واللامُ في الكتاب للعهدِ، أي: الكتابُ المعهودُ، والمرادُ به التَّوراةُ، ولامانعَ من حَمْلِها على الجنسيّةِ لتشملَ الكُتُبَ السماويّةَ كلَّها لأنّها يُصدِّقُ بعضُها بعضًا.

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لقولِه: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾:

يرى الآلوسيُّ أنَّ هذه الجملةَ عطفُ بيانٍ للميثاقِ، وقيل: بدلٌ منه، وقيل: إنّه مفعولٌ لأَجْلِه، وقيل: إنّه مُتَعَلِّقٌ بميثاقٍ، بتقدير حرف الجرِّ، أي: (بأنْ لا يقولوا)، وجُوِّزَ في (أنْ) أن تكونَ مصدريّةً، وأن تكون مُفَسِّرةً لميثاقٍ؛ لأنّه بمعنى القول، وفي (لا) أن تكون ناهيةً وأن تكون نافيةً[2]. فَفَصْلُ هذه الجملةِ عن سابقتِها هو لِكَمالِ اتِّصالِها بها، أو لِشِبْهِ كمالِ اتّصالِها بها بأن تكونَ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ حولَ ما تضمَّنَه هذا الكتابُ. وفي كلّ الأحوالِ تَضمَّنتَ هذه الجملةُ إيجازًا

تحتملُ هذه الجملةُ مواضعَ نَحْويّةً وبيانيّةً متنوّعةً تُكسِبُها ثراءً في المعنى وغِنًى في الدّلالة

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/162 - 163.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/142.

بليغًا في الحَذْفِ في الدّلالاتِ المحتَمَلَةِ لكلِّ حرفٍ من حروفِها، وفي كلّ توجيهٍ من توجيهاتِ موقِعِها.

نوعُ القَصْرِ في الجملة وغَرَضُه وطريقتُه:

القَصْرُ هنا من قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفَةِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ

في قولِهِ تعالى: ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ قَصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وجاء بأسلوبِ الاستثناءِ بعد النَّفْيِ الذي يأتي في مواضعِ الجَلْجَلةِ، ورَفْعِ الصّوتِ، ومُغالَبَةِ المنكِر، أو ما يُنزَّلُ منزلتَه، وغرضُ هذا القَصْرِ أن يكون وصفُ قولِهم فيه لا في غيرِه.

فائدةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

تقديمُ شبهِ الجملةِ هنا مفيدٌ للتّخصيصِ، إذ لا يجوزُ أن يكون قولُهم عن الذّاتِ العليَّةِ على وجه الخصوصِ إلّا حقًّا.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

(أل) هنا استغراقيَّةٌ تَعمُّ قولَ الحقِّ فيما يتعلَّقُ باللّه تعالى؛ من صحةِ الاعتقادِ به في صفاتِه وأفعالِه كلِّها، وما وَصّاهُم به نبيُّه عليه السلام من أصولٍ وتشريعاتٍ وأحكامٍ وآدابٍ وتعاملاتٍ وأخلاقٍ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ على ما تَقدَّمَها:

عطفُ الماضَويّةِ على المضارِعيَّةِ لاشتراكِهِما في معنى المضيّ

في قولِه تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ عَطَفَ الفعلَ الماضي ﴿وَدَرَسُواْ﴾ على الفعلِ المضارعِ ﴿يُؤۡخَذۡ﴾؛ لما في الفعل المضارعِ ﴿يُؤۡخَذۡ﴾ من معنى المضيِّ؛ لأنَّ (لم) قَلَبَتْ معناه ماضِيًا. والمعنى: أَنَّهم قد أُخِذَ عليهِمُ العهودُ بأن لا يقولوا على اللهِ إلّا الحقَّ، وهُمْ عالمِونَ بذلك الميثاقِ المؤكَّدِ؛ لأنهم دَرَسوا ما في الكتابِ؛ فَبِمَجموعِ الأَمرَيْنِ قامَتْ عليهِمُ الحُجَّةُ[1]. ولا إِشْكالَ هنا في عَطْفِ الخَبَرِيَّةِ ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ على الإِنْشائِيّةِ ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ﴾؛ لأنّ مضمونَ الإنشائيّةِ هو الإخبارُ، فهي إنشاءٌ لفظًا خبرٌ معنًى.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 163/9.

وقيلَ: إنّ قولَه ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ حاليَّةٌ من ضميرِ ﴿يَقُولُواْ﴾، فالواو للحالِ على معنى: أُخِذَ عَليهِمُ الميثاقُ بأن لا يقولوا على اللّهِ إلّا الحقَّ الذي تَضمَّنَه كتابُهم في حالِ دِراسَتِهم ما فيه وتذكُّرِهم له، وفيه بُعْدٌ[1].

غرضُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾:

لم يكن تركُهُمْ للعملِ بالكتابِ عـن جـهـلٍ؛ فقد قـرؤوا ما فيه وعَـلِمـوهُ، فَذَنْبُهم أشدُّ ممن لم يَدرسْ ويعلم

المقصودُ من هذا التّعبيرِ المبالغةُ في إقامةِ الحُجّةِ عليهم، فالمعنى: أنّهم قد أُخِذَ عليهمُ الميثاقُ بأن لا يقولوا على اللّه إلّا الحقّ، وهم يَعرفون ذلك الميثاقَ؛ لأنّهم دَرَسوا ما في الكتاب؛ إذ لم يكن تركُهُم للعمل بالكتاب عن جهلٍ، بل كان على عِلْم، فقد قرؤوا ما فيه وعَلِمُوهُ، فَذَنْبُهُمْ أشدُّ ممن لم يَدرسْ ويَعلَمْ، فبِمَجْموعِ الأمرَيْنِ قامَتْ عليهمُ الحُجّةُ[2].

معنى ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا فِيهِۗ﴾:

﴿مَا﴾ هنا موصولةٌ، والمعنى: دَرَسوا الذي فيه، فشِبْهُ الجملةِ هي صِلتُه أو مُتَعَلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: كائنٌ أو موجودٌ هو صلتُه، والاسمُ الموصولُ يعودُ على أحكامِ الكتابِ وعهودِه.

الموقع البيانيُّ لجملة ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾:

بيانُ حالِهم من ضميرِ (يَأْخُذونَ) للتّعريضِ بهم بأنّهم نُزِّلوا في اختيارِهِمُ الدّنيا بـمـنـزلـةِ مـن لا عقولَ لهم

الجملةُ الكريمةُ: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ حاليَّةٌ من ضميرِ يأخذونَ، أي: يأخذون ذلك ويكذِبونَ على اللّه ويُصِرُّونَ على الذَّنْب، ويَنبِذونَ ميثاقَ الكتابِ على عِلم، في حال أنَّ الدّار الآخرَةَ خيرٌ ممّا تَعَجّلوه تعَجُّلوه. وفي جعلِ الجُملةِ في موضعِ الحالِ تعريضٌ بأنّهم يعلمون ذلك أيضًا، فَهُمْ قد قدَّموا عليه عَرَضَ الدُّنيا قَصْدًا، وليس ذلك عن غفلةٍ صادَفَتْهم فَحَرَمَتْهم من خيرِ الآخرةِ، بل هم قد حَرَموا أنفسَهم، وقرينةُ ذلك قولُه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بالاستفهامِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 143/6.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 163/9.

الإنكاريِّ التوبيخيِّ، وقد نُزِّلوا في اختيارِهم عَرَضَ الحياةِ الدّنيا بمنزلةِ من لا عقولَ لهم[1].

نكتةُ وصفِ الدَّارِ بالآخِرَة:

التّعريض بالدّنيا التي ركَض بنو إسرائيل إليها، وتبكيتٌ لهم بعُدولِهم عن الصِّفَةِ التي ينبغي أن يكونوا عليها

غرضُ وصفِ الدّار هنا بأنّها الآخرةُ، هو التّعريضُ بدارِ الدّنيا التي انْشَغلوا بعَرَضِها، والذي سَوَّغَ وَصْفَها بالآخرةِ هنا أنّه قالَ في حقِّ دارِ الدّنيا ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾. وفيه تبكيتٌ لبني إسرائيلَ بعد أَخْذِ اللّهِ العهودَ والمواثيقَ عليهم ألَّا يقولوا على اللّه إلَّا الحقَّ دونَ تحريفٍ أو تبديلٍ، وهم أيضًا قد عَلِموا ما في الكتاب من الأحكام والشرائعِ، فمَنْ هذه صفتُه ينبغي أن يكون ممَّن يرجو بدراستِه وعلمِه وعملِه وتعليمِه وأحكامِه وجهَ اللّه والدارَ الآخرةَ، ولا يكون ممَّن ضَيَّعَ عهدَ اللّه وتركَ العملَ به، وخالَفَ ما عَهِدَ اللّهُ إليه في ذلك.

سِرُّ تنكيرِ ﴿خَيۡرٌ﴾ وموقعُها النَّحْويُّ:

﴿خَيۡرٌ﴾ خبرٌ لـ﴿وَٱلدَّارُ﴾ وتنكيرُها يُفيدُ التّعظيمَ، وقد يُفيدُ التّنويعَ على أنّها ليستْ من جنسِ ما يُدرِكون كُنْهَهُ ونوعَه.

بلاغةُ الكنايةِ ودلالتُها:

دَلَّتِ الكِنايةُ على أنّهم خَسِروا الآخرةَ، وعلى أنَّهم ليسُوا من المتَّقينَ

يقول ابن عاشور: "وفي قوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ كنايةٌ عَن كَونِهم خَسِروا خيرَ الآخرةِ بأخذِهم عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ؛ لأنَّ كَونَ الدّارِ الآخرةِ خَيرًا مِمّا أَخَذوه، يستلزِمُ أن يكونَ ما أَخَذوه قد أفات عليهم خَيرَ الآخرةِ.

وفي جَعْلِ الآخرةِ خيرًا للمُتَّقينَ كنايةٌ عن كَونِ الَّذين أَخَذوا عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ لم يكونوا من المتَّقينَ؛ لأنَّ الكنايةَ عَن خُسرانِهم خَيْرَ الآخرةِ، مع إثباتِ كَونِ خَيرِ الآخرةِ للمُتَّقينَ، تَسْتلزِمُ أنَّ الذينَ أضاعوا خيرَ الآخرةِ لَيْسُوا من المتَّقينَ"[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/163.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/163 - 164.

معنى اللّام في ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

اللامُ في قوله: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ للاسْتِحقاقِ على اعتبارِ أنَّ المتّقين استَحَقُّوا هذا الإكرامَ، ولامانعَ من حمْلِها على معنى الاختصاص؛ لأنّ هذه الخيريّةَ لهم لا تتعدّاهُم لغيرِهِم.

اللّامُ للاستحقاقِ أو التّخصيصِ

غرضُ التّعبيرِ بالاسم الموصول:

التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ هنا يُفيدُ التّعظيمَ.

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصول فعليّةً:

التّعبيرُ بالجملةِ الفعليّةِ أَفادَ هنا التجدُّدَ الاستمراريَّ في الدّعوة للتّقوى، فَضْلًا عن إفادةِ استحضارِ صورةِ مَن يتوقَّى في أقوالهِ وأفعالهِ لِلقارِئِ الكريم.

التّجدُّدُ الاستمراريُّ واستحضارُ صورةِ المتّقين

بلاغةُ حذفِ مفعولَي ﴿يَتَّقُونَۚ﴾ و﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

الحذفُ هنا للتّعميم بإنزالِ الفعلِ المتعدّي منزلةَ الفعلِ اللّازم؛ ليشملَ كلَّ ما يُمكِنُ اتِّقاؤُهُ من محارم اللّه، أو غضبِه أو عذابِه، والتّقديرُ مع ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ أي: شيئًا على الإطلاقِ.

الحذفُ هنا للتّعميم

موقعُ الجملةِ الاستفهاميّةِ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

جاء ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ مَفْصولًا عمّا تَقدَّمَه؛ لأنَّهُ استفهامٌ، وما تَقَدَّمَهُ من قولِه ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾ خبرٌ، فالفَصْلُ لكمالِ الانقطاعِ بينهما لاختلافِ الخبريّةِ والإِنْشائيَّةِ، فلا يَجوزُ عَطْفُ الجملةِ الإنشائيّةِ على الخبريّةِ أو العكسُ إلّا إذا أُوِّلَتْ إحداهُما على معنى الأُخرى.

الجملةُ غيرُ معطوفةٍ على ما تَقدَّمَها لكمالِ الانقطاعِ لاختلافِ الخبريّةِ والإنشائيّةِ

نوعُ الاستفهامِ وغَرَضُه البيانيُّ:

الاستفهامُ إنكاريٌّ تَوبيخيٌّ لبني إسرائيلَ، وتوبيخٌ لهم على عدمِ التَّفكيرِ في عَواقبِ أمورِهم. والقصْدُ: أَفَلا يكونُ لكمْ عُقولٌ تُوازِنُ بينَ ما يَنبغي إيثارُهُ، وما يَنبغي الإيثارُ عليه، وما هوَ أَوْلى بالسَّعيِ إليه، والتَّقديمِ له على غيرِه، فَخاصِّيَّةُ العقلِ النَّظَرُ في العَواقبِ[1].

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 172.

نكتةُ حذفِ الجملةِ المقدَّرَةِ بين همزةِ الاستفهامِ وحرفِ العطفِ:

حذفُ الجملةِ المقدَّرَةِ هنا كان للإيجازِ، ولِتَذهَبَ النَّفسُ فيه كلَّ مذهبٍ

الفاءُ هنا عاطِفةٌ مُعقِّبةٌ، وأُخِّرتْ عن همزةِ الاستفهامِ؛ ليسَ فقطْ لأنَّ همزةَ الاستفهامِ لها الصَّدارَةُ، وإنّما هو - كما يُقرِّرون - لوجودِ جملةٍ محذوفةٍ بينها وبينَ همزةِ الاستفهامِ، تُقَدَّرُ بحسبِ السياقِ، والمعنى هنا: أَجَهِلْتُم فلا تَعْقِلون؟ أو: أَبَقيتُم على ضَلالاتِكُم فَلا تعقِلون؟ ومن هنا تَظهرُ بلاغةُ الحذفِ بينَ همزةِ الاستفهامِ وحرفِ العطفِ الذي يَليها.

فائدةُ الالتفاتِ في قولِه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

الالتفاتُ من الغَيْبةِ إلى الخِطابِ تَقريعٌ لليهودِ المعاصِرينَ للنَّبيِّ ﷺ

الالتفات في هذه الكلمةِ بحسبِ أحدِ وَجْهَي القراءةِ المتواترةِ: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ جاء خِطاباً لبني إسرائيلَ المعاصرينَ لنزولِ القرآنِ فَمَن بعدَهم، مما يُثيرُ فنّ التَّنويعِ في العبارةِ لفتًا لانْتِباه المتلَقّي، وبَعثًا لنشاطِه، ويفيد كذلك الإيجاز في التَّعبيرِ، لأنّ المقام مقامُ أن يقول: (وأنتم يا بني إسرائيلَ ما زِلْتُم على طريقةِ أسْلافِكُمْ، أفَلا تَعْقِلونَ؟) فاقْتَصَرَ النَّصُّ على: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ مُسْتَغْنيًا بأُسْلوبِ الالْتفاتِ، للدَّلالةِ على ما يُمكِن فَهْمُه ذِهْناً، إذِ اعتَبَرَهُمُ النَّصُّ داخِلِينَ في عُمومِ خِطابِ الغائبينَ السّالِفينَ، إذْ هُمْ موافقونَ على ما كانوا يفعلون، أو يفعلون مثلَهم.

نكتةُ التّعبيرِ بـ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

ضرورةُ تجدُّدِ التَّعقُّلِ لديهم، وحَصْرِ تصرُّفاتِهم وأقوالِهم على ما يُرضي اللهَ ويوافِقُ كتابَهم

الفعل ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: مشتقٌّ من (عَقَل)، والمعنى المحوريُّ الذي تدورُ حولَه هذه المادّةُ اللُّغويَّةُ هو: حَوْزٌ في جوفٍ حَصينٍ حَبْسًا، بحيثُ لا يَذهَبُ أو يَضيعُ - كالدُّرّةِ في صَدَفِها، وكما يَحوزُ الحِصنُ والملجأُ مَن يَحتمي به[1].

فالمعاني اللّغويّةُ للعقلِ تدورُ حولَ الحَجْرِ والمنْعِ للشَّيءِ الثمينِ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقل).

ومجيءُ هذا الفعلِ بصيغةِ المضارَعةِ هنا في سياقِ الاستفهام الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ؛ لِيَدُلَّ على ضرورةِ تجدُّدِ التَّعقُّلِ لديهم، وحَصْرِ تصرُّفاتِهم وأقوالِهم على ما يُرضي اللّه ويوافقُ كتابَهم.

بلاغةُ توجيهِ القراءتين في ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

تكاملُ القراءتانِ المتواترتانِ في توجيهِ التّوبيخِ والإنكارِ للسابقينَ والمعاصِرينَ من بني إسرائيل على أفعالهم

قرأ نافعٌ، وابنُ عامر، وحفصٌ عن عاصم، ويعقوبُ، وأبو جعفر بتاءِ الخِطاب، وقرأ بقيّةُ القُرّاءِ العشرةِ بياءِ الغَيْبة، فيكونُ توبيخُهم تعريضًا[1]. وقد تقدّم توجيهُ الالتفاتِ على قراءةِ تاءِ الخطاب في أنّه يمكن أن يكونَ توبيخًا للسابقِينَ منهم، أو المعاصِرينَ للنَّبيّ ﷺ؛ ليكونَ أوقعَ في توجيهِ التَّوبيخِ إليهم مُواجهةً. أمّا على قراءةِ ياءِ الغَيْبةِ فيكونُ التّوبيخُ للسابقين منهم، وبذلكَ تتساوَقُ جميعُ الضمائرِ في الآيةِ في الحديثِ عنهم.

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيِّ في الحديثِ عن صفاتِ (الخَلْف):

جاء في هذه السورة قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: 169]، وجاءَ في سورةِ مريمَ قولُهُ تعالى: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ [مريم: 59].

فَخُصَّتْ كلُّ آيةٍ منهما بوصفٍ دون الأخرى: فآيةُ الأعرافِ تتحدَّثُ عن خَلْفٍ قد وَرِثوا الكتابَ عن الصّالحين، لكنّهم انْشَغَلوا باللّذاتِ العاجلةِ عن الآجلَةِ، وأَصَرُّوا على معاصِيهم، فناسَبَهُ قولُه: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾.

أمّا آيةُ مريم فَيَسْبِقُها قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 256، وابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/257، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/163.

وَبُكِيًّا۩﴾ [مريم: 58]؛ فلما كانتْ أبرزُ صفاتِ هؤلاء: اجتباءَ اللّه لهم للرسالة والنبُوَّة، وهدايتَهم لطريقِهِ المستقيم، والخشوعَ والخضوعَ للّه بالمحافظةِ على الصَّلاةِ وإدامةِ السُّجودِ له، وكثرةَ البكاءِ من أثَرِ سماعِ آياتِ اللّه الدالَّةِ على شدَّةِ الخوفِ من اللّه الموجبةِ لعدم اتباع الشهواتِ - ناسَبَهُ وصفُ الخَلَفِ بأنهم: ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: 59].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

العَرَض والمتاع:

العَرَضُ كما تقدّم في شرح المفردات هو الأمرُ الَّذي يزولُ ولا يَدومُ؛ ويُراد به المال، ويُراد به أيضًا ما يَعرِضُ للمرء من الشَّهواتِ والمنافعِ. والمتاعُ النَّفعُ الَّذي تتعجَّلُ به اللَّذَّةُ؛ وذلك إمّا لوجود اللَّذَّة، وإمّا بما يكون معه اللَّذَّة(1). فالعَرَضُ هو وسيلةٌ لتحصيلِ المتاعِ.

العَـرَض هو وسيلةٌ لتحصيلِ المتاع

الأدنى والأقرب:

فرَّقَ بينهما أبو هلالٍ العَسْكريُّ بقوله: "إنَّ الدُّنُوَّ لا يكونُ إلّا في المسافةِ بين شيئَيْنِ، تقول: دارُهُ دانيةٌ ومزارُهُ دانٍ، والقُرْبُ عامٌّ في ذلك وفي غيره، تقول: قلوبُنا تتقارَبُ، ولا تقولُ تَتَدانى، وتقول: هو قريبٌ بقلْبِه، ولا يُقال دانٍ بقلْبِه إلّا على بُعْدٍ"(2).

كلّ دنوٍّ قُربٌ؛ لأنّ القُرْبَ أعمُّ من الدنوّ

القراءة والدراسة:

فَرَّقَ بينهما ابنُ عاشور بأنَّ الدِّراسةَ قراءةٌ بإعادةٍ وتَكرير؛ لأنَّ مادَّة (دَرَسَ) في كلامِ العربِ تَحوُمُ حولَ معاني التَّأثُّرِ من تَكرُّرِ عملٍ يُعمل في أمثاله، فمنه قولُهم: دَرَستِ الرّيحُ رسمَ الدّارِ إذا عَفَتْهُ وأَبْلَتْهُ، فهو دارِسٌ، يُقال: منزلٌ دارِسٌ، والطَّريقُ الدّارِسُ

الدراسةُ أَخصُّ من القراءةِ؛ لأنّها قراءةٌ بإعادةٍ وتَكرارٍ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 222.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللّغوية، ص: 343.

العافي الَّذي لا يَتَبيَّن. وثَوبٌ دارِسٌ: خَلَقٌ، وقالوا: دَرَسَ الكتابَ إذا قرأَهُ بِتَمَهُّلٍ لحِفْظِه، أو للتَّدبُّرِ - فَعُلِم أنَّ الدِّراسةَ أخصُّ من القراءةِ. ومادة (دَرَسَ) تستلزِمُ التَّمَكُّنَ من المفعولِ؛ فلذلك صارَ: دَرَسَ الكتابَ مجازًا في فَهْمِهِ وإتقانِه[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 295/3.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾ [الأعراف: 170]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ طريقِ الفلاحِ للسَّيرِ عليه

ولمّا بَيَّنَ ما للمُفسِدينَ من كَوْنِهم قالوا على اللّه غيرَ الحقِّ فلا يَغفر لهم، بَيَّن ما للصّالحينَ المذكورينَ في قوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف: 159]، فقال عاطِفًا على تقديرِه: أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم فيما دَرَسوا من الكتاب، ولا يُغفر لهم ما أتَوا من الفساد: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾[1].

ووَقَعتِ الآيةُ إلى آخرها عَقِبَ الَّتي قبلها؛ لأنَّ مَضْمُونَها مقابِلُ حُكْمِ الَّتي قَبْلَها إذ حَصَل من الَّتي قبلَها أنَّ هؤلاءِ الخَلْفَ الَّذين أَخذوا عَرَضَ الأدْنى قد فرَّطُوا في ميثاقِ الكتابِ، ولم يكونوا من المتَّقينَ، فَعَقَّبَ ذلك ببشارَةِ مَن كانوا ضِدَّ أعمالِهم، وهمُ الآخِذونَ بميثاقِ الكتابِ والعاملونَ ببشارته بالرُّسلِ، وآمَنوا بمحمَّدٍ ﷺ، فأولئك يَستكْمِلونَ أَجْرَهُم لأنَّهم مُصْلِحونَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُمَسِّكُونَ﴾: المَسْكُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حَبْسِ الشَّيءِ أو تَحَبُّسِه[3]، وإمساكُ الشَّيءِ التَّعَلُّقُ به وحِفْظُه[4]، والإمْساكُ: القَبْضُ، يُقالُ: أَمْسَكْتُ الشَّيءَ بيَدي، إمْساكاً، أيْ: قَبَضْتُه، وأَصلُه: حَبْسُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/146.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/164.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مسك).
(4) الرّاغب، المفردات: (مسك).

النَّفْسِ عن الفِعْلِ، وضِدُّهُ: الإِطْلاقُ والإِرْسالُ[1]. التَّمسّكُ بالكتابِ: التَّعلُّقُ بِهِ وحِفْظُهُ، كالقابِضِ على الشَّيءِ الَّذي يَرجو النَّجاةَ مِن قِبَلِه والفَوْزَ مِن جَهَتِه.

2) ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: الصَّلاحُ: ضِدُّ الفَسادِ، وهما مختصّانِ في أكثرِ الاستعمالِ بالأفعالِ[2]، والصّلاحُ: الاسْتِقامَةُ والاعْتِدالُ، يُقالُ: صَلَحَ، وصَلُحَ يَصْلُحُ، صَلاحاً، وصُلوحاً، أيْ: اسْتَقامَ واعْتَدَلَ، وأَصْلَحَ الشَّيْءَ بَعْدَ فَسادِهِ: أَقامَهُ وعَدَّلَهُ، ويأْتي بِمَعْنَى الخَيْرِ والنَّفْعِ، ومِنْ مَعاني الصَّلاحِ: السَّلامَةُ، والصِّحَّةُ والصَّوابُ والكَمالُ[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الصَّلاح والإصلاح ثمرةُ التمسُّك بالكتاب

والذينَ يَسْتَمْسِكونَ بأوامرِ الكتابِ الذي أَنْزَلَهُ اللّه، ويَعْتَصِمونَ بحبْلِهِ في جميعِ شُؤونِهم، إنّا لا نُضيعُ أجرَهم؛ لأنّهم قد أَصْلَحوا دينَهُم ودُنْياهُم، واللّهُ لا يُضيعُ أجرَ مَن أَحْسَنَ عملًا[4].

وتُرشِدُ الآيةُ إلى أنَّ اللّه بَعثَ رُسُلَه - عليهمُ الصلاةُ والسلامُ - بالصَّلاحِ لا بالفَسادِ، وبالمنافعِ لا بالمضارِّ، وأنَّهم بُعِثوا بِصَلاحِ الدّارَيْنِ، فَكُلُّ مَن كان أَصْلَحَ، كان أقربَ إلى اتِّباعِهِم[5]، وإلى أنَّ التَّمَسُّكَ بكتابِ اللّه والدِّينِ يحتاجُ إلى الملازَمَةِ والتَّكْريرِ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في الآية:

الواو عاطفةٌ على الآيـة السابقة لأنّهما حالَيْنِ مُتقابِلَيْنِ

الظّاهرُ أنَّ الواو عاطفةٌ على الآيةِ السابقةِ، وقد ذَكرَ الزَّمَخْشَريُّ

---

(1) ابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 428/5.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 172.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 374/9.

وَجْهَيْنِ لِوضْعِ الآيةِ النّحْويِّ مع ما سَبَقَها: الوجهُ الأولُ: أن يكونَ قولُه ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأً وخبرُه ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾؛ لأنَّ ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في معنى الذين يُمَسِّكونَ بالكتابِ، والثاني: أن يكونَ مجرورًا عَطْفًا على قولِه ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ويكون قولُه ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ اعتراضًا[1]، ورَجَّحَ أبو حيّان الوجهَ الأولَ، فقال: "استئنافُ إخبارٍ؛ لَمّا ذَكَرَ حالَ من لم يَتَمَسَّكْ بالكتابِ ذَكَرَ حالَ مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ؛ فيكونُ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ على هذا مرفوعًا بالابتداء وخبرُه الجملةَ بعدَه. وأَجازَ الزمخشريُّ أن يكون ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في مَوْضِعِ جَرٍّ عَطْفًا على ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، والاستِئْنافُ هو الظّاهرُ"[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول:

تعظيمُ حالِ مَن آمَن مِن اليهود بالكتابِ الذي أُنزِلَ عليهم، والثَّناءُ عليهم

أَفادَ الاسمُ الموصولُ هنا معاني التّعظيم والثَّناءِ والمدح لمن آمَن مِن اليهود بالكتاب الذي أُنزل عليهم، وتَمسَّكوا بأحكامِه ولم يُبَدِّلوها. وفي الآية ثناءٌ عليهم بأنَّهم الفائزونَ في الآخرة، وتَبْشيرٌ لهم بأنَّهم لا يَسْلُكون بكتابِهم مَسْلَكَ عمومِ اليهود بكتاب اللّٰه.

سرُّ مجيءِ جملةِ صِلَةِ الموصولِ بمادَّتِها وصيغتِها:

دَلَّـتْ مـادَّةُ (مـسـك) وصيغتُها على شدّة المبالغة في العناية بالكتاب وتجدُّدِ رعايَتِه والعملِ به

أفادتِ المادّةُ اللّغويّةُ هنا معاني الحفظِ والرّعايةِ والصّيانةِ للكتاب، كما أفادَ تضعيفُ السِّينِ في الفعلِ تَضْعيفَ العملِ، والمبالغةَ فيه. وأَفادَتْ صيغةُ المضارعيّةِ التَّجديدَ الاستمراريَّ في التمسُّكِ بالكتابِ في كلّ حين، فَضْلًا عن إفادَتِها استحضارَ صورتِهم أمامَ القارئ.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾:

شَبَّهتِ الآيةُ عملَ المؤمنينَ من بني إسرائيل بما في الكتاب بحالِ مَن يتمسَّكُ به بجامعِ الملابسةِ والملازمةِ، وعدمِ التّفريطِ فيه على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ التبعيّةِ، ويمكن أنَ تُجرى الاستعارةُ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 165/2.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 212/5.

على المَكْنِيَّةُ أيضًا بأن شَبَّهَ الكتابَ بالشيءِ المحبوبِ الذي مِن شَأنِه أن يُتمسَّكَ به، فَحَذَفَ المشبَّهَ به وأَسْنَدَ شيئًا من لوازِمِه وهو التَّمسُّكُ إلى الكتابِ على سبيلِ الاستعارةِ المَكْنِيَّةِ، كما يُمكن حَملُها على الكنايةِ أيضًا؛ إذ قد لا يُوجَد قرينةٌ مانِعةٌ من إرادةِ المعنى الحقيقيِّ في حمْلِهِمُ الكتابَ والقبضِ عليه بشدّة.

في تشبيهِ العملِ بالكتابِ بحالِ المتَمَسِّك به استعارةٌ بديعةٌ أو كنايةٌ جميلةٌ

التوجيهُ البلاغيُّ للقراءاتِ في ﴿يُمَسِّكُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ قرأ شعبةُ بسكونِ الميم وتخفيفِ السِّين ﴿يُمْسِكُونَ﴾، وقرأ الباقون بفتحِ الميم وتشديدُ السّين ﴿يُمَسِّكُونَ﴾[1].

وقراءةُ التَّشديدِ أفادَتْ معنى الحِرْصِ والمبالغةَ في العملِ بالتوراةِ والحرصِ عليها، وفيها معنى التَّكريرِ والتكثيرِ لِلتَّمَسُّكِ بكتابِ اللّه تعالى وبدينِه، فبذلك يُمْدَحونَ[2].

معنى الباء في ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾:

الباءُ في ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ قد تكونُ للسَّبَبِيَّةِ، على معنى أنّهم يتمسَّكونَ في دينِهم بسببِ هذا الكتاب، أو تكون الباءُ للمُصاحَبَةِ والملابسةِ على اعتبارِ أنّهم لا يَنْفَكُّونَ عنه. ويمكن حملُها من ناحيةٍ أُخرى على معنى الاستعانةِ، وفي كَوْنِها للاستعانةِ ما يُشْعِر بأنّ الكتابَ كأنّه آلةٌ يَستعينون بها على أمرِهم، لذا فَحَمْلُها على الملابَسَةِ والملاصَقَةِ قد يكونُ هو الأَوْلى.

تَحتمِلُ الباءُ مَعانيَ عديدةً ترتبطُ بالمعاني التي تُحمَلُ عليها

معنى (أل) في ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾:

الأظهرُ أن تكونَ (أل) عَهْدِيّةً، ويُرادُ بالكتابِ التوراةُ؛ لأنّ الآيةَ تتحدَّثُ عن بني إسرائيل، ولايوجَدُ ما يَمنعُ من ناحيةٍ أُخرى من أنْ تكونَ جِنسيَّةً استغراقيّةً يُراد بها مُطلَقُ الكتبِ السَّماويّةِ لأنّ بعضَها مُصَدِّقٌ لبعضِها الآخر، وهذا الأظهرُ.

(أل) هنا يمكن حملُها على العَهْدِ أو الجنسِ

(1) ابن النّاظم، شرح طيبة النَّشر في القراءات العشر، ص: 239.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 374/9.

المرادُ بـ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾:

المرادُ بالكتابِ التَّوراةُ أوِ القرآنُ أو جِنْسُ الكتبِ السَّماويةِ عُمومًا[1].

نكتةُ عطفِ ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على ما تَقدَّمَها:

تعظيمُ شأنِ الصَّلاةِ؛ لأنّها عمادُ الدّين

العَطْفُ في الآية من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالتَّمَسُّكُ بالكتابِ يَشْمَل كلَّ عبادةٍ ومنها الصَّلاة، ولكن خَصَّها بالعطفِ تعظيمًا لشأنها لأنّها عمادُ الدّين[2]، وهذا يَدلُّ على أنّ تاركَ الصلاةِ من (الخَلْفِ).

غرضُ التَّغايُرِ بين الجُمَلِ المعطوفةِ:

الفعلُ المضارعُ دَلَّ على تجدُّدِ التَّمسُّكِ، والماضي دَلَّ على رسوخِ قَدَمِهِم في العبادات

عُطِفَ قولُه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على قولِه ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ مع أنّه فعلٌ مضارعٌ؛ يقول البِقاعِيُّ: "ولَمّا كان مِن تَمسُّكِهم بالكتابِ عند نُزولِ هذا الكلامِ انتقالَهم عن دينِهم إلى الإسلامِ؛ كما وَقَعَ الأمرُ به في المواضِعِ التّي تقدَّم بيانُها، عَبَّرَ عن إقامةِ الصَّلاةِ المعهودةِ لهم بلَفظِ الماضي دونَ المُضارعِ؛ لِئلّا يَجعلوه حُجَّةً في الثَّباتِ على دينِهم، فيُفيدَ ضِدَّ المرادِ"[3]. فالفعلُ الماضي دلَّ على قِدَمِ رُسوخِهم في الطاعاتِ من صلاةٍ وغيرِها.

سِرُّ الاقتصارِ على إقامةِ الصلاةِ دونَ غيرِها من الأعمال:

خُصَّتْ بالذِّكرِ لِفَضْلِها، وشرفِها، وكونِها ميزانَ الإيمانِ، وإقامتُها داعيةً لإقامةِ غيرِها من العبادات

قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ إنّما خُصَّتِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مع دخولِها في التَّمسُّكِ بالكتاب؛ تنبيهًا على عِظَمِ قَدْرِها، وأنّها من أعظمِ العباداتِ بعد الإيمانِ باللّه ورسولِه[4]، وأنَّها من أَوْكَدِ الأمورِ التي يجبُ المحافظةُ عليها؛ ولكونِها عمادَ الدِّين وناهيةً عن الفحشاءِ والمنكَرِ[5]. وهي مِن أعظمِ ما يجبُ التَّمَسُّكُ به من المأموراتِ، ظاهرًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/212.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/212.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/146.
(4) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 10/204.
(5) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 5/428.

وباطنًا، ولهذا خَصَّها اللّه بالذِّكرِ لِفَضْلِها، وشرفِها، وكونِها ميزانَ الإيمانِ، وإقامتُها داعيةً لإقامةِ غيرِها من العبادات[1].

سِرُّ التّعبيرِ عن الصّلاة بإقامَتِها دونَ أدائِها:

معاني إقامةِ الصلاةِ من القيامِ بأركانِها والعمل بمقتضاها غيرُ مُستوعَبَةٍ في الأداء

يُورِد القرآنُ ألفاظاً وتعابيرَ دقيقةً ومناسبةً لما يُراد من معانٍ وأحكامٍ ومَقاصِدَ، ودائمًا ما يأمرُ بإقامةِ الصّلاةِ دونَ أن يأمرَ بأدائِها؛ لأنَّ إقامتَها تشملُ أداءَها وإقامةَ أركانِها والعملَ بمقتضاها في النّهي عن الفحشاء والمنكر.

والتعبيرُ بالفعلِ (أقاموا) في القرآن يعني أكثَرَ من مُجَرَّدِ (أدَّوْا)؛ لكون الإقامَةِ تشملُ الإخلاصَ والإحسانَ والاتّباعَ والإتقانَ في أداءِ الصلاة، بخلافِ مجرَّدِ القيامِ بها دون تَفَكُّرٍ أو تَدبُّرٍ أو خُشوعٍ. وتعني كذلك أن يقومَ المصلّي بالصَّلاةِ في أوقاتِها المحدَّدَةِ، وأن يؤدِّيَها بشروطِها وأركانِها وواجباتِها وسُنَنِها، وأن يَخشَعَ قلبُه لربِّه في كلِّ حال.

فالإقامةُ تُعبِّرُ عنِ استِمْراريَّةٍ وثباتٍ في هذه العبادةِ، بخلافِ مجرَّدِ القيامِ بها مرَّةً أو أدائِها أحيانًا وتَركِها أخرى؛ فالإقامةُ تعني أن يُؤدِّيَ المصلّي بالصلاة بصفةٍ دائمةٍ ومستمرَّةٍ، بِغَضِّ النَّظرِ عن الظُّروفِ أو العوائقِ التي تَطْرأُ عليه سَفرًا وحَضَرًا، سِلْمًا وحَرْبًا، صِحَّةً ومَرَضًا، وأنْ يَتَقيَّدَ بأحكامِها وآدابِها وحُدودِها، وأن يبتغيَ بها وجهَ اللّه تعالى ورِضاهُ.

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لقوله ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾:

الجملةُ لها محلٌّ من الإعراب وقعتْ خبرًا مؤكِّدًا للمبتدأ (والّذين يُمَسِّكون بالكِتابِ)

يقول ابن عاشور: "جملةُ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ خبرٌ عن ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾، والمصلحون هم، والتَّقديرُ: إنّا لانُضيعُ أَجْرَهُم؛ لأنَّهم مُصلِحونَ، فَطُوِيَ ذِكْرُهم اكتفاءً بشمولِ الوصفِ

(1) السعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 172.

لهم، وثناءً عليهم على طريقةِ الإيجازِ البديع"[1]. وجاء هذا الخبرُ على هيئةِ جملةٍ اسميَّةٍ مؤكّدةٍ للعنايةِ بهم ورفْعِ شَأْنِهم. ويمكنُ أن يكونَ الخبرُ محذوفًا تقديرُه: مَأْجورونَ أو مُثابونَ، وتكون هذه الجملةُ اعتراضيَّةً، أو هي استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ حولَ ثوابِهم عندَ اللهِ[2].

بلاغةُ تتابُعِ المؤكّداتِ في فاصِلَةِ الآية:

بثُّ الطمأنينةِ في قلوبِ المتمسِّكينَ بكتابِ الله، وحثُّهم على الاستقامةِ على أمر الله

أُكِّدَتِ الجملةُ بأكثرِ من مؤكِّد: (إنّ)، والجملةُ الاسميّةُ، وإعادةُ ذِكْرِ المسنَدِ إليه، مرَّةً بكونِه مبتدأً، ومرّةً بكونِه فاعلًا؛ وذلك لتقريرِ قيمةِ الإصلاحِ والتمسُّكِ بالكتابِ.

فإذا كان الخطابُ مُوجَّهًا أساسًا لبني إسرائيلَ وأحفادِهم؛ فإنّ التّوكيدَ على ظاهرِه لأنّهم يحتاجونَ إليه في حَثِّهم على الاستقامَةِ.

أمّا إنْ كان الخطابُ للمُسْلِمينَ منهم ومن غيرِهم، فالخروجُ عن الظَّاهِرِ في استعمالِ هذه المؤكِّداتِ إنّما هو لبيانِ أنَّ ظواهرَ الأعمالِ لا تكفي لحصولِ الثَّوابِ، بل لا بدَّ من العنايةِ ببَواطِنِها؛ لذا جاءَ قولُه ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ مُضَعَّفًا مُبالَغًا فيه، وجاءَ الأمرُ بإقامةِ الصَّلاةِ دونَ أدائِها، وجاءَ الوعدُ لِلمُصْلِحينَ دونَ الصّالحين.

فائدةُ تَوَسُّطِ النّفيِ بين المسنَدِ إليه والمسنَد:

توكيدُ الحكمِ وتقريرُه

تَوسَّطَ النّفيُ بـ(لا) بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليِّ ﴿نُضِيعُ﴾؛ لتوكيدِ الحُكْمِ وتقريرِه عند أهلِ المعاني، ولا يوجدُ قرينةٌ من حَمْلِه على التّخصيصِ في هذا الموضعِ.

فائدةُ التّعبيرِ بـ﴿نُضِيعُ﴾ مادّة وصيغة:

تدلُّ مادَّةُ (ضاع) على الفِقْدانِ والخسارة، ودلَّتْ صيغتُها على التجدُّدِ الاستمراريِّ

تدلُّ مادّةُ (ضاع) على الفِقْدانِ والخسارةِ، والتّعبيرُ بها هنا مفيدٌ أنَّ أَجْرَ هذه الأعمالِ لا يذهَبُ سُدىً، وآثَرَ التعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/164.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/585.

الفعلِ المضارعِ ﴿نُضِيعُ﴾ الذي يدلُّ على التجدُّدِ والاستمرارِ؛ لِيَدُلَّ على أنَّ اللّه ﷻ لن يُضيع عملَ المُصلِحينَ المتمسِّكينَ بكتابِه الكريمِ، سواءٌ كان هذا العملُ صغيرًا أو كبيرًا.

غرضُ إضافةِ الأجرِ إلى ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾:

الإضافة للعناية بفئة المصلحين والإشادة بجهودهم

إضافةُ الأجرِ إلى ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ من باب العنايةِ بهم ورَفْعِ شأنِهم؛ لأنّهم لم يَكتَفُوا بأنْ يكونوا صالحينَ بل تَعَدَّوا ذلكَ إلى إصلاحِ غيرِهم، وأَمْرِهِم بالمعروفِ ونَهْيِهِم عن المنكَرِ، ولا سيّما أنَّ هذه الآيةَ جاءتْ بعد استعراضِ قِصَّةِ القريةِ حاضرةِ البحرِ، وما جَرى فيها بين المُصلِحينَ والمثبِّطينَ.

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾:

(أل) الأفضلُ هنا أن تكونَ جنسيَّةً استِغْراقِيّةً لِتَعُمَّ كلَّ المصلحِينَ والدّعاةِ في كلّ زمانٍ ومكانٍ، من أهلِ الكتابِ ومن غيرِهم، لذا حُذِفَ متعلِّقُها لِيَعُمَّ ذلك كلَّه؛ فلم يَقُلْ: المُصْلِحينَ أَنْفُسَهم أو أهليهم أو أقوامَهم.

وجهُ الإظهارِ في ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في مقامِ الإضمارِ:

الصَّلاحُ والإصلاحُ هوَ ثمرةُ التَّمَسُّكِ بالكتابِ

جاء الإظهارُ في موضعِ الإضمارِ، فلم يَقُلْ: (إنا لا نُضيعُ أجرَهم)، بل صَرَّحَ بِوَصْفِهم دونَ إضمارٍ، بقوله تعالى: ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك شَأْنٌ من شُؤونِ اللّهِ العَلِيِّ الأعلى، وللإشارةِ إلى السَّببِ في الجزاءِ وهو الإصْلاحُ، أي كونُهم مُصلِحينَ[1]، وليؤكِّدَ أنَّ الصَّلاحَ والإصلاحَ هو ثمرةُ التَّمَسُّكِ بالكتابِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3000/6.

﴿۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧١﴾

[الأعراف: 171]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

ذِكْرُ مَنْ أخذَ بالكتابِ رهبةً، بعد ذِكْرِ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ رغبةً

لَمَّا ذكرَ النَّظمُ الكريمُ أنَّه رهَّب بني إسرائيل من مُخالفةِ الكتاب، ورغَّبهم في مُؤالفتهِ، وكان عذابُ الآخرة مُستقبلًا وغائبًا، ذكَّرهم بترهيبٍ دُنيَويٍّ مضى إيقاعُهُ بهم، ليأخذوا مواثيقَ الكتاب لغاية الجِدِّ، فقال: ﴿۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾[1]، كما أنَّه لمَّا ذَكَرَ حال من تَمَسَّك بالكتابِ، واعتصم به طَوْعًا في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ [الأعراف: 170]، ذَكَرَ من تَمسَّك به كُرْهًا من أسلاف اليهود[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَتَقْنَا﴾: أي: زَعْزَعْناهُ، واقتلعناهُ من أصلِه، من نَتَقَ الشَّيءَ يَنْتِقُهُ ويَنْتُقُهُ نَتْقًا؛ إذا جذبهُ واقتلعَهُ[3]، وأصلُ نتق يدلُّ على جَذْبِ شَيْءٍ وَزَعْزَعَتِه وَقَلْعِه مِنْ أَصْلِه[4]، يُقال: نتقْتُ السِّقاءَ؛ إذا نفضْتَهُ لِتقلَعَ منه زُبْدَتَه[5]، والنَّتْقُ أيضًا: الرَّفعُ[6]: والمعنى هُنا: إذ اقتلعنا الجبلَ، فرفعناهُ فوقَ بني إسرائيل[7]، وفي لسانِ العربِ: "وكان نَتْقُ الجبلِ، أنَّه قُطِعَ منه شيءٌ، على قدر عسكر موسى، فأظلَّ عليهم، قال لهم موسى: إمَّا أن تقبلوا التَّوراة، وإمَّا أن يسقطَ عليكم"[8].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/149.
(2) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/340، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/277.
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (نتق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نتق).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 174.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نتق).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 13/217.
(8) ابن منظور، لسان العرب: (نتق).

2) ﴿ظُلَّةٌ﴾: الظُّلَّة قطعةٌ من السَّحابِ؛ لأنَّها تُظِلُّ من تحتها[1]، وجَمْعُها ظُلَلٌ، وتُطلق الظُّلَّةُ عند العرب على أَوَّلِ سَحَابَةٍ[2]، وأكثرُ مَا تُقالُ فِيمَا يُسْتَوْخَمُ ويُكْرَهُ[3]، وأصلُ (ظَلَلَ) يدلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشيءٍ[4]، فكلُّ مَا غطَّى، وستَرَ؛ فقد أظلَّ[5]، والمعنى هُنا: كأنَّهُ لارتِفاعِهِ سَحابَةٌ تُظِلُّ[6]، وقيل: عذابُ يوم الظُّلَّةِ؛ لأنَّ اللّه جلَّ وعزَّ، بعثَ غمامةً حارَّةً، فأطبقت عليهم، وهلكوا تحتها، وكلُّ ما أطبقَ عليك فهو ظلَّةٌ، وكذلك كلُّ ما أظلَّكَ[7].

3) ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: أيقنوا، يُقال: ظَنَنْتُ ظَنًّا، أَيْ: أَيْقَنْتُ، والظَّنُّ في العربيَّة على وجهين: شَكٌّ، ويقين، فربَّما عبَّروا عن اليقين بالظَّنِّ، وقد جاء في القرآنِ كذلك[8]، وأصلُ (ظنَّ) يَدُلُّ عَلَى معنَيينِ مُختلِفينِ: يقينٍ وشكٍّ[9]، فالمعنى هُنا: أيقنوا أنَّ الجبلَ واقعٌ بهم[10].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

ذِكْرُ ما وقعَ من تهديدِهم بنتقِ الجبلِ، وأَمْرُهُم بالالتزامِ وتقوى اللهِ

واذكرْ - أيُّها الرَّسول - إذ اقتلعْنا الجبل، فرفعناهُ فوق بني إسرائيل، لَمَّا امتنعوا من قَبول ما في التَّوراة، فصارَ الجَبَلُ كأنَّه سحابةٌ، تُظِلُّ رؤوسَهم، وأيقنوا أنَّه ساقطٌ عليهم، وقيل لهم: خذوا ما أعطيناكم من هدًى في التَّوراة بِجدٍّ وعزمٍ على الطَّاعةِ، واذكروا ما في كتابِنا من العهودِ والمواثيقِ والأحكامِ الَّتي شرعَها

(1) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفَّاظ: (ظلل).
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح: (ظلل).
(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (ظلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلَّ).
(5) الهائم، التبيان، ص: 126، والسَّجستاني، غريب القرآن، ص: 325.
(6) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 313/7.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 258/14.
(8) الجوهريُّ، الصِّحاح، والصَّاحب ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (يقن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 462/3.
(10) العليميّ، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 276/6، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 81/5.

اللّه لكم، ولا تنسوه رجاءَ أن تتَّقوا اللّه؛ إذا قمتُم بذلك، فتنجوا من عقابِه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ﴾:

التَّذكيرُ والعبرةُ بـذكـرِ قـصـصِ بني إسـرائـيـلَ، وفضائحِ سلفِهم وخلفِهم

الآيةُ الكريمةُ معطوفةٌ على ما سبقَ من أحوال بني إسرائيلَ[2]، حيثُ عادَ السِّياق إلى العبرةِ بذكرِ قصصِ بني إسرائيلَ مع موسى عليه السلام لأنَّ قصَّةَ رفعِ الطُّور عليهم من أمَّهات قصصهم، وضمائرُ الجمع في الآية كلُّها يُرادُ بها بنو إسرائيلَ الَّذين كانوا مع موسى بِقَرينَةِ المقَام[3]، وقد ذُكِرَتْ هذه القصَّةُ بعد قصَّةِ قريةِ الَّذين اعتدوا في السَّبت، وخبرِ إيذان بني إسرائيلَ بمن يسومهم سوءَ العذابِ، فحَسُنَ العطفُ بذكرِ قصَّة فضيحةِ أسلافِهم، تذكيرًا ببعض رذائلِ اليهودِ وفضائحهم المتنوِّعة منذ الزَّمنِ الأوَّل، وكونهم مشتركِينَ متشابهين فيها.

دلالةُ القيدِ بلفظِ (إذ) الظَّرفيَّة:

إلــزامُ الـيـهـودِ امـتـثـالَ أوامـرِ اللهِ، واتِّباعَ دينِهِ

(إِذۡ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ﴾، ظرفيَّةٌ حينيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بالفعل المقدَّر (اذكر)[4]، أي: واذكر - يا محمَّدُ - وذَكِّر بني إسرائيلَ المعاصرين لك وقتَ أن رفعْنا الجبلَ فوقَ آبائِهم الَّذين كانوا في عهد موسى[5]، حيثُ ذكرت هذه الآية طرفًا من رذائل اليهود، فلمَّا قرأ عليهم موسى التَّوراةَ، أو لمَّا أخبرهم بالوصايا والتَّعاليم الَّتي في الألواحِ؛ بادروا نبيَّهم بأنَّ ما فيها لا يتحمَّلونه؛ لأنَّه إِصرٌ وحِملٌ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 234، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 92/5، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 428/5.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 165/9.

(4) أحمد عبيد الدّعّاس، إعراب القرآن الكريم: 406/1.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 92/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 165/9، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 428/5.

ثقيلٌ عليهم لا يطيقونه، وكان هذا منهم عِنَادًا، فحملهم اللّهُ على العملِ بما في التَّوراةِ، بأن نتقَ الجبلَ فوقَهم، ورفعَهُ رفعًا حقيقيًّا، كأنَّه ظُلَّةٌ[1]، والغرضُ من هذا التَّذكيرِ، إلزامُ اليهودِ والرَّدُّ عليهم في قولهم: إنَّ بني إسرائيلَ لم يصدر منهم مخالفةٌ في الحقِّ[2].

سِرُّ اصطفاءِ الفعلِ ﴿نَتَقۡنَا﴾:

بيانُ شُمولِ الفعلِ (نَتَقَ) لمعاني الشِّدَّةِ والقوَّةِ في القلعِ والرَّفعِ

عند التَّحقيقِ نجدُ اختلافًا بين (نتق) و(رفع)؛ لأنَّ الجبلَ راسٍ في الأَرض، وممسوكٌ كالوتد، وقد أرسى ربُّنا الجبال، وجعلها في الأرض أوتادًا، والوَتد - كما نعلم - ممسوكٌ من الموتود، والمثبت فيه، لذلك يحتاجُ قبل أن يُرفعَ إلى عمليَّةِ نزعٍ واقتلاعٍ من الأرض، ثُمَّ يأتي من بعد ذلك الرَّفعُ، و﴿نَتَقۡنَا﴾ تعني: نزعْنا الجبلَ من مكان إرسائِه، حتَّى نرفعَهُ، يدلُّ عليه قولُهُ بعدها: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ باعتبارِ تضمُّنِه لمعنى رفعنا، كأنَّهُ قيل: رفعْنا الجبلَ فوق بني إسرائيلَ بنتقِه وقلعِه من مكانه، فالنَّتقُ من مُقدِّمات الرَّفع، وسببٌ لحصوله[3]، وقد رفعَهُ اللّهُ ليجعل منه ظُلَّةً عليهم، أي: هناكَ ثلاثُ عمليَّاتٍ: نَتْقٌ، أي: نَزْعٌ وخلْعٌ، ثمَّ رفْعٌ، ثُمَّ جَعْلُهُ سبحانه ظُلَّةً لهم، وهذا يحتاج إلى اتِّجاهٍ في المرفوع إلى جهةٍ مَا[4]، فلفظ ﴿نَتَقۡنَا﴾ فيه معنى الرَّفعِ وزيادة، فإنَّها لا تكون إلَّا في رفعِ الثَّقيلِ الَّذي لا يستطيعهُ إلَّا الأقوياءُ، فمِنَ الألفاظ العربيَّة ألفاظٌ تحملُ في نفسها الشِّدَّة والقوَّة في دلالتها، فلا نقولُ: نتقتُ العصا، أو نتقتُ السَّيف، ولكن نقول: نتقتُ الجبلَ، أو نتقتُ أطنانَ الحديدِ[5].

دلالةُ انتخابِ نونِ العظمةِ في التَّعبير﴿نَتَقۡنَا﴾:

الزِّيادةُ في التَّرهيبِ المُفضي إلى الإجلالِ والامتثالِ

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾، أتى بنونِ العَظَمةِ

---

(1) عبد الله شحاتة، تفسير القرآن: 9/1623.

(2) القنوجيّ، فتح البيان: 2/610.

(3) البروسويُّ، روح البيان: 3/271.

(4) الشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4431.

(5) محمَّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3001.

وضميرِ الكبرياء في نَتَقْنَا لزيادةِ التَّرهيبِ[1]، فضميرُ العظمةِ يكونُ للدَّلالة على التَّعظيم والإجلالِ، واللهُ سبحانه هو المستحقُّ لكمال العظمة والجلال؛ فالنَّاتِقُ لهذا الجبلِ العظيم، هو رَبُّ العِزَّةِ والجلال الَّذي ذَلَّت لجبروتِهِ الصِّعاب، ولانت لقُدرتِهِ الشَّدائد الصِّلاب.

دلالةُ اللَّامِ في لفظةِ ﴿ٱلْجَبَلَ﴾:

تحديدُ اللَّفظةِ وتعيينُها للطُّورِ المذكورِ والمعهودِ في أذهانِهم

لفظُ ﴿نَتَقْنَا﴾ يُرادُ به الرَّفع بقرينة ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ وذِكْرِهِ مُصرَّحًا في موضعٍ آخر، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63] الآية؛ فَعُلِمَ منه أنَّ الجبلَ هو الطُّورُ، فاللَّامُ للعهد الذِّهني[2]، فعَرَّفَ الْجَبَلَ لَمعرِفَتِهم به[3]، فهو معلومٌ لدى بني إسرائيل؛ فالتَّعريفُ للجبل حَدَّد الكلمةَ وعَيَّنها، وهذا من دلالةِ التَّعريفِ في العربيَّة.

نُكتةُ استعمالِ كلمةِ ﴿ٱلْجَبَلَ﴾ في هذا الموضعِ و(الطُّور) في غيره:

التَّعبيرُ بالجبل للدَّلالةِ على الشِّدَّةِ والتَّخويفِ، المُناسبِ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ

وردَ ذكرُ هذه الحادثةِ الواقعة لبني إسرائيل، في البقرةِ والنِّساء والأعراف، فَذُكِر الجبل بلفظ الطُّور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: 63]، وفي قوله في سورة النِّساء، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النِّساء: 154]. وفي موضع الأعرافِ جاءَ بلفظ الجبل ﴿۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾، والجبلُ هو اسمٌ لما طالَ، وعظُم من أوتادِ الأرض، وعادة ما تُذكر الجبالُ في القرآن في موقع التَّهويل والتَّعظيم، فعبَّرَ به لدَلالةِ لفْظِهِ على الصُّعوبةِ والشِّدَّة، دونَ (الطُّورِ)؛ لأنَّ السِّياقَ لبيانِ نَكَدِهم بإسراعِهم في المعاصي الدَّالَّةِ على غِلظِ القَلبِ[4]، ولم يقلِ: الطُّورَ؛ فالنَّتقُ والجبل أشدُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/150.
(2) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/541.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/150.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/150.

تهديدًا وتهويلًا، كما أنَّه ذكر أنَّه رفعَهُ فوقهم ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾، وذَكَرَ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، وفي حمل الشَّيءِ والتَّهديد للرَّمي به من الإخافة والتَّهديد، ما ليس في ذِكْرِ مُجَرَّد الرَّفع للطُّور في سورتي البقرة أو النِّساء.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفوقيَّةِ في ﴿نَتَقۡنَا﴾:

تخصيصُ الرَّفعِ بجهةِ العُلُوِّ الخاصَّةِ بمعسكرهم

﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ ظَرْفٌ لـ﴿نَتَقۡنَا﴾، أو حال مقدَّرةٌ من الجبلِ، والعامل فيها محذوفٌ، تقديره (كائنًا فوقهم)؛ إذ كانت حالةُ النَّتق لم تُقارن الفوقيَّة، لكنَّه صار فوقهم[1]، فهي مخصِّصةٌ للرَّفع ببعض جهات العلوِّ[2]، كما أنَّ في ذكر هذا الظَّرف بيانًا لقهرهم وإذلالهم.

دلالةُ حذفِ الجَارِّ (مِنْ) في قوله: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾:

بيانُ استغراقِ الجبلِ لجميعِ الجهةِ الموازيةِ لمعسكرهم

قولهُ تعالى: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ أي: رفع اللَّهُ الطُّورَ على رُؤوسِهم، مِقدارَ عسكرهم، وكان فرسخًا في فرسخ[3]، فانقلع الجبلُ من أصلهِ حتَّى قامَ على رؤوسهم، بحيثُ حاذى مُعسكرهم جميعًا، ولم يبقَ منهم أحدٌ إلَّا والجبلُ فوقَهُ، فلمَّا كان مُستغرقًا لجميع الجهة الموازيَةِ لعساكرهم، حَذَفَ الجَارَّ، فقال: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾[4]؛ لأنَّ حرف الجرِّ (من) لو ذُكِرَ هنا لأَوْهَمَ معناهُ أن يكون النَّتقُ ابتداءً من العلوِّ، ولايشمل الجهاتِ الأخرى حينئذٍ، والتَّشبيهُ اللَّاحق قد تولَّى بيانَ كلِّ الجهات من جهة العلوِّ، وهو تعبيرٌ عن إحاطةِ القهر.

الدَّلالةُ البلاغيَّةُ لموقع ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ بعد ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾:

بيانُ كونِ الجبل قد أظلَّهم ووسعهم مرفوعًا فوقهم

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ أي: سقفٌ، فبيَّن أنَّه كان أكبر مِنْهُم[5]، والمعنى: كأنَّه حالة ارتفاعهِ عليهم ظُلَّةٌ من الغمام[6]، "قال مجاهدٌ: أُخرِجَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 217/5.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 92/5، والعكبريُّ، التّبيان في إعراب القرآن، ص: 173.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 175/2.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 150/8.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 150/8.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 217/5.

الجبلُ من الأرض، ورُفِعَ فوقهم كالظُّلَّة، فقيل لهم: لَتُؤْمِنُنَّ، أو لَيَقَعَنَّ عليكم، قال قتادة: نزلوا في أصل جبلٍ، فرُفِع فوقَهم، فقال: لَتأخُذُنَّ أمري، أو لَأَرمينَّكُم به"(1).

بلاغةُ الصُّورةِ التَّشبيهيَّةِ في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾:

بيانُ الخصوصيَّةِ في كونِ الظُّلَّةِ ليست على عَمَدٍ، وأنَّها عذابٌ لا رحمةٌ

(الكاف) من كَأنَّهُ، في موضعِ نصبٍ على الحال، أي: نَتَقْنَاهُ مُشْبِهًا الظُّلَّةَ، أي: في هذه الحال(2)، وينبغي أن يُحمَلَ التَّشبيهُ على أنَّه بِظُلَّةٍ مخصوصةٍ؛ لأنَّه إذا كان كلُّ ما أظلَّ يُسمَّى ظُلَّةً، فالجبلُ فوقهم صار ظُلَّةً، وإذا صار ظُلَّةً؛ فكيف يُشَبَّهُ بظلَّةٍ؟ فلو لم يكن المُرادُ بالظُّلة الفردَ الخاصَّ؛ لزِمَ تَشبيهُ الشَّيءِ بِنَفْسِه(3)، فالمعنى: كأنَّه حالةَ ارتفاعِهِ عليهم ظُلَّةٌ من الغمام، وهي الظُّلَّةُ الَّتي ليست تحتها عَمَدٌ، بل إمساكها بالقدرةِ الإلهيَّة، وإن كانت أجرامًا، بخلاف الظُّلَّة الأرضيَّة، فإنَّها لا تكونُ إلَّا على عَمَدٍ، فلمَّا كانت هذه الظُّلَّةُ الأرضيَّةُ فوقَهم بلا عَمَدٍ، شُبِّهت بِظُلَّة الغمام الَّتي ليست بلا عَمَدٍ(4)، فإن قيل: إذا كان الجبلُ ظُلَّةً حقيقةً، فما معنى: كأنَّه؟ فالجوابُ: أنَّ البشرَ إنَّما اعتادوا هذه الأجرامَ الأرضيَّةَ ظُلَلًا، إذا كانت على عَمَدٍ، فلمَّا كان الجبلُ على غيرِ عمدٍ، قيل: كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، أي: كأنَّه على عَمَدٍ(5)، وثمَّةَ معنًى آخر لهذه الصُّورَةِ التَّشبيهيَّةِ، وهي أنَّ تظليلَ الغَمام كان رحمةً لهم من قَبْلُ، وصار الجبلُ ظُلَّةَ عذابٍ عليهم في هذا الموقع(6).

دلالةُ الواوِ في ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾:

تنويعُ المعاني بحسبِ دلالتِها ووجهِها الإعرابيّ

قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، أي: ووقع في نفوسِهم أنَّ الجبلَ ساقطٌ عليهم، إذا لم يستجيبوا لما أمرهم به نبيُّهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجملة

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 166/2.
(2) مكّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية : 4/2619.
(3) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 541/8.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 217/5.
(5) ابن عطيَّة الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز: 474/2.
(6) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 4431/7.

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، فيها أوجهٌ: أحدُها: أنَّه في محلِّ جَرٍّ، نسقًا على ﴿نَتَقۡنَا﴾، المخفوضِ بالظَّرف تقديرًا، فيكون المعنى: رَجَّحُوا، أَو أَيقنوا الآن رَفْعَهُ على أَن يقع عليهم، إِنْ لم يقبلوا التَّوراة ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، والثَّاني: أنَّه حالٌ بتقدير (قد)، وصاحب الحال الجَبل، أي: كأنَّه ظلَّةٌ في حال كونه مَظْنونًا وُقوعُهُ بهم، والثَّالث: أنَّه مُستأنفٌ فلا محلَّ له[1]، فتكون الجملةُ مُستأنفةً لا محلَّ لها، و(أنَّ) وما في حيِّزها سدَّتْ مسدَّ مفعولي ظنَّ[2]، وعلى كلِّ وجهٍ من الوجوهِ الثَّلاثةِ معنًى، والمعاني الَّتي تنتجُها وجوهُ الإعراب ليست متعاندةً، بل هي متعانقةٌ، والرَّسم واحدٌ، وهذا وجهٌ من وجوه الإيجازِ والإعجازِ؛ فعلى النَّسقِ على ﴿نَتَقۡنَا﴾ يكون ارتباطُ تيقُّنهم بوقوعهِ عليهم، مقارنًا للنَّتق، وعلى كونِ الجملة حالًا من الجبل يكون توجيهُ المعنى إلى محلِّ الخوفِ والرُّعب، وعلى الاستئنافِ يكونُ معنًى بعد حدوث النَّتقِ، فكلُّها معانٍ متعانقةٌ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بفعلِ الظَّنِّ في: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

يُستعمَل الظَّنُّ في اليقين، متى كان ذلك المتيقَّنُ لـم يـخـرجْ إلى الحواسِّ

قولهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، قيل معناها: تيقَّنوا أَنَّهُ ساقطٌ عليهم؛ لأنَّ الجبَلَ لا يثبُت في الجوِّ؛ لأنَّهم كانوا يُوعَدون به، وإطلاقُ الظَّنِّ في الحكاية لعدمِ وقوعِ متعلَّقهِ، وذلك أنَّهم أبوا أن يقبلوا أحكامَ التَّوراة لثِقلها، فرفع اللّٰه تعالى عليهم الطُّورَ، وقيل لهم: إن قبِلتم ما فيها، وإلَّا ليَقعَنَّ عليكم[3]، فتيقَّنوه لمَّا عاينوا من ارتفاعه عليهم[4]، فعبَّر بالتَّيقُّن للتَّرويج، ولأنَّ مثل هذا حَقُّهُ اليقينُ والتَّخلُّفُ؛ وعدمُ وقوعِ مُتَعَلَّقِهِ لُطْفٌ من اللّٰه تعالى[5]، وقيل: إنَّ الظَّنَّ هُنا على أصله؛ إذ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/93، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/428.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/491.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/289.

(4) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/276، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/92.

(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/541.

الموضع مَوْضِعُ غلبةِ الظَّنِّ مع بقاء الرَّجاء، وكيف يوقنونَ بوقوعه وموسى عليه السلام يقول: إنَّ الرَّميَ به، إنَّما هو بشرط ألَّا يقبلوا التَّوراةَ؟ والظَّنُّ إنَّما يقعُ ويُستعمل في اليقين متى كان ذلك المتيقَّن لم يخرج إلى الحواسِّ[1]، فقويَ في نفوسهم أنَّه واقعٌ بهم إن خالفوه، وهذا هو الأظهرُ في معنى الظَّنِّ[2]، كما أنَّ هذا الظَّنَّ كان بعد أن أدنى اللّٰهُ الجبلَ من رؤُوسهم، إذ هم قبلَ ذلك وحين كان مُرتَقًا كالسَّحابة، توهَّموا أنَّ رفْعَ الجبل فوقهم لمجرَّد التَّخويف، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: 93].

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿ظَنُّوٓاْ﴾ و﴿بِهِمْ﴾:

بـيـانُ فـظـائـعِ بني إسرائيـلَ، ومخـالـفـاتِـهـم نَبيِّهم في مراحلِ الدَّعوة

جاءَ بيانُ هذا الحدثِ بأسلوبِ الحديثِ عن الغائب، ضمن حكاية طائفةٍ من قصصِ بني إسرائيلَ وأحداثِهم؛ وفي التَّعبيرِ بالغائبِ إحالةٌ إلى ما مضى في السُّورةِ من فظائِعهم وقبائحهم؛ إذ الضَّميرُ بطبعهِ يُحيل على ما مضى، من أوَّل قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأعراف: 101]، وما تلاها من الآياتِ الكاشفات عن مفاسدِهم بما لم تجمعْهُ سورةٌ أخرى، اتِّساقًا مع سورةِ الأعرافِ الَّتي مقصودُها الإنذار والتَّذكيرُ، إلى هذه الآيةِ حتَّى "رفع اللّٰهُ فوقَ محلَّتهم النَّازلين بها في سيناء جبل الطُّور، لرفضهِم إعطاءَ العهدِ على الالتزام بشريعةِ اللّٰهِ، وقال لهم موسى عليه السلام بلاغًا عن ربِّهِ: (خذوا ما آتاكم اللّٰهُ من وصايا وأحكام في كتابه بقوَّةٍ، وعاهِدوا على العمل بما جاء فيه، أو يلقي اللّٰهُ هذا الجبلَ عليكم، فيهلكَكم)، عندئذٍ ذهبت عنهم أوهامُ ميوعةِ الدَّلالِ، وتكشَّفت لهم حقيقةُ

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/474.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/397.

جبروتِ الرَّبِّ، وسطوةِ انتقامه؛ فمَن لم يَنْقَدْ إلى اللّٰهِ بمُلاطفةِ الإحسان؛ قُيِّدَ إليه بسلاسلِ الامتحانِ[1].

دلالةُ التَّوكيدِ بالأداةِ (أنَّ)، واسميَّة الجملةِ:

ترسيخُ مضمونِ الجملةِ في ذهنِ السَّامعِ، ودفعُ التَّوهُّمِ

قولُه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، أي: وظنُّوا ظنًّا قويًّا - إذ دنا الجبلُ من رؤوسِهم - أنَّه واقع عليهم، ومختلطٌ عند وُقُوعِه بأجسادهم، مُهْلِكًا ساحقًا، فأُكِّدت هذه الجملة بـ(أنَّ) لترسيخ مضمونها في ذهنِ السَّامع، ودَفْعِ توهُّمِ عدم وقوع الجبل عليهم، إن لم يمتثلوا أمر ربِّهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿وَاقِعُۢ﴾ على القول (سيقع):

الخوفُ كان مُستوليًا عليهم أوَّلَ الأمرِ عند نتقِ الجبلِ

قوله تعالى: ﴿وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾: أشارَ إلى أنَّ (واقعًا) بمعنى المُستقبل بقرينةِ الفعلِ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، وإنْ كان الأصلُ كونَ اسم الفاعل بمعنى الماضي[2]، يشيرُ إلى شعور الخوف الَّذي كان مُستوليًا عليهم أوَّلَ الأمر، من هذا الجبلِ الَّذي قامَ فوقهم، وأنَّه إذا وقعَ لم يقع عليهم وحسب، بل إنَّه سيحملُهم معه، ويهوي بهم إلى الأرضِ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بحرفِ الباءِ في ﴿بِهِمۡ﴾:

الإشارةُ إلى اللُّصوقِ بهم، وقربِه من رؤوسِهم

في قَولِه: ﴿وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، عُدِّيَ وَاقِعٌ بالباءِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا مستقرِّينَ في الجبلِ؛ فهو إذا ارتفَعَ وقَعَ ملابسًا لهم، ففتَّتَهم، فهم يرَونَ أعلاهُ فوقَهم، وهم في سَفْحِه، وهذا وجهُ الجمع بين قولِه: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾، وبين باءِ المُلابسةِ[4]، فلمَّا كان ما تقدَّم قد حقَّق العُلُوَّ؛ لم يحتج إلى حرف الاستعلاءِ، فقال مشيرًا إلى السُّرعةِ واللُّصوقِ: ﴿بِهِمۡ﴾[5].

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 412/2.

(2) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 541/8.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 513/5.

(4) وقيل: إنَّ الباءَ بِمَعنى على، كما في قوله: ﴿إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ﴾ وهو أحد معانيها. ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 165/9.

(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 150/8.

موقعُ جملةِ ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ ممَّا قبلَهُ، وبلاغتُهُ:

جملةُ ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ مقولةٌ لقولٍ محذوف، يدلُّ عليه نظمُ الكلام، وحذفُ القول في مثله شائعٌ كثيرٌ"[1]، وقد وقعتِ الجملةُ من سابقتِها موقعَ التَّعليلِ، وعِظمُ الحدثِ دالٌّ على جليلِ ما أُحدِثَ من أجلِهِ، وهو الائتمارُ بأمرِ اللّهِ، واجتنابُ نواهيه، فقالَ مُشيرًا إلى عظمتِهِ ليشتَّد إقبالُهم عليه، إشارةً إلى أنَّه عِلَّةُ رفْعِ الجبلِ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ أي: بعظمتنا، فهو جديرٌ بالإقبالِ عليه، وأن يُعتقدَ فيه الكمال[2]، ولم يكنْ هذا الأمرُ من قبيلِ الإكراهِ على الدِّين؛ إذ هم مؤمنونَ، فهو تهديدٌ بالعقابِ على العصيان، بعد الإيمانِ وإعلانِ الإسلام، فإذا رفضوا إعلانَ الالتزامِ بالطَّاعة؛ كان القتلُ عقابًا عادلًا لهم، بالحدِّ الشَّرعيِّ، كسائر عقوبات الحدودِ الشَّرعيَّة[3]، وفي الآيةِ تعريضٌ بأنَّهم إذا كانت حالهم في مبدأِ أمرِهم مخالفةً كتابَهُم؛ فلا عجبَ إذا آلَ أمرُهم إلى تركِ العملِ بِهِ، بعدَ طولِ الأمد، وقساوةِ القلوب، والأنس بالمعاصي والذُّنوب[4].

عِظَمُ الحدثِ لا يكونُ إلَّا لعلَّةٍ كبرى، وأعظمها تنفيذُ أوامرِ اللهِ

دلالةُ اسمِ الموصولِ ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ الأعمِّ، إيجازًا لكلِّ ما أخبرَ عنه القرآنُ، ممَّا أوتيهُ اليهودُ من الأوامرِ والنَّواهي؛ وقد تنوَّعت أقوالُ المفسِّرين في المرادِ بالاسمِ الموصولِ، "وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِهِ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ[5]، والتَّعبيرُ بضميرِ الخطابِ للتَّأكيدِ أنَّهم المقصودونَ بالرِّسالة.

بيانُ حَملِ ما أُوتوا على جميعِ الفرائضِ والأحكامِ والأخبارِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/165.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/150.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/150.

(4) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 10/205.

(5) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 1/87.

تـأكـيـدُ الأمــرِ بأخذِ الشَّريعةِ بعزيمةٍ وتَصَبُّرٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالقيدِ ﴿بِقُوَّةٍ﴾، وموقعهُ من الأمرِ:

القوَّةُ: الجدُّ والعزيمةُ[1]، والجارُّ والمجرور ﴿بِقُوَّةٍ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، وقع حالًا من الواو، والمراد خذوا ذلك مجدِّين[2]، فأكَّدَ الأمرَ السَّابقَ ﴿خُذُواْ﴾ بقولِه: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: عزمٍ عظيمٍ على احتمالِ مشاقِّهِ[3].

تنبيهُ مَنْ أخذَ الأمرَ بجدٍّ وقوَّةٍ علـى الـتَّـذكُّـرِ، لطُروءِ النِّسيانِ على الإنسانِ

سِرُّ العطفِ بالأمرِ بالذِّكرِ:

تتنوَّعُ المعاني للفعلِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾، منها: ضعوا في ذاكراتِكم ما جاءَ في الكتابِ من وصايا وأوامرَ، تستذكرونها، وتستدعونها عند مناسباتِها للعملِ بها؛ فِعْلًا فيما يجب فِعْلُه، وتركًا فيما يجب تركُهُ، أو: من الأوامرِ والنَّواهي وغيرهما، فلا تنسوه[4]، واعملوا بما فيهِ من الأحكام؛ والذِّكرُ يحتمل أن يرادَ به الذِّكرُ اللِّسانيُّ والقلبيُّ، والأعمُّ منهما، وما يكونُ كاللَّازم لهما، والمقصود منهما، وهو العملُ[5]؛ لذا جاء الأمرُ بالذِّكرِ عقيبَ الأمرِ، بأخذ ما أوتوا بقوَّةٍ.

(لـعـلَّ) جـاءت بـمـعـنـى التَّعليلِ، ولم يغادرْها معنى الرَّجاءِ

بلاغةُ الختمِ بجملةِ الإنشاءِ غيرِ الطَّلبيِّ في قولهِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

(لعلَّ) في قولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾: إمَّا للتَّعليلِ، فيكون استخدامُها في هذا المعنى مجازًا، وفي التَّعبير بالتَّرجِّي مكانَ التَّعليل إلماعٌ إلى أنَّ الأخذَ بالأسبابِ يجبُ أن يكونَ سالكهُ معلِّقًا قلبه بالرَّجاءِ من ربِّ العالمين، فكأنَّ (لعلَّ) جاءت بمعنى التَّعليلِ، ولم يغادرْها معنى الرَّجاء، فلو وقعت (كيْ) موقعها هنا ما حَسُن، ويمكنُ أن تكونَ (لعلَّ) خرجت من رجاءِ المتكلِّم إلى رجاءِ المخاطب، ويكونُ المعنى: افعلوا ذلك راجين التَّقوى، وهذا خلاصةُ كلامِ المفسِّرين،

(1) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/298.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/93.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/150.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/151.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/281.

فكلمةُ (لعلَّ) متعلِّقةٌ - بخذوا، واذكروا - إمَّا مجازًا يؤول معناهُ بعد الاستعارةِ إلى تعليل ذي الغايةِ بغايتِه، أي: لتتَّقوا بذلك قبائحَ الأعمالِ، ورذائلَ الأخلاق، أو حقيقة لترجية المخاطَبِ[1]، أي: راجين أن تنتظِموا في سلكِ المتَّقين[2]، وهذان المعنيانِ (التَّعليل والتَّرجية)، في (لعلَّ) لا يجتمعانِ في غيرِها من أدواتِ الرَّجاءِ؛ ففي (لعلَّ) مزيدُ تأكيدٍ في حفظِ التَّقوى والتَّهمُّم بأمرِها، وتحصيلِ أسبابِها[3].

براعةُ التَّناسبِ في الختمِ بالتَّقوى:

تحقُّقُ العملِ بمقتضى باعثِ التَّقوى أرجى في التَّحقُّقِ من دونِها

قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، أي: ليكونَ حالُكم حالَ من يُرجى تقواهُ، فدلَّ سبحانه بهذا على تأكيدِ المواثيقِ عليهم في أخذِ جميعِ ما في الكتابِ، وتذكُّرِ ما فيه، ليكونَ تذكُّركم لها باعثًا للعمل بمقتضاها؛ لأنَّ رجاءَ تحقُّق العملِ بمقتضاها، مع هذا الباعثِ أكثرُ منه دونَهُ؛ إذ الإهمالُ والتَّرك والنِّسيان لتعليمات الواجباتِ والمحرَّمات الدِّينيَّة يهوِّن على الإنسان معصيتَها[4]، فلمَّا كان تحقيقُ التَّقوى يكون بامتثالِ الأوامرِ واجتنابِ النَّواهي، حسن الختم لهذه الآيةِ الكريمةِ بالتَّرجيةِ في تحقيقها بعد ذِكر أسبابها؛ إذ قد سَبَقَ الأمرُ بالأخذ بما في الكتاب، وتَذكُّر ما فيه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نتقنا) و(رفعنا):

النَّتْق رَفْعٌ بِشدَّةٍ وقُوَّةٍ، وفيه معنى التَّهديدِ والتَّهويلِ

النَّتقُ: الزَّعْزَعَةُ وَالهزُّ والجَذْب والنَّفْضُ، ونَتَقَ الشَّيءَ: إذا جَذَبَهُ، وَاقْتَلَعَهُ، ويُطلق على الرَّفعِ أيضًا[5]، ويكون رفعًا بِشدَّةٍ وقوَّة،

---

(1) إنشاء التَّرجي أو الإشفاق في مثل لعلَّ، هذا في استعمال العباد إيَّاه، وأمَّا ما وقع في كلام الله تعالى فهو يكون للتَّرجية أو التَّخويف؛ لأنَّ الترجِّي والإشفاق مُحالان في حقِّه. ينظر: السَّمينُ الحَلَبيُّ، الدُّرُّ المَصون: 388/2، وزاده، حاشية زاده على تفسير البَيضاويِّ: 516/2، وإسْماعيل حَقِّي، روحُ البَيانِ: 332/1. وقد سبق ذكر ذلك بالتفصيل في تفسير الصفحة 34 من المصحف الشّريف فليرجع إليه.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 289/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 282/1.

(3) ابن عطيَّة، المحرِّر الوجيز: 474/2.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 151/8.

(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نتق)، والكفويّ، الكلّيَّات، ص: 914.

أمَّا الرَّفع: فهو خلاف الوضعِ والخفض[1]، ومعناه: جَذْبُ الشَّيءِ أو دَفْعُهُ مسافةً إلى أعلى[2]؛ يُقال: ارْتَفَعَ الشَّيءُ ارْتِفاعًا؛ إِذا عَلا[3]، فالنَّتقُ رَفْعٌ بِشِدَّةٍ وقوَّة، وفيه إخافةٌ وتهديدٌ كبيرانِ؛ فالنَّتقُ أشدُّ تهديدًا وتهويلًا، لذا كانَ هو الأبَرَّ بالسِّياق.

(آتينا) و(أعطينا):

الإيتاءُ أقوى دلالةً مِنَ الإعْطاءِ

لا يكادُ أهلُ اللُّغةِ يفرِّقون بين الإيتاء والإعطاء، لكن نجدُ في الاستعمال القرآنيِّ بعضَ الفروق الدَّقيقةِ الَّتي تُوحي ببلاغةِ القرآن وعظمته، وذلك من حيثُ إنَّ الإيتاءَ أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له فعلٌ مطاوعٌ، تقول: أعطاني، فعطوتُ، ولا يقالُ في الإيتاءِ: آتاني، فأتيتُ، وإنَّما يُقال: آتاني، فأخذْتُ، والفعلُ الَّذي له فعلٌ مطاوعٌ، أضعفُ في إثبات مفعولِه من الَّذي لا مطاوعَ له[4]، فالإيتاءُ أقوى من الإعطاءِ، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آلُ عِمران: 26]، لأنَّ المُلك شيءٌ عظيمٌ، لا يُعطاهُ إلَّا من له قوَّة، وكذا قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: 171] لعظَمِ الكتابِ وشأنِه[5].

الوقوع والسُّقوط:

الوقوعُ أخصُّ من السُّقوطِ، وفيه معنى الشِّدَّةِ والعذابِ

السُّقوط: نزولُ الشَّيءِ من أعلى إلى أسفل، ووُقوعُهُ على الأرْضِ[6]، قالَ تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ [الأنعام: 59]، ثمَّ اتُّسِعَ فِيه كقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التّوبة: 49]، فاستعمل السُّقوطُ هُنا استعمالًا مجازيًّا، والمعنى: أنَّهم حصلَ لهم ذلك فجأةً، فهم

(1) حسن المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 183/4.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نتق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (رفع).
(4) السُّيوطِيُّ، الإتقان: 367/2.
(5) الكفويّ، الكُلِّيات، ص: 212.
(6) الزبيدي، تاج العروس: (سقط).

كالسَّاقط في هُوَّة، على حينِ ظَنَّ أنَّه آمِنٌ[1]. ومن معاني السُّقوط في القرآن الكريم النَّدمُ، وذلك في قول: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: 149]، أي: اشتدَّ ندمهم وحسرتهم، كأنَّ النَّدمَ سقطَ في أيديهم، كنايةً عن حصولهِ في قلوبهم[2]، أمَّا الوقوعُ؛ فهو هُويٌّ أو غُؤورٌ، مع صَدْمٍ أو غِلَظٍ وشِدَّة، في جِرْمٍ عَريض[3]، وقد استُعْمِلَ في القرآن الكريم بدلالاتٍ مُتعدِّدة: منها سقوطُ الشَّدائدِ والعذاب، وهو أكثرُ ما جاء في القرآن من الوقوع، ومن ذلك قول الله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 1 - 2]، وقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج: 1]، فالوقوع هُنا: نزولُ الشِّدَّةِ وحدوثها، والواقعة لا تقال إلَّا في الشِّدَّة والمكروه[4]؛ فمَلْمَحُ الشِّدَّة في الوقوع هو الَّذي سوَّغ استعماله في معاني نزول الشَّدائدِ والحوادث، ووجوبِ العذاب، فيتلخَّصُ أنَّ الوقوعَ أخصُّ من السُّقوط وأشدُّ[5]، لذا كان استخدامُهُ هنا هو الملائمَ للسِّياق.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 221/10.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 160/2، والكفويّ، الكليّات، ص: 521.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقع).
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 530.
(5) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 296.

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: 172]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تقفيةُ ذِكْرِ هدايةِ الله بإرسالِ رُسُلِه لهدايتِه إيَّاهم في أصل فِطْرَتِهم وخَلْقِهم

لَمَّا ذكر سُبحانَهُ وَتَعَالَى هدايتَهُ للبشرِ بإرسال الرُّسل، وإنزال الكتبِ في قصَّة بني إسرائيل؛ قَفَّى على ذلك بذكرِ هدايتِهِ إيَّاهم بما أودعَ في فطرتهم، وركَّب في عُقولِهم من الاستعداد للإيمان به، وتوحيدِهِ وشكره، منذ النَّشأةِ الأولى، فهو سبحانه بعد أن أظهرَ تمادي هؤلاء اليهود في الغيِّ، بعد أخذِ الميثاق الخاصِّ الَّذي دلَّ عليه قوله: ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾، وقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63] وذكر هُنا أنَّهم نقضوا أيضًا الميثاق العامَّ الَّذي أخذه على بني آدم جميعًا - وهم في صُلب آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]. ووجهٌ آخرُ أنَّه لمَّا شرح قصَّة مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع توابعها، على أقصى الوجوهِ؛ ذكرَ في هذه الآيةِ ما يجري مجرى تقريرِ الحُجَّةِ على جميع المكلَّفين[2]، فبيَّنَ اللّهُ هُنا هداية بني آدمَ، بنصب الأدلَّةِ في الكائنات، بعد أن بيَّنها عن طريقِ الرُّسلِ والكتبِ[3].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ظُهُورِهِمۡ﴾: أَصْلابُهم؛ والظَّهرُ الجارحةُ المعروفة، وأصل (ظهر) يَدُلُّ على قوَّةٍ وبُروز[4]، والمعنى هُنا: أخرجَ من أصلابهم

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 102/9، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 190/10.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 397/15.
(3) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 235.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظهر).

ذُرِّيَّتَهم للعهد والميثاق[1]، ونؤكِّدُ " أنَّ للّه تعالى ميثاقين مع بني آدم، أحدهما: يهتدي إليه العقلُ من نصب الأدلَّةِ الباعثةِ على الاعترافِ الحالي، وثانيهما: المقاليُّ الَّذي لا يهتدي إليه العقلُ، بل يتوقَّف على أخبارِ الأنبياء، فأراد النَّبيُّ أن يخبرَ الأمَّةَ عمَّا لا تهتدي إليه عقولهُم، من ميثاقٍ آخرَ أزليٍّ، فقال ما قال "[2].

2) ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذُّرِّيَّة: الأولادُ وأولادهم، والذُّرِّيَّة: أصلُها الصِّغارُ من الأولادِ وإن كانَ قد يقعُ على الصِّغار والكبار[3]، و(ذُريَّة) مأخوذةٌ من (ذَرَأ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّرِّيَّة خَلْقُ اللّه، يُقال: ذَرَأ اللّهُ الخَلْقَ، أي: خَلقَهم، فهو يَذْرَؤُهم، وتُرِكتِ الهَمزةُ فيها؛ لكثرةِ ما يُتكلَّم بها[4].

3) ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾: من (شهد)، والشَّهادةُ: خبرٌ قاطعٌ، تقولُ منه: شهدَ الرَّجل على كذا، وربَّما قالوا: شهْدَ الرَّجلُ، بسكونِ الهاءِ للتَّخفيفِ، عن الأخفشِ، وقولهم: اشهدْ بكذا، أي: احلف[5]، جعلَهم يشهدونَ، يُقَالُ: أشْهَدَه على الشَّيء، يُشْهِدُه إشهادًا فَشَهِدَ[6]، أي: صارَ شاهدًا، وأصل (شهد)، يَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ[7]، والمعنى هُنا: أَوْجَدَهُم شاهدين بذلِك، قائلينَ له حالًا ومقالًا[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـيـانُ إشـهـادِ اللـهِ لبني آدمَ بـالرُّبـوبيَّةِ لَـهُ؛ لِئَلَّا يُنكروا هذا يومَ القيامةِ

واذكر -أيُّها الرَّسول- إذ أخرجَ ربُّك أولادَ آدمَ مِن أصلابِ

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 548/3، وابن سعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 308.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 110.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 178، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 7/3.
(4) الرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والسّجستاني، غريب القرآن: 230/1، وابن فارس، مقاييس اللغة: 352/2، وابن الأثير، النِّهاية: 157/2، وابن الهائم، التبيان، ص: 92.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: 494/2.
(6) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 3571/6.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 506/3.

آبائِهم، وقرَّرهم بإثباتِ رُبوبيَّتِه، بما رَكَزَهُ في فِطَرِهِمْ من الإقرارِ، بأنَّهُ خالقُهم وربُّهم قائلًا لهم: ألستُ بربِّكم؟ قالوا جميعًا: بلى أنت ربُّنا؛ وإنَّما فعلنا هذا حتَّى لا تُنكروا يوم القيامةِ حُجَّةَ اللّهِ عليكم، وتقولوا: إنَّه لا علمَ لكم بذلكَ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ، وموقع مفتتح الآية بما قبلها:

بيانُ تمادي اليهودِ ومَن شابهَهُم في نقضِ الميثاقِ الخاصِّ والعامِّ

في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي: واذكر - أيُّها الرَّسولُ - للنَّاسِ كافَّةً ما أخذهُ اللّهُ من ميثاقِ الفطرةِ على البشر عامَّةً[2]، وهو معطوفٌ على ما قبلُ، مسوقٌ لإلزام اليهودِ بمقتضى الميثاقِ العامِّ، فإنَّ منهم مَن أشركَ، فقالَ: عُزيزٌ ابن اللّهِ -عزَّ اسمُه- بعد إلزامِهم بالميثاقِ المخصوص بهم، والاحتجاجِ عليهم بالحُجَجِ السَّمعيَّة والعقليَّة ومنعهم عن التَّقليدِ، فالحكمةُ في تخصيصِ بني إسرائيلَ بهذه القصَّة الزِّيادةُ في إقامة الحُجَّة عليهم، حيثُ أعلمَهم اللّهُ، بأنَّه أعلمَ نبيَّهُ بمبدأ العالم، فضلًا عن وقائِعِه، فيكونُ هذا من قبيلِ عطفِ قصَّةٍ على قصَّةٍ. وبعضُهم جوَّز أن يكونَ تذييلًا؛ تعميمًا بعد التَّخصيصِ؛ حيثُ ذكرَ شؤونَ البشرِ العامَّةِ المتعلِّقةِ بهدايةِ اللّهِ لهم، بما أودعَ في فطرتِهم، وركَّبَ في عقولِهم من الاستعدادِ للإيمان به، وتوحيده وشُكره، في إثر بيان هدايتِه لهم بإرسال الرُّسل وإنزالِ الكتبِ في قصَّة بني إسرائيل، إظهارًا لتمادي هؤلاء اليهودِ في الغيِّ بعد أخذِ الميثاقِ الخاصِّ المدلولِ عليه بقوله سبحانه: ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ﴾[3]؛ فالمناسبةُ بين هذا وما قبلَهُ ظاهرةٌ، ولذلك عطَفَ عليه عطْفَ جملةٍ على جملة، أو سياقٍ على سياق[4].

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 234، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 151/8، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 103/9.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 93/5، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 206/10.

(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 386/9.

سِرُّ الانتقالِ من مُخاطبةِ بني إسرائيلَ إلى غيرِهم من مُشركي العربِ:

التَّذكيرُ بمقصودِ السُّورةِ الكريمةِ في مُحاجَّةِ المشركين والرَّدِّ عليهم

قولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾: هذا انتقالٌ بالكلامِ إلى محاجَّةِ المشركين من العربِ، وهو المقصودُ من السُّورةِ ابتداءً ونهايةً، فكان هذا الانتقالُ بِمنزلة رَدِّ العَجُزِ على الصَّدر، حيثُ جاءَ هذا الانتقال بمناسبةِ ذِكرِ العهدِ الَّذي أخذَ اللهُ على بني إسرائيلَ في وصيَّةِ موسى، وهو ميثاقُ الكتاب، وفي يوم رفع الطُّورِ، وهو عهدٌ حصلَ بالخطابِ التَّكوينيِّ، أي: بجعل معناهُ في جِبلَّةِ كلِّ نَسَمَةٍ وفِطرتِها[1].

سِرُّ المجازِ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾:

مناسبةُ ما تضمَّنتْهُ الآيةُ مِن الميثاقِ، والإيذانُ بالاعتناءِ بشأنِ المأخوذِ

في قوله: ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾: الأَخْذُ انتزاعُ الشَّيءِ وتناولُهُ من مقرِّهِ، وهو هنا مجازٌ في الإخراجِ بجامعِ الانتزاع، وفي إيثار الأخذِ على الإخراجِ مناسبةٌ لما تضمَّنتْه الآيةُ مِن الميثاقِ، فإنَّ الذي يناسبُهُ هو الأخذُ دونَ الإخراجِ[2]، وفيه أيضًا إيذانٌ بالاعتناءِ بشَأنِ المأخوذِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ في مقام أخذِ الميثاقِ:

بيانُ آثارِ الرُّبوبيَّةِ في الاجتباءِ، والاصطفاءِ بهذا الأخذِ، وما يتبعُهُ

قولهُ تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾، أي: المحسنُ إليكَ بالتَّمهيدِ لرسالتك[3]، والتَّعبيرُ بالرَّبِّ في هذا المقامِ، لما يَظْهر في الأخذِ باعتبارِ ما يتبعُهُ من آثارِ الرُّبوبيَّة من الاجتباءِ والاصطفاء[4]، حيثُ أمرهُ أن يذكرَ لهم أنَّه ركَّبَ لهم في عموم هذا النَّوعِ الآدميِّ من العقولِ، ونصبَ من الأدلَّة السّارية على مقتضى التّكوين، وجريان الأقدار، ما لو عُذِّب تاركُه، والمتهاونُ به، لكانَ تعذيبُه جاريًا على المناهج، مُلائمًا للعقول، ولكنَّهُ سبحانه لسبقِ رحمتِهِ وغلبةِ رأفته، لم يؤاخِذْ بذلك، حتَّى ضمَّ إليه الرُّسل، وأنزل معهم الكُتب، وأكثرَ فيها من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 166/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 94/5.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 151/8.
(4) إرشاد العقل السّليم: 289/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 93/5.

المواثيقِ، وزاد في الكشفِ والبيان، وإلى كلِّ ذلك جاءتِ الإشارةُ باسم الرَّبِّ[1].

نكتةُ إضافةِ كلمةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ الخطابِ ﴿رَبُّكَ﴾:

الرَّسولُ الأكرمُ ﷺ تجلّتْ فيه معاني العبوديَّةِ لكمال الرُّبوبيَّةِ

إضافةُ كلمةِ الرَّبِّ إلى ضميره ﷺ، للتَّشريفِ والتَّكرمةِ والتَّنويه بمحلِّهِ وفضيلته[2]، فهو المربِّي له بفضلِهِ وإنعامِه، وهو الَّذي اجتباهُ واصطفاهُ، مبلِّغًا ومذكِّرًا بما أوحاهُ، فعبَّر عن ذي الجلالةِ بـ(ربّك)، بالإشارةِ إلى معنى الرُّبوبيَّةِ الَّتي تملأ نفسَ النَّبيِّ ﷺ، وقد أدركها قبل النُّبوَّةِ بالفطرة الإنسانيَّةِ الكاملةِ، فنفرَ من عبادة الأوثان، وعبدَ اللّهَ (تعالى) وحده، وقال: إنَّه الدَّيَّانُ وحدَهُ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بعبارةِ ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ للذّكور:

بيانٌ لنوعٍ من أخذَ من ذرِّيَّتهم عهدَهُ وميثاقَهُ

لَمَّا كانَ السِّياقُ في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ لأخذ المواثيق، والأخذِ بقوَّةٍ؛ ذكرَ أخذَ الذُّرِّيَّةِ من أقوى نوعَي الآدميِّ، وهم الذُّكورُ، فقالَ: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[4]؛ إذِ الأخذُ والاستخراجُ يكون من مُستقرِّ أصلابِ الذُّكور، للذُّرِّيَّةِ الإنسانيَّةِ كلِّها؛ وفي هذا بيانٌ لنوعِ مَن أُخِذَ من ذرِّيَّتهم، وهم بنو آدم[5]؛ و﴿مِنۡ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: ابتداءً من بني آدم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالبدلِ ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾:

تقريرٌ بالبيانِ بعد الإبهامِ وتفصيلٌ بعد الإجمالِ

وقولُه تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ بدلٌ من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، بدلَ البَعضِ بتكريرِ الجارِّ، وفيه مزيدُ تقريرٍ؛ لابتنائه على البيانِ بعد الإبهام، والتَّفصيلِ بعد الإجمالِ[6]، كما أُعيدَ حرفُ الجرِّ مع البدل للتَّأكيد، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ [الأنعام: 99][7].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 151/8.
(2) إرشاد العقل السّليم: 289/3، والقنوجيّ، فتح البيان: 611/2.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3003/6.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 152/8.
(5) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3003/6.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 289/3.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.

سرُّ تأخيرِ المفعولِ بهِ:

مُراعاةُ كونِ الذُّرِّيَّةِ من بني آدمَ، مع التَّشويقِ إلى المؤخَّرِ

﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ مفعول ﴿أَخَذَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، وقد أُخِّر عن المفعولِ بواسطةِ الجارِّ، لاشتمالِه على ضميرٍ راجعٍ إليه، فيلزمُ بالتَّقديم رجوعُ الضَّمير إلى متأخِّرٍ لفظًا ورُتبةً، وهو لا يجوز إلَّا في مواضعَ ليس هذا منها، وأُخِّر أيضًا لمراعاةِ أصالتِه ومنشئيَّته، ولقصد التَّشويق إلى المؤخَّر[1].

دلالةُ لفظِ ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ في هذا السِّياق:

بيانُ أنَّ العهدَ مأخوذٌ على كلِّ فردٍ من الذُّرِّيَّةِ أخذًا قويًّا مُؤكَّدًا

فعل ﴿أَخَذَ﴾ يتعلَّقُ به ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وهو معدًّى إلى ذرِّيَّاتهم، فتعيَّن أن يكون المعنى: أخذَ ربُّك كلَّ فردٍ من أفرادِ الذُّرِّيَّة، من كلِّ فردٍ من أفرادِ بني آدم، فيحصلُ من ذلك أنَّ كُلَّ فردٍ من أفرادِ بني آدمَ، أقرَّ على نفسِه بالمربوبيَّةِ للَّهِ تعالى[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه أكَّد عليهم المواثيقَ، وشدَّدها لهم، وأمرَهُم بالقوَّةِ في أمرِها، وأعطاهم من القوَّةِ في التَّركيبِ والمزاج ما يكونون به مُطيعينَ لذلك، فهو تكليفٌ بما في الوسْعِ[3].

تنوُّعُ القراءةِ القرآنيَّةِ وأثرُهُ في المعنى:

الجمعُ للتَّنصيصِ على العمومِ، واسمُ الجمعِ لدخولِ أبناءِ آدمَ من صلبِهِ

قرأَ أبو عمرٍو وابن عامر ونافع: ﴿ذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ بالجمع، وقرأ باقي السَّبعةِ ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ بالإفراد، وهي تقعُ على الواحدِ والجمعِ[4]، والذُّرِّيَّات جمع ذرِّيَّةٍ، والذُّرِّيَّة: اسمُ جمعٍ لما يتولَّد من الإنسانِ، وجمعه هُنا للتَّنصيصِ على العمومِ، فجُمِعَ لتُخَلِّصَ الكلمةُ إلى معناها المقصودِ إليه لا يشركها فيه شيءٌ، وهو الجمعُ؛ لأنَّ ظهورَ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/94.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/168.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/152.
(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/273.

بني آدمَ استخرجَ منها ذُرِّيَّاتٍ كثيرةً مُتناسبةً، أعقابًا بعد أعقابٍ، لا يعلم عددَهم إلَّا اللّهُ، فجمعَ لهذا المعنى[1]، كما أنَّ أَخْذَ العهد على الذُّرِّيَّة المُخْرجين من ظهورِ بني آدم، يقتضي أخذَ العهدِ على الذُّرِّيَّة الَّذين في ظهرِ آدم، بدلالةِ الفحوى، وإلَّا لكان أبناء آدمَ الأَدْنَوْنَ ليسوا مأخوذًا عليهم العهدُ، مع أنَّهم أولى بأخذ العهدِ عليهم، في ظهر آدم[2]، فلم يذكرْ ظهرَ آدمَ، وإنَّما أُخرجوا جميعًا من ظهرِه لأنَّ اللّهَ تعالى أخرج ذريَّة آدمَ بعضَهم من ظهورِ بعضٍ، على نحو ما يتوالدُهُ الأبناءُ من الآباء، فاستُغني عن ذكرِ آدم، لما عُلِمَ أنَّهم كُلُّهم بنوه، وأُخْرِجوا من ظهره[3]، وكذا من آدمَ، فالأخذُ منه لازمٌ للأخذِ منهم؛ لأنَّ الأخذَ منهم بعدَ الأخذِ منهُ، ففي الآيةِ الاكتفاءُ باللَّازم عن الملزوم[4].

معنى الإشهادِ، وبلاغةُ التَّعبيرِ بِهِ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾:

تقريرُهم بإثباتِ الرُّبوبيَّةِ بما نصَّبهُ لهم من دلائلِها

قولُه تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: قرَّرهم بإثباتِ ربوبيَّتِه، بما أودعَهُ في فطرهم من الإقرارِ بأنَّهُ ربُّهم وخالقُهم ومليكُهم[5]، فأوضحَ لهم من البراهينِ من الإنعام بالعقولِ، مع خلقِ السَّموات والأرضِ وما فيهما على هذا المُنوالِ الشَّاهد له بالوحدانيَّةِ، وتمام العلم والقُدرةِ، ومن إرسالِ الرُّسل المؤيَّدين بالمعجزاتِ، ما كانوا كالشُّهودِ بأنَّه لا ربَّ غيره[6]، والشَّهادةُ على النَّفسِ لونٌ من الإقرارِ، والإقرارُ سيِّدُ الأدلَّة، "فنصبَ لهم دلائلَ ربوبيَّتِهِ، وركَّبَ في عقولِهم ما يدعوهُم إلى الإقرارِ بها[7]، وقيلَ: إنَّ المعنى هنا على سبيل

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/317.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/168.
(3) الواحديّ، الوسيط في التَّفسير: 2/424.
(4) القنوجيّ، فتح البيان: 2/611.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 308، والصّاويّ، حاشيّة الصَّاويّ على الجلالين: 1/570.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/152.
(7) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4441.

التَّمثيل[1]، إذ الإشهادُ على الأنفسِ يُطلقُ على ما يُساوي الإقرارَ، أو الحملَ عليهِ، وهو هُنا الحملُ على الإقرارِ، واستعيرَ لحالةٍ مُغيَّبةٍ تتضمَّنُ هذا الإقرارَ، يعلمُها اللهُ، لاستقرارِ معنى هذا الاعترافِ في فطرتهِم[2]؛ فالمقصودُ من الجملةِ الاحتجاجُ على المشركينَ بمعرفتِهم ربوبيتَّهُ تعالى معرفةً فطريَّةً لازمةً لهم لزومَ الإقرارِ منهم والشَّهادة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: 30]، والفطرةُ هي معرفةُ ربوبيَّتِهِ سبحانه[3].

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾:

عودُ الضَّميرِ على الذُّرِّيَّةِ، باعتبارِ معناهُ، وعلى الذُّرِّيَّاتِ باعتبارِ لفظِهِ

الضَّميرُ في ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ﴾ عائدٌ على الذُّرِّيَّة، باعتبارِ معناهُ؛ لأنَّهُ اسمٌ يدلُّ على جمعٍ[4]، وفي قراءةِ ﴿ذُرِّيَّتِهِمۡ﴾ يكون عائدًا على لفظه؛ وطريقةُ العربيَّةِ في الحملِ على اللَّفظِ والحمل على المعنى جاريةٌ؛ فالإفرادُ لاتِّحاد الصِّفةِ، والنَّسلُ لمراعاةِ التَّناسل، وفي هذا إيجازٌ، وإذا أُشْبِعَ المعنى فالإيجازُ هو البلاغة.

دلالةُ الحذفِ في ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾:

بيانُ كمالِ قدرةِ اللهِ تعالى على مخاطبةِ مخلوقاتِهِ، بما يشاءُ، وكيفَ يشاءُ

جملةُ ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾، مقولٌ لقولٍ محذوفٍ، أي: قائلًا هذا، فهو على إرادةِ القَوْلِ يُخاطِبُ فيه اللّهُ ﷻ جميعَ خلقِهِ، ويجيبهُ

(1) وبهذا المعنى قال كثير من المفسّرين في تنزيل تمكينهم من العلم بها وتمكُّنهم منه منزلة الإشهادِ والاعتراف بطريق التَّخييل والاستعارة التَّمثيليَّة، وتصوير المعنى، فقالوا: إنَّهُ شبَّه الهيئة المنتزعة من هذه الأمور العديدة، بالهيئة المنتزعة من الإشهاد والإقرار، لكنَّ الأمور المشبَّهة بها مخيَّلةٌ موهومةٌ غير محقَّقةٍ، فلا قول ولا إقرار حقيقة. ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 218/5، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 543/8.

والصَّواب إثباتُ هذه المعاني على وجه الحقيقة وإمرارها كما جاءت، وقد فصَّل الشَّيخ صدّيق حسن خان القِنّوجيُّ القول في هذه المسألة؛ وأنَّه بمعناه؛ إذ إخراج الذُّريَّة من الظُّهور قبل الخلق والظُّهور، وأخذ الميثاق والعهود، ممَّا يقتضي التَّرغيب والتَّرهيب، وهذا على سبيل التَّحقيق دون التَّخييل والتَّقدير. ينظر، القنّوجيّ، فتح البيان: 611/2.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.

(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 431/5.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.

جميعُ خلقهِ، وقد ذهبَ كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ القولَ هُنا قولُ إرادةٍ وتكوينٍ، لا قولَ وحيٍ وتلقين: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، فقالوا كذلك بلغةِ الاستعدادِ، ولسانِ الحال، لا بلسانِ المقالِ: (بلى أنت ربُّنا، والمستحقُّ وحدَهُ لعبادتنا)؛ فهو من قبيلِ قولهِ تعالى بعد ذكرِ خَلْقِ السَّماءِ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت: 11]، وهو مَبنيٌّ على القولِ الأوَّلِ في الإشهادِ ومعناه[1]، ويكفي أنَّ ربَّنا الخالقَ القادرَ، قد أبلغنا أنَّه قد خاطبَ الذَّرَّات قائلًا: (ألست بربِّكم؟)، وقد يقول قائلٌ: أكانَ لهذهِ الذُّرِّيَّةِ القدرةُ على النُّطقِ، وهي ذرِّيَّةٌ تنتظرُ التَّكوين الآخرَ في أرحام الأمَّهات؟ فجوابُهُ أنَّ مخاطبةَ ربِّنا لهم ليس بالأمرِ الصَّعبِ؛ فربُّنا يقدرُ أن يُعدِّدَ وسائل الأداء لمخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: 10] فهو قادرٌ على أن يخاطبَ أيًّا من مخلوقاته؛ وهو القائلُ سبحانه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: 79]... فإذا قرأنا: أنَّ الحقَّ قال لذرِّيَّةِ آدمَ: (ألستُ بربِّكم؟) فهذا يعني: أنَّهُ قالها لهم باللُّغة الَّتي يفهمونها، ولقد تكلَّمتِ النَّملةُ، وفَهِمَ سليمانُ كلامَها، ولو لم يُعلِّم اللهُ سليمانَ كيف يفهَمُ كلامَها، لما عرفنا أنَّها تكلَّمت: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النَّمل: 18][2].

إيثارُ الاستفهامِ التَّقريريِّ على التَّقريرِ المباشرِ:

إفادةُ التَّقريرِ بإثباتِ الرُّبوبيَّةِ، والمُبالغةِ في إثباتِها

في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الهمزةُ للاستفهام، والاستفهامُ هنا للتَّقرير، والمعنى: أنَّا ربُّكم الحقُّ، وجيء بذلك النَّحوِ من القولِ لتأكيدِ الإيجاب، كأنَّه سألَهم، وأجابوا بالإثبات، أي: بإثباتِ الرُّبوبيَّة، وقد أجابوا على هذا السُّؤالِ، مُثبتينَ موجبَ نفي النَّفي، فقالوا: بلى[3]،

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/386.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4441.
(3) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3003.

فالهمزةُ: همزةُ إنكارٍ، دخلت على المنفيِّ، فرجعَ إلى معنى التَّقريرِ والمُبالغةِ في الإثبات[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيّةِ في تعيينِ المقرّرِ بِهِ ﴿بِرَبِّكُمۡۖ﴾:

التَّذكيرُ بعوائدِ الإحسانِ، لتكونَ سببًا في الإقرارِ

قولُه: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾، أي: المحسنُ إليكم بالخلقِ، والتَّربيةِ بالرِّزقِ[2]، ومالكُ أمركم، ومُربِّيكم على الإطلاقِ من غير أن يكونَ لأحدٍ مَدخلٌ في شأنٍ من شؤونكم[3]؛ فذكَّرهم بعوائدِ إحسانِه، وتربيتِهم بفضلهِ وامتنانهِ، ليكونَ سببًا في إقرارِهم بتوحيدِه، وتعظيمِ شأنه.

دلالةُ جوابِ التَّقريرِ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، وبلاغتُهُ بين الحالِ والمقالِ:

مفادُ القولِ على وَفْقِ السُّؤالِ الّذي استفسرَ عن تربيتِهم، لا عن إلهِهم

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾، أي: على أنفسِنا بأنَّك ربُّنا، واختلفوا في الإجابةِ هذه كيف كانت؟ هل كانوا أحياءً؟ فأجابوا بلسانِ المقال، أو أجابوهُ بلسانِ الحال، وأنَّ المُراد إقرارُ نفوسهم، لا إقرارُ ألسنتِهم، فإنّهم انقسموا في إقرارِ الألسنةِ؟[4]، والظَّاهرُ الأوَّلُ، ونَكِلُ كيفيَّتها إلى اللّٰه سبحانه، وكان هذا القولُ على وَفْقِ السُّؤالِ؛ لأنَّه تعالى سألهم عن تربيتِهم، ولم يسألْهُم عن إلهِهم، فقالوا: بلى، فلمَّا انتهوا إلى زمانِ التَّكليفِ، وظَهَرَ ما قضى اللّٰهُ في سابقِ علمِه، لكلِّ أحدٍ؛ منهم مَن وافقَ ومنهم مَن خالَف.

---

(1) أبو حيَّان الغرناطي، النَّهر المادّ: 885/1، وبهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 127/4.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 152/8.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 273/3.

(4) وهذا منسحب على القول بأنَّ الكلام جارٍ مجرى التَّمثيل أيضًا، وقد ذكر الشَّيخ محمَّد دروزة أقوال من قال بذلك من المفسّرين، وأطال النَّفس في مناقشة أقوالهم، ثمَّ خلص إلى قوله: وطريقة السَّلف الَّتي أخذ بها الطَّبري في الأسلوب الَّذي أخذ اللَّه به العهد من بني آدم أسلم؛ ففي القرآن عبارات كثيرة، مثل هذه لا يمكن معرفة مراد اللَّهِ تعالى بها معرفةً ذاتيَّة ولا يكون هناك حديث نبويٌّ ثابتٌ في تفسيرها، ففي مثل هذه الحالة تكون تلك الطَّريقة أسلم، ويكتفى بشرح مدلول الآيات الَّتي فيها العبارة شرحًا عامًّا، على أنَّ هذا لا يمنعنا من القول: إنَّنا نرى وجاهةً وسدادًا في الأقوال والتأويلات الأخرى. ينظر: محمّد عزّة دروزة، التّفسير الحديث: 529/2.

(بلى) تفيدُ إبطالَ النَّفي وتقريرَ المنفي، بخلافِ (نعم) الَّتي تحتملُ الأمرين

سرُّ اصطفاءِ الجوابِ ﴿بَلَىٰ﴾:

﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جوابٍ لكلامٍ فيه معنى النَّفي، فيقتضي إبطالَ النَّفي وتقريرَ المنفيِّ، ولذلك كان الجوابُ بها بعد النَّفي، أصرحَ من الجوابِ بحرفِ (نعم)؛ لأنَّ (نعم) تحتملُ تقريرَ النَّفي، وتقرير المنفيِّ، وهذا معنى ما نُقل عن ابنِ عبَّاس (رضي الله عنهما) في هذه الآية أنَّه قال: (لَوْ قالوا: نعم، لكفروا)، أي: لكان جوابُهم مُحتمِلًا للكفر، ولمَّا كان المقامُ مقامَ إقرارٍ؛ كان الاحتمالُ فيه تفصِّيًا من الاعتراف[1].

الميثاقُ الَّذي شهدتْهُ الأرواحُ دونَ الأشباحِ، إقرارٌ سابقٌ بالولاءِ للَّهِ

موقعُ فصلِ جملةِ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ عمَّا قبلَها، وقوَّةُ الجوابِ فيها:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا، فقيل: قالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾[2]، فبينها وبين الجملةِ الَّتي قبلها شبهُ كمالِ اتِّصالٍ، وقد فُصِلَت هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها جاءتْ على طريقةِ المحاورةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30][3]، بعد محاورةِ اللَّه تعالى لملائكتِه الكرام، وهذه الجملةُ جوابٌ عن الاستفهامِ التَّقريريِّ، أي: شهدنا على أنفسِنا عن عقيدةٍ وإقناعٍ، علمًا شهوديًّا، بأنَّك أنت ربُّنا وخالقنا، ولا ربَّ لنا سواك؛ فإنَّ آثارَ رحمتِكَ، وعجائبَ خَلْقك، ومظاهرَ قدرتك، تجعلُنا لا نتردَّدُ في هذه الشَّهادةِ[4]؛ وذلك لأنَّهم وصلوا بعد البيانِ إلى حدٍّ لا يكون فيه الجوابُ إلَّا ذلك، فكأنَّهم قالوه، فهو من وادي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾ [الرَّعد: 15] الآية، و﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩﴾ [النَّحل: 49][5]. وليس بعجيبٍ أن يكون بيننا وبَيْنَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/169.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/273.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/169.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/431.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/153.

اللّهِ سبحانه هذا الموقفُ الَّذي شهدَتْهُ أرواحُنا، ولم تشهدْهُ أجسادُنا، كما شَهِدَتْهُ المخلوقاتُ جميعًا؛ من حيٍّ وغير حيٍّ، وهذهِ الشَّهادةُ إقرارٌ سابقٌ بولائنا جميعًا للهِ، وإيماننا بوحدانيَّتهِ؛ وإنَّ من شأنِ هذا الإقرارِ أن يُقيم وجوهنا إلى اللّه، بعد أن نلبسَ هذه الأجسادَ الَّتي نعيش فيها، فهذا الإقرارُ رصيدٌ من الإيمان نستقبلُ به الحياةَ، ونتلاقى بهِ على طريقِ الإيمانِ مع دعوةِ العقلِ الَّذي أوجدَهُ اللّهُ فينا، ومع دعوةِ الرُّسلِ الَّذين أرسلَهُم اللّهُ إلينا[1].

بلاغةُ كمالِ الاتِّصالِ أو الاستئنافِ بين حكايةِ قولِ البشرِ أو الملائكةِ:

تأكيدُ الإقرارِ السَّابقِ مع بيانِ حُسْنِ الوقفِ على (بلى) من عَدَمِهِ

قوله: ﴿شَهِدۡنَآۚ﴾، يحتملُ أن يكونَ من قولِ بني آدمَ، حين أشهدَ اللّهُ بعضَهم على بعضٍ، فقالوا: بلى شهدْنا، فلا يحسنُ الوقفُ على قولِه: بَلَىٰ، ويكون قولهم: ﴿شَهِدۡنَآۚ﴾ تأكيدًا لمضمون ﴿بَلَىٰ﴾، والشَّهادةُ هُنا أيضًا بمعنى: الإقرار[2]، ويحتملُ أن يكونَ قولُهُ: شَهِدْنَا من قول الملائكةِ، فيحسنُ الوقفُ على قوله: بَلَىٰ[3]، واستئنافُ الكلام بعده، ويكون في الكلام حذفٌ تقديره (لَمَّا قالت الذُّرِّيَّةُ: بلى؛ قال اللّهُ تعالى للملائكة: اشهدوا، قالوا: شهدنا)[4]، أي: عليكم بالإقرارِ بالرُّبوبيَّةِ[5].

بلاغةُ حذفِ حرفِ التَّعليلِ في: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾:

بيانُ تعليلِ فعلِ الأخذِ والإشهادِ السَّابقِ، وتعليلِ نفي اللَّاحقِ

وقع قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ في موقع التَّعليلِ، لفعل الأخذِ والإشهادِ؛ فهو على تقديرِ لامِ التَّعليل الجارَّة (لئلَّا)، وحذْفُها مع (أن) جارٍ على المُطَّردِ الشَّائِعِ، والمقصودُ التَّعليلُ بنفي أن يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لا بإيقاعِ القولِ، فحَذْفُ حرف النَّفي جرْيٌ على شيوع حذفِه مع القولِ، أو هو تعليلٌ بأنَّهم يقولونَ ذلك إن لم يقعْ إشهادُهم

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 514/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(3) عبد الرَّحمن الثَّعالبيّ، تفسير الثّعالبيّ: 92/3.
(4) محمَّد ثناء الله المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 427/3.
(5) محمّد الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 662/3.

على أنفسِهم؛ كما جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الأنعام: 156][1].

تشديدُ تذكيرِ المخاطبينَ بالعهدِ السَّابقِ، والاحتجاجِ عليهِم بهِ

دلالةُ تلوينِ الخطابِ في قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾:

معنى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾: لئلَّا تقولوا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾، ويجوزُ أن يكون التَّقديرُ: شهِدْنا كراهيةَ أن تقولوا، وقرأ أبو عمرٍو بالياء (يقولوا)؛ لأنَّ الَّذي تقدَّم من الياءِ على الغيبةِ، وكِلا الوجهين حسنٌ؛ لأنَّ الغُيَّبَ هم المخاطبون في المعنى[2]، وقرأ الجمهورُ: أن تقولوا بتاء الخطاب[3]، فيه تحويلٌ من خِطابِ الرَّسولِ في قَولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾، إلى خطابِ قَومِه ومعاصريه من اليهود، تشديدًا في الإلزام إليهم، وإلى متقدِّميهم بطريقِ التَّغليبِ، وتصريحًا بأنَّ المقصودَ مِن قِصَّةِ أخْذِ العَهدِ تذكيرُ المُشركينَ بما أودَعَ اللَّهُ في الفِطرةِ مِن التَّوحيدِ، وهذا الأسلوبُ هو مِن تَحويلِ الخِطابِ عن مخاطَبٍ إلى غيرِه، وليس مِن الالتفاتِ؛ لاختلافِ المُخاطبينَ[4]، وهذه الآيةُ تذكيرٌ بما أخذ على جميع المكلَّفينَ من الميثاق، واحتجاجٌ عليهم لئلَّا يقولَ الكفَّارُ: إنَّا كنَّا عن هذا الميثاقِ غافلين، لم نحفظْهُ، ولم نذكرْهُ[5].

بيانُ تجلِّي الأمرِ ووضوحِهِ يومَ القيامة، حيثُ الجزاءُ والحسابُ

بلاغةُ القيدِ بالظَّرفِ في: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

يومُ القيَامَةِ ظرفُ جزاءِ الأعمال، وهو يومُ إدانةِ الخلائقِ ومحاسبتِهم، ومجازاتِهم بأعمالِهم؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، وهو اليوم الَّذي يسألُ فيه عن الرُّبوبيَّة والتَّوحيد[6]، فإن قيل: إنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(2) الواحدي، الوسيط في التَّفسير: 424/2، والثَّعالبيّ، تفسير الثّعالبيّ: 92/3.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 93/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(5) الواحديّ، الوسيط في التَّفسير: 424/2.
(6) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 216/5.

ذلك الميثاقَ لا يذكرهُ أحدٌ اليومَ، فكيفَ يكون حجَّةً عليهم اليوم، أو فكيف يذكرونَهُ يومَ القيامة، حتَّى يحتجَّ عليهم به؟ فجوابه: أنَّ اللّه تعالى لمَّا أخرجَ الذُّرِّيَّة من صلب آدمَ، ركَّبَ فيهم العقولَ، وأخذَ عليهم الميثاقَ، فلمَّا أُعيدوا إلى صلبِ آدمَ؛ بَطَلَ ما رُكِّبَ فيهم، فتوالدوا ناسين لذلك الميثاقِ، لاقتضاءِ الحكمةِ الإلهيَّةِ نسيانهم له، ثُمَّ ابتدأَهُم بالخطاب على ألسنة الرُّسلِ (عليهم الصَّلاة والسَّلام) وأصحابِ الشَّرائعِ، فقامَ ذلك مَقامَ الذِّكر؛ إذ الدَّارُ دارُ تكليفٍ وامتحانٍ، ولو لم ينسوهُ لانتفتِ المحنةُ والابتلاءُ والتَّكليف، فقامت الحُجَّةُ عليهم، لإمدادهم بالرُّسل، وإعلامِهم بجريان أخذِ الميثاق عليهم، وبذلك قامتِ الحُجَّةُ عليهم أيضًا يوم القيامة، لإخبارِ الرُّسل إيَّاهم بذلك الميثاقِ في الدُّنيا؛ فمن أنكرَهُ كان مُعاندًا ناقضًا للعهد، ولَزِمتهم الحجَّةُ، ولم تسقط عنهم بنسيانهم، وعدمِ حفظهم بعد إخبارِ الصَّادق[1]، فيحاسَبونَ يَوۡمَ القيامة عند ظهورِ الأمر[2].

سِرُّ اصطفاءِ اسم (القيامة) في قولِه: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

قيامُ العدلِ على من أنكرَ الميثاقَ بقيامِ الأشهادِ عليه

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سُمِّي بهذا الاسم؛ لأنَّه يومُ قيام النَّاس من قبورِهم، وقيامِ الأشهادِ من الرُّسل والأنبياء، والصَّالحين والملائكة، ويومُ قيامِ العدل الحقيقيِّ بين النَّاسِ؛ فلا يستطيعُ منكرٌ إنكارَ ما عاهدَ عليهِ من الميثاقِ، لقيامِ العهدِ عليهِ بقيامِ الأشهادِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمقولِ جملةٍ اسميَّةٍ مؤكَّدةٍ:

التَّنبيهُ على أنَّ تأكيدَ جهلِهم، لايعذَرونَ بهِ في ذلك اليومِ

قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، أي: وحدانيَّتك وربوبيَّتك، ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ إذ لم ينبِّهنا إليه منبِّهٌ، أولعدم الأدلَّة، فلذلكَ أشركنا[3]، فأكَّدوا جهلَهم بلفظِ (إنَّ) واسميَّة الجملةِ، ظنًّا منهم أنَّ ذلك

(1) الخازن، تفسير الخازن: 266/2.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 273/3.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 153/8.

ينفعُهم، وأنَّهم معذورون بجهلِهم وغفلتِهم؛ ومآلُ هذا أنَّهُ لا يقبلُ منهم الاعتذارَ بالجهلِ؛ لأنَّهم نُبِّهوا بنصبِ الأدلَّةِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (هذا) في: ﴿عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾:

بيانُ توجُّهِ الإشارةِ إلى العهدِ والإقرارِ، أو إلى أصلِ المعرفةِ الفطريَّةِ

الإشارةُ في ﴿عَنۡ هَٰذَا﴾ تتَّجهُ إلى أمرين: أحدهما: أنَّهُ إشارةٌ إلى الميثاقِ والإقرارِ، والثَّاني: أنَّه إشارةٌ إلى معرفةِ أنَّه الخالقُ[2]، أي: إلى مضمونِ الاستفهامِ وجوابِه، وهو الاعترافُ بالرُّبوبيَّةِ للّه تعالى[3]، والتَّعبيرُ باسم الإشارةِ فيه تمييزٌ أكملُ تمييزٍ؛ إذ المعهودُ في الإشارة أن تكون لمحسوسٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالغفلةِ بدلَ النِّسيانِ:

دفعُ الاعتذارِ يومَ الدِّينِ بذكرِ الغفلةِ الَّتي تَدُلُّ على نسيانٍ سابقٍ لها

الغفلةُ: عنِ الشَّيءِ، هي انصرافُ الذِّهنِ عن ملاحظتِهِ، ومُراقبته، مع وجودِه في مجال الإدراك، أو وجودِ أدلَّته، وإمكانِ إدراكه بها، لولا وجودُ الصَّارف، أو السَّهو الَّذي هو بمنزلة إطباقِ الجفنين على العينين، مع إمكانِ الرُّؤيةِ؛ فهي تركٌ باختيارِ الغافلِ، والنِّسيانُ غيبَةُ الشَّيْء عَن الْقلب بِحَيْثُ يحْتَاج إِلَى تَحْصِيل جَدِيد[4]، فهو تركٌ بغيرِ اختيارِه، ففي النَّاس فطرةٌ تدعوهم إلى الإيمانِ باللّه، حيثُ يتهدَّون بهذهِ الفطرةِ إلى التَّعرُّفِ على اللّهِ، وإفرادِه بالألوهيَّةِ، ولكنَّ هذه الفطرةَ تتعرَّضُ لآفاتٍ كثيرة، فيصيبُها الفسادُ والعطب، فتتعطَّلُ منها القوى المدرِكةُ لآلاءِ اللّهِ، القادرةُ على الاتِّصالِ به، فيكونُ الضَّلالُ والتِّيهُ في عوالم الشِّركِ والكفر[5]، فذِكرُ الغفلةِ كأنَّه اعتذارٌ بقرينة ما جاءَ بعد ذلك من الاعتذارِ بتقليدِ الآباء، فجاءَ القرآنُ بدفعِ العُذرَين مسبقًا.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 103/9، ومحمّد الحجازيّ، التَّفسير الواضح: 783/1.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 167/2.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(4) الكَفَويُّ، الكُلّيات، ص: 506.
(5) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 514/5.

الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

الشَّهادة والإقرار:

الإقرارُ تَكَلُّمٌ بالحقِّ اللَّازم على النَّفس، وهو أخصُّ من الشَّهادةِ

الشَّهادةُ إخبارٌ عن عِيانٍ بلفظ الشَّهادة(1)، وهي في الأصلِ إدراكُ الشَّيءِ من جهة سمعٍ أو رؤيةٍ(2)، وقد شاهدتُ الشَّيءَ رأيتُه، ولهذا سُمِّيَ ما يُدرَك بالحواسّ، ويُعْلَمُ ضرورةً شاهدًا(3)، أمَّا الإقرارُ؛ فهو التَّكلُّم بالحقِّ اللَّازم على النَّفس، مع توطينِ النَّفس على الانقياد والإذعان(4)، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [البقرة: 84]، والإخبارات ثلاثةٌ: إمَّا بحقٍّ للآخرِ على آخرَ؛ وهو الشَّهادة، وإمَّا بحقٍّ للمُخْبِرِ على آخر؛ وهو الدَّعوى، أو بالعكس؛ فهو الإقرار(5)، كما أنَّ الإقرارَ يكون بالقلبِ أو اللِّسان أو بهما(6)، فالإقْرَار بِالتَّوحيد وَما يجْرِي مجْراه لا يُغني بِاللِّسَانِ مَا لم يُضامَّهُ الإقرارُ بِالقَلبِ(7)، فاستخدم الإقرار هاهنا؛ لأنَّه الأبرُّ بالسِّياقِ.

النِّسيان والغفلة:

الغفلةُ تَرْكٌ باختيارِ الغافلِ، والنِّسيانُ تَرْكٌ بغيرِ اختياره

الغفلةُ: عبارةٌ عن عدم التَّفطُّنِ للشَّيءِ، وعدم حضورِه في البالِ بالفعلِ، سواء بقيت صُورَتُه أو معناه في الخيال، أو الذِّكرِ، أو انمحت عن أَحَدِهِمَا؛ فهي تركٌ باختيار الغافل، والنِّسيان غَيبَة الشَّيْء عَن الْقلب، بِحَيْثُ يحْتَاج إِلَى تَحْصِيل جَدِيد(8)، فهو تركٌ بغير اختياره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: 205]، ولم يقل:

(1) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 129.
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 291.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 305.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 64.
(5) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 129.
(6) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 58.
(7) الكفويّ، الكليَّات، ص: 160.
(8) الكفويّ، الكليَّات، ص: 506.

ولا تكن من النَّاسينَ، فإنَّ النِّسيانَ لا يدخل تحتَ التَّكليفِ، فَلا يُنْهَى عَنْهُ[1]، فالغفلةُ أعمُّ من النِّسيانِ؛ لأنَّ النِّسيانَ يَحْتاج صاحبه إلى تَجَشُّمِ كَسْبٍ جديد، وَكُلْفَةٍ في تحصيله ثانيًا[2]، فكلُّ نِسْيَانٍ غَفْلَةٌ، وليس كُلُّ غَفْلَةٍ نِسْيَانًا.

(1) ابن قيِّم الجوزيَّة، مدارج السَّالكين: 405/2.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 389.

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: 173]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قَطْعُ الحُجَّةِ في نقضِ الميثاقِ بسببِ تقليدِ الآباءِ بعد تفنيدِ حُجَّتِهم الباطلةِ

لَمَّا ذَكَّر اللّه تعالى عبادَهُ بما أخذ على جميع المكَلَّفين من الميثاقِ، والاحتجاجِ عليهم، لئلَّا يقول الكفَّار: إنَّا كُنَّا عن هذا الميثاق غافلين، لم نحفظْهُ، ولم نَذْكُرْهُ؛ قَطَعَ عُذرَهم بقوله: ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾، فلا يستطيعُ أحدٌ من الذُّرِّيَّة الكافرةِ أن يقولَ يومَ القيامة: إنَّما أشركَ آباؤنا من قبلنا، ونقضوا العهدَ، ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ فاقتدينا بهم[1]، فقد قطعَ اللّهُ حجَّتَهم الثَّانية، بعد قطعِ حُجَّتِهم الأولى، ليزولَ اعتذارُهم بمثل هذه الأعذارِ الواهيةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا﴾: تُعاقِبُنا بالإهلاكِ، يقال: هَلَكَ يهلِك هُلْكًا وهَلْكًا وهَلاكًا، فَهُوَ هَالكٌ، وأهلكه اللّهُ إهلاكًا[3]، ويطلقُ الهلاكُ على افْتِقادِ الشَّيءِ، واستحالَتِه وفسادِه، وعلى المَوْتِ، ومنه يُقالُ لِلْعَذابِ والخَوْفِ والفقْرِ هلاكٌ[4]، وأصلُ هَلَكَ يدلُّ على كَسْرٍ وَسُقُوطٍ[5]، "وهلكوا مهلكًا واحدًا، وفلانٌ هالكٌ في الهوالكِ، واهتلك فلانٌ: ألقى نفسه في التَّهلكة[6]، قال اليزيديُّ: التَّهلكة من نوادرِ المصادرِ، ليست ممَّا يجري على القياس، وأهلكه غيرُهُ

(1) الواحدي، التَّفسير الوسيط: 426/2.
(2) الزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 750/1.
(3) ابن دريد الأزدي، جمهرة اللُّغة: (هلك).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 338/5.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 62/6.
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (هلك).

واستهلَكَهُ، والمَهْلكةُ والمُهلكةُ: المفازةُ[1]، والمعنى في الآية هنا: أفتعذِّبُنا بجنايةِ آبائنا المبطلين[2]؟

2) ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: الآخِذونَ بالباطِلِ، والبَاطِلُ: نقيضُ الحقِّ، يقال: بَطَلَ الشَّيءُ يَبطُلُ بُطْلًا: ذهب باطلًا[3]، ذَهَبَ ضياعًا وخُسْرًا[4]، وأصلُ (بطل): ذهابُ الشَّيءِ، وقلَّةُ مُكثِه ولُبثِه[5]، فالباطلُ: الشَّيءُ الزَّائل، وما لا ثباتَ له عند الفَحصِ عنه[6]، والمبطلُ من يقولُ شيئًا لا حقيقةَ له[7]، والمعنى هُنا: الذين أبطلوا في دعواهم إلهًا غير اللّه[8]، وفي لسان العربِ المبطلونَ هم الكافرونَ، والمعنى: "تبيَّن لهم خسرانُهم، لما رأوا العذابَ، وإلَّا فهم كانوا خاسرينَ في كلِّ وقتٍ، والتَّخسيرُ: الإهلاكُ، والخناسير: الهلَّاكُ، ولا واحدَ له[9].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيانُ مَغبَّةِ تقليدِ الآباءِ المبطلينَ؛ لكونِ الفطرةِ تنادي بالإيمانِ المبينِ

المعنى: أُخِذَ عليكم الإقرارُ، وأنتم ذرِّيَّةٌ ليتبيَّن أنَّ فطرتَكم تناديكم بالإيمان، فلا تعتذروا بأنَّ آباءكم كانوا مشركين، وأنتم اتَّبعتموهم، فإنْ أُوخذتم، فإنَّما تُؤاخذون بشركِهم، ولكن أُخِذَ عليكم من قبلهم بالإيمان، فأنتم مسؤولونَ عن عهدِكم الَّذي عاهدتُم اللّه تعالى عليه أوَّلًا، لَا عن تقليدِكم لآبائِكُم، وإنَّه لَا يصحُّ هذا التَّقليدُ، وفيكم فطرةُ الإيمانِ[10].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (هلك).
(2) البغوي، تفسير البغوي: 248/2، والعليمي، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 59/3.
(3) الخليل، العين، باب: (الطَّاء واللَّام والباء).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بطل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 258/1.
(6) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحفَّاظ: (بطل).
(7) السَّمين الحلبي، عُمدة الحفَّاظ: (بطل).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 565/10.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (بطل).
(10) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3005/6، ويُنظر: لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 234، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيسَّر، ص: 173، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تقديمِ الاعتذارِ بالغفلةِ على الاعتذارِ بتقليدِ الآباءِ:

تقديمُ إبطالِ المؤثِّرِ الدَّاخليِّ على المُؤثِّرِ الخارجيِّ

وعُطِفَ عليهِ الاعتذارُ بالغفلةِ، بأن يقولوا: إنَّنا اتَّبعنا آباءنا، فاقتدينا بهم، وما ظننَّا الإشراكَ إلَّا حقًّا، فلمَّا كانَ في أصلِ الفطرةِ العلم بوحدانيَّةِ اللّهِ بطل الاعتذارُ بالغفلةِ وبالجهل به، وكان الإشراكُ إمَّا عن عمدٍ وإمَّا عن تقصيرٍ، وكلاهما لا ينهضُ عُذرًا[1]؛ لأنَّ نصبَ الأدلَّةِ على التَّوحيد - وما نُبِّهوا عليه - قائمٌ معهم، فلا عذرَ لهم في الإعراضِ عنه، والإقبالِ على التَّقليد والاقتداءِ بالآباءِ؛ كما لا عذرَ لآبائهم في الشِّرْك، وأدلَّةُ التَّوحيد منصوبةٌ لهم[2]، كما أنَّ الغفلةَ قد لا يسبقها كفرٌ أو معصيةٌ، ويقلِّدُها النَّاس الَّذين يأتون من بعد ذلك، والمثال الواضح أنَّ سيِّدنا آدمَ ﷺ قد أبلغَ أولادَهُ المنهجَ السَّويَّ المستقيمَ، لكنَّهم غفلوا عنه، ولم يعد من اللَّائقِ أن يقولَ واحدٌ منهم: إنَّ أباهُ قد أشركَ، ولكن جاءَ هذا الأمرُ من الغفلة، ثمَّ جاءَ إشراكُ الآباءِ في المرحلة الثَّانية؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ لو قلَّد أباهُ في الإشراكِ؛ لانتهى الشِّركُ إلى آدمَ، وآدمُ لم يكن مشركًا، لكنَّ الغفلةَ عن منهجِ اللّه المستقيم حدثت من بعضِ بني آدمَ[3].

دلالةُ ﴿أَوۡ﴾ في: ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ﴾:

إفادةُ منع الخلوِّ دونَ منعِ الجمعِ بخطابِ اليهودِ والمُشركين جميعًا

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ﴾ عُطِفَ فعلُ القول على نظيره ﴿أَن تَقُولُواْ﴾[4]، و(أو) لمنع الخُلوِّ، أي: خُلُوُّ أحدِ القولين منهم دونَ منعِ الجمع، فقد يعتذرونَ بمجموعِ الأمرين، وهو أيضًا مفعولٌ لهُ لما قبلَهُ من الأخذِ والإشهادِ بالمعنى المذكور[5]، وقد قيل: إنَّ العطفَ هُنا إنَّما يصلحُ

(1) التّحرير والتّنوير: 9/170.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/177.
(3) تفسير الشّعراويّ: 7/4450.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/41.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/290، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/544.

لخطابِ المشركين دونَ بني إسرائيلَ، والدَّليلُ على ذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾، وقيلَ بصلاحيَّة الخطابِ لليهود، والدَّليلُ على أنَّها في اليهود: الآياتُ الَّتي عُطِفَتۡ عليها هي والَّتي عُطفت عليها، وهي على نمطِها وأسلوبِها، وذلك قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [الأعراف: 163]، ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ﴾ [الأعراف: 164]، ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: 167]، ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾، ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾(1).

سِرُّ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ في: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾:

قَصۡرُ تأسيسِ الشِّركِ على الآباءِ مُبالغةٌ في التَّخلُّصِ من التُّهمةِ

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾، أي: مِن قبلنا، ونقضوا العهدَ والميثاقَ، وكُنَّا نحن الذُّرِّيَّة من بعدهم فقلَّدناهم، واقتدينا بهم، وكُنَّا في غفلةٍ عن هذا الميثاقِ، فلا ذنبَ لنا(2)، فقد خرجنا إلى هذا الوجود، فوجدنا آباءَنا قد أشركوا، فلم يكن أمامَنا خيارٌ، ولا كان وسيلةٌ لمعرفة التَّوحيدِ، ولا لتشرُّبِه والاطِّلاع على محاسنه، إنَّما ضَلَّ آباؤنا، فضلَلۡنا على إثرِهم، واتَّبعۡنا سبيلَهم في الغوايةِ، فهم المسؤُولونَ وحدَهم، وليس لنا أيُّ مسؤوليَّةٍ، ولا علينا تبعةٌ في هذا المضمارِ، فكانَ لهم السَّبقُ المانعُ من تأثيرِ اللَّاحقِ، فقصروا صفة تأسيسِ الإشراكِ، على موصوفٍ - وهم الآباء - قصرًا ادِّعائيًّا مُبالغةً في الاعتذارِ والتَّنصُّلِ من التُّهمةِ(3).

سِرُّ اصطفاء أداةِ القصرِ ﴿إِنَّمَآ﴾ على النَّفي والاستثناء:

إفادةُ نفي ابتداءِ الشِّرك وتأسيسِهِ، لا نَفي وقوعِهِ منهم مُطلقًا

جاء القصرُ هُنا بلفظِ ﴿إِنَّمَآ﴾، دونَ النَّفي والاستثناء؛ لأنَّ النَّفيَ والاستثناءَ ينفي عنهم الشِّركَ مُطلقًا، والأبناءُ وقعوا في الشِّرك حقيقةً، وشاركوا آباءهم في الوقوعِ فيه، فهم لم ينفوا وقوعهم في

(1) أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط: 5/219.

(2) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 2/269.

(3) الإيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 1/669، وأبو حيّان، النّهر المادّ من البحر المحيط: 1/886، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 10/209.

الشِّرك مُطلَقًا، بل أخبروا أنَّهم تَبَعٌ لآبائِهم في شركهم، فاختيرَ القصرُ بلفظ (إنَّما)؛ لأنَّها تختصُّ بقصرِ القلب؛ لأنَّهم أرادوا نفيَ التُّهمةِ عن أنفسِهم، بأنَّ إشراكَهم وقع تبعًا لإشراكِ غيرِهم، وليس أصالةً، فكأنَّهم قالوا: إنَّ آباءنا أشركوا من قبلِنا، ونحن خَلفٌ لهم، نجهلُ بطلانَ شركِهم، وقد قلَّدناهم في أعمالِهم واعتقادِهم، مع حسنِ الظَّنِّ بهم، ولم نهتدِ إلى التَّوحيد، فكان الذَّنبُ لأسلافِنا، فكيف تُعذِّبنا على هذا الشِّرك، مع أنَّا حينئذٍ لم نكن من أصحاب الرَّأي والتَّمييز[1]؟

وتُستخدمُ (إنَّما) فيما لا يجهلُهُ المخاطبُ، ولاينكرُهُ، على العكس من النَّفي والاستثناءِ؛ إذ هو فيما ينكرُهُ المخاطبُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ:

بيانُ تباعدِ الزَّمنِ الَّذي وقعَ فيهِ الشِّركُ عن زمنِهم

﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: قَبْلَ أن نوجد[2]، فقد اخترعوا الإشراكَ، وسنُّوهُ من قبلِ زمانِنا[3]، ونحن خلفٌ لهم، والمعنى: وَرِثنا عنهم عقائدَهُم بتأثيرِ البِيئة، وسلطانِ مواريثِها، وكان ذلك من قبلُ عندما أشركَ آباؤنا، ولم نكن من أهلِ التَّكليفِ آنئذٍ، والظَّرفُ لم يكن يعطينا خَيارًا آخر، وهي حجَّةٌ واهيَةٌ، للتَّهرُّبِ من مسؤوليَّةِ التَّلبُّس بما نُهوا عنه، ونُهي عنه سابقوهم، وكان نهيُهم عنه مع وجودِ وسائلِ الإدراك عندهم، وقدرتهم على التَّمييزِ بين ما يصحُّ، وما لا يصحُّ، فغلبت عليهم شقوتُهم، وكان ما كان.

دلالةُ الإيجازِ في قولِهِ: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾:

إقامةُ التَّعليلِ موقعَ المُعلَّلِ في الآيةِ الكريمةِ

قولهُم: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾، أي: كُنَّا على دينِهم تبعًا لهم؛

(1) حسن بن محمد نظام الأعرج، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/345، ووهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 9/157.

(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/613.

(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/105، وإسماعيل حقّي البروسويّ، تفسير روح البيان: 3/273، وجمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/218.

لأنَّنا ذُرِّيَّةٌ لهم لا نهتدي إلى السَّبيل، ولا نقدرُ على الاستدلالِ بالدَّليل[1]، وشأنُ الذُّرِّيَّةِ الاقتداءُ بالآباءِ، وإقامةُ عوائدهم، فوقع إيجازٌ في الكلامِ، وأقيمَ التَّعليلُ مقامَ المُعَلَّلِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي (كنّا):

بيانُ اعتقادِهم أنَّ كونَهم ذرِّيَّةً لمشركينَ يرفعُ عنهم التَّبعةَ واللَّومَ

في قولهِ: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ عبَّروا في الاعتذارِ بوقوعِ الشِّركِ منهم، بكونِهم (كانوا) ذرِّيَّةً لآباءٍ مشركين، اعتقادًا منهم بأنَّ هذا الوقوعَ الكائنَ في الزَّمنِ الماضي السَّابق، لاعتذارِهم يصلحُ أن يكونَ عذرًا، فيُجاب عليهم بأنَّ هذا العُذرَ أيضًا غيرُ مقبولٍ منكم، فلا يَحمِلُ عنكم تبعةَ شركِكم باللّهِ، شِركُ آبائِكم من قبلكم؛ إذ كنتم ومعكم فطرتُكم، وكنتم ومعكم عقولُكم، ثُمَّ كنتم ومعكم دعوةُ الرُّسلِ الَّذين يدعونكم إلى اللّهِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ:

بيانُ توهُّمِهم أنَّ شركَهم كانَ بالوراثةِ، وهم لا عذرَ لهم فيهِ

الظَّرفيَّةُ في ﴿بَعۡدِهِمۡۖ﴾، فيها ما يُوهمُ أنَّ شِرْكَهُم كان بالوراثةِ، وأنَّهم لهم تبعٌ، فكما ورَّثوهم في أجسامِهم ونسبِهم، فقد ورَّثوهم في اعتقادِهم[4]، و﴿مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ نعتٌ لذُرِّيَّةٍ لما تُؤذِنُ به ذرِّيَّةٌ من الخلفيَّةِ والقيامِ في مَقامِهم[5].

بديعُ الطِّباقِ بينَ ما ذُكرَ في جانبِ آبائِهم، وما ذُكرَ في جانبِهم:

إيضاحُ الصُّورةِ البديعةِ المُقارنَةِ بين شِركِ الآباءِ وتقليدِ الأبناءِ

أعطى الطِّباقَ بين لفظتَي (قبل) و(بعد) صورةً بديعةً لِتلكَ المُقارنةِ بين شركِ الآباءِ وتقليدِ الأبناء، فأولئك ابتدعوهُ، وأسَّسوهُ، وهؤلاء اتَّبعوهُ، ومارسوهُ، فهم شركاءُ في الإثم، وكلٌّ مؤاخذٌ لا محالةَ عن ضلالهِ، ولا يُعذرُ طرفٌ بإلقاءِ التَّبعةِ واللَّومِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/170.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقران: 5/516.
(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3005.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/170.

على الطَّرف الآخرِ، وهو السِّرُّ في وجودِ الطِّباق (القبل والبعد)، لتوافرِ الحالينِ في الآيةِ.

فائدةُ الإضافةِ إلى الضَّمير العائدِ على آبائهم ﴿بَعۡدِهِمۡۖ﴾:

إضافةُ أفعالِهم إلى الآباءِ، لكونِهم تبعًا لهم في الانتسابِ والاقتداءِ

نسبوا أنفسَهم لآبائِهم ابتداءً، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾، فلم نعرفْ لنا مربِّيًا غيرَهم، فلا ريبَ أن يُضيفوا أفعالَهُم إليهم تبعيَّةً وانتهاءً، ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾، أي: فكنَّا لهم تبعًا، فشغلنا اتِّباعهم عن النَّظرِ، ولم يأتِنا رسولٌ مُنَبِّهٌ[1].

علاقةُ جملةِ الاستفهامِ ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا﴾ بما قبلَها:

ترتيبُ هذه الجملةِ على ما قبلَها، لِتَعَلُّقِها بها لفظًا ومعنًى

الفاءُ في ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، وهيَ مُؤخَّرةٌ عن تقديم؛ لأنَّ الاستفهامَ له الصَّدارةُ، وهم يُنكِرون مُؤاخذتَهم، وإنَّما المؤاخذةُ على من سبقوهم، فاللّٰهُ تعالى بمقتضى سياق الآياتِ الكريمةِ، يبيِّنُ أنَّهم مَسؤولونَ ومؤاخذونَ، وهم يقولونَ: إنَّا تبعٌ لمن سبقونا، ولا نؤاخذُ بفعلِهم، وقد سِرْنا مسارَهُم، فاللّٰهُ سبحانه يُبَيِّنُ لهم أنَّهم مُؤاخذونَ بمقتضى الفطرةِ[2].

بلاغةُ الاستفهامِ في: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا﴾:

بيانُ استعطافِهم وطلبِهم النَّجاةَ، تخلُّصًا من التَّبعةِ

الاستفهامُ هُنا للاستعطافِ، وفيه معنى الإنكارِ[3]، أي: أنت - يا ربَّنا - حكيمٌ وعادلٌ، فهل تؤاخذُنا بما فعلَ آباؤنا من الشِّركِ، وما أسَّسوا من الباطلِ، أو بفعلِ آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول وأقوال الرُّسل؟ إنَّك - يا ربَّنا - قد وعدتَ أنَّك لا تأخذُ الأبناءَ بفعل الآباءِ، ونحن قد سَلَكْنا طريقَهم، والحجَّةُ عليهم بما شرعوا لنا من الباطلِ، فكيف تؤاخذُنا؟ والجواب على ذلك: أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ والتَّوحيد هو في أصل فطرتِكم، فلِمَ لم ترجعوا إليه عندما دعاكم رسولنا الكريم

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/613.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3005.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 10/209.

إلى وحدانيَّةِ اللّهِ، ونبذ الشُّركاءِ، فإنَّ انقيادَكم للآباءِ بعد أن وهبَكم اللّهُ العقولَ المفكِّرة، وأرسلَ إليكم الرُّسلَ المبشِّرة والمنذرةَ، لن يعفيَكم من المسؤوليَّةِ، ولن ينقذَكم من العذابِ يومَ الحسابِ[1].

الإهلاكُ والجزاءُ عن الإشراكِ، يكونُ بالعذابِ الأليمِ في ذلك اليوم

إيثارُ التَّعبيرِ بالإهلاكِ مكانَ العذابِ:

الإهلاكُ هُنا مُستعارٌ للعذابِ[2]؛ لأنَّ الإهلاكَ والجزاءَ على الإشراكِ في ذلك اليومِ يكون بالعذابِ وشدَّته، أي: أفتجعلُ عذابَنا كعذابِهم، مع عُذرِنا بتحسينِ الظَّنِّ بِهِم؟[3].

اشتمالُ الإبطالِ على معاني نقضِ الميثاقِ، بالإشراكِ ونبذِ الرِّسالات

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾:

قولُه: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، أي: بالإشراكِ الَّذي أسَّسه لنا، واخترعه آباؤنا الملتبِسون بالباطلِ، الَّذي هو الإشراكُ[4]، والَّذين أبطلوا العهدَ والميثاقَ السَّابقَ في دعواهم إلهًا غير اللّهِ[5]، والَّذين أبطلوا تأثيرَ العقولِ وأقوالَ الرُّسلِ[6]، فالمبطلونَ الآخذون بالباطل، وهو يشملُ الإشراكَ وإبطالَ العقولِ ودعوةَ الرَّسولِ[7]، فمعنى الإبطالِ أوسعُ وأشملُ من الإشراكِ، لذلك اختيرَ التَّعبيرُ به في هذا المقامِ.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

العـذابُ إيلامٌ ومشقَّةٌ، ويكونُ للعاقلِ؛ والإهلاكُ أعمُّ

الإهلاك والعذاب:

الهلاكُ في اللُّغة يُطلق على عدَّة معانٍ: كالموتِ والخسران، والضَّلال والفسادِ والعذاب[8]، وهو عامٌّ يستعملُ في الإنسانِ وغيرِ الإنسانِ، وفي الأموالِ، وفي كلِّ شيءٍ، فهلاكُ المالِ إفناؤه، كما في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦﴾ [البلد: 6]، وهلاكُ السُّلطانِ ذهابُه كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5: 434.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/170.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 9/105.
(4) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 10/209.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 9/81.
(6) القاسميّ، محاسن التأويل: 5/218.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/170.
(8) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/338.

عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ [الحاقَّة: 29]، والهلاكُ ليس بالضَّرُورة أن يكونَ عقوبةً، فقد يكون مُجرَّدَ الموتِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النِّساء: 167]، يعني: مات[1]، أمَّا العذابُ؛ فهو الإيجاعُ الشَّديد، والأَلَم الثَّقيل[2]، والنَّكَالُ والعُقُوبة، يُقَالُ: عَذَّبْتُه تَعْذِيبًا وعَذَابًا[3]، وعذَّبتهُ تعذيبًا: عاقبتُه أو أطلت حبسَهُ في العذاب؛ فكلُّ مؤلم للنَّفس يسمَّى عذابًا، واشتقاقُهُ من عذبِ الشَّيءِ؛ إذا استمرَّ وجرى، فالألمُ يستمرُّ في النَّفسِ، ويتغلغلُ فيها[4].

الفعل والعمل:

الفعلُ كونُ الشَّيءِ مُؤَثِّرًا في غيره[5]، ولفظُ الفعلِ أعمُّ من معنى سائرِ أخواتِهِ، نحو: العملِ، والصُّنعِ، والإبداعِ، والإحداثِ، والخلقِ، والكسبِ[6]، أمَّا العملُ؛ فهو كلُّ فعلٍ صادرٍ من الحيوان بقصدٍ؛ فالعمل لا يُقال إلَّا لِما كان من الحيوان دونَ ما كان من الجمادِ، ولِما كان بقصدٍ وعلمٍ دون ما لم يكن عن قصدٍ وعلمٍ[7]، فهو أخصُّ من الفعل[8]، والعملُ لا يُقالُ إلَّا ما كان عن فِكْرٍ ورويَّة، ولهذا قُرن بالعلم، فقيل: عِلْمٌ وعَمَلٌ، حتَّى قال بعضُ الأدباء: قُلِبَ لَفْظُ العمل عن لفظ العلمِ تنبيهًا أنَّهُ من مقتضاه[9]، فالفعلُ لفظٌ عامٌّ، يُقال لما كان بإجادة وبدونها، ولِما كان بعلمٍ أو بغيرِ علمٍ، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولِما كان من الإنسان والحيوانِ والجمادِ[10]، والعملُ أخصُّ منه؛ فاستُخدِمَ العامُّ ليكون أشملَ في الإمالةِ والاستعطافِ.

العـمـلُ فِـعْـلٌ صادرٌ من حيوانٍ بقصدٍ، والفعلُ أعمُّ منهُ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 983/2، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 338/5.
(2) الكفوي، الكلّيات، ص: 654، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 35/4.
(3) ابن منظور، لسان العرب: 585/1.
(4) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 239.
(5) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 168.
(6) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 168.
(7) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 247، والرّاغب، المفردات، ص: 348.
(8) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: 124/3.
(9) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهاني: 119/1.
(10) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 322.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤﴾ [الأعراف: 174]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكرُ بيانِ الآياتِ الَّتي تُرشِدُ، وتُذَكِّرُ بالميثاقِ السَّابقِ

لَمَّا بَيَّن اللهُ ﷻ لعبادِهِ في أخذِ الميثاق؛ بَيَّن هنا الآياتِ ليتدبَّرَها العبادُ، فيرجعوا إلى مَدْلولها، ويعملوا بموجبها، وهو بمعنى قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، أي: ولكي يرجعوا عمَّا هُم عليه من الكفرِ إلى التَّوحيدِ[1] الَّذي هو أصلُ فطرتِهم، وبهِ أُخِذَ الميثاقُ عليهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُفَصِّلُ﴾: الفصلُ: الحقُّ من القولِ، وبه فُسِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾ [الطَّارق: 13]، أي: حقٌّ، وقيل: فاصلٌ قاطعٌ، قال اللَّيثُ: الفصلُ من الجسد: موضعُ المفصَلِ، وبين كلِّ فصلينِ وصلٌ، والتَّفصيلُ: التَّبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ [الأعراف: 133]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء: 12]، وقوله تعالى: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: 1]، وقيل في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ [الأعراف: 133]، أي: بين كلِّ اثنتين فصلٌ، تمضي هذه، وتأتي هذه؛ بين كلِّ اثنتين مهلةٌ، وقوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ [الأعراف: 52]، أي: بيَّناهُ[2].

2) ﴿يَرۡجِعُونَ﴾: يعودونَ، تقول: رجعَ يرجعُ رجوعًا؛ إذا عادَ، والرُّجوعُ: العودُ إلى ما كان منه البدء، وأصلُ (رجع) يَدُلُّ على رَدٍّ وتَكْرار[3]، والمعنى هُنا: يعودون من الضَّلالِ والكفرِ إلى التَّوحيدِ[4].

---

(1) التّفسير الوسيط للواحديّ: 2/426.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فصل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/490.
(4) العليمي، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 3/59.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيانُ الآياتِ الدَّالَّاتِ، ليرجعَ المبطلون إلى ربِّ الأرضِ والسَّمواتِ

ومثلُ ذلك التَّفصيلِ لقصصِ السَّابقين، والاعتبارِ بهم وبمآلاتِهم، نفصِّلُ لكم الآياتِ، إقامةً للحجَّةِ عليكم؛ لأنَّ الحجَّةَ كلَّما كانت مفصَّلةً كانت أقطعَ للعذر.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَنَوُّعُ دلالةِ الواوِ، وأثَرُها في المعنى:

كشفُ وظيفةِ التَّفصيلِ والتِّبيانِ الَّتي تَمَيَّزَ بها القرآنُ

جملة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: مُعترِضةٌ بين القصَّتين، والواو اعتراضيَّةٌ، وتُسمَّى واو الاستئناف[1]، أي: مثلُ هذا التَّفصيلِ نُفصِّلُ آياتِ القرآن[2]؛ فهذه الآيةُ هي بمنزلةِ فاصلٍ يكشفُ إحدى وظائفِ القرآنِ البيانيَّةِ، للتوقُّفِ قليلًا عنده، قبل المتابعةِ، لاستكمال عناصرِ السُّورةِ الموزَّعةِ على خطوطها، وقيل: إنَّ الواوَ عاطفةٌ، وتقديرُ الكلام: وكما فعلنا هذه الأمورَ، وأنفذْنا هذه المقاديرَ، فكذلك نفصِّلُ الآياتِ، ونُبيِّنُها لمن عاصرَك، وبُعِثْتَ إليه[3].

بَلاغةُ أسلوبِ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

بيانُ تشابهِ آياتِ القرآنِ في رفعةِ وبديعِ البيان

قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلُ ذلك التَّفصيلِ البليغِ البديعِ، الجليلِ الرَّفيعِ، حيثُ دخلت الكافُ على اسمِ الإشارةِ، لتُفيدَ أنَّ هذا التَّفصيلَ الَّذي فصَّلناهُ في الآياتِ السَّابقةِ نُفَصِّلُه في الآياتِ اللَّاحقة؛ إذ الكلُّ على نمطٍ واحدٍ في التَّفصيل والتَّوضيح، لأدلَّةِ التَّوحيدِ وبَراهينِه[4].

دلالةُ اسمِ الإشارةِ المحلَّى بالكافِ:

الإيذانُ بعلوِّ شأنِ التَّفصيلِ والبيانِ القُرآنيِّ

في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَصدرِ الفعلِ المذكورِ بعدَهُ، وما

---

(1) العلوان، إعراب القرآن الكريم: 779/2، وبهجت، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 130/4.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 170/9.

(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 476/2، والسّمرقنديّ، تفسير السّمرقنديّ: 566/1.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 156/8، والزّمخشريّ، الكشّاف: 177/2، وأبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط في التّفسير: 220/5.

فيه من معنى البُعدِ للإيذانِ بعلوِّ شأنِ المُشارِ إليه وبُعدِ منزلتِه؛ والكافُ مُؤكِّدةٌ لما أفادَهُ اسمُ الإشارةِ من الفخامةِ(1).

بلاغةُ الإيجازِ في أسلوبِ التَّشبيهِ:

بيانُ وضوحِ الآياتِ في نَفْسِها، مع كشفِها لمعاني الإيمانِ في القلوبِ

حصلَ بهذا التَّركيبِ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾، إيجازٌ عجيبٌ، فالمعنى: أنَّ مثلَ ما فصَّلنا، وبيَّنا في هذه الآيةِ خَبَرَ الميثاق، بَيَّنَا سائرَ الآياتِ ليتدبَّروها(2)، فنكشفُ للنَّاس بهذا التَّفصيل عن ذخائرِ الإيمانِ المطموسةِ في كيانهم، والَّتي أهملوها، وغفلوا عنها، وعن المقصودِ منها(3).

إيثارُ التَّعبيرِ بالتَّفصيلِ بَدَلَ البيانِ:

التَّفصيلُ تمييزٌ بين وجوهِ الدَّلالاتِ، يُفضي إلى التَّبيينِ والتَّوضيحِ

في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ أُوثِر التَّعبير بالتَّفصيل بدلَ البيان، والتَّفصيلُ: التَّبيينُ والتَّوضيحُ، مُشتقٌّ من الفصل، وهو تَفرُّق الشَّيءِ عن الشَّيء، ولمَّا كانت الأشياءُ المُختلطةُ إذا فُصِّلَت يتبيَّنُ بعضُها من بعض؛ أُطلق التَّفصيلُ على التَّبيينِ بعلاقة اللُّزوم، وشاعَ ذلك حتَّى صارَ حقيقةً، ومن هذا القبيلِ أيضًا تسميةُ الإيضاحِ تبيينًا وإبانةً؛ فتفصيلُها بيانُها وتجريدها من الالتباسِ(4)، بتمييزِ بعضِها من بعضٍ، ليتمكَّنوا من الاستدلالِ بكلِّ واحدةٍ منها على جِهتها، وليتبيَّنَ بذلك مَدلولُ كلٍّ منها، ولا تختلط وجوهُ دلالتها.

سِرُّ تقديمِ اسمِ الإشارةِ على الفعلِ:

إفادةُ قصرِ التَّفصيلِ على الآياتِ المذكورةِ

في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ قدَّم اسمُ الإشارة على الفعلِ لإفادةِ القَصْرِ، ومحلُّه النَّصبُ على المصدريَّةِ، أي: ذلك التَّفصيلَ البليغَ المستتبِعَ للمنافع الجليلة ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ﴾ المذكورة، لا غيرَ ذلك(5).

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 291/3.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 403/15.
(3) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 1926/9، والجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 407/1.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 260/7.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 291/3.

دلالةُ عطفِ الإنشاءِ على الخبرِ:

تَضمُّنُ الجملةِ الثَّانيةِ لمعنى تعليلِ الأولى

قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ﴾، عَطْفٌ على مُقدَّر، والتَّقديرُ: لغاياتٍ عاليةٍ كذا وكذا ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ من الباطلِ إلى الحقِّ، وسوَّغ عطفَ الإنشاءِ على الخبر تضمُّنُه للتَّعليلِ، كأنَّه قال: لِذَلِكَ، نُفَصِّل الآياتِ لرجوعِهم، أو ليقفوا على ما فيها من المرغِّبات والزَّواجرِ، أو ليظهر الحقُّ، ولعلَّهم يرجعون(1).

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ التَّرجِّي:

بيانُ كونِهم غيرَ ميؤوسٍ من رجوعِهم إلى الحقِّ بعدَ معرفتِه

قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، ليكونَ حالُهم حالَ من يُرجى رجوعُه عن الضَّلال إلى ما تدعو إليه الهُداة من الكمالِ عن قربٍ إنْ حصلت غفلةٌ فواقعوها(2)، ففي الجملةِ تَرجيةٌ(3)، وفيها أيضًا معنى التَّعليل(4)، أي: ولكي يرجعوا عمَّا هُم عليه من الكفرِ والضَّلالةِ إلى التَّوحيدِ والطَّاعة، وقيل: إلى ما أخذَ عليهم من الميثاقِ في التَّوحيدِ؛ والرُّجوعُ إلى ذلك الميثاقِ رجوعٌ إلى التَّوحيد(5)، فالقومُ وإن أخرجَتْهُم أهواؤهم عن الصِّراط المستقيمِ بجهلِهم أو غفلاتهم، لكنَّهم غيرُ ميؤوسٍ من رجوعِهم إلى الصِّراط المستقيم؛ فهؤلاءِ نفصِّل لهم الآياتِ، رغبةً في أن يعلموا ويؤوبوا.

بلاغةُ المجازِ بالاستعارةِ في التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَرۡجِعُونَ﴾:

تصويرُ حالةِ الإشراكِ بمنزلِ الغُربةِ وحالِ التَّوحيد بمنزلِ القرارِ

﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي: عمَّا هُم عليهِ من الإصرارِ على الباطل إلى الحقِّ والميثاقِ الأوَّل(6)، فيذكرونه، ويعملونَ بمقتضاهُ(7)؛ فشَبَّه الإقلاعَ عن الحالةِ الَّتي هم متلبِّسونَ بها بِتَركِ مَن حَلَّ في غيرِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 102/5.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 156/8.
(3) سبق بيان التَّرجية والفرق بينها وبين التَّرجي في مقدِّمة هذه الصفحة.
(4) وقد سبق بيان ذلك في معاني (لعلَّ).
(5) النَّيسابوري، التَّفسير البسيط: 459/9.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 291/3.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 102/5.

مَقرِّه، الموضِعَ الَّذي هو بِه؛ ليرجِعَ إلى مَقرِّه، وهذا التَّشبيهُ يقتضي تشبيهَ حالِ الإشراكِ بمَوضِعِ الغُربةِ؛ لأنَّ الشِّركَ ليس مِن مُقتضى الفِطرةِ؛ فالتلبُّسُ به خروجٌ عن أصلِ الخِلقةِ، كخُروجِ المُسافِرِ عن مَوطِنِه، ويقتضي أيضًا تشبيهَ حالِ التَّوحيدِ بمحَلِّ المَرءِ وحَيِّه الَّذي يأوِي إليه، ففي هذه الصُّورةِ التَّشبيهيَّةِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، وفيها أيضًا تعريضٌ بالعَرَبِ؛ لأنَّهم المُشركونَ مِن عَقِبِ إبراهيمَ[1]، فلمَّا كان ركوبُ مركبِ الباطلِ والضَّلالِ، خروجًا عن بواعثِ الفطرةِ في النَّفس البشريَّةِ، وموازين العقولِ الفطريَّةِ؛ كان تركُ الباطل والضَّلال، والتزامُ الحقِّ والهدى، رجوعًا إلى جذورِ الفطرةِ؛ وهذا من الدِّقَّةِ في البيان، لملاءمةِ الواقعِ النَّفسيِّ الفطريِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّفصيل والبيان:

التَّفصيلُ تمييزُ الـشَّيءِ من الـشَّيءِ وإبانتُهُ عنه، والبيانُ هو الإيضاحُ

التَّفصيلُ: جمعُ الشَّيءِ فصولًا متمايزةً، ومنه المُفصَّلُ سمِّيَ به لكثرةِ فصولِه، أي: سُوَرِه[2]؛ يُطلق، ويُرادُ بِه التَّبْيينُ[3]، ويُطلقُ على تمييزِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ وإبانته عنه[4]، وهذا الأصلُ، ومنه الفاصلُ، وهو الحاجزُ بين الشَّيئَين، قال تعالى: ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: نأتي بها مُتَفَرِّقَةً شيئًا بعد شيءٍ[5]، وكقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ [الأعراف: 133]، أي: بَين كلِّ اثنتينِ فَصْلٌ، تمْضِي هَذِه وتأْتي هَذِه، بينَ كلِّ اثنتينِ مُهْلَةٌ[6]، بينما يطلق التَّبيينُ على توضيح أمرٍ واحدٍ كتبيُّنِ الكلمة الواحدة، أو تبيُّن المسألةِ الواحدةِ، كقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/171.
(2) المناوي، التَّوقيف، ص: 104.
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (فصل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 154.
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (فصل).

ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]، فاستعمل ﴿نُبَيِّنُ﴾، أي: نوضِّح، فالتَّفصيل أعمُّ، والتَّبيين أخصُّ.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [الأعراف: 175]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ حالِ مَنْ كفرَ ونَقَضَ الميثاقَ بعدَ الأخذِ بِه

لَمَّا كان تعالى قد ذكر أَخْذَ الميثاقِ على توحيدِهِ تعالى وتقرير رُبوبيَّتِه، وذَكَرَ إقرارَهم بذلك، وإشهادَهم على أنفسِهم - ذَكَرَ حالَ مَنْ آمنَ بِه، ثُمَّ بعد ذلك مَنْ كَفَرَ، كمَثَلِ الَّذي آتاهُ اللّهُ آياتِه، فانسلخ منها[1]، فذكرَ ما وقع له في نبذِ العهدِ والانسلاخِ من الميثاق، بعد أن كانَ قد أُعطِيَ الآياتِ، وأُفرِغَ عليه من الرَّوْح[2]؛ فأشارتْ هذه الآيةُ للَّتي قبلَها أنَّها إشارةٌ للعبرةِ من حالِ أحدِ الَّذين أخذَ اللّهُ عليهم العهدَ بالتَّوحيدِ والامتثالِ لأمرِ اللّهِ، وأمدَّه اللّه بعلمٍ يعينهُ على الوفاءِ بما عاهدَ اللّهَ عليهِ، وما أودِعَ في فطرتهِ، ثم لَمْ ينفعْهُ ذلك كلُّه، حين لم يُقَدِّرِ اللّهُ له الهُدى المُستَمِرَّ[3].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿نَبَأَ﴾: النَّبأُ: خَبَرٌ له شَأْنٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، يقال: نَبَأَ ونَبَّأَ، أي: أخبر، ومنه أُخذ النَّبيءُ؛ لأنَّهُ أنْبَأَ عن اللّه تعالى[4]، يحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبَةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نَبَأَ): الإتيانُ من مكانٍ إلى مكانٍ[5]، والمعنى هُنا: أي: خبر الَّذي أعطيناهُ آياتِنا، وعلَّمناه حُجَجَ التَّوحيد، وفَهَّمناه أدلَّته[6].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/220 - 221.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/156.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/173.
(4) أبو بكر الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 2/169.
(5) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 142، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 461، وص: 788، وابن الهائم، التّبيان، ص: 157، والكفويّ، الكليّات، ص: 200.
(6) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/566، والواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/427.

2) ﴿ٱنسَلَخَ﴾: أي: خرَجَ مِن العَمَلِ بها، وأصلُ (سلخ): إخراجُ الشَّيءِ عَن جِلدِه[1]، والسَّلْخُ: كَشْطُ الإهابِ عن بَدَنِه[2]، وانسلخَ الشَّيءُ: مُطاوع سلَخَ، أي: نُزِع جِلْده، انقطعَ، وانفصلَ، وقوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾: نزعَ نفسَه منها بأنْ كفرَ بها، وخرجَ عنها[3]، والمعنى هُنا: خَرَجَ منها كما ينسلخُ الإنسانُ من ثوبِه[4].

3) ﴿فَأَتۡبَعَهُ﴾: أدركَه ولَحِقَه[5]؛ والإتباعُ: اقتفاءُ الأثر[6]، يُقال: أتبعتُ القَومَ: إذا لحِقتُهم، وأتبَعْتُه، وتَبِعْتُه: لحقتهُ وسرتُ خلفه[7]، وَأصل (تبع): يدلُّ على التُّلُوِّ والقفْوِ[8]، والمعنى هُنا: لَحِقَهُ، وأدركه، وصيَّره لنفسه تابعًا في معصيةِ اللّه تعالى[9].

4) ﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾: أي: الضَّالِّينَ الهالِكينَ، يُقال: غوَى يَغْوِي غَيًّا[10]، والغَيُّ: الضَّلالُ والانْهِمَاكُ فِي الباطِل[11]، والجهلُ من اعتقادٍ فاسد[12]، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[13]، والتَّغاوي هو التَّجمُّع والتَّعاون على الشَّرِّ، وأصلهُ: من الغواية أو الغيِّ، يبيِّن ذلك شعرٌ لأخت المنذر بن عمرو، قالتهُ في أخيها:

تَغاوَتْ عَلَيْه ذِئَابُ الحِجَازِ *** بَنُو بَهْثَةٍ وَبَنُو جَعْفَرِ[14]

والمعنى هُنا في الآية: فكانَ من الهالكينَ، لضلالهِ وخلافهِ أمرَ ربِّهِ[15].

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلخ)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 121.
(2) الخليل، العين: (سلخ).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (سلخ).
(4) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 104.
(5) الزبيدي، تاج العروس: (تبع).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 255/1.
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 255/1، والنيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 348/1، وباهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن: 543/1.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 362/1، والرّاغب، المفردات، ص: 162، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121.
(9) الشربيني، السّراج المنير: 535/1.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوى).
(11) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 397/3.
(12) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 155/4.
(13) ابن جرير، جامع البيان: 576/10، والرّاغب، المفردات، ص: 620، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121.
(14) ابن جرير، جامع البيان: 576/10، والرّاغب، المفردات، ص: 620، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121.
(15) ابن جرير، جامع البيان: 261/13.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

ذِكْرُ قصَّةِ الرَّجلِ الَّذي ترك آياتِ الرَّحمن، واتَّبع الشَّيطانَ فضلَّ عن السَّبيلِ

واقرأ - أيُّها الرَّسول - على أُمَّتِك خبرَ رجلٍ من بني إسرائيلَ، أعطيناهُ حُجَجنا وأدلَّتنا، فَعَلِمَهَا، وفَهِمَ الحقَّ الَّذي دلَّت عليه، ولكنَّه لم يعملْ بها، بل تركَها، وانخلعَ منها، فلحقَهُ الشَّيْطان، وصار قرينًا له، فأصبحَ من الضَّالِّين الهالكين، بسبب مُخالفتِهِ أمرَ ربِّ العالمين، وطاعتِهِ الشَّيطانَ اللَّعين(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾:

العطفُ على القريبِ في هذهِ الآيةِ، وعلى البعيدِ في قِصَّةِ أصحابِ السَّبتِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عطفٌ على المضمرِ العاملِ في ﴿وَإِذۡ أَخَذَ﴾، واردٌ على نمط الإنباءِ عن الحَورِ بعد الكَورِ، أي: واقرَأ على اليهودِ أو على قومك ﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: خبرُهُ الَّذي له شأنٌ وخطرٌ(2)، ويحتمل أن يكون عطفًا على ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾ [الأعراف: 163] عَطْفَ قصَّةٍ على قصَّة(3).

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَٱتۡلُ﴾:

في التِّلاوةِ معنى التَّكرارِ الدَّاعي إلى التَّذكُّرِ والاعتبارِ

﴿وَٱتۡلُ﴾: أي: اقرأ شيئًا بعد شيءٍ، فعلُ أمرٍ مُوجَّهٌ إلى الرَّسولِ محمَّدٍ ﷺ(4) - يقالُ: تلاهُ يتلوهُ تُلوًّا وتلاوةً، أي: تبعَهُ، والتِّلاوةُ القراءةُ، وإلقاءُ الكلامِ الَّذي يُعاد، ويكرَّرُ للاعتبارِ بهِ(5)، وعبَّر في هذه القصَّةِ بقولِه: ﴿وَٱتۡلُ﴾ دون ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف: 163] نحو ما مضى في القريةِ؛ لأنَّ هذا الخبرَ ممَّا يُحبِّون ذِكرَهُ؛ لأنَّ سَلَخَهُ من

---

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 235، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.
(2) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التّنزيل: 2/269، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/103.
(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين: 11/573.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/156.
(5) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/405.

الآيات كانَ لأجلِهم، فهو شرفٌ لهم، فلو سألهم عنه؛ لبادروا إلى الإخبارِ بِهِ، ولم يتلَعْثَموا، فلا تكونُ تلاوتهُ ﷺ بعد ذلك لمَا أُنزلَ في شأنِه، واقعًا موقعَ ما لو أخبرَهُم به قبلُ[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بالنَّبأِ دونَ الخبرِ:

تعظيمُ الخبرِ إغراءٌ بالعنايةِ بِهِ، وإيضاحٌ لمدلولِهِ

في قولِه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أُوثِر التَّعبير بالنَّبأ دونَ الخبر، والنَّبأُ في نفسِهِ: الخبرُ البارزُ الظَّاهر ذو الأهمِّيَّة الَّذي يلفتُ إليه أنظارَ أولي الألبابِ، ويمكن أن يُنتفعَ بِهِ، وليسَ مطلقَ خبرٍ؛ لذا استخدمَهُ هنا، ولم يستخدمْ لفظَ الخبرِ، ولذلك يقولُ ﷻ عن اليوم الآخر[2]: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2] والمقصودُ من تلاوة هذا الخبرِ تحذيرُهم وتقريعُهم، وتشبيهُهم بالمنسلخِ من آياتِ اللّهِ؛ لكونِهم عرفوا الكتابَ والعلمَ الأوَّلَ، فانسلخوا من ذلك، وكفروا بمحمَّدٍ ﷺ بُغضًا وحسدًا له[3].

دلالةُ مرجعِ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

تَنَوُّعُ مَرجعِ الضَّميرِ بحسبِ سياقِ القِصَّةِ ومعناها ومغزاها

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على اليهود[4]، وقيل: ضميرُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ راجعٌ إلى المشركين الذين وُجِّهت إليهم العِبَرُ والمواعظُ من أوَّلِ هذه السُّورة، وقُصَّت عليهم قصصُ الأممِ مع رُسلِهم، فشأنُ القصصِ المفتتحةِ بقولِه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أن يُقصَدَ منها وعظُ المشركين بصاحبِ القصَّةِ بقرينةِ قولِه: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾، على أنَّ توجيهَ ضمائرِ الغيبةِ إليهم أسلوبٌ مُتَّبعٌ في مواقعَ كثيرةٍ من القرآن، ويحصل به تعليمٌ واعتبار مثل قوله: ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71] ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الشعراء: 69] وقوله: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/158.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 7/4454.

(3) عبد الرّزاق، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: 2/302.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/42.

﴿وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [القصص: 3]، فهو من قبيلِ ردِّ العَجُز على الصَّدرِ(1)، وقيل: إنَّ الضَّميرَ عائدٌ على حاضري محمَّد ﷺ من الكفَّارِ وغيرهم؛ على من كان حاضرًا من كفَّار اليهود وغيرهِم(2)، والظَّاهرُ أنَّ الضَّميرَ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ صالحٌ لأن يُرادَ به كل من يصلح؛ لأنْ يُتلى عليه القرآنُ من مؤمنٍ وغيره، بل إنَّ المؤمنين أولى من غيرِهم، بأن يتلى عليهم هذا النَّصُّ العظيم من السُّورةِ، إذ يتحدَّث عن قصص الَّذين أتتهم آياتُ اللهِ فآمنوا بها، ولبسوهَا كجلودِهم، ولكنْ لم يلبثوا حتَّى انسلخوا منها.

مُناسبةُ فعلِ التِّلاوة مع سياقِ قَصِّ القصَّةِ وسَرْدِها:

تبليغُ التَّعليم للعربِ الأمِّيِّين، بما يُساوون فيه أهلَ الكتابِ

ومُناسبةُ فعلِ التِّلاوة لهم أنَّهم كانوا قومًا تغلبُ عليهم الأمِّيَّة، فأراد اللهُ أن يُبلِّغَ إليهم من التَّعليم ما يُساوون به حالَ أهلِ الكتابِ في التِّلاوةِ، فالضَّميرُ المجرورُ بالحرف (على)، عائدٌ إلى معلومٍ من السِّياق، وهم المشركونَ؛ وكثيرًا ما يجيءُ ضميرُ جمع الغائبِ في القرآن، مرادًا بهِ المشركونَ، كقولهِ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١﴾ [النَّبأ: 1](3).

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ الخاصِّ (الَّذِي):

الدَّلالةُ على أنَّ صاحبَ القِصَّةِ واحدٌ مُعيَّنٌ، معلومٌ صفةً واسمًا

وظاهرُ اسمِ الموصولِ المفردِ أنَّ صاحبَ الصِّلةِ واحدٌ معيَّن، وأنَّ مضمونَ الصِّلةِ حالٌ من أحوالهِ الَّتي عُرف بها(4)، وهو بلعام بن باعور للسِّباقِ واللَّحاق(5)، وقيل غيرُه؛ وأيًّا كان؛ فهو واحدٌ من النَّاس هذه قِصَّتُه وحاله، وعُبِّرَ بالاسم الموصولِ لتنبنيَ عليه جملةُ الصِّلة الَّتي بها اشتُهِر وعُرِف.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 9/174.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/476، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/220.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 9/174.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 9/174.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/157.

بلاغةُ إسنادِ الفعلِ إلى نونِ العظمةِ في قولِه: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

تعظيمُ لَفْظِ الإيـتـاءِ، بعد تعظيمِ خبرِه بلَفْظِ الإنباءِ

قولُهُ تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾ علَّمناهُ حُججَ التَّوحيدِ، وأفهمناهُ أدلَّتَهُ حتَّى صارَ عالمًا بها[1]، وجيءَ بالفعلِ (آتى) مُسْنَدًا إلى ضميرِ العَظَمَةِ وضميرِ الكبرياءِ؛ لتعظيمِ ما آتاه اللّهُ من العلم فأخبَرَ سبحانه أنَّه هو الَّذي آتاهُ آياتِه، فإنَّها نعمةٌ، واللّهُ هو الَّذي أنعَمَ بها عليه، وأضافَها إلى نفسِه، فعظَّمَ ما أعطاهُ بمَظهرِ العَظَمةِ، بالإضافةِ إلى لَفْظِ الإيتاءِ، بعد ما عَظَّمَ خَبَرَه بلَفْظِ الإنباءِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾:

تصويرُ العملِ القبيحِ ببشِّعُهُ إلى النُّفوسِ، ويستحقُّ صاحبُهُ أشدَّ العذابِ

قَولُه تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: خرجَ منها، كما تنسَلِخُ الحيَّةُ مِن جِلْدِها، وفارَقَها فِراقَ الجِلدِ ينسَلِخُ عن اللَّحم[3]، والانسلاخُ حقيقتُهُ خروجُ جسدِ الحيوانِ من جلدِه، حينما يسلَخُ عنه جلدُهُ، والسَّلْخُ إزالةُ جلدِ الحيوانِ الميِّت عن جسدِه، واستُعيرَ في الآيةِ للانفصالِ المعنويِّ، وهو ترْكُ التَّلبُّس بالشَّيءِ أو عدم العملِ بِه، بطريقِ الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة؛ ومعنى الانسلاخ عن الآياتِ، الإقلاعُ عن العملِ بما تقتضيه[4]؛ لأنَّ الانسلاخَ يدلُّ على أنَّ الشَّيءَ كان موجودًا فيه ثمَّ خرجَ منه، لا على أنَّهُ لم يوجد فيه أصلًا، وأيضًا ثبت بالأخبار: أنَّ الآيةَ نزلت في إنسانٍ كان عارفًا بدينِ اللّه، ثمَّ خرجَ من المعرفةِ إلى الكفرِ والغواية[5]، وفيه مبالغةٌ في التَّبرِّي منها والبعد، أي: لم يعمل بما اقتضتهُ نعمتنا عليه من إتيانِهِ آياتنا، جُعِلَ كأنَّهُ كان متلبِّسًا بها كالثَّوب، فانسلخَ منها،

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 566/1، والمراغي، تفسير المراغي: 107/9.

(2) نظم الدّرر للبقاعي: 156/8، وهو الّذي عليه جمهور المفسّرين، يُنظَر: ابن قيّم الجوزيّة، إعلام الموقعين: 129/1.

(3) البغويّ، معالم التّنزيل في تفسير القرآن: 224/8، والسّمرقنديّ، تفسير السّمرقنديّ: 566/1، وابن قيّم الجوزيّة، تفسير القرآن الكريم، ص: 290.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/9.

(5) نظام الأعرج، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 345/3.

وهذا من إجراءِ المعنى مجرى الجزم[1]، فالاستعارةُ جسَّدت مدى تمكُّنِهِ من العلم بالآياتِ، حتَّى صارَ تركها انسلاخًا، ممَّا يجعلُ تركها بعد التَّمكُّن من العلم بها أقبحَ القبائحِ، فاستحقَّ أسوأَ عقوبةٍ وأشدَّها، كما أنَّ التَّعبيرَ بالانسلاخِ المُستعمَلِ عند العَرَبِ في خروجِ الحَيَّاتِ والثَّعابينِ أحيانًا مِن جُلودِها؛ يدلُّ على أنَّه كان متمَكِّنًا منها ظاهرًا، لا باطنًا[2]، وفي هذه العبارة أيضًا استعارةٌ بديعةٌ أخرى، قائمةٌ على تشبيهِ الإيمانِ بآياتِ اللّٰهِ، والعمل بها، كالمحتمي بجلدٍ ملتصقٍ بلحم بدنه، أو شبَّه الآياتِ النَّيِّرةَ الدَّالَّةَ، بالثِّياب السَّابغة الَّتي تلازمُ الشَّخص، ولا تَنْفكُّ عنه حتَّى يخلعها[3]، فمن تركَها تعرَّى كما تتعرَّى الشَّاة[4]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الآياتِ محيطةٌ بالإنسانِ إحاطةً قويَّة، لدرجة أنَّها تحتاجُ جبروتَ معصيةٍ لينسلخ الإنسان منها؛ لأنَّ الأصل في السَّلْخِ إزاحةُ جلدِ الشَّاة عنها، فكأنَّ ربَّنا يوضِّح أنَّه ﷻ أعطى الإنسانَ الآياتِ، فانسلخَ منها، وهذا يعني: أنَّ الآياتِ تحيطُ بالإنسان، كما يحيط الجلدُ بالجسمِ ليحفظَ الكيانَ العامَّ للإنسانِ[5].

إيثارُ التَّعبيرِ بالانسلاخِ على الانقطاع:

بيانُ أنَّ الانسلاخَ أبلغُ في تركِ الحقِّ، وعدمِ الرُّجوعِ إليه

﴿فَٱنسَلَخَ﴾، أي: فارقها بالكلِّيَّةِ كما تَنسلخُ الحيَّة من قشرها[6]، ولم يَقُلْ: (انقطع) عنها؛ لأنَّ الانسلاخَ أبلغُ، كانسلاخِ الجلدِ من الجسد، فلا يَرْجِعُ إليهِ أصلًا؛ بخلافِ الانقطاعِ[7]، إذ انسلاخهُ منها تجرُّدُه وانسلالُه منها، وتركُهُ إيَّاها بحيثُ لا يلتفتُ إليها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/220.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/340، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/107.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3007.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3007.
(5) تفسير الشّعراويّ: 7/4455.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/157.
(7) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/266.

لاهتداءٍ ولا اعتبارٍ ولا عملٍ[1]، كما أنَّه لم يقُلْ: (فَسَلَخْنَاهُ مِنْهَا)؛ لأنَّه هو الَّذي تسبَّبَ في انسلاخِه منها باتِّباعِ هواه[2]، ففي التَّعبيرِ بِهِ ما لا يخفى من المبالغةِ، واستأنسَ بعضُهم بهذه الآية؛ لأنَّ العلمَ لا يُنزع من الرِّجال، حيثُ قالَ ﷻ: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾، ولم يَقُلْ ﷻ: (فانسلخَتْ منه)[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَأَتۡبَعَهُ﴾:

المبالغةُ في اللُّحوقِ بالشَّيطانِ ومسابقتهِ، تصيِّرُهُ إمامًا للشَّيطان

قولهُ: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، فَأَتْبَعَهُ مِن (أَتْبع) رُباعيًّا، أي: لَحِقَهُ، وصارَ معه، وصيَّره تابعًا[4]، وهي مُبالغةٌ في حقِّه؛ إذ جُعِلَ كأنَّه هو إمامٌ للشَّيطانِ يَتْبَعُه، وكذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾ [الصّافات: 10][5]، وأتبع: فعلٌ ماضٍ رباعيٌّ يتعدَّى لواحد، فيكون بمعنى: أدركه، ولَحِقَهُ غير مُفْلِتٍ، ويتعدَّى لاثنين، فتكون الهاءُ المفعولَ بِهِ الأوَّلَ، والمفعولُ بِهِ الثَّاني محذوفٌ، تقديره: فَأَتْبَعه الشَّيطانُ خطواتِهِ، أي: جعلهُ تابعًا لها، وتسلَّط عليه، حين خرجَ من الحصنِ الحصينِ، وصارَ إلى أسفلِ سافلين[6]، فبعدَ أنِ انسلخ من الآياتِ باختيارِهِ، لَحِقَهُ الشَّيطان، فأدركَهُ، وتمكَّنَ من الوسوسة لهُ؛ إذ لم يبقَ لديهِ من نورِ البصيرةِ، ولا أماراتِ الهِداية ما يحولُ بينهُ وبينَ قَبولِ وسوستِهِ وسلوكِ فهمهِ، فصارَ من الضَّالِّين المُفسدين[7]، فهذه مُبالغةٌ في ذمِّ هذا الإنسانِ وتحقيرِهِ؛ حيث جُعِلَ كأنَّه إمامٌ للشَّيطان، والشَّيطانُ يتبعه، فهو على حدِّ قولِ القائلِ:

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 405/9.
(2) ابن قيّم الجوزيَّة، إعلام الموقّعين: 129/1، وابن قيم الجوزيّة، تفسير القرآن الكريم، ص: 290.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 104/5.
(4) الثّعالبيّ، تفسير الثّعالبيّ: 93/3.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 222/5.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 476/2، ودرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 495/3.
(7) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 107/9.

وكُنْتُ امْرَءًا مِنْ جُنْدِ إبْلِيسَ فَارْتَقَى ***

بِيَ الحَالُ حَتَّى صَارَ إبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي[1].

وهو من الذَّمِّ بمكان[2].

ترتيبُ أفعالِ الانسلاخِ والاتِّباعِ والكونِ من الغاوين بفاء العطف:

مجيءُ تَرتيبِها مُتعاقِبَةً بِحَسَبِ ترتيبِها في الحصولِ

رُتِّبت أفعالُ الانسلاخِ والاتِّباع والكونِ من الغاوين بفاءِ العطفِ، على حَسَبِ ترتيبها في الحصول، فإنَّه لَمَّا عاندَ، ولم يعمل بما هداهُ اللهُ إليه؛ حصلت في نفسهِ ظُلْمَةٌ شيطانيَّة، مكَّنت الشَّيطانَ من استخدامهِ وإدامةِ إضلالِه، فالانسلاخُ عن الآيات أَثَرٌ من وسوسةِ الشَّيطانِ، وإذا أطاعَ المرءُ الوسوسةَ؛ تمكَّن الشَّيطانُ من مَقادِهِ، فَسخَّرَهُ، وأدامَ إضلالَهُ؛ وهو المعبَّر عنه بلفظ (أَتْبَعَهُ)، فصار بذلك في زمرةِ الغُواة المتمكِّنين من الغوايةِ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي: ﴿فَكَانَ﴾:

التَّنبيهُ على استعدادهِ السَّابقِ للغوايةِ، وَوُقُوعِهِ اللَّاحقِ فيها

يحتمل أنَّ (كان) في قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، باقيةُ الدَّلالةِ على مَضمون الجملة واقعًا في الزَّمان الماضي، والتَّعبيرُ بـ(كان) للإشارةِ إلى تمكُّنِهِ في الغواية، ويحتمل أن تكونَ (كان) بمعنى (صار)، أي: صار من الضَّالِّين[4]، أي: صار من زُمرةِ الضَّالين الرَّاسخين في الغواية بعد أن كان مُهْتَدِيًا[5]، فَنَبَّهَ بهذا الفعلِ على استعدادِهِ السَّابقِ للغوايةِ وَوُقُوعِهِ وتمكُّنِهِ اللَّاحق فيها.

(1) وهو الظَّاهر من حاله بعد انسلاخه، كما ذكره كثير من المفسّرين، بعد أن قام هذا الرَّجل ليدعوَ على نبي الله موسى عليه السلام، ومن معه من المؤمنين، وخاب سعيه في عدم استطاعته الدُّعاء: فقال لقومه: قَدْ ذَهَبَتْ منِّي الآن الدُّنيا والآخرة، فلم يبقَ إلَّا المكر والخديعة والحيلة، وسأمكر لكم، فإنِّي أرى أن تُخرجوا إليهم فتياتكم، فإنَّ الله يبغض الزِّنى، فإن وقعوا فيه هلكوا؛ ففعلوا فوقع بنو إسرائيل في الزِّنى، فأرسل اللهُ عليهم الطَّاعونَ، فمات منهم سبعونَ ألفًا. يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 319/7.

(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 435/5، وعبد القادر ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 453/1.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 176/9.

(4) أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط: 220/5.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 103/5.

المبالغةُ في الوصفِ المقتضي للرُّسوخِ في الغوايةِ والمبالغةِ فيها

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾:

﴿مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ أي: من زمرةِ الضَّالِّين الفاسدين الرَّاسخين في الغواية والفساد[1]، وقد أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ الغوايةَ لهذا الرَّجلِ، بوصفهِ ﴿مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾، فأَظْهَرَ الوصفَ المقتضي للإيغال في الغوايةِ، أي: كان في عِدادهم، فإنَّ التَّعريفَ في الغاوين تعريفُ الجنسِ، والإخبارُ عنه أنَّه من الغاوين، يُفيد أنَّه واحدٌ من الفئة الَّتي تُعرف عند النَّاسِ بفئةِ الغاوين فيُفيد أنَّه غاوٍ إفادةً بطريقةٍ تُشبهُ طريقةَ الاستدلالِ، فهو من قبيلِ الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيء بإثباتِ ملزومِهِ، وهي أبلغُ من التَّصريحِ؛ لأنَّ قولَك: فلانٌ من الغاوين، أبلغُ في الوصفِ من قولِ: فلان غاوٍ؛ لأنَّك تشهدُ له بكونه معدودًا في زُمرتهم ومعروفةٌ مساهمته لهم في الغواية؛ فهو أشدُّ مبالغةً في الاتِّصاف بالغوايةِ من أن يقالَ: وَغَوى أو كان غاويًا[2].

العالمُ المنسلخُ من الهدايةِ، ينقلبُ علمُهُ إلى شؤمٍ وفسادٍ وغوايةٍ

دلالاتُ التَّعقيبِ بذمِّ عَالمِ السُّوءِ ووصفِ حالِهِ:

ضربَ اللهُ تعالى هَذَا المَثَلَ لعَالمِ السُّوءِ الَّذي يعمَلُ بخِلافِ عِلْمِه، وقد تضمَّنَت هذه الآيةُ ذَمَّهُ من عِدَّة وجوه: أحدُها: أنَّه ضلَّ بعد العِلمِ، واختار الكُفرَ على الإيمانِ، عَمْدًا لا جهلًا. ثانيها: أنَّه فارقَ الإيمانَ مُفارقةَ مَن لا يعودُ إليه أبدًا، فإنَّه انسلخَ من الآياتِ بالجُملةِ، كما تنسلِخُ الحيَّةُ من قِشرِها، ولو بَقِيَ معه منها شيءٌ لم ينسلِخْ منها. ثالثُها: أنَّ الشَّيطانَ أدركَه ولَحِقَه بحيثُ ظفِرَ به وافترَسَه؛ ولهذا قال: فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ، ولم يقُلْ: تَبِعَه؛ فإنَّ في معنى أتبَعَه: أدركَه ولَحِقَه، وهو أبلَغُ مِن تَبِعَه لفظًا ومعنًى. رابعُها: أنَّه غَوى بعد الرُّشدِ، والغَيُّ: الضَّلالُ في العِلمِ والقَصدِ، وهو أخَصُّ بفسادِ القَصدِ والعَمَلِ، كما أنَّ الضَّلالَ أخَصُّ بفسادِ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/42، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/103، ورشيد رضا، تفسير المنار: 9/405.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/176.

العِلم والاعتقادِ، فإذا أُفرِدَ أحدُهما؛ دخل فيه الآخَرُ، وإن اقترَنا؛ فالفَرْقُ ما ذُكِرَ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخبر والنَّبأ:

النَّبأُ خبرٌ ذو شأنٍ عظيمٍ، والخبرُ أعمُّ

النَّبأ: الخبرُ الَّذي له شأنٌ عظيمٌ[2]، ومنه اشتقاقُ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ، مُخبِرٌ عن الله تعالى، ويَدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2] فوصَفُه بالعظمة، وصفُ كاشِفٌ عن حقيقته، ولا يُقالُ للخبر: نبأٌ، حتَّى يَتَضَمَّنَ هذه الأشياء، والصِّيغة الفعليَّة للنَّبأ (أنبأ) أقوى أيضًا منها للخبر (أَخْبَرَ)، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣﴾ [الكهف: 103][3].

الشَّيطان، والجنّ، وإبليس:

الشَّيطانُ اسمٌ جامعٌ لأتباعِ إبليسَ، سواءٌ كانوا من الجنِّ أم مِنَ الإنسِ

لفظةُ الجنِّ بالنَّظر إلى أصل معناها تدلُّ على الاستتارِ والخفاء عن الأبصار، ولهذا سُمِّيتِ الجنُّ بذلك لاستجنانهم واستتارِهم عن العيون، وهم أجسامٌ هوائيَّةٌ قادرةٌ على التَّشكُّل بأشكال مختلفة، لها عقولٌ وإفهامٌ[4]، والمشهورُ أنَّ جميعَ الجنِّ من ذريَّة إبليس[5]، ومن تبعَهُ منهم يُقال له: شيطانٌ، فالجنُّ هم ولدُ إبليسَ، كما أنَّ الإنسَ ولدُ آدمَ، ومن هؤلاءِ وهؤلاءِ مُؤمنون وكافرون، فمن كانَ من هؤلاءِ وهؤلاءِ مُؤمنًا فهو وليُّ الله، ومن كان من هؤلاءِ وهؤلاءِ كافرًا فهو شيطانٌ[6]، فالشَّيطانُ اسمٌ لأتباع إبليسَ سواءٌ كانوا من الجنِّ أو الإنس، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ

---

(1) ابن قيّم الجوزيّة، الفوائد، ص: 101، 102.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 481.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 529.
(4) محمّد بن عبد الله الشّبليّ، آكام المرجان في أحكام الجانّ، ص: 23، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 280/3.
(5) الدَّميريّ، حياة الحيوان الكبرى: 300/1.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/19.

﴿وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: 112]؛ بل إنَّ العربَ تُسمِّي كُلَّ مُتمرِّدٍ شيطانًا، ولو كان من غير الجنِّ والإنس، قال الجوهريُّ: "كلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ من الجنِّ والإنس والدَّوابِّ شيطانٌ، والعرب تُسمِّي الحيَّة: شيطانًا[1]، والخلاصةُ: أنَّ إبليسَ اسمُ علمٍ، يطلق على الشَّيطان، وهو مشتقٌّ من الإبلاس، وهو الإبعادُ من الخير، أو اليأسُ من رحمة اللّه، والشَّيطان بعيدٌ عن الخيرِ وعن رحمةِ اللّهِ، فاصطفى النَّظمُ الكريمُ الأنسبَ بالسِّياق زيادةَ تقبيحٍ لمن أكرمه اللّهُ بالعلم، فانسلخَ منهُ.

الغاوين والضَّالّين:

الضَّلالُ فقدانُ الطَّريقِ الموصل، والغـوايـةُ العـدولُ عن الصِّراطِ تَقَصُّدًا

الضَّلالُ: فقدانُ ما يُوصِلُ إلى المطلوب، وقيل: هو سلوكُ طريقٍ لا يُوصلُ إلى المطلوبِ[2]، وكلُّ عدُولٍ عَن النَّهجِ عمدًا أَو سَهوًا قَليلًا كَانَ أَو كثيرًا[3]، فَهُوَ ضلالٌ، وفي بابِ الحقِّ والباطلِ يكون الضَّلالُ عدولًا عن الطَّريق المستقيم[4]، وقد يكونُ عن قصدٍ أو عَنْ غير قَصْدٍ، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: 23]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104]، أمَّا الغوايةُ: فهي جهلٌ من اعتقادٍ فاسدٍ[5]، فلَا يكونُ للغاوي مَقْصِدٌ إلى الطَّريق المُسْتَقِيم[6]، والغواية إمعانٌ في الضَّلال. كما أنَّ الضَّلالَ عامٌّ[7]، يكون للعاقل وغيرِه، فيُقال: ضلَّتِ الدَّابَّةُ، ولا يُقال: غوتِ الدَّابَّةُ، أمَّا الغوايةُ؛ فهي للعاقل المُكلَّف. والضَّلالُ نقيضُ الهُدى، قال اللّه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: 8] وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 2144/5.
(2) الشّريف الجرجاني، التَّعريفات، ص: 138.
(3) الكفويُّ، الكليّات، ص: 567.
(4) المناويُّ، التّوقيف، ص: 223.
(5) الرّاغب، المفردات: (غوى).
(6) الكفويُّ، الكليَّات، ص: 576.
(7) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 199/6.

﴿وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79]، والغِوايَةُ نقيض الرُّشْدِ قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146]، وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]. فالنَّاس ثلاثةٌ: راشدٌ، وغاوٍ، وضالٌّ، فالرَّاشدُ: عَرَفَ الحقَّ، واتَّبَعُهُ، والغاوي: عَرَفَه، ولم يتَّبعْه، والضَّالُّ: لم يعرفْهُ بالكلِّيَّة[1]، وقدِ اجتمع نفيُ الضَّلالِ والغواية في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النَّجم: 2]، فأثنى عليه بكمالِ العِلْم والعمل[2]، فالضَّلالُ أعمُّ، وهو ألَّا يَجِدَ السَّالكُ إلى مقصدهِ طريقًا أصلًا، والغِوايةُ ألَّا يكونَ لهُ إلى المَقْصَدِ طريقٌ مستقيم[3]، فاصطفى النَّظمُ لفظَ الغاوين؛ لأنَّهُ الألصقُ بالسِّياقِ.

(1) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 126/2.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 411/7.
(3) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 199/6، والتَّهانوي، كشَّاف اصطلاحات الفنون: 1119/2.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 176]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نفيُ استقلالِ الشَّيطانِ بالإغواءِ دونَ هوى النَّفسِ الأمّارةِ بالسُّوءِ

لَمَّا كان قولُهُ تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ مُوهمًا لِمَن لم ترسخ قَدَمُه في الإيمانِ أنَّ الشيطانَ له تأثيرٌ مُستقِلٌّ في الإغواءِ؛ نفى ذلك غيرةً على هذا المقامِ في مَظهَرِ العظمةِ، فقال: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾[1]، ولكنَّهُ "ينحرفُ عن الهدى ليتَّبعَ الهوى، فلاحقَهُ الشَّيطانُ، وتسلَّطَ عليه بإغوائِهِ، فصارَ في زُمرةِ الضَّالِّين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ﴾: شرَّفناهُ، ورَفَعَ الشَّيءَ يرفعهُ رَفْعًا، يقال للأجسامِ الموضوعةِ؛ إذا أَعْلَيْتَها عن مَقرِّها، وتارةً في البناءِ؛ إذا طوَّلتَهُ، وتارةً في الذِّكرِ؛ إذا نوَّهتَهُ[3]، وتارةً في المنزلةِ؛ إذا شرَّفتَها[4]، وأصل (رفع) يدُلُّ على خِلافِ الوَضعِ[5]، كالتَّرفيعِ والارتفاعِ، والمعنى هُنا: فَضَّلْناهُ، وشرَّفناه، ورفعنا منزلته بالآياتِ[6].

2) ﴿أَخۡلَدَ﴾: اطمأنَّ إليها، ولَزِمَها أطالَ بها الإقامةَ[7]، أو ركَنَ إلى الدُّنيا، وسكَنَ؛ ظانًّا أنَّه يخلدُ فيها، وأصلُ (خلد): يدلُّ على

(1) نظم الدّرر للبقاعيّ: 8/159.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 235.
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/92.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 200، وحسن المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 4/184.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفع).
(6) الثّعلبي، الكشف والبيان: 4/308.
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: 1/261.

الثَّباتِ والمُلازمةِ[1]، والمعنى هُنا: اطْمَأنَّ إِلَيْهَا، ولَزِمَها، وتقاعَس[2]، وقيل: "أخلدَ إلى الأرضِ إخلادًا؛ إذا ألصقَ بها نفسه، هكذا فسَّرَ أبو عبيدةَ قولَهُ ﷻ: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ إذا لَصِقَ بها"[3].

3) ﴿تَحْمِلْ﴾: تَزجُرُهُ، أو تطرُدُه، يُقَالُ: يقالُ: حَمَلَ فلانٌ على القوم حملَةً شعواءَ أوحملةً منكرةً، فهو مُشتَقٌّ مِنَ الحَملِ الَّذي هو الهجومُ على أحدٍ لقِتالِه، وأَصلُ (حمل): يَدُلُّ عَلَى إِقْلَالِ الشَّيْءِ[4]، والمعنى هنا: إنْ تُطارِدْه وتُهاجِمْه[5].

4) ﴿يَلْهَثْ﴾، أي: يُخرجْ لِسانَه من حرٍّ أو عطَشٍ، يُقال: لَهَثَ الكلبُ لهثًا ولُهاثًا؛ إذا دلِع لسانُه من شِدَّةِ العَطَشِ[6]، واللَّهَثُ يُقال للإعياءِ وللعَطشِ جميعًا[7]، والمعنى هُنا: كمثلِ الكلبِ الَّذي هذه حالتُه؛ لأنَّك إذا حَملت على الكلب؛ نَبَح وولَّى هاربًا، وإنْ تركته؛ شَدَّ عليك ونَبَحَ، فيُتْعِبُ نفسَه مُقبلًا عليك ومدبرًا عنك، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللِّسان[8].

5) ﴿فَٱقْصُصِ﴾: أعلِمْ وأخبِرْ، يُقال: قصَّ عليْهِ الخَبَرَ قَصًّا وقَصَصًا: أَعْلَمَه بِهِ، وأَخْبَرَه، وَمِنْه: قَصَّ الرُّؤْيَا[9]، وأصل (قصَّ) يدلُّ على تَتَبُّعِ الشَّيءِ، ومن ذلك قولهم: اقتصصتُ الأثرَ؛ إذا تَتَبَّعْتَهُ، ومن هذا البابِ القِصَّةُ والقصصُ، كلُّ ذلك يُتَتَبَّعُ، فيذكرُ[10]، والمعنى هُنا: اقرأ عليهم القرآنَ، وأعلِمْهم بما فيه من ضربِ الأمثالِ والعبر، فإذا تفكَّروا؛ عَلِمُوا، وإذا عَلِمُوا؛ عَمِلوا[11].

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 174، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 60، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 207/2، والرّاغب، المفردات، ص: 292، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121، والتّبيان لابن الهائم، ص: 212، والكليّات للكفويّ، ص: 65.
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 60.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خلد).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 175، وابن فارس، مقاييس اللغة: 106/2، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 178/9.
(6) نشوان الحميري، شمس العلوم: (لهث)، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 298/4.
(7) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 508، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 214/5، والرّاغب، المفردات، ص: 748، والتّبيان لابن الهائم، ص: 213، والكليّات للكفويّ، ص: 994.
(8) القرطبي، جامع البيان: 322/7، والشوكاني، فتح القدير: 303/2.
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: 98/18.
(10) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 101/6، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قص).
(11) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 568/1، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 309.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

ولو شِئْنا أن نرفعَ قَدرَهُ إلى منازلِ الأبرارِ، بما آتيناهُ من الآياتِ؛ لفعلنا، ولكنَّه تَعَلَّق بالأرض، ورَكَنَ إلى الدُّنيا، واتَّبع هواهُ، وآثر لَذَّاتهِ وشهواتهِ على الآخرةِ؛ فمَثَلُهُ في شدَّة الحِرص على الدُّنيا كمثَلِ الكلبِ، لا يزالُ لاهثًا في كلِّ حالٍ، إن كان رابضًا لَهَث، وإن طُرِدَ لَهَثَ، ذلك المثَلُ المذكور مَثَلُ القوم الضَّالينَ بتكذيبهم بآياتنا، فاقصصْ - أيُّها الرَّسول - أخبارَ الأممِ الماضيةِ عليهم، رجاء أن يتفكَّروا، فينزجروا عمَّا هُمْ فيه من التَّكذيبِ والضَّلالِ[1].

العبرةُ في تمثيل الحريصِ على الدُّنيا وشهواتِها كالكلبِ في لهثِه الدَّائِم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾:

الواو في ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ حرفُ استئنافٍ، كلامٌ مُستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ مناطِ ما ذُكِرَ من انسلاخه من الآياتِ، ووقوعهِ في مهاوي الغِوايةِ، والضَّمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَهُ﴾ يعودُ إلى الشَّخصِ المعبَّرِ عنه بالاسمِ الموصول الَّذي[2].

بيانُ مناطِ ما ذُكِرَ من انسلاخِهِ من الآياتِ، ووقوعِهِ في مهاوي الغِوايات

دلالةُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ في قولِه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا﴾:

ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ، أي: ولو شِئْنا رفعه ﴿لَرَفَعْنَهُ﴾ إلى منازلِ الأبرار، بسببِ تلك الآياتِ والعمل بما فيها[3]، وقدِ اصطفى النَّظمُ هذا السَّنَنَ اللُّغويَّ اتِّساقًا مع عدم حصول الرَّفعِ في الواقع، فعبَّر بما يَجيءُ كذلك غائبًا من النَّصِّ تلاؤمًا مع الغيابِ من الواقع.

وقوعُ المشيئةِ شرطًا وكَونُ مفعولِها مضمونَ الجزاءِ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 236، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 667/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 106/5، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 436/5.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 292/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 106/5، والصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين: 574/1.

دلالةُ (لو) الشَّرطيَّةِ في: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾:

من يرفعِ اللهُ؛ فلا خافضَ له، ومن يخفضْ؛ فلا رافعَ له

كلمةُ (لو) تدلُّ على انتفاءِ الشَّيءِ لانتفاءِ غيرِه، وأفادَ الكلام: إنَّا ما رفعْنا درجَتَهُ لعدم ملازمتِه العملَ، بمقتضى الآياتِ؛ وملازمةُ العملِ لمّا كانت مسبَّبةً عن المشيئةِ؛ كان عدمُ الملازمةِ دليلًا على انتفاءِ سببِه الَّذي هو المشيئةُ، فلزمَ أن يكونَ انتفاءُ الرَّفعِ لانتفاءِ المشيئةِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإضافةِ إلى ضميرِ العظمةِ والكبرياءِ في ﴿شِئۡنَا﴾ و﴿لَرَفَعۡنَٰهُ﴾:

تعظيمٌ للمشيئةِ وتعليمٌ للأدبِ معهُ سبحانه وتعالى

قولُه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ﴾، أي: على ما لنا من العظمةِ تعظيمًا لمشيئتِه سبحانه ورفعتِه، فلو شاءَ اللّهُ لهُ التَّوفيقَ، وعصمَهُ من كيدِ الشَّيطانِ وفتنته، فلم ينسلخْ عنها؛ وهذه عِبرةٌ للموفَّقين ليعلموا فضلَ اللّهِ عليهم في توفيقِهم، فالمعنى: ولو شئْنا؛ لزادَ في العملِ بما آتيناهُ من الآيات، فلرفعَهُ اللّهُ بعلمِه[2]؛ وفي هذا التَّعبيرِ تَعليمٌ للأدبِ في إسنادِ الخيرِ إلى اللّهِ، والشَّرِّ إلى غيرِه، وإن كان الكُلُّ خَلْقَهُ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ المشيئةِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا﴾:

بيانُ أنَّ من قصمتْهُ السَّوابقُ؛ لم تُنعِشْهُ اللَّواحِقُ

علَّق ربُّنا سبحانه وتعالى الأمرَ بالمشيئة، تنبيهًا على أنَّها هي السَّببُ الحقيقيُّ، وأنَّ ما لم يَشأْهُ سبحانه لا يكونُ، وكان التَّقديرُ: ولكنَّا لم نشأ ذلك، وشِئْنا له الكفرَ؛ ومشيئتُه سبحانه مُطلقةٌ، ولا رادَّ لمشيئته، ولا معقِّبَ لحكمِه[4]، وبمقتضى مشيئتِه يُعذِّبُ المُذْنِبَ بعدله، ويُثيبُ الطَّائعَ بفضله، وله سبحانه مُطلقُ الإرادة، فهو عزيزٌ، وحكيمٌ في كلِّ فِعْلٍ[5]، فمَن ساعدته المشيئةُ بالسَّعادةِ الأزليَّة، لم تلحقْهُ الشَّقاوة الأبديَّة، ولكن من قَصَمَتْهُ السَّوابق، لم تُنْعِشْهُ اللَّواحِقُ[6].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 404/15، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 332/4.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/9.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 159/8.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 152/3.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4457/7.
(6) القشيريّ، لطائف الإشارات: 587/1.

بلاغةُ الاستعارةِ في جوابِ الشَّرطِ ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾:

تصويرُ كمالِ النَّفسِ بالتَّرقِّي والارتفاعِ، مبالغةٌ في الوصفِ

الرِّفعةُ في قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾، مُستعارةٌ لكمالِ النَّفسِ وزكائها؛ لأنَّ الصِّفاتِ الحميدةَ، تُخَيِّل صاحبها مرتفعًا على من دونِه، بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، أي: لو شئنا؛ لاكتسبَ بعمله بالآياتِ فَضْلًا وزكاءً وتميُّزًا بالفضلِ، فمعنى لرفعناه: ليسَّرنا له العملَ بها الَّذي يشرفُ به[1]، وقد حوَّلتِ الاستعارةُ المعنى المعقولَ محسوسًا.

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾:

الإشارةُ إلى العملِ بالآياتِ، وأنَّه سببُ الرِّفعةِ

والباءُ في ﴿بِهَا﴾ بالعملِ بها[2]، والرِّفعةُ عند اللّهِ تعالى ليست بمجرَّدِ العِلمِ - فإنَّ هذا كان مِن العُلَماءِ - وإنَّما هي باتِّباعِ الحَقِّ وإيثاره، وقَصدِ مرضاةِ اللّهِ تعالى، فإنَّ هذا كان من أعلم أهلِ زَمانه، ولم يرفَعْهُ اللّهُ بعلمِه، ولم ينفَعْهُ به، وفي الآيةِ أنَّه هو سبحانه الَّذي يرفَعُ عَبْدَه - إذا شاء - بما آتاهُ اللّهُ مِن العِلم، وإنْ لم يرفعْهُ اللّهُ، فهو موضوعٌ لا يرفَعُ أحدٌ به رأسًا، فإنَّه سبحانه هو الخافِضُ الرَّافِعُ، وقد خَفَضَه اللّهُ سبحانه ولم يَرْفَعْهُ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة: ﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تمثيلٌ لحالِ المتلبِّسِ بالخلودِ إلى الأرضِ بالسَّاقِطِ من علوٍّ إلى سفولٍ

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، فيه تمثيلٌ لحالِ المتلبِّسِ بالنَّقائصِ والكُفرِ، بعد الإيمانِ والتَّقوى بحالِ مَن كان مُرتفعًا عن الأرضِ، فنزَلَ من اعتلاءٍ إلى أسفَلَ، ونزَل بطبعِه إليها، فكانت نفسُه أرضيَّةً سفليَّةً، لا سماويَّةً علويَّةً، وبحسبِ ما يخلدُ العبدُ إلى الأرض يهبطُ مِن السَّماءِ[4]، فبذِكرِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ عُلِمَ أنَّ الإخلادَ هُنا ركونٌ إلى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/9.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 321/7، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 404/15، ومحمد جمال الدّين القاسميّ، محاسن التأويل: 222/5.

(3) ابن القيم، إعلام الموقّعين: 129/1.

(4) ابن القيم، روضة المحبّين، ص: 194.

السَّفَلِ، أي: تلبُّسٌ بالنَّقائِصِ والمفاسِدِ[1]. وهذه الآيةُ مِن أشَدِّ الآيِ على أصحابِ العِلمِ، وذلك أنَّ اللّه تعالى أخبَرَ أنَّه آتاهُ آياتِه، فاستوجَبَ بالسُّكونِ إلى الدُّنيا واتِّباعِ الهوى، تغييرَ النِّعمةِ عليه، والانسلاخَ عنها؛ ومَنِ الَّذي سَلِمَ من هاتين الخلَّتينِ، إلَّا مَن عَصَمَهُ اللّهُ[2].

التَّنبيهُ على أنَّ المشيئةَ سَبَبٌ لفعلِه الرَّافعِ، وأنَّ عدمَهُ دليلُ عَدَمِها

دلالةُ الاستدراكِ بعد المشيئةِ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ﴾:

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ علَّق ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ بمشيئةِ اللّه تعالى ثُمَّ استدرك عنه بفعل العبدِ، تنبيهًا على أنَّ المشيئةَ سَبَبٌ لفعلِه الموجِب لِرَفْعِه، وأنَّ عدمَهُ دليلُ عَدَمِها دلالة انتفاءِ المُسَبَّبِ على انتفاءِ سَبَبِه، وأنَّ السَّببَ الحقيقيَّ هو المشيئةُ، وأنَّ ما نُشاهِدُهُ من الأسبابِ وسائطُ معتبرةٌ في حصولِ المسبَّب من حيثُ إنَّ المشيئةَ تعلَّقت به كذلك، وكان من حقِّهِ أن يقولَ، ولكنَّهُ أعرضَ عنها، فأوقعَ موقعَهُ ﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، فجاءَ الاستدراكُ هُنا تَنبيهًا على السَّببِ الَّذي لأجْلِه، لم يُرفَعْ، ولم يُشرَّفْ، كما فُعِلَ بغيرِه ممَّن أُوتِيَ الهُدَى فآثَرَه واتَّبعَه[3]، فلا يغترَّ أحدٌ بما أوتِيَ من المعارِف، وما حازَ من المفاخِرِ واللَّطائِفِ، فإنَّ العِبرةَ بالخواتيمِ[4].

المُقدِّماتُ الصَّحيحةُ تُفضي إلى نتائجَ قاطعةٍ لباطلِ كلِّ لجوجٍ

دلالةُ المذهبِ الكلاميِّ في قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾:

المذهبُ الكلاميُّ[5] هو احتجاجُ المتكلِّمِ على ما يريدُ إثباتَهُ،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 177/9.
(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 468/9.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 223/5.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 160/8.
(5) المذهب الكلاميّ: "هو أن يورد المتكلِّم على صحَّةِ دعواه حُجَّة قاطعة مسلَّمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب، كقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22]، واللَّازم وهو الفسادُ باطل، فكذا الملزوم وهو تعدُّد الآلهة باطلٌ، وليس أدلُّ على ذلك من الحقيقة والواقع، وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الحجّ: 5]، ونحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27]، أي: وكلُّ ما هو أهون عليه، فهو وأدخل تحت الإمكان، فالإعادةُ ممكنةٌ، وسُمِّيَ هذا النَّوع (بالمذهب الكلاميِّ)؛ لأنَّه جاء على طريقة (علم الكلام والتّوحيد)، وهو عبارة عن إثباتِ (أصول الدّين) بالبراهين العقليَّة القاطعة. يُنظر: الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 305.

بحجَّةٍ تقطعُ المعاندَ، وتفلُّ سلاحَ المكابرِ المتعنِّت، على طريقةِ علماءِ الكلامِ، ومنه منطقيٌّ تُستنتج فيه النَّتائجُ من المقدِّمات الصَّادقة، والآيةُ المقصودةُ بهذا الفنِّ هنا، هي قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾، وترتيبُ المقدِّمتين في هذه الكلماتِ، والنَّتيجةُ أنَّا نقول: (ما شاء اللّهُ كان، وما لم يشأْ؛ لم يكن، ولو شاءَ اللّهُ؛ رفع (بلعام بن باعوراء) المقصودَ بهذه الآيةِ؛ فقد بعثَهُ اللّهُ إلى ملكِ مدين؛ ليدعوهُ إلى الإيمانِ، فأعطاهُ، وأقطعَهُ، فاتَّبع دينَهُ، وتركَ دين موسى)، ففيهِ نزلت هذهِ الآيةُ وما بعدها[1]، وهي تبيِّن عن انسلاخٍ عقائديٍّ، كان فيه هذا الموصوف، قد أضلَّهُ اللّهُ على علمٍ، فانسلخَ من الهدى، وأتبعهُ الشَّيطان، وأطاع الهوى حين غوى، فكان عاقبةُ أمرِهِ خسرًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾:

الإشـــارةُ إلى المبالغةِ في اتِّباعِ الهوى الحاملِ على البعدِ عن الحقِّ

قولهُ: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ أي: اتِّباعًا شديدًا[2] في إيثارِ الدُّنيا واسترضاءِ قومِه[3]؛ مُبالغةً وتنبيهًا على ما حَمَله عليه، وأنَّ حُبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ[4]، وهو لم يَسْمُ بعلمِهِ وتقواهُ، "ولكنَّهُ آثرَ الدُّنيا الدَّنيَّةَ على المنازلِ السَّنيَّة، أو الضَّعةَ والسَّفالةَ على الرِّفعةِ والجلالة، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾، مُعرِضًا عن تلك الآياتِ الجليلةِ، فانحطَّ أبلغَ انحطاطٍ، وارتدَّ أسفلَ سافلين"[5].

وقيل: إنَّ ابن المعتز قال: لا أعلم ذلك في القرآن، أعني: المذهب الكلامي، وليس عدم علمه مانعًا عِلْمَ غيره، ورد في إعراب القرآن وبيانه: "المذهب الكلامي: هذه التسمية كما ذكر ابن المعتز في كتابه وزعم الجاحظ أنَّه لا يوجد منه شيء في القرآن، والكتاب الكريم مشحون به". ينظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/497، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/160.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/496.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/159.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/42.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/42.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/293.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾:

تصويرُ حالةِ ميلهِ واختيارهِ الباطلَ، بمن اتَّبعَ شيئًا ولزِمَهُ

واتِّباعُ الهوى ترجيحُ ما يحسُن لدى النَّفسِ من النَّقائصِ المحبوبةِ على ما يدعو إليه الحقُّ والرُّشد، فالاتِّباع مُستعارٌ للاختيار والميل، والهوى شاعَ في المحبَّة المذمومةِ الخاسرة عاقبتها، وقد تفرَّع على هذهِ الحالةِ تمثيلُهُ بالكلبِ اللَّاهث؛ لأنَّ اتِّصافَهُ بالحالةِ الَّتي صيَّرته شبيهًا بحال الكلب اللَّاهثِ تَفَرَّعَ على إخلادهِ إلى الأرضِ واتِّباعِ هواهُ، بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، فالكلامُ في قوَّةِ أن يُقالَ: ولكنَّه أخلدَ إلى الأرضِ، فصار في شقاءٍ وعنادٍ، كمثلِ الكلب[1].

بَلاغةُ التَّشبيهِ التَّمثيليّ في: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾:

حينما يكونُ القبحُ عادةً، لا يزجرُ عنهُ علمٌ بِهِ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ﴾، المرادُ بهذا المثلِ: أنَّ من لم يزجرْهُ علمُهُ عن القَبيحِ، صارَ القبيحُ عادةً له، ولم يؤثِّرْ فيه علمُهُ شيئًا، فيصيرُ حالُهُ كحالِ الكلبِ اللَّاهث، فإنَّهُ إن طُرِدَ: لهثَ، وإن تُركَ: لهث، فالحالتان عنده سواءٌ، وهذا أخسُّ أحوالِ الكلبِ وأبشعها، فكذلكَ من يرتكبُ القبائحَ مع جهلِهِ ومع علمه، فلا يؤثِّر علمُهُ شيئًا، وكذلك مثل من لا يرتدعُ عن القبيحِ بوعظٍ ولا زجرٍ ولا غيره، فإنَّ فعلَ القبيح يصيرُ عادةً، ولا ينزجرُ عنه بوعظ ولا تأديب ولا تعليم، بل هو متَّبعٌ للهوى على كلِّ حالٍ، فهذا حالُ كلِّ من اتَّبع هواهُ، ولم ينزجر عنهُ بوعظٍ ولا غيرِه، وسواءٌ كان الهوى المتَّبع داعيًا إلى شهوةٍ حسِّيَّةٍ، كالزِّنى والسَّرقةِ وشربِ الخمرِ، أو إلى غضبٍ وحقدٍ وكبرٍ وحسدٍ، أو إلى شبهةٍ مضلَّةٍ في الدِّين، وأشدُّ ذلك: حالُ من اتَّبع هواهُ في شبهةٍ مُضلَّةٍ، ثُمَّ من اتَّبع هواهُ في غضبٍ وكِبْرٍ وحقدٍ وحسد، ثُمَّ مَن اتَّبع هواهُ في شهوةٍ حسّيَّةٍ[2]، وقد "شبَّهَ الهيئةَ المنتزعةَ ممَّا لحقَهُ بعد الانسلاخ من سوءِ الحالِ، واضطرابِ القلبِ، ودوامِ القلقِ، بالهيئةِ المنتزعةِ ممَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/177.

(2) تفسير ابن رجب الحنبليّ: 1/88، 89.

بيَّنَ من حالِ الكلبِ في عدمِ الاستراحةِ في حالٍ من الأحوالِ، أو في مطلقِ الحالةِ الجنسيَّةِ ووجهُ الشَّبهِ فيه منتزعٌ من عدَّةِ أمورٍ"[1]، وفي تَشبيهِ مَن آثَر الدُّنيا وعاجِلَها على اللهِ والدَّارِ الآخرةِ - مع وُفورِ عِلمِه - بالكَلْبِ في لَهَثِه؛ سِرٌّ بديعٌ، وهو: أنَّ الَّذي حالُه ما ذَكَره اللهُ من انسلاخِه من آياتِه، واتِّباعِه هواه - إنَّما كان لشِدَّةِ لَهَفِه على الدُّنيا؛ لانقطاعِ قَلْبِه عن اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ، فهو شديدُ اللَّهَفِ عليها، ولهَفُهُ نظيرُ لَهَثِ الكَلْبِ الدَّائمِ في حالِ إزعاجِه وتَرْكِه[2].

سرُّ التَّعبيرِ عن وصفِ سفالة المكذِّب بتشبيههِ بالكلبِ:

نقْلُ المعقولِ من أحـوالِ المكـذِّبِ إلى المحسوسِ يجعلُهُ صورةً بعدَ معنًى

بَيَّنَ النَّظمُ الكريمُ حالَ المكذِّبِ بآياتِ اللهِ، والمتَّبعِ لهواهُ، بالإيجازِ المعجزِ من عدَّةِ وجوهٍ: أوَّلًا: أنَّهُ سبحانه أخبَرَ عن خِسَّةِ هِمَّتِه، وأنَّه اختارَ الأسفلَ الأدنى على الأشرَفِ الأعلى. ثانيًا: أنَّ اختيارَهُ للأدنى لم يكُنْ عن خاطرٍ وحديثِ نَفْسٍ، ولكنَّه كانَ عن إخلادٍ إلى الأرضِ، ومَيلٍ بكُلِّيَّتِه إلى ما هناك، وأصلُ الإخلادِ اللُّزومُ على الدَّوامِ، وعبَّرَ عن مَيلِه إلى الدُّنيا بإخلادِه إلى الأرضِ؛ لأنَّ الدُّنيا هي الأرضُ وما فيها، وما يُستخرَجُ منها من الزِّينةِ والمَتاعِ. ثالثًا: أنَّه رغِبَ عن هُداه، واتَّبَع هواه، فجَعلَ هواهُ إمامًا له، يقتَدي به ويتَّبِعُه. رابعًا: أنَّه شبَّهَه بالكَلبِ الَّذي هو أخَسُّ الحيواناتِ هِمَّةً، وأسقَطُها نَفْسًا وأبخَلُها، وأشَدُّها كَلَبًا، ولهذا سُمِّيَ كَلْبًا. خامسًا: أنَّه شَبَّه لهَثَه على الدُّنيا وعدَمَ صَبْرِه عنها، وجَزَعَهُ لفَقْدِها وحِرصَه على تحصيلِها، بلَهَثِ الكَلْبِ في حالتَي ترْكِه، والحَمْلِ عليه بالطَّردِ، وهكذا هذا، إن تُرِكَ؛ فهو لَهْثانُ على الدُّنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ؛ فهو كذلك؛ فاللَّهَثُ لا يُفارِقُه في كلِّ حالٍ، كلَهَثِ الكَلْبِ، وهذا التَّمثيلُ لم يقَعْ بكلِّ كَلْبٍ، وإنَّما وقعَ بالكَلْبِ اللَّاهِثِ، وذلك أخَسُّ ما يكونُ وأشنَعُه[3].

(1) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 8/549.

(2) ابن القيم، إعلام الموقّعين: 1/128.

(3) ابن القيم، الفوائد، ص: 101، 102.

المبالغةُ في ذمِّ المكذِّبين بإدخال أداةِ التَّشبيه على مايدلُّ على العجبِ والغرابة

معنى اجتماعِ الكافِ مع لفظِ (مثل) في: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ﴾:

الكافُ في هذا الموضع هي أداةُ تشبيهٍ، أمَّا لفظ المثلِ؛ فهو الأمرُ الغريبُ العجيبُ، فحينما دخلت الكافُ على لفظ (مَثَل) بتحريك الثَّاءِ المثلَّثةِ، أبانت عن أنَّ المرادَ تشبيهُ حالةٍ غريبةٍ عجيبةٍ بحالةٍ غريبةٍ عجيبةٍ، لذا اجتمعت الكافُ مع (مثل)، فكأنَّ حالَ المتلبِّس بالحقِّ المنسلخِ عنه يدعو للعجبِ والغرابةِ، فهو في هذا الفعلِ العجيبِ الغريبِ، يشبهُ في الغرابةِ حالَ ذلك الكلبِ اللَّاهثِ على الدَّوامِ؛ فهذا تشبيهُ قصَّةٍ بقصَّةٍ.

الإفصاحُ عن دوامِ اتِّصافه بهذهِ الحالِ الخسيسةِ، واستمرارهُ عليها

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾:

الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ فصيحةٌ، تفصحُ عن حالِ هذا المتَّبع لهواهُ ومِثالِه، وإيثارُ الجملة الاسميَّة بدل الفعليَّةِ في هذا المثالِ، بأن يُقالَ: (فصار مثله كمثل.. إلخ)، للإيذانِ بدوامِ اتِّصافه بتلك الحالةِ الخسيسةِ، وكمالِ استمرارِه عليها[1].

التَّقييدُ بأقبحِ الأوصافِ يمحِّضُ الأسلوبَ للتَّقبيحِ، تطلُّبًا لسرعةِ الإقلاعِ عنها

تقييدُ حالِ الكلبِ بجملةٍ شَرطيَّةٍ ﴿إِن تَحۡمِلۡ﴾، ودلالةُ الحملِ عليه:

جملةُ: ﴿إِن تَحۡمِلۡ﴾ شرطيَّةٌ في موضع الحالِ، والمعنى: (لاهثًا) في الحالين، ذليلًا دائمَ الذِّلَّةِ[2]، وقد ضربَ اللّٰهُ ﷻ هذا المثلَ للكافرِ الَّذي إن وُعِظَ وزُجِرَ؛ نفرَ وكفرَ، وإن تُرِكَ أو رُفِقَ به؛ استكبرَ وكفر، فهو مع العظةِ والتَّذكرةِ ضالٌّ معرضٌ، ومع التَّركِ ضالٌّ معرض، وكذلك الكلب حالُه تخالفُ سائر الحيوانِ؛ لأنَّ كلَّ ما يلهث من الحيوانِ، فإنَّما يلهث لمرض وتعبٍ، وكلالٍ وعارضٍ، يزولُ اللَّهثُ بزوالِه، والكلبُ يلهثُ في جميع حالتِه؛ في صحَّتِه ومرضِه وراحتِه وكلالِه وريِّه وعطشِه، فلا مثالَ لمن ذكرَ اللّٰهُ حالَهُ من الكفَّارِ من

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 292/3.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 178/2، والمظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 433/3.

جميعِ الحيوان إلَّا الكلبُ[1]، فليس لشيءٍ من الحيوانِ حالةٌ تصلحُ للتَّشبيه بها في الحالتين غيرَ حالةِ الكلب اللَّاهث؛ لأنَّهُ يلهثُ؛ إذا أُتعب، وإذا كان في دعةٍ، فاللَّهثُ في أصلِ خلقتِه[2].

دلالةُ الخطابِ في فِعلَي الشَّرْط (تحمل) (تترك):

المثَلُ صالحٌ لكلِّ من لَهُ حظٌّ مِنَ الخطابِ، ممَّن شابَهَ حال هذا الرَّجلِ

الخطابُ في فِعْلَي الشَّرط لكلِّ أحدٍ ممَّن له حَظٌّ من الخطاب، فإنَّه أَدْخَلُ في إشاعةِ فظاعة حالِه، وهُما تفصيلٌ لما أجملَ في المثال، وتفسيرٌ لما أبهمَ[3]، " وصغارُ الهممِ، تراهم كاللَّاهثِ من الإعياءِ والتَّعبِ، وإن كان ما يعنونَ به، ويحملونَ همَّه حقيرًا لا يتعب، ولا يعيي، ولا ترى أحدًا منهم راضيًا بما أصابَهُ من شهواتِهِ وأهوائِهِ، بل يزيدُ طمعًا وتعبًا، كلَّما أصابَ سَعةً، وقضى أربًا"[4].

دلالةُ تقديمِ الحملِ على التَّركِ:

تقديمُ الحالِ المعهودةِ للَهثِ الحيوانِ، وذلك عند تحريكِهِ وتهيُّجِهِ

في قوله تعالى: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ قُدِّمَ الحمْلُ على التَّرك، والحملُ على الشَّيءِ: قصده على وجهِ الطَّردِ[5]، وقُدِّم الحَمْلُ؛ لأنَّ سائرَ الحيوانِ لا يكونُ منه اللَّهثُ إلَّا إذا حُرِّكَ، وهُيِّجَ وطُرد، فإنْ لهثَ ظُنَّ أنَّ لهثَهُ لما حاول من ذلك التَّعب، فقُدِّمت الحال المعهودة[6]، وأُخِّر الأغربُ، وهو التَّرك الَّذي يجعلُ الكلبَ بها مباينًا لكلِّ الحيواناتِ.

بلاغةُ كمالِ الاتِّصالِ بين الآيتين:

بيانُ ما سبقَ في تشبيهِ المكذِّبِ بالكلبِ وأحوالِهِ

قوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾، جملةٌ مُبَيِّنَةٌ لقوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: ذلك التَّمثيلُ مَثَلٌ للمُشركينَ المُكَذِّبينَ بالقُرآنِ، وهو تَشبيهٌ بليغٌ؛ لأنَّ حالةَ الكَلبِ المُشبَّهِ

(1) الباقلاني، الانتصار للقرآن: 2/750.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/177.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/106.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/342.
(5) الجرجانيّ، درج الدّرر في تفسير القرآن العظيم: 1/710.
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/124.

شَبيهةٌ بحالِ المُكَذِّبين، وليستْ عَينَها[1]، وفيه تعميمٌ بعد تخصيصٍ، وهو تأكيدٌ لكونِهِ مثلًا سائرًا في كلِّ حالةٍ تشبه هذه الحالةَ المذكورةَ، وفي هذا توسيعٌ لآفاقِ إطلاقِ المثلِ زمانًا ومكانًا وحالًا، فتلك الصِّفةُ الخسيسةُ الدَّنيئةُ، المذكورةُ في المنسلخِ عن آياتِنا، صفةٌ ليست خاصَّةً به، بل هي صفةٌ عامَّةٌ قائمةٌ بجميع القوم الَّذين كذَّبوا بآياتنا من اليهودِ والمشركين وغيرهم، بعد أن علِموا بها، وعرفوها، فحرَّفوا، وبدَّلوا، وكتموا صفةَ محمَّدٍ ﷺ، وكذَّبوا بها، فعمَّ هذا المثلُ جميعَ من كذَّبَ بآياتِ اللّهِ تعالى وجحدَها؛ فوجهُ التَّمثيلِ بينَهم وبينَ الكلبِ اللَّاهِثِ: أنَّهم إذا جاءتهمُ الرُّسل ليهدوهم؛ لم يهتدوا، وإن تركوهم؛ لم يهتدوا أيضًا، بل هم ضُلَّالٌ في كلِّ حالٍ[2]، وفي كمال الاتِّصال هنا إيجازٌ وإعجازٌ، واكتفاءٌ بمثلٍ واحدٍ للجميعِ.

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَّٰلِكَ﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ مثـلَ المكذِّبين الجاحدينَ مثلٌ بعيدُ الشَّأنِ في الغرابةِ

الإشارةُ في قولِه: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ إلى وصفِ الكلبِ، أو إلى المنسلخِ من الآياتِ، أي: ذلك المثلُ البعيدُ الشَّأنِ في الغرابةِ، مثل القومِ الَّذين كذَّبوا بآياتِنا من الجاحدينَ المستكبرينَ المنسلخينَ عن الهُدى، بعد أن كانَ في حوزَتِهم[3]، فاستخدَمَ اسمَ الإشارةِ الدَّالَّ على البُعدِ، دلالةً على غرابةِ المشارِ إليهِ.

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَٱقۡصُصِ﴾:

تعظيمُ شأنِ ضَربِ الأمثالِ في مأثورِ الكلامِ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱقۡصُصِ﴾ فصيحةٌ، وهي لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، أي: إذا تحقَّقت أنَّ المثلَ المذكور مثلُ هؤلاءِ المكذِّبين، فاقصصْهُ عليهم[4]، والقصصُ مصدرٌ بمعنى اسم المفعولِ، واللَّام فيه للعهدِ، أي: قصصَ ذلك الرَّجلُ الَّذي تُشبهُ حالُهُ حالَ المكذِّبين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/179.

(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 10/233.

(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 5/436.

(4) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/495.

بآياتنا أو القصص المذكورةِ على اليهودِ، فإنَّها نحو قصصِهم[1]، وهذا يدلُّ على تعظيم شَأنِ ضَربِ الأمثالِ في تأثيرِ الكَلامِ وفي الإقناعِ، وكونِه أقوى مِن سَوقِ الدَّلائلِ والحُجَجِ المجَرَّدة[2].

دلالةُ قولِه: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾:

القَصَصُ وضربُ الأمثالِ، لهما أثرٌ كبيرٌ على التَّفكُّرِ والموعظةِ

قولُه: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾، تنويهٌ بالقِصَّةِ المُمَثَّلِ بها، يشمَلُها وغيرَها من القَصَص الَّتي في القُرآن، فإنَّ في القَصَصِ تفكُّرًا ومَوعظةً، فيُرجى منه تفكُّرُهم ومَوعِظَتُهم، لأنَّ للأمثال واستحضارِ النَّظائرِ شأنًا عظيمًا في اهتداءِ النُّفوس بها، وتقريب الأحوال الخفيَّةِ إلى النُّفوس الذَّاهلة أو المتغافلة[3].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

إشارةٌ إلى تعظيمِ شأنِ التَّفكُّرِ، وأنَّهُ مبدأُ العلمِ وسبيل الوصولِ إلى الحقِّ

﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: رجاء أن يتفكَّروا فيه، فيحملُهم سوءُ حالهِم، وقُبْحُ مثَلهم على إطالةِ التَّأمُّل، والتَّفكُّر في المخلصِ ممَّا هم فيه، والنَّظرِ في الآيات بعينِ البصيرةِ لا بعينِ الهوى والعداوةِ، وفيها إشارةٌ إلى تعظيم شأنِ التَّفكُّر، وأنَّه مبدأُ العلم، والسَّبيل للوصولِ إلى الحقِّ، ومن ثَمَّ حثَّ اللهُ عليه في مواضعَ كثيرةٍ من كتابه[4]، وأسلوبُ التَّرجِّي هنا ليس على بابِهِ، وإنَّما خرجَ من التَّرجِّي إلى التَّعليل، ليجعلَ سوقَ القصصِ علَّةً للتَّفكُّرِ المؤدِّي إلى الهدايةِ على سبيلِ الرَّجاءِ، أو إلماعًا إلى أنَّ سَوقَ القصص مُوصلٌ إلى العبرةِ، أو يكون المعنى: ليكون حالهُم حالَ من يُرجى تفكُّرُه.

بلاغةُ أسلوبِ التَّذييل في: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

الغرضُ من سوقِ القصصِ وضربِ الأمثالِ إثارةُ التَّفكُّرِ

وقعتِ الجملةُ ممَّا قبلَها موقع التَّذييلِ المُلفت إلى العبرةِ من

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 178/2، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 436/5، ومحمّد ثناء الله المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 433/3.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 342/9، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 107/9.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 179/9.

(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 107/9، ويُنظَر: رشيد رضا، تفسير المنار: 342/9.

سياقِ القصَّةِ السَّابقةِ، وكلُّ قصَّةٍ في القرآنِ الكريمِ، لبيانِ الغرضِ من سوقِ القصصِ وضربِ الأمثالِ، وقد جاء التَّذييلُ بمنزلةِ التَّعليلِ لما سبقَ، كشفًا عن المنهاجِ القرآنيِّ في الخطابِ الدَّاعي إلى التَّفكُّرِ، كما أنَّ فيه كشفًا أنَّ للأمثالِ في استحضارِ النَّظائرِ شأنًا عظيمًا في اهتداءِ النُّفوسِ بها، وتقريبِ الأحوالِ الخفيَّةِ، لما في التَّنظيرِ بالقصَّةِ المخصوصةِ من تذكُّرِ مشاهدةِ الحالةِ بالحواسِّ، بخلافِ التَّذكيرِ المجَرَّدِ.

مرجعُ الضَّميرِ ودلالته في ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾:

تنوُّعُ المرجعِ ثراءٌ في المعنى، وقوَّةٌ في الدَّلالَةِ

الضَّميرُ في ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ يمكنُ أن يكونَ مخصوصًا، ويكونُ المرادُ به أهلَ مكَّةَ، أو المراد به اليهود الحاضرين في عهدِ رسولِ اللّٰه ﷺ، ويمكنُ أن يكون عامًّا لكلِّ من يأتي منه التَّفكُّرُ؛ وهذا التَّنوُّعُ في المرجع يُخصب الدَّلالة ويُثريها، ولا يمنعُ الجمعَ بين الرَّأيينِ، فيكونُ خطابًا خاصًّا حالَ الخطابِ به، ويكون عامًّا في كلِّ حالٍ مشابهٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بجملةً فعلُها مضارعٌ في خبرِ (لعلَّ):

التَّفكُّرُ الدَّائمُ المتجدِّدُ، خيرُ عونٍ على الوصولِ إلى الرُّشْدِ

وقعَ خبرُ (لعلَّ) جملةً فعليَّةً فعلُها مضارعٌ، وهو: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للتَّأكيد على ما في ضرْبِ الأمثال وسوق القصصِ من الإعانةِ على تجدُّدِ التَّفكُّرِ وإعادة التَّفكيرِ؛ هديًا للرَّشادِ، وإعانةً على الإرشادِ، وزجرًا عن الغوايةِ والضَّلالِ، كما أنَّ الختمَ بالتَّفكُّرِ هو الأنسبُ، والأبرُّ بسياقِ ضرب الأمثالِ، وسوقِ القصصِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يَتَفَكَّرُونَ ويتَذَكَّرُونَ:

التَّفكُّرُ تَصرُّفُ القلبِ بالنَّظرِ في الدَّلائلِ، ومعاني الأشياءِ لِدَرْكِ المطلوبِ[1]، وهو سراجُ القلبِ يرى به خيرَهُ وشرَّهُ، ومنافعَهُ ومضارَّهُ،

(1) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 63، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 121.

الـتَّـذكُّـر ثـمرةُ التَّفكُّرِ، فإذَا فَكَّرَ القلبُ: تَبَصَّر، وإذا تبصَّرَ؛ تَذكَّر

وكلُّ قلبٍ لا تفكُّرَ فيه فهو في ظلماتٍ يتخبَّطُ(1)، وفي القرآنِ الكريم يأتي طلبُ التَّفكُّرِ إمَّا بضربِ مَثَلٍ حتَّى يتأمَّل الإنسانُ هذا المثلَ، وإمَّا يكون جوابًا عن سؤالٍ حتَّى يتفكَّرَ في الإجابةِ عنهُ، قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: 21]، أمَّا التَّذَكُّر؛ فهُوَ محاولةُ النَّفسِ استرجاعَ مَا زَالَ من المعلومات(2)، ويكونُ التَّذكُّر للاتِّعاظ، وأخذ العبرةِ، قال تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥١﴾ [القصص: 51]، والتَّفكُّر والتَّذكُّر أصلا الهُدى والفلاح، وهُما قُطْبا السَّعادة، إذ التَّفكُّرُ: طلبُ القلبِ ما ليس حاصلًا من العلم، والتَّذكُّر: استرجاعُ مازالَ عن القلبِ، والمتفكِّرُ ينتقلُ من المقدِّمات والمبادئ الَّتي عنده إلى المطلوبِ الَّذي يريدُه، فإذا ظفر به؛ تحصَّل له تَذَكُّرٌ به، وأبصر مواقعَ الفعلِ والتَّرك، وما ينبغي اجتنابُهُ، فحينها يكون التَّذكُّرُ؛ فالتَّذكُّر هو مقصودُ التَّفكُّرِ وثمرَتُه، فإذَا فَكَّرَ القلبُ؛ تَبَصَّر، وإذا تبصَّرَ؛ تَذكَّر(3).

(1) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 63.

(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 67.

(3) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 214/1.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ١٧٧﴾ [الأعراف: 177]

تـأكـيـدُ زجـرِ المكذِّبينَ وذمِّهم بعد ضربِ أشنعِ الأمثالِ لمن كانَ على شاكلتِهم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ظهرَ بالمثلِ السَّابقِ أنَّ مثلَ الكلبِ الَّذي اكتسبَ من ممثولِهِ من السُّوءِ والقذارةِ ما لا يعلمه حَقَّ عِلْمِهِ إلَّا اللّٰهُ تعالى مثل المكذِّبين بالآياتِ، أنتجَ ذلك قولهُ: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ تأكيدًا لذمِّهم وزجرِهم[1]، والمعنى: بئس مثلًا مثلُ القوم المكذِّبين بآياتِ اللّٰهِ ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾، أي: وما ظلموا بالتَّكذيبِ إلَّا أنفسهم، فإنَّ وبالَه لا يتعدَّاها، وسيعودُ عليهم بسوءِ الحالِ، وخيبةِ المآلِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَآءَ﴾: أي: قَبُحَ، والسُّوءُ نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديءٍ، ساء يَسُوءُ سوءًا، يقالُ: ساء الشَّيءُ: قَبُحَ، فهو سيِّىءٌ[2]، وأصلُ السُّوءِ: اسمٌ جامِعٌ للآفاتِ والدَّاءِ[3]، ثُمَّ استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ[4]، وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ[5]، والمعنى هنا، أي: بِئْسَ مَثَلًا مَثَلُ القومِ[6]، "وقال اللَّيثُ: يقالُ: ساءَ ما فعل صنيعًا يسوءُ، أي: قبح صنيعُهُ صنيعًا، قال: والسَّيِّئُ والسَّيِّئَة: عملانِ قبيحانِ، يصيرُ السَّيِّئُ نعتًا للذَّكرِ من الأعمالِ... قال: والسُّوءى بوزن فُعلى: اسمٌ للفعلةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 161/8.
(2) الخليل، العين: (باب اللّفيف من السّين سيء)، والزَّبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (سوي).
(4) ابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 73.
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 123، وابن فارس، مقاييس اللغة: 113/3، والرّاغب، المفردات: 441/1.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 226/5، والعليمي، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 62/3.

السَّيِّئةِ، بمنزلة الحُسنى للحسنةِ، محمولةً على جهة النَّعتِ في حدِّ أفعلَ وفُعلى، كالأسوَأِ والسُّوءى"[1].

2) ﴿مَثَلًا﴾: نَظيرًا وشَبَهًا في الوصف، يُقال: مَثَّلَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ: سوَّاه وشبَّهَهُ بِهِ وَجَعَلَهُ مِثْلَهُ، وَعَلَى مِثالِهِ وصفتِه[2]، وأصلُ (مثل) يدلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[3]، وهذا مِثْلُ هذا، أي: نَظيرُهُ، وَالمَثَلُ المَضروبُ مأخوذٌ من هذا، والمعنى هنا: قبحتْ صفةُ أولئكَ القومِ في الصِّفات، وساء مثلُهم في الأمثالِ حيثُ شُبِّهوا بالكلاب[4].

3) ﴿ٱلْقَوْمُ﴾: القَوْمُ عند جمعٍ من علماء العربيَّةِ: اسْمٌ يشمَلُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ[5]، وخصَّهُ آخرونَ بالرِّجَالِ؛ إذْ لفظُ (القَوْم) في الأصل: مَصْدَرٌ وُصِفَ به، ثم غلب على الرِّجالِ دونَ النِّساءِ؛ لكونهم قوَّامِينَ عليهِنَّ بالأمور الَّتي ليس لهنَّ أن يقُمْنَ بها[6]، ويُؤيِّدُ هذا أنَّ لفظَ (القوم) يُقابَلُ بلفظ (النِّساءِ)، كما في قولِه تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11]، وفي قول زُهيرٍ:

وَمَا أَدْرِي، وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي *** أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ؟

وإذا ذُكِرَ القومُ على جهةِ الانفرادِ؛ دخل النِّساءُ فِيهِ ليسَ بمقتضى الوضع، وإنَّما على سبيل التَّبَع، كما في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾ [البقرة: 54]؛ إذْ قَوْمُ كلِّ نبيٍّ: رجالٌ ونساءٌ[7]، وهو المرادُ هنا.

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

قَبُحَتْ حالُ هؤلاءِ الَّذين جَحَدوا بحُجَجِنا وبراهيننا، ولم يصدِّقوا بها، وهم

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (سوأ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مثل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 296/5.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 223/5، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 110/9.
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (قوم).
(6) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (قوم).
(7) الجوهري، الصّحاح: (قوم).

قُبْحُ حالِ المكذِّبين بآياتِ اللهِ، الظَّالمين لأنفسِهِم بجُحودِها والكفرِ بها

بذلك يظلمون أنفسَهم بإيرادِها مواردَ الهلاك[1]، و"يستمرُّون على ظلمِها باستمرارِهم على تكذيبِ آياتِ اللهِ الهاديةِ المرشدةِ، وانسلاخِهم عنها"[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الجملةِ الاستئنافيَّةِ:

بيانُ كمالِ قُبحِهِم بعد البيانِ السَّابقِ

قولُه: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾: أي: قَبُحتْ أشدَّ القُبْحِ صفةُ المُعرِضين عن النَّظرِ في آياتِ اللهِ أن شُبِّهوا بالكلابِ الَّتي لا همَّ لها إلَّا تحصيلُ أُكلةٍ أو شهوةٍ[3]، فهذه الجُملةُ تأكيدٌ للجُملةِ السَّابقةِ، وهي جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لأنَّها جُعِلَت إنشاءَ ذَمٍّ لهم، بأنْ كانوا في حالةٍ شَنيعةٍ، وظُلْمٍ لأنفُسِهم[4]. فلمَّا ظهرَ بالمثلِ السَّابقِ أنَّ مثلَ الكلبِ - الَّذي اكتسبَ من مَمْثُولِه من السُّوءِ والقذارةِ ما لا يعلمُهُ حقَّ علمِه إلَّا اللهُ تعالى - مَثَلُ المكذِّبين بالآياتِ؛ أنتجَ ذلك قولُه: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ تأكيدٌ لذَمِهم وزجرهم، فلو لم يكن عليهم دَرَكٌ في فعلِهم ألَّا يُنَزَّلَ هذا المثل عليهم؛ لكان أعظمَ زاجرٍ لمن لَهُ أدنى مروءةٍ[5]، فهو استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ حالِ هؤلاءِ القومِ البالغةِ في القُبحِ بعد البيانِ السَّابقِ[6]، وهي مع ذلك تعقيبٌ على تلك القصَّةِ، وربطٌ لرؤوسِ القومِ كلِّهم إلى هذا الكلبِ المربوطِ، فكلُّهم مكذِّبٌ بآياتِ اللهِ، وكُلُّهم هذا الرَّجلُ العنيدُ المكابرُ المشؤومُ[7].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الإنشاءِ غيرِ الطَّلبيِّ:

في قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ جُعِلت (سَاءَ) لإنشاءِ ذمٍّ لهم على

---

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 236، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3010/6.

(3) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 164/9.

(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 9/179 - 180.

(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 161/8.

(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 438/5.

(7) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 525/5، والقنّوجي، فتح البيان: 619/2.

سبيل المبالغة؛ لأنَّها تعني: (بئس) بأن كانوا في حالة شنيعةٍ، وظلموا أنفسَهم[1]، "و(ساء) تُستعملُ أحيانًا بمعنى التَّعجُّب، فيكونُ المعنى: (ما أسوأه مثلًا هذه الحال)، وتكون ﴿مَثَلًا﴾ تمييزًا، وهو يدلُّ على المتعجَّب منهُ، أي: إنَّ حالهم بلغت أقصى أحوالِ السُّوءِ في الضَّلالِ، ومجافاةِ الحقِّ، وجعلهم النُّور ظلامًا، والهدى ضلالةً"[2].

إنشاءُ الذَّمِّ على سبيلِ المُبالغةِ في سياقِ الآي

سِرُّ الحذفِ والتَّقديمِ في قوله: ﴿مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾:

بيانُ سوءِ فعلِهم الجالبِ إليهم هذا الوصفَ القبيحَ

التَّقديرُ في قوله: ﴿مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾: (ساء مثلًا مثلُ القومِ)؛ لأنَّ الذي بعد (بِئس) و(نِعم) إنَّما يتفسَّر من نوعهِ، كما تقولُ: بئس رجلًا زيدٌ، ولمّا انحذَف (مَثَلُ)؛ أقيمَ القومُ مَقامَهُ، والرَّفع في ذلك بالابتداءِ، والخبرُ فيما تَقَدَّم[3]، فـ﴿سَآءَ﴾ بمعنى (بئسَ) وفاعلها مُضمرٌ فيها، و﴿مَثَلًا﴾ مُمَيِّزٌ لذلك المضمرِ مُفَسِّرٌ له، وقد تقرَّرَ أنَّ المخصوص بالذَّمِّ لا يكون إلَّا من جنس التَّمييز، والتَّمييز مفسِّرٌ للفاعل، فهو هو، فيجبُ أن يصدقَ الفاعلُ والتَّمييزُ والمخصوصُ على شيءٍ واحد، والقوم هاهُنا غيرُ صادقٍ على التَّمييز والفاعل، فلذلك قُدِّرَ المضافُ المحذوف، وهو المخصوصُ، وجعل تقدير الكلامِ (سَاءَ مَثَلًا مَثَلُ القوم) حُذف المضاف، وأقيمَ المضافُ إليه مقامه[4]، وهذا السُّوءُ إنَّما يرجع إلى فعلِهم لا إلى نفس المَثَلِ، كأنَّه قال: ساءَ فِعْلُهُمُ الَّذي جلبَ إليهم الوصفَ القبيحَ، فأمَّا المثلُ؛ فهو من اللهِ حُكْمٌ وصواب[5]، فوجب أن يكونَ الموصوفُ بالسُّوء ما أفادَهُ المثل من تكذيبهم بآياتِ الله تعالى، وإعراضهم عنها، حتَّى صاروا في التَّمثيل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 179/9، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 133/4.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3010/6.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 478/2.
(4) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 334/4، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 497/3.
(5) إسماعيل حقّي، تفسير روح البيان: 279/3.

بذلك بمنزلةِ الكلبِ اللَّاهث[1]، وقبَّحَ عملهم الَّذي أضحى كالمثل في الغرابة[2].

فائدةُ ذكرِ لفظةِ ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ موصوفًا بالموصولِ:

الإيذانُ بأنَّ مدارَ السُّوءِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ وربطِهِ بما بعدَهُ

إعادةُ ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ موصوفًا بالموصولِ مع كفايةِ الضَّميرِ، بأنْ يُقال: (ساء مثلًا مَثَلُهُمْ) للإيذانِ بأنَّ مدارَ السُّوء ما في حيِّز الصِّلة، ولربطِ قولِه تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ به[3].

بلاغةُ عطفِ الصِّلةِ بالجمعِ بين التَّكذيبِ وظُلمِ النَّفسِ:

الجمعُ بين تكذيبِ الآياتِ وظلمِ النَّفسِ حمقٌ وهلاكٌ

قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ﴾ بمعنى: الَّذين جمعوا بين تكذيبِ الآيات، وظُلْمِهِمْ أنفسَهم، وهو "معطوفٌ على ﴿كَذَّبُواْ﴾ داخلٌ معه في حكم الصِّلةِ، بمعنى: أنَّهم جمعوا بين أمرين قبيحين: التَّكذيبِ وظلمِهم أنفسَهم، أو منقطعٌ عنه، بمعنى: وما ظلموا إلَّا أنفسَهم وحدَها، بارتكابِهم تلك الموبقاتِ والخطيئاتِ، فإنَّ العقوبةَ لا تقعُ إلَّا عليهم لا على غيرِهم"[4]، وهذا الجمعُ متحقِّقٌ بالعطف أوَّلًا؛ إذ التَّكذيبُ لا يُفارقُ الظُّلمَ؛ فغايةُ الأمرِ أنَّ في العطف تصريحًا بالجمعِ، وهو أدخلُ في الذَّمِّ والتَّشنيع[5].

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾، وتنوُّعِ المعطوفِ عليهِ:

حمْلُ الكلامِ على ما قبلَهُ عَطْفًا أو تذييلًا أو تأكيدًا لما سبقَ

قولُه: ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾: إمَّا أن يكون معطوفًا على ﴿كَذَّبُواْ﴾، فيدخلَ في حيِّزِ الصِّلَةِ بمعنى: الَّذين جمعوا بين التَّكذيبِ بآياتِ اللّهِ، وظلمِ أنفسِهم، باعتبارِ أنَّهم معروفونَ بمضمونِ هذه الجملةِ عند النَّبيِّ والمسلمين، وهو الظَّاهرُ الرَّاجح؛ إذ الأصلُ في الواوِ العطفُ، مع وجود الجامعِ الخياليِّ أو العقليِّ؛ إذ التَّكذيبُ علَّةٌ لظلمِهم أنفسَهم، وإمَّا أن

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 406/15.
(2) محمد محمود الحجازي، التفسير الواضح: 786/1.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 294/3.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 438/5.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 552/8.

يكونَ كلامًا مُنقطعًا بمعنى: (وَما ظلموا إلَّا أنفسَهم بالتَّكذيب)(1)، فيكون استئنافًا جاءَ إخبارًا عنهم بأنَّهم في تكذيبِهم، ما ظلموا إلَّا أنفسَهم(2)، ويجوز أن تكونَ معطوفةً على جملةِ: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾، فتكونَ تذييلًا للجملةِ الَّتي قبلَها، وتأكيدًا للجملة الَّتي قبلها(3).

بلاغةُ القصرِ بتقديمِ المفعولِ به: ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾:

بيانُ اختصاصِ ظلمِهم بِهم، وأنَّه لا يتعدَّى إلى غيرِهم

قوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: خاصَّة؛ وفيه تقديمُ المَفعولِ ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾ للاختصاصِ، كأنَّه قِيل: وخَصُّوا أنفُسَهم بالظُّلم، وما تَعدَّى أثرُ ذلك الظُّلم عنهم إلى غيرِهم، وفيه إزالةُ تبجُّحِهم بأنَّهم لم يتَّبعوا محمَّدًا ﷺ، ظنًّا منهم أنَّ ذلك يغيظهُ، ويغيظُ المسلمين، وإنَّما يضرُّون أنفسَهم(4)، فقدَّمَ المفعولَ على الفعلِ، لإفادةِ الحصرِ(5).

بلاغةُ الاحتراسِ في القصرِ السَّابقِ: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ﴾:

بيـانُ أنَّ حـالَ تكذيبهم أيضًا راجعٌ إليهم

في قولِه تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ أيضًا احتراسٌ؛ لأنَّه لَمَّا تكرَّر ذمُّهم في الآية بوصف التَّكذيب، وأنَّهم صدُّوا غيرهم؛ احترسَ من ذلك بأنَّ حالَ تكذيبِهم راجعٌ عليهم(6)؛ لأنَّ تكذيبَهم لم يضرَّ اللّهَ شيئًا، وإنَّما عرَّضهم لعقوبةِ اللّهِ في عذابٍ خالدٍ يوم الدَّين، وربَّما عرَّضهم لإهلاكٍ بعذابٍ في الحياة الدُّنيا، إذًا تكذيبهم بآياتِ اللّهِ لن يضيرَ أبدًا في أيِّ شيءٍ، والخيبةُ إنَّما تقعُ عليهم، وإن كان التَّكذيبُ في الآياتِ المعجزاتِ، فقد بقيَ ذكرُ المعجزاتِ إلى الآن، وهم الَّذين خابوا، وإن كانوا قد كذَّبوا بآياتِ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/42، وحسن نظام الأعرج، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/348.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/180.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/108.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/179، والرّازي، مفاتيح الغيب: 15/406، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/162، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/348.

(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/552.

(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/266.

المنهجِ، فهم أيضًا الَّذين خسروا، ولم يُصِب الآياتِ الإعجازيَّةَ أو القرآنيَّةَ أيُّ شيءٍ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في: ﴿كَانُواْ﴾:

بيانُ طَبعِهم القائمِ على التَّكذيبِ والجحودِ

﴿كَانُواْ﴾: أي: كان ذلك في طبعِهم جِبلَّةً لهم، لا يقدرُ غيرُ اللّهِ على تَغييرِه[2]، والقومُ المكذِّبُون بآياتِ اللّهِ، والظَّالمُون لأنفسِهم هنا، هم قريشٌ، وخاصَّةً أصحاب الكلمة فيها، كالوليدِ بن المغيرة، ومن على شاكلتِه منهم، ممَّن كانت له مكانةٌ أثيرةٌ، وحكمةٌ بصيرةٌ، يمكنه بها أن يهتديَ إلى الحقِّ، ولكنَّه غلبت عليه شقوتُهُ، فأبى النُّورَ، وسارَ في كلِّ ديجورٍ.. وفي نفس المهاوي والضَّلالات سارَ من كانَ على طريقِ هؤلاءِ القومِ المكذِّبين بآياتِ اللّهِ، والواقعُ أنَّ كينونةَ التَّكذيبِ، وملمحيَّةَ الظُّلم المنجرِّ عنه، لم تكن بدعًا من الحال، ولكنَّها كانت طبعًا مركوزًا في أنفسِهم، لا ينفكُّ عنهم بالكليَّةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

بيانُ استمرارِهم في الظُّلم باستمرارِ التَّكذيبِ

قوله: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾، أي: يَستمرُّون على ظلمِها، باستمرارِهم على تكذيبِ آياتِ اللّهِ الهاديةِ المرشدة، وانسلاخِهم عنها[3]، فقولُه: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ أقْوَى في إفادةِ وَصْفِهم بالظُّلم، مِن أن يُقالَ: وظَلموا أنفسَهم[4]، وفي ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ لمحٌ إلى أنَّ تكذيبَهُم بالآياتِ مُتَضمِّنٌ للظُّلم، وأنَّ ذلك أيضًا مُعتبرٌ في القصرِ السَّابق[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ساء) و(بئس):

(بئس): الفعلُ يدلُّ على المعنى اللُّغويِّ، ويزادُ على المعنى الخاصِّ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 7/446.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/162، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/615.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3010.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/180.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/294.

السِّياقُ هنا دالٌّ على الـذَّمِّ، ممَّا اقتضى اصطفاءَ لفظ (ساء) على (بئس)

للفعلِ معنى الذَّمِّ، وإفادة معنى التَّعجُّب في حال الذَّمِّ، أمَّا مايجري مجرى بئس، فليس كمثلِهِ، فلا تعميمَ ولاشمولَ ولاخلوَّ من التَّعجُّب في الأفعالِ الجاريةِ مجرى بئس، وهذا هو الفرقُ بين ما كانَ أصلًا، وما كان فرعًا عن الأصلِ، أو محمولًا على الأصلِ، فمقامُ استخدام (ساءَ) غيرُ مقامِ استخدامِ بئسَ، وقد ذكرَ بعضُ أهلِ العلم أنَّ دلالةَ الذَّمِّ في (ساء)، إنَّما جاءت من معنى الفعلِ اللُّغويِّ، وحقيقةُ الأمرِ أنَّ السِّياقَ أصلٌ في تحديد دلالةِ الأفعال المحوَّلة؛ وأسلوبُ المدحِ والذَّمِّ، وإن كانت صورتُهما صورةَ الفعلِ الماضي، إلَّا أنَّهما خاليان من الزَّمنِ، وإنَّما معناهما الإفصاح عن تأثُّرٍ وانفعالٍ دعا إلى المدحِ والذَّمِّ، والسِّياق المتحدِّر هنا دالٌّ على الذَّمِّ؛ ممَّا اقتضى اصطفاء (ساء) على (بئس)[1].

(1) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 385/3، 384، وإبراهيم السّامرائيّ، من أساليب القرآن، ص: 97، وتمّام حسّان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 115، وإبراهيم الهدهد، أسلوب المدح والذّم في الذكر الحكيم، ص: 20/23 بتصرف.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ أنَّ الهداية من الرَّحمن بعدَ ذكرِ المكذِّبين وضربِ الأمثالِ لهم

لَمَّا وصفَ اللهُ تعالى الضَّالِّينَ بالوَصفِ المذكورِ فيما تقدَّمَ مِن الآياتِ، وعرَّفَ حالَهم بالمَثَلِ المذكورِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ الهدايةَ مِن اللهِ تعالى وأنَّ الإضلالَ من اللهِ تعالى[1]، فقال: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهۡدِ﴾: الْهَاءُ والدَّالُ والحرفُ المعتلُّ، تدلُّ كثيرٌ من تصريفاتِها على معنَى التَّقدُّمِ للإرشادِ، ومِنْهُ قولُهم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ، أي: تقدَّمْتُهُ لأُرْشِدَهُ، ومِنْهُ الهُدَى: ضدُّ الضَّلالَةِ[2].

2) ﴿يُضۡلِلۡ﴾: الضَّادُ واللَّامُ: تَدلُّ تصاريفُهُما على ضَياعِ الشَّيْءِ وذهابِه في غيرِ حقِّهِ[3]، ومِنْهُ يُقالُ: لِمَنْ جَارَ عَنِ القَصْدِ: ضالٌّ[4]؛ لضياعِ سَعْيِهِ، ويرى بعضُ أئمَّةِ العربيَّةِ أنَّ أصلَ الضَّلالِ: الغَيْبُوبَةُ[5]، وَالضَّلَالُ: ضدُّ الهُدَى، يُقالُ: ضَلَّ في الْأَرْضِ؛ إِذَا لَمْ يَهْتَدِ لِلسَّبِيلِ[6]، ومِنْهُ قولُ اللهِ تعالى حِكايَةً عَنِ الكُفَّارِ أَنَّهُم قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السَّجدة: 10]، أي: اخْتَفَيْنَا في الأرضِ بالدَّفْنِ، وصِرْنَا ترابًا وعظامًا، فلَمْ يَتَبيَّنْ شيءٌ من خَلْقِنَا[7].

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 407/15.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلّ).
(4) ابن فارس، مجمل اللّغة: (ضلّ).
(5) الخطابيّ، غريب الحديث: 484/1.
(6) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضلّ).

3) ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: أي: الهالكونَ والمغبونونَ؛ والخاء والسِّين والرَّاء أصلٌ يدلُّ على النَّقص[1]، والخُسرُ والخُسرانُ: انتقاصُ رأسِ المالِ، ويستعمَلُ في نُقصان العقل والإيمان، والثَّواب، وأصلُ (خسر) يدلُّ على النَّقصِ[2]، وجعلَه ابنُ دُرَيْدٍ وغيرُهُ دالًّا على الضَّلالِ، ثُمَّ استُعْمِلَ في غيرِه، كَخُسْرَانِ التَّاجرِ[3]، ويُطْلَقُ الخُسرانُ على الْهَلَاكِ[4]؛ لأنَّ في الهلاكِ نَقْصًا مَا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

من يُوفِّقْهُ اللَّهُ لسلوكِ سبيلِ الحقِّ، فهو المهتدي حقًّا، الفائزُ بسعادةِ الدَّارين، ومن يُبْعِدْهُ عن الصِّراطِ المستقيم، فأولئكَ هم المنقوصون أنفسَهم حُظوظَها حقًّا، الَّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامةِ[5].

الهدايةُ من اللهِ تعالى؛ فمن شاء هداهُ فأفلحَ، ومن شاءَ أضلَّهُ فخابَ وخسرَ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الجملةِ الاستئنافيَّةِ ودلالته:

تذييلٌ وتأكيدٌ لما تضمَّنَتْهُ القصَّةُ السَّابقةُ

قولُه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾: تذييلٌ للقصَّةِ والمَثَلِ وما أُعقِبا به من وَصْفِ حالِ المُشركين، فإنَّ هذه الجُملةَ تُحصِّلُ ذلك كُلَّه، وتجري مجرى المَثَلِ، وذلك أعلى أنواعِ التَّذييلِ[6]، والآيةُ من فذلكة ما مضى[7]، فهي تذييلٌ، وتأكيدٌ لما تضمَّنَتْهُ القصَّةُ السَّابقة[8]، فلمَّا كان ما سبق محلَّ عجبٍ ممَّن يميل عن المنهجِ بعد

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خسر).

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 30، وابن فارس، مقاييس اللغة: 182/2، والرَّاغب، المفردات، ص: 281 - 282، وابن الهائم، التبيان، ص: 73.

(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، وابن سِيدَه، المحكم والمحيط الأعظم: (خسر).

(4) الجوهريّ، الصحاح: (خسر).

(5) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 236، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(6) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 180/9.

(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 162/8.

(8) الآلوسيّ، روح المعاني: 110/5.

إيضاحِه هذا الإيضاحَ الشَّافي، قال جوابًا لمن كأنَّه قال: فما لهم لا يؤمنون؟ مُفصِّلًا لقوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 176]: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ ﴿مَن﴾:

بيانُ كونِ الهدايةِ إرشادًا من الله تعالى وحدَهُ، وهو الموفِّقُ من شاء لها

الختمُ بأسلوبِ التَّعليق كاشفٌ عن عدم هدايتهم، إذ عدمُ هدايتهم في علمِ اللّه مستحيلةٌ، لما جُبِلت عليه طينتُهم من الضَّلال وحبِّه؛ وفي أسلوبِ التَّعليق بشارةٌ للمؤمنين، وإخبارٌ لهم بأنَّ هدايتهم سبقت عندَ اللّهِ، وقد جاء التَّذييلُ للقصَّةِ بأسلوب التَّعليقِ ليسيرَ مسيرَ الأمثال، و(مَنْ) اسم شرط، أي: (الذَّي يهديه اللّهُ تعالى فهو المهتدي وحدَه)، وليس معنى ذلك أنَّه ليس مُختارًا في سلوكِ طريق الهداية، فإنَّ اللّه عَدْلٌ، لا يظلم أحدًا، إنَّما يكون بين يديهِ طريقُ الرُّشد، وطريق الغيِّ، فيختار طريقَ الغيِّ، فيصلُ إلى نتيجَتِه[2]، وهدايةُ اللّهِ لعبادِه قسمان: فالهدايةُ العامَّة: هي مجرَّدُ الإلهام والإعلام بطريقِ الحقِّ، والخاصَّة: هي الإعلامُ بها، والحملُ على سُلوكِها بالفعل، كما يقولُ الشَّخص: هذه طريقُ الحقِّ، وهذه طريقُ الباطلِ، وتارةً يقول له: هذه طريقُ الحقِّ فاسلُكْها؛ وتجعلهُ سالكًا فيها بالفعل، فالعموميَّةُ هي قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: 3]، والأخصيَّةُ: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾ [النُّور: 46][3].

بديعُ الجناسِ الاشتقاقيِّ بين ﴿مَن يَهۡدِ﴾ و﴿ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾:

التَّنويهُ بشأنِ الهدايةِ والمُهْتَدِينَ

قال تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ فيه جناسُ اشتقاقٍ في لفظةِ الاهتداء، بين الفعليَّةِ والاسميَّة، وفي هذا الجناسِ البديع

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/162.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3010.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/266.

تنويهٌ بشأنِ المُهتَدينَ[1]، فحالُ المهتدين صورةٌ لفظًا ومعنًى لما ثبت عند اللّه بشأنهم في اللَّوح المحفوظِ.

بلاغةُ إسنادِ الفعلِ إلى اسمِ الجلالةِ (اللّه):

كونُ الهدايةِ منه ﷻ، وأنَّها لا تُطلب إلَّا منهُ

نلمحُ في نسبةِ الهدايةِ إلى اللّهِ - لكونها منه ابتداءً - إرشادًا وتوفيقًا[2]، وفيها تلقينٌ للمُسلمينَ؛ للتَّوجُّهِ إلى اللّهِ تعالى بطَلَبِ الهِدايةِ منه، والعِصمةِ مِن مَزالِقِ الضَّلالِ[3]، وفيها أيضًا تشنيعٌ على القوم الضَّالين، وكبتٌ لهم، بطردهم من هذا المقامِ الكريم، وأنَّهم ليسوا أهلًا لأنْ يهديَهم اللّهُ، بل هم أهلٌ لهذا الضَّلالِ الَّذي أغرقَهم اللّهُ فيه[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ:

تعظيمُ شأنِ الاهتداءِ، وتَنبيهٌ على أنَّه في نفسِه كمالٌ جسيمٌ

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾، اقتصارٌ في الإخبارِ عَمَّن هَدى اللّهُ بالمهتدي، وفيه تعظيمٌ لشَأنِ الاهتداءِ، وتَنبيهٌ على أنَّه في نفسِه كمالٌ جَسيمٌ، ونَفعٌ عَظيمٌ، لو لم يحصُلْ له غيرُه لَكَفاه، وأنَّه المُستلزِمُ للفوزِ بالنِّعَمِ الآجِلةِ، والعنوان له[5]، والقَصرُ المُستفادُ مِن تعريفِ جُزأيِ الجُملةِ ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ قَصرٌ حقيقيٌّ باعتبارِ الكَمالِ، واستمرارِ الاهتداءِ إلى وفاةِ صاحِبِه[6]، وفي القصرِ قوَّةٌ في الدَّلالةِ على كمالِ الهداية.

دلالةُ العطفِ بحرفِ (الواو) في قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾:

عطفُ جملةٍ على جملةٍ، تتميمٌ لمعنى الأولى

قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ عطفٌ على الجملةِ السَّابقة[7]، أي: ومن يخذلْهُ، ويحرِمْهُ التَّوفيقَ، فيتبع شيطانَهُ وهواه، ويترك استعمالَ

(1) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنّقل: 9/30، وابن عاشور، التحرير والتّنوير: 9/180.
(2) البرَّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 79.
(3) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنّقل: 9/30، وابن عاشور، التحرير والتّنوير: 9/180.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/525.
(5) الشّربيني، السّراج المنير: 1/537، وابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/415.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/182.
(7) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/499.

عقلِه وحواسِّهِ في فقهِ آياتهِ، وشكر ما أنعمَ به عليهِ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، أي: فهو الكفورُ الضَّالُّ الَّذي خسِرَ سعادةَ الدُّنيا، وسعادةَ الآخرة؛ إذ هو قد خسر تلك المواهبَ الَّتي كان بها إنسانًا مُستَعِدًّا للسَّعادتين الدُّنيويَّة والأخرويَّة، أي: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفونَ بالضَّلالة ﴿هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[1]، فمن شاءَ له الضَّلالَ زادَهُ ضلالًا، وقد بيَّن أنَّ من شاء هدايتَهُ يهتدي، وهذه معونةٌ من اللّهِ، والكافرُ لا يهتدي، وكذلك الظَّالم والفاسق؛ لأنَّه سبحانه قد تركَ كلَّ واحدٍ منهم لاختيارهِ، وهكذا يمنعُ ﷻ عنهم هدايةَ المعونةِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعدِ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

الإشـارةُ إلى قُـربِ المهتدين وربحهم، وبيانُ بُـعْـدِ الضَّالين عن الفوزِ

قولهُ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: البُعَداء البُغَضاء[3]، فجيءَ باسم الإشارة، لبيانِ بُعدهم عن الفوز، ووقوعهم في الخسران، ولما كان المهتدي قريبًا إلى اللّهِ، مستحقًّا للفوز والنَّجاحِ، أتى النَّظمُ الكريمُ بالضَّميرِ الدَّالِّ على القُربِ، وفي الثَّاني باسم الإشارة[4].

ورودُ ضميرِ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ ودلالتُهُ على التَّأكيد:

تأكيدُ الخسارةِ وتأكيدُ قصرِها عليهِم

﴿هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ تفيدُ تأكيدَ الخسارةِ وتأكيدَ قصرِها عليهم، وذلك لضميرِ الفصلِ (هم)، وخسارتهم في أنَّهم خسروا نعيمَ الآخرةِ، وخسروا بضلالهِم وفقدهِم التَّمييز بين الحقِّ والباطلِ، والضَّلالِ والهدايةِ، وخسارتِهم بترْكِهم نعمةَ اللّهِ تعالى في آياته[5].

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ بطريقِ تعريفِ الطَّرفين:

تأكيدُ زيادةِ الاهتمامِ بتمييزِهم بعنوانِ الخسرانِ

كما سبقَ القولُ في قوله: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾، فالقَولُ في ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ كذلك تفيدُ تأكيدَ الخسارةِ وقصرِها عليهم[6]،

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 238/10.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4469/7.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 162/8.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 266/2.
(5) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3010/6.
(6) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3010/6.

أي: فأولئك هم الكاملونَ في الخسرانِ لا غير[1]، وزِيدَ في جانِبِ الخاسرينَ هنا الفَصلُ باسم الإشارةِ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ لزيادة الاهتمامِ بتَمييزِهم بعنوانِ الخُسرانِ تحذيرًا منه، فالقَصرُ فيه مؤكَّدٌ[2].

بلاغةُ مجيءِ الآيةِ بأسلوبِ الطِّباق ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾:

تصويرُ فضلِ الهدايةِ وفضيلةِ المهتدي، وإيحاشِ الضَّلالةِ وخسرانِ صاحبِها

جيءَ بهذا الطِّباقِ العجيبِ بين ذكر لفظتَي الهداية والضَّلال لتصويرِ فضلِ الأولى ﴿يَهْدِ﴾، ورفعةِ مكانتها، وفضيلةِ تحصيلِها وربح صاحبها، وتشنيعِ الثَّانية ﴿يُضْلِلْ﴾، وبيانِ خِسَّةِ وخسارة صاحبها المتلبِّسِ بها.

بلاغةُ حذفِ التَّقابلِ في المغايرةِ بين فعلِ الشَّرطِ وجوابِه:

الإشارةُ إلى ربحِ المهتدي بطريقِ الإيجازِ

قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، تُلمَحُ فيه بلاغةُ حذفِ التَّقابلِ في المغايرةِ بين فعل الشَّرطِ، وجوابه، وقد كان مقتضى الظَّاهرِ: (ومن يضلل؛ فهو الضَّالُّ)، عبَّر في الأولى بالمَلزوم: وهي الهدايةُ، وفي الثَّاني باللَّازم: وهو الخسرانُ، ففيه حذفُ التَّقابل، أي: مَنْ يَهْدِ اللّهُ؛ فهو المهتدي الرَّابحُ، ومن يضلل؛ فهو الضَّالُّ الخاسر[3]، فعُلِمَ من مُقابلةِ الهدايةِ بالإضلالِ ومُقابلةِ المهتدي بالخاسِرِ: أنَّ المُهتديَ فائزٌ رابحٌ، فحُذِفَ ذِكرُ رِبحِه إيجازًا[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾:

تصويرُ الضَّالِّ بمن خسرَ الخُسرانَ المبينَ، وهو يظنُّ نفسَه رابحًا

سبقَ بيانُ أنَّ قولَهُ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ قصرُ قلبٍ؛ لأنَّهم ظَنُّوا أنفسَهم رابحينَ، فيكونُ الخسرانُ هُنا تخييلًا يُرادُ منه الاستعارةُ في ذاتِه استعارةً مكنيَّةً تمثيليَّةً؛ حيثُ شبَّهَ هذا الضَّالَّ بالتَّاجرِ الَّذي يعقدُ الصَّفقةَ، فيخسرُها، وذكرَ صفةً من صفاته، وهو الخسرانُ، فاستُعيرَ الخسرانُ لتحصيلِ ضدِّ المقصودِ من العمل، كما يُستعارُ الرِّبحُ لحصولِ الخيرِ[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/294.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/182.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/266.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/182.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/181.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجمعِ مُقابلِ المفردِ ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ و﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾:

تكريمُ كلِّ فردٍ من أفرادِ المهتدينَ، ونبذُ جماعةِ الضَّالِّين وطرقِهم المتشعِّبة

جاء الإفرادُ في الأوَّلِ ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾، والجَمعُ في الثَّاني: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ باعتبارِ اللَّفظِ والمعنى لـ﴿مَن﴾، فـ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ حملٌ على اللَّفظ، تنبيهًا على أنَّ المُهتَدينَ كواحد، لاتِّحادِ طَريقتِهم، بخلافِ الضَّالِّينَ[1]، فقوله سبحانه: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، حمل على المعنى، وكلمة ﴿مَن﴾ هذه تطلقُ على الواحدِ، فأكثر، وقد يُراعى لفظُهُ المفرد، فيعادُ الضَّمير عليه بالإفراد، كما في الجملة الأولى، وقد يُراعى معناه الدَّالُّ على الجمع، فيعاد الضَّميرُ عليه بالجمع، كما في الجملةِ الثَّانية، والتَّنويعُ في الجملتين تفنُّنٌ في البيان، فلمَّا كان أكثرُ الخلق هالكًا بالفسقِ، ونقض العهد؛ وحَّدَ ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ نظرًا إلى لفظ ﴿مَن﴾، وجمعَ الضَّالَّ نظرًا إلى معناها، فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[2]، ويُفهم من الإفرادِ في الجملةِ الأولى تكريمُ كلِّ فردٍ من أفرادِ المهتدين بأنَّهُ يحمل من ربِّهِ شهادة ﴿ٱلْمُهْتَدِى﴾ بعد فصلِ القضاءِ يوم الدِّين، أمَّا الضَّالُّون؛ فإنَّهم يُجمعونَ معًا في زُمَرٍ ذواتِ راياتٍ مهيناتٍ، أو علاماتٍ يُعرفونَ بها أنَّهم الخاسرونَ المنبوذونَ.

حسنُ التَّذييلِ والختامِ بذكرِ خسرانِ الضَّالِّينَ:

في وعظِ من تركَ الآخرةَ بإقبالِهِ على منافعِ الدُّنيا

وما أحسنَ ختمَها بالخسرانِ! في وعظِ من تركَ الآخرةَ بإقبالهِ على أرباحِ الدُّنيا وأعراضها الفانية، ثمَّ تعقيبها بذرْءِ جهنَّمَ الَّذين لا أخسرَ منهم[3]، فمنِ استندَ على هدايةِ اللّهِ ومعونته، وأقبلَ اللّهُ عليه، فهداهُ؛ نالَ الحفظَ والحمايةَ والعطاءَ في الدُّنيا والآخرةِ، لكن إذا انصرفتْ عن العبدِ حمايةُ اللّهِ ورعايته؛ "فعلى العبدِ أن يواجهَ حركةَ الحياةِ وحدَهُ، بدونِ مددٍ من خالقه؛ ويعيشُ وحالتُهُ كربٌ،

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 537/1.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 162/8.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 162/8.

سواءٌ كان في يسرٍ ماديٍّ أو في عسرٍ، هذا إن اعتبرَ أنَّ الدُّنيا هي كلُّ شيءٍ، فإذا أضيفَ إلى ذلك غفلتُهُ عن أنَّ الدُّنيا معبرٌ للآخرة، فالخسارةُ تكون كبيرةً حقًّا"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يُضلل) و(يُغوي):

المعنى المحوريُّ لـ(ضلّ): غيابُ الشَّيءِ في أثناء شيءٍ، حتَّى لايتميَّزَ هذا من ذاك، ويأتي بمعنى: تنسى، كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: 282]، وبمعنى: لايفوته شيءٌ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ [طه: 52]، وبمعنى: خَفينا وغِبْنا ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: 10][2]، واستُخدمَ هنا في مقابلِ الهُدى، أمَّا المعنى المحوريُّ لـ(غوى)؛ فهو الانجذابُ إلى الشَّيءِ مع تغشٍّ وفسادٍ، كالجراد الَّذي يغشى الأرضَ بكثافةٍ ليأكلَ زرعَها؛ والغيُّ ضدُّ الرُّشدِ، لذا لم يكنْ ذكرهُ مناسبًا للسِّياق[3].

الضَّلالُ الانحرافُ عن الحقِّ والهُدى، والغوايةُ الانزلاقُ عن الرُّشدِ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 162/8.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 78/2.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 235/2.

﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾

[الأعراف: 179]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين المنسلخِ وغواةِ الجنِّ والإنسِ، لبيانِ أنّ مآلَهم الخُسرانُ والنّارُ

لمّا أجملَ سبحانه في الآيةِ السّالفةِ بما يُعدُّ تذييلًا خُتمتْ به قصةُ الذي انتقلَ من صُورةِ الهُدى إلى الضَّلالِ[1]؛ بقولِه تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 178] وأنّه هو الهادِي وهو المُضلُّ، أعقبَه بذكرِ المُستحِقّين للخُسرانِ والنّارِ[2]، مُقرِّرًا بذلك مضمونَ الآيةِ، ومُبيِّنًا أنّهُ ذرأَ لجهنَّمَ كثيرًا منَ الثّقلَيْن: الجنِّ والإنسِ؛ لأنَّهم أفسدُوا فِطرتَهم بإهمالِ مواهبِهم منَ العقلِ والحواسِّ، وأصرُّوا على الكفرِ في علمِه سبحانه وتعالى[3]، فكأنّهُ جاءَ بما يُعدُّ استكمالًا للحديثِ عنِ المَثَلِ المنحرفِ عنِ الميثاقِ الكونيِّ بالتّوحيدِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَرَأۡنَا﴾: ذَرَأَ: الذّالُ والرّاءُ والهمزةُ أصلانِ؛ أحدُهما: لونٌ إلى البياضِ، والآخرُ كالشّيءِ يُبذرُ ويُزرعُ، ومن هذا الأصلِ: ذرأَ اللّه الخلقَ: خلَقَهم، أي: أنْشأَهم ونشَرَهم في الأرضِ بتَناسُلِهم. يقالُ: ذرأَ اللّه الخلْقَ، أي: أوجدَ أشخاصَهم، وذرأَ الشّيءَ: كثَّره، قيل: ومنه الذُّرِّيّةُ، وهو اسمٌ لنَسْلِ الثّقلَيْن، فالذَّرءُ في أصلِ اللّغةِ: بثُّ

(1) وهو أمية بن أبي الصَّلْت، يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 13/255.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/227.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/295، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/110.

الأشياءِ ونشرُها وبَذرُها وتفريقُها وتكثيرُها[1]، والذَّرْءُ: إظهارُ اللّه تعالى ما أبداه. ومعنى ذرأهم في الآيةِ مُوافقٌ لهذا المعنَى اللُّغويِّ[2].

2) ﴿قُلُوبٌ﴾: جمع قَلْبٍ، والقَافُ واللّام والباء أصلانِ صحيحانِ: أحدُهما يَدُلُّ على خالِصِ شيءٍ وشَرِيفِهِ، والآخرُ على رَدِّ شَيءٍ من جِهةٍ إلى جِهةٍ؛ فالمعنى المحوريُّ له هو باطنُ الشّيءِ ولُبُّه، ومن ذلك: القلبُ المُضغةُ المعروفةُ؛ لأنّها أهمُّ ما في الباطنِ وأقواهُ، وقلبُ الإنسان سُمّيَ به لكثرةِ تقلُّبِه، وهذا الأصلُ يسمحُ بإطلاقِها على القُوّةِ الباطنةِ، وهي العقلُ[3].

وأكثرُ ما في القرآن الكريم من كلمةِ (قلب) وجمْعِها يتعلَّق الكلامُ فيها بما أسنَدهُ القرآنُ إلى القلبِ من وظائفِ الفقْهِ والتّدبُّرِ والإيمانِ وضِدِّهِ وما إلى ذلك، وقد يُستعمَلُ في المعنيَيْنِ معًا، أي: بمعنى العقلِ وبمعنى الوِجدانِ الرُّوحيِّ الذي يُسمُّونه أحيانًا بـ(الضّمير)، وهو محلُّ الحُكم في أنواعِ المُدرَكات والشّعورِ الوِجدانيِّ، ومنه هذه الآيةُ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ فإنَّ فقهَ القلوبِ هنا لا يحصلُ إلَّا بنَوْعٍ منَ الإدراك يصحبُه وِجدانٌ يبعثُ على العمل[4].

3) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: الفقهُ: العلمُ بالشّيءِ والفهمُ له، والفِطنةُ، وفسَّره الراغب: بالتّوصُّلِ إلى علمِ غائبٍ بعلْمٍ شاهدٍ؛ والفقهُ بالشّيء: هو معرفةُ الوُصولِ إلى أعماقِه، فمَن لا يعرفُ منَ الأمورِ إلا ظواهرَها لا يُسمَّى فقيهًا، فهو أخصُّ من مُطلَقِ العلمِ، ثمّ اختصَّ بذلك علْمُ الشّريعةِ؛ فقيلَ لكلِّ عالمٍ بالحلالِ والحرامِ: فقيهٌ[5].

وقدِ استعملَهُ القرآنُ في مواضعَ كثيرةٍ بمعنى دِقّةِ الفهمِ والتّعمُّقِ في العلْمِ ليترتّبَ عليه أثرُهُ، وهو الانتفاعُ به؛ وهذا المعنَى هو المرادُ هنا[6].

4) ﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾: الغين والفاء واللّام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تركِ الشّيءِ سَهْوًا، وربَّما

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: (ذرأ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذرأ).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/513، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/182.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قلب).

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/419، والزحيلي، التفسير المنير: 9/166.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فقه).

(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/420، والمراغي، تفسير المراغي: 9/112.

كان عن عمْدٍ؛ غفلَتُ عنِ الشّيءِ غَفْلَةً وغُفولًا وذلك إذا تركتَهُ سَاهيًا، وأغفلتُه إذا تركتَهُ على ذكْرٍ منكَ لهُ، والغفلةُ: سهوٌ يعترِي الإنسانَ من قلّةِ التّحفُّظِ والتيقُّظ. والغفلةُ عنِ الشّيءِ: انصرافُ الذّهنِ عن ملاحظتهِ، وعن إدراكهِ ومُراقبتهِ، مع وجودِه أو وجودِ أدلّتهِ في مجالِ الإدراكِ المُستطاعِ للمخلوقِ[1].

ومعنَى الغفلةِ هنا: سَهْوُهم عن آياتِ اللّه وحُجَجِه، وتركُهم تدبُّرَها والاعتبارَ بها والاستدلالَ على ما دلّتْ عليه من توحيدِ ربّها[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

النّارُ مَصيرُ كلِّ من كفَرَ باللهِ وأعْرضَ عن آياتِه ولم يتدبَّرْها

يُقسمُ اللّه أنّه تعالى بقُدْرتهِ وعظَمتهِ قد خلقَ خلْقًا كثيرًا منَ الجنِّ والإنسِ، حقّتْ عليهم الكلمةُ الأزليّةُ بالشّقاوةِ منهُ سبحانهُ لا بطريقِ الجبْرِ، بل لعلْمِه سُبحانه بأنّهم لا يَصرفون اخْتيارَهم نحوَ الحقِّ أبدًا، بل يُصرُّون على الباطلِ؛ لم ينتفعُوا بمداركِهم، وعاشُوا كالأنعامِ التي لا تَفْقَهُ ما يقالُ لها، ولا تفهمُ ما تُبصرُه، ولا تعقلُ بقلوبِها الخيرَ والشّرَّ فتُميِّزُ بينهما، بل كانوا أضلَّ؛ لأنّ البهائمَ تُبصرُ منافعَها ومضارّها وتتْبَعُ راعِيها، وهم بخلاف ذلك رُغْمَ أنَّ دلائلَ الإيمانِ والهُدى حاضرةٌ في الوجودِ وفي الرِّسالاتِ، تُدركُها القلوبُ المفتوحةُ والبصائرُ المكشوفةُ، وهم لم يفتحُوا أعينَهم ليُبصِرُوا آياتِ اللّهِ الكونيّةَ، ولم يفتحوا آذانَهم ليسمعُوا آياتِ اللّهِ المتلُوَّةَ، حتى استحقُّوا قصْرَ الغَفلةِ عليهم، فكانوا بذلك ذرءَ جهنّمَ المستعرةِ الهاويةِ التي لا يُدرَكُ قعرُها، ترصدُهم وتحيطُ بهم، وتكونُ لهم بئسَ المِهادِ[3].

وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ المقصودَ ليس نفْيَ السّمعِ والبصَرِ عنهم

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غفل).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 281/13.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 111/5، وحجازي، التفسير الواضح: 787/1، وطنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 441/5.

جُملةً، وإنّما المعنَى نفْيُها عمَّا ينفعُ في الدِّين، وأنَّ بعضَ بنِي آدم أضلُّ منَ الأنعام؛ لأنّهم لا يَهتدون إلى ثوابٍ؛ فهِمَّتُهم أرذلُ منَ الأنعامِ، لكوْنِهم قصَروها على التّمتُّعِ والأكلِ والشُّربِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا﴾:

تحتملُ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا﴾ وجهَيْن:

أحدُهما: أن تكونَ عاطفةً[1]، والمعطوفُ عليه هو قولُه تعالى قبلُ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178]؛ ليتساوقَ كلامُ اللّه تعالى في وصْفِهم ووصْفِ مآلِهم[2]، والآخرُ: أن تكونَ الواوُ استئنافيةً؛ فلا يكونُ للجُملة ارتباطٌ بجُملةٍ بعيْنِها ممّا تقدّمَ، ولكنّها ناشئةٌ عن جميعِ الكلامِ السّابقِ؛ وذلك أنّ اللّه لما ذكرَ في الآياتِ السّابقةِ قِصّةَ الذي انتقلَ من صُورةِ الهُدى إلى الضَّلالِ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 177]؛ وذيّلَها بقولِه: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178] أعقب ذلك ببيانِ عاقبةِ المُصرِّين على الكُفرِ من الجِنِّ والإنسِ، قال الآلوسيّ: "كلامٌ مُستأنفٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَه بطريقِ التّذييل"[3].

الـهـادِي هـو الـلـه تـعـالى، والـتّـعـقـيـبُ بالمُصرِّين على الكُفرِ، تأكيدٌ لما مضَى

بَلاغةُ استِخدامِ الإنشاءِ غيرِ الطّلَبيِّ، في القسَمِ المسُوقِ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ﴾، أفادَ القَسَمُ في الآيةِ تحقيقَ المخبَرِ عنه؛ لأنَّ غرابتَه تُنزِّلُ سامعَه خاليَ الذِّهن منه مَنزلةَ المتردِّدِ في تأويلِه، ولأنَّ الّذين نزلتْ في ذمِّهم الآيةُ - وهمُ المشركون - كانوا يَحسَبون أنّهم يُحسِنون صُنعًا، وأنّهم أصحابُ أحلامٍ وأفهامٍ[4]؛ لأنّه

غيرُ المُهتدِي أَضلُّ منَ البهائمِ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآي والسور: 8/172.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/499.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/110.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/182.

لا يكادُ يُصدَّقُ أنَّ الإنسانَ يكونُ أضلَّ منَ البهائمِ[1]، فجاء القسَمُ ليُزيلَ أدنَى شكٍّ في الخبرِ الوارِدِ، ويُقرِّرُ أنّه حقٌّ.

وَجهُ اخْتِيار فعْلِ ﴿ذَرَأۡنَا﴾ دون غيره:

هؤلاءِ الأشخاصُ عَلِمَ اللهُ منهم أزَلًا اختيارَهم الكُفرَ

يأتي الفعْلُ ﴿ذَرَأۡنَا﴾ في الآيةِ الكريمةِ بمعنى (خلَقْنا)، ولكنّه يحملُ دلالاتٍ أعمقَ وأغنَى؛ إذِ الذَّرءُ في أصلِ اللّغةِ يعني إظهارَ اللهِ تعالى ما أبدَاه، يقال: ذرأ اللهُ الخلقَ، أي: أوجدَ أشْخاصَهم[2]، فعندما يُعبِّرُ الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾؛ فإنَّ هذا يُشيرُ إلى أنَّ حقيقةَ هؤلاء الأشخاصِ قد خُلقُوا بطبيعتِهم التي تجعلُهم مُؤهَّلِين لجهنّمَ، الذين عَلِمَ اللهُ منهم أزلًا اختيارَهم الكُفرَ، فشاءَه منهم، وخلَقَه فيهم، وجعل مصيرَهم النّارَ لذلك[3].

وفي هذا التّعبيرِ يكمُنُ دليلٌ على حِكمةِ اللّه وعدْلِه، حيث يُظهرُ أنَّ هؤلاء الأشخاصَ ليسُوا في جهنّمَ بسببِ قدَرٍ سابقٍ، بل بسببِ اختياراتِهم وأفعالِهم التي جعلَتْهم مؤهَّلِين لذلك.

وفي الوقتِ نفْسِه، يُشير التّعبيرُ بـ﴿ذَرَأۡنَا﴾ إلى عَظمةِ خَلْقِ اللّه وقُدْرَتِه على إحداثِ كلِّ شَيءٍ منَ العدمِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بصِيغةِ الماضِي في ﴿ذَرَأۡنَا﴾:

تحقّقُ وُقوعِ التَّهديدِ بجهنّمَ

التَّعبيرُ بالماضِي يَصدُقُ على ما ذرأَهُ اللّهُ في الماضي فعْلًا، وأمّا ما يكونُ ذرْؤهُ لمن كفرَ في زمنِ التّنزيلِ وما بعدهُ إلى قيامِ السّاعةِ، فالتَّعبيرُ به بالماضِي لإفادةِ تحقُّقِ الوقوعِ في المستقبَلِ، وكأنّه وقعَ حتى صحَّ أن يُخبرَ عنه أنّه قد حصلَ؛ وهذا كثيرٌ في كلامِ اللّه عن أحداثِ السّاعةِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/172.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 7/2، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذرأ).

(3) طنطاويّ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/441.

بَلاغةُ إسْنادِ الفعْلِ إلى ضميرِ العَظَمةِ في قولِه: ﴿ذَرَأۡنَا﴾:

الضّميرُ العائدُ على اسْمِ العَظَمةِ، إدخالٌ للمَهابةِ تَخويفًا

جاء الضّميرُ في ﴿ذَرَأۡنَا﴾ بنونِ العظمةِ ليُشعرَ بعظَمةِ رُبوبيّةِ الخالقِ، وتأكيدِ إثباتِ المضمونِ؛ كأنّه يقول: (ولقد ذرأنا بعَظمَتِنا لجهنّمَ...)، كما أفاد هذا الإسنادُ تحقُّقَ الموعودِ، وهو إهلاكُ كثيرٍ منَ الجنِّ والإنسِ.

دَلالةُ (اللّامِ)، في قولِه: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾:

التّعليلُ يدفعُ اعتقادَ الجَبْرِ في الله

اللّامُ للصَّيْرورةِ والعاقبةِ، كقولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8] أو للعلّةِ، أي: لأجْلِ الأفعالِ المُفضِيةِ لجهنّمَ عن طريقِ المجازِ المرسَلِ؛ أي: استعملَ (جهنَّم) وأراد المُسبِّبَ لدُخولِها[1]، والمرادُ بالكثير: الذين حقّتْ عليهمُ الكلمةُ الأزليّةُ بالشّقاوةِ، لِعلْمِه ﷻ بأنّهم لا يَصرِفون اخْتيارَهم نحو الحقِّ أبدًا، بل يُصِرُّون على الباطلِ من غير صارفٍ يَلْوِيهم، ولا عاطفٍ يَثْنِيهم عنِ الآياتِ والنُّذُرِ.

بَلاغةُ اسْتِخدامِ المجازِ المرسَلِ، في قولِه: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾:

ذكرُ المُسبِّبِ أشدُّ تخويفًا من ذكْرِ السّببِ

ذكرَ المسبِّبَ وهو (جهنَّم) وأراد السَّبَبَ؛ فـ "جهنّمُ مُستعمَلةٌ هنا في الأفعالِ المُوجِبةِ لها بعلاقةِ المسبّبيّةِ؛ لأنّهم خُلقُوا لأعمالِ الضّلالةِ المُفضيةِ إلى الكَوْنِ في جهنّمَ، ولم يُخلَقُوا لأجْلِ جهنَّمَ؛ لأنّ جهنّمَ لا يُقصدُ إيجادُ خلْقٍ لِتعميرِها"[2]؛ بناءً على قولِ مَن اعتبرَ اللّامَ هنا للتّعليلِ لا للعاقبةِ.

سِرُّ اخْتِيارِ (جهنّم)، في قولِه: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾:

أهلُ الضّلالِ يَستحقُّونَ أسْوأَ الأماكنِ

اُسْتُعملت كلمةُ (جهنَّم) في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ﴾ دون غيرِها كالنّارِ أوِ الجحيمِ؛ لأنها اسْمُ عَلَمٍ على النّار، تشملُ كلَّ ما وُصفت به النّارُ في القرآنِ الكريمِ، وهي أكثرُ الأسماءِ ورودًا في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/182.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/182.

القرآن، فقد وردت سبعًا وسبعين مرّةً، فهي الهاويةُ التي لا يُدرَكُ قعرُها، قال ﷺ: «يهوِي بها في جهنَّمَ سبعين خريفًا»(1)، والمسْتعرةُ: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء: 55]، والمرصادُ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾ [النبأ: 21]، والمحيطةُ بالكافرين: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ [التوبة: 49]، وبئسَ المِهادُ: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾ [آل عمران: 12]؛ أي: بئسَ المُستقرُّ. وكلمةُ جهنّمَ - من النّاحيةِ الصّوتيّةِ- أخوفُ وأشدُّ وقعًا على النّفسِ؛ فإنَّ الجيمَ تُعبّرُ عن هَيكلٍ غيرِ مُصْمَتٍ، والهاءَ عن فراغِ جوْفِه، والنونَ عن امتدادِ ذلك الفراغِ في الباطنِ، والميمَ عن تضامِّها واستوائِها على ذلك بقيامِ هيكلِها هكذا، أو بأنَّ عُمقَها الشديدَ جدًّا يُبرِزُ تَضامَّ ظاهرِها على جوْفِها، أو على ما يُلْقَى فيها"(2).

بَلاغةُ تقديمِ المجرو على المفعولِ:

تَقْديمُ المخوَّفِ به أولَى بمقامِ التّرهيبِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ قدم المجرور ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ على المفعول ﴿كَثِيرًا﴾؛ ليَظْهرَ تعلُّقُه بـ﴿ذَرَأْنَا﴾، ولِما في توابعِ الفعْلِ (ذرأ) من نوعِ طُولٍ يُؤدّي توسيطُهُ ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ بينهما وتأخيرُه عنها إلى الإخلالِ بجزالة النَّظْمِ الكريم(3).

دَلالةُ اخْتيارِ كلمةِ ﴿كَثِيرًا﴾، وتَنكيرِها دونَ غيرِها:

كثرةُ أهْلِ النّارِ لا تَستلزِمُ قِلّةَ أهْلِ الجنّةِ

التّعبيرُ بكلمةِ ﴿كَثِيرًا﴾، فلم يقل: (ذرأنا لجهنّم الكثيرَ)، إمّا أن تُشيرَ إلى أنّ المُستحقّين للنّار أكثرُ منَ المستحقّين للجنَّة(4)، ويُقوِّيه قولُ النّبيِّ ﷺ: «قال اللهُ لآدم: أخرج بعْثَ النّارِ؛ فأخرجْ من كلّ

(1) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، الحديث رقم: (3970)، والترمذي، السنن، الحديث رقم: (2314)، وأصل الحديث في صحيحي البخاري، الحديث رقم: (6477)، ومسلم، الحديث رقم: (2988).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جهنم).

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 295/3.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 479/2.

ألفٍ تسعةً وتسعينَ وتِسعمائة»[1]، وإمَّا أنَّ التّنكيرَ لا يُشْعِرُ بالأكثرِ ولا يُوحِي به، ولكنْ يدلُّ عليه الحديثُ المذكورُ[2]؛ فـ"كلمةُ كثيرٍ لا تعني أنّ المقابلَ قليلٌ، فقد يكونُ الشّيءُ كثيرًا ومُقابلُه أيضًا كثيرٌ، والحقُّ ﷻ يقول في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: 18]"[3].

سرُّ حذْفِ الموصوفِ وإقامةِ الصِّفةِ مَقامَه:

العِنايةُ بالعَددِ تَكثيرٌ وتَفخيمٌ

تَقْديرُ الجُملةِ: (ولقد ذرأنا خلقًا كثيرًا)؛ لأنّ المذكورَ بعدَ الوصْفِ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ دالٌّ على الموصوفِ (خلقًا)، فكان في الحذْفِ منَ الإيجازِ من جهةٍ، ومنَ التّكثيرِ من جهةٍ أُخرَى ما رجّحَ الحذْفَ على الذِّكْرِ.

دَلالةُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾:

بيانُ الأنواعِ تهويلٌ للكَثْرة

﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ بيانِيّةٌ؛ يُبيّنُ ما بعدَها جنسَ ما قبلَها، إذ إنّها سُبقت بنكرةٍ ﴿كَثِيرًا﴾ فتحتاجُ إلى بيانٍ، كما قيل: "النّكرةُ في أوّلِ وضْعِها مُحتاجةٌ لإبهامِها إلى وصْفِها"[4].

بَلاغةُ تَقْديمِ ﴿ٱلْجِنِّ﴾ على ﴿وَٱلْإِنسِ ۖ﴾:

الجِنُّ أقدمُ خلْقًا، وأكثرُ غَوايةً

قُدِّم ذكرُ الجِنّ على الإنس؛ لأنَّ الجنَّ أقدمُ خَلْقًا، وأكثرُ عددًا، وأسبقُ غَوايةً، كما أنَّ في التّقْديم تناسُبًا مع السّياق، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ١٢﴾ [الأعراف: 12]، وتناسبًا كذلك مع كون بدْءِ إبليسَ

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (3170).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 228/5.
(3) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4474/7، وأبو حيان، البحر المحيط: 4474/7.
(4) ابن جني، المحتسب: 289/2، وقد ذكر المعربون على سبيل التقريب أنّ الجُملَ بعد المعارف أحوالٌ وبعد النّكراتِ صفاتٌ.

بالمعصيةِ، وكونِه سببَ الغَوايةِ، وتوعُّدِه بإغواءِ آدمَ، وقيامِه بذلك هو وذرِّيتُه[1].

وفي تقديم الجنِّ على الإنسِ مناسبةُ ترتيبٍ لمفردةِ ﴿ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقْنا وكثَّرنا، ومناسبةٌ لحالِ الجاهليّةِ من تعْظِيمِهم الجنَّ واستعاذتِهم بهم وعبادتِهم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: 6]، فناسبَ البدءُ بعِقابِهم توبيخًا لعابِدِيهم[2]، ولِعادةِ القرآنِ، حيثُ قُدّمتِ الجنُّ على الإنس في كلِّ القرآن باسْتِثناء سورةِ الأنعام في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ [الأنعام: 122]؛ لكوْنِ عداوتِهم أشدَّ من عداوة الجنِّ، وسورةِ الإسراء في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: 88]؛ مراعاةً فيها لسِياقِ الحديثِ عن إعجازِ القرآنِ البلاغيِّ؛ فالإنسُ أفصحُ.

بَلاغةُ موقعِ الجُملةِ ممّا قبْلَها في ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾:

التّعليلُ للمصائرِ يُبيّنُ العدلَ الإلهيَّ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعِه اسْتِئنافًا بيانيًّا، فبيْنَ هذه الجُملةِ وما قبْلَها شِبْهُ كمالِ الاتّصالِ، وذلك أنّ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ﴾ يبعثُ في نفْسِ السّامعين سُؤالاً، هو: ما لَهم رضُوا لأنفُسِهم بطريقِ جهنّم؟ قيل: ﴿لَهُمْ﴾[3].

بَلاغةُ تقديمِ (القلوبِ) على (الأعيُنِ) و(الآذانِ):

القلوبُ مَجمعُ المُدْرَكاتِ، وبها يمتازُ الإنسانُ عنِ الأنعامِ

في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ﴾ قدّمَ ذكْرَ القلوبِ على الأعيُنِ والآذانِ؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/296.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/173.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/173.

مُراعاةً لمناسبةِ السّياقِ القريبِ الذي هو التّفكُّرُ والاعتبارُ بقصْدِ الانتفاعِ، ولذا بدأَ بالقلوبِ، ولأنّها الأنسبُ مع مُفردةِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾، فإنَّ غفْلَةَ القلوبِ أخطرُ وأعظمُ، ولو تنبَّهتِ القلوبُ لتنبَّهتِ الأعيُنُ والآذانُ، وخاصّةً أنَّ السّورةَ تتحدّثُ عن أثَرِ الغفْلَةِ على الحياةِ البشريّةِ، تَدلِّيًا منَ الأعلَى إلى الأدنَى؛ أي من أشرفِ ما خلَقَه اللّه في الإنسانِ وهو قلبُه مقَرُّ مُدركاتِه، الذي هو محلُّ نظَرِ اللّه سُبحانَه، ثمّ إلى آلاتِ الإدراكِ وهيَ الأعينُ والآذانُ[1].

البصرُ أعمُّ منَ السّمعِ، في مجالِ الإدراكِ والإستيعاب

سِرُّ تَقْديم (الأعيُنِ) على (الآذانِ):

في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ قدّمَ البصرَ على السّمْعِ؛ لأنّ البصرَ أعمُّ منَ السّمْعِ، إذ ينتفعُ به الصّغيرُ الذي قد يسمعُ القولَ ولا يَفهمُه، وكذا كلُّ مَنْ في حكمِه، وليس الخبرُ كالمُعاينةِ، وخاصّةً أنّ السّياقَ هنا للتّفكُّرِ؛ أي: في مجالِ الانتفاعِ[2]؛ وليس في تقديمِ الأعيُنِ على الآذانِ مُخالفةٌ لما جرَى عليه اصطلاحُ القرآنِ من تقديمِ السّمْعِ على البصَرِ لتشريفِ السّمْعِ، كما في قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: 7][3] كما أتى بالفعلِ في حيّزِ النّفْيِ وهو يعمُّ مثلَ النّكرةِ، فهذا عامٌّ أُريدَ به الخصوصُ للمبالغةِ؛ أي: عدَّ غيرَه عدَمًا؛ لأنه لم ينفعْهُمُ النّفعَ المقصودَ في الحقيقةِ.

العُمومُ يُفْصِحُ عن كُنْهِ حالِهِم، والتّخصيصُ يُخِلُّ بالإفصَاحِ

وَجْهُ حذْفِ المفعولِ به، في مَقامِ الفِقهِ والبَصرِ والسَّمْعِ:

ذِكرُ المفعولِ به يُؤدّي إلى تخصيصِهم بأمْرٍ واحدٍ؛ من عدمِ فقْهِ الحقِّ أو عدمِ إبصارِ الآياتِ التّكوينيّةِ أو عدَمِ سماعِ الآياتِ التّنزيليّةِ، وهذا مُخِلٌّ بالإفصاحِ عن كُنْهِ حالِهم؛ لذا حُذفَ المفعولُ في قوله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/184.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/173.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/184.

تعالى: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، ﴿لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ﴾؛ إذ هم لا يفقهون ولا يُبصرون ولا يسمعون شيئًا سمعَ تدبُّرٍ واتِّعاظٍ، فيكونُ المعنى: لهم قلوبٌ ليس من شأنِها أن يَفْقهُوا بها شيئًا ممّا من شأنِه أن يُفْقَهَ، فيَدخلُ فيه ما يليقُ بالمقامِ منَ الحقِّ ودلائلِه دُخولًا أوّليًّا، وكذلك لهم أعينٌ لا يُبصرون بها شيئًا منَ المُبصراتِ، فيندرجُ فيه الشّواهدُ التّكوينيّةُ الدّالّةُ على الحقِّ اندراجًا أوّليًّا، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أيَّ شَيءٍ منَ المسموعاتِ، فيتناولُ الآياتِ التّنزيليّةَ تناوُلًا أوليًّا[1].

نُكتةُ الإطنابِ بإعادةِ الخبرِ (لهم)، مع القلوبِ والأعيُنِ والآذانِ:

تثبيتٌ وتقريرٌ للمعنى، لإعراضِهم عنِ التّدبُّرِ والاتِّعاظِ

يصحُّ الكلامُ بأن يقال: (وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها)، ولكنَّ البيانَ الإلهيَّ عدلَ عن هذا النّظْمِ، وأعادَ الخبرَ في الجُملتَيْنِ المعطوفتَيْنِ، فقال: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾، وحِكمةُ ذلك: تقريرُ سُوءِ حالِهم؛ فإنَّ الجُملةَ الاسميّةَ تُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ، فهو إعراضٌ دائمٌ عنِ التّدبُّرِ والاتّعاظِ، لا شكَّ فيه ولا انقطاعَ له[2].

بَلاغةُ الإطنابِ بإثباتِ آلاتِ الإدراكِ ونفْيِها:

امْتلاكُ الحواسِّ وعدمُ إعمالِها، إعدامٌ لوجودِها

يصحُّ أن يقال: (ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها)، ولكنَّه عدلَ عن ذلك فقال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾؛ ليُثبتَ لهم أدواتِ المشاعرِ الثلاثِ (القلبِ والعينِ والأذنِ)، وليصفَها بعدمِ الشُّعورِ، دون سلْبِها عنهم ابتداءً، لما في ذلك منَ الشَّهادةِ بكمالِ رُسوخِهم في الجهلِ والغَوايةِ[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/295.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/295.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/295، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/112.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بآلاتِ التَّفكيرِ ثمّ نَفْيِها:

كُفران النِّعمِ الكِبارِ، يجعلُهم بمنزلةٍ أضلَّ من الأنعامِ

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بآلاتِ الإدراكِ، فقال: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾، ولم يقل: (كثيرا من الجن والإنس لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون)؛ لمناسبة اشْتراكِهم بهذه الآلاتِ مع الأنعامِ التي شُبِّهُوا بها في الغَفْلَةِ.

ولِيدلَّ هذا النّظْمُ الشّريفُ الذي صرّح بنِعم آلاتِ التَّفكيرِ والتّدبُّرِ منَ القلوبِ والأعيُنِ والآذانِ، وبتعطِيلِهم لها على تأكيدِ كُفرانِ هذه النِّعمِ الكبارِ.

دَقيقةُ تعْبيرِه بالقلوبِ، بدَلَ الأفئِدةِ:

مُفردةُ القلوبِ أنسبُ لحالِ الغافلين أشباهِ الأنعامِ

عبّرَ القرآنُ بالقلبِ دونَ الفؤادِ مناسبةً لحالِ الغافلِينَ المُصرّينَ على الكُفرِ؛ لأنَّ من معاني القلْبِ التّقلُّبَ بالأفكارِ والعُزوم، بخلافِ الفؤادِ فإنَّ من معانِيه الإعدادَ والتّوقّدَ والإنضاجَ بالرأيِ والفكرةِ والاتّجاهِ والمشاعِرِ، كما أنَّ القلْبَ يُطلقُ على المُضغةِ التي في الصّدرِ ويُطلقُ على العقْلِ، فلمَّا لم يَفقهُوا بقلوبِهم اقتصرتْ قلوبُهم على كونِها مُضغةً كقلوبِ الأنعامِ التي شُبّهوا بها، ومُناسبةً للسّياقِ الذي يُشبِّهُهم بالأنعامِ التي لم يَرِدْ في القرآنِ أن نُسبَ لها فؤادٌ.

وَجهُ التّعْبيرِ بالقلوبِ بَدلَ العقولِ:

فقهُ القلوبِ هو إدراكٌ يَصْحبُه وِجدانٌ يَبعثُ على العمَلِ

استعملَ كلمةَ (القلوب) بدلَ (العقول) في قولِه تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾؛ لأنَّ القلْبَ يُستعملُ في أحدِ معانِيه بمعنى العقْلِ، وهو في الوقتِ ذاته سببُ إمدادِ العقلِ بقوّةِ الإدراكِ، وذلك بما يراه الإنسانُ مِن انقباضٍ أوِ انشراحٍ حينَ الخوفِ والاشمئزازِ، أو حينَ السّرورِ والابتهاجِ، وقد اشتملَ لفظُ القلْبِ في هذه الآيةِ على المعنيَيْن معًا؛ معنَى العقْلِ ومعنَى الوِجْدانِ الرُّوحيِّ الذي يسمّونَه أحيانًا (بالضّمير)، وهو محلُّ الحكْمِ

في أنواعِ المُدرَكاتِ والشّعورِ الوِجدانيِّ[1]، أمّا كلمةُ (العقل) فلا تُعطِي إلّا معنَى الإدراكِ.

معنَى الباءِ في عَوْدتِها على أدوات الإدراكِ الثّلاثِ:

تأكيدُ عدَمِ الانتفاعِ بهذه الأدواتِ رَغْمَ التّمكينِ والإنعامِ المُغْدَقِ

تُحملُ الباءُ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ﴾ على أشهرِ معانِيها، وهو الإلصاقُ والاسْتِعانةُ، بحيث يكونُ المعنى: لهم قلوبٌ ولهم أعينٌ ولهم آذانٌ مُلتصِقةٌ بهم لا تنفكُّ عنهم، ولكنّهم لم يَستعينُوا بها على الفهمِ والتأمّلِ والتّفكُّرِ، ولم يجعلُوها سببًا لهدايتِهم، والمرادُ من ذلك تأكيدُ أنّهم ليسُوا أهلًا للاهتداءِ على الرُّغمِ منِ التصاقِ الآلاتِ المحقِّقةِ للوصولِ إلى الهدايةِ بالدّلائلِ الكونيّةِ، والدّلائلِ السّماويّةِ بالكُتبِ المنزّلةِ وطريقُها السّمعُ، والدّلائلِ الإرشاديّةِ وطريقُها الرُّسُلُ، إلَّا أنّهم ليسوا أهلًا لهدايةِ الاسْتجابةِ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ، في مَقامِ الإدراكِ:

اسْتِمراريةُ تعطِيلِهم لآلاتِ التّفكيرِ والتّدبُّرِ، المُنْعَمِ بها عليهم

تفيدُ صِيغةُ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ استمرارَ إصْرارِهم على الباطلِ، وعدمِ انْتفاعِهم بمداركِهم، باسْتِمرارِ تعطِيلِهم لآلاتِ التَّفكيرِ والتَّدبُّرِ منَ القلوبِ والأعيُنِ والآذانِ، وتَجدُّدَ هذا الإعراضُ والتّعطيلُ كلّما دعاهُم داعِي الحقِّ. والملحوظُ أنَّ الصِّيغةَ جاءت في مُهمّةِ الآلاتِ بالمضارعِ؛ لما فيه منَ التَّجدُّدِ والاسْتِمرارِ، وكلُّ ذلك بيانٌ عن تجدُّدِ عدَمِ هدايتِهم.

سِرُّ اخْتِيارِ (الإبصار) دونَ النَّظرِ أوِ الرُّؤيةِ:

امْتلاكُ الأداةِ ليس دليلَ الاهتِداءِ

استخدمَ القرآنُ البصرَ في قولِه: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾، دونَ النّظرِ والرّؤيةِ البَصريّةِ؛ لأنَّ المعنى الذي يحملُه تعبيرُ (البصر) لا يقفُ عند ما تراه العينُ فقط، بل يمتدُّ ليَشملَ معانيَ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/420.

أبعدَ من ذلك وأعْمق؛ منها وضوحُ الشّيءِ والعلمُ به، حتى ليقالُ للضّريرِ بصيرٌ لما له من قوّةِ بصيرةِ القلب[1]، فنجدُ أنَّ وظيفةَ العينِ المُقتصِرةَ على النّظرِ والرُّؤيةِ سليمةٌ لقوله: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ﴾، ولكنَّ اسْتِخدامَ هذه الأعيُنِ للتّأمّلِ والتّفكُّرِ والتّدبُّرِ، ومن ثَمّ الإيمانِ لم يحصُلْ عندهم؛ لأنّهم كما وصَفهم اللّه: ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ الحقَّ.

نُكتةُ اخْتِيارِ آلاتِ الإدراكِ الثّلاثِ، دونَ بقيّةِ الأعضاءِ:

إذا فسَدتْ آلاتُ الإدراكِ، فلا خَيْرَ في سائرِ الأعضاءِ

اختارَ القرآنُ القلوبَ والأعينَ والآذانَ دونَ بقيّةِ الأعضاءِ؛ لأنّها آلاتُ الإدراكِ والعلمِ وَالْعِرْفَانِ، وَطُرُقُ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ، وبها تتحصّلُ المنافعُ وتُدفعُ المضارُّ.

دقيقةُ التّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشارةُ بالبعيدِ للتّنبيهِ على تسفُّلِهم، واسْتغراقِهم في الغَفلةِ

استعملَ القرآنُ هنا اسْمَ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ وقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ لإفادته التَّنبيهَ على زيادةِ تَمييزهم بتلك الصّفاتِ، والتّقديرُ: (أولئك المنعوتون بتلك الصفات)[2]، واختارَ ما يُشارُ به إلى البعيدِ للدّلالةِ على بُعدِ دَرَكتِهم في التَّسفُّلِ ومنزلَتِهم في الضّلالِ، سواءً في تسويتِهم بالأنعامِ، أو جعْلِهم أضلَّ منَ الأنعامِ، أو اسْتِغراقِهم في الغفلةِ الكاملةِ.

بَلاغةُ موقعِ الجُملةِ الاسميّةِ ممّا قبْلَها:

الاسْتِئنافُ تأسيسُ معنًى جديدٍ، يُقوّي المعنَى السّابقَ

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، نجد فيه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ كلمةٌ مُستأنفةٌ، وابتدأ بها الكلامُ لتصويرِ فظاعةِ حالِهم ولتكونَ أدْعَى للسَّامِعين[3]، إذِ الجُملةُ الاسميّةُ أقوَى وأثْبتُ منَ الفعليّةِ، وتكونُ كالتّأكيدِ له؛ إذ إنَّ وجْهَ الشَّبهِ مُدرَكٌ ممّا قبْلَه[4]، كما أنَّ من عواملِ اسْتِحقاقِ وجودِ المشبَّه به هنا ما يمهِّدُ له في الآية، وأنت ترى في هذا

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 222/2.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 296/3.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 183/9.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 112/5.

التّشبيهِ كيف مُهِّدَ له التّمهيدَ الصّالحَ؛ فجعلَ لهم قلوبًا لا يفقهون بها، وأعينًا لا يُبصرون بها، وآذانًا لا يَسمعون بها؛ ألا ترى نفسَك بعدئذٍ مَسوقًا إلى إنزالِهم منزلةَ البهائم[1]؟

بَراعةُ التّشبيهِ المُجمَلِ، في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

عدَمُ التّمييزِ بين الحقِّ والباطلِ، يَجعلُهم في صُورةِ الأنعامِ العجْماءِ

أظهرَ التّشبيهُ المُجْملُ تصويرًا بالتّجسيم؛ إذ شُبِّهَ أهلُ النّارِ في صورةِ الأنعامِ من جهةِ عدمِ انتفاعِها بما ينتفعُ به العقلاءُ، فكأنَّ قلوبَهم وأعينَهم وآذانَهم قلوبُ الأنعامِ وأعينُها وآذانُها في أنّها لا تقيسُ الأشياءَ على أمثالِها، ولا تنتفعُ ببعضِ الدّلائلِ العقليّةِ؛ فلا تعرفُ كثيرًا مما يُفضِي بها إلى سُوءِ العاقبةِ[2]، وقد مُهِّدَ لهذا التّجسيمِ في الآيةِ حتى صار مُتوقَّعًا لدَى السّامعِ، وذلك بوصْفِ الكافرين بصفاتِ البهائمِ في عدمِ التّمييزِ بين الحقِّ والباطلِ، وعدمِ الرّؤيةِ التي تميّزُ بين المَرئياتِ، وعدَمِ السّمعِ الذي يستجيبُ للحقِّ، فصارَ السّامعُ يرى من هذه الصِّفاتِ أشخاصًا في صورةِ بهائمَ، بل أضلَّ منها؛ إذ مُنِحُوا حواسَّ سليمةً، ولكنّهم عطَّلوها وأفسدوها[3].

معنَى (بل) في قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾:

من أُعطِيَ شيئًا من أدواتِ الإدراكِ، ولم ينتفعْ به، قد ضلَّ ضلالًا مبينًا

﴿بَلۡ﴾ حرفُ إضرابٍ، وهو هنا إضرابٌ انتقاليٌّ، يُفيدُ الانتقالَ والتّرقِّيَ في التّشبيه في الضَّلالِ وعدمِ الانتفاعِ بما يمكنُ الانتفاعُ به؛ ولما كان وجْهُ الشّبهِ المستفادُ من قولِه تعالى: ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ يؤولُ إلى معنَى الضَّلال، كان الارتقاءُ في التَّشبيه بطريقة اسْمِ التّفضيلِ في الضّلالِ. ووَجْهُ كونِهم أضلَّ منَ الأنعام: أنَّ الأنعامَ لا يبلغُ بها ضلالُها إلى إيقاعِها في مهاوِي الشّقاءِ الأبديِّ؛ لأنَّ لها إلهامًا غريزيًّا تتَّقِي به المهالكَ كالتّردِّي منَ الجبالِ، واجتنابِ أكْلِ ما فيه ضررُها،

(1) ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص: 137.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/184.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 9/166.

وأنَّه قد خُلِقَ إدراكُها محدودًا لا يتجاوزُ ما خُلقتْ لأجلِه؛ فنقصانُ انتفاعِها بمشاعرِها ليس عن تقصيرٍ منها، فلا تكونُ بمحلِّ الملامةِ، وأمّا أهلُ الضّلالةِ فإنّهم حَجَروا أنفُسَهم عن مُدرَكاتِهم، بتقصيرِ منهم وإعراضٍ عنِ النّظرِ والاستدلالِ؛ فهم أضلُّ سبيلًا منَ الأنعام[1]، ولأنّ الأنعامَ قد تستجيبُ مع ذلك لراعِيها إذا أبسَّ بها، وإن لم تفقَهْ كلامَه، بخلافِ هؤلاء المُعرضين غايةَ الإعراضِ، ولأنّها تفْقَهُ ما خُلقَت لهُ إمّا بطبْعِها وإمّا بتسخيرِها، بخلافِ الكافرِ، فإنّه إنّما خُلقَ ليعبدَ اللّه ويُوحّدَه، فكفرَ باللّه وأشركَ به[2].

فائِدةُ عدَمِ ذِكْرِ العاطفِ بين اسْمَي الإشارةِ:

الغَفلةُ بيانٌ لوجْهِ الضَّلالِ، ومسلكٌ للهَلَكةِ والتِّيهِ

أفادَ عدَمُ ذكْرِ العاطفِ بين الجُملتَين من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ أنَّ الثّانيةَ جرتْ مجرَى التّوكيدِ أو عطْفِ البيانِ للأُولَى، "وجعل بعضُهم هذه الجُملةَ كالبيانِ للجُملةِ قبْلَها، لذا فُصِلت عنها"[3]، أي: "إنّهما متّفقان؛ لأنَّ التّسجيلَ عليهم بالغَفلةِ، وتشبيهَهم بالبهائمِ شيءٌ واحدٌ، فكانتِ الجُملةُ الثّانيةُ مُقرِّرةً لما في الأُولى"[4].

وجهُ القصْرِ بأُسلوبِ تعريفِ طرفَيِ الجُملةِ، وضميرِ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾:

الـكَـمـالُ في الـغَـفـلـةِ أشَدُّ الضَّلالِ

غرضُ القصْرِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾، توكيدُ الحُكمِ عليهم بالغفلةِ، وإفادةُ الحصْرِ والاختصاصِ؛ فهمُ "الغافلون الكاملون في الغفلةِ المستحِقُّون لأَنْ يُخصَّ بهم الاسْمُ ولا يُطلَق على غيرِهم، كيف لا؟! وأنّهم لا يعرِفون من شُؤونِ اللّه ﷻ ولا من شُؤونِ ما سِواه شيئًا"[5] فيُشرِكون به سُبحانَه أصنامَهم التي لا تضرّ ولا تنفعُ!

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 184/9.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 514/3، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3013/6.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 112/5.
(4) الزمخشري، الكشاف: 146/1.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 296/3.

نوعُ (ال) في كلمةِ ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾:

تُفيدُ (أل) الاستغراقَ، وتُعرفُ عند المفسّرين بأل الكماليّةِ، أيْ: قد شملتِ الغفلةُ كلَّ مداركهم: قلوبهم، وعقولِهم، وأبصارِهم، وأسماعِهم، واستبدَّت بهم كلُّ أنواعِ الغَفلة.

تعمُّ كلَّ أنواعِ الغفلةِ التي اتّصفُوا بها

سِرُّ التّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾:

عبّرَ باسْمِ الفاعلِ دون الفعْلِ (غفَلوا)؛ للدّلالةِ على الثُّبوتِ والدَّوامِ والاستمرارِ في الغالبِ، وبدخول (أل) الكماليّةِ عليه تفيدُ العمومَ، أمّا التّعبيرُ بالماضي فلا يدلُّ على هذه المعاني، إذ إنّه يدلُّ على وقوعِ الحدَثِ قبل زمانِ التَّكلُّمِ أو حدوثِه مُطلقًا.

الدّلالةُ على أنّهم هم الكاملون الدّائمون المستمِرُّون في الغفْلةِ

سِرُّ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ دونَ (الضّالّون):

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالغفلةِ دونَ الضّلالِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ لما فيها من زيادةِ معنًى يتناسبُ مع حال المُستحقّين للنّارِ، وهو الانصرافُ عن ملاحظةِ الحقِّ وإدراكه ومراقبتهِ مع وضوحِ أدلّته في مجال الإدراكِ المستطاعِ للمخلوق[1]، أي: هي عدمُ الشّعورِ بما يحقُّ الشّعورُ به؛ فالإيمان أمرٌ بيّنٌ واضحٌ، يُعدُّ عدمُ الشّعورِ به غفلةً، وخاصّةً مع توافرِ آلاتِ الإدراك منَ القلوبِ والأعينِ والآذانِ[2]، أمَّا الضّلالُ فيقتصرُ على العُدولِ عن طريق الحقِّ، كما أنَّ ذكْرَ لفظِ الغفلةِ في الآية بعد ذكْرِ لفظ (أضلّ) فيه تفنّنٌ في الفصاحةِ، وبُعدٌ عن التَّكرارِ فيما لو قال: (بل هم أضلُّ، أولئك هم الضّالون).

وضوحُ دلائلِ الإيمانِ مع الانصرافِ عن ملاحظتِها وإدراكِها هو عينُ الغَفْلةِ

بَلاغةُ التَّذْييلِ التّعليليِّ، في خِتامِ الآيةِ:

ذيّلَ البيانُ الإلهيُّ بهذه الجملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ ليزدادَ بها المعنَى اتّضاحًا، وهو تأكيدُ تشْبيهِهم بالأنعامِ ووصْفِهم بأنهم

الغفلةُ تَهوي بكرامةِ الإنسانِ، منَ الإكرام، إلى ما دونَ منزلةِ الأنعامِ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (غفل).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/185.

أضلُّ، وتعليلُ كونِهم أضلَّ منَ الأنعام ببلوغِهم حدَّ النّهايةِ في الغفلةِ، وذلك أنَّه قد يُظنُّ أنَّ ضلالَهم ربّما يكونُ سببُه عدمَ وجودِ مَنهجٍ أو نذيرٍ أو بشيرٍ، فجاء هذا التَّذْييلُ التَّعليليُّ ليُبيِّنَ أنَّ ضلالَهم كان غفلةً منهم؛ إذِ الغفلةُ تكونُ عندما يكونُ الأمرُ بيِّنًا واضحًا، ويُغفَلُ عنه(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذَّرءُ والخلْقُ:

الــــذَّرءُ هـو الإظهارُ والخلْقُ والنَّثرُ والتّفريقُ والـتّـكـثـيـرُ، والخلْقُ الإبداعُ والتّقديرُ

الذَّرْءُ: أصلُ الذّرءِ هو الإظهارُ، وذرءُ الأشياءِ: خلْقُها وإظهارُها، وبثُّها ونشرُها وبذرُها وتفريقُها وتكثيرُها، وذَرَأَ الشّيءَ: كثَّره، قيل: ومنه الذّرّيةُ(2).

وأمّا الخلقُ: فهو التّقديرُ؛ أي: إيجادُ الأشياءِ بتقديرٍ ونظامٍ لا جُزافًا(3)، ويُستعملُ في إبداعِ الشّيءِ من غير أصلٍ ولا احْتذاءٍ، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدَعهما، وليس الخلْقُ بمعنى الإبداعِ إلَّا للّه تعالى(4).

إذن: الذّرءُ والخلْقُ يشتركان في معنى الإظهارِ والإيجادِ، إلَّا أنَّ الذَّرءَ يتميَّزُ عنِ الخلقِ بمعانٍ إضافيّةٍ هي البثُّ والنّشرُ والتّفريقُ والتّكثيرُ.

وسِرُّ اصطفاء ﴿ذَرَأۡنَا﴾ دون (خلقنا) في السّياقِ هو أنَّ: الذَّرءَ نثرٌ وتفريقٌ، وهو أولَى بأهل جهنّمَ، والخلقُ إبداعٌ وليسُوا أهلًا له؛ إذ إنَّ الذَّرءَ عُبِّر به عن خلْقِ كثيرٍ منَ الجنّ والإنس لجهنَّم؛ لما فيه من فضْحِهم ونشْرِهم وبثِّهم ونثْرِهم وتفريقِهم بما يناسبُ إهانتَهم

(1) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4480/7.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذرأ)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 138، والرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التميز: 779/1.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 136، والرّاغب، المفردات: (خلق).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التميز: 566/2.

وإلقاءَهم في جهنّمَ، وهي نارٌ بعيدةُ القعرِ، وفي ذلك منَ العذابِ الحسّيِّ والنَّفسيِّ ما فيه. أمَّا الخلْقُ فهو تقديرُ الشّيءِ، وتهيئةُ مادّته ليكونَ كائنًا سويًّا[1]. فلم يَستخدِمْها القرآنُ إلَّا في كلِّ خلْقٍ فيه تكريمٌ: كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ﴾ [الحشر: 24]، وقولِه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق: 1]، ولذا استخدمَها في الآية الآتية: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ في سياق الحديثِ عن تكريم البشريةِ بخلق أمّةِ الإجابةِ.

القلبُ والفؤادُ:

القلبُ مُضغةٌ في الصّدرِ، ومحلُّ المدركاتِ، والفؤادُ محلُّ إنضاجِ الرّأيِ أوِ الفِكرةِ أوِ الاتّجاهِ

القلبُ: خالصُ الشّيءِ وشريفُه (باطنُ الشيءِ ولُبُّه)، أو هو رَدُّ شَيءٍ من جِهةٍ إلى جِهةٍ، ومن ذلك: الجارحةُ، وهي المُضغةُ المعروفةُ التي في الصّدرِ؛ لأنها أهمُّ ما في الباطنِ وأقواهُ، ولأنّها تتقلّبُ بالأفكارِ والعُزومِ، وتُطلقُ على القوّةِ الباطنةِ وهي العقلُ؛ وهو محلُّ الحُكم في أنواعِ المُدركاتِ والشّعورِ الوجدانيِّ والرّأيِ والتّفكيرِ[2]. وأمّا الفؤادُ: فمشتقٌّ من فَأَدَ، وهذا الأصلُ يدلُّ على حُمَّى وشِدّةِ حرارةٍ، واستعمالاتُ تركيبِه فيها معنى الإعدادِ والتّهيئةِ، والإنضاجِ، والتّحرّقِ والتّوقّدِ، وقيل: الفؤاد سُمّي بذلك لحرارتِه[3] و"القلبُ مُضغةٌ منَ الفؤاد معلّقةٌ بالنّياطِ، وبهذا جزمَ الواحديُّ وغيرُه، وقيل: الفؤادُ وعاءُ القلبِ أو داخلُه أو غشاؤُه، والقلبُ حبّتُه...وقيل: القلبُ أخصُّ منَ الفؤاد لحديث: «أتاكم أهل اليمن هم أرقُّ قلوبًا وألينُ أفئدةً»[4]، فوصفَ القلوبَ بالرّقّةِ والأفئدةَ باللِّينِ"[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خلق).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب)، والعسكري، الفروق، ص: 161، والرّاغب، المفردات: (قلب)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 288/4، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قلب).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 218/4، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فأَدَ).

(4) البخاري، الجامع الصّحيح: (4388)، ومسلم، صحيح مسلم: (52)، وغيرهما، وينظر: الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 218/4.

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فأد)، وينظر: الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 288/4.

الفِقهُ عِلمٌ وفِطنةٌ، والفهمُ علمٌ بالشّيءِ، وكلاهما إدراكٌ ومَعرفةٌ واسْتِنارةٌ

الفِقهُ والفهمُ:

الفقه: هو العلْمُ بالشّيءِ والفهمُ له والفطنةُ، والتّوصُّلُ إلى علْمِ غائبٍ بعلْمِ شاهدٍ، فهو أخصُّ من مُطلقِ العلْمِ، فمن لا يعرفُ منَ الأمورِ إلَّا ظواهرَها لا يُسمّى فقيهًا[1].

وأمّا الفهمُ: فمعرفةُ الشّيءِ والعلْمُ به، وقيل: الفهمُ هيئةٌ للنّفسِ بها يتحقّقُ معانيَ ما يُحسنُ[2].إذن: الفقهُ يتميّزُ عنِ الفهم بدلالتِه على الفطنةِ بالإضافةِ إلى العلْمِ بالشّيءِ، فالفقهُ ليس مجرّدَ العلْمِ بالشّيءِ، بل فيه معنى الفِطنةِ وطولِ النّظرِ والتّأمّلِ وعمقِ الاستيعابِ للجوانبِ الخفيّةِ والغامضةِ واستنباطِ المعاني والأدلّةِ[3]. وسرُّ اختيارِ (الفقه) دونَ الفهمِ أوِ العلمِ في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ أنَّ الفقهَ فيه معاني الفِطنةِ ودِقّةِ الفهمِ والتّعمّقِ في العلمِ، وقياسِ الغائبِ على الحاضرِ، والتّريّثِ والنّظرِ والتّأمُّلِ، وعمقِ الاستيعابِ للجوانبِ الخفيّةِ والغامضةِ، واستنباطِ المعاني، فلا يقالُ للرّجلِ فقيهٌ حتى يبلغَ مبلغًا عظيمًا منَ العلْمِ بالأحكامِ الشّرعيّةِ وطُرقِ استنباطِها والإحاطةِ الشّاملةِ بذلك مع فِطنةٍ وقُدرةٍ على التّأمّلِ وطُولِ النّظرِ[4]، والقرآنُ لم ينْفِ عنهم صِفةَ الفهْمِ، بل نفَى عنهمُ الفقهَ؛ لأنّهم أصحابُ عقولٍ وإدراكٍ إلا أنَّ أهواءَهم أعْمَتْهم عنِ الحقِّ وأضلَّتْهُم.

الغفلةُ والضَّلالُ:

الغافلون: من (غَفَل) وهو تركُ الشّيءِ سَهوًا أو عمْدًا، ويكونُ مِن انصرافِ الذِّهْن عن ملاحظتِه وعن إدراكِه ومراقبتِه، مع وجودِه أو

---

(1) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات: (فقه)، والفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 210/4، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فقه).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فهم)، والفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 222/4، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فهم).

(3) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 210/4.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فقه)، (فهم).

الغفلةُ انصرافٌ عـنِ الـحـقّ مع وضـوحِ أدلّـتِـه، والضَّلالُ عُدولٌ عــنِ الـطّـريـقِ المستقيمِ

وجودِ أدلّتهِ في مجال الإدراكِ المُستطاعِ للمخلوقِ، ومن قلّةِ التَّحفُّظِ والتّيقّظِ. والتّغافلُ والتّغفّلُ: تعمّدُ الغفلةِ.

والضّالّون: من (ضلّ) وأصلُه ضَياعُ الشّيءِ وذَهابُه في غيرِ حقِّه، والضّلالُ ضدُّ الهُدَى، وهو العُدولُ عنِ الطريقِ المستقيم عمْدًا كان أو سهْوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، وصحَّ أن يُستعملَ لفظُ الضَّلالِ فيمن يكونُ منه خطأٌ ما، ولذلك نُسب الضَّلالُ إلى الأنبياء وإلى الكفار وإن كان بين الضّلالَيْن بَونٌ بعيدٌ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غفل)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 481/3 - 482، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غفل).

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف: 180]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

"لمّا وصفَ سُبحانَه المخلوقين لجهنَّمَ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ أمَرَ بعده بذكْرِ اللّه تعالى فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ﴾، وهذا كالتّنبيهِ على أنّ المُوجِبَ لدخولِ جهنَّم هو الغفلةُ عن ذكرِ اللّه، والمُخَلّصَ عن عذاب جهنّم هو ذكرُ اللّه تعالى"[1]، ولمّا ذكرَ سُبحانهُ أنّه ذرأَ كثيرًا منَ الجنِّ والإنس للنّار ذكرَ نوعًا منهم، وهم ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ﴾ وهم أشدُّ الكفّارِ عِتيًّا[2]. فلمّا بيّنَ اللّه أنّ أفظعَ أحوالِ المعدودين لِجهنّم هو حالُ إشراكِهم باللّه غيرَه، وإبطالُهم لأخصِّ الصّفاتِ الإلهيّة، وهي صفةُ الوحدانيّة، عقبَ بتنبيه المسلمين للإقبالِ على دعاءِ اللّه بأسمائه الدّالّة على عظيم صفاتِ الإلهيّة، والدّوام على ذلك، وأن يُعرِضُوا عن شَغَبِ المشركين المُلحِدين وجدالِهم في أسماء اللّه تعالى[3].

ذِكْرُ الله ودعاؤُه بأسمائه الحُسنَى، سببُ الخلاصِ منَ الغفلة والعذابِ الأكبرِ والأدْنَى

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الحاء والسّين والنّون أصلٌ واحدٌ، فالحُسنُ ضدُّ القُبحِ، والحُسنى: مؤنّثُ الأحسن، أفعلُ تفضيلٍ، وهي التي تفْضُلُ سِواها في الحُسنِ[4]، والمعنى أنَّ أسماءَ اللّه تعالى هي أحسنُ الأسماءِ وأجلُّها؛ لإنبائِها عن أحسنِ المعاني وأشْرفِها، وقد بلغتْ أقصَى درجاتِ الحُسنِ والكمالِ؛ لأنّها صفاتُ المتّصفِ بكلِّ كمالٍ[5].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 412/15، وأبو حيان، البحر المحيط: 230/5.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 230/5.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 185/9.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسن).
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 296/3، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3014/6.

2) ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾: الدّال والعين والحرف المعتلُّ أصلٌ واحدٌ، وهو أن تُميلَ الشّيءَ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منك، تقولُ دعوتُ أدعو دُعاءً، ودعاءُ اللّه يعني التّضرُّعَ إلى اللّه في طلبِ أمْرٍ، والدّعاءُ: العبادةُ؛ لأنَّ العبادةَ تقرُّبٌ إلى المعبودِ[1]، ومعنى ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ أي: سمُّوه ونادُوه بأسمائِه الحُسنى للثّناء عليه، أو للسّؤالِ وطلبِ الحاجاتِ؛ أي: اطلبُوا إليه بأسمائِه، كقولك: "يا اللّه" "يا رحمن" "يا مالك" وما أشْبهَ ذلك[2].

3) ﴿وَذَرُواْ﴾: وَذَرَ، يَذَرُ، والأمرُ منه: ذَرْ، وَذَرُوا: فعلُ أمرٍ لم يَردْ في اللّغة استعمالُ ماضِيه، ولا مصْدرِه، ولا يُستعملُ منه سوى المضارعِ والأمرِ، وهو بمعنى التّركِ والإهمالِ، تقول: ذَرْهُ؛ أي: دَعْهُ واتْرُكه، ويقالُ: فلان يَذَرُ الشَّيءَ؛ أي: يقذِفُه لقلّةِ اعتدادِه به، وفيه معنى التّهديدِ والوعيدِ[3]، ومعنى ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾؛ أي: اتْركوهم فلا تقيمُوا لقولِهم وزنًا، ولا تتّبعُوا ما يقولونَ، ولا تحاجُّوهم ولا تَعْرِضُوا لهم، ولا تُغلّبُوا أنفُسَكم في مجادلِتهم؛ وكلُّ ما في القرآن من هذا التّركيب فهو بمعنى التّرك[4].

4) ﴿يُلۡحِدُونَ﴾: اللام والحاء والدّال أصلٌ يدلّ على مَيْلٍ عنِ استقامةٍ، ولحدَ وألحدَ بمعنًى واحدٍ، يقال: ألحدَ الرَّجلُ إذا مال عن طريقة الحقِّ والإيمان، والإلحادُ: الميلُ عنِ الوسطِ حِسًّا أو معنًى، والأوّلُ هو الأصلُ فيه، والإلحادُ ضربان: إلحادٌ إلى الشّركِ باللّه، وإلحادٌ إلى الشّركِ بالأسبابِ، فالأوّلُ يُنافي الإيمانَ ويُبطِلُه، والثاني يُوهنُ عُراه ولا يُبطِلُه[5]، ومعنى إلحادِهم في أسمائه جعْلُها مَظهرًا من مظاهرِ الكُفرِ، وذلك بإنكارِ تسْميَتِه تعالى بالأسماءِ الدّالّةِ على صفاتٍ ثابتةٍ له، واشْتقاقِهم اسْمَ اللّاتِ من اسْمِ اللّه، واسْمَ العُزّى من اسمِ العزيز، واسْمَ مَناةٍ من المنّانِ، ونحوِ ذلك[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خطابٌ للمسلمين يُرشدُهم لمنهجٍ قويمٍ في مواجهةِ الإلحادِ في دين اللّه؛ وهو الانحرافُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دعو).
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 351/2، والمراغي، تفسير المراغي: 116/9.
(3) الرّاغب، المفردات، والرازي، مختار الصحاح، ومجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 232/5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 189/9، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3015/6.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لحد).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 189/9، والشنقيطي، أضواء البيان: 45/2.

والتَّحريفُ المستمرُّ المتجدّدُ والذي أخذَ ويأخذُ صُورًا كثيرةً، أوّلُها وأفظعُها: إشراكُهم باللّه غيرَه؛ لأنَّ في ذلك إبطالًا لأخصِّ الصّفاتِ الإلهيّةِ وهي الوحدانيّةُ، ومن ركائزِ هذا المنهجِ العلمُ بجلالِ صاحبِ هذا المنهجِ الذي له دون غيرِه الأسماءُ الحُسنى الدّالّةُ على كمالِ عظمَتِه، وكلُّ أسمائِه حُسْنَى وله الصّفاتُ العُلَى، والاستعانةُ بها ثناءً ودُعاءً وعبادةً؛ فإنّ أهمَّ ما يحميهم منَ الغفلةِ هو الدّوامُ على ذكْرِ اللّه بأسمائه الحُسنى، فإنَّ القلبَ إذا غفلَ عن ذكْرِ اللّه أقبلَ على الدُّنيا وشهواتِها، وإذا أقبلَ على الذّكرِ تخلّصَ من نيرانِ الآفاتِ، ورقِّ الشّهواتِ. والإعراضُ عن شَغَبِ المُنحرفين المُحرِّفين، الذين يُغيِّرون في أسمائه بالزّيادةِ أوِ النُّقصانِ أوِ التّحريفِ، كأن يُسمَّى بها من لا يَستحقُّها، كتسميّةِ المشركين بها آلهتَهم، أو أن يجعلَ لها معنًى لم يُرِدْه اللّه ولا رسولُه، فلا تأبَهوا لما هم فيه منَ الإلحادِ، فإنَّ اللّه قد وعدَهم بأنّه كافيهم، وسوف يُجزَوْن جزاءً على أعمالِهم السّيئةِ التي كانوا يعملونَها في الدّنيا منَ الكفرِ باللّه، والإلحادِ في أسمائه[1].

أثَرُ الأسماءِ الحُسنى في التّأي عنِ الغفلةِ، وبيانِ منهجِ الرّشادِ في مُواجهةِ الإلحادِ

وتُرشدُ الآيةُ إلى أدبِ دُعاءِ اللّه تعالى، فيُدْعى في كلِّ مطلوبٍ من أنواعِ أسماءِ اللّه بما يناسبُ ذلك المطلوبَ، فيقولُ الداعي - عند طلبِه المغفرةَ والتّوبةَ - مثلًا: اللّهم اغْفرِ لي وارحمْني، إنّك أنت الغفورُ الرّحيمُ، وتبْ عَلَيَّ يا توّابُ، ويقول - عند طلبِه الرّزقَ -: وارزقْني يا رزّاقُ، ونحوَ ذلك مما يناسبُ من أسماءِ اللّه مَقامَ دعائِه وموضوعَه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائِدةُ القصْرِ بتقديمِ ما حقُّه التّأخيرُ، في مُفتتَحِ الآيةِ:

الأسماءُ الحُسنى، علاجٌ للقلوب، ووَصْلٌ بعلّامِ الغُيوبِ

جاء القصْرُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بتقديمِ المُسنَدِ (للّه) على المُسنَد إليه ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، مُثبتًا حصْرَ هذه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/185، والمراغي، تفسيره: 9/117.

الأسماءِ باللّه سُبحانَه واختصاصَه بها، وتأكيدَ استحقاقِه إيّاها، الذي يُستفادُ كذلك منَ اللّام وهي لامُ الاستحقاقِ، والمعنى أنَّ اتِّسامَه بها أمرٌ ثابتٌ، فإذا أُطلقتِ الأسماءُ الحُسنى، فلا يُرادُ بها إلَّا اللّه؛ أي: لا يوجدُ لغيرِ اللّه اسمٌ يُوصفُ بأنّه منَ الحُسنى[1]، ففي التّقديمِ تأكيدٌ لاستحقاقِ الأسماءِ.

معنَى (الواوِ) في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

بيانُ المزيدِ من أحوالِ المشركين

الواو عاطفةٌ، عطفتْ هذه الآيةَ على التي قبۡلَها عطۡفَ الأخبارِ عن أحوالِ المشركين وضَلالِهم[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالاسْمِ الأعْظَمِ:

ترسيخُ معنَى ارتباطِ الأسماءِ الحُسنَى بالذّاتِ الإلهيّةِ، ونفْيِ العقائدِ الضَّلاليّةِ

ناسبَ أن يجيءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ دونَ الضّميرِ، بخلافِ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: 110]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ [طه: 8]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحشر: 24]؛ لاسْتِحضارِ المهابةِ في النّفسِ وتمكينِ معنَى الإحسانِ في عبادةِ اللّه تعالى، وإفرادِه في العبادةِ، والتّوصُّلِ بأسمائِه ﷻ إلى حقيقةِ الإيمان وتحقُّقِ الإحسانِ، وجاء تخصيصُ هذا الأُسلوبِ في سورةِ الأعرافِ دونَ غيرِها منَ السُّورِ مُتناسبًا مع ما قرّرتْه السّورةُ من معاني التَّوحيدِ، وبثِّ مهابةِ اللّه تعالى في النّفوسِ، ومواجهةِ الإلحادِ في دينِ اللّه تعالى.

سِرُّ التَّعبيرِ بالأسماءِ الحُسنَى دونَ الصِّفاتِ:

عبّرَ القرآنُ بالأسماءِ الحُسنَى دونَ الصّفاتِ؛ لأنَّ الاسْمَ يدلُّ على أمرَيۡن، والصّفةَ تدلُّ على أمرٍ واحدٍ؛ فالأسماءُ الحُسنى هي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/186.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/186.

كلُّ ما دلَّ على ذاتِ اللّه بالتّخصيصِ أو بالغلبةِ مع صِفاتِ الكمالِ القائمةِ به، مثل: الحكيمِ والعليمِ والسّميعِ، فهي تدلُّ على ذاتِ اللّه، وما قام به منَ الحِكمةِ والعلْمِ والسّمعِ والبصَرِ، وأمّا الصّفاتُ فهي نعوتُ الكمالِ القائمةِ بذات اللّه تعالى، كالحِكمةِ والعلْمِ والسّمعِ والبصَرِ، ولا سَبيلَ إلى مَعرفةِ اللّهِ إلَّا بمعرفةِ أسمائِه، والتفَقُّه في فَهمِ مَعانِيها، ومعرفةِ صِفاتِه، وقد اشتمَلَ القُرآنُ من ذلك على ما لم يَشتَمِلْ عليه غيرُه، من تفاصيلِ ذلك، وتوضِيحِها والتعَرُّف بها إلى عبادِه، وتعريفِهم لنَفْسِه؛ كي يَعرِفوه، فقد خَلَقَ اللّهُ الخَلْقَ لِيَعبُدوه ويَعرِفوه، فهذا هو الغايةُ المطلوبةُ منهم، فالاشتغالُ بذلك اشتِغالٌ بما خُلِقَ له العَبدُ، وتَرْكُه وتضييعُه إهمالٌ لِما خُلِقَ له[1].

اتِّساعُ دَلالةِ (الأسماءِ الحُسنَى) لِما لا تتّسعُ له دَلالةُ (الصّفاتِ)

دَلالةُ لامِ الاسْتِحقاقِ، في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾:

استعمالُ لامِ الاسْتِحقاقِ - وهو معناها العامُّ؛ وهي الواقعةُ بين معنًى وذاتٍ - في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ إشعارٌ بقصْرِ تلك الأسماءِ على اللّه ﷻ، وخاصّةً أنّه جاء مع تقديمِ الاسْمِ الجليلِ "اللّه".

اللّهُ وحدَه له الأسماءُ الكاملةُ في الحُسنِ، المعبِّرةُ عن الجلالِ والجمالِ

معنَى (أل) الاستغراقيّة في ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾:

تعريفُ الأسماءِ بـ: "أل" الجنسيّةِ الاستغراقيّةِ مُشعِرٌ باختصاصِ اللّه ﷻ، بكلِ اسْمٍ كريمٍ، سمَّى به نفْسَه أو سمّاه به رسولُه صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلّم، فالبابُ غيبيٌّ توقيفيٌّ، لا دخْلَ للعقلِ فيه إلّا الاتِّباعُ والتّسليمُ، إذ كيف تدركُ العقولُ كُنْهَ صفةِ الرّبِ ﷻ؛ فله منَ الكمالِ أعلاه، فلا يَشركُه فيه سِواه.

اللّهُ له منَ الكمالِ أعلاهُ، فلا يَشركُه فيه أحدٌ سواه

سِرُّ اخْتِيارِ كلمةِ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ مؤنَّث (الأحْسن)، وهي صِيغةُ تفضيلٍ مُحلّاةٌ بـ: "أل" فهي مَظِنّةُ التّخصيص، فله وحدَه الأسماءُ الحُسنى، التي بلغتْ غايةَ الحُسنِ، إذِ التّفضيلُ مَظِنّةُ العهْدِ، فـ: "أل" في هذا

اللّهُ مُتّصفٌ بالحُسْنِ الكاملِ في ذاتِه، وأسماؤُه مُنْبئةٌ عن أحْسنِ المعاني

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 35.

السّياقِ عهديّةٌ تشيرُ إلى أسماءٍ بعينِها اختصَّ بها مُسمًّى بعينِه فلا يَشركُه في كمالِها أحدٌ، كما قرّرَ البلاغيّون، فهي أحسنُ الأسماءِ وأجلُّها، ولإنبائِها عن أحْسنِ المعاني وأشرفِها في صلاحيّةِ الألوهيّةِ لها، وصلاحيّتِها للألوهيّةِ، لذا "كان اتّصافُ المخلوقِ بها مَنشَأَ فسادٍ في الأرضِ، وكان اتّصافُ الخالقِ بها منشأَ صَلاحٍ؛ لأنّها مصدرُ العدالةِ والجزاءِ القِسْطِ"[1]، كما أنَّ من أسبابِ وصْفِها بالحُسنى موافقتَها للسّياقِ الذي هو التّفكّرُ والتّدبّرُ، وأكثرُ ما وردَ (الحُسنى) في القرآن للمُستحْسنِ بالبصيرةِ[2]. فاللّهُ له الأسماءُ الحسنى، أي: له كلُّ اسْمٍ حسنٍ، وضابطُه: أنّه كلُّ اسْمٍ دالٍّ على صفةٍ كمالٍ عظيمةٍ، وبذلك كانت حُسنَى، فإنها لو دلّت على غيرِ صِفةٍ، بل كانت عَلَمًا محْضًا لم تكنْ حُسنى، وكذلك لو دلَّتْ على صفةٍ ليست بصِفةِ كمالٍ، بل إمّا صِفةُ نقصٍ أو صفةٌ مُنقسمةٌ إلى المدْحِ والقدْحِ، لم تكنْ حُسنى كذلك، فكلُّ اسْمٍ من أسمائِه تعالى دالٌّ على جميعِ الصّفةِ التي اشتُقَّ منها، مستغرقٌ لجميعِ معناهَا[3].

معنَى (الفاءِ)، في قولِه: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾:

هي أسماءٌ حُسنى، فادعوا اللهَ بكلِّ ما دلَّ على صفاتِه وعلى أفعالِه

الفاءُ التّفريعيّةُ تفصّلُ ما قبْلَها من كلامٍ مُجمَلٍ، وهي في قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ تفريعيّةٌ، أي: المعنى تفريعٌ عن كونِها أسماءَ له، وعن كونِها حُسنى، أي: فلا حرجَ في دعائِه بها؛ لأنّها أسماءٌ متعدّدةٌ لمسمًّى واحدٍ، لا كما يزعمُ المشركون، ولأنّها حُسنى فلا ضيْرَ في دعاءِ اللّه تعالى بها، وذلك يشيرُ إلى أنَّ اللّه يُدعَى بكلِّ ما دلَّ على صفاتِه وعلى أفعالِه[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/187.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/410، 2/15، 14، 13.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 174.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/187، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3015.

دَلالةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾:

مقامُ العظَمةِ يَستدعِي أن يكونَ الفعْلُ أمْرًا

عبَّرَ بفعلِ الأمرِ دون غيرِه هنا؛ لأنَّ مقامَ العظَمةِ الذي تجلَّتْ به الآياتُ يَستدعِي ذلك، والأمرُ هنا حقيقيٌّ على بابِه، وهو طلبُ حُصولِ الشّيءِ على وجْهِ الاستعلاءِ، أي: منَ الأعلَى إلى الأدنَى.

وجْهُ اختيارِ (الواوِ)، في قولِه: ﴿وَذَرُواْ﴾:

منْ كَمالِ تَوْحيدِ الله والْتزامِ منْهجِه، الإعراضُ عن شَغبِ المُنحرِفين المُحَرِّفين

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ هنا بحرفِ العطْفِ الواو دونَ غيرِها من حروفِ العطْفِ؛ لِمَا لهذا العطْفِ من توْجيهِ المعنَى، وهو أنّه في الوقتِ الذي تدْعونَ اللّٰه بأسمائِه الحُسنى تَذَرون الذين يُلحِدون في أسمائِه، الذين يميلون عنِ الحقّ في هذه الأسماءِ بجعْلِها لغيرِ اللّٰه، أو نفْيِها عنه، أو تحريفِ معناها أو تشبيهِ غيرِه بها، فأنتم تدْعُونَهم دون أيِّ تأخيرٍ أو ترتيبٍ. وأنّه لا يمكنُ أن ينْفكَّ دعاؤكم اللّٰه عن تركِكُم وتجنُّبِكم وعدمِ اكتراثِكم بإلحادِ الملحِدين.

بَلاغةُ الاسْتعارةِ في قولِه: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾:

تشبيهُ الكافرين بمَنْ يَميلُون ويَنْحرِفون

شبّه الكفرَ والإفسادَ بالإلحادِ، والإلحادُ هو: الميلُ عن وسَطِ الشّيءِ إلى جانبِه، ولمّا كان وسَطُ الشّيءِ يُشبَّهُ به الحقُّ والصّوابُ، أُطلِقَ الإلحادُ على الكُفرِ والإفسادِ، وعُدّي بـ(في) لتنزيلِ المجرورِ بها منزلةَ المكانِ للإلحادِ(1). فالاستعارةُ في هذا السّياقِ تُشيرُ إلى أولئك الذين يَنحرِفون عنِ استخدامِ أسماءِ اللّٰه بالطريقةِ المناسِبةِ، مثل إطلاقِ اسْمَيِ (اللّاتِ) و(العُزَّى) على أصنامِ المشركين، وهي أسماءٌ مشتقّةٌ من أسماءِ اللّٰه تعالى: (اللّٰه) و(العزيز).

سِرُّ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

جُملةُ الصِّلةِ كاشفةٌ عن سببِ الأمْرِ (وَذَرُوا)

المرادُ بالموصولِ في قولِه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ قومٌ معهودون، وهمُ المذكورون في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/189.

كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾، ولم يقل النَّظْمُ: (الملحدين في أسمائه)، بل عرَّفه بالاسْمِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ استحقاقِهم للنّبذِ والتّركِ والإعراضِ عنهم، وهو الإلحادُ في دينِ اللّه، فتحريفُهم دليلٌ أكيدٌ على أنّهم لم يَستمِعُوا سماعَ طالبٍ للحقِّ، كما أنّها تشيرُ إلى أنَّ أدنَى إلحادٍ في دِين اللّه ينطبقُ عليه حكمُ الآيةِ، وليس بالضّرورةِ أن يكونَ راسخًا في الإلحادِ، وهذا المعنى لايتأتَّى إلا بذكْرِ جملةِ الصّلةِ.

نُكتةُ جمْعِ صِلةِ الموصول، في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾:

المستحِقُّون للنّارِ فريقٌ اتّفق على الإلحادِ، ومُنابذةِ الإسلامِ

في إيرادِ الاسْمِ الموصولِ جمعًا: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنّهم فريقٌ اجتمعَ على الإلحادِ في دينِ اللّه، واتّفقَ على ذلك، وزيّنَ بعضُهم لبعضِهم الآخرِ ذلك، وقد بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ اجتماعَهم على الغفلةِ والضّلالِ والباطلِ: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ۝١٧٧﴾ [الأعراف: 176، 177] و﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: 179].

سِرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ، في قولِه: ﴿يُلْحِدُونَ﴾:

استمراريّةُ الانحرافِ عنِ الحقِّ وتجدُّدِه

تُفيدُ صيغةُ المضارعِ استمرارَ الإلحادِ في دينِ اللّه، وتجدُّدَ صُوَرِه في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وأنّها لا تقتصرُ على الصّورةِ التي كانت في زمانِه ﷺ منَ الإلحادِ في أسماءِ اللّه بتحريفِها اللّفظيِّ إلى الآلهةِ المُدَّعاةِ، وإنّما تنسحبُ على الذين يُلحدون؛ أي: يُحرّفون أو يَنحرِفون في تصوُّرِهم لحقيقةِ الألوهيّةِ على الإطلاقِ، كالذين

يدَّعُون له الولدَ، وكالذين يدَّعون أنّ مشيئتَه سبحانه مُقيَّدةٌ بنواميسِ الطّبيعةِ الكونيّةِ! وكذلك مَن يدّعُون أنه سبحانه إلهٌ في السّماء؛ أي: في تصريفِ نظامِ الكوْنِ، ولكنَّه ليس إلـهًا في الأرضِ، ولا في حياةِ النّاسِ، إنَّما النَّاسُ همُ الذين يُشرّعون لأنفُسِهم بعقولِهم وتجاربِهم ومصالِحِهم؛ وكلُّه إلحادٌ في اللّه وأسمائِه وصفاتِه وخصائصِ ألوهيّتِه.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ حرْفِ الظّرفيّةِ ﴿فِيٓ﴾:

الكُفّارُ مُنغمِسون في إلحادِهم في دينِ الله، وهو سببُ دُخولِهم النّارَ

حرفُ الوعاءِ ﴿فِيٓ﴾، من قولِه تعالى ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ إمّا أن يدلَّ على الظّرفيّةِ كما هو شأنُه، ويكونُ المرادُ أنّهم مُنغمسون في الإلحاد تفصيلًا في أسمائِه الحُسنى وصفاتِه العُلَى، وليسُوا مُنكرين وجودَ اللّه فحسْبُ، وإمّا أن تكونَ ﴿فِيٓ﴾ فيها معنى السّببية كما في قوله ﷺ: «عُذّبت امرأةٌ في هِرّةٍ سَجَنَتْها حتى ماتت»[1]، أي: بسببِ حبْسِ هرّةٍ، والدّلالتان غيرُ متعارضتين، فالوجهُ الأوّلُ لبيان صُورةِ الإلحادِ، والوجْهُ الثّاني لبيانِ أثرِه فيهم.

عِلّةُ الإظْهارِ في قوله: ﴿فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾:

التَّشنيعُ على الكفّارِ، يقتضِي إظْهارَ المُشنَّعِ به عليهم

أظهرَ ﴿فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ - وإن كان المقامُ مقامَ الإضْمارِ - بدلًا منَ الإضْمارِ بأن يقال: (يلحدون فيها)؛ لأنّه سبقَ ذكْرُ الأسماءِ؛ للإيذان بأنَّ إلحادَهم في نفْسِ الأسماءِ من غيرِ اعْتبارِ الوصْفِ[2]، والحكمةُ منَ الإظهارِ هنا مزيدُ التَّشنيعِ من فعْلِهم؛ إذ لا يَتصوّرُ عاقلٌ أن يُلحَدَ في أسماء اللّه، وبناءً على ذلك لا يكونُ المرادُ بالتّرك حينئذٍ: ﴿وَذَرُواْ﴾ الاجتنابَ عن ذلك؛ إذ لا يُتوهَّمُ صُدورُ مثلِ هذا الإلحادِ عنِ المؤمنين ليُؤمَرُوا بترْكِه، بل هو الإعراضُ عنهم وعدمُ المبالاةِ بما

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2365، 3482)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2242).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 296/3.

فعلُوا؛ ترقُّبًا لنزولِ العقوبةِ بهم عن قريبٍ، كما هو المتبادَرُ من قولِه تعالى ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بحرفِ (السّين):

تأكيدُ قُربِ وُقوعِ الوعيدِ، أنْسبُ لِسياقِ التَّهديدِ

تُفيدُ السّينُ في قوله تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ﴾ تأكيدَ وقوعِ حسابِه للمُلحِدين في دينِ الله في المستقبَلِ القريب، بما يُفيدُ تهديدًا لهم، فقد "هدَّد تعالى في هذه الآيةِ الذين يُلحِدون في أسمائِه بتهديدَيْن:... والثّاني: في قولِه: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾"[2].

بَلاغةُ التّعبيرِ بـ﴿مَا﴾:

التّعميمُ في المجزيِّ عليه، تخويفٌ للمُسيئينَ من عواقبِ السُّوءِ

استعملَ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وهي موصولةٌ عامّةٌ؛ أي: سيُجزَون بجميعِ ما يعملونَه منَ الكُفرِ، ومن جملةِ ذلك: إلحادُهم في أسمائِه، واستخدمَ أعمَّ الموصولات وأدْخلَها في الإبهامِ، فلا تُغادرُ صغيرةً ولاكبيرةً، أدْخلُ في التّرهيبِ والوعيدِ.

بَلاغةُ حذْفِ الباءِ في الآيةِ:

عدلُ الله مع العُصاةِ المُلحِدين، أنْ يُجازِيَهم بما كانوا يعملون

قولُه تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، الأصلُ فيه، أن يقول: (سيجزون بما كانوا يعملون)[3]، ولكن حُذفتِ الباءُ لإشارةٍ بيانيّةٍ، وهيَ توافقُ الجزاءِ مع العملِ، حتى لكأنَّ الجزاءَ هو العمَلُ ذاتُه، لاتّحادِ السّببِ والمسَبّبِ، فكان جزاءً وِفاقًا للعملِ لا يزيدُ عليه، قال تعالى: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾ [عم: 26]، بل يغفرُ ﷻ برحمتِه[4]، لمن تابَ عن إلحادِه وأصلَحَ. وحِكمةُ هذا التّعبيرِ في سِياقِ الحديثِ عن أسمائِه ﷻ واضحةٌ فتأمَّلْ، فهو عدْلٌ حتى مع العُصاةِ المُلحِدين.

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

وردَ السّياقُ الكريمُ بصِيغةِ الماضِي في قولِه: ﴿كَانُواْ﴾، وهي تدلُّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/296.

(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 2/45.

(3) ثبتت الباء في القرآن في حوالي خمسين آية.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3015.

على وقوعِ ذلك منهم وتحقُّقِه، دون أن يقالَ: (ما عملوا أو ما يعملون)، كما تدلُّ صِيغةُ المضارع في النَّظْمِ من قولِه: (يعملون) على أنّ كُفْرَهم باللّه وبآياته بألْسنتِهم وجوارِحِهم، كان سُنّةً لهم مُتجدّدةً منهم، وعلى أنَّ جزاءَ اللّه على هذا الكُفرِ مُستمِرٌّ لا انقطاعَ له.

جزاءُ اللّه لا يَغفلُ عن كُفرِهم الّذي كان سُنّةً لهم ومُتجدِّدًا منهم

بَلاغةُ حذْفِ مفعول ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

حذفَ البيانُ الإلهيُّ المفعولَ به؛ لدَلالةِ كثْرةِ إلحادِهم في دينِ اللّه بأعمالِهم السّيئةِ بقلوبِهم وألسنتِهم وجوارِحِهم، والنّفْسُ تذهبُ في المحذوفِ كلَّ مذهبٍ في سُوءِ صنيعِهم وقُبحِ أعمالِهم، فهو أوسعُ دَلالةً منَ التّصريحِ به.

جزاءُ اللّه لهم عادلٌ مُنصفٌ، لكثرةِ إلحادِهم في دينِ اللّه قولًا وفعلًا

التَّذْييلُ التَّعليليُّ في خِتامِ الآيةِ:

يتنزّلُ قولُه تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في ختامِ الآيةِ الكريمةِ منزلةَ التّعليلِ للأمرِ بتَرْكِ الملْحِدين؛ أي: لا تهتمُّوا بإلحادِهم ولا تحزنُوا له؛ لأنَّ اللّه سيَجْزيهم بسُوءِ صنيعِهم، يقول الآلوسيّ: "إنّه استئنافٌ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنه قيلَ: لِمَ لا نبالي؟ فقيل: لأنّه سيُنْزلُ بهم عقوبةً وتَشْتَفُون عن قريبٍ"[1].

مُفادُ الخطاب للمؤمنين أنْ لا يهتمُّوا بإلحادِهم ولا يحزنُوا له، فاللّهُ حسيبُهم

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ادعوه) و(نادوه):

الدّعاءُ: معناه المحوريُّ: جذبُ الشّيءِ أو محاولةُ ضمِّه إلى حيّزٍ أو أمرٍ، كجذْبِ النّاس إلى الوليمةِ والاجتماعِ، والسَّوقِ إلى الأمير، ومنه الدّعاءُ بمعنى التّضرّعِ إلى اللّه ﷻ في طلَبِ أمْرٍ. والدّعاءُ: العبادةُ؛ لأنَّ العبادةَ تقرّبٌ إلى المعبودِ واعتزاءٌ إليه، واستكفاءٌ به، فهي منَ الجذْبِ والانجذابِ، ويأتي بمعنى النّداءِ استلفاتًا أوِ استحضارًا أوِ استنهاضًا[2].

الدّعاءُ بمعنى التّضرّعِ إلى اللّه تعالى في الطّلبِ، والنّداءُ دعاءُ الشّخص ليلتفتَ أو ليحضُرَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 116/5.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دعو).

وأمّا النّداءُ: فأصلُه يدلُّ على تجمُّعٍ، ومنه النّادِي والنّديّ: المجلسُ يندُو القومُ حواليْه، ومنه دارُ النّدوةِ بمكّةَ؛ لأنّهم كانوا ينْدُون فيها أي يجتمعون، ونادَى: رفعَ الصّوتَ صياحًا، وتأتي بمعنى دعاءِ الشّخص ليلتفتَ أو ليحضرَ عند المنادي، والتّنادِي: نداءُ بعضِهم بعضًا[1].

والفرقُ بين الدّعاء والنّداء في أنّ: النّداءَ قد يقالُ: بيا أو أيا ونحوِ ذلك من أدوات النّداء من غيرِ أن يُضمَّ إليه الاسْمُ، وأمّا الدّعاءُ فلا يكادُ يقالُ إلّا إذا كان معه الاسْمُ، وأيضًا: النّداءُ يكونُ برفعِ الصّوت، بينما الدّعاءُ يكونُ برفعِ الصّوت وخفْضِه، يقال: دعوتُه من بعيدٍ، ودعوتُ اللّه بنفسي[2].

(ذَرُوا) و(اتْرُكُوا):

الــذَّرْوُ معناه التّركُ والإهمالُ، والـتّركُ مفارقةُ الــــشّيءِ، والانفصالُ عنه

الذَّرْوُ: معناه التّركُ والإهمالُ، ولا يُستعملُ منه سوى المضارعِ والأمرِ، تقول: ذَرْهُ؛ أي: دَعْهُ واتْرُكه، ويقالُ: فلان يَذَرُ الشَّيءَ؛ أي: يقذِفُه لقلّةِ اعتدادِه به، وفيه معنى التّهديدِ والوعيدِ[3].

والتّركُ: مفارقةُ الشّيءِ ما كان يعلقُ به، وانفصالٌ عنه، ويُطلقُ على التّخلّي عنِ الشّيء وعدمِ التّعلُّقِ به، وعلى إبقائِه على حاله دون مَساسٍ به[4]، وتركَ الشّيءَ: رفضَه قصْدًا واختيارًا أو قهرًا واضطرارًا، ومنه تَركةُ فلانٍ: ما يُخلّفُه بعدَ موتِه[5].

وعلى الرُّغمِ من تقارُبِ معنيَيْهما إلّا أن الذَّروَ يتميّزُ بمعنى الإهمالِ وقلّةِ الاعتدادِ بالشّيءِ، وفيه معنَى التّهديدِ والوعيدِ بحسَبِ سِياقِه، بينما يتميّزُ التّركُ بمعنى المفارقةِ، وإبقاءِ الشّيءِ على حاله.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ندى).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 38، والرّاغب، المفردات، ص: 226 - 227، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 600/2.
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصحاح، ومجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ترك).
(5) الرّاغب، المفردات: (ترك)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 298/2، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ترك).

والسّرُّ في اصطفاءِ (ذروا) هنا أنَّ مادّةَ الفعلِ تتضمّنُ معنى الازدِراء؛ إذ إنَّ من معاني (ذَرُوا) اللّغويّةِ قذفَ الشّيء لقلّةِ اعتدادِه به، أي: "اتركُوا هؤلاء على حالةٍ ذرّيّةٍ"[1]، أمّا صِيغةُ الكلمةِ فقد جاءت بصِيغةِ الأمرِ الذي يحملُ معنى التّهديد للمُلحِدين في دين اللّه، كقوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١﴾ [المدثر: 11]، وفيه معنى: ألّا ينقطعَ المؤمنون عن إهمال شأنِ الذين يُلحِدون في أسماء اللّه، وعن عدمِ القلقِ من كيدِهم وعدمِ المبالاة بما فعلوا؛ ترقّبًا لنزول العقوبةِ فيهم، فاللّه كافِيهم عن قريبٍ، وكذا لا ينقطعُ عنِ اجتنابِهم حتى لا يصيبَه ما يُصيبُهم، وهذا المعنى من كوْنِ الأمر عند بعضِ الأصوليّين يقتضِي التّكرارَ.

يعملون ويفعلون:

العملُ: جُهدٌ مادِّيٌّ يؤدِّي إلى إحداثِ شيءٍ، ويعمُّ أفعالَ القلوبِ والجوارحِ، والعملُ إيجادُ الأثرِ في الشّيء، يقال: فلانٌ يعملُ الطّينَ خزفًا، ولا يقالُ يعملُ ذلك، إلّا في ما كان عن فكرٍ ورويّةٍ، ولهذا قُرن بالعلم، فالعملُ: كلُّ فعلٍ مقصودٍ، فهو أخصُّ منَ الفعل؛ لأنّ الفعلَ قد يقعُ بغير قصْدٍ[2]، والفعلُ: التأثيرُ من جهةِ مُؤثِّرٍ، وهو عامٌّ يكونُ في الخير والشّرِّ، بعلمٍ أو بغير علمٍ، بقصْدٍ أو بغيره، من عاقلٍ وغيرِ عاقلٍ؛ فالعملُ أخصُّ منه، ويُستعملُ الفعلُ في العمليّةِ التي تتطلّبُ قوّةً زائدةً، وفي الأحداثِ العنيفةِ، كقوله تعالى: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ [الشعراء: 19][3].

العـمـلُ كـلُّ فعلٍ مقصودٍ، والفعلُ قد يقعُ بـغـير قـصْـدٍ؛ فالعملُ أخصُّ منَ الفعلِ

فالعملُ أخصُّ منَ الفعلِ فلا يكونُ إلّا بقصْدٍ وعن فكرٍ ورويّةٍ، أي: لا يكون إلّا من عاقلٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 176/8.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمل)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 134، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عمل).

(3) الرّاغب، المفردات: (فعل)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 101/4، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فعل).

وأمَّا الفعلُ: فهو عامٌّ فقد يكونُ بقصْدٍ؛ أو بغير قصدٍ من عاقلٍ وغيرِ عاقلٍ؛ بعلم أو بغيرِ علمٍ.

واستخدامُ (يعملون) أنسبُ في بيان المرادِ من (يفعلون)؛ لأنَّ (العمل) هو اسْمٌ للحدَثِ من أيِّ جارحةٍ؛ فنُطْقُ اللّسانِ عملٌ، وشَمُّ الأنفِ عملٌ، ونعلمُ أنَّ هناك ما يُسمَّى بـ(قول وفعل)، و(الفعل) عملُ الجوارح ما عدا اللّسانَ؛ و(القول) عملُ اللّسان، والاثنان يُطلقُ عليهما عملٌ، وقد قابل القولُ الفعلَ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الصف: 2] إذن سيُجازِيهم الله على أقوالهم وأفعالهم - لأنَّ كِليْهما عملٌ - لا على أفعالهم فقط، "وسمَّى إلحادَهم عملاً؛ لأنّه من أعمال قلوبِهم وألْسنتِهم"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 190/9.

﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٨١﴾ [الأعراف: 181]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المنـاسـبـةُ بين جــلالِ أسـمـاءِ اللهِ، وأنّ الكَونَ لا يخلُو من هُداةٍ للحقِّ والعدْلِ

لما ذكرَ اللّه منْ ذَرَأَ للنّار ذكرَ مُقابِلَهم من أهل الهدايةِ والاهتداءِ[1]، ووجهٌ آخرُ: أنَّ اللّه لمّا ذكر الذين يُلحِدون في أسمائه مُحذّرًا منهم ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ عقّبَ بذكْرِ الذين يَدعُون النّاسَ إلى الحقِّ وبه يعملون، بما يُطَمْئِنُ أهلَ مَنهجِ اللّه بأنَّ كونَ اللّهِ لا يخلُو من هُداةٍ مَهديّين[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٞ﴾: من أَمَّ، الهمزةُ والميم أصلٌ واحدٌ يتفرّعُ منه أربعةُ أبوابٍ، وهي الأصلُ، والمرجعُ، والجماعةُ، والدِّينُ، وهذه الأربعة متقارِبةٌ، والأمّةُ: الجيلُ منَ الناس، جماعةٌ كبيرةٌ متّحدُو الجنسِ أو زمنِ الوجود معًا[3]، والمقصودُ بأمّةٍ في الآية: جماعةٌ[4].

2) ﴿يَهۡدُونَ﴾: الهُدى، خلافُ الضّلالةِ، وهو تبْيينُ الوِجهةِ، الهاء والدّال والحرفُ المعتلُّ أصلان أحدُهما التّقدُّمُ للإرشاد، والآخرُ بعثةُ لَطَفٍ، فالأوّلُ قولُهم: هديتُه الطّريقَ هدايةً أي: تقدّمتُه لأُرشدَه، وكلُّ متقدِّمٍ لذلك هادٍ، ومنَ الأصل الآخرِ: الهديّةُ[5]، ومعنى ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يعودُ للأصل الأوّل أي: يدعُون، ويُرشِدون إلى الحقّ، ويَسيرون عليه[6].

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 417/15، وأبو حيان، البحر المحيط: 232/5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 190/9.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4486/7.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (أمم)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 143، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أمم).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 285/13.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هدى).

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 516/3.

3) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: الحاء والقاف أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحكام الشّيء وصِحَّته، وحقَّ الشيءُ ثبتَ ووجبَ، والحقُّ: نقيضُ الباطل (الشّيءُ الثّابتُ الرّاسخُ المتمكّنُ بشريعةٍ صحيحة، أو عُرْفٍ عامٍّ مسلَّم)، والحقُّ: الصّدقُ والصّوابُ، وهو منَ المطابقةِ والموافقة، ومعنى "بالحق" هنا ضِدُّ الباطلِ الزائفِ؛ أي: يهدون بالصَّوابِ المطابِقِ للشّريعة ولحُكم اللّه تعالى[1].

4) ﴿يَعۡدِلُونَ﴾: العدلُ: العين والدَّال واللَّام أصلانِ صحيحانِ، لكنَّهما متقابلان كالمتَضادَّين: أحدُهما يدلُّ على استواءٍ، والآخرُ يدلُّ على اعوجاجٍ، فمنَ الأوّل مُوازنةُ ثِقلٍ في جانبٍ بثقَلٍ في جانبٍ آخرَ حتى يتَّزنا، ومنه أُخِذَ معنى الاستواءِ أوِ التّسويّة؛ والعَدْلُ نقيضُ الجَورِ[2]. ومعنى يَعدلون هنا يعودُ للمعنى الأول؛ أي: يجعلون الأمورَ مُتعادلةً، لا زيادةَ في شيءٍ منها على ما ينبغي ولا نقصَ، فهم يقضُون ويُنصفون النّاسَ ويحكمُون بالحقِّ ولا يَجورُون[3].

المَعْنى الإجْماليّ:

أمّةُ المسلمين أمّةُ هدايةٍ وعدْلٍ، خلقَها اللّه للدّعْوةِ والبذْلِ

من رحمة اللّه تعالى بعباده أنَّ الوجودَ لا يخلُو منَ الأخيارِ الهادِين المهديّين، الذين خلقَهمُ اللّه في مُقابِلِ من ذرأ لجهنّمَ؛ أمةٌ لم تُفْسِدْ فِطرتَها، بلِ التزمتْ منهجَ ربِّها؛ إخلاصًا في عبادتِه والتِجاءً إليه وثقةً بنصره، أمّةٌ متميِّزةٌ في هَديها واهتدائِها، فاضلةٌ كاملةٌ في نفسِها، مكمّلةٌ لغيرها، يَهدون أنفُسَهم وغيرَهم بالحقّ الذي يَجمعُهم، ولا يُفرّقُهم، فيعلمون الحقَّ، ويعملون به، ويعلِّمونَه، ويدعون إليه، وإلى العمل به، هذه هي صفةُ أمّةِ الإجابةِ، الأمّةِ المحمديّة[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عدل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 286/13، والبقاعيّ، نظم الدرر: 178/8.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3013/6، وحجازي، التفسير الواضح: 790/1.

وتُرشدُ الآيةُ إلى أنَّ اللّه ﷻ لا يُخلِي الدّنيا في وقت منَ الأوقات من داعٍ يدعُو إلى الحقِّ، وإلى أنَّ الإجماعَ حُجّةٌ في كلِّ عصْرٍ، وعلى أنه لا يخلُو عصرٌ من مجتهدٍ إلى قيامِ السّاعةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عطْفُ المقابلةِ بجُملتِه وزُبدتِه، بين الآيةِ وما قبْلَها:

التّأكيدُ على بقاءَ أمّةِ الحقِّ، والتّنويهُ بهَدْيها واهتِدائِها

جاء العطْفُ في الآيةِ في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ﴾ على جملة ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا﴾، إذ قابلَ حالَ المشركين في ضلالهم بحال المسلمين؛ فكما ذرأ لجهنّمَ كثيرًا منَ الجنِّ والإنس خلَقَ للجنّةِ كثيرًا من أهل الهداية والعدْلِ؛ لأنه أراد أن يُطمئِنَ أهلَ منهجِ اللّه بأنَّ هناك أمّةً مأمونةً على صيانةِ منهجِ اللّه إلى قيامِ السّاعةِ؛ وفي هذه المقابلةِ تنويهٌ بهذه الأمّةِ في هدْيِها واهتدائِها، كما تشيرُ المقابلةُ إلى أنَّ المسلمين ليسوا قلّةً، وهذه المقابلةُ: "لِيبيِّنَ أيضًا أنَّ كثيرًا منهم مخلوقون للجنّة"[2]، فالأمّةُ لا تُعبّر عن قلّةٍ، كما أنَّ قوله في الآيةِ السّابقةِ ﴿كَثِيرٗا﴾ لا يعني أنَّ المؤمنين قلّةٌ بدليلِ قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحج: 18]؛ أي: كثيرٌ منَ النّاس يَسجُدون للّه، وكثيرٌ حقَّ عليهم عذابُ اللّه، كما تشيرُ هذه المقابلةُ إلى معنًى جميلٍ، وهو أنّه لولا أنَّ النّاسَ يُضارّون بالشّرّ؛ لما تنبّهُوا إلى حَلاوةِ الخيرِ، ولو أنَّ الإنسانَ لم يُصَبْ من أصحابِ الباطلِ بسُوءٍ؛ ما تحمَّسَ للحقِّ أحدٌ، ولا عرف النّاسُ ضرورةَ أن يتأصّلَ الحقُّ في الوجودِ، فللشّرِّ إذن رسالتُه في الوجودِ وهي أن يُهَيِّجَ إلى الخيرِ[3].

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشرِ غيرِ المرَتَّبِ، في تصويرِ المعنى:

أتتِ الآيتانِ: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 397/9، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 443/5.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 417/15.

(3) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4474/7.

تَشويقُ النّفسِ إلى كلِّ ما يُذكَرُ بعدَ النَّشرِ العائدِ إلى اللّفِّ

﴿لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ كالنَّشرِ لقوله عزَّ شأنُه: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178] عند جمعٍ منَ المحقّقين على ما ظهرَ للعلامة الطِّيبي[1]، وكونُ هذا اللفِ والنّشرِ غيرَ مرتّبٍ؛ لأنّه قد ذكَرَ في اللّفِّ الهدايةَ قبل الضلالِ، وذكَرَ في النَّشرِ حُكمَ مَن ضلَّ، فكان أضلَّ منَ الأنعام قبلَ حُكمِ مَنِ اهتدى ويَهدي بالحقِّ، وبلاغتُه هنا تظهرُ من خلال تشويقِ النّفسِ وإثارتِها وإيقاظِها وتهيئتِها إلى كلِّ ما ذُكرَ بعد النّشرِ العائدِ إلى اللّفِّ من هلاكِ منْ أفسدَ فطرتَه وفلاحِ منِ اهتدى بالحقِّ.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ الماضي المعلومِ، في قولِه: ﴿خَلَقۡنَآ﴾:

وجودُ أمّةِ الهدايةِ والحقِّ والعدلِ، أمرٌ محقّقٌ لا شكَّ فيه

عبَّرَ بالفعل الماضي: ﴿خَلَقۡنَآ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ وجودِ هذه الأمّةِ الهاديةِ المهديّةِ، وأنّها الموجودةُ المنتصرةُ مهما شكَّك المشَكِّكون، ومهما ضاقتِ الأحوالُ، ولم يأتِ بالفعل (خُلِق) للمجهول؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تكريمٍ ومقامُ مدحٍ كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ [التين: 4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الأعراف: 11][2]، بخلاف ما يكونُ المقامُ مَقامَ إخبارٍ مجرّدٍ عنِ التّكريم أوِ المدحِ، ولم يُحتَجْ فيه إلى إبرازِ الفاعلِ، أو ليس مهمًّا إظهارُه في السّياقِ، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النّساء: 28]، وقوله: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [المعارج: 19].

بَلاغةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العظَمةِ: ﴿خَلَقۡنَآ﴾:

تأكيدُ إثباتِ المضمُونِ، بعظَمتِه سُبحانَه وخلقِه لعُمّارِ الكَونِ

عبّرَ بنون العظَمةِ في قوله: ﴿خَلَقۡنَآ﴾؛ إشعارًا بعظَمةِ الرّبوبيّةِ، وتأكيدًا لعدَمِ خُلوِّ الكَونِ من هُداةٍ مهديّين؛ كأنه يقول: (خلقنا بعظمتنا للجنة أمَّةَ الحقِّ...).

---

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 6/682.

(2) السامرائي، لمسات بيانية، ص: 154.

سِرُّ عدمِ التَّصريحِ بأنّ المرادَ بالأمّةِ، الأمّةُ الخاتمةُ:

قال أكثرُ المفسّرين: إنّها أمّةُ سيّدنا محمدٍ ﷺ؛ لما ثبتَ عنِ النّبيِّ ﷺ، ولكنّه "أبهمَ الأمرَ بعد تعيين قومِ موسَى ﵇ تعظيمًا لهم"(1).

أبهمَ الأمّةَ تفخيمًا لها، وإعلاءً لشأنِها

عِلّةُ التّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ، في: ﴿يَهۡدُونَ﴾، ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

تُفيدُ صِيغةُ المضارعِ الاسْتِمرارَ؛ أي: من أمّةِ الإجابةِ الثّباتُ على الحقِّ، وقد "دلّتِ الآيةُ على أنَّ اللهَ ﷻ لا يُخلِي الدّنيا في وقتٍ منَ الأوقاتِ من داعٍ يدعُو إلى الحقِّ"(2).

خَيريّةُ هذه الأمّةِ تكمنُ في ثباتِها، واسْتِمرارِها في الدّعوةِ وإقامةِ العدْلِ

بَلاغةُ العُدولِ في التّعبيرِ إلى ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾:

اقتصرَ على نعْتِهم بهداية النّاسِ بالفعل ﴿يَهۡدُونَ﴾، دونَ التّصريحِ باهتدائِهم، كأن يقال: (يهتدون ويهدون بالحقّ)؛ للإيذان بأنّ اهتداءَهم في أنفُسِهم أمرٌ محقَّقٌ، غنيٌّ عنِ التّصريحِ به(3).

اهْتداؤُهم في أنفُسِهم أمرٌ محقَّقٌ

بديعُ التّناسُبِ بين تذْييلِ الآيتيْنِ المتعاطفتَيْن:

هاتان الآيتانِ الكريمتان: ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ بينَهما عطْفُ مقابلة، ولو نظرْنا إلى تذْييل كلٍّ منهما لوجدْنا تناسُبًا يتمثّلُ في أنَّ أهلَ الجنّةِ قد حكَمُوا بالعدْلِ بجميع درجاتِه، فجعلُوا الأمورَ متعادِلةً، لا زيادةَ في شيءٍ منها على ما ينبغي ولا نقْصَ، ذلك لأنَّ اللهَ وفَّقهم فكشَفَ عن بصائرِهم حجابَ الغفلةِ التي ألزمَها أهلَ النّارِ بسببِ ضلالِهم وتعطيلِهم مدارِكَهُم.

الحُكمُ بالحقِّ يحمِي الإنسانَ من حجابِ الغَفلةِ

وَجهُ التّعبيرِ بالضّميرِ مَوضعَ الظّاهِرِ:

عبّرَ بضمير الهاءِ في قوله تعالى: ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ أي: بالحقِّ، ولم يصرِّحْ بكلمة الحقِّ لأنَّه سبق ذكرُه، فلا داعِيَ للتّصريح به، وإشارةً إلى أنّه واحدٌ لا يتعدّدُ، وكونُ الأمّةِ تهتدِي بهذا الحقِّ

الحقُّ في هذه الأمّةِ واحدٌ لا يتعدّدُ، والعدلُ فيها راسخٌ لا يتبدّدُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 178/8.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 329/7.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 297/3.

الواحدِ، وبه تعدلُ في كلِّ شؤون حياتِها، فهذا يشيرُ إلى أنّها أمّةٌ متّحدةٌ لا تعرفُ الفُرقةَ والشِّقاقَ؛ اتّجاهُها واحدٌ ومنهجُها وسبيلُها واحدٌ، كما جاء في الأثر: (هذه أمّتي، بالحقّ يَحكمون ويَقضُون، ويأخذون ويُعطون)[1]، وقد استنبط العلماءُ من هذه الآيةِ الدّلالةَ على صحّةِ الإجماعِ[2].

بَلاغةُ معنى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: و﴿وَبِهِۦ﴾:

ضـرورةُ تلبُّسِ الأمّـةِ بالحقِّ، واستعانَتِها به هِدايةً وتطبيقًا

أشهرُ معاني الباءِ هو الإلصاقُ، وهو تعلُّقُ أحدِ المعنَيَيْن بالآخَرِ، ومن معانِيها الاستعانةُ، وهي دخولُ الباء على آلة الفعل، والمعنيانِ جائزانِ هنا: "يَهدون النّاس مُلتبِسين بالحقّ أو يَهدونَهم بكلمةِ الحقِّ"[3]، ومن معانِيها المصاحبةُ، أي هدايةٌ مصحوبةٌ بالحقّ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ أي بالحقّ وحده يَعدلون؛ في كلِّ أمورهم في حياتِهم عدلٌ بالحقّ، وفي شؤونهم العامّة والخاصّةِ عدلٌ بالحقّ، وفي كلِّ ما يُباشرون من أعمالٍ يَبتغون الحقَّ ولا يريدون سِواه، فحياتُهم كلُّها عدلٌ وحقٌّ[4]. وهذه المعاني تتعانقُ وتتظاهرُ على بيان المرادِ، وهو نمطٌ جليلٌ منَ الإيجازِ.

فائِدةُ القصْرِ بأُسلوبِ تقديمِ ما حقُّه التّأخيرُ:

لا يقومُ العدْلُ إلّا بإقامةِ الحقِّ في كلِّ مُستوياتِه

وردَ تقديمُ الجارِّ والمجرور في قولِه تعالى: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، والتّقديمُ يفيدُ القصْرَ: "(وبه يعدلون) أي: بالحقّ خاصّةً"[5]، ومن فوائدِ هذا التّقديمِ كذلك: مزيدُ اهتمامٍ بالحقِّ، والتّفنّنُ في الفصاحةِ وإخراجُ الكلام على عدّةِ أساليبَ؛ إذ إنّه أخّرَ (الباء الجارَّة) في قولِه: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، وقدَّمَها في تتمّةِ الآيةِ: ﴿وَبِهِۦ

---

(1) ذكره الطبري عن ابن جريج، يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 286/13.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 297/3.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 297/3.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3016/6.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 177/8، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3016/6.

﴿يَعۡدِلُونَ﴾، ومُراعاةُ أحكام اللّفظِ في الفاصلةِ، في قوله: (يعدلون)؛ ليؤدّيَ وظيفةَ التّطريبِ بنَغمِها الموافِقِ لفواصلِ الآياتِ التي قبۡلَها وبعدَها (الغافلون، يعملون)؛ أي: لقصدِ البَدۡءِ والختۡمِ بالعمل في الهدايةِ والعدلِ للاعتناءِ بشأنِه.

الفُروقُ المُعۡجَمِيَّةُ:

أمّةٌ وطائفةٌ:

أُمَّةٌ: من معانِيها: الأصلُ، والمرجعُ، والجماعةُ، والدِّينُ، وهذه الأربعةُ مُتقارِبةٌ، والأمّةُ: الجيلُ من النّاسِ (جماعةٌ كبيرةٌ مُتّحِدُو الجنۡسِ أو زمنِ الوجودِ معًا)[1].

كلمةُ (أمّة) تدلُّ على أنَّ صفاتِ الكمالِ، تحتاجُ إلى الجميعِ، وذلك أنسَبُ للسّياقِ

والطّائفةُ منَ الشّيءِ: القطعةُ منه، والطّائفةُ منَ النّاس: كالفِرۡقةِ والقطعةِ منهم، وطائفةٌ: جماعةٌ تطيفُ بالواحدِ أو بالشّيءِ، ولا تكاد العربُ تحدُّها بعددٍ معلوم، قيل: إنّ الواحدَ طائفةٌ، وقيل أربعةٌ فما فوقَها، وقيل هي الثّلاثةُ، وقيل غيرُ ذلك[2]. وآثرَ النّظمُ الكريمُ كلمةَ: ﴿أُمَّةٌ﴾ للدّلالةِ على أنَّ صفاتِ الكمال المنهجيّةَ أكثرُ من أن يُحيطَ بها واحدٌ لِينفّذَها كلَّها، فكلُّ واحدٍ له جُزءٌ يقومُ به، وهكذا تبقَى الأسوةُ في مجموعِ الصّفات الحسنةِ، وللدّلالةِ على أنَّ قيامَ الحقّ والدّعوةَ إليه والحُكمَ به لا يتحقّقُ تحقّقًا صحيحًا إلّا بالجماعةِ التي تدينُ بعقيدةٍ واحدةٍ، وتتجمّعُ على آصرتِها الثّابتةِ على الحقِّ العاملةِ به في كلّ حينٍ، الحارسةِ لأمانة اللّه في الأرضِ، الشّاهدةِ بعهۡدِه على النّاس، فهذه الّتي تحظَى بتأييدِ اللّه ومددِه، قال ﷺ: «يدُ اللّه مع الجماعة»[3]، يقول البِقاعيّ: "﴿أُمَّةٌ﴾ أي:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أمم)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 143.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طوف).

(3) الترمذي، سنن الترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، الحديث رقم: (2166)، والحاكم، المستدرك، الحديث رقم: (398)، من حديث عبد الله ابن عبّاس رضي الله عنهما.

جماعةٌ عرفتْ من هو أهلٌ لأنْ يُؤَمَّ ويُهتدى بهِ، فقصدتهُ فاقتبستْ من أنوارهِ فصارتْ هي أهلًا لأنْ تُقصدَ ويُؤتمَّ بها"[1].

كما أنَّ استعمال كلمة (الأمة) دون (الطائفة) أنسب للسّياق، فالأمة في جميع معانيها اللُّغوية تدلُّ على الكثرة والاجتماع والوحدة فهي: (الرّجُلُ الجامعُ للخير، والإِمامُ، وجماعةٌ أُرسل إِليهم رَسُولٌ، والجيلُ من كلِّ حيٍّ، ومتّحدُو الجنسِ أوِ الدّين...)[2]، وفيها معنى الخيريّةِ، بخلاف (الطّائفةِ) إذ هي القطعةُ منَ الشّيء، وقد تُطلقُ على الرّجل والرَّجلين، أي لا تدلُّ على الكثرة، قال الزّمخشريُّ: "الطّائفةُ الجماعةُ القليلةُ"[3]، وكذا (الجماعةُ) التّي قد تكونُ قليلةً، وقد تكون كثيرةً؛ والكلمتان لا تشملان المعانيَ السّابقةَ، فاصطفَى النّظمُ الكريمُ ما يناسِبُ السِّياقَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 177/8.

(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 79/2.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 221/2.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾

[الأعراف: 182]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين أهل الهدايةِ والحقِّ، وبين المتمادِين في التّكذيبِ والعِصيانِ

بعدَ أنْ بيَّنَ الحقُّ سبحانهُ حالَ الهادينَ المَهديِّينَ وأنّه تعالى أعلَى أمرَهم وطيّبَ ذكرَهم، أتْبعَه بقيّةَ الحديث عنِ المكذّبين بآيات اللّه تعالى، وما عليهم منَ الوعيد[1]، أي: أتى بما يقابلُ الهادينَ العادلينَ؛ لأنَّ مجيءَ الشّيءِ بمقابِلهِ أدْعَى إلى أن يَتمكَّنَ منَ النَّفسِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾: أصلُ (درج) يدلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ، والمُضيِّ في الشَّيءِ، وسَنَسْتَدْرِجُهُمْ: سنأخُذُهم قليلًا قليلًا، درجةً فدرجةً، فلا نُباغِتُهم؛ والاستدراجُ: استفعالٌ من دَرَجَ إمّا بمعنى (صَعِدَ)، ثم استُعمِلَ في كل نقْلٍ تدريجيٍّ سواءً كان بطريق الصّعودِ أوِ الهبوطِ أوِ الاستقامةِ، أو بمعنى (مضَى مشيًا ضعيفًا) أو بمعنى (طَوى)،[3]، والمعنى الأوّلُ هو الأنسبُ بالمعنى المرادِ هنا وهو النّقلُ إلى أعلَى درجاتِ المهالك بأن نَدَعَهُم يتمادَون رُغمَ أوزارِهم ولا نأخذَهم بها أوّلًا بأوّلَ، وبأن نُمدَّهم بالنِّعم رُغم ذنوبِهم حتى يُطوَوْا في شرِّ عاقبةٍ[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

تهديدُ المُعرِضين عن منْهجِ الله، المكذِّبين بآياته ودَلائِلِه

حكمُ اللّه بالنّسبةِ للمكذّبين بآياتِه الكونيّةِ وبمعجزاتِ صدْقِ النّبوةِ وبآياتِ القرآنِ التي هي مِعيارُ الحقِّ ومِصداقُ الصّدقِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 418/15، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 178/8.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 298/3، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4489/7.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (درج).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 297/3.

- والعدلُ هو حكمٌ عامٌّ مُحقّقٌ مؤكّدٌ - بأنّه يدعُهم في الضّلال تائهين، ويقرّبُهم قليلًا قليلًا إلى ما يُهلِكُهم، ويُضاعفُ عقابَهم من حيث لا يعلمون، ولا يتفطّنون لِما يُرادُ بهم، وذلك بأن يُواتِرَ اللّهُ نِعمَه عليهم مع انْهماكِهم في الغيِّ، فكلّما جدَّدَ عليهم نِعمةً ازدادُوا بَطرًا وجدّدوا معصيةً(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ العطْفِ في الآيةِ الكريمةِ:

الّـذيـن حـقَّ عليهم الشّقاءُ، هـمُ المذكـورون في هذه السّورة إجمالًا وتفصيلًا

العطْفُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، من باب عطْفِ الشّيءِ على مُقابِله، فقد عطف المكذِّبين على المهتَدين، وجمعَ بينهما بالعطْفِ جمْعَ الضّدِّ مع الضدِّ، وهو أعونُ على البيانِ والتّمييزِ.

عَلّةُ التّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

أدنَى مُـكـذِّبٍ بـالآيـاتِ، محكومٌ بسُنَّةِ الاسْتِدراجِ

لم يقلْ سبحانه: (والمكذِّبُونَ بآيَاتِنَا)، وإنما عرَّفه بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾؛ للإيماء إلى وجْهِ استحقاقِهم لحُكم استدراجِ اللّه لهم، وهو التّكذيبُ بالآياتِ، فتكذيبُهم بآياتِ اللّه المتلوَّةِ والكونيّةِ وبمعجزاتِ صدْقِ النّبوةِ دليلٌ أكيدٌ أنّهم لم يستمعُوا الحقَّ، ولم ينطقُوا بالخير، ولو كان منهم سماعٌ حقيقيٌّ؛ لآمنوا بالآياتِ عُمومًا، وللإشارةِ إلى أنَّ أدنَى مكذِّبٍ بالآياتِ يَنطبقُ عليه حُكمُ الآية، وليس بالضّرورةِ أن يكونَ راسخًا في التّكذيب.

نُكتةُ جمْعِ صِلةِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

المكذِّبون بآياتِ اللّـه اجتمعُوا عـلى مـحاربةِ الـلّـه، رَغْـمَ الإمْهالِ والنِّعمِ

في إيراد الاسم الموصول جمعًا من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾، إشارةٌ إلى أنّهم فريقٌ اجتمع على التّكذيب بآياته الكونيّةِ وبمعجزات صدقِ النّبوّةِ وبآيات القرآن، واتّفق عليه، وقد بيّنت الآياتُ السّابقة اجتماعهم على الغفلة والضّلال والإلحاد في دين اللّه.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 418/15، وأبو حيان، البحر المحيط: 233/5، وحجازي، التفسير الواضح: 791/1.

وَجْهُ تَعديّةِ فعْلِ التّكذيبِ بالباءِ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

الْـتَـصـقَ فـعـلُ التّكذيبِ بهم، فـدلَّ على شِدّةِ الإنكارِ

أفادت تَعديةُ الفعْلِ ﴿كَذَّبُواْ﴾ بحرف الجرّ الباءِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، وهو فعْلٌ متعدٍّ بنفسِه تأكيدَ لُصوقِ معنى الفعْلِ بمفعوله، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6]، فلذلك يدلُّ فعْلُ التّكذيبِ إذا عُدّيَ بالباء على معنى الإنكارِ، أي: التَّكذيبُ القويُّ[1].

بَلاغةُ إسْنادِ الاسْمِ إلى ضَميرِ العظَمةِ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

تـأكـيـدُ إثْـبـاتِ الـتّـشـريـفِ واسْـتِـعـظـامُ تـكـذيـبِ الآيـاتِ بعظَمَتِه

إضافةُ الآياتِ إلى ضميرِ العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ لتَشريفِها واسْتِعظامِ الإقدامِ على تكذيبِها[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الاسميّةِ دونَ الفعليّةِ:

الاسْتِدراجُ سُنّةٌ إلـهـيّـةٌ ثابـتـةٌ مُـحـقّـقـةٌ، لا تتبدَّلُ

قولُه تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ جملةٌ فعليةٌ، وهي خبرٌ للمبتدأ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾، وهذا يفيدُ التَّحقيقَ والتَّخصيصَ، وذلك لأنَّ أصْلَ الكلامِ: (سنستدرج الذين كذبوا بآياتنا)، فقُدِّمَ الضّميرُ (هم) وكُرِّرَ، فحصرَ هذا الاستدراجَ في الذين كذّبوا بآيات اللّه، لبيان مُحققٍ مؤكّدٍ.

كما أنَّ التَّعبيرَ بالجُملةِ الاسميّةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ يُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ لهذا الاستدراجِ فهو سُنَّةٌ إلهيّةٌ مع المكذّبين.

سِرُّ التّعْبيرِ بكلمةِ: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾:

لفْظُ الاسْتِدراجِ قِـمّـةٌ فـي الـفـصَـاحـةِ؛ إذْ تحملُ المعنَى في تلافيفِ حُروفِها

انظرْ إلى كلمةِ ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ كيف أنَّها تُقدّمُ لك معنًى في تلافيفِ حُروفِها قبْلَ أن تُقدِّمَه في معناها اللُّغويِّ المحفوظِ، وكأنَّ القارئَ يَشَمُّ منها رائحةَ المعنى المطلوبِ، ويَلْحظُ فيها إشراقًا يصوّرُ المعنى أمامَ العين، وفي الوقت نفسِه تراها مُنسجمةً مع ما بعدَها من الألفاظ: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 191/9.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 297/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 118/5.

ويُلاحظُ في هذه الصّيغةِ القرآنيةِ تناسبُها واتّفاقُها مع مدلولِ الاستدراجِ ومعناه، فطولُ الكلمةِ وكثرةُ حروفها - تسعة حروف -، وطولُ فترةِ نطْقِها لوجودِ السّكونِ في السّينِ والدّالِ، كُلُّ ذلك يتناسبُ مع معنى الاستدراجِ، وهو الإمهالُ والإنظارُ للكافرين، ويُوحِي بطُولِ مدّةِ عدَمِ انْصياعِهم، وخصوصًا في صِيغة (استفعل) ففيها تَصْييرٌ لهم، وحركةٌ جَعْليّةٌ متَمَهِّلَةٌ، وهذا ما يُوحِي به توالي المقاطعِ وتعدّدُها مما يُجسِّمُ طولَ فترةِ الغفلةِ التي يكونُ فيها الكافرون.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ التّمثيليّةِ:

تصويرُ المعنى للقارئِ، كأنَّه يَنظرُ إلى مشْهدٍ تمثيليٍّ رائعٍ

قولُه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾، فيه شبَّهَ الحالَ التي يَستدرجُ اللّٰه بها المكذِّبين مع تأخيرِ العذابِ عنهم إلى أَمَدٍ هُم بالغُوه، بحالِ من يُهيِّئُ أخذًا لعدوِّه بأنْ يطلب منه أن ينزلَ من درجة إلى أخرى، بحيث ينتهي إلى المكان الذي لا يستطيعُ الوصولَ إليه بدون ذلك، مع إظهارِ المُصانعةِ والمحاسَنَةِ؛ ليزيدَ عدوَّه غُرورًا، وليكونَ وقوعُ ضُرِّ الأَخْذِ به أشَدَّ، وأبعدَ عنِ الاستعداد لتلقِّيه، فهو تمثيلٌ بديعٌ يشتملُ على تشبيهاتٍ كثيرةٍ، فإنّه مبنيٌّ على تشبيهِ حُسْنِ الحالِ برفعةِ المكانِ، وضدِّه بسَفالةِ المكانِ.

بَلاغةُ حذْفِ مفعولِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

بيانُ الاسْتدراجِ العظيمِ الّذي لا يُتفطّنُ له

حذفَ البيانُ الإلهيُّ المفعولَ به؛ لدَلالةِ الاستدراجِ عليه، والتّقديرُ: (لا يعلمون تدرجه)، وللتّنبيهِ إلى أنّه اسْتِدراجٌ عظيمٌ لا يُظنُّ بالمفعولِ به أن يُتَفَطَّنَ له[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يَعلمُون ويَشعُرُون:

العِلْمُ: أصلُ المادّة يدلُّ على أثَرٍ بالشّيء يتميّزُ به عن غيره،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/191.

العـلْمُ اعتقادٌ جـازمٌ مُطابِقٌ لـلـواقـعِ، والشّعورُ يُدرَكُ بالحواسِّ

والعلْمُ إدراكُ الشّيءِ بحقيقتِه، وهو ضدُّ الجهلِ، وعلِمْتُ بالشّيءِ شعرتُ به، ويُستعملُ بمعنى المعرفةِ، وما يتكوّنُ في القلبِ من حُكْمٍ على الشّيءِ، والعلْمُ: الاعتقادُ الجازمُ الثّابتُ المطابِقُ للواقعِ[1].

الشُّعورُ: تدورُ مادّةُ شَعَرَ حول معنى العلْمِ بالشّيء علمًا لطيفًا، وهو إدراكٌ يُوصَلُ إليه من وجْهٍ دقيقٍ يُدركُ بالمشاعرِ وهي الحواسُّ، أي علمُ الشّيء علْمَ حسٍّ، ومشاعرُ الإنسانِ حواسُّه، وقوله: (لا تشعرون) معناه: لا تدركونَه بالحواسِّ[2].

إذن: العلمُ والشّعورُ يشتركان في معنى الإدراكِ، إلَّا أنَّ الشّعورَ هو إدراكٌ من وجْهٍ دقيقٍ عن طريق المشاعرِ وهي الحواسُّ، بينما العلمُ اعتقادٌ جازمٌ مطابِقٌ للواقعِ، وقد يكون معقولًا ولا يكون محسُوسًا[3].

وقد عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بـ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، دون (يشعرون)؛ لأنّ الشّعورَ هو إدراكٌ بالحواسِّ، ولما كانت حواسُّهم قد عطّلُوها عن وظائفِها، لم يناسبْ أن يُعبّر بـ(يشعرون)، إذْ إنّ كثيرًا مما لا يكونُ محسوسًا قد يكون معقولًا[4]، كما أنَّ من معاني الشّعورِ ابتداءَ الإدراكِ بالشّيءِ من جهةِ المشاعرِ، أمّا العلمُ فهو غايةُ الإدراكِ، وبالتّالي كان التّعبيرُ بـ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ يُبيّنُ أنّه سُبحانَه استَدرجَهم إلى أبعدِ غايةٍ في الإدراكِ وهي العلمُ، إضافةً إلى ذلك فإنّ عظَمةَ المستدرَجِ لهم سبحانه يُناسبُها أن يكونَ الاستدراجُ ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لا من حيث لا يشعرون؛ إذ قد يكونُ الاستدراجُ من حيث لا يُشْعِرُ المستدرِجُ به أيَّ أحد، ولا يشعر المُستدرَج بأيّ خطب، ولو أراد أن يَعلَمَ لم يعلَمْ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شعر).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 125/2.
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 125/2.

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: 183]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكرَ اللّه حُكمَه وسُنّتَه في المكذِّبين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أتْبعَه بما يقترنُ به وهو الإملاءُ والتّأخيرُ وإطالةُ العمُرِ، حتّى تزدادَ حريّةُ حركتِهم في الحياة، لإقامةِ الحُجّةِ الدّامغةِ عليهم.

تدبيرُ الله المحكمُ، يَستلزمُ اقترانَ الإمهالِ، قبلَ إنزالِ العقوبةِ في المآلِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُمۡلِي﴾: من (ملي) الميمُ واللّام والحرفُ المعتلّ كلمةٌ واحدةٌ وهي الزّمنُ الطّويلُ، وأقام مَلِيًّا: أي دهرًا طويلًا، والملاوةُ بالكسر والفتح والضّمّ منَ الدّهر وهي الحينُ، والإملاءُ: الإمهالُ والتّأخيرُ وإطالةُ العمُرِ[1].

ومعنى ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أؤخِّرُهم وأُمهِلُهم؛ فلا يأخذُهم سُبحانَه مرّةً واحدةً، بل يمدُّ لهم في الزّمن ويُدنيهم منَ العذاب شيئًا فشيئًا[2].

2) ﴿كَيۡدِي﴾: أصلُ (كَيْد) يدلُّ على معالجةٍ لِشَيءٍ بِشِدَّةٍ، والكيدُ: ضربٌ منَ الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا وقد يكون ممدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذموم أكثَرَ، والكيدُ: التّدبيرُ المحكَمُ الشّديدُ وتنفيذُه، ويُسمّون المكرَ كيدًا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ملي).
(2) ابن جرير الطبري، تفسير الطبري جامع البيان: 288/13، والمراغيّ، تفسير المراغي: 120/9.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كيد)، ولا تُنسب صفةُ (الكيد) إلى الله على وجه الإطلاق وإنما تُقيد بما هو كيدٌ بحقٍّ؛ وهو الكيدُ بالكافرين والكيد بالظالمين والكيدُ بالماكرين ونحوهم، فهي صفةٌ كمالٍ إذا كانت في مقابلة من يفعلون ذلك. يراجع: ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية، ص: 217 - 218.

والمعنى هنا: (إنَّ مَكْرِي وأَخْذي لهم شديدٌ)، وسمّاه كيْدًا؛ لأنَّ ظاهرَه إحسانٌ وباطنَه خِذلانٌ، فهو أخذٌ شديدٌ على غِرّةٍ[1].

3) ﴿مَتِينٌ﴾: يقال: مَتُنَ يَمْتُنُ مَتانةً، أي: قَوِيَ، وأصلُ (متن) يدلُّ على صلابةٍ في الشَّيءِ مع امتدادٍ وطولٍ، ومنه المَتْنُ، وهو الوسَطُ؛ لأنّه أقوى ما في الحيوان[2].

ومعنى ﴿مَتِينٌ﴾ هنا: قويٌّ شديدٌ، لا يُمكن لأحدٍ قطعُه، ولا انفلاتَ منه للمكيد[3].

۞ المَعْنى الإِجْماليّ:

إِمْهـالُ اللهِ للمكذِّبين ظاهرُه إحسانٌ، وباطنُه خِذْلان

من سُنّةِ اللّه أنه لا يأخذُ المكذِّبين بآياته بمجرّدِ تكْذيبِهم - فهم لا يفوتونَه ولا يُعجزونه -، بل يُمهلُهم ويُطيلُ لهم مُدّةَ عُمُرِهم ليَختبرَهم بالآياتِ الدّالّةِ عليه، فيُزيّنُ لهم سُوءَ عملِهم، ويُغدقُ عليهم الرّزقَ، حتى إذا تمادَوْا في شرِّهم ومعاصِيهم، وبلغُوا الغايةَ التي كُتِبَتْ لهم منَ الإمهالِ، ولم تَهدهِمُ النّعمةُ، ولم يَحُسّوا بشُكرِها أخذَهم اللّهُ تعالى من حيثُ لا يحتسِبون؛ وذلك من تمامِ استدراجِ اللّه إياهم[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى (الواو) في الآيةِ:

في العطف تهديدٌ، وفي الاسْتِئْنافِ تقريرٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ إمّا أن تكونَ حرفَ عطْفٍ: عطفتِ الآيةَ على قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، فشاركتْها في الدّخول تحت حُكْمِ الاستقبال، أي: وسأُملِي لهم[5].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 43/3، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 298/3.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (متن).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 192/9، والبقاعيّ، نظم الدرر: 179/8.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 287/13، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 419/15.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 192/9.

أو أنَّها عطفٌ ولكنْ غيرُ داخلٍ في حكمِ السّين؛ لِمَا أنَّ الإملاءَ الّذي هو عبارةٌ عنِ الإمهالِ والإطالة، ليس منَ الأمورِ التّدريجيّةِ كالاسْتدراجِ الحاصلِ في نفسِه شيئًا فشيئًا، بل هو فعلٌ يحصلُ دُفعةً[1]، ويُلوّحُ بذلك تغييرُ التّعبير بتوحيدِ الضّمير، أي لم يقلْ: (سنُملي لهم)[2]، أو أنّ الواوَ للاستئناف، أي: (وأنا أملي لهم)[3].

بَلاغةُ الالْتفاتِ من ضميرِ التّكلُّمِ بالجمْعِ، إلى ضميرِ التّكلُّمِ بالمفردِ:

التّلوينُ في الخطابِ، منَ البيانِ المُفصِحِ الجذّابِ

خرج السِّياقُ من ضميرِ التّكلُّم بنون العظَمةِ ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ إلى ضميرِ التّكلّم بالمفردِ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾؛ تلوينًا في الخطاب، أي: تَفنّنًا في الفصاحةِ وتنويعًا في الكلام، وبعضُ المفسّرين عدَّه شبيهًا بالالتفاتِ؛ لأنّ جهةَ الكلام، وهي التكَلُّمُ لم تتغيّرْ، والالتفاتُ يكونُ من جهة لأخرَى من جهاتِ الكلامِ الثّلاثِ[4]، والرّاجحُ هو التّفنّنُ؛ فبابه أوسعُ منَ الالتفات، "والمغايرةُ بين فعْلَيِ (نستدرج) و(أملي) في كون ثانيهما بهمزةِ المتكلِّم، وأوّلِهما بنون العظمةِ مُغايرةٌ اقتضتْها الفصاحةُ من جهةِ ثقَلِ الهمزة بين حرفيْنِ متماثلَيْنِ في النُّطقِ في ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾، وللتّفنّنِ والاكتفاءِ بحصولِ معنى التّعظيم الأوّلِ"[5]، وهذا التّفنّنُ يُنبئُ عن مزيدِ الاعتناءِ بمضمونِ الكلام لابتنائِه على تجديدِ القصّةِ والعزيمة، وجعلَه غيرُ واحدٍ داخلًا في حُكمِها[6]، و"لأنَّ الاستدِراجَ يَكونُ بواسطَةٍ وبغيرِها، فَكَأنَّهُ قالَ: سَأسْتَدرِجُهم بنَفسِي مِن غيرِ واسطةٍ تارَةً، وبِمَن أُتيحَ لَهُمُ النِّعَمُ على يَدِهِ من عَبِيدِي وجُنُودِي أُخرى؛ وأمّا الإملاءُ وهو تطويلُ الأجلِ فَلا يُتصَوَّرُ أنْ يَكونَ إلّا مِنَ اللّهِ تعالى"[7].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/298.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/118.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/118.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/118.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/192.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/118.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 8/179.

بَلاغةُ التّذْيِيلِ التّعليليِّ التّأكيديِّ في ختامِ الآيةِ:

كيدُ الله القويُّ تدبيرٌ خفيٌّ، لا يملكُ المكورُ به دفعَه ولا توقِّيَه

ذيّلَ البيانُ الإلهيُّ بهذه الجُملةِ: ﴿إِنَّ كَيۡدِى مَتِينٌ﴾؛ ليزدادَ بها المعنى اتّضاحًا، تأكيدًا وتعليلًا؛ فمن معاني (إنَّ) التأكيدُ والتّعليلُ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدِى مَتِينٌ﴾ جملةٌ مُقرِّرةٌ لما قبلَها منَ الاسْتدراجِ والإملاءِ، ومُؤكِّدةٌ له؛ فهو سُنّةُ اللّه التي لا تتخلَّفُ[1]، وهي كذلك في موضِعِ العِلَّةِ للجُملَتينِ قبلَها: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾، ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ الاستدراجَ والإملاءَ ضَربٌ مِن الكَيدِ، وكيدُ اللّه متين، أي: قويٌّ لا انفلاتَ منه للمكيدِ، فيفيدُ أنّه استدراجٌ إلى ما يكرهونَه، وتأجيلٌ لهم إلى حلولِ ما يكرهونَه، والمعنى: يكون ذلك الاستدراجُ وذلك الإملاءُ بالغَيْنَ ما أردْناه بهم؛ لأنّ كيدِي قويٌّ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإملاءُ والإمْهالُ:

الإملاءُ يدلُّ على الامْـتِـدادِ دهْـرًا طويلًا، والإمْهالُ إنظارٌ برِفْقٍ

أمْلِي: من (مَلِيَ) وتدلُّ على امتدادٍ في شيءٍ زمانٍ أو غيرِه، أقام مَلِيًّا: أي دهرًا طويلًا، والملاوَةُ بالكسر والفتح والضَّمِّ منَ الدّهر؛ وهي الحينُ، والإملاءُ: الإمهالُ والتّأخيرُ وإطالةُ العُمُرِ[3].

الإمهالُ: من المَهْلِ: التُّؤَدةُ والسُّكونُ والامتدادُ؛ ويؤخذُ من هذه المعاني معنَى التّراخِي والتّباطُؤِ، وأمْهَلَه: أنْظَره ورفَقَ به، ولم يَعْجَلْ عليه[4] والإملاءُ والإمهالُ متقاربان دَلاليًّا؛ يشتركان في معنى: الامتدادِ والتّأخيرِ والإطالةِ، ويتميّزُ الإملاءُ بالدّلالةِ على الدّهرِ الطّويلِ أي: (إطالةُ المدّة)، ويتميّزُ الإمهالُ بالتُّؤَدةِ وعدمِ العَجلةِ والإنظارِ برِفْقٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 298/3.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 192/9.
(3) ابن فارس، المقاييس: (ملي)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ملي).
(4) ابن فارس، المقاييس: (مهل)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مهل).

وقدِ اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظةَ ﴿وَأُمۡلِي﴾؛ لأنّها تدلُّ على الزّمنِ الطّويلِ، يقال: وأقام مَلِيًّا: أي دهرًا طويلًا، والملاوَةُ منَ الدّهرِ وهي الحينُ، والإملاءُ: الإمهالُ والتّأخيرُ وإطالةُ العُمرِ[1]، كما أنّها بذلك أنسبُ لِسُنّةِ الاستدراجِ التي تقومُ على الزّمن الطّويلِ، أمّا الإمهالُ فإنّه وإن كان فيه التّراخِي إلا أنَّ الزّمنَ قد يكونُ طويلًا أو قصيرًا، كما أنّ فيه إنظارًا برِفْقٍ، وهذا لا يتناسبُ مع السّياقِ الذي هو سِياقُ تهديدٍ للمُصرِّين على الكُفْرِ الملْحِدين في أسماء اللّه.

(1) ابن فارس، المقاييس: (ملي)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ملي).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٤﴾

[الأعراف: 184]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بين إملاءِ اللهِ وإمهالِهِ للمُشركين، وإنكارِه عدمَ تفكُّرِهم بحالِ الرّسولِ الأمينِ

لَمَّا بالغَ ﷻ في تهديدِ المُعرِضينَ عن آياتِه، الغافلينَ عنِ التَّأمُّلِ في دلائلِه وآلائِه، وختمَ الأمرَ باسْتدراجِهم، وكانوا قد واقعُوا منَ المعاصي ما لا يَجْترِىءُ عليه إلَّا مطموسُ البصيرةِ، وخاصَّةً في عبادتِهم للحجرِ، ومُنابَذتِهم لأكملِ البشرِ، ووصفِه بالجنونِ والسِّحرِ وغيرِ ذلك، وهو تعالى مع ذلك يُوالي عليهمُ النِّعمَ، ويدفعُ عنهمُ النِّقمَ، وهم بهذا السُّوءِ يُنكِرُ عليهم عدمَ تفكُّرِهم برسولِه ﷺ الذي طالتْ خبرتُهم به، بمتانةِ عقلِه، وفضلِ شمائلِه، أنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ كما وَهِموا أنَّ به أيَّ حالةٍ من حالاتِ الجنونِ؛ بل هو حَصْرًا بالغٌ في نذارتِه، موضّحٌ لهم طريقَ الحقِّ بجميعِ بيِّناتِه وأدلَّتِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾: الفِكْرةُ: قوَّةٌ مُطْرِقةٌ للعلمِ إلى المعلوم، والتَّفكُّرُ: جَوَلانُ تلكَ القوَّةِ بحسَبِ نَظرِ العقلِ، وذلكَ للإنسانِ دونَ الحيوانِ، ولا يُقالُ إلَّا فيما يمكنُ أن يحصلَ له صورةٌ في القلب، قالَ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ [الرُّوم: 8]، والتَّفكُّرُ: التَّأمُّلُ، والاسْمُ: الفِكرُ والفِكرةُ، والمصدرُ: الفَكْرُ بالفتح، ورجلٌ فِكيرٌ: كثيرُ الفِكرة، والفَكْرُ مقلوبٌ عنِ الفَرْكِ، لكن يُستعمَلُ الفكرُ في المعاني، وهو فرْكُ الأمورِ وبحثُها طلبًا للوصولِ إلى حقيقتِها[2]، وقولُه تعالى هنا: ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 419/15، والبقاعي، نظم الدُّرر: 179/8 - 180.
(2) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (فكر).

أي: يُعمِلُوا أفكارَهم ويُمعِنوا في ترتيبِ المقدِّماتِ؛ ليعلموا أنَّه لا يتوجَّه لهم طعنٌ يُورِثُ شُبهةً بوجهٍ منَ الوُجوه[1].

2) ﴿جِنَّةٍ﴾ أصلُ الجنِّ: سَترُ الشَّيءِ عنِ الحاسَّةِ، يُقالُ: جنَّهُ اللَّيلُ وأَجَنَّهُ وجنَّ عليه، فَجَنّهُ: سَتره، وأَجَنَّه: جعلَ له ما يَجِنُّه، أي: يَستره، والجِنَّةُ: جماعةُ الجنِّ، قالَ تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [النَّاس: 6]، والجِنَّةُ: الجنونُ، وقالَ تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [سبأ: 46]، أي: جُنون، والجنونُ: حائلٌ بين النَّفسِ والعقلِ[2]، وفي قولِه تعالى هنا: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ أي: جنونٌ؛ بل هو رسولُ اللهِ حقًّا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الـدّعْـوةُ إلى التّفكُّر في أمْرِ الرَّسـولِ المبلِّغ عن ربِّـه، ودَفْعُ تُهمةِ الجنون عنه

يُنكِر اللهُ تعالى على أولئك الكَفَرةِ من قُريشٍ مع التَّعجيبِ من حالِهم؛ فيقولُ: أَوَ لم يُعمِلوا أفكارَهم، وينظرُوا: هل في صاحبِهمُ الذي يَدْعونَه بالأمينِ، والَّذي يعرفونَه ولا يَخفى عليهم من حالِه شيءٌ، هل به جُنونٌ؟! فَلْيَنظُروا في أخلاقِه وهَدْيِه، وعَدْلِه وصفاتِه، وينظُرُوا فيما دَعا إليه، فلا يَجِدون فيه منَ الصِّفاتِ إلَّا أكملَها، ولا منَ الأخلاقِ إلَّا أتمَّها، ولا من العقلِ والرَّأيِ إلَّا ما فاقَ به العالمين، ولا يدعو إلَّا لكلِّ خيرٍ، ولا يَنهى إلَّا عن كلِّ شرٍّ، لقد جاءَ نذيرًا لكم وللعالَمين، ومحذِّرًا لكم منَ العذابِ الأليمِ، وناصحًا لكم وقائدًا إلى جنَّاتِ النَّعيم[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ ممَّا قبلَه ودَلالتُه:

التَّنبيه وإقامة الحُجَّة

الجُملةُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/180.

(2) الرّاغب، المفردات، والرَّازي، مختار الصّحاح: (جنن).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/249.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/483، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 264.

مُستأنفَةٌ، وهي ابتداءُ كلامٍ في مُحَاجَّتِهم وتَنْبيهِهم بعدَ الإخبارِ عنهم بأنَّهم مُستدرَجونَ ومُمَلًّى لهم[1].

بَلاغةُ الاسْتفهامِ في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾:

الإنكارُ والتَّوبيخُ للكافرين، تعريضٌ بإهمالِهم نِعمةَ العقْلِ

جاءتْ همزةُ الاسْتفهامِ تسوقُ معها ثلاثةَ جُنودٍ ضَرِسَة: الإنكارُ والتَّعجيبُ والتَّوبيخُ من حالِهم المُقذِعِ في ادِّعائهم ذاك، وهو ﷺ الملقَّبُ عندَهم بالصَّادقِ الأمين، وتوبيخٌ لهم عمَّا جنَتْه أفكارُهم وأوهامُهم المُتهافتةُ مِن اتِّهاماتٍ باطلةٍ وأكاذيبَ مُضلِّلةٍ[2].

نُكتةُ حذْفِ المعطوفِ عليه في ﴿أَوَلَمۡ﴾:

تظهرُ هذه البلاغةُ في سِياقِ النَّظْمِ الكريمِ سِباقِه ولِحاقِه

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ﴾ للعطْفِ على محذوفٍ مُقدَّرٍ يَسْتدعيه سِباقُ النَّظْمِ الكريمِ وسِياقُه، وتقديرُه: (أغَفَلوا ولم يتفكَّرُوا، أو أجُنّوا ولم يتفكَّروا)؟، "أو يكونُ تقديرُ الكلامِ: (أوَلم يتفكَّروا في قولِهم به جِنَّة)؟"[3].

دَلالةُ اسْتخدامِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾:

دَيْدَنُهم عدمُ التَّفكُّرِ، في صِدْقِ رسولِ اللهِ ﷺ وأحقِّيَّةِ دعوتِه

الفعلُ المضارعُ يقتضِي التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ، والفعلُ من هذا القبيلِ، فهو باعثٌ لهم على ضرورةِ اسْتصحابِ التَّفكُّرِ في شأنِ رسولِ اللهِ ﷺ وانْتفاءِ الجِنَّةِ عنه الَّتي يدَّعونَها زورًا وبُهتانًا، وتحريضٌ لهم كذلك على اسْتمرارِ التَّأمُّلِ في حالِهم وموقفِهم من دعوتِه، وحالِ ما كانوا عليه قبلَ دعوتِه من عبادةِ أصنامٍ لا تضرُّ ولا تنفعُ، هم صنعُوها واتَّخذوها آلهةً! والتَّفكُّرُ من أعمالِ القلوبِ، فهو بمعنَى التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ، فلا يمكنُ لمن أَمْعَنَ في التَّفكُّرِ وإعمالِ العقلِ أنْ يصفَ رسولَ اللهِ ﷺ بأيِّ وصْفٍ يُخالفُ حقيقةَ ما علِموهُ هم عنه وعايَنُوه منه عن قُربٍ وصُحبةٍ[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 441/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 193/9.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 525/5.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 441/2.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 525/5.

سِرُّ تعليقِ الفعْلِ ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾، ودَلالتُه في السِّياقِ:

تَعليقُ الفِعْلِ ضربٌ من ضروبِ الإيجازِ البليغِ

قولُه تعالى: ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ فعلٌ منزَّلٌ منزلةَ اللّازِم؛ فلا يقدَّرُ له متعلَّقٌ للاسْتغناءِ عن ذلك بما دلَّ عليه النَّفيُ في قولِه تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾، أي: أَلَمْ يكونُوا منَ المفكِّرين أَهْلِ النَّظرِ؟!

والفعلُ المعلَّقُ عنِ العملِ لا يُقدَّرُ له مفعولٌ ولا مُتعلَّقٌ، والمقصودُ من تعليقِ الفعلِ هو الانْتقالُ من علْمِ الظَّانِّ إلى تحقيقِ الخبرِ المظنونِ وجَعْلِه قضيَّةً مُستقلَّةً، فيصيرُ الكلامُ بمنزلةِ خَبَرَيْن: خبرٍ من جانبِ الظَّانِّ ونحوِه، وخَبرٍ من جانبِ المتكلِّمِ دخَلَ في قسْمِ الواقعاتِ، فَنحوُ قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾ [الأنبياء: 65] هو في قوَّةِ أن يُقالَ: لقد علمتَ لا يَنطِقون، ما هؤلاء يَنطِقون، أي: ذلكَ علمُكَ وهذا عِلْمي، وقولُه هنا: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ في قوَّةِ: (أَوَلَمْ يتفكَّروا صاحبُهم غيرُ مجنون، ما بصاحبِهم من جِنَّة)؟ فتعليقُ أفعالِ القلبِ ضربٌ من ضروبِ الإيجازِ، وهو غرَضٌ من أغراضِ أُسلوبِ التَّعليقِ؛ وهو من خصائصِ البلاغةِ العربيَّةِ الضَّافيةِ[1].

بَلاغةُ الحذْفِ، في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾:

انْتِفاءُ وصْفِهم الخبيثِ لرسولِ اللهِ ﷺ لا محالةَ؛ لأنَّه مُكمَّلٌ معصومٌ

الحذفُ في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ إمّا أن يكونَ مجرورًا لتعليقِ الفعْلِ، والمعنَى: أَوَلم يتأمَّلوا ويتدبَّروا في انتفاءِ هذا الوصفِ عنِ الرَّسولِ ﷺ؛ فإنَّه مُنتَفٍ لا محالةَ، ولا يمكنُ لمن أَنْعمَ الفكرَ في نسبةِ ذلك إليه، وإمَّا أن يكونَ المحذوفُ فعلًا مُضمَرًا، أي: فيعلمُوا ما بصاحبِهم من جِنَّة[2]، والمعنيانِ مُرادانِ، ولو ذكرَ لاقتصرَ على واحدٍ منهما دونَ الآخرِ، ففي الحذْفِ توسيعٌ للمعنى، ويمكنُ أن يكونَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/194.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/234، وذكر أنَّ هناك من يرى أنَّ ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ لا تُعلَّق؛ لأنَّه لا يدخُل على الجمل، ودلَّ التَّفكُّرُ على العلم.

الكلامُ تمَّ عند قولِه: ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾؛ إنكارًا لعدمِ تفكُّرِهم في شأنه، ثمَّ اسْتأنَفَ إخْبارًا بانْتفاءِ الجِنَّةِ وإثباتِ النَّذارَة؛[1] تعجيبًا وتبكيتًا لهم.

معنَى ﴿مَا﴾ بين الاسْتفهامِ والنَّفْيِ، ودَلالةُ ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾:

الاسْتِفهامُ الإنكاريُّ التّوبيخيُّ، إلجاءٌ للخصْمِ إلى تكذيبِ نفْسِه

يجوزُ في ﴿مَا﴾ من قولِه تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ وجهان:

أحدُهما: أن تكونَ اسْتفهاميَّةً في محلِّ رفعٍ بالابْتداء، والخبرُ﴿بِصَاحِبِهِم﴾، أي: أيُّ شيءٍ استقرَّ بصاحبِهم منَ الجنون؟! والاستفهامُ يكونُ إنكاريًّا توبيخيًّا، وإنّما جاء في صورةِ الاستفهام حتى يوضعُوا بمعرضِ الصّادقين، فيطالَبون ببيان نوعِ الجنونِ، فيبحثون فلا يجدونَ شيئًا، فيرتدِعُون ويعيَوْن بالجوابِ.

والثّاني: أنَّ ﴿مَا﴾ نافيةٌ، وبهذا الوجْهِ يكونُ ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾ مبتدأً، و﴿مِّن﴾ مزيدةً فيه، و﴿بِصَاحِبِهِم﴾ خبرَه، أي: ما جِنَّةٌ بصاحبِهم[2]، والجملةُ المنفيّةُ تكونُ خبرًا ثابتًا جاء في ثوْبِ الجُملةِ الاسميّةِ؛ لبيان أنَّ نفْيَ هذا الوصْف عنه حقيقةٌ ثابتةٌ مقرّرةٌ، والمعنى: لو فكّروا لانتهَوْا إلى هذه الحقيقةِ الثّابتةِ.

عَلاقةُ الجُملةِ بما قبْلَها على الاسْتفهامِ والنّفْيِ في ﴿مَا﴾:

الاسْتِفهامُ بيانٌ لتناقُضِ التُّهمةِ مع واقِعِ الحالِ، والنّفْيُ لانْتِفائِها

المعنَى على الاسْتفهامِ: أَوَلَمْ يتفكّروا أيَّ شيءٍ بصاحبِهم منَ الجنونِ مع انتظامِ أقوالِه وأفعالِه؟[3]، فتكونُ جملةُ الاستفهامِ من تمامِ معنى ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾، ويكونُ النّصبُ على نزعِ الخافضِ، ويكونُ المعنَى على النّفْيِ ابتداءَ كلامٍ مستأنفٍ، تقديرُه: أولَمْ يتأمَّلُوا ويتدبَّروا في انتفاءِ هذا الوصْفِ عنِ الرَّسولِ ﷺ فإنَّه مُنْتفٍ لا

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 525/5.
(2) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 289/1، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 525/5.
(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 289/1، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 525/5.

محالةَ، ولا يُمكنُ لمن أنْعَمَ الفكْرَ في نسَبِ ذلك إليه[1]، فتكونُ الجُملةُ المنفيّةُ بمنزلةِ التّعليلِ للإنكارِ التّوبيخيِّ في ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾، والمعنيانِ مُتعانقانِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالصّحبةِ في قولِه: ﴿بِصَاحِبِهِم﴾:

تأكيدٌ للنَّكيرِ عليهم؛ لطُولِ ملازمَتِهم له، وسبْرِهم غوْرَه قبلَ النُّبوّةِ

التَّعبيرُ عنه ﷺ ﴿بِصَاحِبِهِم﴾؛ للإيذانِ بأنَّ طُولَ مُصاحبتِهم له ﷺ عن شائبةِ ما ذُكرَ في حقِّه ﷺ منَ الوصْفِ القبيحِ تأكيدٌ للنَّكيرِ وتشديدٌ له، والتَّعرُّضُ لنفْيِ الجنونِ عنه ﷺ مع وضوحِ اسْتحالةِ ثُبوتِه له ﷺ؛ لما أنَّ التَّكلُّمَ بما هو خارقٌ لقضيَّةِ العُقولِ والعاداتِ، لا يصدُرُ إلَّا عمَّن به مسُّ الجُنونِ كيفَما اتَّفقَ، من غيرِ أن يكونَ له أصلٌ ومعنًى، أو عمَّن له تأييدٌ إلهيٌّ يُخبرُ به عنِ الأمورِ الغيبيَّةِ، وإذ ليس به ﷺ شائبةُ الأوَّلِ تعيَّنَ أنَّه ﷺ مؤيَّدٌ من عندِ اللّه تعالى، والتَّعبيرُ عنه ﷺ ﴿بِصَاحِبِهِم﴾ كذلكَ هو واردٌ على شاكلةِ كلامِهم، مع ما فيه منَ النُّكتةِ المذكورةِ آنفًا[2]، وكذلكَ فإنَّ وصفَ رسولِ اللّه ﷺ بأنَّه صاحبُ الَّذين كذَّبوا بالآياتِ، هو بمعنَى الَّذين اشْتغلوا بشأنِه ولَزِموا الخَوْضَ في أمرِه، وقد تكرَّرَ ذلكَ في القرآنِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢﴾ [التَّكوير: 22][3].

دَلالةُ التَّأكيدِ بـ﴿مِّن﴾ الدَّاخلةِ على نَكرةٍ منفية:

تأكيدُ نفْيِ أيِّ جُنونٍ به ﷺ، وإبطالِ وصْمِه بهذه الشُّبهةِ

النَّكرةُ في سياقِ النَّفْيِ تُفيدُ عمومَ ما سيقتْ لأجلِ نَفْيِه، وهنا جاءَ اسْتخدامُ ﴿مِّن﴾ قبلَ ﴿جِنَّةٍۚ﴾؛ لتأكيدِ نفْيِ وجودِ أيِّ نوعٍ من أنواعِ الجنونِ، أو أيِّ لَوثةٍ منه، وجاءتْ ﴿مَا﴾ قبلَ ﴿مِّن﴾؛ لتفيدَ نفيَ هذا الاتِّهامِ الَّذي ألْصقوهُ بالرَّسولِ ﷺ، فـ﴿مِّن﴾ هنا لإفادةِ التَّأكيدِ، وكأنَّ بيانَ اللّهِ قالَ: ما جِنَّةٌ بصاحبِهم[4]، وقد أكَّدَ انتفاءَ

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 442/2.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 194/9.
(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 526/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 442/2.

ذلك بحرفِ الباءِ الدَّالِّ على الملابَسة، أي: مُلابسَةِ أيِّ جِنَّة، أي: ما بجِنَّةٍ مُلابِسةٍ له[1]، فلم يلابسْه قطُّ أيُّ نوعٍ منَ الجنون ولا أيُّ قَدْرٍ منه.

دَلالةُ التَّنكيرِ في لفظِ ﴿جِنَّةٍۚ﴾:

الـرّسـولُ المعصومُ، منُزَّهٌ عن هذا الوصْفِ قليلِه وكثيرِه

دلَّ تنكيرُ كلمةِ ﴿جِنَّةٍۚ﴾ على أنَّه ﷺ ليس به أيُّ مَسِّ جِنَّةٍ أو تخبيطِ جِنَّة، ويمكنُ أن تكونَ بمعنَى هَيئَةٍ، كالجِلْسةِ والرِّكْبَة، أُريدَ بها المصدرُ، أي: ما بصاحبِهم من جُنون، أي: نفيُ الجنونِ مُطلقًا عنه ﷺ[2].

بَلاغةُ الخَتْمِ بجُملةِ القَصْرِ:

مُهمّة الرّسولِ ﷺ مُنحصِرةٌ في النِّذارَةِ والبَيانِ

جاءَ القَصْرُ خاتمةً للآيةِ الكريمةِ بقولِه تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ قَصْرًا مُستفادًا منَ النَّفْيِ والاسْتثناء، قَصْرَ موصوفٍ على صفة، وهو يقتضِي انْحصارَ مهمّةِ الرَّسولِ ﷺ في النِّذارَةِ والبيانِ، وذلكَ قَصرٌ إضافيٌّ، هو قَصْرُ قَلْبٍ، أي: هو نذيرٌ مبينٌ لا مجنونٌ كما يَزعمُون، وفي هذا اسْتِغباءٌ أو تسفيهٌ لهم بأنَّ حالَه لا يَلْتبِسُ بحالِ المجنونِ لِلْبَوْنِ الواضحِ بين حالِ النِّذارَةِ البيِّنةِ وحالِ هَذَيانِ المجنون، فَدَعْواهم جُنونَه: إمَّا غباوَةٌ منهم بحيث الْتبسَتْ عليهمُ الحقائقُ المُتمايزةُ، وإمَّا مكابرَةٌ وعِنادٌ وافْتراءٌ على الرَّسولِ ﷺ[3].

إيثارُ اصْطفاءِ النَّفْيِ والاستثناءِ طريقًا للقَصْرِ على (إنَّما):

خـطـابُ المـنكـرِ يقتضِي استخدامَ أقوَى الأساليبِ

القصْرُ بطريقِ النّفْيِ والاستثناء، في قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ يُقوِّي المعنى ويُؤكِّده، وفيه تخفيفٌ عنِ النَّبيِّ ﷺ ببيانِ مُهمّتهِ وتحديدِها بأُسلوبٍ لا يُدخلُ ما يُطالبونَه به منَ المعجزاتِ والخوارقِ، كما جاء في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾، فخاطبَهمُ القرآنُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/195.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/234، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/442.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/195 - 196.

خطابَ المنكرين لهذه المهمّةِ بدليلِ مُطالبتِهم إياه بغيرها، وطريقُ النّفْيِ والاستثناء يأتِي في مواجهةِ المنكرِ، ولا يلائمُه أسلوبُ (إنّما) الذي يأتِي فيما لا يُنكرُه المخاطَبُ.

تحديدُ المهمّةِ، تَقويةٌ لنفْيِ التُّهمةِ

عَلاقةُ جُملةِ القَصْرِ بما قبْلَها:

قولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جُملةٌ مُقرِّرةٌ لمضمونِ ما قبْلَها، ومُبيِّنةٌ لحقيقةِ حالِه ﷺ، وهو قولُه: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾، فَفُصِلتْ لكمالِ الاتِّصالِ بينَهما المُغْني عنِ العَطْفِ[1].

قيامُ الرّسولِ بالإنذارِ، إعذارٌ إلى ربّه، وقِيامٌ بما أُنِيطَ به

دَلالةُ التّنكيرِ في وصفِ النّبيِّ المرسَلِ، بأنّه ﴿نَذِيرٌ﴾:

دلَّ تنكيرُ ﴿نَذِيرٌ﴾ على المبالغةِ في الإنْذار، وإظهارِه غايةَ الإظْهارِ؛ إبرازًا لكمالِ الرَّأفةِ، ومبالغةً في الإعْذار إلى ربِّه[2].

إبانةُ خطابِ الدّعوةِ، تحقيقٌ للإنذارِ، وهو أبْلَغُ إعْذارٍ

دَلالةُ الصِّفةِ في لفْظِ ﴿مُّبِينٌ﴾:

الغرَضُ من إتْباعِ (النَّذير) بوصفِ (المبين) التَّعريضُ بالَّذينَ لم يَنْصاعُوا لِنَذارتِه، ولم يأخُذوا حِذرَهم منها، وذلكَ يقطعُ عُذرَهم[3].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/442، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/195.
(2) إرشاد العقل السّليم: 2/442.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/195.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 185]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رَبْطُ نفْيِ تُهمةِ الجنونِ على النّبيِّ المأمونِ، بالدّعوةِ إلى النّظرِ والاسْتِدلالِ العَقْليِّ

لَمَّا كانَ النَّظرُ في أمرِ النُّبوَّةِ مُفرَّعًا على تقريرِ أدلَّة التَّوحيد، وكانَ المقصودُ منَ الإنذارِ بقوله فيما تقدَّم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الرُّجوعَ عنِ الإلحاد، قالَ مُنْكرًا عليهم عَدَمَ النَّظرِ في دلائلِ التَّوحيدِ الرَّادِّ عن كلِّ حالٍ سيِّئٍ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ نظرَ تأمُّلٍ واعْتبارٍ، نظرَ بَصيرةٍ لا بَصَرٍ، إشارةً إلى كلِّ ذرَّةٍ فيها دَلائلُ جَمَّةٌ في ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ على وجودِ اللّهِ ووَحدانيَّتِه وكمالِه وجمالِه وجلالِه، ويَنظُروا كذلك نظرَ إشفاقٍ وخوْفٍ من أنَّه مُمكنٌ وخليقٌ أنْ يكونَ قدْ دَنا أجَلُهم دُنُوًّا عظيمًا، فيجتهِدُوا في الاسْتعدادِ لذلكَ اليومِ والخَلاصِ من سُوءِ عاقبتِهم، فدعاهم القرآن إلى النّظرِ والاسْتِدلالِ العقليِّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلَكُوتِ﴾: مَلَكَهُ يَملِكُه بالكسرِ (مِلْكًا) بكسر الميم، وبفتح الميم (مَلْكًا)، وبضمها، والفتحُ أفْصحُ، والمَلَكوتُ: من المُلك، مختصٌّ بملكِ اللّهِ، وهو مَصدرُ مَلَكَ، أُدْخِلَتْ فيه التَّاءُ للمبالغة، نحو: رَحَموتٌ ورَهَبوتٌ، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75][2]، وقولُه تعالى هنا: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: فيما خلقَ اللّهُ، فإنَّ في كلِّ مخلوقاته

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 420/15 - 421، والبقاعي، نظم الدُّرر: 181/8 - 183.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ملك).

عِبرةً للمُعتَبِرين، ومَوْعظةً للمُتفكِّرين، وأخَصُّها ما كانَ من جلائلِ مصنوعاتِه كمَلَكُوتِ السَّماواتِ والأرض(1).

2) ﴿أَجَلُهُمۡۖ﴾: الأَجَلُ: المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء، قالَ تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67]، ويُقالُ: دَيْنُه مُؤجَّلٌ، وقد أجَّلْتُه: جعلتُ له أجلًا، ويُقالُ للمدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسانِ: أَجَلٌ، فيُقالُ: دَنَا أَجَلُه، عبارةٌ عن دُنُوِّ الموت، وأصلُه: استيفاءُ الأَجَل، أي: مُدَّةُ الحياة(2)، وقولُه تعالى هنا: ﴿قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾، أي: حدُّ الموتِ، فيموتونَ من قَريب(3)، يجوزُ أن يكونَ المرادُ بالأجلِ في الآية مجيءَ السَّاعة، وانْقراضَ هذا العالَم، فهو أجلُهم وأجلُ غيرِهم من النَّاس، واقترابُ الأجلِ اقترابُ السَّاعةِ، ويكونُ هذا الكلامُ تخويفًا لهم من يوم الجزاء، لعلَّهم يعودون إلى الرُّشدِ وإلى الصِّراط المستقيم(4)، ويجوزُ أنْ يُرادَ بالأجلِ الموتُ، فكلُّ من ماتَ انْقَضى أجلُه، وحلَّتْ ساعتُه، وفي ذلك تخويفٌ وإنذارٌ شديدٌ لهم(5).

3) ﴿حَدِيثِۭ﴾: حَدَثَ: الحاءُ والدَّالُ والثَّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو كونُ الشَّيءِ بعدَ أنْ لم يكُنْ، عَرَضًا كانَ أو جَوْهرًا، وإحداثُه: إيجادُه، والحديثُ من هذا؛ لأنَّه كلامٌ يحدُثُ منه الشَّيءُ بعدَ الشَّيء، وكلُّ كلام يبلُغُ الإنسانَ من جهةِ السَّمْعِ أوِ الوَحْي في يَقظتِه أو منامِه يُقالُ له: حَديثٌ، قالَ ﷺ: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ [التَّحريم: 3]، وقالَ تعالى: ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ [يوسف: 101]، أي: ما يُحدِّثُ به الإنسانُ في نومِه، وسمَّى اللهُ كتابَه حديثًا، فقالَ: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ [الطُّور: 34]، وقالَ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النِّساء: 87](6)، وقولُه تعالى هنا: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: بأيِّ حديث أحقُّ من حديثِ الإيمانِ بالقرآنِ قبلَ اقْترابِ أجلِهم وفَوْتِ حياتِهم يُريدونَ أنْ يُؤمنوا(7)؟!

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطبُ اللهُ تعالى الكافرينَ فيقول: أَوَلم ينظرْ هؤلاءِ المكذِّبونَ بآياتِنا في مُلكِ اللهِ

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 388/2.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أجل).

(3) الرّاغب، المفردات: (أجل)، والشّوكاني، فتح القدير: 388/2.

(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 133/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 198/9.

(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 235/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 443/2.

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حدث).

(7) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 134/2.

توبيخُ المشركين على عدمِ التّأمّلِ في الكون، وعدَمِ الحذرِ من الأجلِ وسُوءِ المصيرِ

وسُلطانِه في السَّماواتِ والأرض، وفيما خلقَ من شيءٍ فيهما، فيتدبَّروا ذلكَ ويعتبِرُوا به، ويَعلَموا أنَّ ذلكَ لمن لا نَظيرَ له ولا شَبيهَ، ومِنْ فعلِ مَنْ لا يَنبغي أنْ تكونَ العبادةُ والدِّينُ الخالصُ إلَّا له فيُؤمِنُوا به ويُصدِّقوا رسولَه، ويُنيبُوا إلى طاعتِه، ويَخلعُوا الأَنْدادَ والأوثان، ويَحذَروا أن تكونَ آجالُهم قدِ اقْتربتْ فيَهلِكوا على كُفرِهم ويَصيروا إلى عذابِ اللّهِ وأليمِ عقابِه، فبأيِّ تخويفٍ وتحذيرٍ وترهيبٍ بعدَ تحذيرِ محمَّدٍ ﷺ وترهيبِه، الَّذي أتاهم به من عندِ اللّهِ في أيِّ كتابِهِ يُصدِّقون، إنْ لم يُصدِّقوا بهذا الحديثِ الَّذي جاءهم به محمَّدٌ ﷺ من عندِ اللّهِ ﷻ؟[1].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى ضرورة النّظرِ إلى الموت، وإلى أنَّ الأجلَ الذي أُقِّتَ لحياة هؤلاء المشركين انتهَى، وهذا التّذكير فيه فوائدُ:

أُولاها: أنَّ غرورَ الحياة يدفعُ الإِنْسانَ إلى الطّغيان فيها، فيَنْهوي إلى ضَلالها، فإذا ذُكّرَ بالموت علمَ أنّها فانيةٌ فيقلُّ طغيانُه وغرورُه بها، وتلك نافذةُ الإيمان.

ثانيها: أنَّ تذكُّرَ الموتِ يدفعُ إلى التّفكير في قيمةِ الحياةِ، فإذا عرفَ الإِنْسانُ قيمتَها عرفَ قيمةَ الدّنيا؛ ولذلك كان بعضُ الصّالحين إذا عزّى في وفاةٍ قال: (اللّهم انفعْنا بالموت)؛ لأنّه عِبرةٌ وفيه إنذارٌ بالنّهايةِ، فإنْ لم يؤمن باليوم الآخِر، فالحياةُ تكونُ لغيرِ غايةٍ.

ثالثُها: أنَّ التّفكيرَ في الموتِ والنَّظَرَ فيه يدفعُ الإِنْسانَ إلى الإيمان باليوم الآخِر، وأنَّ حياتَه ليست عبثًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: 115][2].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 249/2.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3021/6.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الجُملةِ على التَّرقِّي في الإنكارِ والتَّعجيبِ من حالِهم:

المبالغةُ في الإنكارِ والتّعجيبِ، منَ الأوضحِ بعدَ الواضحِ

الجملةُ تَرَقٍّ في الإنكارِ والتَّعجيبِ من حالِهم في إعراضِهم عنِ النَّظرِ في حالِ رسولِهم إلى الإنكارِ والتَّعجيبِ من إعراضِهم عنِ النَّظرِ فيما هو أوضحُ من ذلكَ وأعمُّ، وهو مَلَكوتُ السَّماواتِ والأرض، وما خَلَقَ اللّهُ من شيءٍ ممَّا هو آياتٌ من آياتِ وَحدانيَّةِ اللّهِ تعالى الَّتي دعاهمُ الرَّسولُ ﷺ إلى الإيمانِ بها[1].

دَلالةُ الاسْتفهامِ ومعناه، في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ﴾:

الاسْتفهامُ لِتَوبيخِهم، عن عدمِ تأمُّلِهم في آياتِ الله

ساقَ اللّهُ قولَه ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ﴾ بصيغةِ الاسْتفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ؛ بإخْلالِهم بالتَّأمُّلِ في الآياتِ التَّكوينيَّةِ المنصوبةِ في الآفاقِ والأنْفُسِ الشَّاهدةِ بصحَّةِ مضمونِ الآياتِ المنزَّلَة، إثْرَ ما نَعَى عليهم إخلالَهم بالتَّفكُّرِ في شأنِه ﷺ - كما تقدَّم آنفًا -[2]، فأتْبعَ غفلَتَهم عنِ التّفكّرِ في أمرِ رسولِهم، بالإنكارِ عليهم في الغَفلةِ عنِ التّفكّرِ فيما هو أوضحُ منَ الاهتداءِ بالدّلالةِ الكونيّةِ على وجودِ الخالقِ وتفرُّدِه.

بَلاغةُ حذْفِ المعطوفِ عليه:

الغفلةُ عنِ التّفكّرِ، دَيْدَنُ كلِّ مُنكِرٍ كفورٍ

الواوُ في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ﴾ للعطفِ على المقدَّرِ المذكورِ، أو على الجُملةِ المنفيَّةِ بـ(لم)، مؤكِّدًا تكذيبَهم، والمكذِّبُ لا يتفكَّرُ ولا يَنظرُ نظرَ تأمُّلٍ، أي: كذَّبوا بها أوَ لم يتفكَّروا فيما ذُكرَ، ولم ينظُروا نظرَ تأمُّلٍ فيما تدلُّ عليه السَّماواتُ والأرضُ من عِظَمِ المُلْكِ وكمالِ القُدرة[3]، ويمكنُ أن يكونَ تقديرُ المحذوفِ بالاستهداءِ بما بعده فيكونَ المعنى: أعَمُوا ولم ينظرُوا؛ إلماعًا إلى أنّ عدمَ الانتفاعِ بنِعمةِ النّظرِ في تدبُّرِ آياتِ اللّه في كَونِه يُشبهُ فُقدانَ البصَرِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/196.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/443.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/443.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ، وتَعْدِيَتِهِ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾:

التَّفكُّرُ في الخلْقِ الرَّبانيِّ، يَهدي إلى المسارِ الإيمانيِّ

الفعلُ المضارعُ يفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ، وقولُه في الآيةِ الكريمةِ: ﴿يَنظُرُواْ﴾ يُفيدُ الدَّعوةَ لوجوبِ اسْتمرارِ النَّظرِ بتأملٍ وتدبُّرٍ في ملكوتِ السَّماواتِ والأرض، وما فيهما من آياتِ دلائلِ وَحدانيَّةِ اللّٰهِ وعظيمِ قُدرتِه في خَلْقِه، ولذلكَ عُدِّيَ الفعلُ المضارع ﴿يَنظُرُواْ﴾ إلى مُتعلَّقِه بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾؛ ليُفيدَ دَيمومَةَ النَّظرِ بتفكُّرٍ عميقٍ مُتغَلْغِلٍ في أصنافِ الموجوداتِ، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ[1].

وَجْهُ كَوْنِ المسنَدِ إليه ضَميرًا:

الكفّارُ يُعينُ بعضُهم بعضًا على الغَفْلةِ وعدَمِ الاعْتبارِ

جاءَ إسنادُ الفعلَيْنِ المضارعَينِ في قولِه تعالى: ﴿يَنظُرُواْ﴾ ومن قبْلِه ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾ إلى الواوِ (واوِ الجماعة)؛ تعبيرًا عن جماعةِ الكافرينَ المشركينَ بصيغةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّعجّبيِّ التَّقريعيِّ؛ بإخْلالِهم بالتَّأمُّلِ في آياتِ اللّٰهِ التَّكوينيَّةِ تفكُّرًا ونظرًا متدبِّرًا، إِثْرَ ما نَعَى عليهم إخْلالَهم بالتَّفكُّرِ في شأنِه ﷺ[2]، وفي الإسنادِ إلى ضميرِ الجماعةِ دلالةٌ على إعانةِ بعضِهم بعضًا على الضَّلالِ والغفلةِ، فالفكرةُ إذا اجتمع عليها جمعٌ ظنُّوا أنّهم على الحقِّ.

إيثارُ اسْتخدامِ (المَلَكوتِ) على (المِلْك):

اتّساعُ المَلَكوتِ، دليلٌ على قوّةِ مُلْكِ الحيِّ الّذي لا يموتُ

المَلَكوتُ: مصدرٌ كالرَّحَموتِ والرَّهَبوتِ والجَبَروت، والواوُ والتَّاءُ فيه للمبالغةِ، وظاهرُه أنَّ معناه المِلْك - بكسرِ الميمِ - لأنَّ مصدرَ مَلَكَ: المِلْك - بكسرِ الميمِ - ولَمَّا كانَ فيه زيادةٌ تُفيدُ المبالغةَ، كانَ معناهُ: المِلْكَ الوسيعَ الفسيحَ الدّالَّ على قوّةِ الملكِ المالك، ومُلْكُ اللّٰهِ ومَلَكوتُه: سُلْطانُه، ولِفلانٍ مَلَكوتُ العراقِ، أي: سُلطانُه ومِلكُه، وهذا يقتضي أنَّه مرادفٌ للمُلْك - بضمِّ الميمِ -[3]، "والمَلَكوتُ يُطلقُ مصدرًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/196.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/443.

(3) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ملك).

للمبالغةِ في المُلك، وأنَّ المُلكَ - بالضمِّ - لَمَّا كانَ مِلكًا - بالكسر - عظيمًا يُطلَقُ عليه أيضًا الملَكوتُ"[1].

نُكتةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

البيانُ النّاصعُ، يُقوّي المعنَى ويُوضِّحُه ويُعضِّدُه

إضافةُ الملكوتِ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إضافةٌ بيانيَّة، تبيِّنُ أنَّ المُلْكَ هو مُلْكُ السَّماواتِ والأرض، أي: مُلكُ اللهِ لهما[2]، ومُلْكُ الله تعالى محيطٌ بكلِّ ما في الكون من خَلْقٍ وَأَمر. وقد ذكرَ اللّه تعالى في سورة الأنعام أنه أرى إبراهيمَ عليه السلام ملكوتَ السّماواتِ والأرضِ؛ ليتيقَّنَ بوَحْدانيَّةِ الله وعظمةِ خلْقِه وحِكْمته: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: 75].

دَلالةُ جمعِ السَّماواتِ، وإفرادِ الأرضِ:

السّمواتُ سبْعٌ مُستقِلّاتٌ، والأرضُ طبقاتٌ مُلْتصِقاتٌ

دلَّ الجمْعُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على أنَّ كلَّ سماءٍ مستقلّةٌ عن غيرها مُنفصلةٌ عنها، ودلَّ إفرادُ الأرض في السّياقِ الكريمِ على أنَّ الأرضَ طبقاتٌ مُلتصقةٌ، فمايزَ الحقُّ بينهما لبيانِ هذا الحال، كما قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطّلاق: 12][3].

معنَى العطْفِ بالواوِ، في قولِه: ﴿وَمَا خَلَقَ﴾:

اللهُ تعالى، يملكُ السّمواتِ والأرضَ، وما فيهنَّ

دلَّ العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ بالواوِ، على أنَّه عطفٌ على ﴿مَلَكُوتِ﴾، أي: وفيما خَلقَ اللّهُ فيهما، أي: في مَلَكُوت السَّموات والأرضِ، وتخصيصُه بهما لكمالِ ظُهورِ عِظَمِ المُلْكِ فيهما، أوْ في مَلَكُوتِ ما خَلَقَ على أنَّه عطفٌ على السَّماواتِ والأرض[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/316.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/196.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/196.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/443، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/196.

الإحاطةُ بكلِّ ما يَصدُقُ عليه اسْمُ الشَّيءِ

دَلالةُ الاسْمِ الموصولِ (مَا):

(ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: فيما خلقَ اللّهُ من شيءٍ، أي: في الَّذي خلقَه اللّهُ ممَّا يقعُ عليهم اسْمُ الشَّيءِ من أجناسٍ لا يَحصُرُها العددُ، ولا يُحيطُ بها الوصْفُ، فهو لفظٌ يعمُّ جميعَ ما يُنظَرُ فيه نظرَ تفكُّرٍ وتأمُّلٍ وتدبُّرٍ[1]، و(ما) هي أعمُّ الموصولاتِ وأدْخلُها في الإبهامِ؛ لذا اصْطُفيتْ على الاسْمِ الموصولِ المخصوصِ.

خلقُ اللهِ للمخلوقاتِ، مُستمرٌّ لا ينقطِعُ

سِرُّ اسْتخدامِ الصِّلةِ، جُملةً فعليَّةً فعلُها ماضٍ ﴿وَمَا خَلَقَ﴾:

جاءتْ جملةُ الصِّلةِ مُصدَّرةً بـ﴿خَلَقَ﴾ وهو فعلٌ ماضٍ؛ دَلالةً على أنَّ خَلْقَ اللّهِ قائمٌ في كلِّ شيءٍ، وما يزالُ لم ينقطِعْ، وهو مَبْثوثٌ يرونَه بأمِّ أعيُنِهم، يُستدَلُّ به منَ الصَّنعةِ الدَّالَّةِ على الصَّانعِ، ومن نَفْسِ الإنسِ وحواسِّه ومواضعِ رزقِه، وبإسباغِ نِعمِه على الكائناتِ جميعِها بعِظَمِ خلْقِه وواسعِ جُودِه ورحمتِه بهم، وتمامِ عَجْزِ غيرِه عن كلِّ شيءٍ وتناهِي جهْلِه بكلِّ شيءٍ[2].

التّفرّدُ بالخلْقِ، أُلوهيّةٌ تستوجبُ العُبوديّةَ

دَلالةُ اسْتِخدامِ الفاعلِ اسْمِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

اللّهُ هو الحقيقُ بالإلهيَّةِ دونَ غيرِه، والنَّظرُ إلى المخلوقاتِ دليلٌ على عِظَمِ قدْرتِه تعالى، وأنَّه المتفرِّدُ بالصُّنعِ فهو الحقيقُ بالإلهيَّةِ، فلو نَظروا في ذلك نظرَ اعْتبارٍ؛ لَعَلِموا أنَّ خالقَ ذلكَ كلِّه ليس إلَّا إلهٌ واحدٌ، ولَزالَ إنكارُهم دعوةَ رسولِ اللّهِ ﷺ إلى إبطالِ الشِّرك[3].

الخلْقُ يَعمُّ كلَّ شيءٍ، واللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ

نُكتةُ حذْفِ الجارِّ والمجرورِ في المعنَى (فيهما):

دلَّ حذفُ الجارِّ (فيهما) المقتضِي ارتباطَه بضميرٍ لو ذُكرَ لعاد للسّموات والأرض وما فيهنّ، فدلَّ بحذْفِه على أن خَلْقَ اللّهِ أوْسعُ من خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما، دلَّ على ذلك قولُه:

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/133، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/483، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/443.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/483، والبقاعي، نظم الدُّرر: 8/182 - 183.

(3) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 15/420 - 421، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/196 - 197.

﴿شَيۡءٖ﴾، واسْمُ الشَّيءُ يصدُقُ على كلِّ ما هو أشملُ وأعمُّ منَ السَّماواتِ والأرض، فالعلمُ بوَحدانيَّةِ اللّهِ تعالى وبسائرِ شؤونه في خَلْقِه والَّتي يَنطقُ بها آياتُ اللّهِ المبثوثةُ في كونِه وسُنَنِه الخَلْقيَّةِ، وما يضمُّه هذا الكونُ الفسيحُ من جلائلِ المصنوعاتِ ودقائقِها في خلْقِ الملائكةِ والإنسِ والجانِّ وجميعِ آياتِ اللّهِ في الآفاقِ والأَنْفُسِ ممَّا لا يحيطُ الوصفُ به، وممَّا لا يُعدُّ ولا يُحصَى، كلُّ ذلك يقعُ تحتَ اسْمِ (الشَّيء)، وإلَّا فإنَّ (فيهما) تُحجِّرُ واسعًا وتُضيِّقُ رَحبًا، فكلُّ فردٍ من أفرادِ الأكوانِ ممَّا عزَّ وهانَ دليلٌ لائحٌ على الصَّانعِ المجيدِ، وسبيلٌ واضحٌ إلى عالمِ التَّوحيد[1]. قالَ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [الأنعام: 102].

دَلالةُ التَّأكيدِ بـ﴿مِن﴾ الدَّاخلةِ على النَّكِرة:

تأكيدُ أنَّ كلَّ ما يصْدُقُ عليه اسْمُ (شيء)، داخلٌ في الخلْقِ

في قولِه تعالى ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ دخلتْ (مِنْ) على ﴿شَيۡءٖ﴾، وهي نكرةٌ فأفادتْ عدمَ اخْتصاصِ الدَّلالةِ المذكورةِ بجلائلِ المصنوعاتِ دونَ دقائقِها، ليسَ في السَّماواتِ والأرضِ فَحَسبُ؛ بل لتؤكِّدَ النَّظَرَ والتَّدبُّرَ في كلِّ ما ينطلقُ وينطبقُ عليه اسْمُ الشَّيء[2].

معنَى العطْفِ في قولِه: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ﴾:

النَّظرُ في الملكوتِ، يقتضِي النَّظرَ في احْتمالِ قُرْبِ الأجلِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾، وهذا العطفُ مُتَّصلُ البيانِ في سِلْسلةِ مجيئِه في السِّياقِ، حيث وُبِّخُوا على انْتفاءِ نظرِهم في مَلَكُوتِ السَّماواتِ الأرضِ - وهي أعظمُ المصنوعاتِ - وأدلَّتِها على عظَمةِ الصَّانعِ، ثمَّ عطفَ عليه شيئًا عامًّا وهو قولُه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾، فانْدرجَتِ السَّماواتُ والأرضُ فيما خلقَ، ثمَّ عطفَ عليه شيئًا يخصُّ أنفُسَهم

(1) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 15/420 - 421، والبقاعي، نظم الدُّرر: 5/235، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/443.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/483، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/443.

وهو انْتفاءُ نظرِهم وتفكُّرِهم في أنَّ أجلَهم قدِ اقْتربَ فيُبادِرُهمُ الموتُ على حالةِ الغَفْلَةِ عنِ النَّظرِ فيما ذَكرَ، فيؤولُ أمرُهم إلى الخَسارةِ وعذابِ النَّار، فنبَّهَهم على التَّفكُّرِ في اقْترابِ الأَجَلِ لعلَّهم يُبادِرونَ إليه، وإلى طلبِ الحقِّ فيخلِّصُهم من عذابِ اللّهِ قبلَ مُقايضةِ الأجلِ وحُلولِ الموت[1].

بَلاغةُ التَّرتيبِ في المنظورِ فيه، من خلْقِ الله البديعِ:

البدْءُ بالأعْظَمِ ثـمَّ مـا يَلِيـه، للتّذكيرِ بالرّحيلِ عنِ الدُّنيَا

وردَ في السِّياقِ القرآنيِّ لهذه الآيةِ الكريمةِ التَّدرُّجُ منَ النَّظرِ والتَّفكُّرِ في السَّماواتِ والأرض، ثمَّ فيما خلقَ اللّه، (السَّماوات، الأرض، المخلوقات، اقترابُ أجلِهم)، فقد بدأَ معهم بيانُ اللّهِ تعالى بالأكبرِ والأَعْظم ثمَّ ما دونَه، كما قالَ تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]، وهذا التّرتيبُ في المنظور يُفْضِي بهم إلى إعدادِ العُدَّةِ اللّازمةِ لِتَدارُكِ ما فاتَهم من خيرٍ، وندمِهم عمَّا قدَّموه من شرٍّ قبلَ أنْ يأتيَهمُ أجلُهم وهم في غَفْلَةٍ سَاهون، وعن حقائقِ خلقِهم وحكمةِ وجودِهم مُعرِضون[2].

حذْفُ اسْمِ (أنْ) ودَلالتُه:

اسْمُ (أنْ) ضميرُ الشَّأن، وهو أنْ يكونَ قدِ اقتربَ المـوتُ وهُـم في غفلةٍ

اسْمُ (أن) محذوف، وهو ضميرُ الشَّأنِ المقدَّر - كما تقدَّم آنفًا - وهو حثٌّ على النَّظرِ بطريقِ الاسْتفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ التَّقريعيِّ، والمعنَى: أوَلَمْ ينظُروا في أنَّ الشَّأنَ عَسَى أَنْ يكونَ الشَّأنُ قدِ اقْتربَ أجلُهم[3].

وَجْهُ تقديمِ خبرِ ﴿يَكُونَ﴾ على اسْمِها:

قولُه تعالى: ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ﴾ هو خبرُ ﴿يَكُونَ﴾ و﴿أَجَلُهُمْ﴾ اسمُها، وقد تقدَّمَ الخبرُ على الاسْمِ هنا تقدُّمًا في الحُكم، ويَضعُفُ تقديمُ اسْمِ ﴿يَكُونَ﴾، على تقدير: يكونُ أجلُهم قدِ اقترب؛ لأنَّ الخبرَ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 235/5.

(2) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 421/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 197/9.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 133/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 443/2.

المعوَّلُ عليه قُربُ الآجالِ قبلَ وقوعِها؛ لأنّ الموتَ يأتي بغتةً

لا يتقدّمُ في نحوِ قولِ: زيدٌ قام؛ حيث إنَّ مَناطَ الإنكارِ والتَّوبيخ تأخيرُهم للنَّظرِ والتَّأمُّل، أي: لعلَّهم يموتون عمَّا قريبٍ، فمالَهم لا يُسارعونَ إلى التَّدبُّرِ في الآياتِ التَّكوينيَّةِ الشَّاهدةِ بما كذَّبوه منَ الآياتِ القرآنيَّة، فالمعوَّلُ عليه هو اقْترابُ الأجَلِ قبلَ حُلولِه تفاديًا لموتِهم وهُم في غَفْلَتِهم[1].

دَلالةُ اسْتخدامِ ﴿قَدِ﴾ ودخولِها على الماضِي، وصلتُها بما بعدَها:

قُـربُ الأجـلِ مُـحـقّـقٌ مُـقـرٌّ، وإذا حضرَ الأجلُ فلا مَفرَّ

أفادَ قولُه: ﴿قَدِ﴾ قبلَ ﴿ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾ إلى تحققِ قُرْبِ أجلِهم، والمعنَى: أَلَمْ ينظُروا في توقُّعِ قُربِ أجلِهم، وصِيغَ الكلامُ على هذا النَّظمِ لإفادةِ تهويلِ الأمرِ عليهم وتخويفِهم، بجعلِ مُتعلَّقِ النَّظرِ من معنَى الإخبارِ بأمرٍ متوقَّعِ الحدوثِ، وذلكَ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ من شأنِه أن يخطُرَ في النُّفوس، وأن يتحدَّث به النَّاسُ، وأنَّه قد صارَ حديثًا وخبرًا، فكأنَّه أمرٌ مُسَلَّمٌ مُقرَّرٌ[2].

معنَى الأجلِ ودَلالةُ اقْترابِه:

الأجـلُ إمَّا يومُ الـقـيـامـةِ أو الـمـوتُ، وكـلٌّ منهما تَخويفٌ وتَرهيبٌ

يجوزُ أن يكونَ المرادُ بالأجلِ مجيءَ السَّاعةِ، وانْقراضَ هذا العالَم، فهو أجلُهم وأجلُ غيرِهم منَ النَّاس، واقترابُ الأجلِ اقترابُ السَّاعة، ويكونُ هذا الكلامُ تخويفًا لهم من يوم الجزاء لعلَّهم يعودون إلى الرُّشدِ وإلى الصِّراط المستقيم[3]، ويجوزُ أنْ يُرادَ بالأجلِ الموتُ، فكلُّ من ماتَ انْقَضى أجلُه، وحلَّتْ ساعتُه، وفي ذلك تخويفٌ وإنذارٌ شديدٌ لهم[4].

دَلالةُ إضافةِ الأَجَلِ للكافرينَ، في قولِه: ﴿أَجَلُهُمۡۖ﴾:

إسـنـادُ الأجـلِ لـهـم؛ لأنَّـهـم مُـلابِـسـون لـلـسَّـاعـة مع إنْـكـارِهـم لوُقوعِها

الإضافةُ إلى ضميرِ (هم) في قولِه: ﴿أَجَلُهُمۡۖ﴾ لملابَسَتِهم للسَّاعة من جهة إنكارِهم لها وبَحْثِهم عنها[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/443، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/388.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/236، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/197.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/133، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/198.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/235، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/443.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/443.

معنى (الفاءِ)، في قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾:

إفـادةُ السّياقِ الـتّـأيـيـسَ من إيمانِ الكافرين، الّـذيـن أصـرُّوا على الكُفرِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾، هي الفصيحةُ الَّتي تُفصِحُ عن محذوف، وأفادتْ مع ما بعدَها هنا التَّأييسَ والتَّعجيبَ من حالهم، والتَّقديرُ: فإذا لم ينظُروا بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ في آياتِ اللّهِ البيِّناتِ ولم يُبادِروا إلى الإيمانِ بالقرآن، فبأيِّ حديثٍ أحقّ منه يُريدونَ أنْ يُؤمنوا فإنَّهم لنْ يُؤمنوا[1].

معنى الباءِ في قوله: ﴿فَبِأَيِّ﴾ بين التَّعْدِيةِ، والسَّببيّةِ:

البـاءُ متعلّقةٌ بفعلِ (يؤمنون)، وبحمْلِ الحديثِ على الحقيقةِ أوِ المجازِ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ باءُ التَّعديةِ، لتَعْدِيةِ فعلِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وذلكَ في حَمْلِ الحديثِ على حقيقتِه ويُرادُ به القرآنُ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطُّور: 34]، ويمكنُ أنْ يرادَ به دَعْوى محمَّدٍ ﷺ الرِّسالةَ من عندِ اللّهِ - وسيأتي بيانُه في عَوْدِ الضَّميرِ في﴿بَعْدَهُۥ﴾ - وفي كلا الاحْتمالين يُناسبُ قولَه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [الأعراف: 184].

والباءُ يمكنُ أنْ تكونَ للسَّببيَّةِ متعلِّقةً بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وذلكَ إنْ حُمِلَ الحديثُ على المجازِ فيشملُ القرآنَ وغيرَه من دلائلِ آياتِ اللّه، كما في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [الجاثية: 6]، ويكونُ المعنَى: فبأيِّ شيءٍ يُستدَلُّ عليهم غيرَ ما ذُكِرَ بعدَ أنْ ينتفعوا بدَلالةِ ما ذُكِرَ، ولم يُؤمنوا له فلا يُرجَى منهم إيمانٌ بعدَ ذلك[2].

دَلالةُ الاسْتفهامِ بالأداةِ (أيّ):

الاسْـتـفـهـامُ الإنــكــاريُّ الـتّعجُّبيُّ، ذو أثرٍ في السِّياقِ

(أيِّ) في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ اسْتفهاميَّةٌ سيقتْ للإنكارِ وللتعجُّب، أي: إذا لم يؤمنُوا بهذا الحديثِ فكيفَ يُؤمنونَ بغيرِه؟! أي: لا يُؤمنونَ بشيءٍ منَ الحديثِ بعدَ هذا الحديثِ[3].

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 134/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 330/25، والدَّعاس، إعراب القرآن: 410/1.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 198/9 - 199.

(3) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 527/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 198/9.

معنَى لفْظِ ﴿حَدِيثِۭ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الحديثُ حقيقةً الخبرُ الحادثُ، ومجازًا أيُّ أمرٍ من شأْنِه أن يصيرَ حديثًا

حقيقةُ الحديثِ أنَّه الخبرُ والقصَّةُ الحادثةُ، كما في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الذّاريات: 24].

ويُطلقُ مجازًا على الأمرِ الَّذي من شأنِه أنْ يصيرَ حديثًا، وهو أعمُّ منَ المعنَى الحقيقيِّ[1].

دَلالةُ تنكيرِ لفْظِ ﴿حَدِيثِۭ﴾:

التّنكيرُ دالٌّ على عُمومِ أيِّ حديثٍ يُقالُ، أو يخطُرُ على البالِ

أفادَ تنكيرُ قولِه: ﴿حَدِيثِۭ﴾ على عُموم ما يصْدُقُ عليه لفظُ ﴿حَدِيثِۭ﴾ من حيث الحقيقةُ والمجازُ، فيُرادُ في الأوَّل: القرآنُ أو دَعْوى رسالةِ محمَّد ﷺ، وفي الثَّاني: ما تقدَّمَ في الأوَّلِ وجميعُ آياتِ اللّهِ تعالى في خَلْقِه وكونِه في الآفاقِ والأَنْفُس، فإنَّ ذلكَ كلَّه من شأنِه أن يُسمَّى حديثًا[2].

معنى الظَّرفِ بلفْظِ (بَعْد):

إفادةُ التّرتيبِ مع المغايرةِ، وحملُها على معنى (غير) ظاهرةٌ

و(بعدَ) - في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ﴾ - مُستعارةٌ لمعنَى (غيرَ)؛ لأنَّ الظُّروفَ الدَّالَّةَ على المُباعَدةِ والمُفارقةِ تُستعمَلُ استعمالَ المغايرِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: 23]، وحملُ (بَعدَ) على حقيقتِها هنا يُحوِجُ إلى تأويلٍ، ويُخرِجُ الكلامَ عن سواءِ السَّبيلِ[3].

مرجع الضمير في ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ ودلالته:

تعودُ الهاءُ على القرآنِ أوِ الرَّسولِ ﷺ، أوِ الأَجَلِ

الهاءُ في ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ تحتملُ العَوْدَ على القرآنِ، أي: لعلَّ أَجَلَهم قدِ اقْتربَ فمالَهم لا يُبادِرونَ إلى الإيمانِ بالقرآنِ قبلَ الفَوْتِ وما ينتظرونَ بعدَ وضوحِ الحقّ، وبأيِّ حديثٍ أَحَقّ منه يريدون أو يُؤمنوا؟![4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/198.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/444، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/199.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/199.

(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/134، والعكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1/290.

وتحتملُ العَوْدَ على الرَّسول، ويكونُ الكلامُ على حَذْفِ مضاف، أي: بعدَ خبرِه وقصَّته، أي: فبأيِّ حديثٍ بعدَ حديثِ الرسولِ يُؤمنونَ وهو أصدقُ النَّاس، وتحتملُ العَوْدَ على ﴿أَجَلُهُمۡۖ﴾، أي: إنَّهم إذا ماتوا وانْقضَى أجلُهم فكيفَ يُؤمنونَ بعدَ انْقضاءِ أجلِهم؟!»[1].

دَلالةُ تقديمِ الظَّرفِ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ في السّياقِ:

تـقـدُّمُ الـظَّـرفِ يدلُّ على أهميَّةِ ما يـكـونُ سببًا لحصولِ الإيمانِ

تقدّمَ الظَّرفُ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ على الفعلِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ لا يكونُ إلَّا بعدَ وجودِ سَببِه، وما يدعو إليه كالقرآنِ والرَّسولِ ﷺ أو مخوِّفٍ يُخشَى منه الفَوْتُ كالأجَل، وهذا كلُّه سائقٌ للإيمانِ ومُقدَّمٌ عليه[2].

نُكتةُ استخدامِ الفعلِ المضارعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

الـفـعـلُ يـدلُّ - مـع الإنـكـارِ والـتَّـعـجـيـبِ - على استمرارِهم في عدِمِ الإيمان المريبِ

الفعلُ المضارعُ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ يُفيدُ تجدُّدَ الإيمانِ واسْتمرارَه في قلوبِ أصحابِه، لكنَّه جاءَ في سياقِ الإنكارِ والتَّوبيخِ لأولئك المكذِّبينَ الَّذين لا يُؤمنونَ معَ وضوحِ دَلالاتِ الآياتِ الكونيَّةِ المشاهَدةِ على وَحدانيَّةِ اللّهِ وشُمولِ قُدرتِه لكلِّ شيءٍ وواسعِ علمِه بكلِّ شيء، والتَّعجيبِ كذلكَ من حالِهم في إنكارِ دعوةِ الرَّسولِ ﷺ، فكأنَّ بيانَ اللّهِ يُومِئُ باسْتمرارِ عِنادِهم وتَجدُّدِ تكذيبِهم، وكأنَّه يقولُ لهم: إنَّه ليس من طباعِكمُ التَّصديقُ بما فيه خَلاصُكم ونجاتُكم من عذابِ اللّه[3].

❁ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

مَلَكُوت ومُلك:

الـمَـلَـكُـوتُ أوسـعُ من المُلْكِ، وهو مُختصٌّ بمُلْكِ اللهِ تعالى

المُلْكُ بالضَّمّ: ما يُدرَكُ بالحسِّ، ويُقالُ له: عالَمُ الشَّهادة، والمَلَكوتُ: ما لم يُدرَكْ به، وهو عالَمُ الغيب، وعالَمُ الأمْر، ولكونِ عالَمِ الشَّهادةِ بالنِّسبةِ إلى عالَمِ الغيبِ كالقَطْرةِ منَ البحر، يُسمَّى الأوَّلُ:

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/236، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/527.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/236، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/444.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/236، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/444.

مُلْكًا والثّاني مَلَكوتًا؛ لما تقرَّرَ من أنَّ زيادةَ المباني تدلُّ على زيادةِ المعاني، والمُلْكُ: ضبطُ الشَّيءِ المُتَصَرَّفِ فيه بالحُكْم، والمُلْكُ: الحقُّ الدَّائمُ للّهِ تعالى، فلذلكَ قالَ سُبحانه: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التّغابن: 1]، والملَكوتُ: مُختَصٌّ بمُلْكِ اللّهِ تعالى: وهو مصدرُ مَلَكَ، أُدخِلتْ فيه التّاء، نحو: رَحَموت ورَهَبوت للمبالغةِ(1).

حديثٌ وقُرآنٌ وقَوْلٌ وخَبَرٌ:

الحديثُ ما تُخبِرُ به عن نفسِكَ، من غيرِ إسنادِه إلى غيرِك، وهو الآثَرُ في السِّياق

الحديثُ: هو الإخبارُ عن عِدَّة أشياءَ، مع التَّحديثِ بها، ومنها حديثُ الإيمانِ وحديثُ القرآن، والحديثُ في الأصلِ هو ما تُخبِرُ به عن نفسِكَ من غيرِ أن تُسنِدَه إلى غيرِك، وسُمِّيَ حديثًا لأنَّه لا تقدُّمَ له، وإنَّما هو شيءٌ حدثَ لكَ فحدَّثتَ به.

الخبرُ: هو القولُ الَّذي يصحُّ وصفُه بالصِّدقِ والكَذِب، ويكونُ الإخبارُ به عن نفسِك وعن غيرِك، والأصلُ أنْ يكونَ به الإخبارُ عن غيرِك، وإنْ سألَ سائلٌ؛ فيقولُ: أَخْبروني، ولا يقولُ: حدِّثوني؛ لأنَّ السُّؤالَ اسْتخبارٌ والمُجيبُ مُخْبِرٌ، ويجوزُ أن يُقالَ: إنَّ الحديثَ ما كانَ خَبَرَيْنِ فصاعدًا، إذا كان كلُّ واحدٍ منهما مُتعلِّقًا بالآخَر، فقولُنا: رأيتُ زيدًا، خبرٌ، ورأيتُ زيدًا مُنطلِقًا، حديثٌ(2).

ثمَّ كَثُرَ اسْتعمالُ اللَّفظَيْنِ حتَّى سُمِّيَ كلُّ واحدٍ منهما باسْمِ الآخَر، فقيلَ للحديثِ: خَبرٌ، وللخَبرِ: حديثٌ.

القرآنُ: هو مصدرٌ بمعنى الجَمْعِ، يُقالُ: قَرأ، أي: جَمَعَ، ولذلكَ يُفيدُ جمعَ السُّوَرِ وضمَّ بعضِها إلى بعضٍ، ومنه القراءةُ: وهي ضمُّ الحروفِ والكلماتِ بعضِها إلى بعضٍ في التَّرتيل، وخُصَّ القرآنُ بالكتابِ المنزَّلِ على رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ، فصارَ له كالعَلَم،

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 511 - 512، والرّاغب، المفردات: (ملك)، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 246، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 380.

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 210 - 211، 437، والرّاغب، المفردات: (خبر)، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 181، 189، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 215، 299.

وسُمِّيَ هذا الكتابُ قرآنًا من بين سائِر الكتُبِ؛ لكونِه جامعًا لثمرةِ كُتُبِه، بل لجمْعِه ثمرةَ جميعِ العلومِ.

القولُ: يدلُّ على الحكايةِ، ويَقْتضِي المقولَ بعيْنِه مُفرَدًا كانَ أو جُملةً أو ما يقومُ مقامَ ذلك، ولذلكَ تعدَّى تعدِّيًا مُطلقًا، ولم يتعدَّ إلى غيرِ المَقول.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦﴾

[الأعراف: 186]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين التّعجُّبِ من عدمِ الاهتداءِ، وأنّ من ضلَّ وطغى، أضلَّه اللّه وتَركَهُ في غيِّه

عادَ بيانُ اللّهِ تعالى في هذه الآيةِ مرَّةً أُخرى، إلى نعتِ أحوالِ الضَّالِّين المكذِّبين، ولَمَّا كانَ حالُهم من عدم نظرِهم وتفكُّرِهم بآياتِ ودلائلِ وَحدانيَّةِ اللّهِ - مع توافُرِ وجودِها أمامَ أنظارِهم - من أعجَبِ العَجَب، كانت فَذْلكتُه قطْعًا تعليلًا لما قبلَه من إعراضِهم عمَّا لا يَنبغي الإعراضُ عنه؛ دليلًا على أنَّ الأمرَ ليس إلَّا بيدِ مُنَزِّلِه سُبحانه، فمَن يُضلِّه اللّهُ فلا هاديَ له بوجْهٍ منَ الوجوه، وجميعُهم في قبضتِه تعالى؛ فإنَّ اللّه تعالى يتركُهم على حالةٍ قبيحة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طُغْيَانِهِمْ﴾: طَغَى: الطَّاءُ والغَيْنُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ مُنقاسٌ، يُقالُ هو طاغٍ، وطغى السَّيْلُ: إذا جاءَ بماءٍ كثير، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقَّة: 11]، يُريدُ خروجَه عنِ المقدار، وطَغى البحرُ: هاجَتْ أمواجُه، والطُّغيان: مجاوزةُ الحدِّ في العِصيانِ، وهو معناه في قولِه هنا: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾، وأشدُّ الطُغيانِ مجاوزةُ الحدِّ في الكفرِ[2].

2) ﴿يَعْمَهُونَ﴾: عَمِهَ: العَيْنُ والميمُ والهاءُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على حَيْرَةٍ وقِلَّةِ اهْتداء، وعَمِهَ الرَّجلُ عَمَهًا، وذلكَ إذا تردَّدَ أين يتوجَّهُ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3]، أي: يتحيَّرونَ ويتردَّدون[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 422/15، والبقاعي، نظم الدُّرر: 185/8.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغى)، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 141.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عَمِه).
(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 393/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 389/2.

المَعنى الإجْماليُّ:

مـن ضـلَّ عـن الهدايةِ، زلّت به القَدمُ، في مزالقِ الغَواية

يُقرِّرُ اللّٰهُ تعالى حقيقةً ربَّانيَّةً، فيقولُ: من كتبَ اللّٰهُ تعالى عليه الضَّلالَةَ فإنَّه لا يهديهِ أحدٌ، ولو نظرَ لنفسِه فيما نظرَ فإنَّه لا يجزي عنه شيئًا، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ [المائدة: 41]، ويتركُ اللّٰهُ تعالى أولئكَ في ضَلالِهم وتجاوُزِهم في الكُفرِ والعِصيانِ يتحيَّرونَ ويتردَّدون، فلا يَخرُجونَ من طُغيانِهم ذاك ولا يهتدونَ إلى حقٍّ(1).

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ من لا يتّعِظُ بالقرآن وبما فيه منَ الزَّواجِر، والعِظات والعبَر، لا يتّعظُ بغيره، ومن أعرضَ عن كتاب اللّٰه مُكذِّبًا بما فيه منَ الهُدى فَضلَّ، فإنَّه لا تُرجَى له هدايةٌ أبدًا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقعُ الجُملةِ ممَّا قبلَها، ودلالتُه في السِّياق:

الـجـمـلـةُ استئنافيَّةٌ مُقرِّرةٌ لما قبلَها، وهي تعليلٌ لما سبقَ

قولُه تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبلَه، مُنبِئٌ عنِ الطَّبْعِ على قلوبِهم، وهو تعليلٌ للإنكارِ السَّابقِ في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾(2).

بَلاغةُ استخدامِ أُسلوبِ الشَّرطِ بالأداةِ (مَنْ):

دلَّ أُسـلـوبُ الـشّـرطِ على تحقُّقِ ضَلالِهم واسْـتِـمـرارِهـم عليه

أفادَ أسلوبُ الشَّرطِ بأداتِه ﴿مَن﴾ وفعلِه ﴿يُضۡلِلِ﴾ وجوابِه ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ أنَّ ضَلالَهم أمرٌ قدَّر اللّٰهُ دوامَه، فلا طَمعَ لأحدٍ في هَدْيِهم، وهذا مِصداقُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: 6 - 7](3).

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/249، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 264.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/444، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/199.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/199.

دَلالةُ إسْنادِ الفعْلِ إلى اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

دلَّ هذا الإسْنادُ على أنَّ الإضْلالَ ودوامَه بقدَرِ اللهِ وأمرِه

في قولِه تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ أُسْنِدَ فعْلُ الإضلالِ إلى اللهِ ﷻ؛ لأنَّ الإضْلالَ بقدَرِ اللهِ وأمْرِه كما الهدايةُ كذلك، كما قالَ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام: 125]، فضلالُ أولئكَ ودوامُه بقدَرِ اللهِ، لا أحدَ يردُّه، أو يقدِرُ على هدايتِهم، ولَمَّا كان هذا الحكمُ حاقًّا على منِ اتَّصفَ بالتَّكذيبِ، وعدمِ التَّفكُّرِ في حالِ الرَّسولِ ﷺ، وعدمِ النَّظرِ في مَلَكوتِ السَّماواتِ والأرضِ وما خلقَ اللهُ، وفي توقُّعِ اقْترابِ اسْتئصالِهم، كانَ المحكومُ عليهم بعدمِ الاهْتداءِ فريقًا غيرَ معروفٍ للنَّاسِ، وإنَّما ينفردُ اللهُ بعلمِه ويُطلِعُ عليه رسولَه ﷺ، وينكشفُ بعضُ ذلكَ عندَ موتِ بعضِهم على الشِّركِ[1].

نُكتةُ وُقوعِ جوابِ الشَّرْطِ جُملةً اسْميَّةً:

الضّلالُ شأنُهم وهُم له مُلازمون

قولُه تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ جوابُ الشَّرطِ، ووقوعُ جوابِ الشَّرطِ جملةً اسْميَّةً وخاصَّةً مع النَّفْيِ المصدَّرِ بالفاءِ يُقوِّي تحقُّقَ جوابِ الشَّرطِ، وهنا في هذا المقامِ يَدُلُّ على اسْتمرارِ ثباتِ عدمِ الهدايةِ لمن يُضلُّه اللهُ، فالمرادُ أنَّ هذا قد نزلَ بهم وأنَّهم مَثالٌ لهذا، فلا مفرَّ منه[2].

دَلالةُ اسْتِخدامِ لا النَّافيةِ للجِنْسِ في جوابِ الشَّرْطِ:

دلَّتْ (لا) على النَّفْيِ العامِّ لهدايةِ مَنْ أضلَّه اللهُ

جاءَ اسْتخدامُ البيانِ الإلهيِّ لـ(لا) النَّافيةِ للجِنْسِ قبلَ ﴿هَادِيَ﴾؛ للدَّلالةِ على النَّفْيِ العامِّ أنْ يكونَ هاديًا لمن أضلَّه اللهُ، فهي مُضمَّنةٌ اليأسَ منهم والمقْتَ لهم[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 422/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 199/9.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 236/5، والدَّعاس، إعراب القرآن: 410/1.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 236/5.

وَجْهُ حذْفِ خبرِ (لا):

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ خبرُ (لا) النَّافيةِ للجِنْس محذوفٌ، تقديرُه: (فلا هاديَ قائمٌ أو مُتوجِّهٌ لهدايتِه)، وهذا يدلُّ على التَّأْييسِ من هدايتِهم أو تدخُّلِ أحدٍ أو قُدرةِ أحدٍ على هِدايَتِهِمْ(1).

التَّأْييسُ مِن هِدايةِ مَن أضلَّه الله

معنَى اللَّامِ في ﴿لَهُۥ﴾ منَ الآيةِ الكريمةِ:

﴿لَهُۥ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ بمحذوفٍ هو خبرُ ﴿فَلَا﴾، واللَّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ أفادتِ النَّفيَ العامَّ لهدايةِ من أرادَ اللهُ إضلالَه، أي: فلا هدايةَ قائمةٌ أو كائنةٌ لأيِّ فردٍ أضلَّه الله، أو فلا هادٍ - أيًّا كان - لمن أضلَّه الله(2).

النَّفيُ التَّامُّ لهدايةِ من أضلَّه اللهُ، واستمرارُه على الضَّلالةِ

دَلالةُ العطفِ بالواوِ في ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ عطفًا على جُملة: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾؛ للإشارةِ إلى استمرارِ ضَلالِهم وانْتفاءِ هَدْيِهم في المستقبلِ كما وقعَ في الماضِي(3).

أفادَ العطفُ استمرارَ ضَلالِهم وانْتفاءَ هَدْيِهم

بلاغةُ الالْتفاتِ على قراءةِ ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالنّون:

في قولِه تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ مُتواترةٌ: الأولى: قراءةُ عاصمٍ ويعقوبَ ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياءِ التَّحتيَّة والرَّفعِ على الاسْتئناف، أي: وهو يَذرُهم، والثَّانيةُ: قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وخلَفٍ (ويَذَرْهُمْ) بالياءِ التَّحتيَّةِ والجَزْم، على أنَّه عطفٌ على موضع ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ وهو جوابُ الشَّرط، كأنَّه قيل: (مَنْ يُضلِلِ اللهُ لا يَهدِه أحدٌ ويذَرْهم)، والثَّالثةُ: قراءةُ المَدنيَّيْن، وابن كثير وأبي عَمْرو وابن عامر ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ بالنُّونِ والرَّفع، على أنَّه عطفُ جُملةٍ على جملة:

أظْهرَ الالْتفاتُ عظَمةَ المُتكلِّم، وأنَّ تركَهم في الضَّلالِ بأمْرِه ﷻ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 236/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 199/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 199/9.

﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ على طريقةِ الالْتفاتِ منَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّم[1]، بنون العَظَمةِ، أي: (ونحنُ نذرُهم).

فالَّذي يتركُهُمْ على ما هم عليه منَ الضَّلالِ والتَّخبُّطِ والحَيْرَةِ هو اللهُ الَّذي بيدِه مصيرُهم، وهذا تقريرٌ وافٍ بأنَّهم تحتَ مَغبَّةِ سَخَطِ اللهِ ومَقْتِه، وأنَّهم صائِرونَ إلى عذابِه لا مَحَالةَ[2].

غَرَضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾:

الطّغيانُ سببُ العَمَهِ والضَّلالةِ

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ على قولِه: ﴿يَعۡمَهُونَ﴾؛ لبيانِ السَّببِ قبلَ المُسَبَّب، ولتخصيصِ العِلَّةِ بالذِّكرِ قبلَ مَعلولِها، فإنَّ الطُّغيانَ - وهو الإفراطُ في الشَّرِّ والكِبْرِ - سببٌ وعِلّةٌ للضَّلالةِ والتِّيهِ والوقوعِ في المهالكِ.

لطيفةُ الاسْتِعارةِ في الحرفِ ﴿فِي﴾:

الإشارةُ إلى إحاطةِ حُكمِ اللهِ بهم

اسْتعارَ بيانُ اللهِ الحرفَ ﴿فِي﴾ منَ المعنَى الحقيقيِّ له للمعنَى المجازيِّ للدُّخولِ في (الطُّغيان) الَّذي هو تجاوزُهم للحدودِ، فعبَّرَ بذلك بالظَّرفِ ﴿فِي﴾؛ إشارةً إلى إحاطةِ حُكمِه ﷻ بهم، وإنْفاذِ أمرِه فيهم[3].

فائدةُ الإضافةِ في ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾:

بيانُ رُسوخِهم في الطُّغيانِ واخْتِصاصِهم به

في إضافةِ ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ إلى أهلِ الضَّلالةِ تعبيرٌ عن دخولِهم في الطُّغيانِ واسْتمرارِه فيهم، وتزايُدِه بالرُّسوخِ في حياتِهم وجميعِ أحوالِهم، وفيه كذلكَ إشارةٌ إلى تَفْظيعِ شأنِ هذا الطُّغيانِ وغرابَتِه في بابِه، وأنَّهمُ اخْتُصُّوا به حتَّى صارَ يُعرَفُ بإضافتِه إليهم[4].

دَلالةُ اسْتخدامِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

تجدُّدُ العَمَهِ فيهم، واسْتمرارُهم عليه

الفعلُ المضارعُ ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ دلَّتْ بفعلِها المضارعِ على

---

(1) ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 2/205، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/290، والنَّسفي، مدارك التَّنزيل: 1/622.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 5/528، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/444.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/185.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/296 - 297.

تجدُّدِ العَمَهِ فيهم ومُزاولَتِهم له، وأثرِه الكبيرِ في ضَلالتِهم حتَّى أصبحَ سِمَتَهم، ومستمرًّا في حياتهم، ودليلًا على أحوالِهم[1].

نُكتةُ توحيدِ الضَّميرِ ﴿لَهُۥٓ﴾، وجمعِه في ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

التّنصيصُ على شمولِ النَّفْيِ والإثباتِ للجميعِ

وردَ قولُه تعالى: ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ في حيِّزِ النَّفْيِ وسياقِ قولِه: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥٓ﴾ مع توحيدِ الضَّميرِ، وذلكَ نظرًا إلى لفظِ ﴿مَن﴾ المتقدِّمِ في قولِه تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾، وجاءَ كذلكَ جمْعًا في حيِّزِ الإثباتِ، وفي كُلٍّ من توحيدِ الضَّميرِ وجمْعِه رُوعِيَ في معنَى ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ التَّنصيصُ على شُمولِ النَّفْيِ والإثْباتِ للكلِّ بأنَّ مَنْ أضلَّه اللّهُ فلا هاديَ له، ويذرُه في طُغيانِه يتخبَّطُ ويتردَّدُ، ويتردَّى في مَهاوِي الهلاكِ[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يَذَرُهم ويَتْرُكُهم:

(يَذَرُهم) يُفيدُ تَركَ الشَّيءِ وعدَمَ الاعْتدادِ به، وفيه معنَى التّركِ

التَّركُ: تخليفُ الشَّيءِ وإبقاؤه في المكانِ الَّذي هو فيه والانصرافُ عنه، ولهذا يُسمُّونَ بيضةَ النَّعامةِ إذا خرجَ فرخُها تَريكةً؛ لأنَّ النَّعامةَ تنصرفُ عنها[3].

وذَرَ: يُقالُ: فلانٌ يَذرُ الشَّيء، أي: يقْذِفُه ويَدَعُه لقلَّةِ اعْتدادِه به، ولم يُستعمَلْ ماضِيه، قالَ تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: 127]، وقالَ هنا: ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾.

وهذا يدلُّ على عدمِ الاعْتدادِ بهم، ولذلكَ يُقالُ الوَذَرَةُ لقطعةٍ منَ اللَّحمِ، وتَسْمِيَتُها بذلكَ لقلَّةِ الاعْتدادِ بها[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/444.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/444.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 56.
(4) الرَّاغب، المفردات، والرَّازي، مختار الصّحاح: (وذر).

الطُّغيانُ مُجاوزةُ الحدِّ في الظُّلم، فهو ظُلْمٌ وزيادةٌ

طُغيانُهم وظُلمُهم:

الطُّغيانُ: مُجاوزةُ الحدِّ في المكروهِ مع غَلَبةٍ وقَهْرٍ، ويُقالُ: طَغَى: إذا جاوزَ الحدَّ في الظُّلْمِ[1] فهو مبالغةٌ في الظّلْم.

الظُّلْمُ: وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه المختصِّ به، إمَّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإما بعُدولٍ عن وقتِه أو مكانِه، والظُّلْمُ: مجاوزةُ الحدِّ، ويُقالُ فيما يكثُرُ وفيما يقِلُّ منَ التَّجاوُزِ، ولهذا يُستعمَلُ في الذَّنْبِ الكبير، وفي الذَّنْبِ الصَّغير[2].

العَمَهُ التَّردُّدُ والتَّحيُّرُ، وهو المناسِبُ لسِياقِ الآيةِ

(يَعْمَهون) و(يَعْمَون):

العَمَهُ: التَّردُّدُ في الأمرِ منَ التَّحيُّر، يُقالُ: عَمِهَ فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ، وجمعُه: عُمَّهٌ، وهو معنَى قولِه تعالى: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهو المناسبُ لسياقِ الآيةِ.

العَمَى: يُقالُ في افْتقادِ البَصَرِ والبَصيرةِ، ويُقالُ في الأوَّلِ: أَعْمَى، وفي الثَّاني: أَعْمَى وعَمٍ، قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46][3].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 337، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 141.

(2) الرّاغب، المفردات: (ظلم)، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 144.

(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس: (عمه) و(عمي).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المـنـاسـبـةُ بين مَـغـبّـةِ تـرْكِ الـهدايـةِ، وبين حُلولِ السّاعةِ بـأحـوالِـهـا وأهوالِها

لَمَّا بيّن اللّهُ ﷻ لعبادِه فيما تقدَّمَ التَّوحيدَ والنُّبوَّةَ والقضاءَ والقَدَرَ، وجميعُها من أركانِ الإيمانِ ثمَّ عرَّجَ على ضرورةِ التَّفكُّرِ، والنَّظرِ بتدبُّرٍ في آياتِ اللّهِ في مَلَكوتِ السّماواتِ والأرضِ، وفي حالِ رسولِ اللّهِ ﷺ ودعوتِه قبلَ أنْ يأتيَ أجلُهم، وهذه كلُّها مُنبِّهةٌ للإيمانِ وداعيةٌ إليه وإلى التَّوبةِ والإصلاحِ، أتبعَ ذلكَ كلَّه هنا بالمَعَادِ لِتكملَ المطالبُ الأربعةُ مع الثَّلاثةِ الَّتي تقدَّمتْها، والَّتي هي أُمَّهاتُ مطالبِ القرآنِ، مُبيِّنًا ﷻ ما اشْتمَلَ عليه هذا الكلامُ من تبلُّدِ الكافرينَ في العَمَهِ وتَلدُّدِهم في إشْراكِ الشُّبَهِ بقولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ﴾، ولعلَّ ذلك يحملُهم وغيرَهم منَ المكلَّفينَ على المسارعةِ إلى التَّوبةِ وأداءِ الواجباتِ وخاصَّةً أنَّ وقتَ السَّاعةِ مكتومٌ عنِ الخلْقِ محجوبٌ عن علمِهم(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: السَّاعةُ: جُزءٌ من أجزاءِ الزَّمانِ، وتُطلَقُ على الوقتِ الحاضرِ، ويُعبَّرُ بها عنِ القيامةِ، قالَ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، وجُمعَ هذانِ المَعْنَيانِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الرّوم: 55]، فالأُولى: هي القيامةُ، والثَّانيةُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 422/15 - 423، والبقاعي، نظم الدُّرر: 185/8.

الوقتُ القليلُ منَ الزَّمان(1)، وقولُه هنا: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: القيامةِ، وهي من الأسماءِ الغالبةِ، وإطلاقُها على القيامةِ لوقوعها بغتةً أو لسُرعةِ حِسابِها(2).

2) ﴿مُرۡسَىٰهَاۖ﴾: يقالُ: رَسَا الشَّيءُ يَرْسُو: ثبتَ، وأَرْساهُ غيرُه، قالَ تعالى: ﴿رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ [المرسلات: 27]، أي: جبالًا ثابتاتٍ.

والمُرْسَى يُقالُ للمصدرِ والمكانِ والزَّمانِ والمفعول، وقولُه هنا: ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾، أي: زمانِ ثُبوتِها(3).

3) ﴿يُجَلِّيهَا﴾: جَلَوَ: الجيمُ واللَّامُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ واحدٌ، وقياسٌ مُطَّرِدٌ، وهو انْكشافُ الشَّيءِ وبُروزُه، يُقالُ: جَلَوْتُ السَّيفَ جَلاءً، ويُقالُ: السَّماءُ جَلْواءُ، أي: مُصْحِيةٌ، ويُقالُ تجلَّى الشَّيءُ، إذا انْكشفَ(4)، وقولُه تعالى هنا: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾، أي: لا يُظهِرُها لوقتِها، ولا يَكشِفُ عنها، ولا يعلمُ جَليَّةَ أمرِها ومتَى يكونُ على التَّحديدِ إلَّا اللهُ ﷻ(5).

4) ﴿ثَقُلَتۡ﴾: ثَقُلَ: الثَّاءُ والقافُ اللَّامُ أصلٌ واحدٌ يتفرَّعُ منه كلماتٌ متقاربةٌ، وهو ضدُّ الخِفَّةِ، ولذلك سُمِّيَ الجنُّ والإنسُ الثَّقلَيْن؛ لِكَثْرةِ العددِ، قالَ تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ [النَّحل: 7]، أي: الأثْقال: جَمْعُ ثِقْلٍ، وهو مَتاعُ المُسافِر.

ويُقالُ: رحَلَ القومُ بِثَقَلَتِهم، أي: بأَمْتِعتِهم(6)، وقولُه تعالى هنا: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي: ثَقُلَ وُقوعُها على أهلِ السَّماواتِ والأرض، أو أنَّه لَمَّا خَفيَ علمُها على أهلِ السَّماواتِ والأرضِ كانتْ ثقيلةً؛ لأنَّ كلَّ ما خفيَ علْمُه ثقيلٌ على القلوب(7).

5) ﴿بَغۡتَةٗۗ﴾: بَغَتَ: الباءُ والغَيْنُ والتَّاءُ أصلٌ واحدٌ، لا يُقاسُ عليه، منه البَغْتُ، وهو أنْ يفجَأَ الشَّيءُ. وبَغتَهُ، أي: فَاجَأه، ولقيَهُ بغتةً، أي: فَجْأَةً، والمباغتةُ: المفاجأةُ(8)، وقولُه تعالى: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾، أي: إلَّا فجأة، أو على غَفْلَةٍ(9).

(1) الرّاغب، المفردات، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (سوع).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.
(3) الرّاغب، المفردات: (رسا)، والشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جلو).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 250/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزاباديّ، القاموس: (ثقل).
(7) الزَّجاج، معاني القرآن: 393/2، وابن جرير، جامع البيان: 294/13، والشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزاباديّ، القاموس: (بغت).
(9) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 393/2، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 250/2.

6) ﴿حَفِيٌّ﴾: الإحْفاءُ في السُّؤال: التَّنزُّعُ، أي: التَّسرُّعُ في الإلْحاحِ في المُطالَبة، أو في البحثِ عن تعرُّفِ الحال، وعلى الوجهِ الأوَّل، يُقالُ: أَحْفيتُ السُّؤالَ، وأَحْفَيْتُ فلانًا في السُّؤال، قالَ تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾ [محمَّد: 37]، وأصلُ ذلك من أَحْفيْتُ الدَّابَّة: جعلتُها حافيا، وقدْ حَفِيَ حَفًا وحَفْوَةً، والحَفِيُّ: البَرُّ اللَّطيفُ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝٤٧﴾ [مريم: 47]، ويُقالُ: حَفيتُ به - بالكسر - حَفاوَةً وتَحفَّيْتُ به: إذا عَنيتُ بإكْرامِه، والحَفيُّ: العالمُ بالشَّيء[1]، وقولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: يسألونَكَ عنها كأنَّكَ فَرِحٌ بسؤالِهم، يُقالُ: تَحفَّيْتُ بفلانٍ في المسألةِ إذا سألتُ سؤالًا أَظْهَرْتُ فيه المحبَّةَ والبرَّ به، ويمكنُ أن يُرادَ: كأنَّكَ أكثَرْتَ المسألةَ عنها حتَّى علمتَ وقتَها، أو كأنَّكَ عالمٌ بها، أو كأنَّ بينَكَ وبينَهم مودَّةً، كأنَّكَ صديقٌ لهم[2].

المَعنى الإجْمالِيُّ:

تأكيدُ اليقينِ في قُربِ حُلولِ السّاعةِ، الّتي لا يعلمُ مَوعدَها إلّا الله

يقولُ اللّهُ تعالى لرسولِه محمَّدٍ ﷺ: يسألُكَ المكذِّبونَ لكَ المتعنِّتونَ متى وقتُ السَّاعةِ الَّذي تجيءُ به؟ قُلْ لهم: إنَّه تعالى هو المُختصُّ بعلمِها، لا يُظهِرُها لوقتِها الَّذي قدَّرَ وقوعَها فيه إلَّا هو سُبحانه، لقد خَفِيَ علْمُها على أهلِ السَّماواتِ والأرض، واشْتدَّ أمرُها أيضًا عليهم، فهم منَ السَّاعةِ مُشْفِقون، فهي لا تأتيكُم إلَّا فَجْأةً من حيث لا تَشعرون، وأنتم لم تستعدُّوا لها، إنَّهم يسألونَكَ كأنَّكَ مُكثِرٌ من السُّؤالِ عنها، ولم يعلموا أنَّكَ - لكمالِ علمك بربِّك - غيرُ مُبالٍ بالسُّؤالِ الخالي منَ المصلحة، فإنَّه لا يعلمُها نبيٌّ مُرسَلٌ، ولا مَلَكٌ مقرَّبٌ، وهي منَ الأمورِ الَّتي أَخْفاها اللّهُ عنِ الخَلْقِ؛ لكمالِ حِكْمتِه، وسَعةِ علْمِه، ولكنَّ أكثرَ النَّاس يَتركُون

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حفى).
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 2/393 - 394، وابن جرير، جامع البيان: 9/140 - 141.

السُّؤالَ عنِ الأهمِّ، ويَدَعُون ما يجبُ عليهم منَ العلْمِ، ثمَّ يذهبون للسُّؤالِ عمَّا هم غيرُ مُطالَبين بعلْمِه(1).

وتُرشدُ الآيةُ إلى أنَّ مَردَّ علْم السّاعة إلى اللّه وحده، فكلُّ مسؤول عنها غير اللّه ليس أعلَمَ منَ السّائل، وأنَّ للساعة أشراطًا، بعضُها في الكتابِ وبعضُها في السُّنةِ، وليس معنى ذلك أنّه تحديدٌ لوقتها، وإنّما هي مُقدِّماتٌ تدلُّ على قُربِها وأنَّ اللّه استأثرَ بعلْم الغيْب فلا يعلَمُ الغيبَ إلَّا اللّه، ومَن علَّمه اللّهُ شيئًا منه علِمَه، كما عَلَّم نبيَّه ﷺ بعضَ المغَيَّباتِ، والمعلَّمُ بالشّيء لا يقال إنَّه يعلمُ الغيبَ، وإنما يقال علَّمه ربُّه غيبَ كذا وكذا فعَلِمَه(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الاسْتئنافِ في قولِه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾:

يُفيدُ الاسْتئنافُ تَوقُّعَ اقْترابِ أجَلِهم

قولُه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ استئنافٌ ابْتدائيٌّ يُذكَرُ به شيءٌ من ضَلالِهم ومُحاولةِ تعجيزِهمُ النَّبيَّ ﷺ بتعيين وقتِ السَّاعة، ومُناسبةُ هذا الاسْتئنافِ هي التَّعرُّضُ لتوقُّعِ اقْترابِ أَجَلِهم في قولِه تعالى: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾ [الأعراف: 185]، سواءٌ أكانَ أجلَ اسْتئصالِهم أمْ كانَ قيامَ السَّاعةِ، فإنَّ الكلامَ على السَّاعة دليلٌ لكلا الأجَلَيْن(3).

دَلالةُ اسْتخدامِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾:

صِيغةُ المضارعِ دالَّةٌ على تجدُّدِ سُؤالِهم واستمرارِه في موضوعِ السّاعةِ

الفعلُ المضارعُ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ يدلُّ على تجدُّدِ سُؤالِهم واسْتمرارِهم في سُؤالِ رسولِ اللّهِ ﷺ عنِ السَّاعة، وقد أوردَ القرآنُ الكريمُ في مواطنَ كثيرةٍ منه سؤالَهمُ النَّبيَّ ﷺ عنِ السَّاعةِ ووقتِها تعجيزًا له، وهم لها مُنكِرون، قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/250، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 264.
(2) الجزائري، أيسر التفاسير: 2/272.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/444 - 445، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/200.

﴿رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [سبأ: 7 - 8]، وقالَ سُبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: 63]، وقالَ ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ [سبأ: 3][1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالمسنَدِ إليه بواو الجماعةِ:

يعودُ الضَّميرُ على المشركينَ الَّذين سبقَ بيانُ تكذيبِهم بآياتِ الله

ضميرُ الواو في قولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ يعودُ على المشركين، فالسُّؤال يعودُ إليهم - كما تقدَّم آنفًا في دَأْبِهم على هذا السُّؤال - فالضَّميرُ يعودُ إلى الَّذين كذَّبوا بآياتِ اللّه، ولم يتفكَّروا بحالِ رسولِ اللّهِ ﷺ وصِدْقِ دعوتِه، ولم ينظرُوا في مَلَكُوتِ السَّماواتِ والأرض[2]، والتّعبيرُ بالمسنَد إليه ضَميرُ جمْعٍ يدلُّ على الاهتمامِ الجمْعيِّ، كما يُنبئُ عن أهمّيةِ المسؤولِ عنه.

بَلاغةُ التّعبيرِ بالمفعولِ به:

سؤالُ المشركين التّعجيزيُّ لرسولِ اللهِ ﷺ؛ توهُّمًا منهم أنَّه يعلمُ وقتَ السّاعةِ

مفعولُ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ هو الكافُ المتَّصلةُ بالفعلِ المضارع، وهي تدلُّ على أنَّ سؤالَهم مُوجَّهٌ لرسولِ اللّه ﷺ، وهذا السُّؤالُ منهم ليس سؤالَ استخبارٍ واستعلامٍ من مُتعلِّم، وإنَّما هو سؤالُ تعجيزٍ، وذلك لتوهُّمِهم أنَّه لما أخبرَهم بأمرِها فهو يدَّعي العلمَ بوقتِها، قالَ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾ [سبأ: 29 - 30][3].

غَرَضُ استِخدامِ كلمةِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾:

السَّاعةُ تناسبُ زمنَ الوقوعِ، وهو المسؤولُ عنه

السَّاعةُ تدلُّ على الوقتِ والزَّمن، وسُمِّيتِ القيامةُ بالسَّاعةِ مُراعاةً للزَّمنِ الَّذي تقعُ فيه: إمَّا لوقوعِها في وقتٍ ما بغتةً تَفجأُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/200 - 201.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/423، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/237.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/200.

الخَلْقَ، وإمَّا لأنَّ حسابَ الخَلْقِ يُقْضَى بزمنٍ ما مِقدارُه ساعةٌ واحدةٌ، وإمَّا لأنَّها عندَ اللهِ على طولِها كساعةٍ مِنَ السَّاعاتِ عندَ الخَلْقِ[1].

مَوقعُ جُملةِ ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ ودَلالتُه:

الإجْمالُ والتّفصيلُ يَكشفانِ عن أهميّةِ المسؤولِ عنه

قولُه تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ جملةٌ اسْتفهاميَّةٌ في موضعِ نَصْبٍ بقولٍ محذوفٍ دلَّ عليه فعلُ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾، والتَّقديرُ: (يقولونَ: أيَّانَ مُرساها)، وهو حكايةٌ لقولِهم بالمعنَى، ولذلكَ كانتِ الجملةُ في معنَى البدَلِ عن جملةِ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، والبَدَلُ هنا على نيَّةِ تَكرارِ العاملِ، وذلكَ لأنَّ العاملَ مُعلَّقٌ عنِ العمل؛ لأنَّ الجملةَ فيها اسْتفهامٌ، ولَمَّا عُلِّقَ الفعلُ وهو يتعدَّى بـ (عن)، صارتِ الجملةُ في موضعِ نَصْبٍ على إسْقاطِ حرفِ الجرّ، فهو بدلٌ في الجملةِ على موضعِ مِنَ السَّاعة؛ لأنَّ موضعَ المجرور نَصْبٌ، ونظيرُه في البدَلِ قولُهم: عرفتُ زيدًا أبو من هو؟ على أحسنِ المذاهبِ في تخريجِ هذه المسألة، أي: في كونِ الجملةِ الاسْتفهاميَّةِ تكونُ في موضعِ البدَلِ[2]، وهذا الموقعُ يدلُّ على ترتيبِ الانشغالِ العامِّ بالسَّاعَةِ والانشغال الخاصِّ بزمنِ وقوعِها، وكان يجبُ عليهمُ الانشغالُ بالعمل لها والاستعدادِ لملاقاتِها، فالتّعبيرُ كاشفٌ عن غفلتِهم عمّا يجبُ الانشغالُ به بالانشغال بغيره، وهو المناسِبُ للتّعبيرِ السّابقِ عنهم بالضّلالِ في الآيةِ السّابقةِ على الآيةِ الكريمةِ.

بَلاغةُ اسْتخدامِ اسْمِ الاسْتفهامِ ﴿أَيَّانَ﴾:

السُّؤالُ عنِ الزَّمانِ المتَعيَّنِ يُنبئُ عن أهميّةِ المسؤولِ عنه

﴿أَيَّانَ﴾ معناهُ: متى، وهو سؤالٌ عن زمانٍ، ولتضمُّنِها الوقتَ بُنيت، وهو جامدٌ غيرُ متصرِّفٍ، مُركَّبٌ من (أيِّ) الاسْتفهاميَّة، و(آن) وهو الوقتُ، ثمَّ خُفِّفتْ (أيُّ) وقُلبتْ همزةُ (آن) ياءً ليَتأتَّى الإدغامُ، فصارتْ (أيَّانَ) بمعنَى: أيُّ زمانٍ، ويتعيَّنُ الزَّمانُ المسؤولُ

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 134/2، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 423/15.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 237/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 201/9.

عنه بما بعدَ ﴿أَيَّانَ﴾، ولذلكَ يتعيَّنُ أنْ يكونَ اسْمَ معنًى لا اسْمَ ذاتٍ، إذْ لا يُخبَرُ بالزَّمانِ عنِ الذَّاتِ(1)، و﴿أَيَّانَ﴾ هنا اصطُفِيت دون (متى)؛ لأنّها سؤالٌ عن أوانِ الوقوعِ تحديدًا وتعْيينًا.

عِلَّةُ تأْخيرِ المسنَدِ إليه ﴿مُرْسَىٰهَا﴾:

المقصَدُ الأساسُ معرفةُ السَّاعةِ باعْتبارِ حُلولِ وقْتِها

في قولِه تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ تقدَّمَ الخبرُ ﴿أَيَّانَ﴾ على المبتدأ ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ على خلافِ الأصلِ في الجُملةِ الاسْميَّة، لكنَّ الجملةَ هنا اسْتفهاميَّةٌ، و﴿أَيَّانَ﴾ اسْمُ اسْتفهامٍ عنِ الوقتِ وله الصَّدارةُ، فلا يصحُّ أنْ يكونَ خبرًا عنِ الوقتِ إلَّا بمجازٍ؛ لأنَّه يكونُ التَّقديرُ: في أيِّ وقتٍ وقتُ إرسائِها.

والمقصَدُ الأصليُّ منَ السُّؤالِ نفسُ السَّاعةِ باعْتبارِ حُلولِها في وقتِها المعيَّنِ لا باعْتبارِ كونِه محلًّا لها، فأضيفَ العلْمُ المطلوبُ بالسُّؤالِ إلى ضميرِها الهاءِ في ﴿مُرْسَىٰهَا﴾، مُخبرًا باخْتصاصِه به جَلَّ جَلَالُهُ دونَ غيرِه، بقولِه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: علمُها بالاعْتبارِ المذكورِ ﴿عِندَ رَبِّي﴾(2) والتّقديمُ كاشفٌ عنِ الاهتمامِ بالأوانِ والوقتِ.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في ﴿مُرْسَىٰهَا﴾:

شُبِّهَ وقـوعُ أَمْرِ السَّاعةِ بوصُولِ السَّائرِ إلى المكانِ الَّذي يَقْصِدُه

أَطْلقَ بيانُ اللهِ الإرساءَ هنا في قولِه تعالى: ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ اسْتعارةً للوقوعِ؛ تَشْبيهًا لوقوعِ الأمْرِ الَّذي كانَ مُترَقَّبًا أو مُتردَّدًا فيه بوصولِ السَّائرِ في البَرِّ أوِ البحرِ إلى المكانِ الَّذي يريدُه(3)، وفيه تصويرٌ لحركةِ السّاعةِ الدّائبةِ للوصولِ إلى المَرْسَى.

براعةُ ورودِ الجوابِ بمقابلةِ سُؤالِ التَّهكُّمِ بالمعنَى المُلَقَّنِ بـ ﴿قُلْ﴾:

جاءَ سؤالُ المشركينَ عنِ السَّاعةِ وهو يحملُ في طيَّاته التَّهكُّمَ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 237/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 201/9.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 237/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 445/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.

اختصّ الله بعلم لم يُطلِعه لأحدٍ من العالمين ولا لمقام النبيّ الأمين

والازْدِراء وسُوءَ القَصْدِ، لكنَّ بيانَ اللّهِ تعالى المترفِّعَ دائمًا عن سفاهتِهم وسُوءِ نيَّتِهم يأمرُ رسولَ اللّهِ تعالى بجوابِهم جوابَ جِدٍّ وإغضاءٍ عن سُوءِ قَصْدِهم مُصدَّرًا بـ﴿قُلۡ﴾؛ إظهارًا لنَفْيِ الوَصْمِ عن وصْفِ النُّبوَّةِ من جَرَّاءِ عدمِ العلْمِ بوقتِ السَّاعة، وتعليمًا للذّين يترقَّبونَ أنْ يحصُلَ من جوابِ الرَّسولِ ﷺ عن سؤالِ المشركينَ علمٌ للجميعِ بتعْيينِ وقتِ السَّاعةِ، فإذا أمْرُ السَّاعةِ ممَّا تتوجَّهُ النُّفوسُ إلى تطلُّبه وتحرِصُ على مَعْرفتِه[1].

فائدةُ الجوابِ بأُسلوبِ القَصْرِ:

تعريضٌ بغَباوةِ المشركين

الحَصْرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ حقيقيٌّ؛ لأنَّه الأصلُ، ولِمَا دلَّ عليه التَّوكيدُ بعدُ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، والقَصرُ الحقيقيُّ يشتمِلُ على معنَى الإضافيِّ وزيادَةٍ؛ لأنَّ علْمَ السَّاعةِ بالتَّحديدِ مقصورٌ على اللّهِ تعالى وحده،[2]، واستخدامُ أُسلوبِ القصْرِ بطريقِ ﴿إِنَّمَا﴾ دالٌّ على أنَّ قصْرَ علْمِ السّاعةِ على اللّه وحده حقيقةٌ مُطلقةٌ؛ لأنّ ﴿إِنَّمَا﴾ تُستخدمُ فيما لا يجهلُه المخاطَبُ ولايُنكِرُه، وفي ذلك تعريضٌ بغباوةِ المشركين.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسْميَّةِ:

اسْتِئثارُه سُبْحانَهُ بوقْتِ وقوعِها، حقيقةٌ مُطلقةٌ

قولُه تعالى: ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ جملةٌ اسْميَّةٌ أفادتْ ثباتَ علْمِ السّاعةِ عندَ اللّهِ واسْتئثارَه سُبحانه بعلْمِ وقتِها دونَ سواه، ولم يُخبرْ به أحدًا من ملَكٍ مقرَّبٍ ولا نبيٍّ مُرسَلٍ؛ ليكونَ ذلكَ أَدْعَى إلى دوامِ الطَّاعةِ وأَزْجَرَ عنِ المعصيةِ[3].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بـ﴿عِلۡمُهَا﴾ بدلَ وقتِها:

المرادُ علْمُ وقتِها المَسْؤولِ عنه

المرادُ بعلْمِ السَّاعةِ هو علْمُ تحديدِ وقتِها، كما يُنْبِئُ عنه السُّؤالُ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 394/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 423/15، والنَّسفي، مدارك التَّنزيل: 622/1، والشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.

فإضافةُ علْمِ إلى ضميرِ السَّاعةِ على تقديرِ مضافٍ بينَهما، أي: علْمُ وقتِها[1]، وعبَّر بالعلم لِيشملَ وقتَ الوقوعِ وما يكونُ قبْلَه منَ الأحداثِ، وما يكونُ فيه منَ الأحداثِ، وما يكونُ بعدَه كذلك.

بَلاغةُ لفْظِ ﴿عِندَ﴾ ودَلالتُه:

﴿عِندَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾ ظرفيَّةٌ مَجازيَّةٌ اسْتُعمِلتْ في تحقيقِ تعلُّقِ علْمِ اللهِ بوقتِها[2].

لَطيفةُ التَّعريفِ باسْمِ الرَّبِّ مُضافًا ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾:

التَّعريفُ بوصْفِ الرَّبِّ وإضافتِه إلى ضميرِ المتكلِّمِ إيْماءٌ إلى الاسْتدلالِ على اسْتئثارِ اللهِ تعالى بعلْمِ وقتِ السَّاعةِ دونَ الرَّسولِ المسؤولِ، ففيه إيْماءٌ إلى خَطَئِهم وإلى شُبهةِ خَطَئِهم، وفي التَّعرُّضِ لعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع إضافتِه إلى ضميرِه ﷺ إيْذانٌ بأنَّ توفيقَه ﷺ للجوابِ المذكورِ من بابِ التَّربيةِ والإرشادِ[3].

الـجـوابُ يـكـونُ تَـرْبِـيَـةً وإرشـادًا للسّائلِ

وَجْهُ كَمالِ الاتِّصالِ بين قولِه: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ وما قبْلَه:

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ بيانٌ لاسْتمرارِ تلك الحالةِ إلى حينِ وقتِها، وإقْناطٌ كلِّيٌّ عن إظْهارِ أمرِها بطريقِ الإخبارِ من جهتِه تعالى أوْ من جهةِ غيرِه؛ فإنَّ هذه التَّجليةَ وذاك العِلْمَ بوقتِ وقوعِها كلاهما مَنْفيُّ الإسنادِ عن غيرِ اللهِ تعالى، فهو الَّذي يعلمُ وقتَها، وهو الَّذي يُظهِرُها إذا أراد، فإذا أَظْهرَها فقد جلَّاها، والمعنَى: لا يكشِفُ وقتَ وقوعِها ولا يُظْهِرُ للنَّاسِ أمرَها الَّذي تسألونَني عنه إلَّا هو ﷻ، من غيرِ أنْ يَشعُرَ به أحدٌ منَ المخلوقينَ فيتوسَّطَ في إظهارِه، لا بأن يُخبرَهم بوقتِها قبلَ مجيئِه، كما هو المسؤولُ؛ بل بأن يُقيمَها فيشاهدُوها عِيانًا، كما يُفصِحُ عنه التَّجليةُ

اتِّصالٌ بين عدَمِ علْمِ وقوعِها من أحدٍ، وإظهارِها لأحدٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 445/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.

المُنبِئةُ عنِ الكشفِ التَّامِّ المُزيلِ للإبهامِ بالكليَّةِ، وذلكَ كلُّه لاقْتضاءِ الحِكمةِ التَّشريعيَّةِ إيَّاه، فإنَّه أَدْعَى إلى الطَّاعةِ وأَزْجَرُ عنِ المعصيةِ، كما أنَّ إخفاءَ الأجلِ الخاصِّ بالإنسانِ كذلك[1].

بَلاغةُ أُسلوبِ القَصْرِ:

القَصْرُ تابعٌ ومُؤكِّدٌ للجُملةِ قبلَها، وتتابُعُه أفحمُ في الرَّدِّ والتَّبكيتِ

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ قَصْرٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّها تتنزَّلُ منَ الجُملةِ الَّتي قبلَها: ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ منزلةَ التَّأكيدِ والتَّقريرِ لها، فكما أنَّ تلكَ ضمَّتْ في جَنَباتِها القَصْرَ الحقيقيَّ فكذلك هذه[2]، وهذا تأكيدٌ بعد تأكيدٍ؛ لأنّ جُملةَ القصْرِ بقوة جُملتَيْن: إثباتٌ ونفيٌ، فهما جُملتا قَصْرٍ متعاقبتان، وتَتابُعُ أسلُوبي قَصْرٍ - في السِّياقِ الواحدِ - أفحمُ في الردِّ عليهم وتبكيتِهم.

معنَى اللَّامِ في شِبْهِ الجُملةِ ﴿لِوَقۡتِهَآ﴾:

اللَّامُ للتَّوقيتِ؛ واللهُ وحدَه العالِمُ بوقتِ وُقوعِها وكفَى

جاءتِ اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِوَقۡتِهَآ﴾ للتَّوقيتِ، كالَّتي في قولِه تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: 78]، ومعنَى التَّوقيتِ قريبٌ من معنَى (عندَ)، والتَّحقيقُ: أنَّ معناهُ ناشئٌ عن معنَى لام الاخْتصاص، ومعنَى اللَّامِ هنا يُناسبُ أحدَ مَعْنيَيِ الإجْلاءِ، وهو الإظْهارُ؛ لأنَّه الَّذي إذا حصلَ تمَّ كشْفُ أمرِها، وتحقَّقَ النَّاسُ أنَّ القادرَ على إجلائِها وحدَه كان عالمًا بوقتِ حُلولِها[3].

دَلالةُ تَقديمِ ﴿لِوَقۡتِهَآ﴾ على فاعلِ الفعْلِ ﴿يُجَلِّيهَا﴾:

التَّقديمُ تنبيهٌ على أنَّ تجليّةَ أمرِها، تكونُ وقتَ وقوعِها

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ وهو ﴿لِوَقۡتِهَآ﴾ على فاعلِ ﴿يُجَلِّيهَا﴾ الواقعِ اسْتثناءً مُفرَّغًا؛ للاهْتمامِ به تنبيهًا على أنَّ تجليةَ أمرِها يكونُ وقتَ حُلولِها؛ لأنَّها تأتي بغتةً[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 446/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9 - 203.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9 - 203.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 203/9.

غَرَضُ الاسْتِعارةِ في قولِه: ﴿ثَقُلَتْ﴾:

التَّعْبيرُ بالثِّقَلِ تصويرٌ للمَشقّةِ

الثِّقَلُ في قولِه تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُستعارٌ للمشقَّةِ، كما يُستعارُ العِظَمُ والكِبَر؛ لأنَّ شِدَّةَ وقْعِ الشَّيءِ في النُّفوسِ ومَشَقَّتِه عليها تُخيِّلُ لمن خَلَتْ به أنَّه حاملٌ شيئًا ثقيلًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾ [المزّمّل: 5]، أي: شديدًا تَلَقِّيه، وهو القرآنُ[1].

بَديعُ التَّعْدِيةِ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ بدلَ (على):

التَّعْدِيةُ دالَّةٌ على عُمومِ ما يقعُ عليه الثِّقَلُ في السَّماواتِ والأرضِ

في قولِه تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعدَّى فعلُ ﴿ثَقُلَتْ﴾ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ الدَّالِّ على مكانِ حُلولِ الفعل، وحُذِفَ ما حقُّه أنْ يَتعدَّى بِهِ وهو حرفُ (على)، الَّذي يدلُّ على ما يقعُ عليه الفعلُ؛ لِيعُمَّ كلَّ ما تحويهِ السَّماواتُ والأرضُ ممَّا يقعُ عليه عمليَّةُ الثِّقَلِ بمعنى الشِّدَّةِ، وهذا من بديعِ الإيجازِ البلاغيِّ ودِقَّةِ مَدْلولِه[2].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالقَيْدِ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

شِدَّةُ السَّاعةِ وعُمومُ ما يحدُثُ فيها محلُّه السَّماواتُ والأرضُ

دلَّ قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالقيدِ فيهما مع اسْتخدام ﴿فِي﴾ - كما تقدَّم آنفًا - ليدلَّ على شدَّةِ وعِظَمِ السَّاعةِ وعُمُومِ ما يحدثُ فيها منَ الحوادثِ المَهُولَة، ممَّا يقعُ في السَّماواتِ والأرضِ، فهما محلُّ هذه الحوادثِ من تصادمِ الكواكبِ وانْخرامِ سَيْرِها في السَّماوات، ومن زلازلِ الأرضِ وفَيَضانِ البراكينِ والبحار، ونحوِ ذلك ممَّا ينشأُ عنِ اخْتلالِ النِّظامِ الَّذي كان عليه سيرُ العالَمِ[3].

بَلاغةُ الاعْتِراضِ في الآيةِ:

لقصْدِ بيانِ هوْلِ السّاعةِ، وحكْمةِ إخفائِها

جُملةُ: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معترضةٌ لقصْدِ الإفادةِ بهَوْلِ السّاعة وأحداثِها، والإيماءِ إلى حِكمةِ إخْفائِها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/203.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/204.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/203.

وقوعُ السّاعة ذو أحداثٍ شديدةٍ ومَهولةٍ

فائدةُ الكِنايةِ عن شِدَّةِ السَّاعةِ بقولِه: ﴿ثَقُلَتۡ﴾:

التَّعبيرُ كلُّه كنايةٌ عن شدّةِ السّاعةِ، وإسنادُ الثِّقلِ إلى السّاعةِ مجازٌ عقليٌّ باعتبارِها وعاءَ الحوادثِ والشّدائدِ، والقرينةُ واضحةٌ، وهي كونُ الثِّقَلِ بمعنَى الشِّدَّةِ لا يكونُ وصفًا للزَّمان، ولكنَّه وصفٌ للأحداثِ، فإذا أُسنِدَ إلى الزَّمانِ، فإسنادُه إليه إنَّما هو باعْتبارِه ظرْفًا للأحداثِ، كقولِه تعالى حكايةً عن لوطٍ عليه السلام: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٌ ٧٧﴾ [هود: 77][1].

تقريرُ المضامِين يُثبّتُ المرادَ ويُحقِّقُه

مَوقعُ جُملةِ: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ ودَلالتُه على التّأكيدِ:

جُملةُ: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ مُسْتأنَفةٌ جاءتْ تكملةً للإخبارِ عن وقتِ حُلولِ السَّاعة؛ لأنَّ الإتيانَ بغتةً يُحقِّقُ ويؤكِّدُ مضمونَ الإخْبارِ عن وقتِها بأنَّه غيرُ معلومٍ إلَّا للّٰه تعالى، حيث قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾، وبأنَّ اللهَ غيرُ مُظهِرِه لأحدٍ، فدلَّ قولُه تعالى: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ على أنَّ انْتفاءَ إظْهارِ وقتِها انْتفاءٌ مُتوغِّلٌ في نوعِه، بحيث لا يحصُلُ العلْمُ لأحدٍ بحُلُولِها بالكُنْهِ ولا بالإجمالِ[2].

حُلولِ السَّاعةِ مُفاجأةٌ بدونِ تهيُّؤٍ له

نُكتةُ التَّعْبيرِ بأسلُوبِ القَصْرِ:

في قولِه تعالى: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ دلَّ مجيءُ ﴿إِلَّا﴾ بعد النَّفيِ على أنَّ ﴿إِلَّا﴾ أداةُ حَصرٍ أُكِّدَ فيها هذا الحَصْرُ بالإخْبارِ بالمصدرِ ﴿بَغۡتَةٗۗ﴾ لقصْدِ المبالغة، فاجتمعا معًا للدَّلالةِ على أنَّ السَّاعةَ مقصورٌ حُلولُها فجأةً من غيرِ ترقُّبٍ ولا إعلامٍ ولا إشْعارٍ[3].

كمالُ الاتِّصالِ بين قولِه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾، وقولِه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾:

جُملةُ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ مؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/203.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/446، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/204.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/204.

﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، ومُبيِّنةٌ لكيفيَّةِ سؤالِهم فَلذَيْنِك فُصِلت، وحُذف متعلَّقُ السُّؤالِ لعلمِه منَ الجُملةِ الأولى، ويُعدُّ كذلكَ قولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ استئنافًا مُشوِّقًا لبيانِ خَطئِهم في توجيهِ السُّؤالِ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ من أصلِه، إذْ عُلِمَ بناءً على زعمِهم أنَّه ﷺ عالمٌ بالمسؤولِ عنه، أو أنَّ العلمَ بذلكَ من مَواجبِ الرِّسالةِ إثْرَ بيانِ خطئِهم في أصْلِ السُّؤالِ بأعْلامِ شأنِ المسؤولِ عنه[1].

الاسْتئنافُ بينَ القولَيْنِ دليلٌ على خِطَّتِهم في توجيهِ السُّؤالِ للرّسولِ ﷺ

بَلاغةُ جُملةِ التَّشبيهِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾:

مَبنَى التَّركيبِ في التَّشبيهِ هنا في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ قائمٌ على المبالغةِ والاسْتقصاءِ، فهم يسألونَكَ كأنَّكَ عالمٌ بها، وحقيقتُه كأنَّكَ بليغٌ في السُّؤال عنها؛ لأنَّ من بالغَ في السُّؤالِ عنِ الشَّيءِ والتّنقيرِ عنه اسْتحكَمَ علْمُه فيه[2]؛ فقد شُبِّه حالُ الرَّسولِ ﷺ في سؤالِهم إيَّاه بحالِ من هو مُبالِغٌ في العلْم بها، وجملةُ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ جملةٌ تشبيهيَّةٌ في محلِّ النَّصبِ على أنَّها حالٌ منَ (الكاف) في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ جيءَ بها على هذه الشَّاكلةِ بيانًا لما يَدْعوهم إلى السُّؤالِ على زعمِهم، وإشعارًا بخطئِهم في ذلك؛ أي: يسألونكَ مُشبَّهًا حالُكَ عندَهم بحالِ مَنْ هو حفيٌّ عنها، أي: مُبالغٌ في العلْم بها[3].

تركيبُ التَّشبيهِ في الجُملةِ، قائمٌ على المبالغةِ والاسْتقصاءِ

دَلالةُ تأخِيرِ ﴿عَنْهَا﴾، عمَّا يتعلَّقُ به:

﴿عَنْهَا﴾ متعلِّقَةٌ بـ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ وحُذِفَ مُتَعَلّقُ ﴿حَفِىٌّ﴾ لِظهورِه فيما يتناسبُ معَ السِّياق، فأصلُ التَّرتيب: يسألونَك عنها كأنَّكَ حَفيٌّ، ولذلكَ جاءَ تأخيرُ ﴿عَنْهَا﴾ للإيفاءِ بجميعِ الاعْتباراتِ المتعلِّقةِ بمعنى ﴿حَفِىٌّ﴾، وهذه الاعْتباراتُ هي وجوهٌ منَ المعاني أفاضَ بها

التّأخيرُ للإيفاءِ بما يتعلَّقُ به معنَى (حَفِيّ)، من وجوهِ المعاني المختلفةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 3/301، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/204.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/134، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/447.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/447.

قولُه تعالى: ﴿حَفِيٌّ﴾، وهي مُفصَّلةٌ في الوجهِ البلاغيِّ القادمِ في إثْرِ هذا البيان(1).

تنوُّعُ معنَى ﴿حَفِيٌّ﴾ في هذا السِّياقِ وأَثَرُه في المعنَى:

ضمٌّ معانٍ عديدة، ولكلٍّ منها تقديرٌ مناسِبٌ للسِّياقِ

حَفيٌّ: فَعِيلٌ، ويَعْتورُهُ عديدٌ مِنَ المعاني، ولكلِّ واحدٍ منها أثَرٌ في تكْييفِ المعنَى بما يتناسبُ مع السِّياق، وهي كما يلي:

الأوَّلُ: بمعنَى فاعلٍ، مُشتقًّا من حَفيَ به، مِثْلُ غَنِيَ، فهُوَ غَنِيٌّ، إذا أَكْثَرَ السُّؤالَ عن حالِه تلطُّفًا، ويكونُ المعنَى: كأنَّكَ أَكْرَرْتَ السُّؤالَ عن وقتِ الساعة حتَّى علِمْتَه، فيكونُ وصفُ حفيٍّ كنايةً عنِ العالمِ بالشَّيء؛ لأنَّ كثرةَ السُّؤالِ تَقْتضِي حصولَ العلْمِ بالمسؤولِ عنه.

الثَّاني: أنْ يكونَ مُشتقًّا من أَحْفاه، إذا أَلَحَّ عليه في فعْلٍ، فيكونُ فعيلًا بمعنَى مُفْعِلٍ، مِثْل حَكيم، أي: كأنَّكَ مُلِحٌّ على اللّٰهِ في تعيينِ وقتِ السَّاعة، كقولِه تعالى: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾ [محمَّد: 37].

الثَّالثُ: أنْ يكونَ حفيٌّ مُشتقًّا من حَفيٍّ به، كرضيٍّ، بمعنَى مُحبٍّ ومُحْتَفٍ ومُحتَفِلٍ به، ومُبالغٍ في الإكرام، فيكونُ مُستعمَلًا في صريحِ معناه، والتَّقديرُ: كأنَّكَ حفيٌّ بهم، أي: مُكرِمٌ لهم ومحبٌّ ومُلاطفٌ، فيكونُ تهكُّمًا بالمشركين، أي: يُظهِرونَ لكَ أنَّكَ كذلكَ لِيستنزِلوك للخَوْضِ معهم في تعيينِ السَّاعة.

الرَّابعُ: بمعنَى مُعْجَبٍ، أي: كأنَّكَ يُعجبُكَ سؤالُهم عنها.

الخامسُ: بمعنَى مجتهدٍ، أي: مجتهدٌ في السُّؤالِ مُبالِغٌ في الإقْبالِ على ما تُسألُ عنه.

السَّادسُ: بمعنى طالبٍ، أي: كأنَّكَ طالبٌ علْمَها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/205.

السَّابعُ: بمعنى كارِه، أي: كأنَّكَ تكرهُ السُّؤالَ عنها؛ لأنَّها من علْمِ الغيبِ الَّذي اسْتأثَرَ اللهُ به ولم يُؤتِه أحدًا[1].

بَلاغةُ كمالِ الاتِّصالِ: بين قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾:

الاتِّصالُ بين القولَيْن فيه تأكيدُ الثَّاني للأوَّلِ، في الحُكْمِ والمضمُونِ

في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أمرٌ من اللهِ ﷻ لنبيِّه ﷺ بإعادةِ الجوابِ الأوَّلِ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾؛ تأكيدًا للحُكمِ الأوَّلِ، وتقريرًا له، وإشْعارًا بِعِلِّيَّتِه على الطريقةِ البُرهانيَّةِ بإيرادِ اسْمِ الذَّاتِ المُنْبِئِ عن اسْتِتْباعِها لصفاتِ الكمالِ الَّتي من جُملتِها العلمُ، وتمهيدًا للتَّعريضِ بهم في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

بَراعةُ أُسلوبِ القَصْرِ:

الحـصْرُ هنا حقيقيٌّ؛ لإبطالِ معرفةِ الرُّسُلِ وقتَ حُلولِ السَّاعةِ

سبقَ بيانُ أنَّ الحَصْرَ المشتمِلَ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ حَصْرٌ حقيقيٌّ، ثمَّ عُطِفَ على جملةِ الجوابِ اسْتدراكٌ عنِ الحَصْرِ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تأكيدًا لكونه حصرًا حقيقيًّا، وإبطالًا لظنِّ الَّذينَ يَحسَبونَ أنَّ شأنَ الرُّسُلِ أنْ يكونوا عالمينَ بكلِّ مجهولٍ، ومن ذلك وقتُ السَّاعةِ بالنِّسبةِ إلى أوقاتِهم يستطيعونَ إعلامَ النَّاسِ، فيستدلُّونَ بعدمِ علْمِ السَّاعةِ على عدمِ صِدْقِ مُدَّعِي الرِّسالة، وهذا الاعْتقادُ ضَلالةٌ مُلازِمَةٌ للعقولِ الأَفِنَة، فإنَّها تتوهَّمُ الحقائقَ على غيرِ ما هيَ عليه، وتُوقِنُ بما يُخيَّلُ إليها، وتجعلُه أصولًا تَبْني عليها معارِفَها ومُعاملاتِها، وتجعلُها حُكمًا في الأمورِ إثْباتًا ونَفْيًا، وهذا فَرْطُ ضلالةٍ، وإنَّه لَضِغْثٌ على إبَّالة[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/140 - 141، والزَّمخشري، الكشَّاف: 2/134 - 135، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/239.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/447، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/205.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/239، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/447، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/206.

دَلالةُ المغايَرةِ في المقصُورِ عليه ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

الأوّلُ جوابٌ عن وقتِ السَّاعةِ، والثّاني بيانُ كُنْهِ ثِقَلِها ومهابَتِها

غايرَ النّظمُ الكريمُ في الموضعين: ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾، وفي جوابِ السُّؤالِ الثَّاني: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولا بدَّ من نُكتةٍ بلاغيَّةٍ في هذه المغايَرة، فقولُه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾ وقع جوابًا عن قولِه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾، فهو سؤالٌ عن وقتِ قيامِ السَّاعةِ، وقولُه تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقع جوابًا عن قولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾، فهو سؤالٌ عن كُنْهِ ثِقَلِ السَّاعة ومقدارِ شِدَّتِها ومَهَابتِها، وأعظمُ أسماءِ اللّهِ مهابةً وعَظَمةً هو قولُه عندَ السُّؤالِ عن مقدارِ شِدَّةِ القيامةِ الاسْمُ الدَّالُّ على غايةِ المهابة، وهو قولُنا: اللّه، ﷻ وعزَّتْ عظمتُه وتعالى كبرياؤه[1].

غَرَضُ تأكيدِ انْحِصارِ عِلْمِ السَّاعةِ باللهِ:

تقريرٌ بأنَّ عِلْمَ السّاعةِ للهِ وحدَه، لا لأحدٍ سِواه

وقوعُ أسلُوبِ القصْرِ أربعَ مرّاتٍ في آيةٍ واحدةٍ تأكيدٌ لانْحِصارِ العِلْمِ بوقوعِ السّاعةِ عند اللّه وحدَه؛ فقد ورد في: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾... ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ ... ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وفيه تقريرٌ بأنَّ عِلْمَ وقوعِها ليس ممكنًا لأيِّ مخلوقٍ سوى اللّه الخالقِ الجليلِ، وهذا من فرائدِ السّورةِ الكريمةِ؛ لأنّها سورةٌ مقصودُها الإنذارُ والتّذكيرُ، كما يُعلِنُ عنه أوّلُها: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: 2].

معنى الواوِ في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الحاليَّةُ في الجُملةِ كاشفةٌ عن كثرةِ السُّؤالِ وسببِه

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الواوُ في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ واوُ الحال، أي: والحالُ أنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمونَ أنَّ حُجَّةَ اللّهِ واضحةٌ في أمرِ السَّاعةِ وإخفاءِ زَمنِ وقوعِها وكُنهِ ثِقَلِها وشدَّتِها ومن أنَّها من مكنوناتِ وخَصائصِ عِلْمِ اللّهِ وحدَه، ولكنَّ الَّذينَ يُنكِرونَ ذلكَ لا يعلمونَ الأمرَ على حقيقتِه، فيتَّخذونَ جَهْلَهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 425/15، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 447/2.

بالشَّيءِ حُكْمًا وأَصْلًا يَبْنونَ عليه عقيدتَهم ومعارفَهم، فيَتيهون في ضلالتِهم ويَزْدادونَ غَيًّا فوق غَيِّهم[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بأَفْعلِ التَّفضيلِ اسْمًا لـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ على الإنْصافِ:

الَّذين غلبَ عليهم الاضْطرابُ، مُتخبِّطون في أمرِ السَّاعةِ وسؤالِهم عنها

جاءَ قولُه تعالى: ﴿أَكۡثَرَ﴾ اسْمًا لـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾، وهو من أَفْعلِ التَّفضيلِ؛ لبيانِ أنَّ الَّذينَ غلبتْ عليهم صفةُ الاضْطرابِ وهمُ الأكثرُ ليسُوا من أهلِ العلْمِ، فهم بالسُّؤالِ عنها يَسْتهزئون، ولو كانوا من أهلِه ما كذَّبوك، فوقَعوا بما لا يَعنيهم منَ السُّؤالِ عنها وغيرِه من أنواعِ التَّعنُّت، وتركوا ما يُنْجيهم ويُغْنيهم منَ المبادَرةِ إلى الإيمانِ بهذا القرآنِ خَوْفَ انْخرامِ الآجالِ، وهم يَهيمُونَ في أَوْديةِ الضَّلالِ[2].

نُكتةُ إضافةِ الأكثريَّةِ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

الإضافةُ إلى أكثريَّةِ النَّاسِ تعميمٌ لعُمومِ البشرِ

في قولِه تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أُضيفتِ الأكثريَّةُ إلى النَّاسِ في عدمِ العلْمِ، أي: لا يعلمونَ أنَّ هذا الأمرَ في شأنِ زمنِ وقوعِ السَّاعةِ وكُنْهِها لا يعلمُه إلَّا اللّه؛ بل يظنُّ أكثرُهم أنَّه ممَّا يعلمُه البشرُ، وهذه الإضافةُ على حقيقتِها، أي: أكثرُ النَّاسِ هم كذلك، والقلَّةُ منهم مُستثْنَوْن، وهمُ المؤمنونَ الواقفونَ على جَليَّةِ أمرِ السَّاعة، وأنَّها ممَّا اخْتصَّ اللّهُ بعلْمِه دونَ سِواه[3]، والإضافةُ دالّةٌ على عمومِ البشرِ، وهو المناسِبُ لنفْيِ العلْمِ عنِ الأكثرِ.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ مَنْفيًّا:

اسْتمرارُهم في عَدَمِ عِلْمِهم، بأنَّها ممَّا استأثرَ اللّهُ بعلْمِه

قولُه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نفيٌ لعلْمِهم بصِيغةِ المضارعِ الَّتي تدلُّ على اسْتمرارِهم في عَدَمِ علْمِهم بحقيقةِ أمرِ السَّاعةِ، وبأنَّها ممَّا اختصَّ اللّهُ بعلْمِه، وليس لرسولِ اللّهِ ﷺ ولا لنبيٍّ أو مَلَكٍ أيُّ علْمٍ بشأنِ زمنِ وُقوعِها، فهم في واقعِ الحالِ ليسُوا من أهلِ العلْمِ، وهذا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 206/9، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن: 501/8.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 187/8.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 239/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 447/2.

يدلُّ كذلكَ على اسْتمرارِهم في السُّؤالِ عمَّا لا يَعْنيهم، وترْكِ ما يُنجِيهم ويُغْنِيهم ويَنْفعُهم في دُنياهم ودينِهم[1].

بَلاغةُ الخَتْمِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

أسلوبُ الإنصافِ في الحُكْمِ، عُلوٌّ في المقامِ

جاءَ خَتْمُ الآيةِ بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ المستَثْنَى ممَّن يجمعُهم عدمُ العلْمِ بما ذُكِرَ منِ اخْتصاصِ علْمِ اللّهِ تعالى بوقتِ وقوعِ السَّاعةِ وكُنْهِ ثِقَلِها وشدَّتِها، همُ الواقفونَ على جَليَّةِ الحالِ منَ المؤمنينَ الصَّادقينَ، ولكنَّ الأكثرَ: إمَّا أنَّهم يُنكرونَ وقوعَ السَّاعةِ رأسًا، فلا يعلمونَ شيئًا ممَّا ذُكِرَ قَطْعًا، وإمَّا أنَّ بعضَهم يدَّعونَ أنَّكَ واقفٌ على وقتِ وقوعِها فيسألونَكَ عنه جَهْلًا، وإمَّا أنَّ بعضَهم يدَّعونَ أنَّ العلْمَ بذلكَ من مَواجبِ الرِّسالة، فيتَّخذونَ السُّؤالَ عنه ذريعةً إلى القَدْحِ في رسالتِك، وإمَّا أنَّ بعضَهم لا يعلمونَ السَّببَ الَّذي لأَجْلِه أَخْفيَتْ معرفةَ وقتِها، وإمَّا أنَّ السَّائلينَ عنها منَ اليهودِ بطريقِ الامْتحانِ فهم مُنتظِمونَ في سِلْكِ الجاهلينَ حيثُ لم يعمَلوا بعلْمِهم[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّاعةُ والقِيامةُ:

السَّـاعةُ تعبيرٌ عـنِ القـيامةِ، لـوقوعِها بغتةً في زمنٍ يسيرٍ

السَّاعةُ: جُزءٌ منَ الزَّمانِ، ويُعبَّرُ بها عنِ القِيامة، وإطلاقُها على القيامةِ لوقوعِها بغتةً بزمنٍ يسيرٍ، ولسُرعةِ حسابِها[3]، قالَ تعالى: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ [يوسف: 107].

القيامةُ: عبارةٌ عن قيامِ السَّاعةِ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الرُّوم: 12]، وقولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/187.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/485، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/239، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/447.
(3) الرَّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس: (سوع).

﴿٦﴾ [المطفّفين: 6]، والقيامةُ أصلُها ما يكونُ منَ الإنسانِ منَ القيامِ دُفْعَةً واحدةً، أُدْخلتْ فيها الهاءُ تنبيهًا على وقوعِها دُفعةً(1).

(تأتي) و(تَجيء):

الإتيانُ المجيءُ بسُهولةٍ، والسَّاعةُ تأتي كذلكَ بسُهولةٍ، فأمرُها يَسيرٌ على الله

الإتيانُ: مجيءٌ بسُهولةٍ، ويُقالُ للمجيءِ بالذّاتِ وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ، ويُقالُ في الخيرِ وفي الشَّرِّ وفي الأعيانِ والأعراض، قالَ تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]، وقال سُبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1](2).

والمجيءُ: كالإتيان، لكنَّ المجيءَ أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ - كما تقدَّمَ آنفًا - مجيءٌ بسُهولةٍ، والإتيانُ قد يُقالُ باعتبارِ القَصْدِ وإن لم يكنْ منه الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصولِ، ويقالُ: (جاءَ) في الأعيانِ والمعاني، ولِمَا يكونُ مجيئُه بذاتِه وبأمرِه، ولمن قصدَ مكانًا أو عملًا أو زمانًا، قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: 20]، وقالَ ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ [الأحزاب: 19](3).

البَغْتةُ والغَفْلَةُ:

البَغْتةُ مُفاجأةٌ من غيرِ تهيُّؤٍ ولا تحسُّبٍ، وهذا حالُ وُقوعِ السَّاعةِ

البَغْتَةُ: الفَجْأةُ، وبَغَتَهُ: فاجأَه، والمُباغتةُ: المفاجَأة، والبَغْتُ: مفاجأةُ الشَّيءِ من حيثُ لا يَحْتَسِبُ(4).

والغَفْلَةُ: عَدَمُ حضورِ الشَّيءِ في البالِ بالفعلِ، وهي عبارةٌ عن عَدَمِ التَّفطُّنِ للشَّيءِ وعَدَمِ عقليَّتِه بالفعلِ، سواءٌ أبقيتْ صورة الغفلة أو معناها في الخيال، أو صورة الذِّكر، أم انْمحتْ عن أحدِهما، والغَفْلَةُ تكونُ عمَّا يكونُ، تقولُ: غَفَلْتُ عن هذا الشَّيءِ حتَّى كانَ(5).

---

(1) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس: (قوم).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 63، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أَتَيَ).
(3) الرّاغب، المفرادت: (جاء)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 412/1.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بغت).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 388، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 168، والكفوي، الكُلِّيَّات: 25/3.

النَّاسُ والبَشَرُ:

البَشرُ، يقْتضي حُسْنَ الهَيْئَةِ، وذلكَ أنَّه مشتقٌّ منَ البِشارة، وهي حُسْنُ الهَيْئة، يُقالُ: رَجُلٌ بَشيرٌ، إذا كان حسنَ الهيْئةِ، وامْرأةٌ بَشيرةٌ، وسُمِّي النَّاسُ بَشَرًا؛ لأنَّهم أحسنُ الحيوانِ هَيْئَةً، ويجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ قولَنا بَشَرٌ يقتضِي الظُّهورَ، وسُمُّوا بَشَرًا لظُهورِ شَأنِهم، ومنه قيلَ لظاهرِ الجِلْدِ: بَشَرَة، وتقولُ: محمَّدٌ خيرُ البَشَرِ ﷺ، يَعْنُونَ النَّاسَ كُلَّهم، ويُثنَّى البَشَرُ، فيُقالُ: بَشَران، وفي القرآن: ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: 47] ولم يُسمعْ أنَّه يُجمَعُ[1].

البَشَرُ تعني النَّاسَ كُلَّهم، والنّاسُ هم الخلْقُ من بني آدمَ إلى نهايةِ الدّنيا

النَّاس، يقْتضِي النَّوْسَ، وهو الحَرَكةُ، والنَّاسُ جَمْعٌ، والبَشَرُ واحدٌ وجَمْعٌ، وفي القرآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: 33]، وأصلُ النَّاسِ أُنَاسٌ، فحُذِفتْ فاؤه لَمَّا أُدخِلَ عليه الألفُ واللَّام، وقيل: قُلِبَ من نَسِيَ، وقيل: أصلُه من: نَاسَ يَنُوسُ: إذا اضْطرَب، والنَّاسُ قد يُذكّر، ويُعتَبرُ به معنَى الإنسانيَّة، وهو وجودُ العقل، والذِّكْر، وسائرِ الأخلاقِ الحميدةِ، والمعاني المختصَّةِ به، كما قالَ تعالى: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: 13]، باعْتبارِ معنَى الإنسانيَّةِ، ولم يُقصدْ بالإنسانِ عَيْنٌ واحد؛ بل قُصدَ المعنَى.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 101 - 102، والرّاغب، المفردات: (بشر).

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: 188]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

موعدُ السَّاعةِ غيبٌ مَحْضٌ، والرَّسولُ لا يملكُ لنفسِهِ ولا لغيرِهِ نفعًا ولا ضَرًّا

بعد أن بَيَّن اللّهُ تعالى أَمْرَ السَّاعةِ، وكانت السَّاعةُ أدقَّ عِلم الغيبِ، وأنَّ عِلمَها عند الله وحده؛ أمرَ النَّبيَّ ﷺ أن يُبَيِّنَ لهم أنَّه بشرٌ رسولٌ، وأنَّه لا يملك لهم أن يأتي بها قَبْلَ أن يُقدِّرَ اللّهُ تعالى وُقوعها؛ لأنَّه لا يملكُ لنفسِه نفعًا يجلبُه ولا ضرًّا يدفعُه، بل إنَّه يجري عليه ما يجري على البَشَرِ، فلا يملكُ أَنْ يُغَيِّرَ في أمرِ السَّاعة شيئًا، فليس لهم أن يسألوهُ عنها، ويطلبوا منهُ ميقاتَها[1]، كما أنَّه لمَّا أمرَ خاتم رُسُلِه بأن يجيبَ السَّائلين عن السَّاعة: بأنَّ عِلْمَهَا عند الله تعالى وحده؛ قَفَّى على ذلك بأمرِ رسولِه ﷺ أن يُبَيِّنَ للنَّاس أنَّ كُلَّ الأمورِ بيدِه سبحانه وحدَهُ، وأنَّ عِلمَ الغيبِ كُلَّهُ عندَه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَفۡعٗا﴾: مشتقٌّ من النَّفَعَة، وهي العصا، يُتَّكأ عليها، والنَّفْعُ ما يُستعانُ به في الوصول إلى الخيرات، يُقال: نَفَعَهُ ينفَعُهُ نفعًا، ونَفَعْتُه بكذا فانْتَفَعَ به، ومن هذا الأصل: الإفادة والتَّقوية جاء النَّفْعُ بمعنى ضد الضَّرِّ في القرآن كلِّه، وذلك في كلِّ شيء بحسَبه، ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25]، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: 5][3]، والمعنى هنا: لا أقدِرُ على جلْبِ خيرٍ لنفسي.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8، ومحمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3026/6.
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 230/10.
(3) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (نفع)، والمناوي، التَّوقيف، ص: 328، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نفع).

2) ﴿ضَرًّا﴾: الضَّرُّ: ضِدُّ النَّفْعِ، وَيُقَالُ: ضَرَّهُ يَضُرُّهُ ضَرًّا، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى هَذَا كُلُّ مَا جَانَسَهُ أَوْ قَارَبَهُ، فَالضُّرُّ: الْهُزَالُ، والضَّرُّ: النَّقْصُ وسوءُ الحال، إمَّا في النَّفس لقلَّةِ العلم والفضلِ والعفَّة، وإمَّا في البدن لفقدانِ جارحةٍ، وإمَّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاهٍ،[1]، والمعنى في سياق الآية: لا أقدرُ على دَفْعِ شَرٍّ يحلُّ بنفسي.

3) ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ﴾: الهمزة والسِّين والتَّاء لطلب الفعل، والاستكثار من الكَثْرة، والكَافُ وَالثَّاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ خِلَافَ الْقِلَّةِ، مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ، وَقَدْ كَثُرَ، والمعنى المحوريُّ: زيادة عدد أفراد الشَّيء بالنِّسْبَة للمعتاد أو المتوقَّع[2]، ومعنى قوله: ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾: لأعددتُ الكثير من الخير[3].

4) ﴿ٱلسُّوٓءُ﴾: ساءَهُ يَسُوؤه سَوْءًا وسُوءًا: فَعَلَ بِهِ مَا يَكْرَهُ، نَقِيضُ سَرَّه، والسُّوء: اسمٌ جامع للآفات والداء، وكلُّ (سُوء) بضم السين؛ فهو القبيح بحَسْبه اسمًا أو صفة، وكلُّ (سَوء) بفتح السين؛ فهو مصدر لإيقاع السُّوء بالضم[4]. ومعنى قوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾: لاجتنبتُ ما يكون من الشرِّ واتَّقيته[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ بَشريَّةِ الرَّسولِ ﷺ وعَدَمِ معرفتِهِ بالغيبِ إلَّا فيما أعلَمَهُ اللهُ بِهِ

قل - أيُّها الرَّسول -: لا أقدرُ على جَلْبِ خيرٍ لنفسي، ولا دَفْعِ شرٍّ يحلُّ بها إلَّا ما شاء الله، وإنَّما ذلك إلى الله سبحانه وحدَهُ، ولا أعلمُ إلا ما علَّمني، فلا أعلمُ الغيبَ، ولو كُنتُ أعلمُ ما غابَ عنِّي كما تَظنُّون، لفعلتُ الأسبابَ الَّتي أعلمُ أنَّها تُكثِّر ليَ المصالح والمنافع،

(1) ابن الأثير الشَّيبانيُّ، النِّهاية في غريب الحديث، والكرجاتي، مجمع بحار الأنوار، والرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفَّاظ، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضرر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كثر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 302/13.

(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوء).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 302/13.

وتدفعُ عنِّيَ المفاسدَ؛ ولاتَّقيتُ ما يكون منَ الشَّرِّ قبل أن يقعَ، لِعِلمي بالأشياءِ قبلَ كَوْنِهَا، وعلمي لما تؤولُ إليه، فما أنا إلَّا رسولُ اللّٰهِ أرسلني إليكم، أخَوِّفُ من عقابهِ الأليم، وأبَشِّرُ بثوابهِ الكريمِ قومًا يُصَدِّقون بأنِّي رسولُ اللّٰهِ، ويعملونَ بشرعهِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عَمَّا قبلَها:

بيانُ أنَّ كلَّ الأمورِ بيدِ اللهِ تعالى وأنَّ عِلْمَ الغيبِ كُلَّهُ مرجعُهُ إليه

قولُه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، قُصِدَ منه الاهتمامُ بمضمونه؛ كي تتوجَّهَ الأسماعُ إليه[2]، جاء جوابًا على ذلك السُّؤالِ الذي تقدَّمَ في الآية السَّابقة، ظَنًّا منهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليسَ بشرًا، وأنَّه يَمْلِكُ من قِوى الغيبِ ما يجعلُه عالمًا بكلِّ شيءٍ، قادرًا على كلِّ شيءٍ[3]، فخرج هذا الكلامُ مخرجَ الجوابِ عَن سُؤالِهم[4]، فَهُوَ شروعٌ في الجواب عنِ السُّؤال ببيانِ عَجْزِهِ عن علم السَّاعةِ إثرَ بيانِ عجزِ الكُلِّ عنهُ، وإبطالِ زعمهم الذي بَنوا عليه سؤالَهم من كونهِ ﷺ ممَّن يعلمُها[5]، ففُصِلَتِ الآيةُ لاتِّصالها بما قبلَها من حيثُ نفيُ علمِ السَّاعة[6]، فالجملةُ مستأنفةٌ مسوقةٌ لحسم أطماعِهم بعد إعلانِ نفضِ يدهِ منهم، والكلامُ مسوقٌ لإثبات عدمِ إحاطتهِ ﷺ بعلمِ الغيب[7].

نكتةُ تكريرِ الفِعلِ ﴿قُلۡ﴾:

إظهارُ كمالِ العنايةِ بشأنِ الجوابِ والتَّنبيه على بيانِ عَجْزِ المخلوقِ عن علمِ السَّاعةِ

كُرِّرَ الأمرُ بالقولِ مع تَقَدُّمهِ مرَّتينِ في قولهِ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ

---

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآن الكريم، ص: 238، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/207.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 5/533.
(4) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/279.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 3/302.
(6) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 1/714.
(7) درويش إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/505، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/125.

﴿رَبِّيۖ﴾ و﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 187] لإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ الجوابِ والتَّنبيهِ على استقلالهِ ومغايرتهِ للأوَّل، والتَّعرُّض لبيانِ عجزهِ عمَّا ذُكِرَ مِنَ النَّفعِ والضَّرِّ لإثبات عجزِهِ عن علمِها بالطَّريق البرهانيِّ[1].

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾:

المبالغةُ في إظهارِ كمال العبوديَّةِ للهِ والتَّبرُّؤ من ادِّعاء علم الغيبِ

قولهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾، أي: قل أيُّها الرَّسولُ للنَّاس: إنِّي لا أملكُ لنفسي ولا لغيري جلْبَ أيِّ نفعٍ، ولا أستطيعُ دَفْعَ أيِّ ضررٍ عنِّي ولا عن غيري، إلا بمشيئةِ اللّهِ وقُدْرَتِه، فيُلْهِمُني إيَّاه، ويوفِّقُني لهُ، وهذا يدلُّ على إظهار العبوديَّةِ، والتَّبرِّي مِن ادِّعاء العلم بالغيوبِ[2]، ففي هذا أمرٌ لهُ ﷺ في أن يُبالِغَ في الاستسلام، ويتجرَّدَ من المشاركة في قدرةِ اللّهِ وغيبِه، وأن يَصِفَ نفسَهُ لهؤلاء السَّائلين بصفةِ مَنْ كان بها، فهو حريٌّ ألَّا يعلمَ غيبًا، ولا يدَّعيه[3]، فلمَّا كان مِلْكُ الضُّرِّ والنَّفع بهذا الإطلاقِ خاصًّا بربِّ العبادِ وخالقِهم، وكان طلبُ النَّفعِ أو كشْفُ الضُّرِّ عبادةً لا يجوز أن تُوجَّهَ إلى غيره من عباده، أمرَ اللّهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يُصرِّح بالبلاغ عنه أنَّه لا يملكُ لنفسهِ ولا لغيره نفعًا ولا ضَرًّا، وقد تكرَّر هذا الأمرُ له في القرآنِ مُبالغةً في تقريرِهِ وتوكيدِهِ[4].

دلالةُ تخصيصِ المقولِ بذكرِ حالِ الرَّسولِ ﷺ:

دفْعُ توهُّمِ ملازمةِ معرفةِ الغيبِ لصفةِ النُّبوَّةِ

خصَّ النَّظمُ الكريمُ هذا المقولَ بالإخبارِ عن حالِ الرَّسولِ ﷺ نحو معرفة الغيبِ ليقلَعَ مِن عقولِ المشركين تَوَهُّمَ ملازمةِ معرفةِ الغيبِ لصفة النُّبوَّةِ، إعلانًا للمشركين بالتزام أنَّه لا يعلمُ الغيبَ، وأنَّ ذلك ليس بطاعنٍ في نبوَّتهِ حتَّى يستيئِسوا من تحدِّيه بذلِك،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/302، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/125، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/207.
(2) وهبة الزُّحيليُّ، التَّفسير الوسيط: 1/761.
(3) ابن عطية الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 2/485.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/507.

وإعلامًا للمسلمين بالتَّمييز بينَ ما تقتضيهِ النُّبوَّةُ وما لا تقتضيه، ولذلك نفى عن نفسهِ معرفة أحوالهِ المغيَّبةِ، فضلًا على معرفةِ المغيَّبات من أحوالِ غيرهِ إلَّا ما شاءَ اللّه[1].

دلالةُ النَّفي في قولهِ: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ﴾:

تأكيدُ عدمِ علمِ الرَّسولِ بالسَّاعة أيَّان تكونُ ومتى تقعُ

قولهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾، أي: في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقاتِ أصلًا[2]، فلا أقدِرُ لنفسي أن أسوقَ إليها خيرًا، أو أدفعَ عنها ضرًّا حين ينزلُ بي، فكيف أملكُ علمَ السَّاعة[3]؟ فمَن لا يعلمُ أَنَّ نفعَه في أيِّ الأشياءِ ومضرَّتَهُ في أيٍّ منها، كيف يعلمُ وقتَ قيامِ السَّاعةِ[4]؟ فالجملةُ متضمِّنةٌ لتأكيد ما تقدَّمَ مِن عدم علمهِ بالسَّاعةِ أيَّانَ تكونُ، ومتى تقعُ[5]؟

سِرُّ ذِكرِ مِلْكِ النَّفعِ والضُّرِّ:

المُبالغةُ في الاستسلامِ بإظهارِ العبوديَّةِ وانتفاءِ ما يختصُّ بالرُّبوبيَّة مِن مِلْكِ النَّفعِ والضُّرِّ

مِلْكُ الشَّيءِ: القُدرةُ على التَّصرُّف فيه على وَفقِ ما جزمَتْ به الإرادةُ، ومالكُ الشَّيءِ: هو القادرُ على التَّصرُّفِ فيه بحسب إرادته، وبما أنَّ الكونَ كلَّهُ خاضعٌ لسلطانِ اللّهِ تعالى وإرادتهِ الحكيمةِ، بكلِّ كبيرٍ وصغيرٍ فيه، فإنَّ أحدًا في الوجودِ لا يملكُ أن يتصرَّفَ بشيءٍ فيه، إلَّا إذا منحَهُ اللّهُ ﷻ القدرةَ على التَّصرُّف، في حدود ما منحَهُ مِن ذلك، حتَّى أكرَمَ الخلقِ عند اللّهِ وأقربَهُم إليه، لا يملك لنفسهِ جلْبَ نفعٍ، أو دفْعَ ضُرٍّ، إلَّا إذا شاء اللّهُ ذلك، فضلًا عن أن يملِكَ شيئًا من ذلك لغيرهِ مِن خلقِ اللّهِ إلَّا بمشيئةِ اللّهِ، وفي نفي الملك عنه ﷺ إظهارٌ للعبوديَّة وانتفاء عن ما يختصُّ بالرُّبوبيَّة من القُدرةِ وعلمِ الغيبِ ومُبالَغَةٌ في الاستسلام[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 207/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8.
(3) السَّمرقندي، تفسير السمرقندي: 573/1.
(4) البروسوي، روح البيان: 292/3.
(5) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 95/5.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 240/5.

فائدةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول به:

تقديم قوله: ﴿لِنَفۡسِي﴾ على قوله: ﴿نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ لدَفع ما يُتَوهَّم أنَّ له أدنى علم بالغيب، فينفعهم بالخير، أو يصرف عنهم الشَّرَّ، فنفى عن نفسه مِلْك شيءٍ من النَّفع أو الضَّرِّ، وهو مبالغة في نفي امتلاكه ذلك لغيره من باب أولى.

خيرُ الخلْق لا يملك لنفسه شيئًا، فاللهُ وحدَه الذي يملك النَّفعَ والضَّرَّ

كما أنَّ تقديم الجارِّ والمجرور هنا أنسب للسِّياقِ؛ إذ إنَّه حُجَّةٌ عليهم واضحة، فما بقي شيء من منافع الدِّينِ والدُّنْيا إلّا وقد دخل تحت هذه الآية؛ ما أراهم إلا يكابرون عقولهم[1].

وفيه إشارةٌ إلى الاهتمام بِالْمُقَدَّم والتَّشْويقِ إلى المؤخَّر، فإنَّ ما حقُّه التَّقْديمُ إذا أُخِّر تبقى النَّفْسُ مُتَرَقِّبَةً له فعند ورودِه يتمكَّن عندها فضلَ تمكُّنٍ[2].

معنى اللَّام في ﴿لِنَفۡسِي﴾:

نفيُ مِلْكِ النَّفع والضُّرِّ على النَّفسِ نفيٌ لملكِهِ للآخَرِ بطريقِ الأولى

اللَّامُ في قوله: ﴿لِنَفۡسِي﴾ للتَّعليل، وهي إمَّا متعلِّقةٌ بالفعلِ ﴿أَمۡلِكُ﴾ أو بمحذوفٍ وقعَ حالًا من ﴿نَفۡعٗا﴾، أي: لا أقدِرُ لأجل نفسي على جلْبِ نفعٍ ما، ولا على دَفْعِ ضُرٍّ ما[3]، وإذا كنتُ لا أَمِلكُ ذلك لنفسي؛ فلا أملِكه لِغَيري بالأولى[4].

نكتةُ تقديمِ النَّفعِ على الضُّرِّ:

بيانُ كونِ النَّفعِ أحَبَّ للنَّفسِ، مع مُراعاة تقديم ذكرِ الهداية فيما سَبَق

وقدَّمَ النَّفعَ؛ لأنَّه أحبُّ إلى النَّفس، وليس في السِّياق ما يُوجِبُ تأخيرَه[5]، وإذا كان المقصودُ بالنَّفْع والضُّرِّ الهدى والضَّلالَ، كما فسَّره بعض المحقِّقين[6]، فإنَّ نُكتةَ التَّقديم تكون أقوى[7]؛ لأنَّه تقدَّم

(1) القصَّاب، النكت الدَّالَّة على البيان في أنواع العلوم والأحكام: 454/1.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 450/5.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 507/9.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 207/9.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 302/13، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 336/7.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 125/5.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178] فَقدَّم الهدايةَ على الضَّلال[1].

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفْظيِّ في تقديمِ النَّفعِ على الضُّرِّ وتأخيرِه:

دلالاتُ سياقِ الألفاظِ على ما سبقَها من المعاني مع تناسُقِ المباني تقديمًا وتأخيرًا

أكثرُ ما جاءَ في القرآن - حين يُؤتى بالضُّرِّ والنَّفعِ معًا - تقديمُ لفظِ الضّرِّ على النَّفع، وهو الأصلُ؛ لأنَّ العابدَ إنَّما يعبدُ معبودَه خوفًا من عقابِهِ أوَّلًا، ثُمَّ يعبدُه طمعًا في ثوابِهِ ثانيًا، كما يُشير إلى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السَّجدة: 16]، وحيث تقدَّم النَّفعُ على الضُّرِّ، كان ذلك لسبقِ لَفْظٍ تضمَّنَ معنى نفعٍ، كما في هذه السُّورةِ حيثُ تقدَّم آنفًا لفظُ الهدايةِ على الضَّلال في قولِهِ تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178]، وفي الرَّعد تقدَّمَ ذكرُ الطَّوعِ في قولِهِ سبحانه: ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [الرَّعد: 15]، وهو نفعٌ، وفي الفرقانِ وفاطر تقدَّم ذِكْرُ (العَذْب) في قوله ﷻ: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ [الفرقان: 53، وفاطر: 12]، وهو نَفْعٌ، وفي سبأ تقدَّمَ (البَسْط) في قولِهِ تبارك اسمه: ﴿رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [سبأ: 36]، ولِيَقِسْ على هذا غيرَه[2].

كما أنَّ اللّٰه تعالى قال هُنا في سورة الأعرافِ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وقال في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [يونس: 48 - 49]، فقدَّم النَّفعَ على الضُّرِّ في الأُولى، وأخَّرَهُ عنه في الأخرى، وذلك لِمُناسبة حسنة؛ أنَّه هُنا في الأعراف لَمَّا تقدَّم سؤالُ المشركين عن السَّاعة، وتكرَّر في قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ [الأعراف: 187]، وكان ظاهرُ السِّياق يُشيرُ إلى أنَّهم كانوا يظنُّون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/240.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/125.

أنَّه ﷺ يَعلَمُها، فطلبوا تعريفَهم بها، وأن يَخُصَّهم بذلك، ولا شكَّ أنَّ العِلمَ بالشَّيءِ نفعٌ لصاحبه، فعرَّفهم أنَّه لا يملكُ لنفسِه نفعًا ولا ضَرًّا، فتقدَّم ذِكْرُ النَّفع؛ لأنَّه مشيرٌ إلى ما ظنُّوه أنَّه عنده من عِلْمِها، فأعلمَهم أنَّه سبحانه استأثرَ بعلمِها، وأنَّه ﷺ لا يملكُ من ذلك شيئًا إلَّا ما شاءَ اللهُ له ممَّا عدا علمَ السَّاعة؛ لانفرادِه سبحانه عن خلقِه بعلمِها، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: 187]، ثُمَّ تأكَّد هذا الغرضُ بقولِه تعالى على لسان نبيِّه ﷺ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف: 188]، وهذا كلُّه بَيِّنُ التَّناسُب.

وأمَّا الآيةُ في سورةِ يونسَ؛ فإنَّها فيما كان يستعجلُه الكُفَّارُ من عذابِ اللهِ تعالى وقبلَها: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ۝٤٦﴾ [يونس: 46]، ويقول الكفَّار: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾ [يونس: 48] قل: لا أملكُ ما وعدَكم اللهُ من هذا العذابِ، ولا أن أدفعَ عنكم سوءَ العقابِ، كما لا أملكُ لنفسي ضُرًّا ولا نفعًا إلا ما شاء اللهُ أن يُمَلِّكَنيه منهما، فتقديم (الضُّرِّ) على (النَّفع) في هذه الآية؛ لخروجِها عن ذِكْرِ العذابِ الَّذي قال اللهُ تعالى فيه بعدها: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٥١﴾ [يونس: 51][1].

وأيضًا، في يونسَ موافقةُ ما قبلَها، ففيها ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس: 18]، وهذا النَّوعُ من لطائفِ القرآنِ العظيم وساطعِ براهينِه[2].

فائدةُ تنكيرِ (النَّفعِ) و(الضَّرِّ):

نفيُ عمومِ الفعلِ يقتضي نفيَ عمومِ أوقاتِه

قولُه: ﴿نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: شيئًا من جلب النَّفعِ قليلًا كان أو كثيرًا في وقت ما، ولا دفْعَ ضررٍ قليلًا كان أو كثيرًا في وقت ما؛ فإنَّ

---

(1) الإسكافي، دُرَّة التَّنزيل وغُرَّة التأويل: 2/682 - 685، وأبو جعفر الغرناطي، ملاك التَّأويل: 1/222 - 223.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/240.

قدرتي قاصرةٌ، وعلمي قليلٌ، وكلُّ مَن كان عبدًا؛ كان كذلك[1]، فوقوعُ كلمتَي النَّفعِ والضُّرِّ نكرتين منفيَّتينِ يفيدُ العمومَ حسبَ القاعدةِ المعروفةِ، ونفيُ عمومِ الفعلِ يقتضي نفيَ عمومِ الأوقاتِ لهُ[2].

المُطابقةُ بينَ النَّفعِ والضَّرِّ:

تعميمُ الأحوالِ وتنويعُها بحسبِ ما يعتري الإنسانَ

إنَّما طابقَ بذكرِ الضَّرِّ في قوله: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ مع أنَّ المرءَ لا يتطلَّبُ إضرارَ نفسِهِ؛ لأنَّ المقصودَ تعميمُ الأحوالِ؛ إذ لا تعدو أحوالُ الإنسانِ عن نافعٍ وضارٍّ، فصارَ ذكرُ هذين الضِّدَّين بطريقِ المطابقةِ مِثلَ ذِكْرِ المَساءِ والصَّباحِ، وذكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، والشَّرِّ والخيرِ[3].

دلالةُ العطفِ بذكرِ الضَّرِّ بعد ذكرِ النَّفعِ:

المبالغةُ في وصفِ الإنسانِ بالعجزِ ولو كان نبيًّا

في عطفِ الضَّرِّ على النَّفْعِ إشارةٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يملكُ لنفسِهِ أيَّ شيءٍ، ولو كان من السَّلبيَّات، بمعنى: أنَّه لو صحَّ منهُ العزمُ على أن يَضُرَّ نفسَه ما استطاع أن يصِلَ إلى شيءٍ من ذلك، إلا ما شاءَ اللّٰه له، وهذا أبلغُ في وصف الإنسانِ - ولو كان نبيًّا - بالعَجْزِ وقُصورِ يده عن أن يَبْلُغَ أيَّ شيءٍ إلَّا ما قدَّر اللّٰهُ له، ولو كان ذلك الشَّيءُ ممَّا يَحسِبُ الإنسان أنَّه مُلْكٌ خاصٌّ له، لا ينازِعُه فيه أحدٌ، ممَّا لا تنزِعُ إليه النُّفوسُ، ولا ترغبُ فيه، كطلبِ ما يضرُّ مِنَ الأمور، وهو شيءٌ مقدورٌ عليه بأيسرِ جهدٍ، بل بلا جهدٍ أصلًا[4].

نكتةُ الجمعِ بين نفي الأمرَيْن معًا:

عمومُ نفي سائرِ أنواعِ المِلْكِ وسائرِ أنواعِ النَّفعِ والضَّرِّ

جَعَلَ نفْيَ أن يَمْلِكَ لنفسِهِ نفْعًا أو ضَرًّا مُقدِّمَةً لنفي العلم بالغيبِ؛ لأنَّ غايةَ النَّاسِ من التَّطلُّعِ إلى معرفة الغيبِ هو الإسراعُ إلى الخيراتِ المستقبلةِ بتهيئةِ أسبابِها وتقريبِها، وإلى التَّجنُّبِ لمواقعِ الأضرارِ، فَنَفْيُ أن يملِكَ لنفسِهِ نفعًا ولا ضرًّا، يَعُمُّ سائرَ أنواعِ المُلْكِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/187.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/507.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/207.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/533.

وسائِرَ أنواعِ النَّفعِ والضَّرِّ، ومن جملة ذلك العمومِ ما يكونُ منه في المستقبلِ، وهو مِنَ الغَيبِ[1].

تكرارُ (لا) بعد العطفِ:

تأكيدُ النَّفي وتقويتُه

قولُه: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا أملكُ أمرَ الضَّرِّ، فأدفعهُ إذا جاء[2]، ومجيء (لا) هُنا: يفيد توكيد النفي، وفصْلَ النَّفع عن الضَّرِّ، فاستقلَّ كلٌّ منهما بنفسِ قوَّةِ النَّفي، ولو قال: لا أملكُ لنفسي ضرًّا ونفعًا؛ لكان التَّعبيرُ مُوهِمًا أنَّه ﷺ لا يملكُ الجمعَ بينهما، ولكنَّه يستطيع أنْ ينفعَ، أو يضرَّ نفسَه إذا توجَّهت إرادتُه إلى واحدٍ منهما، وهذا الفهم خطأٌ، فتكريرُ (لا) النَّافيَةِ ليس للتَّأكيدِ فقط، وإنَّما لدفع الالتباس في فهمِ المعنى المرادِ، وهو نفيُ أن ينفعَ نفسَه على انفرادٍ، ونفيُ أن يضرَّ نفسَه على انفرادٍ، ومِن بابِ أولى نفيُ حدوثِ الفِعلين معًا.

دلالةُ الاستثناءِ نوعُهُ في قولِه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾:

إظهارُ تمامِ عجزِ العبدِ مع إثباتِ قدرةٍ له بتقديرِ اللهِ

لَّما كانَ مِنَ المعلوم بل من المُشاهدِ أنَّ كُلَّ حيوانٍ يَضُرُّ، ويَنْفَعُ؛ أَعْلَمَ النَّظمُ الكريمُ أنَّ ذلك إنَّما هو باللهِ، فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: الَّذي له الأمرُ كلُّه، ولا أمرَ لأحدٍ سواه[3].

والاستثناءُ من مجموعِ النَّفعِ والضَّرِّ، ويمكن جعلُه مُتَّصِلًا، أي: إلَّا ما شاءَ اللهُ أن يملِّكنيه بأن يُعلِّمنيه ويقدرني عليه، فإنْ لم يشأ ذلك؛ لم يُطلعْني على مواقعِه، وخَلْقُ الموانعِ من أسباب تحصيلِ النَّفعِ، ومن أسباب اتِّقاء الضَّرِّ، وحمْلُه على الاتِّصال يُناسب ثبوتَ قدرةٍ للعبد بجعلِ اللهِ تعالى وهي المسمَّاة بالكَسْبِ، فإذا أرادَ اللهُ أن يُوجِّهَ نفسَ الرَّسولِ ﷺ إلى معرفةِ شيءٍ مُغَيَّبٍ أطلعَهُ عليهِ لمصلحة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ - 208 207.
(2) الشَّعراوي، تفسير الشّعراوي: 4510/7.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8.

الأمَّةِ أو لإكرامِ الأمَّةِ لَهُ كقولهِ تعالى: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ﴾ [الأنفال: 44][1]، ودليلُ هذا المعنى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجنّ: 26-27]، ويمكنُ أن يكونَ الاستثناءُ مُنقطعًا، والمَعْنَى: ولكن ما شاء الله من ذلك كائنٌ[2]، وهذا أبلغُ في إظهارِ العجزِ عن عِلْمِهَا[3].

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾:

تكملةُ التَّبرُّؤِ من معرفةِ الغيبِ إظهارًا للعبوديَّة

الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ تكملةٌ للتَّبرُّؤِ من معرفةِ الغيب، سواء منه ما كان يَخُصُّ نفسَه، وما كان من شؤونِ غيرِه، فحصلَ من مجموعِ الجُملتين أنَّه لا يملك لنفسِه نفعًا ولا ضَرًّا، في عالم الشَّهادة وفي عالم الغيب، وأنَّه لا يعلم شيئًا من الغيبِ، ممَّا فيه نفعُه وضَرُّه وما عداه[4]، وفيه مزيدُ إظهارٍ للعبوديَّة والتَّبرِّي مِن ادِّعاء العلم بالغيوب[5].

وفي هذا العطْفِ أيضًا تأكيدٌ على نفي علمِه ﷺ بالسَّاعة؛ لأنَّه لَمَّا كان علمُ الغيبِ ملزومًا لجلبِ الخيرِ ودفْعِ الضَّرِّ، وكانتِ السَّاعةُ أدقَّ علمِ الغيبِ، أمرهُ بنفي هذا اللَّازم، فينتفي الأعمُّ، فينتفي بانتفائِه الأخصُّ[6].

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ ودلالتُها:

الاستدلالُ على انتفاءِ عِلْمِه بالغيبِ، بانتفاءِ الاستكثارِ مِنَ الخيرِ

جملةُ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ فيها الاستدلالُ على انتفاء عِلْمِهِ بالغيب، بانتفاءِ الاستكثارِ مِنَ الخيرِ، وتَجَنُّبِ السُّوء؛ وهو استدلالٌ بأخصِّ ما لو عَلِمَ المرءُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 208/9.
(2) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 568/8.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3، وإسماعيل حقِّي، روح البيان: 292/3.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 208/9.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 45/3.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8.

الغيبَ لعلمَهُ أوَّلَ ما يعلمُ، وهو الغيبُ الَّذي يَهُمُّ نفسَهُ، ولأنَّ اللّه لو أرادَ اطِّلاعَهُ على الغَيب؛ لكانَ القصدُ من ذلك إكرامَ الرَّسولِ ﷺ فيكونُ اطِّلاعُهُ على ما فيه راحتُه أوَّلَ ما ينبغي اطِّلاعُه عليه، فإذا انتفى ذلك؛ كان انتفاءُ غيرِه أولى، ودليلُ التَّالي في هذهِ القضيَّةِ الشَّرطيَّةِ، هو المشاهَدةُ من فواتِ خيراتٍ دنيويَّةٍ لم يتهيَّأْ لتحصيلِها، وحصولِ أسواءٍ دنيويَّةٍ، وهذا مَثَلٌ واضح، وشاهدٌ لا يُدفَعُ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يعلم الغيبَ، إذ لو كان يعلم الغيب من تلقاء نفسه؛ لعرفَ عواقبَ الأمورِ قبل أن تجيءَ، ولما اتَّجه إلى أمرٍ تسوءُ عاقبتُه، ولكانَ كلُّ متَّجهه دائمًا إلى ما تُحمَدُ عاقبتُهُ، وتَعْظُمُ ثمرتُه[1]، ولكنَّ اللّه يُطلع مِن ارتضاهم رسلًا على ما شاء من علمه.

وفي هذا الشَّرطِ أيضًا تعريضٌ لهم؛ إذ كانوا يتعرَّضون له ﷺ بالسُّوء[2].

وفي هذه الجملةِ الشَّرطيَّةِ ارتقاءٌ في التَّبرُّؤ من معرفةِ الغيب ومن التَّصرُّف في العالم، وزيادةٌ مِنَ التَّعليم للأمَّةِ بشيءٍ من حقيقة الرِّسالة والنُّبوَّة، وتَمْييزِ ما هو من خصائِصها عمَّا ليس منها[3].

استغراقُ عدمِ عِلمِ النَّبيِّ ﷺ لِكُلِّ غيبٍ إلَّا ما أطلعَهُ اللهُ عليه

معنى (ال) في ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾ ودلالتُها:

قولُه: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: الغيبُ الَّذي هو سببٌ عاديٌّ لجلبِ المنافع، ودفعِ المضارِّ لا مُطلقُ الغيب، فإنَّه ﷺ كان يعلمُ الغيبَ بإعلامهِ تعالى كما نطق به في الآية المَذْكُورة، والمَعْنَى: (ولو استمرَّ في علمِ الغيبِ)، كما يشعرُ بِهِ التَّعْبيرُ بصيغَةِ المَاضي والمُضارِعِ معًا[4].

فـ(الـ) في الغيبِ للاستغراقِ، وهو ﷺ لم يعلمْ كُلَّ غيبٍ؛ فإنَّ من

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 5/533، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/208.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/208.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/206.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/568.

الغيبِ ما تفرَّدَ اللّهُ تعالى به كمعرفةِ كُنهِ ذاتِه - ﷻ - ومنه معرفةُ وقتِ قيامِ السَّاعةِ[1].

معنى اللَّامِ في ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ﴾ ودلالتُها:

بيانُ المعتادِ في عُرفِ النَّاسِ مِنَ الاستكثارِ في جمعِ المنافعِ ودفْعِ المضارِّ عند العلمِ بها

قولُه: ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ﴾ اللَّامُ الواقعةُ في جواب (لو) أفادتِ التَّوكيدَ، أي: لجعلت المالَ والمنافع كثيرًا على أن يكونَ بناءُ استفعلَ للتَّعديةِ، كما في نحو: استذلَّه[2]، وهذه الملازمةُ عاديَّة إقناعيَّةٌ؛ إذ من يعلم الغيبَ؛ يستكثِرُ من الخيرِ عادةً، ويدفعُ الشَّرَّ غالبًا، ولذا ورد: عَرَفْتُ الشَّرَّ لا للشَّرِّ بَلْ لِتوقِّيه، فإذا عَلِمَ الغيبَ؛ يُكْثِرُ تَحصيلَ الخيرِ ودَفْعَ الشَّرِّ بناءً عَلَى جَرْيِ العادَة[3].

معنى (ال) في الخير ودلالتُها:

إفادةُ العمومِ والشُّمولِ لمصالحِ الدِّينِ والدُّنيا

الخيرُ هو جلْبُ منافعِ الدُّنيا وخيراتِهَا مِنَ الخصبِ والأرباحِ والأكساب، وقيل: المرادُ بِه ما يَتَّصِل بأمرِ الدِّين، أي: لو كنتُ أعلمُ الغيبَ؛ لكنتُ أعلمُ أنَّ الدَّعوةَ إلى الدِّين الحقِّ تؤثِّرُ في هذا، ولا تؤثِّر في ذلك، فكنتُ أشتغلُ بدعوةِ هذا دون ذاك[4]، والظَّاهِرُ أنَّ (الـ) هنا استغراقيَّةٌ لعموم المنافع الدينيَّة والدنيويَّة، فيكون المعنى: لفعلتُ الأسبابَ الَّتي أعلمُ أنَّها تنتج لي المصالحَ، والمنافِعَ في ديني ودنياي[5].

دلالةُ تقديمِ الخيرِ على السُّوءِ:

مُراعاةُ مُناسَبَةِ ما قبلَها مِن تقديمِ النَّفعِ على الضَّرِّ

قَدَّمَ ذِكْرَ الخيرِ على ذِكْرِ السُّوءِ لمناسبة ما قبلَها حيثُ قدَّم فيهِ ذِكْرَ النَّفْعِ على ذِكر الضَّرِ، وسلَكَ في ذِكْرِهما هناك كذلك مسلكَ التَّرقِّي[6].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/125.
(2) البروسويّ، روح البيان: 3/292.
(3) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/568.
(4) حسن نظام الأعرج، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/358.
(5) عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 352.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/125.

فائدةُ العَطْفِ في قوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾:

الوصلُ لمقابلةِ المعاني والقَطْعُ للإخبارِ بمعنًى جديدٍ

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ قد يكونُ معطوفًا على قولِه: ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾، فيكونُ من جوابِ (لَوْ)، ويُوضِّحُ ذلك أنَّه تقدَّم قولُهُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾، فقابل النَّفعَ بقولِه: ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾، وقابَل الضَّرَّ بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾؛ ولأنَّ المُترتِّب على تقدير عِلمِ الغيبِ كلاهما، وهما اجتلابُ النَّفعِ واجتنابُ الضَّرِّ[1]، فيكونُ الكلامُ متَّصِلًا بما قبلَه[2].

ويحتمِلُ أن يكونَ الكلامُ مَقطوعًا تمَّ في قولِه: ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾، وابتدأ يُخبِرُ بنفيِ السُّوءِ عنْهُ، وهو الجنونُ الذي رموهُ به، ويترجَّحُ هذا بنحوِ قولِه سبحانه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ [سبأ: 46] الآيةَ[3]، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ استئنافَ إخبارٍ، أي: ليس لي ما تزعمونَ مِنَ الجنونِ؛ لأنَّهم نسبوهُ إلى الجنونِ[4]، وتكونُ الواوُ استئنافيَّةً، ويحتملُ كذلك أن تكونَ واوًا للحال، والمعنى: لاستكثَرْتُ مِنَ الخيرِ، والحالُ أنَّ السّوءَ ما مسَّني، والمعنى الأوَّلُ لِلواو أقربُ.

سِرُّ اصطفاءِ مَسِّ السُّوءِ بَدَلَ دفْعِ المضارِّ:

دلالةُ السُّوءِ على الضَّرِّ بطريقِ الاقتضاءِ

لم يُذْكَرْ في النَّظم الكريمِ دَفْعُ المضارِّ صريحًا بعد ذكرِ المنافعِ، وجُعِلَ نفي السُّوءِ غايةً لِدفعِ المضارِّ واجْتِنابِها، فيدلُّ ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ عَلَى اجتنابِ المضارِّ بطَريقِ الاقتضاءِ[5]، مع المبالغةِ في نفيِ أدنى ضررٍ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 240/5.
(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 628/2.
(3) أبو منصور الثعالبي، الجواهر الحسان: 100/3.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 336/7، وابن جُزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 315/1.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 568/8.

معنى (ال) في ﴿ٱلسُّوٓءُۚ﴾ ودلالتُها:

نفيُ جنسِ السُّوءِ وأحوالِهِ

لَمَّا كان الضَّرُّ لا يحتملُ منهُ شيءٌ؛ قال: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾، أي: جنسُ السُّوءِ على وجهِ الاستغراقِ بإقامةِ الموانعِ له عنّي[1].

غرضُ الفصلِ في قولِهِ: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾:

دَفْعُ التَّوهُّمِ النَّاشئِ مِنَ السُّؤالِ عن عملِهِ بعد نَفْيِ ما نَفَى مِن مِلْكِ النَّفعِ والضَّرِّ

قولُهُ: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ مِن تمامِ القولِ المأمورِ بِهِ، وهي مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، ناشئًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ حولَ قدرتِهِ على دَفْعِ السُّوءِ، فأعلنَ التَّبرُّؤَ مِن أن يَمْلِكَ لنفسِه نفعًا أو ضَرًّا؛ لأنَّ السَّامعين يتوهَّمونَ ما نفاهُ عن نفسِهِ أخصَّ صفاتِ النَّبيِّ فَمِن شأنِهِم أن يتعجَّبوا من نفيِهِ ذلك عن نَفْسِهِ، وهو يقولُ: إنَّه رسولُ اللّهِ إليهم، فبيَّن لهم أنَّ الرِّسالةَ مُنْحَصِرَةٌ في النِّذارةِ على المفاسدِ وعواقبِها، والبِشارةِ بعواقبِ الانتهاءِ عنها واكتسابِ الخيراتِ[2].

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ بالاستثناءِ بعدَ النَّفيِ ونَوْعُهُ:

حَصْرُ وظيفةِ النَّبيِّ ﷺ وقَصْرُها في التَّبليغِ تبشيرًا وإنذارًا

قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ قصرُ موصوفٍ على صِفَةٍ، أي: وما أنا بالنِّسبةِ إلى من بلَّغتُهم، واتَّخذتُ كلَّ وسيلةٍ لإقناعِهِم، ونُصْحِهِمْ وإرشادِهِم، ولم آلُ جُهدًا في إصلاحِهِم عن طريقِ إراداتِهِم الحُرَّة، ما أنَا بالنِّسبةِ إليهم إلَّا نذيرٌ، أمَّا الَّذين خَطَوا بعضَ خطواتٍ إيمانيَّةٍ، أو ظهرتْ لديهم بوادرُ استعدادٍ ما لأنْ يؤمنوا مُستقبَلًا، أو آمنوا إيمانًا صحيحًا، وظهرَ عليهم الاستعدادُ للاستمرارِ على صِدقِ الإيمانِ مُستقبلًا، ومتابعةِ مسيرةِ الإيمانِ بكلِّ ما سيأتيهم من بلاغاتٍ عن ربِّهم، فأنا بالنِّسبةِ إليهم بشيرٌ، فيكونُ القصرُ بهذا المعنى في هذهِ العبارةِ قصرًا إضافيًّا.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/188.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/209 - 208.

وقيل: بل هو حقيقيٌّ[1]، وقد وردَ في مثلِ هذا حصرُ وظيفةِ الرَّسولِ بالإنذارِ والتَّبشير بلفظيهما معًا أو بأحدِهما، وبلفظ التَّبليغِ الجامع لهما آياتٌ كثيرةٌ، بعضُها بالإثباتِ بعدَ النَّفي كما هُنا، وبعضُها بـ(إنَّما)، والحصرُ بكلٍّ منهما أقوى النَّصوص القطعيَّة الدِّلالة، ومع هذا التَّكرار والتَّوكيدِ كُلِّه يأبى غُلاةُ الإطراءِ للرُّسلِ، ولمن دونَ الرُّسل مِن الصَّالحين - حقيقةً أو توهُّمًا - إلَّا أن يشركوهم مع اللّه ﷻ في صفات ربوبيَّتِه وأفعالِه[2].

بلاغةُ تنوُّعِ أسلوبِ القَصرِ في وصفِ النّذارة النبوية:

النَّفيُ والحصرُ بـ(إن، إلَّا) آكدُ وأقوى مِن (ما، إلَّا)، ويَرِدُ كلٌّ مِنهما بحسب مقاماتِ الكلامِ

(إنْ) في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ نافيةٌ، فهي نافيةٌ إلَّا ما ثبتَ بعدَ الاستثناءِ، وهو الرِّسالةُ مِنَ اللّهِ يُنذِر بهَا الكافرَ، ويُبشِّرُ بها المؤمنَ[3].

فعلَّل نَفْيَ امتيازِه عنِ البشر بمِلْكِ النَّفعِ والضَّرِّ من غيرِ طرقِ الأسباب وسُنَنِ اللّهِ في الخَلقِ، ونفْيَ امتيازِه عنهم بعلمِ الغيب، فقال: ﴿إِنۡ أَنَا۠﴾، أي: (ما أنا إلّا نَذيرٌ)[4]، فـ(إن) بمعنى (ما) إلّا أنَّ بينهما فرقًا في قوَّة النَّفي، فـ(إن) آكدُ وأقوى، ومثالُ الفرقِ بينهما يظهرُ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩﴾ [الأحقاف: 9]، وقولِه:

(1) من قال: إنَّ الحصرَ في هذه الآيات وأمثالها إضافيٌّ علَّل ذلك بأنَّ مِن وظائف الرُّسل بيانَ الوحي والحكم بين النَّاس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلۡنَا إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: 105]، وقال ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النَّحل: 44]، والبيانُ يكون بالأفعال كالأقوال، بل الأفعال أقوى دلالةً وأعصى على تأويل المحرفين، وكما قد أمر تعالى بتحكيم رسولهِ ﷺ والخضوع لحكمه، أمر بالتأسِّي به في هديه وسنته ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [الأحزاب: 21]، والصَّوابُ: أنَّ هذا لا ينافي الحصرَ الحقيقيَّ؛ لأَنَّ التَّبليغَ لدين اللَّهِ وشرعهِ لا يتمُّ إلّا بالعمل والحكم بهِ وتنفيذِ أحكامهِ، فهو داخلٌ في التَّبليغ وبيانِ الوحي، وجملةُ القول: إنَّ الرُّسُلَ - عليهم الصَّلاة والسَّلام - عَبيدٌ لله تعالى مكرَّمون، لا يشاركونه في صفاتهِ ولا في أفعاله. يُنظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 507/9.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 507/9.

(3) محمد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3027/6.

(4) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 259/10.

﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠
إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾ [الشُّعراء: 111 - 115]، فقالَ في الآية الأولى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ
مُّبِينٞ﴾ [الأحقاف: 9]، وقالَ في الثَّانية: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾ [الشعراء: 115].

ومِنَ الواضحِ أنَّ الآيةَ الثَّانيةَ في مقامِ المحاربةِ والمجادلةِ والجهادِ في القولِ، والتَّنقيصِ من المؤمنين، كما هو الحالُ في آيةِ الأعرافِ؛ بخلافِ الآيةِ الأولى، فإنَّها في مقامِ الدَّعوةِ الهادئةِ المُبَيَّنَةِ بالحجَّةِ، فالمقامُ في الآيةِ الأولى يختلفُ عنه في الثَّانيةِ، فجاءَ في الثَّانية بـ (إن) و(إلّا) وجاء في الأولى بـ (ما) و(إلّا)، فدلَّ ذلك على أن (إنْ) آكدُ مِن (ما)[1]، لا سيَّما إنَّ (إنْ) فيها معنى التَّقرير.

فائدةُ تقديمِ الإنذارِ على البِشارة:

الإشـــارةُ إلى مقامِ الخطابِ ومـــوضـــوعِ السُّورةِ العامِّ

قدَّمَ وصفَ النَّذير على وصفِ البشيرِ هُنا؛ لأنَّ المقامَ خطابُ المكذِّبين المُشركين، فالنِّذارةُ أعلقُ بهم مِنَ البِشارة[2]، كما أنَّه لما كانتِ السُّورةُ للإنذار، قدَّمه، فقال: ﴿نَذِيرٞ﴾ أي: مُطلقًا للكافرِ ليرجِعَ عن كفرِهِ، والمؤمنِ ليَثْبُتَ على إيمانه[3].

غرضُ تنكيرِ اللَّفظتَيْن ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾:

إظهارُ المبالغةِ والتَّعظيمِ في الوصفِ

قولُه: ﴿نَذِيرٞ﴾، أي: مُنذِرٌ بشدَّةٍ مِن أقصى درجاتِ الإنذارِ، بعقابِ اللّٰهِ الشَّديدِ يومَ الدِّين للكافرين، مع ما قد يُنزِلُ اللّٰهُ بهم من عقابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا، فنذيرٌ مِن صِيَغِ المبالغة وتنكيرها للتَّعظيم، وَكذلك القولُ في ﴿بَشِيرٞ﴾ ومعناها: مبشِّرٌ بشدَّةٍ بثوابِ اللّٰهِ العظيم يوم الدِّين للَّذين آمنوا، وعملوا الصَّالحاتِ، مع ما قد يمنَحُهم اللّٰهُ من ثوابٍ معجَّلٍ في الدُّنيا.

---

(1) السَّامرائي، معاني النَّحو: 4/203.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/209.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/188.

معنى اللّامِ ودلالتُها في قولهِ: ﴿لِّقَوۡمِ﴾:

بيانُ تعلُّقه بالوصفين وعدًا للمؤمنين

قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمِ يُؤۡمِنُونَ﴾ يريد أنَّه نذيرٌ وبشيرٌ لأجل قوم يُطلَب منهم الإيمانُ، ويُدْعَون إليه، وهؤلاءِ النَّاسُ أجمعُ، فتكونُ اللّامُ للتَّعليل، وتكون للاختصاص لبيان تعلُّقه بالوصفين ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ وعدًا للمؤمنين، مع الإشارةِ إلى حذْفِ ذِكرِ الكافرين تطهيرًا للِّسان من ذِكْرِهم.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في وصف القوم:

شمولُ الخطابِ لمن تهيَّأَ للإيمانِ حــالًا ومــآلًا ترغيبًا للكفرة في الإيمانِ

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: في أيِّ وقتٍ كان، ففيهِ ترغيبٌ للكفَرَةِ في إحداث الإيمانِ، وتحذيرٌ عنِ الإصرارِ على الكفرِ والطُّغيان[1]، فالمضارعُ مُرادٌ بِه الحالُ والاستقبالُ - كما هو شأنه - ليشملَ من تهيَّأ للإيمانِ حالًا ومآلًا، وأمَّا شمولُه لِمَن آمنوا فيما مَضى، فهو بدلالةِ فحوى الخطابِ؛ إذ هُمْ أولى، وهذا على حدِّ قولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾ [النَّازعات: 45][2].

دلالةُ تَخصيصِ المؤمنين بالبِشارةِ والنِّذارةِ على غيرِهم:

الإشــارةُ إلى أنَّ رسالةَ الرَّسولِ إنَّما تُؤَثِّرُ أثرَها، وتُعطي ثمرتَها لمن تهيَّأَ للإيمانِ

قولهُ: ﴿لِّقَوۡمِ يُؤۡمِنُونَ﴾ يتنازعُ تَعَلُّقَهُ كلٌّ من نذير وبَشيرٍ؛ لأنَّ الانتفاعَ بالأمرين يَختَصُّ بالذين تهيَّؤُوا إلى الإيمانِ بأن يتأمَّلوا في الآيات، وينهوا من أنفسِهم، ويقولوا الحقَّ على آبائهم، دون الذين جعلوا ديدنَهم التَّكذيبَ والإعراضَ والمُكابرةَ[3]، وخصَّ اللّهُ تعالى المؤمنين بالذِّكرِ؛ لأنَّه ﷺ وإن كان نذيرًا وبشيرًا للكلِّ، إلَّا أنَّ المُنتفع بتلك النِّذارةِ والبِشارةِ هم المؤمنونَ ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: 101][4]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ رِسالةَ الرَّسولِ إنَّما تؤثِّرُ أثرَها، وتُعطي ثمرتَها لمن كان على استعدادٍ للتَّعامل معها والإيمانِ بها، والانتفاعِ بالخير الذي تحملُه بين يديها[5].

(1) البروسوي، روح البيان: 3/292.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/209.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/426.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/533.

وفي نظمِ الكلامِ على هذا الأسلوبِ من التَّنازعِ وإيلاءِ وصفِ (البشير) بـ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ البِشارةَ خاصَّةٌ بالمؤمنين، وأنَّ متعلِّقَ النِّذارة المتروكَ ذِكرُهُ في النَّظم هو لأضدادِ المؤمنين، أي: المشركين، فحذفَ متعلِّقَ النِّذارةِ، ودلَّ على حذفِه اكتفاءً بإثبات مُقابلِه، والتَّقديرُ: نذيرٌ للكافرين وبشيرٌ لقوم يُؤمنون كما حذف المعطوف في قوله ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النَّحل: 81] أي والبرد(1).

وهذا المعنى مقصود على نحو قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12]، وهذه المعاني المُستتبَعاتُ مقصودةٌ من القرآن، وهي من وجوه إعجازِه؛ لأنَّ فيها استفادةَ معانٍ وافرةٍ من ألفاظ وجيزة(2).

بديعُ المطابقةِ في الآيةِ:

قَصْدُ الإحاطةِ بالأحوالِ من جميعِ وجوهِها

بين: (النَّفع والضَّرِّ)، و(الخير والسُّوء)، و(النَّذير والبشير)، فهذهِ التَّقابلاتُ المقصودُ بها تعميمُ الأحوال؛ إذ لا تعدو أحوالُ الإنسان عن نافعٍ وضارٍّ، وخيرٍ وسوءٍ، وأحوالُ الرَّسولِ أن يكونَ نذيرًا وبشيرًا، فذِكْرُ هذه الأضدادِ مِثلُ ذِكرِ المساءِ والصَّباح، وذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّرِّ والخيرِ؛ جيءَ بها لقَصْدِ الإحاطةِ بالأَحْوالِ(3).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسُّ والإصابةُ:

الإصابةُ التقاءٌ وزيادةُ تمكُّنٍ وتأثيرٍ، والمسُّ أقلُّ درجاتِهَا

المسُّ اتِّصالُ أحد شيئَين بآخرَ على وجهِ الإحساسِ، أمَّا الإصابةُ؛ فهي التقاءٌ وزيادةٌ، فالمسُّ أقلُّ تمكُّنًا مِنَ الإصابة، وكأنَّه أقلُّ درجاتِها(4)، لأنَّ الشَّيءَ المُصيبَ لشيءٍ، فهو مُتمكِّنٌ منهُ أو فيهِ(5)، فالإصابةُ أبلغُ من المسِّ؛ لأنَّ تأثيرَها أقوى وأشدُّ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 240/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 209/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 207/9.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 407/1، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 245/2.
(5) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 498/1.

السُّوءُ والشَّرُّ:

السُّوءُ أشدُّ وقعًا مِنَ الشَّرِّ، وفي الشَّرِّ معنى الانتشارِ

الشَّرُّ خلافُ الخيرِ، وهو عدمُ ملائمةِ الشَّيءِ الطَّبعَ[1]، الشَّرُّ: اسمٌ جامعٌ للرَّذائلِ والخطايا، وقد يُطلقُ على المصائِبِ والبلايا، ويدلُّ أصلُها على الانتشارِ والتَّطايرِ[2]، ومنهُ الشَّرَرُ: وهو ما تطايرَ مِنَ النَّارِ، ورَجُلٌ شِرِّيرٌ، أي: كثيرُ الشَّرِّ، والجمعُ أشرارٌ[3].

والسُّوءُ يجري مجرى الشَّرِّ، فيحملُ معنى الذَّنبِ، كالزِّنا والشِّرك[4]، ويُطلَقُ السُّوءُ أيضًا على كلِّ ما يغمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ ومِنَ الأحوالِ النَّفسيَّةِ والبدنيَّةِ والخارِجَةِ من فواتِ مالٍ وجاهٍ وفقْدِ حميمٍ[5]، فالسُّوءُ يأتي بمعنى المنكراتِ والرَّذائِلِ، وبمعنى البؤسِ والمصائِبِ والشَّدائِدِ، وكلُّ ذلك شرٌّ بلا ريبٍ، ولكنَّ السُّوءَ أشدُّ من الشَّرِّ.

(1) الجرجاني، التعريفات، ص: 109، والقاضي نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: 151/2.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرّ).
(3) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرازي، مختار الصحاح: (شرّ).
(4) الكفوي، الكليَّات، ص: 503.
(5) الرّاغب، المفردات: (سوأ).

﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: 189 - 190]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

ذِكْرُ ابتداءِ الخلقِ بعدَ ذِكْرِ السُّؤالِ عن البعثِ تَنْبيهًا على القدرةِ على البعْثِ والإعادةِ

لَمَّا تقدَّمَ سؤالُ الكُفَّارِ عن السَّاعةِ ووَقتِها، وكان فيهم مَن لا يُؤمِنُ بالبعثِ؛ ذكَرَ ابتداءَ خَلقِ الإنسانِ وإنشائِه؛ تنبيهًا على أنَّ الإعادةَ مُمكِنةٌ، كما أنَّ الإنشاءَ كان مُمكنًا، وإذا كان إبرازُه من العَدَمِ الصِّرْفِ إلى الوجودِ واقعًا بالفِعلِ، فإعادَتُه أحرى أن تكونَ واقعةً بالفِعلِ[1].

وأيضًا لَمَّا أمرَ تعالى بالنَّظَرِ في الملكوتِ الدَّالِّ على الوحدانيَّةِ، وقسَّمَ خَلْقَه إلى مؤمنٍ وكافرٍ، ونفى قُدرةَ أحدٍ من خَلْقِه على نَفعِ نَفسِه أو ضَرِّها؛ رجعَ إلى تقريرِ التَّوحيدِ، فقال تعالى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾: النَّفْسُ: الرُّوحُ، يُقال: خَرَجَتْ روحُهُ، أي: نَفْسُهُ[3]، وتُطلَقُ أيضًا على الدَّمِ، ومعنى النَّفسِ حقيقةُ الشَّيءِ وجملتُهُ، وأصلُ (نفس) يَدُلُّ عَلَى خُرُوجِ النَّسِيمِ كَيْفَ كَانَ، مِنْ رِيحٍ أَوْ غَيْرِهَا[4]، وَالنَّفْسُ قِوامُهَا بِالنَّفَسِ، والمعنى هنا: من آدمَ عليه السلام[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 244/5.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 427/15، وأبو حيان، البحر المحيط: 244/5.
(3) الجوهري، الصّحاح: (نفس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(5) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 351/1، والزَّبيدي، تاج العروس: (نفس).

2) ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾: من السَّكَن: الاستقرارُ في المساكن، وهي البيوت ونحوها، والعَرَبُ تسمِّي المَرْأة سكنًا ولِباسًا وإزارًا[1]؛ لأنَّ كلًّا من الزَّوجين يَسكُن إلَى صَاحبِه ويُلابسُه[2]، وأصلُ (سكن): يدلُّ على خلافِ الاضْطرابِ والحَركة[3]، فهو دالٌّ على الاستقرار[4]، ومِنْهُ قولُهم لكُلِّ شَيْءٍ مَاتَ: قد سَكَنَ[5]؛ لذهاب حركتِه، ومِنْهُ سُمِّيَتِ النَّارُ: سكَنًا؛ لأنَّها مُعِينةٌ على الاستقرارِ والإقامةِ؛ إذْ بها يُعدُّ الطَّعامُ، ويُستدفأُ، ويُستضاءُ[6]، وسكَنَ بالمكانِ: أقامَ فِيه[7]، ومعنى ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾: ليأوي إليها[8].

3) ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: من الغَشْي والغِشْيان، وأصلُ (غشَّى): يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[9]، وسُمِّي يومُ القيامَةِ غاشيةً؛ لأنَّها تغشَى الخلْقَ بإفزَاعِهَا[10]، وقد تُطلَقُ الْغَاشِيَةُ علَى النَّار؛ لكونِهَا تَغْشَى وُجُوهَ الْكُفَّار[11]، كما قال اللهُ تعَالَى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 50]، وقولُ اللهِ سُبحَانَهُ: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ أَيْ: يُلْقِي النُّعَاسَ عَلَيْكُمْ كَالْغِطَاءِ[12].

ومعنى ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: تدثَّرها لقضاء حاجته منها[13].

4) ﴿حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾: الحَمْل - بفتح الحاء - ما يُحمَل في البطن، والحَمِيل: الولَد في بطن أمِّه، أي: ما كان في بطنِ الزَّوجةِ مِن منيِّ زوجِها[14]، وذلك أوَّلُ الحَمْلِ[15]، لا تجدُ المرأةُ له ألَمًا؛ لأنَّ المَاءَ خَفِيفٌ على المَرْأة؛ إذا حَمَلَتْ، والحِمْل - بالكسر - ما حُمِل (على ظهر أو نحوه) ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: 72]"، وَأصلُ (حَمَلَ): يَدُلُّ

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سكن) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 93.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سكن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سكن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: (سكن).
(7) ابن سِيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 204/13.
(9) السجستاني، غريب القرآن، ص: 141، والرّاغب، المفردات، ص: 607، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 123، وابن الهائم، التبيان، ص: 214، والكفوي، الكليات، ص: 320.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(11) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (غشو).
(12) الخضيري، السراج في بيان غريب القرآن، ص: 70، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حمل).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 204/13.
(14) الزّبيديّ، تاج العروس: (حمل).
(15) الجوهري، الصّحاح: (حمل).

على إِقْلالِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُهُ حَمْلًا، والخَفِيفُ: بإزاءِ الثَّقيلِ[1].

5) ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: من المرور: استرسال اجتيازيٌّ، وفيه امتداد الوجود إلى مكان آخر كالاطرادي، أي: استمرَّت به، وقعَدت، وقامَت، ولم يُثقِلْها الحَمْلُ[2]، وأصلُ مرَّ يدلُّ على مُضِيِّ شَيْءٍ، يُقالُ: مَرَّ الشَّيْءُ يَمُرُّ؛ إِذا مَضى، وَمَرُّ السَّحابِ: انْسِحابُهُ وَمُضِيُّهُ[3].

6) ﴿أَثْقَلَت﴾: من الثِّقَل - كعِنَب: نقيضُ الخِفَّة، والثِّقْل - بالكسر: الحِمْل الثَّقيل، ومِثْقال الشَّيء: ما آذَن وزنَه فثقُل ثِقَلُه[4]، أَيْ: صارتْ ذاتَ ثِقلٍ بكِبَرِ الولَدِ في بَطنِها، يُقال: امرأَةٌ مُثْقِلٌ، وَقد أَثْقَلَتْ؛ إِذا عَظُمَ مَا فِي بَطْنِها[5]، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكْرُ أصلِ خَلْقِ الإنسانِ والمِنَّةِ عليه بالزَّوجةِ والولَدِ، وبَيانُ شِرْكِ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ في مساواةِ الخالقِ بغيرِه

هو الَّذي أوجدكم - أيُّها الرِّجالُ والنِّساء - من نفسٍ واحدةٍ هي آدمُ عليه السلام وخلق من آدمَ عليه السلام زوجتَه حوَّاءَ، ليأنسَ إليها، ويطمئنَّ بها، واستمرَّتْ سُلالتُهما في الوجود، فلمَّا جامَعَ زوجٌ زوجتَهُ؛ حملَتْ ماءً خفيفًا لا تشعرُ به؛ فقامَت به، وقعدَت، وأتمَّت الحملَ، واستمرَّت على حملِها هذا تمضي في حوائجِها لا تَجِدُ ثقلًا، فلمَّا قَرُبت ولادتُها، وأثقلَت؛ دعا الزَّوجان ربَّهما قائلين: لئن أعطيتنا - يا ربَّنا - ولدًا صالحَ الخِلقةِ تامًّا؛ لنكونَّن مِنَ الشَّاكرين لِنعمِك، فلمَّا استجاب اللهُ دعاءهما، وأعطاهما ولدًا صالحًا، كما دَعوَا؛ صَيَّرَا لله شركاء

(1) السجستاني، غريب القرآن، ص: 190، والرَّاغب، المفردات: (ثقل)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 525/3، وابن الهائم، التبيان، ص: 214.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 175، والسجستاني، غريب القرآن، ص: 190، والرَّاغب، المفردات، ص: 764، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 123، وابن الهائم، التبيان، ص: 214.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرَّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مرّ).

(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقل).

(5) السجستاني، الفرق، ص: 245.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 619/10، وابن فارس، مقاييس اللغة: 382/1، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 525/3.

في عطيَّتهِ الكريمةِ، فَعَبَّدَا ولدَهما لغيرِه، فتعالى اللهُ، وتنزَّهَ عن كلِّ شريكٍ، فهو المنفرد بالربوبيَّةِ والألوهيَّةِ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الآيةِ البيانيُّ ممَّا قبلَها:

إبطالُ الشِّركِ ببيانِ ما يقتضي التَّوحيدَ وببيان عِظَمِ جنايةِ الشِّركِ

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾: جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، مَسُوقًا لبيان ما يقتضي التَّوحيدَ الذي هو المقصدُ الأعظمُ؛ ولبيان كمالِ عظمِ جناية الكفرةِ في جراءتِهم على الإشراكِ بتذكيرِ مبادي أحوالهم المُنافية له(2).

حيثُ عادَ بها الكلامُ إلى تقريرِ دليلِ التَّوحيدِ، وإبطالِ الشِّركِ من الذي سلفَ ذِكرُهُ في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: 172] الآية، وليست من القولِ المأمورِ به في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188]؛ لأنَّ ذلك المقولَ قُصِدَ منه إبطالُ الملازمةِ بينَ وصفِ الرِّسالةِ وعِلمِ الرَّسولِ بالغيبِ، وقد تمَّ ذلك، فالمُناسبُ أن يكونَ الغرضُ الآخرُ كلامًا موجَّهًا مِنَ اللهِ تعالى إلى المشركين لإقامةِ الحُجَّة عليهم بفسادِ عقولهم في إشراكهِم وإشراكِ آبائهم(3)، أي: إنَّ الَّذي يستحقُّ العبادةَ والخضوع، والَّذي عندَه مفاتحُ الغيبِ هو اللهُ الَّذي خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ هي نفسُ أبيكم آدمَ(4).

غرضُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ عنِ الذَّاتِ العليَّةِ:

بيانُ تفرُّدِه سبحانه بالخَلْقِ تقريرًا للتَّوحيدِ وتأكيدًا لهُ في النَّفس

قولهُ: ﴿هُوَ﴾، أي: وحدَهُ، فمِن دلائلِ قُدرتهِ وموجباتِ توحيدِه، وإفرادِه بالعبادة أنَّه خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ، فافتتحَ الكلامَ

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 238.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/302.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/129، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/210.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/452.

بالضَّميرِ مُقرِّرًا للتَّوحيد مؤكِّدًا لأمرِه[1]، فالضَّميرُ (هو) عائدٌ إلى الذَّاتِ العليَّة، والإشارةُ إليه بالضَّميرِ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ مُقرَّرٌ لا يتطرَّق إليه شكٌّ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

تفخيمُ شأنِ الخالقِ العظيمِ المتفرِّدِ بالخلقِ والمُلْكِ

قولُه: ﴿ٱلَّذِى﴾: أي: العظيمُ الشَّأنِ[2]، فإيقاعُ الموصولِ خبرًا في قَولِه: هُوَ الَّذي لِتَفخيم شأنِ المبتدأ، أي: هو ذلك العظيمُ الشَّأنِ الَّذي خلقَكم جميعًا وحدَه مِن غيرِ أن يكونَ لِغيرِه مدخلٌ في ذلك أصلًا بوجهٍ مِن الوجوه[3]، فَمِن شأنِ الاسم الموصولِ أن يكونَ مُبهمًا لذلك يقعُ التَّعريفُ به من خلال جملةِ صلةِ الموصولِ الَّتي ترفعُ عنه الإبهامَ، ففيهِ تشويقٌ إلى معرفة صاحبِه من خلالِ التَّعريفِ به على مرحلتَيْن.

مَن هم المخاطَبونَ في هذه الآيةِ؟

بيانُ عُمومِ الخطابِ لكلِّ مَن يَصلحُ للخِطاب وإنْ كان الخِطابُ لأهلِ مكَّةَ ابتداءً

هذه الآيةُ تعجيبٌ للمشركين من أهلِ مكَّةَ مِن إشراكهم باللّه شيئًا مع عِلمِهم بأنَّه خالقُهم ورازقُهم[4]، فهو لأهل مكَّةَ بالدَّرجة الأولى لكونِهم هم المخاطَبون بالوحي ابتداءً، وقيل: إنَّ ضميرَ الخطابِ في خَلقكِم للمشركين مِنَ العَربِ؛ لأنَّهم المقصودُ مِن هذهِ الحُجَجِ والتَّذكير، وإن كان حكمُ هذا الكلامِ يَشمَلُ جميعَ البشرِ[5]، وقيل: إنَّ الخطابَ بـ﴿خَلَقَكُم﴾ عامٌّ لكلِّ من يصلحُ خطابُه، والمعنى: أنَّكم تفرَّعتم مِن آدمَ عليه السلام[6].

معنى (من) في قولِه: ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾:

بيانُ تمامِ القُدرةِ على ابتداءِ الخَلقِ ممَّا يُدَلِّلُ على القُدرةِ على إعادتِهِ

(من) في قولِه: ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ ابتدائيَّة[7]، أي: خلقَها ابتداءً

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.
(2) البروسوي، روح البيان: 294/3.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 303/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(4) السيواسي، عيون التفاسير للفضلاء السماسير: 98/2.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 244/5.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.

من ترابٍ، وهي آدمُ - عليه السلام[1]، وفيها إيماءٌ إلى أنَّه من قَدِرَ على اختراعِ حيٍّ من شيءٍ ليس له أصلٌ في الحياة، كان على إعادتِه حيًّا - من ذلك الشَّيءِ بعدَ أن صارَ له أصلٌ في الحياةِ - أقدرَ[2].

نكتةُ تنكيرِ النَّفسِ ووصفِها بالواحدةِ بطريقِ الإدماجِ:

تضمينُ المعنيَين التَّفسيريَّيْن في كـلـمـةٍ واحــدةٍ شاملةٍ لهما

صدَّر اللّهُ سبحانه وتعالى هذه الآيةَ بالتَّذكيرِ بنعمةِ خلقِ النَّوعِ المبتدَأ بخلقِ أصلهِ، وهو آدمُ وزوجُه حواءُ تمهيدًا للمقصودِ، وتعليقُ الفعلِ باسمِ الجمعِ في مثلِه، في الاستعمال يقعُ على وجهين: أحدُهما: أن يكونَ المرادُ الكُلَّ المجموعيَّ، أي: جملةُ ما يصدقُ عليه الضَّميرُ، أي: خَلَقَ مجموعَ البَشرِ من نفسٍ واحدةٍ، فتكونُ النَّفسُ هي نفسُ آدمَ الَّذي تولَّد منهُ جميعُ البشرِ، فالمُرادُ بالنَّفسِ الواحدةِ: الجرثومةُ أو السُّلالةُ التي تكاثَرَ منها هذا النَّسلُ، وتوالدَ، كمَا تتكاثرُ، وتتوالدُ حبَّاتُ السُّنبلةِ من حبَّةٍ واحدةٍ، ثُمَّ تكونُ من تلك الحبَّاتِ سنابلُ، ومِن تلك السَّنابلِ حبَّاتٌ، ومِن الحبَّاتِ سنابلُ[3].

وعلى هذا فَتَأْنِيثُ الْوَصْفِ بِقَوْلِه: ﴿وَاحِدَةٍ﴾، مَعَ أَنَّ الْمَوْصُوفَ بِهِ مُذَكَّرٌ، وَهُوَ آدَمُ نَظَرًا إِلَى تَأْنِيثِ لَفْظِ النَّفْسِ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا مُذَكَّرًا، وَنَظِيرُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلُهُ[4]:

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى *** وَأَنْتَ خَلِيفَةٌ ذَاكَ الْكَمَالِ[5]

وثانيهما: أن يكونَ المرادُ الكُلَّ الجمعيَّ، أي: خلقَ كلَّ أحدٍ منكم من نفس واحدةٍ، فتكون النَّفسُ هي الأبَ، أي: أبو كُلِّ واحدٍ من المخاطَبين، على معنى: أنَّكم كلَّكم من طينةٍ واحدةٍ وجنسٍ

(1) الشربيني، السّراج المنير: 623/1.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 537/5.
(4) هذا البيت من البحر الوافر، لعُقَيبة بن هبيرة الأسدي. يُنظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 280/2.
(5) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 354/6.

واحدٍ، على نحو قولهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: 13]، وقولِه: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: 39].

ولفظُ نفسٍ واحدةٍ يحتملُ المعنيين؛ لأنَّ في كِلَا الخَلقين امتنانًا، وفي كليهما اعتبارًا واتِّعاظًا.

ووُصِفَتِ النَّفسُ بواحدةٍ على أسلوبِ الإدماجِ بين العِبرةِ والموعظةِ؛ لأنَّ كونَها واحدةً أدعى للاعتبارِ؛ إذ ينسلُ مِنَ الواحدةِ أبناءٌ كثيرون حتَّى رُبَّما صارتِ النَّفسُ الواحدةُ قبيلةً أو أمَّةً، ففي هذا الوصفِ تذكيرٌ بهذهِ الحالةِ العجيبةِ الدَّالَّةِ على عِظَمِ القُدرةِ وسَعةِ العلمِ حيثُ بثَّهُ من نفسٍ واحدةٍ رجالًا كثيرًا ونساءً[1].

دلالةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾:

بيانُ اختلافِ الجنسين وكونِ الأنثى مُتولِّدةً مِنَ الذَّكرِ وأنَّه أصلٌ لها

قولُه: ﴿وَجَعَلَ﴾ عطفٌ على ﴿خَلَقَكُم﴾ داخلٌ في حكمِ الصِّلةِ[2]، فلمَّا كان آدمُ عليه السلام بعد صيرورتِه لحمًا ودمًا أقربَ إلى السَّببيَّةِ لخَلْقِ ذاتِ لحمٍ ودمٍ منه على سبيلِ النَّزعِ والفصلِ[3]؛ قال مُعبِّرًا بالواو؛ لأنَّه كافٍ في نفيِ الشِّركِ الذي جاءَ السِّياقُ للتَّحذيرِ منه، وبيانِ اختلافِ الذَّكرِ عن الأنثى؛ لأنَّ تأخيرَ المُسبَّباتِ عن الأسبابِ مُدَّةً أدلُّ عليه لأنَّهُ خِلافُ الأصلِ[4].

سِرُّ استخدامِ الجَعْلِ دونَ الخَلْقِ:

الدَّلالةُ على الإنشاءِ والتَّصييرِ مع الإشارةِ إلى الزَّوجيَّةِ

قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ﴾ دونَ (خلقَ)؛ لأنَّ الجَعْلَ إظهارُ أمرٍ عن سببٍ وتَصييرٍ[5]؛ فالجَعْلُ إمَّا بمعنى التصييرِ، فقولُه تعالى: ﴿زَوۡجَهَا﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3.
(3) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 281/10.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.

مفعولُه الأوَّلُ، والثَّاني هو الظَّرفُ المقدَّمُ، وإمَّا بمعنى الإنشاءِ، والظَّرفُ متعلِّقٌ بجعل[1].

أو عبَّر في جانبِ الأنثى بفعلِ (جعَلَ)؛ لأنَّ المقصودَ جَعْلُ الأنثى زوجًا للذَّكر، لا الإخبارُ عن كونِ اللهِ خلقهَا؛ لأنَّ ذلك قد عُلِمَ من قولِه: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾[2].

توجيهُ المتُشابِهِ الوارِدِ في القرآنِ مع هذا الموضعِ:

التَّعبيرُ بالجَعلِ للدَّلالةِ على الحالةِ الدَّائمةِ والسُّلالةِ المتتابعةِ والتَّعبيرُ بالخَلْقِ للإشارةِ إلى بَدْءِ الخلقِ

التَّعبيرُ بالفعلِ (جعل) في: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ يدلُّ على الحالةِ الدَّائمةِ في السُّلالاتِ البشريَّةِ، وهي أنَّ الذَّكَرَ من هذا النَّوعِ يَسكن للزَّوجِ الأنثى من هذا النَّوعِ، بالجعلِ الرَّبَّانيِّ في نظامِ الخلقِ المُتتابِعِ.

أمَّا بَدْءُ اشتقاقِ خَلْقِ حوَّاءَ من آدمَ عليه السلام فقد جاءَ التَّعبيرُ عنه في قولِ اللهِ عز وجل في سورةِ النِّساءِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النِّساء: 1]، فَبَدْءُ خَلْقِ الأُنثى الأولى، كان اشتقاقًا مِنَ الذَّكرِ الأوَّلِ، ثُمَّ سارتِ السُّلالاتُ على أنَّ الذُّكورَ تَحملُ ذُرِّيَّاتِ الإخصابِ ذُكورَها وإناثَها، واقتضى نظامُ التَّكوينِ الرَّبَّانيِّ جعْلَ الذُّكورِ يسكنونَ إلى الإناثِ أزواجًا لهم، لتكونَ الإناثُ محاضِنَ تَنْبُتُ فيها بذورُ الذُّرِّيَّةِ التي يزرعُها الذُّكورُ فيهِنَّ، ففرَّقَ اللهُ عز وجل بين أصلِ الخلقِ، وبين الجَعْلِ بعدَ الخلقِ.

معنى (من) ودلالتُها في ﴿مِنۡهَا﴾:

احتمالُ المعنيين التَّفسيريَّين للجَعْلِ مع ترجيحِ الإنشاءِ والتَّصييرِ

و(مِن) في قولِه: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا﴾ للتَّبعيضِ، والمرادُ: من نوعِها[3]، أي: جسدُها لما يُروى أنَّه سبحانه خلقَ حوَّاءَ من ضِلَعِ آدمَ عليه السلام اليُسرى، والكيفيَّةُ مجهولةٌ لنا، ولا يُعجِزُ اللهَ تعالى شيءٌ[4]، ويحتملُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/302.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/211.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/211، والخفاجي، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 4/417.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/129.

أن تكونَ ابتدائيَّةً أو بيانيَّةً، أي: من جنسِها وهذا كقولِهِ سبحانه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النَّحل: 72، الشُّورى: 11][1].

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿مِنْهَا﴾:

تَعيينُ أصلِ الجَعْلِ وتخصيصُ تَعلُّقِهِ بالنَّفسِ الواحدةِ

قولُهُ: ﴿مِنْهَا﴾، أي: وجعل مِنَ النَّفسِ الواحدةِ، أي: لا مِن غيرِها[2]، وهو آدمُ عليه السلام على المشتهرِ، حيثُ تعيَّن أنَّ هذا الجَعْلَ كان مِنَ النَّفسِ الواحدةِ الَّتي خُلِقَت ابتداءً، فهو منها لا مِن غيرِها.

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿مِنْهَا﴾ على المفعولِ:

بيانُ تمامِ الامتنانِ بكونِ الأنثى من جنسِ ذَكَرِها مع الاعتناءِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ

قولُهُ: ﴿مِنْهَا﴾ صفةٌ لـ ﴿زَوْجَهَا﴾ قُدِّمت على الموصوفِ للاهتمامِ بالامتنانِ بأنْ جَعَلَ الزَّوجَ - وهو الأنثى - من نوعِ ذَكَرِهَا، وهذه الحكمةُ مُطَّردةٌ في كلِّ زَوجَينِ مِن الحيوانِ[3]، فالظَّرفُ ﴿مِنْهَا﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿وَجَعَلَ﴾، وقُدِّم على المفعولِ الصَّريحِ ﴿زَوْجَهَا﴾ للاعتناءِ بالمُقَدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ[4]، ويحتملُ أن يكونَ تقديمُها للتَّخصيصِ على معنى: منها لا مِن غيرِها.

نكتةُ إضافةِ الزَّوجِ إلى النَّفسِ في ﴿زَوْجَهَا﴾:

بيانُ التَّجانسِ بينَ النَّفسِ وزوجِها إشارةٌ إلى معنى التَّزاوجِ والتَّلاقحِ

يُلاحظُ هنا من النَّاحيةِ البيانيَّةِ أنَّه سبحانه وتعالى ذكَرَ النَّفسَ في السِّياقِ بأنَّها مُؤَنَّثةُ الضَّميرِ ﴿وَاحِدَةٍ﴾، فناسبَ أن يقولَ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، فلمَّا بَيَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى ثمرةَ ذلك التَّجانُسِ، وهو التَّلاقحُ والتَّزاوجُ بينَ الذَّكرِ والأنثى ليبقى الوجودُ، وليكونَ ذلك التَّجانُسُ مُنتِجًا أقصى غايتِه[5].

---

(1) عبد القادر ملاحويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 467/1، والشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4513/8.

(2) ابن جرير، جامع البيان: ت شاكر: 304/13، والبقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3.

(5) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3028/6.

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿لِيَسۡكُنَ﴾:

بيانُ مِنَّةِ إيناسِ الزَّوجِ بزوجتِه وأُلْفَتِه بها

قولُه: ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾، يعني: لِيطْمئِنَّ إليها، ويجامِعَها[1]، فهو تعليلٌ لِما أفادَتْهُ (مِن) التَّبعيضيَّةُ، أي: جعَلَ مِن نوعِ الرَّجُلِ زَوجَهُ ليألَفَها، ولا يجفُوَ قُربَها، ففي ذلك مِنَّةُ الإيناسِ بها، وكثرةُ ممارَستِها؛ لينساقَ إلى غِشْيانِها[2].

فهي عِلَّةٌ غائيَّةٌ للجعلِ للإيناس والاطمئنان[3]، وجعل علَّة السُّكون أنَّها مِنْهُ، ولو كان علَّةَ الحُبِّ حُسْنُ الصُّورة الجسديَّة؛ لوجب ألَّا يَسْتَحْسِنَ الأنقصَ من الصُّور، ونحن نجدُ كثيرًا ممَّن يُؤْثِرُ الأدنى، ويعلمُ فضلَ غيرِه، ولا يجدُ محيدًا لِقلبِه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاقِ لما أحبَّ المرءُ مَن لا يساعدُه، ولا يُوافِقُه، فَعلِمْنا أنَّه شيءٌ في ذات النَّفسِ، ورُبَّما كانتِ المحبَّةُ لسببٍ مِنَ الأسبابِ، وتلك تفنى بفناءِ سببِها[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ في: ﴿لِيَسۡكُنَ﴾:

الـدَّلالـةُ على اسـتـمـرارِ السُّكونِ ودوامِه

أي: ليألَفَها، ويَسْكُنَ بها على وجهِ الدَّوامِ والاستمرارِ، ويطمئِنَّ إليها، ويميلَ، ولا ينفرَ منها؛ لأنَّ الجنسَ إلى الجنسِ أميلُ وبه آنسُ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الرُّوم: 21]، فلا أُلفةَ بَينَ زَوْجين أعظمُ ممَّا بين الزَّوجين[5]، وصِيغَةُ المُضارعِ دَالَّةٌ على الاستِمْرارِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالسَّكنِ عن الطُّمأنينةِ والأُنْسِ:

تصويرُ الزَّوجةِ وأُنسِ زوجِها بها بمحلِّ السُّكونِ والرُّكون

السُّكونُ هُنا مجازٌ في الاطمئنانِ والتَّأنُّس، بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّةِ تشبيهًا للزَّوجة بمحلِّ الطُّمأنينةِ والسُّكون،

(1) السمرقندي، تفسير السمرقندي: 574/1.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 211/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(4) ابن القيم، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص: 75.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 525/3، والزمخشري، الكشاف: 186/2.

فقد جعلَها اللّهُ من نوعِ الرَّجل زوجَه ليألفَها، ولا يجفوَ قُربَها؛ لأنَّ النَّفسَ إلى الجنسِ أمْيَلُ، وعليه أَقْبَلُ، ولا سيَّما إن كان بعضًا، ألا ترى إلى محبَّةِ الوالدِ لولده والقريبِ لقريبه، فالسُّكونُ والمحبَّةُ أبلغُ، كما يسكنُ الإنسانُ إلى ولدِه، ويحبُّه محبَّةً لكونه بَضْعَةً منه(1)، وإنَّما منعَ سبحانه مِن نكاحِ الأصلِ والفرعِ لما في ذلك مِنَ الضِّرارِ وغيره من الحِكَمِ الكبارِ، فيغشاها عندما يَسْكُنُ إليها، فيحصُلُ الحَبَلُ والولادةُ، فتتفرَّعُ النُّفوسُ من تلك النَّفسِ(2)، ففي ذلك مِنَّةُ الإيناسِ بها، وكثرةُ مُمارستِها لينساقَ إلى غشيانِهَا، فلو جعلَ اللّهُ التَّناسُلَ حاصلًا بغيرِ داعي الشَّهوةِ؛ لكانت نفسُ الرَّجلِ غيرَ حريصةٍ على الاستكثار من نسلِه، ولو جعلَه حاصلًا بحالةِ أَلَمٍ؛ لكانت نفسُ الرَّجلِ مُقلَّةً منهُ، بحيثُ لا تَنْصَرِفُ إليه إلَّا للاضطرارِ بعد التَّأمُّلِ والتَّردُّد، كما ينصرِفُ إلى شُرْبِ الدَّواءِ ونحوِه(3)، فَعِلَّةُ سُكونِ الرَّجُلِ إلى امرأتِه كونُها مِن جِنسِه وجوهَرِه، قال اللّهُ تعالى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ [الأعراف: 189] فالجِنسُ إلى الجِنسِ أميَلُ، وبه آنَسُ(4).

عِلَّةُ استخدامِ التَّذكيرِ في الضَّميرِ المستكِنِّ في قولِه: ﴿لِيَسۡكُنَ﴾:

بيانُ أنَّ المُرادَ مِنَ النَّفسِ هُنا آدمُ عليه السلام ونِسبَةُ السُّكونِ إليه

لَمَّا كان المُرادُ بالنَّفس آدمَ عليه السلام على الأرجحِ، وكان الزَّوجُ يُقال عنِ الذَّكرِ والأنثى؛ استخدمَ ضميرَهُ في المذكَّر ذاكرًا عِلَّةَ الجعْلِ بقوله: ﴿لِيَسۡكُنَ﴾(5)، فالضَّميرُ المُستَكِنُّ في ﴿لِيَسۡكُنَ﴾ يعودُ إلى النَّفس، وكان الظَّاهرُ تأنيثَهُ؛ لأنَّ النَّفسَ مِنَ المؤنَّثاتِ السَّماعيَّة، ولذا أُنِّثت صِفتُها، وهي قوله: ﴿وَٰحِدَةٖ﴾ إلَّا أنَّه جاء مُذكَّرًا هنا باعتبارِ أنَّ المُرادَ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/186، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/234.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/190.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/211.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/245، وابن القيم، زاد المعاد: 4/247.

(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/ - 190 189.

مِنَ النَّفسِ هُنا آدمُ ﷺ فكان التَّذكيرُ أحسنَ طِباقًا للمعنى[1]، كما أنَّه ذُكِّرَ الضَّميرُ ذهابًا إلى المعنى؛ ليُناسِبَ قولَهُ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾[2].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَمَّا﴾:

التَّفريعُ عمَّا سبقَ بذكرِ لازمِ السُّكونِ، والميلُ هو الغِشْيانُ

الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾ عاطفةٌ[3] تفريعيَّةٌ؛ حيثُ فرَّعَ عمَّا سبق بفاء التَّعقيب عمَّا ما يحدث عن بعض سكونِ الزَّوجِ إلى زوجِه، وهو الغِشْيان[4]، فقال مُؤذِنًا بقُربِ غِشْيانِها بعدَ جعْلِها سَكَنًا ﴿فَلَمَّا﴾، وتقديرُ الكلامِ: فَسَكَنَ إليها، فَمَالت نفسُه إليها، فَلَم يَتَمالكْ أن غَشِيَها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾[5].

ولمَّا كان السُّكونُ مُفسَّرًا بالميلِ، وهو مُتناوِلٌ للميل الشَّهوانيِّ الذي هو مُقدِّمَةُ التَّغشِّي لا سيَّما وقد أُكِّدَ بالفاء كانَ الطِّباقُ في نِسْبتِهِ أيضًا إليْهِ وإنْ كانَ مِنَ الجانِبَيْنِ[6].

معنى (لمَّا) ودلالتها في ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾:

بيانُ شرطيَّةِ التَّغشِّي والجماعِ لوقوعِ الحَمْلِ ربطًا للسَّببِ بِمُسَبَّبِهِ

(لمَّا) حينيَّةٌ شرطيَّة بمعنى حِينَ، وهي مخصوصة بالدُّخول على الفعل الماضي، وهي مع تضمُّنها معنى الشَّرط غيرُ جازمة[7]، أي: حين اتَّصل بها زوجها، اتِّصال الرَّجل بالمرأة عَلِقَتْ منه بالجنين الذي ولدته بعد أن تَمَّ حَمْلُهُ في بطنها[8].

بلاغةُ الكنايةِ بصيغة التَّفعُّلِ في قوله: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾:

الدَّلالةُ على التَّكلُّفِ في الجُهْدِ عند الفعل بمقتضى الفطرة مع الإشارة إلى السَّتر بمقتضى الشَّريعة

قولُه تعالى: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾، أي: أتاها، كغَشِيَها، ويزيدُ ما تُعطيه

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/129، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/452.
(2) الشهاب، حاشيته على تفسير البيضاوي: 4/243، والمظهري، التفسير المظهري: 3/442، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتاهما على تفسير على البيضاوي: 8/569.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/508.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/211.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/190.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/129.
(7) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/508، ومحمود صافي، الجدول: 9/144.
(8) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/537.

صيغةُ التَّفعُّل مِن جُهدٍ، لإفادةِ قُوَّةِ التمَكُّنِ مِن ذلك؛ لأنَّ التكَلُّفَ يقتضي الرَّغبةَ[1]، وهو كنايةٌ نزيهةٌ عن أداءِ وظيفةِ الزَّوجيَّة، تشيرُ إلى أنَّ مُقتضى الفِطرةِ وأدبَ الشَّريعةِ فيها، السَّترُ[2].

دلالةُ التَّذكيرِ في نسبة التَّغشي في قوله: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾:

الإيماءُ إلى تكثيرِ النَّوعِ في كونه عِلَّةً للمُؤانسة

التَّغشِّي منسوبٌ إلى الذَّكر لا محالة وإن كان من الجانبين، وفيه ذوقيَّةٌ رائعة في جعلِ المرأة مطلوبةً لا طالبة، مرغوبةً لا راغبة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ تكثير النَّوعِ علَّةُ المؤانسة، كما أنَّ الوحدة عِلَّةُ الوحشة، وأيضًا لَمَّا جعل المخلوق أوَّلًا الأصلَ؛ كان المناسبُ أن يكون جعلُ الزَّوج لسكونه بعد الاستيحاش لا العكس، فإنَّه غير ملائم لفظًا ومعنى[3].

براعةُ أسلوبِ الاستخدامِ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾:

جوازُ حملِ معنى الآيةِ على التَّفسيرَيْنِ السَّابقين في معنى النَّفس

قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ التغشِّي هُنا يقع بَيْنَ الذَّكر والأنثى، وأشارت الآيةُ أنَّ الذي تَغَشَّى عند اللِّقاء المُنْتِجِ بينهما هو الذَّكر، وأنَّ التي تُغْشى هي الأنثى، وبذلك تكون الثَّمرةُ الإنسانيَّة هي نتيجةُ ما بينهما؛ ولذا عاد الضَّميرُ مُذَكَّرًا، فَتَغَشَّىٰها هو، فكان بينهما ما أوجبته الفِطرة[4]، فحملت هيَ، فعاد الضَّميرُ بعد ذلك إليها، ففي الكلام استخدامٌ في ضَميرَيْ تَغَشَّاها وما بعده[5].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿حَمۡلًا﴾ بعد ﴿حَمَلَتۡ﴾:

الإشارةُ إلى خِفَّةِ الحَملِ صفةٌ في نفسه وحالٌ لأمِّه

انتصابُ ﴿حَمۡلًا﴾ يكون على المصدريَّة، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾ إذا مشت بهِ، أو على كونه مفعولًا به، أي: حملت محمولًا خفيفًا، وهو ما في البطن مِنَ النُّطفة والجنينِ قبل أن يكبرَ ويثقل، ويكون المُرادُ بالخِفَّة عندئذٍ عدمَ التَّأذِّي به[6].

(1) الزمخشري، الكشاف: 186/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 212/9.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 432/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(4) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3028/6.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 244/5، وإسماعيل حقي، روح البيان: 294/3.

ولا يخفى ما في جناسِ الاشتقاق مِنَ الإشارة إلى أثرِ الحَمْل في الفعل، وأثره على سلوك الحامل، خفيفًا كان أو ثقيلًا، كلًّا حسبَ درجتِه، فحروفُ الفعل (حمل) هي حروف اسم المصدر نفسه.

غرضُ وصفِ الحملِ بالخفَّةِ:

حكايةُ الحالةِ التي تحصلُ للمرأةِ عند تَطَوُّرِ الجنين زيادةٌ في التَّفكُّرِ والاعتبارِ

يعني بخفَّة الحمل: الماء الذي حملتْهُ حواء في رحمها من آدم أنَّه كان حملًا خفيفًا، وكذلك هو حَمْل المرأة ماءَ الرَّجل خفيفٌ عليها[1]، ووصْفُ الحمل بـ(خفيفًا) إدماجٌ ثانٍ، وهو حكاية للواقع، فإنَّ الحمل في مبدئه لا تجد منه الحاملُ ألَمًا، وليس المرادُ هنا حملًا خاصًّا، ولكنَّه الخبرُ عن كلِّ حمْلٍ في أوَّلِه؛ لأنَّ المُرادَ بالزَّوجين جنسُهما، فهذه حكايةُ حالةٍ تحصل منها عِبرة أخرى، وهي عِبرة تَطوُّر الحَمْلِ كيف يبتدئ خفيفًا كالعدم؟ ثُمَّ يَتزايد رويدًا رويدًا حتَّى يَثْقُلَ[2]؛ لأنَّه عند إلقاءِ النُّطفةِ أخفُّ منه عند كونه عَلَقَةً، وعند كَوْنِهِ علقةً أخفُّ منه عند كونه مُضْغَةً، وعند كونه مضغة أخفُّ ممَّا بعده، وقيل: إنَّه خفَّ عليها هذا الحمل من ابتدائهِ إلى انتهائه، ولم تجد منه ثِقَلًا، كما تجده الحواملُ من النِّساء لقوله: ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾:

تصويرُ خفَّةِ الحَمْلِ وعدمِ التَّأذِّي به بحالِ من يذهبُ ويجيء بخفَّةٍ ويُسْرٍ

أي: استمرَّت به، وقامت، وقَعَدَتْ به، ولم يُثقلها[4]، وأخذتْ، وتركت، ولم تَكْتَرِثْ بحَمْلها، فمرَّت من المرور بمعنى الذَّهاب والمُضي لا من المَرِّ بمعنى الاجتيازِ والوصول[5]؛ لأنَّ حقيقةَ المُرُورِ: الاجْتِيَازُ، وَيُسْتَعَارُ لِلتَّغَافُلِ وَعَدَمِ الِاكْتِرَاثِ لِلشَّيْءِ من باب الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فالمرور مشبَّهٌ به، كقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/97.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/212.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/312، والقنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 2/629.

(4) البغوي، تفسير البغوي: 2/257.

(5) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/294.

عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يُونس: 72]، أَيْ: نَسِيَ دُعَاءَنَا، وَأَعْرَضَ عَنْ شُكْرِنَا؛ لِأَنَّ المَارَّ بِالشَّيْءِ لَا يَقِفُ عِنْدَهُ، وَلَا يُسَائِلُهُ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ [الفُرْقَان: 72].

فمعنى ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾: لم تتفطَّن لَهُ، ولم تُفَكِّر في شأنه، وكل هذا حكايةً للواقع[1]، إعلامًا بأنَّ أمرها فيه كان على عادةِ النِّساء التي نعرفها[2].

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِهِۦۖ﴾:

تحقيقُ معنى خِفَّتِهِ عليها في أوَّل حَمْله

قولُه تعالى: ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾، أي: كانت تنتقل به، فـ(مرَّت) مضمَّنة معنى (انتقلت) أي: إنَّها كانت مع هذا الحَمْلِ الخفيف تَروح، وتغدو، وتتقلَّب في أمورِ بيتها، وفي شؤونِها[3]، فهي تتحرَّك حركةَ حياتِها قيامًا وقعودًا، ولم يعطِّلها عن المشي ذهابًا ورجوعًا إلى أن تثقل، وتشعرَ بالحمل في شُهورِهِ الأخيرة[4].

فقولُهُ: (به) تحقيقٌ لمعنى خفَّته، وأنَّه لم يمنعْها مِنَ القيام والقعود والنُّزول والصُّعود[5].

دلالةُ الفاء في ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾:

تعقيبُ حال الخفَّةِ بحال الثِّقلِ اللَّازم للحامل عند صلاح حَمْلِها

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ عاطفةٌ لتعقيب حال الخِفَّة بحال الثِّقَل، أي: فلمَّا صار ما في بطنها من الحملِ الَّذي كان خفيفًا ثقيلًا، ودنت ولادتُها حين كَبُرَ في بطنها، فحينئذٍ صار في قلوبهما الشَّفقةُ على الولد، وعلى خروجهِ حيًّا، صحيحًا، سالمًا لا آفةَ فيه ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾[6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 190/8.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3028/6.
(4) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4513/8.
(5) الرسعني، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: 336/2.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 305/13، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 352.

نكتةُ الكنايةِ في ﴿أَثْقَلَت﴾:

دلالةُ الثِّقَلِ على كِبَرِ الجنين وكُلفَةِ أمِّه بحَمْله

﴿أَثْقَلَت﴾؛ أي: فلمَّا دخلت في ثِقَل الحملِ، بسببِ كِبَرِ الجنين في بطنها، يُقال لغةً: أثقلتِ الحاملُ؛ أي: استبانَ حملُها، فهي مُثْقِلٌ، وإنَّما يَسْتَبِينُ حَمْلُها إذا كَبُرَ الجنين في رحمها، فصار ثقيلًا، فالإثقال كنايةٌ عن كِبَرِ الجنين وثِقَلِ الحملِ وكُلفَتِهِ، يقال: أثقَلَ المريضُ، فهو مُثْقَلٌ[1].

دلالةُ الهمزةِ في ﴿أَثْقَلَت﴾:

الدَّلالةُ على الدُّخول في الثِّقَل وصيرورته

الهمزةُ في ﴿أَثْقَلَت﴾ للصَّيرورة، مثل: أورقَ الشَّجرُ، فهو كما يقال: أقربتِ الحاملُ، فهي مُقْرِبٌ؛ إذا أقرب إبَّانُ وَضْعِها[2]، كما يُقال: أثمرَ وألبنَ: إذا صار ذا ثَمَرٍ ولبن، وقيل: إنَّها للدُّخول في زمانِ الفِعل، أي: دخلت في زمان الثِّقَلِ، فـ﴿أَثْقَلَت﴾ حان وقتُ ثِقَلِ حملِها، ودخلت في الثِّقَل، كما يُقال: أصبح، وأمسى، إذا دخلَ في الصَّباح أو المساء[3].

بديعُ المطابقةِ بين الخِفَّةِ والثِّقَل:

تصويرُ الحالين المُتقابِلَين وما ينتجُ عن أثرِهما مِنَ التَّقابل الحاصل

المتبادرُ من الثِّقَل معناه الحقيقي، والتَّقابُلُ بينه وبين المعنى الأوَّل للخِفَّةِ ظاهِرٌ، وقد يرادُ بِهِ الكَرْبُ ليقابل الخفَّةَ بالمعنى الثَّاني، وهو الدُّخولُ في الثِّقَلِ لكنَّ المتبادرَ في الموضعين المعنى الحقيقيُّ[4]، مع ما يوحيه هذا التَّقابلُ من تقابل بَيْنَ أثرِهِ من عدم التَّأذِّي بحال الخِفَّةِ والفرح بحمله، وبَيْنَ الوَهَنِ والتَّعب والكرب والخوف عليه عند الثِّقَلِ.

فائدةُ التَّأنيثِ والتَّذكير في ضَمائر الأفعال في الآية:

وذلك في قوله: ﴿لِيَسْكُنَ﴾ ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ و﴿حَمَلَتْ﴾ ﴿فَمَرَّتْ﴾

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 239/4.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.

بيانُ بديع نقلِ ترتيب الضَّمائرِ بحسب المذكورِ آنفًا

﴿أَثۡقَلَت﴾، فجاء ذكْرُ الضَّميرِ المرفوع في فِعْلَيْ (يسكن) و(تَغَشَّى): باعتبار كونِ النَّفسِ الواحدة المذكورة آنفًا ذَكَرًا، وأنَّث الضَّميرَ المنصوب في ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾، والمرفوعَ في ﴿حَمَلَتۡ﴾ و﴿فَمَرَّتۡ﴾: باعتبار كونِها مضافةً لـ (زوجها)، وقد عُلِمَ أنَّ المقصودَ بهِ الأنثى، وهو عكسٌ بديعٌ في نَقلِ ترتيب الضَّمائر[1]، وهو دالٌّ على أنَّ كلًّا من الزَّوج والمرأة يقوم بما أُوكلَ إليه، وما هُيِّىء له من أمر النَّسل.

دلالةُ لفظ ﴿دَّعَوَا﴾ وَعَوْدُ الضَّمير فيها:

شمولُ طالب الدُّعاء لكلِّ أبوين ولو مُشركين

قولُه تعالى: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾؛ أي: فلمَّا حانَ قُرْبُ وَضْعِها، وكَبُرَ الولدُ في بطنها، تَوَجَّهَا إلى اللهِ ربِّهما[2].

وظاهرُ قولِه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أنَّ كُلَّ أبوين يَدعوان بذلك، فإنْ حُمِلَ على ظاهرِه؛ قُلْنَا: لا يخلو أبوان - ولو مشركين - من أن يَتمنَّيا أن يكون لهما مِنَ الحَمْل مولودٌ صالحٌ، سواءٌ نطقَا بذلك، أم أضمراه في نفوسِهما، فإنَّ مُدَّةَ الحَمْل طويلةٌ، لا تخلو أن يَحْدُثَ هذا التَّمنِّي خلالها، وإنَّما يكونُ التَّمنِّي منهم على اللهِ، فإنَّ المشركين يعترفون للّه بالرُّبوبيَّة، وبأنَّه هو خالق المخلوقات ومُكَوِّنُها، ولا حَظَّ للآلهة إلَّا في التَّصرُّفات في أحوال المخلوقات، كما دلَّت عليه مُحاجَّاتُ القرآن لهم، نحوُ قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾ [يونس: 34]، وإن حُمِلَ دعَوَا على غير ظاهرِه؛ فتأويلُه أنَّه مَخْصوصٌ ببعض الأزواجِ الَّذين يَخْطُرُ ببالِهم الدُّعاءُ[3].

فائدةُ الجمع بين وصف الألوهيَّة والرُّبوبيَّة في ﴿ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾:

تأكُّدُ الوصفَين في مقام الدُّعاء استحضارًا لعظمة المدعوِّ وإحسانِه وامتنانِه

ذَكرَ الاسمَ الأعظم في مقام الدُّعاء استحضارًا؛ لأنَّ المدعوَّ هو الذي له جميعُ الكمال، فهو قادرٌ على ما دعوا به؛ لأنَّه قادرٌ على كلِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/212.
(2) أحمد مصطفى المراغي، تفسيره: 9/138.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/213.

شيء، وذكرَ صفةَ الإحسان رجاءَ القَبول والامتنان، فقال: ﴿رَبَّهُمَا﴾، أي: الذي أحسنَ إليهما[1].

وإجراءُ صِفةِ الرّبوبيّة المؤذِنةِ بالرِّفقِ والإيجادِ، في قولِه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾؛ للإشارةِ إلى استحضارِ الأبوَينِ هذا الوَصفَ عند دُعائهما اللّه، أي: يذكُرُ أنَّه باللَّفظِ، أو ما يُفيدُ مَفادَه[2]، فقد تَبيَّنَ الحملُ، وتعلَّقت به قلوبُ الزَّوجين، وجاء دور الطَّمع في أن يكون المولودُ سليمًا صحيحًا صَبوحًا، وعند الطَّمع تستيقظ الفطرةُ، فتتوجَّهُ إلى اللّهِ، تَعْترفُ له بالرُّبوبيَّة وحده.

نُكتةُ إضافة الرَّبِّ إلى ضميرهما:

الإشـــــارةُ إلى تـصـديـرهـمـا للدُّعاء بالرُّبوبيّة وسؤالِ الله بها

﴿رَبَّهُمَا﴾، أي: مالكُ أمرِهما، الحقيقُ بأن يُخصَّ به الدُّعاءُ، إشارةٌ إلى أنَّهما قد صدَّرا به دعاءَهما، كما في قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23] الآية[3]، فإجراءُ صفةِ ربِّهما المؤذنةِ بالرِّفق والإيجاد: للإشارة إلى استحضار الأبوين لهذا الوصف عند دعائهما اللّه، أي: يذكر أنَّه باللَّفظ، أو ما يُفيد مفاده، ولعلَّ العربَ كانوا إذا دعوا بصلاح الحَمْلِ؛ قالوا: ربَّنَا آتنا صالحًا[4]، فإضافةُ لفظة الرَّبِّ إلى ضميرِهما تشريفٌ لهما.

فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ الدُّعاءِ في قوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾:

التَّـعـويـلُ على شهادة الجملةِ القسميَّةِ به

قولُه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، أي: دَعَواه تعالى أن يُؤتيَهما صالحًا، ووعدًا بمقابلتِه الشُّكْرَ على سبيل التَّوكيدِ القسَميِّ، وقالا أو قائلين: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾، فمتعلَّقُ الدعاءِ محذوفٌ تعويلًا على شهادة الجملةِ القسَمية به[5]، فالحذفُ من بلاغة الإيجاز.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 190/8.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 213/9.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 303/3.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 213/9.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 303/3.

تفسيرُ الإجمالِ الحاصلِ ممَّا سبق من الدُّعاء وتفصيلُهُ

الموقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾:

قوله: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا﴾ بيانٌ لـ﴿دَّعَوَا﴾ على الاستئناف البَيانيِّ، كأنَّه قيل: ماذا قالا في دعائهما؟ أو فقالا: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا﴾[1]، ويمكن أن تكون جملةُ لئن آتيتَنا تفسيريَّةً لجملة ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾[2]، فالفصلُ على هذا لكمال الاتِّصالِ كونُ الجملة الثانية مُفسِّرةً للجملة الأولى.

توكيدُ جوابِ القَسمِ وتقويتُهُ

معنى اللَّامِ في ﴿لَئِنۡ﴾ ودلالتُها:

اللَّامُ في ﴿لَئِنۡ﴾: مُوَطِّئَةٌ للقسم، وتُسمَّى أيضًا اللَّامَ المُؤْذِنَةَ[3]، أي: دعا آدمُ وحواء ربَّهما ومالكَ أمرِهما أن يؤتيَهما ولدًا صالحًا، حالفين باللَّه بقولهما: واللَّه ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾، أي: واللَّه لئن أعطيتَنا - يا إلهَنا - ولدًا صالحًا[4].

فدعواهُ تعالى أن يؤتيهما صالحًا، ووعدا بمقابلتهِ الشُّكرَ على سبيل التَّوكيدِ القسميِّ[5].

بيانُ أنَّ هذا الدُّعاءَ أنموذجٌ يستَتْبِعُ سائرَ الذُّريَّةِ الصُّلبيَّةِ مهما نزلَت

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ترتيبُ هذا الجوابِ على الشَّرطِ المذكورِ، لما أنَّهما قد عَلِمَا أنَّ ما علَّقا بِهِ دعاءَهما أُنموذجٌ لسائرِ أفرادِ الجنسِ، ومعيارٌ لها ذاتًا وصفةً، فوجودُه مُستتبِعٌ لوجودِها، وصلاحُه مستلزِمٌ لصلاحها، فالدُّعاءُ في حقِّه متضمِّنٌ للدُّعاء في حقِّ الكلِّ مستتبِعٌ له، كأنَّهُما قالا: لئن آتيتنا وذرِّيَّتَنا أولادًا صالحين[6].

شُمولُ الصَّلاحِ وعُمومُه لكلِّ معاني الصَّلاحِ

غرضُ تنكير ﴿صَٰلِحٗا﴾ وحذفُ الموصوف:

ولدا صالحًا، أي: تامَّ الخَلْقِ يصلح للقيام بالأعمال النَّافعة

(1) محمود صافي، الجدول: 144/9.
(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 508/3.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 145/4.
(4) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 281/10.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 303/3.

التي يعملُها البَشَرُ[1]، أي: أعطيتنا ولدًا سويًّا صحيحَ الجوارح[2]، سليمًا من فساد الخِلْقَةِ كنقص بعض الأعضاء، قويَّ البِنيةِ، سليم الفطرة[3]، وقيل: ولدًا ذكرًا؛ لأنَّ الذُّكورةَ من الصَّلاح والجودة[4]، فعلى هذا فالتَّنكيرُ للتَّفخيم والتَّعظيم.

والصَّلاح يشمل معانيَ كثيرةً منها الصَّلاح في استواء الخَلق، ومنها الصَّلاحُ في الدِّين، والصَّلاح في العقل والتَّدبير، فيقال: إنَّهما قالا: لئن آتيتنا صالحًا بجميع معاني الصَّلاح[5].

دلالةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في: ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾:

رغبةٌ في إجابةِ الدُّعاء وتَحقُّقِ الرَّجاءِ

﴿لَّنَكُونَنَّ﴾، أي: نحن أو نحن ونَسْلُنا[6]، لنكونَّن من المخلِصين لك في الشُّكر[7]. وقد جمعت هذه الجملةُ عِدَّةَ مؤكِّداتٍ: فاللَّام الواقعة في جوابِ القسم، ونون التَّوكيد الثقيلةُ في (نكوننَّ)، فهو فعل مضارعٌ ناقصٌ مبنيٌّ على الفتح لاتِّصاله بنونِ التَّوكيد الثَّقيلة[8]، والجملة الفِعْليَّةُ: ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ جوابُ القسم المحذوف، وجواب الشَّرط محذوفٌ لدلالة جواب القسم عليه[9]، وهذا التَّتابعُ في التَّأكيد دالٌّ على الرَّغبة في قَبولِ الدُّعاءِ بصلاح الولد؛ لأنَّه بصلاحِهِ صلاحُ حياة الزَّوجين.

غرضُ التَّعبير بالمُضارِعِ في: ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾:

الـتـزامُ الـدَّوام والاستمرار على شُكر النِّعَم بعد حصولها

﴿لَّنَكُونَنَّ﴾: لَنَصيرنَّ شاكرين لنعمائك دائبين على شكرِها، وذلك لأنَّهما لم يريا أحدًا من جنسِهما، ولم يكن إذ ذاك غيرُ الجنِّ والحيوان والوحش والطَّير[10].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 9/138.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 1/574.
(3) حجازي، التفسير الواضح: 1/795.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/186.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 9/97.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/129.
(7) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 9/1653.
(8) بهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 4/145.
(9) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/682.
(10) الدِّينوري، تفسير ابن وهب عبد الله بن محمد: 1/28، وملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 1/467.

معنى (من) ودلالتُها في قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

إثباتُ شُكرِهما بإثباتِ ملزومِهِ أنَّ في الخلق أقوامًا شاكرين

﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ تبعيضيَّةٌ، أي: من جملةِ الشَّاكرين لنعمك الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة، فيكون شُكري وشُكر حواءَ على إيتاء الولد الصَّالح، وسائرِ النِّعم علينا، وكلُّ شاكر يَشْكرك على ماله من النِّعم[1]، فجيء بـ(من) ليُشيرَ إلى أنَّ في النَّاس قومًا شاكرين، فإن كانوا فنحنُ من جملتهم، وهو من قبيل الكناية التي هي إثباتُ الشَّيء بإثبات مَلزومه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريح.

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

الدَّلالةُ على رُسوخِهم في الشُّكر وشمولِه منهم ومن ذرِّيَّتِهم

أي: نحنُ وأولادنا على نعمتِكَ علينا مِنَ الرَّاسخين في الشُّكرِ لك على إيتائِك[2]، وقيل: على نعمائِك التي من جملتِها هذه النِّعمةُ[3]، فـ(الـ) إمَّا أن تكونَ عهديَّةً يرادُ بها الشَّاكرون المعروفون، وإمَّا أن تكونَ جنسيَّةً استغراقيَّةً، أي: مِن جنسِ الشَّاكرين.

معنى الفاءِ في ﴿فَلَمَّا﴾ ودلالتُها:

الإشارةُ إلى قُرْبِ الولادةِ مِنَ الدُّعاء

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الفاءُ كسابقاتها عاطفةٌ تعقيبيَّة، وأشار بها هنا إلى قُرب الولادة من الدُّعاء[4].

معنى (لمَّا) ودلالتُها في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾:

بيانُ حلولِ وقت الإتيانِ وحصولِهِ حقيقةً

(لمَّا) ظَرفُ زمانٍ، بمعنى: حِين تضمَّن معنى الشَّرط في محلِّ نصبٍ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿جَعَلَا﴾[5] لمَّا آتاهما ما طلباه أصالةً واستتباعًا من الولد وولد الولدِ ما تناسلوا؛ وقع منهم الشِّرك[6].

---

(1) محمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير: 252/5.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 129/5، والمظهري، التفسير المظهري: 442/3.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.

(5) العلوان، إعراب القرآن الكريم: 789/2.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 304/3.

بيانُ الانتقالِ منَ النَّوعِ إلى الجنسِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّةِ:

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾، أي: فحين أعطاهُما سبحانه الولدَ الصَّالحَ الذي كانا يتَمنَّيانه؛ جَعَلَا للّهِ تعالى شُركاء في هذا العطاء، وأَخَلَّا بالشُّكر في مقابلةِ هذه النِّعمة أسوأَ إخلالٍ، حيث نسبوا هذا العطاءَ إلى الأصنام والأوثان، أو إلى الطَّبيعة كما يزعم الطَّبعيون، أو إلى غير ذلك ممَّا يتنافى مع إفراد اللّه تعالى بالعبادة والشُّكر، فكانتِ النَّتيجةُ عدمَ الوفاءِ للّه فيما عاهداهُ عليه(1).

فأخلَّا بالشُّكر في مقابلة نعمةِ الولد الصَّالح أسوأ إخلالٍ؛ إذ استبدلوه بالإشراك(2)؛ فسمُّوا عبدَ العُزَّى وعبد مناف وعبد الدَّار، فالآية إخبارٌ بالغيب في أحوال بني آدمَ ممَّن كفر منهم وأشرك، ولا يَصِحُّ في آدم وحوَّاء هذا الشِّركُ؛ لعصمة الأنبياء(3).

وهذا انتقالٌ مِنَ النَّوعِ إلى الجنس، فإنَّ أوَّلَ الكلامِ في آدمَ وحوَّاءَ، ثُمَّ انتقل الكلام في الجنس، ولا شكَّ أنَّ هذا موجودٌ في الذُّرِّيَّة كثيرًا، فلذلك قرَّرهم اللّهُ على بطلان الشِّرك، وأنَّهم في ذلك ظالمون أَشَدَّ الظُّلم، سواء كان الشِّركُ في الأقوال، أم في الأفعال(4). فذكرَ آدم وحواء أوَّلًا كالتَّوطئة لما بعدَهما مِنَ الوالدين، وهو كالاستطراد من ذِكر الشَّخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5] الآية، ومعلوم أنَّ المصابيحَ - وهي النُّجومُ التي زُيِّنت بها السَّماءُ - ليست هي الَّتي يُرمى بها(5).

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/453.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 5/235.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/426.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 353.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/475.

غرضُ تنكيرِ ﴿صَٰلِحٗا﴾ وحذفِ الموصوف:

الـدَّلالـةُ على عمومِ الجِنْسِ

﴿صَٰلِحٗا﴾، أي: جنسُ الولدِ الصَّالح في تمام الخَلق بدنًا وقوَّةً وعقلًا، فكثروا في الأرض، وانتشروا في نواحيها ذكورًا وإناثًا[1]، والذي دلَّ على عمومِهِ وعدم اختصاصهِ بقائِلَيْنِ مُحَدَّدَيْنِ أنَّه إذا تقدَّم الاسمُ النَّكرةُ، فأعيدَ ذكرُه، فإنَّما يُعادُ مُعرَّفًا بالألف واللَّام، كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [سورة المزمل: 16، 15]، وكذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾ [سورة الشَّرح: 6، 5] لن يغلبَ عُسْرٌ يُسرين؛ لأنَّه إنَّما أُعيد العسرُ مُعَرَّفًا وكانَ شيئًا واحدًا، إذْ كان في كلامٍ واحدٍ، وهنا في كلامين لِقائِلَيْنِ، فَنُكِّرَ[2]، والتَّنكيرُ للتَّفخيم والتَّعظيم.

معنى اللَّامِ في ﴿لَهُۥ﴾ ودلالتُها:

بيانُ مُنازَعتِهم لله فيما هو حقٌّ له دونَ غيرِه من توحيدِ العبادة

﴿لَهُۥ﴾ اللَّامُ تعليليَّةٌ أو للتَّخصيص، أي: جَعَلا للّهِ شركاءَ في ذلك الولدِ الَّذي انفردَ اللّهُ بإيجادِه، والنِّعمة به، وأقرَّ به أعينَ والدَيه، فعبَّداه لغيرِ اللّهِ[3].

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾:

بيانُ رُسوخِهم في جعلِ الشِّرك ونسبةِ النِّعمة إلى غيرِ المنعِم

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾، أي: فيما أعطاه، فأظهرَا ما كان راسخًا في أنفسِهما منه، وقد نُسِبَ هذا الجعلُ عند المحقِّقينَ من علماء التَّفسيرِ للمشركين وكفرة النَّاس، قال الحسن البصريُّ: "هم اليهودُ والنَّصارى رزقَهم اللّه أولادًا، فَهَوَّدوا، ونصَّرُوا، وقال ابن كثير: أمَّا نحن فعلى مذهب الحسن البصريِّ في هذا، وأنَّه ليس المراد من السِّياق آدمَ وحوَّاءَ، وإنَّما المُراد من ذلك ذريَّتُه، ولهذا قال: ﴿فَتَعَٰلَى

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 272/2.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 353.

ﭐللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[1]، والتَّقديمُ لشبه الجملةِ: إمَّا للتَّخصيص، وإمَّا لتعجيل المضرَّة.

سِرُّ تنكير ﴿شُرَكَآءَ﴾ وجمعها:

بيانُ عمومِ شركِهم وتنوُّعِه

التَّنكيرُ للتَّعميمِ والتَّحقيرِ، فإمَّا أن يُسمِّياهُ بعبدِ غيرِ اللّه كـ (عبد الحارث) و(عبد العُزى) و(عبد الكعبة) ونحو ذلك، أو يُشْرِكا في اللّه في العبادة، بعد ما مَنَّ اللّهُ عليهما بما مَنَّ به، من النِّعَم التي لا يُحْصيها أحدٌ من العباد[2].

وقد يكون المُراد بالشُّركاء: إبليسَ اللَّعين أخزاهُ اللّه! وعبَّر بالأول، وهو الجمع عن المفرد على سبيل المبالغة[3]، فأراد بلفظ الجمع الشيطان للمبالغة، يعني: جعلاهُ شريكًا له تعالى[4].

توجيهُ القراءاتِ المتواترةِ في ﴿شُرَكَآءَ﴾ ودلالاتُها:

بيانُ جمعهم بين شِرْك الطَّاعةِ والعبادة

قولُه تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ اختلف القُرَّاءُ في هذا الموضعِ، فقرأ نافع وأبو جعفر، وأبو بكر عن عاصمٍ بكسر الشِّين، وإسكان الرَّاء مع التَّنوين من غير مدٍّ، ولا همز: ﴿شِرۡكٗا﴾، والتَّقدير: ذوي شِرْكٍ[5]، وقرأ الباقون بِضَمِّ الشَّين وفَتْحِ الرَّاء والمدِّ، وهمزةٍ مفتوحة من غير تَنْوينٍ: ﴿شُرَكَآءَ﴾[6].

فعلى قراءةِ ﴿شِرۡكٗا﴾، فإنَّ الشِّركَ لا يخلو عنه أحدٌ من الكفَّار في العرب، وبخاصَّةٍ أهلُ مكَّةَ، فإنَّ بعض المشركين يجعل ابنه سادنًا لبيوت الأَصنام، وبعضهم يَحْجُر ابنَهُ إلى صنم ليحفظه، ويرعاه، وخاصَّةً في وقت الصِّبا، وكلُّ قبيلةٍ تنتسب إلى صَنَمِها الذي تَعبده،

(1) المراغي، تفسير المراغي: 139/9.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 353.
(3) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 684/3.
(4) السيواسي، عيون التفاسير للفضلاء السماسير: 98/2.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(6) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 273/2.

وكأنَّ المعنى: فلمَّا آتاهما صالحًا؛ جعلا له نصيبًا لم يخلِّصاه له، والتَّفاسير على ذلك تدلُّ، على أنَّ ﴿شِرۡكٗا﴾، أي: في طاعته، ولم يكن في عبادتِه، فمَن قرأ ﴿شِرۡكٗا﴾ أي: جعلا لغيرِه شِركًا؛ لأنَّهما لا ينكران أن يكونَ الأصلُ له جلَّ وعزَّ، فالشِّرك يُجعل لغيره، وهذا على معنى: جعلا له ذا شرك، فَحُذِفَ (ذا)[1].

وقرأ الباقون ﴿شُرَكَآءَ﴾ على (فُعَلاءَ) جمعِ شريكٍ، وحجَّتُهم في ذلك أنَّ الوالدين كانا يعتقدان أنَّ ولدَهما من رزقِ اللّه وعطيَّتِه ثُمَّ سمَّياه، فجعلا لغيرِه فيه شُركاءَ بالاسم[2]، فبعضُهم يُسمِّي ابنَه: عبدَ كذا مُضافًا إلى اسم صنم، كما سَمُّوا عبد العُزَّى، وعبد شمس، وعبد مناة، وعبد ياليلَ، وعبد ضخمٍ، لأنَّ الإضافة على معنى التَّمليك والتَّعبيد[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ (ما) دون (مَن):

الإيـذانُ بفسادِ ذلـك الـجَـعْـلِ وظُلْمِ جاعلِه

قولُه: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ مرادٌ منه مع الإخبارِ التَّعجيبُ مِن سَفَهِ آرائِهم؛ إذ لا يَجعَلُ رشيدُ الرَّأيِ شريكًا لأحدٍ في مُلكِه وصُنعِه بدونِ حَقٍّ؛ فلذلك عُرِّفَ المشروكُ فيه بالموصوليَّة، فقيل: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ دونَ الإضمارِ، بأن يُقال: (جعلا له شُركاءَ فيه)؛ لِما تؤذِنُ به الصِّلةُ مِن فَسادِ ذلك الجَعلِ، وظُلْمِ جاعِلِه، وعدمِ استحقاقِ المَجعولِ شَريكًا لِما جُعِلَ له، وكُفرانِ نِعمةِ ذلك الجاعِلِ؛ إذ شكَرَ لِمَن لم يُعطِه، وكفَرَ مَن أعطاه، وإخلافِ الوَعدِ المؤكَّد[4]، فـ(ما) تدلُّ على العموم لتشمل كلَّ الأعطيات.

الإشـارةُ إلى أنَّ الـولـدَ في حـالِ طفولتِه أشبهُ بـغـيرِ الـعـاقـل، وأنَّـــه عـطـيَّـةٌ ربانيَّة

وجعْلُ الموصولِ (ما) دون (مَن) باعتبارِ أنَّه عطيَّةٌ، تشمل المولودَ وغيره، أو لأنَّ حالةَ الطُّفولةِ أشبَهُ بغيرِ العاقِلِ[5].

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 304.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 304.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/214.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/214.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/213 - 214.

بلاغةُ الإطنابِ في وصف تكوين النَّسل:

التّدليل على حكمة الله وقدرته

وقد سلَكَ في وصفِ تَكوينِ النَّسلِ مَسلَكَ الإطنابِ؛ لِما فيه من التَّذكيرِ بتلك الأطوارِ الدَّالَّةِ على دقيقِ حِكمةِ اللهِ وقُدرتِه، وبِلُطفِه بالإنسانِ[1].

موقعُ قولِه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ ممَّا قبله:

استئنافُ تنزيهٍ لله تعالى يقتضيه المقامُ تَوْبيخًا للمُشركين وتعجيبًا من حالهم

هذا ابتداءُ كلامٍ، وأراد به إشراكَ أهل مكّةَ، وحَمْلُ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية... علىً الابتداء ممَّا يستدعيه السِّباقُ والسِّياقُ، وبه صرَّح كثيرٌ من أساطين الإسلام[2]، فهو تنزيهٌ فيه معنى التَّعَجُّب؛ لأنَّ هذه الآيةَ سيقت توبيخًا للمشركين في جناياتهم، ونقضهم ميثاقهم، في جريهم على خلاف ما يعاهدون اللّه عليه، وذلك أنَّه تعالى ذكر ما أنعم عليهم من الخلق من نفسٍ واحدة، وجَعَلَ أزواجَهم من أنفسهم ليأنسوا بهنَّ، ثُمَّ إنشاءَه إيَّاهم بعد الغشيان، متدرِّجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود، ومن الضَّعف إلى القوَّة، ثُمَّ بَيَّن إعطاءهم المواثيقَ إن آتاهم ما يطلبون، ووُلِدَ لهم ما يشتهون، ليكونوا من الشَّاكرين، ثُمَّ أخبر عن غَدْرِهِمْ وكُفرانِهم هذه النِّعم التي امتَنَّ سُبحانه بها عليهم، ونقضِهم ميثاقَهم في إفرادِه بالشُّكر، حيث أشركوا معه غيره في ذلك[3]، فَتَنَزَّهَ سبحانه، وتَقَدَّس عن شرك هؤلاءِ الأغبياءِ الجاحدين الذين يُقابلون نِعَمَ اللّهِ بالإشراك والكفران[4].

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى﴾:

إنشاءُ التَّنزيهِ تَرَتُّبًا عمَّا أحدثوه من الشِّركِ بعد شهودهم قدرته وآثار نعمته

موقعُ فاء التَّفريع في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ موقعٌ بديعٌ؛ لأنَّ التَّنزيه عمَّا أحدثوهُ مِنَ الشِّرك يَتَرَتَّب على ما قبلَه من انفراده بالخَلقِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/212.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/130.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/235.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/453.

العجيبِ، والمِنَنِ العظيمة، فهو مُتعالٍ عن إشراكهم لا يليق به ذلك، وليس له شريكٌ بحقٍّ، وهو إنشاءُ تنزيهٍ غيرُ مقصود به مُخاطَبٌ[1].

والفاءُ لترتيبه على ما فُصِّلَ من قدرته سبحانه وآثارِ نعمته الزاجرة عن الشِّرك الدَّاعية إلى التَّوحيد[2].

دلالةُ قولِه: ﴿فَتَعَٰلَى﴾:

بيانُ تَقَدُّسِ اللهِ عن شِرْكِهِمْ كُلِّهِ ما ذُكِرَ هُنا وما لم يُذْكَر

تعالى: فعلٌ ماضٍ، أي: سَمَا وتَقَدَّس وارتفع اللّه سبحانه عن شركهم، وتعاظمَ وتنزَّه أن يكونَ له شريك[3]، فهو أعلى وأجلُّ عمّا يُشْرِكُونَ؛ فلمَّا لم يَضُرَّ المشركون بالإشراك إلا أنفسَهم، سبَّب عن ذلك قولُهُ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: بما له من صفاتِ الكمالِ التي ليست لغيرِه تعاليًا كثيرًا[4] عن إشراكهِم كُلِّه: ما ذُكِرَ منه آنفًا من إشراكِ الوالدَين مع اللّهِ فيما آتاهما، وما لم يُذْكَر مِن أصناف إشراكِهم[5].

دلالةُ عَودِ ضميرِ الجمع في ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

بيانُ عَوْدِ الضَّميرِ على كُلِّ المشركين على تَنَوُّعِ شِرْكِهم

والضَّميرُ في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ يعود على أولئك الآباء الذين جعلوا للّه شركاء، هذا، والمحقِّقون من العلماء يرون أنَّ هاتين الآيتين قد سيقتا توبيخًا للمشركين حيثُ إنَّ اللّه تعالى أنعم عليهم بخلقهم من نفسٍ واحدة، وجعل أزواجَهم من أنفسِهم ليأنسوا بهنَّ، وأعطاهم الذُّرِّيَّة، وأخذ عليهم العهودَ بشكرِه على هذه النِّعم، ولكنَّهم جَحَدُوا نِعَمَهُ، وأشركوا معه في العبادة والشُّكر آلهةً أخرى[6].

فضميرُ الجمع في قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ عائدٌ إلى المشركين الموجودين؛ لأنَّ الجملةَ كالنَّتيجة لما سبقها من دليل خَلْقِ اللّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/214.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/130.
(3) الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: 9/201.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/191.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/214.
(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/453.

إيَّاهم[1]، ولو أراد آدم وحواء - كما قاله بعضهم - لقال ﷺ: (فتعالى اللّه عمَّا يُشركان) على التَّثنية لا على الجمع[2].

دلالةُ تغليب جمع المُذكَّرِ على المؤَنَّثِ في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

الإيذانُ بعظم شِركِهم وفَظاعَتِه

في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ جيء بصيغة جمع المُذكَّر، وتغليبُها على المؤنَّث إيذانًا بِعظم شِرْكِهم[3]، ولا شَكَّ أنَّ مُخاطبة الرِّجال والنِّساء بصيغة واحدة تَعمُّهمَا جميعًا هو الأبلغ والأفصح، وقد اتَّفق العرب الذين نَزَلَ القرآن بلسانهم - على مُخاطبة الرِّجال والنِّساء مُجتمعين بصيغة المذكَّر لا المؤنث[4]؛ لِخِفَّة المذكَّرِ عندهم على المُؤَنَّثِ، وتَقَدُّمِه عليه في لسانهم.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الخَلقُ والجعْلُ:

الجعْلُ في اللُّغة: التَّهيئةُ والصَّنْع، وتصيير الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالة[5]، والخَلق تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه[6]، وقد ورد كِلا اللَّفظين في القرآن الكريم بمعانٍ مُتقاربة، ولعلَّ الفارق الدَّلالي في الاستخدام القرآنيِّ للفعلين (جَعَلَ - خَلَقَ) يتَّضِحُ بجلاء تامٍّ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1] فعبَّر عن السَّماوات والأرض بلفظ (خَلَقَ)؛ لأنَّ السَّماوات والأرض أجرامٌ تحتاج إلى التَّقدير والإيجاد ابتداءً.

وعبَّر عن الظُّلمات والنُّور بلفظ (جَعَلَ)؛ لأنَّ الظُّلماتِ والنُّورَ مخلوقاتٌ من شيء آخرَ، إذ هُما تبعٌ للسَّماوات والأرض، فناسب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 281/2، والبقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 130/5.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 637/6.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جعل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 328/1، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 127.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/2.

ذلك التَّعبيرُ بالفعل (جَعَلَ) الدَّالِّ على التَّهيئة وإنشاء شيءٍ من شيء سابقٍ، يقول الزَّمخشريُّ: "والفرق بين الخَلْقِ والجَعْل أنَّ الخَلْقَ فيه معنى التَّقدير، وفي الجَعْلِ معنى التَّضمين، كإنشاء شيء من شيءٍ، أي: تصيير شيء شيئًا، أو نقله من مكان إلى مكان"، ونَخْلص ممَّا سَبَقَ إلى أنَّ الاستخدام القرآنيَّ لِكَلِمَتَيْ (جَعَلَ - خَلَقَ) يُظهِر اشتراكهما في معنى: إحداث الشَّيءِ، والملمحُ الدَّلالي المُمَيِّز لكلمة (خَلَقَ) هو: التَّقدير والأوَّليَّة، في حين أنَّ الملمح الدَّلاليَّ المميِّزَ لكلمة (جَعَلَ) هو: التَّضمين والتَّهيئة[1].

الشُّركاءُ والأندادُ:

الشَّريكُ أعمُّ من النِّـدِّ، وفي النِّدِّ معنى المساواة والمماثلة

الشَّركةُ والمُشاركة: خَلْطُ المِلْكَيْنِ، وقيل: هو أن يُوجد شيء لاثنين، فصاعدًا، عينًا كان ذلك الشَّيء أو معنًى كمُشاركة[2]، وأَصْلُ (شرك) في اللُّغةِ: يَدُلُّ على مُقارَنةٍ وخِلافِ انفرادٍ، يقالُ: شَرِكَه في الأمرِ وأشرَكَه شَرِكًا وشَرِكةً؛ إذا صارَ له شَريكًا[3]، والشِّركُ: اعتقادُ شَريكٍ للّهِ في ألوهيَّتِه، وهو الشِّرْكُ الأعظَمُ، وهو شِرْكُ الجاهِليَّةِ، ويليه في الرُّتبةِ اعتِقادُ شَريكٍ للّهِ تعالى في الفِعلِ، وهو قولُ مَن قال: إنَّ موجودًا ما غيرَ اللّهِ تعالى يستَقِلُّ بإحداثِ فِعلٍ وإيجادِه، وإن لم يُعتَقَدْ كَونُه إلهًا[4].

أمَّا النِّدُّ؛ فهو العِدْلُ والمِثْلُ، يُقال: (لَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ)، أي: لست له بمثل في شيء من معانيه ولا عدل، وكلُّ شيء كان نظيرَ الشيء وشبيهًا له؛ فهو له ندّ[5]، والنِّدُّ: خُصَّ بالمخالف المماثِل في الذَّات

(1) العسكري، الفروق، ص: 184.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 259، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 266/2.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 265/3، والرّاغب، المفردات، ص: 451، وابن الأثير، النهاية: 466/2، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 181/5.

(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ند)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 155/4، وابن جرير، جامع البيان: 368/1.

والجوهر أَو القُوَّة، من نادَدْتُ الرَّجل؛ إذا خالفتُه[1]، ويَدُلُّ على أنَّ معنى النِّد: العِدْلُ قولُه تعالى أوَّلَ سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: 1] أي: يسوُّون به تعالى غيره ممن لم يخلق سماءً ولا أرضًا، ولا جعل ظلماتٍ ولا نورًا، ويجعلونه له ندًّا وشبيهًا في العبادة والطَّاعةِ، والمحبة والذُّل، والخوف والرَّغبة والرَّهبة، فيحبُّونهم كما يحبُّ المؤمن اللّه، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [سورة البقرة: 165].

وليس يلزم في النِّدية المُماثلةُ من كلِّ وجه، والمناظرةُ في كلِّ صفة، بل يكفي فيها التَّشبيه ولو بوجه واحد، فإنَّك تقول: فلان نِدُّ فلان، إذا كان مماثلًا له في السِّنِّ فقط، وإن لم يجتمع معه في أيِّ صفة أخرى، من اللَّون والعقل والعلم والدِّين، وقد رُوِيَ عن ابن عبَّاس ﷺ قال: قال رجل للنَّبيِّ ﷺ: ما شاء اللّه وشِئْتَ، فقال: «جعلتني للّه ندًّا؟ ما شاء اللّه وحده»[2].

والشِّرْكُ لا يتوقَّفُ على أن يعدِلَ الإنسانُ أحدًا باللّهِ، ويُساويَ بينهما بلا فَرقٍ، بل إنَّ حقيقةَ الشِّرْكِ أن يأتيَ الإنسانُ بخِلالٍ وأعمالٍ خَصَّها اللّهُ بذاته العَلِيَّة، وجعَلَها شِعارًا للعُبوديَّةِ، لأحَدٍ مِنَ النَّاسِ، كالسُّجودِ لأحَدٍ، والذَّبحِ باسمه، والنَّذرِ له، والاستغاثةِ به في الشِّدَّةِ، واعتِقادِ أنَّه حاضِرٌ ناظِرٌ في كُلِّ مكانٍ، وإثباتِ قُدرةِ التصَرُّفِ له، وكُلُّ ذلك يَثبُتُ به الشِّركُ، ويُصبِحُ الإنسانُ به مُشرِكًا، وإن كان يعتَقِدُ أنَّ هذا الإنسانَ أو المَلَكَ أو الجِنِّيَّ الذي يسجُدُ له، أو يذبَحُ أو يَنذِرُ له، أو يَستغيثُ به: أقَلُّ مِنَ اللهِ شأنًا، وأصغَرُ منه مكانًا، وأنَّ اللّه هو الخالِقُ، وهذا عَبدُه وخَلْقُه، لا فَرْقَ في ذلك بين الأولياءِ والأنبياءِ، والجِنِّ والشَّياطينِ، والعفاريتِ والجِنِّيَّاتِ، فمن عامَلَها هذه المعاملةَ كان مُشرِكًا[3].

الإِيتَاءُ وَالإِعْطَاءُ:

لا يكاد أهل اللُّغة يفرِّقون بين الإيتاء والإعطاء، فهما بمعنى واحد عند كثيرٍ من أصحاب المُعجَماتِ[4]، لكن نجد في الاستعمال القرآنيِّ بعض الفروق الدَّقيقة التي تُوحي ببلاغة

(1) الكفوي، الكليات، ص: 913، والرّاغب، المفردات: (ندد).

(2) رواه أحمد في المسند بأسانيد صحاح، عن ابن عباس، الحديث رقم: (1839) و(196)، والبخاري في الأدب المفرد، بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، الحديث رقم: (783).

(3) الدهلوي، تقوية الإيمان، ص: 54.

(4) الخليل بن أحمد، العين: (أتى)، والجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أتى).

الإيـتـاءُ أَقْـوى مِـنَ الإعْـطـاءِ، ولا يُستعمل إلَّا لِـلـشَّيْءِ الكَثِير والعظيمِ الشَّأْنِ

القرآن وعظمته، وذلك من حيث إنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له فعل مطاوع، تقول: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإيتاء آتاني، فأتيت، وإنَّما يُقال: آتاني فأخذت، ويترتَّب على هذا أَنَّ الإيتاء أقوَى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعال أضعفُ في إثبات مفعولِه مِمَّا لا مطاوِعَ له[1].

فالإيتاء أقوى من الإعطاء، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26] لأنَّ المُلك شيءٌ عظيم لا يُعطاه إلا مَن له قوَّةٌ، وكذا قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 171] لعظم الكتاب وشأنه[2].

كما أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يُنْتَقَلُ مِنْهُ بعد قضاء الأَرَبِ منه، ومِنْ هذا البابِ عندَهُم قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّ فيه انتقالًا مِنْهُ إلى ما هو أعظَمُ مِنْهُ.

كما أنَّ في الإعطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاء.

وأمَّا في خصوص الاستعمال القُرآنيِّ لِلَفْظَتَي (الإيتاء) و(الإعطاء)؛ فإنَّ بينَهُمَا فرقًا من جِهَتَيْن[3]: **إحداهما**: أنَّ الإيتاءَ لم يُستعمل إلَّا لِلشَّيْءِ الكَثِير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراة، والمُلْك، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليل، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلَّا بقيدِ مَا يدلُّ على الكثرَةِ.

الأخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طِيبِ نفسٍ، بخلاف الإعطَاءِ؛ فَهُوَ مُطْلَقٌ.

---

(1) السُّيُوطِيُّ، الإتقان: 367/2.

(2) الكفوي، الكُلِّياتُ، ص: 212.

(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ
نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ
سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾ [الأعراف: 191 - 193]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بيانُ أدلَّةِ عَجْزِ الأصنام والأنداد بعد ذِكْرِ علوِّ الله وقوَّته

لَمَّا ذَكر الله تعالى عُلوَّهُ عن الشُّركاء، شرعَ يذكر من أوصافِهِ عبارة ما يَدُلُّ على ذلك، ويُقيم الأدلَّةَ على عدم صلاحيَّة صَلاحِيَةِ ما أشركوا به للشّركة بِعَجْزِها، بأنَّها من جُملة خلقه ولا تَصرُّف لها تستحقُّ به وجهًا من التَّعظيم[1]، فأثبتَ سبحانه أنَّه لا قُدرة لهذه الأصنامِ على أمْرٍ مِن الأمورِ، وبيَّنَ كذلك أنَّه لا عِلمَ لها بشيءٍ مِن الأشياءِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوَآءٌ﴾: السِّينُ والواوُ والياءُ تَدُلُّ تصاريفُها على استقامة واعتدالٍ بين شيئين[3]، وَمِنْهُ قولُهم: مكانٌ، وسَوَاءٌ، أي: وسطٌ[4]، ومنه قولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: 6]، أي: يَستوي الأمرانِ المذكورانِ.

2) ﴿صَٰمِتُونَ﴾: من الصَّمْت، بمعنى السُّكوت "كأنَّه مُصْمتٌ مَتَماسِك الأثناء لا ينفذ ما فيه" أي: ساكتون، يُقال: صَمَتَ يَصْمُتُ صَمْتًا: إذا لم يتكلَّم[5]، وَأَخذه الصُّمات؛ إذا سكت فَلم يتَكَلَّم[6]،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 192/8.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، س وي.
(4) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (سوأ).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: 352/2، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صمت).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (صمت).

وأصل (صمت) يَدُلُّ عَلَى إِبْهَامٍ وَإِغْلَاقٍ[1]، والمعنى هنا: ساكتون عن دعائهم، فهم في كلا الحالين لا يؤمنون[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الأصنامُ لا تقدر على نفْعِ نفسِها فكيف تنفع غيرَها

هل يَصِحُّ أن يشركوا مع الله أصنامًا لا تَقْدِرُ أن تخلق شيئًا من الأشياء، وهم مَخْلوقون للَّه؟

ولا تقدر هذه المعبودات نَصْرَ عابديها، ولا تقدر نَصْرَ أنفسِها، فكيف يعبدونها؟ وإن تدعوا - أيُّها المشركون - هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله إلى الهدى؛ لا تسمعْ دعاءكم، ولا تتَّبِعْكم، يستوي دعاؤكم لها وسكوتكم عنها؛ لأنَّها لا تسمعُ، ولا تبصر، ولا تَهدي، ولا تُهدى؛ لأنَّها مجرَّدُ جمادات، لا تعقل، ولا تسمع، ولا تنطق[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الموقعُ البيانيُّ لهذه الآيات من الآيات السَّابقة:

توبيخُ المشركين وإقامةُ الحُجَّة عليهم بتفصيل أحوالهم مع مَعْبُوديهم

هذه الآياتُ الثَّلاثُ كَلامٌ مُعتَرِضٌ بَيْنَ الكلامين المَسوقَيْنِ لتَوبيخ المشركين وإقامة الحُجَّة عليهم، مُخاطَب بها النَّبيُّ ﷺ والمسلمون، للتَّعجيب من سخافة عقول المشركين[4]، وفيه تَعْرِيضٌ بالرَّدِّ عليهم؛ لأنَّه يَبْلُغُ مَسامِعَهم[5].

فقوله: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ لتوبيخِ المُشركينَ، واستقباحِ إشراكِهم على الإطلاقِ، وإبطالِه بالكُلِّيَّةِ[6]، ببيانِ شأنِ ما أشركوهُ بهِ سُبحانَه وتفصيلِ أحوالِه

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صمت).

(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 282/2.

(3) نُخْبة من أساتذة التَّفسير، التفسير الميسر: 175/1، ومجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 238.

(4) المراغي، تفسيره: 141/9.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 215/9.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9.

القاضيةِ ببطلان ما اعتقدوه في حقِّه[1]، دالًّا على أنَّ المُرادَ مما سبق الشِّرْكُ الحَقيقيُّ، وأنَّ ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ المشركون وأولادهما في العبادة[2]، ولم تُعطف على سابقتها أيضًا لاختلاف الخبر والإنشاء.

بلاغةُ الاستفهامِ ودلالتُه في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾:

تقريعُ المُشركين والتَّعجيب من سخافة عقولهم

الهمزةُ في قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري[3]، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإنكارِ والتَّقريع[4]، حيث صُدِّرت هذه الآية باستفهام يتضمَّن استثارةَ العجبِ من فعل المَقْصودِ بِهِ المشركون الأوّلون الَّذين ضرب اللّه ﷻ مثالًا من أمثلة شِرْكِهم في الآية السَّابقة، فقد كان هؤلاء المشركون يجعلون للّه ﷻ شُركاءَ لا تخلق شيئًا، ولا تنفع، ولا تَضُرُّ.

فأنكر على المشركين تسويتَهم بين اللّه ﷻ وبَيْنَ هذه المخلوقات، أو المصنوعات التي يتَّخذونها أربابًا لهم، وكيف تُسَوِّغ لهم عقولهم أن يشركوا مع اللّه مخلوقًا[5].

وتَبَيَّنَ من هذا الاستفهام الإنكاري المُعَجِّبِ من حالهم في ضلالهم في أسلوب الغَيبة أنَّ من أشركوه ليس فيه نوعُ قابليَّة لما أَهَّلُوه، فإنَّ المعبودَ يجب أن يكون قادرًا، ومن كان عاجزًا نوعَ عجز كان مَرْبُوبًا[6].

فائدةُ التَّعبير بالمُضارع في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾:

الدَّلالـةُ على تـجـدُّدِ هـذا الإشراكِ منهم

صيغةُ المُضارِعِ في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ دالَّةٌ على تجدُّدِ هذا الإشراكِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 192/8.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 509/3.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9، والقنوجي، فتح البيان: 633/2.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 539/5.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8.

منهم[1]، فهم دائبون على هذا الشِّرك في سائر أحوالهم وأوقاتهم، وفي المضارعيَّة أيضًا استحضارٌ لهذه الصورةِ القبيحةِ.

عودُ الضَّميرِ في ﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾:

شمولُ الخطابِ لكلِّ المُشركين في كلِّ زمانٍ ومكان

الضَّميرُ في ﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾ للزوجين المذكورين آنفًا ولمن اقتدى بهما إلى يوم الدِّين[2]، ولهذا حَسُنَ إيرادُ الجمع، لكن فيه تغليبُ الموجود على المعدوم، وأيضًا فيه ذكرُ بعض مَرْجِعِ الضَّمير صريحًا، وذكرُ بعضِه حُكْمًا[3].

معنى (ما) في ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ﴾:

بيانُ عَجْزِ الشُّركاء ذاتًا وصفةً على الخَلق والإيجادِ

جاء التَّعبيرُ باسم الموصول (ما) الذي يُستعمل غالبًا فيما لا يُعلَم، ولا يُعقَل، للدَّلالة على أنَّه ليس من صفات الشُّركاء الذين اتَّخذوهم شركاء لله أن تَخْلُقَ شيئًا، بمعنى: أن تُبْدِع شيئًا، أو تُوجِد شيئًا بخصائصها الذَّاتيَّة، أي: ليس لشركائهم صفاتٌ تستطيع أن تخلقَ حتَّى يصحَّ أن تكون شركاء لله في ربوبيَّتِه، وحتَّى يصحَّ أن تُتَّخذ آلهةً مع الله، تُعبد وتُدعى، ويُتقرَّب لها بالقرابين، فأخرج ذكرهم بـ (ما) لا بـ(مَنْ) مخرجَ الخبر عن غير بني آدمَ؛ لأنَّ الذي كانوا يعبدونه إنَّما كان حجرًا أو خَشَبًا أو نُحَاسًا، أو بعض الأشياء التي يخبر عنها بـ (ما) لا بـ(مَنْ)[4]، فضلًا عن معاني العموم التي تتأتَّى لـ(ما) أكثر ممَّا تتأتَّى لـ(مَنْ).

فائدةُ إرجاعِ الضَّمير إلى الشركاء بالإفراد:

رعايةُ اللَّفظ مع إفادة العموم

إرجاعُ الضَّمير إليها مفردًا لِرعاية لَفْظِهَا، ولَفظُها مفردٌ، وهو من صِيَغِ العُمومِ، كما أنَّ إرجاع ضمير الجمع إليها من قوله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/305، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/215.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/45.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي: 8/571.
(4) ابن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن: 9/102.

ﷻ: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ لرعاية معناها[1]، فأُفرِدَ الضَّميرُ في ﴿يَخۡلُقُ﴾ مراعاةً لِلَّفظِ، ثمَّ جُمِعَ في يُخۡلَقُونَ مُراعاةً للمَعنى[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بجملة صِلَةِ الموصول ﴿لَا يَخۡلُقُ﴾:

بيانُ بُطلان إلهيَّةِ المخلوقات

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ احتُجَّ به على أنَّ العَبدَ غيرُ مُوجِدٍ ولا خالقٍ لأفعاله، خلافًا للمعتزلةِ القائلينَ بخلقِ الإنسانِ أفعالَ نفسِه؛ وذلك لأنَّ الله تعالى أبطلَ إلهيَّةِ الأجسام؛ بسببِ أنَّها لا تخلقُ شَيئًا، وهذا يقتضي أنَّ كلَّ مَن كان خالقًا؛ كان إلهًا، فلو كان العبدُ خالقًا لأفعالِ نَفسِه؛ كان إلهًا، ولَمَّا كان ذلك باطلًا؛ عَلِمۡنا أنَّ العبدَ غيرُ خالقٍ لأفعالِ نَفسِه[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمُضارعيَّة في ﴿يَخۡلُقُ﴾:

تجدُّدُ نفي الخالقيَّة عنهم

نفيُ المضارعِ في قَولِه: ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ نفي الخالقيَّةِ عنهم[4].

وأَصلُ معنى التَّجدُّد الذي يَدُلُّ عليه المسند الفعلي، هو حدوث معنى المُسۡنَدِ للمسند إليه، وأنَّه ليس مجرَّدَ ثبوت وتَقَرُّرٍ، فَيُعلم منه: أنَّهم لا يخلقون في الاستقبال، وأنَّهم ما خلقوا شيئًا في الماضي؛ لأنَّه لو كان الخَلقُ صفةً ثابتة لهم؛ لكان مُتَقَرِّرًا في الماضي والحال والاستقبال[5].

نكتةُ تنكير ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

بيانُ كمال عجزِ المعبودات الباطلة وشِدَّةِ ضَعفها

﴿شَيۡـٔٗا﴾ تنكيرها للتَّعميم، أي: ما لا يخلق شَيۡئًا مِن الأشياء أصلًا مَهۡمَا يكن قليلًا حقيرًا[6]، وفيه إبطالٌ لشركهم وبيان لشدَّة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 133/5.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 282/2، ومحمد رضا، تفسير المنار: 438/9.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15، وسليمان آل الشيخ، التوضيح عن توحيد الخلاق، ص: 68.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 455/5.

عجزِ معبوداتِهم الباطلة وضعفِها من أن يخلقوا شيئًا كبيرًا كان أو صغيرًا عظيمًا كان أوحقيرًا.

فمن حقِّ المعبودِ أن يكون خالقًا لعابدِه[1]، فما بالك إن عجز على خَلْقِ ما هو أهونُ من ذلك.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾:

بيانُ المعنى اللّازم من كون المعبودات غيرَ خالقةٍ

قوله: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَخۡلُقُ﴾، فلمَّا كان يلزم أن يكونَ ما لا يخلق شيئًا مخلوقًا؛ لأنَّه لا يكون عاجزًا بغير قادرٍ أوجده؛ صرَّح به، وعطف عليه[2]، ومن الممكن جدًّا أن تكونَ الواوُ للحال على معنى: والحال أنَّهم يُخلقون.

نكتةُ بناء ﴿يُخۡلَقُونَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله:

الاستغناءُ عن ذكر الفاعل للعلم به

قوله تعالى: ﴿يُخۡلَقُونَ﴾ لَمَّا كان المصنوعُ لا يكونُ صانعًا؛ اكتفى بالبناءِ للمَفعولِ[3]، فعدمُ التَّعرُّضِ لخالقها للإيذان بتَعَيُّنه والاستغناءِ عن ذكره للعلم به[4]، وللانشغال بالفعل عن الفاعل.

فائدةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يُخۡلَقُونَ﴾:

بيانُ تجدُّدِ أعراضِهم وذواتِهم خَلْقًا من بعد خَلق

قوله تعالى: ﴿يُخۡلَقُونَ﴾ أي: متجدِّدًا خَلْقَ أعراضِهم وذواتهم وأمثالِهم[5]، فالتَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يُخۡلَقُونَ﴾؛ لِتصويرِ حُدوثِ خَلْقِهم، وكونِ مِثلِه ممَّا يتجَدَّدُ فيهم وفي أمثالِهم مِن المُشركين، وهذا أسوأُ فضائِحِهم في الشِّركِ[6]، فمعبوداتُ المشركين من دون اللّه إن بقيت في الوجود، فإنَّها تُخْلَقُ خَلْقًا من بعد خَلْقٍ، فهذه الصيغة تدلُّ على التجدُّد المتكرِّر، ومعنى تجدُّد مخلوقيَّتهم: هو أنَّ

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/295.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/192.
(3) البقاعي نظم الدرر: 8/192.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/305.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/192.
(6) محمد رضا، تفسير المنار: 9/438.

الضَّميرَ صادق بأمَّة وجماعة، فالمخلوقيَّة لا تُفارقهم؛ لأنَّها تتجدَّد آنًا فآنًا بازدياد المواليد، وتغيُّر أحوال المواجيد، كما قال تعالى: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزُّمر: 6][1].

دلالةُ الإشارةِ إلى الأصنامِ بضميرِ العُقَلاء في: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾:

إجراءُ اللَّفظ على حسب اعتقادِهم وتَصَوُّرهم

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أشار إلى الأصنام في ﴿يُخْلَقُونَ﴾ بضميرِ العُقَلاءِ مِن قَبيلِ الحكايةِ؛ لاعتقادِ المُشركينَ فيها ما يعتَقِدونَه في العُقَلاءِ، لإجرائهم لها مجرى العقلاءِ وتسميتِهم لها آلهةً[2]، أو لأنَّهم مُختَلِطون بمَن عُبِدَ مِن العقلاءِ؛ كالمَسيحِ وعُزيرٍ[3]، ويمكن أن يكون لإجراء ضمائر العقلاء في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ - وقوله - ﴿يُخْلَقُونَ﴾ وما بعده على الأصنام، وهي جماداتٌ؛ لأنَّهم نُزِّلوا منزلةَ العقلاءِ، بناء على اعتقاد المحجُوجين وتصوُّرهم فيهم[4]؛ لأنَّ الخبرَ عنها بتعظيم المشركين إيَّاها نظيرُ الخبر عن تعظيم النَّاس بعضَهم[5]، كما أنَّهم كانوا يصوِّرونها على صورة من يعقل[6].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكميَّة في وصفِ المعبوداتِ الباطلة:

إظهارُ غاية جهلِ من يَعبدُ غير الله تعالى وإعلان سفاهة عقولهم

وصفُ هذه المعبودات الباطلة بالمخلوقيَّة بعد وصفِها بنفي الخالقيةِ لإبانة كمالِ منافاةِ حالِها لما اعتقدوه في حقِّها وإظهارِ غايةِ جهلِهم فإنَّ إشراكَ ما لا يقدِرُ على خلق شيء ما بخالقه وخالق جميع الأشياء ممَّا لا يمكن أن يسوِّغه من له عقلٌ[7]، ومثل هذا الوصف يُطلق من قبيل الاسْتِعَارَة التَّهكميَّة[8].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/216.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/133.
(3) ابن عادل، تفسير ابن عادل: 9/423، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/216.
(4) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/282، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/216.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 9/102.
(6) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/295.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/305، وابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/573.
(8) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/573.

عَوْدُ ضميرِ الغيبةِ في ﴿وَهُمۡ﴾:

إثباتُ مخلوقيَّةِ الأصنامِ وعابديها

ضميرُ الغيبة في ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ يجوز: أن يكون عائدًا إلى ما عاد إليه ضمير ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ في الآية السَّابقة، أي: والمشركون يُخلقون، ومعنى الحال: زيادةُ تفظيع التَّعجيب من حالهم لإشراكهم باللّه أصنافًا، لا تخلق شيئًا في حال أنَّ المُشركين يُخلَقون يومًا فيومًا، أي: يتجدَّد خلقُهم، والمشركون يُشاهدون الأصنامَ جاثمةً في بيوتها ومواضعها لا تصنع شيئًا، فتكون جملة: وهم يخلقون حالًا من ضمير يشركون.

والمفسِّرون أعادوا ضمير ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ على ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ﴾، أي: الأصنام، ولم يبيِّنوا معنى كون الأصنام مخلوقةً، وهي صورٌ نحتها النَّاس، وليست صورها مخلوقةً للّه، فيتعيَّن أنَّ المُراد أنَّ مادَّتها مخلوقة، وهي الحجارة[1].

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾:

بيانُ عجز الأوثان حتى عن نُصرة عابديها بعد إثبات عجزها عن الخَلْقِ

جملة: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾ عَطْفٌ على جملة: ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ فتكون صلة ثانية[2].

جاءت لإثبات عدم قُدرة هذه المعبودات الباطلةِ على نُصرة عابديها بعد إثبات عجزِها عن خَلقِهم.

دلالةُ تخصيصِ النَّصرِ من جُملة المطلوباتِ المرغوبات:

بيانُ أنَّ النَّصرَ أَشَدُّ مَرغوبٍ لهم، والتَّعريضُ بهزيمتهم من قِبَلِ المسلمين

الظَّاهرُ أنَّ تخصيصَ النَّصرِ من بين الأعمالِ التي يَتَخيَّلُون أن تقومَ بها الأصنامُ مقصودٌ منه تنبيهُ المشركين على انتفاء مقدرةِ الأصنام على نفعِهم؛ إذ كان النَّصرُ أشدَّ مرغوبٍ لهم؛ لأنَّ العربَ كانوا أهلَ غاراتٍ وقتال وتِرات، فالانتصار من أهم الأمور لديهم، وأنَّ اللّه أعلمَ المسلمين بذلك؛ تعريضًا بالبِشارة بأنَّ المشركين سيغلبون[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/216.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/217.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/217.

عودُ الضَّمائرِ في ﴿يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ﴾:

بيانُ كون الأصنامِ لا تستطيع نصرَ عابديها بحال من الأحوال

قوله: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ﴾ ولا يستطيعون لعابديهم معونةً؛ إذا حَزَبَهم أمرٌ مُهِمٌّ وخَطْبٌ مُلِمٌّ، كما لا يستطيعون لأنفسهم نصرًا على من يعتدي عليهم بإهانةٍ لهم، أو أخذِ شيءٍ ممَّا عندهم من طيب أو حُلِيٍّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73][1].

فالضَّميرُ المجرور باللَّام في ﴿لَهُمۡ﴾ عائدٌ إلى المشركين؛ لأنَّ المجرورَ باللَّام بعد فعل الاستطاعة ونحوه هو الذي لأجلِه يقع الفعلُ، مثل: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ [العنكبوت: 17][2].

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

تجدُّدُ عجزِهِمْ عَنْ نُصْرَةِ معبوديهم حالًا ومآلًا

المضارعُ في ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ يَدُلُّ على تجدُّد نَفْيِ استطاعتِهم نصرةَ مَعبوديهم ودوامَ هذا العجزِ[3].

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾:

تقديمُ الأهمِّ في البيان لفتًا للانتباه

قولُه: ﴿لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾ قدَّم المعمولَ، وهو الضَّمير في: ﴿لَهُمۡ﴾ على عامله: ﴿نَصۡرٗا﴾، ودخلت عليه لامُ التَّقوية أو التَّعليل، والغرضُ البلاغيُّ من هذا التَّقديم تنبيهُ المشركين على أنَّ عبادتَهم لشركائهم لا تجلبُ لهم معونةَ النَّصر، إذ تقديمُ الأهمِّ في البيان من وسائل التَّنبيهِ عليه، ولفت النَّظر إليه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿نَصۡرٗا﴾:

عجزُها عن النُّصرة مهما كان مقدارُها وشأنُها

تنكيرُ ﴿نَصۡرٗا﴾ للتَّعميم أو للتَّقليل، أيْ: نصرًا ما، مهما كان مقدارُه بجلب منفعةٍ أو دفعِ مضرَّةٍ[4].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 9/141.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/216.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/216.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/305.

دلالةُ الواو في ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾:

نَفيُ نَصْرِ هذه المعبودات الباطلة لأنفسِها بعد نفي نُصرتها لغيرها إظهارًا لكمال عجزها

لَمَّا كان من لا ينصرُ غيرَهُ قد يَنْصُرُ نفسَه؛ نفى ذلك بقوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ أي: في وقت من الأوقات عندما يصيبُهم بسوء، بل عَبَدَتُهم يدافعون عنهم(1)، فلمَّا كان لا يلزمُ من عدم القُدرةِ على نصرة الآخرين ألَّا يقدرَ على النُّصرة لنفسه(2)؛ جيءَ بهذا العطفِ لنفي هذا أيضًا اهتمامًا بنفي هذا النَّصرِ عنهم من جميعِ الوجوه؛ لأنَّه أدلُّ على عجز تلك الآلهة؛ لأنَّ من يُقَصِّر في نصر غيرِه لا يقصِّرُ في نصرِ نفسِه لو قَدَرَ، فالمعنى: أنَّ الأصنامَ لا ينصرون من يعبدونهم إذا احتاجوا لنَصْرِهِمْ، ولا ينصرون أنفسَهم إن رام أحدٌ الاعتداءَ عليها(3)، ويمكن أن تكونَ واوًا للحال على معنى: والحال أنَّ أنفسهم لا يستطيعون نصْرَها.

دلالةُ التَّعبيرِ عن الأصنام بصيغةِ العُقلاء:

الإشارةُ إلى صفات الأصنام الخسيسةِ المانعة من عبادِتها ولو كانت عاقلةً

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ عبَّرَ بصيغةِ العاقِلِ عن الأصنام؛ إشارةً إلى أنَّهم لو كانوا يَعقِلون، وكانوا بهذه الصِّفاتِ الخَسيسةِ، ما أهَّلُوهم لِأَنْ يكونوا أحبابَهم، فضلًا عن أن يجعَلوهم أربابَهم(4)، فتعبيرُه عنهم بصيغِ العاقل من قبيل الاستعارة التهكُّميَّة.

معنى (لا) ودلالتُها:

في هذا النَّفي بيانٌ لشدَّة عجزِهم، فمن عَجِزَ عن نَصْرِ نفسِه؛ كان عن نصْرِ غيرِه أعجزَ.

نكتةُ تقديم المفعولِ به على الفعل:

الاهتمامُ بنفي نصْرِ النَّفس المُفْضي لنفي نصْرِ الآخرين بطريقِ الأولى

وتقديمُ المَفعولِ في ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ للاهتمامِ بنَفيِ هذا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/193.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/273.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/389.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/192.

النَّصرِ عنهم؛ لأنَّه أدَلُّ على عجزِ تلك الآلهةِ؛ لأنَّ مَن يُقصِّرُ في نَصرِ غيرِه لا يُقصِّرُ في نَصرِ نَفْسِه لو قَدَر[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَنصُرُونَ﴾:

بيانُ عجْزِهم عن إيصالِ المنافعِ على جهةِ الدَّوامِ والاستمرارِ

هذا بيانٌ لعجزهم عن إيصال منفعةٍ ما من المنافع الوجوديَّةِ والعدميَّةِ إلى عَبَدَتِهم وأنفسِهم على جهة الاستمرار بعد بيانِ عجزِهم عن إيصال منفعةِ الوجود إليهم وإلى أنفسِهم أيضًا[2].

دلالةُ وصْفِهم بالمخلوقيَّة في الآية السَّابقة ونفي المنصوريَّةِ هنا:

بيانُ كونِهم مخلوقين لأهليَّتِهم لذلك، وليسوا ناصرينَ لعدمِ أهليَّتِهم

وُصفوا هناك بالمخلوقيَّة عند قوله: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ لكونِهم أهلًا لها، وههنا لم يوصفوا بالمنصوريَّةِ عند قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لها[3].

فائدةُ المجازِ المُرْسَلِ في التَّعبيرِ عن العجز والاحتياجِ بنفي الاستطاعةِ:

بيانُ كمالِ العجزِ وشدَّةِ الاحتياجِ في التَّعبيرِ بنفي الاستطاعةِ

قولُه: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقته اللزوميَّة؛ لأنَّ المذكورَ هو الملزوم (عدم الاستطاعة)، وهو مستعملٌ في لازم معناه في تأكيد العجزِ والاحتياج المنافيَين لاستحقاق الألوهيَّة[4].

بلاغةُ العطفِ ودلالاتُه:

الزِّيادةُ في التَّعجيب من حالِ المشركين وتوجيهُ الخطاب إليهم لدمغِ حُجَّتِهم

قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ يجوزُ أن يكون عطفًا على جملة ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ زيادةً في التَّعجيب من حال المشركين بذكْرِ تَصميمهم على الشِّركِ على ما فيه من سخافةِ العقول ووهنِ الدَّليل، بعد ذكْرِ ما هو كافٍ لتزييفه[5]، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ معطوفةً على جملة الصِّلةِ في قوله: ﴿لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾، فيكونُ ضميرُ الخطاب في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/217.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/305.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/305.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/134.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/217.

﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ خطابًا للمشركين الذين كان الحديثُ عنهم بضمائر الغيبةِ من قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: 190] إلى هنا، فمقتضى الظَّاهر أن يُقال: (وإن يدعوهم إلى الهدى لا يتَّبعوهم)، فيكون العدولُ عن طريق الغيبةِ إلى طريق الخطابِ التفاتًا من الغيبةِ إلى الخطاب توجُّهًا إليهم بالخطاب؛ لأنَّ الخطابَ أوقعُ في الدَّمغ بالحُجَّةِ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾:

الإنباءُ عَن مَزيدِ الاعتناءِ بأمرِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ

الظَّاهرُ أنَّ الخطابَ للكفَّار انتقل من الغَيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفاتِ والتَّوبيخِ على عبادة غيرِ الله، ويدلُّ على أنَّ الخطابَ للكفار قولُه بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾، وضميرُ المفعول عائدٌ على ما عادت عليه هذه الضَّمائر قبلُ، وهو الأصنام، والمعنى: وإن تدعوا هذه الأصنامَ إلى ما هو هُدًى ورشادٌ أو إلى أن يهدوكم، كما تطلبون من الله الهدى والخير، لا يتَّبعوكم على مرادِكم ولا يجيبونكم، أي: ليست فيهم هذه القابليَّةُ؛ لأنَّها جمادٌ لا تعقل[2]، وفيه بيانٌ لعجزِهم عمَّا هو أدنى مِنَ النَّصرِ المنفيِّ عنهم وأيسرُ، وهو مجرَّدُ الدِّلالةِ على المطلوب والإرشادِ إلى طريق حصولِه من غير أن يحصِّلَه الطَّالبُ، فالخطابُ للمشركين بطريق الالتفاتِ المنبِئِ عن مزيد الاعتناءِ بأمرِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ، أي: إنْ تدعوهم - أيُّها المشركون - إلى أن يَهدوكم إلى ما تُحَصِّلونَ به المطالبَ، أو تنجون به عن المكاره[3].

وكان للتَّنبيه بالخطاب ما ليس له بالغَيبة مِنَ التَّعجيب تعجيبًا آخرَ منهم أشدَّ من الأوَّل، وذلك أنَّ معبوداتهم التي أشركوا بها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 248/5.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.

كما أنَّها لا تفعل شيئًا من تلقاء أنفسِها، لا تفعله عند دعاءِ الدَّاعي، ولا تهتدي إليه[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة مع أنَّ دعوتهم محقَّقةٌ:

الإشارةُ إلى سفاهةِ عقول الدَّاعين وتيئيسهم من معبوداتِهم الباطلةِ

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾، أي: وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصِّلون بهِ رغباتِكم، أو تنجون به من المكاره التي تَحيق بكم، لا يتَّبعوكم، فلا يستجيبوا لكم، ولاينفعوكم[2]، فهم في الحالين عديمو النَّفع[3]؛ ولأنَّ دعوتهم لهم محقَّقةٌ كان الجوابُ بعدم استجابة معبوديهم مُتَحَقِّقةً إشارةً إلى سفاهة عقول الدَّاعين، وتيئيسهم من إجابة المدعوِّين.

بيانُ التَّرقي في الحوار معهم لدحضِ حُجَجِهم

التَّرقِّي في الحوار على خمسِ مراحلَ: أوَّلًا: لا يَخلقون، ثانيًا: هم يُخلقون، ثالثًا: لا ينصرونكم، ورابعًا: ولا ينصرون أنفسَهم، ثم تأتي المرحلةُ الخامسة في قوله الحقِّ:[4]﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾:

﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾، أي: وإن تدعوا - أيُّها المُشركون - أصنامكم دعاءً مُستمرًّا مُتجدِّدًا[5].

دلالةُ عودِ الضَّمائر في ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾:

بيانُ عَودِها على الأصنام مع صِحَّة عودها على عَبَدَتها من المشركين تنويعًا للمعاني

الضَّميرُ (هم) عائدٌ على الأصنام، وهو الأشهر في عباراتِ المفسِّرين، وقيل: عائدٌ على الكفَّار، فإن قلنا: هم الأصنامُ، فالمعنى: إن تدعوهم إلى ما هو هُدًى ليهدوكم إليه، ويدلُّوكم عليه، كما تطلبون مِنَ اللهِ الخيرَ والهُدى، لا يتَّبعونكم إلى ما تريدونَ منهم، وإن قلنا: هم المشركونَ، فالمعنى: وإن تدعو - أيُّها الرَّسول والمؤمنون

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/193، والقنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 2/634.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 9/141.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/341، والزمخشري، الكشاف: 2/188، وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: 9/204.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4521.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/193.

- المشركين إلى الهدى لا يتَّبعوكم[1]، فضميرُ الخطابِ المرفوع في ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ على هذا التقديرِ موجَّهٌ إلى المسلمين مع الرَّسول ﷺ وضميرُ جمعِ الغائبِ المنصوب عائدٌ إلى المشركين، كما عادَ ضميرُ ﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: 191][2].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾:

عـدمُ استجابتهم للخيرِ من جميع وجوهِهِ

يحتمل أن تكونَ (الـ) عهديَّةً يُرادُ بها دعوةُ نبيِّهم، ويحتمل أن تكون جنسيَّةً استغراقيَّةً تدلُّ على عدم استجابتِهم للهدى كلِّهِ أيًّا كان جنسُه ومصدرُه، والمقصودُ من ذِكره أنَّهم لا يستجيبون إذا دعوتموهم إلى ما فيهِ خيرُهم، فيُعلم أنَّهم لو دَعَوْهُم إلى غير ذلك؛ لكان عدمُ اتِّباعهم دعوتهم أولى[3].

معنى (لا) في ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾:

بيانُ كونِ هذه المعبوداتِ الباطلة أوضعَ وأخسَّ من عابديها

(لا): نافية، وغايةٌ في نفي الخير عن هذه المعبودات من حيث إنَّ اتِّباع الهوى عند الدُّعاء مقدورٌ لعابديها غيرُ مقدور لها، فهي أوضعُ رُتْبَةً من عابديها[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾:

نفيُ الاتِّباع على سبيل التَّجدُّد والاستمرار

التَّعبيرُ بـ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ عن طاعتهم لكم، حيث شبَّه الطَّاعةَ بالاتِّباع بجامع الملازمة وعدم المفارقة، والمضارعُ فيها للتَّجدُّد الاستمراريِّ.

بلاغةُ توجيهِ القراءات المتواترةِ في ﴿يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾:

المبالغةُ في نفي الاقتداءِ بهم، فلا يتصوَّر منها قصدُ التَّبع فضلًا عن إيجادِهِ ونفي اقتفاءِ آثارهم

اختلفَ القرَّاء في: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ هُنَا، وفي الشُّعراء ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: 224]، فقرأ نافعٌ بإسكان التَّاءِ وفتح الباءِ فيهما، وقرأ الباقُونَ بفتح التَّاءِ مُشَدَّدَةً وكَسْرِ الباءِ في المَوْضِعَيْنِ[5].

(1) الرسعني، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: 340/2.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(4) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 717/1، ودرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 511/3.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 274/2.

فـ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ بالتَّشديد مِن اتَّبع، ومعناهُ: لا يقتدوا بكم في ذلك الهُدى الذي دعوتموهم إليه، ولو بالغَتُم في الاستتباع، جاء بصيغة الافتعال إشارةً إلى أنَّهُ لا يُتصوَّر منهُ قصدُ التَّبع فضلًا عن إيجاده[1].

و﴿لَا يَتۡبَعُوكُمۡۚ﴾ بالتَّخفيف من (تَبِعَ)، ومعناه: لا يَتۡبَعُوا آثاركم[2]، فَتَبِعَهُ: اقتفى أثره، واتَّبعه: اقتدى به[3].

الموقعُ البيانيُّ لجملة ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾:

استئنافٌ مقرِّرٌ ومؤكِّدٌ لمضمونِ ما قبلَه، ومُبيِّنٌ لكيفيَّة عدم الاتِّباع، أي: مستوٍ عليكم في عدم الإفادةِ دُعَاؤُكم لهم وسكوتُكم البحثُ، فإنَّه لا يتغيَّر حالُكم في الحالين، كما لا يتغيَّر حالُهم بحكم الجَماديَّة[4]، فكيف يُعۡبَدُ من هذه حاله[5]؟ فجملة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾ مُؤَكِّدَةٌ لجملةِ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، ولذلك فُصِلت[6].

معنى ﴿سَوَآءٌ﴾ وسِرُّ الاستئنافِ به:

بيانُ عدمِ تغيُّرِ الحُكمِ بتغيُّرِ الأحوال

(سواء) اسمُ للشَّيء المساوي غيرَه، أي: ليس أولى منه في المعنى المسوقِ له الكلامُ، والهمزة التي بعد سواءٍ، يقال لها: همزةُ التَّسويةِ، وأصلُها همزة الاستفهام، استُعمِلت في التَّسوية، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [سورة البقرة: 6][7]، والمعنى: أي: مستوٍ عليكم في عدم الإفادةِ دعاؤكم لهم وسكوتُكم، فإنَّه لا يتغيَّر حالكم في الحالين، كما لا يتغيَّر حالُهم بحكم الجماديَّة[8].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 248/5، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 287/10.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 383/3.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 248/5.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(8) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 456/5.

نكتةُ تعديةِ ﴿سَوَآءٌ﴾ بـ(على):

تيئيس المخاطَبين مِن استجابةِ المدعوِّين

(على) في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ للاستعلاءِ المجازي، وهي بمعنى العنديَّة، أي: سواءٌ عندهم، وإنَّما جُعِل الأمران سواءً على المخاطَبين، ولم يُجعلا سواءً على المدعوِّين، فلم يقل: سواءٌ عليهم، وإن كان ذلك أيضًا سواءً عليهم؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ الكلام هو تأييسُ المُخاطَبين مِن استجابة المدعوِّين إلى ما يدعونهم إليه لا الإخبارُ.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي في ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾:

تعيُّن جعلِ التَّسوية لمن يتأتَّى له الخِطابُ، ويُنتظَر منه الجوابُ

قولُهُ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ تَسْوِيَة لِلحالَين، وإن كان المعنيان متلازِمَين في المُخاطَبين والمَدْعُوِّين، كما أنَّهما في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: 6] متلازمان، فإنَّ الإنذارَ وعدمَه سواءٌ على المشركين، وعلى المؤمنين، ولكنَّ الغرضَ في سورة البقرة بيانُ انعدام انتفاعهم بالهدى، وهذا هو القانونُ للتَّفرقة بَيْنَ ما يَصِحُّ أن يُسنَدَ فيه فعلُ التَّسويةِ إلى جانبَين، وبين ما يَتَعَيَّنُ أن يُسند فيه إلى جانبٍ واحدٍ، إذا كانت التَّسويةُ لا تهمُّ إلا جانبًا واحدًا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطُّور: 16]، فإنَّه يتعيَّن أن تُجعلَ التَّسويةُ بالنِّسبة للمخاطَبين، ولا يَحسُنُ أن يُقال: سواءٌ علينا، وكقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ [إبراهيم: 21] فإنَّه يتعيَّن أن تكونَ التَّسويةُ بالنِّسبةِ إلى المُتكلِّمين(1).

غرضُ الاستفهامِ في ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى تشوُّفِ السَّامع إلى ما بعدَ التَّسوية

لَمَّا كان السَّواءُ لا يكونُ إلَّا بين أمرين؛ تَشَوَّفَ السَّامعُ إليهما، فقال: ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾، أي: وجِدَ منكم ذلك الدُّعاءُ(2).

بلاغةُ العدولِ من الفعليَّة إلى الاسميَّة:

في: ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ في معنى الفعليَّةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8.

المبالغةُ في عدم إفادةِ الدُّعاء من حيثُ إنَّه مسوًّى بـالـثَّـبـاتِ على الصُّمات

معطوفةٌ على الفعليَّةِ ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾؛ لأنَّها في قوَّة أمْ صَمَتُّم، فعُدِل عنها للمبالغةِ في عدم إفادةِ الدُّعاء ببيان مساواتِه للسُّكوت الدَّائمِ المستمرِّ[1]، فيُفيدُ بأنَّهم صامتون دائمًا على الدُّعاءِ إليهم[2].

وكان الظَّاهرُ الإتيانَ بالفعل فيما بعد ﴿أَمْ﴾؛ لأنَّ ما في حيز همزة التَّسوية مؤوَّلٌ بالمصدر، لكنَّه عدلَ عن ذلك للإيذانِ بأنَّ إحداثَ الدَّعوةِ مُقابلٌ باستمرار الصُّمَاتِ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى، وقيل: إنَّ الاسميَّة بمعنى الفعليَّةِ، وإنَّما عدل عنها؛ لأنَّها رأس فاصلة، وفيه أنَّه لو قيل: تصمتون؛ تَمَّ المُرادُ[3].

وإنَّما لم يقل: أم صمتم؛ للمبالغة في عدم إفادة الدُّعاء من حيثُ إنَّه مسوًّى بالثَّبات على الصُّمات، أو لأنَّهم ما كانوا يدعونها لحوائجِهم، فكأنَّه قيل: سواءٌ عليكم إحداثُكم دعاءَهم واستمرارُكم[4].

بلاغةُ عطفِ الجُملةِ الاسميَّة على الفعليَّةِ:

الإشارةُ إلى أنَّهم لا يدعونهم في وقتِ الشَّدائد

عَطْفُ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ على الفعليَّةِ ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ لفائدةٍ وحِكمةٍ، وهي أنَّ صيغةَ الفِعلِ مُشعِرةٌ بالتَّجَدُّدِ والحُدوثِ حالًا بعد حالٍ، وصيغةُ الاسم مُشعِرةٌ بالدَّوام والثَّباتِ والاستمرارِ، فهؤلاءِ المُشركونَ كانوا إذا وقَعوا في مُهِمٍّ وفي معضلةٍ؛ تضرَّعوا إلى تلك الأصنام، وإذا لم تَحدُثْ تلك الواقعةُ بَقُوا ساكِتينَ صامِتينَ، فقِيل لهم: لا فرقَ بينَ إحداثِكم دعاءَهم، وبينَ أن تستمرُّوا على صَمتِكم وسُكوتِكم[5].

فعُطِفَ بالاسميَّة إشارةً إلى أنَّهم لا يدعونهم في وقت الشَّدائد، بل يدعون اللَّه، فقال: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، أي: عن ذلك على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 273/2.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 456/5.
(4) الخفاجي، حاشية الشهاب: 420/4، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 346/4.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15.

الدَّوام على عادتِكم في الإعراضِ عن دعائِهم في أوقاتِ الملِمَّات، فالذين يدعون مُعتقديهم في وقتِ الضَّرورات أقبحُ حالًا في ذلك من المشركين[1].

بلاغةُ تخريجِ الكلامِ على الاحتباكِ بين دلالةِ الفعل والاسم:

دلالةُ الفعلِ الأوَّلِ على حذْفِ مثلِه بعد ذلك، ودلالةُ الاسمِ الثَّاني على حذْفِ مثلِه الأوَّلِ

ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ من الاحتباك، فيكون نظمُها: أدعوتموهم مرَّةً، أو أنتم داعوهم دائمًا، أم صَمَتُّم عن دعائِهم في وقتٍ ما، أم أنتم صامتون دائمًا عن دعائِهم، حالُكم في كلِّ هذه الأجوبة سواءٌ في عدم الإجابةِ، لا اختلافَ فيه بوجهٍ، فدلَّ بالفعل أوَّلًا على حذْفِ مِثْلِه ثانيًا، وبالاسم ثانيًا على حذْفِ مثلِه أولًا[2].

بلاغةُ البديعِ مِن خلالِ المقابلاتِ في الآياتِ:

بيانُ التَّرقِّي في الحوارِ معهم دحضٌ لحُجَجِهم وإبطالٌ لشِرْكِهم

في هذه المتقابلات: ﴿لَا يَخۡلُقُ﴾ و﴿يُخۡلَقُونَ﴾ و﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ و﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ و﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾ ﴿أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ نجدُ التَّرقِّي بذكرها في الحوار على خمسِ مراحلَ: أوَّلًا: لا يَخلقون، ثانيًا: هم يُخلقون، ثالثًا: لا يستطيعون لهم نصرًا، ورابعًا: ولا ينصرون أنفسَهم، ثُمَّ تأتي المرحلةُ الخامسةُ في قوله الحقِّ:[3]﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ في حالين: حال الدَّعوة وحال الصَّمت، فأحدثت هذه التقابلاتُ ترقِّيًا بديعًا في نقض ألوهيَّة أصنامِهم وإبطالِ عبادتِها، فالقضيَّةُ الأولى أنَّها لا تخلُق، والثَّانية أن تكون مخلوقةً بالضَّرورة؛ لأنَّها لا تخلقُ، وإذا كانت مخلوقةً؛ فهي عاجزةٌ، ومن الجائز على العاجِز أنَّه لا يقدرُ أن ينتصرَ لغيرِه؛ لأنَّه ضعيفٌ، ثُمَّ إنَّها أعجزُ من ذلك، فهي لا تنتصرُ لنفسِها، ومع ذلك إن أردت أن تدعوها إلى شيءٍ؛ فلا تُقْبِل،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 219/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4521/8.

ولا تَستجيب لك حالَ دعوتِك، وحال صَمْتِك، فهي مخلوقاتٌ عاجزةٌ صمَّاءُ بكماءُ أعجزُ من عابديها، وأخسُّ صِفةً من مُعظِّميها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّمتُ والسُّكوتُ:

السُّكوتُ تركُ الكلامِ مع القدرةِ عليه والصَّمتُ أعمُّ

السُّكوتُ: هو تركُ التَّكلُّم مع القدرة عليه[1]، وبهذا القيدِ الأخير يُفارق الصَّمتَ؛ فإنَّ القُدْرَةَ على التَّكلُّم غيرُ مُعتبرةٍ فيه، كما أنَّ الصَّمتَ يُراعى فيه الطُّولُ النِّسبي، فمن ضمَّ شفتيه آنًا يكون ساكتًا، ولا يكون صامتًا إلَّا إذا طالت مُدَّةُ الضَّمِّ، كما أنَّ السُّكوتَ إمساكٌ عن الكلام حقًّا؛ كان أو باطلًا، أمَّا الصَّمتُ؛ فهو إمساكٌ عن قولِ الباطلِ دون الحقِّ.

ولذا يكون الصَّمتُ أبلغَ من السُّكوت؛ لأنَّه قد يُستعمل فيما لا قوَّة له للنُّطق، وفيما له قوَّةُ النُّطقِ؛ ولهذا قيل لما لا نطق له: الصَّامتُ والمُصمَت، والسُّكوت يقال لما له نُطْقٌ، فيُترَك استعمالُه[2].

(1) الجرجاني، التعريفات، ص: 120، والكفوي، الكليات، ص: 509.

(2) الزبيدي، تاج العروس: (سكت)، والهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: 3038/7.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾ [الأعراف: 194]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تأكيدُ ما سبقَ مِنَ البيانِ وتعليلُ ما ذكَرَ من عجزِ الأوثانِ

هذه الجملةُ ورَدَت على سبيلِ التَّوكيدِ لِما قَبلَها في انتفاءِ كَونِ هذه الأصنامِ قادرةً على شيءٍ مِن نَفعٍ أو ضَرٍّ[1]، وأيضًا ورَدَت بيانًا وتعليلًا لِجُملةِ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾، أي: لأنَّهم عبادٌ مخلوقونَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدۡعُونَ﴾: مِنَ الدُّعاءِ بمعنى العبادةِ[3]، وأصلُ الدُّعاءِ أَنْ تُميلَ الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك، تقول: دَعوْتُ أدعو دُعاءً[4]، ومعنى (دُعاؤهم إيَّاها): عبادتُهم لها، وتسميتُهم الأصنامَ آلهةً[5].

2) ﴿عِبَادٌ﴾: جمع عبدٍ، والعينُ والباءُ والدَّالُ تدورُ أكثرُ تصاريفِها على لِينٍ وَذُلٍّ[6]، ومِنْهُ قولُهم: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّلٌ من كثرةِ وطءِ الأقدامِ عَلَيْهِ، قال طَرَفَةُ:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ *** وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[7]

والمعنى هُنا: مُذلَّلون ومُسخَّرون لا يستطيعون دفْعَ شيءٍ عن أنفسِهم[8].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 249/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 220/9 - 221.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (دعا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: 279/2.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 342/7، والنيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 352/1.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عبد).
(7) مهدي محمد ناصر الدِّين، شرح ديوان طرفة، ص: 20.
(8) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4524/8.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ الذين تعبدونهم - أيُّها المشركون - من دون اللّهِ هم مخلوقون للّهِ، مملوكون خاضعون له، كما أنَّكم مملوكون لربِّكم، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنَّها تستحقُّ من العبادة شيئًا، فادعوهم، فليستجيبوا لكم، فإنِ استجابوا لكم، وحصَّلوا مطلوبَكم، وإلَّا تبيَّن أنَّكم كاذبون مُفترون على اللّهِ أعظمَ الفرية[1].

الأوثانُ مخلوقاتٌ مُسَخَّرَةٌ مملوكةٌ كحال عابديها من المخلوقاتِ في الذُّلِّ والضَّعْفِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الموقعُ البيانيُّ لهذه الآية من الآيات السَّابقة:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقل به إلى مُخاطبةِ المُشرِكينَ في تحقير شأن أصنامِهم عندهم، أي: إنَّ هذه الأصنامَ مخلوقةٌ مُحدثة، إذ هي أجسامٌ وأجرام، فهي متعبَّدةٌ، أي: مُتَمَلَّكة[2]، ولذلك صُدِّرَ بِحَرفِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ يُنكِرونَ مساواةَ الأصنامِ إيَّاهم في العبوديَّةِ[3]، فكرَّر بهذا الاستئنافِ تبكيتَهم باتِّباعِهم في أسلوبٍ آخرَ أوضحَ ممَّا قبلَهُ في تبيين النَّقائصِ والتَّنبيهِ على المعايب مُلْجىءٍ إلى الاعتراف أو التَّصريح بالعناد أو الجنون، فقال مؤكِّدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾، أي: - أيُّها المشركون - دعاءَ عبادةٍ ملازِمين لذلك[4].

استئنافُ مُخاطَبةِ المشركين بتحقير شأن أصنامهم

بلاغةُ تتابعِ المؤكِّدات في الآية:

هذه الجملةُ على سبيلِ التَّوكيد لِمَا قبلَها في انتفاء كون هذه الأصنام قادرةً على شيءٍ من نفعٍ أو ضُرٍّ[5]، ولهذا صدِّرت بأمِّ أدوات التَّوكيد

التَّوكيدُ على انتفاءِ كَوْنِ الأصنامِ قادرةً على شيءٍ من نفعٍ أو ضُرٍّ

(1) مجموعة من المؤلفين، التفسير الميسّر: 175/1، ومجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 239.
(2) ابن عطية الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 488/2، وأبو منصور الثعالبي، الجواهر الحسان: 105/3.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 220/9 - 221.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 249/5.

﴿إِنَّ﴾، ثمَّ بالجملة الاسميَّة، وبالموصول الاسميِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الواقع اسمًا لها، والذي احتاجَ إلى جملةِ صلةِ الموصولِ، والتي فيها ضميرٌ يعود عليه، وبذلك يكون قد تكرَّرَ ذكرُه مرَّتيْن، وإنَّما ساغَ ذلك كُلُّه؛ لأنَّهم لمَّا اعتقدوا ألوهيَّتها؛ لَزِمَهُم كونُها حيَّةً عاقلة، وإنَّ كانت في الواقع خلاف ذلك، ولكن وردت الألفاظُ على مُقتضى اعتقادِهم[1].

فائدةُ التَّعريفِ بالاسم الموصولِ وموقع صِلَتِهِ:

تنبيهُ المُخاطَبين على خطئِهم في دعاءِ الأَصْنامِ من دون الله

المُراد بـ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الأصنامُ، فتعريفُها بالموصول لذمِّها ولتنبيه المُخاطَبين على خطأِ رأيهم في دعائِهم إيَّاها من دون اللّهِ، في حين هي ليست أهلًا لذلك، فهذا الموصولُ كالموصولِ في قول الشَّاعر:

إِنَّ الذين تَرَوْنَهُمْ إِخْوانَكُمْ *** يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا[2]

نكتةُ إطلاقِ الدُّعاء على العبادة:

التَّنبيهُ على عِظَمِ شأن الدُّعاء، والإشارةُ إلى عدم صِحَّةِ عبادة من لا يَصِحُّ أن يُدعى

الدُّعاءُ هو النِّداء لدفع الضُّرِّ وجلب النَّفع الذي يُوَجَّه إلى من يعتقدُ الدَّاعي أنَّ له سُلطانًا يمكِّنه أن يجيبَهُ إلى ما طلبه، إمَّا بذاتهِ وإما بحملهِ الرَّبَّ الخالقَ على ذلك[3].

والدُّعاءُ هو العبادة[4]، ورُكنها الأعظم، فلا يَصِحُّ توحيدُ أحدٍ للّه إلَّا بدعائِه وحدَهُ، وعَدَمِ دعاءِ أحدٍ معه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجنّ: 18]، والمفسِّرون يقولون: إنَّ الدُّعاءَ في

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 512/3.
(2) البَيْت لعبدة بن الطَّبِيب من قصيدة من الكَامِل يعظ فِيهَا بنيه ويوصيهم بِمَا هُوَ المرضي شرعًا، يُنظر: أبو الفتح العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: 100/1، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 220/9.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 143/9.
(4) أخرج أبو داود والترمذي من حديث النعمان ابن بشير أن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»، ثمَّ قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]. يُنظر: الترمذي، سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب تفسير سورة البقرة، الحديث رقم: (2969)، وأبو داود، سنن أبي داود، أبواب فضائل القرآن، باب الدعاء، الحديث رقم: (1479).

مثلِ هذه الآياتِ معناهُ العبادة، من باب تسمية الكُلِّ باسم الجُزْءِ، فصاروا يُفسِّرون ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبُدون[1]، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60] فسمَّى الدُّعاءَ عبادةً تنبيهًا على عِظَم شأنه، وإشَارَةً إلى أنَّه لا تَصِحُّ عبادةُ من ليس فيه قابليَّةٌ أن يُدعى، والحاصل أنَّ الدُّعاء يُلازم المعبودَ[2]، فالدُّعاء بمعنى العِبادة تسمية لها بجزئها[3].

معنى (من) في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ سفولِ رُتبتِهم ونزولِ مرتبتِهم من أن يكونوا أهلًا للدُّعاء

﴿مِن﴾ ابتدائيَّةٌ، فلمَّا كان دعاؤهم لهم، إنَّما هو على سبيل الإشراك؛ قال مُشيرًا إلى سفول رُتْبَتِهم بإثبات الجارِّ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4].

معنى (دون) وإضافتها إلى اسم الجلالة:

بيانُ حقارةِ هذهِ الأَصنامِ من أَنْ تُسَوَّى باللهِ العظيم

(دون): نقيضُ فوق، وهو ظرفٌ يَدُلُّ على التَّقصيرِ عن الغاية[5]، وصفُوا بِهِ مَا لَيْسَ برفيعٍ[6]، فَقَالُوا: رجلٌ دونٌ، وثوبٌ دُونٌ، وهَذَا دُونك في التَّحقيرِ، ويقالُ: دُونَك زَيْدٌ في المَنْزِلَةِ والقُرْبِ[7]، فهذه الأصنامُ أخسُّ منزلةً، وأحقرُ قدرًا من أن تُدعى، أو تُسوَّى بالله العظيم الذي له صفاتُ الكمالِ والعظمة والجلال[8].

بلاغةُ المجازِ في وصف معبوداتِهم الباطلةِ بالعباد:

بيانُ كونِهَا مملوكةً مُسخَّرةً مذلَّلةً لا مالكة

أُطْلِقَ على هذه المعبودات الباطلة عبادًا من حيث إنَّها مَملوكةٌ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/440.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/195.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/134.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/195.
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دون).
(6) ابن سيده، المخصص: 4/234.
(7) الزبيدي، تاج العروس: (دون).
(8) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/195.

مُسَخَّرة[1]، والعبدُ أصله المملوك، ضِدُّ الحُرِّ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ [البقرة: 178]، وقد أُطْلِقَ في اللِّسان على المخلوق، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: 93][2].

فمن حيثُ إنَّها مَملوكةٌ مُسخَّرة، أُطلق عليها لفظُ العباد، فهذا بيانٌ جامعٌ في اسْتِعَارَةِ لفظ العبد للصَّنم حيث شبَّه الصَّنَمَ بالعبد المملوكِ المسخَّرِ للمولى، فاسْتُعيرَ لفظُ المُشبَّهِ بجامع المملوكيَّةِ والمُسَخَّريَّة[3].

ويحتمل أن تكون استعارةُ لفظ العبد على سبيل التَّهكُّم[4]، قال صاحب الكَشَّاف: "قوله: ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ استهزاءٌ بهم، أي: قُصارى أمرِهم أن يكونوا أحياءً عُقلاءَ، فإنْ ثَبَتَ ذلك؛ فهم عبادٌ أمثالكم لا تَفاضُلَ بينكم، ثمَّ أبطلَ أن يكونوا عبادًا أمثالَهم، فقال: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]"[5].

والأظهرُ أن يكونَ إطلاقُ العبادِ عليهم مجازًا بعلاقة الإطلاقِ عن التَّقييد روعي في حسنِهِ المشاكَلَةُ التَّقديريَّةُ؛ لأنَّه لما ماثلَهم بالمُخاطَبين في المخلوقيَّة، وكان المخاطَبون عبادَ اللهِ أطلقَ العبادَ على مماثليهم مشاكلةً[6]، فهو مجازٌ مرسلٌ بعلاقة الإطلاق والتَّقييد؛ لأنَّ العبادَ خَلْقٌ يعقلون، فجُرِّد عن وصف العقلِ - وهو قيده الأصلي - وأُطلِقَ على مُطْلَقِ المخلوق.

سِرُّ وصف الأصنام بضمائر العُقلاء:

بيانُ تنزيلِهم لها منزلةَ العُقلاءِ وصفًا واعتقادًا، والتَّهكُّم بهم في ذلك

قد يسأل سائلٌ كيف يحسنُ وصفُها بأنَّها عبادٌ مع أنَّها جمادات؟ وجوابُه من وجوهٍ: الأوَّل: أنَّ المشركين لمَّا ادَّعوا أنَّها تَضُرُّ وتنفعُ، وجبَ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 46/3.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(3) ابن التمجيد، حاشيته على البيضاوي: 575/8.
(4) ابن التمجيد، حاشيته على البيضاوي: 575/8.
(5) الزمخشري، الكشاف: 189/2.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.

أن يعتقدوا فيها كونها عاقلةً فاهمة، فلا جرم وَردت هذه الألفاظُ على وفقِ معتقداتِهم، ولذلك قال: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، ولم يقل: فادعوهم؛ فليستجبْنَ لكم، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، ولم يقل: التي، فعبَّرَ عنها بضمائرِ العُقَلاءِ؛ لأنَّ الكُفَّارَ يَصِفونَها بصفاتِ مَن هو خيرٌ من مُطلَقِ العُقَلاءِ، وأنَّها مَعبوداتٌ، وأنَّها تشفَعُ، وتُقرِّبُ إلى اللّهِ زُلفَى، فبهذا الاعتبارِ أجرى عليها ضمائرَ العُقَلاءِ[1].

الثَّاني: أنَّ هذا اللَّغوَ أُورِدَ في معرضِ الاستهزاءِ بهم، أي: قُصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عُقلاء، فإن ثبت ذلك؛ فهم عبادٌ أمثالكم، ولا فضل لهم عليكم، فلِمَ جعلتم أنفسَكم عبيدًا، وجعلتموها آلهة وأربابًا؟[2].

ويحتمل أنَّهم لَّما نحتوها بصور الأناسيِّ، ولَّما كان يُطلقُ العبدُ على النَّاس، والمشهورُ أنَّه لا يُطلَق إلا على المخلوقاتِ من الآدميِّين، فيكون إطلاقُ العباد على الأصنام كإطلاق ضَمير جمع العقلاء عليها بناءً على الشَّائع في استعمال العرب يومئذٍ من الإطلاق[3].

نُكْتَةُ النَّكرةِ بقوله: ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾:

بيانُ وجهِ المماثلةِ في التَّسخيرِ والمملوكيَّة دون الحيوانيَّةِ مبالغةٌ في نفي استحقاقِها للعبادة

تنكيرُ ﴿عِبَادٌ﴾ لتقليل شأن هذه المعبوداتِ وذمِّها، ووصفَها بأنَّها ﴿أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾، أي: إنَّها مملوكةٌ أمثالكم، وقيل: أمثالكم في التَّسخير، أي: إنَّهم مسخَّرون مذلَّلون لما أريد منهم[4]، فوجهُ الشَّبه المُماثلةُ بينكم من جهةِ كونِهَا مملوكةً له تَعَالَى، ومسخَّرةً لا من جهةِ الحيوانيّة فضلًا عن الإِنْسَانيَّة[5]، فهم أمثالُكم في العجزِ عن كلِّ شيءٍ لا سيَّما عمَّا وقعَ بهِ التَّحدِّي من معارضةِ القرآن وغيرِها، وأنتم تزيدون عليها بالحياةِ والعقل، والمعبودُ لا يَصِحُّ أن يكون مثل

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 425/4.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 46/3.
(4) البغوي، تفسير البغوي: 259/2.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 575/8.

العابدِ، فكيف إذا كان دونه[1]؛ ولمَّا كانوا لا يُسَلِّمونَ أنَّهم أمثالهم، فلا يَسْتَحِقُّون عبادتَكم، كما لا يَسْتَحِقُّ بعضُكم عبادةَ بعضٍ[2].

وهذه المماثلةُ إنَّما تظهرُ فيمن يُدْعَى من دونِ اللّهِ تعالى مِنَ الملائكةِ أو الأنبياءِ أو الصُّلحاء، دونَ ما اتُّخِذَ لهم تذكيرًا بهم من التَّماثيل أو القبور أو الأصنام، وقد صار بعضُ هذه المذكِّرات يُقصَد لذاته، جهلًا بما كانت اتُّخِذَتْ لأَجلِه، وفي هذه الحالة تدخل في المماثلةِ بطريقةِ تنزيلها منزلةَ ما وُضِعَتْ لأجله، كأنَّه يقول: إنَّ قُصارى أمرِها أن تكونَ مِنَ الأحياء العُقلاءِ أمثالِكم، فكيف ترفعونَها عن هذهِ المثليَّةِ إلى مقام الرُّبوبيَّة[3]؟

معنى الفاءِ في ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ ودلالتُها:

التَّسبيبُ عن اعتقادِهم في الأصنام أمرهم بدعائهم لبيان دعوى المثليَّةِ بل الدُّونيَّة

الفاء فصيحةٌ، أي: إذا صحَّ ذلك، وهو لم يَصِحَّ إلَّا في اعتقادهم وعُرفهم، فادعوهم[4]، في رفْعِ ما يصيبكم من ضَرٍّ، أو في جلب ما أنتم في حاجةٍ إليه من نفْعٍ[5]، وهذه الفاءُ تُشْبِهُ عمل الفاء الواقعة في جواب الشَّرط؛ لأنَّ نظْمَ الجملةِ مشعرٌ بالشرطيَّةِ، والتَّقديرُ: إن كانوا آلهةً؛ فادعوهم، وفرَّع على المماثلة أَمْرَ التَّعجيزِ بقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ باعتبار ما تفرَّع عليه من قوله: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ لكم المُضَمَّنِ إجابَةَ الأصنامِ إيَّاهم؛ لأنَّ نفسَ الدُّعاء مُمكنٌ، ولكنَّ استجابتَهُ لهم ليست ممكنةً، فإذا دَعَوْهُم، فلم يستجيبوا لهم؛ تَبَيَّنَ عجزُ الآلهةِ عن الاستجابةِ لهم[6]، فسبَّبَ عن ذلك أمرهم بدعائِهم لبيان دعوى المثليَّة بل الدُّونيَّة، فقال: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ أي: إلى شيءٍ منَ الأشياء[7].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 46/3.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 527/9.
(4) درويش، عراب القرآن الكريم وبيانه: 512/3.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 456/5.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.

تحقيقُ مضمونِ التَّبكيت والتَّعجيز

دلالةُ الأمر في ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾:

﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ أمرُ تحدٍّ خاطبَ اللّهُ ﷻ به المشركين للتَّعجيز والتبكيت، فإنَّ الدُّعاء وإن كان ممكنًا في نفسِه، لكن مع استجابتِهم محالٌ[1]، فهو أمرٌ لتحقيق مَضمونِ ما قَبلَه بتَعجيزِهم وتَبكيتِهم[2].

فإنَّ شركاءكم لن يستجيبوا لدعائِكم مهما دعوتموهم، إذ هم غير مُمكَّنين من ذلك ولو رغبوا فيه.

أمَّا الأوثانُ والأصنام؛ فأمرُها ظاهر؛ لأنَّها قِطَعٌ جوامدُ مِن عناصرِ الأرض، وأمَّا المرموزُ إليهم بالأوثان والأصنام، فإنْ كانوا من شياطين الجنّ، فَإنَّ اللّه مانعُهم بالقهر عن أن يكون لهم سلطان، إلَّا على منِ اتَّبعهم من الغاوين، فلا يزيدون عابديهم إلَّا توريطًا في الشَّرِّ ورهقًا في العمل، ولا ينفعونهم في نصْرٍ، ولا تأييد ضدَّ المؤمنين، ولا يغيِّرون فيهم من قضاء اللّه شيئًا، ولا يجلبون لهم نفعًا، ولا يدفعون عنهم ضرًّا.

وإن كانوا ملائكةً، فإنَّهم يمقتون عابديهم، ولا يعصون اللّهَ ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون من ربِّهم، وإن كانوا موتى؛ فقد انقطعت كلُّ أعمالهم، والصَّالحون منهم يتبرَّؤون من عابديهم يوم الدِّين.

تخلُّف الاستجابةِ من المعبودات الباطلةِ وسرعتها من الإله الحقِّ

معنى الفاءِ في ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾:

قولُه: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ الفاءُ عاطفةٌ[3]، ولمَّا كان الإلهُ الحقُّ يجيب وليَّه عند التَّحدي من غير تخلُّف، أشار إلى ذلك بالرَّبط بالفاء، فقال: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، أي: يُوجِدُوا لكم إجابةً بيِّنةً في الإتيان بسورة تماثلُ شيئًا من القرآن أو في أيِّ شيءٍ مِنَ المنافع[4]، فإنِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/575.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/306، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/222.

(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/512.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/195.

استجابوا لكم، وحصّلوا مطلوبَكم، وإلا تَبَيَّنَ أنَّكم كاذبون في هذه الدَّعوى، مُفترون على اللّه أعظمَ الفرية[1].

دلالةُ الأمر في: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾:

التَّحدي والتَّعجيزُ للأصنام وداعيها

الأمرُ في قوله: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ أمرُ تعجيز للأصنام، وهو أمرُ الغائب، فإنَّ طريق أمر الغائب هو الأمر، ومعنى توجيهِ أمر الغائب السَّامعِ: أنَّه مأمورٌ بأن يبلِّغ الأمرَ للغائب، وهذا أيضًا كنايةٌ عن عَجْزِ الأصنام عن الاستجابة لعجزها عن تلقِّي التَّبليغ من عَبَدَتِها[2].

فهؤلاءِ الذين يعبدهم المشركون من دونِ اللّهِ جمادًا كانوا أم شياطين أم ملائكة، هم خَلقٌ مثلهم، مخلوقون للّهِ، لا يملكون لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يكون منهم لغيرِهم نفعٌ أو ضرٌّ؟ وها هو ذا الواقعُ يكشف عن هذه الحقيقة، ويقرِّرها؛ فليدع المشركون آلهتهم التي يعبدونها من دون اللّهِ، ثم لينظروا ماذا يبلغ هذا الدُّعاء منهم؟ هل يسمعون؟ وإذا سمعوا، هل يعقلون؟ وإذا عقلوا، هل يقدرون على تحقيق المطلوب منهم؟ وكيف وهم لا يستطيعون لأنفسِهم جلْبَ خيرٍ، أو دفْعَ ضرٍّ؟[3] فصيغة ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ صيغة الأمر، ومعناه التَّعجيزُ[4].

معنى اللَّام في ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾:

تأكيدُ كمالِ التَّحدِّي والتَّعجيز

اللَّام في ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ لامُ الأمر[5]، على معنى التَّعجيز ومَوضِعُها أنَّ رَبَّ العِزَّة يَطْلُبُ إليهم أن يأمروهم ليستجيبوا، أي: إنَّ الأمرَ بالاستجابة ليس من اللّه تعالى؛ لأنَّ اللّه تعالى لا يطلب الاستجابةَ ممَّن لا يجيبُ، بل الأمرُ يكون من غيره ممَّن يَعْبُدُها،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 353.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/221.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/540.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/295.
(5) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/512.

وليكونَ التَّعجيز والتَّحدِّي كاملًا، وبهذا التَّخريجِ يكون طلبُ الاستجابةِ من المشركين لا مِنَ اللّه تعالى[1]، وإنَّما ورد هذا الأمرُ في معرض الاستهزاء بالمشركين[2].

ثبوت عجزِ المشركين عن إظهارِ دعاءٍ للأصنامِ تَعْقُبُه الاستجابة

معنى (إنْ) ودلالةُ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّة والغرضُ منها:

لَمَّا كان المقامُ محتاجًا إلى مزيد توبيخ وإلهابٍ؛ قدَّم منه ما ذكر، ثم زاد في الإلهاب، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ﴾، أي: جبلَّةً وطبعًا[3]، فتَبَيَّن بكان واسمها وخبرها وجوابِ الشَّرط عجزُ الآلهة عن الاستجابةِ لهم، وعَجْزُ المُشركينَ عن تحصيلها مع حرصهم على تحصيلها لإنهاضِ حُجَّتهم، فمآلُ ظهورِ عجز الأصنام عن الاستجابةِ لعبادها إلى إثباتِ عجزِ المشركين عن نهوض حجَّتهم لتلازم العجزين، قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: 14]، وبهذا يظهرُ أن أمرَ التَّعجيزِ كنايةٌ عن ثبوتِ عَجزِ الأصنام عن إجابتِهم، وعجزِ المشركين عن إظهارِ دعاءٍ للأصنام تَعْقُبُهُ الاستجابة[4].

انتهاءُ التَّحدِّي بالتَّعجيز والعجزِ في إثباتِ صِدقهم في دعواهم

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرط:

أي: إن كنتم صادقين في زعمِكم أنَّهم قادرون على ما تعجزون عنه بقواكم البشريَّةِ من نفعٍ أو ضرٍّ، وفي دعوى أنَّهم آلهةٌ، فإنَّ رتبةَ الإلهِ تقتضي ذلك[5]، فادعوهم، فليستجيبوا لكم إمَّا بأنفسِهم، وإمَّا بحملِهم الرَّبَّ ﷻ على إعطائكم[6]، وسياق القول يدلُّ على أنَّ الاستجابةَ غيرُ ممكنةٍ، ولذا كانوا غيرَ صادقين، وبذلك ينتهي التَّحدِّي بالتعجيز والعجز، فعجزوا أن يثبتوا صدقَهم[7].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3034/6.
(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 634/2.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 143/9.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3034/6.

﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: 195]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا أثبت اللّه ﷻ عجزَ الأوثانِ، وأنَّهم أمثالُ عابديهم في الخَلق؛ دلَّ عليه وعلى أنَّهم دونهم في هذه الآية[1]، وتكون هذه الآيةُ تنزيلًا لهم عن مقامِ المُماثلةِ إلى ما دونها؛ إذ المشركون في الخلقِ والتَّكوين أكملُ وأعلى، فكيف يَعْبُدُ الأعلى من هو أدنى منه مقامًا، وأقربُ منه إلى الإكرام[2].

بيانُ أنَّ الأصنامَ أَحَـطُّ مَـنْـزِلـةً مِـن عـابـديـهـا وأحقر شأنًا من مُعظِّميها

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يَبۡطِشُونَ﴾: مِنَ البطشِ: تناوُلُ الشَّيءِ بِصَولةٍ، يُقال: يدٌ باطشةٌ، وأصلُه: أخذُ الشَّيءِ بقهرٍ وغلَبةٍ وقوَّةٍ[3]، والمعنى هنا: يعطون بها، ويمنعون عنكم الضُّرَّ.

2) ﴿كِيدُونِ﴾: مِنَ الكيدِ: ضَربٌ من الاحتيالِ، وقد يكون مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعمَل في المذموم أكثرَ، وأصلُ الكيد يَدُلُّ على مُعالجة لشيءٍ بِشدَّة[4]، والمعنى هنا: دَبِّروا لي، وأعلنوا الحرب.

3) ﴿تُنظِرُونِ﴾: من الإنظارِ، بمعنى الإمهالِ، أي: تُؤخِّرون، والنَّظَرُ: الانْتِظَارُ، يُقال: نَظَرتُه، وانتظَرتُه وأَنْظَرتُه انتظارًا، أي: أخَّرْتُه[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 196/8.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3036/6.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 262/1، والرّاغب، المفردات، ص: 129.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: 149/5.
(5) السجستاني، غريب القرآن، ص: 106، والرّاغب، المفردات، ص: 813، وابن الهائم، التبيان، ص: 231.

وأَصْلُ (نَظَرَ) يدلُّ على تأمُّلِ الشَّيْءِ ومعاينتِهِ، والنَّظِرَةُ: التَّأْخيرُ فِي الْأَمْرِ، ويُقالُ: نَظَرْتُهُ، أيِ: انْتَظَرْتُهُ[1]، والمعنى هُنا: فَلاَ تُمْهِلُوني سَاعَةً، وَاعْجَلُوا في كيدي[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

ألهؤلاءِ الأصنام الذين اتَّخذتموهم آلهةً أرجلٌ يسعَوْن بها معكم في حوائجِكم؟ أم لهم أيدٍ يدفعون بها عنكم، وينصرونكم على من يريد بكم شرًّا ومكروهًا؟ أم لهم أعينٌ ينظرون بها، فيعرِّفونكم ما عاينوا وأبصروا ممَّا يغيب عنكم، فلا ترونه؟ أم لهم آذانٌ يسمعون بها، فيخبرونكم بما لم تسمعوه؟ فإن كانت معطَّلةً من ذلك كلِّه، فكيف تعبدونها رجاءَ جلْبِ نفعٍ أو دفْعِ ضرٍّ؟ قل - أيُّها الرسول ﷺ - لهؤلاء المشركين: نادوا من ساوَيْتموهم باللّه، ثم احتالوا لِضرِّي ولا تمهلوني[3].

هذه الأصنامُ أقلُّ من عابديها في الخَلق والتَّكوين وعاجزةٌ عن التَّصرُّفِ تمامَ العجز

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

كلامٌ مُستأنَفٌ بمنزلةِ التَّوبيخ لهم على عقولهم القاصرة[4]، وهو تبكيتٌ إثرَ كلامٍ مؤكِّدٍ لما يفيده الأمر التَّعجيزي من عدم الاستجابة ببيانِ فقدانِ آلاتها بالكليَّة، وقيل: إنَّه على الاحتمال في المُماثلة كرَّ على المثليَّة بالنَّقض؛ لأنَّهم أَدْوَنُ منهم، وعبادةُ الشَّخص من هو مثْلُهُ لا تليق، فكيف بمن هو دونه[5]؟

تقريعٌ مُوَجَّهٌ الى الوجدان في إثرِ احتجاجٍ وُجِّهَ قبلَه إلى الجَنان

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة (رظن)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نظر)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 99، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 117.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 317/2.
(3) نُخبة من أساتذة التَّفسير، التفسير الميسّر: 175/1، ومجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 239.
(4) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 513/3.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 306/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 135/5.

فلمَّا أثبت عجزهم، وأنَّهم أمثالهم؛ دلَّ عليه وعلى أنَّهم دونهم بأسلوب إنكارٍ وتعجيب مُفَصِّلًا لبعض ما نفاهُ عنهم(1).

بلاغةُ الاستفهامِ وغرضُه:

التَّـوبيـخُ والـتَّـبكـيـتُ للدَّلالة على كون الأصـنـام أدونَ من عابديها

الاستفهامُ في ﴿أَلَهُمۡ﴾ وما بَعدَه إنكاريٌّ(2)، للتَّقريع والتَّوبيخ، أي: هؤلاء الذين جعلتموهم شركاءَ ليس لهم شيءٌ من الآلاتِ التي هي ثابتةٌ لكم، فَضلًا عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنَّهم - كما ترون - هذه الأصنامُ التي تَعْكِفُون على عبادتها ليست لهم أرجل يمشون بها في نفْعِ أنفسهم، فضلًا عن أن يمشوا في نفْعِكم، وليس لهم أَيْدٍ يبطشون بها، كما يبطش غيرُهم مِنَ الأحياء، وليس لهم أعينٌ يُبصرونَ بها، كما تبصرون، وليس لهم آذانٌ يسمعون بها، كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصِّفة من سَلْبِ الأدواتِ وبهذه المنزلة من العجز(3).

فالاستفهامُ فيه للإنكار، وهو خاصٌّ بالأصنام والأوثان، ومعناه: أنَّهم لفقدِهم لجوارح الكسب التي يُناط بها في عالم الأسبابِ النَّفع والضُّر، قد هبطوا عن درجة مُماثلتكم من كلِّ وجه، فأنتم تَفْضُلونَهُمْ في الصِّفات والقِوى التي أودعها اللّه في الخَلق، فلماذا ترفعونهم عن مُماثلتكم، وهم بدليل المشاهدةِ والاختبارِ دونكم؟ وها أنتم أولاءِ تستكبرونَ عَن قَبول الهُدى والرَّشاد مِنَ الرَّسول، وتُعَلِّلون ذلك بأنَّه بشرٌ مثلكم، فيقول بعضكم لبعض: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤﴾ [المؤمنون: 33-34]، فتأبونَ قَبولَ الحقِّ والخير من مثلكم، وقد فضَّلَه اللّهُ بالعلم والهدى عليكم، وهو لا يستذلُّكم بادِّعاء أنَّهُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/196.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/222.
(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 2/635.

ربُّكم أو إلهكم، ثُمَّ ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهيَّةِ، مع انحطاطهِ وتَسَفُّلِهِ عن هذه المثليَّة[1]؟

فائدةُ تقديمِ المسند ﴿أَلَهُمْ﴾ على المسند إليه:

بيانُ انتفاءِ المُلك

تقديمُ المُسند على المُسْنَد إليه للاهتمام بانتفاء المُلك الذي دلَّت عليه اللام[2].

نكتةُ تنكيرِ الأرجلِ والأيد والأعين والآذان:

بيانُ تأتِّي الإنكارِ للأوصاف دون الحقيقةِ بأنَّها ليست بأرجلٍ على الحقيقة

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ وَصْفُ الأرجلِ بالمشي للإيذان بأنَّ المُنكر هو الوصفُ بناءً على أنَّ محطَّ الفائدة هو القيدُ في الإثبات والنَّفي والإنكار والتَّقرير ما لم يُوجَد صارفٌ عنه، ويُستفاد منه أنَّ أرجلَهم حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائرِ الأرجلِ ليست بأرجلٍ في الحقيقة، وكذا الكلامُ في الجوارح الثَّلاثةِ الباقيةِ، بأن يُقالَ: أيمشون بأرجلِهم لتَحْقيقِ أنَّها ليست بأرجلٍ في الحقيقةِ للعلَّةِ المذكورة[3].

سِرُّ اختيارِ الجملة الاسميَّةِ دون الفعليَّة في ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ﴾:

بيانُ استمرارِ انتفاء هذه الأوصاف على سبيل الدَّوامِ والاستمرار

وإنَّما اختيرَ في النَّظمِ الجملةُ الاسميَّة؛ لأنَّها لدلالتها على الدَّوام والثَّبات تُفيد أنَّ ثبوت هذه الحال أو انْتِفاءَها أمرٌ مُسْتَمِرٌّ لا حادث[4].

فائدةُ توجيهِ الإنكارِ إلى كُلِّ واحدةٍ من هذه الجوارح الأربعة:

تكريرُ التَّبكيتِ والتَّقريعِ إشعارٌ بأنَّ انتفاءَ واحدةٍ منها كافٍ في الدَّلالة على عجزها

وُجِّهَ الإنكارُ إلى كُلِّ واحدةٍ من هذه الآلاتِ الأربعِ على حِدَةٍ؛ تكريرًا للتَّبكيتِ، وتثنيةً للتَّقريعِ، إشعارًا بأنَّ انتفاءَ كلِّ واحدةٍ منها بحِيالِها كافٍ في الدَّلالةِ على استحالةِ الاستجابة[5].

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/529.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/222.
(3) القونوي، حاشيته القونوي على تفسير الإمام البيضاوي: 8/577، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/135.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير الإمام البيضاوي: 8/577.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/306.

دلالاتُ وصف الجوارح الأربعة:

تسجيلُ العجزِ عليهم فيما يحتاج إليه النَّاصرُ وكَوْنُ أعضائِها عديمةَ النَّفع

وصفُ الأرجل بـ ﴿يَمۡشُونَ﴾ والأيدي بـ ﴿يَبۡطِشُونَ﴾ والأعين بـ ﴿يُبۡصِرُونَ﴾ والآذان بـ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ إمَّا لزيادة تسجيل العجزِ عليهم فيما يحتاج إليه النَّاصرُ، وإمَّا لأنَّ بعض تلك الأصنام كانت مجعولةً على صور الآدميِّين مثل هُبَلَ، وذي الكفَّين، وكُعيبٍ في صور الرِّجال، ومثل سُواعٍ كان على صورةِ امرأة، فإذا كان لأمثال أولئك صورُ أرجلٍ وأيد وأعين وآذان، فإنَّها عديمة العمل الذي تختصُّ به الجوارح، فلا يَطمع طامعٌ في نصرها[1]، فالمراد بهذه الأشياء نفيُ الأفعال دون الأعضاء، كما تقول لضعيفٍ: ألك بدنٌ يحتمل هذا الثِّقَل؟ أو مَعِدَةٌ تحتمل هذا الطَّعامَ؟[2].

معنى (أم) في المواضع الثَّلاثة:

قصدُ معنى (بل) الانتقاليَّةِ

(أم): حرفٌ بمعنى (أو) يختصُّ بعطف الاستفهام، وهي تكون مثل (أو) لأحد الشَّيئين أو الأشياء، وللتَّمييز بين الأشياء، أو الإباحة، أي: الجمع بينها، فإذا وقعت بعد همزةِ الاستفهام المطلوبِ بها التَّعيينُ كانت مثل (أو) التي للتَّخيير، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ [يونس: 59]، أي: عيِّنوا أحدهما، وإن وقعت بعد استفهامٍ غيرِ حقيقي كانت بمعنى (أو) التي للإباحة، وتُسمَّى حينئذٍ مُنقطعةً، ولذلك يقولون: إنَّها بمعنى (بل) الانتقاليَّة، وعلى كل حالٍ، فهي مُلازمةٌ لمعنى الاستفهام، فكلَّما وقعت في الكلام؛ قُدِّر بعدَها استفهامٌ، فالتَّقدير هُنا، بل ألهم أيدٍ يبطشون بها؟ بل ألهم أعينٌ يُبصرون بها؟ بل ألهم آذان يسمعون بها[3]؟

بديعُ المقابلة في ذكْرِ الأيدي مُقابِلَةً للأرجل والأسماع مقابلَ الأبصارِ:

في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ﴾، أي: بل ألهم أيدٍ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/222.

(2) الجرجاني، درج الدُّرر: 1/717.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/222.

بيان كون المقابلة بين هذه الأعضاء أظهرَ في التَّبكيت

يأخذون بها ما يريدون، أو يدفعون بها عنكم؟ وتأخير هذا عمَّا قبلَهُ لِما أنَّ المشي حالُهم في أنفسهم، والبَطْشُ حالهم بالنِّسبة إلى الآخرين، وأمَّا تقديمُ ذلك على قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ مع أنَّ الكُلَّ سواءٌ في أنَّها من أحوالهم بالنِّسبة إلى الآخرين، فلمُراعاة المقابلة بين الأيدي والأرجل، ولأنَّ انتفاءَ المشي والبطش أظهرُ، والتَّبْكيت به أقوى[1].

سرُّ وصفِ معبوداتِهم بأوصاف العقلاء:

التَّعبيرُ عنها وفق اعتقادِ عُبَّادها تسفيهًا لعقولهم

ذكرَها اللّهُ ﷻ بالتَّعبيرات التي يُذكرُ بها الأحياءُ العُقلاء مُسايرة لعُبَّادها، (يمشون، يبطشون، يبصرون، يسمعون)، ولولا هذه المُسايرةُ؛ لكان الحديثُ عنها، كما يلي: (ألها أرجلٌ تمشي بها؟ أم لها أيدٍ تبطش بها؟ أم لها أعينٌ تبصر بها؟).

بلاغةُ ترتيبِ الجوارح الأربعة:

بيانُ أنَّ التَّرتيبَ كان بطريق التَّرقِّي بحسب الأهمِّيَّة والغرض

وترتيبُ هذه الجوارحِ الأربع على حسب ما في الآية ملحوظٌ فيه أهميَّتُها بحسب الغرض، الذي هو النَّصرُ والنَّجدة، فإنَّ الرِّجلين تُسرعان إلى الصَّريخ، واليدين تعملان عملَ النَّصر وهو الطَّعن والضَّرب، وأمَّا الأعينُ والآذان؛ فإنَّهما وسيلتان لذلك كُلِّه، فَأُخِّرا، وإنَّما قَدَّم ذكر الأعين هُنا على خلاف معتاد القرآن في تقديم السَّمع على البصر؛ لأنَّ التَّرتيبَ هنا كان بطريق التَّرقي[2].

فلمَّا كان المخشيُّ بعد الانتقال مدَّ اليدِ، قال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ﴾ أي: موصوفة بأنَّهم ﴿يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ﴾ أي: نوعًا من البطش، ولمَّا كان المخوفُ بعد البطشِ باليد البصرَ خوفًا من الدَّلالة قال: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ﴾. أي: منعوتةٌ بأنَّهم ﴿يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ أي: ضربًا من الإبصار؛ ولما كان الإنسانُ ربَّما خاف ممَّا يقصدُ ضرَّهُ، فتغيب عنه، فلا يصل

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 135/5.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 223/9.

إليه بعد ذلك إلا بالسَّمع قال خاتمًا: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ﴾، أي: مقولٌ فيها أنَّهم ﴿يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ أي: شيئًا من السَّمع[1].

دلالةُ تخصيصِ الأرجل والأيدي والأعين والآذان بالذِّكر دون اللِّسان:

بيانُ كونِها آلاتِ العلم والسَّعي والدَّفع للنَّصر

خَصَّ الأرجلَ والأيدي والأعين والآذان؛ لأنَّها آلاتُ العلم والسَّعي والدَّفع للنَّصر، ولهذا لم يذكر الألسن لما عُلِمَ من أنَّ الاستجابةَ مُرادٌ بها النَّجدةُ والنُّصرة، ولم يكونوا يسألون عن سببِ الاستنجاد، ولكنَّهم يسرعون إلى الالتحاق بالمستنجد[2].

نكتةُ فصلِ جملة ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾ عن سابقاتِهَا:

بيانُ الإذنِ من الله تعالى لنبيِّه في تحدِّيهم

قوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ إذنٌ من الله لرسوله بأن يتحدَّاهم بأنَّهم إنِ استطاعوا؛ استصرخوا أصنامَهم لتتألَّب على الكيد للرَّسول ﷺ والمعنى: ادعوا شركاءكم؛ لينصروكم عليَّ، فتستريحوا مِنِّي[3]، فكأنَّ سائلًا سألَ ماذا يُرادُ بعد كلِّ هذا التَّعجيزِ للمشركين، وبيان عجز أصنامِهم، فجاءَ هذا الأمرُ إتمامًا للتَّحدِّي وقطعًا للحُجَّة.

دلالةُ توجيهِ الخطاب إلى النَّبيِّ ﷺ بفعل الأمر: ﴿قُلِ﴾:

تأنيسُ النَّبيِّ ﷺ بالخطابِ تقويةً له ولحُجَّتِهِ

جاء الخطاب موجَّهًا للنَّبيِّ ﷺ بأمر بالقول؛ لأنَّهم لَمَّا قُرِّعوا، وتُحُدّوا بعبادةِ من لا يملك ضَرًّا ولا نفعًا؛ قيلَ للنَّبيِّ ﷺ: (قُلْ: إنَّ معبودي يملك الضُّرَّ والنَّفع، فلو اجتهدتم في كيدي؛ لم تصلوا إلى ضرِّي؛ لأنَّ الله يدفعُ عنِّي)، قال الحسن: "كانوا يخوِّفونه بآلهتهم"، فقال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ﴾[4].

دلالةُ توالي الأمرين في ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾:

إظهارُ كمالِ التَّحدِّي وتمامِ الاحتجاجِ بما لا يُمكن دفعُه وردُّه

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾ أي: قل أيُّها الرَّسول الكريمُ لهؤلاءِ الذين هَبَطُوا بعقولهم إلى أحطِّ المستويات: نادوا شركاءكم الذين زعمتموهم

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/197.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/222.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/223.

(4) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/283.

أولياءَ، ثُمَّ تعاونوا أنتم وهم على كيدي، وإلحاقِ الضُّرِّ بي من غير انتظارٍ أو إمهال، فإنِّي أنا معتزٌّ بالله، ومُلتَجِئٌ إلى حِماهُ، ومن كان كذلك؛ فلن يخشى شيئًا من المخلوقين جميعًا، وهذا نهايةُ التَّحدي من جانب الرَّسولِ ﷺ لهم والحطِّ من شأنهم وشأن آلهتهم[1].

فحاصلُ المعنى: استنجدوهم إلى إضراري وكيدي، ولا تؤخِّروني، فإن كانوا آلهةً؛ فسيظهر فعلهم[2].

وحكمةُ مُطالبتهم بهذا أنَّ العقائدَ والتَّقاليدَ الموروثة تتغلغل في أعماق الوجدانِ، حتَّى يتضاءلَ دونها كلُّ برهانٍ، ويظلَّ صاحبها مع ظهورِ الدَّليل على بطلانها، فيتوهَّم أنَّها تَضُرُّ وتنفعُ، وتُقَرِّبُ من الله وتشفع، فطالبهم بأمر عمليٍّ يَستَلُّ هذا الوهمَ من أعماق قلوبهم، ويمتلخ الشُّعورَ به من خبايا صدورهم، وهو أن يُنادوا هؤلاء الشُّركاء نداء استغاثة واستنجاد لإبطال دعوة الدَّاعي إلى الكفرِ بها، وإثباتِهِ العجزَ لها، وبَذْلِ الجهد فيما يَنْسبونَ إليها من التَّأثير الباطن، والتَّدبير الكامن الذي هو عندَهم أمرٌ غيبيٌّ، يدخل في معنى الكيد الخفيِّ، فإن كان لها شيءٌ ما من السُّلطان الغيبيِّ في أنفسها أو عند الله تعالى فهذا وقت ظهورِه، فإن لم يظهر لإبطال عبادتها وتعظيمها، ونصر عابديها ومعظِّمي شأنها، فمتى يظهرُ وينتفعون به؟ وهم منكرون للبعث[3].

نكتةُ إضافة الشُّركاء إلى ضميرهم:

بيانُ أنَّهم شُركاءُ في زعمهم وتصوُّرهم لا أنَّهم شُركاءُ على الحقيقةِ

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ سمَّاهم (شُركاء) من حيثُ إنَّ لهم نسبةً إليهم بتسميتهم إيَّاهم آلهةً وشُركاء لله[4]، أي: (من جعلتموهم شركاءَ لله)، فالإضافةُ لأدنى ملابسة، فالشُّركاء الذين جعلتموهم شركاء، هُم شركاء في زعمكم أنتم[5].

---

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/456.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 2/489.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 9/143، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/529.
(4) ابن عطية الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 2/489.
(5) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3036.

بيانُ عِظَمِ التَّحدِّي الذي يَحِقُّ لصاحبه أن يتمدَّح به

دلالةُ العطف بـ(ثُمَّ):

لَمَّا كان هذا التَّحدِّي تحدِّيًا عظيمًا يحقُّ لفاعله التَّمدُّحُ به، نَبَّهَ عليه بأداة التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: جميعًا أنتم وهم، وأنتم أكثرُ من حَصى البطحاء ورَمْلِ الفضاءِ، وأنا وحدي[1].

دلالةُ الجمع بين الأمر والنَّهي:

الأمرُ والنَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿كِيدُونِ﴾ ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ للزِّيادة في تأكيد التَّعجيز[2].

التَّفريعُ على الأمر بالكيد بعدم الإنظار تأكيدًا للتَّحدي

معنى الفاء في ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾:

وقولُه: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ تفريعٌ على الأمرِ بالكَيدِ، أي: فإذا تمكَّنْتُم مِن إضراري، فأعجِلُوا، ولا تؤَجِّلوني[3].

التَّعريضُ بأنَّه سيغلبهم، وينتصر عليهم

دلالةُ النَّهي في ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾:

في هذا التَّحدِّي تعريضٌ بأنَّه سيَبْلُغُهم، وينتصرُ عليهم، ويستأصلُ آلهتَهم[4]، وقد تحدَّاهم بأتَمِّ أحوالِ النَّصر، وهي الاستنصارُ بأقدر الموجودات في اعتقادهم، وأن يكون الإضرارُ به خفيًّا، وألَّا يتلوَّمَ له، ولا ينتظر، فإذا لم يتمكَّنوا من ذلك؛ كان انتفاؤه أدلَّ على عجزِهم وعجز آلهتهم[5].

جوازُ حذْفِ الياء في الكلام مُراعاةً لتشابه الفواصل

التَّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات المتواترة في ﴿كِيدُونِ﴾ و﴿تُنظِرُونِ﴾:

قرأ أبو عمرٍو ونافع ﴿كِيدُونِـي﴾ بإثباتِ الياء في الوصل، وقرأ ابنُ كثير وعاصم وابن عامر وحمزةُ والكسائيُّ ﴿كِيدُونِ﴾ بحذف الياءِ في الوصل والوقفِ[6]، قال أبو علي: "إذا أشبهَ الكلامُ المنفصلَ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/197.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/223.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/223.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/223.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/223.
(6) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/184.

أو كان منفصلًا؛ أشبهَ القافيةَ، وهم يحذفون الياء في القافية كثيرًا، قد التزموا ذلك"[1]، فحذفَ الياءَ بناءً على تشابُهِ الفواصلِ، والمُثْبِتون على الأصل.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْخِدَاعُ وَالْكَيْدُ وَالْمَكْرُ:

الخِداعُ إظهارُ ما يُخالفُ الإضمارَ، والمكرُ ما يكون بعد نظرٍ وتَفَكُّرٍ، والكيدُ آكدُ منهما وأشدُّ

الخداعُ: إظهارُ أَمْرٍ للآخرين مع إضمَارِ خلافه[2]، ولا يلزم مِنْهُ أن يكونَ بعد نظر وتدبُّرٍ، ولذا يُقال: خدعَهُ في البيع؛ إذا غشَّهُ، ولو كان ذلك بديهَةً مِن غير فِكْرٍ سابق، بخلاف الكَيْدِ فإنَّه - في حقِّ المخلوقِ - لا يكونُ إلَّا بعد تدبُّرٍ وفِكْرٍ ونظرٍ.

وأمَّا المكرُ؛ فهو مِثْلُ الْكَيْدِ في كَوْنِه - في حقِّ المَخْلُوق - لا يكُون إلَّا بَعْدَ فِكْرٍ ونَظَرٍ، إلَّا أنَّ الْكَيْدَ أقوَى مِنَ الْمَكْرِ[3].

الإِنْظَارُ والإمهالُ والتَّأْخير:

الإنظارُ تَأْخيرٌ تحت المراقبة، والإمهالُ تأخيرُ تهديد

الإنظارُ: تَمْكِينُ الشَّخْصِ من النَّظرِ وتأخيرُهُ لينظُرَ في أمرِه[4]، وهو مقرونٌ بمقدارِ ما يقعُ فيه النَّظر، وجاءَ الإنْظارُ مَعَ ما فيه مِنْ سُوءِ المُنْقَلَبِ، كالعَذابِ، واللَّعْنَةِ، قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة: 162]، والإمهالُ مُبهمٌ، وقيل: الإنظارُ، والإمهالُ تأخيرُهُ ليُنهي ما يتكلَّفُهُ من عمله[5]، ويكونُ مقرونًا بالتَّهديد قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ١٧﴾ [الطَّارق: 17].

والتَّأخيرُ: إبعادُ الفعلِ عن الآنَ الكائنِ[6]، أي: تَغييرُ التَّوقيتِ

---

(1) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 2/489.

(2) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 152.

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 213، 508، والكفوي، الكليات، ص: 771.

(4) الكفوي، الكليات، ص: 906.

(5) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 80.

(6) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 89.

المَوْضوعِ مُسبَقًا، وهُو عامٌّ في الوَقْتِ، أمَّا الإنْظارُ؛ ففيهِ تَأخيرٌ معَ عُذْرٍ، ولا عَلاقَةَ له بِوَقْتٍ موضوعٍ أو مُحَدَّدٍ، كقوله ﷻ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: 280]، فلا تَوقيتَ مُحَدّد لِبُلوغ المَيْسَرَةِ، فالإنظارُ تَأْخيرٌ مَخْصوصٌ؛ فهو تأخيرٌ تحت المراقبة، والإمهالُ تأخيرٌ مع التَّهديد.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾

[الأعراف: 196]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ بيانِ أنَّ ما سوى اللهِ لا نفعَ له ولا ضرَّ، بكونِ الله هو من يهدي ويحمي

لَمّا ذكرَ في الآياتِ المُتَقَدِّمَةِ أنَّ هذه الأصْنامَ لا قُدْرَةَ لَها على النَّفْعِ والضُّرِّ؛ بَيَّنَ في هذهِ الآيَةِ أنَّ الواجِبَ على كُلِّ عاقِلٍ عِبادَةُ اللّه تَعالَى؛ لِأنَّهُ هو الَّذي يتولَّى تحصيلَ منافعِ الدُّنيا والدّين[1]، وهو الَّذي نزَّلَ القرآنَ بالحقِّ على رسوله، وهو يتولَّى نصْرَ كلِّ صالحٍ من عباده المؤمنين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِـِّۧىَ﴾: (فَعيل) من الولي: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أيْ: يُقارِبُني، ومِنَ البابِ المَوْلَى: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ، و(الوليُّ) من قول القائل: (وَليت أمر فلانٍ)، إذا صرت قيِّمًا به، فأنا أليه، فهو وليُّه وقيِّمُه[2].

2) ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: الصَّلاحُ يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ، يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا، وحَكَى ابْنُ السِّكّيتِ صَلَحَ وصَلُحَ، والمعنى المحوريُّ: سلامةُ الشَّيءِ، أي: التئامُهُ على حاله الأصليَّةِ تامَّ النَّفع والخير الَّذي أوجِد أو أريد له[3]، والصّالح هو الَّذي صلح باطنًا بالإخلاصِ والتَّجريد، ونضحَ ذلك على ظاهرِه بالأعمال الصّالحة، والمسارعة في الخيراتِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 433/15.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 489/2، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ولي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صلح).

المَعْنى الإجْماليُّ:

ضمانُ نصرةِ اللهِ وعونِهِ لنبيِّه، وأنَّه تعالى وليُّ الصّالحين من عباده

يقولُ اللّهُ لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: قل لهم يا رسولَ اللّه: إنَّ نصيري ومُعيني في كلِّ شؤوني، هو اللّهُ الَّذي اصطفاني بالرِّسالةِ، فنزَّل عليَّ هذا الكتابَ العزيزَ (القرآن الكريم)، ودأبُ اللّه مع الصّالحين أنَّه يعينُهم وينصرُهم في أمورِ دينهم ودنياهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قولِه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾:

من حمتهِ العنايةُ؛ لم يضرَّه تأليبُ الغواية

فُصِلتْ هذه الجملة عمّا قبلها؛ لأنَّها وقعت موقعَ التَّعليل لعدم المبالاة المفهوم من قولِه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[1]، كأنَّهُ قيل: لا أبالي بكم وبشركائِكم؛ لأنَّ وليّيَ هو اللّهُ تعالى الَّذي نزَّل الكتابَ النّاطق بأنَّه وليّي وناصري، وبأنَّ شركاءكم لا يستطيعون نصرَ أنفسِهم فضلًا عن نصركم[2]، فهذا تَعْليلٌ لِعَدَمِ الاكْتِراثِ بتَألُّبِهم عليه، واسْتِنْصارِهم بشُرَكائِهم، ولِثقَتِه بأنَّهُ مُنْتَصِرٌ عليهم، بما دَلَّ عليه الأمْرُ والنَّهْيُ التَّعْجيزيّانِ[3].

دلالةُ الإيجازِ بحذفِ الفعل:

ولايةُ اللهِ تنزُّلٌ وتكليفٌ، وحمايتُهُ نصرةٌ وتشريفٌ

في قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾، حُذِف فعلُ القول للتَّوصُّلِ إلى مقول القولِ على لسانِ المبلِّغ مباشرةً؛ ليدلَّ على كمالِ ثقتِه بربِّه، وتصديق ربِّه له، وتثبيته في تبليغ رسالتِه، ومعنى الآية على قراءةِ الجماعة: قل - يا محمَّد ﷺ - لعبدةِ الأوثان، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾، أي: ﴿إِنَّ﴾ نصيري عليكم، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ عَلَيَّ بالحقِّ، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: يَنْصُرُهُم على مَنْ عاداهُم فيهِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/307.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/136.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/224.

نكتةُ التَّصديرِ المفيدِ بحرفِ التَّأكيدِ:

ولاءُ اللهِ والبراءةُ من سواهُ، حمايةٌ لكلِّ من لاذَ بحماه

في قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾، تصديرُ الآيةِ الكريمةِ بحرفِ التَّأكيدِ، يناسبُ الرَّدَّ على هؤلاء المنكرين، ويوحي المخاطب بزيادةِ ثقةِ المتكلِّم، واللّه ﷻ يتولَّى من يتولّاه، وينصرُ من يستنصرُ به، ويلوذ بحماه، وهو ينصر الصّالِحينَ، ويوفِّقهم للهدى المستبين، ويقوّيهم على مقاومة كيد الشَّيطان اللَّعين[1].

فائدةُ إضافةِ (وليِّ) إلى ضميرِ المتكلِّم:

ولايةُ اللهِ لنبيِّه المصطفى، تخصيصٌ ورفعٌ لمقامهِ الأوفى

في قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾، إضافةُ (وليّ) إلى ضميرِ المتكلِّم، يدلُّ على زيادةِ التَّشريف، وتخصيصِ العناية لولاية اللّه له ﷺ؛ إذ إنَّ ولايةَ اللّه للمؤمنين عامَّةٌ، بسبب إيمانهم، وولايتُه للنَّبيِّ خاصَّة؛ لأنَّه أوَّلُ المؤمنين، ولأنَّه أرسلَهُ رحمةً للعالمين؛ لينصرَ به الحقَّ وأهلَه.

سرُّ توجيهِ قراءةِ (وليِّ) بتشديد الياءِ، وإضافتها لياء المتكلِّم:

دلالةُ التَّخفيفِ في لفظ (وليَّ) على شدَّةِ القُربِ، وخصوصيَّةِ الوَلاية

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾: بتشديد (وَليّيَ) مضافًا لياء المتكلِّم المفتوحة، وهي قراءةٌ واضحةٌ، أضاف الوليَّ إلى نفسِه[2]، وقرأ أبو عمرو في بعضِ طرقهِ: (إنَّ وليَّ) بياءٍ واحدةٍ مشدَّدة مفتوحة[3]، وفيها تخريجان أحدهما: أنَّ ياءَ فعيلٍ مدغمةٌ في ياء المتكلِّم، والياءُ الَّتي هي لامُ الكلمة محذوفةٌ، وفيه تخفيف في النُّطق، ودلالةٌ على شدَّة القربِ، وخصوصيَّةُ الوَلاية، والآخر: أن يكون (وليَّ) اسمها، وهو اسمٌ نكرةٌ غيرُ مضافٍ لياءِ المتكلِّم، والأصلُ: إنَّ وليًّا اللّه، فوليًّا اسمُها، واللّهُ خبرها، ثمّ حذف التَّنوين لالتقاء السّاكنين، كقوله[4]:

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 224/9.

(2) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وعاصم، وحمزة، والكسائيّ، ورويس، والبرجميّ، ويعقوب بخلاف عنه. ينظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 300، 301، وابن الجزريّ، النّشر: 274/2.

(3) ابن الجزريّ، النّشر: 274/2.

(4) البيت من بحر المتقارب، لأبي الأسود الدّؤليّ، وهو في ديوانه، ص: 203، ورواية البيت الأوّل فيه:
فذكّرته ثمّ عاتبتُه *** عتابًا رقيقًا وقولًا جميلًا
ويروى: (ولا ذاكرٍ) بالجرّ معطوفًا على (مستعتبٍ).

فألفيتُه غيرَ مُستَعْتِبٍ *** ولا ذاكرَ اللّه إلّا قليلًا

والإخبارُ عنِ النَّكرةِ بالمعرفة واردٌ، كقول الشّاعر[1]:

وإنَّ حرامًا أن أسُبَّ مجاشعًا *** بآبائي الشُّمِّ الكرامِ الخضارمِ

وتنكير (وليّ) هنا للتَّعظيم؛ لوقوعهِ مسندًا إليه، ووقوعُ اسم الجلالة الموصوف بخصيصةٍ لا يوصف بها أحدٌ سواه، وكأنَّ المعنى: إنَّ وليّ اللّه الَّذي هو موصوفٌ بتنزيل الكتاب الكامل المعجز خليقٌ بأن يُعبد، لا تلك الآلهة.

توجيهُ قراءةِ (إنَّ وليِّ اللهُ):

حذفُ ياء المتكلِّم تخفيفٌ لتعظيم الانتساب، والشَّوق للوهّاب

قُرئَ: (إنَّ وليِّ اللّهُ)[2]بكسر الياء مشدَّدة، وأصلُها تسكينُ ياءِ المتكلِّم فالتَقَت الياء مع لام التَّعريف، فحُذفَتْ لالتقاءِ السّاكنين، وبقيت الكسرة تدلُّ عليها، نحو: إنَّ غلامِ الرَّجلُ[3]، وفي حذف ياء المتكلِّم والاجتزاءِ بالكسرةِ تخفيفٌ، يوحي بعظم الإخبارِ باسم الجلالةِ عن الوليِّ، وسرعةُ التَّوصُّل إليه يشير إلى شغفِ المتكلِّم به وشدَّة الرَّغبة فيه.

دلالةُ قراءةِ (إنَّ وليَّ اللهِ):

التَّوسُّع في فهم (الــوليّ) دليلٌ على أهمّيَّةِ هذه القراءةِ في فهم السّياق

قرأ الجُحْدُريُّ في رواية[4]: (إنَّ وليَّ اللّهِ) بياءٍ مشدَّدةٍ واسمَ الجلالةِ بالجرِّ، نقلها عنه أبو عمرو الدّانيُّ، أضافَ الوليَّ إلى الجلالةِ، وتخريجُها على ثلاثةِ أوجهٍ، الأوَّل: أن يكون وليُّ اللّهِ اسمَها، و﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ خبرُها، والمرادُ بالَّذي نزَّل الكتاب جبريلُ، يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء: 193]، وقولُه: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ [النّحل: 102]، وقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى

(1) البيت من بحر الطّويل، للفرزدق، وهو في ديوانه: 2/300.

(2) وهي رواية عن السوسي من النشر، يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر: 2/274، والدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر: 2/72.

(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 6/183، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 3/386.

(4) العكبريّ، إعراب القراءات السّبع وعللها: 1/217.

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: اللّه تعالى. والثّاني: أن يكون الموصوفُ بتنزيل الكتابِ هو اللّه تعالى، والمرادُ بالموصولِ النّبيُّ ﷺ، ويكون ثَمَّ عائدٌ محذوفٌ لفهم المعنى، والتّقدير: إنَّ وليَّ اللّهِ النّبيُّ الَّذي نَزَّل اللّهُ الكتابَ عليهِ، فحذفَ (عليه) كحذفهِ في قولِ الشّاعر[1]:

وإنَّ لساني شُهْدَةٌ يُشْتفى بها *** وهوَّ على مَنْ صَبَّه اللّه عَلْقَمُ

أي: صَبَّه اللّهُ عليه. والثّالثُ: أن يكونَ الخبرُ محذوفًا، تقديرُهُ: إنَّ وليَّ اللّهِ الصّالحُ، أو مَنْ هو صالح، وحُذف لدلالة قوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وكقولهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ أي: معذّبون[2].

بلاغةُ قصرِ الولايةِ الحقيقيِّ على اللهِ:

الدّلالةُ على قصرِ الولايةِ على المولى، ومجاورة الصِّفةِ لمن هو بها أولى

كان يمكنُ في غير القرآنِ أن يقال: (إنَّ اللّه وليّي)، ولكن عدلَ عن ذلك فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ المعنى تخطّى مجرَّدَ الإخبارِ عن ولايةِ اللّهِ لهُ إلى التّقوية، وقصرُ الولايةِ على اللّهِ وحده قصرُ صفة على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا[3]؛ لإبطالِ ولايتهم لآلهتِهم المزعومة، وليجاورَ الموصوف صفته؛ فيكون الحكمُ بالمسند (اسم الجلالة) مُعَلَّلًا بصفةٍ خاصَّةٍ به، تقطع قولَ كلِّ منكرٍ وجاحدٍ.

نكتةُ وصفِ اسمِ الجلالةِ باسمِ الموصولِ وصلتهِ:

التّنبيهُ على اختصاصِ الموصوفِ بجملةِ الصِّلةِ، وأثره في المعنى

في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، جيءَ باسم الموصولِ نعتًا لاسم الجلالة، لِلتَّنْبيه على أنَّ المَوصوفَ مُخْتَصٌّ بمَضمونِ هذه الصِّلَةِ؛ بحَيْثُ تُجْعَلُ طَريقًا لِمَعْرِفَته، ولِزيادَةِ التَّفْخيم لا لِلتَّعْريفِ؛ لِأنَّ اسمَ الجلالة أعرفُ المعارف، فإنْ أنكره الجاحدون؛ فإنَّهم لا

---

(1) البيت من بحر الطّويل، لرجل من همدان، يُنظر: الجرجاويّ، شرح التّصريح: 148/1، وبلا نسبة في تخليص الشّواهد، ص: 165، والمرادي، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 474، وابن منظور، لسان العرب: 478/15.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 542/5.

(3) كما في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ كما يشعر به الحصر الذي يفيده تعريف الطّرفين، كما في (صديقي زيد)، ينظر: الآلوسيّ، روح المعاني: 372/12.

يستطيعون إنكارَ حاجتِهم إليه في وقت الضُّرِّ، وافتقارهم إليه حينَ البأسِ والشِّدَّةِ، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾ [يونس: 12]، وفيهِ تَعْريضٌ ببطلان عبوديَّتِهم، وعجزِ آلهتهم؛ إذْ إنَّهم يتخبَّطون في عبادتهم خبطَ عَشْواء، ويقتحمون فيهِ العمايةَ العمياء، فلا كتابَ لهم على أثرِهِ يقتدون، ولا بِهِ يهتدون.

إيثارُ فعلِ ﴿نَزَّلَ﴾ دون سواه:

بـيـانُ رفـعـةِ الـكـتـابِ وعـلـوِّ مكانته وعظمة المُنَزِّل وجلالته

في قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾، أوثر الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ من التَّنزيل دون غيرِهِ من الأفعال، كالإرسالِ والإيحاءِ والإيتاء؛ لمناسبته السّياق في بيانِ رفعةِ هذا الكتابِ العالي الشَّأنِ في مقابل تدنّي هؤلاء المشركين؛ إذ إنَّهم يعبدون أصنامًا مخلوقةً، لم تخلُق شيئًا، ولا تملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولدلالةِ الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ على عِظَم مكانة المُنزِّل، والمُنَزَّل عليه، والمُنَزَّل لهم، ووثاقة الاعتصام باللّه، والالتجاء إليه، أي: كيف لا أتّخذ اللّه نصيرًا، وهو الَّذي رفع ذكري، وشرَّفني بإنزال الكتابِ العزيز؟

دلالة التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿نَزَّلَ﴾:

التَّعبيرِ بالماضي يـدلُّ عـلى شـدَّةِ ثـقـة الـرَّسـول بـربِّـه، وقـوَّةِ اعتصامهِ بحبلِه

في قوله: ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾، التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي يشيرُ إلى شدَّةِ ثقةِ الرَّسول ﷺ بربِّه، وقوَّةِ اعتصامهِ بحبلِه، واستحضارِ سوابقِ كرمه، وسوابغِ نعمه وفضله، فاللّهُ الَّذي تولّاه قديمًا، هو نفسُه الَّذي يتولّاه، وينصرُه على عدوِّه في كلِّ وقتٍ وحين.

دلالةُ صيغةِ (فعَّل) في قوله: ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾:

التَّنزيلُ للتَّكثير، والقرآنُ نزل نجومًا شيئًا بعد شيء[1]؛ لأنَّ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/5.

غرضُ التَّنزيلِ بصيغة (فعَّل) التَّكثيرُ والتَّدرُّجُ والتَّقويةُ على المدى

المرادَ النُّزول على سبيل التّدريج والتّنجيم[1]، وذهب بعضهم أنَّ (نزَّل وأنزل) بمعنًى واحدٍ[2]، والمعنى الأوَّل آثرُ وأولى؛ لأنَّ تنجيمَ التَّنزُّلِ يواكبُ تطوُّرَ الأحوالِ، ويقتضيه منهجُ الإقناعِ الطَّويل المدى، للتَّأكُّد بأنَّ عبادةَ غيرِ اللهِ باطلةٌ، وأنَّ دعاء ما يعبد المشركون من الأوثانِ هزُؤٌ باطل، وسُخْفٌ لا يرضاه لنفسه إلّا جاهلٌ سافل، أو أبلهٌ غير عاقل[3]، وأيًّا ما يكن؛ فإنَّ صيغة (فعَّل)، توحي بالتَّقوية والاعتناء والتَّعظيم.

دلالةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

الكتابُ المعجزُ هو الكتابُ الكاملُ في إعجازِه وبيانِه

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، (ال) في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهدِ، أي: الكتابُ المعهودُ، وهو القرآنُ الكريمُ، وفيها معنى التَّفخيم، أي: الكتابُ العجيب الكاملُ في إعجازِه وبيانِه، للدَّلالة على أنَّه الكتابُ الكامل الَّذي هو جديرٌ بأن يُسمَّى كتابًا، كأنَّ غيرَه ليس جديرًا بأن يسمَّى كتابًا؛ لأنَّهُ من عند الله تعالى.

إيثارُ اسمِ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ على (القرآن):

الدَّلالةُ على وثاقةِ القرآنِ وحفظه في الصُّدور، كما حُفِظَ في السُّطورِ

أوثرَ لفظُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ على لفظ (القرآن)، للإشارةِ إلى معنى (الكَتْب)؛ وهو الإلصاقُ بقوَّةٍ ودقَّةٍ، كإلصاقِ الإلزامِ والفرض[4] في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، فلفظُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هنا أنسبُ للسّياق؛ حيث إنَّ الكلامَ فيما مضى عن عجزِ آلهتِهم المزعومة عن نصرهم، فأثبتَ له هنا نقيضَ ما نفاهُ عنهم؛ لأنَّ تنزيلَ الكتابِ نصرٌ، وأيُّ نصرٍ؟ فكأنَّ فيه إيماءً لطيفًا إلى كَتْبِ النَّصرِ له، ومن ذا الَّذي يستطيع أن

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/97.

(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/167، والفارسيّ، الحجّة للقرّاء السّبعة: 2/161، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/168.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/442.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كتب).

يمحوَ أمْرًا قد كتبه اللّه، وأمَرَ به؟ قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21].

دلالةُ (الواوِ) بين الحاليَّةِ والعطف:

رَبْطُ ولايةِ اللهِ بتنزيلِ الكتابِ، تأكيدٌ على نصرِ الصّالحين أولي الألباب

في قوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، الواو حاليَّةٌ أو عاطفة[1]، فعلى الحاليَّة تكونُ فائدتُها ربْطَ ولايته سبحانه لعبادِهِ الصّالحين بتنزيل الكتاب الكاملِ المعجز، ولاشكَّ أنَّ تنزيلَ الكتابِ تأييدٌ من اللّهِ تعالى للمنزَّل عليه، ونُصْرة له، وعطفُها على جملةِ الصِّلة يجمع أمرين لاسم الموصول الواقع نعتًا لاسم الجلالة: أوَّلهما: ماضٍ مُحَقَّقٌ، وهو تنزيلُ الكتابِ، والآخرُ ثابتٌ مستمرٌّ، وهو كونه سبحانه يتولَّى الصّالحين، وفي كلا المعنيين برهانٌ على ولايةِ اللّهِ تعالى للنَّبيِّ ﷺ.

فائدةُ تقديمِ المسندِ إليه على المسند:

القصرُ وتأكيدُ الخبرِ من بلاغةِ تقديمِ المسندِ إليه في المركَّبِ الفعليِّ

في قوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، قُدّم المسندُ إليه ﴿وَهُوَ﴾ على المسندِ ﴿يَتَوَلَّى﴾ لتأكيدِ الخبر الفعليِّ، وإفادة الحصر، فلا يتولّاهم أحدٌ سواه[2]، واللّه كفيل بعبادِهِ الصّالحين، يحميهم من كلِّ أذيَّة وبليَّةٍ، ومن ينصره اللّه فلا غالب له، ومن لفَّهُ بحمايتِه، لم يضرَّه كيدُ كائدٍ، ولا تآمرُ متآمرٍ.

نكتةُ مجيءِ المسندِ جملةً فعليَّةً فعلها مضارع:

استمرارُ ولاية الصّالحين وتجدُّدها من وعْدِ الله لعباده

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، مجيءُ المسندِ جملةً فعليَّة فعلُها مضارع؛ لإفادة تجدُّدِ ولايته تعالى باختلاف أحوالِهم وحاجاتهم؛ وصيغةُ المضارع (يتولَّى) تفيدُ استمرارَ ولايته لهم، فلا تنفكُّ عنهم قيْدَ أُنْمُلَة، فمَجيءُ المُسْنَدِ فِعْلًا مُضارِعًا لِقَصْدِ الدَّلالَةِ

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/516.

(2) تقديم المسند إليه على الخبر الفعليِّ هنا لإفادة تقوّي الحكم لا محالة، ثمَّ يفيد مع ذلك قصر المسند على المسند إليه، فإنَّه لما كان تقديم المسند إليه، على المسند الفعليِّ في سياق الإيجاب، يأتي ليقوّي الحكم ويأتي للقصر على رأي الشَّيخ عبد القاهر وصاحب (الكشّاف)، كما صرَّح به في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [المزمّل: 20].

على اسْتِمْرارِ هذا التَّولّي وتَجَدُّدِه، وأنَّهُ سُنَّةٌ إلَهيَّةٌ، فكَما تَوَلَّى النَّبيَّ يَتَوَلَّى المُؤْمنينَ أيْضًا[1].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ دونَ غيرِهِ من الألفاظ:

الصَّلاحُ سببُ ولايةِ الصّالحين، وهم مناطُ القدوةِ للمؤتسين

تنويهًا بمقدارِ الصَّلاح؛ إذ جُعل صفةَ الأنبياء، وبَعْثًا لآحادِ النّاس على الدَّأب في تحصيل صفته، هذه بشارَةٌ لِلْمُسْلِمينَ المُسْتَقيمينَ على صِراط نَبيِّهم ﷺ، بأنْ يَنْصُرَهُمُ الله كَما نَصَرَ نَبيَّهُ وأولياءَهُ[2].

بلاغةُ التَّعريضِ في الآية:

تركُ مواجهةِ الفاسدِ بفسادِه، والاكتفاءُ بالتعريضِ به، مفتاحٌ لهدايته

في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، مفهوم المخالفةِ له: (وهو لا يتولَّى الطّالحين الفاسدين)، وفيه تعريضٌ بهؤلاء المشركين الَّذين فسدت قلوبُهم؛ فكفروا بالله تعالى، وجحدوهُ، وفسدت أعمالُهم؛ فعبدوا من دونه آلهةً أخرى، لا تملك لهم شيئًا، ولا تستطيع لهم نفعًا ولا ضرًّا.

بلاغةُ التَّذييلِ في الآية:

تقريرُ المضمونِ السّابق، يضمن الرَّبطَ بين السّياقات

قولهُ تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، أي: ومن عادتهِ أن يتولَّى الصّالحين من عباده، وينصُرَهم، ولا يخذُلَهم[3]، وهو لا يجعل الولاية خصوصيَّةً للرَّسول ﷺ، بل يقول لكلِّ واحدٍ من أتباعه: كن صالحًا في أيِّ وقت، أمامَ أيِّ عدوٍّ، ستجدِ الله، وهو يتولّاك بالنَّصر[4].

سرُّ العدولِ عن لفظ (المصلحين) إلى لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

المصلحُ صالحٌ يدعو بالفعالِ واستقامةِ الحالِ، قبل دعوتِه بالمقالِ

وعدلَ عن لفظ (المصلحين) إلى لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لمناسبة السّياق؛ إذ إنَّ الحديثَ عن معاداتهم النَّبيَّ ﷺ وصلاحُه ظاهرٌ لكلِّ ذي عينين، وولايةُ الله للصّالحين يدخل فيها ولايته للمصلحين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/224.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/224.

(3) أبو السّعود، تفسير أبي السّعود: 3/307.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4530.

من باب أولى، ولم يذكرِ (المصلحين) حتَّى لا يُضيِّقَ واسعًا، وليكون دفاعًا عن كلِّ صالحٍ في ذاته، ولو لم يكن قائمًا بدعوة الآخرين بالقال، فهو داعيةٌ بالفعال وصلاح الحال، كما أنَّ ذكر (المصلحين) يأتي عقيب فسادٍ، وليس هذا بمرادٍ هنا، حتَّى يُفيدَ عنايةَ اللّهِ تعالى ورعايته بالنَّبيِّ ﷺ بغضِّ النَّظر عن أفعال هؤلاء الكافرين.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوليُّ والنَّصيرُ:

الولايَةُ إخلاصٌ ومَوَدَّةٌ وتعاونٌ، والنُّصرةُ معونةٌ ودعمٌ وتضامن

مجيءُ لفظي (الوليِّ) و(النَّصيرِ) في سياقٍ واحد متعاطفين، دليلٌ على أنَّ بينهما فرقًا، فقد قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٠٧﴾ [البقرة: 107]، وأصلُ الوَليِّ جعل الثّاني بعد الأوَّل، من غير فصل من قَوْلهم: هذا يَلي ذَلِك وليًا، وولّاه اللّهُ، كَأَنَّهُ يَلي أمره، ولم يكِلْهُ إلى غَيره، وولّاه أمره، وكَله إليه، كأنَّه جعله بيَدِه، وتَولَّى أمر نَفسه: قامَ من غير وسيطة[1]، وأمّا (النَّصيرُ)؛ فإنَّه (فعيلٌ)، من قولك: (نصرتُكَ أنصرك، فأنا ناصرُك ونصيرك)، وهو المؤيِّد والمقوّي[2]. فالولايَة قد تكون بإخلاصِ المَوَدَّة، والنُّصرةُ تكون بالمعونةِ والتَّقوية، وقد لا تمكن النُّصرَة معَ حُصول الولايَة[3]؛ ولذلك جمعَ بينهما في كثيرٍ من الآيات[4].

نزَّلَ وأنزلَ:

(نـزَّل) يـدلُّ عـلى الـتَّـدرُّجِ والـتَّـكـثـيـر، و(أنزلَ) يدلُّ على الـنُّـزول دفعةً واحدةً غالبًا

ذهب فريقٌ من العلماء إلى التَّفرقةِ بينهما؛ فالمضعَّف العين (نزَّل)، يدلُّ على التَّدرُّج والتَّكثير، والمتعدّي بالهمزة يدلُّ على النُّزول دفعةً واحدة، ومن هؤلاء الزَّمخشريُّ، حيث يقول: "(فَإِنْ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 284.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/489.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 189.
(4) اجتمعا في ثلاثة عشر موضعًا، وهي كالآتي: البقرة: 107، 120، والنّساء: 89، 123، 173، والتّوبة: 74، 116، والعنكبوت: 22، والأحزاب: 17، 65، والشّورى: 8، 31، والفتح: 22.

قُلْتَ): لمَ قالَ: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 136] و﴿أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: 136]؟ (قُلْتُ): لِأَنَّ القرآنَ نَزَلَ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا في عِشْرين سَنَةً، بِخِلافِ الكُتُبِ قَبْلَهُ. انْتَهَى[1]. وذهب آخرون بأنّهما لغتان بمعنًى واحدٍ، والتَّضعيفُ للتَّعدية، ومن هؤلاء أبو حيّان، حيث إنَّه ردَّ على الزَّمخشريِّ، بقوله: وهذه التَّفْرِقَةُ بين (نزَّل) و(أنزل) لا تَصِحُّ؛ لِأَنَّ التَّضْعيفَ في (نَزَّلَ)، لَيْسَ لِلتَّكْثيرِ والتَّفْريقِ، وإنَّما هو لِلتَّعْدِيَةِ، وهو مُرادِفٌ لِلْهَمْزَةِ[2]، وأرى الاحتكام إلى السّياق، فما جاء بالقراءتين، وصحَّ المعنيان معًا؛ كانت كلُّ قراءة بمنزلة آية، وحُملا على التَّنوُّعِ في المعنى، وما امتنع اجتماعُ المعنيين فيهما؛ حملا على التَّوسُّع في اللُّغات.

الصّالحُ والمصلِحُ:

الـصّـالـحُ: من عمل ما يستقيم بـه حـالـهُ، والمـصـلِـحُ: من قـوَّمَ الـفـسـاد بالإصلاح

الصّالحُ: اسمُ فاعلٍ من (صلَح)، والصّالح عامل الصَّلاح الَّذي يقومُ به حاله في دنياه، والمصِلحُ: اسمُ فاعلٍ من (أصلح)، من أَصْلَحَ الشَّيءَ: أقامه بعد فسادٍ، والمصلح هو فاعل الصَّلاح يقومُ به أمر من الأمور، فلا يقالُ: إنَّ (المصلح) أبلغُ من (الصالح) بحجَّةِ أنَّ الأخير يدلُّ على صلاح الذّات، والأوَّل يدلُّ على تعدّي صلاحه إلى غيره؛ لأنَّ ذلك غيرُ مُسَلَّمٍ، فقد وُصف المصلحون مِنَ الأنبياء والمرسلين والأولياء بالصَّلاح كثيرًا[3]، وجاء الصَّلاحُ بمعنى الإصلاحِ، كقوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ [المنافقون: 10]، وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤﴾ [آل عمران:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 575/1.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 98/4.
(3) ورد في القرآن والسُّنّة الصّحيحة، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 39]، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران: 46]، ومن السنُّة حديث المعراج، وفيه: «مرحبًا بالنّبيّ الصّالح»، رواه الشّيخان.

114]، ومقام الإصلاح غير مقامِ الصَّلاحِ، وجاء الوصفُ بالمصلحِ في مقاماتٍ محدودةٍ[1]، تشير إلى مجيئه عقبَ فسادٍ، فتدبَّر! قيل: ولهذا لا يوصَفُ سبحانه بأنَّه مصلِحٌ، ولا يوصف بأنَّه صالح[2].

(1) ورد (المصلح) اسم فاعل من (أصلح) مفردًا وجمعًا في خمسة مواضع، هي كالآتي: [البقرة: 11، 220، والأعراف: 170، هود: 117، والقصص: 19].
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 308.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ [الأعراف: 197]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين كونِ اللهِ يتوَلَّى رسولَهُ والصّالحين، وأنَّ سواهُ لا ينصُرُ نفسَهُ ولا غيرَهُ

بعد ما بيَّن لهم أنَّ ناصرَهُ وظهيرَهُ هو اللّهُ وحده، قرَّرَ لهم أنَّ ما عداه ممّا يعبدونه من دونِ اللّه، أو ينادونهُ لدفع الضُّرِّ أو جلب النَّفع لا يستطيعون نصرَكم في أيِّ أمرٍ من الأمور، ولا ينصرون أنفسَهم إذا ما اعتدى عليهم أحدٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدۡعُونَ﴾: الدُّعاءُ: هو أنْ تُميلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنكَ، تَقولُ: دَعَوْتُ أدْعو دُعاءً، ودَعَوْتُهُ؛ إذا سألْتُهُ، وإذا استغثْتُهُ[1].

2) ﴿نَصۡرَكُمۡ﴾: المعنى المحوريُّ: الإمدادُ بما فيه زيادةٌ مناسبةٌ وقوَّة: كما تمدُّ النَّواصرُ الأودية والتِّلاعَ بالماء، وكما يمدُّ الغيثُ الأرضَ، والعطاء، ومنه جاءتِ النُّصْرةُ - بالضَّمِّ: حُسْنُ المعونةِ وإعانةُ المظلوم، ونَصَرَ اللّه المُسْلِمِينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ على عَدوِّهم، يَنْصُرُهُم نَصْرًا، وانْتَصَرَ: انْتَقَمَ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ أنَّ الأصنامَ المعبودةَ من دونِ اللهِ، لا تستطيعُ نصرَ نفسِها ولا غيرِها

أي: وإنَّ من تدعونهم لنصرِكم وجلْبِ النَّفعِ لكم ودفعِ الضُّرِّ عنكم عاجزون، فلا هم بالمستطيعين نصرَكم ولا نصرَ أنفسِهم[3]، وهذا تأكيدٌ بأنَّ هذه الأصنامَ أعجزُ من أن تنصر أحدًا، وأضعفُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دعو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نصر).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 145/9.

من أن تعينَ من يستنصرُ بها؛ لأنَّها لا تستطيعُ نفع نفسِها، ولا ضرَّ غيرِها.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواوِ) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾:

شتّانَ بين ولايةِ اللهِ النّاجزة، وقوّةِ الأصنامِ العاجزة

الواوُ عاطفةٌ على ما قبلَها، وهذا أيضًا أمرٌ مِنَ اللهِ جلَّ ثناؤه لنبيِّه ﷺ أن يقولَه للمشركين، أي: قل لهم: إنَّ اللهَ نصيري وظهيري، والَّذين تدعون - أنتم أيُّها المشركون - من دونِ اللهِ من الآلهة، لا يستطيعون نصرَكم، ولا هم مع عجزهم عن نصرتِكم يقدرون على نصرةِ أنفسِهم، فأيُّ هذين أولى بالعبادة وأحقُّ بالألوهيَّة؟ مَنْ ينصرُ وليَّه، ويمنعُ نفسه ممَّن أراده، أم منْ لا يستطيعُ نصر وليِّه، ويعجزُ عن منْعِ نفسِه ممَّن أرادهُ وبَغاه بمكروه؟[1].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ:

ورودُ الموصولِ مبتدأ يُلْفِتُ إلى شدَّةِ عجزِ الأصنامِ عن نفعٍ أو ضرٍّ

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، اسمُ الموصولِ في محلِّ رفْعٍ على الابتداء، والخبرُ ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾[2]، ودلالةُ الابتداء به في صدر الجملةِ المعطوفةِ على ما قبلَها؛ لفْتُ الانتباه إلى عجزِهم عن دفعِ الضُّرِّ عن أنفسِهم، فضلًا عن الدِّفاع عن غيرِهم.

نكتةُ استعمالِ اسمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

خروجُ الموصولِ عن معهودِ دلالتِه من بابِ الاستمالةِ والإقناع

(الَّذين) للعاقل، وتُستعمل في غيرِه لتنزيلِه منزلةَ العاقل[3]، وقد استُعملت هنا في غير العاقل: الأصنام وآلهتهم المزعومة، اعتدادًا بظاهرِ صنيع هؤلاءِ المشركينَ من دعاء الأصنام وعبادتهم، وهذا من قبيل استمالة الخصمِ، وإرخاءِ العِنان له في المجارَاة؛ ليعثر

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/223.
(2) النّحاس، إعراب النّحاس: 2/85.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 8/182.

حيث يرادُ تبكيته، وإجراء الكلام مع الخصم على سَنَنٍ يبعث للمُنصِف أن يتفكَّرَ فيه، ويُذْعِن للحقِّ.

إيثارُ الفعلِ ﴿تَدۡعُونَ﴾ دونَ مرادفاتِه:

إذا كان دعاءُ ما يُعْبدُ مِنْ دون اللهِ حرامًا، فعبادتُهُ آكدُ في الحرمة

يطلقُ الدُّعاء ويرادُ به العبادةَ، وهو في الأصلِ: النِّداءُ، وهو قسمان: عاديٌّ، وعباديٌّ، فما وجَّهه الدّاعي إلى مثلِه من طلبٍ يقدر المدعوُّ على إجابتِه، بمقتضى الأسبابِ العاديَّةِ؛ فهو دعاءٌ عاديٌّ، وما وجَّهه إلى من يعتقد أنَّ له قدرةً أو سلطانًا غيبيًّا فوق الأسباب العاديَّة؛ فهو العبادة، سواءٌ أكان المدعوُّ يستجيبُ له بقدرتِه الذّاتيَّةِ أم بتأثيره وشفاعتِه، ووساطته عند ذي القدرةِ الذّاتيَّةِ، والأوَّلُ دعاءُ الموحِّدين لا يتوجَّهون فيه إلّا إلى ربِّهم وحدَه، والثّاني دعاء المشركين الَّذين يتوجَّهون به إلى آلهتهم(1)، وإيثارُ الفعلِ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ لأنَّ إنكارَ صنيعِهم في دعاء الأصنام، يدلُّ على شدَّة إنكارِ عبادتهم من بابٍ أولى؛ إذ إنَّ خلوَّ الخطابِ من لفظ (العبادة) إشارةٌ إلى عدم تصوُّر وقوعِها لغيرِ اللّهِ تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارِعِ:

الإصرارُ على دعاءِ الأصنامِ الجامدةِ من مظاهرِ العبادةِ الفاسدةِ

أوثِر التَّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، وبالإضافةِ إلى ما يفيدُه المضارعُ من معنى التَّجدُّدِ والاستمرار الكائن في دعائِهم الأصنام، وعكوفِهم على هذه الحالةِ مدَّة طويلة، فيه معنى تقبيحِ الصّورة بعد استحضارها، فما أعظم غباءَ من يدعون أصنامًا، وعدمُ استحقاقها للدُّعاء والعبادة ظاهرٌ وجليٌّ لكلِّ ذي عينين!

بلاغةُ حذْفِ المفعولِ به:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ حُذِف المفعول به، إجراء

(1) محمّد بشير الهنديّ، صيانة الإنسان عن وسوسة الشّيخ دحلان، ص: 435.

للفعلِ المتعدّي إجراء اللازم، للدَّلالة على التَّعجُّبِ من فعلِهم، وغضِّ الطَّرف عن أصنامهم، أو أنَّ حَذْفَ المفعولِ لإفادةِ بطلانِ عمومِ ما يُدْعَى من دونِ اللّه تعالى، وعدمِ استحقاقِه للذِّكر، فضلًا عن العبادةِ.

بطلانُ جميعِ ما يُدْعَى من دونِ اللهِ تنزيهٌ لله عن عبادةِ ما سواه

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

قولُهُ: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾، تفيد المجاوزةَ عن عبادة اللّه، حالٌ من الفاعل في (تدعون)، أي: تدعون حال كونكم مجاوِزينَ اللّه، وهو خطاب للمشركين لبيان الحقِّ الَّذي يرفضونه، ولتثبيت القول في نفوسهم، وترسيخ الحقِّ في قلوبهم، ليخرج منها الوهمُ الَّذي عبَّر عنه المولى بأنَّه دعاءٌ من دونه، واللّه يريدنا أن نرفعَ الهمَّةَ لعبادةِ الأعلى، لا عبادةِ من هو دونَهُ.

دعوةُ المعبوداتِ من دونِ اللهِ تفيدُ مجاوزتَهم عبادةَ اللهِ

السِّرُّ في كلمةِ ﴿دُونِهِۦ﴾:

عدلَ عن (غيره)؛ لِأَنَّ غَيْرًا تَقَعُ على الْمُغايِرِ في جِنْسٍ أو في صِفَةٍ، فتقولُ: اشْتَرَيْتُ ثَوْبًا وغَيْرَهُ، فيُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ ثَوْبًا، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ غَيْرَ ثَوْبٍ، وقَلَّ مَنْ يَعْرِفُ هذا الفَرْقَ[1]، فأوثرَ التَّعبيرُ بـ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ للدَّلالةِ على تجاوزهم الحدَّ في عبادةِ غيرِ اللّه تعالى، مع عدمِ وجود أدنى شبَهٍ بين المعبودِ بحقٍّ وبين آلهتهم، أي: حالة كونكم مجاوزين اللّه، فإنَّ معنى (دونِ) أدنى مكانٍ من الشَّيءِ، ثمَّ استعير للتَّفاوت في الأحوالِ والرُّتب، ثم اتُّسع فيه؛ فاستعمل في كلِّ من تجاوز حدًّا إلى حدٍّ، وتخطَّى حكمًا إلى حكم[2].

الدَّلالةُ على تجاوزِهم الحدَّ، مع عدمِ وجودِ شبَهٍ بين المعبود بحقٍّ وبين آلهتِهم

فائدةُ إضافةِ كلمة (دون) إلى ضمير اسمِ الجلالة:

في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، أُضيفَتْ كلمةُ (دون) إلى ضميرِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 93/4.
(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 169/15.

اسمِ الجلالةِ، لبيانِ عجزِ آلهتهم بعد توكيدِ نصرةِ اللّهِ وولايتهِ لعبادهِ الصّالحين، وفي ذينك الأمرين تجليةٌ لصفاتِ المعبود، وتحليةٌ للتَّوحيد المقصود، حيث "إنَّ دعاءكم إيّاها وعدمه سواءٌ، فهي لا تنفع ولا تضرُّ، ولا تهدي ولا تهتدي، أمّا الرَّبُّ المعبود الَّذي بيده كلُّ شيءٍ؛ فهو اللّهُ"[1].

بيانُ تهافتِ الآلهةِ المزعومةِ، بعدَ توكيدِ نصرةِ اللهِ للصّالحين

إيثارُ النَّفي بالأداة (لا) دون (ما):

اختيارُ الأداةِ المناسبةِ من دقَّةِ السّياقِ القرآنيِّ في التَّعبيرِ عن المعاني

في قوله: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾، أوثرَ النَّفيُ بـ(لا)؛ لأنَّها أدلُّ على دوام النَّفي وطوله، وأنَّها للطّول، والمدُّ الَّذي في لفظها طال النَّفي بها وامتدَّ، وتنفي الحالَ المستمرَّ النَّفي في الاستقبال، فالإتيانُ بـ (لا) مُتَعيَّن هنا[2]، فناسبَهُ النَّفي بـ (لا) الَّتي ينفي بها المستقبل والحال، ولم ينفِ بـ (ما) الخاصَّة بالحال.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ دون مرادفاتِه:

نفيُ الاستطاعةِ نفيٌ للقدرةِ، ولا يكون نفي القدرة نفيًا للاستطاعة

أوثرَ التَّعْبيرُ بالفعل ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾؛ لأنَّ الاستطاعةَ أخصُّ من القدرة، فنفيُها نفيٌ للقدرة، فليس في طاقتِهم ذلك، أي: ليس لديهم استشعارُ القدرة، ولا يتأتّى منهم عملٌ، وسيأتي الفرقُ بين الاستطاعةِ والقدرةِ.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ:

الفعلُ المضارعُ مكرَّسٌ للاستمرارِ التَّجدُّديِّ، والإشعارِ بعجزهم

في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾، صيغةُ المضارعِ تفيدُ الاستمرارَ التجدُّديَّ عند أهل المعاني، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزِهم عن ذلك، ودخول النَّفي عليه يدلُّ على استمرارِ النَّفي، وفيه إشارةٌ إلى زيادة التَّهكم والتَّوبيخ لما هم عليه من عبادة الأصنام.

سرُّ العدولِ عن صيغة (لا ينصرونكم) إلى ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾:

نفيُ استطاعةِ نصرِهم أبلغُ من نفي نصرهم وهي من البيانِ

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 94/2.

(2) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 242/1.

نفيُ الاستطاعةِ نفيٌ لما عداها

المستوعب للدَّلالةِ؛ إذْ لا طاقة لهم على ذلك، ولو بمثقال ذرَّةٍ، ولا بوجهٍ من وجوه النُّصرة[1]، ويدخل في ذلك، الأمرُ المذكور دخولًا أوَّليًّا[2].

نكتةُ إضافةِ (نصر) إلى ضميرِ المخاطَبين:

توبيخُ القرآنِ على عبادةِ الأصنامِ، دليلٌ على بشاعةِ الفعلِ

في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾، أُضيفَ (نصر) إلى ضمير المخاطبين؛ لأنَّهم المعنيّون بالخطابِ لتوبيخِهم وتبكيتِهم على عبادة أصنامٍ عاجزة عن نصْرِهم في أيِّ أمرٍ من الأمور، بل هي غيرُ قادرةٍ عن فعلِ أيِّ شيءٍ، وللتَّوصُّل بالإضافةِ إلى عطفِ ما بعدَهُ عليه.

دلالةُ عطفِ جملة: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ على ما قبلَها:

تعانقُ المعاني في الجملتين المتلاحقتين ترقٍّ في بيانِ عجزِ معبوداتهم

عُطِفَت جملةُ: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ على ما قبلَها؛ للتَّرقّي في بيان عجزِ معبوداتهم من أعلى شيءٍ يطلبونه منهم: وهو نصرُهم، إلى أدنى شيءٍ: وهو نصْرُ أنفسهم، أي: ولا أنْ يَنْصُروا أَنْفُسَهُم على مَنْ يُحَقِّرُ أمرَهُم، أو يَسْلُبُهُم شَيْئًا مِمّا وُضِعَ مِنَ الطِّيبِ أوِ الحُلِيِّ عليهم، وقد كَسَّرَ إبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الأَصْنامَ، فجَعَلَهم جُذاذًا، فما اسْتَطاعوا أنْ يَدْفَعوهُ عَنْ أنْفُسِهم، ولا أنْ يَنْتَفِعوا منه لَها[3].

علَّةُ التَّكرارِ لما سبق:

الأوَّلُ للتَّقْريعِ، والثّاني للفَرْقِ بين مَنْ تجوزُ لَهُ العِبادَةُ، ومَنْ لا تجوزُ له

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، وهذا المعنى مذكورٌ في قوله: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾ [الأعراف: 191 - 193]، فالمُرادُ منه وصْفُ الأصْنام بهذه الصِّفاتِ، وهذه الأشْياءُ قد صارَتْ مَذْكورَةً في الآياتِ المُتَقَدِّمَةِ، فما الفائِدَةُ في تَكْريرِها؟ قالَ الواحِديُّ: إنَّما أُعيدَ هذا المعنى؛ لِأنَّ الأوَّلَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/199.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/136.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/443.

مَذْكورٌ على جِهَةِ التَّقْريعِ، وهذا مَذْكورٌ على جِهَةِ الفَرْقِ بين مَنْ تَجوزُ لَهُ العِبادَةُ، وبين مَنْ لا تَجوزُ، كَأَنَّهُ قيلَ: الإِلَهُ المَعْبودُ يَجِبُ أَنْ يَكونَ بِحَيْثُ يَتَوَلَّى الصّالِحينَ، وهذه الأَصْنامُ لَيْسَتْ كَذلك، فلا تكون صالِحَةً لِلْإِلَهيَّةِ[1]. وقال ابن عطيَّة: "إنَّما كرَّر؛ لأَنَّ أَمْرَ الأصنام وتعظيمها كان متمكِّنًا من نفوسِ العرب في ذلك الزَّمن، ومستوليًا على عقولها؛ فأوعب القول في ذلك لطفًا من الله تعالى بهم"[2]، وقد كرَّر سبحانه هذا لمزيد التَّأكيد والتَّقرير، ولما في تكرار التَّوبيخ والتَّقريع، من الإهانةِ للمشركين والتّنقُّص بهم، وإظهارِ سخفِ عقولهم، وركاكة أحلامهم[3].

فائدةُ تقديمِ المفعولِ على الفعل:

الاختصاصُ في المعنى، والتَّشاكلُ في المبنى، من البيانِ البليغِ

في قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، تقديمُ المفعولِ على فعلهِ لإفادة الاختصاصِ، وله هنا معنى لطيفٌ، وهو أنَّهم لو كان لهم طاقةٌ وقدرةٌ على الدِّفاع؛ لدافعوا عن أنفسهم، وهذا لم يحدث، كما أنَّ التَّقديمَ هنا من أجل المشاكلةِ لرؤوس الآي، ومراعاةِ حسن الانتظام، واتِّفاق أعجاز الكلم، فيكون في التَّقديم مراعاة لجانب اللَّفظ والمعنى جميعًا، فالاختصاص أمرٌ معنويٌّ، والتَّشاكل أمرٌ لفظيٌّ[4].

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في ﴿نَصۡرَكُمۡ﴾ و﴿يَنصُرُونَ﴾:

الإشارةُ إلى انتفاءِ نصْرِهم بسبب استحكام عجزِهم

مجيءُ فعلِ كلٍّ من ﴿نَصۡرَكُمۡ﴾ و﴿يَنصُرُونَ﴾ من مادَّة (نصر)؛ لأنَّهما يرجعان في اللَّفظ إلى أصلٍ واحد، وفيه إشارةٌ إلى انتفاءِ ذَيْنِكَ الأَمْرَيْنِ (نصرهم، ونصر أنفسهم)، لانتفاء الأصل؛ إذْ إنَّهم عاجزونَ بالكليَّة، كما يبدو بديع هذا الجناس في لذَّة وقعه على السَّمع؛ لسهولتهِ وانسجامه.

---

(1) الواحديّ، البسيط: 536/9.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 184/6.
(3) القنّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 107/5.
(4) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 37/2.

المشاكلةُ في تسميَةِ دفع الضُّرِّ نصرًا:

بيانٌ لعجْزِهم عن إيصال المنافعِ الوجوديَّةِ والعدميَّةِ إلى عبدتهم وإلى أنفسِهم

في قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، أي: إذا اعتراهم حادثةٌ من الحوادث، لا يدفعونها عن أنفسهم، وإيرادُ النَّصر للمشاكلة[1]، وهو مجازٌ في لازم معناه، وهذا لتأكيد العجز والاحتياج المنافين لاستحقاق الألوهيَّةِ، وهذا بيانٌ لعجزهم عن إيصال منفعةٍ ما من المنافع الوجوديَّةِ والعدميَّةِ، إلى عبدتهم وأنفسِهم، بعد بيانِ عجزِهم عن إيصال منفعةِ الوجود إليهم، وإلى أنفسهم[2].

نكتةُ استعمالِ صيغةِ المضارِعِ:

إفادةُ استمرار النَّفي، والإشارةُ إلى استحضارِ الصّورة

في قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، جاء الفعلُ بصيغةِ المضارع المنفيِّ، لإفادة استمرارِ النَّفي المفهومِ في قوله: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾، كما أنَّ فيه إلماحةً إلى استحضارِ صورة المضارع، وهي صورةٌ متكرِّرة، لا يكاد يمرُّ يومٌ حتَّى يشاهدوها، وهي صورةُ عجزِ الأصنام عن دفع الضُّرِّ عن أنفسِها، أيْ: "وَهُم على كَوْنِهم مَخْلوقِينَ غَيْرَ خالِقِينَ لِشَيْءٍ، لا يَسْتَطيعونَ لِعابِديهم نَصْرًا على أعْدائِهم، ولا يَسْتَطيعونَ لِأنْفُسِهم نَصْرًا على مَنْ يَعْتَدي عَلَيْها بإهانَةٍ لَها، أو أخْذِ شَيْءٍ مِن طيبِها أو حُليِّها، كَما قالَ: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]، أيْ: فهُم يَحْتاجونَ إلَيْكُم في تَكْريمِهم، وأنْتُم لا تَحْتاجونَ إليهم، بَلْ أنْتُمُ الَّذينَ تَدْفَعونَ عنهم، وتَنْصُرونَهُم بالنِّضالِ دونَهُمْ"[3].

علاقةُ الفاصلةِ بالسّياقِ، ونوعها:

جاءتِ الفاصلةُ قاصمةً لظهورِ المستنصرينَ بالآلهةِ العاجزة

في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، جاءت الفاصلةُ فاصلةً للآية الكريمة متناسبةً مع المعنى؛ حيث إنَّ السّياق في الرَّدِّ على

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 305/3.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 438/9.

هؤلاء المشركين في زعمهم أنَّ لمعبوداتهم حقًّا في العبوديَّةِ، وأنَّ لهم قوَّةً ومنَعة بهم، فكانتِ الفاصلةُ كالقاصمة؛ إذْ إنَّها نفتْ أن يكون لهم أدنى قوَّةٍ، وهذه فاصلة مُصَدَّرة؛ لتقدُّم كلمة (نصر) قبلها(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّعاءُ والعبادةُ:

العبادةُ: اسمٌ جامعٌ لما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ، والدُّعاءُ: طلبُ عنايتِهِ ومعونتِهِ

حلَّتِ العبادةُ محلَّ الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]، وأخبر النَّبيُّ ﷺ: «أنَّ الدُّعاءَ هو العبادة»(2) ولكن يبقى لكلِّ لفظٍ معناه الخاصُّ به، فالعبادة: اسمٌ جامع لكلِّ ما يحبُّهُ اللّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، الظّاهرة والباطنة(3)، فهي كلُّ ما كان طاعةً للّه تعالى، أو قربة إليه، أو امتثالًا لأمره، ولا فرق بين أن يكون فعلًا أو تركًا(4). والعبادةُ أنواعٌ كثيرة: منها الخوفُ والرَّجاء والتَّوكُّل والرَّغبة والرَّهبة، والإنابة والاستعانة والاستغاثة، فالدُّعاء لغةً: الطَّلبُ والابتهال، يقال: دعوتُ اللّه أدعوه دعاء: ابتهلت إليه بالسُّؤال، ورغبت فيما عنده من الخيرِ، ودعا اللّه: طلبَ منه الخيرَ ورجاه منه، ودعا لفلان: طلب الخيرَ له، ودعا على فلان: طلبَ الشَّرَّ، والدُّعاء في الاصطلاح هو: "استدعاءُ العبدِ ربَّه ﷻ العنايةَ، واستمدادُه إيّاه المعونةَ"(5).

الاستطاعةُ والقدرةُ:

الاستطاعةُ أخصُّ من القدرةِ، وكلُّ مستطيعٍ قادرٌ، وليس كلُّ قادرٍ مستطيعًا

الاستطاعةُ أخصُّ من القدرةِ، فكلُّ مستطيعٍ قادرٌ، وليس كلُّ قادرٍ بمستطيعٍ؛ لأنَّ الاستطاعةَ: اسم لمعانٍ يتمكَّن بها الفاعل ممّا يريده

(1) وهو أن تكون الفاصلة ذاتها متقدّمة في الآية، وعلى هذا، فدلالة التَّصدير دلالة لفظيَّة.

(2) أخرجه البخاريّ في الأدب المفرد، برقم: (714)، والتِّرمذيّ في السنن، برقم: (2969)، وإسناده صحيح، قال الإمام النّوويّ في الأذكار: 333/1، قال التّرمذي: حديث حسن صحيح.

(3) ابن تيميّة، العبوديَّة، ص: 8.

(4) أبو يعلى، العدَّة في أصول الفقه، ص: 163.

(5) الخطّابي، شأن الدّعاء، ص: 4.

من أحداثِ الفعلِ، وهي أربعةُ أشياء: إرادته للفعلِ، وقدرته على الفعل؛ بحيثُ لا يكون له مانعٌ منه، وعلمه بالفعل، وتهيُّؤ ما يتوقَّف عليه الفعل[1]، والاستطاعةُ انقيادُ الجوارح للفعل، وقد يعبَّر بنفي الاستطاعةِ عن ثقلِ الفعل على الجارحة، كقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ١٠١﴾ [الكهف: 101]، أي: إنَّه يثقل عليهم استماع القرآن، ليس أنَّهم لا يقدرون على ذلك، وأنت تقول: لا أستطيعُ أنْ أبصر فلانًا؛ تريد أنَّ رؤيته تثقُل عليك، وجاءت الاستطاعةُ بمعنى الإجابةِ، وهو قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، أي: هل يجيبك إلى ما تسأله؟ والقدرة: هي ما أوجبَ كون القادر عليه قادرًا، ولذلك لا يوصف اللهُ تعالى بأنَّه مستطيعٌ، ويوصف بأنَّه قادرٌ على كذا لكنَّه لا يريده، والإنسان يوصف بأنَّه قادرٌ على أمرٍ، ولكن يمنعه منه مانع، أو لا علم له به أن يعوزه كذا، فظهر أنَّ القدرة أعمُّ من الاستطاعة، والاستطاعةُ أخصُّ من القدرة[2].

(1) الكفويّ، الكليّات: 161/1، 47/2، والرّاغب، المفردات، ص: 461، 595.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين عجزِ الآلهة عن النَّفع والضُّرِّ، وبين كونِها لا تسمعُ ولا تبصرُ شيئًا

لمّا ذكرَ عجزَ آلهتِهم الَّتي يدعونها من دون اللّهِ عن جلبِ النَّفع أو دفع الضُّرِّ عن أنفسها، بلْه عن غيرها - ترقَّى في بيان عجزها عن السَّماع والإبصار، فلا يُرجى منها خير ألبتة، فبَعْدَ أنْ نَفَى قُدْرَتَهُم على النَّصرِ؛ قَفَّى عليه بنَفْيِ قُدْرَتِهم على الإرْشادِ إليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنظُرُونَ﴾: مِنَ النَّظر، وهو تَأمُّلُ الشَّيْءِ ومُعايَنَتُه، ثُمَّ يُسْتَعارُ، ويُتَّسَعُ فيه، فيُقالُ: نَظَرْتُ إلى الشَّيْءِ أَنْظُرُ إليه؛ إذا عايَنْتُهُ، والنَّظَرُ: تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشَّيءِ ورؤيَتِه وفحصه، وقد يطلق، ويرادُ به تصويب عين الشَّخص أو التِّمثال إلى شيءٍ دون إدراك، وهو المراد هنا[2].

2) ﴿يُبۡصِرُونَ﴾: من البصر، يُقالُ: رَأيْتُه لَمْحًا باصِرًا، أيْ: ناظِرًا بتَحْديقٍ شَديدٍ. ويُقالُ: بَصُرْتُ بالشَّيْءِ؛ إذا صِرْتَ به بَصيرًا عالِمًا، وأبْصَرْتُهُ؛ إذا رأيْتَهُ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ أنَّ الأصنامَ لا تسمعُ هدايةً، ولا تبصرُ بأعينِها الجامدةِ شيئًا

أي: وإن تدعوا هذه الأصنامَ إلى الهدايةِ والرَّشادِ، لا يسمعوا دعاءَكم، فضلًا عن المساعدة والإمداد، وتراهم يقابلونَكَ بعيونٍ مصوَّرةٍ، كأنَّها ناظرةٌ، وهي جمادٌ لا تبصر؛ لأنَّ لهم صورةَ الأعينِ، وهم لا يرون بها شيئًا.

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 443/9.

(2) ابن فارس، معجم المقاييس، والرّاغب، المفردات: (نظر).

(3) ابن فارس، معجم المقاييس، والرّاغب، المفردات: (بصر).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾:

الواو عاطفةٌ على جملة: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾، لبيان عجزهِم عمّا هو أدنى من النَّصر، وهو مجرَّدُ السَّماع، والمعنى: وإن تَدۡعوهُم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصِّلون به مقاصدَكم على الإطلاقِ، فإنَّهم لاَ يَسۡمَعون لكم دعاءً، ولا يلبّون لكم طلبًا، فضلًا عن المساعدة والإمدادِ[1].

من دعا غيرَ الرَّحمنِ، آبَ بالخيبةِ والخسرانِ

إيثارُ (إن) على (إذا):

في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ أوثرت (إن) على (إذا)؛ لأن استعمال (إن) للتَّنبيه إلى ضعف الاحتمالِ، والشَّكِّ في وقوع الفعلِ؛ للتَّلميح بسفاهة من يقدِمُ على دعوة الأصنامِ، وحماقةِ من يفعلُ ذلك دونَ أدنى تأمُّل في عجزها.

من دعا من لا يفقَهُ ولا يسمعُ، لا يستحقُّ أن يحترَمَ ولا أن يُرفعَ

دلالةُ فعلِ الشَّرطِ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾:

أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ دونَ (تسألوهم) أو (تستهدوهم)؛ للدَّلالة على نفي القليل، وهو الدُّعاء، ممّا يكون أدلَّ على نفي الكثير، وهو ما فوقه من السُّؤالِ أو طلب الهدايةِ، ولأنَّ وقوعَ فعل الدُّعاءِ شرطًا - دليلٌ على تكراره منهم، فالعجبُ كلُّ العجب ممَّن يعلم أنَّه مهما يكن من دعاء لهذه الأصنام، فإنَّها لا تسمع، فضلًا عن أنَّها لا تستجيب، ولم يُجرَّبْ عليها أنَّها هَدَت طالبًا للهدايةِ في يومٍ ما.

نفيُ القليلِ أدلُّ على نفي الكثير، ومعدومُ النَّفعِ لا ينفعُ

فائدةُ صيغةِ المضارعِ:

في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾، استُعمِل الفعل المضارع؛ للدَّلالةُ على تجدُّد دعائهم واستمراره، كما يشيرُ إلى دعوةِ هؤلاء المشركين إلى تدبُّر أمرهم، فلو نظروا إلى أنفسِهم في مرآةِ الحقيقة لازدرَوا أنفسَهم؛ إذۡ كيف يُطيقون استحضارَ

تجدُّدُ دعائِهم واستمرارُهُ، استجداءٌ من الميؤوس منهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/307.

صورتهم - وهم الملأ - يُطأطِئون رؤوسَهم لأصنامٍ لا تسمع، طالبين منهم هداهم؟

سرُّ التَّعبيرِ عن المفعولِ بالضَّميرِ المتَّصلِ:

دعوةُ الأصنامِ إلى الهدى، زيادةٌ في التَّهكُّم والاستهزاء

في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، التَّعبير عن المفعول - الأصنام أو المشركين - بالضَّميرِ المتَّصل نوع تهكُّم؛ إذْ كيف يعدّون هذه الأصنامَ أهلًا للخطاب، فتُدعَى إلى الهدى؟ يقولُ جلَّ ثناؤه لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: قل للمشركين: وإن تدعوا - أيُّها المشركون - آلهتَكم إلى الهدى، وهو الاستقامةُ إلى السَّداد، لا يسمعوا[1]، وذهب الحسنُ إلى أنَّ المرادَ بهذا: المشركون، فيكون المعنى: وإن تدعوا - أيُّها المؤمنون - المشركين إلى ﴿ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾، أي: لا يعقلوا بقلوبهم[2].

العدولُ عن (وإنْ تهدوهُمْ):

انتفاءُ الدَّعوةِ والاستجابةِ دليلٌ على يأس هؤلاء، وعجز أولئك

أوثرَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، وعدلَ عن (وإنْ تهدوهُمْ) وهو أخصرُ؛ لاستبعاد حصول مجرَّد الدَّعوة منكم، واستحالةِ وقوع الاستجابةِ منهم، ولا يستقيم وضع (تهدوهم) موضعه؛ لأنَّ فيه رائحة القدرةِ على السَّماع وهذا غيرُ مُتَحَقِّقٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ بدلًا من غيرِه:

الدَّلالةُ على ما في دعوتهم من الإغراءِ لما فيه نفعُهم ونجاتهم

أوثرَ التَّعبيرُ بـ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ للدَّلالةِ على ما في دعوتِهم من الإغراءِ لما فيه نفعهُم وصلاحهُم، والهُدى على هذا الوَجْهِ ما يُهْتَدَى إليه، والمَقْصودُ مِن ذِكرِه أنَّهُم لا يَسْتَجيبونَ إذا دَعَوْتُموهُم إلى ما فيهِ خَيْرُهُم، فيُعْلَمُ أنَّهم لَوْ دَعَوْهُم إلى غَيْرِ ذلك؛ لَكانَ عَدَمُ اتِّباعِهم دَعْوَتَهُم أولَى[3].

سرُّ العدولِ عن عبارة (لا يهتدوا):

عُدِلَ عن قول: (لا يهتدوا) إلى قول: ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾، لأنَّ نفيُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 324/13.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 537/9.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 218/9.

السَّماعِ عنهم أبلغُ من نفي الاهتداءِ؛ إذ إنَّه أدلُّ على عجزِ آلهتِهم، والمبالغةُ في نفورِ الكفّار وعدمِ استجابتهم، وذلك لأنَّ قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ يحتملُ أن يريدَ الأصنامَ، فيكون تحقيرًا لهم، وردًّا على من عبدها، فإنَّها جمادات لا تسمع شيئًا، فيكون المعنى كالَّذي تقدَّمَ، أو يريد الكفّار، ووصفهم بأنَّهم لا يسمعون، يعني: سماعًا ينتفعونَ به، لإفراطِ نفورهِم، أو لأنَّ اللهَ طبعَ على قلوبهِم[1].

نفيُ السَّماعِ مطلقًا أكثرُ دلالةً على عجزِ آلهتِهم المزعومة

سرُّ المخالفةِ بين قَوْلِه: ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ وقَوْلِه قبلُ: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾:

ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ قوله: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾؛ لبيان عجزِهم عمّا هو أدنى من النَّصرِ المنفي عنهم وأيسر، وهو مجرَّدُ الدَّلالة على البغيةِ والإرشاد إلى طريق حصولها من غير أن تحصلَ للطّالب، وذكر هنا قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ أي: دعاءكم فضلًا عن المساعدة والإمداد، وهذا أبلغُ من نفي الاتِّباع، وقال الواحديُّ: إنَّ ما مرَّ للفرقِ بين من تجوز عبادتُه وغيره، وهذا جوابٌ وردٌّ لتخويفهم له ﷺ بآلهتهم[2].

بيانُ أنَّ من عجزَ عن الدَّلالةِ والإرشادِ، فهو عاجزٌ عن المساعدةِ والإمدادِ

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ﴾:

الواو استئنافيَّةٌ[3]، جُمْلَةٌ مبتدِئَةٌ لِبيانِ عَجْزِهم، أو حاليَّةٌ، أيِ: والحالُ أنَّكَ تَراهُم يَنْظُرونَ إِلَيْكَ حال كَوْنِهم لا يُبْصِرونَ[4]، "أي: وترى الأصنامَ رأيَ العين يُشبهون النّاظرين إليك، ويخيَّلُ إليك أنَّهم يبصرونك، لمّا أنَّه صنعوا لها أعينًا مركَّبةً بالجواهر المضيئة المتلألئة، وصوَّروها صورةَ مَنْ قلبَ حدَقتَه إلى الشَّيء ينظُر إليه، والحالُ أنَّهم غيرُ قادرين على الإبصار"[5].

ماذا ينفعُ مَنْ ينظر؛ إذا نظر، ولم يبصر

(1) ابن جزّي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/317.

(2) الواحديّ، التَّفسيرُ البسيط: 9/537، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/307، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/134، 136.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/516.

(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/317.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/307.

دلالةُ الخطابِ في الفعل ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾:

توجيهُ الخِطابِ إلى كلِّ فردٍ من المشركينَ، أو خطابٍ إلى النَّبيِّ الأمين

في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾، توحيدُ الضَّمير في (تراهم) مع رجوعِه إلى المشركين لتوجيهِ الخِطابِ إلى كلِّ واحدٍ منهم، لا إلى الكلِّ من حيثُ هو كلٌّ الخطاباتِ السّابقةِ تنبيهًا على أنَّ رؤيةَ الأصنامِ على الهيئةِ المذكورةِ لا تتسنَّى للكلِّ معًا، بل لكلِّ من يواجهها[1].

دلالةُ التَّشبيهِ البليغِ في الآية:

أسوأُ العمى نظرٌ دونَ بصرٍ، ومن عميت بصيرَتُه لم ينفعْهُ ناظرُه

في قولِه: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، لَيۡسَ المُرادُ مِنَ النَّظَرِ حَقيقَةَ النَّظَرِ، إنَّما على التَّشبيه: وتَراهُم يَنۡظُرونَ إِلَيۡكَ، أَيۡ: كَأنَّهُم يَنۡظُرونَ إِلَيۡكَ، كَقَوۡلِه تَعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحجّ: 2]، أَيۡ: كَأَنَّهُم سُكارَى، هذا قَوۡلُ أَكۡثَرِ المُفَسِّرينَ[2]، أي: يُشۡبِهون النّاظرين إليك؛ لأنَّهم صوَّروا أصنامهم بصورةِ مَن قلب حدَقتَهُ إلى الشَّيء ينظرُ إليه، وهُم لا يُبۡصِرونَ، وهم لا يدركون المرئيَّ[3]، وهو من التَّشبيه البليغ البديع بحَذۡف حرف التَّشۡبيهِ للمُبالَغَة، فإن حَمَلۡناها على المُشۡرِكينَ؛ فالمعنى: أنَّهُم وإنۡ كانوا يَنۡظُرونَ إلى النّاسِ إلّا أنَّهُم لِشدَّةِ إعۡراضِهم عَنِ الحَقِّ لَم يَنۡتَفِعوا بذلك النَّظَرِ والرُّؤۡيَةِ، فصاروا كَأَنَّهُم عُمۡيٌ[4]، فإن كان هذا من وصف الأصنام، فقوله: ينظرون، مجازٌ، وقوله: لا يبصرون، حقيقةٌ؛ لأنَّ لهم صورةَ الأعين، وهم لا يرون بها شيئًا، وإن كان من وصف الكفّار، فـ﴿يَنظُرُونَ﴾ حقيقةٌ، و﴿لَا يُبۡصِرُونَ﴾ مجازٌ على وجه المبالغةِ، كما وصفهم بأنَّهم لا يسمعون[5]؛ فإنَّهم كانوا ينظرون إلى صورةِ النَّبيِّ ﷺ بالحواسِّ الظّاهرة، ولا يبصرون صورةَ نبوَّتِه ومعناه بالحاسَّةِ الباطنةِ الَّتي

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/306، 307.

(2) البغويّ، معالم التنزيل: 3/316.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/189.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/434.

(5) ابن جزّي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/317.

هي بصرُ القلب[1]، أو أنَّها استعارةٌ تمثيليَّة؛ فقد شُبِّهت حالهم الَّتي يلوح لهم فيها الحقُّ ولا يعرفونه، ويبرق لهم النّور ولا يعرفونه، بحال الَّذين ينظرون، ولا يبصرون؛ لأنَّها رؤيةٌ لا ترى الحقَّ، ولا تضع أيديهم عليه، فهم في ضلالٍ مبينٍ، واللّه ﷻ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم[2].

إيثارُ الفعلِ ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ دون مرادفاتِه:

اتِّساعُ المعنى، وائتلافُ اللَّفظِ مع المعنى، من بليغِ البيان

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾، أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ لاتِّساع معناهُ، فهو إمّا من الرُّؤية البصريَّة، وإمّا بمعنى الحسبان، فمَعْناهُ: تَحْسَبُهُم أنَّهُم يَنْظُرونَ إلَيْكَ مَعَ أنَّهُم في الحَقيقَةِ لا يَنْظُرونَ، أيْ: تَظُنُّ أنَّهُم يَنْظُرونَكَ مَعَ أنَّهُم لا يُبْصِرونَكَ[3]، مجيءُ فعلِ الرُّؤية متناسبٌ مع النَّظرِ والبصرِ، وكلُّها من وادٍ واحدٍ، وهو من ذروة البلاغةِ وقمَّة البيانِ؛ حيثُ ائتلافُ الألفاظِ مع المعاني.

سرُّ اختيارِ صيغةِ المضارِع:

من عميَ عن الحقائق؛ اضطربَ ميزانُهُ في التَّقييمِ والتَّرجيح

في قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، صيغةُ المضارعِ هنا تدلُّ على استمرارِ هذه الرُّؤيةِ؛ لاستمرارِ ما هم عليهِ مِنَ النَّظر، دون البصرِ، سواءٌ أكان المقصودُ الأصنامَ أم الكفّارَ، "أمّا الأصنامُ؛ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئًا أبدًا، إذ كانت جمادًا لا حياة فيه، ولا شعورًا له، وأمّا المشركون، وإن كانت لهم آذان تسمعُ، وعيونٌ تبصرُ، وعقولٌ تعقلُ، فإنّهم لا يسمعون إلّا أصواتًا، ولا يبصرون إلّا صورًا، ولا يعقلون إلّا أوهامًا"[4].

التَّعبيرُ عن المفعولِ بضميرِ الغائبينَ:

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾، عدولٌ عنِ التَّعبيرِ باسمِ

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 198/3.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3040/6.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 434/15.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 543/5.

أسلوبُ الاحتقارِ والتَّهكُّمِ والسُّخريةِ، دليلٌ على هوانِهم وقلَّةِ شأنِهم

الإشارة، مثلًا: (وترى هؤلاء)، إلى ضميرِ الغائبينَ في ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾، وهو يدلُّ على احتقارِهم والاستهانةِ بهم والتَّهكُّم والسُّخرية منهم، كما يشيرُ الجمعُ إلى أنَّهم سواءٌ في الحكم، فكلُّ واحدٍ من المرئيِّ ينطبقُ عليهِ هذا الحكمُ المذكورُ، فلا يُبصرُ وإن كان يَنظُر، كما يشيرُ ضميرُ الغائبِ إلى غيابِ حاسَّةِ البصرِ أو البصيرةِ، وهم إذْ فقَدوا السَّمع لا يسمعونَ نداءً ولا دعاءً، ممَّن يعبدونهم ولا من غيرهم، وإذْ فقدوا البصرَ، لا يبصرونَ حاله وحال خصمهِ، فكيف يُرجى منهم نصرٌ وشدُّ أزرٍ، أو أيُّ معونةٍ أخرى، أو كيف يُخشى منهم إيصالُ ضُرٍّ وأذًى لمن يحتقرُهم؟[1].

دلالةُ الفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾ واستعمالِ صيغةِ المضارعِ في السّياقِ:

الإشـارةُ في فعلِ الاستمرارِ (يَنظرونَ)، إلى مواجهةِ موضعِ عينيْ ناظريه

التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾ يشيرُ إلى مواجهة موضع العينين لناظريه، كما أنَّ صيغةَ المضارعِ تدلُّ على استمرارِ هذا الحالِ من النَّظرِ الشَّكليِّ الَّذي لا روحَ فيه، أي: وتَراهُم - أيُّها المُخاطِبُ - يَنْظُرون إلَيْكَ بما وُضِعَ لهم مِنَ الأعْيُنِ الصِّناعيَّة، وجَعْلُها موَجَّهَةً إلى الدّاخلِ عَلَيْها كَأنَّها تَنْظُرُ إليه، وتَراهُم - أيُّها الرَّسولُ - يَنْظُرونَ إلَيْكَ، وهُم لا يُبْصِرونَ ما أوتيتَ مِن سَمْتِ الجَلالِ والوَقارِ الَّذي يُمَيَّزُ به صاحِبُ البَصيرَةِ بين أولي الجِدِّ والعَزْمِ، والصِّدْقِ في القَوْلِ والفِعْلِ، وبين أهْلِ العَبَثِ والهَزْلِ[2].

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡكَ﴾، ودلالته الإعرابيَّة:

شبهُ الجملةِ (إلَيكَ) يفيدُ تنبيهَ المخاطبِ إلى جمودِ نظرِهم تُجاهَ المقابلِ

قولُه: ﴿إِلَيۡكَ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بالفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ فالنَّظَرُ المَقْرونُ بحَرْفِ (إلى) لَيْسَ اسمًا للرُّؤْيَة، بَلْ لِمُقَدِّمَةِ الرُّؤْيَة، وهي تقليبُ الحدقةِ نحو المرئيِّ التماسًا لِرُؤْيَتِه[3]، يفيد تنبيهَ المخاطب

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 9/146.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/443.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/730.

إلى جمودِ نظرِهِم؛ حتَّى لا يتوهَّم أنَّ لهم بصرًا يرون به، كما يفيد أنَّهم يصوِّبون نظرهم تُجاه المقابل، إمّا صناعةٌ - كما في الأصنامِ - وإمّا طبيعةٌ - كما في الكفّار - فلو قيل: (ينظرون وهم لا يبصرون) من دون (إليك)؛ لَما أدَّى مؤدّاه.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وأثرُها في المعنى:

الواوُ للحال، وجملةُ ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ حالٌ من الفاعلِ في ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: إنَّ نفي إبصارهم مستمرٌّ، كلَّما رآهم الرّائي ينظرون، ولو قيل: (وتراهم ينظرون إليكَ في حين أنَّهم لا يبصرون)؛ لأفادَ أنَّ نفيَ الإبصارِ راجعٌ إلى توهُّمِ الرّائي، لا إليهم.

الواوُ للحالِ، أي: إنَّ نفيَ إبصارِهم مستمرٌّ

تقديمُ المسندِ إليهِ على خبرِهِ الفعليِّ:

في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تقدَّمَ المسند إليه ﴿وَهُمْ﴾، على المسندِ ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ لتقويَةِ الخبر، وإفادةُ القصرِ - موصوف على صفة - للمبالغةِ، وفيه تعريضٌ بحمقِ هؤلاء الكافرين، قد أنعمَ اللّهُ عليهم بنعمةِ البصرِ، فهم يرون، وهذه الأصنامُ لا تبصرُ، بل هي وحدَها الَّتي لا تبصرُ، ومن عداها ممَّن يعبدونها يبصرون، أو تعريضٌ لطيفٌ بمن أبصرَ نورَ النُّبوَّةِ من المؤمنين، أي: إن لم يكن هؤلاءِ الكافرون قد أبصروا، فهناك من اصطفاهُم اللّهُ، وأكرمَهم بنورِ الهدايةِ على أنَّ الكلامَ في (وتراهم) أي: وترى الكافرين، وليس الأصنامَ.

تقويةُ الخبرِ، وإفادةُ القصرِ في التَّقديمِ والتَّأخيرِ لعناصرِ الإسنادِ

إيثارُ استعمالِ الفعلِ ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾، وأثرُ المضارعِ في السّياق:

واستعمالُ البصرِ دونَ المشاهدةِ أو الرُّؤيةِ؛ لأنَّ نفيَ البصرِ نفيٌ لما عداها، وليلفتَ الانتباهَ إلى عجزِهم، وليدخلَ فيه نفيُ التَّدبُّر والتَّأمُّل والانتفاع بالنَّظر، وهذا المعنى يتَّفق والقولَ بأنَّ الكلامَ على الكافرين لا على الأصنامِ، أي: وترى المشركين ينظرونَ إليك، وهم لا يبصرونَ، أي: إنَّهم ينظرون إليك حقيقةً، ولكن لا يتدبَّرون،

نفيُ البصرِ نفيٌ للمشاهدةِ أو الرُّؤيةِ، وهو غايةُ العجزِ عن الإبصارِ

ولا يتفكّرون، فيستدلّون بأحوالِكَ على ما تدلُّ عليه من الصِّدق والأمانةِ والنَّصيحةِ وحقيَّةِ النُّبوَّةِ، وإذا كان كذلك، فنظرهم معطَّل عن الفائدةِ المقصودة؛ لأنَّ النَّظرَ إنَّما خلقهُ اللّه تعالى؛ لينقل إلى العقلِ صورَ الموجودات، فيستفيدَ منها، وإذا خلا الشَّيء عن الفائدةِ الَّتي كان لأجلها، فهو في معنى المعدومِ، وهذا المعنى شائعٌ ذائع في العربيَّة، كثيرٌ في القرآنِ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهُدى والهدايةُ:

الهُدَى والهِدايَةُ في مَوْضوعِ اللُّغَةِ واحِدٌ، ولَكِنْ قد خَصَّ اللّهُ ﷻ لَفْظَةَ الهُدَى بما تَوَلّاهُ وأعْطاهُ، واخْتُصَّ هو به دونَ ما هو إلى الإنْسانِ[2]، والهِدايَةُ الدَّلالَةُ بتَلَطُّفٍ؛ ولِذلك خُصَّتْ بالدَّلالَةِ لِما فيهِ خَيْرُ المَدْلولِ؛ لِأنَّ التَّلَطُّفَ يُناسِبُ مَنْ أُريدَ به الخَيْرُ، وهو يَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ بنَفْسِه؛ لِأنَّ مَعْناهُ معنى الإرْشادِ، ويَتَعَدَّى إلى المَفْعولِ الثّاني، وهو المُهْدَى إليه بإلى وباللّام، والاسْتِعْمالانِ وارِدانِ، تَقولُ هَدَيْتُهُ إلى كَذا على معنى أوصَلْتُهُ إلى مَعْرِفَتِه، وهَدَيْتُهُ لِكَذا على معنى أرْشَدْتُهُ لِأجْلِ كَذا، قال تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصّافات: 23]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43]، وقد يُعَدَّى إلى المَفْعولِ الثّاني بنَفْسِه، كَما في قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، على تَضْمينِه معنى عَرَفَ، قيلَ: هيَ لُغَةُ أهْلِ الحِجازِ، وأمّا غَيْرُهُمْ؛ فلا يُعَدّيهِ بنَفْسِه، وقد جَعَلوا تَعْدِيَتَهُ بنَفْسِه مِنَ التَّوَسُّعِ المُعَبَّرِ عنه بالحَذْفِ والإيصالِ، وقيلَ: الفَرْقُ بين المُتَعَدّي وغَيْرِه: أنَّ المُتَعَدّيَ يُسْتَعْمَلُ في الهِدايَةِ لِمَنْ كانَ في الطَّريقِ ونَحْوِه؛ لِيَزْدادَ هُدًى، ومَصْدَرُهُ حينَئِذٍ الهِدايَةُ، وأمّا هَداهُ إلى كَذا أو

الـهُـدى خـاصٌّ بـالـلـهِ تـعـالى، والهدايةُ دلالةٌ بتلطُّفٍ لما فيهِ خيرٌ

---

(1) عبد الرّحمن اليمانيّ، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله: 479/2.

(2) الرّاغب، المفردات: (هدى).

لِكَذا؛ فيُستَعمَلُ لِمَنْ لم يَكُنْ سائِرًا في الطَّريقِ، ومَصدَرُهُ هُدًى، وفيه تفصيل ليس هذا محلَّه[1].

الهدى والرَّشادُ:

الإرْشاد إلى الشَّيْء: هو التَّطريق إليه والتَّبيُّنُ لَهُ، والهِدايَة هيَ التَّمكُّن مِنَ الوُصول إليه، وقد جاءَتِ الهِدايَة للمهتدي في قَوْله تَعالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: 6]، لم يجِئ مثل ذَلك في الإرْشاد، ويُقال أيْضًا: هداه إلى المَكْروهِ، كَما قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصّافات: 23]، وقالَ تَعالَى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧﴾ [الحجّ: 67]، ولا يُقال: أرشده إلّا إلى المحبوب[2].

الإرشــادُ دلالــةُ بـيـانٍ، والـهُـدى تـمـكـينٌ مـن الــوصـــول بـالـدَّلالـة أو بالتَّوفيق

الهُدى والبيانُ:

إنَّ البَيان في الحَقيقَة: إظْهار المَعْنى للنَّفس كائِنًا ما كانَ، فهو من قبيل القَوْل، والهدى: بَيانُ طَريق الرُّشد؛ ليسلك دونَ طَريق الغيِّ؛ إذا أطلق، فإذا قيِّد؛ اسْتعْمل في غيره، فقيل: هدى إلى النّارِ وغيرها[3].

الـبـيـانُ: إظـهـارُ المعنى أو المبنى، والـهُـدى: بيانُ الطَّريق الموصل

النَّظَرُ والبَصرُ:

أصلُ النَّظرِ: المقابلةُ، فالنَّظرُ بالبصر، الإقبالُ به نحو المبصَر، ولذلك قد ينظر ولا يراه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، وأصلُ البصر: هو صحَّةُ الرُّؤية، ويؤخذُ منهُ صفة مُبصرٍ بمعنى: راءٍ، والرّائي: هو المدرك للمرئيِّ[4]، واسْتِعْمالُ النَّظرِ في البَصَر أكثر عند العامَّة، وفي البصيرة أكثرُ عِنْد الخاصَّةِ[5].

الـنَّـظـرُ الإقـبـالُ بـالـعـيـنينِ نحو المبصَر، والبصرُ الرُّؤيةُ والإدراكُ

النَّظرُ والرُّؤيةُ:

النَّظَرُ: غَيْرُ الرُّؤيَة، فقد يكونُ النَّظَرُ حالَ عَدَمِ الرُّؤيَة، كما أنَّ

(1) للاستزادة ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 188/1.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 209.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 209.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 544.
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 906.

الـرُّؤْيَـةُ: غـايَةٌ لِلنَّظَرِ، والنَّظرُ: الإبصار والتَّفكُّر

النَّظَرَ يوصَفُ بما لا توصَفُ به الرُّؤْيَةُ، يُقالُ: نَظَرَ إليه نَظرًا شَزَرًا، ونَظَرَ غَضْبانَ، ونَظَرَ راضٍ، وكُلُّ ذلك لِأَجْلِ أنَّ حَرَكَةَ الحَدَقَةِ تَدُلُّ على هذه الأحْوالِ، ولا توصَفُ الرُّؤْيَةُ بشَيْءٍ من ذلك، فلا يُقالُ: رَآهُ شَزَرًا، ورَآهُ رُؤْيَةَ غَضْبانَ، أو رُؤْيَةَ راضٍ، ويُقالُ: انْظُرْ إليه حَتَّى تَراهُ، ونَظَرْتُ إليه، فرَأَيْتُهُ، وهذا يُفيدُ كَوْنَ الرُّؤْيَةِ غايَةً لِلنَّظَرِ، وذلك يوجِبُ الفَرْقَ بين النَّظَرِ والرُّؤْيَةِ[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/730.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين بيانِ عجزِ الأصنامِ الزّائفةِ، وتبيانِ أصولِ المعاملةِ مع النّاسِ

لَمّا بَيَّنَ في الآيَةِ الأولى أنَّ الله هو الَّذي يَتَوَلّاهُ، وأنَّ الأصْنامَ وعابِديها لا يَقْدِرونَ عَلى الإيذاءِ والإضْرارِ، تتَّجه السّورةُ الكريمة بعد ذلك إلى شخص الرّسول ﷺ فترسمُ له ولكلِّ عاقلٍ المَنهَجَ القَويمَ والصِّراطَ المُستَقيمَ في مُعامَلَةِ النّاسِ على وجهٍ يقيه شرَّ الحرجِ والضّيقِ، فتقول: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾: من عَفَتَ الرّيحُ الأثرَ تعفوه: طمستْهُ، وأصلُهُ: تَغَطّي الشَّيء بطبقة خفيفةٍ أو هَشَّةٍ (تنشأ منه)[2]، كما يُغَطّي الوبرُ والرّيشُ والنَّباتُ والتُّرابُ الَّذي تجلبه الرّيحُ ما تحتَه[3]. فمن نظرَ إلى ملحظِ التَّغطية عبَّرَ عن العفوِ بالمَحْو كالرّيح الّتي تمحو الأثرَ، والعَفو عن الذُّنوب: عَدَم المؤاخذة عليها، وكأنَّ من عفا غطّاها، أو أعرض عنها، وهو قريب من المغفرة والصَّفحِ، ومنه عَفْوُ اللّه تعالى عَنْ خَلْقِه، وذلك تَرْكُهُ إيّاهم، فلا يُعاقِبُهُم، فضْلًا منه، ومِنَ البابِ العافيَةُ: دِفاعُ اللّه تعالى عَنِ العَبْدِ، تَقولُ: عافاهُ اللّه تعالى مِن مَكْروهَةٍ، وعَفَوْتُ عنه: قصدت إزالةَ ذنبهِ صارفًا عنه[4]، وكأنَّ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 434/15، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 458/5.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عفو).

(3) أصل اشتقاق العفو مِنَ (العِفاء): ما كثُر مِنَ الوَبَرِ والرّيش؛ فيقال: ناقةٌ ذاتُ عِفاء: كثيرة الوبر، طويلتُه قد كاد يَنْسِل، وعفا شَعَرُ البعير: كثُرَ وطال؛ فغطَّى دَبَرَه (الّذي في ظهره)، وعِفاءُ النّعامة: الرّيش الذي علا الزِّفَّ الصّغار (الزِّفّ - بالكسر: صغير الرّيش)، وكذلك عِفاء الدّيك والطّير، ولا يقال للرّيشة: عِفاءَةٌ؛ حتّى يكون فيها كثافة، وأرض عافيَة: لم يُرْعَ نَبْتُها فوَفُر وكَثُر. وعَفَتَ الأرضَ: غَطّاها النّباتُ والعُشْب. ينظر: ابن منظور، اللّسان: (عفو).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو).

الأصلَ: خُذْ بالعفو، ومن نظرَ إلى الزّيادة على الشَّيء[1]عبَّر عن العفوِ بالزّيادة، فالعفو في قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ كأنَّه أُمِرَ أن يتقبَّل من أخلاقِ النّاس ما زاد، ولا يستَقْصي عليهم.

2) ﴿بِٱلۡعُرۡفِ﴾: كعُرْفِ الفَرَسِ أو الدّيك (وهذا أصل اشتقاقه)، وسُمّيَ بذلك لتميُّزِه وظهوره بملمحٍ يدلُّ عليه، ومنه المَعْرِفَةُ والعِرْفانُ، تقولُ: عَرَفَ فُلانٌ فُلانًا عِرْفانًا ومَعْرِفَةً، وهذا أمْرٌ مَعْروفٌ، وهذا يَدُلُّ على تميُّزه وظهوره والسُّكون إليه؛ لِأنَّ مَنْ أنْكَرَ شَيْئًا تَوَحَّشَ منه ونَبا عنه، ومِنَ البابِ العَرْفُ، وهيَ الرّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؛ لِأنَّها تسْطع فوق الشَّيء، وتدلُّ عليه، وتَسْكُنُ النَّفْسُ إلَيها، يُقالُ: ما أطْيَبَ عَرْفَهُ! قالَ اللّه ﷻ: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦﴾ [محمد ﷺ: 6]، فقد فُسِّر تعريفُها هنا بمعرفة منازلهم فيها، كما فُسِّر بالتَّطييب من العَرْف الرّائحة الطَّيِّبة، أيْ: طَيَّبَها[2]، و"العُرْف والعارفة والمعروف: كلُّ خصلةٍ حسنة ترتضيها العقول، وتطمئنُّ إليها النُّفوس"[3]، ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف: 199][4].

3) ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾: أعْرَضْتُ عَنْ فُلانٍ، وأعْرَضْتُ عَنْ هذا الأمْرِ، وأعْرَضَ بوَجْهه؛ إذا ولّاه ظَهْرَهُ، فانصرف عنه (وظهر الإنسان عَرْضُه - بفتح العين)، كأنَّه انحرفَ عنه وولّاه عُرْضه (بضم العين، أي: جانبه)، قال تعالى: ﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت: 51]، وقال: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٣﴾ [آل عمران: 23]، وقال: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ [النّساء: 135]، وكلُّ (أعْرَضَ) ومضارعِها، وأمرِها، والمصدر (الإعراض)، واسم الفاعل (مُعرِض) هو بهذا المعنى[5].

4) ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: الجيمُ والهاءُ واللّامُ أصْلانِ: أحَدُهُما خِلافُ العِلْمِ، والآخَرُ: الخِفَّةُ وخِلافُ الطُّمَأْنينَة، فالأوَّلُ: الجَهْلُ نَقيضُ العِلْمِ، ويُقالُ لِلْمَفازَةِ الَّتي لا عَلَمَ بها: مَجْهَلٌ، والثّاني: يُقالُ: اسْتَجْهَلَتِ الرّيحُ الغُصْنَ؛ إذا حَرَّكَتْهُ، فاضْطَرَبَ[6]. فالجاهلُ نقيضُ العالمِ، أو هو السَّفيهُ، نقيضُ الحليم.

(1) كزيادة التّراب على الأثر، والرّيش حتّى يكثر ويطول.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 231/16.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 346/7.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عفو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عرض).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جهل).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

اقْبَلْ - أيُّها النَّبيُّ ﷺ أنت وأمَّتك - الفضلَ مِن أخلاقِ النّاس وأعمالهم، ولا تطلب منهم ما يشقُّ عليهم حتَّى لا ينفروا، وأْمر بكلِّ قول حسن وفِعْلٍ جميل، وأعرضْ عن منازعة السُّفهاء ومساواة الجهلةِ الأغبياءِ[1].

خُـــطَّ نـهـجُ معاملة النَّبيِّ لـلـمـؤمـنـين بالعفو والعُرفِ والإعــراضِ عن الجاهلينَ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الإيجازِ بالقِصَرِ:

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾، هذه الكلماتُ على قِصَرِها وتقاربِ أطرافها، قد احتوتْ على جميعِ مكارمِ الأخلاقِ، ومحامد الشّيم، وشريفِ الخصالِ[2]، لمّا نزَلتْ هذه الآيةُ؛ قال رسول اللّه ﷺ لجبريل: «ما هذه؟ قال: لا أدري حتَّى أسألَ، ثمَّ رجعَ، فقالَ: يا محمَّدُ، إنَّ ربَّك يأمرُكَ أن تصلَ من قَطَعَكَ، وتعطيَ مَن حرمك، وتعفوَ عمَّن ظلمك»[3]. وقد نظمَ الشّاعرُ فقال:

هذه أجمعُ آيةٍ لمكارِمِ الأخلاقِ، هداية للنَّبيِّ من الله الخلّاق

مكارِمُ الأَخْلاقِ في ثَلاثٍ مَنْ *** كَمُلَتْ فيـهِ فذاكَ الفَتَى
إعْطاءُ مَنْ يَحْرِمُهُ ووَصْلُ مَنْ *** يَقْطَعُهُ والعَفْوُ عَمَّنْ عَلَيْهِ اعْتَدَى

فتأدَّبَ ﷺ بهذا، فأثنى عليه، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم: 4][4]. قال جعفر الصّادق: "أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق من هذهِ الآيةِ"[5]، فجمعَ في الآيةِ جميعَ مكارم الأخلاق؛ لأنَّ في الأمر بالمعروفِ صِلَةَ الرَّحِم، ومنعَ اللِّسان عن الغيبةِ وعن الكذب، وغضَّ الطَّرف عن المحرَّمات، وغيرَ ذلك، وفي الإعراض عن الجاهلين الصَّبرُ والحلمُ وغيرهما[6].

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 176.
(2) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 49/2.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 318/4.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 617/3.
(5) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 230/8.
(6) ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر: 273/2.

الآيةُ أمرٌ بثلاثةِ أُصـولٍ كُـلّيَّة: العفوُ والعُرفُ والإعــراضُ عَـنِ فعل الجاهِليَّة

أصولُ الفضائلِ الأدبيَّةِ في الآيةِ:

هذه الآيَةُ بَيانٌ لِأُصولِ الفَضائِلِ الأَدَبيَّةِ وأساسِ التَّشْريعِ، وهيَ الَّتي تَلي في المَرْتَبَةِ أُصولَ العَقيدَةِ المَبْنيَّةِ على التَّوْحيدِ الَّذي تَقَرَّرَ فيما قَبْلَها مِنَ الآياتِ بأَبْلَغِ التَّوْكيدِ، فقَوْلُه تَعالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يَأْمُرُ فيه بثَلاثَةِ أشْياءَ، هيَ أُصولٌ كُلّيَّةٌ لِلْقَواعِدِ الشَّرْعيَّةِ والآدابِ النَّفْسيَّةِ والأَحْكامِ العَمَليَّةِ، الأَصْلُ الأَوَّلُ: العَفْوُ، وهو يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على خالِصِ الشَّيْءِ وجَيِّدِه، وعلى الفَضْلِ الزّائِدِ فيهِ أو منه، وعلى السَّهْلِ الَّذي لا كُلْفَةَ فيهِ، وعلى ما يَأْتي بدونِ طَلَبٍ أو بدونِ إِخْفاءٍ ومُبالَغَةٍ في الطَّلَبِ، وهذه المَعاني مُتَقارِبَةٌ، وهيَ وُجوديَّةٌ، ومِن مَعانيهِ السَّلْبيَّةِ إزالَةُ الشَّيْءِ كَعَفَتِ الرِّياحُ الدّيارَ والآثارَ، أو إزالَةُ أَثَرِه كالعَفْوِ عَنِ الذَّنْبِ، وهو مَنْعُ ما يَتَرَتَّبُ عليه مِنَ العِقابِ، فمَعاني العَفْوِ الوُجوديَّةِ والعَدَميَّةِ أوِ الموجَبَةِ والسّالِبَةِ كُلُّها إحْسانٌ، ورِفْقٌ... فالمُرادُ به أنَّ مِن أُصولِ آدابِ هذا الدّينِ وقَواعِدِ شَرْعِه: اليُسْرَ، وتَجَنُّبَ الحَرَجِ وما يَشُقُّ على النّاسِ. والأَصْلُ الثّاني: الأَمْرُ بالعُرْفِ، وهو ما تَعارَفَهُ النّاسُ مِنَ الخَيْرِ، وفَسَّروهُ بالمَعْروفِ، وهو مَبْنيٌّ على اعْتِبارِ عاداتِ الأُمَّةِ الحَسَنَةِ، وما تَتَواطَأُ عليه مِنَ الأُمورِ النّافِعَةِ في مَصالِحِها. والأَصْلُ الثّالِثُ: الإِعْراضُ عَنِ الجاهِلينَ، وهُمُ السُّفَهاءُ، بتَرْكِ مُعاشَرَتِهِم وعَدَمِ مُماراتِهِم، ولا عِلاجَ أوقَى لِأَذاهُم مِنَ الإِعْراضِ عنهم[1].

موازنةُ منهجِ الآيةِ بينَ تأييدِ المستحسَنِ، ومحوِ المستقبَحِ

التَّرقّي في المعاني، وبيانُ بعضِها بعضًا من خلال الآيةِ:

قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ سرَّ الشَّريعةِ في الطِّباعِ والعاداتِ، هو تأييدُ المستحسَنِ ومحوِ المستقبحِ[2]، ونلحظُ هذا التَّرتيبَ البديعَ، فبدأَ بما يناسبُ إقبالَ الدّاعيةِ على النّاسِ، وكيفيَّةَ استقبالِه لهم على ما

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/444، وما بعدها.

(2) القاسميّ، محاسن التّفسير: 5/242.

هم عليه، فأمرهُ بأخذِ العفوِ، وهو أساسٌ في مبدأِ معاملة النّاس بالمسامحة، أي: ما سمحت به أنفسُهم، وما سهل عليهم من الأعمالِ والأخلاق، فلا يكلِّفهم ما لا تسمحُ به طبائعهم[1]، وثنّى بالتَّدرُّج في أمرهم بالمعروف، حتَّى يستميل قلوبهم، ولا ينفضّوا من حوله، فقال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾، وهو كلُّ قولٍ حسنٍ وفعلٍ جميلٍ وخلق كامل للقريب والبعيد[2]، وختمها بتحصينِ الداعية ضدَّ الجاهلين؛ حتى لا يبالي بهم، ويستمرَّ في دعوته بقوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، فلعلَّ إعراضَهُ عنهم يكون سببًا في هدايتهم، ودعوة غيرهم، والإعراضُ عن الجاهلين خُلُقٌ سماويٌّ أمرَ الله به نبيَّهُ ليُعَلِّم خَلْقَه هذا الخُلقَ الكريم، والأدبَ السَّماوي العظيم، أنَّه إذا جهل عليك جاهلٌ، فأساء إليك؛ أن تعرضَ عنه ولا تأخذه بزلَّته[3].

نكتةُ خطابِ الخاصِّ، وإرادة العامّ:

الإعـــلامُ بعلوِّ مكـانـة النَّبـيِّ وتسليَتُهُ، ممّا يعدُّ تأديبًا للأمَّة وتعليمًا لها

الخطابُ في الآية الكريمة: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ للنَّبيِّ ﷺ لأنَّه سبق خطابه بقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: 195]، وفي ذلك إقبالٌ على النَّبيِّ وإعلام بعلوِّ مكانتهِ وسموِّ منزلتهِ، وتشريفٌ وتسليةٌ له وتسريةٌ عنه، ولكنَّه يُعدُّ تأديبًا للأمَّة كلِّها.

إيثارُ الفعلِ ﴿خُذِ﴾ على ما يرادِفُهُ:

الـدَّلالــةُ على سـعـةِ صـدر النَّبيِّ الكريم، والإلـــاحُ إلى خلقِهِ العظيم

أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل: ﴿خُذِ﴾ للدَّلالةِ على سعة صدره، وعظيم خُلُقه ﷺ؛ إذ إنَّ قبولَ ما تيسَّر من أخلاقهِم، وعدم المشَقَّة عليهم، يحتاج إلى حيِّزٍ واسعٍ؛ ليستحوذَ على ذلك كلِّه، وهو أصلُ الأخذ، أي: "خذ من النّاس - أي: اقبَلْ منهم - ما عفا لك من أخلاقهم،

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 313.
(2) السّعديّ، تيسير اللّطيف المنّان في خلاصة تفسير القرآن، ص: 69.
(3) الشّنقيطيّ، العذب النّمير من مجالس الشّنقيطيّ في التّفسير: 4/442.

أي: تيسَّر وسهُل، ولا تكلِّفهم الجهد، من قولك: أخذت حقّي عفوًا، أي: بسهولة"[1]. وعلى معنى العفو عن المذنبين يكون للتَّعبيرِ بالأخذِ معنًى لطيفٌ، وهو أنَّ العافي آخذٌ وليس مُعطيًا؛ إذ إنَّ ما يجلبه العفو لصاحبِهِ من الخير في الدُّنيا والآخرة أضعافَ ما يبذلُه من هضم النَّفس، والتَّجاوز عن الآخرين، وكأنَّه يأخذُ من حيثُ يعطي، وينال من حيثُ يبذل، ويقرب منه قولُ القائل[2]:

تَراهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا *** كَأَنَّكَ تُعْطيهِ الَّذي أَنْتَ سائِلُهْ

دلالةُ الأمر في الفعل: ﴿خُذِ﴾:

بيانُ الآيةِ يدلُّ على الإرشادِ إلى ذلك الملمحِ المستفادِ

خرجَ الأمر في (خُذْ) عن معناهُ الحقيقي، وهو "الأَخْذُ خلافُ العطاء (تحصيل الشَّيء في الحوزة بقوَّة)"[3] إلى معنى الإرشاد، إذا فسِّر بالعفو عن المذنبين، وهذا الخلق يتَّفق وما طبع عليه النَّبيُّ ﷺ من الرَّحمة والصَّفح الجميل، فقوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ يتوجَّه وجهين: أحدهما: على حقيقةِ الأخذِ، والآخر: على العملِ بالعفو، فإن كان على الأخذِ؛ فهو على وجهين: أوَّلهما: يحتمل أنْ خذ الفضلَ الَّذي لا حقَّ فيه، وهو القليلُ من ذلك واليسير، والآخر: أنْ خذ ما يفضُل من أنفسِهم وحوائجهم من غير مسألة، أي: اقبل منهم ما أعطوك، ولا تلحَّ في المسألةِ، كقوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ﴾ [محمد ﷺ: 36- 37]. أخبر أنَّه إن يسألهم أموالهم حملهم ذلك على البخل، وإن كان على العملِ؛ فمعناه: اعفُ عن الظَّلمة عن ظلمهم[4].

العدولُ عن الأمرِ بالعفوِ بـ(اعف) إلى قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾:

أخـذُ العفوِ أوسعُ معنًى من الأمرِ بالعفوِ في هذا السّياق

وردَ في غيرِ هذا الموضعِ الأمرُ بالعفو، كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 105/7.
(2) البيت من بحر الطّويل، لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه، ص: 91.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 119/5.

﴿وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: 109]، وقوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: 159]، وقوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة: 13]، ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النّور: 22]، والمرادُ بالعفو فيها قريبٌ من الصَّفح وترك المجازاة، وهذا المعنى يتَّفق وجوَّ المسلمين بعد الهجرة، ولذلك فإنَّ الآياتِ المذكورة آنفًا - الَّتي أُمِر فيها بالعفو - كلُّها مدنيَّة، في حين جاءَ الأمرُ بأَخْذِ العفوِ هنا في سورةِ الأعرافِ المكيَّة، وتلك مناسبة لأحوال المسلمين المستضعفين قبلَ الهجرةِ، وأخذ العفو أعمُّ من الأمرِ بالعفوِ كما سبق بيانه.

جمالُ الاستعارةِ المكنيَّةِ في قولِه: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾:

دلالـةُ (خُذ العفو) في المجازِ عن القبول والرِّضا في أبلغ عبارة

الأخذ مجازٌ عن القبول والرِّضا، أي: ارضَ من النّاس بما تيسَّر من أعمالهم، وما أتى منهم، وتسهَّل من غير كُلفة، ولا تطلبْ منهم الجَهْد، وما يشقُّ عليهم؛ حتَّى لا ينفروا. وجوِّز أن يراد بالعفو ظاهره، أي: خذِ العفو عن المذنبين، والمراد اعفُ عنهم، وفيه استعارةٌ مكنيَّة؛ إذْ شُبِّه العفوُ بأمرٍ محسوس يُطلب، فيُؤخذ[1].

ورودُ عمومِ المأخوذِ منه، ليشملَ النَّفسَ والآخرين:

العفو من أسمى الأخلاقِ، وأكثرها أثرًا على الفرد والمجتمع

لم يقل: خذِ العفوَ من كذا، فقَوْلُهُ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ دَخَلَ فيه صِلَةُ القاطِعينَ، والعَفْوُ عَنِ المُذْنِبينَ، والرِّفْقُ بالمُؤْمِنينَ، وغَيْرُ ذلك مِن أخْلاقِ المُطيعينَ[2]، ومعناه: "خذ ما عفا لك من أخلاق النّاس وأفعالهم، وما أتى منهم، وتسهَّل من غير تكلُّف ولا إعنات، ولا تحرجهم، وتشقَّ عليهم، وقال النَّبيُّ ﷺ في هذا المعنى: «يَسِّروا ولا تُعسِّروا»"[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 137/5.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 344/7.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 515/3.

دلالةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾، وأثرُها في المعنى:

لفظُ العفو تعمُّ صورَ العفوِ الفرديَّة والاجتماعيَّة

وَقد عَمَّتِ الآيَةُ صورَ العَفْوِ كُلَّها؛ لِأَنَّ التَّعْرِيفَ في العَفْوِ تَعْرِيفُ الجِنْسِ، فهو مُفيدٌ لِلاسْتِغْراقِ، إذا لَم يَصْلُحْ غَيْرُهُ من معنى الحَقيقَةِ والعَهْدِ، فأمر الرَّسول ﷺ بأَنْ يَعْفوَ ويَصفَحَ، وذلك بعَدَمِ المُؤاخَذَةِ بجَفائِهم وسوءِ خُلُقِهم، فلا يُعاقِبُهُم، ولا يُقابِلُهُم بمِثْلِ صَنيعِهم، كما قالَ تعالَى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [آل عمران: 159]، ولا يَخْرُجُ عَنْ هذا العُمومِ من أَنْواعِ العَفْوِ أَزْمانِه وأَحْوالِه إلّا ما أَخْرَجَتْهُ الأَدِلَّةُ الشَّرْعيَّةُ مِثْلَ العَفْوِ عَنِ القاتِلِ غيلَةً، ومِثْلَ العَفْوِ عَنِ انْتِهاكِ حُرُماتِ اللّه، والرَّسولُ أَعْلَمُ بمِقْدارِ ما يَخُصُّ مِن هذا العُمومِ، وقد يُبَيِّنُهُ الكِتابُ والسُّنَّةُ وأُلْحِقَ به ما يُقاسُ على ذلك المُبَيَّنِ(1).

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ على ما يرادفُهُ:

(العفو) أوسعُ معنًى وأنسبُ للسّياقِ، وأدْخلُ في محاسنِ الأخلاقِ

أوثرَ لفظُ ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾؛ لأنَّه أوسعُها معنًى، وأنسبها للسّياق؛ حيث يحتملُ أكثر من معنى، وجميعها مناسب للسّياق، أي: خُذِ العَفْوَ، أي: خذ ما عفا لك من أفعال النّاس، وتسهَّل ولا تطلب ما يشقُّ عليهم، من العفوِ الَّذي هو ضدُّ الجَهد، أو خُذِ العَفْوَ عن المذنبين أو الفضلَ وما يسهل من صدقاتِهم، وذلك قبلَ وجوبِ الزَّكاة(2). والتَّنبيهُ على أنَّ أخذَ العفوِ الظّاهر من أخلاق النّاسِ، ما لم يكن فيه مخالفةٌ لشرعِ اللّه (ﷻ).

وجهُ عطفِ جملة: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ على ما قبلَها:

تلاحمُ الدَّلالةِ وتدرُّجُ المعاني من خصائصِ الأسلوب القرآنيّ

لمّا أمره بذلك في نفسه؛ أمرَهُ به في غيرِه، فقال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾، فحسن عطف هذا على ذاك؛ لما بينهما من اتِّفاقٍ في الإنشاء، وتدرُّجٍ في المعاني، وتلاحم في الدَّلالة، وانسجام في طريق الأمر بالتَّيسير؛ فالأمرُ بالعُرْف يُعَدُّ امتدادًا للعفو المأمور بأخذه سهولةً وشرفًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 227/9.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 46/3.

إيثارُ الفعلِ ﴿وَأۡمُرۡ﴾ على غيره:

دلالـةُ الفعل (وَأْمُر) على العُلوِّ مع النَّفاذِ، وهو معبِّرٌ عن غرضه ببيان

للفعلِ هنا دلالة لا تكاد توجد في غيره ممّا يرادفُه، وهي دلالتُه على العلوِّ مع النَّفاذ؛ ولذا جاء الأمرُ ضدَّ النَّهي في قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النّحل: 90]، فخطابُه بهذا إشارةٌ إلى صدوره مِنَ المُشَرِّع جلَّ وعلا، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]، وممّا تجدر الإشارةُ إليه والتَّذكيرُ بِهِ أنَّ الفعل الماضي ﴿وَأۡمُرۡ﴾، ومضارعه يأمرُ، تحذف همزتهُ الأصليَّةُ مع همزةِ الوصلِ في صيغةِ الأمرِ منه، كما في قول النَّبيِّ ﷺ: «مُروا أولادكم بالصَّلاة لسبع سنين»[1]، إلّا إذا كان مسبوقًا بالفاء، كما في الأثر: «فَأْمُروا عُرَفاءَكُم، فلْيَرْفَعوا ذلك إلَيْنا»[2]، أو بالواو كما في قوله: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾، وقوله: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: 132][3].

دلالةُ الأمرِ بالعُرفِ بين الإلزامِ وغيرِه:

المعروفُ عُرفًا كالمشروط شرطًا، ما لم يخالف نصًّا

يكون للإلزامِ إذا صدرَ من المشرِّع، أو من ولّاةِ الأمر مالم يخالفَ شرعًا، وقد يكون الأمر بالعُرف غير ملزم[4]، والعرفُ هو" المعروفُ والجميلُ من الأفعال، أو هو كلُّ خصلةٍ يرتضيها العقل، ويقبلها الشَّرعُ"[5]، وقيل: بأنَّهُ الجميل المستحسَن من الأفعال الّتي تكون قريبةً من قَبول النّاس من غير نكير[6].

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (495)، وإسناده حسن.

(2) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، برقم: (9741)، وينظر: بشار عوّاد، المسند المصنّف المعلّل: 344/24، والأثر وارد في غزوة حنين.

(3) والأصل في الأمرِ مِنَ الثّلاثيِّ مهموزِ الفاءِ؛ كـ (أَمَرَ يَأْمُرُ) ونحوِه، أن يُقالَ فيه: (أُؤْمُرْ)، بهمزتين: الثّانية أصليّة ساكنةٌ، والأولى زائدةٌ للتوصُّلِ إلى النُّطق بالحرفِ السّاكنِ. فلمّا اجتمعتْ همزتان وكَثُرَ استعمالُ الكلمةِ، حُذفتِ الهمزةُ الأصليّةُ؛ فزال السّاكنُ؛ فاستُغنيَ عن الهمزةِ الزّائدةِ؛ فصار: (مُرْ)، ورَدّوا الهمزةَ الأصليّةَ في فعلِ الأمرِ مِن (أَمَرَ يَأْمُرُ) خاصَّة إذا تقدَّم قبل ألفِ أمْرِه واوٌ أو فاءٌ أو كلامٌ يَتّصلُ به فعلُ الأمْرِ؛ فقالوا: (الْقَ فلانًا وأْمُرْهُ)، فردّوه إلى أصلِه، وإنّما فعَلوا ذلك؛ لأنَّ فعلَ الأمْر منه إذا اتَّصل بكلامٍ قبلَه، سقطتِ الألفُ الزّائدةُ في اللّفظِ.

(4) وتفصيل ذلك في كتب الأصول، كالمحصول للرّازي: 362/2.

(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 626/1.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 308/3.

دعـوةُ الـقـرآنِ تـخـاطـبُ في الـعـمـوم كـلَّ الأنامِ

نكتةُ إطلاقِ الفعلِ، وعدمِ تقييدِهِ بمفعولٍ:

لمّا كانت دعوةُ النَّبي ﷺ عالميَّة، أطلق الفعل، ولم يقيَّد بمخاطبٍ معيَّن، فلم يقل: (وأْمُرْهم)؛ ليشمل كلَّ مخاطبٍ بالدَّعوة، وليكون الكلامُ على نسقٍ واحدٍ.

الأمرُ بالعُرفِ من شيمِ الإسلامِ الَّتي صانت كثيرًا من القيم النَّبيلةِ

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱلۡعُرۡفِ﴾:

الباءُ: للإلصاق، كقولك: كتبتُ بالقَلَم، وقطعتُ بالسِّكّين، وهذا يدلُّ على تمكُّنه من معرفة المأمور به، من حيثُ حقيقتُه، وملابساتُه، وكيفيَّةُ الأمر به على أحسن وجهٍ، وأنسبِ حالٍ.

(الـعُـرْف) أخفُّ مـن لـفـظِ (المـعـروف)، وأنسبُ للدَّعوة قبل الهجرة

إيثارُ لفظِ (العُرْف) دون (المعروف):

في قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ أوثِر لفظُ (العُرْف) على (المعروف)؛ لأنَّ لفظ (العُرْف) أخفُّ من لفظ (المعروف)، وأنسبُ للدَّعوة قبل الهجرة، ولذا لم يقترن بالنَّهي عن المنكر، وذلك لما كان عليه المؤمنونَ من ضعفٍ واضطهادٍ وقهرٍ، وقد جاء لفظ (المعروف) كثيرًا[1]، ومنه قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان: 17]، ويذكر (المعروف) غالبًا في مجال الدَّعوة، يقابل النَّهي عن المنكر، قال ابن عيسى: الأمرُ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر يذكران معًا، وهما كالشَّيء الواحد[2]، فيَشْمَلُ المَعْروفَ في الشَّرْعِ وفي العاداتِ والمُعامَلاتِ، ولا يَظْهَرُ هذا في آيَةِ الأعْرافِ الَّتي هيَ الأصْلُ الأوَّلُ؛ لِأنَّها الأولَى في المَوْضوعِ، ولَم يَكُنْ قد نَزَلَ قَبْلَها أحْكامٌ يُفَسَّرُ بها العُرْفُ، ويُحالُ عَلَيْها فيه[3]، وسيأتي بيانُ الفرق بين المعروف والعُرْف.

(1) ذكر لفظ (معروف) تسعًا وثلاثين مرّة، منها إحدى وعشرون مرة معرفةً، وثماني عشرة مرة نكرةً (معروف) أو (معروفًا) (معروفة).

(2) الكرمانيّ، لباب التّفسير: 648.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/448.

دلالةُ (ال) في لفظِ (العُرف):

(ال) هنا للاستغراق، وهو كُلُّ ما يَعرِفُهُ الشَّرْعُ، وقالَ عَطاءٌ: وأْمُرْ بالعُرْفِ، يَعْني: بلا إلَهَ إلّا اللّه[1]، وهو تخصيص من غير داعٍ، وهذا مقيَّد بالعُرْف الَّذي يوافق الشَّرْع، أي: بكلِّ ما عرفَتْهُ النُّفوسُ ممّا لا تردُّه الشَّريعة[2].

كـلُّ مـا عـرفَـتْـهُ النُّفوسُ ممّا لا تردُّه الشَّريعة، فـهـو الـعـرفُ المألوفُ

سرُّ العدولِ عن ذكرِ النَّهي عن المنكرِ في قوله: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾:

وقعتِ الآيةُ في سياقِ اليُسر في الدَّعوة؛ إذ إنَّها من أوائلِ الآيات المكيَّة الَّتي جاءت في مقام الأمر بالمعروف، وقد تضمَّن ذلك النَّهي عن المنكر، فأغنى بذلك عن ذكره؛ لأنَّ السّياق للمساهلة[3]، وإنَّما اقْتَصَرَ على الأمْرِ بالعُرْفِ هُنا: لِأنَّهُ الأهَمُّ في دَعْوَةِ المُشْرِكينَ؛ لِأنَّهُ يَدْعوهُم إلى أُصولِ المَعْروفِ واحِدًا بَعْدَ واحِدٍ، كَما ورَدَ في حَديثِ مُعاذِ بْنِ جَبَلٍ حينَ أرْسَلَهُ إلى أهْلِ اليَمَنِ، فإنَّهُ أمَرَهُ أنْ يَدْعوهُم إلى شَهادَةِ أنْ لا إلَهَ إلّا اللّه، ثُمَّ قالَ: «فَإنْ هُم طاعوا لَكَ بذلك، فأخْبِرْهُم أنَّ اللّه فرَضَ عليهم خَمْسَ صَلَواتٍ»[4]، ولَوْ كانَتْ دَعْوَةُ المُشْرِكينَ مُبْتَدَأةً بالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ؛ لَنَفَروا ولَمَلَّ الدّاعي؛ لِأنَّ المَناكيرَ غالِبَةٌ عليهم، ومُحْدِقَةٌ بهم، ويَدْخُلُ في الأمْرِ بالعُرْفِ الاتِّسامُ به والتَّخَلُّقُ بخُلُقِه: لِأنَّ شَأْنَ الآمِرِ بشَيْءٍ أنْ يَكونَ مُتَّصِفًا بمِثْلِه، وإلّا فقد تَعَرَّضَ لِلاسْتِخْفافِ، والآمِرَ يَبْدَأُ بنَفْسِه فيَأْمُرُها، كَما قالَ أبو الأسْوَدِ:

يا أيُّها الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ *** هَلّا لِنَفْسِكَ كانَ ذا التَّعْليمُ؟

على أنَّ خِطابَ القرآنِ النّاسَ بأنْ يَأْمُروا بشَيْءٍ يُعْتَبَرُ أمْرًا لِلْمُخاطَبِ بذلك الشَّيْءِ، وهيَ المَسْألَةُ المُتَرْجَمَةُ في أُصولِ الفِقْه، بأنَّ الأمْرَ بالأمْرِ بالشَّيْءِ، هو أمْرٌ بذلك الشَّيْءِ[5].

الـسّـيـاقُ لـلـمـساهلةِ، فـاقْـتَـصَـرَ على الأهـمِّ في دَعْـوَةِ المُشْرِكينَ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/260.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/106.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/203.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (4090).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/227.

دلالةُ عطفِ: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ على ما قبلَها:

الجمعُ بين الأمرِ بالفعلِ للمحاسن، والتَّرْكِ للمهالك والمفاتن

لمّا أمرَهُ بالفعلِ في نفسهِ وغيرِه في قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾، أتبعهُ التَّركَ، فقالَ: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أي: فلأن تكافئهم بخفَّتِهم وسفههم، ولا تمارهم، فإنَّ ذلك أسهلُ من غيرِهِ، وذلك بعد فضيحتِهم بالدُّعاء؛ وذلك لأنَّ محطَّ حالهم اتِّباع الهوى، فيدعوهم إلى تكلُّفٍ ضدَّ هذه الخصال، وفيه إشارةٌ إلى النَّهي عن أن يذهبَ نفسه عليهم حسراتٍ مبالغةً في الشَّفقةِ عليهم[1].

إيثارُ الفعلِ ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾ دونَ غيره:

الإعراضُ إشعارٌ بعدمِ الرِّضا على سوءِ أخلاقِهم، وليس تركًا بالكلِّيَّة

أوثِرَ التَّعبيرُ بالإعراض دون التَّركِ أو الهَجْرِ أو التّولّ؛ لأنَّ المقصودَ منه أمْرُ الرَّسولِ ﷺ بأنْ يَصْبِرَ على سوءِ أخْلاقِهم، وألّا يُقابِلَ أقْوالهمُ الرَّكيكَةَ ولا أفْعالهمُ الخَسيسَةَ بأمْثالِها[2]، وليس المرادُ هجرَهم أو تركَ دعوتهم.

دلالةُ حرفِ الجرِّ (عن) وأثرُهُ في المعنى:

المجاوزةُ والابتعادُ من معاني حرف الجرِّ (عن)، وهو معنى في صميم المقصد

﴿عَنِ﴾ في قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، فيه معنى المجاوزةِ والابتعادِ، أي: اقبلْ منهم، وتجاوزْ عن الجاهلين الَّذينَ لا يدركون قيم الأشياء والأشخاص والكلمات، فيما يبدرُ منهم من أنواع السَّفاهة والإيذاءِ؛ لأنَّ الرَّدَّ على أمثالِ هؤلاءِ ومناقشتَهم لا تؤدّي إلى خير، ولا تنتهي إلى نتيجة، والسُّكوت عنهم احتزام للنَّفس، واحترام للقول، وقد يؤدّي الإعراضُ عنهم إلى تذليل نفوسِهم وترويضها[3].

إيثارُ ذكرِ ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ دونَ ضميرِهم أو غيرِه مِنَ الصِّفات:

مناسبتهُ المعاندينَ من المشركينَ؛ لأنَّ الشِّركَ أكبرُ جهالةٍ

أوثرَ ذكرُ ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لأنَّهُ كلامٌ في المعاندين من المشركين، فوضعَ موضع ضميرهم ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، تسجيلًا عليهم بعدمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/203.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/435.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/458.

الارعواءِ، وإقناطًا كلّيًّا منهم؛ لأنَّ جهلهم جهلٌ مركَّب، ألا ترى كيف أعاد الضَّمير في قوله: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ [الأعراف: 202 - 203]، كلُّ ذلك بيانٌ للعِناد والتَّمرُّد[1].

سِرّ العُدولِ عن جمعِ التَّكسيرِ إلى جمعِ المذكَّرِ السّالِمِ:

اختيارُ الجمعِ السّالم للقلَّة، ومناسبةُ صيغتِهِ لفاصلةِ الآيةِ

لم يُجمَع (الجاهل) جمعَ تكسيرٍ في القرآن الكريم (الجهلاء)، وإنَّما جُمِع جَمْعَ مذكَّرٍ سالمًا ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لأنَّ جمع التَّكسير الَّذي على (فُعلاء) للكثرةِ، وهو مناسبٌ لمقام الذَّمِّ، والغرضُ هنا ليس ذاك، بل الحضَّ على التَّخَلُّقِ بالحِلْم، والتَّنَزُّهَ عَنْ مُنازَعَةِ السُّفَهاءِ وعلى الإغْضاءِ عَمّا يَسوءُ، كَقَوْلِ مَنْ قالَ: "إنَّ هذه قِسْمَةٌ ما أُرِيدَ بها وجْهُ اللّه"، وقَوْلِ الآخرينَ: "أن كانَ ابْنَ عَمَّتِكَ"، وكالَّذي جَذَبَ رِداءَهُ حتى حزَّ في عُنُقِه، وقالَ: "أعْطِني مِن مالِ اللّه"[2]؛ لذلك كان التَّعبيرُ بجمع المذكَّر السّالم إشارةً إلى قِلَّتهم وضعفهم، فضلًا عن مناسبته فاصلةَ الآية الكريمة، وفيه تناسقٌ جميلٌ، وانسجامٌ صوتيٌّ بديعٌ.

فنُّ الانسجامِ ودلالتُهُ:

الآيةُ إجمالٌ بلا تفصيلٍ مع إيجازٍ مفيدٍ وإعجازٍ سديدٍ

أُعْجِبَ عشّاقُ البيانِ بقولِهِ تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لما فيها من إعجازٍ وإيجاز، ولما فيها من عذوبةِ جرسٍ، ووضوحِ بيانٍ، ولأنَّها ترمزُ ولا تشرحُ، وتجملُ ولا تفصِّلُ، وللبلغاءِ في هذا الضَّربِ من البلاغةِ مذاهبُ، وقد أطلقوا عليه اسمَ (فن الانسجام)[3]؛ إذ في قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ مبدأٌ من مبادئِ التَّشريع في الإسلام، وهو التَّيسيرُ وعدمُ التَّعسيرِ. وفي قولهِ تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ إشارةٌ صريحةٌ إلى اعتبارِ العُرفِ في الأحكام

---

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 720/6.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 256/5.

(3) وهو أن يكون الكلام متحدّرًا كتحدّر الماء المنسجم، حتّى يكون للجملة منه وقع في النّفوس، وتأثير في القلوب، ما ليس لغيره.

الشَّرعيَّة، واحترام العادةِ في التَّعاملِ، ما لم يعارضْهما نصٌّ صريح من القرآن أو الحديث[1]، وفي قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أمرَ اللّهُ تعالى حبيبَهُ في آخرِ الآيةِ، بتحمُّلِ الأذى والحلم عمَّن جفا، فظهر بهذا أنَّ الآيةَ مشتملةٌ على مكارمِ الأخلاقِ فيما يتعلَّق بمعاملةِ النّاس معه، ولم يكن ﷺ فاحشًا ولا متفحِّشًا ولا صخّابًا في الأسواق، ولا يجزي السَّيِّئةَ بالسَّيِّئة، ولكن يعْفو ويصفحُ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأخذُ والاستحواذُ:

الاستحواذُ الاستيلاءُ على الشَّيءِ بالاقتطاعِ لهُ، والأخذُ أعمُّ

الأخذُ أعمُّ؛ إذْ إنَّ الاستحواذَ أخْذٌ بطريقة مخصوصةٍ، وأصلُ (الاستحواذ) في كلام العرب: الغلبةُ، ومنه قولهُ تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾، [المجادلة: 19]، بمعنى: غلب عليهم، يقال منه: "حاذَ عليه واستحاذَ، يحيد ويستحيذ، وأحاذ[3]، والاستحواذُ: الاستيلاءُ على الشَّيءِ بالاقتطاعِ له[4]، والأخْذُ خلافُ العطاءِ "(تحصيل الشَّيء في الحوزة بقوَّةٍ)، وتُلاحَظ الغلظةُ في الأخذِ خلاف العطاء؛ لأنَّ تقبُّلَ الشَّيءِ عطاءً أرْفقُ، وأخْذُ العفوِ معناهُ: أن يقبل من أخلاق النّاس، ويتركَ الغلظةَ عليهم، أي: خذ ما عفا وسهلَ، وتيسَّرَ من أخلاق النّاس، وارضَ منهم بما تيسَّر من أعمالهم، وتسهَّل من غير كلفة[5].

العفوُ والصَّفحُ:

العفوُ تركُ عقوبةِ المذنبِ، والصَّفحُ التَّجاوزُ عنه وتركُ ملامته

الصَّفحُ: تركُ التَّثْريب، وهو أبلغُ من العفو، وقد يعفو الإنسانُ ولا يصفحُ، وقال البيضاويُّ: "العفو ترْكُ عقوبةِ المذنبِ، والصَّفحُ:

(1) صافي، الجدول: 158/5.
(2) حقّي، روح البيان: 298/3.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 608/7.
(4) ابن فضال، النّكت في القرآن الكريم، ص: 488.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 333/13، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 458/5.

تركُ لومِه، قلتُ: ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ [البقرة: 109] ترقّيًا في الأمر بمكارمِ الأخلاق من الحَسَنِ إلى الأحْسنِ، ومن الفَضْلِ إلى الأفْضل"(1).

العُرْفُ والمعروفُ:

العُــرْفُ: ما عَرَفَتْهُ النُّفوسُ مـن الـعـاداتِ والأحـــوال، والمـعـروفُ ضدُّ المنكرِ

ذهبَ كثيرٌ من العلماءِ إلى تفسير (العُرْف) بالمعروف، والعُرْفُ والعارفةُ والمعروف - في لغة العرب - واحدٌ كما يقولُ أبو منصور الأزهريِّ: "وهو كلُّ ما تعرفهُ النَّفسُ من الخيرِ وتَبْسَأ(2) به، وتطمئنُّ إليه"(3)، وفَسَّر الرّاغبُ الأصفهانيُّ العُرْفَ: "بالمعروف من الإحسان"(4)، والعُرْف: كُلُّ ما عَرَفَتْهُ النُّفوسُ مِمّا لا تَرُدُّهُ الشَّريعَةُ(5)، والمعروف ما تعارف عليه النّاس، وعلموه، ولم ينكروه(6)، والمعروف ضدُّ المنكرِ، وهو اسم لكلِّ فعلٍ يعرف بالعقل، والشَّرعُ حسَّنَهُ(7)، وبالنَّظر في آيات الذِكْر الحكيم نلْحظ خِفَّة لفظ (العُرْف) ومجيئَه مرَّةً واحدةً في سورة الأعراف المكيَّة، ممّا يدلُّ على خاصّيَّة له، تميِّزه عن لفظ (المعروف) الَّذي تكرَّر كثيرًا مقترنًا بالنَّهْي عن مقابله، وهو لفظ (المنكر)، فالعُرْف والمعروف: ضدُّ النُّكْر والمُنكر"؛ لأنَّه شيء جارٍ مألوفٌ مقبول يَعْرِفه كلُّ أحدٍ، ولكن يقال: (العُرف) لما ظهرَ من العاداتِ، وتتابعَ من الأفعال والأحوال، وهو الأنسب لمعنى الآية الكريمة، وهو ينقسم إلى عُرْفٍ صحيح وعُرْفٍ فاسدٍ، فالفاسدُ لا يقول به أحد، ولا يُعتمد عليه، والعُرْف الصَّحيح ينقسم إلى عامٍّ وخاصٍّ، وما يتعلَّق بالألفاظ وما يتعلَّق بالأفعال، وليس ثمَّة

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 416، 508، والكفويّ، الكليّات: 120/3، 183/3.
(2) بَسَأ به يَبْسَأُ بَسْا وبُسوءًا وبَسِئَ بَسا: أنِسَ به. ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (بسأ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 344/2.
(4) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 491/2.
(6) الفيروزآباديّ، تاج العروس: (عرف).
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 416، 508.

محلُّ التَّفصيل[1]، و(المعروف) من الألفاظِ الَّتي يصعبُ تعريفها؛ لشدَّة وضوحِها، وبينه وبين العُرْف عُمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ؛ بحَيْثُ يَجْتَمِعانِ في صورَةٍ، ويَنْفَرِدُ كُلُّ واحِدٍ منهما بنَفْسِه في صورَةٍ، فيجتمعان في إطلاقهِما على ما تَأْلَفُهُ النُّفوسُ، وتَسْتَحْسِنُهُ، فهو مِمّا تعرِفُهُ النُّفوسُ، وينفرد العُرْف في غلبةِ إطلاقهِ على عاداتِ النّاس، ولولم تكن معروفةً من الشَّرْع، وجواز إطلاقه على الفاسد، أو المستقبح عند جماعةٍ دون أخرى، كما ينفردُ المعروف بإطلاقهِ على كلِّ ما عُرف من طاعةِ اللّه والتَّقرُّب إليه والإحسان إلى النّاسِ، وكلِّ ما ندبَ إليه الشَّرعُ، ونهى عن ضدِّه.

الجهلُ والحُمقُ:

الجهلُ أعمُّ من الحمقِ؛ إذ إنَّ الجهلَ يكون ضدَّ العلم؛ لأنَّ الجاهلَ خالي الذِّهنِ من المعلومات ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273]، كما يكونُ الجهلُ ضدَّ الحلم؛ لما في الباطن من فراغ، يتمثَّل في السُّلوك بخفَّةٍ وطيش وسفه، أو من جفافٍ، يتمثَّل في السُّلوك بجفاء وغلظة، ومنه قوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النّمل: 55]، وقوله: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: 138]. والحمق هو الجَهْل بالأمور الجاريَة في العادة، والجهل يكون بذلك وبِغَيْرِه، ولا يُسمَّى الجَهْل باللّه حُمقًا، وأصلُ الحمقِ الضَّعْفُ، والخفَّة لفراغ الباطن، ومن ثمَّ قيل: البقلة الحمقاءُ؛ لِضعْفِها وخفَّتها لفراغِها، وأحمق الرَّجل، أي: طاش وسفه، وضعف عقلُهُ[2].

الجهلُ أعمُّ، والحمقُ هو الجَهْلُ بالأمورِ الجاريَةِ في العادةِ

(1) للاستزادة يُراجع: السّرخسيّ، المبسوط: 196/12، وابن عابدين، نشر العرف (في مجموعة الرّسائل): 132/2، وعلي حيدر، درر الحكّام: 94/1، وأبو سنّة، العرف والعادة، ص: 19.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 101، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جهل).

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: 200]

❁ مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين أمرِ الرَّسولِ بالعفوِ وما يتبعُهُ، وبين الاستعاذةِ من نزغِ الشَّيطان الرَّجيم

لمّا أمرَ اللّهُ رسولَهُ ﷺ في الآيةِ السّابقة بالعفوِ والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين، وكانت هذه الأمورُ في معاملةِ النّاس قد تفضي إلى الغضب، وقد يكونُ الغضب مدخلًا للشَّيطان؛ ليصدَّ عن أمرِ اللّهِ، ويحمل على غيرِ ما أمرَ اللّه بهِ - جاء التَّوجيهُ والإرشاد بالالتجاءِ إلى اللّه تعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: من النَّزْغ، وهو حمْلُ بعضِهم على بعضٍ بفسادِ ذاتِ بينهم، كما نَزَغَ الشيطانُ بين يوسف وإخوته، قال رؤبة:

واحذَرْ أقاويلَ العُداةِ النُّزَّغِ[1]

وهو نَخس حِسّيّ (في البدن)، أو معنويٌّ للتَّحريك والإثارة[2].

2) ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾: العَيْنُ والواوُ والذّالُ أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعْنًى واحِدٍ، وهو الالتِجاءُ إلى الشَّيءِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه كُلُّ شَيءٍ لَصِق بشَيْءٍ أو لازَمَهُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـدَّعـوةُ إلى الاسـتـعـاذةِ باللهِ الواقي من الشَّيطانِ ونزغهِ وزيغه

فَإذا ما اسْتَثارَ الشَّيْطانُ غَضَبَكَ لِيَصُدَّكَ عَنِ الإعْراضِ عَنِ الجاهِلينَ، ويَحْمِلَكَ على مُجاراتِهم ومُجازاتِهم، فاسْتَعِذْ باللّهِ، واسْتَجِرْ به مِن نَزْغِ الشَّيْطانِ، إنَّهُ سَميعٌ لِجَهْلِ الجاهِلينَ عَلَيْكَ، عَليمٌ بما يُذْهِبُ عَنْكَ نَزْغَ الشَّيطانِ[3].

(1) البيت مِنَ الرّجز، لرؤبة بن الحجاج، في ديوانه، ص: 98.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزغ).
(3) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1100.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾، وأثرُها في المعنى:

عطفُ جملةِ الشَّرطِ على جملةِ الأمرِ، لما بينهما من علاقةِ السَّببِ بالمسبِّب

الواو استئنافيَّةٌ، لبيان موقفهِ من الشَّيطان، وما يجبُ عليه حيالَه إن حدثَ منه نزغٌ بعد بيان موقفهِ من الأناسيِّ في قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199]. ويحتمل أن تكون عاطفةً على ما قبلَها، عَطَفَ جملةَ الشَّرطِ على جملة الأمر قبلَها؛ لما بينهما من علاقة السَّببِ بالمسبِّب، فمُجاهدةُ النَّفسِ في الإعراض عنِ الجاهلين قد تكمل في موطن، وتضعفُ في موطنٍ آخر، فإن حصلَ ذلك، واعتراك غضبٌ؛ فاستعذ باللّه، وقالَ بَعۡضُ المُفَسِّرينَ: إنَّها راجِعَةٌ إلى قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1]. وعلى هذا لا يصحُّ أن يحملَ قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ على الإغواء والوسوسة، بل على ما قاله بعض المحقِّقين: إنَّه راجعٌ إلى قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أي: يستخفَّنَّك غضبًا يحملك على تركِ الإعراض، أو النَّزغِ أدنى الوسوسة، فأمره تعالى بالاستعاذةِ من ذلك فيكفيهِ له؛ إذۡ لم يُسلَّط على أكثر من ذلك[2].

إيثارُ استعمالِ (إمّا) دون غيرها:

الدَّلالةُ على حمايةِ اللهِ نبيَّهُ الكريم من نزغِ الشَّيطانِ الرَّجيم

قولُه: (وإمّا)، قال الزَّجاجُ: هذه (إنۡ) الَّتي للجزاء، ضُمَّتۡ إليها (ما)، والأصلُ في اللَّفظ (إن ما) مفصولة، ولكنَّها مدغمةٌ، وكُتِبَتۡ على الإدغام، فاذا ضُمَّت (ما) إلى (إن) لزم الفعلُ النّون الثَّقيلة أو الخفيفة، وإنَّما تلزمه النّون؛ لأنَّ (ما) تدخل مؤكِّدةً[3]. وأوثِرَ التَّعبيرُ بـ(إمّا) للدَّلالة على حماية اللّه لنبيِّه ﷺ ممّا قد يقع من نزغ الشَّيطان، ولو كان ضعيف الاحتمال، يعني: إنۡ حَصَلَ في

(1) عياض، الشّفا بتعريف حقوق المصطفى: 2/279.
(2) عياض، إكمالُ المُعۡلِم بفَوائِدِ مُسۡلِم: 1/505.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/58.

قَلْبِكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ، كَما أَنَّهُ تَعالَى قالَ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: 65]، ولَم يَدُلَّ ذلك على أَنَّهُ أَشْرَكَ[1].

بلاغةُ استعمالِ النَّزغِ دون المسِّ:

النَّزغُ أدنى درجاتِ وسوسةِ الشَّيطانِ، وبه يكون استدراجُ الإنسان

في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ استعمل النَّزْعَ دونَ المسّ، والنَّزغُ أدنى درجات وسوسةِ الشَّيطان، وما يعتري الإنسانَ من الغضبِ، وعن الزَّجّاج: النزغُ أدنى حركةٍ تكون، ومن الشَّيْطانِ أَدْنَى وسْوَسَةٍ، وهو النَّخْس، كأنَّه ينخس حين يغريهم[2]، وهو المناسب لسياقِ الآيةِ الكريمةِ، ومقام النَّبيِّ ﷺ وعصمته؛ فإنَّ أقلَّ درجاتِ الوسوسةِ وردتْ على سبيل الشَّكِّ في حصولها، فإن حصل شيءٌ منها؛ فإنَّ سياج الرَّحمةِ الإلهيَّةِ ستحيط النَّبيَّ ﷺ حتَّى لا يكون للشَّيطان عليه سبيل، "فَإنَّ الشَّيْطان قد يوسوس إلى الأَنْبياء، ولَكِن لا يقبلونَ منه"[3]، والنَّزغ حركةٌ فيها فسادٌ، وقلَّما تستعمل إلّا في فعل الشَّيطان؛ لأنَّ حركاتِه مسرعة مفسدة[4]، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «لا يُشِرْ أحدُكم على أخيه بالسِّلاح، لا ينزغ الشَّيطان في الغضبِ وتحسين المعاصي، واكتساب الغوائل، وغير ذلك»[5]. وقد ذُكِرَ (المسُّ) في حقِّ المُتَّقين، وهو أقوى من النَّزغ، كما سبق بيانُهُ في المفردات.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

إطلاقُ النَّزغِ على وسوسةِ الشَّيطانِ للمبالغةِ، والتَّنبيهُ على خطرها

في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾ استعارةٌ مكنية، فالنَّزغُ والنَّسغُ والنخسُ: الغرْزُ؛ شُبِّهت وسوستُه للنّاس وإغراؤه لهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 436/15.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 347/7، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 627/1.

(3) ابن خمير، تنزيه الأنبياء عمّا نسب إليهم حثالة الأغبياء، ص: 71.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 491/2.

(5) الحديث يؤيّده في معناه ما ورد في فتح المبدي بشرح مختصر الزّبيديّ: 358/4: عن أبي هريرة ﷺ، عن النّبيّ ﷺ قال: «لا يُشِرْ أحدكم على أخيه بالسّلاح، فإنّه لا يدري لعلّ الشّيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النّار»، وكذا ما جاء في رواية البخاريّ ومسلم بمثل هذا المعنى من كتاب التّرغيب والتّرهيب، باب: التّرهيب من ترويع المسلم: 29/3.

على المعاصي بغَرْزِ السّائق لما يسوقه على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة، وإسنادُه إلى النَّزغ من قَبيل جَدّ جِدُّه، أي: وإمّا يحمِلنَّك من جهتهِ وسوسةٌ ما على خلاف ما أُمرت به من اعتراءِ غضبٍ أو نحوه[1].

لطيفةُ استعمالِ صيغةِ الفعل المضارعِ:

لا سلطانَ للشَّيطانِ على من آمنَ، واعتصمَ بالقرآنِ

في قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ استُعْمِل الفعل المضارع، دلالةً على استمرارِ الفعل، وتجدُّدِه، فمهما يكن من الشَّيطان من نزْغٍ، فإنَّ لك ملجأً لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ، فاستعذ باللّه، والمعنى: "فإذا ما استثارَ الشَّيطانُ غضبكَ ليصدَّك عن الإعراضِ عن الجاهلين، ويحملَك على مجاراتهم ومجازاتهم، فاستعذْ باللّهِ، واستجرْ به من نزغِ الشَّيطانِ، إنَّه سميعٌ لجهل الجاهلين عليك، عليمٌ بما يُذهب عنك نزغَ الشَّيطان"[2].

نكتةُ تأكيدِ الفعلِ بنون التَّوكيد في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾:

إشارةُ السّياق إلى نزغِ الشَّيطان وخطره، وإلى مفاسدِه وأثرِه

ودخلتِ النّونُ مؤكِّدَةً أيضًا، كما لزمتِ اللّامُ النّونَ في القسم في قولك: واللّه لتفعلنَّ[3]، فلو قيل: (ينزغك)؛ لَما كان في قوَّة ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ لمكان نون التَّوكيد، ولتقويَةِ الفعلِ بالبناءِ على الفتحِ، ولزيادةِ جَرْسِ الكلمة الدّالِّ على خطَر المعنى وأثره.

سرُّ اتِّصالِ الفعلِ بالضَّميرِ الواقعِ مفعولًا في قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾:

إبرازُ ضررِ نزْغِ الشَّيطانِ، وتحذير المخاطبِ منهُ في كلِّ آنٍ

في اتِّصال كافِ الخطاب بالفعل مُسَوِّغٌ لتقديم المفعول على الفاعلِ، وهذا يشير إلى أهمّيَّته وعناية المتكلِّم به، كما يدلُّ على خفَّةِ النَّزغ وسرعته؛ بحيثُ يصل سريعًا إلى هدفه لولا فضلُ اللّه ورحمته لمن استعاذَ به من شرِّه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 308/3.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1155.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 58/1.

بلاغةُ إسنادِ النَّزغِ إلى المصدرِ ﴿نَزۡغٞ﴾:

السّياق يحملُ مبالغةً، وإشارةً إلى حمايةِ الله نبيَّهُ من الشَّيطانِ

في إسنادِ النَّزغِ إلى المصدرِ، وجَعْلِ النَّـزْغِ نازغًا: مبالغةٌ، كما قيل: جَدَّ جِدُّه، وروي أنَّها لمّا نزلت قال رسول اللّه ﷺ: «كيفَ يا ربِّ والغضب؟» فنزل ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾، ويجوز أن يُراد بنزغِ الشَّيطان اعتراءُ الغضب، كقول أبي بكر رضي الله عنه: "إنَّ لي شيطانًا يعتريني"[1]، وفي العدولِ عن إسناد النَّزْغِ إلى الشَّيطان إشارةٌ إلى حماية المخاطبِ مِنَ الشَّيطان؛ إذ إنَّ النزْغَ وإن كان صادرًا من الشَّيطان، ولكنَّه جاءَ على سبيل الاحتمال، وهذه خصيصةٌ بالمخاطبِ بهذا السّياق، "وَهذا الأمْرُ شامِلٌ لِلْمُؤْمِنينَ وحَظُّ المُؤْمِنينَ منه أقْوى؛ لِأنَّ نَزْغَ الشَّيْطانِ إيّاهُم أكْثَرُ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ مُؤَيَّدٌ بالعِصْمَةِ، فلَيْسَ لِلشَّيْطانِ عليه سَبيلٌ"[2]، وهذا يختلف عن السّياق الآخرِ الَّذي أسند فيه النزْغُ إلى الشَّيطان مباشرةً، كقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف: 100]، وقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: 53].

فائدةُ قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، وتقديمه على الفاعل ﴿نَزۡغٞ﴾:

بيانُ مصدرِ النَّزْغِ ليحذرَهُ المخاطب ويتوقّاه

أفادَ قولُه: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ بيانَ موضعِ صدورِ النَّزْغِ، وأنَّه من الشَّيطانِ، لا من النَّفسِ، وحينئذٍ يكون الجارُّ والمجرورُ متعلِّقًا بالفعل قبله، ويجوز أن يفيدَ بيانَ حال النَّزغ الشَّيطانيِّ، وأنَّه ذو أثرٍ مختلفٍ، وأصله: (نزغٌ من الشَّيطان)، وحينئذٍ يكون متعلِّقًا بالفاعل بعده، أي: (نزغ الشَّيطانُ به) فكان من الشَّيطان، ويتعلَّق الجارُّ والمجرور بمحذوف يقع حالًا منه؛ لأنَّهُ في الأصل صفتهُ، فلمّا تقدَّم عليه أعربَ حالًا.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/190.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/230.

لطيفةُ جناسِ الاشتقاقِ في قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ و﴿نَزۡغٞ﴾:

يشيرُ إلى اختصاصِ فعلِ النَّزغِ بواحدٍ، وهو الشَّيطانُ

تبدو لطائفُ الجناس هنا من ذكرِ الفاعلِ من جنس حروفِ الفعل؛ وكأنَّه يشيرُ إلى اختصاصِ فعل النَّزغ بواحدٍ، وهو الشَّيطان، "والنَّزْغ: حركةٌ فيها فسادٌ، قلَّما تُستَعمَلُ إلّا في فِعْلِ الشّيطان، لأنَّ حركته مسرِعَةٌ مفسدة"[1]؛ حيث إنَّ إسنادَهُ إلى غيرهِ لا يُتصوَّر، إلّا أن يكونَ الفاعلُ من ذات الفعل، وفي ذلك حُسنُ الإفادةِ، مع أنَّ الصّورةَ صورةُ الإعادة. "ومعنى هذا: أنَّ الكلمةَ المكرَّرةَ في التَّجنيس مع أنَّ الصَّورة توهمُ السّامعَ في أوَّلِ أمرِها أنَّها لم تَأْتِ بجديدٍ، بل هي مكرَّرةٌ لمعنى سابقتِها، فإذا حصل للسّامع منها المعنى الجديدُ، جاءه ذلك من غير مظانِّه، ومن حيثُ لم يتوقَّعه، وفي ذلك متعةٌ للنَّفس، وربحٌ من غيرِ انتظارٍ"[2].

دلالةُ الفاءِ، وأثرُ دخولها على الجوابِ:

سبيلُ الوقايةِ من الشَّيطانِ، الاستعاذةُ بالله الواقي من زيغه الفتّان

الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرْطِ، وإنَّما اختيرت (الفاء)، من قِبَلِ أنَّ الجزاءَ سبيله أن يقع ثاني الشَّرط، وليس في جميع حروفِ العطف حرفٌ يوجد هذا المعنى فيه سوى (الفاء)؛ فدخلتْ (الفاء) في جوابِ الشَّرطِ توصُّلًا إلى المجازاة[3].

العدولُ عن (فاستعن)، وإيثارُ الفعلِ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾:

الدَّلالةُ على قوَّةِ المستعاذِ بهِ، وضعفِ العبدِ المستعيذِ

أوثرَ الفعلُ (استعذ)؛ لأنَّهُ يدلُّ على قوَّة المستعاذ به من جهةٍ؛ للالتجاء إليه، والاحتماء به، وضعف العبد المستعيذ من جهة أخرى، وفيه إظهارُ الانكسارِ لله تعالى، والاستكانة له، والتَّذلُّل لعظمته، والتَّبرُّؤ من الحولِ والقوَّة، وترك الالتجاءِ لغيرِ الله تعالى.

---

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 107/3.

(2) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 442/2.

(3) ابن جِنّيّ، سِرّ صناعة الإعراب: 252/1، والواحديّ، التّفسير البسيط: 255/2.

فائدةُ الاستعاذةِ عند نزغِ الشَّيطانِ:

تَجديدُ داعيَةِ العِصْمَةِ المَرْكوزةِ في نفسِ النَّبيِّ ﷺ

فائِدَةُ هذه الاسْتِعاذَةِ تَجْديدُ داعيَةِ العِصْمَةِ المَرْكوزَةِ في نفس النَّبيِّ ﷺ لِأنَّ الاسْتِعاذَةَ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ اسْتِمْدادٌ لِلْعِصْمَةِ، وصَقْلٌ لِزُكاءِ النَّفْسِ مِمّا قد يَقْتَرِبُ منها مِنَ الكُدُراتِ، وهذا سِرٌّ مِنَ الاتِّصالِ بَينَ النَّبيِّ ﷺ ورَبِّه وقد أشارَ إليه قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّهُ لَيُغانُ على قَلْبي، وإنّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ في اليَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»[1]، فبذلك تَسْلَمُ نَفْسُهُ مِن أنْ يَغْشاها شَيْءٌ مِنَ الكُدُراتِ، ويَلْحَقُ به في ذلك صالِحوا المُؤْمنينَ[2]، ولَعَلَّ اللهَ ادَّخَرَ خُصوصيَّةَ الاسْتِعاذَةِ لِهذه الأُمَّةِ، فكَثُرَ في القرآنِ الأمْرُ بالاسْتِعاذَةِ مِنَ الشَّيْطانِ، وكَثُرَ ذلك في أقْوالِ النَّبيِّ ﷺ وجُعِلَ لِلَّذينَ قَبْلَهم الأمْرُ بالتَّذَكُّرِ، كَما ادَّخَرَ لَنا يَوْمَ الجُمُعَةِ[3].

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱللَّهِۚ﴾، وفائدةُ التَّصريحِ باسمِ الجلالةِ:

الإلصاقُ وإظهارُ اسمِ الجلالةِ، لدفعِ إيهامِ عودِ الضَّميرِ إلى الشَّيطانِ

الباءُ في قَوْلِه: ﴿بِٱللَّهِۚ﴾ باءُ الإلْصاقِ، وهذه الباءُ مُتَعَلِّقَةٌ بالفِعْلِ، والفائِدَةُ فيه: أنَّهُ لا يُمْكِنُ إلْصاقُ ذلك الفِعْلِ بنَفْسِه إلّا بواسِطَةِ الشَّيْءِ الَّذي دَخَلَ عليه، هذا الباءُ فهو باء الإلصاق لِكَوْنِه سَبَبًا لِلْإلْصاقِ[4]. وإظهارُ اسمِ الجلالةِ هنا واجبٌ؛ لأنَّه لو قيل: (فاستعذْ به)؛ لحصلَ لبسٌ، وهو عودُ الضَّميرِ إلى الشَّيطانِ، كما أنَّ في ذكرِ اسمِ الجلالة دون غيرِه من الأسماءِ الحسنى تربيةً للمهابةِ في القلوب، ودفعًا لنزغاتِ الشَّيطانِ المتنوِّعة باسم (الله) الَّذي هو علمٌ على الذّاتِ العليَّة، ويحمل كلَّ معاني الجلالِ والكمالِ والجمال، فالمستعيذُ باللهِ مستعيذٌ بالذّاتِ والصِّفاتِ.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم: (2702)، وأبو داود في سننه، برقم: (1515).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 296/24.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 232/9.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 96/1.

الوقفُ القرآنيُّ، يمنحُ القارئَ والمستمعَ مُهْلةً للتَّأمُّلِ والتَّدبُّر

دلالةُ الوقفِ على قولِهِ تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾:

قوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ وقفٌ حسن[1]؛ لأنَّه تمامُ جملة الشَّرط، والوقف عليه يمنحُ القارئَ والمستمع مُهْلةً للتأمُّل والتَّدبُّر والتَّطبيق العمليِّ، فيُمَكِّنه من الاستعاذةِ فوْرَ قراءتِهِ لهذا الأمر الإلهيِّ[2]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تامٌّ[3].

دلالـةُ التَّعليلِ للجوابِ بقوله تعالى: (فاسْتَعِذْ باللهِ إنَّهُ سَميعٌ عَليمٌ)

بلاغةُ فصلِ جملةِ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عمّا قبلَها:

استئنافٌ بيانيٌّ؛ حيث إنَّه تعليلٌ للجوابِ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾، فجُمْلَةُ: إنَّهُ سَميعٌ عَليمٌ في مَوْقِعِ العِلَّةِ لِلْأَمْرِ بالاسْتِعاذَةِ مِنَ الشَّيْطانِ باللهِ، على ما هو شَأْنُ حَرْفِ (إنَّ)، إذا جاءَ في غَيْرِ مَقامِ دَفْعِ الشَّكِّ أوِ الإنْكارِ، فإنَّ الرَّسول ﷺ لا يُنْكِرُ ذلك، ولا يَتَرَدَّدُ فيه، والمُرادُ: التَّعْليلُ بلازِمِ هذا الخَبَرِ، وهو عَوْذُهُ ممّا اسْتَعاذَهُ منه، أيْ: أمَرْناكَ بذلك؛ لِأنَّ ذلك يَعْصِمُكَ مِن وسْوَسَتِه؛ لِأنَّ اللهَ سَميعٌ عَليمٌ[4].

مناسبةُ لفظي (سَميعٌ عَليمٌ) للفاصلة، وضرورةُ استحضارِ معنى الاستعاذة

علاقةُ الفاصلةِ بسياقِ الآيةِ:

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَدُلُّ على أنَّ الاستعاذةَ بلسان لا تُفيدُ إلّا إذا حَضَرَ في القَلْبِ العِلْمُ بمعنى الاسْتِعاذَةِ، فكَأنَّهُ تَعالَى قالَ: اذْكُرْ لَفْظَ الاسْتِعاذَةِ بلِسانِكَ فإنِّي سَميعٌ، واسْتَحْضِرْ مَعانيَ الاسْتِعاذَةِ بعَقْلِكَ وقَلْبِكَ، فإنِّي عَليمٌ بما في ضَميرِكَ، وفي الحَقيقَةِ

---

(1) الوقف الحسن: الذي يكون عند تمام الكلام، وله تعلق بما بعده من جهة اللَّفظ، وسمَّى كذلك؛ لأنَّه في نفسه حسن مفيد، يجوز الوقف عليه دون الابتداء بما بعده للتَّعلُّق اللَّفظيِّ، الا أن يكون رأس آية، فإنَّه يجوز في اختيار أكثر أهل الأداء. ينظر: الإبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 27/5.

(2) ورد ذلك في السنَّة، ولكن ليس ثمَّة دليل على قطع جزء الآية بالاستعاذة، أو الدُّعاء، ويفضَّل ختم الآية؛ تأدُّبًا حتّى لا يدخلَ كلامُنا في كلام الله تعالى، فعَنْ حُذَيْفَةَ، قالَ: «صَلَّيْتُ معَ النَّبيِّ ﷺ لَيْلَةً، فكانَ إذا مَرَّ بآيَةِ رَحْمَةٍ سَألَ، وإذا مَرَّ بآيَةِ عَذابٍ تَعَوَّذَ، وإذا مَرَّ بآيَةٍ فيها تَنْزيهٌ لِلَّهِ سَبَّحَ»، رواه أبو داود في: باب ما يقول الرّجل في ركوعه وسجوده، من كتاب الصّلاة، برقم: (871)، والنّسائيّ، في: باب تعوُّذ القارئ إذا مرَّ بآية عذاب، وباب مسألة القارئ إذا مرَّ بآية رحمة، من كتاب افتتاح الصّلاة، وفى باب الذّكر في الرّكوع، وباب نوع آخر (من الدّعاء في السّجود)، برقم: (1008) و(1009).

(3) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 675/2.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 231/9.

القَوْلُ اللِّسانيُّ بدونِ المَعارِف القلبيَّة عديمُ الفائدةِ والأثرِ[1]، ولمّا كان الغَرَضُ مِنَ الاسْتِعاذةِ الاحْتِرازَ مِن شَرِّ الوَسْوَسَةِ، ناسبها هذان الوصفان للّه تعالى، وهما ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ومَعْلومٌ أنَّ الوَسْوَسَةَ كَأنَّها حُروفٌ خَفيَّةٌ في قَلْبِ الإنْسانِ، ولا يَطَّلِعُ عَلَيْها أحَدٌ، فكَأنَّ العَبْدَ يَقولُ: يا مَنْ هو على هذه الصِّفَةِ الَّتي يَسْمَعُ بها كُلَّ مَسْموعٍ، ويَعْلَمُ كُلَّ سِرٍّ خَفيٍّ، أنْتَ تَسْمَعُ وسْوَسَةَ الشَّيْطانِ، وتَعْلَمُ غَرَضَهُ فيها، وأنْتَ القادِرُ على دَفْعِها عَنّي، فادْفَعْها عَنّي بفَضْلِكَ، فلِهذا السَّبَبِ كانَ ذِكْرُ السَّميعِ العَليمِ أولَى بهذا المَوْضِعِ مِن سائِرِ الأذْكارِ[2].

نكتةُ إردافِ صفةِ العلمِ صفةَ السَّمْعِ هنا:

استـعـاذةُ (الـسَّـمـيـعُ الـبَـصـيرُ) من شَـرِّ الإنـسِ، و(الـسَّـمـيـعُ العَليمُ) من شَرِّ الشَّيطانِ

نتأمَّل حكمةَ القرآنِ كيف جاءَ بالاستعاذةِ من الشَّيطانِ الَّذي نعلمُ وجودَه، ولا نراهُ بلفظ: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هنا وفي [فصلت: 36]، وجاءتِ الاستعاذةُ من شرِّ الإنسِ الَّذين يؤنَسون، ويُرَوْنَ بالإبصار بلفظ: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ في [غافر: 56]؛ لأنَّ أفعالَ هؤلاء معاينةٌ بالبصر، وأمّا نزغُ الشَّيطان؛ فوساوس وخطراتٌ يُلقيها في القلب، يتعلَّق بها العلم، فأمَرَ بالاستعاذة بالسَّميع العليم فيها، وأمرَ بالاستعاذة بالسَّميعِ البصيرِ، في باب ما يُرَى بالبصرِ ويُدْرَكُ بالرُّؤيةِ[3].

سِرُّ العدولِ عن التَّوكيدِ بضميرِ الفصلِ هنا:

في (فُـصِّـلـت) ضـمـيرُ الفصل (هو) بعد دعاءٍ إلى مـا يـشـقُّ فـعـلـه، وهنا ليسَ كذلك

إنَّ الَّذي في سورة فُصِّلَتْ في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فُصِّلَت: 36] لمّا كان بعدَ دعاءٍ إلى ما يشقُّ على الإنسانِ فعلُه، وهو أن يدفعَ السَّيِّئةَ بالحسنة، ويقابلَ غلظةَ عدوِّه بالملاينة، استكفافًا لشرِّه وأذاه حتَّى يعود إلى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 436/15.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 436/15.
(3) ابن قيم الجوزيّة، تفسير القرآن الكريم، ص: 648.

اللُّطفِ في المقال والجميلِ في الفِعال، فيصيرُ وإن كان عدوًّا كأنَّه صديقٌ حميمٌ قريبُ القُرْبى[1].

نكتةُ المجيءِ بصفتي ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ نكرتين:

لَمّا نفى عن آلهتِهم شبهها بالأحياء؛ وردت الصِّفتان نكرتين

وردتِ الصِّفتانِ الكريمتانِ هنا: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ من دون (ال)، وفي سياق آخرَ بـ(ال) في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فُصِّلَت: 36]، فوردت الصِّفتان في سورةِ الأعرافِ على طريقة التَّنكيرِ ووردتا في السُّورة الأخرى معرفتين، وزيد قبلهما الضَّميرُ الواقعُ فصلًا، فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾؛ لأنَّ سورةَ الأعرافِ تقدَّم فيها قبل الآية وصفُ آلهتهم المنحوتة من الحجارةِ والخشبِ الَّتي وُبِّخوا بعبادتها، في قوله في موضع آخر: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥﴾ [الصافات: 95]، فوصفت هنا بأنَّها لا تخلق شيئًا، ولا يستطيعون لهم نصرًا، ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198]، فنفى عنهم القدرةَ والسَّمعَ والبصرَ وآلةَ المشي، وآلةَ البطش، بقوله: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ [الأعراف: 195] ولم يتقدَّم هنا ما يوهِمُ أدنى شيءٍ يلحقُها بشبهِ الأحياء، فضلًا عمّا فوق ذلك، فوردتِ الصِّفتانِ بقولهِ: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ موردًا لم يتقدَّمه ما يوهم صلاحيَّة شيء من ذلك لغيره تعالى ممّا عبدوه من دونه، ممّا قصد هنا، ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مدَّعٍ، فيستدعي ذلك التَّوهُّم مفهومًا ينفيه، فجاء على ما يجبُ، أمّا آيةُ فُصِّلت؛ فتقدَّم قبلَها قولهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢﴾ [فُصِّلَت: 22]، وقوله تعالى: ﴿۞وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [فصلت: 25] وقوله تعالى: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [فصلت: 25]،

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغرّة التّأويل، ص: 1146.

فحصل من هذا أنَّ مُضلّيهم إنَّما كانوا من عالَم الإنسِ والجنِّ، وكلا الصِّنفين موصوفٌ بالسَّمع والبصر، وممّن ينسب إليه علمٌ بخلاف المقدَّم ذُكِر في الأعراف، فلمّا تقدَّم في سورة فصِّلت مَن يُظنُّ منه الغنى، ويمكن منه أن يسمعَ ويبصرَ، ويعلم، ناسبهُ التَّعريف في الصِّفة؛ ليعطيَ بالمفهوم نفيَ ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى، ثمَّ أكَّد ذلك بضمير الفصل المقتضي التَّخصيص، ليقوى المفهوم المسمَّى عند كثير من الأصوليين بدليل الخطاب[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّزغُ والمسُّ والوسوسةُ:

المــسُّ طـيـفٌ يُـلـمُّ بالإنسان، والـنَّـزغُ أدنى درجــاتِ الوسوسةِ، وهي مـن الـشَّـيطان أعمُّ

النَّزغُ: أدنى حركة تكون من الآدميِّ، ومن الشَّيطان أدنى وسوسةٍ، وأمّا المسُّ؛ فهو الطَّيف يُلمُّ بالإنسان، فيجعلُ فيه وسوسةً، ويبعثُ فيه غضبًا، وينشر فيه فزعًا، والوسوسة أعمُّ، وأصلُها الصَّوت الخفيُّ،[2] ومنه يُقال لصوت الحليِّ: وسواسٌ، وكلُّ صَوتٍ لا يفهم تَفْصيله لخفائهِ: وسْوَسَة ووَسواس، وكَذلك ما وقع في النَّفس خفيًّا، وَسمّى القرآنُ الموسوسَ وسواسًا بالمَصْدَرِ في قَوْله تَعالَى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٤﴾ [النّاس: 4]، ولا تصبحُ وسوسة الشّيطان سلطانًا الا إذا أُطيع فيما يوسوِسُ به مِن الكفرِ، ويوضِّحُ هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ [النّحل: 100].

والنَّزغُ أدنى درجاتِ الوسوسةِ، فالنَّزغ هو الإغواءُ بالوسوسةِ، وأكْثر ما يكون عند الغَضَب، ويطلق للإزعاج بالحركة إلى الشَّرِّ، ويُقال: هَذه نزغةٌ من الشَّيطان للخصلةِ الدّاعيةِ إلى الشَّرِّ[3].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 223/1.
(2) سامي القدومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 199.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 67، وابن منظور، اللّسان: (نزغ)، (وسوس).

العَوذُ واللَّوذُ:

العـَوذُ يكـونُ لـجـوءًا ممّا يخافهُ العائذُ ويحذرُه، واللّوذ ممّا يريده اللّائذُ ويؤمِّلُه

العوذُ في لغةِ العرب: الالتجاءُ أو الالتصاقُ، قال الجوهريُّ: أطيبُ اللَّحم عُوَّذُه (على وزن سُكَّر)، وهو ما التصقَ منه بالعظم، أي: التجئ إلى رحمةِ اللّهِ، أو التصِقْ بفضلِه، وكأنَّ المستعيذَ باللّهِ يتحصَّنُ من وجوهِ السّوءِ، تحصُّنَ المخِّ في داخلِ العظم[1]، واللَّوْذُ: مَصْدَرُ لاذَ يَلوذُ لِواذًا ولياذًا ولَوْذًا، وألاذَ به: وهو أنْ يَسْتَتِرَ بشَيْءٍ مَخافَةَ مَنْ يَراهُ أو يَأْخُذُهُ، والمَلْوَذَةُ: المَوْضِعُ يُلاذُ بِه، ويُجْتَمَعُ إليه[2]، والعوذُ من شَرِّ كُلِّ ذي شَرٍّ، والعياذَةُ تكونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ، واللّياذُ يَكونُ لِطَلَبِ جَلْبِ الخَيْرِ، كَما قالَ المُتَنَبّي[3]:

يا مَنْ ألوذُ به فيما أُؤَمِّلُهُ *** ومَنْ أعوذُ به فيما أُحاذِرُهُ

لا يَجبُرُ النّاسُ عَظْمًا أنْتَ كاسِرُهُ *** ولا يَهيضونَ عَظْمًا أنْتَ جابِرُهُ

---

(1) ابن هُبيرة، الإفصاح عن معاني الصّحاح: 334/8، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 15/1.

(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (لوذ).

(3) البيتان من بحر البسيط لأبي الطّيّب المتنّبي، في ديوانه، ص: 41، قالهما المتنبي في مدح جعفر بن كيغلغ من قصيدة مطلعها:

حاشَى الرَّقيبَ فخانَتْهُ ضَمائرُهُ *** وغَيَّضَ الدَّمْعَ فانْهَلَّتْ بَوادِرُهُ

وقد أسرف في المدح. قال ابن كثير في البداية والنّهاية: 275/11: "بلغني عن شيخنا العلّامة شيخ الإسلام ابن تيميّة أنّه كان ينكر على المتنبّي هذه المبالغة في مخلوق، ويقول: إنّما يصلح هذا لجناب الله ﷻ"، وقال ابن القيّم: "سمعت ابن تيميّة يقول: ربّما قلت هذين البيتين في السّجود، أدعو الله بما تضمّناه في الذّلّ والخضوع"، وقال ابن القيم أيضًا في شفاء العليل في القضاء والقدر: 191/2: "ولو قال ذلك في ربّه وفاطِرِه لكان أسعدَ به من مخلوق مثله".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربْطُ دفعِ الرَّسولِ النَّزغَ بالاستعاذةِ، بدفعِ المؤمنين الطّائفَ بالتَّذكُّرِ والإنابة

لمّا بَيَّنَ في الآيَةِ الأولَى أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يَحصُلُ لَهُ مِنَ الشَّيطانِ إلّا النَّزْغُ الَّذي هو كالابْتِداءِ في الوَسْوَسَةِ، وأنَّ عِلاجَ هذه الحالَةِ الاسْتِعاذَةُ باللّه؛ بَيَّنَ في هذه الآيَةِ أنَّ حالَ المُتَّقينَ يَزيدُ على حالِ الرَّسولِ في هذا البابِ، وهو أنْ يَمَسَّهُم طائِفٌ مِنَ الشَّيطانِ، وهذا المَسُّ يَكونُ لا مَحالَةَ أبلَغَ مِنَ النَّزْغِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّهُمۡ﴾: المسُّ يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيْءِ باليَدِ، ومَسِسْتُه أمَسُّه، ومَسَسْتُ أمُسُّ لغة، والمَمسوسُ: الَّذي به مَسٌّ، كَأنَّ الجِنَّ مَسَّتْه[2]، والمراد: إذا ألمَّ بهم لَمَمٌ من الشَّيطان، من غضب أو غيره[3].

2) ﴿طَٰٓئِفٌ﴾: الطَّيْفُ: المَسُّ من الشَّيطان (اتِّصال كالغشَيان ولكن بصورة خفيَّة)، والطَّوف يَدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ، وأنْ يُحَفَّ به ومِنَ البابِ: الطّائِفُ، وهو العاسُّ، والطَّيْفُ والطّائِفُ: ما أطافَ بالإنْسانِ مِنَ الجِنِّ، قالَ أبو مَنْصورٍ: الطَّيْفُ في كَلامِ العَرَبِ الجُنون، رَواهُ أبو عُبَيْدٍ عَنِ الأحمر، قالَ: وقيلَ لِلْغَضَبِ: طيفٌ؛ لأنَّ عَقْلَ مَنِ اسْتفزَّه الغضبُ يَعْزُب حَتَّى يَصيرَ في صورَةِ المَجْنونِ الَّذي زالَ عَقْلُه، قالَ: ويَنْبَغي لِلْعاقِلِ إذا أحسَّ من نَفْسه إفراطًا في الغَضَبِ أن يَذْكُرَ غضب اللّه على المُسْرِفين، فلا يقدم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 437/15.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان: (مسّ).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 333/13.

على ما يوبِقُه، ويَسأل اللّه تَوْفيقَه لِلْقَصْدِ في جَميعِ الأحوال إنَّه المُوَفِّق لَهُ[1].

3) ﴿تَذَكَّرُواْ﴾: تفعَّل من الذِّكر: الحفظُ للشَّيء تذكره، وذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلافُ نَسيتُه، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنكَ على ذُكْرٍ، بضَمِّ الذّالِ، أيْ: لا تَنْسَهُ، والذِّكْرُ العَلاءُ والشَّرَفُ، وهو قياسُ الأَصْلِ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المـتَّـقـون إذا مسَّهم طائفٌ من الشَّيطان، تذكَّروا فعادوا إلى الرَّحمنِ

إنَّ الذين اتَّقوا اللّه تعالى وصانوا أنفسهم عن كلِّ ما يغضبهُ، إذا مسَّهم شيءٌ من وسوسة الشيطان ونزغاتهِ الَّتي تلهيهم عن طاعة اللّه ومراقبته؛ تَذَكَّروا، أي: تذكَّروا أنَّ المسَّ إنَّما هو من عدوِّهم الشَّيطان، فعادوا سريعًا إلى طاعة اللّه، وإلى خوف مقامِه، ونهوا أنفسهم عن اتِّباع همزاتِ الشَّياطين[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ أسلوبِ الفصلِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾:

الاستعاذةُ مَنْجاةٌ لِلرَّسولِ مِن نَزْغِ الشَّيطانِ، وتذكيرٌ بكَيْدِه ومكره

هذا تَأْكيدٌ وتَقْريرٌ لِلْأَمْرِ بالاسْتِعاذَةِ مِنَ الشَّيْطانِ، فتَتَنَزَّلُ جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ إلى آخِرها مَنْزِلَةَ التَّعْليلِ لِلْأَمْرِ بالاسْتِعاذَةِ مِنَ الشَّيْطانِ، إذا أَحَسَّ بنَزْغِ الشَّيْطانِ؛ ولِذَلك افتتحت بإِنَّ الَّتي هِيَ لِمُجَرَّدِ الاهْتِمامِ لا لِرَدِّ تَرَدُّدٍ أو إنْكارٍ، كَما افْتُتِحَتْ بها سابِقَتُها في قَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: 200] فيَكونُ الأَمْرُ بالاسْتِعاذَةِ حينَئِذٍ قد عُلِّلَ بعِلَّتَيْنِ:

أولاهُما: أنَّ الاسْتِعاذَةَ باللّه مَنْجاةٌ لِلرَّسولِ ﷺ من نَزْغِ الشَّيْطانِ،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طوف، وطيف).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان: (ذكر).

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 460/5.

والثّانيَةُ: أنَّ في الاسْتِعاذَةِ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكُّرًا بواجِبِ مُجاهَدَةِ الشَّيْطانِ والتَّيَقُّظِ لِكَيْدِه، وأنَّ ذلك التَّيَقُّظَ سُنَّةُ المُتَّقينَ، فالرَّسولُ ﷺ مَأْمورٌ بمُجاهِدَةِ الشَّيْطانِ: لِأنَّهُ مُتَّقٍ، ولِأنَّهُ يَبْتَهِجُ بمُتابَعَةِ سيرَةِ سَلَفِه مِنَ المُتَّقينَ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90][1].

إيثارُ استعمالِ اسمِ الموصولِ (الّذين) بدلًا مِنَ (المتَّقين):

مَدْحُهم بِمَدْلولِ الصِّلَةِ، والإيماءُ إلى دخـول كلِّ مَن سلك طريق التَّقوى فيها

وَإيثارُ الموصول في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ لبيان سبب حمايتهم من الشَّيطان، وهو تحلّيهم بالتَّقوى، وما لهم من رصيدٍ مُدَّخر في سجلّات ماضيهم؛ وللدَّلالة على تحقُّق صفة التَّقوى فيهم، فعُدِلَ عَنِ الإتْيانِ بالاسم (المتَّقين) هُنا إلى المَوْصولِ، لِقَصْدِ مَدْحِهِم بمَدْلولِ الصِّلَةِ، ولِلْإيماءِ إلى دخول كلِّ مَن سلك طريق التَّقوى، سواء أكان مبتدئًا أم منتهيًا، ولبيان أنَّ الصِّلَةَ سَبَبٌ لِلْحُكْمِ المَحْكوم به على المَوْصولِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ دون مرادفاتِه:

مناسبةُ التَّقوى معنى الوقايةِ مِـن الـشَّـرِّ، وسبيل التَّوقّي من الضُّرِّ

أوثِرَ التعبير بـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ لمناسبةِ التَّقوى لمعنى الوقايةِ من الشَّرِّ، أوثِرَ التَّعبيرُ بها هنا، فهي قاعدةُ الإسلامِ، وجماعُ الخيرِ، والعاصم من كلِّ شرٍّ، والباعثُ على كلِّ فضيلةٍ، وخلقٍ كريم، وهي أساسُ النَّجاةِ في الدُّنيا والآخرة، وسبيلُ السَّعادة، وطريقُ التَّوصُّلِ إلى الطُّمأنينة والاستقرار، والشُّعور بالرِّضا والارتياح، بل وسبب تيسُّرِ الرِّزق الحلال، ولما للتَّقوى من فضائلَ جمَّةٍ، وهي كنزٌ عزيزٌ، إن ظفرت بهِ، فكم تجد له فيه من جوهرٍ شريف، وعِلقٍ نفيس، وخير كثير، ورزقٍ كريم، وغُنم جسيم، وملك عظيم، فهي الخصلةُ التي تجمع خير الدُّنيا والآخرة، وتأمَّل ما في القرآن من ذكرها كم علَّق بها من خيرٍ! وكم وعدَ عليها من ثواب! وكم أضافَ إليها من سعادةٍ![2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 221/9.

(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 259/5، والزّحيليّ، أخلاق المسلم، ص: 52.

فائدةُ استعمالِ صيغةِ الماضي في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾:

ما ذكرهُ الباري يتحقَّقُ في المستقبل، وإن كان التَّعبيرُ بلفظ الماضي

وَأتَى في جانِب التَّقْوَى بصِلَةٍ فِعْلِيَّةٍ ماضيةٍ لِلْإشارَةِ إلى لُزومِ حُصولِها وتَقَرُّرِها مِن قَبْلُ؛ لِأنَّها مِن لَوازِمِ الإيمانِ، لِأن التَّقوى آئلةٌ إلى أداءِ الواجِب، وهو حَقٌّ على المُكَلَّفِ[1]، واللّه تعالى يؤكّد بأنَّ "الَّذينَ اتَّقوا الشِّركَ والمعاصيَ، إذا لَحِقَهُم شيءٌ من وسوسةِ الشَّيطانِ تَفَكَّروا في قدرةِ اللّه عليهم، وإنعامِه إليهم فتركوا المعصيةَ"[2].

بلاغةُ حذفِ المفعولِ في قولِه: ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾:

حُذِفَ المفعولُ لتنزيهِ اسم الجلالة من الذِّكرِ مع المسِّ والطَّواف الشّيطانيَّيْن

لمّا كان الغرضُ وصفَهم بالتَّقوى، وبيانَ تلبُّسِهم بها، حُذِفَ المعمول، واكتُفي بالفعل وفاعله، فعومِلَ معاملةَ اللّازم، أو أنَّ معمولَ ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ محذوفٌ، وهو اسمُ الجلالة؛ للعلم بهِ، أو للتَّنزيه؛ فلا يليقُ ذكره مع ذكر المسِّ والطَّواف الشّيطانيَّيْن، أو حُذِف لإفادة العموم، أي: اتَّقوا كلَّ ما يغضبُ اللّه تعالى، ويكون سببًا في إثمهم وعذابهم.

بلاغةُ الإطنابِ في خبرِ ﴿إِنَّ﴾:

ما تتضمَّنه جملتا الشَّرطِ والجوابِ من المعاني الجميلة

أوثِرَ الإطنابُ في خبر (إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ ﴿تَذَكَّرُواْ﴾، ولو قيلَ: إنَّ الذين اتقوا يتذكَّرون عند مسِّ الشَّيطان لهم؛ لكان كلامًا ركيكًا، ورُبَّ كلامٍ يكون الإطنابُ فيه أبلغَ من الإيجازِ، وتصيرُ البساطةُ له كالعلم والطِّراز[3]، وجملةُ: (الشَّرطِ وفعله وجوابه) في محلِّ رفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والتَّعبير عن الخبرِ بهذا الإطناب البليغ، يومِئ بسياجِ الحفظِ والرِّعاية والعناية؛ إذْ إنَّ وقوعَ الخبرِ جملة شرطيَّة يدلُّ على أنَّ الأصلَ في طريقهم إلى اللّهِ سلامتهم من مسِّ الشَّيطان، فإذا حصل شيءٌ من ذلك؛ تذكَّروا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/238.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/238.
(3) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ص: 2/96.

دلالةُ (إذا)، وإيثارُها دون (إنْ):

تفيدُ (إذا) تحقُّقَ الوقوعِ، و(إنْ) الشَّكَّ؛ فاختلفا لاختلافِ المقامِ

الأصلُ عدمُ قطعِ المتكلِّم بوقوعِ الشَّرطِ في المستقبلِ مع (إنْ) ومِن ثَمَّ كثر أن تستعملَ (إنْ) في الأحوالِ الَّتي يندُر وقوعُها، ووجبَ أن يتلوها لفظُ (المضارع)، لاحتمالِ الشَّكِّ في وقوعه، بخلاف (إذا) فتُستعمل بحسب أصلِها في كلِّ ما يقطعُ المتكلِّمُ بوقوعهِ في المستقبلِ - ومن أجل هذا لا تُستعملُ (إذا) إلّا في الأحوالِ الكثيرةِ الوقوع، ويتلوها (الماضي) لدلالتهِ على الوقوعِ والحصولِ قطعًا[1]. وفي كَلِمَةِ (إذا) مِن قَوْلِه: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾، دلالةٌ على احتمال وقوع المسِّ، والتَّحذيرِ من التَّسويفِ أو التَّأخير عن الالتجاءِ إلى الله تعالى؛ حتَّى لا يتمكَّن الشّيطان منهم، وانْظُرْ لِحُسْنِ هذا البَيانِ حَيْثُ جاءَ الكَلامُ لِلرَّسولِ كانَ الشَّرْطُ بلَفْظِ (إنْ) المُحْتَمِلَةِ لِلْوُقوعِ ولِعَدَمِه، وحَيْثُ كانَ الكَلامُ لِلْمُتَّقينَ؛ كانَ المَجيءُ بـ(إذا) المَوْضوعَةِ لِلتَّحْقيقِ أو لِلتَّرْجيح، وعلى هذا فالنَّزْغُ يُمْكِنُ أنْ يَقَعَ، ويُمْكِنُ ألّا يَقَعَ، والمَسُّ واقِعٌ لا مَحالَةَ، أو يُرَجَّحُ وُقوعُهُ[2].

سرُّ استعمالِ الفعلِ ﴿مَسَّهُمۡ﴾ دونَ غيرِه:

يلجأُ المتَّقونَ إلى اللهِ تعالى، للوقايةِ من مساسِ الشَّيطان

التَّعبيرُ بفِعْلِ ﴿مَسَّهُمۡ﴾ الدّالِّ على إصابَةٍ غَيْرِ مَكينَةٍ، إشارَةٌ إلى أنَّ الفَزَعَ إلى اللهِ مِنَ الشَّيْطانِ، عند ابْتِداءِ إلْمامِ الخَواطِرِ الشَّيْطانيَّةِ بالنَّفْسِ؛ لِأنَّ تِلْكَ الخَواطِرَ إذا أُمْهِلَتْ لَمْ تَلْبَثْ أنْ تَصيرَ عَزْمًا ثُمَّ عَمَلًا[3].

الاستعارةُ في الفعلِ ﴿مَسَّهُمۡ﴾:

استدراجُ الشَّيطانِ محاولةٌ للغوايةِ الخفيَّةِ لا ينجو منها إلّا من تذكَّر

المسُّ بمعنى الإصابة، وهو إلْصاقُ البَشَرَةِ وهو هُنا اسْتِعارَةٌ[4]، وقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ﴾ هي استعارة تبعيَّةٌ فعليَّةٌ، والغرضُ منها

---

(1) إبراهيم الحنفيّ، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 457/1، والهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 151.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 257/5.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/9.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 257/5.

بيانُ شدَّةِ حرص الشَّيطان على إغواءِ ابن آدم، حتّى إنَّه ليقترب منه جِدَّ اقترابٍ، ويحاول أن يستدرجَهُ بكلِّ ألوان التَّزيين المتاحة له، لكنَّهُ في النِّهاية، ليس له سلطانٌ على من آمن واتَّقى.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في قول: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ﴾:

التَّعبيرُ بالماضي، يفيدُ تحقُّقَ الوقوعِ لا محالةَ

أتى بالفعلِ الماضي بعد (إذا) الَّتي هي للاستقبال؛ لأنَّ (إذا) بمنزلة (إنْ)، و(إنْ) تنقلُ الفعل الماضي إلى معنى المستقبلِ، والتَّعبيرُ بالماضي يفيدُ تحقُّقَ الوقوعِ، والمعنى: "إذا ألمَّ بهم طائف من الشَّيطان بوسوسته إليهم ليحملَهم على المعصية، أو ليوقع بينهم العداوة والبغضاء، تذكَّروا أنَّ هذا من فعل الشَّيطان عدوِّهم، وتذكَّروا أنَّ ربَّهم قد حذَّرهم من الشَّيطان ونزغه، ووسوسته، فتابوا وأنابوا واستعاذوا باللّه، ورجعوا إليه"[1].

إيثارُ استعمالِ لفظِ ﴿طَٰٓئِفٞ﴾ دونَ غيرِه:

الإشارةُ إلى خفاءِ أثرِ الشَّيطان، إذا ألمَّ بالإنسانِ

أوثرَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿طَٰٓئِفٞ﴾ للإشارةِ إلى خفاءِ أثرِ الشَّيطان؛ إذا ألمَّ بالإنسان، قالَ بَعْضُ البَصْرِيّينَ: الطّائِفُ والطَّيْفُ سَواءٌ، وهو ما كانَ كالخَيالِ والشَّيْءِ يَلِمُّ بك، ويَجوزُ أنْ يَكونَ الطَّيْفُ مُخَفَّفًا عَنْ طَيِّفٍ مِثْلُ مَيِّتٍ ومَيْتٍ، وقالَ بَعْضُ الكوفيّينَ: الطّائِفُ: ما طافَ بكَ مِن وسْوَسَةِ الشَّيْطانِ، وأمّا الطَّيْفُ: فإنَّما هو مِنَ اللَّمَمِ والمَسِّ، وقالَ آخَر منهمْ: الطَّيْفُ: اللَّمَمُ، والطّائِفُ: كُلُّ شَيْءٍ طافَ بالإنْسانِ، وذُكِرَ عَنْ أبي عَمْرِو بْنِ العَلاءِ أنَّهُ كانَ يَقولُ: الطَّيْفُ: الوَسْوَسَةُ[2].

و﴿طَٰٓئِفٞ﴾ اسمُ فاعلٍ كقائلٍ من قال يقول، وكبائع من باع يبيع[3]، وتنكيرهُ للتَّحقير، وفي التَّعبير عن الوسوسةِ بالطّائف إشعارٌ بأنَّها وإن مسَّت هؤلاء المتَّقين فإنَّها لا تؤثِّر فيهم؛ لأنَّها كأنَّها طافت حولهم

---

(1) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1156.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 646/10.

(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 492/2.

دونَ أن تصلَ إليهم[1]. والمعنى: إذا ألَمَّ بهم طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطانِ مِن غَضَبٍ أو غَيْرِه، مِمّا يُصَدُّ عَنْ واجِب حَقِّ اللّه عليهم، تَذَكَّروا عِقابَ اللّه وثَوابَهُ ووَعْدَهُ ووَعيدَهُ، وأبْصَروا الحَقَّ، فعَمِلوا[2].

توجيهُ قراءةِ ﴿طَيۡفٌ﴾[3]، وأثرُها في المعنى:

الطَّيْفُ اللَّممُ، والطّائفُ ما طافَ حولَ الإنسانِ

﴿طَيۡفٌ﴾ يكون مخفَّفًا مِن طيِّف كميْت من ميِّت، وإذا قدَّرنا اللَّفظة من طاف يَطيف فطَيْفٌ مصدرٌ، وإلى هذا مال أبو عليٍّ الفارسيُّ، وجعل الطّائف كالخاطرِ، والطَّيف كالخطرة، وقال الكسائيُّ: الطَّيْفُ اللَّممُ، والطّائفُ ما طافَ حولَ الإنسانِ[4]، ويبدو من خفَّة لفظ ﴿طَيۡفٌ﴾ أنَّهُ أقلُّ من ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، وعليه فإنَّ قراءةَ ﴿طَيۡفٌ﴾ تشير إلى أوَّل خطْرةٍ، وتلك منزلة أعلى؛ إذ إنَّ أهلها يستشعرونَ الخطرةَ من أوَّلها، فلا يغفلونَ عن مولاهم طرفةَ عين.

نكتةُ إسنادِ المسِّ إلى (الطّائفِ):

مسُّ الطّائفِ سرعةٌ في الفعلِ، مع إرادةِ استعلاءٍ وإحاطةٍ

يدلُّ إسنادُ المسِّ إلى الطّائف على سرعةِ الفعل مع إرادةِ الاستعلاءِ والإحاطة، ويُلْمح هذا المعنى من دقَّة لفظ المسِّ، ومناسبةِ لفظ ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ المبدوء بصوت مستعلٍ ممدود، وانتهائهِ بنبرة الهمزةِ المكسورة، وهواء الفاء المنفوث، واتِّصالُ الفعلِ بالضَّمير الواقعِ مفعولًا في ﴿مَسَّهُمۡ﴾ ليكون مُسَوِّغًا لتقديمهِ على الفاعل، ممّا يومِئ إلى سرعةِ الوصولِ إلى المفعول، ولأنَّهُ يعود إلى اسم إنَّ المذكور، وهو (الَّذين اتَّقوا)؛ فيؤكِّدُ مكائدَ الشَّيطان ومصائده بهم؛ وأنَّ المتَّقين على صراطٍ مستقيم، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 16- 17].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 460/5.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 646/10.

(3) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: (طيف) بغير ألف، وقرأ نافع وابن عامر، وعاصم، وحمزة: (طائف) بألف وهمز. ينظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 301، وأبو علي الفارسيّ، الحجّة: 120/4.

(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 492/2.

لا يكون المسُّ إلّا من الشَّيطان، ولا الوقايةُ إلّا من الدَّيّان

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾:

الجارُّ والمجرورُ بيانٌ للنَّكرة قبلَهُ، فهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ صفةٍ لـ﴿طَٰٓئِفٞ﴾ أو ﴿طَيۡفٞ﴾، وفيه تحذيرٌ لهم من غوائلِ الشَّيطان وشَركه، "فإذا ما طاف الشَّيطان بالمسِّ للَّذين اتَّقوا، وتذكَّروا خالق الشَّيطان وخالقهم ....، هنا تزول عنهم، أي: غشاوة، ويبصرون الطَّريق القويم"[1].

الشَّيطانُ من (شطن) بمعنى ابتعدَ، مناسبٌ للمهمَّةِ الَّتي يريدها

مناسبةُ المبنى للمعنى في اشتقاق لفظِ الشَّيطان:

وفي لفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ نكتةٌ بلاغيَّةٌ، وهي مناسبةُ المبنى للمعنى؛ حيث إنَّهُ مشتقٌّ من (شطن) بمعنى: ابتعد، أو من (شاط) بمعنى: احترقَ، والأوَّل هو المشهورُ عند الجمهور، وكون الشَّيطانِ المشتقِّ لفظُه من (شطن) بمعنى ابتعد - هو الَّذي يكونُ سببًا في محاولة مسِّ المتّقين وإصابتهم - اختيار مناسب للمهمَّة الَّتي يريدها؛ فكما أنَّه مبتعدٌ ومطرود من رحمة اللّه، فهو يحاولُ إبعادَ المتَّقين السّائرين على صراطِ اللّهِ المستقيم، ولكنْ هيهات هيهات لما يريدُ، فذلك بعيدُ المنال، وكلُّ ما يستطيعهُ هو المسُّ، وحينئذٍ يكونُ الحفظ مِنَ اللّهِ تعالى.

مهمَّةُ الشَّيطانِ التَّزيينُ بما في الإمكان، لإضلالِ الإنسانِ

نوعُ (ال) في لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾:

التَّعْريفُ في الشَّيْطانِ يَجوزُ أنْ يَكونَ تَعْريفَ الجِنْسِ، أيْ: مِنَ الشَّياطِينِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَعْريفَ العَهْدِ، والمُرادُ به إبْليسُ، باعْتِبارِ أنَّ ما يوَسْوِسُ به جُنْدُهُ وأتْباعُهُ، هو صادِرٌ عَنْ أمْرِه وسُلْطانِه[2].

نُكْتَةُ تأخيرِ الجارِّ والمجرورِ وتقديمِهما:

تركيبُ الجملةِ القرآنيَّةِ في: ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾: وثيقُ الصِّلةِ بالسّياق والمقام؛ وحيثُ إنَّ المقامَ في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ

---

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/492.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/233.

التَّأخيرُ لسوقِهِ علـى جـهـةِ الخبرِ، وتقديمه لتسبُّبه في الأمرِ بالاستعاذةِ

﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ أرفعُ من مقامِ المتَّقينَ، في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ اختلف التَّركيبُ في كلٍّ، فجاءَ في الأوَّلِ: (إنْ، والنَّزْغ، والمضارع، وتقديم قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ على الفاعل)، وجاء في الآخَر: (إذا، والمسّ، وصيغة الماضي، وتأخير قوله: ﴿مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ على الفاعل)، وقد سبق الحديثُ عن الشَّرط واختيارِ الفعل، وبقي الكلامُ على تقديم الجارِّ والمجرور في الأوَّل وتأخيره في مقام المتَّقين اقتضى المقامُ تقديمَهُ؛ لأنَّه السَّببُ في الأمرِ بالاستعاذةِ، فالمقصودُ هو العياذُ باللّهِ منهُ؛ ولتحسين التَّركيب بالفصلِ بين الفعلِ وفاعلِه المشتقِّ منهُ، فلو قيل: (يَنزَغَنَّكَ نَزْغٌ مِنَ الشَّيْطانِ) لتوالتا، وهما من جنس واحدٍ، بالإضافةِ إلى أنَّ التقديمَ فيهِ حصرٌ لمصدر النَّزْغ، وأنَّه من الشَّيطان، لا من غيرِه، وتأخَّرَ في المقامِ الآخَر؛ لأنَّهُ سيق على جهةِ الخبرِ، وأريدَ إسنادُ المسِّ إلى الطّائف، ووصف هذا الطّائف أنَّه ﴿مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، فحسُن مجيءُ الفاعل في موضعه، وتأخيرُ الجارِّ والمجرور للبيانِ كما سبق.

الدَّلالةُ على أنَّ النَّجاةَ من مسِّ الشَّيطانِ، ذكرُ اللّه تعالى، ومجاهدةُ النَّفس

إيثارُ مجيءِ جوابِ الشَّرطِ ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ دونَ غيرِه:

وأوثرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ النَّجاةَ من مسِّ الشَّيطان هو ذكرُ اللّه تعالى، ومجاهدةُ النَّفس، والتَّيَقُّظ دائمًا لمكائدِ الشَّيطان، فإنَّما يمسُّ المتَّقين طيفُ الشَّيطان في ساعات غفلتِهم عن ذكر اللّه، ولو أنَّهم استداموا ذكر اللّه بقلوبهم لَما مسَّهم طائفُ الشَّيطان، فإنَّ الشَّيطانَ لا يقرَب قلبًا في حال شهوده اللّه؛ لأنَّهُ ينخنس عند ذلك، ولكن لكلِّ صارم نَبْوة، ولكلِّ عالم هَفْوةٌ، ولكلِّ عابدٍ شِدَّةٌ، ولكلِّ قاصدٍ فترَةٌ، ولكلِّ سائرٍ وقْفَةٌ، ولكلِّ عارفٍ حَجْبةٌ[1].

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/598.

سرُّ استعمالِ صيغةِ الماضي:

من تذكَّرَ عند إغواءِ الشَّيطانِ؛ أبصرَ الحقَّ واضحًا للعيان

قوله: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ لتحقُّق ذلك فيهم، فالتَّذكُّرُ مِن دأْبهم، فمتى استدعَوه؛ حضرَ، "أي: تذكَّروا أنَّ المسَّ إنَّما هو من عدوِّهم الشَّيطان، فعادوا سريعًا إلى طاعة اللّه، وإلى خوف مقامِه، ونهوا أنفسَهم عن اتِّباع همزاتِ الشَّياطين"[1].

دلالةُ صيغةِ (تفعَّل) في قولِه: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾:

التَّذكُّر استدراكٌ بعد نسيانٍ وغفلة، وهو دأبُ المتَّقين الصَّالحين

تدلُّ صيغةُ التَّفعُّلِ على شيء من المجاهدةِ، وحقيقةُ التَّذكُّر الاستدراكُ عن نسيانٍ أو غفلة لما استثبتَهُ القلب[2]، وهذا مناسبٌ لحال المتَّقين؛ إذا مسَّهم طائفٌ من الشَّيطانِ، وعدلَ عن (ذكَروا) كما جاء في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: 135]، لأنَّ الذِّكْر قولٌ سيقَ لثناءٍ أو دعاء[3]، فليس فيه كُلْفة، أي: ما تعبَّدنا الشّارعُ بلفظٍ منّا يتعلَّق بتعظيمِ اللّه، والثَّناء عليه بأسمائهِ وصفاتهِ، وتمجيدهِ وتوحيدهِ، وشكرهِ وتعظيمهِ، أو بتلاوةِ كتابهِ، أو بمسألتهِ ودعائهِ[4].

بلاغةُ الإيجازِ في حذفِ المفعولِ:

من تيقَّظَ من غفلةٍ؛ حييَ قلبُهُ، وأبصرَ نفحاتِ ربِّه

في قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ حُذِفَ المفعولُ إشارةً إلى تيقُّظِهم من غفلتهِم وكفى، فإنْ أبَيْتَ إلّا أن تُقَدِّرَ مفعولًا، فليكنِ الغرضُ من الحذفِ هو عمومُ ما يصلحُ لأن يكونَ رادًّا لهم إلى يقظتهم، وما يناسب سببَ غفلتِهم، أي: تَذَكَّروا عِقابَ اللّه وثوابَهُ ووَعْدَهُ ووَعيدَهُ، وأبْصَروا الحَقَّ، فعَملوا[5]، أو الاستعاذةَ به تعالى والتَّوكُّلَ عليه[6].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 460/4.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 455.
(3) الآلوسيّ، غرائب الاغتراب ونزهة الألباب، ص: 42.
(4) ابن علّان، الفتوحات الرّبانيّة: 18/1، ومجموعة من المؤلّفين، الموسوعة الفقهيّة: 220/21.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 646/10.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 309/3.

دلالةُ الفاءِ وأثرُها في المعنى:

قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، معنى: ﴿فَإِذَا﴾ بسببِ ذلك التَّذكُّرِ[1]، والفاءُ لِتَفْريعِ الإبْصارِ على التَّذكُّرِ، وأُكِّدَ معنى (فاءِ) التَّعْقيبِ بفجائيَّة (إذا)[2]، ومفاد ذلك أنَّهم تَذكَّروا الاستعاذةَ بهِ تعالى والتَّوكُّلَ عليه، فإذا هُم بسبب ذلك التَّذكُّرِ مُّبْصِرونَ مواقِعَ الخطأ، ومكايدَ الشَّيطانِ، فيحترزون عنها، ولا يتَّبعونه[3]، وقد أدَّت الفاء دورًا في ذلك الرَّبط والتَّفريع المتوخَّى في الدَّلالة.

باللهِ وحدَهُ يمتدُّ الـرَّجـاء، ومـن تذكَّره واستعاذَ به نجا

نكتةُ استعمالِ (إذا) ومعناها:

في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (إذا) الفُجائيَّةُ تدلُّ على أنَّ ما بعدها يكون مُسَبَّبًا عمّا قبلَها، فهو في المعنى مشبَّه لجواب الشَّرطِ، ولذلك جازَ أن تقعَ في جوابِ الشَّرط، وهي تدلُّ على "حُصولِ مَضْمونِ جُمْلَتِها دُفْعَةً بدونِ تَريُّثٍ، أيْ: تَذَكَّروا تَذَكُّرَ ذَوي عَزْمٍ، فلَم تَتَرَيَّثْ نُفوسُهُم أنْ تَبَيَّنَ لَها الحَقُّ الوازِعُ عَنِ العَمَلِ بالخَواطِرِ الشَّيْطانيَّةِ، فابْتَعَدَتْ عَنْها، وتَمَسَّكَتْ بالحَقِّ، وعَمِلَتْ بما تَذَكَّرَتْ، فإذا هُم ثابِتونَ على هُداهُم وتَقْواهُم"[4].

مـفـاجـأتُـهـم بـإبـصـارِ الـحـقِّ بـعـد يقظتِهم من ألطافِ الله بهم

فائدةُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ:

التَّعبيرُ بالضَّمير المنفصلِ ﴿هُم﴾ الواقعِ مبتدأً بعد إذا الفجائيَّة، يوحي باختصاصِ المتَّقينَ بمزيَّة تذكُّرِهم، أي: يبصرون مواقعَ خطئِهم بالتذكُّرِ والتَّفكُّرِ[5]، وفيه تعريضٌ بمن لا يتذكَّرُ، ولا يبصرُ، وهم المذكورون في الآيةِ بعدَها.

اختصاصُ المتَّقين بمزيَّةِ تذكُّرِهم، والتَّعريضُ بمن لا يـتـذكَّـرُ ولا يُبصرُ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/309.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/233.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/309.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/233.

(5) الواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 2/438.

سرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

دوامُ إبصارِ الحقائقِ من دواعي الإيمانِ بالخالقِ

وأوثرَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ للإشارةِ إلى دوامِ البصرِ بالحقائقِ بإدراكِها، وتغلُّبِها على الأهواءِ والمنازعِ[1]، فإذا هم أولو بصيرةٍ ثاقبةٍ، يربؤون بأنفسهم أن تنصاعَ للشَّيطانِ وغوايتهِ، فهو إنَّما تأخذُ وسوستُهُ الغافلينَ عن ربِّهم الَّذين لا يراقبونه في شؤونهم وأعمالهم، ولا شيء يطرد وساوس الشَّيطان - من ذكرِ اللّه ومراقبتهِ في السِّرِّ والإعلان، منْ قِبَلِ أنَّه يقوّي في النَّفس حبَّ الخيرِ، وداعي الإحسانِ، ويضعِّف فيها الميلَ إلى الشُّرورِ والمفاسدِ والآثامِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في الآيةِ:

الهدايةُ إبصارٌ والضَّلالةُ عمًى، فمن أبصرَ؛ فازَ، ومن عميَ؛ فلا مفازَ

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾، اسْتُعيرَ الإبْصارُ لِلاهْتِداءِ، كَما يُسْتَعارُ ضِدُّهُ العَمَى لِلضَّلالِ، أيْ: فإذا هُم مُهْتَدونَ ناجونَ مِن تَضْليلِ الشَّيْطانِ؛ لِأنَّ الشَّيْطانَ أرادَ إضْلالهم، فسَلِموا مِن ذلك[3].

دقَّةُ استعمالِ ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾ دونَ غيرِه:

الإبصارُ: رؤيةُ القلبِ والعقلِ، وسبيلُ النَّظرِ في المآلاتِ

المبصرُ: صاحبُ البصيرةِ[4]، فهو دالٌّ على رؤيةِ القلبِ والعقلِ والفكرِ، والنَّظرُ في المآلات، فإيثارُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾؛ لأنَّه أدقُّ وأرقُّ وأوسعُ في الدَّلالةِ، فهو يُسمَّى نظرًا؛ لأنه التِفاتٌ بالقَلْبِ إلى المنظور فيه، ويُسمَّى تأمُّلًا؛ لأنَّه مُراجعَةٌ للنَّظر كرَّةً بعد كرَّة، حَتَّى يتجلَّى لَهُ، وينكشف لِقَلْبه، ويُسمَّى اعْتِبارًا، وهو افتعالٌ من العبورِ؛ لأنَّه يعْبُر منه الى غَيرِه، فيَعْبُر من ذَلِك الَّذي قد فكَّرَ فيهِ الى معرفَةٍ ثالِثَةٍ، وهي المَقْصود من الاعْتِبار؛ ولهذا يُسمَّى: عِبْرَة وهي على بناء الحالات كالجلسة والرَّكبَة والقتلة إيذانًا بأنَّ هذا العلم والمعرفة قد صار حالًا لصاحبه يعبرُ منه إلى المَقْصودِ به، وقالَ اللّه تعالَى: ﴿إِنَّ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3047/6.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 151/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/9.
(4) الكرمانيّ، لباب التّفسير، ص: 490.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾ [النّازعات: 26]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾ [النّور: 44]، ويُسمَّى تدبُّرًا؛ لأنَّه نظرَ في أدبارِ الأمورِ، وهي أواخرُها وعواقبها[1].

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾:

أطلقَ اسمَ الفاعلِ من الرُّباعيِّ للمبالغةِ والتَّأكيد

(مُبۡصِرونَ) اسمُ فاعلٍ من (أبصر) بمعنى رأى بعينِه، و(باصر) اسمُ فاعل من (بصر)، معنى (بَصُرَ) عَلِمَ، مَأْخوذٌ من البصيرةِ في الأمر، فيكون من المعاني القلبيَّة، وقالَ: أَبصر بزيادة الهمزَة في أوَّلِه، يَعْني: نظر؛ لِأَنَّهُ من بَصَر العين، وبَصَر العين حاسَّتُها، وقالَ الجَوْهَريُّ: البَصَر العلم، وبصرتُ بالشَّيْءِ عَلِمْتُه، وقالَ تعالَى: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: 96][2]. فإيثارُ اسم الفاعلِ من (أبصر) على سبيلِ الاستعارةِ كما سبقَ؛ للمبالغة في اهتدائِهم، وزيادةِ التَّأكيدِ على معرفتِهم.

لطيفةُ استعمالِ الاسمِ بدلًا من الفعلِ:

الاسمُ (مُبۡصِرونَ) فيه قوَّةُ الذِّكرِ والتَّذكُّرِ، جرّاءَ البصرِ والتَّبصُّرِ

التَّعبيرُ بالاسم ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾ يدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام، وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى قوَّةِ أثرِ الذِّكرِ والتَّذكُّرِ، وأنَّ له أمدًا بعيدًا، وأثرًا شديدًا في دوام حالة إبصار المتَّقين، ولو قيل: (يبصرونَ) لذهبَ هذا المعنى، وانطفأتْ جذوتُه.

الفروقُ المُعْجَميَّة:

المسُّ والإصابةُ:

الإصابةُ أعمُّ؛ لصدقِها على الحسّيِّ والنَّظريِّ، ولذلك تكلَّم الأصوليّون على اختلافٍ هل كلُّ مجتهدٍ مصيبٌ، أم لا؟ مع أنَّه حكمٌ نظريٌّ، والمسُّ في المحسوسات يقول: مسَّ كذا[3]، والمسُّ اتِّصالُ أحد

(1) ابن القيِّم، مفتاح دار السّعادة: 182/1.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بصر).
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 421/1.

الإصابةُ أعمُّ، والمسُّ اتّصالُ أحدِ شيئين بآخرَ على وجهِ الإحساسِ

شيئين بآخرَ على وجهِ الإحساسِ، وأثرُ الإصابةِ أقوى، فهي كما قالَ الرّاغبُ: أصلُها من إصابةِ السَّهمِ، ثم اختصَّت بالنّائبة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشّورى: 30]، وأصاب جاءَ في الخيرِ والشَّرِّ، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ [التوبة: 50]، وقال بعضُهم: الإصابةُ في الخيرِ اعتبارًا بالصَّوبِ، أي: المطرُ، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهم، ومنه يعلم أنَّ الإصابةَ أبلغُ من المسِّ؛ لأنَّهُ وإن اعتبرَ فيه التَّأثيرُ، لكنَّ تأثيرَ هذا لمّا كان كالمطرِ أو السَّهم كان أقوى وأشدَّ، وأمّا ذكرُ أيّوبَ ﷺ المسَّ في مقام الإصابة؛ فلشدَّةِ صبرِه، حتَّى استهانَ بما أصابَهُ، ثمَّ إنَّ الإصابةَ إذا كانت فعل المصيبة، فذكرُها مع السَّيِّئة أقوى وأنسبُ، وإن كانت بمعنى النُّزولِ به مطلقًا، فتستعملُ لكلٍّ منهما، فلكلِّ مقامٍ مقالٌ(1).

المسُّ واللَّمسُ:

اللَّمسُ أخصُّ، ولا يكونُ إلّا عن قصدٍ، والمسُّ يكون بقصدٍ وبغيرِه

اللَّمسُ أخصُّ؛ فإنَّه بالحاسَّةِ، والمسُّ به وبغيرِه(2)، واللَّمس لا يكون إلّا عن قصدٍ، يقول: تماسَّ الحجرانِ، والمسُّ يكون مقصودًا وغيرَ مقصودٍ، فلا يطلق إلّا على الأمورِ الضَّروريَّةِ المحسوسةِ(3).

الطّائفُ والطَّيفُ:

الطّائفُ ما طافَ بكَ مِن وسْوَسَةِ الشَّيطانِ، والطَّيفُ اللَّمَمُ والمَسُّ

اخْتَلَفَ أهْلُ العِلْمِ بكَلامِ العَرَبِ في فرْقِ ما بين الطّائِفِ والطَّيْفِ، قالَ بَعْضُ البَصْريّينَ: الطّائِفُ والطَّيْفُ سَواءٌ، وهو ما كانَ كالخَيالِ والشَّيْءِ يَلِمُّ بك، قالَ: ويَجوزُ أنْ يَكونَ الطَّيْفُ مُخفَّفًا عَنْ طَيِّفٍ، مِثْلُ مَيِّتٍ ومَيْتٍ، وقالَ بَعْضُ الكوفيّينَ: الطّائِفُ: ما طافَ بكَ مِن وسْوَسَةِ الشَّيْطانِ، وأمّا الطَّيْفُ: فإنَّما هو مِنَ اللَّمَمِ والمَسِّ، وقالَ

(1) الرّاغب، المفردات: (صوب)، والشّهاب الخفاجيّ، حاشية الشّهاب على البيضاويّ: 190/2.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 876/3.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 421/1.

آخرون منهمُ: الطَّيْفُ: اللَّمَمُ، والطّائِفُ: كُلُّ شَيْءٍ طافَ بالإنْسانِ، وذُكِرَ عَنْ أبي عَمْرِو بْنِ العَلاءِ أنَّهُ كانَ يَقولُ: الطَّيْفُ: الوَسْوَسَةُ(1).

المبصرُ والرّائي:

المُبْصِرُ هو الَّذي يرى بعينه الأشياءَ، والرّائي تكونُ رؤياه بالقلب أو بالعقل

البصرُ: الحاسَّةُ الَّتي يرى به الرّائي الأشياءَ، والرُّؤيةُ: هي انتقالُ الصّورة المرئيَّةِ إلى العينِ، فتكونُ رؤيةً، أو القلب أو العقل، فتكون رؤيا، وقد تجيءُ هذه مكانَ تِلْكَ توسُّعًا، قالَ صاحِبُ الكَشّافِ: الرُّؤْيا بمعنى: الرُّؤْيَةِ إلّا أنَّها مُخْتَصَّةٌ بما كانَ مِنها في المَنام دونَ اليَقَظَةِ فلا جَرَمَ فرَّقَ بينَهُما بحَرْفِ التَّأْنيثِ، كَما قيلَ في القُرْبى والقُرْبَةِ، وجُعِلَ ألِفُ التَّأْنيثِ فيها مَكانَ تاءِ التَّأْنيثِ لِلْفَرْقِ بينَهُما(2)، ومن البصَرِ (حِسُّ الرُّؤية) جاءت استعمالاتُ التَّركيبِ في القرآن الكريم بهذا المعنى ومشتقّاته ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: 103]، ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾ [القصص: 11]، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾ [الحاقة: 38، 39]. ولما في البصرِ مِنَ الرُّؤيةِ والكشف جاء "البصيرة: نظر القلب والفطنة"، فهي رؤيةٌ قلبيَّةٌ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: 108]. والرُّؤيةُ بالعين: النَّظرُ بالعينِ والقلبِ، كالرُّؤيةِ: وهي انتقالُ صورة المرئيِّ من خلال عينِ الرّائي - حين اتِّجاهها إليه إلى قلبهِ أو ذهنه(3).

المبصرُ والباصرُ:

المُبصِرُ: راءٍ ببصره، والباصِرُ: من رأى أو علم، وهو مأخوذٌ من البصيرة

المبصِرُ: اسمُ فاعلٍ من (أبصر)، والباصرُ: اسمُ فاعلٍ من (بَصُرَ)، يقال: (بَصُرَ به) إذا رآه، كقوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾ [القصص: 11]، وقوله: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: 96]. وأمّا (أبصره)، فله معنيان: أحدهما: جَعلَه باصرًا بالشَّيء، أي: ذا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 647/10.
(2) ملّا علي القاري، جمع الوسائل في شرح الشّمائل: 230/2.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بصر) و(رأى).

بصرٍ بهِ، كآيةِ النَّهارِ وآيةِ ثمودَ. والثّاني: بمعنى رآهُ، كقولِكَ: أبصرْتُ زيدًا، وفي حديثِ أبي شريح العَدَوي[1]: "أحدِّثُك قولًا قال به رسولُ اللّه ﷺ يوم الفتح، فسمعَتْهُ أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرَتْهُ عيناي حين تكلَّمَ به"[2]، ومعنى بصر: عَلِمَ مَأْخوذٌ مِنَ البصيرة في الأمر، فيكون من المعاني القلبيَّة، وقالَ: أبْصر بزيادَة الهمزَة في أوَّلِهِ يَعْني: نظر؛ لِأنَّهُ من بصرِ العين، وبصرُ العينِ حاسَّتها[3].

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (104)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1354).

(2) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 255/1.

(3) العينيّ، عمدة القاري: 152/17.

﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢﴾ [الأعراف: 202]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رَبْطُ حالِ المُتَّقين مع طائفِ الشَّيطانِ، بحالِ الغاوينَ مع الغيِّ والافتتانِ

لمّا ذكرَ حالَ المتَّقين إذا مسَّهم طائفٌ من الشَّيطان؛ ذكر هنا حالَ الغاوين من النّاس، وهم إخوانُ الشَّياطين، ليظهرَ فضل العَوذِ واللُّجوءِ إلى اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾: المدُّ هو جرُّ شَيْءٍ في طولٍ، واتِّصال شَيْءٍ بشَيْءٍ في اسْتِطالَةٍ، تقولُ: مَدَدْتُ الشَّيْءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، ويدلُّ على الجذْب والزّيادة، والمعنى المحوريُّ: استطالةُ جِرم الشَّيء في نفسِه أو باتِّصاله بغيره، فيزيدهُ طولًا واستمرارًا، أو قدرًا[1].

2) ﴿ٱلۡغَيِّ﴾: ضدُّ الرُّشدِ، فهو ضلالٌ مسبَّبٌ عن هوًى أو ما هو من بابِه، والغيُّ جهلٌ من اعتقادٍ فاسدٍ[2].

3) ﴿يُقۡصِرُونَ﴾: القِصَرُ: خِلافُ الطّولِ، يَقولُ: هو قَصيرٌ بَيِّنُ القِصَرِ، ويُقالُ: قَصَّرْتُ الثَّوْبَ والحَبْلَ تَقْصيرًا؛ إذا حَبَسْتَهُ، وهو مَقْصورٌ، أيْ: مَحْبوسٌ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ٧٢﴾ [الرحمن: 72]، وقَصَّرَ في كذا، أي: توانى، وقَصَّرَ عنه لم: ينله، وأقْصَرَ عنه: كفَّ مع القدرة عليه، ومنه قوله: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ واقْتَصَرَ على كذا: اكتفى بالشَّيءِ القَصيرِ منه، أي: القليل[3].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مدّ).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غوى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قصر).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ حالِ الشّياطين من الإنسِ والجانِّ، في إمدادِهم للضّالّين في كلِّ آنٍ

وإخوانُ الشَّياطين، وهم الفجّارُ من ضلالِ الإنسِ تمدُّهم الشَّياطينُ من الجنِّ في الضَّلالَةِ والغَواية، ولا تدَّخر شياطين الجنِّ وُسْعًا في مدِّهم شياطين الإنس في الغيِّ، ولا تدَّخر شياطين الإنس وُسْعًا في عمل ما توحي به شياطين الجنِّ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ﴾، وأثرُها في المعنى:

الضِّدِّيَّةُ مُناسَبَةٌ يَحْسُنُ بها عَطْفُ حالِ الضِّدِّ على ضِدِّه

الواو عاطفةٌ، عَطْفٌ على جُمْلَةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: 201] عَطْفُ الضِّدِّ على ضِدِّه، فإنَّ الضِّدِّيَّةَ مُناسَبَةٌ يَحْسُنُ بها عَطْفُ حالِ الضِّدِّ على ضِدِّه، فلَمّا ذَكَرَ شَأْنَ المُتَّقينَ في دَفْعِهم طائِفَ الشَّياطين؛ ذَكَرَ شَأْنَ أضْدادِهم من أهْلِ الشِّرْكِ والضَّلالِ، كَما وقَعَتْ جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البَقَرَة: 6](2).

نكتةُ ذكرِ لفظِ (إخوان) دونَ (إخوة):

جمعُ الأخِ على (إخـوان) كثيرٌ في غيرِ النَّسبِ، وورَدَ قليلًا في النَّسَبِ

الإخوةُ والإخوانُ جمعُ أخٍ، سواءٌ في ذلك أخو النَّسب وأخو الصَّداقةِ، وقال أهلُ البصرةِ: الإخوة في النَّسب، والإخوانُ في الأصدقاء، وقال أبو حاتم: هذا غلطٌ، بل كلٌّ يستعمل فيهما(3).

هذا، وقد وردَ (الإخوان) جمعًا في القرآن الكريم في اثنين وعشرين موضعًا(4)، وبالنَّظر في سياقاتِها رأيتُ أنَّه مستعملٌ في الدَّلالة على قوَّةِ الرّابطة، وما تستلزمه الأخوَّةُ من حقوقٍ وواجباتٍ،

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 176.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/233.

(3) الدّميري، النّجم الوهاج في شرح المنهاج: 6/135.

(4) على النّحو الآتي: البقرة: 220، وآل عمران: 103، 156، 168، والأنعام: 87، والأعراف: 202، والتّوبة: 11، 23، 24، والحجر: 47، والإسراء: 27، والنّور: 31، 61، والأحزاب: 5، 18، 55، وق: 13، والمجادلة: 22، والحشر: 10، 11.

فوردَ في سياقاتِ رابطةِ النَّسبِ، والنُّبوَّة، والإسلام، وأهل الجنَّة، والكفر، والنِّفاق، وموالاة الشَّيطان. كما وردَ (الإخوة) جمعًا في القرآنِ الكريم في سبعةِ مواضعَ[1]، وهناك موضعٌ ثامنٌ في قراءة (فَأَصْلِحوا بين إِخْوَتِكُم)[2] بالجمع، وبالنَّظر في سياقاتها تبيَّن أنَّها كلَّها في أُخوَّة النَّسب، ما عدا قولَه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحُجُرات: 10]. والحقيقةُ أنَّ قولَ أهلِ البصرَةِ معتبرٌ؛ إذ إنَّ جمعَ الأخِ على (إخوان) كثيرٌ في غيرِ النَّسبِ، وورد قليلًا في النَّسبِ، وقد ذكرَ ذلك ابن عطيَّةَ[3]، ولذلكَ أوثرَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ دونَ (إخوتُهم) للدَّلالةِ على ما بين هؤلاءِ الكافرين والشَّياطين من الرَّوابطِ والوشائجِ الدّافعة إلى الغواية والضَّلالِ.

فائدةُ إضافةِ (إخوانِ) إلى ضميرِ الغائبينَ:

الدَّلالةُ على شدَّةِ الالتصاقِ وكاملِ الانصياع رغمَ الضَّررِ الحاصلِ

الضَّميرُ في قوله: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ عائدٌ على الشَّياطين، والضَّميرُ في قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ عائدٌ على الكفّارِ، وهم المرادُ بالإخوان، فإضافةُ (إخوان) إلى ضميرِ الغائبينَ يدلُّ على شدَّةِ التصاقِهم بهم، واتِّباعهم لهم اتِّباع الأعمى لمن يقودُه، والضَّمير عائدٌ على الشَّياطينَ المفهوم جمعُها من الجنسِ المذكورِ في (ال) في لفظِ (الشّيطان)[4].

إيثارُ الفعلِ: ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ دونَ مرادفاتِه:

الدَّلالةُ على أصالةِ الغيِّ والضَّلالِ في أنفسِهم، واستطالةِ غيِّهم وزيادتِه

من مدَّ الجيشَ وأمدَّهُ؛ إذا زاده، وألحقَ به ما يقوّيه، ويكثره، وكذلك مدَّ الدواة، وأمدَّها: زادها ما يصلحها، ومددتُ السِّرج

(1) على النّحو الآتي: النّساء: 11، 176، ويوسف: 5، 7، 58، 100، والحجرات: 10.
(2) وقد نسبت إلى ابن عامر في رواية يحيى بن الحارث، وأبي عمرو والنّقاش عن ابن ذكوان، ينظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 606، وابن الجزريّ، النّشر: 2/376.
(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 13/498.
(4) قال الزّمخشريّ: "فإن قلت: لمَ جمع الضّمير في إخوانهم والشّيطان مفرد؟ قلتُ: المراد به الجنس، كقوله: ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾". يُنظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/191.

والأرض؛ إذا استصلحتُهما بالزَّيت والسِّماد، ومدَّهُ الشَّيطان في الغيِّ وأمدَّه[1]، وأوثرَ استعمالُ الفعلِ ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ دونَ مرادفاتِه لدلالتهِ على أصالةِ الغيِّ والضَّلال في أنفسِهم، واستطالةِ غيِّهم وزيادته، فهو يحملُ معنيين، يقال: مدَّ وأمدَّ، أي: يطيلون لهم فيه، وقُرِئَ بالوجهين[2]، ويكون من الإمدادِ، أي: زادَ في عددِهِ النّاقص، يقال: أمددْتُ الشَّيءَ؛ إذا زدتُ فيه من غيره، وقد يكونُ من المدَّة، أي: أعطاهُ مدَّة وقدرًا، يقال: أمددتُهُ مدَّةً، أي: أعطيتُها له[3].

الإمدادُ بالباطلِ يؤولُ إلى المفسدةِ والضَّلالةِ

سرُّ إيثار ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ والعدولِ عن (يُغْوونَهُم):

قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ عدل فيه عن (يُغْوونَهُم) وهو أخصرُ؛ حتَّى لا يوهمَ أنَّ إغواءهم طارئٌ عليهم، أو أنَّهُم كانوا قبل ذلك على هدًى، ذلك "أنَّ عدوى الشَّرِّ تجيء من إخوانِ السّوء، وهم الَّذين يمدّون في الغيِّ، ويجعلون الضّالَّ يسير شاردًا عن هداه"[4].

إفادةُ امتدادِ الجِرمِ مع اتِّصالِه، وتناغمِ الحروف في بنائِه

الدلالةُ الصَّوتيَّةُ للفعل (مدّ) في قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾:

تُعبِّر الميمُ عن تضامٍّ والتئام ظاهريٍّ، والدّالُّ عن ضغطٍ ممتدٍّ يؤدّي إلى تماسك وامتداد أو احتباس، والفصلُ منهما يعبِّر عن تماسكِ الجِرْم، ويتمثَّل ذلك في استطالته، ويعبِّر التَّركيبُ عن امتدادِ الجِرم مع اتِّصالِه، وفي (أمد) تضيفُ ضَغطةُ الهمزة ما يؤكِّدُ دلالة الميم والدّالِّ[5]، وجعلوا الدّالَّ في (مدَّ) - لأنَّها مجهورةٌ - لما فيه معالجةٌ، والتّاء في (متَّ له بقرابةٍ) - لأنَّها مهموسة - لما لا علاجَ فيه[6]، ويشيرُ تضعيفُ صوتِ الدّالِ وتشديدِه على قوَّة المعنى

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 67/1.

(2) قرأ نافع وحده من السّبعة، وأبو جعفر: ﴿يُمِدّونَهُمْ﴾ بضمّ الياء وكسر الميم، وقرأ الباقون من السّبعة، ويعقوب: ﴿يَمُدّونَهُمْ﴾ بفتح الياء وضمّ الميم. يُنظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 301، وابن الجزريّ، النّشر: 275/2.

(3) ابن قرقول، مطالع الأنوار على صحاح الآثار: 25/4.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3042/6.

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (مدد).

(6) ابن جنّي، الخصائص: 67/1.

وتكراره، كما قال ابن جنّي: "فلمّا كانت الأفعال دليلةَ المعاني كرَّروا أقواها وجعلوه دليلًا على قوَّة المعنى المحدث بهِ، وهو تكرير الفعل"[1].

توجيهُ قراءةِ ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ وبلاغتها:

الـزِّيـادة نـتاجٌ لا مـنـدوحـةَ لـه عـن الـغـيِّ المكين، والضَّلال المستبين

قرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ: ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ بضمِّ الياء وكسر الميم[2]، وتوجيهها أنَّ مدَّ وأمدَّ لغتان، والأولى أكثر، أو أنَّ المعنى يزيدونهم من الغيِّ[3]، والوَجْهُ في قِراءَةِ مَنْ قَرَأ ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ أيْ: بضَمِّ الياءِ، أنَّهُ مِثْلُ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21] (أيْ: هو اسْتِعارَةٌ تَهَكُّمِيَّةٌ)، والقَرِينَةُ قَوْلُهُ: ﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾[4].

دلالةُ صيغةِ الفعل المضارعِ:

الإمـدادُ بالغيِّ فـعـلٌ مقيـتٌ، يتجدَّدُ ولا يتبدَّدُ

في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾، تشيرُ صيغةُ المضارعِ إلى استمرارِ ذينك المدِّ والإمداد في الغيِّ إطالةً في الوقت وزيادةً في المقدار، وتجدُّدهما، وهذه الظّاهرة ممتدَّةٌ في الزَّمان في آنها، لتكرُّرِ الفعلِ باستمرارٍ، وامتداد الإمداد في مختلفِ الأزمانِ، وذلك ديدنُ الإغواء، وشأنُ الغيِّ إلى يوم القيامة.

بيانُ عائدِ الضَّميرِ المتَّصِل في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾:

وإخــــوانُ الـشَّـيـاطـين تـمـدُّهـم الـشَّـيـاطـين في الـغـيِّ، وبئس الإمدادُ

أي: وإخوانُ الشَّياطين تمدُّهم الشَّياطين في الغيِّ[5]، فضَميرُ وإخْوانُهُم عائِدٌ إلى غَيْرِ مَذْكورٍ في الكَلامِ، إذْ لا يَصِحُّ أنْ يَعودَ إلى المَذْكورِ قَبْلَهُ قريبًا؛ لِأنَّ الَّذي ذُكِرَ قَبْلَهُ الَّذينَ اتَّقَوْا فلا يَصِحُّ أنْ يكونَ الخَبَرُ، وهو يَمُدّونَهُم في الغَيِّ مُتَعَلِّقًا بضَميرٍ يَعودُ إلى المُتَّقينَ، فتَعَيَّنَ أنْ يَتَطَلَّبَ السّامِعُ لِضَميرِ ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ مَعادًا غَيْرَ ما هو مَذْكورٌ في الكَلامِ بقُرْبه، فيُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ الضَّميرُ عائِدًا على

(1) ابن جنّي، الخصائص: 2/157.

(2) الدّاني، التّيسير: 115، وابن الجزريّ، النّشر: 2/275.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/108، ومكّي القيسيّ، الكشف عن وجوه القراءات: 1/487.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/235.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/337.

مَعْلوم مِنَ السّياقِ وهُمُ الجَماعَةُ المُتَحَدَّثُ عنهم في هذه الآياتِ أعْني المُشْركِينَ المَعْنيّينَ بقَوْلِه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ إلى قَوْلِه: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعْراف: 190 - 192]، فيَرُدُّ السّامِعُ الضَّميرَ إلى ما دَلَّ عليه السّياقُ، بقَرينَةِ تَقَدُّم نَظيرِه في أصْلِ الكَلامِ، ولِهذا قالَ الزَّجّاجُ: هذه الآيَةُ مُتَّصِلَةٌ في المعنى بقَوْلِه: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾ [الأعْراف: 192]، أيْ: وإخْوانُ المُشْركِينَ، أيْ: أقارِبُهُم ومَنْ هو مِن قَبيلَتِهم وجَماعَةِ دينِهم، ويَجوزُ أنْ يَعودَ الضَّميرانِ إلى الشَّيْطانِ المَذْكورِ آنِفًا باعْتِبارِ إرادَةِ الجِنْسِ أوِ الأتْباعِ[1]، وقد فهم بعضُهم - وليس الفهمُ ببعيدٍ - أنَّ المرادَ بإخوانِهم، هم إخوانُ المؤمنين من المنحرفين، وأصحاب الأهواء والبدع، ومن المشركين والضّالين، وأنَّ هؤلاء جميعًا هم شياطينُ مسلَّطون على المؤمنين، يحاولونَ جاهدين أن يمدّوهم بالغيِّ والضَّلال، والمؤمنون - مع هذا - في إعراض عنهم، وتسميَةُ هؤلاء الغوّاة من المشركين والضّالّين إخوانًا للمؤمنين، هو لما بينهم من صلات القرابةِ والنَّسب، ومن جهةٍ أخرى؛ فإنَّ هؤلاءِ المشركين الضّالّين، كان من شأنِهم - لو عقلوا - أن يكونوا إخوانًا لهؤلاءِ المؤمنين، أخوَّة إيمان وتقوى، بعد أن كانوا إخوانًا لهم، نسبًا وقرابة، ولكن فرَّق بينهم هذا الضَّلالُ الَّذي هم فيه[2].

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾:

من أوغلَ في ظلماتِ الضَّلالِ، لم يستطع منها فكاكًا

يُريدُ تغلغلَهم في غياهبِ الضَّلالِ، بحيثُ لا يستطيعون منه فكاكًا، ولا يملكون لأنفسِهم خروجًا، فهم بثقلِ غيِّهم مدفوعون إلى قعْرٍ من الغيِّ عميق، ولا مُخلِّصَ لهم منه، و(في) من قَوْلِه: ﴿يُمِدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ على قِراءَةِ نافِعٍ وأبي جَعْفَرٍ اسْتِعارَةٌ تَبَعِيَّةٌ بتَشْبيهِ الغيِّ بمَكانٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 234/9.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 550/5، 551.

المُحارِبَةِ، وأمّا على قِراءَةِ الجُمْهورِ؛ فالمعنى: وإِخْوانُهُم يَمُدّون لهم في الغَيِّ مِن مَدٍّ لِلْبَعيرِ في الطّولِ، أيْ: يُطيلونَ لهمُ الحَبْلَ في الغَيِّ، تَشْبيهًا لِحالِ أَهْلِ الغِوايَةِ وازْديادِهم فيها بحالِ النَّعَمِ المُطالِ لَها الطّولُ في المَرْعَى، وهو الغَيُّ، وهو تَمْثيلٌ صالِحٌ لاعْتِبارِ تَفْريقِ التَّشْبيهِ في أجْزاءِ الهَيْئَةِ المُرَكَّبَةِ، وهو أعْلَى أحْوالِ التَّمْثيلِ، ويَقْرُبُ مِن هذا التَّمْثيلِ قَوْلُ طَرَفَةَ[1]:

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ما أخطأ الفَتَى *** لَكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ

وَعليه جَرَى قَوْلُهُمْ: مَدَّ اللّه لِفُلانٍ في عُمُرِه، أو في أجَلِه، أو في حَياتِه[2].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡغَيِّ﴾ دونَ غيرِه:

الغيُّ هوًى يجانب الصَّوابَ، ويقودُ النَّفس إلى ما يعابُ

في قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ أوثِرَ لفظُ ﴿ٱلۡغَيِّ﴾ دون غيره؛ لأنَّه يحملُ معنى الضَّلال وزيادة؛ إذْ هو ضلالٌ مسبَّبٌ عن هوًى، أو اعتقاد فاسد، فلفظ (الغيِّ) هنا يشيرُ إلى ما هم عليه من ضلالٍ، وما يؤولون إليه من فسادٍ، والجملةُ من الآيةِ تشيرُ إلى أنَّ ﴿يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾، تعني: أنَّهم يكونون مددًا لهم فيه، ويعضدونهم، ثُمَّ لا يمسكون عن إغوائهم[3].

دلالةُ الحرفِ (ثُمَّ) في الآية:

أغوى من الغاوي من يزيّنُ لغيرِه الغوايةَ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾، جاءت (ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ، أيْ: وأعْظَمُ مِنَ الإمْدادِ لهم في الغَيِّ، أنَّهُم لا يَأْلونَهُم جُهْدًا في الازْديادِ مِنَ الإغْواءِ، فلِذلك تَجِدُ إخْوانَهُم أكْبَرَ الغاوينَ[4].

وجهُ عطفِ جملةِ: ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ على ما قبلَها:

جملةُ: ﴿لَا يُقۡصِرُونَ﴾ في محلِّ رفعٍ معطوفة على جملةِ

(1) البيت من بحر الطّويل، لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه، ص: 26.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/236.
(3) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/545.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/236.

إصرارُهم على الشَّرِّ والفساد، نأيٌ عن الهدى والرَّشاد

﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾، وعطف هذه الجملة على ما قبلَها للدَّلالةِ على إصرارِهم على الشَّرِّ والفساد لفقدِ الوازعِ النَّفسيِّ والواعظِ القلبيِّ؛ ولأنَّهم أطمعوا الشَّيطانَ فيهم.

سرُّ استعمالِ الفعلِ: ﴿لَا يُقۡصِرُونَ﴾ دونَ غيرِه:

الإنسانُ لا يمسكُ عن الغوايةِ، والشَّيطانُ لا يرعوي عن الإغواءِ

استعمالُ الفعل: ﴿لَا يُقۡصِرُونَ﴾ دونَ غيرِه، للدَّلالةِ على الكفِّ عنهم مع القدرةِ عليهم[1]، واستمرارهم في الضَّلال وعدمِ الارعواء، فالإقصارُ: الانتهاءُ عن الشَّيءِ، وقال ابن عبّاس: لا يسأمون، والمعنى: لا يقصرُ الشَّياطين في مدِّ الكفّارِ في الغيِّ، ولا يكفّون عن الضَّلالة، ولا يتركونها، والكافرُ لا يتذكَّرُ، ولا يرعوي، وقال ابنُ عبّاس: لا الإنس يمسكون عمّا يعملون من السَّيِّئات، ولا الشَّياطين تمسك عنهم، وعلى هذا يُحْمَلُ قولُه: لا يقصرون على فعل الإنس والشَّياطين جميعًا[2]، ثُمَّ لا يُقْصِرون، أي: لا يكفّون، قالَ الضَّحّاكُ ومُقاتِلٌ: يَعْني: المُشْرِكينَ لا يُقْصِرون عَنِ الضَّلالَةِ، ولا يُبْصِرونَها، بِخِلافِ ما قالَ في المُؤْمنينَ[3].

دلالةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ:

دلالةُ المضارعِ المنفيِّ على استمرارِ النَّفي في المستقبل

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾، تشيرُ صيغةُ المضارعِ إلى الاستمرارِ والتَّجدُّد، ونفيهُ يدلُّ على استمرارِ النَّفي، والمُضارع المَنْفيُّ (بلا) يتَخَلَّص للاستقبال عِنْد سيبَوَيْه، وقالَ الأَخْفَش: إنَّه باقٍ على صَلاحيَّة الأمريْنِ، واخْتارَهُ ابْن مالك في التَّسهيل[4].

الإيجازُ بحذفِ متعلَّقِ الفعلِ:

من بلاغةِ أسلوبِ الحذفِ دلالةُ ما قبلَ المحذوفِ عليه

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ حُذِفُ متعلَّقِ الفعلِ لدلالةِ ما قبلَهُ عليهِ، ويكونُ المعنى على أنَّه من (قصر): ثمَّ لا ينقصون من

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 212/4.

(2) القنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 111/5.

(3) البغويّ، معالم التنزيل: 262/2.

(4) ابن مالك، شرح التّسهيل: 19/1.

إمدادِهم وغوايتهم،[1] فهم لا يكفّون عن اتِّباع الشَّياطين، ولا يتوبون، ولا يرجعون إلى الله تعالى، وهؤلاءِ بخلاف المؤمنين المذكورينَ في الآية السّابقة، أو من (أقصر)، ويكونُ المعنى: ثم لا يمسكون عن إغوائِهم، والفعلُ على هذا بضمِّ الياء وكسر الصّاد من الرُّباعي.

لطيفةُ توافقِ الفاصلةِ مع سابقتِها في الصَّوامتِ والصَّوائتِ:

الـتَّـلاؤمُ في الأصواتِ تأنسُ له الأذنُ، ويرتضيه الذَّوقُ

إنَّ المماثلةَ بين: ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾ و﴿يُقۡصِرُونَ﴾ في الوزنِ وحرفي الصّاد والرّاء مع الواوِ والنّون من لزوم ما لا يلزم، وقد جاءَ حسنًا بديعًا؛ لأنَّه جاء سلسًا غير متكلَّفٍ، ولا مجلوبًا اجتلابًا، وجاء كُلُّ من اللَّفظين ملائمًا للمعنى المرادِ منهُ[2].

وقفةٌ تدبُّريَّةٌ مع فاصلةِ الآيةِ الكريمةِ:

فاصلةُ الآيةِ تدلُّ على أنَّهم لا ينتهون، بل يدومون على غيِّهم

ويشيرُ مرماها ومغزاها إلى أنَّ الشَّرَّ يستمرُّ مع مقاومةِ الفطرةِ، باستمرارِ دعاةِ الغيِّ وأنصارهِ، وكان مدُّهم وتزيينهم مستمرًّا يغذّي شجرة الشَّرِّ، كما يغذّي الماءُ القذرُ النَّباتَ الخبيثَ الَّذي لا يكونُ إلّا نَكِدًا، فالشَّرُّ يتغذَّى بدعاةِ الشَّرِّ، وينمو، ويغلظُ سوقه بهم، والفسادُ لا يستشري في جماعةٍ، ويعمُّها بالشَّرِّ إلّا بالبيئةِ الفاسدةِ، وبالرَّأي العامِّ الفاسدِ المرذولِ، فإخوانُ السّوءِ يمدّون بالغيِّ، وسواء أكانوا آحادًا، أم كانوا جماعاتٍ، وكلمة إخوانِهم تنطبقُ عليهم، وإنَّ من يُرد إصلاحَ جماعةٍ لا يُصلحُ آحادها ابتداء، إنَّما يُصلح نيَّة الإخوان الَّذين يسيطرون على جوِّها العامِّ أوَّلًا، ثمّ يُصلحون الآحادَ، فيصلحون بالجولةِ الأولى، وإنَّك إن علوتَ من رذائلِ الأفعال إلى فسادِ العقول، تجدُ إخوانَ السّوء هم الَّذين يمدّون في فسادِ العقولِ بعبادةِ الأوثانِ والكفرِ بالآيات[3].

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 213/4، والزّجاج، معاني القرآن: 439/2.

(2) عبد الرحمن، بلاغة اللغة العربية: 533/2.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3048/6.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإخوانُ والإخوةُ:

لفظُ (إخوان) كثيرٌ في غير النَّسبِ، ولفظُ (الإخوة) كثيرٌ في النَّسَبِ

وردَ معنى الأخوَّةِ في القرآن الكريم على ضروبٍ مختلفةٍ كما ذكر المفسِّرون: فمنها: النَّسب، كقولهِ تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، [المائدة: 30]، ومنها: القبيلةُ، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [الأعراف: 85]، ومنها: الدّين، كقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: 103]. والإخوة والإخوانُ جمع أخٍ، سواءٌ في ذلك أخو النَّسبِ وأخو الصَّداقةِ، وقال أهلُ البصرةِ: الإخوةُ في النَّسب، والإخوانُ في الأصدقاء، وقال أبو حاتم: هذا غلطٌ، بل كلٌّ يستعمل فيهما[1]، والحقيقةُ أنَّ قولَ أهلِ البصْرةِ معتبرٌ؛ إذ إنَّ جمعَ الأخِ على (إخوان) كثيرٌ في غيرِ النَّسب، ووردَ قليلًا في النَّسبِ، وقد ذكرَ ذلكَ ابنُ عطيَّةَ[2].

المدُّ والإمدادُ:

المدُّ: ما يمدُّ به الشَّيءُ، أي: يزادُ، ويكثرُ، والإمداد: الإعطاءُ والإعانةُ

(المددُ) هو: ما يمدُّ به الشَّيء، أي: يزادُ ويكثر، ومنه: أمدَّ الجيشَ بمددٍ: إذا أرسل إليه زيادة، وأمّا (الإمدادُ)؛ فهو الإعطاءُ، والإعانة، فالمددُ يكثرُ استعمالهُ في اسم المصدر، وقد يطلق المددُ على المصدرِ من مدَّ يَمُدُّ مدًّا، والإمدادُ هو مصدرُ (أمدَّ)، وهو إعطاءُ الشَّيءِ بعد الشَّيءِ، والمَدَدُ: ما أمدَدْتَ به قومًا في الحرب وغيره من الطَّعام والأعوانِ[3]، والمددُ يطلقُ على كلِّ ما تُمديهِ غيرَك، أي: تعينهُ وتنصرهُ[4].

الغيُّ والضَّلالُ:

أصلُ الغيِّ: الفسادُ، ومنه يقالُ: غوى الفصيلُ؛ إذا بشمَ من كثرةِ

(1) الدّميريّ، النّجم الوهاج في شرح المنهاج: 135/6.
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 498/13.
(3) الخليل، العين: (مدد).
(4) الشّدياق، الجاسوس على القاموس: (مدد).

شُربِ اللَّبن، وإذا لم يرو من لبنِ أمِّه، فمات هزلًا، وأصلُ الضَّلال: الهلاكُ، ومنه قولهم: ضلّت النّاقة؛ إذا هلكت بضياعها، وفي القرآن ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السّجدة: 10]، أي: هلكنا بتقطُّع أوصالنا، فالّذي يوجبهُ أصل الكلمتين أن يكون الضَّلالُ عن الدّين أبلغَ من الغيِّ فيه، ويستعمل الضَّلال أيضًا في الطَّريق، كما يُستعمل في الدّين، فيقالُ: ضلَّ عن الطَّريق؛ إذا فارقه، ولا يستعمل الغيُّ إلّا في الدّين خاصَّةً، فهذا فرقٌ آخرُ، وربَّما استعمل الغيُّ في الخيبة، يقال: غوى الرَّجل؛ إذا خابَ في مطلبهِ، والضَّلالُ يتصرَّفُ في وجوهٍ لا يتصرَّفُ الغيُّ فيها[1].

الغيُّ: الفسادُ في الدّين، والضَّلالُ: التّيهُ والهلاكُ في الدّين وشؤونِ الحياة

الإقصارُ والكفُّ:

فالإقصارُ الكفُّ عن الشَّيءِ، قال ابن عبّاسٍ: أي: لا يُمسك الغاوي عن الضَّلالِ والمغويَّ عن الإضلالِ[2]، والكفُّ بمعنى المنع والصَّرفِ، يقالُ: كَفَّ الرُّجلَ عنِ الأمرِ، وكَفْكَفَه: مَنَعَهُ وصَرَفَهُ، فكَفَّ هو، كقوله: ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ [المائدة: 11]، وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [النساء: 84]، فاستعمالُ الإقصارِ؛ لأنَّه أخصُّ من الكفِّ والاكتفاءِ، أي: لا يتركون إغواءهم ولو لحظة لجهلِهم وشَرِّهم.

الإقصارُ: الكفُّ عن الشَّيءِ، وهو في دلالته أخصُّ من الكفِّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 293.
(2) النيّسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 366/3.

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: 203]

المناسبة بين إغواءِ الشَّياطينِ، وطلبِ المعاندين للآياتِ تعنُّتًا واستكبارًا

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بَيَّنَ في الآيَةِ الأولَى أنَّ شَياطينَ الجنِّ والإنْسِ لا يُقْصِرونَ في الإغْواءِ والإضْلالِ؛ بَيَّنَ في هذه الآيَةِ نَوْعًا من أنْواعِ الإغْواءِ والإضْلالِ، وهو أنَّهُم كانوا يَطْلُبونَ آياتٍ مُعَيَّنَةً ومُعْجِزاتٍ مَخْصوصَةً على سَبيلِ التَّعَنُّتِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾: من الجَبْي بمعنى: جَمْعِ الشَّيْءِ والتَّجَمُّعِ، يُقالُ: جَبَيْتُ المالَ أجْبيهِ جِبايَةً، وجَبَيْتُ الماءَ في الحَوْضِ، والحَوْضُ نَفْسُهُ جابيَةٌ، ومن الأصل أُخِذَ "الاجتباءُ: الاصطفاءُ والاختيارُ" (وأصله: أخذٌ وضمٌّ إلى حيِّزٍ)[2].

2) ﴿أَتَّبِعُ﴾: من الاتِّباعِ، وهو التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعْتُ فُلانًا؛ إذا تَلَوْتَهُ، واتَّبَعْتَهُ، وأتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ، والأَصْلُ واحِدٌ، غَيْرَ أنَّهُم فرَّقوا بين القَفْوِ واللُّحوقِ، فغَيَّروا البِناءَ أدْنَى تَغْييرٍ، قالَ اللّه: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف: 85][3].

3) ﴿يُوحَىٰٓ﴾: مِنَ الوحي، وهو يَدُلُّ على إلْقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِه إلى غَيْرِك، فالوَحْيُ: الإشارَةُ، والوَحْيُ: الكِتابُ والرِّسالَةُ، وكُلُّ ما ألْقَيْتَهُ إلى غَيْرِك حَتَّى عَلِمَهُ، فهو وحْيٌ كَيْفَ كانَ[4].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 438/15.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جبي).

(3) ابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وحي).

4) ﴿بَصَآئِرُ﴾: جمع بصيرةٍ، وهي الدَّلالةُ، ولِما في البصرِ مِنَ الرُّؤيةِ والكشفِ؛ جاء "البصيرةُ: نظرُ القلبِ، الفطنةُ"، فهي رؤيةٌ قلبيةٌ، كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]: على معرفة وبيِّنةٍ ويقينٍ، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾ [القيامة: 14] هو البصيرُ، كما تقول: أنت حجَّة على نفسك، أي: شاهدٌ، قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأنعام: 104] آياتٌ وبيِّناتٌ يُبْصَر بها ويُستَدَلُّ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ طلبِ الغاوينَ لآياتٍ تعجيزيَّةٍ خارقةٍ تحدٍّ وتعنُّتٌ وضلالٌ

بعد أن ذكرَ سبحانه في الآيةِ السّابقةِ أنَّ شياطينَ الجنِّ والإنسِ لا يقصرون في الإغواءِ والإضلال؛ قفَّى على ذلك بذكرِ نوعٍ خاصٍّ من هذا الإغواءِ، وهو طلبُهُم آياتٍ معيَّنةً ومعجزاتٍ مخصوصةً تعنُّتًا[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ عطفِ: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾ على ما قبلَها:

مناسبةُ مضمونِ الآيةِ مع ضلوعِهم في الجهالةِ والغوايةِ

الآيةُ مَعْطوفَةٌ على جُمْلَةِ: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199] والمُناسَبَةُ أنَّ مَقالَتَهُم هذه مِن جَهالَتِهِمْ[3]، أي: إنَّ الشَّياطين ليَمدّونهم في الغيِّ، ومن ذلك أنَّهم يحملونهم على أن يطالبوك بالآياتِ المقترَحَةِ، فإذا سألوك إحياءَ ميِّتٍ يكلِّمُهم ونحو ذلك؛ فلم تأتِ به، قالوا لك: هلّا اخترتَ هذا الَّذي سألناك، وأتيتَ به، وأنت رسولُ اللّه بزعمِكَ، وللرَّسولِ معجزةٌ، فهلّا تأتينا بالمعجزةِ الَّتي نطلبها منك؟![4].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 57/7، 99/19، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بصر).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 152/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 236/9.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 110/7.

بلاغةُ جملةِ الشَّرطِ: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم﴾، والمرادُ مِنها:

طلبُ المعجزاتِ مع ما في القرآنِ من آياتٍ قصرُ نظرٍ، وسفاهةُ عقولٍ

تدلُّ جملةُ الشَّرطِ هنا على شدَّةِ تعنُّتِ هؤلاءِ المشركين مع الرَّسولِ ﷺ كما تشيرُ إلى تسليَةِ اللّهِ له، أي: إذا لم تأتِهم بآيةٍ مِنَ القرآنِ عند تراخي الوحي، أو بآيةٍ ممّا اقترحوهُ: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ(إذا) دونَ (إنْ):

الوحيُ تنزَّلَ بأمرِ اللهِ، لا بأهواءِ البشرِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾، يدلُّ التَّعبيرُ بإذا على الظَّرفيَّةِ المتضمِّنةِ معنى الشَّرطِ، وتحقُّقِ الوقوعِ، وهذا المعنى يتَّفقُ وما رويَ أنَّ الوَحيَ كانَ يَتأخَّرُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أحيانًا فكانَ الكُفّارُ يَقولونَ: هَلّا اجْتَبَيْتَها[2].

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَمۡ﴾، ودخولِها على الفعلِ ﴿تَأۡتِهِم﴾:

من فرائدِ التَّراكيبِ القرآنيَّةِ وقوعُ المضارعِ بعدَ (إذا) الظَّرفيَّةِ منفيًّا بحرف (لم)

جاءَ المضارِعُ بعد (إذا) الظَّرفيَّةِ منفيًّا بلم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، ولم يأتِ هكذا في موضعٍ آخرَ من القرآنِ الكريمِ[3]، ودلالتُه وقوعُ عدمِ الإتيانِ لتأخُّرِ الوحي، أو لأمرٍ آخرَ؛ وذلك لأنَّ (لم) تقلبُ المضارعَ إلى ماضٍ.

لطيفةُ اختيارِ ﴿تَأۡتِهِم﴾، والعدولِ عن (تَجِئْهُم):

الإتيانُ: مجيءٌ بتهيئةٍ أو قوَّةٍ، والمجيءُ فيما شقَّ أو صعب عادةً

الأصلُ لِما يكون مجيئُه بنفسِه أن يعبَّرَ عنه بالمجيءِ، نحو: جاء فلانٌ، فهو كلامٌ تامٌّ، ولِما يكون مجيئُه بصلةٍ أن يعبَّرَ عنهُ بالإتيان، فيقال: أتى فلانٌ بكذا[4]، والآيةُ هنا من هذا النَّوعِ؛ لأنَّه متعلَّقُ الجارِّ والمجرور بعدهُ، وهو قولهُ: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾، والمجيءُ: يُستخدَمُ في سياقِ الأمورِ الشّاقَّةِ الصَّعبةِ الَّتي فيها ثقلٌ، والإتيانُ: يستخدمُ في سياقِ الأمورِ السَّهلةِ، والميسورةِ، أو الَّتي لم تحدث بعدُ[5]، والإتيان: مجيءٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/309.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/260.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/177.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 152.
(5) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 2/68.

بتهيئةٍ أو قوَّةٍ تؤدّي مؤدّاها[1]، ومن ثمَّ يكون التَّعبيرُ بالإتيانِ من جهةِ كلامِ اللّهِ لهُ؛ لأنَّه ينزلُ عليهِ بتهيئةٍ لا دخلَ لهُ بها، وإنَّما ينزلُ عليه بأمرِ ربِّه، سواءٌ أكانت آيةً قرآنيَّةً أم كونيَّةً.

علَّةُ مجيءِ المفعولِ ضميرًا متَّصلًا في: ﴿تَأۡتِهِم﴾:

لا يتحدَّى اللهُ بطلبِ ما لم ينزِّلْهُ، إلّا كافرٌ جحودٌ، أو غاوٍ لدودٌ

مجيءِ المفعولِ ضميرًا متَّصلًا في قوله: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾؛ لاشتهارِه ووضوحِ أمرِه، فقد سبقَ الحديثُ عن هؤلاء الكافرين الَّذين يعبدون الأصنام من دونِ اللّهِ، ولأنَّ الذِّهن لا يلتفتُ إلى غيرِهم، والمعنى: "وإذا لم تأتِ أيُّها الرَّسولُ هؤلاء المشركين بآيةٍ من القرآن، وتراخى الوحيُ بنزولها، أو بآية ممّا اقترحوهُ عليك من الآياتِ الكونيَّةِ، إذا لم تفعل ذلك؛ قالوا لكَ بجهالةٍ وسفاهةٍ: لَوۡلَا اجۡتَبَيۡتَهَا"[2]، وهذا محضُ السَّفهِ والطَّيشِ.

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾، وأثرُها في المعنى:

حروفُ المعاني ذاتُ أثرٍ في الدَّلالةِ، والباءُ من أبرزِها في هذا المضمارِ

والباءُ للمصاحبةِ والملابسةِ والإلصاقِ[3]، وذلك أنَّ إتيانَهُ جاء مصاحبًا لمجيءِ الآية، ومتلبِّسًا بها، وملتصقًا محلَّ قدرتهِ بالآيةِ، وبما اتَّصل به، وقوله: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّقان بـ﴿تَأۡتِهِم﴾.

إيثارُ لفظِ (آية) في قولِه: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾:

الآيةُ دالَّةٌ على الشَّيءِ العجيبِ، وطلبُها من غيرِ ما مسوِّغٍ أعجبُ

أوثرَ لفظُ آيةٍ لدلالتِه على الشَّيءِ العجيبِ، ويجوز أن يرادَ بها الآيةُ من آياتِ القرآنِ، يعني: بحديثٍ من القرآن، ونصوصُ القرآن سمّيت آيةً؛ لأنَّها عجبٌ يعجز البشر عن التَّكلُّم بمثلها[4]، وذلك حين أبطأ التَّنزيلُ بمكَّة، قالَ كفّار مكَّة: ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ يعني: هلّا ابتدعتَها من تلقاء نفسِكَ يا محمَّدُ لقولِهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أتي) و(جاء).

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 461/5.

(3) ردّ كثير من المحقّقين سائر معاني الباء إلى معنى الإلصاق، كما ذكر سيبويه. وجعلوه معنى لا يفارقها، وقد ينجرّ معه معان أخر. ينظر: المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 46.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 100/1.

﴿هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15][(1)]، أو المرادُ الآيةُ الكونيَّةُ المعجزة، كإحياء الميّت مثلًا، وهو أنَّهُم كانوا يَطلُبون آياتٍ مُعَيَّنَةً ومُعْجِزاتٍ مَخْصوصَةً على سَبيلِ التَّعَنُّتِ، كَقَوْلِه: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]"[(2)].

نكتةُ مجيءِ جوابِ الشَّرطِ ﴿قَالُواْ﴾، دونَ التَّعبيرِ بالادِّعاءِ أو التَّعنُّت:

التَّعبيرُ بالعبارة (قالوا): إخبارٌ عمّا حدثَ على سبيلِ التَّحقُّق

جيءَ بالفعلِ ﴿قَالُواْ﴾ جوابًا للشَّرطِ دون التَّعبيرِ بالادِّعاء أو التَّعنُّت، فلم يُقل: (تعنَّتوا)؛ ليثبت قولَهم الَّذي قالوه، فيكونُ إخبارًا عمّا حدثَ على سبيلِ التَّحقُّق، أو بما سيكون منهم ليكونَ النَّبيُّ ﷺ على بصيرةٍ بِهِ؛ فيتهيَّأ لهُ، ويأخذَ أُهْبَتَهُ.

دلالةُ ﴿لَوۡلَا﴾، وأثرُها في المعنى:

معنى التَّحضيضِ هنا، هو الإنكارُ والتَّعجيزُ الَّذي بدرَ منهم

تدلُّ ﴿لَوۡلَآ﴾ هنا على التَّحضيضِ، فتختصُّ بالفعلِ، نحو: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: 21]، ويساويها في التَّحضيضِ والاختصاصِ بالأفعال: هلّا، فيَليها الفِعْلُ ظاهِرًا أو مُضْمَرًا[(3)]، وهي داخلةٌ هنا على الماضي، فتفيدُ التَّوبيخَ واللَّوم على تركِ الفعلِ فيما مضى، والأمرُ بِهِ في المستقبلِ، والتَّحضيضُ: هو الطَّلبُ بشدَّة، والمقصودُ به هنا: الإنكارُ والتَّعجيزُ، أي: هلّا اخترتَها واصطفيتَها[(4)].

إيثارُ الفعلِ ﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ ودلالتُهُ:

دلالـةُ الاجتباءِ على الاصطفاءِ والاختيارِ، وعلى الجمعِ والاختلاقِ

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، أوثرَ فيه التَّعبيرُ بالفعل ﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، لدلالتِه على الاصطفاءِ والاختيارِ والجمعِ والاختلاقِ،

(1) البلخيّ، تفسير مقاتل بن سليمان: 82/2.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 438/15.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 387/1.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 340/13.

أي: جئتَ بها من عند نفسِكَ، وكذلك هو في اللّغة، يقالُ: اجتبيتَ الشَّيءَ وارتجلْتَهُ واخترعْتَهُ واختلقْتَهُ؛ إذا جئتَ بِهِ من عندِ نفسِكَ(1).

وقد وردَ فيه قولان: أحدهما: هلّا افتعلْتَها من تلقاءِ نفسِكَ، قاله ابن عبّاس، ومجاهدٌ، وقتادة، والسُّديُّ، وابن زيدٍ، والفرّاء، والزَّجاجُ، وابن قتيبةَ في آخرين، وحُكي عن الفرّاءِ أنَّه قال: العربُ تقولُ: اجتبيتَ الكلام، واختلقتَهُ، وارتجلتَهُ؛ إذا افتعلتَهُ من قِبَل نفسِكَ، والثّاني: هلّا طلبتَها لنا قبلَ مسألتِكَ؟ ذكره الماورديُّ، والأوَّلُ أصحُّ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ أي: ليس الأمرُ لي(2).

نكتةُ مخاطبتِهم الرَّسولَ بتاءِ الخطابِ، والعدولِ عن ذكرِ اسمِهِ أو صفتِهِ:

يتجلَّى سوءُ الأدبِ مع اللهِ بالكفرِ، ومع الرَّسولِ بالتَّطاولِ في الخطابِ

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، نلحظُ مخاطبتهم الرَّسولَ ﷺ بضميرِ المخاطبِ دلالة على سخريَّتهم واستهزائِهم وسوءِ أدبِهم، ولا عَجَبَ أنْ يفعل الكافِرونَ ذلك، فكَما يقالُ: "لَيْسَ بَعْدَ الكُفرِ ذَنْبٌ"(3).

علَّةُ إيقاعِ الاجتباءِ على ضميرِ الآيةِ، والعدولِ عن تكرارِ النَّكرةِ (آية):

عدمُ إعادةِ النَّكرةِ، يرفعُ الإلباسَ من الأساسِ

في قوله: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ عادَ الضَّميرُ المنصوبُ على (آيَة)، ولو تكرَّرت لأوهمَ خلافَ المراد؛ إذ إنَّ المعنى سيصيرُ أنَّه في حال عدمِ إتيانِهِ بالآيةِ الَّتي طلبوها قالوا: هلّا اختلقتَ آيةً أخرى، على قاعدةِ أنَّ النَّكرة: إذا تكرَّرتْ أو أُعيدتْ؛ كانَ الثّاني غيرَ الأوَّلِ(4).

لطيفةُ خطابِ اللهِ رسولَهُ المصطفى بالفعل ﴿قُلۡ﴾:

تلقينُهُ القولَ من اللهِ تعالى، زيادةُ تثبيتٍ لفؤادِهِ، ووثاقةٌ لنصِّ الخطابِ

إعلامٌ بأهمّيَّةِ مقولِ القولِ في إلقامِ الخصمِ الحجَّةَ، وزيادةِ تثبيتٍ لقلبِ النَّبيِّ ﷺ ووثاقةِ النَّصِّ القرآنيِّ، وأنَّهُ من عندِ اللهِ تعالى الَّذي أمره بـ(قلْ)، وليس للنَّبيِّ فيه إلّا البلاغُ.

---

(1) النّحّاس، معاني القرآن: 3/121.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/183.
(3) من كلام العلماء، وليس حديثًا، ومعناه: أنَّ الكفر بالله، والشّرك به سبحانه أعظم الذُّنوب، فلا يُتعجَّب من الكافر إذا أذنب ذنبًا آخر، وليس معناه: أنَّ الكفّار غير مخاطبين بالشّريعة.
(4) ابن الشّجريّ، أمالي ابن الشّجريّ: 3/545.

الرِّسالةُ اتِّباعٌ وبلاغٌ، لا يتأتَّى لها إلّا ما أذنَ بهِ اللهُ

بلاغةُ القصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، القصرُ بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ يكونُ لِما هو ظاهرٌ، ممّا لا ينكره المخاطبُ، أو ما نُزِّلَ هذه المنزلة نحو: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ [البقرة: 11]، ويحسنُ وقوعُها في التَّعريضِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرّعد: 19][1]. أي: ينبغي أن تعلموا أنَّني متَّبِعٌ لا مبتدِعٌ، وأن يكونَ ذلك من المسلَّماتِ.

دلالـــةُ فعـلِ الاتِّــبــاعِ على كـمالِ التَّأسّي والانصياعِ لأمورِ اللهِ

إيثارُ الفعلِ ﴿أَتَّبِعُ﴾ دونَ سواهُ:

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ أوثرَ التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿أَتَّبِعُ﴾ لدلالتِه على كمالِ التَّأسّي والاقتداءِ، وعدمِ المخالفةِ في شيءٍ، فالاتِّباعُ هو لحوقُ الشَّيءِ بمتقدِّمٍ أو سابقٍ بلا فصلٍ (مع رقَّةٍ ولين)[2].

دلالـــةُ فعـلِ (أَتَّــبِــعُ) على الاسـتـمـرارِ في الاتِّباعِ، والتَّجدُّدِ في الولاءِ للهِ

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿أَتَّبِعُ﴾:

في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، صيغةُ المضارعِ في (أتَّبع) تدلُّ على الاستمرارِ في الاتِّباعِ، دونَ كللٍ أو مللٍ أو سأمةٍ، أو مخالفةٍ، كما تشيرُ إلى التَّجدُّدِ في الاتِّباعِ، كلَّما نزلتْ آيةٌ، أو أمرٌ من الوحي.

الـدَّلالـةُ على المبالغةِ في اتِّباعِ الـوحـي، وبيانِ منزلتِه العظيمةِ

دلالةُ (ما) الموصولةِ والعدولِ عن (الَّذي)، وأثره في المعنى:

وأمّا (ما)؛ فهي الموصولةُ، ويجوزُ أن تكونَ مصدريَّةً، وهو ظاهرُ كلامِ الزَّجّاج[3]، والأوَّلُ هو الرّاجح الموصولةُ، فهي في قول النَّحويّين بمعنى (الَّذي)، وليس كذلك، وإن وافقت (الَّذي) في أكثرِ أحكامها، فإنَّها مخالفةٌ لها في المعنى، وفي بعضِ الأحكام، أمّا المعنى: فإنَّ (ما) اسمٌ مبهمٌ في غاية الإبهام، حتَّى إنَّها تقعُ على كلِّ شيءٍ، وتقعُ على ما ليسَ بشيءٍ... وكلُّ ما وصلتَ به يجوزُ أن

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/250.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).

(3) قال الزّجاج: "فأعْلَمهم أنّه يتبعُ الوحْي". يُنظر: الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/250. فقوله: (الوحي) مصدر ﴿ما يوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

يكونَ صلةَ (الَّذي)، فهي توافقُ (الَّذي) في هذا الحكمِ، وتخالفُهُ في أنَّها لا تكونُ نعتًا لما قبلَها ولا منعوتة؛ لأنَّ صلتَها تُغنيها عن النَّعت، وأيضًا فلو نُعتت بنعتٍ زائدٍ على الصِّلةِ، لارتفعَ إبهامها، وفي ارتفاعِ الإبهام منها جملة بطلان حقيقتها، وإخراجها عن أصلِ موضوعِها، وتفارقُ (الّذي) أيضًا في امتناعِها في التَّثنية والجمع، وذلك أيضًا لفرطِ إبهامها، فقد وضحَ لك ما بينها وبين (الَّذي) من الفرقِ في المعنى والحكم[1]، ويستنبطُ من إبهام (ما) معنى التَّفخيم والتَّهويلِ والتَّعظيمِ، وللسّياق أثرُهُ في الحكمِ على المعنى المناسب، وعليهِ فإنَّ إيثارَ (ما) للدَّلالةِ على المبالغةِ في اتِّباعِ الوحي، وتعظيمِه.

سرُّ العدولِ عن الفعلِ (يأتي) إلى الفعلِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

ما أخبرَ بهِ الرَّسولُ موثوقٌ؛ لأنَّ أمانتَهم حقٌّ، وتبليغُهم يحقٌّ

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، يُلاحظ عدولٌ عن الفعلِ (يأتي) إلى الفعلِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾، في متن هذه الآيةِ الكريمة، وذلك لإثباتِ الوحي، ونفي ما ادَّعوه من اختلاقِ آيةٍ، أو الإتيان بها من قِبَلِ نفسِه، والمأمورُ بهِ أن يقولَ: "إنَّما أنا متَّبعٌ لا مبتدع، فما يوحيهِ اللّهُ إليَّ من الآيات، أنا أبلِّغُهُ إليكم بدون تغييرٍ أو تبديلٍ"[2].

إيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ:

دلالةُ المضارعِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، واتِّباعُ النَّبيِّ وحيَ العليِّ الجبّارِ

في قوله: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، تشيرُ صيغةُ المضارعِ في ﴿يُوحَىٰٓ﴾ على التَّجدُّد والاستمرارِ، وفيهِ إيماءٌ إلى اتِّباعهِ الوحيَ في كلِّ شيءٍ، سواءٌ أكانَ في الحكم الماضي أم الحالي أم اللّاحق ممّا نُسخَ، وممّا لم يُنسخ، كما يشيرُ إلى تواصل اتِّباعه ما دام الوحيُ موصولًا؛ فلا يعتريهِ شيءٌ من السَّهوِ أو الغفلة، فحاله في آخرِ الوحي من اليقظةِ والبصيرةِ والفكرة والعزمِ كحالهِ في أوَّله.

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر في النَّحو، ص: 139.
(2) طنطاويّ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 161/5.

شبهُ الجملة تفخيمٌ للوحي، وتشريفٌ للمرسلِ بالوحي

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيَّ﴾، ومتعلَّقِه:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ في الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿إِلَيَّ﴾ زيادةُ تشريفٍ وخصوصيَّةٍ للنَّبيِّ ﷺ، وفيه تفخيمٌ للوحي المُنَزَّل عليه، ولو حُذِف؛ لفاتَ هذا المعنى، ولأوهمَ إطلاقُ اتِّباعِه لما يوحى، ولو إلى غيره، وهذا فاسدٌ.

تأكيدُ معنى الوحي الحقيقيِّ، ودفعِ توهُّمِ غيرِ ذلك

فائدةُ قولِه: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾ ومتعلَّقِه:

بيانُ مصدرِ الوحي، وأنَّه من قِبَل اللّه تعالى، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بالفعلِ (يوحَى)، أو متعلِّق بمحذوفِ حالٍ من الضَّميرِ المستتر في (يوحى)، وفائدةُ ذكرِه - حينئذٍ - تأكيدُ معنى الإيحاء الحقيقيِّ المنزَّلِ على الأنبياء (عليهم الصَّلاة والسَّلام).

النِّسبةُ بالإضافةِ إلى الرَّبِّ شرفٌ جليلٌ، وحملٌ من الأمانةِ ثقيلٌ

سرُّ إضافةِ لفظِ (ربّ) إلى ضميرِ المتكلِّم:

في قولِه: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾ إضافةُ تشريفٍ وتخصيصٍ، يناسب الرَّدَّ عليهم في قولهم: ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، فمن جملة ربوبيَّتِه أنَّه ما ودعني لنفسي، بل ربّاني على التَّوكُّل عليه، والاعتصامِ بحبلهِ.

الوحيُ المنزَّلُ أولى وأهمُّ من حيثُ التَّأسيسُ، وذكرُه مكرَّرٌ من قبيلِ التَّأكيدِ

لطيفةُ تقديمِ: ﴿إِلَيَّ﴾ على: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾:

تقديمُ قولِه: ﴿إِلَيَّ﴾ على قولِه: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾؛ لأنَّ بيانَ خصيصةِ الوحي المنزَّل عليه أولى وأهمُّ، وهو من قبيل التَّأسيس، وقولِه: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾ من قبيلِ التَّأكيدِ، والقاعدةُ عند أهلِ العلم: أنَّه إذا دار الكلامُ بين التَّأسيسِ والتَّأكيد، فالتَّأسيسُ أولى؛ لأنَّ التَّأسيسَ يفيدُ معنى جديدًا، والتَّوكيدُ لا يفيدُ غير المعنى الأوَّلِ إلّا أنَّه يقوّيه.

التَّنويهُ بشأنِ القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّه بصائرُ تملأُ القلبَ بنورِ اليقينِ الإيمانيِّ

فائدةُ الاستئنافِ بجملةِ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾:

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، مُستَأْنَفَةٌ لابْتِداءِ كَلامٍ في التَّنويهِ بشَأْنِ القرآنِ مُنْقَطِعَةٌ عَنِ المَقولِ لِلانْتِقالِ مِن غَرَضٍ إلى

غَرَضٍ بمَنْزِلَةِ التَّذْييلِ لِمَجْموعِ أغْراضِ السّورَةِ[1]، أي: إنَّ هذا القرآنَ - الَّذي أوحاهُ اللهُ إليَّ - بصائرُ وحججٌ من ربِّكم، من يتأمَّلها حقَّ التَّأمُّل؛ يكن بصيرَ العقلِ بما تدلُّ عليه من الحقِّ، فهي أدلُّ عليه ممّا تطلبون من الآياتِ الكونيَّةِ[2].

لطيفةُ تلوينِ الخطابِ في قولِه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾:

ضرورةُ الإعراضِ عن الكافرين، وعدمِ الاعتناءِ بأقاويلهِم الباطلةِ

يحتملُ أن يكونَ الخطابُ للمؤمنين، فيكون تلوينًا للخطابِ السّابق؛ حيثُ الرَّدُّ على الكافرين الَّذين تعنَّتوا مع الرَّسول ﷺ في طلبِ الآياتِ، والغرضُ منه هو الإعراض صفحًا عن الكافرين، وعدمُ الاعتناءِ بقولهم، وبيانُ قدرِ المؤمنين بهذا الكتابِ الكريم. كما يحتملُ أن يكونَ متَّصلًا بما قبلَهُ "مِنْ تَمامِ القَوْلِ المَأْمورِ بأنْ يُجيبَهُم به، فيَكونُ الخِطابُ لِلْمُشْرِكينَ، ثُمَّ وقَعَ التَّخَلُّصُ لِذكْرِ المُؤْمِنينَ بقَوْلِه: ﴿وَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمِ يُؤْمِنُونَ﴾"[3].

دلالةُ الإشارةِ في قولِه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾:

القرآنُ بصائرُ للاستبصارِ بهِ في جميع المطالب الإلهيَّةِ، والمقاصد الإنسانيَّةِ

المشارُ إليهِ هو القرآنُ الكريم، ويدخلُ فيه ما نزلَ في هذه السّورةِ الكريمة، والإشارةُ إلى القرآن بلفظِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يلمحُ بها إلى التَّشريف والتَّعظيم من جهةٍ، وإلى المضمون الَّذي به شرفَ القرآنُ وسمًا ومقامًا ومضمونًا من جهةٍ أخرى، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى القرآن الكريم المدلولِ عليه بما يوحى إلى النَّبيِّ ﷺ، باعتبارهِ بمنزلةِ البصائرِ للقلوب، بها تُبصِرُ الحقَّ وتدرك الصَّوابَ[4].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ إشارةٍ للقريبِ ﴿هَٰذَا﴾:

الإشارةُ للقريبِ إشارةٌ إلى إفرادِ الطَّريقِ ووضوحِهِ وعدمِ الالتباسِ فيه

إيثارُ اسم الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ دون (هذه) أو (تلك)؛ لأنَّه للمفردِ المذكَّرِ القريب، وهو قريبٌ لمن أنارَ اللهُ دربَهُ، وشرح صدرَهُ، وعلم أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 237/9.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 153/9.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 237/9.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 237/9.

القرآنَ من عندِ اللّهِ تعالى، وإفرادُ الإشارةِ تتناسبُ وإفرادَ الطَّريق ووضوحَه وعدمَ الالتباس فيه.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَصَآئِرُ﴾ ودلالتُهُ:

آياتُ اللهِ توجِبُ البَصائِرَ لِمَنْ عَرَفَها، ووَقَفَ على حَقائِقِها

أوثِرَ لفظُ ﴿بَصَآئِرُ﴾ جَمْعُ بصيرةٍ؛ لأَنَّ البَصَرَ كما كان اسْمًا لِلْإِدْراكِ التّامِّ الكامِلِ الحاصِلِ بالعَيْنِ الَّتي في الرَّأْسِ، فالبَصيرَةُ اسْمٌ لِلْإِدْراكِ التّامِّ الحاصِلِ في القَلْبِ، وهيَ في أَنْفُسِها لَيْسَتْ بَصائِرَ إلّا أنَّها لِقوَّتِها وجَلالَتِها توجِبُ البَصائِرَ لِمَنْ عَرَفَها، ووَقَفَ على حَقائِقِها، فلَمّا كانَتْ هذه الآياتُ أَسْبابًا لِحُصولِ البَصائِرِ[1]، فالكلامُ خارجٌ مخرجَ التَّشبيهِ البليغِ... أو فيهِ مجازٌ مرسلٌ، حيث أطلقَ المسبَّبَ على السَّببِ، وجوِّزَ أن تكونَ البصائرُ مستعارةً لإرشادِ القرآنِ الخلقَ إلى إدراكِ الحقائقِ[2].

سرُّ جمعِ لفظِ ﴿بَصَآئِرُ﴾ وإفرادِ لفظَي (هدى ورحمة):

الهدَى والرَّحمةُ جنسانِ عامّانِ، يشملانِ أنواعَ البَصائِرِ القرآنيَّةِ

وَإِنَّما جَمَعَ (البَصائِرَ)؛ لِأَنَّ لِلْقُرْآنِ أَنْواعًا مِنَ الهُدَى على حَسَبِ النَّواحِي الَّتي يَهْدي إِلَيْها، مِن تَنْويرِ العَقْلِ في إِصْلاحِ الاعْتِقادِ، وتَسْديدِ الفَهْمِ في الدّينِ، ووَضْعِ القَوانينِ لِلْمُعامَلاتِ والمُعاشَرَةِ بين النّاسِ، والدَّلالَةِ على طُرُقِ النَّجاحِ والنَّجاةِ في الدُّنْيا، والتَّحْذيرِ مِن مَهاوي الخُسْرانِ، وأَفْرَدَ الهُدَى والرَّحْمَةَ؛ لِأَنَّهُما جِنْسانِ عامّانِ يَشْمَلانِ أَنْواعَ البَصائِرِ؛ فالهُدَى يُقارِنُ البَصائِرَ، والرَّحْمَةُ غايَةٌ لِلْبَصائِرِ، والمُرادُ بالرَّحْمَةِ ما يَشْمَلُ رَحْمَةَ الدُّنْيا: وهيَ اسْتِقامَةُ أَحْوالِ الجَماعَةِ وانْتِظامُ المَدَنيَّةِ، ورَحْمَةَ الآخِرَةِ: وهيَ الفَوْزُ بالنَّعيمِ الدّائِمِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النَّحل: 97][3].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 104/13.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 140/5.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 238/9.

دلالةُ ﴿مِن﴾ وفائدةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾:

و"مِن" لابتداءِ الغايةِ مجازًا، وهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقعَ صفةً لبصائر، والتَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة مع الإضافة إلى ضميرِ المخاطبين لإظهارِ كمال اللُّطف بهم[1].

كلُّ هدايةٍ من اللهِ، فهي خيرٌ ورحمةٌ لعبادِه

نكتةُ تلوينِ الخطابِ في قولِه: ﴿رَّبِّكُمۡ﴾ بعد قوله: ﴿رَّبِّيۚ﴾:

قولهُ: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، نلاحظُ أنَّهُ لَمّا كان الوحيُ إليه من إنعامِ اللهِ عليهِ؛ أُضيفَ الرَّبُّ إليه، فقال: ﴿أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾، ولما كانوا أحوجَ ما يكونون إلى لطفِ اللهِ بهم؛ ليستبصروا بهذا الوحي أضيفَ الرَّبُّ إليهم، فقال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾.

البشرُ في حاجةٍ إلى فواضلِ الرُّبوبيَّةِ، وإلى ألطافِها الخفيَّةِ

دلالةُ عطفِ قولِه: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ على قوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾:

وعطفَ قولَهُ: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ على قوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾ لبيان ما بعد الاستبصارِ من الحثِّ على العملِ، ﴿وَهُدٗى﴾ رُشْدٌ وبَيانٌ ورَحْمَةٌ" أي: ونعمة[2]، وهو يقول لهم: "إنَّ هذا القرآنَ - الَّذي أوحاه اللّه إليَّ - بصائرُ وحججٌ من ربِّكم، من يتأمَّلُها حقَّ التَّأمُّل؛ يكن بصير العقل بما تدلُّ عليه من الحقِّ، فهي أدلُّ عليه ممّا تطلبون من الآيات الكونيَّةِ"[3]، وفي ذلك كمالُ الهدى، وعمومُ الرَّحمةِ، لو أنَّكم كنتم تعقلون.

من أبصرَ الحقائقَ؛ استبانَ له الهُدى، ونالتْهُ رحمةُ الله على المدى

مجيءُ قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾ بعد لفظِ ﴿بَصَآئِرُ﴾:

لَمّا كانَ القرآنُ منهاجًا للناس جميعًا؛ جاء قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾ قيدًا لقوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾ فهو عامٌّ مطلقٌ، يتناسب وعمومَ ربوبيَّتهِ تعالى، وقوله: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ خاصٌّ بأهل الإيمان،

تقييدُ (البصائر) لانتفاعِ كلِّ الخلقِ، وإطلاقُ (هدى ورحمة)؛ لتخصيصهما بالمؤمنين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 234/4.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 353/7.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 153/9.

ونظير ذلك قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: 57][1].

أسلوبُ التَّرقّي في ذكرِ (بصائر) ثمَّ (هدى) ثمَّ (رحمة)، وسرُّ التَّرتيبِ:

القـرآنُ بصائرُ للسّابقين، وهُدًى للمُستدلّين، ورحمةٌ للمؤمنين

وهنا لطيفةٌ، وهي الفرقُ بين هذه المراتبِ الثَّلاثِ، وذلك أنَّ النّاس متفاوتون في درجات العلوم، فمنهم من بلغَ الغايةَ في علم التَّوحيد، حتَّى صارَ كالمشاهِد، وهم أصحاب عين اليقين، ومنهم من بلغَ درجةَ الاستدلالِ والنَّظر، وهم أصحابُ علم اليقينِ، ومنهم المسلِّم والمستسلم، وهم عامَّةُ المؤمنين، وهم أصحابُ حقِّ اليقينِ؛ فالقرآنُ في حقِّ الأوَّلين - وهم السّابقون بصائرُ، وفي حقِّ القسم الثّاني، وهم المستدلّون هدًى، وفي حقِّ القسم الثّالث، وهم عامَّة المؤمنين رحمةٌ[2].

سرُّ اختصاصِ المؤمنين بالذِّكر في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

المؤمنون هُمُ الَّذين يَسْتَبْصِرون، ويَنْتَفِعون بالوَحْيِ

قولهُ: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خَصَّ المُؤْمِنينَ؛ لِأَنَّهُمُ الَّذين يَسْتَبْصِرونَ، وهُمُ الَّذينَ يَنْتَفِعونَ بالوَحْيِ، يَتَّبِعونَ ما أَمَرَ به فيهِ، ويَجْتَنِبونَ ما يُنْهَوْنَ عنه فيه، ويُؤْمِنونَ بما تَضَمَّنَهُ[3]. ولَمّا كانَتْ هذه الفِرَقُ الثَّلاثُ مِنَ المُؤْمِنينَ؛ قالَ: لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ، وفيهِ تَكْميلٌ وبَعْضُ تَلْخيصٍ[4].

فائدةُ التَّنازعِ في متعلَّقِ الجارِّ والمجرورِ:

تَعْريضٌ بأنَّ غَيْرَ المُؤْمِنينَ لَيْسوا أَهْلًا لِلانْتِفاعِ به

الجار والمجرور في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ "يتنازعه ﴿بَصَآئِرُ﴾ و﴿وَهُدًى﴾ و﴿وَرَحْمَةٌ﴾؛ لِأَنَّهُ إمّا يَنْتَفِعُ به المُؤْمِنونَ، فالمعنى: هذا بَصائِرُ لَكُم ولِلْمُؤْمِنينَ، وهُدًى ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ خاصَّةً؛ إذْ لَم يَهْتَدوا، وهو تَعْريضٌ بأنَّ غَيْرَ المُؤْمِنينَ لَيْسوا أَهْلًا لِلانْتِفاعِ به، وأَنَّهُم لَهَوْا عَنْ هَدْيِه بطَلَبِ خوارق العادات"[5].

---

(1) ابن القيّم، إغاثة اللهفان: 169/2.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 286/2.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 261/5.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 261/5.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 283/9.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (قوم) في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ هدايةَ القرآنِ ورحمتَهُ قيامٌ بحقِّه، ووُقوفٌ عند حدودِه

وذكرَ لفظَ (قوم)؛ لِأنَّ ذِكرَها يَقْتَضي أنَّ هدايةَ القرآنِ ورحمتِه لن تتَمكَّنَ منهم حتَّى يسْتَوي فيهِ جَميعُهُم، ويصيرَ مِن خَصائِص قَوْميَّتِهم، وفيه إشارةٌ إلى الحضِّ على التَّوافق والتَّعاون والتَّرابط؛ ممّا يدعوهم إلى استثمارِ هذه المراتبِ السّابقِ ذكرُها من الاستبصارِ بالقرآنِ والهدايةِ والاسترحامِ به، "فالمُرادُ بقَوْمٍ يُؤْمِنونَ: قَوْمٌ الإيمانُ شَأْنُهُم وسَجيَّتُهُم، ولِلْإشارَةِ إلى معنى تَمَكُّنِ الإيمانِ من نُفوسِهِمْ؛ أُجْرِيَ وصْفُ الإيمانِ على كَلِمَةِ (قَوْم)؛ لِيُفيدَ أنَّ كَوْنَهُم مُؤْمِنينَ هو مِن مُقَوِّماتِ قَوْميَّتِهِمْ"[1]، وكلمة (قوم) إذا جاءت مع كلمة النِّساء، فالمرادُ بها الرِّجالُ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحُجُرات: 11]، وإذا جاءت من غير لفظ النِّساءِ شملتِ الرِّجالَ والنِّساءَ، كما في الآية الكريمة[2]، وفي اصطفاءِ كلمةِ (قوم) هنا معنى لطيفٌ؛ فهذه الكلمةُ تفيدُ معنى من يقوم للشَّيء، ويقوم به، أي: من يجتهد في الوفاءِ بحقِّ ما يطلب منه، وفي هذا تعريضٌ بهم أنَّهم لم يكونوا قوّامين بما جاءهم به رسول الله ﷺ فهدَّدهم بأن يتأتَّى بغيرِهم يقومون بما لم يقوموا به.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/65.

(2) في ذلك خلاف بين العلماء؛ فقال قوم: كلمة (قوم) تخصُّ الرّجال دون النّساء، واستدلّوا بهذه الآية، وبقول زهير:

وما أدري ولست إخالُ أدري *** أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

ينظر: الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

والصّحيح: أنّها تعمُّ الرّجال والنّساء، كما في النّداءات النّبويّة بـ ﴿يَقَوۡمِ﴾ مِن أنبياء الله السّابقين، فالخطاب فيها للرّجال والنّساء، والنّساء شقائق الرّجال، ولكن هنا عندما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ دخل الرّجال والنّساء، ثمّ خصّ تعالى النّساء بالذّكر لأنّ الهزء يكون مِنَ النّساء أكثر، فلا يكاد يُفلِت مِنَ النّساء أحدٌ من الهزء، الا من رحم ربُّك، ففي قوله: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ [الحجرات: 11] تعميم، وفي قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: 11]، تخصيص، وكأنّ النّساء خوطبن مرّتين؛ لأنّ ذلك من لوازم مجالسهنّ ولوازم أحاديثهنّ.

إيثارُ صفةِ الإيمانِ والتَّعبيرِ بالفعل ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإيـمـانُ أصـلُ صـلاحِ العمـلِ وقبوله، وصيغةُ المضارعِ تجدُّدٌ واستمرارٌ

وأوثرَ وصفُ الإيمانِ، لأنَّهُ الأصلُ الَّذي ينبني عليه صلاحُ العملِ وقبولُهُ، وبهِ يستقبلُ القلبُ بصائرَ القرآنِ، وينقادُ بيُسْرٍ على صراطٍ مستقيمٍ. وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرار، فهم يرتقون بهذا الكتابِ في مدارجِ السّالكين، ومعارجِ المتّقين، ومنازل المحسنين، كما بُشِّروا بذلك الرُّقيِّ في الآخرةِ حين «يُقالُ لِقارِئِ القرآنِ: اقْرَأْ وارْقَ ورَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنْيا، فإنَّ مَنْزِلَتَكَ في آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُها»[1].

توافقُ الفاصلةِ، وأثرُها الصَّوتيُّ والدَّلاليُّ:

توحي الفاصلةُ بالهدوءِ وهدهدةِ النَّفس، والتَّخفيفِ من الضَّغطِ والتَّوتُّرِ

نلحظُ توافقَ الفاصلةِ في قولِه: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ لما قبلَها وما بعدَها من الفواصلِ، وذلك يُحْدِثُ انسجامًا صوتيًّا، يستولي على القلوبِ، ويستقطبُ العقولَ، ويأسرُ الأسماعَ، وهي متَّفقةٌ - كذلك - مع آياتِها في قرارِ الصَّوت اتِّفاقًا عجيبًا، يلائِمُ نوعَ الصَّوت والوجه الَّذي يُساق عليه، فهذهِ الفواصلُ وختامها يوافقُ ما كان عليه العربُ من اختيارِ حروف اللّين أو المدِّ للانتهاء بمقاطع كلامِهم، أو حرفَي النّون والميم، فالنّون المسبوقةُ بصوتٍ ممدود، الموقوف عليها - توحي بهذا الجوِّ من الهدوءِ والهدهدةِ[2] النَّفسيَّة، والتَّخفيف من حدَّة الضَّغط والتَّوَتُّر، وهذا جليٌّ من قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: 196] إلى ختامِ السّورةِ الكريمة.

الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآيةُ والمعجزةُ:

المعجزةُ هي ما خرقَ العادةَ من قولٍ أو فعل، إذا وافقَ دعوى

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (1464)، وابن حبّان في صحيحه، برقم: (766)، والحاكم في المستدرك: 1/739.

(2) الهدهدة: تحريك الأمّ ولدَها لينام.

الآيـةُ الخـارقـةُ الدّالَّةُ على صدقِ النُّبوَّةِ، والمعجزةُ مـا قـصـد بهـا التَّحدّي

الرِّسالة، وقارنها، وطابقها على جهة التَّحدّي ابتداء، بحيث لا يقدر أحدٌ عليها، ولا على مثلها، ولا على ما يقاربُها. قال ابن تيميَّة[1]: "الآياتُ والبراهين الدّالَّةُ على نبوَّةِ نبيِّنا محمَّد ﷺ كثيرة متنوِّعةٌ، وهي أكثرُ وأعظمُ من آياتِ غيرهِ مِنَ الأنبياءِ"، قال: "ويسمّيها النُّظّارُ معجزاتٍ، وتسمَّى دلائلَ النُّبوَّة، وأعلامَ النُّبوَّة ونحو ذلك"، وقال: "وهذه الألفاظُ إذا سمّيت بها آيات الأنبياء؛ كانت أدلَّ على المقصودِ من لفظِ المعجزات؛ ولهذا لم يكن لفظُ المعجزات موجودًا في الكتابِ ولا في السُّنَّةِ، وإنَّما فيهِ لفظُ الآيةِ والبيِّنة والبرهان"[2].

الاجتباءُ والاختيارُ والاصطفاءُ:

الاجـتـبـاءُ والاخـتـيـارُ والاصـطـفـاءُ، لكلٍّ منها دلالةٌ مرتبطةٌ بسياقها والـقـرائـن المصاحبة

اختيارُكَ لشَيْءٍ أخذُكَ خيرَ ما فيهِ في الحَقيقَة، أو خَيره عنْدك، والاصطفاءُ أخْذُ ما يصفو منه، ثمَّ كثرَ حَتَّى اسْتُعْمل أحدُهما مَوضِعَ الآخرِ، واسْتُعْمل الاصطفاءُ في ما لا صفو لَهُ على الحَقيقَة[3]، والاصطفاءُ: الاختيارُ من بين أشياءَ متشابهة؛ كأن تختار قلمًا من بين مجموعةِ أقلام، والاختيارُ يكون من بين أشياء غيرِ متشابهة، كأن تختار قلمًا من بين ورقٍ، وكتابٍ، وقلم، فالاصطفاءُ عمليَّةٌ أخصُّ من مجرَّدِ الاختيارِ، والاصطفاءُ يحدثُ بعد الاختيارِ، والاصطفاءُ يكونُ لأمرٍ، أو فعل متميِّزٍ فريدٍ في نوعِه، مثل تكليم اللهِ ربِّ العالمين لموسى لأوَّلِ مرَّةٍ، فالاصطفاءُ أعلى درجةً من الاختيار، والاجتباءُ يشبهُ الاصطفاءَ، ولكن يأتي في سياقِ الأفرادِ وليس في الأفعالِ كما هو الحالُ في الاصطفاءِ[4]، فالاجتباءُ في الأصلِ الاختيارُ، وأريدَ به هنا الاختلاقُ والافتعال، يقال: اختارَ فلانٌ الشَّيءَ؛ إذا اختلقَهُ واستحدَثه.

---

(1) ابن تيميّة، الجواب الصّحيح: 412/5.

(2) السّفّارينيّ، لوامع الأنوار البهيّة: 290/2.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.

(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 67/3.

الاتِّباعُ: اقتفاءُ هدي اللهِ على بصيرةٍ وحجَّةٍ، والتَّقليدُ: قبولُ الاتِّباعِ بلا حجَّةٍ

الاتِّباعُ والتَّقليدُ:

الاتِّباعُ يدلُّ على لحوقِ الشَّيءِ بمتقدِّمٍ أو سابقٍ بلا فصلٍ، مع رقَّةٍ ولينٍ؛ ولا يكونُ في الإسلامِ إلا بدليلٍ، يقال: غُصْنٌ متتابع: إذا كان مستويًا لا غِلْظة فيه(1). فالاتِّباعُ هو اتِّباعُ الدَّليلِ والعمل بالوحي، ولا شكَّ في أنَّ هذا اللُّحوقَ والسَّيرَ في أثر الشَّرْع يخلو من الشَّرِّ، ويحلو بالرِّفق واللِّين؛ إذ إنَّه من لطيفٍ خبيرٍ، فقد سمَّى اللهُ العملَ بالوحي اتِّباعًا في مواضعَ كثيرةٍ، منها قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [الأنعام: 106]، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: 3]. فمحلُّ الاتِّباع إذًا هو كلُّ حكم ظهرَ دليلُهُ من الكتاب والسُّنَّةِ والإجماع، أمّا محلُّ التَّقليد فهو محلُّ الاجتهاد، فلا اجتهادَ ولا تقليدَ في نصوصِ الوحي الصَّحيحةِ الواضحة الدَّلالة، السّالمة من المعارض، ولا يشترطُ في الاتِّباع والعمل بالوحي سوى العلمِ بما يعملُ، ولا يتوقَّف ذلك على تحصيلِ شروطِ الاجتهاد(2).

وأمّا التَّقليدُ؛ فليس في القرآن من مادَّةٍ (قلد) إلّا لفظتا (القلائد) و(مقاليد): وهما مأخوذتان من القَلْد: السِّوارُ المفتولُ من فضَّةٍ، والقلادة، وقَلَد الحديدةَ: رقَّقَها ولواها على شيءٍ أو على مثلها، والتَّقليدُ فيه معنى الحَوْز والحَبْس بشدَّة(3)، وأمّا التَّقليدُ بمعنى: قبول قَول الآخرين من غيرِ حجَّة(4)، فلم يرد لفظُه في القرآن، وإنَّما جاء معناه في موضع الذَّمِّ والنَّهي، بل جاء التَّشبيه البليغ لأولئك الَّذين يسيرون خلفَ كلِّ ناعقٍ، فقال الله ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).
(2) ابن القيّم، إعلام الموقّعين: 19/2، 201، والشّوكانيّ، إرشاد الفحول، ص: 881.
(3) الخليل، العين، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قلد).
(4) قِوام السُّنّة، الحجّة في بيان المحجّة: 119/2.

عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 171]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: 104].

فالتَّقليدُ الأعمى والتَّعصُّب يؤدّيان إلى مهاوي الرَّدى، ويقودانِ صاحبهما إلى مسالكِ الغِواية والضَّلال، ويصدّان عن اتِّباع النّور والهدى، فتكونُ النَّتيجةُ تخبُّطًا وانتكاسكًا في الدُّنيا، وهلاكًا وخسرانًا في الآخرةِ[1].

(1) حمد الحريقيّ، التّوحيد وأثره في حياة المسلم، ص: 83.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾

[الأعراف: 204]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين تعظيمِ القرآنِ وهديهِ، وبين تلاوتهِ وتدبُّرِه

اعْلَم أنَّه تعالَى لَمّا عَظَّمَ شَأْنَ القرآنِ بقولِه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: 203] أَرْدَفَهُ بقَوْلِه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[1]، فوجب "التزامه والإصغاءُ لتلاوته والتَّدبُّر في معانيه، وتعظيمه، كتعظيم اللّه تعالى في ذكرِه وتسبيحِه وتحميدِه"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ﴾: من السَّماعِ، وهو إيناسُ الشَّيْءِ بالأُذُنِ منَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمْعًا، والسَّمْعُ: الذِّكْرُ الجَميلُ، يُقالُ: قد ذَهَبَ سَمْعُهُ في النّاسِ، أيْ: صيتُهُ[3].

2) ﴿وَأَنصِتُواْ﴾: الإنصاتُ يَدُلُّ على السُّكوتِ، وأَنْصَتَ لاسْتِماعِ الحَديثِ، ونَصَتَ يَنْصِتُ، وفي كِتابِ اللّه تَعالَى: ﴿وَأَنصِتُواْ﴾، والإنصاتُ على هذا أقوى من الاستماع، وفيه من الاستعدادِ للقبول، أو من الخشوعِ - ما ليس في الاستماع الذي يتحقَّقُ بمجرَّدِ الاستعداد لوصول الصَّوت إلى الأذن[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمرُ بقراءةِ القرآنِ باستماعٍ وإنصاتٍ لنيلِ ما فيها من الرَّحمات

إذا قرئَ عليكم - أيُّها المؤمنون - القرآنُ فاصغوا له سمعَكم، لتتفهَّموا آياتِه، وتعتبروا بمواعظِه، وأنصتوا إليه لتعقلوهُ، وتتدبرَّوه؛

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 439/15.
(2) الزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 759/1.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سمع).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نصت).

ليرحمَكم ربُّكم باتِّعاظكم بمواعظهِ، واعتباركم بعبرهِ، واستعمالكم ما بيَّنَهُ لكم ربُّكم من فرائضِه في آيِه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وأثرُها في المعنى:

العطفُ والاستئنافُ إمّا لتحقيقِ البلاغِ، أو لبيانِ الخطابِ على التَّوالي

الواو عاطفةٌ، ويكون ما بعدها داخلًا في ما أمرَ به الرَّسولُ ﷺ أن يقولَهُ للمشركين، وذلك إعادَةُ تَذْكيرٍ لِلْمُشْرِكِينَ تَصريحًا أو تَعْريضًا بألّا يُعْرِضوا عَنِ اسْتِماعِ القرآنِ وبأنْ يَتَأَمَّلوهُ لِيَعْلَموا أنَّهُ آيَةٌ عَظيمَةٌ[2]، ويجوزُ أن تكونَ استئنافيَّةً، ويكون الخطابُ للمؤمنينَ، وفيه حسنُ تخلُّصٍ من مخاطبة المشركين والرَّدِّ عليهم تُجاه موقفهم من القرآنِ، إلى الحديثِ عن نفسِه وعلاقتهِ مع القرآنِ، إلى أثرِ القرآنِ في النّاس كافَّةً، وفي المؤمنين خاصَّةً، ثمَّ الانتقالُ إلى الحالِ الَّتي ينبغي أن يكونَ المؤمنون عليها عندما يقرأُ هذا القرآنُ؛ حتَّى يُرحموا، ويَفوزوا بهدايتِه ونورِه.

علَّةُ إيثارِ (إذا) دون (إنْ):

الملاءمةُ بين أداةِ الشَّرطِ وسياقه الدِّلاليِّ والزَّمانيِّ للتَّعبيرِ عن المرادِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ أوثِر (إذا) دون (إن)، وتبدو فائدةُ (إذا) في تحقُّقِ ما بعده، ووقوع الفعل الماضي بعدَهُ يؤكِّدُ هذا، وفيه بشارةٌ بتحقُّقِ قراءةِ القرآنِ إلى قيام السّاعة، وإشارةٌ إلى فشلِ الكافرين الحاسدينَ الَّذين ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التّوبة: 32]، وما نراهُ في عصرنا من تنوُّعِ إذاعةِ القرآنِ الكريم صوتيًّا شاهدٌ على ذلك، كما أنَّ (إذا) تشيرُ إلى الزَّمان، فهو ظرفٌ متضمِّنٌ معنى الشَّرط، وما بعده في محلِّ جرٍّ بإضافة (إذا) إليه، وفي ذلك إيماءٌ بشدَّةِ تعلُّقِ ما بعدَهُ به، فالمضافُ والمضافُ إليه كالكلمةِ الواحدة.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 345/13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 238/9.

وحرفُ (إنْ) يَدُلُّ على مجرَّدِ الاشتراطِ، ولا إشعارَ له بالزَّمانِ، كما يدلُّ على الشَّكِّ في الوقوع، فمخرجها الظَّنُّ والتَّوقُّع فيما يُخْبِر به المُخْبِر[1]، ومن اللَّطائفِ: (إنْ) لِلشَّكِّ معَ أنَّها جازِمَةٌ، وإذا لِلْجَزْم معَ أنَّها لا تَجْزِمُ، وقد ألْغَزَ في ذلك الإمامُ السيوطيُّ، فقالَ[2]:

أنا إنْ شَكَكْتُ وجَدْتُموني جازِمًا *** وإذا جَزَمْتُ فإنَّني لَم أجْزِم

إيثارُ استعمالِ فعلِ (القراءةِ) دونَ (التِّلاوةِ):

القــراءةُ أعـمُّ وأشمـلُ من التِّلاوةِ، ولهذا ذُكِرَت في الآيةِ دونَ التِّلاوة

أوثِرَ فعلُ القراءةِ دونَ التِّلاوة؛ لأنَّها تُستعمل في قراءةِ القليلِ والكثيرِ، سواءٌ أكان مكتوبًا أم غير مكتوبٍ، بصوتٍ أم بغيره، والتِّلاوة تستعملُ في ما يطولُ، ويكثرُ من الكلامِ للقراءةِ من مكتوب بصوت، ويتسامحُ فيها، فتكونُ من غيرِ مكتوبٍ لكن بصوتٍ، ففعلُ القراءة في الآية أولى؛ لأنَّه أعمُّ[3].

سرُّ مجيءِ الفعلِ الماضي المبنيِّ للمفعولِ:

دلالــةُ لـفـتِ الانـتـبـاهِ إلى المقروءِ، لا إلى القارئِ

في قوله تعالى: ﴿قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ بُني الفعلُ ﴿قُرِئَ﴾ للمفعولِ؛ ليلفتَ الانتباهَ إلى الفعلِ، لا إلى الفاعلِ، فينبغي أن يكونَ تركيزُ العقلِ وتكريس الفكرِ في ما يُقرَأ، لا في مَن يَقرَأ، ومن شهدَ النّاسَ في عصرنا والتفافَهم حول المشهورين وانفضاضَهم من حول المغمورين؛ أدركَ ذلك.

نكتةُ وضعِ المُظهرِ موضعَ المُضمرِ في ذكرِ لفظِ ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾:

التَّنويهُ بأمرِ القراءةِ الواعيَةِ المصغيَةِ، لتطلُّبِ الرَّحمةِ السّابغةِ

وَذِكْرُ اسْمِ القرآنِ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لِأنَّ القرآنَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ بواسِطَةِ اسْمِ الإشارَةِ فنُكْتَةُ هذا الإظْهارِ: التَّنْويهُ بهذا الأمْرِ، وجَعَلَ جُمْلَتَهُ مُسْتَقِلَّةً بالدَّلالَةِ غَيْرَ مُتَوَقِّفَةٍ على غَيْرِها، وهذا من وُجوهِ الاهْتِمام بالكَلام ومِن دَواعي الإظْهارِ في مَقامِ الإضْمارِ اسْتَقْرَيْتُهُ من كَلامِ البُلَغاءِ[4].

(1) المبرّد، المقتضب: 56/2.
(2) السّيوطيّ، الطّراز في الألغاز، ص: 46.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 38، 39، 75، والرّاغب، المفردات، ص: 168، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تلو) و(قرأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 239/9.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في: ﴿قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾:

تجانسُ الكلماتِ والحروفِ فيه جمالٌ وكمالٌ، يبقى على مدى الدَّهْرِ

أمّا تلاؤمُ الكلماتِ والحروفِ؛ ففيه جمالُ المقالِ، وكمالُ الكلامِ، نحو قولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: 24] ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ﴾ [النمل: 44] ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 84] ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ [الروم: 43] ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ [يوسف: 19] ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ [الواقعة: 89] ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ٥٤﴾ [الرحمن: 54] ونظائرُها، ونلحظُ في هذا الجناسِ عظيمَ حفظِ اللهِ لكتابِهِ الكريمِ؛ فهو يشيرُ بحروفِهِ الكائنةِ في الفعلِ ﴿قُرِئَ﴾، والاسمِ ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ يشيرُ إلى بقاءِ حروفِهِ وحدودِهِ، فاللهُ ﷻ، جعله يُقْرَأ على الأسماعِ، رُغْمَ اختلافِ الأصقاعِ والألسنةِ والأزمانِ والأحوالِ، ورُغْم كيدِ الأعداءِ، ومحاولاتِ الأغبياءِ.

سرُّ مجيءِ الجوابِ فعلًا دالًّا على الاستماعِ في قوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾:

الاستماعُ أوَّلُ درجاتِ سُلَّمِ العلمِ بعدَ الإخلاصِ

أوَّلُ درجاتِ سُلَّمِ العلمِ - بعد الإخلاص - هو السَّماعُ، والمرادُ: فاستمعوا له استماعَ تحقيقٍ وقبولٍ[1]، لأنَّ القارئَ كالحالبِ، والسّامِعَ كالشّارِبِ، فهو أكثرُ فائدةً وثوابًا، وقد رأينا رسولَ اللهِ ﷺ يعلِّمُ المسلمين، ويقرأُ لهم، بل يدعو أحسنَ القرّاءِ ليستمع من رسولِ اللهِ ﷺ كما في حديثِ أبيّ، كما نراهُ في هذا الحديثِ يدعو أجودَ القرّاءِ عبدَ اللّه بن مسعودٍ[2].

إيثارُ صيغةِ الأمرِ بالاستماعِ لا بالسَّماعِ:

لا تنفعُ القراءةُ حينَ تكونُ الأذنُ سامعةً، والقلبُ في صممٍ

والاسْتِماعُ: الإِصْغاءُ، وصيغَةُ الافْتِعالِ دالَّةٌ على المُبالَغَةِ في الفِعْلِ، فهي تدلُّ على تعمُّدِ الاستماعِ، والسَّماعُ ممّا قد يحصلُ عن غيرِ عمدٍ، و"الفرقُ بين السَّمعِ والاستماعِ: أنَّ الأوَّلَ يحصلُ ولو بغيرِ قصدٍ، والثّاني لا يكونُ إلّا بقصدٍ ونيَّةٍ"[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 310/3.
(2) موسى لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم: 613/3.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 227/9.

من أعطى القرآنَ كُلَّهُ؛ أعطاهُ القرآنُ بعضَهُ، ومن أعطاهُ بعضَهُ لم يعطِه شيئًا

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى واوِ الجماعةِ:

في قوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ أُسنِدَ الفعلُ إلى الجماعة؛ للحضِّ على التَّدبُّرِ الجماعيِّ، وتدبُّرِ الاستماعِ والإنصاتِ، ومفادُ ذلك أنَّ ذكرَ الاستماعِ والإنصاتِ لآياتِ القرآن الكريم، يشيرُ إلى أنَّها لا تتجلَّى على تاليها بنورِها الوهّاجِ، ولا تدنّي إليه جناها الدّاني بأروعِ الأحكام وأجمل المعاني، إلّا إذا قدَّرها حقَّ قدرِها، وأحلَّها من قلبه ونفسه المكانة الَّتي تستحقُّها، وتوجَّه إليها بجوارحه وجوانحه، وأفرغَ ذهنه من كلِّ خاطر وشاغل، وتفرَّغَ لها بالكليَّةِ، فآتته أكلها ضعفين، وانفتحَ له من سرِّها المكنونِ، وعطائها المخبوء بين اليقينِ والتَّأويل والظُّنون، ما يجعله لربِّه آويًا، وفي رحمته ثاويًا، فينالُ مفاتيح الفهوم، ويرتادُ بها أنفس العلوم، ويحوزُ بها في الدُّنيا سعادة، وفي الأخرى ينالُ بها الحسنى وزيادة.

الإنْصاتُ جامِعٌ لِمعنى الإصْغاءِ وتَرْكِ الانشغالِ عن القرآنِ

دلالةُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ على الجملةِ الَّتي قبلَهُ:

والإنْصاتُ: الاسْتِماعُ مَعَ تَرْكِ الكَلامِ، فهذا مُؤَكِّدٌ ﴿لَا تَسۡمَعُواْ﴾، مَعَ زِيادَةِ مَعْنًى، وذلك مُقابِلُ قَوْلِهِمْ: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصّلت: 26]، ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاسْتِماعُ مُسْتَعْمَلًا في مَعْناهُ المَجازيِّ، وهو الامْتِثالُ لِلْعَمَلِ بما فيهِ كَما تَقَدَّمَ آنِفًا في قَوْلِه: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ [الأعراف: 198]، ويَكونُ الإنْصاتُ جامِعًا لِمعنى الإصْغاءِ وتَرْكِ اللَّغْوِ[1]، ولعلَّ هذا يفسِّرُ مجيءَ الإنصاتِ بعد الاستماعِ في آيةِ التَّركيب، كما يفسِّرُ الاكتفاءَ به في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ [الأحقاف: 29].

الاسْتِماعُ والإنصاتُ مراتبُ بحسبِ مراتبِ المستمعينَ في الإخلاصِ للهِ

سرُّ تقديمِ الاستماعِ على الإنصاتِ في قوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾:

راعتِ الآيةُ الكريمةُ ترتيبَ الأفعالِ وفقَ الأحداثِ، فالاسْتِماعُ والإنْصاتُ المَأمورُ بهما هُما المُؤَدّيانِ بالسّامِعِ إلى النَّظَرِ والاسْتِدْلالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 239/9.

والاهْتِداءِ بما يَحْتَوي عليه القرآنُ مِنَ الدَّلالَةِ على صدقِ الرَّسول ﷺ المُفْضي إلى الإيمانِ به، ولِما جاءَ به مِن إصْلاحِ النُّفوسِ، فالأمْرُ بالاسْتِماعِ مَقْصودٌ به التَّبْليغُ واسْتِدْعاءُ النَّظَرِ، والعَمَلُ بما فيهِ، فالاسْتِماعُ والإنْصاتُ مَراتِبُ بِحَسَبِ مَراتِبِ المُسْتَمِعينَ(1).

فائدةُ قولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾:

تحقُّقُ الرَّحمةِ وحصولُها، لقارئِ القرآنِ بتدبُّرٍ وإتقانٍ

أنَّهُ تَعالَى لَمّا عَظَّمَ شَأْنَ القرآن بقولِه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: 203]، أَرْدَفَهُ بقَوْلِه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ جملة الشَّرطِ السّابقة، والرَّجاء هنا حصولُ الفعلِ؛ لأنَّه صادرٌ مِنَ اللهِ تعالى.

دلالةُ (لعلَّ) وإيثارُ مجيئِها في قولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾:

اللهُ أرحمُ بعبادِهِ من الأمِّ بولدِها، وهو أرحمُ الرّاحمين

وإيرادُ لَعَلَّ هنا للإشعارِ بعزَّةِ منالِ الرَّحمةِ، أي: لتكونوا على رجاءِ من أن يكرمَكم ربُّكم، ويفعلُ بكم كلَّ ما يفعلُه الرّاحمُ مع المرحومِ(2).

بلاغةُ الخطابِ بين التَّخصيصِ والتَّعميمِ:

رحمةُ اللهِ تطالُ كلَّ شيءٍ، وهي رحمةٌ عامَّةٌ شاملةٌ إلّا من أبى

قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، هذا الخِطابُ شامِلٌ لِلْكُفّارِ على وجْهِ التَّبْليغِ، ولِلْمُسْلمينَ على وجْهِ الإرْشادِ؛ لِأنَّهُم أرْجَى لِلانْتِفاعِ بهَدْيِه؛ لِأنَّ قَبْلَهُ قَوْلَهُ: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: 203]، ولئن عمَّتَ رحمةُ اللهِ الكونَ برمَّتِه، ووسعتْ كلَّ شيءٍ، فهي مخصَّصةٌ للأتقياءِ من المؤمنين، كما وردَ في القرآنِ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف: 156]، وقوله أيضًا: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/239.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/209.

اقتضاءُ الرَّحمةِ في موقفِ الإقرارِ والإنكارِ آثرُ وأولى

إيثارُ ذكْرِ الرَّحمةِ دونَ الفلاحِ أو غيرِه:

قولهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، أي: تفوزونَ بالرَّحمةِ الَّتي هي أقصى ثمراتِه[1]، والمعنى باعتبار السّياقِ: "أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيَهُ، وتتدبَّروا مواعظَهُ، وأنصتوا لقراءتِه حتَّى تنقضيَ إعظامًا له واحترامًا، لكي تفوزوا بالرَّحمة الَّتي هي أعظمُ ثمراتِه، لا كما يعتمدُهُ كفّارُ قريشٍ من قولهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصّلت: 26]"[2]، فهؤلاءِ الكفرةُ الفجرةُ يستحقّونَ العذابَ لا الرَّحمة، إلّا أن يتوبوا إلى اللّهِ، ويسلموا إليه.

الرَّجاءُ في رحمةِ اللهِ من أقوى البواعثِ على تعظيمِ القرآنِ الكريمِ

سرُّ استعمالِ الفعلِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ:

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بُني الفعلُ للمفعولِ للعلم بالفاعل؛ فلا راحمَ في الحقيقةِ غيرُهُ، أي: لتكونوا عند من يجهلُ العواقبَ على رجاءٍ من حصولِ الرَّحمةِ ممَّن لا راحمَ سواهُ[3].

الأولى هو الأخذُ بظاهرِ الآيةِ إلّا ما استُثْني وفقَ الضَّوابطِ والأصولِ

دلالةُ الأمرِ بالاستماعِ والإنصاتِ عند قراءةِ القرآنِ:

ظاهرُ النَّظمِ الكريمِ يقتضي وجوبَ الاستماعِ والإنصاتِ عند قراءةِ القرآن في الصَّلاة وغيرِها، وقيل: معناهُ إذا تلا عليكم الرَّسولُ القرآنَ عند نزولِه؛ فاستمعوا له، وجمهورُ الصَّحابة ﭫ على أنَّه في استماعِ المؤتمِّ، وقد روي أنَّهم كانوا يتكلَّمون في الصَّلاة، فأُمروا باستماع قراءةِ الإمامِ والإنصاتِ له، وعن ابنِ عبّاس ﭬ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأ في المكتوبةِ، وقرأ أصحابُه خلفَهُ، فنزلت[4]. وقدِ اتّفق عُلماءُ الأُمّةِ على أنّ ظاهرِ الآيةِ بمُجرّدِه في صور كثيرة مُؤوّل، فلا يقولُ أحد منهم بأنّهُ يجبُ على كُلِّ مُسلِم - إذا سمع أحدًا يقرأُ القرآن - أن يشتغِل بالاستِماعِ، ويُنصِت؛ إذ قد يكونُ القارِئُ يقرأُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/310.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/245.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/307.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/310.

بمحضَرِ صانِعٍ في صنعتِه، فلو وجب عليه الاستِماعُ لأُمِر بتركِ عملِه، ولكِنّهُمُ اختلفوا في محملِ تأويلِها، ولو قالوا: المُرادُ من قوله: ﴿قُرِئَ﴾ قِراءَةٌ خاصَّةٌ، وهيَ أن يَقرأَهُ الرّسولُ ﷺ على النّاسِ لِعلَمِ ما فيهِ والعَمَلِ به لِلْكافِرِ والمُسْلِمِ؛ لَكانَ أحْسَنَ تَأْويلًا(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القِراءةُ والتِّلاوةُ:

(قرأ) تُستعمل للقراءةِ من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ بصوتٍ وبغير صوتٍ، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوتٍ ولا بدَّ في الأصل: "تلا" تستعملُ للقراءةِ من مكتوبٍ بصوتٍ، ويتسامحُ فيها، فتكونُ من غيرِ مكتوبٍ، لكن بصوتٍ، وقد أشارَ أبو هلالٍ إلى أنَّ التِّلاوةَ تكونُ في ما يطولُ، أي: يكثُر من الكلامِ، وقال الرّاغبُ: إنَّ التِّلاوةَ أخصُّ من القراءةِ؛ لأنَّ التِّلاوةَ تختصُّ بما يُتّبع، وقال في هذا السّياق: "فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً فإنَّه لا يقال: تلوْتُ رقعتك، وإنَّما يقال: في القرآنِ في شيءٍ إذا قرأتَهُ؛ وجبَ عليك اتِّباعُهُ". وقال جبلٌ: إنَّ الأمرَ التبسَ على الإمام، فإنَّ الَّذي منع (تلوتُ رقعتَكَ) هو أنَّ التِّلاوةَ لا تكونُ إلّا بصوتٍ، والرُّقعةُ المُرسلةُ من شخصٍ إلى شخصٍ خاصَّةً، ليس الشَّأنُ فيها أن تقرأَ علنًا، فهذا هو الَّذي منعَ لا أنَّ الرُّقعةَ ليست مما يُتّبع(2). انتهى. وهذا وجهٌ وجيهٌ.

القراءةُ أعمُّ من التِّلاوةِ، وكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً

الاستماعُ والإنصاتُ:

الاستماعُ: هو قصدُ السَّماعِ بُغيةَ فهمِ المسموعِ أو الاستفادةِ منهُ، والإنصاتُ هو: السُّكوتُ للاستماعِ، يقالُ: أنصتَ؛ إذا سكتَّ سكوتَ مستمعٍ، قال الإمام النّوويُّ: "والاستماعُ: هو شغلُ القلبِ بالاستماعِ والإصغاءِ للمتكلِّم، والإنصاتُ: هو السُّكوتُ"(3).

الاستماعُ عمليَّةٌ عفويَّةٌ بحاسَّةِ الأذنِ، والإنصاتُ مع تركيزِ العقلِ وانتباهِهِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 240/9، وقد فصّل الفخر الرّازي الكلام في ذلك، فلينظر: الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 440/15.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63 والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تلو)، و(قرأ).

(3) النّوويّ، المجموع: 395/1.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: 205]

العلاقة بين الدَّعوة للاستماع والإصغاء للقرآنِ، وبين كيفيَّتِها وأدبها

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

لمّا تقدَّمَ الأمرُ بالذِّكر عند نزغِ الشَّيطانِ، ومرَّ إلى أنّ الأمْرَ بالاستماعِ لأعظمِ الذِّكرِ، وكان التّالي ربَّما بالغ في الجهرِ ليكثر سامعه، وربما أسرَّ لئلّا يوجبَ على غيرِهِ الإصغاءَ؛ علَّمَهم أدبَ القراءةِ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَضَرُّعٗا﴾: التَّضرُّعُ يَدُلُّ على لينٍ في الشَّيْءِ من ذلك ضَرَعَ الرَّجُلُ ضَراعَةً؛ إذا ذَلَّ، ورَجُلٌ ضَرَعٌ: ضعيفٌ، "الضَّرْعُ للبهائم: كالثَّدْي للمرأة. ويدورُ معنى التَّضرُّعِ حول رخاوةٍ أو رقَّةٍ، مع تَدلٍّ، أي: دُنوٍّ ومقاربة من الحصول في الحيِّز، ومن التَّدلّي والرخاوة المعنوية عُبِّر بالتَّركيب عن التَّذَلُّل[2]. فالتَّضرُّعُ يدورُ حولَ الطَّلبِ بذلٍّ وخضوعٍ واستكانة[3].

2) ﴿وَخِيفَةٗ﴾: يَدُلُّ على الذُّعرِ والفزَعِ، والخَيفُ: جِلدُ الضَّرْعِ حين يَخلو من اللَّبَن يسترخي، والمعنى المحوريُّ: فراغٌ كبيرٌ في جَوف الشَّيءِ (لذَهابِ ما كان يشغله أو انتقاصِه)، كأنَّ الَّذي يخافُ منخوبُ الفؤادِ[4].

3) ﴿ٱلۡجَهۡرِ﴾: إعلانُ الشَّيْءِ وكَشْفُهُ وعُلُوُّهُ، يُقالُ: جَهَرْتُ بالكَلامِ، أعْلَنْتُ به، ورَجُلٌ جَهيرُ الصَّوْتِ، أيْ: عاليه[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 209/8.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضرع).
(3) محمّد عويضة، فصل الخطاب في الزّهد والرّقائق والآداب: 328/7.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خوف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهر).

4) ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾: أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على زَمانٍ، مِن ذلك الغُدوُّ، يُقالُ غَدا يَغْدو. والغُدْوَةُ والغَداةُ، وجَمْعُ الغُدْوَةِ غُدًى، وجَمْعُ الغَداةِ غَدَواتٌ، والغاديَةُ: سَحابَةٌ تَنْشَأُ صَباحًا، وأفْعَلُ ذلك غَدًا، والأَصْلُ غَدْوًا، والغَداءُ: الطَّعامُ بعَيْنِه، سُمّيَ بذلك؛ لِأنَّه يُؤْكَلُ في ذلك الزَّمانِ[1].

5) ﴿وَٱلۡآصَالِ﴾: جمع (أصيل)، من الجذر اللّغوي: (أصل)، والمعنى المحوريُّ: "امتدادٌ في العمقِ يقومُ عليه الشَّيءُ، ويمتدُّ منه إلى الأعلى، كقاعدتي الجبلِ والحائط لهما، وجذرِ الشَّجرة لها، وتلك الأصلةُ لها قائمةٌ تقوم عليها"[2]، والأصيل ما كانَ مِنَ النَّهارِ بَعْدَ العَشيِّ[3]، باعتبار أنه أوّل دخول زمن اللّيل.

6) ﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾: يَدُلُّ على تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، ورُبَّما كانَ عَنْ عَمْدٍ، مِن ذلك: غَفَلْتُ عَنِ الشَّيْءِ غَفْلَةً وغُفولًا، وذلك إذا تركتُهُ ساهيًا، وأغْفَلْتُهُ، إذا تركتُهُ على ذِكْرٍ مِنكَ لَهُ، ويَقولونَ لِكُلِّ ما لا مَعْلَمَ لَهُ: غُفْلٌ، الخلو مما يَلفتُ وينبِّهُ أو يدلُّ: كالأرضِ السَّبْسبِ والموات والإبلِ والبلاد المذكورةِ، ومنه "غَفَلَ عن الشَّيء (قعد)، وأغفلَهُ: تركَهُ، وسها عنه"[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرَ بذكرِ اللهِ في الأنفسِ بكرةً وعشيًّا، خشيةً وتضرُّعًا للهِ

يَأْمُرُ اللّهُ تعالَى عِبادَهُ بذِكْرِه كثيرًا في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِرِه، كَما أمَرَ عِبادَه بعِبادَتِه في هَذينِ الوَقْتَينِ، وكانَ ذلك قَبْلَ أنْ تُفْرَضَ الصَّلَواتُ الخَمْسُ لَيْلَةَ الإسْراءِ، ويَأْمُرُ اللّهُ بأنْ يَكونَ الذِّكْرُ في النَّفْسِ رَغْبَةً ورَهْبَةً، وبالقَوْلِ خُفْيَةً وسِرًّا، لا جَهْرًا، ولِذلك يُسْتَحَبُّ أنْ يَكونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غدو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أصل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أصل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غفل).

الذِّكْرُ خفيًّا لا نِداءً ولا جَهْرًا بَليغًا، وبألّا يَكونَ الإنْسانُ غافِلًا عَنْ ذِكْرِ اللّهِ، وأنْ يَسْتَشْعِرَ قَلْبُهُ الخُضوعَ لَهُ، والخَوْفَ مِن قُدْرَتِه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ وتوجيه الخطاب في قولِه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾:

الخطابُ للنَّبيِّ المرسلِ، ويجوزُ أن يكونَ لكلِّ مخاطبٍ بهذا القرآنِ

في قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾، الواو عاطفةٌ على ﴿قُلۡ﴾ في الآياتِ السّابقات، أو تجريدٌ للخطابِ إلى رسولِ اللّه ﷺ[2]، وفي الآية إقْبالٌ بالخِطابِ على النَّبيِّ ﷺ فيما يَخْتَصُّ به، بَعْدَ أنْ أُمِرَ بما أُمِرَ بتَبْليغِه مِنَ الآياتِ المُتَقَدِّمَة، والمُناسَبَةُ في هذا الانْتِقالِ أنَّ أمْرَ النّاسِ باسْتِماعِ القرآنِ، يَسْتَلْزِمُ أمْرَ الرَّسولِ ﷺ بقراءَةِ القرآنِ عليهم قِراءَةً جَهْرِيَّةً يَسْمَعونَها، فلَمّا فرَغَ الكَلامُ من حَظِّ النّاسِ نحو قراءَةِ الرَّسولِ ﷺ أقْبَلَ على الكَلامِ في حَظِّ الرَّسولِ ﷺ مِنَ القرآنِ وغَيْرِه، وهو التَّذَكُّرُ الخاصُّ به، فأُمِرَ بأنْ يَذْكُرَ اللّه ما اسْتَطاعَ، وكَيْفَما تَسَنَّى لَهُ، وفي أوقاتِ النَّهارِ المُخْتَلِفَة، فجُمْلَةُ ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ مَعْطوفَةٌ على الجُمَلِ السّابِقَةِ مِن قَوْلِه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 196] إلى هُنا[3].

سرُّ الأمرِ بالذِّكرِ دونَ غيرِه:

الانتقالُ من الذِّكرِ السَّماعيِّ إلى الذِّكرِ باللِّسانِ والجَنانِ والأركانِ

في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾، السِّرُّ في الأمرِ بالذِّكرِ دونَ غيرِه أنَّه انتقالٌ من ذكرِ الاستماعِ والإنصاتِ إلى أعظمِ الذِّكرِ وهو القرآنُ الكريمُ، إلى ذكرِ اللِّسانِ والجنانِ والأركانِ، وبهذا يحتمي الذّاكرُ بالمذكورِ، فلا تعتريه الغفلةُ، ولا يقربهُ الشَّيطانُ.

إيثارُ ذكرِ (الرَّبِّ)، والعدولِ عن اسمِ الجلالةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ أوثِرَ ذكرِ (الرَّبِّ) تذكيرًا بعطاءِ الرُّبوبيَّةِ، وفيهِ بيانٌ لطريقِ الاتِّباعِ، ومعونةُ اللّه لعبدِهِ عند ما يسلك

---

(1) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1160.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/210.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/241.

سبيله؛ حيثُ أمرَهُ - قبل ذلك - أن يقول لهم: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، ثمَّ بيَّن له طريقَ الثَّباتِ عليه، فقال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾، وكُلُّ ذلك يَدُلُّ على نِهايَةِ الرَّحْمَةِ والتَّقْريبِ والفَضْلِ والإِحْسانِ، والمَقْصودُ منه: أنْ يَصيرَ العَبْدُ فرحًا مبتهجًا عند سَماعِ هذا الاسْمِ؛ لِأنَّ لَفْظَ الرَّبِّ مُشْعِرٌ بالتَّرْبِيَةِ والفَضْلِ[1].

التَّذكيرُ بعطاءِ الرُّبوبيَّةِ، وفيه بيانٌ لطريقِ الاتِّباعِ المتوخَّى

فائدةُ إضافةِ (ربّ) إلى ضميرِ المخاطبِ في قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾:

في ذكر الربّ سبحانَه ملاطفةٌ بالمخاطَبِ، ويدخلُ فيهِ الرَّسولُ ﷺ دخولًا أوَّليًّا، كما أنَّ في الإضافة إعلامًا بأنَّ جودَ المذكور سابقٌ على سؤالِ الذّاكرِ، وربوبيَّةُ اللّه كرمٌ فيّاض، وإنعام سخيٌّ مفضالٌ، ولذلك جاءت إضافتُهُ بوصف الرُّبوبيَّةِ إلى ضمير الخطابِ لأجل ذلك.

اللهُ (سبحانه وتعالى) أكرمُ، وجودُهُ أسبقُ، وعطاؤهُ أنعمُ

علَّةُ اختيارِ (في) الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾:

تفيدُ تمكُّن الذِّكر من نفس الذّاكرِ، فكأنَّ خَلْوَتَه الَّتي يَخْلو فيها مع اللّهِ، هو قلبُه، وكيف لا وهو محلُّ نظرِ الرَّبِّ جلَّ وعلا؟ قال ابن عبّاس: يعني بالذِّكر: القراءةَ في الصَّلاة يريد يقرأ سرًّا في نفسه في صلاةِ السِّرِّ[2]، وما يكونُ في النَّفس، يكونُ أقرب إلى الخشوعِ، وأدلَّ على الخشيةِ، وتمحيض النِّيَّة للّهِ تعالى دون سواهُ.

الذِّكرُ في النَّفس دليلٌ على أنَّ اللهَ قريبٌ من العبدِ، وأنَّهُ يسمعُ سرَّهُ ونجواه

إيثارُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿نَفۡسِكَ﴾ دونَ (قلبِكَ):

في التَّعبيرِ بالنَّفسِ دونَ القلبِ، إشارةٌ إلى عملِ اللِّسانِ والأركانِ بعد ذكرِ الجَنانِ؛ فالنَّفْس مجموعُ الرّوحِ والجسدِ معًا، فالنَّفسُ: الدَّمُ، سالتْ نَفْسُه، دَفَقَ نَفْسَه، أي: دمه[3]، كما أنَّ نفاسةَ الإنسانِ تحصلُ له بذكرِهِ لربِّه، والنّاس معادنُ، من حيثُ اختلافُ جواهرِها نفاسةً وخساسةً.

الإشارةُ إلى مشاركةِ الإنسانِ بكيانِه الدّاخليِّ الممثَّلِ بالنَّفسِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/442.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 3/452.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (نفس).

مَنِ اتَّصلتْ نفسُهُ بذكرِ اللهِ؛ صفا قلبُهُ، ودنا من عفوِ ربِّه

فائدةُ إضافةِ النَّفسِ إلى ضميرِ المخاطبِ:

قوله: ﴿فِى نَفْسِكَ﴾، في إضافةِ النَّفس إلى ضميرِ المخاطبِ إيماءٌ إلى يُسرِ التَّكليفِ بالذِّكرِ في النَّفسِ، فهو في وُسعهِ، وإذا أرادَ الإنسانُ أن يفعلَهُ فما عليه إلّا ترويضُ روضاتِ نفسه بكثرةِ ذكرِ ربِّه، والنَّفس إذا ألفت الذِّكرَ؛ صار ديدنًا لها وطبيعةً وذوقًا، لا راحةَ لها إلّا به، ولا سعادةَ لها إلّا في أكنافِه، فيكون غذاءَها الرّوحيَّ الدّائمَ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ زمانٍ، وينعكسُ ذلك على الحواسِّ كلِّها، فيكونُ ذكرُ اللِّسان الدُّعاءَ، وذكرُ العينين البكاءَ، وذكرُ الأذنين الإصغاءَ، وذكرُ القلبِ الخوفَ والرَّجاءَ، وقد قال الشّاعرُ أبوبكر الشِّبليُّ:

ذَكَرْتُكَ لا أنّي نَسيتُكَ لَحْظَةً *** وأيْسَرُ ما في الذِّكْرِ ذِكْرُ لِساني

الــذِّكــرُ في النَّفسِ أقربُ إلى الإخلاصِ، وأبعدُ عن مراءاةِ النّاس

العدولُ عن التَّعبيرِ بـ (سرًّا) إلى قولِه: ﴿فِى نَفْسِكَ﴾:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ والمُرادُ بذِكْرِ اللّه في نَفْسِه، كَوْنُهُ عارِفًا بمَعاني الأذْكارِ الَّتي يَقولُها بلِسانِه، مُسْتَحْضِرًا لِصفاتِ الكَمالِ والعِزِّ والعُلُوِّ والجَلالِ والعَظَمَةِ، وذلك لِأنَّ الذِّكْرَ باللِّسانِ إذا كانَ عارِيًا عَنِ الذِّكرِ بالقَلْبِ كانَ عَديمَ الفائِدَةِ[1]، ولمّا كان الذِّكرُ سرًّا قد يوهمُ اعتراءَ الغفلةِ؛ عدلَ عنهُ إلى قولِه: ﴿فِى نَفْسِكَ﴾، والفائِدَةُ فيهِ: أنَّ انْتِفاعَ الإنْسانِ بالذِّكرِ إنَّما يَكْمُلُ إذا وقَعَ الذِّكْرُ بهذه الصِّفَةِ، لِأنَّهُ بهذا الشَّرْطِ أقْرَبُ إلى الإخْلاصِ والتَّضَرُّعِ.

شرطُ الذِّكرِ أن يكونَ تخشُّعًا وتضرُّعًا لله العليِّ الأعلى

دلالةُ قولِه: ﴿تَضَرُّعًا﴾:

أي: افعل ذلك تخشُّعًا للّه وتواضعًا له[2]، والتَّضرُّعُ تفعُّلٌ من الضَّراعةِ، وهو الذُّلُّ، أي: تذلُّلًا وتملُّقًا[3]، وهو حالٌ من الضَّميرِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 442/15.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 353/13.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 110/2.

المستتر في ﴿وَٱذۡكُر﴾، أي: اذكره ذا تضرُّعٍ، أو بتأويل اسم الفاعل، أي: اذكره مُتَضَرِّعًا متذلِّلًا له وخائفًا منه سبحانه .

إيثارُ صيغةِ التَّفعُّلِ دونَ الفَعالةِ في قوله: ﴿تَضَرُّعٗا﴾:

التَّرقّي في التَّذلُّلِ للهِ تعالى، والتَّدرُّج مدارجَ السَّالكين، سبيلُ القربِ منه

ويجيءُ مصدرُ تَفَعَّلْتُ على التَّفَعُّلِ، يقولون: تَقَوَّلْتُ تَقَوُّلًا[1]، والعدول عن الضَّراعة إلى التَّضرُّع؛ لما في التَّفعُّل من التَّرقّي في التَّذلُّل للّهِ تعالى والتَّدرُّج من منزلةٍ إلى أخرى، هي أسمى منها، فقد قال ﷺ: يقولُ اللّه ﷻ: "من تواضع لي هكذا، وجعل يزيدُ باطنَ كفِّه إلى الأرض، وأدناها إلى الأرضِ، رفعتُه هكذا، وجعلَ باطنَ كفِّه إلى السَّماء ورفعها نحو السَّماءِ"[2].

نكتةُ عطفِ قولِه: ﴿وَخِيفَةٗ﴾ على قوله: ﴿تَضَرُّعٗا﴾:

الجمعُ بين رفعِ الصَّوت تضرُّعًا، وخفْضِ الصَّوتِ خشيةً وتعظيمًا

﴿وَخِيفَةٗ﴾: وخوفًا مِنَ اللّهِ أن يعاقبَكَ على تقصيرٍ يكون منك في الاتِّعاظ به والاعتبار[3]، وعطف قولَهُ: ﴿وَخِيفَةٗ﴾، على قوله: ﴿تَضَرُّعٗا﴾، للدَّلالة على أنَّه كَنَّى بالتَّضَرُّعِ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ، مُرادًا به مَعْناهُ الأَصْليُّ والكِنائيُّ، وذلك لأنَّ التَّذلُّلَ يَسْتَلْزِمُ الخِطابَ بالصَّوْتِ المُرْتَفِعِ في عادَةِ العَرَبِ[4].

بلاغةُ الطِّباقِ بين: ﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾:

تنوُّعُ الذِّكرِ والعبادةِ تدفعُ السَّأم، وترفعُ الهِمَمَ

قوبِلَ التَّضَرُّعُ هُنا بالخيفَةِ، وهيَ اسْمُ مَصْدَرِ الخَوْفِ، فهو مِنَ المَصادِرِ الَّتي جاءَتْ على صيغَةِ الهَيْئَةِ، ولَيْسَ المُرادُ بها الهَيْئَةَ، مِثْلَ الشِّدَّةِ، ولَمّا كانَتِ الخيفَةُ انْفِعالًا نَفْسيًّا يَجِدُهُ الإنْسانُ في خاصَّةِ نَفْسِه؛ كانَتْ مُسْتَلْزِمَةً لِلتَّخافُتِ بالكَلامِ خَشْيَةَ أنْ يَشْعُرَ بالمَرْءِ مَنْ يَخافُهُ، فلِذلك كُنّيَ بها هُنا عَنِ الإسْرارِ بالقَوْلِ مع الخَوْفِ مِنَ اللّه،

(1) سيبويه، الكتاب: 4/79.

(2) ذكره الهيثمي في مجمع الزّوائد: 8/82، ونسبه لأحمد والبزّار، وقال: "رجال أحمد والبزّار رجال الصّحيح".

(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/353.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/241.

فمُقابَلَتُها بالتَّضرُّعِ طِباقٌ في مَعْنَيَي اللَّفظَيْنِ الصَّريحَيْنِ ومَعْنَيَيْهِما الكِناءَيْنِ، فكأنَّهُ قيلَ تَضرُّعًا وإعلانًا وخيفةً وإسرارًا(1).

فائدةُ قولِهِ: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ﴾:

الإشارةُ إلى التَّكلُّم بصوتٍ (دونَ الجهرِ)، فإنَّه أقربُ إلى التَّفكُّر

قَوْلُه: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ المعنى: أنْ يَذْكُرَ رَبَّهُ على وجهٍ يُسْمِعُ نَفْسَهُ، فإنَّ المُرادَ حُصولُ الذِّكرِ اللِّسانيِّ، والذِّكْرُ اللِّسانيُّ إذا كانَ بحَيْثُ يُسْمِعُ نَفْسَه، فإنَّهُ يَتأثَّرُ الخَيالُ مِن ذلك الذِّكْرِ، وتَأثُّرُ الخَيالِ يوجِبُ قوَّةً في الذِّكْرِ القَلْبيِّ الرّوحانيِّ، ولا يَزالُ يَتقوَّى كُلُّ واحِدٍ من هذه الأرْكانِ الثَّلاثَةِ، وتَنْعَكِسُ أنْوارُ هذه الأذْكارِ مِن بَعْضِها إلى بَعْضٍ، وتَصيرُ هذه الانْعِكاساتُ سَبَبًا لِمَزيدِ القوَّةِ والجَلاءِ والانْكِشافِ والتَّرَقّي مِن حَضيضِ ظُلُماتِ عالَمِ الأجْسامِ إلى أنْوارِ مُدَبِّرِ النّورِ والظَّلامِ(2) - أي: ومتكلِّمًا دونَ الجهرِ، فإنَّهُ أقربُ إلى حسنِ التَّفكُّرِ(3).

العدولُ عن التَّعبيرِ بـ(الهمس) إلى قوله: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ﴾:

الهمْسُ لا صوتَ فيهِ، والمرادُ هنا الصَّوتُ الضَّعيفُ

في قولِهِ: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ﴾ ثمَّةَ صوتٌ ضعيفٌ، وفي الهمسِ لا يوجد صوتٌ مسموعٌ، وذلك من حيثُ إنَّ الصَّوتَ يجري في الفمِ إذا كان موجودًا، وفي الهمسِ لا أصواتَ، كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨﴾ [طه: 108](4).

فائدةُ قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾:

تنويعُ الذِّكرِ يكونُ أنشطَ للنَّفسِ، وأدعى لعلوِّ الهمَّة

وفائدة مفهوم قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ ليعمَّ القرآنَ وغيرَه من أنواعِ الذِّكرِ، وفي ذلك تخفيفٌ وتنشيطٌ وحضٌّ على المداومةِ في الذِّكرِ، والانتقالُ من نوعٍ إلى آخرَ يدفعُ المللَ، ويناسبُ أحوالَ العبدِ، فقد يكونُ أنشطَ في ذكرٍ منه إلى آخرَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 241/9.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 444/15.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 310/3.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (همس).

بيانُ متعلّق قولهِ: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، وفائدتُه:

الذِّكرُ المأثورُ آثَرُ عندَ اللهِ، وأدقُّ دلالةً في التَّعبيرِ والبيان

﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقٌ بحالٍ من الجهر - أي: دونَ الجهرِ كائنًا من القول[1]، وفائدته: تخيُّرُ أولى الأقوالِ من الذِّكر، وأكثرها ثوابًا، وأنسبُها حالًا، فالقول وإن كان أعمَّ الألفاظِ الدّالَّةِ على الكلام، ولكنَّهُ يُرادُ به القولُ الخاصُّ بالذِّكر.

المرادُ بقولِه: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾:

الذِّكرُ بكرةً وعشيًّا يجدِّدُ المعينَ، ويربطُ الذّاكِرَ بربِّ العالمين

أي: بالبُكَرِ والعشيّاتِ[2]، والآصال جائزٌ أن يكونَ جمع (أصيل) و(أُصُل)؛ لأنَّهما قد يجمعان على أفعالٍ، وأمّا (الآصال)؛ فهي فيما يقالُ في كلامِ العربِ: ما بين العصرِ إلى المغربِ[3]، و"المراد بالغدوِّ والآصال، ليس هو قصرُ ذكرِ اللّهِ في هذينِ الوقتين، وإنّما المرادُ هو شغلُ القلبِ واللِّسانِ بذكرِ اللّهِ، ذكرًا دائمًا متجدِّدًا، بحيث يُخلي الإنسانُ نفسَهُ من الشَّواغلِ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ليكونَ بينَهُ وبينَ اللّهِ تلك اللقاءات المسعدة الَّتي يجدِّدُ فيها إيمانَهُ، ويقوّي بها صلتَهُ بخالقه"[4].

إيثارُ ذكرِ هذينِ الوقتينِ ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ دونَ غيرِهما:

الأوقاتُ الفاضلةُ، فرصٌ لاستثمارِ الحسناتِ الحاصلةِ

وخُصَّ هذان الوقتانِ بالذِّكر؛ لأنَّ الظِّلالَ إنَّما تعظمُ وتكثرُ فيهما[5]؛ لأنَّهما طرفا النَّهارِ، ومن افتتح نهارَهُ بذكرِ اللّه واختتمَهُ به، كان جديرًا برعاية ربِّه، ولأنَّهما وقتُ سكونٍ ودعةٍ وتعبُّدٍ واجتهادٍ، وما بينهما من أوقاتِ الغالبُ فيها الانقطاعُ لأمرِ المعاش[6].

بلاغةُ التَّرقّي في الذِّكرِ:

ذكرُ اللهِ بالقلبِ واللِّسانِ والأعضاء ولكلٍّ أوقاتٌ وأحوالٌ

حيثُ ذكرَ قيودًا مرتَّبةً تدعو إلى التَّدبُّر؛ فبدأ بالإخلاصِ في

---

(1) صافي، الجدول: 164/5.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 354/13.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 354/13.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 554/5.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 127/13.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 463/5.

قوله: ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾؛ لأنَّهُ أقربُ إلى الإجابة، وأبعدُ من الرّياء، ثمَّ ذكر ما ينبغي أن يكونَ عليه حالُ الذّاكر، وهو قوله: ﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾، ثمَّ بيَّنَ أن يكونَ باللِّسان لا بالقلبِ وحدَهُ؛ وسطًا في درجةِ الصَّوتِ؛ حتَّى يكونَ أقربَ إلى التَّفكُّر، وهو قوله: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ﴾[1]، وفي الصَّحيحين عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: رفع النّاسُ أصواتَهم بالدُّعاء في بعضِ الأسفار، فقال لهم النَّبيُّ ﷺ: «يا أيُّها النّاسُ: أربعوا على أنفسِكم - أي: هوِّنوا على أنفسِكم - فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنَّ الَّذي تدعونَهُ سميعٌ قريبٌ، أقربُ إلى أحدِكم من عنقِ راحلتِه»[2]، ثمَّ ذكرَ أخصَّ الأوقاتِ وأفضلها، وهو قوله: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾:

عاطفةُ النَّهيِ عن الغفلةِ على الأمـرِ بالذِّكرِ؛ لأنَّهما متكاملانِ

عاطفةُ جملةِ النَّهي في قولِه: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ على فعلِ الأمرِ بالذِّكر في قوله: ﴿وَٱذۡكُر﴾؛ لما بين النَّهي عن الغفلةِ والأمرِ بالذِّكر من علاقةٍ وُثقى؛ إذ إنَّ النَّهي عن الغفلة مطلوبةٌ للذّاكرِ، حتَّى يستمرَّ في ذكرِه، ويرْقى به، وللغافلِ حتَّى ينتبهَ، فيذكُر.

بلاغةُ وقوعِ النَّهيِ عن الغفلةِ بعد الأمرِ بالذِّكرِ:

الـغـفـلـةُ عـن الذِّكرِ قسوةٌ في القلبِ، وفتورٌ في الهمَّةِ

لقد نهى تعالى عن الغفلةِ عن ذكرِه بقولِه: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ أي: من الَّذين يغفلون عن ذكرِ الله، ويلهونَ عنه، وفيه إشعارٌ بطلبِ دوام ذكره تعالى، واستحضارِ عظمتِه وجلاله وكبريائِه، بقدرِ الطّاقة البشريَّة[3].

دلالةُ الخطابِ في قولِه: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾:

خـوطـبَ الـنَّـبـيُّ ﷺ، فخوطبتْ فيه أمَّتُهُ

خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، والمرادُ عامٌّ، أو المعنى: واذكر ربَّك أيُّها

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 248/5.

(2) أخرجه البخاريّ، برقم: (1423)، ومسلم، برقم: (44 - 47).

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 248/5.

الإنسانُ، والأوَّل أظهرُ، لأنَّ ما خوطبَ بهِ النَّبيّ ﷺ ولم يكن من خصائصهِ، فإنَّهُ مشروعٌ لأُمَّتهِ[1].

فائدةُ دخولِ (لا) على (تكن):

المبالغةُ في النَّهْيِ عن الغفلةِ، من أساليبِ تربيَةِ النُّفوسِ

النَّهي عن الكونِ من الغافلين أبلغُ من النَّهي عن الغفلةِ، فقولُهُ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ أشَدُّ في الانْتِفاءِ، وفي النَّهْيِ من نَحْوِ: ولا تَغْفُلْ؛ لِأنَّهُ يَفْرِضُ جَماعَةً يَحِقُّ عليهم وصْفُ الغافِلِينَ، فيُحَذِّرُ مِن أنْ يَكونَ في زُمْرَتِهم وذلك أبْيَنُ لِلْحالَةِ المَنْهِيِّ عَنْها[2]، وهذا أبلغُ من (ولا تكن غافلًا)؛ لأنَّ معناهُ النَّهي عن وجودِهِ من جملتِهم وإن لم يكن غافلًا.

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ في الآية:

يقظةُ القلبِ حَياةٌ، لا تُدْرِكُها العِباراتُ، ولا تنالُها التَّوَهُّماتُ

وإيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾؛ لأنَّ الذّاكرَ إنْ كانَ في الذّاكِرينَ؛ لَم يُكْتَبْ مِنَ الغافِلينَ، وإنْ كانَ في الغافِلينَ كُتِبَ في الذّاكِرينَ؛ لِأنَّهُ يَذْكُرُ حينَ لا يَذْكُرونَ، ولا يَغْفُلُ حينَ يَذْكُرونَ، زَهادَتُهُ فيما يَنْفَدُ، ورَغْبَتُهُ فيما يَخْلُدُ، فيَصْمُتُ ليَسْلَمَ، ويَخْلو ليَغْنَمَ، ويَنْطِقُ ليُفْهِمَ، ويُخالِطُ ليَعْلَمَ، ولا يَنْصِبُ لِلْخَيْرِ وهو يَسْهو، ولا يَسْتَمِعُ لَهُ، وهو يَلْغو، مَجالِسُ الذِّكْرِ معَ الفُقَراءِ أحَبُّ إليه مِن مَجالِسِ اللَّغْوِ معَ الأغْنياءِ[3].

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ (الذِّكر والغفلة):

فَنُّ الطِّباقِ من المحسِّنات البديعيَّةِ المرصِّعةِ للجملةِ

يُظهر لفظُ ﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ الواقعُ في حيِّز النَّهي في ختام الآيةِ دلالةَ لفظِ (الذِّكر) المأمورِ به في صدرها، وهو ضدُّ الغفلة. كما أنَّ فيهِ ضَرْبًا من رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، من حيثُ المعنى؛ إذِ افْتُتِحَت الآية بالأمرِ بالذِّكر، وخُتِمَتْ بالنَّهي عن الغفلة.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 248/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 242/9.
(3) ابن المبارك، الزّهد والرّقائق، ص: 333.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّفسُ والرّوحُ:

لفظُ النَّفسِ مشتركٌ، بين الرّوحِ والذّاتِ، والرّوح من أمرِ اللهِ

معلومٌ من نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ أنَّ النَّفسَ تموت، والرّوح لا تموت، وأنّها من أمر الله. ولفظُ النَّفسِ مشتركٌ، يقع على الرّوحِ وعلى الذّاتِ، ويكون توكيدًا، يقال: خرجتْ نفسُه، أي: روحه، وجاءني زيدٌ نفسُه، بمعنى التَّوكيد، والنَّفس الَّتي تستعدُّ بمعنى الذّات ما يصحُّ أن تدلَّ على الشَّيء من وجهٍ يختصُّ به دونَ غيرِه، وإذا قلت: هو لنفسهِ على صفةِ كذا، فقد دللتُ عليهِ من وجهٍ، يختصُّ به دون ما يخالفُهُ، ويعبَّر بالنَّفس عن المعلومِ في قولهِم: قد صحَّ ذلك في نفسي، أي: قد صار في جملةِ ما أعلمَهُ، ولا يقال: صحَّ في ذاتي[1]، وقد تطلقُ الرّوحُ على الهواءِ الخارجِ من البدن والدّاخلِ فيه، والبخارِ الخارج من القلبِ، كما قال ابن تيميَّة[2]، وقال ابن القيِّم: "مذهبُ جمهورِ العلماءِ: أنَّ النَّفسَ والرّوحَ مسمّاهما واحدٌ، وأنَّ الفرق بين النَّفس والرّوح فرقٌ بالصِّفات لا بالذّات، وأنَّ الرّوحَ جسم نورانيٌّ خفيف، يسري في الأعضاء سريانَ الماءِ في العود، والدُّهنِ في الزَّيتونِ، فإذا فارقها وانفصلَ عنها إلى عالمِ الأرواح؛ فسدت تلك الأعضاءُ"[3].

الغدوُّ والإصباحُ:

الغدوُّ: النِّصفُ الأوَّلُ من النَّهارِ، والإصباحُ: أوَّلُ ما يبدو من النَّهارِ بعدَ الفجرِ

الذَّهابُ غدوةً (أوَّلُ النَّهارِ) ثمَّ كثرَ حتَّى استعملَ في الذَّهابِ والانطلاقِ أيَّ وقتٍ كان[4]، والإصباحُ يَعْني: (إضاءَةَ الفَجْرِ)[5]، وهو مصدرُ أصبحْنا إصباحًا، والإصباحُ صُبْحُ كلِّ يومٍ بمجموعٍ[6].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 519.
(2) ابن تيميّة، الفتاوى: 282/9.
(3) للاستزادة: ابن قيّم الجوزيّة، في كتابه الرّوح.
(4) الفيروزآباديّ، تاج العروس: (غدو).
(5) مجاهد، تفسير مجاهد: 326.
(6) الفرّاء، معاني القرآن: 346/1.

الأصيلُ واللَّيلُ:

الأصيلُ: الوقتُ ما بينَ العصرِ إلى اللَّيلِ، واللَّيلُ: امتدادُ الظَّلامِ إلى الفجرِ

المُراعى في تسميةِ الأصيلِ الوقتُ الممتدُّ من العصرِ إلى العشاءِ الأولى، والمُراعى في تسميةِ اللَّيل هو طبيعةُ الظَّلام، فالأصيلُ: الوقتُ ما بينَ العصرِ إلى اللَّيلِ[1]، والمعنى المحوريُّ: امتدادٌ في العمقِ يقومُ عليه الشَّيءُ، ويمتدُّ منه إلى الأعلى، كقاعدتي الجبلِ والحائط لهما، وجذرِ الشَّجرة لها، وتلك الأصلةُ لها قائمةٌ تقوم عليها، والأصيل: العَشيُّ من العصر إلى المغرب "باعتبار أنَّهُ أوَّل دخول زمن اللَّيلِ، واللَّيلُ: يعبَّرُ به عَنِ الظَّلامِ، ليلةٌ لَيلاءُ وليلٌ أَلْيَلُ: شديدُ الظُّلمةِ"[2]، والمعنى المحوريُّ للَّيل: أنَّه حجابٌ لطيفٌ (غير مجسَّم) لكنَّه كثيفٌ يلفُّ الأشياءَ متميِّزًا عنها عالقًا في الأفق، أي: إنَّ طبيعةَ الظَّلامِ مع عمومِه هو الملحظُ في تسميةِ اللَّيلِ بدليلِ مقابلته بالضّياء في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾ [القصص: 71]. وكما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠﴾ [النّبأ: 10][3].

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 351، وابن جرير، جامع البيان: 405/16.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (ليل).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أصل) و(ليل).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين الدّعوةِ للذِّكرِ ونبذِ الغفلةِ، وبينَ بيانِ حالِ الملائكةِ في كمالِ الذِّكرِ

لَمّا أمرَ بالذِّكرِ في الآيةِ السّابقةِ، والمواظبةِ عليه، وحذَّرَ من الغفلةِ عنهُ؛ بيَّنَ في ختامِ السّورة أنَّ دوامَ الذِّكر بتمامِ الخضوعِ، وكاملِ الخشوعِ والإخباتِ من شأنِ الملائكةِ المقرَّبين، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: من الكِبْرِ، ومِنَ البابِ الكِبَرُ، وهو الهَرَمُ، خِلافُ الصِّغَرِ، يُقالُ: هو كَبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ، قالَ اللّه تعالَى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ [نوح: 22]، والكِبْرُ: مُعْظَمُ الأمْرِ، قَوْلُهُ عَزَّ وعَلا: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ [النور: 11]، أيْ: مُعْظَمَ أمْرِه، ويقولونَ: كِبْرُ سياسَةِ القَوْمِ في المالِ، فأمّا الكُبْرُ بضَمِّ الكافِ؛ فهو القُعْدُدُ، يُقالُ: الوَلاءُ لِلْكُبْرِ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ[1]، والتَّكبُّر هو: التّعالي على اللّه سبحانه، وهذا كفرٌ باللّه، أو على رسوله، وهذا كفرٌ بالرَّسول، أو على المؤمنين، وهذا هو التكبُّر المألوف بين المسلمين الذين لم يهذِّبوا أنفسَهم، وهي معصيةٌ عظيمةٌ.

2) ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: من التَّسْبيح، وهو تَنْزيهُ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ من كُلِّ سوءٍ، والتَّنْزيهُ: التَّبْعيدُ، والعَرَبُ تقولُ: سُبْحانَ من كَذا، أيْ: ما أبْعَدَهُ. والمعنى المحوريُّ: مخالطةٌ بتمدُّدٍ لما شأنه أن يَغمر - مع عدمِ الانغمارِ فيه، كهيئةِ السّابحِ يمتدُّ بدنًا وسعيًا فوق الماءِ دون أن ينغمرَ، والمعنى الذي ذكرناه يؤخذُ منه التَّعجُّب لغرابة عدم الانغمارِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كبر).

رغم مخالطةِ ما يغمر، وكذلك يؤخذ منه التَّنزيه، من الانبساطِ فوق الماءِ ونحوه دون الانغماسِ فيه، أي من الفَوْقيَّة والعُلوِّ - كما يقال: "تعالى اللّه"، ومن عدم الانغماسِ[1].

3) ﴿يَسۡجُدُونَ﴾: من السُّجود، وهو يَدُلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ، يُقالُ: سَجَدَ؛ إذا تَطامَنَ، وكُلُّ ما ذَلَّ؛ فقد سَجَدَ[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

الملائكةُ المقرَّبونَ لا يعصونَ اللهَ، بـل يسبِّحونَهُ ويعبدونَهُ

إنَّ الَّذين عند ربِّك من الملائكةِ لا يستكبرونَ عن عبادةِ اللّه، بل ينقادون لأوامرِه، ويسبِّحونه باللَّيل والنَّهار، وينزِّهونَهُ عمّا لا يليقُ به، وله وحدَه - لا شريك له - يسجدون[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ عمّا قبلَهُ:

تعليلٌ لما مضى من أمرِ العباد بالذِّكرِ ببيان أنَّ الملائكةَ يفعلون ذلك

تَتَنَزَّلُ مَنزِلَةَ العِلَّةِ لِلأَمرِ بالذِّكرِ، ولِذلك صُدِّرَتْ بـ (إنَّ) الَّتي هيَ لِمُجَرَّدِ الاهْتِمامِ بالخَبَرِ، لا لِرَدِّ تَرَدُّدٍ أو إنْكارٍ؛ لِأنَّ المُخاطَبَ مُنَزَّهٌ عَنْ أنْ يَتَرَدَّدَ في خَبَرِ اللّه تعالَى، فحَرْفُ التَّوْكِيدِ في مِثْلِ هذا المَقامِ يُغْني غَناءَ فاءِ التَّفْريعِ، والمعنى: الحَثُّ على تَكَرُّرِ ذِكْرِ اللّه في مُخْتَلَفِ الأحْوالِ؛ لِأنَّ المُسْلِمينَ مَأْمورونَ بالاقْتِداءِ بأهْلِ الكَمالِ مِنَ المَلَأِ الأعْلَى، وفيها تَعْريضٌ بالمُشْرِكينَ المُسْتَكْبِرينَ عَنْ عِبادَةِ اللّه بأنَّهم مُنْحَطّونَ عَنْ تِلْكَ الدَّرَجاتِ[4]، ووَجْهُ جَعْلِ حالِ المَلائِكَةِ عِلَّةً لأمر النَّبيِّ ﷺ بالذِّكْرِ: أنَّ مَرْتَبَةَ الرِّسالَةِ تُلْحِقُ صاحِبَها مِنَ البَشَرِ بِرُتْبَةِ المَلائِكَة، فهذا التَّعْليلُ بمَنْزِلَةِ أنْ يُقالَ: اذْكُرْ رَبَّكَ؛ لِأنَّ الذِّكْرَ هو شَأْنُ قَبيلِك[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سبح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 176.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/243.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/243.

المؤمنُ يترقَّى بالتَّشبُّهِ بأخلاقِ الملائكةِ، فتسمو روحُهُ وأخلاقُهُ

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والعدولِ عن لفظِ (الملائكة):

ما تُؤْذِنُ به الصِّلَةُ من رِفْعَةِ مَنْزِلَتِهم، فيَتَذَرَّعُ بذلك إلى إيجادِ المُنافِسَةِ في التَّخَلُّقِ بأحْوالِهِمْ[1]، والسّياق واضحُ الدَّلالةِ على المقصودين بالتَّوصيف، وهم ملائكةُ الملأِ الأعلى، والتَّعبيرُ بالاسم الموصول، وهو معرفةٌ، يقومُ مقامَ اسم العلم الَّذي عرف به هؤلاءِ المخلوقونَ من نورٍ، والَّذين وصفهم القرآنُ بأنَّهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾ [النّحل: 50]، وقيل: إنَّ المقصودَ بهم الَّذين اصطفاهم واختارهم من بين النّاس، وهم المؤمنون الَّذين عرفوا اللّه حقَّ معرفته، فعبدوهُ في ولاءٍ وخشوعٍ[2].

القربُ في مدلولِ (عند رَبِّكَ) قربُ مكانةٍ لا قربُ مكانٍ

دلالةُ الظَّرفيَّةِ في قولِهِ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ معنى (عند) هنا: دنوُّ الزُّلفة، والقربُ من رحمةِ اللّهِ تعالى وفضلِه، لتوفُّرِهم على طاعتِه وابتغاء مرضاتِه[3]، ولعلَّ المجازَ في العنديَّة يتَّسع ليشملَ خلْقًا آخر، بعضَهم من البشرِ قد سمَوا وعلَوا وارتقَوا، كالأنبياءِ والشُّهداء، حتَّى وردَ الخبرُ عن رسولِ اللّهِ ﷺ أنَّه قال: «أبيت عند ربّي يطعمُني ويسقيني»[4]، و(عند) مُسْتَعْمَلٌ مَجازًا في رِفْعَةِ المِقْدارِ، والحُظْوَةِ الإلَهيَّةِ، فإذا فهِمْتَ السَّعادَةَ الحاصِلَةَ لِلْمَلائِكَةِ بكَوْنِهم عند اللّه؛ فهِمْتَ السَّعادَةَ الحاصِلَةَ لِلشُّهَداءِ بكَوْنِهم عند اللّه، وهذه كَلِماتٌ تَفْتَحُ على العَقْلِ أبْوابَ مَعارِف الآخِرَةِ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 243/9.

(2) قال عبد الكريم الخطيب معلّقًا على هذا الرّأي الوجيه، ولكنَّه خلاف المشهور: "وهذا المعنى الذي ذهبنا إليه - مخالفين فى ذلك ما أجمع عليه المفسّرون - هو المناسب لسياقِ النَّظم القرآنيِّ، حيثُ كانت الآية السّابقة على هذه الآية دعوة إلى ذكر الله، على تلك الصّورة التي تؤهّل الذّاكر؛ لأن يكونَ من أهلِ الله، ومن عباده المكرمين.. فهذا الذِّكرُ هو الذي يقرّب الإنسانَ من ربِّه، ويرفعه إلى هذا المقامِ الكريم، وإنَّه لن يرتفع إلى هذا المقام الا من ذكرِ اللهِ هذا الذِّكر، فلا يستكبر عن عبادة اللهِ، ولا يولِّي وجهه إلى غيره، في تسبيح أو سجود". ينظر: عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 556/5.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 193/2، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 730/6.

(4) أخرجه البخاريّ ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ينظر: ابن الأثير، جامع الأصول، برقم: (4563).

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 428/9.

فائدةُ إضافةِ الظَّرفِ إلى الرَّبِّ وتخصيصه:

إضافةُ الظَّـرفِ إلى الرَّبِّ تعظيمٌ وسموٌّ، وإضافةُ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ تشريفٌ

وإضافةُ العنديَّةِ إلى الرَّبِّ توحي بعظيم المنزلة، وسموِّ الرُّتبة، وعلوِّ المكانة، وارتفاع الدَّرجة، وإضافةُ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطب فيه تشريفٌ له ﷺ، على رأي من يقول: إنَّ الخطابَ له؛ لبيانِ مكانتهِ وإمامته، وفيهِ تهييجٌ للمؤمنين على المسارعةِ في العبادةِ، وإلهابٌ لمشاعرِهم نحو التَّرقّي في مصافِّ الَّذين عند ربِّك أيُّها المخاطبُ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ دونَ مرادفاتِه:

الاستكبارُ من أقبحِ الخصالِ الَّتي تُصيبُ صاحبَها في مقتلٍ

أُرِيدَ به التَّعْرِيضُ بالْمُشْرِكِينَ، وأنَّهُم على النَّقِيضِ مِن أَحْوالِ المَلائِكَةِ المُقَرَّبِينَ، فخَلِيقٌ بهم أنْ يَكونوا بُعَداءَ عَنْ مَنازِلِ الرِّفْعَةِ[1]، وفيهِ "إشارةٌ إلى أنَّ هذهِ المنزلةَ التّي الَّتي لهم عند اللّهِ، لم تدخلْ عليهم بشىء بشيءٍ من الكبر والإدلالِ على اللّهِ، حيثُ لا متطلَّع لهم إلى منزلة غير تلك المنزلةِ، بل إنَّ ذلك كان داعيةً لهم إلى دوام العبادة، ومواصلةِ التَّسبيح، حمدًا للّه على ما هم فيه، وشكرًا له على ما أنعمَ بِهِ عليهم، واستدامةً لتلك النِّعمةِ"[2].

نكتةُ استعمالِ صيغةِ الاستفعالِ (الاستكبارِ):

الملائكةُ الأعلونَ لا يستكبرونَ، ومن دونهم أولى بذلك وأجدر

والاسْتِكْبارُ: الامْتِناعُ عَنْ قَبولِ الحَقِّ مُعانِدةً وتَكَبُّرًا[3]، وصيغةُ الاستفعالِ هنا تدلُّ على أنَّ المستكبرَ يطلبُ ما ليس له، وفي الحديثِ القدسيِّ: يَقولُ اللّهُ ﷻ: «الكِبْرِياءُ رِدائي، والعَظَمَةُ إزاري، فمَنْ نازَعَني شَيْئًا منهما أَلْقَيْتُه في جَهَنَّمَ»[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

التَّنويهُ بتواضعِ الملائكةِ، فيه تعريضٌ باستكبارِ المشركينَ

تدلُّ صيغةُ المضارعِ المنفي في قولِه: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ على استمرارِ النَّفي، وتجدُّده، وقوله: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، "ليس المقصودُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 9/243، 244.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/555.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2620).

به التَّنويهَ بشأن الملائكةِ؛ لأنَّ التَّنويهَ بهم يكون بأفضل من ذلك، وإنَّما أُريدَ بهِ التَّعريضُ بالمشركين، وأنَّهم على النَّقيضِ من أحوالِ الملائكةِ المقرَّبينَ، فخليقٌ بهم أن يكونوا بعداءَ عن منازلِ الرِّفعة"[1]، وهي المنازلُ الَّتي نالها الملائكةُ بعدمِ الاستكبارِ.

إيثارُ نفي الفعلِ بـ(لا) دونَ غيرِها:

الإشارةُ إلى أنَّها أدلُّ على دوامِ النَّفي وطولِه

النَّفي بـ(لا) يناسبُ الغرضَ المسوقَ له النَّفي، وهو التَّعْريضُ بالمشركين؛ إذْ إنَّ المرادَ هو وصف حالي، لا يمنعُ من استمرارهِ في المستقبلِ، بل إنَّ المدَّ الذي في جِرْمِ (لا) ليشيرَ إلى أنَّها أدلُّ على دوامِ النَّفي وطولِه.

فائدةُ قولِه: ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ هلاكَ المشركينَ في عزوفِهم عن عبادةِ ربِّ العالمينَ

لَمّا كانَ المقصودُ من جملة ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ التَّعريضَ بالمشركين كما أسلفنا، وليس وصفَ الملائكةِ بعدمِ الكبرِ فحسب - وإن صحَّ الإخبارُ به عنهم - ، كان قوله: ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ إيماءً إلى فعل هؤلاء المشركينَ من عبادةِ الأصنامِ والعزوف عن عبادةِ ربِّهم جلَّ وعلا.

دلالةُ المجاوزةِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَنۡ﴾:

الملائكةُ لم يجاوزوا عبادةَ اللهِ، ولم يفتروا عن التَّذلُّلِ له

حرف (عن) يفيدُ المجاوزةَ، ونفيُ الفعل قبلَهُ يشيرُ إلى أنَّهم لم يجاوزوا عبادةَ اللّهِ، ولم يفتروا عن التَّذلُّلِ له سبحانهُ طرفةَ عينٍ، ولم يتعدَّ الفعلُ ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ في القرآنِ الكريم إلّا بـ(عن)، وجاءَ في موضعين في سياقِ الملائكةِ هنا، وفي قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩﴾ [الأنبياء: 19]، وجاء الفعلُ ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ مُثْبتًا في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]، كما وردَ الفعلُ (يتكبَّرون) متعدّيًا بـ(في) في موضعٍ واحدٍ، وهو قوله: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/244.

﴿ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: 146]. وتعدَّى الفعلُ (استكبروا) بـ(في) في قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: "عن عبادةِ اللّه، فقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارةٌ إلى قلَّةِ عقلِهم في اسْتكبارِهم؛ لأنَّ من في الأرض أضعفُ أقسامِ المكلَّفين، ومن في السَّماءِ أقواهم، ثمَّ إنَّ (مَن في السَّماء) لا يستكبرونَ على اللّهِ بالعبادةِ، فكيف (مَن في الأرض)"؟[1]، ولم يتعدَّ الفعلُ (استكبر) بـ(على) في القرآنِ الكريم، وإن جازَ لغةً.

إيثارُ لفظِ (عبادة) دونَ غيرِه كالذِّكرِ في قوله: ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾:

عبادةُ اللهِ سموٌّ روحيٌّ عظيمٌ، يعلو بصاحبِه مكانًا عليًّا

وأوثرَ لفظُ (العبادة) لشمولِه نواحيَ الحياةِ كلها، وأنواع الطّاعاتِ الكثيرةِ المتعدِّدةِ، ويدخل فيها الذِّكْر وأنواعه دخولًا أوَّليًّا، على اعتبارِ أنَّ العبادةَ تشملُ مسالكَ القربِ من اللّهِ، وطرائق التَّزلُّف إليه، رجاءَ عفوِه ورحمتِه، والملائكة يفعلون ذلك شكرًا للّهِ، دونَ انتظارِ مقابلٍ ينتفعونَ بهِ، وفي عبادةِ الملائكةِ نموذجٌ يتجلَّى للبشرِ، كي يضاهوهُ في إدراك بعضهِ؛ إذ (مالا يُدرَك كلُّه، لا يُترَك جلُّه، بلَه أقلَّه).

فائدةُ إضافةِ العبادةِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالةِ:

عبوديَّةُ التَّملُّك قد تكونُ للبشرِ، والعبادةُ لا تكونُ إلّا لخالقِ البشرِ

قولُه: ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾، لَمّا كانتِ العبادةُ لا تنبغي إلّا للّهِ أضيفت إليه تعالى، وجيءَ بالضَّمير؛ لأنَّ العهدَ باسمِ الرَّبِّ قريب، ولدفعِ إيهامِ عنديَّةِ المكانِ، وتصوُّرِ الحضور، فهم مشغولونَ بما أمروا به، لا يلتفتون إلى غيرِه، قالَ تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التَّحريم: 6].

---

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 355/15.

دلالةُ عطفِ جملة: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ على ما قبلَها:

التَّسبيحُ تنزيهٌ للخالقِ، وتأكيدٌ لقيّوميَّتِه في ملكوتِه

حَسُنَ عطفُ جملةِ: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ على ما قبلَها؛ لأنَّ نفيَ الاستكبارِ يفهمُ منه التَّذلُّل والخضوع وتأدية العبادة على أحسنِ وجهٍ، فكأنَّهُ عطفُ الخاصِّ على العامِّ، ومعناها: "ينزِّهونَهُ عن كلِّ ما لا يليقُ بعظمتِهِ وكبريائِه، وجلالِهِ وجمالِه، من اتِّخاذ النِّدِّ والشَّريك والظَّهيرِ والمساعدِ على الخلقِ والتَّدبير"(1).

العدولُ عن التَّنزيهِ إلى التَّسبيحِ في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾:

التَّسبيحُ ثناءُ اللهِ على نفسِهِ بنفسِه، وهو من خصائصِه، فلا يقالُ لغيرِه

التَّسبيحُ: هو التَّنْزِيهُ للّهِ تَعالَى عَمّا لا يَجوزُ عليه مِن الصِّفاتِ، فجَميعُ ما خَلَقَهُ اللّه مُنَزَّهٌ لَهُ مِن جِهَةِ الدَّلالَةِ عليه، والعُقَلاءُ المُطيعونَ يُنَزِّهونَهُ مِن جِهَةِ الاعْتِقادِ والوَصْفِ لَهُ بما يَليقُ به وتَنْزيهِه عَمّا لا يَجوزُ عليه، وقَوْله تَعالَى: ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ يَعْني: صَلاةَ مَنْ يُصَلّي منهم، فاللّه يَعْلَمُها، وقالَ مُجاهِدٌ: "الصَّلاةُ لِلْإِنْسانِ، والتَّسْبيحُ لِكُلِّ شَيْءٍ"(2). والتَّسبيحُ: هو ثناءُ اللهِ على نفسه بنفسِه، فليسَ ثمَّةَ أحسنُ منهُ، وهو من خصائصِ اللهِ تعالى، فلا يقالُ لغيره، وأمّا التَّنزيهُ؛ فيقالُ لغيره، ممَّن قد يُتَّهم "والنَّزَه: ظَلَفُ النَّفس عَن المَدانس، يُقالُ: فلانٌ نَزِهُ النَّفسِ ونازِهُ النَّفسِ، والمصدر النَّزاهة"(3)، والتَّسبيحُ فيه معنى السِّباحة، فكأنَّ المسبِّح يَسْبَحُ في نهرِ العبوديَّةِ بيُسْرٍ، لا يعوقهُ أحدٌ، ولا يعترضُهُ شيءٌ، وهو بتسبيحِه هذا لا ينفعُ إلّا نفسَه، فاللّهُ مُسَبَّحٌ قبل أن يخلقَ من يُسَبِّحه﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [يس: 83].

إيثارُ ذكرِ التَّسبيحِ دونَ غيرِه كالتَّحميدِ والتَّكبيرِ مثلًا:

نلحظُ في اصطفاءِ لفظِ التَّسبيحِ في ختامِ السّورةِ تسريةً عن رسولِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/465.
(2) الجصّاص، أحكام القرآن: 3/424.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (نزه).

اللّه ﷺ إذ إنَّه قد أحزنهُ ما يقولونهُ على اللّهِ من افتراءٍ، وشرك، وما يتَّهمونه به ممّا سبق من الآياتِ، فكأنَّهُ يهدهدُهُ بهذا الختامِ الهادئ، فهو يطمئنُهُ، ويسكِّن روعَهُ، فلئن كفرَ هؤلاءِ باللّه، وكذَّبوك فثمَّةَ خلقٌ آخر ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

بيانُ تسبيحِ الملائكةِ تسريةً عن رسولِ اللهِ ﷺ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾:

الاستمرارُ والتَّجدُّدُ في التَّسبيحِ، فلا ملَ، ولا تعبَ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: 20]، وهذه مسألةٌ موغلةٌ في القدمِ، وهي سابقةٌ لخلقِ الإنسانِ، لوجودِ الملائكةِ قبلَهُ، وتأكيدُ ذلك بقولِه تعالى في القرآن: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30]، وقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: 28 - 29]، وسوف تبقى تسبيحاتُ الملائكةِ مستمرَّةً إلى نهايةِ الدُّنيا، وذلك أمرُ اللّهِ في الخلقِ والتَّقديرِ.

التَّسبيحُ باقٍ بلا انقطاعٍ إلى يومِ القيامةِ ممّا يشيرُ بهِ الفعلُ (وَيُسَبِّحونَهُ)

أثرُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ في المعنى:

عاطفةٌ جملةَ ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ على ما قبلَها، وتأخيرُها يوحي بعلوِّ رتبةِ السُّجودِ، لأنَّ السُّجودَ أرقى ألوانِ العبوديَّةِ، وسببٌ مكينٌ، لقربِ السّاجدِ من ربِّ العالمينَ، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ١٩﴾ [العلق: 19].

حالةُ السُّجودِ أشرفُ الأحوالِ، وأقربُها إلى اللهِ المتعالي

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَلَهُۥ﴾ على الفعلِ ﴿يَسۡجُدُونَ﴾:

ويختصّونه بالعبادةِ لا يشركونَ بهِ غيرهُ، وهو تعريضٌ بمن سواهم من المكلَّفين[1]، ولَهُ يَسْجُدونَ للدَّلالَةِ على الاخْتِصاصِ، أيْ: ولا يَسْجُدونَ لِغَيْرِه، وهذا أيْضًا تَعْريضٌ بالمُشْرِكينَ الَّذينَ يَسْجُدونَ لِغَيْرِه، والمُضارِعُ يُفيدُ الاسْتِمْرارَ أيْضًا[2].

الاختصاصُ، والتَّعريضُ بالمشركينَ، ممّا يبرزهُ بيانُ هذه الآيةِ

(1) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 730/6.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 244/9.

إيثارُ استعمالِ السُّجودِ دونَ غيرِهِ من ألوانِ العبادةِ:

رَدُّ العجزِ على الصَّدرِ، ليُعلنَ في نهايةِ السّورةِ فوزَ الملائكةِ السّاجدينَ

في ذكرِ فعلِ السُّجود ليكونَ خاتمةَ كلماتِ السّورةِ إشارةٌ لطيفةٌ إلى مطلعِ السّورة من قصَّةِ إبليسَ عندما أبى واستكبر، ولم يكن من السّاجدينَ، ففيه ردُّ العجزِ على الصَّدرِ؛ ليُعلن في نهايةِ السّورة فوزَ الملائكةِ السّاجدين، والعبّادِ الطائعين، وخسرانَ إبليسَ ومن معهُ أجمعينَ.

دلالةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾:

سجودُ الملائكةِ متناغمٌ مع تسبيحِ الكونِ كلِّه للهِ

يدلُّ المضارعُ على الاستمرارِ والتَّجدُّد، فهم مع إخلاصِهم العبادةَ، وإتقانِهم لها لا ينقطعون، ولا يفْتُرون، وقد وصفَ اللّهُ تعالى حالَهم من تواضعِهم وإدمانِهم للعبادةِ والتَّسبيح والسُّجود، وفي الحديث: «أطّت السَّماء، وحقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضعُ شبرٍ إلّا وفيه ملكٌ قائم أو راكعٌ أو ساجدٌ». ورأسُ الآيةِ موضعُ سجدةٍ[1].

علاقةُ ختامِ السّورةِ بأوّلِها في خطاب النَّبيِّ الأكرمِ وتوجيهِهِ وتثبيتِهِ:

خُتِمَتِ السّورةُ بما بُدِئَت بهِ، بأنَّ مهمَّةَ الرَّسولِ التَّبليغُ والاتِّباعُ

بهذهِ الآياتِ تختمُ سورةُ الأعرافِ، كما بدأت، فتلتقي بالنَّبيِّ الكريم لقاءً مباشرًا، بعد أن كان مفتتحُها ذلك الخطابَ الموجَّهَ إلى النَّبيِّ بأن يلقى قومَهُ، ويواجههم بآياتِ ربِّه، وبالكتابِ الَّذي نزَّلَهُ عليه، وإن كان في ذلك القطيعةُ بينه وبين أهلِه؛ إذْ لا مهادنةَ في الحقِّ، ولا حسابَ لصلاتِ القرابةِ والصَّداقةِ فيه... ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هكذا بدأتِ السّورةُ، وبهذا تختتم[2].

وتختمُ سورةُ الأعرافِ بذكرِ قضيَّةٍ كُبرى ينبغي أن يعرفَها النّاس، وهي أنَّ الوحيَ يتنزَّلُ بأمر ربِّك، وأنَّ مهمَّةَ الرَّسولِ ﷺ التَّبليغُ واتِّباع الوحي بما فيه من حجج وهدى ورحمة، وأنَّ الواجبَ مع القرآنِ الكريم الاستماعُ والإنصاتُ؛ حتَّى يؤخذَ بهمَّةٍ، وينالَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/495.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/544.

المتلقّي رحمةَ اللّه، وأن يتحصَّنَ الإنسانُ بذكرِ ربِّه، وألّا يقعَ في دائرةِ الغفلةِ، وأنَّ ما يؤدّيه المرءُ من وجوهِ العبادات، فإنَّما هو لخيرِه وسعادتِه، فالنّاسُ في أشدِّ الحاجةِ إلى عبادتهم للّهِ سبحانه، وهو الغنيُّ عنهم[1]، وهذا التَّوجيهُ يذكِّرنا بما وردَ في مطلع السّورة، فهو يشي بثقلِ عبْءِ التكليف بدعوة النّاس، وبضرورةِ الصَّبرِ، وضرورةِ شقِّ الطريق وفق النهج السليم.

لطيفةُ كونِ آخرِ الأعرافِ أوَّلَ سجدةٍ من سجداتِ القرآنِ:

وسيلةُ الوصولِ إلى منزلةِ (الّذينَ عـنـدَ رَبِّـــكَ)، الـسُّـجـودُ للـهِ المعبودُ

هذه أوَّلُ سجدةٍ في القرآنِ ممّا يشرعُ لتاليها ومستمعِها السُّجودُ بالإجماع[2]، وكانت آخرُ الأعرافِ هي أوَّل سجدةِ تلاوةٍ من سجداتِ القرآنِ بترتيبِ المصحفِ الشريفِ للإشارةِ إلى أنَّ الوصولَ إلى منزلةِ ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ هو السُّجودُ للّهِ تعالى، وصحَّ من حديث أبي هريرةَ مرفوعًا بلفظ: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه، وهو ساجدٌ، فأكثروا الدُّعاءَ»[3]، ولذلك كانت آخرُ سجدةٍ قولَهُ تعالى لخاتم النَّبيّين ﷺ: ﴿لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ١٩﴾ [العلق: 19].

وجهُ مجيءِ آيةِ السُّجودِ خبرًا:

يـريـدُ الـلـهُ أن يسجدَ الـنّـاسُ لـه بـحـبٍّ وألّا يُـسـاقـوا لـه بالسَّوطِ

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾، ليس في الآيةِ أمرٌ بالسُّجودِ، بل إنَّ مُقتَضى السَّجْدَةِ هُنا أنَّ الآيَةَ جاءَتْ لِلْحَضِّ على التَّخَلُّقِ بأخْلاقِ المَلائِكَةِ في الذِّكرِ، فلَمّا أخْبَرَتْ عَنْ حالَةٍ مِن أحْوالِهم في تَعْظيم اللّه، وهو السُّجودُ للّهِ، أرادَ الرّسولُ ﷺ أنْ يُبادرَ بالتَّشَبُّهِ بهم تَحْقيقًا للمقصدِ الَّذي سبق هذا الخبر لأجْلِه[4]، وما أجملَ أن يسجدَ العبدُ لربِّه طائعًا مُتَضرِّعًا مُحِبًّا، فيقتربَ من الجمالِ والجلالِ والكمال!

(1) محمد رأفت سعيد، تاريخ نزول القرآن، ص: 290.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 249/5.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (482).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 244/9.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستكبارُ والتَّكبُّرُ:

الاستكبارُ ادِّعاءُ الكِبرِ من غيرِ استحقاقٍ، والتَّكبُّرُ إظهارُ الكبرِ باستحقاقٍ

الاستكبارُ: طلبُ الكبرِ من غيرِ استحقاقٍ، والتَّكبُّر: قد يكون باستحقاقٍ؛ ولذلك جازَ في صفة اللّهِ تعالى: المتكبِّر، ولا يجوزُ: المستكبر[1]، وفرقُ التَّكبُّرِ عن الكبر هو: أنَّ الكِبْرَ مجرَّدُ تعاليه على غيرهِ في نفسِه، أمّا التَّكبُّر؛ فهو: إظهارُ الكِبْرِ وإبرازه[2].

التَّسبيحُ والتَّنزيهُ:

التَّسبيحُ خاصٌّ باللّهِ تعالى، والتَّنزيهُ تبعيدٌ، ويطلقُ على المخلوقِ

التَّسبيحُ خاصٌّ باللّه تعالى، وفيه معنى التَّعجب؛ ولذلك ورد أنَّه ﷺ كان يقول: سبحانَ اللّهِ عند التَّعجُّب[3]، ووجهُ إطلاق هذهِ الكلمةِ عند التَّعجُّبِ هو أنَّ الإنسانَ عند مشاهدةِ الأمرِ العجيبِ الخارج عن حدِّ أمثالهِ يستبعدُ وقوعَهُ، وتنفعلُ نفسُهُ منه، كأنَّه استقصرَ قدرة اللّه؛ فلذلكَ خطرَ على قلبه أن يقولَ قدرَ عليهِ وأوجدَهُ، ثمَّ تدارك أنَّه في هذا الزَّعمِ مخطئٌ، فقال: سبحانَ اللّه تنزيهًا للّه تعالى عن العجزِ عن خلقِ أمرٍ عجيبٍ، يستبعدُ وقوعَهُ لتيقُّنِه بأنَّهُ تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ[4]، والتَّنزيهُ تبعيدٌ، يدُلُّ على بُعْدٍ في مَكانٍ وغَيْرِه، ويطلق على المخلوقِ، يقالُ: رَجُلٌ نَزيهُ الخُلقِ: بَعيدٌ عَنِ المَطامِعِ الدَّنيَّةِ[5].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 49.

(2) محمّد نصر، فصل الخطاب في الزّهد والرّقائق والآداب: 441/6.

(3) كما في حديث أبي هريرة ﷺ، أنّ النبيّ ﷺ لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب، فانخنس منه، فذهب فاغتسل، ثمّ جاء، فقال: «أين كنت يا أبا هريرة؟»، قال: كنت جنبًا، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة، فقال: «سبحان الله، إنّ المسلم لا ينجس». أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (279).

(4) حقّي، روح البيان: 64/4.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزه).

سُورَةُ الأَنفَالِ

سُورَةُ الأَنفَالِ

تعريف عام بسورة الأنفال:

سورةُ الأنفالِ مدنيّةٌ، وقد حكى الإجماعَ على مَدَنيَّتِها غيرُ واحدٍ[1]، وابتُدِئَ نزولُها في مكانِ بَدرٍ، عَقِبَ الواقِعةِ، وقبلَ الانصرافِ منها، وهي مَعدودةٌ فيما نزَلَ أوَّلُه في أسفاره ﷺ، فقد نزلَت والنّبيُّ ﷺ في بدرٍ خارجَ المدينة، وهذا ممّا يُدرَجُ في عِدادِ المدنيّ، ويُلحَقُ به.

وهي خمسٌ وسبعون آيةً في الكوفيّ، وستٌّ وسبعون آيةً لدى المَدَنيّين والمكّيّ والبصريّ، وسبعٌ وسبعونَ آيةً في العدّ الشّاميّ[2].

ترتيبُها في المصحف وفي النّزول:

كَوْنُها بين البقرة وآل عمران تشريفٌ

ترتيبُ سورةِ الأنفالِ في المصحفِ بينَ سورةِ الأعرافِ وسورةِ التّوبةِ، وهي السّورةُ السّابعةُ في ترتيبِ المصحفِ[3]، وترتيبُها في النّزولِ بينَ سورةِ البقرةِ، وسورةِ آلِ عِمرانَ[4].

تسميةُ السّورة:

الأنفالُ: اسمٌ لم يُدرَسَّ على الوضعِ، بل على التّوقيفِ

الأنفالُ هو اسمُ السّورةِ المشهورُ التّوقيفيُّ الّذي أجمعَ على ذكره كلُّ مَن تحدّثَ عنِ السّورةِ، وكتبَ عنها وعن ملابسات نزولِها وآياتِها، وهو المكتوبُ في المصاحف الّتي أُرسِلَت إلى الأمصار، وهو المذكورُ في رواية الواحديّ في أسباب النّزول: عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: لمّا كان يومُ بَدرٍ، قُتِلَ أخي عُمَير، وقتلتُ سعيدَ بن العاص، فأخذتُ سيفَه، وكانَ يُسَمَّى ذا الكَيفَةِ، فأتيتُ النّبيَّ ﷺ فقال: «اذهبْ فاطرحْه في القبض»، فرَجَعتُ، وبي ما لا يعلمه إلّا

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/8، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 222/1، وابن حجر، فتح الباري: 657/8، والآلوسيّ، روح المعاني: 157/9، ورشيد رضا، المنار: 536/9.

(2) أبو عمرو الدّاني، البيان في عدّ الآي، ص: 158، وابن الجوزيّ، فنون الأفنان، ص: 284.

(3) البيهقيّ، دلائل النّبوّة: 152/7، والسّيوطيّ، أسرار ترتيب القرآن، ص: 88.

(4) الزّركشيّ، البرهان: 194/1، والسّيوطيّ، الإتقان: 43/1، ودروزة، التّفسير الحديث: 16/1.

اللّه مِن قَتلِ أخي، وأخذِ سَلَبي، فما جاوزتُ إلّا قريبًا حتّى نزلَت سورةُ الأنفال(1).

فقولُه: (حتّى نزلَت سورةُ الأنفالِ) نصٌّ في ثبوتِ هذا الاسمِ لها منذ نزلَتْ، فهو اسمٌ توقيفيٌّ.

وجاء ذكرُ اسمِ الأنفال في صحيح البخاريّ: عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: سورة الأنفال، قال: نزلَت في بدرٍ(2).

المُستفادُ مِن تَسْمِيَتِها سورَة (بدر) وسورة (الجهاد)

سورة (بَدر)، وقد ثبَتَ هذا الاسمُ لسورة الأنفال عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، ففي الصّحيحينِ عن سعيد بن جبير، قال: «قُلتُ لابنِ عبّاس: سورةُ الأنفال؟ قال: تلك سورةُ بدر»(3).

وتسمّى سورة (الجِهاد): وهو اسمٌ اجتهاديٌّ لِذكرِ أحكامِ القتالِ والغنائم فيها، ولكونِ السّورة نزلَت في غزوةٍ وجهادٍ(4).

التعريف بمعنى كلمة الأنفال

والأنفالُ لُغَةً: جمع (نَفَل) بفتح النّون والفاء، وأصلُ مادّة (نفل) العطاءُ والإعطاءُ.

جاء في معجم العين: "النَّفَل: الغُنمُ، والجميع الأنفال، ونَفَّلتُ فلانًا أعطيته نفلًا وغُنمًا، والإمام يُنَفِّلُ الجُندَ: إذا جعل لهم ما غنموا. والنّافلة: العطيّة يُعطيها تطوُّعًا بعدَ الفريضةِ من صدقةٍ أو صلاحٍ أو عملِ خيرٍ"(5).

وقال الزَّبيديّ: "ونفله النَّفَل ونفّله تنفيلًا وأنفله إنفالًا: أعطاه إيّاه؛ أي: النَّفَل... ونَفَل نَفلًا: أعطى نافِلةً مِنَ المعروف، ونفَل الإمامُ الجندَ: جعلَ لهم ما غنموا.. والنّافلة: العطيّةُ عن يدٍ.

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: (1555): 222/1، وابن جرير في تفسيره: 173/6، ويُنظر: الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 231.
(2) متّفقٌ عليه، أخرجه البخاريّ، كتاب التّفسير، باب سورة الحشر، رقم: (4882): 364/6، ومسلم، كتاب التّفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، رقم: (3031): 2322/4.
(3) متّفقٌ عليه، أخرجه البخاريّ، كتاب التّفسير، باب سورة الحشر، رقم: (4882): 364/6، ومسلم، كتاب التّفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، رقم: (3031): 2322/4.
(4) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 144/2، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 214/8.
(5) الخليل، العين: (نفل).

قال لبيد: للّهِ نافِلَةُ الأجَلِّ الأفضَلِ.

ورجلٌ كثيرُ النّوافل؛ أي: العطايا والفواضل، وكلُّ عطيّةٍ تبرَّع بها مُعطيها من صدقةٍ أو عملِ خيرٍ فهي نافلةٌ"(1).

من هذا البيان لأصل مادّةِ (نفل) تتّضحُ دلالتُها على العطاء والإعطاء، والزّيادة في التّبرع والمنح.

مناسبة التسمية بالأنفال:

وحين ينظرُ القارئُ المتدبِّرُ في سورة الأنفال، يَجِدُ أنّها مُفعمةٌ وحافلةٌ بأنواع العطايا الرّبّانيّةِ لأهل الإيمان، وفي مقدِّمَتِهم الرّسولُ المُجتبَى ﷺ:

سورةُ الأنفال تَنَزّلَتْ بسُبُلِ هِدايةِ المؤمنين

أوّلًا: من ذلك هدايةُ المؤمنين إلى الإيمانِ، ونَبذُ كُلِّ مظاهرِ الشِّركِ في حياتهم، وزيادةُ إيمانهم كلّما تُليَت عليهم آياتٌ من آياتِ ربِّهم، هذا عطاءٌ ربّانيٌّ عظيمٌ لا يَشعرُ به إلّا مَن ذاقَ ظُلُماتِ الجهلِ في أثناء عبوديّته للأصنام والتّخبّط في حمآت الشّركِ والضّلالِ النّتنةِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: 2].

الوَعْد من الرَّزّاق بخَيْرَي الدّنيا والآخرة

ثانيًا: هؤلاء المؤمنون الّذين ذاقوا حلاوةَ الإيمان، واتّصفوا بوَجَل القلوبِ وخشيتِها منَ اللّه الجليل، وترقَّوا في مدارج الصِّفاتِ الإيمانيّةِ القلبيّةِ، وترجموا إيمانَهم في إقامة الصّلواتِ، وأنواع الإنفاقِ، وغيرها من أعمالِ البرِّ والإحسانِ، هؤلاء المؤمنون موعودون من ربّهم بأعلى الدّرجاتِ والمغفرةِ والرّزقِ الكريم، ولا يخفى ما في هذا الثّوابِ العظيم المذكورِ لهم من عظيم العطاءِ وسخيِّ الإنعام تكريمًا وإحسانًا، وهذا العطاءُ الرّبّانيُّ الكبيرُ يناسبُه عنوانُ الأنفال، فهو تكريمٌ وعطاءٌ وزيادةٌ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (نفل).

ﵟٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ﵞ

[الأنفال: 4].

إعـادةُ كَـلِـمَـةِ الـحَـقِّ ونَـشْـرُ دَعْوةِ الإسلامِ

ثالثًا: كان المسلمون الأوائل الّذين خرجوا مع رسول اللّه ﷺ يريدون الطّائفةَ المحمَّلةَ بالتِّجارة والأموال، نظرًا لِلظُّلم الّذي عانوه مِن قريشٍ حين أُخرِجوا من ديارِهم وأولادِهم وأموالِهم، وذلك مَبلَغُ عِلمِهم البشريِّ، وكانوا قد وُعِدوا بالنّصر عليهم، والظَّفَرِ بهم إذا التَقَوا بهم وواجهوهم، فكانت نفوسُهم توّاقةً إلى أخذِ شيءٍ من ثأرهم، واسترجاعِ شيءٍ من أموالهم وتجارتهم تكون عِوضًا لهم عمّا فقدوه وسُلِبوه في مكّةَ المكرّمةِ، ولكنّ اللّه العليمَ الحكيمَ أرادَ لهم شيئًا أكبر من هذا، أرادَ لهم سبحانه أن يلتقوا بالطّائفة ذاتِ الشّوكة فيكسروا شوكتَها بإذن اللّه تعالى، أرادَ لهم النّصرَ المبينَ المؤزّرَ على أعتى قوّةٍ عسكريّةٍ كانت تتزعّمُ أحزابَ الشِّركِ في تلك الفترة الجاهليّة، أرادَ لهم سبحانه أن تكونَ لهم دولةٌ قويّةٌ لها شأنُها ومَهابَتُها، قائمةٌ على التّوحيدِ وإخلاصِ العبادة للّه تعالى وتحكيمِ شرعِه في الأرض.

أراد جلَّ شأنُه أن يكونَ لهم اسمٌ تحت الشّمسِ؛ ليهابَهُم ويحسبَ حسابَهُم أهلُ الشّركِ والضّلالِ في كلّ مكانٍ في ذلك الزّمن، ويُحقَّ من خلالهم الحقَّ ويُبطلَ الباطلَ، ويعلمَ العالَمون أنّه ثمَّة إلهًا عظيمًا وربًّا مُهيمنًا هو الّذي يديرُ الكونَ كلَّه، ولا بدّ أن تعودَ إليه النّفوسُ، وتعنوَ إليه الوجوهُ، وتخشعَ في محراب عبادته القلوبُ، ولا ريب أنّ هذا العطاءَ الرّبّانيَّ الّذي حقّقَه اللّهُ سبحانه للمؤمنين من خلال نصرهم في غزوة بدرٍ، هو أكبرُ بكثير ممّا كان الصّحابةُ الكرامُ يفكّرون فيه من عير قريش وتجارتها، وأين هذا العَرَضُ القريبُ من ذاك العطاءِ الرّبّانيِّ السّاميِّ الّذي به أصبحَت للمسلمين دولةٌ عظيمةٌ في الأرض؟

من هنا نقرّرُ: إنّ تسميةَ هذه السّورة بـ(الأنفال) هو أدقُّ اسمٍ مُعبِّرٍ عن هذا النَّفَلِ العظيمِ والعطاءِ الرّبّانيِّ الجزيلِ.

نَجْدَةُ اللهِ تعالى للمؤمنين المُسْتغيثين به

رابعًا: ثُمَّ توالَت أنواعُ الأنفالِ الّتي مَنَّ اللهُ الكريمُ المنعمُ الوهّابُ بها على فريق المؤمنين، وهم في بدء المعركةِ وفي أثنائها، فاستجابةُ ربّهم لهم وهم يستغيثون نَفَلٌ عظيمٌ، وإمدادُهم بفريقٍ منَ الملائكة الّذين أُنزلوا مُردفين لتقوية صفوفهم نَفَلٌ عظيمٌ، وطَمأنَةُ قلوبهم وهُم في قلب المعركةِ، وقد حَميَ وطيسُها نَفَلٌ عظيمٌ، خصّهم اللّهُ الجليلُ به، وتَغشيتُهم بنُعاسٍ في تلك اللّحظات الّتي تطيرُ فيها القلوبُ وتفزعُ فيها النُّفوسُ نَفَلٌ عظيمٌ، وإنزالُ ماءِ السّماءِ عليهم وتطهيرُ قلوبهم من رجزِ الشّيطانِ ووسوسته، والرّبطُ على قلوبهم، وتثبيتُ أقدامِهم في ساحة الوغى نَفَلٌ عظيمٌ، وأمرُ اللّه الجليل ملائكتَهُ بتثبيت قلوبِ أهلِ الإيمان، وإلقاؤه سبحانه الرُّعبَ في قلوبِ الّذين كفروا هو لا ريبَ مِن أعظم أسلحةِ النّصرِ الّتي منَّ بها سبحانه على النّبيّ ﷺ وفريقِ المؤمنين معه.

كلُّ هذه العطايا الّتي سخّرها اللّهُ تعالى لنصرة أهلِ الإيمانِ هي منَ الأنفال العظيمةِ والمنح الجليلةِ والعطاءات الكبيرةِ الّتي ما كانت لتَتَحقَّقَ لولا إرادةُ الجليل وحكمتُه وتدبيرُه. ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: 9] إلى قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١﴾ [الأنفال: 11].

تَوْجيهاتٌ حَرْبيّة مِن رَبّ البَرِيّة

خامسًا: من ناحية أخرى، النّصائح الإيمانيّة والتّوجيهات الحربيّة العسكريّة الدّقيقة، مثل: قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: 12]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال: 15 - 16].

هذه النّصائحُ والتّوجيهاتُ الرّبّانيّةُ من أعظم الأنفالِ الّتي جناها المسلمون، وتعلّموها من غزوة بدر الكبرى، وتمسّكوا بها في معاركَ كثيرةٍ بعدها، وكان النَّصرُ حليفَهم عندما أخلصوا للّه سبحانه، وأحسنوا التّخطيطَ والتّدبيرَ والاستعدادَ والأخذَ بالأسباب.

ظُهورُ الكافِرينَ عَلى حَقيقَتِهم مِنَ الضّعْفِ والخَوَر

سادسًا: توهينُ كيدِ الكافرين، وقطعُ شوكتهم، وتعريفُ المؤمنين بحقيقة الكافرين، وبأنّهم شرُّ الدّوابّ، وبأنّهم لا يسمعون سماعَ تعقُّلٍ، ولا ينظرون في دلائل التّوحيد نَظَرَ تبَصُّرٍ، كُلُّ هذا التّبصيرِ الرّبّانيّ يزيدُ فريقَ المؤمنين إيمانًا مع إيمانهم، ويُبصّرُهم بحقيقة عدوِّهم، ويتعرّفون على مكامن الضّعفِ فيه، فتكون كلمةُ أهل الإيمان هي العليا في كلِّ لقاءٍ يجمعُ بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وهذه البصائرُ والبياناتُ الرّبّانيّةُ كلُّها عطاءاتٌ إلهيّةٌ، ما كان المؤمنون ليتعرّفوا عليها لولا غزوةُ بدر الكبرى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨﴾ [الأنفال: 18]، ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ [الأنفال: 19]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: 21]، ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: 22].

إيقاظُ الحَياةِ في قلوب المُسْتَجيبين، والظّفر بمعيّة الله تعالى

سابعًا: تبشيرُ المؤمنين بمعيّة اللّه الجليلِ، وأنّ اللّهَ مع المؤمنين، وتوصيتُهم بالاستجابة للّه ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 24]، ونُصحُهم بالإخلاص وعدمِ الخيانةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: 27]، كلُّ هذه البشرياتِ والتّوجيهاتِ الرّبّانيّةِ النّافعةِ منَ الأنفال العظيمةِ، الّتي نفّلَها اللّهُ العليمُ الحكيمُ المؤمنين من خلال سورة الأنفالِ الّتي أنزلها سبحانه، مُحَمّلةٌ بالدّروس حافلةٌ بالعِبَر، الّتي هي آثارٌ ونتائجُ مباركةٌ من نتائج غزوةِ بدرٍ في بناء الفكرِ السّديدِ المستقيم في العقول والأذهان، والإيمانِ الرّاسخِ القويّ في القلوب والوجدان.

الإيواءُ والنّصرة مِنَ الجليل لِعبادِهِ المؤمنين

ثامنًا: إيواءُ اللّه الجليلِ لأهل الإيمانِ، وتأييدُهم بالنّصر، وتقويةُ جانبِهم بعدما كانوا مستضعفين، ورزقُهم بأنواع الطّيّباتِ، كلُّ أولئك منَ الأنفال الرّبّانيّة والعطاءات العظيمة الّتي مَنَّ بها سبحانه عليهم، وسجّلَتها سورةُ الأنفال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: 26].

الوعْدُ بوافِر الجَزاءِ في العاجِلَةِ والآجلةِ

تاسعًا: خاطبَ اللّهُ سبحانه أهلَ الإيمان، ووَجّههم إلى الاستمساك بحبل اللّه القويِّ، ووعدَهم بعظيم الجزاء في الدُّنيا، وهو أن يجعلَ لهم فرقانًا ونورًا يستبينون به الحقَّ منَ الباطل، ووعدَهم بتكفير السّيِّئاتِ ومغفرة الذّنوبِ في يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال: 29]، أوليس هذا المَنُّ الإلهيُّ والعطاءُ الرّبّانيّ من أعظم الأنفال؟

ملامِحُ التّمْكين بهجْرَةِ خاتَم النّبيّين

عاشرًا: ذكرَ سبحانَه في سورة الأنفال مشهدًا من مشاهد الهجرةِ النّبويّةِ الّتي جعلها اللّهُ تعالى فاتحةَ عصرٍ جديدٍ للإسلام ودين القرآن، ونقطةَ انتقالٍ من حالة الاستضعافِ والقلّةِ والفقرِ إلى حالة القوّةِ والدّولةِ والتّمكين، حيث ذكّر سبحانه نبيَّه ﷺ بفضله عليه، ورعايته له، وحفظه، حين تكالبَت عليه قوى الشّرّ والشّرك: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]، ولا ريبَ أنّ التّمكينَ لنبيِّ الإسلام وحفظَه في هجرته وبناءَ دولةِ الإسلام في المدينة المنوّرة من أعظم العطاءاتِ الرّبّانيّة، وأفضل الأنفالِ الّتي كتبَها اللّهُ الجليلُ لأهل الإيمان، وسجّلَتها سورةُ الأنفال.

وُجودُ الرّسول المُجتبى بينهم، أمانٌ مِنَ العذابِ

الحادي عشر: إعلانُ اللّه الجليلِ الكريم في سمع الزّمان والمكان أنّه ما كان ليُعذّبَ المشركين في مكّةَ، ورسولُ اللّه بين أظهرهم، وهذا

من أعظم المِنَنِ الرّبّانيّة وأعظم العطاءاتِ الإلهيّةِ الّتي خصّ بها نبيَّه محمَّدًا ﷺ، وهو نَفَلٌ من أكرم الأنفال، لو أنَّ قريشًا خفَّفَتْ من غلواء كفرها، ونظرَتْ بعين العقلِ في دعوة الإسلام: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: 33].

دعــوة الـلـه الكافرين للإنابةِ إلـى سَبيل المؤمنينَ المُنجيَةِ

الثّاني عشر: دعوةُ الله تعالى المتجدّدةُ لأهل الكفرِ للانتهاء عنِ الكفر والشّرك، واعتناقِ عقيدةِ التّوحيد، وتحفيزهم بالمغفرة وإدخالِ الجنّاتِ منَ النَّفَل العظيم الّذي حفلَت به سورةُ الأنفال، وهي دعوةٌ مفتوحةٌ عابرةٌ للقارّات، نافذةٌ في الأزمان، تتحقّقُ نتائجُها كلّما ثابَ النَّاس إلى رشدهم، وآبوا إلى ربّهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال: 38]، فأبوابُ التّوبة والمغفرة مفتوحةٌ لجميع النّادمين الأوّابين المُنيبين.

تِبيانُ أحكامِ توزيعِ الغَنائم، بالعَدل والتّكافُل والمُساواةِ

الثّالث عشر: الغنائمُ الّتي أنعمَ اللّهُ الكريمُ الوهّابُ بها على فريق المؤمنين في غزوة بدرٍ منَ الأنفال المادّيّة الّتي أنعمَ اللّهُ الكريمُ على المؤمنين بها، وشكرُ اللّه عليها واجبٌ لزامٌ، فلولا تمكينُ اللّه وعَونُه ونَصرُهُ لهم ما ذاقوا لها طعمًا، والأفضلُ من نعمة الغنائمِ نعمةُ حُسنِ تقسيمها، والمجتمعُ المسلمُ قائمٌ على العدلِ والتّكافلِ والتّراحم والتّعاونِ، وعندما يسعدُ ذوو القربى واليتامى والمساكين وأبناءِ السّبيل فيه، فإنّ البهجةَ والسّعادةَ تعمُّ جميعَ أبناءِ المجتمع، وفي مقدّمتهم رسولُ الأمّةِ الرّؤوف الرّحيم: ﴿۞وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤١﴾ [الأنفال: 41].

قَدَرُ اللهِ بوُقوعِ الحَرْبِ حِكْمَةٌ، ونَصرُه أكبَرُ غَنيمَةٍ

الرّابع عشر: تقديرُ اللّهِ العليم منذُ الأزلِ وقوعُ هذه المعركة هو من أعظم الأنفالِ الّتي جناها المسلمون من خلالها، وقد ذكَرَ سبحانه أنّه أوقعها بتدبيره المباشر، ولو أنَّ المؤمنين تواعدوا مع المشركين

لاختلفوا في الميعاد، وتقليلُ المشركين في أعين المؤمنين، ورؤيا الرّسول ﷺ المُبشّرة له بكلّ خيرٍ الّتي استيقظَ بعدها مُستبشِراً بالنّصر المبين، وبيانُ اللّه في آيات السّورةِ أنّه هو الّذي أصاب مقاتلهم، وأنَّ الرّميَ رميُه والتّدبيرَ تدبيرُه، كلُّ أولئك مِن أعظم الأنفالِ والعطايا الّتي سَعِدَت بها السّورة: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 42]، ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [الأنفال: 43]، ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: 44].

وجملةُ القول: إنّ كلَّ ما سعِدَت به سورةُ الأنفال من بدايتها إلى ختامها من آياتٍ وموضوعاتٍ، هي في جملتها نِعَمٌ جسيمةٌ، وعطاءاتٌ ربّانيّةٌ عظيمةٌ متنوّعةٌ روحيّةٌ وعلميّةٌ ومادّيّةٌ ومجتمعيّةٌ، وما كان المؤمنون ليتعرّفوا عليها لولا غزوةُ بدرٍ الكبرى الّتي جعلها اللّهُ محطّةً زمنيّةً مهمّةً في تاريخ الرّسالة الإسلاميّة، ولو أنّنا تتبّعنا كلَّ آيةٍ من آيات هذه السّورةِ الجليلةِ لألفيناها تفيضُ بنوعٍ من أنواع العطايا الرّبّانيّة الكبيرة، البانيَةِ للرّوح الإيمانيّة، المثبّتةِ للإيمان، الغارسةِ للأخلاق، المعلّمةِ لشؤون الحرب، المؤرّخةِ للمعركة الفُرقانيّة، المسجّلةِ لأحداثها المتفرّدة.

ويجدُ القارئُ المتدبِّرُ أنَّ اسمَ الأنفال المُشتَقَّ منَ العطاء والإعطاء هو أدلُّ الأسماءِ على هذا الملمحِ العظيمِ من ملامح السّورة الّذي أبرزَته وجَلَّتهُ إلى الواقع، وأوضحَته في الأذهان غزوةُ بدر الكبرى وملابساتُها المتنوّعة الّتي هي المحورُ العامُّ لبناء السّورة.

محورُ السّورةِ وموضوعاتها:

من خلال دراسةٍ شاملةٍ مُستَقصيةٍ لأهمِّ الموضوعاتِ الّتي تناولتها سورةُ الأنفال، يتبيّنُ أنّ المِحوَرَ العامَّ للسّورة هو: الحديثُ عَن غزوة بدرٍ الكبرى، وأسبابِ النّصرِ فيها، وصفاتِ المؤمنين المنصورين، وتذكيرِ أهلِ الإيمانِ بنعم اللّه السّوابغ عليهم.

وهذا المحورُ المتعلِّقُ بأسباب النّصرِ في بدرٍ وملابساتِ المعركة، وبيانِ أنَّ النّصرَ الحقيقيَّ هو من عند اللّه العليِّ العظيمِ تقديرًا وتحقيقًا، يجدُ قارئُ سورة الأنفال أنّ

أحداثُ غَزْوةِ بَدْرٍ الكُبرى، وحَيْثيّاتُ النَّصْرِ والتّمكينِ

جميعَ الموضوعات الّتي تناولتها السّورةُ تدورُ حولَ هذا المِحورِ العامِّ، وتَلتَفُّ حولَه، ويَحسُنُ في هذه التّقدمةِ للسّورة أن نشيرَ إلى أبرز الموضوعاتِ بيانًا لالتفافها حولَ المحور، وتنبيهًا إليها؛ لأنَّ العِلمَ بالغرض يُساعدُ القارئَ المتدبّرَ على الوقوف على كثيرٍ منَ النّكات واللّطائفِ البيانيّةِ والاختياراتِ اللّغويّةِ الّتي جاء عليها النّظمُ الجليلُ في هذه السّورة.

الموضوع الأوّلُ: تحديدُ الأنفال وكيفيّةُ تقسيمها يعودُ شأنها إلى اللّه ورسوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال: 1].

الموضوع الثّاني: صفاتُ المؤمنين المؤهّلين لنصر اللّه الجليل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2] .... إلى قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: 4].

الموضوع الثّالث: وصفَ ظروفَ خروجِ المسلمين إلى المعركة بصحبة النّبيّ ﷺ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: 5] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: 8].

الموضوع الرّابع: وصفَ جملةً من عطاءات اللّهِ تعالى للمؤمنين في أثناء المعركة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: 9] إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤﴾ [الأنفال: 14].

الموضوع الخامس: توجيهاتٌ ربّانيّةٌ للمؤمنين المقاتلين، وبيانُ أنَّ النّصرَ نصرُ اللّه، والرّميَ رميُه، والتّدبيرَ تدبيرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ﴾ [الأنفال: 15] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٩﴾ [الأنفال: 19].

الموضوع السّادس: طاعةُ اللّه ورسوله، والاستجابةُ لهما، والأخذُ

بأسباب التّقوى عوامِلُ استحقاقِ النّصرِ وجسرٌ لبلوغه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 20] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال: 29].

الموضوع السّابع: تذكيرُ النّبيِّ ﷺ بنصره في الهجرةِ النّبويّةِ، وذِكرُ عنادِ قُرَيشٍ وشدّةِ كُفرِها واستحقاقِها لأَنْ تُجابَهَ بالقتال، وبعذابِ اللهِ المنتَقمِ الجبّارِ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 30] إلى قوله تعالى: ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال: 40].

الموضوع الثّامن: كيفيّةُ تقسيم الغنائم، وبيانُ تدبيرِ اللهِ العليم الحكيم في إدارة المعركةِ وفقَ علمه الأزليّ ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنفال: 41] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤﴾ [الأنفال: 44].

الموضوع التّاسع: توجيهاتٌ ربّانيّةٌ للأخذ بأسباب النّصر، ووصفٌ لانهزام الكافرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ﴾ [الأنفال: 45] إلى قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١﴾ [الأنفال: 51].

الموضوع العاشر: تذكيرُ الكافرين المكذّبين من قريشٍ بمَصيرِ المُكذّبين السّابقين، ووصفهم بأنّهم شرُّ الدّوابِّ لتعطيلهم وسائلَ التّعقّلِ والإدراكِ: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الأنفال: 52] إلى قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأنفال: 57].

الموضوع الحادي عشر: حِزمَةٌ ثانيةٌ منَ التّوجيهاتِ الرّبّانيّة مساعدةٌ لتحقيق النّصرِ في معارك العقيدةِ بشكلٍ عامٍّ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ﴾ [الأنفال: 58] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال: 66].

الموضوع الثّاني عشر: معالجةُ موضوعِ الأسرى، ودعوتُهم إلى الإيمان بالله ورسوله، وتشجيعُ أهل الإيمانِ قاطبةً على الهجرة والجهاد بالمال والنّفس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ [الأنفال: 67] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٧٥﴾ [الأنفال: 75].

من خلال هذا العرضِ الموجزِ لجميع آياتِ السّورةِ والموضوعاتِ الّتي تناولتها، يتَبَيَّنُ لقارئ الذِّكرِ المُتَدَبِّر كيف أنَّ جميعَ هذه الموضوعات جيءَ بها في مواضعها خادمةً للمحور العامِّ الّذي جاءَت سورةُ الأنفال تُعالجُه وتُثَبِّتُه في قلوب المؤمنين، الّذي مُفاده أنّ النَّصرَ في غزوة بدرٍ هو تقديرُ العزيزِ العليمِ وتدبيرُه، وبيانُ أهمِّ مقوّماتِ النّصرِ في معارك العقيدةِ بشكلٍ عامٍّ.

الفرائدُ اللّفظيّةُ في السّورة:

﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾ في قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: 7]، وهي لفظٌ مَسوقٌ من جِنسِ ما دارَت حولَه السّورةُ من موضوع الغزو والجهاد، فجاءَت كنايةً عن أدواتِ الحربِ منَ السّلاحِ والقوّةِ، وتصويرًا لمعاني الحِدّة والشِّدّة المادّيّةِ والمعنويّةِ، الّتي تستغرقُ حالَ القِتال، وتُشحَنُ بها نفوسُ المُقاتلين تشبيهًا بالشّوكَةِ الحادّةِ النّافِذة في هيئتِها وأثَرِها.

﴿زَحۡفٗا﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ [الأنفال 15]، وهذا اللّفظُ منَ المفردات الّتي تَسَمَّت بها المعاركُ وتخصّصَت بها، لِما في الزّحفِ من معنى المُضيّ الّذي يكون منَ المقاتِل نحو عدوّه، ولِما فيه من معنى البُطءِ الّذي يكون في الزّاحِف، فكذلك الغازيّ الحربيّ يكون مُترصِّدًا مُحترِسًا لِخطواتِه تجاه عدوِّه، فلا يندفعُ ولا يتهوّرُ، فيستبطِئَ ولا يتعجّل، وسُمّيَ الجيشُ الكثيفُ بالزّحفِ؛ لأنّ كثرتَه العدديّةَ تُبطِئُ حركةَ جنودِه، فكان هذا اللّفظُ الفريدُ في السّورة مُقترنًا بهيئةِ المُقاتِل حالَ قِتالِه، وهيئةِ الجيش حالَ تقدُّمه وإقبالِه[1].

﴿مُتَحَيِّزًا﴾ في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ﴾ [الأنفال 16]، فلفظُ التّحيّزِ هو من فرائدِ هذه السّورة، وهو يدلُّ على سلوكٍ مُتكرّرٍ في أفعال المُقاتلين، وهو انضمامُ المُقاتِل إلى حيّزِ الظّهيرِ والمَدَدِ في الجيش إذا أعوَزَه ذلك واضطرَّ إليه، وقد انسبكَ اللّفظُ في تركيب﴿مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾؛ ليدلَّ على أنّه يَفيءُ وينحازُ إلى الفِئة الّتي تُعضِّده وتُعينُه على عدوّه، وليس يَفيءُ فِرارًا أو جُبنًا[2].

﴿مُكَآءٗ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال 35]، والمُكاءُ لفظٌ على وِزانِ الأصواتِ كالبُكاءِ والنّواح، وهو الصّفيرُ بالفم، وفرادَةُ اللّفظِ مَنوطَةٌ بموضوعِ السّورةِ في الغزو والقِتال، حيثُ إنّ المُكاءَ والتّصدِيةَ (الصّفير والتّصفيق) كان السّببَ في نزعِ أيديهم عن ولايةِ البيتِ الحرام، وإيعادِهم بالعقوبةِ والنّكالِ، وهو من مُستَتبعاتِ قتالِهم في غزوةِ بدرٍ ومواجهتِهم بالشّدّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زحف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حوز)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيز).

والحزم، فكأنّه أتى بلفظِ المُكاءِ ليصِفَ هيئتَهم وحالَهم في صلاتِهم عند البيتِ الحرامِ من عدمِ الاكتراثِ والتّعقّل لِحُرمةِ الصّلاةِ والمسجدِ الحرام، حتّى راحوا يُصوّتون فيها بالتّصفير والتّصفيق، كما يُصفِّرُ طائرُ المُكاءِ بعفويّةٍ وعدمِ اكتراثٍ. وهذا اللّفظُ يدلُّ على التّساهُلِ والاستخفافِ الّذي يُقابِلُ معنى الانضباطِ والحزمِ في أعرافِ الغزو وأدبيّاتِ الجهاد[1].

﴿فَشَرِّدۡ﴾ في قوله: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأنفال 57]، وقد نزلتِ الآيةُ في أولئك النّاقضين للعهد، إذا تمّ الظّفَرُ بهم أن يُنزِلَ بهم التّشريدَ والإبعادَ الّذي يشتِّتُهم، ويردعُ الآخرين عن خيانةِ العهد معه، فسيقَ هذا اللّفظُ الفريدُ ليدلَّ على أتمِّ تطبيقٍ لِمبدأ السّورةِ العامِّ في البأسِ وقوّةِ العزم في مُعاملةِ العدوّ، ولا سيّما إذا خانَ وغدرَ.

الأنساقُ التّعبيريّة الّتي تميّزَت بها السّورة:

التّراكيبُ المختصّةُ بالسّورة دون سِواها، لَها تَعلّقٌ بمَوْضوعاتِها الأساسيّة

هنالك نماذج للتّعبير، استقلّت بها سورة الأنفال، دون باقي سور القرآن الأخرى، مثل: ﴿ٱلۡأَنفَالِۖ﴾، ﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾، ﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾، ﴿مُرۡدِفِينَ﴾، ﴿خُمُسَهُۥ﴾، ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾، وهذه الأنساقُ التّعبيريَّةُ لم تأتِ في سورةٍ أخرى، وجميعُها له ارتباطٌ بمقاصد السّورةِ ومضامينها، فـ﴿ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ تتضمّنُ عرَضَ الدّنيا الّذي أُريدَ منهم ألّا يتنافسوا عليه، و(ذاتُ البيْن) كنايَةٌ عن مُقتضى إفراغِ قلوبهم من عرضِ الدّنيا، وهو امتلاؤُها بالألفةِ واجتماعِ العزمِ والكَلِمة، و﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ تركيبٌ يُعبِّرُ عن ضَراوَةِ القِتالِ وبأسِه، و﴿مُرۡدِفِينَ﴾ وصفٌ للملائكةِ في تتابُعِهم لتحقيق نَصرِ المؤمنين والذَّودِ عنهم؛ ليزولَ عنهم خوفُهم من عدم استعدادِهم وقِلَّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكو)، والرّاغب، المفردات: (مكا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكو).

عددِهم، و﴿خُمُسَهُۥ﴾ هو مِقدارُ مَصارِف الغنائم بعد إحرازِهم لها، و﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ تحديدٌ لِجهَتَي المسلمين والكافرين في مواقِع القتال. وعليه: فجميعُ تلك التّراكيب تعلّقَت تعلُّقًا مباشرًا بموضوعات السّورةِ الرّئيسةِ منَ الأنفال، وأحكامِ مصارِفها، والقتالِ وبأسِه، والحربِ وأعوانِها، والمعاهداتِ وجزاءِ النّاقضين لها.

بيانُ المناسبةِ بين السّورة وسابقتها:

دَعْـوَةُ سـورتي الأعـراف والأنـفال، لِنَبْذِ الأهواءِ، واطّراحِ الأطْماعِ المُرْدِيَةِ

في سورةِ الأعرافِ بدأ السّورةَ برفعِ الحرجِ عنِ النّبيّ ﷺ، وتصفيةِ صدرِه لينذرَ ويُذكِّرَ، وفي سورةِ الأنفال بدأ ببيانِ حكمِ الأنفالِ لقومه؛ ليزولَ الحرجُ من قلوبهم بسببِ التّنازع، ويأتلفوا على حكم اللّهِ ورسوله.

وفي سورةِ الأعرافِ ذكرَ قصّةَ الأممِ مع أنبيائهم، وذكرَ حالَ قوم موسى معه في الامتحانِ والابتلاءِ، وفي سورةِ الأنفالِ ذكرَ قِصّةَ النّبيِّ ﷺ وحالَ قومِه معه في مواقفِ الامتحانِ كذلك.

وفي سورةِ الأعراف ذكرَ أنَّ اتّباعَ الهوى والرّكونَ إلى عرَضِ الدّنيا والإخلادَ إلى الأرضِ سببُ الهلاكِ والبوار، في قوله: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾ [الأعراف: 169]، وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: 176]، وفي سورةِ الأنفال حذّرَ منَ الخصومةِ على الدّنيا والتّنازعِ على غنائمها، وصرّحَ بعرَضِ الدّنيا كما صرّحَ بعرَضِ الأدنى في الأعراف، فقال جلّ شأنُه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ [الأنفال: 67].

وفي سورةِ الأعرافِ ذكَرَ امتحانَ آدمَ عليه السلام في الجنّة، وامتحانَ قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ ولوطٍ، وافتراقَ الأممِ إلى أصحاب الجنّةِ وأصحاب النّارِ، وامتحانَ بني إسرائيل مع موسى، وامتحانَ

أهلِ التّوراةِ والإنجيل بما يجدونه من وصفِ الرّسولِ النّبيِّ الأميِّ، فمنهم كافِرٌ ومنهم مؤمِنٌ، وامتحانَ الّذي آتاه اللّهُ تعالى آياتَه فانسلخَ منها، وامتحانَ الّذين أُخِذَ عليهم ميثاقُ الكتابِ ألّا يقولوا على اللّه إلّا الحقّ فأخذوا عرَضَ الأدنى، وامتحانَ بني آدمَ جميعًا بالعهد الّذي أخذَه اللّهُ تعالى عليهم في عالَمِ الذَّرِّ، وأشهدَهم على أنفسِهم بالإيمان، وامتحنَهم جميعًا بأن يتّقوا اللّه، ويتّقوا فتنةَ الشّيطان، وختَمَ السّورةَ بأنّه لن يُفلِحَ في هؤلاءِ جميعًا إلّا الصّالحون الّذين يتولّونَ اللّه فيتولّاهم اللّهُ سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: 196]، ثمّ في سورةِ الأنفالِ ذكرَ امتحانَ أهلِ بَدرٍ بإخراجهم للقتالِ في بدرٍ، وإلزامِهم حكمَ اللّهِ ورسولِه في الأنفال، وتحريضِهم على إفراغِ قلوبهم مِن أعراضِ الدّنيا ووقايةِ أنفسِهم من فتنةِ الأموالِ والأولادِ، وبَذلِ أنفسِهم وأموالِهم في الهجرةِ والجهادِ وإظهارِ الدّين، فكانَت عاقبةُ امتحانهم خيرًا ونصرًا وثباتًا كعاقبةِ آدمَ عليه السلام، وعاقبةِ أصحابِ الجنّةِ، وعاقبةِ الأمّةِ العادلةِ من قوم موسى، وعاقبةِ الأمّةِ العادلةِ في الخلق: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 181]، فاجتمعَ هؤلاءِ جميعًا – في الأنفالِ والأعرافِ – في حُسنِ الحالِ والمآلِ وولايةِ اللّه لهم.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾ [الأنفال: 1]

مُناسَبَةُ أوَّلِ السّورَةِ معَ آخِرِ السّورَةِ قَبْلَها:

عَلاقَةُ عُبوديّةِ المَلائِكَةِ بدَعْوةِ المؤمنين لِتَطْبيقِ أحْكامِ الأنفالِ وفقَ مُرادِ اللهِ

لَمّا وصَفَ اللّهُ عِبادَه الملائكةَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206] في نهاية سورة الأعراف، وكانَ هذا الوصفُ عِبارةً عن خضوعِهم الدّائم ورُضوخِهم التّامِّ لأمرِ اللّهِ وحُكمِه وقضائِه، فهُم لا يَعصونَ اللّه ما أمَرَهُم، ويَفعلونَ ما يُؤمَرون، ناسَبَ ذلكَ ما هو هاهنا في مُفتَتَحِ سورةِ الأنفال، وهو جوابُهم ببيانِ حُكم الأنفالِ الّتي سألوا عنها، والّتي تنازعوا فيها، فكأنّه بهذا البيانِ الافتتاحيِّ يُعلِّمُهم ويُحفِّزُهم أن يَحتَذوا - في قبولِه والرُّضوخ لِحكمِه والتّسليم لمرادِ اللّهِ ورسولِه فيه - حَذوَ الملائكةِ في أوصافِهم الكاملةِ مع اللّهِ ﷻ في تسليمِهم له، وإذعانِهم لإرادتِه، ودوامِهم على عبوديّتِه، وإردافُ تلك الأحكامِ بعد أوصافِ الملائكةِ مبالغةٌ في التّحريضِ والإغراءِ على قبولِ الحكم مَعَ تَضمينِه معنى التّخويفِ والتّحذيرِ؛ أي: كونوا كهؤلاءِ في تعامُلِكم مع أحكامِ اللّه، وإلّا فلا يُعبأُ بكم، فالّذين عندَ اللّه لا يستكبرون عن عبادتِه ويسبحونه!

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَنفَالِۖ﴾: جمعُ النّفَل (بتحريكِ الفاء)، وأصلُه: زيادةٌ طيّبةٌ تُنال، وغلَبَ إطلاقُه على الغنيمةِ والهِبَة، وجِماعُ مَعنَى النَّفَل والنّافِلَة: ما كانَ زيادةً على الأصل، وسُمّيتِ الغنائمُ أنفالًا؛ لأنّها

مما زادَه اللّهُ تعالى على هذه الأمّةِ، ففُضِّلوا به على سائرِ الأممِ الّتي لم تُحلَّ لهم الغنائمُ [1].

2) ﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾: (ذات) مؤنّثُ (ذو) الّذي هو بمعنى صاحب، و(ذاتَ) - في هذا الموضع - يُرادُ بها نفسُ الشّيءِ وحقيقتُه، وأصلُ البَيْن: مسافةٌ ما بين الشّيئين، وهي الفاصِلةُ والواصِلَةُ للطّرفين[2]، ومعنى التّركيب: حَقيقَةُ وصلِكم، والحالةُ الّتي بينكم؛ أي: راعوا الأحوالَ الّتي تجمعُكم منَ القرابةِ والوُصلةِ والمودّةِ[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

جَوابُ السّائلين عَـنِ الأنـفـالِ، بـضَـرورَةِ الـتِزامِ الأحْكامِ، بَعيدًا عَـنِ الـطّـمَـعِ والخصامِ

يسألُك أصحابُك - أيّها النّبيُّ ﷺ - عنِ الغنائمِ يومَ (بَدرٍ)، ما مآلُها؟ ولِمَن تكون؟ وكيف تُقَسَّم؟ قل - أيّها الرّسولُ - مُجيبًا سؤالَهم: الأنفالُ حكمُها مُختصٌّ باللّه ورسوله، يأمرُ اللّهُ بقِسمتها على ما تقتضيه حكمتُه، ويمتثلُ الرّسولُ أمرَ اللّهِ فيها، وليس الأمرُ في قِسمتها موكولًا إلى رأيِ أحدٍ، وإذا كان الأمرُ كذلك فاتّقوا اللّهَ، واجتنبوا ما أنتم فيه من شِجارٍ ونِزاعٍ وخِلافٍ، فإنّ هذا يُغضِبُ اللّهَ تعالى، ولا سيّما في حالةِ الحرب، وأصلِحوا الحالَ بينكم، والتزموا طاعةَ اللّه ورسوله إن كنتم مؤمنين؛ فإنّ الإيمانَ يدعو إلى طاعةِ اللّهِ ورسولِه[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالَةُ بَراعَةِ الاسْتهلالِ، باسْتِعْراضِ الجَوابِ على السّؤالِ:

موقعُ القضيّةِ المسؤولِ عنها في نفوسِ السّائلين وتعاملهم

في افتتاحِ السّورةِ بفعلِ السّؤالِ الصّريحِ براعةُ استهلالٍ في

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نفل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 209/4، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفل).

(2) ولذا أُطلِقَ البَيْنُ على الفِراقِ والوَصل، وقالوا: إنّه منَ الأضداد؛ لأنّ المسافةَ نفسها فصلٌ، لكنّها هي مَوصِلٌ للطّرفين. ينظر: جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (بين)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 500/2، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 52/2، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 676/9، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).

(4) حجازي، التّفسير الواضح: 804/1، وجماعة من العلماء، المنتخب، ص: 241، والتّفسير الميّسر: 177/1، والمختصر: 177/1، والوسيط - مجمع البحوث: 1581/3.

توصيفِ المسؤول عنه، من حيثُ كونُه قضيّةً حائِرةً في أذهان السّائلين، ومادّةَ جَدَلٍ ونِزاعٍ في صفوفِ الحاضرينَ يومئِذٍ، فصدّرَ الكلامَ بلفظِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ ليدلَّ على موقعِ القضيةِ المتمكّنِ منَ النّفوس، ويدلَّ على عِظَمِ القضيّةِ في ذاتِها، وأنّها حقيقةٌ بالسّؤالِ عنها والتّنقيبِ حولها.

نكتة استعمال الفعل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ دون غيره:

طالبُ الشّيءِ مُستعجِلٌ له، والمُستشرِفُ توّاقٌ لمعرفة ما يَجْهَل

عبّر بـ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ دون (يستفتونك)؛ ليدلَّ على أمرين: الأوّل: العَجَلَةُ في معرفةِ الحكم، فإنّ السّؤالَ استدعاءٌ لحضورِ الشّيءِ وحصولِه بين يدي سائلِه، وطالبُ الشّيءِ مُستعجِلٌ له، والمُستدعي شيئًا مُستشرِفٌ ومتشوّفٌ لِجوابِ سؤالِه، والمُستشرِفُ لا يتمهّل، بخلافِ الاستفتاء، فإنّه لا يتّجهُ بأصلِ معناه إلى هذا المَنزَع، بل هو متّجهٌ إلى تجليةِ غموضٍ يكتنِفُ الشّيءَ؛ ليتقوّى العِلمُ به في ذِهنِ المُستفتي، ويَشتدَّ كالفتَى الخالِص. الثّاني: التّعبيرُ بالسّؤال يفيدُ انقطاعَ السّائِل عنِ المسؤولِ عنه انقطاعًا أصيلًا عن كينونَتِه، فهو طلَبٌ لأساسِ الحكمِ أو ذاتِ الشّيءِ، وأمّا الاستفتاءُ فهو طلبٌ لكشفِ ما له أصلٌ معهودٌ اكتنفَه غموضٌ وجهالةٌ عند السّائل في فروعِه التّابعةِ له.

إيثارُ صيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

صيغةُ المضارعة تصوّرُ حالةَ التّناوبِ في صدورِ السّؤالِ منهم

التّعبيرُ بصيغةِ المضارع في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ الغرضُ منه استدعاءُ الصّورةِ المتواليةِ لِلفعل، فضميرُ الجمع يدلُّ على أنّ السّؤالَ صدَرَ عن عدَدٍ، وصيغةُ المضارعة تصوّرُ حالةَ التّناوبِ في صدورِ السّؤالِ منهم، فهذا يسألُ وهذا يسألُ، فالفعلُ بينهم مُتوالٍ ومتجدّدٌ بتوارُدِ السّائلين حول الغرضِ الواحدِ، وصيغةُ المضارع تدلُّ على أنّ الحدثَ لم يكن عارضًا سُئِل عنه، وانقضى زمنُه سريعًا، بل استمرّ إلحاحُهُ في مَواجيدِهم حتّى استتمّوا بيانَه.

واستكمالُ المعلوماتِ يقتضي تَدرُّجَ الذّهنِ في استيفاء أجزائها، وهذا التّدرّجُ مَلحوظٌ بقوّةِ المُضارَعة، وفائدةُ ذلك: أن "يَقعَ التّسليمُ فيها منَ النّاس"[1] في كلِّ عصرٍ، فكأنّ فِعلَ السّؤالِ ما زالَ جاريًا في كلِّ جيلٍ، ويُجابُ عليهم بجوابِه كلَّ حين.

دلالةُ إضمارِ فاعل ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾:

تَعيُّن السّائلين وشهرتهم، سبب في إيثار التّعبير بالضّمير

وُضِعَ المضمرُ موضِعَ المظهَر، فلم يقُل: يسألُك النّاسُ؛ لِشهرةِ السّائِلين وتَعيُّنِهم، وهُم فئةٌ منَ الصّحابةِ ﷺ، الّذين لهم تَعلُّقٌ بالغنائم، فلمّا كان السّائلُ عن هذا السّؤالِ معلومًا مُعيَّنًا وقتَ نزولِ الآيةِ، انصرفَ هذا اللّفظُ إليهم مِن غيرِ التّصريح بهم؛ لِتَوَفُّرِ العنايةِ على إظهارِ المسؤولِ عنه، وهو حُكمُ الأنفالِ، دون فاعِلِ السّؤالِ، فأظهرَ ما المقامُ أحوجُ إلى إظهارِه من غيره.

علّةُ اتّصالِ الفعلِ بكاف الخطاب في ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾:

الرّسول مشرّعٌ بأمر الله، وهو المبيّن لأحكامه أمرًا ونَهْيًا

في اتّصالِ الفعلِ بالضّميرِ الواقعِ مفعولًا - وهو ضميرُ الرّسولِ ﷺ - إسنادُ فِعلِهم إلى جهةِ الحكمِ والفصلِ فيه والجوابِ عليه، وعِلّةُ ذلك تَخصيصُ المفعولِ بالفعلِ وتَعيينُه به دون غيرِه؛ لاعتقادِهم خُصوصيّتَه ﷺ في الحُكمِ فيما شَجَرَ بينهم، والرّدِّ إليه فيما تنازَعوا فيه، والبيانِ مِنه إليهم فيما خَفيَ عنهم حُكمُه، ولو قيل: (يسألونَ عنِ الأنفال) لكانَ فيه إطلاقٌ للمفعولِ، وإعراضٌ عنه في غيرِ المحلِّ، وخلافُ المقتضَى الواجِب عليهم، وهو وجوبُ رفعِ المسائلِ كلِّها إلى رسولِ اللّه، فلو كان لكانَ فيه إخلالٌ وإقصارٌ في أسلوبِ التّعاطي الأمثَل مع مَنصِب الرّسالةِ المُقدَّس.

سرُّ التّعبيرِ بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾، وفائدة وروده في السّياق:

إرادة السّائلين منوطةٌ بشرع الله الحكيم، وسُنّةِ رسولِه الكريم

تعدّي الفِعلِ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ بـ﴿عَنِ﴾ دالٌّ على أنّهم سألوا معرفةَ الحكمِ، ولم يَسألوا الأنفالَ نفسَها أن يُعطيَها لهم، ولو كان غرضُهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 268/5.

استِعطاءَ الأنفال لَتَعدّى الفِعلُ بنفسِه، فيُقال: يَسألونك الأنفالَ، وفي تعديَةِ الفِعل بالجارّ إشارةٌ إلى أنّ قلوبَهم مُتعلِّقةٌ بحكم اللّهِ ورسولِه، دائرةٌ معه حيث دار؛ لأنّ سؤالَهم عن حُكم الشّيءِ دون سؤالِهم عنِ الشّيء نفسِه - برهانٌ على جاهِزيّتِهم للتّسليم بما سيكون من قِسمَةٍ، وأمارةٌ على تَمَكُّنِ وازِع الرِّضا باللّه ورسولِه على وازِع الطّمعِ في المَغانمِ والجوائز.

نكتةُ استهلالِ الجوابِ بفعل الأمر ﴿قُلِ﴾:

إيذانٌ بتوقيفيّةِ الأحكام، وأنّها ثابتةٌ بأصل الوحي

استهلالُ الجوابِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ إيذانٌ بتوقيفيّةِ الأحكام، وأنّها ثابتةٌ بأصل الوحي؛ فالسّؤالُ كان إليه ﷺ، لكنّ الجوابَ ليس منه، بل من لدن حكيم عليم، وفيه إشهادٌ على وثاقةِ الرّسول ﷺ، وتسجيلٌ بثبوتِ نبوّتِه ورسالتِه، ودحضٌ لمزاعم تعلّقِ الافتراءِ والاختلاقِ بالقرآنِ العظيم، وإبطالٌ لجميع وجوهِ الرّيبةِ والظّنِّ أن تتعلّقَ بنصِّه الحكيم.

سرُّ إضمارِ المخاطَبِ في الفعل ﴿قُلِ﴾:

عدمُ تعلُّقِ مقاصِدِ الكلامِ بالمضمَرِ، أوجَبَ إضمارَه

أحدُ دواعي الإضمار عدمُ تعلُّقِ مقاصِدِ الكلامِ بالمضمَر، فإذا انضمّ لذلك شُهرةُ المضمَرِ وعدمُ التباسِ معرفتِه على السّامع تَعيّنَ الإيجازُ بعدمِ إظهاره، فيصيرُ الإظهارُ حينئذٍ كالحشوِ الزّائدِ الّذي لا طائلَ من معرفتِه؛ إذ هو تحصيلُ حاصلٍ وتوضيحُ واضحٍ، فيخلو منه كلامُ الحكيم، فكيف بكلامِ أحكمِ الحاكمين، والغرضُ من ذلك: اختصارُ وقتِ السّامعِ وإدخالُهُ مُباشرةً على ما يلزمُه ويَشغَلُه، لِتَتَمحّضَ هِمّتُه في الغرضِ والغاية، ولا تتوزّعَ أشتاتًا، فيفوِّتَ منه مالا ينبغي فواتُه.

إطلاقُ القول وعدمُ تقييده بالمخاطَبين:

شريعةُ الله صالحةٌ لكلّ زمانٍ، ومُمكِنةٌ في كلّ مكان

لم يُذكَرْ مُتعلَّقُ القولِ؛ أي: لم يقُل في الجواب: (قل لهم)؛ لأنّه (أي: المُتَعلَّق) غيرُ مخصوصٍ بمقولِ القول؛ لأنّ مَقولَ القولِ حُكمٌ

مُطَّرِدٌ، لا يَتعيَّنُ للسّائلينَ المُعاصرين للواقِعةِ يومئذٍ، بل هو جارٍ فيهم، وفي خُلفائِهم منَ المسلمين إلى يومِ يُبعثون.

لطيفةُ وضعِ المظهرِ مَوضِع المُضمَر:

الانتقالُ منَ السّببِ الخاصّ لتقريرِ الحكمِ العامِّ

لم يقُل: (قلْ هي للّهِ والرّسول)، بل أظهَرَ فقال: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ﴾، جريًا على أسلوبِ الحكيمِ في الجواب؛ ذلك أنّهم سألوا عن أنفالِ الغنائمِ بعد معركةِ بدرٍ، فسألوا عن أنفالٍ خاصّةٍ، فأجيبوا جوابًا عامًّا يتضمّنُ حُكمَ جميعِ ما يُسَمّى أنفالًا، فدخلَ فيه غنائمُ الحربِ الّتي سألوا عنها، وسائرُ الزّياداتِ في الأموالِ مِن مواردِها الفائضة، بحسَبِ ما اختَصّ اللّهُ بِه البلادَ من أبوابِ الخير، ولِئلّا يَقتِصرَ ذلك على مفهومِ الغنائمِ بعدَ الحربِ، بل يَشملَ الفَيءَ، ويشملَ الحِصَصَ الزّائدةَ الّتي يَختصُّ بها وليُّ الأمرِ بعضَ الأفرادِ والجنودِ بحسبِ المصلحةِ تشجيعًا لهم، قبلَ تقسيمِ الغنائمِ عليهم، ويشملَ أيضًا أموالَ الغنيمةِ المجموعةِ قبلَ تقسيمِها، وهو ما يُسمَّى بالقَبَض؛ أي: الأموالُ المقبوضةُ قبلَ التّقسيم، وعلى هذا: فـ(ال) في لفظ (الأنفال) الوارد في السّؤالِ في قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ للعهد، و(ال) الثّانية في الجوابِ في قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ﴾ للاستغراق، وهذا هو عِلّةُ إظهارِ لفظِ الأنفالِ في الجوابِ مع تقدُّمِ ذِكرِه في السّؤال؛ لإرادةِ العمومِ في الجواب[1].

بلاغةُ الجوابِ:

تَختَصُّ أحكامُ الشّرعِ بإرادةِ اللهِ وحكمته، والرّسولُ أسوةٌ في بلاغِها لأمّتِه

الجوابُ بقوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ تركيبٌ بليغٌ، فصَدارتُه بفِعلِ الأمرِ ﴿قُلِ﴾، ودخولُ لامِ الاختصاصِ على مُتعلَّقِ حُكمِ الأنفالِ ﴿لِلَّهِ﴾، والرّبطُ بواوِ الجمعِ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ "معناه أنّ حكمَها مختصٌّ باللّهِ ورسولِه، يأمرُ اللّهُ بقسمتها على ما تقتضيه حكمتُه، ويمتثِلُ الرّسولُ أمرَ اللّهِ فيها، وليس الأمرُ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4559.

في قسمتِها مُفوَّضًا إلى رأي أحدٍ"[1]، فالجمعُ بين اللهِ ورسولِه مؤذِنٌ باختِصاصِ اللهِ بإرادةِ الأحكامِ وإنشائِها، واختصاصِ رسولِه بوظيفةِ البلاغِ عنه وإجراءِ أحكامِه.

فائدةُ ذكرِ اللّامِ، وإيثارِ لفظِ الجلالةِ (الله):

استحقاقُ التّشريعِ مخصوصٌ بالله، ولا يتأتّى لأحد سواه

اللّامُ في قولِه: ﴿ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ لِلملكِ أو الاختصاص، وتوجيهُ (الملْك) على معنى أنَّ الأنفالَ هي الحِصّةُ الزّائدةُ على الغنيمةِ والفيءِ، فهي غيرُ محسوبةٍ فيهما، بل هي راجعةٌ لتقديرِ وليّ الأمرِ، يُعطيها بالمقتَضى المعتبَرِ لِمَن شاء، خارجَ حِصَصِ الغزاةِ منَ الغنائم، فالأنفالُ حينئذٍ مالٌ لا يُعرَفُ مالِكُه ولا مُستَحِقُّه، فيُقال: الأنفالُ للّهِ؛ أي: مِلكٌ للّهِ، وتوجيهُ (الاختِصاص): على معنى أنّ الأنفالَ مفهومٌ جامعٌ لجميعِ المغانم، فيُقال: الأنفالُ للّه؛ أي: تختصُّ باللّه في حكمِها، والرّسول في صرفِها وتوزيعِها[2]، وفائدةُ تعيينِ اسمِ الجلالةِ (اللّه)، دونَ غيرِه منَ الأسماءِ الحسنى؛ لاقتضائِه - بمعناه على الألوهيّةِ - تقريرَ الأحكامِ؛ إذِ التّشريعُ من لوازمِ الألوهيّةِ وآثارِها، فاستحقاقُ التّشريعِ لا يكون إلّا للّهِ، "فذِكرُ اسمِ اللّهِ لفائدتين: أولاهما: أنّ الرّسولَ إنّما يتصرّفُ في الأنفالِ بإذنِ اللّهِ توقيفًا أو تفويضًا، والثّانية: لِتشملَ الآيةُ تصرُّفَ أمراءِ الجيوشِ في غَيبةِ الرّسولِ أو بعدَ وفاتِه ﷺ؛ لأنّ ما كان حقًّا للّهِ كانَ التّصرّفُ فيهِ لخلفائِه"[3].

نكتةُ الالتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغيبة:

الانتقال من البلاغ منه، إلى مخاطبة المُبلِّغ عنه، خصوصيّة وتكرِمَةٌ

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ خطابٌ، وقولُه: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ التفاتٌ عنِ الخطابِ للغيبة، ولوِ اطّردَ الكلامُ لَقيل: (الأنفالُ للّهِ ولك)، والغرضُ منَ الالتفاتِ إجراءُ وصفِ الرّسالةِ على

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/251.

شخصِ النّبيّ ﷺ؛ للإيذانِ بأنّ تَصرّفَه في أحكامِ اللّهِ واقِعٌ بحسبِ رَسوليَّتِه، لا بمحضِ كونِه بشرًا؛ ليَثبُتَ له بذلك عدمُ الانفكاكِ عنِ الوحي في تَلَقّي الحكمِ وفي تنفيذِ الحكم.

واعتبارُ الالتفاتِ مِنَ الخطابِ إلى الغيبةِ جارٍ بملاحظَةِ أنّ الكلامَ للّهِ ﷻ، ولو اعتبرنا أنّ الكلامَ بعد (قُلْ) لرسول اللّه ﷺ لكان التفاتًا مِنَ التّكلّمِ للغيبة؛ إذ لو اطّردَ لقال: (الأنفالُ للّهِ ولي)، وتوجيهُهُ بنفسِ ما سبق.

نكتة إيثارِ لفظِ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾، والعدولِ عن لفظ (النَّبيّ):

لَفْظُ الرّسولِ مُرْتَبِطٌ بتَشْريعِ الأحكامِ، وبلاغها بأمانة للأنامِ

اصطفاءُ لفظِ الرّسولِ في ﴿ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، والعدولُ عنه في نفسِ السّورةِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾؛ لاختلافِ المقامِ في كُلٍّ، فلفظُ الرّسولِ مرتبطٌ بتشريعِ الأحكامِ الّذي تُعتبَرُ فيه الإضافةُ إلى اللّه، ولفظُ النّبيِّ مرتبطٌ بإنباءِ الخلقِ عنِ اللّهِ البلاغَ، فتعتبر فيه الإضافةُ إلى الخلقِ، فحيثما كان السّياقُ مرتبطًا بتأسيسِ الأحكامِ روعيَ لفظُ الرّسالةِ؛ إذ بمقتضاها يتلقّى الرّسولُ التّكليفاتِ والأحكامَ، وحيثما خلا السّياقُ من ذلك إلى مُجرّدِ التّبليغِ والموعظةِ روعي معنى النّبوّةِ، والمقامُ الّذي جاء لفظُ النّبيِّ في آياتٍ أُخَرَ في السّورة لا يتضمّنُ حكمًا ولا تشريعًا، بل هو إنباءٌ بالتّرغيبِ أو بالتّرهيبِ؛ ولذا جاء لفظُ الرّسولِ هاهنا في: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، وجاء أيضًا في نفسِ السّورةِ في قوله: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ لكونِ الموضعينِ في تشريعِ الأحكامِ وتأصيلِها[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/75.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

نَقلُ السّائلِ عنِ الأنفالِ إلى سعادةِ الحالِ والمآلِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فاءٌ فصيحةٌ، لعطفِ مدخولِها على معطوفٍ مُقدَّرٍ تفريعًا على جملةِ: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾[1]؛ أي: "إذا كان الأمرُ في القِسمةِ للّهِ ورسولِه، ففرِّغوا أنفسَكم لتقوى اللّه، ولا تَشغَلوا أنفسَكم بالمالِ وتقسيمِه، فقِسمةُ اللّهِ هي العدلُ والمصلحةُ معًا"[2]، وفائدةُ التّفريعِ بالتّقوى دون غيرها الإعانةُ على الحكم المذكور؛ إذ بالتّقوى تَتَخَفّفُ مشاقُّ التّكاليف، وتُرَضَّى بسببها النّفوسُ، فتسلمُ منَ النّزاعِ والتّمرّدِ، وتَخلُصُ لقبولِ حكم اللّهِ والاستسلامِ له.

دلالةُ ربط التّقوى باسم الجلالة دون الرّبوبيّة:

مُراعاةُ النّظيرِ في السّياقِ القريبِ

إسنادُ التّقوى إلى الاسمِ الجليلِ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، دون غيره منَ الأسماء مراعاةً لنظيرِه في السّياقِ قبله، في قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ﴾، ولأنَّ تخصيصَ لفظِ (التّقوى) بالجلالة (اللّه) دون غيره منَ الأسماء شائعٌ مشهورٌ؛ لتضمّنِه جميعَ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وقد أظهرَ في مقام الإضمارِ، فلم يَقُل: (فاتّقوه)؛ " لتربيةِ المهابةِ وتعليلِ الحكم"[3]، فإنّه أحضُّ على الامتثالِ وأعونُ على تركِ المخالفة.

نكتةُ عطفِ جملة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ على ما قبلها:

التّفريع غَرَضُهُ التّحذيرُ، من مخالفةِ الحكمِ الأثيرِ

عطفُ جملةِ ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ على ما قبلها تفريعٌ غَرضُهُ التّحذيرُ من مخالفةِ الحكمِ؛ أي: فاتّقوا المخالفةَ وعدمَ الإذعانِ.

دلالة الجمعِ بين التّقوى والإصلاح:

قولُه: ﴿وَأَصۡلِحُواْ﴾ بعد قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تأكيدٌ لِما قبله، وتعقيبُ

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/527، والخطيب، التّفصيل: 9/308.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3062.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/4.

وجوه الإصلاح واستشعار التّقوى، تنزعُ ما يُفرِزُه الصّراعُ مِن بَلْوى

الشّيءِ بذِكر موجَبه، فإنّ اتّقاءَ المخالفاتِ بريدُ الإصلاح، فدلّهم على إصلاح ذاتِ البينِ؛ لِتسلَمَ علائقُهم مِنَ النّزاعِ والخصومةِ الحاصلةِ في الأنفال، بعد أمرِهم بالتّقوى؛ لِتسلَمَ قلوبُهم لأحكام اللّه فيها قبولًا وعملًا، فأرشدهم في تينك الجُملتين إلى صلاح أحوالِهم مع الحقِّ ومع الخلقِ بما يُناسِبُ المقام.

وعبّر بالإصلاحِ؛ للإيذانِ بأنّ موادَّ النّزاعِ هي مفاسِدُ تُحسَمُ بأضدادها من وجوهِ الإصلاح.

سرُّ ترتيب التّأكيد على المؤكّد، كترتيب النّتيجة على المقدّمة:

الأمـرُ بالتّقوى مُقتَضٍ لإصلاحِ العلائق

من ناحيةٍ أخرى، جملةُ ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ تأكيدٌ لِما قبلها، وهو الأمرُ بالتّقوى؛ لأنّ الأمرَ بالتّقوى مُقتَضٍ لإصلاحِ العلائق، فرتّبَه بعده ترتيبَ النّتيجةِ بعد المقدّمة، "وتوسيطُ الأمرِ بإصلاحِ ذاتِ البينِ بين الأمرِ بالتّقوى والأمرِ بالطّاعة؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بالإصلاحِ بحسب المقام، وليندرجَ الأمرُ به بعينِه تحت الأمرِ بالطّاعة"[1].

بلاغةُ تركيب ﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾:

تشبيهُ ما في الصّدورِ، وما في البيْنِ بالصّاحِبِ في المُلابسةِ التّامّةِ

قوله: ﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾؛ أي: الحالُ الصّاحِبةُ لِبَينِكم؛ أي: "افتراقِكم واجتماعِكم"[2]، أو أصلِحوا حقيقةَ (نفسَ) ما بينكم، فالأوّل: على معنى أنّ ﴿ذَاتَ﴾ مؤنّثُ (ذو) الّذي هو بمعنى (صاحب)، فتكون ألِفُها مبدلةً منَ الواو، والثّاني: على معنى أنّ ﴿ذَاتَ﴾ أصليّةُ الألِف بمعنى عينُ الشّيءِ وحقيقتُه وماهيتُه، فتكون كلمةً مُقحَمَةً لتحقيقِ الحقيقة[3]، وعلى كُلٍّ فتسليطُ العاملِ على ﴿ذَاتَ﴾ مع أنّ الإصلاحَ مُتَّجِهٌ لِلبَين؛ إذ لو قال: (وأصلِحوا بينَكُم) لكانَ صحيحًا؛ للمبالغةِ في إيقاعِ الإصلاحِ بينهم بجميعِ وجوهِه الظّاهِرَةِ والباطِنَة،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/4.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 219/8.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 253/9.

فأتى بـ﴿ذَاتَ﴾؛ ليُصيبَ الإصلاحُ لُبَّ ما بينهم منَ النّزاعِ فيستأصِلَه كأنْ لم يكن، ويُصيبَ أصلَ ما بينهم منَ الإيلافِ والخير فيُثَمِّرَه ويُنَمّيه، فـ﴿ذَاتَ﴾ جعلتِ الإصلاحَ جاريًا مجرى التّخليَةِ والتّحلية، "فلمّا كانتِ الأحوالُ واقعةً في البَينِ قيل لها ذاتُ البَين، كما أنّ الأسرارَ لما كانَت مضمرةً في الصّدورِ قيل لها: ذاتُ الصّدورِ"[1]، "فشَبّه ما في الصّدورِ وما في البينِ بالصّاحِب في المُلابسةِ التّامّةِ، فذَكَرَ لفظَ المُشَبَّه به وأريدَ المُشبّه"[2].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾:

الواو[3] في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عاطفةٌ لإفادةِ الجمعِ بين المأمورات: التّقوى، والإصلاح، والطّاعة، وجملةُ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ تأكيدٌ لِما قبلها، وإجمالٌ له، فهو كالعامِّ بعد الخاصّ؛ لأنّ طاعةَ اللّه ورسوله أمرٌ عامٌّ، فيشملُ طاعتَه فيما سبقَ من أمرِ التّقوى وأمرِ الإصلاح وأمرِ تقريرِ الحكم في الجواب على سؤالهم، ويشملُ ما هو أوسعُ من ذلك في كلّ أمرٍ ونهي.

العطفُ لا يُنافي التّأكيد، وليس كلُّ تأكيدٍ مُقتَضيًا للفصلِ إلّا بقصد

نكتةُ توجيهِ الخطابِ إلى الجماعة:

في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، النّكتةُ في التّكليفِ بهذه المذكوراتِ الثّلاث لاختزالِها شُعَبَ الإيمانِ وأصولَه ومقاصِدَه، فإنَّ الإيمانَ لا يخرجُ عنِ اتّقاءِ المخالفاتِ وطاعةِ الأوامر وإصلاحِ ذاتِ البَينِ مع الخلقِ، ولذا "جعلَ التّقوى وإصلاحَ ذاتِ البينِ وطاعةَ اللّه تعالى والرّسول ﷺ من لوازمِ الإيمانِ وموجباتِه، ليُعلِمَهم أنّ كمالَ الإيمانِ موقوفٌ على التّوفّرِ عليها"[4].

كمالُ الإيمانِ في إصلاحِ العلائقِ، مع اللهِ والخلائق

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/373.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/7.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/7.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/270.

طاعةُ الرّسولِ جزءٌ من طاعةِ الله

نكتةُ تعريفِ لفظ (الرّسول) وإضافتِه في الجملتين:

في تعريف لفظِ ﴿وَٱلرَّسُولِۖ﴾ في حيِّز الجوابِ عن سؤالهم في قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ إيذانٌ باستقلاليّته ﷺ في إجرائه الأحكامَ عنِ اللّه، وأنّه إن كان في أقضيَتِه ﷺ قدرٌ منَ التّوقيف، فهناك قدرٌ من تفويضِ اللّهِ له في إيقاع الحكم على الكيفيّة الّتي يراها بما توفّر لديه من دواعٍ ومناسباتٍ، ولذا لم يُضَف لفظُ الرّسولِ إليه ﷻ؛ لانفصاله ﷺ بقوّة التّنفيذِ على النّاس، بعد حصولِ قوّةِ التّشريعِ والأمرِ منَ اللّهِ عليه، فلِمُراعاةِ المغايرةِ بين ما للمُفوِّض وما للمفوَّضِ لم تَحسُنِ الإضافةُ، فانفصلَ اللّفظُ بالتّعريفِ في السّياق، كما انفصلَ مُسَمّاه في وظيفتِه في الواقِع، وأمّا قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فقد جاء لفظُ الرّسولِ مضافًا إلى الضّمير العائدِ على الجلالة (رسوله)؛ للإيذانِ أنّ الرّسولَ ﷺ يُطاعُ لأجلِ اللّه، فطاعةُ الرّسولِ جزءٌ من طاعةِ اللّه، كما أنّ المضافَ جزءٌ في نِسبَتِه منَ المضافِ إليه.

التّعليقُ بـ(إنْ) جارٍ على كمالِ الإيمانِ لا أصلِه

التّحريضُ المدلولُ عليه بحرف (إنْ)، والعدولُ عن (إذا):

المعلَّقُ بكلمة ﴿إِن﴾ على الشّيءِ لا يلزمُ أن يكونَ عدمًا عند عدم ذلك الشّيء[1]، وذلك إيذانٌ بأنّ التّعليقَ هاهنا جارٍ على كمالِ الإيمان، وليس أصلَ الإيمان. أيضًا: التّعليقُ بـ﴿إِن﴾ هاهنا لا يفيدُ الشّكَّ في إيمانهم أو التّعريضَ بضعفِه فيهم[2]، بل يفيدُ أنّ التّحقُّقَ بالإيمان لمّا كان غيبًا في الباطن مَستورًا عنِ المُشاهدَةِ الجازمة؛ لكونِه يظهرُ بآثاره لا بماهيّته، صار في حكم غيرِ المقطوع به، فلا يختصُّ بيقينِ حصولِه إلّا اللّهُ ثمّ العبدُ من نفسِه، بل قد تتخلَّفُ تلك المعرفةُ عنِ العبد نفسِه فيجزِمُ وهمًا بما ليس فيه، فلِغرضِ الخفاء

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 62/10.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 254/9.

المذكور عبّر عنه بـ(إنْ)، لئلّا يَقطعَ العبدُ من نفسِه بالإيمانِ، لا لِغرضِ أن يكونَ مُتشكّكًا، بل لِغرضِ أن يكونَ دائمَ التّحفّظِ والتّحفّزِ؛ لتنشيطِ إيمانِه، وتجديدِه بالقيامِ عليه عملًا وقولًا، ظاهرًا وباطنًا.

نكتةُ دخولِ الفعلِ ﴿كُنتُم﴾ في السّياق:

تحقُّقُ إيمانِهم ماضيًا، يفضي إلى تحقّقه حاضرًا ومستقبلًا

﴿كُنتُم﴾ في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ للدّلالة على ثبوتِ خبرِها لاسمها؛ أي: إنْ ثبتَ إيمانُكم وتحقّقَ فأطيعوني، وهو مُشعِرٌ بإغرائهم على المداومةِ والاستمرار؛ إذ لا يتأتّى هنا إرادةُ انقطاعِ إيمانِهم في الزّمن الحاضر؛ إذ إنّه لا يُخاطِبُهم بتكليف التّقوى والطّاعة إلّا وهم ما زالوا مُتلبِّسين بصفةِ الإيمانِ، فإذا تحقّقَ إيمانُهم ماضيًا بنفس صيغةِ ﴿كُنتُم﴾، وتحقّقَ لهم حاضرًا بقوّةِ (كان) - إذ هي لا تدلُّ على انقطاعٍ طارئٍ - وقرينةِ الخطاب، فإنّه ثابتٌ لهم مستقبلًا بقرينةِ الأمر في: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ﴾؛ أي: كونوا مؤمنين فيما هو آتٍ بالتّقوى والطّاعة، كما كنتم مؤمنين من قبلُ وفي الحال[1].

سرّ التّعبيرِ بالاسم دون الفعل:

التّعبيرُ بالاسميّة يفيدُ الثّبوتَ وعدمَ الانفِكاك

في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أورد الخبَرَ اسمًا دون الفِعل، فلم يقُل: (إنْ كنتُم آمنتُم)؛ لتصويرِ أنّ الإيمانَ يُرادُ إيقاعُه في النّفوسِ موقِعَ الرُّسوخِ الّذي لا ينفكُّ عن صاحبِه، وأنّ أصلَه مُلازِمٌ للنّفسِ مُلازمَةَ الطّبعِ والسّجيّةِ لها.

جوابُ الشّرط ودلالتُه، في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

كمالُ الإيمان رتبةٌ ظنيّةٌ متفاوتةٌ في الزّيادة والنّقصان، غيرُ مقطوعٍ بها

جوابُ الشّرط في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله، والتّقدير: (إنْ كنتم مؤمنين اتّقوا وأطيعوا)، أو الجواب: هو المذكورُ المتقدِّمُ، وهو جملةُ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ﴾، وفيه خلافٌ مشهورٌ بين النّحويّين، ومدلولُ الشّرطِ وجوابِه حاصِلٌ من وجهين:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/400، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 8/336.

الأوّلُ: تحقيقُ المُعلَّقِ (التّقوى والإصلاح والطّاعة)، بناءً على تحقيق المعلَّق به (الإيمان)، فالمرادُ ترتيبُ الجوابِ على الشّرطِ لا التّشكيكُ في إيمانِهم، والمرادُ بالإيمانِ التّصديقُ، باعتبار أنّه مِن شأنِ مُطلقِ الإيمانِ اقتضاءُ التّحقّقِ بتلك المأمورات، لا أنّها لازمٌ للإيمانِ حقيقةً. فالمقصودُ بالإيمان حقيقتُه وليس كمالَه، والشّرطُ هنا مجازيٌّ مُستعمَلٌ في إلهابِ غيرتِهم وتهييجها على الإيمان، كمَن يقول لغيره: إنْ كنتَ رجلًا فافعل كذا، والشّرطُ مجازيٌّ على هذا التّخريج؛ لأنّ (إنْ) الشّرطيّة تفيدُ التَّردُّدَ في تحقيق شرطِها، وليس هذا مُرادًا هنا، وفائدةُ تصديرِ الشّرطِ بها تنزيلُ مَن يتنازعُ ويتخاصمُ في شيءٍ منزلةَ مَن ضَعُفَ يقينُه، فيُقال لهم: إن علمتُم من أنفسِكم الإيمانَ؛ للتّحريض والإغراء على حسمِ النّزاعاتِ، فجيءَ الشّرطُ بها تتميمًا لهذا المقصِد.

الثّاني: أن يكونَ الشّرطُ على بابِه وحقيقتِه، فيُرادُ بالإيمانِ في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ كمالُ الإيمان، ولا يخفى أنّ الكمالَ رتبةٌ ظنيّةٌ متفاوتةٌ في الزّيادة والنّقصان بحسبِ الأحوال والأعمال، فحصولُه غيرُ مقطوعٍ به، فحسُنَ تصديرُ الشّرطِ بـ(إنْ)، وأيضًا: الأعمالُ المذكورةُ (التّقوى والإصلاح وطاعة الله ورسوله) شرطٌ حقيقيٌّ في كمال الإيمانِ، والكمالُ مُنتَفٍ بعدَمِها[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

يَسْألونَكَ ويَسْتَفْتونَكَ:

السّؤالُ تأسيسٌ للمعلوم، والاستفتاءُ تَجليَةٌ له

الاستفتاء: مصدرُ استفتى إذا طلبَ الإفتاءَ، وهو: الإخبارُ بإزالةِ مُشكلٍ، أو إرشادٍ إلى إزالةِ حَيرةٍ. وأصلُ اشتقاقِ أفتَى منَ الفتَى، وهو الشّابّ، فكأنَّ الّذي يُفتيه يُقوّي نهجَه ببيانِه، فيصيرُ بقوّةِ بيانِه فتيًّا؛ أي: قَويًّا.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/270، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/277، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/89، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/154، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/99 - 9/254.

وأمّا السُّؤالُ فهو طلبُ تحصيلِ شيءٍ أو طلبُ معلومةٍ عن شيءٍ، فهو سؤالُ عِلمٍ أو سؤالُ عينِ كمالٍ أو متاعٍ. واللّحَظُ الدّقيقُ بين السّؤال والإفتاء يقعُ في أمرين:

الأوّل: أنّ الإفتاءَ لا يكونُ إلّا في المعقولاتِ والمعاني كالمعارف والمعلومات والأحكام، في حين السّؤال يقعُ في المعقولات والمحسوسات، فهو في المُدرَكاتِ بالعقل، والمُتَناوَلاتِ بالجوارح، كمَن يسألُ معرفةَ شيءٍ، ومَن يسألُ أخذَ شيءٍ، والفيصلُ بينهما الحرفُ المُعدَّى به السّؤالُ.

الثّاني: أنّ الاستفتاءَ يقعُ فيما هو معهودٌ أصلُه عند السّائلِ، لكنْ قد خالطَه شيءٌ منَ الالتباسِ أو الغموضِ أو الجهالةِ في أحدِ أوجُهِه، فهو تفريعٌ على موجود، وأمّا السّؤالُ فيقعُ في ذلك، ويقعُ فيما ليس له أصلٌ معهودٌ عند السّائلِ، بل هو طلبٌ لتأسيسِ معلومٍ أو إنشاءِ حُكمٍ ليس له وجودٌ بوجهٍ ما عند السّائلِ، فهو تأسيسٌ لِما خَلا الذّهنُ عنه من جميع أوجُهِه[1].

الأنفال والغنائم والفيء:

الأنـفـالُ أوسـعُ الألـفـاظِ مدلولًا إزاءَ نظائِرها المستعملة في القرآن

النَّفَل: لغةً: اسمٌ للزّيادةِ، وهو ما يُعطاه الغازي زائدًا على سَهمِه، الفيء: لغةً: الرُّجوع، وهو ما رَجَعَ للمسلمين من أموال الكفّارِ من غير انتزاعِه منهم بالقهر، كفَيءِ بني النّضير الّذين نزلوا على حكم النّبيّ ﷺ، ومكّنوه من أنفسِهم وأموالِهم يفعلُ فيها ما يشاءُ، وأمّا الغنيمةُ فهي ما انتزعَه المسلمون منَ الكفّار بالغلَبَةِ والقَهرِ، والنَّفَلُ أعمُّ منَ الغنيمةِ والفيءِ، فالغنائمُ تُعتَبَرُ نفلًا؛ لأنّها زيادةٌ على ما هو المقصود من شرعيّةِ الجهادِ، وهو إعلاءُ كلمةِ اللّهِ وقهرُ أعدائِه، والفيءُ يعتبرُ نَفَلًا؛ لِكونه مِنحةً منَ اللّه تعالى ابتداءً من

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 437، وابن منظور، لسان العرب: (فتا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتو - فتى)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 278/12.

غيرِ وجوبٍ، فهو بمثابةِ العطاء الزّائدِ مِن غيرِ تَعَبٍ، وكلُّ زيادةٍ يَزيدُها الإمامُ بَعضَ الجَيشِ لِما قَد يَراهُ مِنَ الصَّلاحِ يُقالُ له نَفَل، وعليه: فكلُّ غنيمةٍ وفيءٍ نَفلٌ، وليس كلُّ نفلٍ غنيمةً أو فيئًا[1].

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 482/3، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 163 - 170 - 245، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 669، والبركتيّ، التّعريفات الفقهيّة، ص: 159، والماورديّ، النّكت والعيون: 293/2.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المُناسبة بين أحكام الأنفال، وخصال الإيمان والذّكر والتّوكّل

لمّا استنهضَ اللّهُ المؤمنين لِفعلِ ما أمرهم به بتعليقِ التّقوى والإصلاحِ والطّاعةِ على كونِهم مؤمنين، فصّلَ لهم من خِصالِ المؤمنين ما يُناسِبُ المقامَ الّذي هو بيانُ الحكم وتكليفهم بامتثاله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ لِيَثبُتَ بذلك مناسبَةُ كلِّ خصلةٍ مذكورةٍ للمقامِ السّابقِ المشتملِ على أفعالِ اللّهِ وأحكامِه وأوامرِه، باشتمالِ تلك الخصالِ على كيفيّةِ تفاعُلِ المؤمنين، وتعاطيهم مع أحكامِ اللّه وأوامرِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجِلَتْ﴾: منَ الوَجَل، وهو استشعارُ الخوفِ، ويَدلُّ على الأثَرِ الشّعوريِّ الّذي يَعتري القلبَ منَ الضّعفِ والاضطرابِ، ومُستَتبِعات ذلك من رَجَفانِ القَلبِ وانصِداعِه لذِكرِ مَن يُخافُ سَطوَتُه أو مُطالَعةُ جلالِه[1]، والمرادُ: فزِعَت قلوبُهم لذِكرِه استعظامًا ومَهابةً منه.

2) ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: من وكَلَ: وهو أصلٌ يدلُّ على الاعتمادِ على غيرِك في أمرِك، ومن ذلك الوكيلُ الفاعِلُ الّذي يَتوكَّلُ، والوكيلُ المفعولُ المتوكَّلُ عليه، وليس شرطًا أن يكونَ التّوكُّلُ عن ضعفٍ وعجزٍ في المتوكِّل[2]؛ لأنّه مُطلَقُ إنابةِ غيرِك عنك ليقومَ مقامَك[3].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وكل).
(3) الرّاغب، المفردات: (وكل).

والمرادُ: يتعلّقون باللّه، ويعتمدون عليه وحدَه في قضاءِ حوائجِهم وإنجاحِ مقاصدِهم.

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

دلائل الإيمان، خِشيةٌ غامرة، ووَجَلٌ خاشع، وتوكّلٌ مطلق

إنّ المؤمنين حقَّ الإيمانِ على الوجهِ الأكمَلِ: مَن إذا ذُكِر اللّهُ عندهم بأسمائِه وآلائه وأحكامِه، استشعروا الخوفَ منه، واهتزّت قلوبُهم من خشيتِه، واقشعرّت جلودُهُم إعظامًا وإجلالًا له، وإذا قُرِئَت عليهم آياتُ التّنزيلِ استمعوا إليها استماعَ المُستزيدِ الحريصِ المُقبِل، فيَزدادون بها تصديقًا وتحقيقًا لإيمانِهم، وهم في جميع أحوالِهم وأغراضِهم لا يعتمدون، ولا يتعلّقون إلّا باللّه وحده، وهذا من كمالِ إيمانِهم وسلامةِ يَقينِهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصل جملة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ عمّا قبلها:

العِلّةُ وبيانُها، ممّا يصحّ كونُه استئنافًا بيانيًّا

وقَعَت جملةُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ موقِعَ البيانِ والتّعليلِ لِما قبلها، أمّا البيانُ فهي مستأنفةٌ مَسوقَةٌ لبيانِ المرادِ بالمؤمنين المذكورين في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بذكر أوصافِهم الجليلةِ، جريًا على قاعدة: أنّ النّكرةَ إذا أُعيدَ ذكرُها معرفةً تكونُ عينَ الأولى، سواء كان هذا الاستئنافُ استئنافًا نحويًّا، أو استئنافًا بيانيًّا واقِعًا جوابًا لِسؤالٍ مُقَدَّر، كأنّه لمّا قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ سألَ سائلٌ: بأيِّ البراهينِ يتحقّقُ المرءُ من إيمانِه؟ فأجيب: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، أو البيان لتفصيلِ حالِ المؤمنين الكامليّ الإيمان مُطلقًا؛ ليُعلَمَ منه أنّ تلك الأمورَ الثّلاثةَ هي بعضُ شأنِهم، وعليهِ لا يكون لفظُ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ هنا عينَ النّكرةِ السّابقةِ، وأمّا التّعليلُ فعلى معنى أنّ تلك المقاماتِ الواردةَ بعد ﴿إِنَّمَا﴾ (مقام الخوفِ، ومقام زيادةِ الإيمانِ، ومقام

التّوكُّلِ) هي عِلّةٌ وسبَبٌ لوجوبِ تقوى اللّه، وإصلاحِ ذاتِ بينهم، وطاعتِهم للّهِ ورسولِه، لأنّ هذه الأحوالَ بعد ﴿إِنَّمَا﴾ من شأنِها أن تَحمِلَ المتّصفين بها على الامتثالِ لِما قبلَها منَ المأموراتِ[1].

بلاغةُ الحصرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في مستهلِّ الآيةِ الكريمة:

(إنّما) لفظٌ لا تفارِقُه المبالغةُ والتّأكيدُ حيث وقَع، ويصلُحُ مع ذلك للحصرِ، فإذا دخَلَ في قِصّةٍ وساعدَ معناها على الانحصارِ صحَّ ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الكهف: 110]، وإذا كان السّياقُ لا يتأتّى للانحصار بقيَت (إنّما) للمبالغةِ والتّأكيدِ فقط، كقوله ﷺ: «إنّما الرِّبا في النَّسيئَةِ»[2]، وكقولهم: (إنّما الشّجاعُ عَنتَرَةُ)، وأمّا مَن قال: (إنّما) هي لبيانِ الموصوف فغيرُ صحيحٍ؛ إذ بيانُ الموصوفِ يكونُ في مجرّدِ الإخبارِ دون (إنّما)، وقولُه هنا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ظاهرُها أنّها للمبالغةِ والتّأكيدِ فقط؛ أي: الكامِلون.

(إنّـمـا) لـفـظٌ مُلازِمٌ للمبالغةِ والتّأكيد

وإنّما جاءَتِ صِفاتُهم بصيغةِ الحصرِ لِثَلاثِ فوائد:

الأولى: لتنزيلِ المُخاطَبِ بها منزلَةَ مَن يَعلَمُ ذلك، ويوقِنُه فلا يُنكِرُهُ، فكأنّها وارِدَةٌ مَورِدَ الاعترافِ والإجماعِ عليها فلا يُختَلَفُ فيها.

الثّانية: للإشعارِ بأنّ مَن يَكتفي بتلك الصّفات، فقد بلَغَ كمالَ الإيمان، فهي كافيةٌ له في تلك الرّتبَة، فهي تكفي عن سائرِ ما سواها منَ الخِصال، ولا يَكفي غيرُها عنها في رُتبَةِ الكَمال.

الثّالثة: للاحترازِ والاحتراسِ والتّعريضِ بمَن لَم تتوفّر فيهِ هذه الصّفات، أنّ أمرَه غيرُ أمرِهم، وجزاءَهُ غيرُ جزائِهم[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 155/5، ورشيد رضا، المنار: 490/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 254/9.
(2) أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب بيع الطّعام مثلًا بمثل، رقم: (1596): 1217/3.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 500/2، ورشيد رضا، المنار: 490/9، وطنطاويّ، الوسيط: 30/6.

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ ودلالتُه:

الإخلالُ ببعضِ الواجباتِ لا ينقضُ الإيمانَ

ظاهِرُ القصرِ المُستفادِ من ﴿إِنَّمَا﴾ غيرُ مُرادٍ؛ لأنّ الأدلّةَ في الكتاب والسّنّة تظاهرَتْ على أنّ الإيمانَ لا يَنقضُه الإخلالُ ببعضِ الواجبات، ولأنّ أصلَ الإيمانِ لا ينحصِرُ في المقاماتِ المذكورةِ، بل هو حاصِلٌ بالتّصديقِ فقط أو مع الإقرار، ولو كانَ القصرُ مُرادًا لَلَزِمَ عدَمُ الإيمانِ عند عدمِ الطّاعة، ولَلَزِمَ أنّ مَن لم يَعترِه الوَجَلُ إذا ذُكِرَ اللّهُ لم يكن مؤمنًا! ولذا وجَبَ تأويلُ الكلامِ إلى إرادةِ رُتبَةِ الكمالِ لا رُتبَةِ الأصلِ والأساسِ؛ أي: الإيمانُ الكامِلُ بحصولِ هذه المذكورات، فهو كامِلٌ بها والمتّصِفون بها كامِلون، فتعيّن أنّ القصرَ ادعائيٌّ؛ لِتنزيلِ الإيمانِ الّذي خَلا مِنَ الواجباتِ العظيمةِ منزلةَ العدَم، وهو قصرٌ مجازيٌّ جارٍ على التّشبيه، فهو استعارةٌ مكنيّةٌ: حيثُ شبَّهَ الجانبَ المنفيَّ في صيغةِ القصرِ بمَن ليسَ بمؤمنٍ، وطويَ ذكرُ المشَبَّهِ به ورُمِزَ إليه بذكرِ لازمِه، وهو حصرُ الإيمانِ فيمَن اتّصفَ بالصّفاتِ التي لم يتّصِفْ بها المشَبَّهُ به[1].

سرُّ التّصريحِ بوصفِ المؤمنين بدلًا مِنَ الضّمير:

الإظهارُ قد يكونُ أوجزَ من الإضمار

صرّح بلفظِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ولم يقُل: (إنّما هُمُ الّذين إذا ذُكِر اللّه وجِلَتْ قلوبُهم)؛ لسببين:

الأوّل: لأنّه لو أضمرَ لعادَ الضّميرُ على لفظِ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ في جملةِ الشّرط ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ولو كانَ لكان الضّميرُ في معنى مَرجِعه، وهم مَن في حيّزِ الخطابِ ﴿كُنتُم﴾، فيوهِم حينئذٍ أن يكونَ المرادُ من ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ جماعةَ الخِطابِ في ﴿كُنتُم﴾، وهو إخلالٌ بمقاصدِ الكلام.

الثّاني: إرادةُ إجراءِ وصفِ الإيمانِ على المتّصفين بالأحوال

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/9، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 255/9.

المذكورةِ بعدُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، وفائدةُ هذا الإجراء: تعميمُ الوصف فيشملُ كلَّ مؤمنٍ في كلِّ زمنٍ، وتصويرُ المتّصفين بالإيمان كأنّهم حاضرون بذواتهم المتحقّقةِ بتلك الأحوال، فيشهدهم السّامعُ بأحوالهم التّي لا تُفارقُ أشخاصَهم، فأنت حين تقول: المؤمنون كذا وكذا، تتصوّرُ أشخاصًا وذواتًا قامَت صفةُ الإيمان والأحوال المذكورة بهم، وحين تُجري الوصفَ على الضَّمير فأنت تبحثُ عن مَرجِع الضّميرِ أوَّلًا، ثمّ تُجري الوصفَ عليه، فيطولُ الإجراءُ في ذهنِ السّامعِ.

نكتةُ استعمالِ اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإخبارُ بالموصول الخاصّ لزيادةِ التّعيينِ والتّعريفِ

استعمالُ الاسم الموصول خبرًا عنِ المتّصفين بالإيمان؛ لكمالِ العنايةِ بالخبَر، والإيذانِ بتحقّقِ ما في حيّزه من صفاتٍ لهم، فالإخبارُ بالموصول الخاصِّ زيادةٌ في تعيين تلك الذّواتِ المؤمنةِ، فكأنّ ذواتَهم صارَت معروفةً لمّا حقّقوا ما في حيّز الموصول من أحوالٍ، ففيه إيذانٌ بكمالِ نِسبةِ ذلك إليهم، وانفرادِهم عن غيرهم بالاتّصاف به.

دلالةُ مجيءِ جملةِ الصّلة جملةً شرطيَّةً:

أحوالُ الوجَلِ وتنامي الإيمانِ من عاداتِ المؤمنين المستمرّة والمتكرّرة

مجيءُ جملةِ الصّلةِ جملةً شرطيّةً مُصدّرةً بـ(إذا) التّحقيقيّةِ لمدخولِه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، الغرضُ منه: إفادةُ أنّ الصّفاتِ الواقعةَ في الجواب ممّا يُعهَدُ تَكرارُهُ واستمرارُه منهم، كلّما حدثَ موجِبُه وهو الشّرط، فكلّما سَمِعوا ذِكر اللّه وجِلوا، وكلّما سمِعوا آيةً جديدةً أتَوا بإقرارٍ جديدٍ، فالتّعبيرُ عنهم بـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أفادَ تحقّقَهم بأصل الإيمانِ على وجه الدّوامِ والقطعِ، والإخبارُ عنهم بالموصول وما في حيّزه أفادَ استمرارَهم على عهدِ الإيمانِ بتكرار الأعمالِ اللّازمةِ عنه والضّروريّةِ في كَمالِه، ويُعينُ على ذلك تصديرُ الشّرطِ بـ(إذا) الظّرفيّةِ الزّمانيّةِ المُستعملةِ هنا لإفادة

الاستمرارِ والتَّكرارِ، فهي تفيدُ استمرارَ ما دخلَت عليه في الأحوال كلِّها؛ أي: هذه الأحوالُ منَ الوجل وازدياد الإيمانِ من عاداتِهم المستمرّةِ والمتكررةِ[1].

ذِكر الله مُتحقِّقُ الأثر، ومتجلّ في أوثق الخَبَر

السِّرُّ في استعمال ﴿إِذَا﴾ بدلًا من (إنْ):

تُستعمَلُ (إذا) في الشّرط المتَحقِّق الوقوع، أو كثير الوقوع، وفيما كان سببُه قويًّا فلا بُدَّ من حصولِ جوابه، ولذا استعمَلَ ﴿إِذَا﴾ هنا؛ لأنّ ذِكرَ اللّه حاصِلٌ بكثرةٍ، فهو مُتحقِّقٌ، وهو سببٌ قويٌّ لاقتضاءِ جوابه، وهو قوله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وأمّا (إنْ) فالأصلُ استعمالُها فيما هو مُحتَمَلُ الوقوع، والمشكوكُ فيه، بل وفي المعاني الافتراضيّة الّتي تقتصِرُ على الإمكان الذّهنيّ فقط، ولذا لم يَحسُن هنا تصديرُ الشّرطِ بها[2].

تعدّدُ أسبابِ ذِكرِ اللهِ ومصادِرِه ومُتعلَّقِه

نكتةُ بناءِ الفعل ﴿ذُكِرَ﴾ للمفعول:

جاءَ التّعبيرُ عنِ الذِّكرِ بصيغة الماضي المبنيّ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه ﴿ذُكِرَ﴾؛ لقصد العموم والشّيوعِ في مصدرِ الذِّكرِ وفاعِله، وذلك للدّلالةِ على أنّ التّفاعلَ والتّأثّرَ بالذِّكرِ يحصلُ منهم بمجرّدِ ذِكرِ اللّه، بغضّ النّظَرِ عن فاعِله، وبغضّ النّظرِ عن آلَته، فقد يحصلُ ذِكرُ اللّهِ لهم بالكلامِ فيسمعونه، وقد يحصلُ لهم ذِكرُ اللّهِ بالكتابةِ فيقرؤونه، وقد يحصلُ لهم ذِكرُ اللّهِ بنظَرِهم في الكونِ وسَيرِهم في الأرضِ فيشهدونَه، فهُم في شَجَنٍ دائم ووَلَهٍ مستمرٍّ مع ذِكرِ اللّهِ أيًّا كان مصدرُه، وأيًّا كان قائلُه وفاعِلُه، وسواءٌ صَدَرَ الذِّكرُ منهم أو صَدَرَ إليهم.

الذّكر أعظم بابٍ للقبول، والتّلاوة نيلٌ لمنتهى السّول

نكتةُ إطلاقِ الذّكرِ، وتقييدُ تلاوةِ الآياتِ:

أطلقَ الذّكرَ ولم يقيّده بمصدرٍ أو جهةٍ لِتعدّدِ مواردِه وفاعِليه ووسائلِه، فليس يَتعيّنُ له ما يَصِحُّ أن يُقَيِّدَهُ به، وأمّا التّلاوةُ في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 479/5، والزّركشيّ، البرهان: 197/4، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 176/1.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 5/113، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 173/1.

قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ﴾ فقُيِّدت بـ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لأنّ التّلاوةَ مُحدَّدةُ المصدرِ والفاعِلِ والآلةِ والجهةِ، فهيَ وحيٌ، وفاعِلُها الّذي يَتلوها، وهو الرّسولُ ﷺ أو كلُّ تالٍ للآيات، وآلتُها اللّسانُ منَ التّالي، والأسماعُ منَ المتلوِّ عليه، ولذا قيّدها بـ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لانحصارِ مُتعلَّقاتِها في فاعِلها ومفعولِها، وخَصَّ التّقييدَ بـ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ دون (إليهم) أو (لهم)؛ لِتضمينِ القيدِ معنى الاستيلاءِ والاستحواذِ؛ ولأنّ الأصلَ في التِّلاوة أن تتعدّى بـ(على)، فكأنّ الآياتِ المتلوّةَ لّما أُلقيَتْ على أسماعِهم أخذَت بمجامعِ نفوسِهم، واستولَت، واستحوذَت عليها من كمالِ تأثيرِها وحركَتِها في القلوب.

إيثارُ الفعل ﴿وَجِلَتۡ﴾، والعدولُ عن مرادفه:

الـوَجَـلُ من أفعال القلوبِ الّتي لا تظهرُ على البدن

أوثِرَ التّعبيرُ بالفِعل﴿وَجِلَتۡ﴾؛ لِتمحّضِه في الانفعالات الباطنيّة؛ ولذا أُسنِدَ إلى القلوب، بخلاف التّعبيرِ بالخوف والخشية، فليس له هذا الاقتصارُ على الباطن؛ إذ كلاهما له تعلّقٌ بالجوارح الظّاهِرةِ بعد تَحرّكِ القلبِ بهما[1].

سرُّ إسنادِ الوجلِ إلى القلوبِ ﴿وَجِلَتۡ﴾:

الـوَجَـلُ هو النّابِعُ من القلب الشّريفِ، في الجسد المنيف

أسنَدَ الوجَلَ إلى القلوبِ، فلم يَكتَفِ بضمير الجميعِ (وجِلوا)؛ لإرادةِ التّنصيصِ على محلّ الشّعورِ الّذي يتعلّقُ به الوجَل؛ ليُفيدَ أنَّ وجَلَهم كائنٌ في أصلِ شعورهم وهو القلب، وليس حركةً باطنيّةً طارئةً، بل هو نابعٌ منَ الأصل الشّريفِ في ذواتهم، وإذا كان ذلك فإنّ وجلَهم "يتخلّلُ صميمَ عظامِهم، ويَجولُ في سائرِ معانيهم وأجسامهم"[2]. كما أنَّ (الوَجَل) خوفٌ مشوبٌ باضطرابٍ له حدٌّ، إذا وصل إليه كان أرضًا خصبةً لغرس الخير، مثل (الوَجيل): حُفرة يستنقعُ فيها الماءُ، وهذا المعنى يناسبُ سياقَ الآيةِ الكريمةِ.

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 245.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 219/8.

وجهُ الجمعِ بين وجَلِ القلوبِ في (الأنفال)، واطمئنانِها في (الرّعد):

تأثيرُ السّياقِ في اصطفاءِ التّراكيب له أثرٌ بالغٌ في بيان النّص واتّساقه

قوله: ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]، وقوله: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: 28]، ارتبطَ بالوجل وباطمئنانِ القلوب؛ لاختلاف مُتعلَّقَى الذّكر هنا وهناك، فهنا السّياقُ في حكم الأنفال، بعد تشاجرٍ وجِدالٍ، فناسَبَ أن يكونَ ذكرُ اللّه أقربَ تعلُّقًا بذكر أحكامِه وأوامرِه ونواهيه، الّتي تقتضي الوجلَ بتعظيم الأمرِ والنّهي والإشفاقِ منَ التّقصير فيهما؛ إجلالًا لهيبةِ اللّه، ورهبةً من مؤاخذته وفوات ثوابِه، وأمّا في سورة الرّعد: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾؛ فمعناه: تطمئنُّ بذكر هدايته ورحمتِه وملاجِئ إغاثتِه وألطافه، أو هو مطمئنٌّ بثبوتِ الإيمانِ فيه، ولا تضادّ بين هذا وذاك، بل هو من تنوّعِ الأحوالِ بتنوّعِ وارِداتها[1]. لأنَّ ذكرَ اللّه، إنْ جاءَ بعدَ المخالفةِ، لا بُدَّ للنّفس أن تخافَ وتَوجَلَ وتضطربَ هيبةً للّه ﷻ، أمّا إن جاء ذِكرُ اللّهِ بعدَ المصيبةِ أو الشّدّةِ فإنَّ النّفسَ تطمئنُّ به، وتأنَسُ لما فيها من رصيدٍ إيمانيٍّ ترجعُ إليه عند الشّدَّةِ، وتركَنُ إليه عند الضّيقِ والبلاءِ[2]. وفي الجمع بين الآيتين إشارةٌ لطيفةٌ إلى مقام العبدِ الذّاكرِ؛ فهو في حال البدايةِ وجِلٌ، وفي حال النِّهايةِ مطمئنٌّ.

السّرُّ في تقديم الذّكرِ على التّلاوة:

التّلاوةُ ذِكرٌ خاصٌّ، وذِكرُ اللهِ مِن أوسَعِ العبادات

تقديمُ الذّكرِ على التّلاوةِ من تقديم الشّيءِ على بعضِ أفرادِه؛ لأنّ التِّلاوةَ ذِكرٌ خاصٌّ، وذِكرُ اللّهِ غرضٌ واسِعٌ وعبادةٌ مطلقةٌ، فبدأ بما هو أوسعُ استِئهالًا به لِما هو أخصُّ في المنزِلة، وهو ذكرُ التّلاوة للوحي المُنَزّل؛ ليُؤذِنَ بذلك أنّ التّحقُّقَ بمقام عموم الذّكرِ هو بوّابةُ التّحقُّق بمقام خصوص الذّكرِ وهو كلامُ اللّه، فبدأ بالأكثر الأوسع لينتقِلَ إلى الأخصّ الأعلى.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 450/15، ورشيد رضا، المنار: 49/9، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3063/6، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4570/8.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9821/16.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرورِ على نائب الفاعل:

تقديمُ الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ على نائب الفاعل ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ لقصد تخصيصِ الفِعلِ بهم، وتسليطِه على ذواتِهم، فالتّلاوةُ جاريةٌ لأجلهم، مُلقاةٌ على مسامِعهم وحواسِّهم، ففيه دلالةٌ على أنّ الفِعلَ حاصِلٌ لإجرائه عليهم.

إفـادةُ أنّ فِـعلَ الـتّـلاوةِ حاصِلٌ لإجرائه عليهم

سرّ إيثارُ التّعبيرِ بالآيات دون القرآن:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، لم يقُل: (وإذا تُلِيَ عليهم قُرآنُه) مُراعاةً لحالِ تَنزّلِ الوحي، وأنَّه مازال ينزِلُ بالآياتِ مرّةً بعد مَرّةٍ، وهذا التّنزُّلُ آيةٌ في نفسِه؛ لأنّ النّزولَ نفسَه علامةٌ على تأييد الرّسولِ، وهو مُتَعَدٍّ بالنّازِل من كلام اللّهِ وهو الآيات، وأمّا القرآنُ فيُقالُ باعتبار المقروءِ المُستقِرِّ في الصّدور والسّطور، وليس مقصودًا هنا، بدليل أن جعلَ جوابَ الشّرط ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾، فإنَّ وصفَها بالآيات ممّا يؤذِنُ بترسيخ الإيمانِ؛ لأنَّ الآياتِ علاماتٌ على صدقِ الأخبارِ وإعجازِ المباني والمعاني، فعبّرَ في الشّرطِ بما هو أدلُّ وأدعى لِما في الجواب.

نـزولُ الـقـرآنِ علامةٌ على تأييدِ الرّسولِ وصِدقِه

فائدةُ إضافةِ الآيات إلى ضميرِ اسمِ الجلالة:

في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ أضافَ الآياتِ إلى ضمير الجلالة؛ إيذانًا بتعريفها، وحملًا على قبولها، والقطعِ بثبوتها وعدمِ احتمالِها؛ لأنّها إذا كانَت آياتُ اللّهِ ومِنَ اللّهِ انتفى عنها بذلك عوارِضُ الوهمِ والرّيبِ فيها، فأحرى بهم أن يتناولوها بوازِع العزمِ والصّدقِ.

الإضـافـةُ بقصد تعريفُ المضافِ وتفخيمِه

سرّ إيثارُ استعمالَ الفعلِ (زادت) دون غيره:

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ الفعلِ ﴿زَادَتۡهُمۡ﴾ دون غيره؛ ليدلَّ على اطّرادِ المطاوعةِ بين تجدّدِ الوحي بالنّزول، وتجدّدِ الإيمان؛ لأنّه كلّما نزلَت آيةٌ زادَت بها الآياتُ النّازلةُ من قبلُ، فلمّا كان تَجدّدُ التّنزيلِ زيادةً كان تجدّدُ الإيمان زيادةً أيضًا؛ لأنّه زادَ إيمانًا إلى سائرِ ما

لـكـلِّ حـكـمٍ تصديقٌ خاصٌّ، وإيـمـانٌ جديدٌ، يتنامى ويزيد

قد آمَنَ به؛ إذ لكلِّ حكم تصديقٌ خاصٌّ، ولهذا عبَّرَ بزيادةِ الإيمانِ عن زيادةِ العِلمِ وأحكامِه، وقيل: زيادةُ الإيمانِ كنايةٌ عن زيادةِ العملِ[1]، وخلاصةُ ذلك: أنّ تجدّدَ الإيمانِ هو معنى زائدٌ على أصله كزيادةِ البناءِ فوقَ البناءِ، وزيادةٌ كائنةٌ في أصلِه، كتقويةِ ذاتِ الشّيء بِدعامَةٍ تلتحقُ به، فكما حصلتِ الزّيادةُ في أفراد الآياتِ حصلَت معها الزّيادةُ في الإيمانِ؛ اطّرادًا للمُطاوعةِ بين المُسبِّب والسّببِ، وبين المُتضايفين، وأيضًا لمراعاة التّدرّجِ في حصول الإيمانِ بتدرّجِ ورودِ الآياتِ، والتّدرّجُ زيادةٌ درجةٍ إلى درجة، فقيل لذلك زيادة.

إسنادُ الزّيادةِ إلى الآيات وعدمُ إسنادها إلى المؤمنين:

المُـتـسَـبِّـبُ في حكمِ المُباشِر، في الغالب

إسنادُ الزّيادةِ إلى الآياتِ لتنزيلِ الآياتِ منزلةَ الفاعِل للزّيادة، وهو مجازٌ عقليٌّ؛ لإسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقيّ، لكن لمّا كانَتِ الآياتُ سببًا في ذلك جُعِلَتْ كمَن باشَر الفِعلَ؛ إذِ المُتسَبِّبُ في حكم المُباشِر غالبًا[2].

دلالةُ الواو، في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾:

التّوكُّلُ عبادةٌ مُستَقِلّةٌ، وأصلٌ في حقيقةِ الإيمان

الواو في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إمّا داخلةٌ في حيّزِ صِلاتِ الموصولِ المتقدّمة، فهي صِلةٌ ثالثةٌ معطوفةٌ على جُملتَي الصّلةِ قبلها، وإمّا أن تكون مستأنفةً عمّا قبلها، وعلى الوجهين فلا محلَّ لها منَ الإعراب، ويُحتمَلُ أن يكونَ لها محلٌّ منَ الإعراب، وهو النَّصبُ على الحالِ من مفعول ﴿زَادَتۡهُمۡ﴾[3].

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

رعايةُ الفاصلةِ مع رعاية المعنى مِن لوازمِ الفصاحة

تقديمُ الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفيدُ الاختصاصَ؛ أي: عليه لا على غيره، وهو أيضًا تقديمُ ما حقّه

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 271/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 257/9.
(3) ابن عادل، اللّباب: 449/9.

التّقديم في المعنى؛ لأنّ اللّه هو سببُ المعونةِ المرجوّةِ منَ التّوكُّلِ، وتقديمُ المقصودِ في مقامِ الحاجةِ أولى من تقديم فِعلِ القاصد؛ لتوفّر العنايةِ والهمّةِ إليه وتعلُّقِ الغرضِ به. وفي التّقديم مناسبةٌ لفظيّةٌ وهي رعايةُ الفاصلة، وهو من لوازم الفصاحة، وإمّا للتّعريض بالمشركين؛ لأنّهم يتوكّلون على إعانة الأصنام، فيكون الكلامُ مدحًا للمؤمنين، وتعريضًا بذمّ المشركين، ثمّ فيه تحذيرٌ من أن تبقى في نفوسِ المؤمنين آثارٌ منَ التّعلّقِ بما نُهوا عنِ التّعلُّقِ به؛ لتوهّمهم أنّهم إذا فوّتوه فقد أضاعوا خيرًا منَ الدّنيا[1].

إيثارُ استعمالِ اسمِ (الرّبّ) دون اسم الجلالة (الله):

امتلاءُ وصفِ الرّبوبيّةِ بمعاني العِوَضِ والإحسانِ

لإيثارِ اسمِ الرّبّ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ مع إضافتِه لضمير الغائبين دلالةٌ على اختصاصهم بعطاء الرّبوبيّة الخاصّ حالَ توكُّلِهم وتفويضِهم، وهو إيذانٌ بالإحسانِ المتواترِ والعِوَضِ المستمرِّ عمّا فاتهم من عرضِ الدّنيا والخَلَفِ بالمزيد منَ الرّزقِ الواسعِ، وفيه إغراءٌ لهم على الرّضا بقسمةِ رسولِ اللّه ﷺ للأنفال وعدمِ الحزن، إنْ فاتَهم منها حظٌّ كانوا قد أمّلوه، فإنّ ربَّهم لا يفوتُهم بربوبيّته، ولا ينقطعُ عنهم بآثارها المتجدّدة[2].

دلالةُ ترتيبِ الإخبارِ عن توكّلهم بعد زيادة إيمانهم:

تمامُ التّوكُّلِ من تمامِ الإيمانِ

إيرادُ التّوكُّلِ بعد زيادةِ الإيمانِ أمارةٌ على أنّه لا يصفو للعبد توكُّلٌ، ولا تدومُ له حقيقتُه إلّا بالإيمان الكامل الّذي يقوى ويشتدُّ بزيادته في القلوب، فتمامُ التّوكُّلِ من تمامِ الإيمانِ، وضَعفُ التَّوكُّلِ من ضعفِ الإيمانِ.

نكتةُ استعمالِ فعلِ ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، وإيثارُ صيغةِ المضارع:

المؤمِن لا غنى له عن توكّل على الله، ولجوء إلى حماه

التّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، دليلٌ على أنّ التّوكُّلَ دَيدَنُهم،

(1) ابن عادل، اللّباب: 9/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/259.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/259.

وهو يتجدّدُ في قلوبهم بتجدّدِ حوائجِهم، فكلّما عرضَت لهم حاجةٌ أحدثوا لها توكُّلًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوجَل والخوف والخشية والرّهبة:

الوجَلُ انفعالُ القلبِ عند الخوفِ والخشيةِ، وهو هنا آثرُ في الدّلالة

الخوف: توقّعُ المكروه بسبب أمارةٍ معلومةٍ أو مظنونةٍ، وغالبًا يكون من ضعف الخائفِ، وإن كان المخوفُ أمرًا يسيرًا، وهو قلبيٌّ نفسانيٌّ يُحمَلُ على حركة البدنِ بالفرار والانتشار أو الكفّ والاحتراز. الخشية: خوفٌ مشوبٌ بتعظيمٍ يمنعُ منِ ارتكابِ ما يسببُ المكروهَ، ويبعثُ على الامتثال والانقياد، حتّى وإن كان الخاشيُّ قويًّا فهو سكونٌ وانقباضٌ عنِ التّوجّهِ إلى الإبابة أو العصيان، وأكثرُ ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه، ولذلك خصّ العلماءَ بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28].

والفرق بينهما: أنّ متعلَّقَ الخوفِ استقباليٌّ ومُتعلَّقَ الخشية حاليٌّ، وكلاهما يظهرُ أثرُه على الجوارح، وأثرُ الخوف قلقلةٌ وعدمُ قرار، وأثرُ الخشية سكينةٌ، وكلاهما مانعٌ عن ملابسةِ سببِ المكروه، والعِلمُ في الخشية أحضرُ منه في الخوف، والتّعظيمُ في الخشية ألصقُ منه في الخوف[1]. وأمّا الرّهبةُ فهي تَحقُّقُ الخوفِ وظهورُ أثَرِه منَ التّحرّزِ والاضطرابِ، وهي منَ الرَّهابة؛ وهي عِظامُ الصّدر الّتي تضطربُ عند الخوف، أو منَ الرّهب؛ وهي النّاقةُ المهزولةُ الضّعيفةُ؛ لأنّ الرّاهِبَ شيئًا ضعيفٌ أمامَه. وعليه: فالرّهبةُ هي ما يورِثُه الخوفُ منَ الضّعفِ والاضطرابِ، فهي الجانِبُ العمليّ في الخوف، فالخوفُ قلبيٌّ نفسانيٌّ، والرّهبةُ سَمْتُه الظّاهر. وأمّا الوجَلُ فهو انفعالُ القلبِ عند مُلاحظةِ أسبابِ الخوفِ وأسبابِ الخشية، فهو استشعارٌ باطنيٌّ

(1) الرّاغب، المفردات، (خوف - خشى)، والنّزهيّ، الفروق اللّغويّة، ص: 22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 480/1.

وتوجُّسٌ خفيٌّ، فحركةُ الوجَلِ باطِنَةٌ شُعوريّةٌ، فيَدخُل فيه جميعُ ما يَعتري القلبَ منَ الانفعالاتِ المُطاوِعة والمُصاحِبةِ للشّعور بمعاني التّعظيم والمخافةِ والإجلالِ الّتي تهجمُ على القلبِ عند مُطالعةِ أسبابها منَ الذِّكرِ والفِكرِ وسَماعِ المواعظ والزّواجِر.

وعليه: فمتعلَّقُ الخوفِ استقباليٌّ، ومُتعلَّقُ الخشيةِ حاليٌّ، وكلاهما يظهرُ أثرُه على الجوارح مع نُشوئِهما أصالةً في الباطن، ومُتعلَّقُ الرّهبةِ ظاهِريٌّ حاليٌّ؛ لأنّها الأثَرُ العمليُّ للخوف، وأمّا الوجَلُ فهو مقصورٌ على حركة الباطن وانفعالِ الشّعورِ الخفيِّ بجميع تلك المُسمّياتِ السّابقة، ولذا يجيءُ في القرآن دائمًا مُقترِنًا بالقلوب أو وصفًا لِخفايا المشاعِر مع اقترانه بمُطالعةِ ومُلاحظةِ سَببِه: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]، ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: 60]، ﴿إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢﴾ [الحِجر: 52](1).

التّلاوة والقراءة:

اشتِمالُ التّلاوة على معنًى عمليٍّ، يؤذِنُ بالعمل بالتّلاوة واستشعار عظمة الله

من حيثُ الموضوعُ (التّلاوة) قراءةٌ متتابِعةٌ، لا تكونُ إلّا لكلمتين فصاعِدًا، فهي قراءةٌ على نحوٍ مخصوصٍ؛ لأنّ أصلَ التّلاوةِ الاتِّباعُ، وإتباعُ الشّيءِ الشّيءَ، بخلافِ القراءةِ فتكون في الكلمةِ الواحدة، فتقول: (قرأ فلانٌ اسمَه)، ولا يُقال: (تَلا اسمَه) - إذا كانَ يقولُ لفظَ اسمِه فقط، وليس اسمَه بالكامِل (اسم أبيه وجدّه ولقبِه) - لأنّ أصلَ القراءة جمعُ الشّيءِ وضمُّ بعضِه إلى بعض، وهذا حاصِلٌ في الكلمةِ الواحدةِ بجمعِ حروفِها بعضِها إلى بعض، وحاصِلٌ فيما فوق ذلك، فالقراءةُ أعمُّ.

من حيثُ الأثرُ (التّلاوة) قد تشتَمِلُ على جانبٍ عمَليٍّ، وهو اتّباعُ الشّيءِ المتلوّ والعمل به، فكأنّ الّذي يَتلو القرآنَ - مَثَلًا - يَتتابَعُ في

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رهب) - (وجل)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 165/5.

ترتيلِ ألفاظِه، ويُتبِعُ ذلك باتّباعِ ما قرأهُ فهمًا وعملًا، بدليلِ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]؛ أي: يتّبعونه بالعِلمِ والعملِ، وأمّا القراءةُ فهي مجرّدُ التّلفّظِ بالكلامِ، سواء اقترن ذلك بعلمٍ وعملٍ، أو خلا منهما، بدليل قولِ النّبيِّ ﷺ في الخوارج «يقرأونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقيهِم»(1)، ولم يقُلْ: (يَتلونَ القرآنَ)، وعليه: فالقراءةُ أعمُّ.

مِن حيثُ المحلُّ: (التّلاوة) تُستعملُ للقراءةِ من مكتوبٍ وتكون بصوتٍ، ويُتسامَحُ فيها فتكونُ من غيرِ مكتوبٍ لكن بصوتٍ، كتلاوةِ المحفوظِ في الذّهن، و(القراءةُ) تُستعمَلُ للقراءةِ من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، بصوتٍ وبغير صوتٍ (كمَن يقرأُ القرآنَ في نفسِه)، فإذا عُدّيا (تَلا، وقَرَأ) بـ(على) فهما بصوتٍ ولا بُدّ(2).

يتوكّلون ويُفوِّضون:

التّوكُّلُ يُلحَظُ فيه سبَبُ العبدِ وغرَضُه، والتّفويضُ خالٍ من ذلك

التّوكُّلُ: هو الاعتمادُ على الغيرِ في الأمرِ، بحيث يكون نائبًا عنك فيه. فيُلحظُ في التّوكُّلِ مَعنيان: الاعتماديّةُ مِنَ الوكيل الفاعل، والنّيابةُ مِنَ الوكيل المفعول. وعلاقةُ الوَكالَة سببيّةٌ بين الطّرفين؛ أي: لا ينوبُ الوكيلُ عن أحدٍ إلّا بسببٍ وإذنٍ منه في التّصرّف، فالفاعلُ له دَخلٌ وسببٌ في محلّ الوكالةِ، ولذا جعلوا منطلقَ التّوكُّلِ قيامَ العبدِ بالأسباب؛ ليصحَّ انعقادُ الوكالةِ (التّوكُّل) عليها، ومعنى ذلك: أنّ التّوكُّلَ مُحدَّدُ السّببِ ومُحدَّدُ الغاية، وحقيقةُ التّوكُّل: الاعتمادُ على اللّه الوكيل ﷻ في توصيلِ السّبَبِ لِغايتِه المُرادة، وأمّا التفويضُ فأصلُه "الشّيوعُ وعدمُ تَحدُّدِ اختصاصِ الشّيءِ بمكانٍ،

(1) متّفقٌ عليه، أخرجه البخاريّ، كتاب المناقِب، باب علامات النّبوّة، برقم: (3341)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القراءة، برقم: (1358).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63، والرّاغب، المفردات: (تلو - قرأ)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 308 - 703، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو - تلى)، (قرأ).

أو صحبةٍ، أو مِلك"[1]، فالتّفويضُ علاقةٌ مَشاعيّةٌ تقومُ على إطلاقِ يَدِ المُفَوَّضِ في الأمر تصرُّفًا وحُكمًا من غير قيدٍ ولا سبَبٍ يتوقّفُ عليه، فهو إرجاعُ الشّيءِ بعمومِه وردُّهِ إلى حكمِ اللّهِ خاليًا من سبَبِ المفوِّض وغَرضِه. والخلاصةُ أنّ التّوكُّلَ يُلحَظُ فيه سبَبُ العبدِ وغرَضُه، بدلالةِ ما تقتضيه الوكالةُ من نيابةِ الوكيلِ عنِ الموكِّل في غرضٍ ما، فالنّيابةُ تقتضي سببًا تتعلَّقُ به، وغايةً يُرتَجَى وصلُ السّببِ بها، واعتمادًا يَنتَويهِ المتوكِّلُ ويُعلِّقُه بالوكيل. وأمّا التّفويضُ فلا يُلحَظُ فيه أثَرُ المُفوِّض منَ السّببِ والعملِ؛ لأنّه إخراجٌ شامِلٌ للأحوالِ والأغراضِ من حوزَةِ المخلوقِ إلى حوزَةِ الخالق بلا قيدٍ ولا سبَبٍ ولا شرطٍ. ولذا يصحُّ أن يقولَ العبدُ توكّلتُ على اللّه في السّعيِ على الرّزق، ولا يقولُ فوّضتُ؛ لأنّ السّعيَ سبَبُ العبدِ، ويقول: توكّلتُ على اللّهِ في رِزقي، ويقول كذلك: فوّضتُ. ومن جزالةِ النّظمِ الكريمِ: أنّه قال: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ مسبوقًا بأعمالِهم الباطنة ومَلحوقًا بأعمالهم الظّاهرة، ليومِئَ إلى أنّ التّوكُّلَ مَحفوفٌ بمكاسِب العبدِ وأعمالِه، فهو مُنعَقِدٌ عليها[2].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فوض).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فوض)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 3/256.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾ [الأنفال: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين أعمال القلوب، وبين الصّلاة والإنفاق رجاءُ مَنْ إليه نؤوبُ

لمّا وصَفَ اللّهُ ﷻ المؤمنين بأعمالِ الباطن منَ الوجَلِ وزيادةِ الإيمانِ والتّوكُّلِ، وصفَهم أيضًا بالأعمالِ الظّاهرةِ البدنيّةِ والماليّة: إقامةِ الصّلاة والإنفاقِ من رزق اللّهِ في سبيلِ اللّه، فانتقلَ من تقرير حقيقةِ الإيمانِ إلى تقرير أماراتِه وبراهينِه الدّالّةِ عليه ظاهرًا وباطنًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُقِيمُونَ﴾: منَ الإقامةِ بمعنى: الثَّباتِ والمُداومة. كقولهم: أقامَ في المكانَ؛ إذا ثَبَتَ فيه ودام، ومِن إقامَةِ الشّيءِ بمعنى: تَوفيَتِه حَقَّه. ومعنى يُقيمون: يُداوِمونَ عليها، ويؤدّونها أداءً تامًّا لا نَقصَ فيه[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يكون اكتمال الإيمان بإقامة الصّلاة، والمبادرة إلى الإنفاق والصّدقات، والمؤمنون الكامِلون همُ الّذين يُداوِمون على الصّلواتِ بصِفَتِها التّامّة، ويحافظون على أوقاتها، ويحفظونها منَ الخَلَل والدّخَل، وممّا رزقناهم يخرجون النّفقاتِ في الواجبات والمستحبّات.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ الفصلِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

فائدةُ الفصل الانتقالُ من غرضٍ إلى غرضٍ

الفصلُ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لكمالِ اتّصالِه مع ما قبله، فهو نعتٌ للموصولِ الأوّلِ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ﴾ في الآيةِ السّابقة، وهو مُستَحسَنٌ لإدخالِ الجملةِ في حيّزِ الخبريّةِ

(1) الرّاغب، المفردات: (قوم).

عنِ المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، فكأنّه قال: (إنّما المؤمنون الّذين يقيمون الصّلاة)، فيجتمِع في ذلك، وفي الصِّلاتِ المتعاطِفة، الإخبارُ عنهم بالصّفةِ القلبيّةِ والصّفةِ البدنيّةِ والصّفةِ الماليّةِ، أو بدلٌ منه، أو عطفُ بيانٍ، أو منصوبٌ على القطع لغرضِ المدحِ وإفادةِ الاستقلال، أو في محلّ رفعِ خبرٍ عن مبتدأٍ محذوف؛ أي: همُ الّذين، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ، فجملةُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنّه سُئِل: هذه صِفاتُهُم القلبيّةُ الباطِنةُ مِنَ الوجَلِ وزيادةِ الإيمانِ والتّوكُّلِ، فأين أوصافُهم القالِبيّةُ الظّاهِرةُ، فأجيب: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وعلى ذلك يكون الفصلُ لِشبهِ كمالِ الاتّصالِ، وفائدةُ الفصلِ: الانتقالُ من غرضٍ إلى غرضٍ، وهو الإخبارُ عن عَمَلِ الظّاهِرِ بعد أن أخبَرَ عنهم بحالِ الباطِنِ(1).

إيثارُ استعمالِ الاسم الموصول، بدلًا من اسم الفاعل:

الاسم الموصول يُبينُ عمّا في حيّزِه منَ الصِّلَةِ أكملَ بيان

تصديرُ الجملةِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقُل: (المقيمونَ)؛ لِقصدِ الإخبارِ عنهم بذلك استقلالًا، بحيثُ لو اقتُصِر في تعريفِ المؤمنين؛ بأنّهم الّذين يقيمون الصّلاةَ، وممّا رزقهم اللّهُ تعالى ينفقون، لصحّ ذلك، وكان خبرًا كافيًا في التّعريف بهم، فالاسمُ الموصولُ أفادَ تمييزَهم بما في حيّزِه من صِلةٍ، وجعل مضمونَ الصِّلةِ علامةً فاصِلةً في جريانِ وصفِ الإيمانِ وكمالِه عليهم.

دلالة التّعبيرِ بـ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، على الاستعارة:

أهميّة إقامة الصّلاة، وسرُّ إفرادِ لفظها في السّياق

أصلُ الإقامة: الانتصابُ والنّهوضُ من قعودٍ واضطجاعٍ. وإقامةُ الصّلاة: التّشميرُ لأدائها وإيقاعها على نحوٍ منَ العنايةِ والمواظبة، وإقامتُها استعارةٌ تبعيّةٌ في تشبيهِ صيانتها منَ الخلل في أركانِها وشروطِها، بجعلِ الشّيءِ قائمًا بعدَ اعوجاجٍ (تقويمٌ وتعديلٌ)، أو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 271/5، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 220/8، والآلوسيّ، روح المعاني: 157/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 260/9.

كنايةٌ عنِ الدّوام مِن بابِ قولِه: (قامَتِ السّوقُ)؛ إذا راجَت ونَفَقَت سِلعتُها؛ لأنّ نَفادَ السِّلَعِ في السّوقِ مُشعِرٌ بتوجّه الرّغباتِ إليها، وذلك يَستدعي استدامتَها، فإذا لم تَكن قائِمةً لم تكن دائِمةً، أو مجازٌ في الإسناد، بمعنى: يجعلون الصّلاةَ قائمةً؛ فيفيد التّجلّدَ والتّشمّرَ، وأنّها تقعُ عن مَزيدِ نشاطٍ كقولهم: قامَتِ الحربُ على ساقِها، أو مجازٌ مُرسَلٌ من بابِ إطلاقِ مُعظَم الشّيءِ على كُلِّه، وهو ركنُ القيامِ فيها؛ أي: يوجِدون قيامَها؛ أي: يَقومون فيها، فأسندَ القيامَ إليها؛ لأنّه أظهرُ أجزاءِ الصّلاة، وغالِبٌ فيها، وأرادَ به أداءَها وتحصيلَها كامِلَةً [1].

وسرُّ إفرادِها، فلم يَقُل: (الصّلوات)؛ لأنّه أرادَ اسمَ الجنسِ الّذي يدلُّ على الحقيقةِ والماهيّة، فيشملُ كلَّ أنواعِ الصّلاةِ من فريضةٍ ونافلةٍ وغير ذلك؛ ليدلَّ على أنّ إقامتَهم للصّلاةِ لا تختصُّ بها صلاةٌ دون صلاةٍ، بل هم مقيمون لكلِّ ما يتحقّقُ فيه معنى الصّلاة.

دلالةُ الفعلِ ﴿يُقِيمُونَ﴾، دون الفعل (يصلّون):

إسنادُ القيامِ إلى الصّلاة، يتضمّن مدحًا وتنويهًا بمن أقامها

التّعبيرُ بـ﴿يُقِيمُونَ﴾ دون (يُصلّون)؛ للتّنبيه على أنّه أرادَ أكثرَ من مجرّد إيقاعِها وفِعلِها، فِصياغةُ الفِعلِ من غير لفظِها (الصّلاة - يُصلّون)، يدلُّ على شيئين: الأوّل: إيقاعُها قائمةً لا اعوِجاجَ فيها ولا فتورَ يعتريها، كحال الشّيءِ المنتَصبِ الثّابت، فانتصابُه ينفي عنه اعوِجاجَه؛ ولذا يُقال له قائمٌ أو مستقيمٌ، وثباتُه ينفي عنه الانقطاعَ والتّواني، فإقامةُ الصّلاة إدامَتُها بتثبيتِ فِعلِها وعدم الانقطاع عنها، وصيانتُها من لُحوقِ الخلَلِ في شيءٍ منها؛ ولذا كان إسنادُ القيامِ إلى الصّلاة مدحًا لمَن قام بها، وإسنادُ فِعلِها من لفظِها إليها كان ذمًّا أو مجرّدَ إخبارٍ عنِ الفِعلِ لا مَنقَبَةَ فيه، ولذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٤﴾ [الماعون: 4]؛ للتّنبيهِ على مجرّدِ تحصيلِهم لها من

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/91، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

غير إقامةٍ وإتقانٍ. الثّاني: أنّ لفظَ ﴿يُقِيمُونَ﴾ فيه تسجيلٌ لأهمّيّةِ ركنِ القيامِ في الصّلاة؛ إذ يَسوغُ إرادةُ الشّيءِ بإطلاقِ جُزئِه؛ إيذانًا بأنّ تحقيقَ هذا الجزءِ مَظِنّةُ استيفاءِ الشّيءِ بكامِله، فعبّر عن أداء الصّلاةِ بأظهرِ ركنٍ فيها وهو القيامُ؛ إيذانًا بإيقاعِ الصّلاةِ كلِّها على معنى القيامِ فيها منَ النّهوضِ والتّشمير[1].

نكتةُ استعمالِ صيغةِ المضارع، في قوله: ﴿يُقِيمُونَ﴾:

التّعبيرُ بإقامة الصّلاة، دلالة على المواظبة والإتقانِ والتّعظيم

التّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿يُقِيمُونَ﴾؛ للإيذانِ بحالِهم مع صَلاتِهم منَ المداومةِ وعدمِ الانقطاعِ، فهم لا يَهجرون الصّلاةَ، وإنْ صَلَّوا لا يَهجرون إقامتَها بتحصيلها من غير إتقانٍ، فدلَّ على مواظبتِهم على الفِعل وعلى إتقانِ الفِعل معًا، بدلالة التّركيبِ منَ الفعل والمفعول معًا، "وليصلُح ذلك للّذين أقاموا الصّلاةَ فيما مضى؛ وهمُ الّذين آمنوا من قبلِ نزولِ الآيةِ، والّذين هم بصددِ إقامةِ الصّلاةِ؛ وهمُ الّذين يؤمنون عند نزولِ الآيةِ، والّذين سيهتدون إلى ذلك؛ وهمُ الّذين جاءوا من بعدهم؛ إذِ المضارعُ صالحٌ لذلك كلّه؛ لأنّ مَن فعلَ الصّلاةَ في الماضي فهو يفعلُها الآن وغدًا، ومَن لم يفعلْها فهو إمّا يفعلُها الآن أو غدًا"[2].

۞ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

الرّزق والكسب:

الـرّزقُ لا يكون إلّا من الله، والكسبُ وصفٌ لما يكون من العبد

الرّزقُ: العطاءُ الّذي يُصيبُ الإنسانَ فينتفعُ به؛ لذا يُقال للعطاءِ الجاري، وللنّصيب والحظّ، ولِما يَصِل إلى الجوف ويتغذّى به (الغذاء)، ويكونُ في المالِ والجاهِ والعِلم، وغلَبَ فيما يُصيبُ الإنسانَ نفعُه، وقد يُطلَقُ على غيرِ ما يُنتَفَعُ به لعارضٍ يَعرِضُ فيه من سوءِ تصرّفٍ أو سَفَهٍ يَصيرُ به غيرَ نافعٍ لِمالِكه، كقول الشّاعر:

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/231.

رُزِقتَ مالًا ولَم تُرزَقْ مَنافِعَهُ *** إنَّ الشَّقيَّ هو المَحرومُ ما رُزِقا[1]

وهذا لا ينفي عنه نَفعَه في ذاتِه كما لا يَخفى. والكَسبُ يُقال فيما أخذَهُ لنفسِه ولغيرِه، ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولين، فيُقال: كَسَبتُ فلانًا كذا، وهو يدلُّ على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابةٍ، ولذا فهو جَمعُ الشّيءِ وتحصيلُه (شيئًا بعد شيءٍ) بجُهدٍ ما، كما يُجمَعُ المالُ من مظانّه (شيئًا بعد شيءٍ). ومنه: الكَسبُ: طَلَبُ الرّزق، كقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ أي: ما حصّلتموه مِن أرزاقٍ، ويُقال في كلّ تحصيلٍ من خيرٍ أو شرٍّ كقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾[2].

وعليه: يختلفُ الرّزقُ عنِ الكسبِ من وجهين: الأوّل: أنّ الكسبَ يكونُ مشتملًا على معنى الجُهد والسّعي، وصيغةُ الافتعال (اكتَسَب) تُقوّي هذا المعنى، والرّزقُ قد يتأتّى بجُهدٍ أو من غيرِ جُهد، ولذا قد يَحصلُ الرّزقُ من غيرِ تحصيلٍ؛ أي: من غير تَدخّلٍ بالفعل والقصد، وأمّا الكسب فمشتَمِلٌ بدلالةِ مَبناهُ على فِعلِ الكاسِب وقصدِه وتأثيرِه في الشّيءِ المكسوبِ، ولذا صحّ بهذا الاعتبار أن يكونَ الرّزقُ أعمَّ منَ الكسب؛ لأنّ الرّزقَ قد يشتمِلُ على معنى الكسبِ، وقد لا يشتمِلُ إذا خلا من معنى الجُهدِ وقصدِ التّحصيل. فالرّزقُ قد يكون موهوبًا بلا مجهود، وقد يكون مكسوبًا من غير مجهودٍ، فهو أعمُّ.

الثّاني: الرّزقُ مُستعمَلٌ فيما ينفعُ ولا يضرُّ بذاتِه، وأمّا الكسبُ فحاصِلٌ فيما يَضرُّ وينفعُ؛ لأنّ في الضّرر والنّفع كليهما ما هو من مكاسِب الجوارحِ والأفعالِ، فيقال: كسبَ فلانٌ خيرًا إذا ارتكب أسبابَه وكسبَ شرًّا كذلك، ولذا فالمرضُ لا يُقالُ عنه رِزقٌ، وقد يُقال عنه: كسبٌ؛ إذا كسبَه الإنسانُ بارتكابِ أسبابه، وعلى هذا الاعتبار يكون الكسبُ أعمَّ.

وبحسبِ الوجهين السّابقين، فالعلاقةُ بين الرّزق والكسبِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ يعني: كلاهما أعمُّ وأخصُّ باعتبارِ وجهٍ دون وجه.

الإنفاق والعطاء والإيتاء:

الإنفاقُ: إخراجُ المالِ وما في معناه منَ الحوزَةِ، بحيث ينفَدُ من مالِكه، ويخرجُ عن تصرّفِه، فهو أصلٌ في الإنفادِ والانقطاعِ والزّوالِ، والعطاء: هو مُناوَلَةُ الشّيءِ للغير، فهو

---

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رزق).

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).

الإنفاقُ أدلُّ على الهِبَةِ مِنَ الإعطاء، والإيتاءُ مُناوَلَةُ ما يُعطَى لمن يُعطَى

أصلٌ في الأخذِ والتّناول[1]، والإيتاءُ: هو إحضارُ الشّيءِ وإيصالُه لِلمُعطَى، وجعلُه يأتي إليه، فهو أصلٌ في المجيءِ والحضورِ[2]، واستعمالُه في الإعطاءِ لكونِ العطاءِ يقتضي مُناوَلَةَ الشّيءِ بعد إحضارِه، فالإيتاءُ أوّلًا ثمّ العطاءُ.

ويختلفُ الإنفاقُ عنِ الإعطاء: في أنّ الإنفاقَ إخراجُ الشّيءِ على غير نيّةِ الاسترداد، والعطاءُ إخراجُه على نيّةِ المُداوَلَةِ والمُناوَلَة لِمجرّدِ الانتقالِ من يَدٍ ليَدٍ، فلا يقتضي زوالُه عن حوزةِ المُعطي وتصرّفه، وقد يكونُ على نيّةِ الإخراجِ التّامِّ بلا استردادٍ ولا وِصايةٍ منَ المعطي، فهو أعمُّ[3]، ويختلِفُ الإيتاءُ عنِ الإنفاق: في أنّ الإنفاقَ إخراجُ ما في الحوزَةِ وزوالُه عنها، والإيتاءَ إحضارُ الشّيءِ وإيصالُه إلى الجِهةِ الّتي لأجلها كان الإنفاقُ، فالإنفاقُ يقعُ أوّلًا ثمّ الإيتاء. وقد ورد الإيتاءُ في إنفاقِ الزّكاة دون الإعطاء لثلاثة اعتبارات: الأوّل: يتعلّقُ بالفاعل (المؤتي)، فهو يدفعُ الزّكاةَ عن طيب نفسٍ لا عن إكراهٍ، ولو قال: (يعطون) لاحتمل كُرهَ النّفس، كما قال في الجزية: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، فجعلَ الإعطاءَ فيما كان عن غلبةٍ وقهرٍ، والثّاني: يتعلّقُ بـ(المؤتَى)؛ وهو الشّيءُ المبذولُ، فإنّ الإيتاءَ يكون في الشّيء عزيزَ القيمةِ، كثيرَ المنفعةِ، عظيمَ القدرِ، ولو قال: (يعطون) لاحتمل إعطاءَ البخسِ والقليلِ، كما أسند العطاءَ للقليل في قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾، وأمّا الإيتاءُ فلم يُسنَد إلّا للعظيم والكثير: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ - ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ - ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾، فإسنادُ الإتيانِ للزّكاة إعظامٌ لشأن الفريضة وإجلالٌ لمكانها في الشّرع، فالإيتاءُ للكثير والإعطاءُ للكثيرِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفق).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو - أتى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عطو)، والرّاغب، المفردات، ص: 572، وابن منظور، لسان العرب: (عطا).

والقليلِ بحسب قرينة السّياق، ولذا كان الإعطاءُ فيما يُنتقَلُ عنه إلى ما هو أعلى منه، ولذا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ لانتقاله منَ الكوثر إلى ما هو أعلى منه، وهو الجنّةُ ومزايا النّعيم الأحسن[1]. والثّالث: يتعلَّقُ بـ(المؤتى إليه) وهو آخِذُ الزّكاة، من حيث إنّ إيتاءَه الزّكاةَ لا يتوقّفُ على قبوله وموافقته، فهو حقيقٌ بها من غير اعتبار موقفه، ولذا كان فعلُ الإيتاءِ أقوى منَ الإعطاء، ولذا ففِعلُ الإيتاءِ لا مُطاوعَ له من لفظه، كما في الإعطاء[2]، يُقال: آتاني فأخذته، وفي الإعطاء يُقال: أعطاني فعطوت؛ وما له مطاوعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولِه ممّا لا مطاوعَ له، ولو قال: (ويعطون الزّكاة) لاحتمل توقّفَهُ على القبول، كما قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾، فإنّ عطاءَهم الجزيةَ متوقّفٌ على القبول منّا، ودلالةُ ذلك هنا: التّنبيهُ على كون الزّكاةِ حقًّا لله خالصًا، والغنيُّ والفقيرُ ما هما إلّا وكيلان في مُداولَة هذا الحقّ بينهما، فلا الغنيُّ يستكثرُ على الفقير؛ فيَمنّ بزكاته، ولا الفقيرُ يستنكرُ على الغنيّ فيُعرِضُ أو يرفضُ أو يتحرّجُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾ [الأنفال: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

المناسبة بين المؤمنين حقّا، وما لهم من مقام وجزاء عند الله

لمّا حققوا إيمانَهم باطنًا وظاهرًا، بأعمال القلوبِ وأعمالِ الأبدان وأعمالِ الأموال، شهِدَ اللهُ لهم بالإيمان الحقِّ ووعدَهم بالجزاء الحسنِ وعاقبةِ الخير، فقال جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَرَجَٰتٌ﴾: مُفردُها درَجَةٌ، وهي مِثلُ المَنْزِلَة، لكنّ الدّرجَةَ تكون باعتبارِ الصّعودِ الفوقيّ والامتدادِ الرّأسيّ، والمَنزِلَةَ تكون باعتبارِ الامتدادِ الأُفقيّ على البسيطة، كدرجةِ السّطحِ والسُّلَّم، ولذا فالدّرجاتُ هي المراتِبُ والطّبقاتُ الّتي يكونُ بعضُها فوق بعض، ويُعبّرُ بها عنِ المنزلةِ الرّفيعةِ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المتّصفون بالإيمان قولًا وفعلًا، هم أصحاب التّكرمة والجزاء الأوفى

الّذين اتّصفوا بنعوتِ الإيمانِ الظّاهرةِ والباطنةِ أولئك همُ المؤمنون، كاملو الإيمان حقًّا، لهم رُتَبٌ ساميةٌ ومقاماتٌ عاليةٌ عند ربّهم، ومغفرةٌ لذنوبهم، ورزقٌ كريمٌ واسعٌ لا ينشغلون بغيره، ولا يتحوّلون عنه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الإشارة تمنحُ الخبرَ لونًا مِنَ القوّة والتّقرير والرّسوخ

دلالةُ اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وموقعها الإعرابيّ:

تمييزُ المسند إليه بالإشارة يمنحُ الخبرَ مزيدًا مِنَ القوّة

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درج).

والتّقرير[1]، فجملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مؤكِّدةٌ لمضمون ما قبلها، وهي قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾، ولذلك فُصِلَتْ ولم توصلْ بالعطف، ويصحُّ أن تقعَ استئنافًا بيانيًّا عن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ﴾﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّر: فماذا لهم منَ المنزلةِ والرّتبةِ؟ فأجيبَ بالإشارةِ إلى تلك المنزلة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾، وتعيينِها بقوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

وتصديرُ الجملة باسم الإشارة يدلُّ على عدّة وجوه: الأوّل: يدلّ على استحقاقِهم الحكمَ المذكورَ في حيّزه، وهو قولُه: ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾.

الثّاني: يدلُّ على عِلّيّة الصّفاتِ - الّتي أُشيرَ به إليها - للحكم المذكورِ بعده؛ أي: بسببِ الصّفاتِ المذكورةِ سابقًا استحقّوا بها كونَهم المؤمنين حقًّا، فكأنّه قال: المقيمون الصّلاةَ، والمنفِقون، والوَجِلون المتوكّلون، أولئك هم المؤمنون حقًّا.

الثّالث: تعظيمُ شأنهم؛ لأنّ دلالةَ اسمِ الإشارة على البُعد مُؤذِنٌ بعلوّ رتبتهم، وبُعد منزلتِهم في الشّرف، ومُؤذِنٌ بكمالِ تحقّقِهم، وتمامِ تميّزِهم، فيما اتّصفوا به.

الرّابع: اسمُ الإشارة مُشعِرٌ بتجسيدِ ما قام بذواتِهم من حقائقِ الإيمانِ وكمالاتِه، فكأنّه دائمُ الحضورِ والمشاهدةِ؛ لأنّ الإشارةَ متّجهةٌ إلى ذواتِهم حالَ تلبّسِهم بالصّفات المذكورة، وهم لا يتلبّسون بها جميعًا في آنٍ، بل هي كائنةٌ فيهم بحسب الاستعداد، حاصِلةٌ بحسب دواعيها في وقتها الّذي حضرَت فيه، فالإشارةُ تُظهِرُ هذه الكينونةَ الغائبةَ منَ الجاهزيّة والاستعداد، وتُظهِرُها للعلَنِ والمشاهدة، بحيثُ لا يُتصوَّرُ انفكاكُها عن ذواتهم[2].

أثر الضّميرِ المنفصل، وفائدته في السّياق:

الضّميرُ المنفصلُ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ أفاد ثلاثةَ أشياء:

الأوّل: توكيدُ استحقاقِهم للخبر عنهم بصفةِ الإيمان.

الثّاني: تمييزُ الخبرِ عنِ الصّفة؛ أي: كونهم المؤمنين قُصِدَ به الإخبارُ عنهم بذلك، لا أنّه وصفٌ لاسم الإشارةِ قبله، وقصدُ الإخبار أدلُّ على إفادة الاستقلالِ

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 200.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/4، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 261/9، وصافي، الجدول: 171/9.

ملمح الإبانة بإفادة التّوكيدِ والحصرِ والخبريّة

والتّميّزِ بمضمونِ المعنى الّذي اشتملَ عليه، وهو صِفةُ الإيمان ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

الثّالث: الحصر، بقصرِ الإيمان على أصحابِ تلك الصّفات، وهو قصرٌ مجازيٌّ، يُقصدُ به المبالغةُ إن أُريدَ بالإيمان أصلُه؛ لأنّ أصلَ الإيمان لا يُزيلُه الإخلالُ ببعض الواجبات، فمفهومُ القصرِ غيرُ ثابتٍ لمنطوقِه، وقصرٌ حقيقيٌّ إن أُريدَ بالإيمان كمالُه؛ لأنّه بذهاب صِفةٍ من تلك الصّفات لا يكون الإيمانُ كاملًا، فالقصرُ مقصودٌ على إرادةِ الكمال، ومعنى كونه حقيقيًّا ثبوت منطوقِه ومفهومِه، ومفهومُ القصرِ هاهنا ثابتٌ، وهو أنّ مَن لم يتّصفْ بتلك الصّفات لم يكنْ كاملًا في إيمانه[1].

دلالةُ التّعريفِ في لفظ: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

وصل أسماء الفاعلين، له دلالةٌ على إفادةِ الكمال والتّمكين

(ال) التّعريف في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ هي (ال) الموصولةُ الدّاخلةُ على أسماء الفاعلين، ولها دلالةٌ على إفادة الكمالِ، وهو استغراقُ خصائصِ أفرادِ الجنسِ؛ أي: هم المؤمنون الكاملون الّذين استوفَوا صِفاتِ أفرادِ الإيمانِ، واستكملوا خصائصَه وحقائقَه، ودلالتُها على الموصوليّة حقيقةٌ، ودلالتُها على الكمال مجازٌ، ولا تَعارض بين الدّلالتين؛ لأنّ معنى الموصوليّة مطّردٌ في (ال)، ثابتٌ بنفسِه من غير قرينةٍ، والّذي أعانَ على دلالة الكمالِ ليس (ال) وحدَها، بل قرائنُ السّياق، وهي في هذا التّركيب: اسمُ الإشارة الدّالّ على البُعد والتّناهي في الغاية، وتوسيطُ ضميرِ الفصلِ بين المبتدأ والخبر، وتعريفُ الخبرِ بلام الجنس. ويترجّحُ حملُ (ال) على معنى الكمالِ هنا؛ لِكون الحصرِ المُستفادِ منَ التّركيب لا يصحُّ إلّا على إرادة معنى الكمال، وإلّا فلا بدَّ من تأويلِه بالحصر المجازيّ الادّعائيّ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 221/8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 262/9.
(2) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 4/254، والشّهاب، حاشية الشّهاب: 5/370.

فائدةُ قوله: ﴿حَقّٗاۚ﴾، وتوجيهُ الوقفِ عليها:

تأكيد جملة الإسناد الخبريِّ قبلها

﴿حَقّٗاۚ﴾ صفةُ مصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه المؤمنون؛ أي: هم المؤمنون إيمانًا حقًّا، أو مصدرٌ مُؤكِّدٌ لمضمونِ جملة ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: حَقّ ذلك حقًّا، "ومعنى ذلك أنّه تأكيدٌ لما تضمّنته الجملةُ منَ الإسنادِ الخبريِّ، وأنّه لا مجازَ في ذلك الإسناد"[1]، أو منصوبٌ على الحال من ضميرِهم، فيكون المصدرُ مؤوّلًا باسم الفاعل كما هو الشّأن في وقوع المصدرِ حالًا؛ أي: محققّين إيمانَهم بكرائمِ الأعمال، وعلى ذلك فانتهاءُ المعنى وتمامُ الوقف عند قوله: ﴿حَقّٗاۚ﴾، ويقبُحُ إتمامُ الوقفِ عند ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ والابتداءُ بـ﴿حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾؛ لأنّ المصدرَ المؤكَّدَ يكون مؤكِّدًا لمضمون ما قبله لا ما بعده، وتقديمُ المصدرِ المؤكِّد لمضمونِ جملة (عليها) ضعيفٌ جدًّا عند النّحويّين، فلا يَسوغُ بناءُ الوقف والابتداء عليه.

وفائدةُ مجيء ﴿حَقّٗاۚ﴾ لإفادةِ كمالِ النّوع فيما تأكّدَ به، كمَن يقولُ لابنه البارّ به: أنت ابني حقًّا، فهو لا يريد نفي البنوّة عن سائر أبنائه، بل يريد أنّ بُنوّةَ البارّ به كاملةٌ ظاهرةٌ عن غيره، فهنا أراد بلفظ ﴿حَقّٗاۚ﴾ كمالَ التّحقّيقِ والتّثبيتِ لإيمانهم، وهو تحقيقٌ لمعنى القصرِ المستفادِ منَ التّركيب، بما هو عليه من معنى المبالغة[2].

سرُّ تقديمِ المسندِ في قوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾:

تقديمُ ذواتِهم على جوائزهم، لِكمالِ العنايةِ بهم

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَّهُمۡ﴾ على المسند إليه ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ يُفيدُ اختصاصَهم باستحقاق الدّرجات، وفي تقديم ذواتِهم على جوائزهم كمالُ عنايةٍ بالمؤمنين، إسراعًا في إلحاقِ التّكريمِ بهم، وإدخالِ السّرورِ عليهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/271.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/559، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/157، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/261.

علَّةُ تنكيرِ لفظ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾:

تنكيرُ الدّرجات لتعظيمها في ذاتِها، وتعظيمها في تفاوتِها؛ أي: كلُّ درجةٍ منها عظيمةٌ في ذاتِها، وعظيمةٌ في تفاوتِها بالنّسبةِ لِما دونها وما فوقها[1].

تنكيرُ الدّرجاتِ تعظيمٌ ذاتيٌّ وتعظيمٌ مُقارَنٌ

معنى الظّرفيّة في ﴿عِندَ﴾، وفائدةُ تقييد الدّرجات بها:

الظّرفيّةُ في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ تفيدُ معنى الاستقرارِ والثّبوتِ والتّحقّقِ للجزاءِ المفهوم منَ الدّرجات، و﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بدرجاتٍ؛ لأنّها بمعنى أجور، أو يتعلَّقُ بمحذوف صفةٍ لدرجات؛ لأنّها نكرةٌ، والصّفةُ المُقدّرةُ مؤكّدةٌ للدّرجات؛ أي: درجاتٌ كائنةٌ عنده[2].

دلالةُ الظّرفيّةِ على الاستقرارِ والثّبوتِ والتّحقّق

نكتة إضافةِ الظّرفِ إلى (الرّبّ):

إضافةُ الظّرفِ إلى الرّبّ في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ دون اسم الجلالة: (اللّه)، أفاد تعظيمَ مُتعلَّقِ الظّرف وهو الدّرجاتُ، فقد أكّدَ تعظيمَها الذّاتيَّ المستفادَ من تنكيرها، بتعظيمِها الإضافيِّ بنسبتِها إلى عنديّةِ المحلِّ الجليلِ، وهو اسمُ الرّبوبيّة المضاف إلى ضميرهم؛ لإشعارهم بالقربِ وكمالِ العناية، ولِمزيدِ تشريفِهم وتطمينِهم باللُّطفِ والإحسانِ؛ أنّ الجزاءَ المذكورَ مُتيقَّنُ الثّبوتِ والحصولِ، مضمونُ الوقوعِ، مأمونُ الفَواتِ[3].

تأكيدُ التّعظيم الذّاتيّ بالتَّعظيم الإضافيّ

نكتةُ عطفِ المغفرةِ على الدّرجات:

الابتداءُ بالدّرجاتِ ثُمّ المغفرةِ ثمّ الرّزقِ الكريم على هذا التّرتيب فيه ثلاثُ نِكاتٍ:

الأولى: لِمُقابَلَةِ أوصافِهم المذكورة[4]، فكأنّه جازَى كلَّ صفةٍ بما

الدّرجاتُ منازل عالية، والمغفرةُ والرّزقُ الكريمُ مسامحة وإغداق

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/158، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/263.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/559، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/5، ودرويش، إعراب القرآن وبيان: 3/528.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/5.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/272.

يُناسِبها في المعنى والتّرتيب، فالدّرجاتُ لأعمال القلبِ المذكورة في قوله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وهذه الأعمالُ لمّا كانَت متفاوتةً بحسبِ أحوال القلوبِ ودرجاتِها في الإيمانِ والنّيّات، ناسَبَها الجزاءُ عليها بالدّرجاتِ المتفاوتةِ والمراتِب المُتباينة. والمغفرةُ للأعمال البدنيّةِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنّ الصّلواتِ طهارةٌ للبدنِ والقلب ومُكفّراتٌ لما بينها، فناسبها مغفرةُ الذّنوب؛ لأنّها طُهرةٌ وجُنّةٌ للعبد من خطاياه، والرّزقُ الكريمُ للأعمال الماليّةِ في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ لأنّ الإنفاقَ رِزقُ المُنفَقِ عليه، وهو مَخلوفٌ برزقٍ خيرٍ منه على المُنفِق عِوَضًا له من خير الرّازقين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سبأ: 39]، فناسبَه ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ ليكون الجزاءُ من جنس العمل، "وهذا النَّوعُ مِنَ المقابلة من بديعِ علمِ البديع"(1).

الثّانية: أنّ الدّرجاتِ قُدّمَت؛ لأنّها دالّةٌ على محضِ الفضل، وأمّا المغفرةُ ففيها اعتبارُ الأعمال؛ إذ هي تذكيرٌ للعبدِ بعمله السّيّئ(2)، فبدأ بما لا مُلاحظةَ للأعمالِ فيه، وهي الدّرجاتُ؛ لِتنشرحَ صدورُهم بما لا يشوبُه استيحاشٌ ولا انقباضٌ، وهذا من عاداتِ الكريم في عطاءاتِه أن يَبدأ العطاءَ من غيرِ ألّا يَربطَه بسبَبٍ؛ إيناسًا للمُعطَى، وتهيئةً لِنفسِه إذا ذُكِّرَ بعطاءِ الكريمِ له رغم إساءتِه وتقصيره في سببِ الطّاعة، ووسّطَ المغفرةَ، وقدّمها على الرّزقِ الكريم؛ لأنّ أوّلَ ما يَخطر في بالهم بعد نَيلِ الدّرجات: وماذا عن ذنوبنا وجِنايَتِنا؟!! فكأنّه ثَنّى بما يقطعُ الظّنونَ في حصولِ المؤاخذة بعد ذلك؛ أي: لهم الدّرجاتُ، ولهم مع الدّرجاتِ ألّا يُؤاخذوا بما فعلوا.

الثّالثة: أنّه بدأ بالدّرجاتِ إيذانًا بالمنازلِ العالية، وثَنّى بالمغفرة إيذانًا بأنّ الدّرجاتِ عن غير استحقاقٍ بل عن مُسامحة، وثلّثَ بالرّزق الكريم؛ إيذانًا أنّ الجزاءَ، وإن كان عن غير استحقاقٍ، إلّا أنّه واقِعٌ على جهةِ الاستيفاءِ والكثرةِ والوسعِ؛ لِدفعِ ما قد يُتوهَّمُ مِن أنّ عدمَ استحقاقِه قد يُؤذِنُ بقِلّتِه أو عدمِ وفرتِه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 272/5، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 222/8.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 158/5.

فائدةُ تنكيرِ المغفرة، في قوله: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾:

لا ذنبَ يتعاظمُ على مغفرة الله وصفحه

تنكيرُ المغفرةِ للتّعظيم والتّفخيم؛ للدّلالة على أنّها أوسعُ من ذنوبهم في السَّترِ والمُسامَحةِ، فمَن أرادَ اللّهُ له المغفرةَ فليس هناك في فضائِحه ما هو أكبرُ وأعظمُ منها حتّى لا تسترُه المغفرةُ، وليس هناك في قبائِحه ما يَستعصي على المغفرةِ فلا تَشمَلُه بِردائِها.

بلاغة المجاز العقليّ بإسنادِ الفِعل والوصفِ إلى غير صاحبِه:

مفادُ لفظ (رزق)، منكّرا، وغرض وصفِه بالكرم

تنكيرُ الرّزقِ مع وصفه بالكريم دلالةٌ على كثرتِه ووفرتِه، وعلى أنّه حاصِلٌ بطريق الإكرام والتّعظيم لا بالإهانةِ والكَدَر، وعلى أنّه كريمٌ نفيسٌ في مادّتِه ليس فيه رديءٌ أو خَسيسٌ، وعلى أنّه كريمٌ رازقُه؛ وهو اللّهُ ﷻ، على اعتبار أنَّ إسنادَ الكريم إلى الرّزقِ إسنادٌ مجازيٌّ؛ لأنّ (كريم) فعيل بمعنى فاعِل الكرَم، والرّزقُ لا يفعلُ الكَرمَ، بل الرّازقُ سبحانَه هو المتكرِّمُ بالسّخاء والجود، فإسنادُ الكريم إلى الرّزق مجازٌ عقليٌّ بإسنادِ الفِعل والوصفِ إلى غير صاحبِه[1].

بلاغةُ ختمِ الآية بقوله: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾:

مقابلةُ الشّيءِ بما هو أحسنُ منه، من رائق البيان

في ختم الآيةِ بالرّزق الكريم نُكتَتانِ جليلتان: الأولى: أنّه لمّا جعلَ الرّزقَ الكريمَ جزاءً مُقابلًا للإنفاق في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾، فختمَ بالإنفاق الفاصلةَ، ختمَ بجزائه الفاصلةَ أيضًا، وهو ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، ولمّا كان ذلك كذلك وصَفَ الرّزقَ بالكريم؛ لتقرير أنّ الجزاءَ على الإنفاق كان أعلى منه غيرَ مُساوٍ له؛ إيذانًا أنّ اللّه يُخلِفُ على المُنفِق بما هو أحسنُ وأوسعُ ممّا أنفقَه، فقد أنفقوا بعضَ رِزقِهم ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ ليس مُقابلَ بعض الرّزق، ولا مُقابلَ رزقٍ كاملٍ ليس بعضًا، بل مُقابلَ رزقٍ كريم لا ينتهي أَمَدُه، ولا ينحصر عدَدُه. فيكون الختمُ بالرّزق الكريم مُقابلًا لإنفاقهم في موضع الفاصلةِ لفظًا، ومقابلًا له بأحسن منه معنًى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 263/9.

الثّانية: الختمُ بقوله: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ روعيَ فيه البدءُ بقوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، فكأنّه بقوله: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ نفَى عن السّامِع التّوهّمَ بأنّ تفاوتَ الدّرجاتِ بينهم قد ينزعجُ به النّازِلُ في درجتِه عمّن فوقه لنقصٍ في العطاء أو الزّاد، فأخبرَ في الخاتِمة بما يُزيل هذا التّوهّمَ، بأنّ كلَّ واحدٍ في درجتِه، وإنْ نزلَتْ، مُستغرقٌ في رزقٍ كريمٍ مُذهِلٍ مُدهِشٍ. فهو ختامٌ لوحِظَ فيه مَطلَعُه.

سرّ ختمِ الجزاءِ بالرّزق الكريم:

تعريضٌ بأنّهم أكرمُ من أن يسألوا عن عرضٍ زائلٍ

في سؤالهم عنِ الأنفالِ وختم سياقِ الجواب عليهم بالرّزق الكريم الكائنِ للمؤمنين تعريضٌ لطيفٌ بأنّهم أكرمُ من أن يَسألوا عن عرضٍ زائلٍ، وتهوينٌ للدّنيا في قلوبهم، فليستِ الأنفالُ الّتي سألوا عنها شيئًا يُذكَرُ في جانبِ الرّزقِ الكريمِ الّذي وُعِدوا به، فأحرى بهم أن يَتَسَلَّوا بهذا الرّزقِ الكريم عمّا شغلهم من أمرِ الأنفال، فلا يكترثوا بها سواء أأصابوا شيئًا منها أم فاتتهم، وفي هذا تحريضٌ لهم على قطع العلائقِ الزّائلة، وعدمِ التّعلّقِ بالمكافآتِ والجزاءاتِ العاجلة مِنَ الأنفال وغيرِها من شؤون الدّنيا؛ لئلّا تشغلهم عنِ الجزاءاتِ الباقية والعواقبِ الخالدة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المغفِرة والغُفران:

الغفرانُ يكون مطلوبًا لا مَبذولًا، بينما المغفرةُ تكون مطلوبةً ومَمنوحةً

المغفرةُ والغُفران، أصلُهما (غفر)، وهو تركيبٌ يدورُ حول التّغطيةِ والسّترِ بقصدِ حمايةِ الشّيءِ وصيانتِه، والمغفرةُ مصدرٌ ميميٌّ سماعيٌّ، على وزن (مَفعِل) بكسرِ العين، وقياسُه فتحُ العَين، والغفرانُ مصدرٌ أصليٌّ سماعيٌّ، فاللّفظانِ مصدران دلالتُهما الأصليّة واحدةٌ على السّترِ والتّغطية، ويظهرُ الاختلافُ بينهما في الاستعمالِ من وجوهٍ: الأوّل: أنّ الغُفرانَ استُعمِلَ في القرآن مطلوبًا لا مَبذولًا، في قوله: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]،

وهي المرّةُ الواحدةُ الّتي ذُكِر فيها هذا المصدر، وتقديره: نسألُك غفرانك. وأمّا المغفرةُ فاستُعمِلَت مطلوبةً ومَمنوحةً، في قوله: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133]؛ أي: اطلبوها، ولذلك قال بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [آل عمران: 136]؛ أي: مَبذولَةٌ لهم بعد طلبِهم لها. الثّاني: أنّ الغُفرانَ لم يُسألْ به غيرُ اللّه، والمغفرةُ حاصِلةٌ منَ الرّبّ ومنَ العبد، والصِّفاتُ على قدرِ الذَّوات، وذلك في قوله: ﴿۞قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾، فهذا منَ العبد، وهو الموضعُ الوحيدُ، وهي جاريةٌ على معناها اللّغويّ لا الشّرعيّ، وكونها منَ اللّه فكثيرٌ ورودُه في الآيات. الثّالث: كونُ المغفرةِ مصدرًا ميميًّا، فهذا يدلُّ على التباسِه بذاتٍ في الغالب، ويحملُ معنىً لا يحملُه مصدر (الغُفران)، الّذي يدلُّ على الحدثِ نفسِه من غير أن يلتبِسَ بمعنى آخر، ولذا لم يأتِ الغُفرانُ إلّا مطلوبًا منَ اللّهِ فقط، فكأنّ المغفِرَةَ دالّةٌ على الحدثِ، وعلى التباسِها بذاتِ المغفورِ له؛ إذ هي نهايةُ مطلَبِه كما أنّ الغفرانَ بدايةُ مطلَبِه، فالمغفرةُ أدلُّ على منتهى الجزاءِ وتمامِه، مثل: المتاب والتّوبة، فالمتابُ توبةٌ تامّةٌ، فالمصدرُ الميميُّ دالٌّ على الذّاتِ غالِبًا، وعلى منتهى الحدَث، ولعلّ أحدَ أدلّةِ زيادةِ المغفرةِ في المعنى على الغفرانِ تنوّعُ المغفرةِ في استعمالاتها ومواردِها عنِ الغفران، فالمغفرةُ أوسعُ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفر)، وصافي، الجدول: 101/3، وفاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 32.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾ [الأنفال: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

علاقةُ حال المؤمنين مع الأنفال، بما يقتضيه النّفير للجهاد والقتال

لمّا ذكَرَ حالَ المؤمنين مع الأنفالِ، وتعلّقَهم بأن يكونَ لهم حظٌّ ومَغنَمٌ فيها، وما آلَ إليه أمرُهم من تفويض أمرِ قِسمَتِها للّه ورسوله، وما آلَ إليه ذلك من تَشَتّتِ وتفتُّتِ أغراضِهم فيها على خلافِ ما كانوا يُؤَمِّلون، شرعَ يَذكُرُ لهم ما لم يكن سائغًا ومرغوبًا في طبائعهم أيضًا من كراهيّتهم للخروج لقتال النّفير وإيثارهم لغنيمة العير، ثمّ تبيّنَ أنّ المصلحةَ والخيرَ والنّصرَ العظيمَ فيما كَرِهوه وتَجافَوا عنه، كذلك شأنُهم مع الأنفال إنِ وقَعَ على خلاف مرادِهم في القِسمَةِ والتّوزيعِ، فذلك ليجعلَ اللّهُ لهم فيه عاقبةَ الخيرِ، كما جعلَها من قبلُ، فهذا من ذاك، واللّهُ وحدَه هو الحكيمُ ذو التّدبير، فلا يتعلّقون دونه بشيءٍ من أعراض الدّنيا وأغراضِها، فاللّهُ خيرٌ وأبقى.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿فَرِيقٗا﴾: مِنَ الفِرق: وهو القِطعةُ المنفصِلةُ مِنَ الشّيء، والفريق: الجماعةُ المتفرِّدَةُ مِنَ النّاس، وأصلُ التّركيب: فصلُ بعضِ شيءٍ أو أشياء من بعضِها الآخَر، وعُبِّر هنا عنهم بالفريق؛ لانفصالِهم عن غيرِهم مِنَ المؤمنين بالكُرهِ المذكور، أو لِأنّ رأيَهم يؤولُ إلى الفُرقَةِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

كما أنّكم لمّا اختلفتُم في المغانم فانتزعها اللّهُ منكم، وجعلها إلى

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 223/8.

أفضى الخلاف حَولَ الغنائم وقتال بدر، إلى أنّ الخيْرَ في حُكم الله وقدَرِه

حكمِه وحكم رسوله ﷺ، كذلك أمرك ربُّك - أيّها النّبيّ - بالخروج منَ المدينة؛ لِقتالِ مقاتلي مكّةَ، الّذين خرجوا لحمايةِ عيرِ قريشٍ، وذلك بالوحي الّذي أتاك به جبريلُ، مع كراهةِ فريقٍ منَ المؤمنين للخروج[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بيانُ التّشبيهِ التّمثيليّ، في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾:

تشبيهُ حالٍ بحالٍ من بليغ البيان

الكافُ في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ للتّشبيه، والتّشبيهُ هنا بين قصّةٍ وقِصّةٍ، حيثُ شبَّه حالَهم في كراهيّتِهم لخروجِ النّبيّ ﷺ منَ المدينة قبيلَ غزوةِ بدرٍ لِملاقاةِ قريش، بحالِ سؤالِهم عنِ الأنفال، وتشاجرِهم فيها، وكراهيّتِهم نزعَها من أيديهم، ثمّ إحالةِ تقسيمِها لحكم اللّه ورسولِه، فتشاجرُهم في الغنائم شبيهٌ بكراهيّتهم للخروج، وحكمُ اللّهِ ورسولِه في الأنفال شبيهٌ بإخراجِ النّبيّ ﷺ من بيته في بدرٍ؛ لأنّه حكمُ اللّهِ كذلك، فشبّه كراهيةً بكراهيةٍ، وحكمًا بحكمٍ، والتّقدير: الحالُ في قِصّةِ الأنفالِ مِثلُ الحالِ في قِصّةِ إخراجِك من بيتك[2].

دلالة اتّصالِ التّشبيه بما قبله، في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾:

عنايةُ اللهِ تعالى برسوله وبالمؤمنين في بدر، فيوضٌ من النّصر والتّمكين

التّشبيهُ في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ متّصِلٌ بما قبله على التّوجيهِ الآتي: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: كما أخرجَكَ ربُّك من بيتك بالحقّ، وهم كارهون، قلِ الأنفالُ للّهِ والرّسول، وإن كرهوا[3]. والكافُ في محلّ رفعِ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: (هذه الحالُ في الأنفال) (كحالِ إخراجك)، أو الكافُ في محلّ نصبٍ صِفةٌ لمصدرِ فِعلِ الاستقرارِ المُقدَّرِ في مُتعلّقِ

(1) مجمع الملك فهد، التفسير الميسر: 177/1.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 197/2، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 501/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 274/5، والسّمين، الدّرّ المصون: 559/5، وصافي، الجدول: 174/9.

(3) النّحّاس، معاني القرآن: 131/3.

خبرِ الجارّ والمجرور في قوله: ﴿ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾؛ أي: مستقرّةٌ ثابتةٌ للّهِ والرّسول؛ أي: الأنفالُ استقرَّت للّهِ والرّسول، وثبتَت مع كراهتهم (ثباتًا) (مِثلَ) ثباتِ إخراجِ ربّك إيّاك من بيتِك، وهم كارهون[1]، "والمقصودُ من هذا الأسلوب: الانتقالُ إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدرٍ، وما ظهرَ فيه من دلائلِ عنايةِ اللّهِ تعالى برسوله ﷺ وبالمؤمنين"[2].

دلالةُ (ما) وفائدتُها:

الموصولُ الحرفيُّ وُصلَةٌ معنويّةٌ بين المصدر والفعل

(ما) في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ مصدريّةٌ، والمصدرُ المؤوّلُ مِن (ما) ومدخولِها في محلّ جرٍّ بالإضافة إلى الكاف؛ أي: مِثلُ إخراجك. وفائدتُها: إرادةُ المصدريّةِ مع الفعل؛ إذِ الموصولُ الحرفيُّ (ما) وُصلَةٌ معنويّةٌ بين المصدر والفعل؛ لإرادةِ مَدلولَيهما معًا من إفادةِ مجرّدِ الحدثِ وثبوتِ العِبرةِ والذِّكرى في الإخراج، وإفادةِ زمانِه الماضي (أخرجَ)، وهذه جَمعيَّةٌ مُرادَةٌ منَ المصدرِ المؤوّلِ الّذي توسِّلَ إليه بالحرفِ المصدريِّ، ولو عُبِّرَ بالمصدرِ الصّريحِ لكان فيه عدمُ الإسنادِ إلى الفاعِل، والنّصُّ على فاعِلِ الإخراجِ مقصودٌ وهو ﴿رَبُّكَ﴾؛ لإفادةِ أنّه حكمٌ نافِذٌ، ولو اكتفى بالفعلِ دون (ما) لخلا التّركيبُ من دلالتِه على إرادة معنى المصدر[3].

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة ﴿أَخۡرَجَكَ﴾:

لإفادةِ اللّطفِ والعنايةِ، أُسنِدَ الفِعلُ إلى كمال وصف الرّبوبيّة

التّعبيرُ بفعل ﴿أَخۡرَجَكَ﴾ يُنظَر له من ناحيتين: الأولى: من جهة تعديتِه بالهمزة، ولم يقُل: (كما خرجتَ من بيتك)، مع كونه ﷺ خرجَ مُختارًا لا مُضطرًّا، فأُسنِدَ الفِعلُ إلى اللّه سبحانَه؛ لإفادة أنّ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/197، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/501، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/274.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/264.

(3) السّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 180 - 186، وابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/157، والسّمين، الدّرّ المصون: 5/559، وصافي، الجدول: 9/174.

الخروجَ جرى بحُكمِه وحِكمتِه، وتحت لُطفِه وعنايتِه، ولإفادةِ معنى الحكمِ النّافذِ والقضاءِ الواجبِ عدّاه بالهمزة، ولإفادة اللّطفِ والعنايةِ أسنده إلى وصف الرّبوبيّة مُضافًا إلى كافِ الخطاب ﴿رَبُّكَ﴾، ولم يقُل: (الله)؛ لأنّ مادّةَ الرّبوبيّة تتضمّنُ معنى الإحسانِ ولُطفِ التّدبير والتّقدير.

النّاحية الثّانية: من جِهة اختيارِ لفظِ الخروجِ على ما سواه، فلم يقُل: كما أذِنَ لك، أو كما حكمَ أو قضى ونحو ذلك؛ ليَصِحَّ تعليقُ الفِعلِ بالجارّ والمجرور ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾، وليدلَّ على الصّورةِ الحسّيّةِ في انفصالِه عن مَقرِّه وبيتِه، والصّورةِ المعنويّةِ في الانفصال النَّفسيِّ عن حالةِ الاستقرارِ، وحيِّز الأمنِ والرّاحةِ الّتي تصحبُ غالبًا مَن يغادرُ مكانَه على غيرِ موعدٍ[1].

فائدةُ التّعبيرِ بصيغة الماضي، في قوله: ﴿أَخۡرَجَكَ﴾:

التّعبيرُ بالماضي، دالٌّ على سُرعةِ الانقضاءِ والتّحقُّقِ

التّعبيرُ بصيغة الماضي في الفعل ﴿أَخۡرَجَكَ﴾ يُفيدُ سرعةَ انقضاءِ الفعلِ بمجرّد امتثالِه وتنفيذه، ثمّ ذهبَت مشقّتُه، وبقيَت عاقِبتُه، وثبتَ أجرُه، فعبّر بالماضي؛ لإفادةِ أنَّ الفِعلَ صار منَ الذّكريات الماضيةِ الّتي تحقّقَت وانتهَت، وفيه تسليةٌ بأنّ إلزاماتِ الشّرع متى أُجيبَت ولُبِّيَت انقضَت، ويذهبُ عناؤُها بانقضاء أزمانِها.

سرُّ اتّصالِ الفعلِ بضمير المفعول، وتأخير الفاعل:

إسنادُ الفعلِ إلى ضميرِ مَن أُلزِمَ به

اتّصالُ الفعلِ بضمير المفعول ﴿أَخۡرَجَكَ﴾، وهو ضميرُ الرّسولِ ﷺ؛ لِكونِه المَعنيَّ بالتّكليف الوارد، فوجَبَ أن يقترِنَ فِعلُ الإلزام (الإخراج) بضميرِ مَن أُلزِمَ به، ولأنَّ مُطاوِعَ الإخراجِ، وهو فِعلُ الخروج، قامَ به الرّسولُ ﷺ، واتّصفَ به.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 278، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/158.

دلالةُ الجارّ والمجرور ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾، ومتعلّقه:

الإخراجُ من الدّار للـقـتـال، من أكبر الامتحان للرّجال

الجارُّ والمجرور مُتعلِّقٌ بفعل الإخراج[1]، وتركيبُه من ﴿مِنۡ﴾، ومدخولُها واضِحٌ في قصد الدّلالةِ على موضعِ ابتداءِ الخروج.

دلالة قوله: ﴿بَيۡتِكَ﴾، وفائدةُ إضافةِ بيت إلى ضمير المخاطَب:

الإخـــراجُ عـنِ المألوفاتِ ابتِلاءٌ للنّفس والإرادة

المرادُ بقوله: ﴿بَيۡتِكَ﴾ مَسكَنُهُ ﷺ في المدينة أو المدينة نفسها؛ "لأنّها مُهاجَرُه ومَسكَنُه، فهي في اختصاصها به كاختصاصِ البيتِ بساكنه"[2]، فالمرادُ على المعنى الأوّل حقيقةٌ، وعلى الثّاني مجازٌ، والإضافةُ إلى كاف الخطاب للاختصاص، وغرضُ التّركيبِ ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ الإخراجَ الحاصلَ كان إخراجًا من حيّزِ الخصوصيّةِ والمألوف، إلى حيّزِ التّسليم، وتركِ الاختيار مع أحكام الشّرع وحِكَمِه؛ لتقرير أنّ "سُنَّةَ اللّهِ مع أنبيائه ألّا يفتحَ لهم كمالَ النُّعمى إلّا بعدَ مفارقةِ مألوفاتِ الأوطانِ، والتَّجرُّدِ عن مساكنة ما فيه حظٌ ونصيبٌ مِن كلِّ معهود"[3].

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، وأثره في المعنى:

كـلّ أمـر الـله وقــدره حاصل بـالـحقّ، وآيـلٌ للحقّ

الباءُ للإلصاق والمُلابسة، وهي حاليّةٌ تعلّقَت مع مجرورها بمحذوفِ حالٍ من مفعول ﴿أَخۡرَجَكَ﴾؛ أي: إخراجًا مُلتبِسًا بالحقِّ ومُلتصِقًا به، فالإخراجُ واردٌ على الحقّ، أو صادِرٌ عنه، فكان حقًّا لا بدَّ منه، أو الباء للمصاحبة، كأنّ الإخراجَ حاصلٌ بمصاحبته للحقِّ ومصاحبةِ الحقِّ له، فكلاهما واردٌ على الآخر، ويحتملُ أن تكونَ الباءُ في هذا السّياق مفيدةً للسّببيّة، والجارُّ والمجرور مُتعلِّقٌ بـ﴿أَخۡرَجَكَ﴾؛ أي: أخرجك بسبب الحقِّ الّذي سيظهرُ[4] على يديك.

---

(1) صافي، الجدول: 171/9.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 197/2.

(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 604/1.

(4) السّمين، الدّرّ المصون: 563/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 264/9.

دلالةُ الواو وكسرُ همزةِ (إنّ) في: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾:

الجملةُ الحالية مقترنةٌ بالحَدث مقيّدة به

الواو في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ حاليّة، ولذلك كُسِرَت (إنَّ) وجوبًا لوقوعها في صدر جملة الحال، فجملة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ في محلّ نصبِ حالٍ من ضمير المفعول في ﴿أَخْرَجَكَ﴾، والحالُ المذكورةُ مقترنةٌ بحدثِ الخروج، مُقيَّدةٌ به[1].

فائدةُ (إنَّ) وعلاقتُها بالمخاطَب في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾:

تنزيلُ غيرِ المنكِر مَنزلةَ المنكِر، من بلاغة التّعبير

تأكيدُ خبر كراهيةِ فريقٍ منَ المؤمنين بـ (إنَّ) و(لام الابتداء) في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ مستعمَلٌ في التّعجيب من شأنهم بتنزيل السّامعِ غيرِ المُنكِر لوقوعِ الخبرِ منزلةَ المُنكِر؛ لأنّ وقوعَ ذلك منهم ممّا شأنه أن لا يقعَ؛ إذ كان الشَّأنُ اتّباعَ ما يحبُّه الرّسولُ ﷺ أو التّفويضُ إليه، وما كان ينبغي لهم أن يَكرهوا لقاءَ العدوِّ. ويستلزمُ هذا التّنزيلُ التَّعجيبَ من حالِ المخبَرِ عنهم بهذه الكراهيةِ، فيكونُ تأكيدُ الخبرِ كنايةً عنِ التَّعجيبِ منَ المُخبَرِ عنهم[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿فَرِيقًا﴾:

التّعبيرُ بالفريق مع تنكيره مُشعِرٌ بِقِلَّتِهم

الفريقُ: يُقال للجماعةِ المنفصلةِ بذاتها عنِ الجماعةِ الكبرى، "فهم الجماعةُ الّذين يفترقون عن جماعةٍ، ويجمعُهم جميعًا رِباطٌ واحدٌ، فالجيش مثلًا يتكوّنُ من فِرَق، يجمعُهم الجيشُ الواحدُ"[3]، والتّعبيرُ بالفريق هنا أفادَ أربعةَ أمورٍ: الأوّل: تصويرُ معنى الانفصالِ الجَمعيِّ الحاصلِ حينئذٍ، حتّى ظهرَ مِن جرّاءِ الإخراجِ الحاصلِ فريقٌ كارِهٌ غيرُ مُرَحِّبٍ. الثّاني: أنّ التّعبيرَ بلفظ الفريقِ يدلُّ على أنّ حالةَ الكُرهِ والامتعاضِ منَ الخروج لم يكن موقفَ الجميع، بل فِرقَةٍ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 5/563، وصافي، الجدول: 9/172.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/266.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4582.

منهم فقط، وسائرُهُم خلافُ ذلك. الثّالث: أنّ التّعبيرَ بالفريق مع تنكيره مُشعِرٌ بقِلَّتِهم، فهم لا يَعدون فِرقةً قليلةً بإزاءِ جماعةِ المؤمنين حينئذٍ. الرّابع: وهو لازِمُ معنى اللّفظِ أنّه لمّا كانَت آراؤُهم وموقِفُهم يؤولُ إلى الفُرقة عبّرَ عنهم بالفريق(1).

سرُّ تقييدِ الفريقِ بكونه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قَيدُ الإيمانِ مُؤذِنٌ بالعفوِ والمُسامَحة

تقييدُ الفريقِ بكونه ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للدّلالة على أنّ كراهيتَهم للخروج كانت ناجِمَةً عن داعيةِ الطّبعِ في كُره القتالِ والنّفورِ من مُشارفَةِ أسبابِ الفقدِ، وليسَت كراهةَ اعتقادٍ أو إعراضٍ عنِ اللّه ورسوله، ولذا أقرّ لهم بالإيمانِ وسمّاهم به، وفي هذا التّقييد إفادةٌ بعدم المؤاخذةِ على كراهيّتهم، وأنّهم، وإنْ كانوا ملومينَ عليها، إلّا أنّها في حيّز العفوِ والمسامحةِ؛ لكونها ممّا لا يقدحُ في الإيمان.

دلالة اللّام وفائدتها في: ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾:

المبالغةُ في معنى الخبر وتوكيدُه، مفيدٌ في تجليّة المعنى

اللّام في قوله: ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ لامُ الابتداء الّتي تزحلقَت لتتّصلَ بالخبر؛ لوجودِ مؤكِّدٍ آخر اقترن بالمبتدأ، فانفردَ به عنِ اللّام، ووظيفتُها معنويّةٌ، وهي تأكيدُ العلاقةِ الإسناديّةِ بين المبتدأ والخبر، والمبالغةُ في معنى الخبر وتوكيدُه، وكارهون خبر (إنّ) و﴿فَرِيقٗا﴾ اسمها وهو المبتدأ، وتأكيدُ الخبر باللّام يفيدُ تمكّنَ الكُرهِ منهم، وشِدّةَ ظهوره عليهم(2).

نكتةُ إيثار الجمعِ في: ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾:

إرادةُ معنى التّعدّدِ والجماعة، بغرض توسيع دائرة الخطاب

العدولُ عنِ الإفراد إلى الجمع في قوله: ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾، ولم يقُل: (لكارِه) بالإفراد بوصف لفظِ الفريق؛ إذ لفظُه مفردٌ، جريًا على معنى اللّفظ دون مَبناه؛ لأنّ الفريقَ متعدّدُ الأفرادِ، فهو جمعٌ في المعنى، والغرضُ من ذلك: إجراءُ صِفةِ الكُره على كلِّ واحدٍ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 223/8.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 531/3.

الفريق؛ لاستحضارِ معناها في جميع أفراده، ولو قال: (فريقٌ كارِه) على مراعاة اللّفظِ لَوقَعَ تصوّرُ الصّفةِ على غير معنى التّعدّدِ والجمعيّةِ، فيكون حينئذٍ تصويرًا ساذَجًا للخبَر، لا يحكي تَمَكّنَهُ وحركَتَه في الأجزاء المعنويّة للّفظ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفريق والأمّة والجماعة والطّائفة والفِئة والرّهط:

الأمّــــة أدلُّ علـى العـموم، والألــفــاظ الـبـواقـي دالّـة على الخصوص

الكلماتُ الأربعُ تشتركُ في أصلِ دلالتها على معنى الجَمعيّةِ، وتختصُّ كلٌّ منها بمزيّةٍ تَفرقُها عن أختِها، فالأمّة: هي الجماعةُ القاصِدَةُ لأمرٍ واحدٍ يشتركون فيه، كقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، فقد قصَدوا الدّينَ الحقَّ، واجتمعوا عليه. والجماعةُ: همُ الكَثرةُ المُجتَمِعةُ، فهي تدلُّ على مجردِ تَضامِّ النّاسِ بعضِهم لبعض، ومنها يومُ الجُمُعةِ لقيام النّاسِ فيها جماعةً. والطّائفة: هي في الأصل الجَماعَةُ الّتي من شَأنها الطّوفُ في البِلادِ للسَّفر، وهي القطعةُ منَ الشّيء؛ كأنّها جانبٌ من حواشيه أو ممّا يحيطُ به، فهي جماعةٌ مُقتَطَعةٌ من جَمعٍ آخر، فصارَت كالحلقَةِ الدّائرةِ في انفصالها، فكُثرَ بذلك طوافُها ودورانُها حول مُرادِها، ولذا فهي تدلُّ على الجماعةِ الّتي تَتَحَلَّقُ حولَ موقفٍ أو مناسبةٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فقد تُصوِّرَ فيهم تَحَلُّقهم ودورانَهم حول الموقِف المذكور فعبّر عنهم بالطّائفة. والفريقُ: الجماعةُ المتفرّقةُ عن آخرين، ومنه: الفِرقَةُ للجماعةِ المتفرّدةِ منَ النّاس، فالفريقُ هي الجماعةُ الّتي تفرّقَت وانفصلَت عن غيرها لسببٍ دَعا لانفرادها كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال: 5]، فعبّر عنهم بالفريق لانفصالِهم بالكراهيَة وافتراقِهم وانفرادِهم بموقفِهم عن سائرِ

جماعةِ المؤمنين[1]. والفئة: جماعةٌ منَ النّاس أو الجَيش، منَ الفأو؛ وهو الصّدعُ والشّقُّ والانفراجُ بين الشّيئين، فكأنّها فِلقَةٌ أو شِقٌّ مِنَ الجماعةِ الكبرى الّتي تنتمي إليها، أو منَ الفَيءِ؛ وهو الرّجوعُ؛ لأنّ بعضَهم يَرجعُ إلى بعضٍ فصاروا جماعةً، أو لأنّه يُرجَع إليهم في التّعاضُدِ والتّظاهرِ، ولذا اقترنَتِ الفئةُ في القرآن بسياقِ الغلبةِ والهزيمةِ والقِتالِ والحرب، وسُمّيَت بها مؤخِّرةُ الجيش الّتي تقيمُ وراءَه بذلك؛ لأنّهم يَفيئون إليها إذا احتاجوا لِمَدَد[2].

وأمّا الرّهطُ فأخصُّ تلك الألفاظ لدلالتِه على جماعةٍ مُقيَّدةٍ بعَدَدٍ ومخصوصةٍ بوصفِ القوّة، ولذا يُقالُ في جماعةِ الرّجالِ دون النّساء، فالرّهطُ همُ الجماعةُ إلى العشَرَة، وقيل إلى الأربعين، وهمُ الجماعةُ الّتي يَتقوّى بها المرءُ، ولذا يُقالُ رهطٌ في عَشيرةِ الإنسانِ الّتي يتعزّزُ بها، أو في العِصابةِ الّتي أفرادُها نافِذونَ أقوياء[3]، كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ [هود: 91]، وكقوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النّمل: 48].

الكارهُ والمبغِضُ والشّانِئُ:

الكراهيةُ لفظٌ عامٌّ يتّسِعُ ويَضيقُ في مدلولِه، على خلافِ اللّفظين الآخرين

الكارِه: هو مَن لا يرغبُ في الشّيءِ ولا يُحبُّه. والمبغِضُ: هو من اشتدَّ عنده وازِعُ الكراهية. والشّانِئ: هو الّذي يكره الشّيءَ مصحوبًا بالاشمئزاز والتّقذّر منه. فالكراهية: لفظٌ عامٌّ في التّعبير عند عدمِ الرّغبةِ والمحبّةِ. والبُغضُ: شِدّةُ الكراهية، فهو كراهيةٌ مُطبقةٌ شديدةٌ. والشّنئانُ: كراهيةٌ مع تقذّرٍ وأنَفَةٍ واشمئزازٍ منَ المكروه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 278، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمع)، والرّاغب، المفردات: (فرق)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوف - طيف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأو)، والرّاغب، المفردات: (فيأ)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فيأ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رهط)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 117/2، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رهب).

فليس كلُّ كراهيةٍ بغضًا أو شنئانًا، ولكنْ كلُّ بغضٍ وشنئانٍ كراهيةٌ[1]. فالكراهيةُ لفظٌ عامٌّ يتّسِعُ ويَضيقُ في مدلولِه بحسبِ المقامِ الّذي ورد فيه، وأمّا البغضُ والشَّنَئانُ فمدلولُهما أخصُّ وأضيقُ. ولذا استعمَلَ هنا الكراهيةَ، في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾؛ لأنّه أراد مطلقَ الرّفضِ لانتفاءِ الرّغبةِ (دونَ قَيدٍ).

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شنأ)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شنأ - كره)، وابن منظور، لسان العرب: (شنأ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغض).

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦﴾ [الأنفال: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين كراهيّة بعض المؤمنين للحرب، وجدالهم في الحقّ المستبين

لمّا ذكَرَ سبحانَه أنَّ فريقًا منَ المؤمنين خرجوا مع النّبيّ ﷺ، وهم كارهون للقتال؛ نظرًا لعدم استعدادهم له، ذكَرَ دليلَ كراهتِهم وردّةَ فِعلِهم الّتي أظهروها منَ الجدال في الحقّ، الّذي وعدَهم اللّهُ تعالى به من إعلامِ رسولِه ﷺ بالنّصر المؤزّر من حيث لا يحتسبون ولا يَدرون، فليمتَثِلوا ويوقِنوا بموعود اللّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: منَ الجدالِ والجَدَلِ والمجادلةِ، وهو استِحكامُ الشَّيءِ في استِرسالٍ يَكونُ فيه، وامتِدادُ الخُصومَةِ ومُراجَعَةُ الكَلامِ، ويُقالُ للزِّمامِ القَويِّ جَديلٌ: حَبلٌ مفتولٌ (شديد الفتل أو محكمه). ومنه جادَله: خاصمَه في شدّةٍ ولَدَد، فالمجادلةُ التفافُ كلٍّ على الآخر بإصرارٍ.

والمقصودُ بمجادلتهم في الحقّ بعد ما تبيّن: جدالُهم في لقاء العدوّ، وعند دنوِّ القوم بعضهم من بعض[1].

2) ﴿يُسَاقُونَ﴾: مِنَ السّوقِ، وهو دفعُ الشّيءِ مِن خَلفِه بقوّةٍ، ليُسرِعَ في سَيرِه ويَتَتابَعَ فيه، ومنهُ سَوق الإبلِ ونحوها، والمرادُ هنا: لِشدَّةِ كراهيتِهم لِلقاءِ القومِ كأنَّهم يُدفعونَ إلى الموتِ دَفعًا[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 393/13، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جدل).

(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوق)، والواحديّ، الوجيز، ص: 431.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان حال المجادلين في وعد الله، وكأنّهم يساقون إلى الموت بالإكراه

تُصوّرُ هذه الآيةُ فريقًا منَ المؤمنين الّذين جادلوا رسولَ الله ﷺ حين خرجوا معه موعودين بالظّفر بإحدى الطّائفتين، حيثُ كان أغلبُ الّذين خرجوا معِ النّبيّ ﷺ يؤمّلون الظّفرَ بعيرِ قريش المحمّلةِ بتجارتهم، ولكنَّ الله تعالى - لحكمتِه البالغةِ وعلمِه الأزليّ - اختارَ لهم الطّائفةَ ذات الشّوكة، وعلى الرّغم من وعد النّبيّ لهم بالنّصر والظّفر بإحدى الطّائفتين، وهو الحقُّ الّذي تبيّن، وعلى الرّغم من تصديقهم وعدَ الله تعالى، إلّا أنّهم جادلوا رسولَ الله في ذلك، وقالوا: ما خرجنا متأهّبين لقتالٍ، وكان حالُهم في ذلك الموطن شبيهًا بأناس يُساقون إلى الموت، وهم ينظرون أسبابَه، ويلحظون أماراتِه؛ ذلك لعدم استعدادِهم النّفسيِّ، وقلّةِ عددِهم وعُدَّتِهم الحربيّةِ، وفي الوقت نفسِه كان فريقُ أهل الشّرك أنشطَ قلوبًا، وأكثرَ استعدادًا، وأوفرَ عددًا وعدّةً، كلُّ ذلك جعلهم يكرهون القتالَ، ويُفضّلون عدمَ لقاءِ عدوِّهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصل: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ عمّا قبلها:

الاستئناف البيانيُّ من أبلغ البيان وأنصعه

جملة ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ يُحتمَلُ أن تكونَ مستأنفةً تُخبرُ عن حال المؤمنين الّذين كانوا يُجادلون نبيَّ اللهِ ﷺ، والاستئنافُ إمّا نحويٌّ غرضُهُ تقريرُ أمارةِ كراهتهم، وساقها القرآنُ استقلالًا سَوقَ الدّليلِ على القضيّة، ولذا فصلَها، وإمّا استئنافٌ بيانيٌّ هو جوابٌ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ يدلُّ عليه المقام، كأنّه قيل: ما دليلُ أنّهم كارهون؟ فقال: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾، والاستئنافُ البيانيُّ لا يوصَل بالواو، ويحتملُ أن تكونَ حالًا ثانيةً من ضمير المفعول في ﴿أَخۡرَجَكَ﴾ بعد ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا﴾؛ أي: أخرجك في حال مجادلتهم إيّاك، ويحتملُ أن تكونَ حالًا من الضّمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾؛ أي: لكارهون في حال جدال، والأحسنُ

أن تكونَ جملةُ ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ﴾ حالًا من ﴿فَرِيقًا﴾، مضارعُها مُثبَتٌ، مشتملةٌ على ضمير صاحبها، ولذا فُصِلَتْ[1].

دلالة إيثارُ استعمالِ ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ﴾ دون مرادفاته:

المُجادِلُ لا يَصبِرُ، والجدال سوء أدب مع الله

اصطفاءُ الفعل ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ﴾ دون غيره ممّا يُقاربُه في المعنى؛ لتصوير حالةِ عدمِ الصّبرِ على عدم الاعتراض، فإنّ المُجادِلَ لا يَصبِرُ، والغرضُ: تصويرُ عِلّةِ الكراهيةِ بلفظٍ يعبّرُ عن إلحاحِ الطبعِ وقلقَلةِ النّفسِ تُجاه ما يُخرِجُها عن حدّ المألوفِ لها، وليس أنسبَ في الدّلالة على ذلك من لفظ (الجِدال) الّذي يدلُّ وزنُه (فِعال) على معانٍ باطِنةٍ كالامتناع والجِماح والنّفار، فاستعملَ ما يَصِفُ تمَنُّعَهُم لشِدّة حرجِهم تجاه الحكمِ بالخروجِ منَ المدينة[2].

سرّ مجيءُ الفاعلِ ومفعولِه ضميرين:

الإلحاحُ وتركُ الإفصاحِ، مُؤذِنٌ بالصّفحِ وعدمِ الافتضاحِ

جاء الفاعلُ والمفعولُ في قوله: ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ﴾ ضميرين، حيثُ يعودُ ضميرُ الواو على الفريق، وضميرُ الخطاب مفعولٌ يعودُ على الرّسول ﷺ، ومِن كرائِمِ المعاني أنّه أتى على الفاعل والمفعول بالضّمير لا بالاسم الصّريح؛ لئلّا يتقصّدَ الفريقَ الكارِهَ بالإعلانِ والذِّكرِ إعراضًا عن أن يَنسِبَهم بذواتِهم وأشخاصِهم إلى الجِدال، وإعفاءً لهم منَ المؤاخَذةِ عليه، فمَرّ عليهم مُرورَ الكرام بإسناد فِعلِ الجدالِ إلى ضميرهم من غير تصريحٍ، فلم يُفصِحْ عنهم في الذِّكرِ ليَصفحَ عنهم فيما صدرَ منهم، فعدَمُ الإفصاحِ للصّفح وعدمِ الافتضاح! والّذي يُعينُ على هذا التّوجيه أمران:

الأوّل: أنّه صرّحَ بهم من قبل، فأضمرَ اكتفاءً بدلالة الظّاهرِ السّابقِ ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ على المضمَرِ اللّاحقِ ﴿يُجَـٰدِلُونَكَ﴾. **الثّاني**: أنّه

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/563.

(2) الأشمونيّ، شرح الأشمونيّ للألفيّة: 2/233، وخالد الأزهريّ، التّصريح بمضمون التّوضيح: 2/27، وفاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 26.

حين صرّح بهم في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ نكّره قصدًا لشيوعه، ثمّ قيّدَه بما يدلُّ على مدحِهم، وهو قولُه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمادِحُ لا يَنوي المؤاخذَةَ، ولا يُعرِّضُ بل يُعرِض، فلمّا فرغَ التّركيبُ هنا من قيد المدح أضمرَ ذواتَهم لقصدِ الإخبارِ عنِ الجدالِ الحاصلِ، دون الخوضِ في الفاعلِ، ويكأنّ الاستهجانَ واقعٌ على فِعلِه لا عليه، وأسندَ الجدالَ إلى ضمير الخطابِ المتّصلِ؛ ليدلَّ على أنّهم كانوا يُجادِلون بالودّ، وحسنِ النّيّة، ومقتضى القربِ من شخص الرّسول ﷺ، ولم يكن جدالُهم معه جدالَ الأباعِد ولا المُغرضين، ولذا لم يصرّحْ بإجراء وصفِ الرّسالةِ على المفعول، فلم يقُل: (يجادلون الرّسول)؛ لدفعِ ما يوهِمُ أنّ جدالَهم مُتَّجِهٌ لمعنى الرّسالةِ وأحكامِها، كجِدالِ المُعرضين المُناكِفين.

نكتةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

التّعجيب يبرز التّفاعل مع الحال المكرّسة في السّياق

التّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾؛ لحكاية حالِ المجادلَة زيادةً في التّعجيب منها، وهذا التّعجيبُ كالّذي في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ من قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤﴾ [هود: 74]؛ إذ قال: يجادلُنا؛ ولم يقُل: جادلَنا[1].

فائدةُ قولِه: ﴿فِى ٱلْحَقِّ﴾:

تقريرُ أنّ جِدالَهم جانَبَ الصّواب

قوله: ﴿فِى ٱلْحَقِّ﴾ مُتعلّقٌ بـ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾، والحقُّ هو القتالُ وإيثارُ مُلاقاةِ النّفيرِ على الظّفَرِ بالعير[2]، وفائدتُه: تقريرُ أنّ جِدالَهم جانَبَ الصّوابَ، ولم يكن في موضعِه.

دلالةُ قولِه: ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾:

تقريرُ أنّ الجدالَ منهيّ عنه، وأنّه خِلافُ الأولَى وخلافُ الصّواب

قوله: ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾؛ أي: بعدما تبيّن لهم صوابُه من حيثُ العاقبةُ والنّصرُ، وتبيّنَ لهم فرضُه، فليس لهم أن يُطاوِعوا طِباعَهم في استثقالِه، ودلالةُ التّقييدِ به من وجوهٍ: الأوّل: التّعليلُ بما يقتضي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 267/9.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 199/2، وصافي، الجدول: 173/9.

إنهاءَ حالةِ الجِدالِ، وهو ظهورُ الحقِّ؛ إذ بعد بيانِه ليس لجدالِهم مُقتضًى. الثّاني: تقريرُ أنّ جِدالَهم كان خِلافَ الأولَى وخلافَ الصّوابِ؛ لأنّهم جادلوا برغم ظهور الحقِّ لهم. الثّالث: الإشعارُ بأنّ الله عذَرَهم في أصلِ جِدالِهم قبل أن يَظهرَ الحقُّ لهم، وهو مفهومُ قولِه: ﴿بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾. الرّابع: أنّ الجِدالَ في الحقِّ لا يُلامُ عليه المُجادِلُ إذا كان مُشكِلًا عليه غيرَ بَيِّنٍ عِندَه.

نكتةُ نصبِ الظّرفِ (بعدَ)، وعدمُ دخولِ حرفِ الجرِّ عليه:

لـيـس كـلُّ الجِدالِ مذمومًا في الحوار، ولكن لا ضرر ولا ضرار

عدمُ دخول (مِن) كأن يُقال: (يجادلونك في الحقّ من بعد ما تبيّن)؛ لإفادة استغراقِ الظّرفِ للزّمن المختصِّ به في التّعقيب بين الجدالِ والبيانِ، من غير إرادةٍ لتحديدِ وقتِ ابتداءِ ذلك في حيِّزِ البعديّةِ؛ ليفيدَ أنّ جِدالَهم حصلَ بعد ظهورِ الحقِّ لهم، فلا يلزمُ أن يكونَ بعدَه مباشرةً على وجه السّرعةِ والفوريّةِ، ولا يلزمُ أن يكونَ بعدَه بمدّةٍ طويلةٍ أو قصيرةٍ؛ لأنّه أرادَ مجردَ إتيانِ شيءٍ بعد شيءٍ فقط.

وهذا يدلُّ على تفاوتهم رضي الله عنهم في صدورِ الجدالِ عنهم بعدَ ظهورِ الحقِّ، بحسبِ تفاوتهم في كيفيّة استقبالِهم للحقِّ المذكورِ، أمّا لو قيل: (من بعد ما تبيّن)؛ أي: أنّ جدالَهم يكون مُبتدَئًا وناشئًا من تحقّقِ البيانِ لهم؛ لأنَّ (مِن) لابتداءِ الغاية، فالشّروعُ في بدءِ الحدَث لا بدَّ أن يكونَ فوريًّا وسريعًا بلا تمهّلٍ ولا مُدارسَةٍ للبيانِ الّذي أتاهم، ولو قال ذلك لكان فيه نوعُ مَذَمّةٍ للفريق الّذي جادَل، والّذي شهدَ له بالإيمان؛ لأنّ الّذي يُجادِل سريعًا فورَ أن يظهرَ له الحقُّ يكون متعجّلًا غيرَ متمهِّلٍ في دراسةِ هذا الحقّ، وغيرَ متفرّغٍ لإعادةِ النّظرِ فيه، ولذلك يُسرعُ في الاعتراض بالجدال، فيكون جدالُه جِدالَ المُعرِض لا جِدالَ المتحقّق المُتحرّي.

وفي عدم الإتيان بـ(مِنْ) نوعُ مدحٍ للصّحابة رضي الله عنهم؛ لإشعاره أنّهم لم يُسارعوا في الجدال، بل تمهّلوا ونظروا في الحقّ الّذي أتاهم،

ثمّ جادلوا، وهذا معناه أنّ جِدالَهم كان سائغًا بالنّسبةِ لهم، وله وجهُهُ المُعتَبرُ عندهم، ولم يكن اعتِباطًا أو انفعالًا غيرَ محسوب، وهذا مدحٌ لهم أيُّ مدح، وإعذارٌ لهم أيَّ إعذار، وتقويةٌ لتزّكيتِهم بالإيمان في قوله: ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وإنْ كان لا يمنع اشتمالُه أيضًا على معنى العِتاب والتّعجيب إلّا أنّه عِتابُ مَن ثبتَت تزكيتُه، واعتُبِر في الأمور نظَرُه؛ لأنّ الشّهادةَ لهم بالإيمان لها لوازِمُها الكثيرة في الاعتبار والإعذار، وهذا على عكس ما قد يُتَصَوَّرُ من هذا التّركيبِ من أنّه (عليهم) لا (لهم) ﵃، إلّا أنّه لو اعتُبِرَ ما تمّ تقريرُه لظَهَر أنَّ هذا التّركيبَ مع مجموعِ السّياقِ يفيدُ كونَه (لهم)، وفي صالحهم، لا (عليهم)[1].

دلالةُ الفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ دون مرادفاته:

البيانُ يَخلقُ فجوَةً بين الوضوحِ وعكسه

استُعمِل الفِعلُ ﴿تَبَيَّنَ﴾ دون الأفعال المقاربة له في المعنى؛ ليدلَّ على البَونِ الفاصل بين الحقّ والباطل، وليدلَّ على أنّه ليس مجردَ انكشافٍ ووضوحٍ أو ظهورٍ، بل هو وضوحٌ مقترنٌ ببَينونَةٍ حاصلَةٍ بين طرفين، طرفِ الحقّ وطرفِ غير الحقّ؛ لأنَّ التّبيُّنَ في أصله يدلُّ على "امتدادٍ بين طرفينِ أو جانبينِ مع فصلٍ كبيرٍ أو اتّساعٍ، ومن ذلك الفصل والتّمييز جاء معنى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصولَ المتميّزَ عن غيره يَلفِتُ النّظرَ"[2].

فائدةُ الفعل اللّازم ﴿تَبَيَّنَ﴾، ودلالةُ صيغته:

معاني التّدرّجِ والصّيرورة والتّكلُّفِ، من المعاني المتداولة

الفعلُ ﴿تَبَيَّنَ﴾ على وزن (تَفعّل)، وقد أتى البيانُ على هذه الصّيغة دون أن يُقال: (بان الحقُّ)؛ للدّلالة على عِدّة معانٍ:

الأوّل: (التّدرّج): فالحقُّ يَبينُ شيئًا فشيئًا بتظاهر الأدلّةِ وتكرارِ التّذكيرِ به.

---

(1) الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ، ص: 345.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).

الثّاني: (التّكلّف): وهو أحدُ الدّلالاتِ الأصيلةِ لصيغة (تفعّل)، ومعنى التّكلُّف هنا: أنّ إظهارَ الحقِّ يحتاجُ إلى معاناةٍ في انعتاقِه وانفصالِه عنِ الالتباسِ، وتصفيتِه منَ الباطل والهوى، فأسندَ إليه التّبيّنَ؛ ليدلَّ على تَخلّصه وصفائه، وأنّه خُلاصةٌ مُصفّاةٌ ومُصطَفاةٌ.

الثّالث: (الصّيرورة) فمعنى (تبيّن)؛ أنّه حتّى يظهرَ انتقلَ من طَورٍ إلى طورٍ، فصار واضحًا جليًّا بعد أن كان مُشكِلًا خفيًّا[1].

إيثارُ استعمالِ صيغةِ الماضي: ﴿تَبَيَّنَ﴾:

صيغةُ الماضي تدلُّ على تشبّعِ الفاعِلِ بمعنى الفِعل

صيغةُ الماضي في قوله: ﴿تَبَيَّنَ﴾؛ للدّلالة على تشبّعِه - أي: الحقّ - بصفة التّجلّي والبيان، وتحقّقِ ذلك فيه تحقُّقَ الأزمانِ الماضيةِ لا ريبَ في تحقّقِها وتمامِها.

دلالة إعراب ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾:

تصويرُ حال المذكورين في كراهتهم لأمر الله بالخروج للجهاد

الجملةُ في محلّ نصب على الحاليّةِ من ضمير (لكارهون)، ويصحُّ أن تكونَ صفةَ مصدرٍ من ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ بتقديرِ مضافٍ؛ أي: كارهون كراهةً ككراهةِ مَن سيقَ إلى الموت، ودلالةُ ذلك تشبيهُهم في كراهيتِهم الجهادَ الموعودَ بالنّصر والظّفر، ونفورِهم منَ الخروجِ له، كحالِ من يُساقُ إلى مَهلَكَتِه وهو ينظرُ، أو تشبيهُ حالِهم في جِدالهم منَ الاضطرابِ وعدمِ القرارِ كحالِ من ساقَه سائقٌ إلى الموت، وهو يُدافِعُه ولا يُطاوِعُه[2].

بلاغة التّشبيهُ التّمثيليُّ:

الجدال في أمر الله تعالى، سببه كراهية الموت وحبّ الحياة

في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، حيث شبّه حالَهم، في فرط فزعِهم ورعبِهم، وهم يُسارُ بهم إلى الظّفرِ والغنيمةِ، بحالِ مَن يُساقُ إلى القتل[3].

---

(1) سيبويه، الكتاب: 2/71 - 4/73، وابن مالك، شرح التّسهيل: 3/452.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/115، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/344، والشّهاب، حاشية الشّهاب: 4/254.

(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/174.

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿يُسَاقُونَ﴾ دون مرادفاته:

غَلَبَةُ الانحيازِ لِمقتضى الطّباعِ عند الأزمات مألوف

عبّرَ بقوله: ﴿يُسَاقُونَ﴾؛ لتضمّنه معنى الدّفعِ بقهرٍ، وهو دالٌّ على التّعجيبِ من حالِهم، وأنّهم يَقيسون الأمرَ بالخروج قياسَ مَن يعتقدُ أنّه مُكرَهٌ مَلجوءٌ إليه رغمًا عنه، والتّعجيبُ سببُه أنّهم مدفوعون، لكن إلى أسبابِ الحياةِ لا الموتِ، بالنّصر والظّفَر المحتوم وتمكينِ شَوكَتِهم ودَولَتِهم. "ونلحظُ أنّ هناك (سَوقًا)، وهناك (قيادة)، والقيادةُ تعني أن تكونَ منَ الأمام؛ لِتدلَّ النّاسَ على الطّريق، و(السّوق) يكون منَ الخلف؛ لتحثّ المتقدِّمَ أن يُقصِّرَ المسافةَ مع تقصيرِ الزّمنِ، فبدلًا من أن نقطعَ المسافةَ في ساعةٍ - مثلًا - فنقطعها في نصف ساعة؛ أي: أنّهم غيرُ مُنجزين للسّير، بل هم مدفوعون إليه دفعًا، وهم ينظرون بشاعةَ الموتِ؛ لأنّهم تصوَّروا أنَّ مواجهتَهم لألفِ فتىً من مقاتلي قريشٍ مسألةٌ صعبةٌ، فألفٌ أمامَ ثلاثمئةٍ مسألةٌ ليسَت هيّنةً؛ لأنَّ ذلك سيفرضُ على كلِّ مسلمٍ أن يواجهَ ثلاثةً معهم العُدَّةُ والعَتادُ، فكأنّ الصّورةَ الّتي تمثّلَت لهم صورةٌ بشِعةٌ، لكنّهم حينما نظروا هذه النّظرةَ لم يلتفتوا إلى أنَّ معهم ربًّا ينصرُهم على هؤلاء جميعًا"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع المبنيّ للمفعول:

معرفةُ الفاعلِ لا جدوى منها للمَسوقِ لِحَتفِه

التّعبيرُ بصيغة المبنيّ للمفعول في قوله: ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ مع عدم التّصريح بفاعلِ السَّوق؛ لعدمِ اكتراثِ المَسوقِ إلى الموتِ بفاعِلِ السَّوق؛ لِتوفّرِ عنايته بذاتِه واستغراقِه في شأنه حينئذٍ، ولأنّ المصائرَ المشؤومةَ إنّما تُكرَهُ لأجلِ الهالكين بسببها، بغضّ النّظرِ عن فاعليها؛ إذ معرفةُ الفاعلِ لا جدوى منها للمَسوقِ لِحتفِه.

فائدةُ ورودِ الجارّ والمجرور: ﴿إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾:

الجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ﴿يُسَاقُونَ﴾[2]، وفائدةُ التّعليقِ عليه:

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4584/8.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 532/3.

استبشاعُ انتهاءِ الغايةِ الّذي أفاده حرفُ الانتهاء (إلى)؛ لكونِه انتهاءً إلى فناء، فتوسّلَ بحرفِ الانتهاء لفظًا، إلى غايةِ النّهايةِ معنًى.

التّوسّلُ بحرفِ الانتهاءِ لفظًا، إلى غايةِ النّهايةِ بالموت معنًى

أثرُ اختلافِهم في المراد بالموت بين الحقيقةِ والمجازِ:

المرادُ بالموت في قوله: ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ﴾ على وجهين:

الأوّل: يُساقون إلى مواقعِ الموتِ ومَظانّه؛ لأنّهم ثلاثُمئة في مواجهةِ ألفٍ، وهذا سببٌ من أسباب الموتِ لا أنّه حقيقةُ الموتِ، وعليه فالموتُ مجازٌ؛ لأنّه أطلقَ الشّيءَ، وأراد سببَه على أنّه مجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه المُسبّبيّة.

لا فرقَ بين مُعاينةِ سببِ الشّيءِ ومعاينةِ ذاتِ الشّيءِ

الثّاني: يُساقون إلى الموتِ المُحقَّق، كأنّهم عاينوه ذاتَه بمعاينةِ أسبابِه، وحينئذٍ فالموتُ محمولٌ على الحقيقة.

أثر إعراب: ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾:

جملة ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ حاليّة من قوله: ﴿يُسَاقُونَ﴾، والتّذييلُ بها انتقالٌ من حالِ التّصوّرِ إلى حالِ التّصديق؛ أي: إنّهم يُساقون إلى الموتِ بما أخبِروا به عنه، وهم ينظرون؛ أي: يرونه بأعينهم، والغرضُ: الإيماءُ لِفرط رعبِهم وانتفاضِ قلوبِهم منَ القتال؛ لقلّة عددِهم وعدم استعدادِهم، وهو مبالغةٌ في إطباقِ حالِ الكراهيةِ عليهم؛ لاجتماع سَماعِهم بالمكروه مع نظَرهم إليه. والتّشبيهُ جارٍ مَجرَى الأمثالِ في صلاحية إطلاقِه على مواردَ متعدّدةٍ، فعبارةُ: (يُساقُ للموتِ وهو يَنظُر) مصوغةٌ، كما يُصاغُ المَثَلُ السّائِرُ.

قوله: (يُساقُ للموتِ وهو يَنظُر)، جاريةٌ مجرى الأمثالِ

فائدةُ تقديمِ المسند إليه في ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾:

ذِكرُ المسندِ إليه ﴿وَهُمۡ﴾ - وهو ضميرٌ عائدٌ على صاحبِ الحال، ولذلك وُصِلَتِ الجملةُ بالواو - أفاد النّصَّ على تعيين ذواتِهم؛ لاستحضارها في مشهد النّظَرِ، وتأكيد أنّ النّظرَ المذكورَ كأنّه - في حيّز التّشبيه - حاصلٌ منهم جميعًا، لا يتخلّفُ من أشخاصِهم أحدٌ،

سياق التّقديم، يُقرِّبُ السّامِعَ مِنَ استِحضار ذواتِ الفاعِلين

مع قصدِ أن يستحضرَ السّامعُ صورتَهم بذواتهم وأشخاصهم، وهم يُزاوِلون النّظرَ للخطَر زيادةً في التّقرير وتأكيدًا للتّشبيه.

إيثارُ استعمالِ ﴿يَنظُرُونَ﴾ دون مرادفاته:

التّعبيرُ بفعل النّظر، دالٌّ على المواجهةِ والتّرقُّبِ

إيثارُ فِعلِ النّظَرِ دون البصر وغيرِه ممّا يقاربه؛ لقصد الدّلالةِ على أمرين: الأوّل: المواجَهَة؛ لأنّ ناظرَ الشّيءِ يواجهُه ويُقابلُه، وهذا بلازِمه يفيدُ عدمَ ملابسته لمتعلّقِ النّظرِ، فهم - فقط - ينظرون، وهذا التّعبيرُ أليقُ بحالهم، فهم قد كانوا في مواجهةِ ما خافوا منه دون أن يُلابِسوه، ويُبصروا عاقبتَه، ولو انتقلوا من حيّز المواجهةِ إلى حيّز الملابسةِ لَعَلِموا أنّ اللهَ سينصرُهم بلا صُنعٍ منهم. الثّاني: التّرقُّب؛ لأنّ النّظَرَ مشتملٌ على معنى التّرقّبِ والانتظارِ، فالنّاظِرُ إلى الشّيءِ يترقّبُ الإحاطةَ به من جميع جوانبه، وينتظرُ المَساسَ به ومُلابستَه، وهذا مطابقٌ لحالِهم من توقّع الخطرِ وعدمِ الإيقانِ به، وانتظارِهم لِلقاء العدوّ، كنظَرِهم إلى مواقِع الموت، فكان التّعبيرُ بالنّظر أليقَ[1].

حذفُ مُتعلَّقِ الفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾:

الحذفُ بلاغة معهودة في السّياق، وغايته غالبا الإيجاز

حذفَ مُتعلّق ﴿يَنظُرُونَ﴾ فلم يقُل: (ينظرون إلى كذا) وهذا يشيرُ إلى قصدِ التّعميم والاختصارِ، وتعذّرِ انحصارِ المتعلّقِ في مفعولٍ محدّدٍ؛ لأنّ الّذين يُساقون إلى الموتِ تختلفُ أنظارُهم وتصوّراتُهم في تلك السّاعة بحسب اختلافهم في مَنازِع أفكارِهم، وغرائزِ طبائعِهم، أو المفعولُ محذوفٌ لدلالةِ ما قبله عليه[2]؛ أي: (يساقون إلى الموت، وهم ينظرون إلى الموت)، فالحذفُ للإيجاز.

❁ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

السَّوْق والدَّفع والقوْد:

الدَّفع: الإزالةُ بقوَّةٍ. فالدّفعُ قد لا يكون قيادةً أو سَوقًا، بل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/224، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نظر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/268.

السّوقُ والقوْدُ هو دفعٌ مخصوصٌ لغرضِ إدارةِ الشّيء، والدّفع إزالته بقوّة

يكون مُستعملًا في دَرءِ الشّيءِ وإزالتِه. وأمّا السَّوقُ والقودُ فهو دفعٌ مخصوصٌ لغرضِ إدارةِ الشّيء، لا بقصد إزالتِه ومُقاومتِه. والقَودُ: نَقيضُ السَّوقِ، يَقودُ الدّابَّةَ مِن أمامِها، ويَسوقُها مِن خَلفِها، فالقَودُ مِن أمامٍ، والسَّوقُ مِن خَلفٍ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دفع)، وابن منظور، لسان العرب: (دفع - قود)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دفع - سوق).

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾ [الأنفال: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان أنّ الخير في أمر الله للمؤمنين، وأنّه يحقّ الحقّ، ويمحق الكافرين

لمّا تغلّبَ المؤمنون على جزعِهم وقِلّةِ حزمِهم، فامتثلوا، وخرجوا على كُرهٍ منهم، أقبلَ اللّهُ تعالى عليهم بخطابهم أن يتذكّروا تلك الفترةَ بالاعتبارِ منَ المُفارقةِ بين مُرادِهم ومُرادِ اللّه، وأنّهم لو وُكِلوا إلى رغباتِهم ما تحقّقَ لهم هذا الخيرُ العاجلُ بتمكينِ المؤمنين وغَلَبَةِ الكافرين، والخيرُ الآجل بالمغفرةِ لأهل بدرٍ المُبَشَّرين بالجنّةِ والفوزِ الكبير.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾: مُثنّى طائفَة، مِنَ الجذْرِ: (طوف) وهو أصْلٌ يَدُلُّ على دَورانِ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ، وأنْ يُحَفَّ به. فأمّا الطّائِفَةُ مِنَ النّاسِ فكَأنَّها جَماعَةٌ تُطيفُ بالواحِدِ أو بالشَّيْءِ، فهي الجماعة مِنَ النّاسِ، والطّائِفَةُ مِنَ الشّيءِ: القطعة مِنه[1].

ومعنى التّركيبِ ﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾: العيرُ مِنَ القافِلةِ المُتّجِهَةِ إلى مكّة أو الظَّفرُ بالنَّصرِ على عَسكرِ قريش[2].

2) ﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾: الشّوكة: الواحِدةُ مِنَ الشّوك، وأصلُ اللّفظِ يدلُّ على خشونةٍ وحِدَّةِ طَرَفٍ في الشّيءِ، ويُشتَقُّ من ذلك الشّوكة، وهي شِدّةُ البأسِ والقوّة، والمرادُ: الفئةُ القويّةُ ذاتُ البأس، وهي طائفةُ النَّفيرِ ذاتُ السِّلاحِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طوف).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 272/2.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شوك)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 633/1.

3) ﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾: أصلُه من (حَقَّ) الّذي يدلُّ على إحكام الشّيءِ وصحّتِه، ويُقال: أحققتُ كذا؛ أي: أثبَتُّه حقًّا، أو حكمتُ بكونِه حقًّا. وإحقاقُ الحقِّ: تثبيتُه بالحُجّة، وتأييدُه بالقوّة[1].

4) ﴿دَابِرَ﴾: مِن (دبَر)، وهو أصلٌ يدلُّ على آخِر الشّيءِ وخِلافِ قُبُلِه، والدّابِر هو الآخِر. ودابِرُ الكافرين: آخِرُهُم وبَقيّتُهُم، كما أنَّ دابِرَ الشّيءِ آخِرُهُ الباقي منه[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إرادة الله بتقدير يوم الفرقان، لاستئصال الكفر بنصر أهل الإيمان

اذكروا أيّها المؤمنون - مُمتَنّين - حالَكم مع وعدِ اللّهِ لكم بإحراز إحدى الطّائفتين: طائفة العيرِ، وما تحمِلُه مِن أرزاقٍ، أو طائفة النّفيرِ؛ وهو قتالُ الأعداءِ والانتصارُ عليهم، والحالُ أنّكم تحبّون إحرازَ العيرِ؛ لعدم القتالِ فيه، واللّهُ يريدُ إعلاءَ دينِه بقِتالكم للكافرين وإهلاكهم بمعونتِه لكم، وإظهارَكم عليهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو على الاستئناف في: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾:

تحصيل النّصر والتّمكين، كان بالمواجهة الحربيّة بين الجيشين

جملةُ ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ﴾ استئنافيّةٌ مسوقَةٌ للامتنانِ عليهم، بتذكيرِهم بمآلِ إرادةِ اللّهِ فيهم منَ الخيرِ والنّصر، ومُفارَقةِ ذلك مع حالِهم حينئذٍ منَ الجزعِ وقلّةِ الصّبرِ والحزم، فلو كان المؤمنون قد وُكِلوا إلى ما يَوَدّونَه من اختيارِ الغنيمةِ السّهلَة، لَما حصَلَ لهم تلك المصالحُ والمآثِرُ الجَمّةُ مِن امتثالِهم لإرادةِ اللّهِ العزيزِ الحكيم، وتقديرُ الخطابِ: (اذكروا وقتَ وعدِ اللّهِ إيّاكم إحدى الطّائفتين)،

بلاغة الالتفاتِ منَ الغيبة إلى الخطاب:

وأسلوبُ الامتنانِ جرى بطريقِ التّلوين والالتفاتِ منَ الغيبةِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حق).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبر)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 633/1.

للخطاب[1]، فقد أخبرَ عنهم بأسلوب الغيبةِ في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾؛ لاشتمالِ ذلك على ما ليس كامِلًا في أوصافهم منَ الكراهيةِ المذكورةِ، فأخبر عنهم، ولم يُخاطبهم؛ لئلّا يُخجِلَهم، ثمّ التفتَ إليهم بالخطابِ؛ لأنّه استذكارٌ لموضعِ امتنانِ اللّه ولطفِه بهم، فكان أدعى لخطابهم؛ لأنّهم امتثلوا حينئذٍ، فكانوا على أكملِ الأحوالِ، فكان الخطابُ إيناسًا لهم ومَسَرّةً.

نِعَمُ الله على عباده غَزيرةٌ، ومِنَنُهُ مُسْتَحِقّة جديرةٌ

نكتةُ حذفِ العاملِ في: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾:

حذفُ العاملِ (واذكر) من قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾؛ لكفايةِ الخطابِ في ﴿يَعِدُكُمُ﴾ عنه في حصولِ التّذكّرِ؛ لأنّ سوقَ الكلامِ في صورة الخبرِ يكفيهم - وهُم منَ البدريّين المغفور لهم - في التقاط إشارته، واللّبيبُ تكفيه الإشارةُ ولا يحتاج إلى التّصريح؛ لأنّ التّصريحَ إحراجٌ لهم، ففيه مراعاةُ اللّه لخواطرِهم ألّا يُجابِهَهم بما يُخجِلُهُم، وحيثما كان المقصودُ واضحًا كان الإيجازُ كافيًا. وأمّا قومُ هودٍ وثمودَ في قوله تعالى لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ﴾ فقد كانوا غافلين كافرين فلا يكفيهم التّلميحُ، فقرَعَ آذانَهم بصريح اللّفظ لعلّهم يذكّرون، فأطنبَ بذكر العاملِ، والبلاغةُ مراعاةُ مقتضى الأحوال بما يناسبُها في أسلوبِ الخطابِ واصطفاءِ التّراكيبِ.

حيثما كان المقصودُ واضحًا، كان الإيجازُ كافيًا

إيثارُ الفعلِ ﴿يَعِدُكُمُ﴾ دون مرادفاته:

اصطفاءُ الفعلِ ﴿يَعِدُكُمُ﴾؛ لتنزيلِ الغائبِ المجهولِ منزلةَ الحاضرِ المأمولِ، فقد كانوا يخشونَ الهلاكَ للمفارقة العدديّة ولعدم الجاهزيّة، ففعلُ الوعدِ تطمينٌ وترجيةٌ لهم بالقول ألّا يخافوا، ولا يحزنوا، والقولُ منَ اللّه بالوعد يقينٌ ناجزٌ، وفيه منَ التّربيةِ لهم بالتّعريضِ والتّعجيبِ من شأنهم ما فيه، بدليل إسنادِه إلى اسمِ

وعدُ اللهِ يقينٌ ناجزٌ، والله لا يخلف الميعاد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/4.

الألوهيّةِ الجامع ﴿يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إذا كان وعدًا كائنًا منَ اللهِ العظيم، فكيف تستمرّون على مخافتِكم؟ فأولَى بكم أن تَتَهيّبوه في وعده، ولا تتهيّبوا مَن هم تحتَ قبضته وقهره منَ الكافرين[1].

التّذكيرُ بوعْدِ العليم الخبير؛ لاستِحضارِ المَشْهدِ، وأخْذِ العِبْرة

سرُّ استعمالِ المضارع ﴿يَعِدُكُمُ﴾، واتّصاله بالضّمير:

قوله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ﴾، صيغةُ المضارع لحكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتِها[2]، وللدّلالة على أنَّ الوعدَ تكّررَ عليهم أكثر من مرّةٍ؛ لتثبيتهم.

نَفَرَتِ الأنْفُسُ مِنَ النّفير، وقد كان فيه النّصْرُ والخَيْرُ

معنى ﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾، وعلّةُ تخصيصِها بالإضافة:

المرادُ بإحدى الطّائفتين: العير أو النّفير، وعلّةُ تخصيصها بالإضافة، التّنبيهُ على أنّ إحداها هو المرادُ فقط، وليس المرادُ كليهما.

بَدلُ الاشتمال مُبيِّنٌ لكيفيّة الوعد

أثر إعرابُ جملة ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾:

منصوبُ المحلِّ على البدلِ مِن إحدَى؛ أي: يَعِدُكم أنَّ إحدى الطّائفتين كائنةٌ لكم؛ أي: تتسلَّطون عليها تسلُّطَ المُلّاكِ، وتتصرّفون فيهم كيف شئتم، فهي بدلُ اشتمالٍ مُبيّنٍ لكيفيّة الوعد[3].

الجملة المؤوّلة، عبارةٌ عن معنيين منظومين في سلكٍ واحدٍ

إيثارُ المصدرِ المؤوّلِ على الصّريحِ في: ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾:

إيثارُ المصدرِ المؤوّلِ ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ على المصدر الصّريح (كونها لكم)؛ للجمع بين توكيد الإسنادِ بين المبتدأ والخبر، والدّلالة على المصدر لإفادة ثبوتِ حكم الاختصاصِ والاستحقاقِ بين المسند إليه والمسند. وهذا التّعبيرُ آكَدُ في الوعد مِن مثلِ أن يُقالَ: (وإذ يعدُكم اللهُ أنّ إحدى الطّائفتين لكم)؛ لأنَّ تركيبَ الآيةِ إثباتٌ بعدَ إثباتٍ: إثباتٌ للشّيء في نفسِه، وهي إحدى الطّائفتين، وإثباتٌ له في بَدَلِه[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/4.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 457/9، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/4.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 500/9.

دلالةُ لام الاستحقاقِ والمِلكِ في: ﴿لَكُمۡ﴾:

اللّامُ لامُ الاستحقاقِ والمِلكِ؛ أي: مملوكة لكم، والمِلْكُ عرفيٌّ غيرُ حقيقيٍّ؛ بمعنى: الولايةِ على الغنائم، واستخلافِهم عليها بعدَ الظّفرِ بها[1].

المِلْكُ العُرْفيّ، يعني الولاية على الغنائمِ وليس الحيازةَ

اختلافُهم في دلالةِ الواو، في: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾:

واو ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ تتقلَّبُ بين ثلاثة معانٍ؛ فهي إمّا عاطفةٌ وإمّا حاليّةٌ وإمّا مستأنفةٌ، والمعنى على العطف: يَقعُ الوعدُ منَ اللّه، والودُّ منكم، والمعنى على الحاليّة: يعدُكم اللّهُ في حال ودِّكم الطّائفةَ غير ذاتِ الشّوكةِ، وهي العير.

إفادةُ الجمعِ بين الإخبارِ عنِ الله بالوعد والإخبار عنهم بالودّ

والفرقُ بينهما في العطف: إفادةُ الجمعِ بين الإخبارِ عنِ اللّه تعالى بالوعد والإخبارِ عنهم بالودّ، وفي الحال: إفادةُ التّزامنِ بين الوعدِ والودِّ؛ أي: أنّ اللّه جلَّ شأنُه وعدَهم في وقتٍ يودّون فيه ذلك، والمعنى على الاستئناف: الإخبارُ بما كان مِن أمرِهم[2].

إيثارُ استعمالِ الفعلِ ﴿وَتَوَدُّونَ﴾:

التّعبيرُ بالفعل ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ لتضمين رجائِهم الغنيمةَ من غير قتالٍ معنى الحبِّ، وأنّ انفعالَهم بتمنّي ذلك كان بوازِعِ إلحاحِ اللهفةِ والحرصِ على المألوف، ولو عبّر بالتّمنّي أو الرّجاء لم يكن يلزمُ اشتماله على المحبّة والألفة[3].

التّعبيرُ بالودِّ يَصِفُ الانفعالَ المَحمومَ في القلوب

سرُّ استعمالِ المضارعِ ﴿وَتَوَدُّونَ﴾:

صيغةُ المضارعِ في قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ لتصوير حالةِ الانفعالِ الباطنةِ، وهي تَعترِك، وتنبِضُ بالودادِ المتواتِر، الّذي لا يأفُلُ فيها، ولا يَسكنُ، فهو ودادٌ مستمرٌّ لا يَفتُرُ، وصيغةُ المضارع تُطابقُ

تصويرُ حالةِ الانفعالِ الباطنةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/269.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/269، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/325.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (ودد).

خصيصةَ هذا الفِعل، فإنّ عادةَ مَن يودُّ شيئًا أن يستمرَّ انفعالُه بحُبِّ الشّيءِ وطلَبِه حتّى يتحقّقَ، والمحبّةُ هي الّتي تُغريه فلا يزالُ مدفوعًا في ابتغائه.

معنى ﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾، ودلالةُ ﴿غَيۡرَ﴾:

ذاتُ الشّوكة كنايةٌ عنِ الحرب

﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾ الحِدّةُ والقوّةُ، و﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾: الفئةُ القويّةُ، مُستعارةٌ من واحِدَةِ الشّوك، شَبّه حِدّةَ الرِّماحِ وأدواتِ السّلاحِ بحِدّة الأشواك في النّباتات. وذاتُ الشّوكةِ كنايةٌ عنِ الحرب. و﴿غَيۡرَ﴾ اسمٌ يقعُ على خلافِ ما أُضيفَ إليه؛ أي: والمراد: خلافُ ذات الشّوكة، ولإبهام لفظِ ﴿غَيۡرَ﴾ وعدم تَعرّفه أو تخصّصِه بالإضافة، فإنّ استعمالَها هنا له نكتةٌ في دلالته: وهي عدمُ تَعيُّن مفهوم ﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ المُقابِل، وهو (غنيمة العير)، بل إطلاقُ المُقابل؛ بمعنى: أنّهم لا يودّون قتالَ الفئةِ القويّةِ ذاتِ الشّوكةِ مُطلَقًا، حتّى ولو لم يحصلوا على غنيمةِ العيرِ؛ يعني: يودّون غيرَ ذاتِ الشّوكةِ أيًّا كان ذلك: إدراكُ غنيمةِ العيرِ، أو القعودُ والفواتُ، فالمعنيان داخلان في حيّزِ الغيريّة، ومفهوم ذاتِ الشّوكة[1].

سرُّ التعبير بقوله: ﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾:

اشتمالُ هذا التّركيب على سببِ وِدادتهم لملاقاة العير

العدولُ عن (غنيمة العير) إلى قوله: ﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾؛ لاشتمال هذا التّركيبِ على ثلاث دلالات: الأولى: أنّها غنيمةٌ صافيةٌ عن كَدَرِ القتال، فهي غنيمةٌ باردةٌ. الثّانية: التّصريحُ في التّركيب بذِكرِ (غنيمة النّفير)، وهي ﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾؛ للتّعريضِ بأنّها هي المقصودة، ولكنّهم عدلوا عنها إلى غير ذاتِ الشّوكة، ولو قال: (غنيمة العير) لكان اقتصارًا على مرادهم من غير أن يتضمّنَ مرادَ اللّه صراحةً. الثّالثة: اشتمالُ هذا التّركيب على سببِ وِدادتهم

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 205/2، ورشيد رضا، تفسير المنار: 500/9، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4585/8.

لملاقاة العيرِ، وموجبِ كراهيتِهم لملاقاة النّفيرِ، وهو كونُ طائفةِ النّفيرِ ذاتَ شوكة، وكونُ العيرِ غيرَ ذلك.

فائدةُ الفعل ﴿تَكُونُ﴾، في: ﴿تَكُونُ لَكُمۡ﴾:

عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم

ذِكرُ ﴿تَكُونُ﴾ مع إمكان أن يُقال: (وتودّون أنّ غيرَ ذاتِ الشّوكة لكم)؛ لتعيين مُتعلِّق الجارّ والمجرور؛ لدلالته على تأكيد معنى (الودّ)، والمبالغةِ في شأن ما تعلّقَ به منَ الحرصِ على بلوغِ ما ودّوا وابتَغَوا.

دلالةُ اللّام في ﴿لَكُمۡ﴾، وفائدةُ الجارّ والمجرور:

دلالـــةُ حـرفِ الاخـتـصـاص عـلى المِلكيّة والاستحقاق

حرفُ الاختصاص في قوله: ﴿تَكُونُ لَكُمۡ﴾ للملكيّةِ والاستحقاقِ، كما هو في قوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾[1].

دلالةُ الواو في: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾:

الإخبارُ عن مرادِ اللّه استقلالًا، وما تعلّقت به إرادتُه في السّياقِ

الواو في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾؛ للاستئناف، فالجملة لا محلّ لها منَ الإعراب، وغرضُ استئنافها الإخبارُ عن مراد اللّهِ استقلالًا، وتحديدُ ما تعلّقت به إرادتُه في سياقِ القِصّة، أو للعطف على جملة ﴿وَتَوَدُّونَ﴾، ودلالةُ العطفِ إدخالُ الجملةِ ضِمنَ حيّزِ ما أُمِرَ بذكره في صدر الكلامِ؛ أي: واذكروا إذ يعدُكم اللّهُ إحدى الطّائفتين، واذكروا أنّ اللّه يريدُ أن يُحقَّ الحقَّ بكلماته[2].

سرُّ العدولِ عن (يودُّ) إلى (يريد):

التّعبيرُ بالإرادة أنفَذُ أثَرًا منَ التّعبيرِ بالوُدّ

عبّر في جانِبهم بفعل الوِدادِ ﴿وَتَوَدُّونَ﴾، وفي جانبِ اللّه تعالى بفعل الإرادةِ ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾، للإشارة إلى أنّ ذلك كان في جانب اللّهِ إرادةً، وإرادتُه سبحانه نافذةٌ، وهي المصلحةُ والخيرُ، والتّعبيرُ في جانبهم بـ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ للإشارة إلى أنّه مجرّدُ وُدٍّ، ولم يَصِر إرادةً؛ لامتناع أن يُريدوا ما لا يوافِق إرادةَ اللّه[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 269/9.

(2) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 189/3، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/4.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3073/6.

نكتةُ التَّصريحِ باسم الجلالةِ في: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾:

اللهُ هو الّذي خضعَت لألوهيّتِه كلُّ الإراداتِ

التّصريحُ باسم الألوهيّةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ يُشعِرُ بعِليَّةِ فعلِ (الإرادة) وسرعةِ جريانِه في النّفاذِ والتّحقُّقِ؛ لأنَّ الّذي يريدُ هو اللهُ الّذي خضعَت لألوهيّتِه كلُّ الإراداتِ.

لطيفةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ في: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾:

إرادةُ اللهِ متجدّدةٌ، وآثارُها

صيغةُ المضارعِ في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾؛ لاستحضار إرادةِ اللهِ، وهي تعملُ في الأشياء، وتتحرّكُ بالتّدبيرِ والتّقديرِ، فهي وإن كانَت قديمةً في أصلها إلّا أنّها متجدّدةٌ ومستمرّةٌ في آثارِها وأفعالِها.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في: ﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾:

إحقاقُ الحقِّ جزءٌ منه لا يتمُّ الحقُّ إلّا به

الجناسُ الاشتقاقيُّ في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يدلُّ على أنّ أصلَ مادّةِ الحقِّ هو (حَقّ)، وأصلُ مادّةِ الباطلِ (بطل)، واستُعمِلَ لفظُ العاملِ والمعمولِ من نفس الاشتقاق؛ ليدلَّ على أنّ إحقاقَ الحقِّ منَ الحقِّ، وجزءٌ منه لا يتمُّ الحقُّ إلّا به[1].

الدّلالةُ الصّوتيَّةُ في كلمتي: ﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾:

الحقُّ صعبٌ إحقاقُه مع الأنفسِ المُظلِمةِ المُعانِدةِ وأفعالُها مستمرّةٌ

الدّلالةُ الصّوتيّةُ لقوله: ﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ (من جهة الحاءِ المهموسةِ الرّخوةِ والقافِ المجهورةِ الشّديدةِ، ومن جهة كسرِ الحاءِ وتشديدِ القافِ المفتوحةِ)، فالحاءُ المهموسةُ الرّخوةُ تدلُّ على طواعيةِ الحقِّ وسهولتِه في اصطكاكِه واحتكاكِه بقناعاتِ وضلالاتِ مَنْ يَطلبه أو يُعانِده، والقافُ المُضعَّفةُ المجهورةُ تدلُّ على تعقّدٍ شديدٍ في العمق أو الأثناء، وذلك ليس في ذاتِ الحقِّ، بل في مُعالَجتِه وعمليةِ بيانِه والتّنظيرِ له، وكأنّ تركيبَ ﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ صوتيًّا يدلُّ على معنيين: الأوّل: سهولةُ الحقِّ في نفسِه، وأنّه طَيِّعٌ في مُرورِه واحتكاكِه بالأنفُسِ السّليمةِ، فتنزلِقُ على صفحتِه قناعاتُ الباطلِ وضلالاتُه. الثّاني: صعوبةُ الحقِّ في إجرائه ومعالجته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/271.

مع الأنفس المُظلِمةِ المُعانِدةِ، أو أنّ إجراءَه وإظهارَ ثبوته بالبرهان والتّنظير صعبٌ وشاقٌّ؛ لافتقاره للعِلمِ وإتقانِ البرهانِ[1].

دلالةُ الباء في: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

كلماتُ اللهِ ضَمان لإحقاقِ الحقّ على الدّوام

الباءُ في قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ للسّببيّة؛ أي: بسببِ كلماتِه أرادَ إحقاقَ الحقّ، أو هي للمصاحبة؛ أي: يُحِقُّ الحقَّ مصحوبًا بكلماته؛ أي: يُظهِرُ الحقَّ مصحوبًا بدليلِه والبرهانِ عليه، أو الباء للملابسةِ والإلصاقِ؛ أي: يحقُّ الحقَّ مُلتبسًا بكلماتِه مُلتصقًا بها، فهي منه، وهو منها، تُداخِلُه ويُداخِلُها[2].

معنى (كلمات الله)، وعلّة جمعها، في قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

اسمُ الجنس يؤدّي مؤدّى الجمع في السّياق

جمعَ (كلماته) ليشملَ كلماتِه التّكوينيّةَ بالإيجاد والإرادة، وكلماته التّشريعيّةَ بالوحي المتلوِّ المسطور. وقُرِئَ: (بكلمته) بالإفراد لجعل المتعدّدِ كالشّيءِ الواحدِ، والمرادُ به: اسمُ الجنسِ فيؤدّي مؤدَّى الجمع، أو على أنّ المرادَ بها كلمةُ (كن) الّتي هي عند الكثير عبارةٌ عنِ القضاء والتّكوين[3].

فائدةُ إضافةِ (كلمات) إلى ضمير اسمِ الجلالةِ:

كلّ ما صَدَرَ عن الله فهو كلماته، وهي وحْيٌ يوحى إلى رسله

قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ جمعٌ مضافٌ إلى ضمير اسم الجلالةِ يفيدُ العمومَ، ويفيدُ تعريفَ الكلماتِ وتعيينَ مفهومِها، فيفيدُ جميعَ أنواعِ الكلماتِ الصّادرةِ منَ اللّه سبحانه بالوحي أو بإرادة الحكمِ والقضاءِ والتّكوينِ والإيجادِ[4].

دلالةُ الواو في: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

من قطع اللهُ دابِرَه، فلا واصلَ له

جملة: (يقطع) لا محلّ لها، معطوفةٌ على جملة ﴿يُحِقَّ﴾، داخلةٌ في حيّز الإرادة: يريدُ أن يُحِقَّ، ويريدُ أن يقطعَ[5].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حقق - حقحق).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/272.

(3) ابن عادل، اللّباب: 9/458، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/161.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/271.

(5) صافي، الجدول: 9/176.

من كفر قَطَع اللهُ دابرَه ومَصيره الاستئصالُ

إيثارُ الفعلِ (يقطع):

عبّر بالفعل (يقطع) في: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لإفادته الاستئصالَ والإزالةَ التّامّةَ[1]، والمعنى أنّه: "عبّر بذلك كناية عن أنه لا يبقى من الكافرين من يجهر بكفره، ويعاند اللّه تعالى، ويستعلى عليه، وذلك فيه تشبيه للكفر بالجيش الّذي يولّي مدبرًا، ويقاتل بقناه، حتى يقضى عليه بقطع أدباره والقضاء عليه"[2].

سُنَنُ اللهِ جاريةٌ لا تتخلّفُ، ومن خالفها هَلَكَ

سرُّ استعمالِ المضارع في: ﴿وَيَقۡطَعَ﴾:

التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ ليفيدَ أنّ تلك عادةُ اللّهِ في خلقه، فما تزالُ جاريةً حاصلةً، وسُنّةً من سُنَنِه الشّرعيّةِ والكونيّةِ، فلا تتخلّفُ، ولا تتبدّلُ بحال، فهي مُتجدّدةٌ بتجدّدِ أسبابِها وموجباتِها.

مَثَلٌ سائِرٌ

بلاغةُ المجازِ في: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

قطعُ الدّابرِ: إزالةُ الآخِرِ واستئصالُه، وهو كنايةٌ عن ذهاب الجميعِ وعدمِ بقاءِ أحدٍ منهم؛ أي: الاستئصالُ الكلّيُّ؛ لأنَّ المستأصِلَ يبدأُ في أوّلِ الشّيءِ، ويَذهبُ يستأصِلُ إلى أن يَبلغَ آخِرَه وهو دابِرُه، وهذا ممّا جرى مَجرى المَثَل[3].

أثَرُ الإنسانِ هو آخِرُ ما يكونُ منه

فائدةُ إضافةِ ﴿دَابِرَ﴾ إلى ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

إضافةُ ﴿دَابِرَ﴾ للكافرين أفادَت معنيين:

الأوّل: إفادةُ أنّه لن تبقى لهم باقيةٌ من تمكينٍ أو غَلبَةٍ؛ لانهزامِهم واستئصالِ أفرادِهم بالقتلِ على أيدي المؤمنين.

الثّاني: إسنادُ القطعِ إلى الدّابر، وليس للكافرين إيذانٌ بأنّه إذا بقيَت ذواتُهم فآثارُهم مقطوعةٌ، ومكائدُهم زائلةٌ على معنى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/ 1063.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/272.

أنّ الأدبارَ هي أذيالهُم منَ المكرِ والكيدِ؛ لأنّ وجودَ الكافرين بأشخاصهم سُنّةٌ من سننِ الله، فيكون معنى قطعِ دابرِهم إزالةَ آثارهم وإبطالَها، وإنْ بقيَت أعيانُهم، فأثَرُ الإنسانِ هو آخِرُ ما يكونُ منه، والدّابِرُ هو الآخِر.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

يُحقّ ويُثبِت:

الإثباتُ لفظٌ عامٌّ في تثبيتِ ما يُراد تثبيتُه، أيًّا كان حقًّا أو باطلًا

يُثبتُ الشّيءَ: يُديمُهُ ويُبقيه. يُحِقُّ الشّيءَ: يُثبتُ أحقّيَّتَه بأن يستدلَّ له، ويُؤصّلَ لوجهِ كونه حقًّا، فأصلُه: المطابقةُ والموافقةُ بين الدّليلِ والمدلول، فالإحقاقُ إثباتٌ خاصٌّ لما يُعتَقَدُ أحقّيَّتُه، والإثباتُ لفظٌ عامٌّ في تثبيتِ ما يُراد تثبيتُه أيًّا كان حقًّا أو باطلًا، فهو مُطلَقٌ في تثبيتِ كلِّ رأيٍ نتجَ ذلك عنِ الحقيقةِ أو عنِ الهوى. وعليه: فلفظُ (يُحِقّ) مُقَيّدٌ خاصٌّ، ولفظُ (يُثْبِتُ) مُطلَقٌ عامٌّ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ثبت - حق).

﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إرادة الله أعلى وأبقى، وهو يحقّ الحقّ ويبطل الباطل رغم أنف الكفرة

لمّا ذكَرَ اللّهُ الفرقَ بين مُرادِهم في عدمِ القتالِ وإيثارِ السّلامةِ بإحرازِ غنيمةِ العيرِ، بيّنَ أنّ إرادتَه الثّابتةَ الّتي لا تتبدّلُ؛ أن يُظهِرَ الحقَّ الثّابتَ بكلماتِه الكونيّةِ والتّشريعيّةِ؛ لأجلِ أن يُثَبِّتَ لهم دينَهم الحقَّ، ويُظهِرَه على الدّينِ كلِّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾: منَ الإبطال: وهو إفسادُ الشّيءِ وإزالتُه، والباطِل: نَقيضُ الحَقِّ، والمرادُ: يُزيلُ الباطلَ، ويُفسِدُ زيفَه، ويُزهِقُ حُجَجَه[1].

2) ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: منَ الإجرام: وأصلُهُ: القطعُ، واستُعمِلَ في الكسبِ؛ لأنّ الّذي يَكسِبُه منَ العمل كأنّما اقتَطَعهُ مِن حَوزَةِ ما يُكسَب، وغلَبَ على كسبِ العملِ السّيّئِ، منَ الجِناياتِ، فقيل لها: الجرائم، لِما يُتصوَّرُ في القطعِ من معنى الضّرَر. والمرادُ بالمجرمين: أهلُ الكُفرِ والإفسادِ[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

نصر الحقّ وخذلان الباطل، سنّة الله في كونه، ولوكره الكافرون

فعلَ اللّهُ ما فعلَ من إرادةِ إحقاقِ الحقِّ، ليس إلّا لنصرِ الإسلامِ وأهلِه، ومَحقِ الشّركِ وأهلِه، ولو كرهُ المجرمون ذلك وقاوموه بأقصى ما لهم منَ المؤامرةِ والكيدِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ إيرادِ قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ بعدَ: ﴿أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾:

قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ بعد قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ من

(1) الرّاغب، المفردات: (بطل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).

باب تعليلِ العامِّ بالخاصّ، وهو أن يكون العامُّ سببًا لحصول الشّيءِ الخاصِّ، فالإرادةُ في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ إرادةٌ عامّةٌ ومُطلَقةٌ غيرُ مقيّدةٍ بقصّة السّياقِ، وهي معطوفةٌ على ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾؛ للتّمييز بين إرادتهم وإرادةِ اللّه، كأنّه قال: أنتم تريدون كذا، ومِن شأنِ اللّهِ أن تتعلَّقَ إرادتُه بغايةٍ، هي إحقاقُ الحقِّ وقطعُ دابرِ الكافرين؛ لأجلِ أن يُحِقَّ الحقَّ في شأنكم مع العيرِ والنّفيرِ، ولو كره المجرمون ذلك، فجملة: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ هي غايةُ الإرادةِ العامّةِ في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾؛ فبينَ الجملتين تبايُنُ عمومٍ وخصوصٍ، وإطلاقٍ وتقييدٍ، ولا يخفى ما في ذلك منَ المبالغة في تأكيد المعنى بذكره على وجهين: عموم وخصوصٍ، وإطلاقٍ وتقييدٍ. وهذا نظيرُ قولِك: أردتَ أن تفعلَ الباطلَ، وأردتُ أن أفعلَ الحقَّ، ففعلتُ ما أردتُهُ لكذا، لا لمقتضى إرادتِك. ونُكتةُ سَوقِ الجملةِ الثّانيةِ بتركيبٍ يُحاكي الجملةَ الأولى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ مع ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بتعليلِ الفعل بنفسِ ذلك الفعلِ مع تباينهما في المراد؛ لإفهامِ أنّ ذلك كنايةٌ عن كونِه ما فعلَ ذلك الفعلَ إلّا لذاتِ الفِعل، لا لغرضٍ آخرَ زائدٍ عليه[1].

تعليلُ العامِّ بالخاصّ، من بيانِ الأسلوب البليغ

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾:

قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾، اللّام فيه للتّعليل، والجملةُ داخِلةٌ في حيّزِ الجملةِ السّابقةِ مُتعلِّقةٌ بقوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ويصحُّ أن تتعلَّقَ بمحذوفٍ مؤخَّرٍ عنها؛ أي: ليُحِقَّ الحقَّ فعلَ ما فعلَ، لم يفعلْه إلّا لتلك الغاية. وعليه فجملةُ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ مستأنفةٌ لا محلّ لها منَ الإعراب. وتقديرُ المحذوفِ مؤخَّرًا له دلالتُه البيانيّةُ في إفادةِ الاختصاصِ والحصرِ؛ أي: لم يفعلْ ذلك إلّا لإحقاقِ الحقِّ وإبطالِ

إفادةُ التّعليلِ للحصرِ هنا من مستتبعاتِ التّركيبِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/200، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/278، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/272.

الباطلِ لا لشيءٍ آخرَ، وإفادةُ التّعليلِ للحصر هنا من مستتبعاتِ التّركيبِ، وليس من دلالةِ اللّفظِ، أو يفيدُ تأخيرُ العاملِ المحذوفِ - على أقلِّ تقديرٍ - العنايةَ والاهتمامَ بالمعمول المتقدِّم، وهو قولُه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾[1].

دلالةُ عطفِ: ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ على ما قبلَها:

ثبوت الشّيء قد يُؤَكَّدُ بنفي ضِدِّه

عطفُ قوله: ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ على قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ من قبيلِ المطابقةِ؛ لأنَّه معنى واحدٌ يُقابِلُ آخرَ؛ ولذا آثرَ التّعبيرَ بـ﴿وَيُبۡطِلَ﴾؛ لاستتمام غرضِ المقابلةِ، وفائدةُ العطفِ بهذه الجملةِ يتناولُ وجهين: الأوّل: التّصريحُ بأنَّ اللّٰه لا يَرضى بالباطل. الثّاني: توكيدُ ما قبله به، فقوله: ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ في حكم التّوكيدِ لمضمون قولِه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾؛ لأنَّ ثبوتَ الشّيءِ قد يُؤَكّد بنفي ضِدِّه[2].

دلالةُ (لو) على الوصلِ والرّبطِ:

تَحقُّق الحُكمِ في جميع الأحوالِ العارضة

(لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ لها دلالاتٌ شتّى:

الأولى: المبالغةُ في الأحوال، ولذا كانتِ الواو في ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ حاليّةً؛ أي: يحقُّ الحقَّ ويبطلُ الباطلَ، ولو في حالِ كَراهةِ المجرمين ذلك، والمبالغةُ متوجِّهةٌ لجملة الشّرطِ بعدَ﴿وَلَوۡ﴾.

الثّانية: أنَّ (لو) أفادتِ الوصلَ والرّبطَ بين ما قبلها وما بعدها؛ أي: بين قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾، وقوله: ﴿كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، والرّبطُ هنا في مقامِ تأكيدٍ ومبالغةٍ كما سبق، ولذا يصحُّ تخريجُ معنى الواو على أنّها للعطف على محذوفٍ في موضعِ الحالِ، والمعطوفُ على الحالِ حالٌ، والتّقدير: ليحقّ الحقَّ ويبطلَ الباطلَ على كلّ حالٍ، ولو في حالِ كَرِهَ المجرمون. وفائدةُ ﴿وَلَوۡ﴾ على هذا التّقدير: استقصاءُ الأحوالِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/200، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/278، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/272.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/273.

وغايةُ ما يُتوقَّعُ معه انتفاءُ حُكم ما قبلها، فيذكره المتكلِّمُ؛ لِقصدِ تَحقُّقِ الحكمِ في جميع الأحوالِ الّتي تعترضُه أو تطرأُ عليه[1].

بلاغة استعمال لفظ الكُره في: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

لوازِمُ الكراهية، مانعة لإحقاق الحقّ، وإبطال الباطل

الكراهيةُ في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، ليستِ الكراهيةَ السّاذَجةَ الّتي هي ضدّ (الحُبّ)، بل هي الكراهيةُ بجميع لوازمِها الدّاعية لمنع إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ بمقاومتِه بضدّه منَ الكافرين، فكأنَّ المعنى: أنّ اللّه يحقُّ الحقَّ ويبطلُ الباطلَ، وإن قاوَمَ المجرمون ذلك بمحاربة الحقِّ ونصرِ الباطل، فالكراهيةُ هنا كنايةٌ عن لوازِمها. أمّا مجرّدُ الكراهيةِ من غير مُحاربةٍ فمعناها غيرُ واردٍ هنا؛ لأنّها جُعِلَت غايةً بالغةً لنفوذِ إرادةِ اللّه فيها، فكيف يُتَحدَّى بإرادةِ اللّه على غايةٍ مجرّدةٍ لا خطرَ فيها ولا أثَرَ، فثَبَتَ أنّ الكراهيةَ المذكورةَ هي الّتي لا تكونُ عن مُسالَمَةٍ ومُصالحةٍ، بل عن محاربةٍ ومقاومةٍ وإفسادٍ[2].

إيثارُ استعمالِ كلمةِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ دون غيرها:

إيثارُ وصفِ المجرمين لإكسابِه استمرار المفاسد الّتي يرتكبونها

إيثارُ وصفِ المجرمين في إسناد الكراهيةِ إليهم؛ لإكسابِه معنى الكسبِ المستمرِّ للجنايات والمفاسد الّتي يرتكبونها؛ لتعطيلِ مرادِ اللّهِ في إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ، فإنَّ الإجرامَ مُستعارٌ لاكتسابِ المكارِه؛ ليتناسبَ مع وصفهم بالكراهيةِ في ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾، فوصفُهم بالمجرمين مُسَبَّبٌ عن كراهيتِهم، كأنّه قالَ: إذا كرِهوا الحقَّ أحدثوا بسبب كُرهِهم له الجرائمَ، فكانوا قومًا مجرمين، لا ينفكّون عنِ اكتسابِ القبيحِ والمكروهِ[3].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/504، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/277، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/306 - 9/273.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/273.

(3) الرّاغب، المفردات: (جرم).

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(يُبطِل) و(يَمحو):

المحو: هو طَمسُ وجودِ الشّيءِ، والإبطال إزالة وجه تلبيسه

الإبطالُ: إفسادُ الشّيءِ وإزالتُه، حقًّا كان ذلك الشّيءُ أو باطلًا. وكلُّ ما ذُكِرَ في القرآن من هذا التّركيب فهو بمعنى المُهْدَر؛ لأنّه غيرُ صحيحٍ أو غيرُ نافعٍ. والمَحوُ لِكُلِّ شَيءٍ: إزالةُ أثَرِه. وعليه: فالإبطالُ عامٌّ، وهو لا يقتضي إزالةَ عينِ الشّيءِ، بل يقتضي إزالةَ وجهِ تلبيسِه بإثباتِ زيفِه وإنْ ظلّ موجودًا وكائنًا، وأمّا المحو فهو إزالةُ وجودِ الشّيءِ لا تَعطيلُه بإفسادِه فحسْب[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل)، والرّاغب، المفردات: (محو)، وابن منظور، لسان العرب: (محا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بطل).

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾ [الأنفال: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ تجلّياتِ إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ بمدِّ المؤمنين بالملائكة المردفين

لمّا بيَّن اللّه سُبحانَهُ في الآيةِ المتقدِّمَةِ أنَّه يحقُّ الحقَّ، ويُبْطِلُ الباطِلَ، فقالَ ﷻ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ بيَّنَ ﷻ في هذه الآيةِ أنَّه نصرَ المسلمينَ عند اسْتِغاثَتِهم، وأمدَّهم بالمَلائكَةِ، وذلك مظهَرٌ من مظاهِر تَحْقيقِ الحقِّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡتَغِيثُونَ﴾: الغَيْنُ والواوُ والثّاءُ، تدلُّ تصريفاتُها على النُّصرةِ عند الشِّدَّة[2]، يُقالُ: أغاثَهُ يُغيثُهُ؛ إذا نَصَرَهُ على عَدوِّه، وأعانَهُ عليه[3]، واسْتَغاثَهُ: طلَبَ الغَوْثَ، وهو التَّخليصُ مِنَ الشِّدَّة، والعَوْنُ على الفكاكِ مِنَ الشَّدائد[4]، ومنه قولُ اللّه تعالَى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾، وفي المَثَل: "بأمِّه يستغيث اللهفُ"، يقال ذلك لمن اضطرَّ، فاستغاث بأهل ثقته[5].

2) ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾: الجيم والواو والباءُ، تدورُ اشتقاقاتُها علَى مراجعةِ الكلام[6]، ومنه: الجَوابُ؛ إذْ هو خاصٌّ بما يَرْجِع مِنَ الكلام دون المُبْتَدَأ مِنَ الخِطاب، وهو مقولٌ في مُقابلة السُّؤال، ثُمَّ إنَّ السُّؤالَ نوعانِ: أحدهُما: طلبُ مقالٍ، ويكونُ جوابهُ بمقالٍ مثلِه.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 459/15، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 274/9، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 263/9.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غوث).
(3) بطّال الرّكبي، النّظم المستعذب: 120/1.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غوث).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لهف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جوب).

والآخر: طلبُ نَوالٍ، ويكونُ جوابهُ: النَّوالَ[1]. والاسْتِجابَةُ بمعنى: الإجابَةِ، يقالُ: استجابَ اللّهُ دعاءَهُ، أي: أجابَهُ[2]، ومعناه: قَبِلَهُ[3]، وقَبولُهُ في دعاءِ المسألةِ: يكونُ بإعطاءِ العبدِ سُؤْلَهُ، وقَبولُهُ في دُعاء العِبادَة: بالإثابَةِ عليه[4].

3) ﴿مُمِدُّكُم﴾: الميمُ والدّال: تَدُلّانِ على جَرِّ شَيْءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيْءٍ بشَيْءٍ في اسْتِطالَةٍ[5]، والمَدُّ: الجَذْبُ والمَطْلُ والإمهالُ والزِّيادةُ[6]، والإمدادُ: إعطاءُ الشَّيءِ حالًا بعْدَ حالٍ، والفِعْلُ مِن ﴿مُمِدُّكُم﴾ ثلاثيٌّ مضعَّفٌ مزيدٌ بهَمْزَةٍ، يُقال: أمَدَّ، وهو وارِدٌ في معنى التَّقويَةِ والإعانَة، ولذا قالَ المُفَضَّلُ: "ما كانَ علَى جِهَةِ القوَّةِ والإعانَة، قيل فيه: أمَدَّهُ"[7].

4) ﴿مُرْدِفِينَ﴾: الرّاءُ والدّالُ والفاءُ، تدلُّ اشْتِقاقاتُها على اتِّباعِ الشَّيءِ، ومنه التَّرادُفُ وهو التَّتابُعُ[8]، وسُمّيت النَّفْخَةُ الثّانيةُ رادفةً، في قولِ اللّه جلَّ وعَلا: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النّازعات: 7]؛ لكونِها تَتْبَعُ النَّفخةَ الأولى. وقولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، أي: مُتَتابِعينَ، يتبَعُ بَعْضُهُم بَعْضًا[9]، قال الزَّجاج: يأتون فِرقةً بعد فِرقة، وقال الفرّاء: أي: متتابعين، ورَدِفَه وأرْدَفَهُ بمعنى واحد[10]، وقيل: عنى بالمردفين، المتقدِّمين للعسكر، يُلقون في قلوب العِدى الرُّعب[11]، وقُرئَ بفتْحِ الدّالِ ﴿مُرْدَفِينَ﴾[12]، والمعنى: أنَّه فعَلَ ذلك بهم، أي: أرْدَفَهُمُ اللّهُ سُبحانَهُ بغيْرِهِمْ[13].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اذْكُروا – أيُّها المؤمنون – نِعْمَةَ اللّهِ تعالَى عَلَيْكُم يَوْمَ بَدْرٍ؛ إذْ تَسْتَجيرونَ به مِن عَدوِّكُم،

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جوب).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (جوب).
(4) صالح آل الشَّيخ، التَّمهيد لشرح كتاب التَّوحيد، ص: 180.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مد).
(6) ابن سيده، المحكم، والزَّبيديّ، تاج العروس: (مدد).
(7) الواحديّ، التّفسير البسيط: 571/5.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردف).
(9) ابن الأثير، النّهاية: (ردف).
(10) الزَّبيدي، تاج العروس: (ردف).
(11) الزَّبيدي، تاج العروس: (ردف).
(12) ابن الجزريّ، النّشر: 275/2.
(13) الهرويّ، الغريبين: (ردف).

وتَدْعونَهُ لِلنَّصْرِ عليهم، فاسْتَجابَ اللّهُ ﷻ دُعاءَكُم، قائِلًا: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مِنَ السَّماءِ، يَتْبَعُ بَعْضُهم بعضًا[1]، وكان مددُ اللّه تعالى، حين ضاقَتْ عليهم الحيَل، وعيَّت بهم العِلَل، فوجدوا نصر اللّه قريبًا، وقد ثبَّت أقدامهم، ودحر عدوَّهم، وأنالهم مرادهم من السُّمعة البهيَّة، والهيبة السَّنيَّة، والغنيمة الرَّضيَّة.

بيانُ استجارة المؤمنين بالله عند الكَرْب، واستجابته بمددٍ من القوَّة والنَّصر

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصْلِ قَوْلِ اللهِ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهُما من كمالِ الاتِّصالِ، أو شبه كمال اتِّصال، وذلك أنَّ هذه الجملةَ بدلٌ من قولِه سُبحانَهُ قبلُ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 7]، والمُرادُ به بيانُ كراهَتِهم لقاءَ ذاتِ الشَّوكَةِ بشدَّةِ جزَعِهم الَّذي أوجَبَ استغاثَتَهُم باللّهِ تعالَى[2]، وعلى شبه كمال الاتِّصال تكونُ الآية جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ في الذِّهن: كيف أحقَّ اللّه الحقَّ، وأبطلَ الباطلَ، لمّا خرجتم تريدون أنَّ غير ذات الشَّوكة تكون لكم؟

مَنِ استغاث عند الكَرْبِ بمولاه؛ أمدَّه الله بعونه وكفاه

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾:

البدليَّةُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، تقتضي أن يُقدَّرَ فعلٌ قَبْلَ ﴿إِذْ﴾؛ لأنَّ البدلَ على نيَّةِ تَكْرارِ العامِلِ، فالتَّقدير: واذْكُروا إذْ تَسْتغيثونَ، وهو الفعلُ الأوَّلُ الَّذي عَمِل في قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾[3]، ويجوز أن يكونَ قولُ اللّه تعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ استئنافًا بإضمارِ فعلٍ، تقديرُهُ: (اذْكُروا)، والمعنى: اذْكُروا

تَذْكيرُ اللهِ تَعالَى العِبادَ بالنِّعم؛ لتجديد الشُّكر على وافر الكَرَم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 409/13، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 200/2، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 231/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/4.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 504/2.

إذ تستغيثونَ ربَّكُمْ[1]. وعلى الوجهَيْنِ يكونُ في الآيةِ إيجازٌ بالحذْفِ؛ وذلك بحَذْفِ الفعلِ وفاعلِه، وفي تقديرِ هذا الفِعْلِ - (اذْكُروا) - إيماءٌ للتَّذكيرِ المتجَدِّد.

دِلالَةُ ﴿إِذْ﴾ في قَوْلِه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾:

كُلُّ ما أخبَرَ اللهُ تَعالَى به عنهم؛ فـهـو واقـعٌ لا مَحالةَ منهم

(إذْ) في الأصلِ ظرفٌ للزَّمَنِ الماضي، فقَوْلُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، معناهُ: إذِ استغَثْتُم رَبَّكُم، ويجوز أن تَكونَ (إذْ)، بمعنَى (إذا) لِلْمُسْتقبَلِ، كالواردَةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: 70 - 71]، فيكونُ قد عُبِّرَ عَنِ المُسْتَقْبَلِ بلفظِ الماضي؛ إيماءً إلى تحقُّقِ وقوعِه[2]، والفعل ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ "لم يتعدَّ في القرآنِ إلّا بنفسه - كما في هذه الآية - وقد يتعدَّى بالحرف، كقول الشّاعر:

حَتَّى اسْتَغاثَ بماءٍ لا رِشاءَ لَهُ *** مِنَ الأباطِحِ في حافاتِه البُرَكُ[3]

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾:

حَثُّ العِبادِ على الاسْـتِـمْـرارِ في شُكْـرِ اللـهِ على عطائه المدرار

علَى القولِ بجريانِ ﴿إِذْ﴾ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، على أصلِها في الدِّلالَةِ على الزَّمَنِ الماضي؛ يكونُ في الآيَةِ خروجٌ عَنْ مُقتضَى الظّاهِرِ في التَّعبيرِ بالفِعْلِ المضارِعِ المَوْضوعِ في الدِّلالَةِ على الحالِ أوِ الاستقْبالِ، فلَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (إذِ اسْتَغَثْتُم رَبَّكُمْ)، وذلك لحكايَةِ الحالِ الماضيةِ استحضارًا لصورَتِها العجيبَةِ، ففيها: تَصْويرٌ لِلاسْتِغاثَةِ، وأنَّها كانَتِ التِجاءً مُتَجَدِّدًا مُسْتَمِرًّا باللهِ تعالَى، وفيها حثٌّ على الاستِمْرارِ في شُكْرِهم للهِ سُبحانَهُ، ولِذلك عَطَفَ عليه ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ بصيغَةِ الماضي؛ مُسايَرَةً لِلْواقِعِ[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 278/5.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 161/5.

(3) البيت لزهير بن أبي سلمى، ينظر: القرشيّ، جمهرة أشعار العرب: 325/1، وابن منظور، لسان العرب: 399/10، عبد الله البكريّ، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: 260/1، والدّميريّ، حياة الحيوان الكبرى: 180/1، والزّبيديّ، تاج العروس: 314/5.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 161/5، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3075/6. وطنطاويّ، الوسيط: 46/6.

دِلالَةُ جمعِ ضمير المُسْتَغيثِ في قَوْلِه: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ﴾:

تَعظيمُ قدرِ النَّبيِّ ﷺ بجعْلِ استغاثتِه استغاثةَ الأُمَّة برُمَّتِها

جاءَ في السّيرَةِ أنَّ المُسلِمينَ لمّا نزلوا بَدْرًا، ورأوا كَثْرَةَ المُشْرِكين؛ استغاثوا اللّه سُبحانَهُ، وعلى هذا فتكونُ الاستغاثَةُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ صادِرَةً من عُمومِ الجَيْشِ، ويكونُ الضَّميرُ - واوُ الجَماعةِ - شامِلًا لهم، فالآيَةُ وارِدَةٌ على ما يقتضيهِ الظّاهِرُ، ويَجوزُ أن يكونَ المستَغيثُ خصوصَ النَّبيِّ ﷺ، ويدلُّ لذلكَ قولُ عُمَرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه: «لما كان يوم بدر نظر رسول اللّه ﷺ إلى المشركين وهُم ألفٌ، وأصْحابُهُ ثلاثمئةٍ وتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فاسْتَقْبَلَ نَبيُّ اللّهِ ﷺ القِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْه، فجَعَلَ يَهْتِفُ بربِّه: اللهمَّ أنْجِزْ لي ما وعَدْتَني، اللهمَّ آتِ ما وعَدْتَني، اللهمَّ إنْ تُهْلِكْ هذه العِصابَةَ مِن أهْلِ الإسْلامِ لا تُعْبَدْ في الأَرْضِ، فما زالَ يَهْتِفُ بِرَبِّه، مادًّا يَدَيْه مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، حَتَّى سَقطَ رِداؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْه، فأتاهُ أبو بَكْرٍ، فأخَذَ رِداءَهُ، فألقاهُ على مَنْكِبَيْه، ثُمَّ الْتَزَمَهُ من ورائِه، وقالَ: يا نَبيَّ اللّهِ، كَفاكَ مُناشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ ما وعَدَك، فأنْزَلَ اللّهُ ﷻ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾»[1]، ويكونُ قد عُبِّر عن استغاثَتِه ﷺ بضمير الجَمْعِ؛ لنكاتٍ[2]: إحداها: تعظيمُ قدرِ النَّبيِّ ﷺ وإعلامٌ برفيعِ منْزِلَتِه، فيكونُ من خِطاب الواحِد المُعَظَّم بخِطاب الجَميع. وثانيها: أنَّ فعلَ الاستغاثَةِ أُسْنِدَ إلى الجميعِ؛ لكونِ النَّبيِّ ﷺ كانَ يَسْتَغيثُ لأجلِ المسلمينَ. وثالثُها: أنَّه ﷺ، كان مُعلِنًا باستغاثَتِه، وهُم يسْمَعونَ، فكانوا بمنزلَةِ مَنْ يَدْعون.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الرُّبوبيّةِ في: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾:

في تعليقِ الاستغاثَةِ باسمِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ

(1) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (1763).

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 278/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 274/9.

دَفْعُ العَوائِقِ الحائلةِ بين كمالِ الإيمانِ وأهلِه مِن تربيَةِ الله لهم بربوبيَّته

﴿تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ طَلَبٌ لِلْإغاثَةِ باستعطافِ كرَمِه سُبحانَهُ؛ إذْ هو المحسِنُ إليهم بكلِّ إحسانٍ عامٍّ وخاصٍّ[1]، وذلك أنَّ تربيةَ اللّهِ سُبحانَهُ لخلْقِه ضَرْبانِ[2]: أحدُهما: تربيَةٌ عامَّةٌ لجميعِ الخَلْقِ؛ وذلك برزقِهم وهدايتِهم لِما فيه مصالحُهم التي بها بقاؤُهم في الدُّنيا. والآخَرُ: تربيَةٌ خاصَّةٌ لأهلِ الإيمانِ، وذلك بتوفيقِهم للإيمانِ وتكميلِه لهم، ودَفْعِ الصَّوارِف والعوائقِ الحائلةِ بينَهُم وبينَهُ، والاستِغاثَةُ المذكورةُ في الآيةِ مِن هذا الضَّرْبِ؛ لأنَّ بها إزالَةَ العوائقِ الحائلَةِ بينَهُم وبين الإيمانِ، وهذا مِن جُملةِ الأَسْرارِ في تَعْليقِ الاسْتِغاثَةِ بالاسْمِ الأَحْسَنِ (الرَّبِّ)؛ لدخولِ هذا المَطْلَبِ تَحْتَ ربوبيَّةِ اللّهِ تعالى الخاصَّةِ.

دِلالَةُ الجملة الخبريّة: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ﴾:

الالتجاءُ إلى اللهِ تَعالَى إذا ضاقَتِ السُّبُلُ، وتَقاصَرَتِ الأسْبابُ والعِلَلُ

الجملةُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ جملَةٌ خَبَرِيَّةٌ، خرجَتْ عن أصلِ دلالَتِها؛ إذْ لا يُرادُ بها فائدَةُ الخبرِ، وإنَّما المرادُ تَذْكيرُ استمدادِهم منَ اللّهِ سُبحانَهُ والتجائِهم إليه حينَ ضاقَتْ بهمُ السُّبُلُ، وتقاصَرتْ بهِمُ الأسبابُ، فجاءَهُمُ الإمْدادُ منه ﷻ[3].

دِلالَةُ (الفاءِ) في: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾:

سُرْعَةُ إجابَةِ اللهِ تَعالَى دُعاءَ أوليائِه، وتَخْليصِهم مِنَ الشَّدائِدِ

الفاءُ في ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ مِن قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾، دالَّةٌ على التَّعقيبِ، فأفادَ ذلكَ أنَّ إجابَةَ دعائِهم كانَت في أعقابِ تَضَرُّعِهم واستغاثَتِهم، وهذا من عَظيمِ فضلِ اللّهِ تعالَى ورحمَتِه؛ حيثُ أجارَهُم مِن أعدائِهم، ونصرَهُم عليهم نصرًا مؤزَّرًا مع قِلَّةِ عَدِدهم وضَعْفِ عُدَّتِهم[4]، كما أنَّ هذه الفاء دلَّت على أنَّ نظم الجملة مُشْعِرٌ بالشَّرطيَّة، لربط الاستجابة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 231/8.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 39.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/4.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3076/6، وطنطاويّ، الوسيط: 46/6.

بالاستغاثة على تقدير: إنْ تستغيثوا ربَّكم؛ فيستجِبْ لكم، فهي أشبهُ بالفاءِ الواقعةِ في جوابِ الشَّرط.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظ (الاسْتِجابَةِ) دونَ (الإجابَةِ):

الاسْـتِـجـابَـةُ تقتضي القَبولَ، وتَحْصيلَ منتهى السؤلِ

عُبِّرَ بالاسْتِجابَة دونَ الإجابَةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ لنُكْتَتَيْن: إحداهُما: أنَّ فيه إشعارًا بأنَّ اللّه سُبحانَهُ أعطاهُم مَطْلوباتِهم الَّتي سألوها ربَّهُم ﷻ، كأشدِّ ما تكونُ الإجابَةُ[1]؛ وذلكَ لأنَّ الاستجابَةَ دالَّةٌ على القَبولِ، بِخلافِ ما لو عُبِّر بالإجابَةِ؛ فإنَّها لا تقتَضي قَبولَ ما دَعَوا به؛ لِكَوْنِ الإجابةِ دالَّةً على مُطْلَقِ الجَوابِ قَبولًا كانَ ذلك أو ردًّا، والأُخْرَى: لِما في الاسْتِجابةِ مِنَ الدِّلالة على حُصولِ جَميعِ مَطْلوباتِهم؛ وذلك لكَثْرَةِ مَبانيها، والزِّيادةُ في المَبْنَى تقتَضي غالبًا الزِّيادَةَ في المعنى[2]، فلو جاء النَّظْمُ القرآنيُّ: (فأجابَهم)؛ لاحتمَلَ ذلكَ أنَّ الإجابَةَ - إنْ وقعَتْ بإعْطائِهم مَطْلوباتِهم - هيَ في مُقابَلَةِ مَجْموعِ مَطْلوباتِهم لا جميعِها، بخلافِ قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾؛ فإنَّه دالٌّ على إجابة اللّهِ سُبْحانَهُ لِمَطْلوباتِهم كلِّها.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بـ﴿لَكُمۡ﴾ مِن قَوْلِه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾:

كَرامَةُ اللهِ تَعالَى لِعِبادِه، رفْعٌ لشأنِهم، وعلوٌّ في مكانتِهم

في تعقيبِ الاستجابَةِ بلفظ ﴿لَكُمۡ﴾ مِن قَوْلِه جلَّ وعلا: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾، دِلالَةٌ على الاخْتِصاصِ، وأنَّ الإجابَةَ كانَتْ لِخُصوصِ أهلِ الإيمانِ مِن ربِّهم سُبحانَهُ، وأنَّهُ لا إجابَةَ لغيرِهم؛ لكونِ أهلِ الإيمانِ على الحقِّ، ويَدْعونَ لِلْحقِّ، وهذا مِن كرامَةِ اللّهِ ﷻ لأهلِ الإيمانِ[3]، فاللّام للتَّعليل، وتقديمُ شبه الجملة قد يفيد التَّخصيصَ، أو تعجيلَ المسرَّة.

دلالةُ الموقعِ البيانيِّ لقوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ استئناف بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3076/6.
(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 276/1.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3076/6.

استجابةُ الله تعالى لها صوَرٌ كثيرة، ونماذج في الإمداد أثيرةٌ

مقدَّر: كيف استجاب ﷻ لكم؟ فكانتِ الإجابةُ بأنَّه أمدَّهم بالملائكة، وكانت الاستجابةُ للاستغاثة بقوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾، أي: مُعينكم بألْفٍ مِنَ الملائِكَةِ متتابعين، بعضهم على إثرِ بعضٍ، وهو ما أكَّده الحديث الَّذي رواه البخاريُّ في صحيحِه، بعنوان: (باب شهود الملائكة بدْرًا)، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قال يوم بدر: هذا جبريلُ آخذٌ برأس فرَسِه، عليه أداة الحرب»[1].

بَلاغَةُ الالتِفاتِ في الآية:

مِـن عَـظـيـم إحْـسـانِ الـلـهِ تَـعـالَى بـعـبـادِه إقْـبـالُـهُ عليهم بالعَطاءِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ التفاتٌ مِنَ الغيبَةِ إلى التَّكلُّم، وذلك أنَّ قولَهُ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ أسلوبُ غَيْبَة؛ لأنَّ الاسمَ الظّاهرَ بمنزلَةِ الغَيْبَةِ، وكذلكَ قولُهُ بعدُ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾، ثُمَّ حوِّلَتِ العبارَةُ إلى التَّكلُّم في قولِه سُبحانَهُ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾، وكان مقتضَى الظّاهرِ: (فاستجاب لكم أنَّه مُمِدُّكُمْ)، ونُكْتَةُ العدولِ من الغَيْبَةِ إلى التَّكلُّم: ما في التَّصريحِ بالتَّكلُّم منَ العَظَمَةِ والبرَكَةِ والمهابَةِ[2]، لا سيَّما في معرض إجابة استغاثتهم.

سِرُّ التَّأْكيدِ في: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾:

مِن رَحْمَةِ اللهِ تَـعـالَى بـأهْـلِ الإيمانِ، تَثْبيتُ قُـلـوبـهـم عند المُلِمّاتِ

أُكِّدَت جملةُ تفسيرِ الاستجابَةِ بـ (أنَّ)، والجملة الاسميَّة، وذكرِ المسند إليه مرَّتيْن: مرَّةً بكونه مبتدأً، ومرَّةً بكونه فاعلًا مُضمرًا للفظ﴿مُمِدُّكُم﴾، فإنَّ مجيء المسند الفعليِّ، يفيدُ تقوية الحُكْم، وقد يفيد التَّخصيصَ بالقرائن، كما هو مقرَّرٌ في علم المعاني، فقولُه سُبحانَهُ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ تأكيدٌ لحصولِ الوَعْدِ بالإمْدادِ، وطَمْأنَةٌ لِقُلوبِ أهلِ الإيمانِ؛ لِتَثْبُتَ عند لِقاءِ عدوِّهم.

معاني الحروفِ وأثرُ القراءات في قوله: ﴿بِأَلۡفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

الباء للتَّعديَةِ، وتنكير﴿بِأَلۡفٍ﴾ للتَّعظيم، و﴿مِّنَ﴾ للبيان، أي:

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 261/5، والحديث رواه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4041).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 232/8.

بألفٍ من جنس الملائكة، و(ال) في ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ قد تكون للجنس، وقد تكونُ للعهد، أي: منَ الملائكة المعهودين لهذه المُهِمّاتِ، وفي الحالَين، فإنَّ المددَ الإلهيَّ، هو دعم ربّانيٌّ لمن والاه، وأنَّ اللّه مع الحقِّ والعدل والهدى، والعدد المحدَّد بألف في قوله: ﴿بِأَلۡفٖ﴾، هو تذكير بقدرة اللّه على حماية رسوله الأمين، وصفوته من المؤمنين، بما قدَّره، وقرَّره ﷻ.

إمـدادُ اللـه لـلـرَّسـول والـمـؤمـنـين بالملائكة مُردفين مَـظـهـرٌ مِـن مظاهرِ عنايتِه بهم

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ ﴿مُمِدُّكُم﴾:

وفي التَّعبيرِ بالاسْمِ ﴿مُمِدُّكُم﴾، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ دونَ الفِعْلِ؛ إذْ لَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (أنّي أُمِدُّكُمْ)؛ لِلْإشارَةِ إلى ثُبوتِ الإمْدادِ المَذْكورِ وتحقُّقِه[1]، وأنَّه إمْدادٌ مُسْتَمِرٌّ حتَّى يَنْكَشِفَ ما حَمَلهم علَى الاسْتِغاثَةِ.

الإمْـــدادُ المتـواصـلُ، بما يَدْفَعُ الشَّدائِد، إحْسانٌ وتلطُّف مـنـه تَـعـالَى بالمؤمنين

تَوْجيهُ القِراءاتِ في لفظ: ﴿مُرۡدِفِينَ﴾:

قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾، قُرِئَ بكسر الدّالِ وفَتْحِها، فقرأها بالفتْحِ نافعٌ وأبو جعفرَ ويعقوبُ، وقرأ الباقونَ بالكَسْرِ[2]، فالفَتْحُ بمعْنى: أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ أرْدَفَ المُسْلِمين بهم، وأيَّدَهُم بهم، أي: إنَّ الملائِكَةَ كانوا مُقَدِّمَةَ الجَيْشِ أو ساقَتَهُم، أو أنَّ المرادَ: أنَّهُ يُرْدِفُهُم غَيْرَهُم مِنَ المَلائِكَةِ، والكسرُ بمعنَى: أنَّهُم كانوا مُتَتابِعينَ يَأْتي بَعْضُهم في إثْرِ بَعْضٍ، فتكونُ الألفُ رادِفًا لغيرِهم قبلهمْ[3]، فكانوا خلفهم رِدْءًا لهم، وسواءٌ أكانت الملائكة مردفين منهم تابعين ومتبوعين، أو كانوا مردِفين للمُؤمنين وساقةً للجيش[4]، فإنَّ إمدادَهم بهذا العدد المَهول من الملائكة الَّذين يُمثِّلون

التَّكامُلُ الدِّلاليُّ لِـلْـقِـراءاتِ القرآنيَّةِ وأثره في السِّياق

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 279/2.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 275/2 - 276.
(3) الجاوي، مراح لبيد: 418/1، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 275/9.
(4) أحمد بن عجيبة، البحر المديد: 310/2.

القوَّة الغيبيَّة المدمِّرة، يدلُّ على أنَّ قوانين اللّه في الوجود قائمةٌ على إظهار الحقِّ، وإزهاق الباطل، وأنَّه تعالى يمهل، ولا يهمل.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(اسْتَجابَ) و(أجابَ):

الاستجابَةُ دالَّةٌ على إعطاءِ جَميعِ المَطْلوباتِ، وهي أخصُّ مِنَ الإجابةِ

الإجابة لغةً تعني: الردَّ على السّائل أو المُسلِّم، أو المحاضر أو المناظر، أو المنادي أيًّا كان، وتكون من طرف لطرف، فإذا وجد الطَّرفُ الأوَّل تفاعلًا من الطَّرف الثّاني، فيكون قد أجابه، وهي نوعان، منها ما يكون ملزمًا، ومنها ما يكون اختياريًّا. وأمّا الاستجابةُ: فهي تحقيقُ مطلوبِ السّائل، ممّا يرغب فيه ويأمله، تقول: طلب فلان منّي كذا، فاستجبتُ لِطَلَبِه، أي: أعطيتُه سؤلَهُ، ولبَّيت له رغبتَهُ، وغالبًا ما يكون ذلك طواعيةً دون إلزام، والإجابةُ من اللّه: أن يُعطيَ السّائل ما طلبه، باستجابة دعوته، وتلبيَةِ طِلْبته، والاستجابة من العبد امتثالٌ للأوامر، واجتناب للنَّواهي، ممّا أمر اللّه به من طاعة، وما نهى عنه من معصية، والفَرْقُ بين الاسْتِجابَةِ والإجابَةِ مِن وجْهَيْنِ[1]: أحدهما: أنَّ الاسْتِجابَةَ أكثرُ حروفًا مِنَ الإجابَةِ، والزّيادةُ في المَبْنَى تَقْتَضي الزّيادَةَ في المعنى غالبًا، وزيادةُ المعنى هَهُنا مِن جهةِ أنَّ الاستجابَةَ دالَّةٌ على إعطاءِ جَميعِ المَطْلوباتِ. والآخَرُ: أنَّ الاستِجابةَ أخصُّ مِنَ الإجابةِ؛ لِكَوْنِ الاسْتِجابةِ: الجوابَ بما يوافِقُ الدّاعي، بخِلافِ الإجابةِ، فقد تَكون بموافَقتِه، وقد تكونُ بمُخالَفتِه.

الاسْتِغاثَة والدُّعاء:

كلُّ استغاثَةٍ دعاءٌ، وليس كلُّ دعاءٍ استغاثَةً

بين الاستغاثَةِ والدُّعاءِ عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَقٌ، وذلك أنَّ الاستغاثَةَ لا تكونُ إلّا مِنَ المكروبِ، بخلافِ الدُّعاءِ فإنَّه أعَمُّ، فكلُّ استغاثةٍ دعاءٌ، وليس كلُّ دعاءٍ استغاثةً[2]، وعليه فالاستغاثة تكون

(1) الواحديّ، البسيط: 109/8، 362/13، والشّربينيّ، السّراج المنير: 276/1، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/4.
(2) العرباوي، التّخلّي عن التقليد والتّحلّي بالأصل المفيد، ص: 90.

عادة من صاحب كَرْب ثقيل، أو جسم عليل، أو ذهن كليل، وهو يجأر إلى اللّه، ويطلب أن يزيحَ عنه الهمَّ، ويزيل عنه الضَّيمَ، والدُّعاء أعمُّ من الاستغاثة؛ لأنَّه يكون في حالَي البلاء والرَّخاء، والاستغاثة لا تكون إلّا في حال الكَرْب[1]، وفي الحديث عن أبي هُرَيْرَةَ، قالَ: قالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يَسْتَجيبَ اللّه لَهُ عند الشَّدائِد والكَرْبِ؛ فلْيُكْثِرِ الدُّعاءَ في الرَّخاءِ»[2].

الاسْتِغاثَة والاسْتِعانَة:

طالبُ الغَوْثِ مسلوبُ القُدْرَةِ، وطالبُ العَوْنِ ضَعيفُها

الاستغاثَةُ: طَلَبُ الغَوْثِ، وهو الإنقاذُ من الشِّدَّةِ والهَلَكَة. والاستعانَةُ: طَلَبُ العَوْن، فهُما يشتركانِ في مُطْلَقِ الطَّلَبِ، ويندرجانِ في عُمومِ الدُّعاءِ، إلّا أنَّ الفرقَ بينَهُما مِن جِهَةِ أنَّ طالبَ الغَوْثِ مسلوبُ القُدْرَة، وطالبَ العَوْنِ ضَعيفُها[3]، فالاستعانة والاستغاثة بالمخلوق على نوعين: أحدهما: فيما يَقْدِر عليه، وهذا جائز، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 2]، وقال: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: 15]. وثانيهما: فيما لا يَقْدِرُ عليه إلّا اللّه: كالاستعانة بالأموات، والاستغاثة بالأحياء، والاستعانة بهم فيما لا يَقْدِرُ عليه إلّا اللّه، من شفاء المرضى، وتفريجِ الكربات، ودفع الضُّرِّ، وهو غير جائز[4].

(1) أحمد حطيبة، فتح المجيد شرح كتاب التّوحيد: 3/13.
(2) رواه التّرمذيّ في سننه، برقم: (3382)، وقال عنه الألبانيّ: إنَّهُ حديث حسن، ينظر: سلسلة الأحاديث الصّحيحة رقم: (593).
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 298/2.
(4) الفوزان، كتاب التّوحيد، ص: 101.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين إمدادِ الله المؤمنين بالملائكة المردفين، وبين تثبيتهم بالبُشرى والنَّصر المبين

لمّا ذَكرَ اللّهُ تعالَى ما أجابَ به استغاثةَ عبادِه المُؤْمنينَ من إمْدادِه إيّاهم بالمَلائكَةِ، وذلكَ في قَوْلِه سُبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ بيَّن حِكْمَةَ هذا الإمدادِ وأنَّه لم يَجْعَلْ إرْدافَ الملائكةِ بَعْضِها بعضًا إلّا بشارَةً لهم تبشِّرُهُم بنَصْرِه المؤمنينَ علَى أعْدائِهم، فقال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، وفي هذا المضمار يُعلِمُ اللّهُ تعالى رسولَهُ الأكرمَ بأنَّه لا يتخلَّى عنه، وأنَّه لِمَقامه عندَه، قد استجاب دعاءه البليغ، ودعاء المسلمين معه، وأنَّه منجزٌ وعْدَهُ بإمدادهم بألفٍ من الملائكة المكرمين، يأتونهم مددًا، يردف بعضهم بعضًا، فيكونون سندًا قويًّا، لأهل الإيمان لحصول المعجزة العجيبةِ بنصر القِلَّة المؤمنة، واندحار الكَثْرة المناوئة، ومن ينصرهُ اللّه؛ فلا غالب له.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشْرَىٰ﴾: الباءُ والشّين والرّاء، تدُلُّ تصاريفُها على ظُهور الشَّيء مع حُسْنٍ وجَمال[2]، والبِشارَةُ: كلُّ خبرِ صِدْقٍ تتغَيَّر بَشرةُ الوجهِ به، وبناءً على هذا؛ فإنَّ البِشارَةَ تُستعمل في الخَيْرِ والشَّرِّ، إلّا أنَّها في الخَيْرِ أغلَبُ، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ البِشارةَ هي

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/417 - 418.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).

الخَبَرُ السّارُّ وحدَهُ، واستعمالُه في غيرِهِ مِن بابِ التَّهَكُّم[1]، ومِثْلُ البِشارَة: البُشْرَى[2]، ومن جميل ما يروى قول الشّاعر الخبزأرزيّ[3]:

وَمُبَشِّرِي بِقُدومِ مَنْ أهْواهُ *** لا زالَ وهْوَ مُبَشَّرٌ بِمُناهُ

عِنْدي لَهُ بُشْرَى ولَوْ مَلَّكْتُهُ *** روحي وقَلْبي قَلَّ عَنْ بُشْراهُ

2) ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ﴾: الطّاءُ والميم والنّون، تدلُّ اشتقاقاتُها على استواءٍ، أوِ انخفاضٍ فيما شأنُه الارتفاعُ[4]، ومنه: الطُّمأنينةُ، وهي السُّكونُ[5]، وتُسَمّي العربُ المكانَ المنخفض مِنَ الأرض: المطمئنَّ[6]، وطمأنينةُ القلوبِ في قول اللّهِ تَعالَى: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ هي سكونُها بأمنِها بَعْدَ الخَوْفِ، و"طمأنينة القلب سكونُهُ واستقراره، بزَوال القلق والانزعاج والاضْطِراب عَنهُ"[7].

3) ﴿ٱلنَّصۡرُ﴾: تدورُ مادَّةُ النّونِ والصّادِ والرّاءِ حول معنًى إتيانِ خيرٍ وإيتائِه بما فيه زيادةٌ مناسِبةٌ وقوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[8]، ومنه سُمّيَ المطرُ نصرًا[9]، والنَّصْرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخصمِ عليه في حَرْبٍ أو غيرها بقوَّةِ النّاصر وغَلَبَتِه[10]، وهو المعنى المرادُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾.

4) ﴿عَزِيزٌ﴾: العَيْنُ والزّايُ تدلُّ اشْتقاقاتُها على شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما شاكَلهما مِنَ الغَلَبَةِ والقَهْرِ[11]، ومنه قولُهُم: رَجُلٌ عَزيزٌ، أي: مُمْتَنِعٌ لا يُغْلَب، ولا يُقْهَرُ[12]، والعِزَّةُ: حالٌ مانِعَةٌ لِلْمَرْءِ مِن أن يُغْلَبَ، وتارةً تقعُ وصْفَ مدحٍ، وتارةً تكونُ وصفَ ذمٍّ، فأمّا ما يُذمُّ بها فكعِزَّةِ الكفّارِ، قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾ [ص: 2]، وذلك أنَّ العزَّةَ للّهِ

(1) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 78.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (بشر).
(3) البيتان للشّاعر الخبزأرزي، ينظر: الرّاغب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشَّعراء البلغاء: 36/2.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (طمن).
(5) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (طمن).
(6) الخليل، العين: (طمن).
(7) ابن قيّم الجوزيّة، كتاب الرّوح، ص: 220.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 79/1، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نصر).
(9) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 486/1.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عز).
(12) ابن سيده، المحكم: (عز).

تعالَى ولِرَسولِه، هيَ العزَّة الحقيقيَّةُ، وهي الدّائمَةُ الباقيَةُ، بخلافِ العزَّةِ التي للكفّار فإنّما هي تَعَزُّزٌ، وهي في حقيقَتِها ذُلٌّ؛ لكونِها تَشَبُّعًا بما لَم يُعطَوا(1)، واسم اللّهِ تعالَى العَزيز؛ معناهُ: القويُّ الَّذي لا يُغْلَبُ(2).

5) ﴿حَكِيمٌ﴾: الحاءُ والكافُ والميم، تدلُّ اشتقاقاتُها على المَنْعِ(3)، وقيَّده الرّاغبُ بكونِه مَنْعًا لِلْإصْلاحِ(4). ومِن هذا البابِ قولُ جريرٍ(5):

أبَني حَنيفَةَ أَحْكِموا سُفَهاءَكُم *** إنّي أخافُ عَلَيْكُمُ أنْ أَغْضَبا

فإنَّ معناهُ: امْنَعوهُم مِنَ التَّعَرُّضِ لي(6). ومنه: حَكَمَةُ الدّابةِ؛ لأنَّها تَمْنَعُها مِن مُخالفَةِ الرّاكب(7)، وسُمّيَ القضاءُ حُكْمًا؛ لأنَّه فيه منعُ الظّالم مِنَ الظُّلْم(8). واسمُ اللّهِ تعالى الحَكيمُ معناهُ: المتَّصِفُ بكَمالِ الحِكْمَةِ وكمالِ الحُكْمِ بينَ الخَلْقِ، وهو الَّذي يَضَعُ الأشْياءَ مَواضِعَها، ويُنَزِّلُها منازِلَها اللّائقةَ بها في خَلْقِه وأمْرِه(9).

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حِكمةِ اللهِ في جَعْل إمداد الملائكةِ، تثبيتٌ وبشرى بالنَّصر والتَّمكين

لَم يَجعَلِ اللّهُ تعالَى ذلك الإمْدادَ إلّا بِشارَةً لَكُم بالنَّصرِ، ولِتَسكُنَ به قُلوبُكُم، وتوقِنوا بنَصرِ اللّهِ لَكُم على أعْدائِكُم، وما النَّصرُ إلّا مِن عِنْدِ اللّهِ سُبحانَهُ، لا بشِدَّةِ بَأْسِكُم وقواكُم، إنَّ اللّهَ ﷻ عَزيزٌ في مُلْكِه، حَكيمٌ في شَرْعِه وقَدَرِه(10).

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 61/4.
(2) ابن الأثير، النّهاية: (عز).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(4) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(5) جرير، ديوانه، ص: 47.
(6) ابن سلّام، غريب الحديث: (حكم).
(7) ابن الأثير، النِّهاية: (حكم).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حكم).
(9) القحطانيّ، شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسُّنَّة، ص: 101.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 417/13 - 418، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ قَوْلِه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ بما قَبْلَهُ:

الثِّـقـةُ بالله مُعتمَدُ المؤمنين في اليقين بالنَّصر، عند فقْدِ أسبابه المعهودة

وُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، بقولِه سُبحانَهُ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ لِما بينَهُما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ، إذِ الجملتانِ مشْتَرِكَتانِ في الخبَرِيَّةِ، وبينَهُما مناسَبَةٌ ظاهِرَةٌ؛ لكَوْنِ الآيةِ الثّانيةِ بمنزلَةِ بيانِ الحِكْمَةِ مِنَ الوَعْدِ المذكورِ في الآيةِ الأوَلى، وبينَ الجملتَيْنِ اشتراكٌ في المسنَدِ إليه، وهو في الجُمْلَةِ الثّانيةِ الاسمُ الأعظم (الله)، وفي الجملَةِ الأولَى الضَّميرُ في ﴿أَنِّي﴾ الرّاجِعُ إلى اللّهِ ﷻ. فالواوُ في ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ علَى هذا الوَجْهِ، عاطِفَةٌ هذهِ الآيَةَ على قولِه تعالَى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ﴾[1]، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، ويكونَ قولُهُ تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، كلامًا مستأْنَفًا مَسوقًا لبَيانِ أنَّ الأسبابَ الظّاهِرَةَ بمَعْزِلٍ مِنَ التَّأثيرِ الذّاتيِّ، وإنَّما حقيقَةُ التَّأثيرِ خاصَّةٌ باللّه تعالى؛ وذلك ليَثِقَ المؤمنونَ باللّهِ سُبحانَهُ، ولا يَقْنَطوا مِنَ النَّصْرِ عند فقْدِ أسْبابِه[2].

تَعْيينُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في قَوْلِه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾:

تَعْجيلُ المَسَرّاتِ لِعِبادِ اللهِ المُؤْمِنينَ، وبِشارَتُهُم بما يسُرُّ ويُطَمْئِنُ

الضَّميرُ في ﴿جَعَلَهُ﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ راجِعٌ إلى القولِ الَّذي تضمَّنَهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، والمعنى: ما جَعَلَ اللّهُ تعالى إجابتَكُم بهذا الكلامِ إلّا ليُبَشِّرَكُم، وإلّا فقد كان يكْفي أن يَضْمَنَ لكُمُ النَّصْرَ، دونَ بَيانِه إمدادَكُم بالملائكةِ[3]، وفي تعيينِ مَرْجِعِ الضَّميرِ أقوالٌ أخْرَى، منها أنَّه راجِعٌ إلى الإمْدادِ، أي: المصدَرِ المُنْسَبِك من ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾، والتَّقديرُ: وما جعلَ اللّه تَعالَى ذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 276/9.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 163/5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 276/9.

الإمدادَ إلّا بُشْرَى، وعلى هذا الوَجْهِ اقتصَرَ الزَّمخشريُّ[1]، ومالَ إليهِ أبو حيّانَ[2]، واستظْهَرَ ابنُ عَرَفَةَ أنَّ الضَّمير راجعٌ للْوَعْدِ؛ وذلك لأنَّ البُشْرَى تكونُ مقدَّمَةً على المُبشَّرِ به، والنَّصْرُ ليسَ مبشّرًا، وإنَّما هو المبشَّرُ به[3]، وهذه المعاني عند التَّأمُّلِ لا تعارُضَ بينَها؛ لأنَّ جميعَها تحصُلُ به البِشارَةُ.

بلاغةُ القصرِ بالاستثناء بعد النَّفي:

العـنـايـةُ بـمـعـنـويّـاتِ المؤمنين لونٌ من البشرى بالنَّصر والتَّمكين

في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ جاء القصرُ هنا بالاستثناء بعد النَّفي، الَّذي يؤتى به عادةً مع المنكر، وذلك تنزيلٌ لهم منزلةَ المنكر، خروجًا عن مقتضى الظّاهر، دون مقتضى الحال، حتَّى يؤكِّدَ لهم أنَّ هذا الإمدادَ، ليس ليقلّل من أهمّيَّة استعدادهم المادي للقتال، بقدر ما هو تكريمٌ لهم، ورفعٌ لمعنويّاتهم أمام عدوِّهم، فهو قصرٌ ادِّعائيٌّ.

بَلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ:

تَـذْكيرٌ وامْتِنانٌ بـأفْـضـالِ الله عـلى عِـبـادِه؛ لشكره وعبادته وفق مُراده

الجُمْلَةُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، يَحْتَمِلُ أن يُرادَ بها حقيقَةُ الإخبارِ بأنَّ اللّه سُبحانَهُ أمدَّهُم بالملائكَةِ لأجل البِشارةِ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الجملَةُ الخبريَّةُ مرادًا بها التَّذكيرُ والامْتِنانُ، فيكونُ ذلك جاريًا على طريقَةِ المجازِ المرسَلِ المركَّبِ؛ لخروجِ الخبَرِ عن دِلالَتِه الأصليَّة، ويجوزُ أنْ يُرادَ المعنَيانِ معًا؛ لعَدَمِ التَّنافي بين دِلالَتَيْهِما، ويكونَ في هذا حَمْلٌ لِلَّفْظِ على حقيقَتِه ومجازِه، وهو جائزٌ؛ لِكَوْنِ هذا الحَمْلِ ضَرْبًا مِن ضُروبِ حَمْلِ المُشْتَرَكِ على معْنَيَيْهِ أو مَعانيه.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

في قولِ اللّهِ جلَّ وعَلا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، إظهارٌ في مَقامِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/202.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/280.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/408.

الإضمارِ؛ وذلك لأنَّ مقتضَى الظّاهرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وما جعلَهُ إلّا بُشْرَى)؛ لتقدُّم ذِكْرِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، ونُكْتَةُ الإظهارِ: التّنويهُ بعظيمِ عنايَةِ اللّه تعالى بهم[1]، بتعليقِ جَعْلِ البُشْرَى بالاسمِ الأعظمِ (اللّه) الجامعِ لصفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكمالِ.

عَظيمُ عِنايَةِ اللهِ تَعالَى بأهْلِ الإيمانِ، نصرٌ وحفظٌ وأمان

بَراعَةُ الالتِفاتِ في الآيَة:

في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، التفاتٌ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبَةِ، وذلك لأنَّ قولَهُ سُبحانَهُ قبلُ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، أسلوبُ تكلُّمٍ، وقولَهُ جلَّ وعلا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أسلوبُ غَيبَةٍ؛ لأنَّ الاسْمَ الظّاهرَ بمنزلَةِ الغَيْبَةِ، فكانَ مُقتَضَى الظّاهرِ: (وما جعلتُهُ إلّا بُشْرَى)، ونُكْتَةُ الالتفاتِ: زيادَةُ التَّصريحِ بأنَّ الوَعْدَ بالإجابَةِ والإمْدادِ وارِدٌ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ، وليكونَ ممهِّدًا للتَّصريحِ بالاسْمِ الأعظمِ (اللّه).

التَّصْريحُ بوَعْدِ الإجابَةِ والإمْدادِ، أبْلَغُ في طَمْأنَةِ الله للعِبادِ

نُكْتَةُ التَّبْشيرِ بإمْدادِ المَلائِكَةِ:

فائدَةُ التَّبشيرِ بإمدادِ الملائكَةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أنَّ المسلِمينَ لمّا لَقوا في بدْرٍ عَدوًّا قويًّا، وجيشًا كثيرًا؛ بشَّرهم اللّهُ تعالَى بطريقةِ النَّصرِ الذي ضَمِنَهُ لهُم، بأنَّه حاصِلٌ بجَيْشٍ منَ الملائكَةِ؛ وذلك لأنَّ النَّفْسَ أمْيَلُ إلى الحسّيّاتِ، والنَّصْرُ مَعْنًى يدِقُّ إدراكُهُ وتصوُّرُهُ، بخلافِ الصّورِ الحسّيَّةِ من تصويرِ مددِ الملائكَةِ[2].

جَبَلَ اللهُ لنفوسِ البشريَّةِ على الميْلِ والثِّقَةِ بالأمورِ الحسّيَّةِ

سرُّ التَّعْبيرِ بالبُشْرَى اسْمًا، وبالاطْمِئْنانِ فِعْلًا:

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾؛ جاءَ فيه التَّعبيرُ بالبُشْرَى اسْمًا، وبالاطمئنانِ فِعْلًا،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 77/4.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 276/9.

الخَوْفُ مُتَعَلَّقُ الطُّمَأْنينَةِ الَّتي تتجدَّد بتَجَدُّدِه

للدِّلالَةِ على ثبوتِ البُشْرَى مِن غيرِ تعرُّضٍ لدوامِها؛ إذْ دِلالَةُ الاسمِ على الدَّوامِ ليست ذاتيَّةً فيه، وإنَّما هيَ موقوفَةٌ على القرائِن، وقد عُلِمَ أنَّ البُشْرَى تتقدَّمُ المُبشَّرَ به، فإذا لَم يُحتَجْ إليها، بخِلافِ الطُّمأنينَةِ؛ فإنَّ متعلَّقَها الخَوْفُ، وهو مِنَ الانفعالاتِ النَّفسيَّةِ القابلَةِ للتَّجدُّدِ، فكانَ التَّعبيرُ عن الطُّمأنينَةِ بالفعْلِ أنسبَ؛ لِتَتَجدَّدَ بتجدُّدِ موجِبها.

سِرُّ اقْتِرانِ اللّامِ بالاطْمِئْنانِ دونَ البُشْرَى:

البُشْرَى مِنَ المَطْلوباتِ، ولَكِنَّ الطُّمأنينةَ أقْوَى مَطْلوبيَّةً

قُرِنَتِ اللّامُ بالاطمئنانِ دونَ البُشْرَى في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾؛ للإيماء إلى أصالَةِ الاطمئنانِ في العِلّيَّةِ وأهَمّيَّتِهِ في نَفْسِه، وذلك لأنَّ في الإمدادِ مَطْلوبَيْنِ اثنَيْنِ؛ أحدُهُما: إدخالُ السُّرور في قلوبهم، وهي البُشْرَى، والآخَر: حصول الطُّمأنينَةِ على أنَّ إعانَةَ اللّهِ تعالَى ونُصْرَتَهُم معَهُم، فلا يَضْعُفوا عَنِ الجِهادِ، وهذا هو المقصودُ الأصليُّ، وفُرِّقَ بين العبارَتَيْنِ للتَّنبيهِ على التَّفاوُتِ بينَهُما في المَطْلوبيَّةِ، فالبُشْرَى مطلوبَةٌ، ولكنَّ حصولَ الطُّمأنينَةِ أقْوَى في ذلكَ، وهذا نظيرُ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ [النحل: 8]، فلمّا كان المقصودُ الأصليُّ هو الرُّكوبَ؛ أدخَلَ حرفَ التَّعليلِ عليه(1).

بَراعَةُ الاسْتِعارَةِ في الآيَة:

تَصْويرُ المَعاني في قالَبِ المَحْسوسِ، أعْلَقُ بالأذهانِ وآثَرُ لِلنُّفوس

أصلُ الطُّمأنينَةِ: السُّكونُ وعدمُ الاضطرابِ، وهو حقيقَةٌ في سُكونِ الأجسامِ، وهي في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ مستعارَةٌ لِيَقينِ النَّفس بحصولِ الأمرِ، تشبيهًا لِثباتِ النَّفْسِ، وعَدَمِ اضطرابِها بثباتِ الأجْسامِ المحسوسَةِ(2)، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ونكتَتُها: تصويرُ المَعاني وإخراجُها في قالَبِ المَحْسوساتِ، وذلِكَ أقرَبُ للنَّفْسِ وأعلَقُ بالذِّهْنِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 354/8، والآلوسي، روح المعاني: 163/5.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 39/3، 78/4.

نُكْتَةُ تَرْكِ تَقْييدِ البُشْرَى بالجارِّ والمَجْرورِ (لَكُمْ):

دِقَّـةُ التَّـعْـبيرِ القرآنيّ في انتِقاءِ الألفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

تُرِكَ تَقْييدُ البُشْرَى بـ (لَكُمْ) في قَوْلِه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، فلَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ في هذا الموضِع: (وما جعله اللهُ إلّا بُشْرَى لَكُم)، بخلافِ قصَّةِ غَزْوَة أُحدٍ الوارِدَة في آل عمرانَ، فقد قُيِّدَتِ البُشْرَى بذلكَ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ [آل عمران: 126]، وفي ذلك نِكاتٌ: إحْداها: أنَّ المقتولَ مِنَ المسلمينَ في أُحدٍ أكثَرُ من المقتولِ مِنَ الكُفّار، فلَوْلا أنَّ البُشْرَى قُيِّدَتْ بـ (لَكُمْ)؛ لربَّما تطرَّقَ الوَهْمُ عند سماعِ أوَّلِ الكلامِ أنَّ الإمدادَ كان بُشْرَى للكُفّارِ[1]، بخِلافِ هذا الموضعِ فاللَّبْسُ مأمونٌ. وثانيها: أنَّهُ حُذِفَ التَّقييدُ بـ (لَكُمْ) في موضعِ الأنفالِ؛ لسَبْقِ ذِكْرِه في الآيةِ قبلُ في قولِه ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، فلَم يُقيَّد معَ البُشْرَى لئلّا يُكرَّر لفظٌ تقدَّمَ قريبًا، فأغنَتْ (لَكُمْ) الأولَى بلفظِها ومعناها عن تكرارِها ثانيةً مع البُشْرَى[2]. وثالثُها: أنَّ القصَّةَ في سورَةِ آلِ عمرانَ سيقَتْ مُسهبَةً، بخلافِ القصَّةِ في الأنفالِ؛ فقد وردَت موجزَةً، فناسبَ أن يُحذَفَ التَّقييدُ؛ تفنُّنًا في التَّعبير، واتِّساعًا في الكلامِ[3].

دلالةُ الباءِ وسِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿بِهِۦ﴾:

عَـظَـمَـةُ وعْـدِ الـلـهِ تَـعـالَى لـلـمُـؤمـنـين، وفَخامَةُ شَأْنِه في النَّصرِ والتَّمكين

الباءُ للسببيَّة، وقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على القُلوبِ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ لنكتَتَيْن؛ إحداهُما: إرادَةُ الاختصاصِ؛ وذلك أنَّ تقديمَ ما حقُّهُ التَّأخيرُ يدلُّ على الاختصاصِ بطَريقِ الفَحْوَى، والمعنى: ولتطمئنَّ به قلوبُكم لا بغَيْرِه[4]. والأُخْرَى: قُدِّمَ تأكيدًا لأمرِ الوَعْدِ وتفخيمًا لشأنه، وإيماءً إلى إتمامه، وذلك أنَّ العربَ تقدِّمُ ما هُم به أعْنَى، وهو عِنْدَهُم أهَمُّ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 232/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 276/9.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 280/5.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 277/9.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 232/8.

وُجوبُ إحسانِ الظَّنِّ بوَعْدِ اللهِ تعالَى من صميمِ الإيمان به

بلاغةُ التَّعْريضِ في الآية:

في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾، تعريضٌ بما اعتراهُم مِنَ الخوفِ والوَجَلِ مِنَ الطّائفَةِ ذاتِ الشَّوْكَةِ، ورغبَتِهم بالظَّفَرِ بالعُروضِ الَّتي كانَت معَ العيرِ، فعُرِّضَ لهم بأنَّهم لم يُدْرِكوا مرادَ رسولِ اللّه ﷺ حينَ استشارَهُم، وأخبرَهُم أنَّ العيرَ سلكَتْ طريقَ السّاحلِ، وقد كان ذلك كافيًا في إدراكِ أنَّ الطّائفَةَ الَّتي وُعِدوا بها، تمَحَّضتْ أنَّها طائفَةُ النَّفير، بَعْدَ أن كانَ الأمْرُ دائرًا بينَها وبينَ طائفَةِ العيرِ، وكانَ الشَّأْنُ أن يظنّوا أحسَنَ الظُّنونِ، بوعْدِ اللّهِ سُبحانَهُ، فأرادَ اللّهُ ﷻ تسكينَ قلوبِهم، فوَعَدَهُم بإمدادِ الملائكَةِ إيّاهُم[1].

نِسبةُ النَّصرِ لغيرِ اللهِ مَجازيَّةٌ، وليست حقيقيَّةً

بَلاغَةُ القَصْرِ في الآية:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾، قصرٌ بطريقِ النَّفْيِ والاستثناءِ، وهو مِن قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ تحقيقيٌّ، وأمّا نسبَةُ النَّصرِ إلى غيرِ اللّهِ تعالَى، فهو بالنَّظَرِ إلى بَذْلِ أسبابه فحسبُ، كالوارِدِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ [آل عمران: 81]، والقَصْرُ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾، فيه قَصْرُ النَّصرِ مَهْما توافَرتْ أسبابُهُ على كَونِه من عِنْدِ اللّهِ سُبحانَهُ، فلا نصرَ إلّا منه، وفي نفيِ النَّصرِ بـ (ما) نفيٌ لوجودِه، فلا وُجودَ لأيِّ نصرٍ إلّا أنْ يكونَ من عِنْدِ اللّه ﷻ[2].

كونُ النَّصْرِ مِن عِنْدِ اللهِ تَعالَى، تَعْظيمٌ لشَأْنِ النَّصْرِ وتنويهٌ به

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَحَلِّ الإضْمار:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾، إظهارٌ في موضعِ الإضْمارِ؛ إذْ مقتضَى الظّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وما النَّصْرُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/277.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3078.

إلّا من عِنْدِه)؛ لتقدُّم التَّصريح بالاسم الأعظم في قوله جلّ وعلا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، ونُكْتَةُ الإظهار: إدخالُ المهابَةِ وتعظيمُ شأنِ النَّصرِ، والتَّأكيدُ على كَوْنِ النَّصرِ من عِنْدِ اللهِ تعالَى؛ لأنَّ لهُ وحْدَهُ صفاتِ الكمالِ.

بَلاغَةُ الاحتِراسِ:

إمْدادُ المَلائِكَةِ مِنْ أسْبابِ النَّصْرِ، وإنَّما النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالَى

وُرودُ قولِ اللّه تعالَى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، بعد قوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، واردٌ على طريقةِ الإطنابِ بالاحتراس؛ لئلّا يُتَوَهَّمَ أنَّ النَّصرَ حاصِلٌ بالملائكةِ لا من قِبَلِ اللّه سُبحانَهُ[1].

عِلَّةُ فصلِ قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

إيقاعُ النَّصْرِ فيما قدَّر له مِنْ مُقْتَضَياتِ الحِكَمِ الإلَهيَّةِ البالِغَةِ

فَصلُ قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، عمّا قبلَهُ؛ استئنافٌ بيانيٌّ لوقوعِ الجملَةِ تعليلًا متضمِّنًا الإشعارَ بأنَّ النَّصرَ الواقعَ على الوجهِ المذكورِ آنِفًا، هو مِن مقتضَياتِ الحِكَمِ البالغَةِ[2]، ويجوزُ أن تكون الجملةُ مستأنفَةً استئنافًا ابتدائيًّا مُنَزَّلَةً منزلةَ الإخبارِ بما ليس بمعلومٍ لهمْ[3].

نُكْتَةُ التَّأكيدِ في قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

قصرُ النَّصْرِ على اللهِ تعالَى تأكيدٌ لثُبوتِ عِزَّتِهِ وحِكْمَتِه

أُكِّدَ قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، بالأداة ﴿إِنَّ﴾، وبالجملةِ الاسميَّةِ لتقويَةِ تعليلِ قصْرِ النَّصرِ عليهِ، وزادَ هذه الجملةَ تأكيدًا إيرادُها اسميَّةً للدِّلالَةِ على ثبوتِ الوصفَيْنِ ودوامِهما، ومعنى ﴿عَزِيزٌ﴾ "لا يغالَب في حُكمه، ولا يُنازَع في أقضيته، ومعنى ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعلُ كلَّ ما يَفْعل حَسْبما تقتضيهِ الحكمةُ والمصلحةُ"[4].

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 299/2، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 208/2.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 233/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 163/5.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 277/9.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 09/4.

مِن رَحْمَةِ اللهِ تَعالَى بعِبادِه: إدْخالُهُ الطَّمأْنينَةَ على قُلوبِهم

سِرُّ الإظْهارِ في مَوْضِع الإضْمارِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إظهارٌ في مقام الإضْمارِ، وذلك أنَّ مقتضَى الظّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إنَّه عزيزٌ حكيمٌ)؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بالاسْمِ الأحسَنِ (اللّهِ) في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾، ونكتَةُ الإظْهارِ: زيادَةُ المَهابَةِ بالتَّصريحِ بالاسْمِ الأحْسَنِ الجامِعِ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمال، وفيه أيضًا المبالغَةُ في إدخالِ الاطْمِئنانِ على قلوبِ المخاطَبينَ، وفي التَّصريحِ بالاسم الأعظمِ أيضًا إخراجُ الجملَةِ مُخرجَ التَّذْييلِ الجاري مجْرَى المثَلِ؛ إذْ لو أُضْمِرَ - كما هو مقتضى الظّاهِرِ - بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إنَّه عزيزٌ حكيمٌ)، لكان ذلك مِن قبيلِ التَّذْييلِ غيرِ الجاري مجرَى المثَلِ.

دِقَّةُ انْتِقاءِ الألفاظِ المُعَبِّرَةِ عَنْ مَقاصِدِها في سِياقاتِها مِن بيان القرآن المُحكَم

تَوْجيهُ المُتَشابه اللَّفْظيِّ:

قال اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقال تعالَى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ [آل عمران: 126]، فجُعِلَ الاسْمانِ في الأنفالِ في صيغَةِ الخبرِ المؤَكَّدِ، وفي آل عمرانَ صيغَتِ الصِّفتانِ في أسلوبِ النَّعْتِ للاسْمِ الأعظم (اللّه)، ووجْهُ ذلك: أنَّ آيَةَ الأنفالِ تَقدَّمَ فيها وُعودٌ جليلَةٌ، كقوله سُبحانَهُ: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ [الأنفال: 7]، وقولِه ﷻ: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾ [الأنفال: 7]، وقولِه ﷻ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال: 8]، فهذه الوُعود الجليلَةُ لم يتقدَّم التَّصريحُ بمثلِها في سورةِ آلِ عمرانَ، فناسبَ ذلك أن يُؤَكَّدَ الاسمانِ الجليلانِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ من سورَةِ الأنْفالِ، ولمّا لم يَرِدْ مثلُ هذه الوُعودِ في آلِ عِمرانَ، وردَتِ الصِّفتانِ تابعَتَيْنِ غيرَ مؤكَّدَتينِ[1].

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/89 - 90.

نُكْتَةُ خَتْمِ الآيَةِ باسْمَيِ اللهِ: (العَزيزِ الحَكيمِ):

خُتِمَت الآيةُ الكريمةُ باسْمَي الله تعالَى: (العزيزِ والحَكيم)، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لكونِهما أولَى بالذِّكْرِ في هذا المَقام؛ وذلك أنَّ العزيزَ ينصُرُ مَنْ يُريدُ نُصْرَتَهُ؛ فلا يُغْلَبُ، والحكيمَ عالِمٌ بمَنْ يستحقُّ نُصْرَتَهُ، وكيف يُعْطيه ذلكَ[1].

مَن نصرَهُ العَزيزُ فلا يُغْلَبُ، ومَن أيَّدَهُ الحَكيمُ اسْتَحَقَّ النَّصْرَ

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القُلوب والأفْئِدَة:

الأفئِدَةُ جمعٌ لِلْفُؤاد: ألطَفُ ما في الجسَدِ على الإطْلاقِ، ولذا يُعبَّر بهِ عَن جميعِ البدَنِ؛ لكونِهِ أشرفَ ما فيهِ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]، وهو أشدُّ تألُّمًا بأدنى أذًى يلحقُهُ، والأفئدة هي نافذة من نوافذ المعرفة عند الإنسان في الاستعمال القرآنيِّ، ولكنَّها ليست مناطَ التَّكليف، كما هي القلوبُ، أمّا القلبُ؛ فلَيْسَ مَدارُ الحديثِ عنه في القرآنِ الكَريم مِن حيثُ رِقَّتُهُ وسُرعةُ تأثُّره بما يطرَأُ عليه، بل يَرِدُ وصفُهُ بالقساوةِ وضدِّها، كما قالَ تَعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 22]، وقال سُبحانه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 23]. فالقَلْبُ مَوْطِنُ القوَّةِ والجلَدِ، ولذا يُعَبَّر به في المواطن الدّالَّة على القوَّة والتَّعقُّلِ[2]، ويَرِدُ في مَقاماتِ التَّثْبيتِ في الحُروبِ؛ لافتقارِها إلى القوَّةِ والجلَدِ.

القلبُ العاقلُ مَناطُ التَّكليف، وهو العضو الجوهريُّ الشَّريف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 78/4، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3078/6.

(2) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 106 - 112.

﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١﴾ [الأنفال: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبلَها:

الـربـط بين البشرى بالإمداد وغشيان النُّعاس أمنةٌ وتطهيرٌ للعباد

لمّا ذكَرَ اللّهُ تعالَى البُشرَى والطُّمأنينَةَ بالإمْدادِ؛ ناسَبَ أنْ يَذْكُرَ لهم أنَّه أَتبَعَ القَوْلَ الفِعْلَ، فألْقَى في قلوبهم بمقتضَى عِزَّته وحِكْمَتِه السَّكينَةَ والأمْنَ، بدليلِ النُّعاسِ الذي غَشيَهُم في محلٍّ هو أبْعَدُ الأشْياءِ عنه، وهو مَوْطِنُ القِتالِ ومحاربَةِ الأعداءِ؛ لافتقارِ هذا الموطنِ إلى التَّيقُّظِ من فتْكِ أهلِ الكُفْرِ، وممّا ثبَّتَ اللّهُ تعالَى بِهِ عبادَهُ المؤمنينَ المَطَرُ وأثَرُهُ، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾(1)، وفي امتنان اللّه عليهم بالنَّوم في هذه اللَّيلةِ مَلْمَحان مُفيدان: أحدهما: أنَّه قَوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد، فكانت تدريبًا واستعدادًا لتلك المعركة الفاصلة، وثانيهما: أنَّه أمَّنهم بزوال الرُّعب من قلوبهم، فانقشع الخوفُ، وزالت الرَّهبة، وثَبَت المؤمنون، حين حَميَ الوطيسُ(2).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾: الغَيْنُ والشّين والحرْفُ المعتلُّ، تدلُّ تصريفاتُها على تغطيةِ شيءٍ بشيءٍ، ومنه الغِشاءُ، وهو الغِطاءُ، وسُمّي يومُ القيامَةِ غاشيةً؛ لأنَّها تَغْشَى الخلْقَ بإفزاعِها(3)، وقد تُطْلَقُ الغاشيَةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 234/8.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 332/2.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غشي).

علَى النّار؛ لكونِها تَغْشَى وُجوهَ الكفّار[1]، كما قال اللّهُ تعالَى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾ [إبراهيم: 50]، وقولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾، أيْ: يُلْقي النُّعاسَ عَلَيْكُم كالغِطاءِ[2]، وقد غشَّى اللّهُ على بَصَرِهِ تغشيةً، وأغشى، أي: غطَّى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ٩﴾ [يس: 9][3]، ومن شواهد هذا اللَّفظ قولهم:

مِنَ النّاسِ مَنْ يَغْشَى الأباعِدَ نَفْعُهُ *** ويَشْقَى به حَتَّى المَماتِ أقارِبُهْ[4]

2) ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾: النّون والعَيْنُ والسّينُ، تدلُّ تصريفاتُها على ثِقَلٍ أو فُتورٍ في الجِسْمِ لِلينِه وامتِلائِه بالرَّخاوَةِ[5]، ومنه النُّعاسُ، وهو أوَّلُ النَّومِ[6]؛ لِطُروئِه علَى العَبْدِ بسَببِ فُتورٍ في بدَنِه، والنُّعاسُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾ هو النَّوْمُ القَليلُ، أو هو عِبارَةٌ عَنِ السُّكونِ والهُدوءِ[7].

3) ﴿أَمَنَةً﴾: الهَمْزَةُ والميمُ والنّون تدلُّ اشتقاقاتُها علَى تَصْديقٍ وسُكونِ قلبٍ[8]، وأصلُ الأمْنِ: طُمأنينَةُ النَّفْسِ وزوالُ الخوف[9]، والفِعْلُ منه: أمِنَ، والأمَنَةُ والأمانُ والأمْنُ كُلُّه بمَعْنى واحِدٍ[10]. وقولُ اللّه جلَّ وعلا: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾ معناهُ: أنَّ اللّه تعالَى أرسلَ عليهِمُ النُّعاسَ؛ مِن أجْلِ أنْ يُدْخِلَ على قلوبِهمُ الأمانَ مِنَ العَدوِّ أنْ يَغْلِبَهُم، وقد قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: "النُّعاسُ في القِتالِ: أمَنَةٌ مِنَ اللّهِ ﷻ، وفي الصَّلاةِ مِنَ الشَّيْطانِ"[11].

4) ﴿رِجۡزَ﴾: الرّاء والجيمُ والزّايُ، تدور تصاريفُها على ارتعادٍ عندَ النُّهوضِ أو الحَمْلِ بسببِ الثِّقَلِ العظيمِ، ومنه: الرِّجْزُ؛ وهو العذاب المُثْقِلُ المعجِزُ[12]، وتقول العرب: ناقةٌ

(1) ابن سيده، المحكم: (غشو).
(2) الخضيريّ، السّراج في بيان غريب القرآن، ص: 70.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (غشي).
(4) البيت غير منسوب لشاعر، وهو في تهذيب الأزهري: 246/2، وابن منظور، لسان العرب: (بعد)، والقالي، الأمالي: 220/3، وعند الخليل بن أحمد، كتاب العين: (بعد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نعس).
(6) ابن الأثير، النّهاية: (نعس).
(7) الرّاغب، المفردات: (نعس).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمن).
(9) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(10) غلام ثعلب، ياقوتة الصّراط في تفسير غريب القرآن، ص: 236.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 419/13.
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجز).

رَجْزاءُ؛ وهي الَّتي يرعُدُ فخذُها أو عَجُزُها حين تَقوم[1]، أو هي: الَّتي تَقارَبَ خَطْوُها واضْطرَبَ لضعفٍ فيها[2]، ورِجْزُ الشَّيطانِ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ هيَ وسْوَسَتُه الَّتي تُكْسِبُ عذابَ اللّهِ تعالَى وغضَبَهُ، ولِذا سُمّيَت الوسوسَةُ رِجْزًا؛ لأنَّ الرِّجْزَ يَرِدُ مُرادًا بهِ العذابُ[3].

5) ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾: الرّاءُ والباءُ والطّاءُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنى الشَّدِّ والثَّباتِ[4]، والرَّبْطُ على القَلْبِ: إلهامُ اللّهِ سُبحانَهُ وتَشْديدُهُ وتَقْوِيَتُهُ[5]، وفلانٌ رابطُ الجأش، وربيطُ الجأش، أي: شديد القلب، كأنَّه يربطُ نَفْسَهُ عن الفرار[6]، ومن المجاز: رَبَطَ اللّه على قلبه: صبَّرَهُ، قال تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]، ورجل رابط الجأش وربيط الجأش[7]، ويقال: رَبَطَ اللّه على قلبهِ بالصَّبر، أي: عَصَمَهُ بالصَّبر[8]، وهذا هو المعنَى المرادُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

6) ﴿وَيُثَبِّتَ﴾: الثّاءُ والباءُ والتّاءُ، تدلُّ تصريفاتُها علَى مَتانَةِ ارْتِباطِ الشَّيْءِ بما قامَ عليه، فلا يَتَحلْحَلُ[9]، ومنه الثَّباتُ، وهو ضِدُّ الزَّوالِ[10]، وتقولُ العربُ: فُلانٌ مُثْبَتٌ وجَعًا؛ وذلك إذا لَم يَقْدِرْ على الحَرَكَةِ[11]، وأَثْبَتَهُ السُّقْمُ، أي: لَم يُفارِقْهُ[12]. وقولُ اللّه تعالَى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، يُرادُ به: تمكينُها مِنَ السَّيْرِ في الرَّمْلِ، وذلكَ بألّا تَسوخَ في ذلك الدَّهْسِ[13].

المَعْنى الإجماليُّ:

إِذْ يُلْقي اللّهُ تعالَى عَلَيْكُمُ النُّعاسَ؛ أمانًا منه لَكُم مِن عدوِّكم أَنْ يَغْلِبَكُم، ويُنَزِّلُ عليكم مِنَ السَّحابِ ماءً طَهورًا؛ لِيُطَهِّرَكُم مِنَ الأحداثِ الظّاهرةِ، ويُزيلَ عَنْكُم في الباطِنِ

(1) العسكريّ، التَّلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ص: 359.
(2) الرّاغب، المفردات: (رجز).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 50/10.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربط).
(5) الهروي، الغريبين: (ربط).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (ربط).
(7) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ربط).
(8) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (ربط).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثبت).
(10) الرّاغب، المفردات: (ثبت).
(11) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 179.
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (ثبت).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 280/9.

وساوِسَ الشَّيطانِ وخواطِرَهُ، وليشُدَّ على قلوبِكُم بالصَّبرِ عند التحام الصَّفَّيْن، ويُثَبِّتَ أقدامَ أهلِ الإيمانِ، بتَلْبيدِ الأرض الرَّمليَّة بالمَطَرِ، فلا تَنْزَلِقُ فيها الأقدامُ[1]، فقد "كانوا يتنقَّلون في حَرْبهم على كثبانٍ من رمل، تسوخ فيه الأقدام؛ فتلبَّد الرَّمل من الماء، وتثبَّتت عليه أقدامهم عند اللُّقيا"[2].

تـفـضُّـلُ الـلـهِ بالنَّوم المريح، والغيث المَريع تطمينٌ للقلوب، وتثبيتٌ للأقدام

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ حُسْنِ التَّخَلُّصِ:

في الانتِقالِ إلى قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾، إبداعٌ في نَظْمِ الآياتِ في الانتقالِ من قصَّةٍ إلى أخرَى، من أدلَّة اعتناءِ اللّه سُبحانَهُ بنبيِّه ﷺ وبالمؤمنينَ، وهذا الانتقالُ واقِعٌ بواسِطَة (إذ) الزَّمانيَّةِ، (وهذا مِن أبدَعِ التَّخلُّصِ، وهو مِن مبتكراتِ القرآنِ)[3].

عـنـايـةُ الـلـهِ تَـعـالَى بنَبيِّه ﷺ وبالمُؤْمِنينَ، ضمانٌ وتمكينٌ

عِلَّةُ فصلِ قَوْلِه: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ﴾:

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ عمّا ورد قبلُ؛ لوقوعه بدلًا من ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾، فبينَ الجملتَيْن كَمالُ الاتِّصالِ، وهذا أجوَدُ ما قيلَ في موقعِ هذه الجملَةِ بما قبلَها[4]، وغشّاهم اللّه تعالى بالنُّعاس، أي: وضعَهُ على عيونهم، كأنَّه غِشاء، وقد تحقَّق بذلك المدد السَّخيُّ من عطاءِ اللّه المعجز، ووعْدِه المنجَز، ما تجلَّى به تحقيقُ اللّهِ لِما وعَدَ به المؤمنين مِنَ النَّصر والعناية والتَّمكين[5].

بَـيـانُ كَـوْنِ الجُمْلَةِ بَدَلًا مِمّا قَبْلَها لِكَمالِ الاتِّصالِ بها

دِلالَةُ الإِيجازِ بالحَذْفِ:

يَجوزُ أَنْ تكونَ ﴿إِذۡ﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/419 - 421، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.
(2) محمّد عبد اللّطيف الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 211.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/278.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/281، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/234.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/1079.

أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾، ظرفَ زمانٍ مبنيًّا على السُّكون متعلِّقًا بفِعْلٍ محذوفٍ تقديرُهُ: اذكروا[1]، ففي الآية إيجازٌ بالحذفِ؛ فقد حُذِفَ الفعلُ وفاعلُه وهو (اذكروا)، وتقديرُ هذا الفِعْلِ يَسْتَلْزِمُ تَذْكيرًا متجدِّدًا بإفرادِ ما أنْعَمَ اللّهُ تعالَى بِهِ على أهل الإيمانِ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، وهو إنعامٌ أثير، وتكريمٌ جديرٌ، قد أبرزتْهُ العبارةُ الموجزة البليغة، بالمحذوف والمذكور، لتصوير ذلك المشهد المأثور الَّذي سُمّي يوم الفرقان، بما حملهُ مِن أحداث، وما خلَّده من مآثرَ للنَّبي والمؤمنين.

تَجدُّدُ التَّذْكيرِ بما أنْعَمَ اللهُ على المؤمنين يوجِبُ تَجْديدَ الشُّكرِ لربِّ العالمين

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في الآيَة:

في قَوْلِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾ استعارَةٌ؛ حيثُ جُعِلَ إلقاءُ النُّعاسِ عليهم بمنزلَةِ وضْعِ الغِشاءِ على العُيونِ، فصارَ كأنَّهُ غشاءٌ مِن نُعاسٍ[2]، وفي إجراءِ الاستعارةِ مَسْلَكانِ: أحدهُما: أنَّه قد شُبِّهَ إلقاءُ النُّعاسِ بوضْعِ الغشاءِ، على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة. والآخَرُ: أنَّه قد شُبِّهَ النُّعاسُ بالغطاءِ، فحُذِفَ المشبَّهُ به، ورُمِزَ لَهُ بشيءٍ مِن لوازمِه، وهو ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾، على طريقَةِ الاستعارَةِ المَكْنيَّةِ الأصليَّةِ، وفي ذلك إبرازٌ للمَعاني في صورَةِ الأشياءِ الحسّيَّة، وليكونَ أظْهَرَ في كَوْنِ ذَلِك معجِزَةً جرَتْ على خلافِ العادَة.

إبْرازُ المَعاني في صورَةِ المَحْسوساتِ مُعْجِزَةٌ جَرَتْ على خِلافِ العادَةِ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِع في: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ﴾:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِع ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ﴾، وهو في الأصلِ دالٌّ على الحالِ أوِ الاستقبالِ، والتَّغَشيَةُ أمرٌ ماضٍ، فلَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (إذ غشّاكُم النُّعاسَ أمنَةً منه)، والنُّكْتَةُ في ذلك: حكايَةُ الحالِ

إلقاءُ النُّعاسِ على المُؤمنينَ في بَدْرٍ معجزةٌ؛ لامْتِناعِهِ في المَواطِنِ المَخوفَةِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/460.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3079.

الماضيةِ[1]، استحضارًا لصورتِها العجيبَةِ؛ حيث إنَّ العادَةَ جاريةٌ بامتِناعِ النُّعاسِ في المَواطِنِ المَخوفَةِ، كالحربِ ونحوِها، ومَنْ نام في ذلك الموطن؛ فقد قرَّت عيناه، واطمأنَّ إلى عون الله، ولم يَرِدْ على باله خوفٌ هالعٌ، ولا قَلَقٌ مانعٌ، وهو ما وقع للرَّسول ﷺ أيضًا، فقد ورد «أنَّ رَسولَ اللَّه ﷺ لما كانَ يَوْمَ بَدْرٍ في العَريشِ مع الصِّدّيق، رضي الله عنه، وهُما يَدْعوانِ، أَخَذَتْ رَسولَ اللَّه سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ مُتَبَسِّمًا، فقالَ: أَبْشِرْ يا أبا بَكْرٍ، هذا جِبْريلُ على ثَناياهُ النَّقْعُ، ثُمَّ خَرَجَ مِن بابِ العَريشِ، وهو يَتْلو قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القَمَر: 45]»[2].

تَوْجيهُ القِراءاتِ في الآيةِ:

التَّكامُلُ الدَّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القرآنيَّةِ، وأثره في السّياق

في قولِ اللَّه جلَّ وعلا: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ[3]: أوّلها: ﴿إِذۡ يُغۡشِيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾، وهي قراءةُ نافعٍ وأبي جعفَرَ، على أنَّه مِنَ الرُّباعيِّ (أَغْشَى)، ومضارِعُهُ: يُغْشي، كـ: أَهْدَى يُهْدي، وفاعِلُه مستَتِرٌ جوازًا تقديرُهُ: هو، يرجِعُ إلى اللَّه سُبحانَهُ، والمعنى: إذْ يُغْشيكُمُ اللَّه النُّعاسَ، فالنُّعاسَ: مفعولٌ به ثانٍ. وثانيها: ﴿إِذۡ يَغۡشَىٰكُمُ ٱلنُّعَاسُ﴾، وقرأ بها ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو، على أنَّه مضارِعُ (غَشيَ)، فهو كـ: رضيَ يَرْضَى، و(النُّعاسُ) فاعِلُه. وثالثُها: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾، وهي قراءةُ الباقين، على أنَّه من الثُّلاثيِّ المضعَّف (غشَّى) ومضارِعُهُ: يُغَشّي، كـ: ربَّى يُرَبّي، وفاعِلُهُ مُستَتِرٌ يعودُ على اللَّهِ ﷻ. وإسنادُ الإغشاءِ أو التَّغشيَةِ إلى اللَّه سُبحانَهُ علَى القراءَةِ الأولى والثّالثَةِ لكونِه الَّذي قدَّر أن يناموا في وقتٍ لا يَنامُ الخائفُ في مِثْلِه عادَةً، ولا يكونُ النَّوْمُ عامًّا سائرَ الجيشِ، فهو نومٌ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 163/5.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 23/4، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 264/5.

(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 276/2، والبنّا الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر، ص: 296، ومحمد سالم محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 185/2 - 186.

أَكْرَمَهُمُ اللّهُ تعالَى بِهِ لفائدَتِهم، وإسْنادُ الغَشْيِ إلى النُّعاسِ على القراءة الثّانية، إمّا أن يكونَ حقيقةً باعتبارِ المُتَعارَفِ، وإمّا أن يكونَ مجازًا عقليًّا، يُرادُ به شِدَّةُ طُروءِ النُّعاسِ عليهم، حتَّى كأنَّهُ الَّذي غَشيَهُم بنفسِه، بحيثُ لَم يَقْدِروا على مُدافعتِه[1].

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في الآية:

تَسَلُّطُ النُّعاسِ على المُؤمنينَ في بَدْرٍ فِعلٌ إلهيٌّ، لا إرادةَ لهم فيه

على قراءة ابن كثيرٍ وأبي عمرٍو: ﴿إِذۡ يَغۡشَىٰكُمُ ٱلنُّعَاسُ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ بجَعْلِ النُّعاسِ فاعلًا، إمّا على طريقةِ المجازِ العقليِّ - كما تقدَّمَ - وإمّا على طريقةِ الاستعارةِ بالكنايَةِ؛ حيثُ شُبِّهَ النُّعاسُ بالشَّخصِ الذي مِن شأنِه أن يأتيَهُم، (والقرينة: ذِكْرُ الأمَنَةِ؛ لأنَّها مِن لَوازمِ المشبَّه به)[2]، وفي هذا إبرازٌ للمعنويّاتِ في قالَبِ الحسّيّاتِ، وفيه إشْعارٌ بأنَّ النُّعاسَ تَسلَّطَ علَيْهِم من غيرِ إرادَةٍ منهم لَهُ.

سِرُّ مَجيءِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِّنۡهُ﴾:

حمايةُ اللهِ تعالَى لأهْلِ الإيمانِ، وقايةٌ في اليقظةِ والمنامِ

﴿أَمَنَةٗ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ مفعولٌ لأجْلِه، أي: فعَلْتُ ما ذُكِرَ لأجلِ أَمْنِكُم، ولمّا كان هذا جاريًا على خِلافِ العادَةِ؛ جيءَ بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنۡهُ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ فِعْلَ التَّغشيَةِ صادرٌ بحِكمتِه سُبحانَهُ؛ لكونِه لا يَنامُ في مثلِ هذه الأحوالِ إلّا الآمِنُ، فاللّه ﷻ يَمْنَعُ عدوَّكُم عَنْكُم، وأنتم نائمونَ بقوَّتِه وعِزَّته سُبحانَهُ[3]، و(مِن) هنا ابتدائيَّةٌ.

تَوْجيهُ المُتَشابهِ اللَّفْظيِّ:

دِقَّةُ النَّظمِ القرآنيِّ في انتقاءِ مَواقِعِ الكَلِمِ بحَسَبِ مُقتَضياتِ الأحْوالِ

قالَ اللّه ﷻ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 154]، ووجهُ ذلك أنَّه روعيَ في كلِّ موضعٍ ما اقتضاهُ الحالُ؛ إذْ إنَّ آيةَ الأنفالِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 460/15 - 461، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 278/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 164/5.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 235/8.

تَحْكي قصَّةَ غَزوَةِ بدْرٍ، وقد كان المسلمونَ محتاجين إلى الرّاحَةِ، فقُدِّمَ ذِكْرُ النُّعاسِ، ثُمَّ بُيِّنَ أنَّ ذلك واردٌ على جِهَةِ الأمْنِ لهم، بخلافِ آيةِ آل عِمْرانَ، فهي تحْكي قصَّةَ غزوةِ أُحُدٍ، وقد ماتَ مِنَ المسلمينَ شهداءُ، وأصابَتْهُم فاجِعَةُ المعركَةِ، وحصلَ لهم فيها مِنَ الخوْفِ ما حصَلَ، فكانوا أحْوَجَ إلى الأمْنِ، فقُدِّمَ ذِكْرُ ما هُم إليهِ أحْوَجُ.

معاني الحروفِ وغَرَضُ التَّنكير:

الـمــاءُ مـرتـكـزُ الحياة، وعنوان الـتَّـطـهـير في الوجود

في قولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ﴿مِّن﴾ هنا ابتدائيَّةٌ، فالماء ابتدأ نزوله من السَّماء، و(ال) في السَّماء عهديَّة، وأفاد تنكير ﴿مَآءً﴾ هنا التَّكثيرَ والتَّفخيمَ، وقد عُطِفت ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ على ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾، والجارُّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلِّقان بـ﴿وَيُنَزِّلُ﴾، والماء عنوانُ النَّظافة والتَّطهير، "وهذا يدلُّ على أنَّ المؤمن يجب أن يظلَّ نظيفًا، رغم الوجود في المعركة الَّتي لو استمرَّ فيها الواحد منهم يومًا أو اثنين دون استحمام؛ لما لامَهُ أحدٌ على ذلك"(1)، وعليه فقوانين الحياةِ يجب أن تبقى مرعيَّةً في جميع الأحوال سواء كانت في الحرب أم في السِّلم، وفي الأحوال العادية والطّارئة.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

تَنْزيلُ الماءِ على خُـصـوصِ أهْـلِ الإيمانِ في بَدْرٍ مِـنْ مـعـجـزاتِ الله لنبيِّه

في قَوْلِه تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْكُم﴾ و﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول به ﴿مَآءً﴾، مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ اهتمامًا بالمقدَّمِ وتشويقًا إلى المؤخَّر، وذلك أنَّ تأخيرَ ما حقُّهُ التَّقديمُ، يجْعَلُ النَّفْسَ مرْتَقِبَةً لَهُ، فإذا وردَ بَعْدُ؛ تَمَكَّنَ عندها فضْلَ تمكُّنٍ، وقُدِّمَ ﴿عَلَيْكُم﴾ على ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ التَّنزيلَ عليهِم أهَمُّ مِن بيانِ كَوْنِه مِنَ السَّماءِ(2).

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4598/8.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 165/5.

التَّصَرُّفُ في صيَغِ الأفعالِ في السّياقاتِ المُتَشابِهَةِ تحقيقٌ لِمُطابَقَةِ مُقْتَضَى الحالِ

تَوْجيهُ المُتشابه اللَّفْظيِّ:

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨﴾ [الفرقان: 48]، ووجهُ المغايَرةِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأنفالِ صُدِّرت بقولِه تعالَى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾، فلمّا كان السّياقُ مبنيًّا على التَّعبير بالفِعْلِ المضارِع، لاستحضارِ الحالِ الماضيَةِ، وخاصًّا بأصحابِ النَّبيِّ ﷺ الَّذين كانوا معَهُ في غزوةِ بَدْرٍ؛ ناسبَهُ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ بالفِعْلِ المضارِع، وتصريحًا بالمُنَزَّلِ عليهم، ولمّا كانَ تَنْزيلُ الماءِ في وقتِ القتالِ من الأمورِ العجيبَةِ الَّتي مَنَّ اللهُ تعالى بها على أهلِ الإيمان؛ ناسبَهُ بيانُ الغرَضِ من هذا التَّنزيلِ؛ بما يدلُّ على استحضارِه، فقالَ جلَّ وعلا: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، فاللّام هنا للتَّعليل والمضارع لاستحضار الصّورة؛ بخلافِ آيةِ الفُرقانِ، فقد صُدِّرت بقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الفرقان: 48]، فلمّا كان التَّعبيرُ عن الإرسالِ بالفعلِ الماضي، وكان الإنعامُ متعلِّقًا بعموم الخَلْقِ؛ كان ظاهِرُ السّياقِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وأنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً)؛ ليوافِقَ الفعْلَ الَّذي قَبْلُ ﴿أَرۡسَلَ﴾، لكنْ لمّا كان المرادُ الدِّلالةَ على عظَمَةِ المُنْزِل والمُنْزَلِ؛ ناسبَهُ عدمُ ذكرِ ﴿عَلَيۡكُم﴾؛ لئلّا يوهِمَ اختصاصَهُ بقومٍ معيَّنينَ، وجاء التَّعبيرُ بإسنادِ الفعلِ الماضي إلى ضميرِ العظَمَةِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، ولمّا ذَكَرَ اللهُ تعالَى الغرضَ من إنزالِ الماءِ، بقولِه بَعْدُ: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩﴾ [الفرقان: 49]؛ كان الأنسبُ أن يَرِدَ وصفُ الماءِ، بما يُلائمُ ذلك، فجيءَ بالوصفِ على زِنَةِ المبالَغَةِ، فقال تعالى: ﴿طَهُورٗا ٤٨﴾ [الفرقان: 49].

سِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَنكُمْ﴾:

في قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، الواو: عاطفةٌ، وقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنكُمۡ﴾ على المفعول به، ﴿رِجۡزَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ اهتمامًا بالمقدَّم وتشويقًا إلى المؤخَّر، إذْ تأخيرُ ما حقُّهُ أن يُقَدَّمَ يبعَثُ في النَّفْسِ شوقًا إليه، حتَّى إذا ورَدَ بَعْدُ؛ وقع على نفسٍ مستشْرِفَةٍ لَهُ، فيمكَّن منها غايةَ التَّمكُّن[1]، وتقديم ﴿عَنكُمۡ﴾، هنا لأنَّ مدار هذه النِّعم المذكورة، إنَّما كان من أجْلِهم لا من أجْلِ غيرهم، فهم أهل هذه النِّعم ومحلُّ تحقُّقها فيهم، ويجوزُ أن يكونَ التَّقديمُ لإرادَةِ الاخْتِصاصِ، أي: إنَّ إذهابَ رِجْزِ الشَّيطانِ مختصٌّ بكُم لا يتعدّاهُ إلى غيْرِكم مِن الكُفّارِ[2]، ولا تنافيَ بينَ الدِّلالَتين؛ لأنَّ النِّكاتِ البلاغيَّةَ، تتوارَدُ، ولا تتَزاحَمُ.

تَخْصيصُ اللهِ تَعالَى أهْلَ الإيمانِ بإذْهابِ رِجْزِ الشَّيطانِ عنهمْ

نُكْتَةُ البَدْءِ بذِكْرِ التَّطْهيرِ في قَوْلِه: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾:

ابتُدِئَ في ذِكْرِ فوائدِ الماءِ بالتَّطهير، قبلَ ذِكْرِ إذهابِ رِجْزِ الشَّيطانِ، لنُكْتَتَيْن: إحداهُما: أنَّ التَّطهيرَ مقرِّبٌ مِن صفاتِ الملائكَةِ المقرَّبينَ[3]، والأخْرَى: أنَّه بُدِئَ بما كانوا إليهِ أحْوَجَ، وذلك لفقْدِهمُ الماءَ الَّذي به يتطهَّرون لصلاتِهم، فلمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى غايةً مِن غاياتِ إنزالِ الماءِ، وهو الطَّهارَةُ الظّاهِرَةُ؛ زادَهُم في الفضْلِ بأنْ طهَّر بَواطِنَهُم مِن وساوسِ الشَّيطانِ.

أنْزَلَ اللهُ الماءَ للطَّهارَةِ الظّاهِرَةِ؛ وطَهَّرَ بَواطِنَ المؤمنين مِنَ الأرجاسِ العابرة

بلاغةُ المَجازِ المُرْسَلِ:

الرِّجْزُ في الأَصْلِ: العذابُ، وقولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، أي: وَسْوَسَتُهُ وكَيْدُهُ، وسُمّيَتْ وسوسَةُ الشَّيطانِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 236/8.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 236/8.

من رَحْمَةِ اللهِ تعالَى بأهْلِ بَدْرٍ عِصْمَتُهم مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم، ورجزه الأثيم

وَسْوَسَةُ الشَّيْطانِ: من أكبرِ الأرجاس المُفْتَقِرَةِ إلى التَّطْهيرِ

وكَيْدُهُ رِجْزًا؛ لكونِ ذلك سببًا في العذابِ[1]، ففي الآيةِ مجازٌ مرسَلٌ، علاقَتُهُ: المسبَّبِيَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ المُسَبَّبُ وأُرِيدَ السَّبَبُ؛ ونُكْتَةُ ذلك: الإيماءُ إلى عَدَمِ نفيِ مطْلَقِ الوسوسَةِ، وإنَّما نُفيَ التَّأَثُّرُ بها المؤدّي إلى العذابِ.

تَوْجيهُ المُتَشابه اللَّفْظِيِّ:

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]، ووجهُ المغايَرةِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأنفال صُدِّرت بقولِه جلَّ وعلا: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، فلمّا ذُكِرَ الماءُ؛ كان الأنسبُ تقديمَ ما يتعلَّقُ به وهو الطَّهارَةُ، ولمّا كان يسْبِقُ ذلك قولَهُ تعالَى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾ [الأنفال: 5 - 7]، وكان ذلك من وسوَسَةِ الشَّيطانِ، وكانت وسوَسَتُهُ من أعظَمِ القذَرِ؛ ناسبَهُ قولُهُ بعدُ: ﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ بخلافِ آيةِ الأحزابِ، فإنَّها وارِدَةٌ في سياقٍ أكثَرَ تعلُّقًا بتخليَةِ نساءِ النَّبيِّ ﷺ من كُلِّ ما يشينُهُنَّ أو يحطُّ قدْرَهُنَّ؛ ناسبَهُ تقديمُ إذهابِ الرِّجْسِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب: 33]، ولمّا كان التَّطهيرُ معنويًّا لَم يُنَصَّ على وسيلَتِه الحسِّيَّةِ، وهيَ الماءُ، وأُكِّدَ الفعلُ إشْعارًا بتمامِ النِّعْمَةِ، فقال ﷻ: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33].

---

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/11.

مِــن أعـظَـمِ المَـقـاصِـدِ في مَـواقِـعِ قِـتـالِ الكُـفَّارِ: الرَّبْطُ عـلى قُـلـوبِ المُؤمِنينَ

نُكْتَةُ تَكْرارِ اللّامِ في قَوْلِه: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم﴾ ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾:

كُرِّرَتِ اللّامُ في (لِيَرْبِطَ) مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، وكان يُمْكِنُ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ويربِطَ على قلوبِكُمْ)، وإنَّما أُعيدَتِ اللّامُ للإشْعارِ إلى أنَّ الرَّبْطَ على القلوبِ هو المقصدُ الأعْظَمُ، وما ذُكِرَ قَبْلَهُ بمنزِلَةِ الوسيلَةِ إليهِ، وما ذُكِرَ بعدَهُ مِنَ التَّثْبيتِ بغيرِ لامٍ في قولِه: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾؛ لكونِه لازمًا للرَّبْطِ المذكورِ آنِفًا[1].

الـرَّبْــطُ عـلى الـقُـلـوبِ لُـطـفٌ مـن الـلـهِ عـلّامِ الغيوب

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ:

الرَّبْطُ في الأصلِ هو الشَّدُّ، وهو حقيقةٌ في الأجسامِ، وقد استعير في قولِ اللّه تعالَى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ لِما حصَلَ في القَلْبِ مِنَ الشَّدِّ والطُّمأنينَةِ بعدَ التَّزَلْزُلِ[2]، وهذا جارٍ على طَريقَةِ الاسْتِعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، ونكتَتُها: تصويرُ السُّكونِ والصَّبْرِ اللَّذَيْنِ أنْعَمَ اللّهُ سُبحانَهُ بهما عليهم في قالَبِ المحسوسِ؛ ليَكونَ أقربَ للذِّهْنِ، وأمْكَنَ في النَّفْسِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ الاستعارةُ مكنيَّةً أصليَّةً، وإجراؤُها: أنَّه شُبِّهَتِ القُلوبُ بالأوعيةِ الَّتي مُلِئَتْ شيئًا، ثُمَّ رُبِطَ رأسُها؛ لئلّا يخْرُجَ منها ذلك الشَّيءُ الَّذي وُضِعَ فيها، فحُذِفَ المشبَّهُ به، وهو الأوعيَةُ، وتُرِكَ شيءٌ من لوازمِها وهو الرَّبْطُ؛ مبالغةً في تصويرِ سكونِ القلوبِ، بلُطْفِ اللّهِ تعالَى، حتَّى امتلأتْ من كُلِّ خيرٍ، وثبتَ فيها الرَّبْطُ[3].

مِـن رَبْـطِ اللـهِ عـلى قُـلـوبِـهـم أنْ طـهَّـرهـم مِـن ذنـوبِـهـم، ونَـصَـرهـم على عدوِّهم

دِلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (على) في قَوْلِه: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾:

حرفُ الجرِّ (على) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ دالٌّ على الاسْتِعلاءِ - كما هو الأصْلُ فيه - ووجْهُ ذلك: أنَّ الرَّبْطَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/237.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/283.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/236.

على القلوبِ لمّا كان ربطًا مُحكَمًا غالبًا؛ جاءَ التَّعبيرُ عنه بحرفٍ دالٍّ على الاستِعْلاءِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ﴾[1]، والمعنى: أنَّ قلوبَهُمْ امْتَلأَتْ من ذلك الرَّبط حتَّى كأنَّهُ علا عَليْها، وذلك مُشْعِرٌ بغايةِ التَّمكُّنِ[2].

بلاغةُ الكِنايَةِ في قَوْلِه: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾:

تَثْبيتُ اللهِ تَعالَى أقْدامَ أهْلِ الإيمانِ في بَدْرٍ تَثْبيتٌ في الظَّاهرِ والباطنِ

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾، يُرادُ به حقيقةُ ما دلَّ عليه هذا اللَّفظُ، مِن تثبيتِ أقدامِ المُؤْمنين بتَلْبيدِ المَطَرِ الرَّمْلَ لئلّا تَسوخَ فيهِ أقْدامُهُم، وحَوافِرُ دوابِّهم، كما يدلُّ عليه سببُ نُزولِ الآياتِ، وهو إجماعُ أهلِ العِلْمِ بالتَّفسيرِ[3]. وذهبَ جماعَةٌ مِن أهلِ العربيَّةِ - كأبي عُبيدَةَ معمرِ بنِ المُثَنَّى - إلى أنَّ المرادَ بتثبيتِ الأقدام: هو إفراغُ الصَّبْرِ عليهم؛ ليَثْبُتوا لِعَدوِّهم[4]، فيَكونُ التَّعبيرُ بتثبيتِ الأقدامِ واردًا على سبيلِ الكِنايةِ على الصَّبْرِ والصُّمودِ في وجهِ العُدوِّ، فلا يحصُلُ منهم فرارٌ وقتَ القتالِ[5]، ولا رَيْبَ أنَّ المعنى الأوَّلَ أظْهَرُ، ولَكِنْ لا يَمْنَعُ ذلك أن يُرادَ المعنى الكِنائيُّ مضمومًا إلى المعنَى الحقيقيِّ، بل إنَّ ذلك يُؤيِّدُهُ ويقوّيه، فتكون دلالَةُ الآيةِ على الكِنايَةِ وارِدَةً على وجهِ التَّبَعِ للمعنَى الحقيقيِّ.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في قَوْلِه: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾:

أثَرُ تَعْيينِ مَرْجِعِ الضَّميرِ في وفْرَةِ المَعَاني القرآنيَّةِ

الباءُ للسَّببيَّةِ والضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ من قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾، يجوزُ أنْ يَرْجِعَ إلى الماءِ، فيكونَ التَّثبيتُ حسّيًّا، أو إلى ربْطِ القلوبِ، فيكونَ تثبيتُ الأقْدامِ عِبارَةً عَنِ النَّصرِ والإعانَةِ في مَواطنِ الحربِ، والأوَّلُ أظْهَرُ، ويُستفادُ المعنى الآخَرُ بطريقِ الكنايَةِ -كما تقدَّمَ-.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 236/8.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 298/2، والآلوسيّ، روح المعاني: 165/5.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 427/13 - 428.
(4) معمر بن المثنى، مجاز القرآن: 242/1.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 283/5.

دِلالَةُ (ال) في ﴿ٱلۡأَقۡدَامَ﴾:

مُراعاةُ التَّناسُبِ الصَّوْتيِّ والمَعْنَويِّ بين خَواتيمِ الآياتِ القرآنيَّةِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾، عِوَضٌ عَنْ مُضافٍ إليهِ، والأصلُ: ويُثَبِّتَ به أقدامَكُم، فحُذِفَ المضافُ إليه، وعوِّضَ عنه اللّام؛ ليكونَ ذلكَ مُلائمًا للتَّناسُبِ الصَّوْتيِّ بينَ أواخِرِ الآيِ، بخلافِ ما لَوْ وردَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَيُثَبِّتَ به أقْدامَكُمْ)، ويمكنُ أن يُقال: إنَّ اللّام عهديَّةٌ ذهنيَّة، والمراد منها أقدام المؤمنين دون غيرهم، فقد امتنَّ اللّه على عباده المؤمنين، بتطهيرهم من الأحداث الظّاهرة، وإزالة ما في بواطنهم من وساوس الشَّيطانِ الخطرة، والرَّبطِ على قلوبهم بالصَّبر عند المنازلة، وتثبيت أقدام المؤمنين، بتلبيد الأرض الرَّمليَّة المائجة، بالمطر حتَّى تثبتَ فيها الأقدام، ولا تنزلق[1].

الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

النُّعاس والسِّنَة والنَّوْمِ:

النُّعاسُ والسِّنَةُ والنَّومُ جميعها غـفـوةٌ وغشية عن الوعي

السِّنَةُ: ثِقَلُ النُّعاسِ، والنَّوْمُ: الغَشْيَةُ الثَّقيلَةُ الَّتي تقطَعُ القلبَ عَن معرفتِه بالأمورِ الظّاهِرَةِ[2]، وفرَّق بينَها بعضُ أهل العلم: بأنَّ السِّنَةَ مِنَ الرَّأْسِ، والنُّعاسَ في العَيْنِ، والنَّوْمَ في القَلْبِ[3]، والحاصِلُ: أنَّ النُّعاسَ والسِّنَةَ مبادئُ النَّوْمِ.

الشَّيْطان وإبْليس:

يَرِدُ لفظُ (إبْليس) في القرآنِ الكَريمِ مُرادًا به اسمُ عَلَمٍ على الَّذي امْتَنَعَ مِنَ السُّجودِ لآدَمَ ﵇، كما في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]، وهو مشتَقٌّ مِنَ الإبْلاسِ، وهو شِدَّة اليأْسِ؛

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 283/5.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 349/4.
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نوم).

إبليسُ هو زعيمُ الشَّياطين، ورائدُهم في كلِّ فِعلٍ مُشين

لأنَّ اللّه سُبحانَهُ آيسَهُ مِن كُلِّ خيرٍ، أمّا الشَّيطانُ؛ فيقَعُ وصفًا لكلِّ عاتٍ متمرِّدٍ مِنَ الجنِّ والإنسِ والدَّوابِّ، فلفظُ الشَّيطانِ أعَمُّ مطلقًا مِن إبليسَ[1].

الرِّجْز والرِّجْس:

الرِّجسُ يؤدّي إلى الرِّجز، وكلاهما مُستقبَحٌ مَرْذول

الرِّجْزُ والرِّجْسُ متَقارِبانِ لفظًا ومَعْنًى، فإنَّ الرِّجْزَ يدلُّ على اضطِرابٍ، والرِّجْسَ يدلُّ على اختلاطٍ، إلّا أنَّ الرِّجْزَ في القرآن الكريم اختصَّ بالعذاب، بخلافِ الرِّجْسِ فإنَّه يغلِبُ في التَّعبير عنِ القذَرِ حسّيًّا كان أو معنويًّا؛ لِما في القذَرِ من اللَّطْخِ والخَلْطِ، والرِّجْسُ وإن استُعمِلَ في القرآن الكريم مرادًا به العذابُ، كما في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ [الأعراف: 71]، إلّا أنَّهُ قد جُعِلَ ما أفضَى إلى العذابِ رجسًا؛ استقذارًا لَهُ، فلَم يخْرُجْ عَنْ أصلِ دِلالَتِه، أمّا الرِّجْزُ؛ فلا يَخْرُجُ عَن معْنَى العذابِ، وذلك لِما يُتَصوَّرُ فيه من اضطرابٍ وحركَةٍ وجلَبَةٍ؛ إذِ العذابُ النّازلُ لا بُدَّ فيه لِلْمنزولِ بهم، مِن أن يَضْطَرِبوا لأجْله، وثَمَّ مَلْمَحٌ دِلاليٌّ بين الرِّجْزِ والرِّجْسِ، يومئُ إليهِ الحرفانِ اللَّذانِ وقعَ فيهما الاختلافُ بين الكَلِمَتَيْن وهما الزّايُ والسّينُ؛ فإنَّ الرِّجْزَ اختصَّ بالعذابِ؛ لِما في الزّاي مِنَ الجهرِ، والجَهْرُ من صفاتِ القوَّةِ في الحروفِ، فهو بهذا الاعْتِبارِ أقوَى مِنَ السّين الَّتي من صفاتِها الهمسُ - وهو أي: الهمسُ - من صفاتِ الضَّعْفِ، فاختصَّ الرِّجْسُ بما لَيْسَ في مَعناهُ مِنَ الشِّدَّة الَّتي في الرِّجْزِ[2].

---

(1) محمّد ياس خضر الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 155 - 156.

(2) محمّد ياس خضر الدّوريّ، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 336 - 358.

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين تثبيتِ اللهِ للقلوب والأقدام، وبَين دعم الصَّفوة من الملائكة الكرام

لَمّا ذَكَرَ اللّهُ سُبحانَهُ حِكْمَةَ إمدادِه أهلَ الإيمانِ بالملائكةِ، وما تَلاهُ مِنَ الآثارِ المُثَبِّتَةِ لِلقُلوبِ والأَقْدامِ؛ ذَكَرَ في هذه الآيَةِ ما أمَرَ به ذلك المَدَدَ مِنَ التَّثْبيتِ بالقَوْلِ والفِعْلِ، فقال ﷻ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾[1]، وذلك "بأن يُثبِّتوا المسلمين، ويُقووا قلوبهم، فيلهموهم تَذكُّر وعْدِ اللّه لرسوله بالنَّصر، وأنَّه تعالى لا يُخلف الميعادَ، وأنَّه تعالى سيجعل الرُّعب يستولي على قلوب المشركين فيصيبهم الفَزَعُ"[2]، وفي ذلك دعمٌ لأوليائه، ودحرٌ لأعدائه، كما وعَدَ في كتبِهِ المنزلة، وشرائعه المرسلة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوحِي﴾: الواوُ والحاءُ والحرفُ المعتَلُّ، تدورُ تصاريفُهُ على إلقاءِ عِلْمٍ على وجْهِ الإخفاءِ، ومنه: الوحيُ؛ وهو الإشارَةُ، وكلُّ ما ألقاهُ أحدٌ إلى غيرِه حتَّى عَلِمَهُ؛ فهو وحْيٌ[3]، وأصلُ الوَحْيِ: الإشارَةُ السَّريعَةُ[4]، والوَحيُ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ يكونُ بالإنْباءِ، ويكونُ بالإلهامِ[5]، وسُمّيَ ما يوحيه اللّهُ تعالى إلى أنبيائه وحيًا؛ لأنَّ الملَكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 237/8.
(2) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 173.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحى).
(4) الرّاغب، المفردات: (وحى).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وحي).

أخفاهُ عَن جَميعِ الخَلْقِ، وخصَّ به النَّبيَّ المَبْعوثَ إليه[1]، ومعنى قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يُوحِى رَبُّكَ﴾: يُلْقي إليهم مِن وجْهٍ يَخْفَى[2].

2) ﴿فَثَبِّتُواْ﴾: الثّاءُ والباءُ والتّاءُ، تدلُّ اشتقاقاتُها على دوامِ الشَّيءِ[3]، ومنه الثَّباتُ وهو ضِدُّ الزَّوالِ، ويُطْلَقُ الثَّباتُ علَى النَّفْسيِّ، بمعنَى: سُكونِ القَلْبِ[4]. والتَّثْبيتُ مصدَرٌ بزِنَةِ التَّفعيلِ، وهو دالٌّ على الجَعْلِ، فقولُ القائلِ: ثبَّتَهُ، أي: جَعَلَهُ ثابتًا، ومنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾، فإنَّ المرادَ بالتَّثبيتِ: إزالَةُ الاضْطِرابِ النَّفْسيِّ[5].

3) ﴿ٱلرُّعْبَ﴾: الرّاءُ والعينُ والباءُ، تدلُّ كثيرٌ مِن تصْريفاتِها على معنى الخَوْفِ[6]، والرُّعْبُ: الخَوْفُ والفَزَعُ، تقولُ: رَعَبْتُهُ فهو مرعوبٌ؛ إذا أفْزَعْتَهُ[7]، وفُسِّرَ الرُّعْبُ بأنَّه أشدُّ الخَوْفِ لا مُطْلَقُهُ[8]، وقال الرّاغبُ: (الرُّعْبُ: الانْقِطاعُ مِن امْتلاءِ الخَوْفِ)[9]، والرُّعْبُ في قولِ اللهِ تعالَى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ هو الخَوْفُ الشَّديدُ الذي يَمْلَأُ القَلْبَ[10].

4) ﴿بَنَانٖ﴾: الباءُ والنّونُ، تدلُّ علَى امْتِدادِ الشَّيْءِ اللَّطيفِ مِن أصْلِه أو فيه، ومنه البَنانَةُ، وهو: طَرَفُ الإصْبعِ، سُمّيَ بذلك، لأنَّه يَبْدو امْتِدادًا لِأصْلِه، معَ لُطْفِ هذا الامْتِدادِ؛ حَيْثُ لا يَظْهَرُ الفاصِلُ بينَ الأناملِ[11]. والبَنانُ جمعٌ، مفردُهُ: بنانَةٌ[12]، والبنانُ قد يُطْلَقُ علَى الأطرافِ مِنَ اليَدَيْنِ والرِّجْلَيْنِ[13]. والتَّحقيقُ عندَ أهلِ اللُّغَةِ: أنَّ البنانَ أطرافُ الأصابعِ، والأشهَرُ إطلاقُها علَى أطْرافِ أصابعِ اليَدِ خاصَّةً[14].

(1) الأنباريّ، الزّاهر: 341/2.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 52/10.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثبت).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثبت).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 281/9.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رعب).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (رغب).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (رعب).
(9) الرّاغب، المفردات: (رعب).
(10) رشيد رضا، تفسير المنار: 509/9.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بنن).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بنّ).
(13) الواحديّ، التّفسير البسيط: 55/10.
(14) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 553/4 - 554.

المَعنى الإجْماليُّ:

إذْ يوحي ربُّكَ - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - إلى الملائكَة الذينَ أمدَّ اللّهُ تعالَى بهم أهلَ الإيمانِ في غَزْوَةِ بَدْرٍ: أنِّي معَكُم؛ أُعينُكُم وأنْصُرُكم، فقَوّوا عزائِمَ المُؤْمِنينَ، سَأُلقي في قلوبِ الذينَ كفَروا الخَوْفَ الشَّديدَ والذِّلَّة والصَّغار، وأملؤُها فرَقًا حتَّى ينهَزِموا عَنْكُم، فاضْرِبوا - أيُّها المُؤْمِنونَ - رُؤوسَ الكُفّار، واضْرِبوا منهم أطرافَ الأصابِعِ الَّتي بها إحكامُ قبضَةِ السِّلاحِ[1]، وهذه نِعْمَةٌ خفيَّةٌ، أظْهَرها اللّه تعالى للمؤمنين، كيما يشكروه على ما خبَّأ لهم من نُصرةٍ ودَعْمٍ وتأييد، بوحيه العلويِّ إلى الملائكة الَّذين أرسلهم لهذه المهمَّة العظمى، ليقوموا بتقويَةِ القلوب، والتَّذكيرِ بوَعْدِ علّام الغيوب الَّذي تعهَّد بنصر رسلِه والمؤمنين، وذلك ما لا ريب فيه؛ لأنَّ اللّه لا يخلف الميعاد، وقد أظهر ذلك في غزوة بدرٍ، كما أمَرَ وأراد[2].

الــوحــيُ إلى الملائكة بتثبيتِ المؤمنين بالإيقانِ بنصر أوليائه ودحرِ أعدائه

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ قَوْلِه: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا، فـ (إِذْ) في موضعِ نصبٍ بفعلٍ محذوفٍ، تقديره: اذكُرْ[3]، وجَوَّزَ بعضُ أهلِ العِلْمِ أن يكونَ بَدَلًا ثالثًا من ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ﴾[4]، إلّا أنَّ في هذا التَّجويزِ نظرًا؛ إذْ يُبْعِدُهُ تخصيصُ الخِطاب بالنَّبيِّ ﷺ[5]، وكَوْنُ الجملةِ مستأنفةً أقْوَى.

تَـخْـصـيـصُ الخِطابِ بالنَّبيِّ القـدوةِ ﷺ بَعْدَ تَعْميمِه لِلْمُؤْمِنينَ

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في قَوْلِه: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

﴿إِذۡ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، ظرفُ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/428 - 431، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 173.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/10.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/237.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/165.

التَّذْكيرُ المُتجدِّدُ بمضمون الوَحْي، يوجِبُ تَجْديدَ شُكْرِ اللهِ تَعالَى عليه

زمانٍ مبنيٌّ علَى السُّكون متعلِّقٌ بفِعْلٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: اذكُرْ، مرادًا بِه النَّبيُّ ﷺ، فيكونُ في الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذْ قد حُذِفَ الفعلُ وفاعلُه، وهو (اذْكُرْ)، وتقديرُ هذا الفِعْلِ يَسْتَلْزِمُ تَذْكيرًا متجدِّدًا بمضمونِ هذا الوَحْي.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ في قَوْلِه: ﴿إِذۡ يُوحِي﴾:

عَظيمُ مِنَّةِ اللهِ تَعالَى على أهْلِ الإيمانِ في بَدْرٍ الكبرى

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُوحِي﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وهو دالٌّ في الأصْلِ على الحالِ أوِ الاسْتِقبالِ، وهذا الإيحاءُ الخاصُّ أمرٌ ماضٍ؛ لكونِ السّورَةِ نازلَةً بعد وقْعَةِ بَدْرٍ، ومعَ ذلك، فإنَّ النَّظْمَ القرآنيَّ لَم يَرِدْ: (إذ أوحَى ربُّكَ إلى الملائِكَةِ)، ونُكْتَةُ ذلك: حكايَةُ الحالِ الماضيةِ اسْتِحْضارًا لِعَظيم المِنَّةِ بها.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ (الرَّبِّ) في قَوْلِه: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ﴾:

دَفْعُ الصَّوارِفِ عنِ الإيمانِ مِنَّةُ اللهِ تَعالَى على عِبادِه في كلِّ آنٍ

في التَّعبيرِ بالاسْمِ الأحْسَنِ (الرَّبِّ) في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إشعارٌ بأنَّ إيحاءَ اللّهِ تعالى إلى الملائكَةِ بتثبيتِ أهلِ الإيمانِ هو مِن مقتضَياتِ رُبوبيَّتِه وإحسانِه بهمْ[1]، وهَذِه تربيَةٌ خاصَّةٌ؛ لأنَّ فيها دَفْعًا للصَّوارِفِ والعوائقِ الحائلَةِ بينَهُم وبينَ الإيمانِ.

نُكْتَةُ إضافَةِ اسْمِ الرَّبِّ إلى ضَميرِ الخِطابِ في قَوْلِه: ﴿رَبُّكَ﴾:

لُطْفُ اللهِ تَعالَى بنَبيِّه المصطفى، والتَّنْويهُ بقدره الأوفَى

أُضيفَ الاسمُ الأعظم (الرَّبّ) إلى ضميرِ الخطابِ المُرادِ به النَّبيُّ ﷺ، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ لِنُكْتَتَيْنِ[2]: إحداهُما: مُلاءَمَةُ ما تقدَّم مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: 9]، والأُخْرَى: فيه من التَّنويه بقدرِ النَّبيِّ ﷺ، إيماءً إلى أنَّه فعَلَ ذلك لُطفًا به، ورفعًا لشأنِه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/237.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/280.

سِرُّ تَخْصيصِ الخِطابِ بالنَّبيِّ الأوّاب في قَوْلِه: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ﴾:

تخصيصُ النَّبيِّ بالخطابِ وحدَهُ تكريمٌ لجنابه الكريم وهَدْيِهِ

خُصَّ الخطابُ بالنَّبيِّ ﷺ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، بعد تعميمِه قبْلُ، في نَحْوِ قولِه تعالَى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ﴾، وقولِه ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، وذلك أنَّ في هذهِ أشياءَ لا تُناسِبُ مقامَ النُّبوَّة، ولكِنْ لمّا وردَ ذِكْرُ الوَحْيِ إلى الملائِكَةِ؛ جيءَ بالخِطاب للنَّبيِّ ﷺ؛ تشريفًا لَهُ وتَكْريمًا بمواجَهَتِه بالخِطابِ وحْدَهُ[1]، وفيه تلطُّفٌ به ﷺ، حيثُ كانَتْ هذه الآيةُ مُفصِّلَةً عملَ الملائكَةِ في بَدْرٍ، وما خاطبَهُم اللهُ تعالَى به، فكان تخصيصُ الخطابِ بالنَّبيِّ ﷺ أحْرَى؛ لكونِه أحقَّ مَنْ يَعْلَمُ هذا العِلْمَ، ثُمَّ يحصُلُ لِلْمُسْلِمينَ هذا العِلْمُ تَبَعًا لهُ[2]، وقد "خوطب به النَّبيُّ ﷺ بطريق التَّجريد، حسبما تنطِق به (الكافُ)، لِما أنَّ المأمورَ به، ممّا لا يستطيعه غيرُه ﷺ، فإنَّ الوحيَ المذكورَ، قبل ظهورِه بالوحي المتلوِّ على لسانِه ﷺ، ليس من النِّعم الَّتي يقف عليها عامَّةُ الأمَّةِ"[3].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

مُشارَكَةُ المَلائِكَةِ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، كانت إمّا قِتالًا وإمّا مَدَدًا وتَأْييدًا

اللّامُ في ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ من قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، يُرادُ بها العَهْدُ العِلْميُّ، وهمُ الملائكَةُ الَّذينَ شاركوا المُسلمينَ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، سواءٌ أكان ذلك على جِهَةِ القِتالِ أم على جِهَةِ المَدَدِ والتَّأييدِ، وجدير بالذِّكر أنَّ اللهَ تعالى، قد أوحى إلى الملائكة أنْ يُثَبِّتوا المؤمنين، بنصرهم وتبشيرِهم بالنُّصرة،

وقد روي أنَّ الملائكة يتشبَّهون بالرِّجال الَّذين يعرفونهم بوجوههم، ويمشون بين الصَّفين يوم بدر، فيقول أحدهم: أبشروا فإنَّ اللهَ تعالى ناصرُكم"[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 284/5، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/4.

(2) ابن عاشو، التّحرير والتّنوير: 280/9.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/4.

(4) الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 419/1.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ عمّا قبلها:

مضمونُ الإيحاء هو معيَّةُ الله القريبُ الَّتي من اعتمدَ عليها لا يخيب

فُصِلت هذه الجملةُ عن سابقتها، إمّا لكمال اتِّصالها بها؛ لأنَّها بدلٌ منها ومفسِّرةٌ لها، أو للاستئناف البيانيِّ جوابًا عن سؤال مقدَّرٍ في الذِّهن: ماذا أوحى اللّه إلى الملائكة؟ ومفاد ذلك قوله له: "اذكر - أيُّها النَّبيُّ - ومن معك، وحيَ اللّه تعالى المستمر الَّذي لا ينقطع إلى الملائكة، أنَّ اللّه معكم أيُّها الملائكة، في تأييدهم للمؤمنين، فهو سبحانه ﷻ في ملكوته الأعلى، معكم في تأييد المؤمنين وتثبيت قلوبهم"[1].

سِرُّ التَّأْكيدِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾:

تَأْكيدُ مَعيَّةِ اللهِ تَعالَى لِأَهْلِ الإيمانِ نصْرٌ وتأييد وأمان

أُكِّدت جملةُ تفسيرِ الإيحاءِ بـ (أنَّ)، والجملة الاسميَّةِ في قوله ﷻ: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ تأكيدًا لحصولِ معيَّة اللّه تعالى لأهل الإيمانِ، بنَصْرِهم وتأييدِهم، وطَمْأنَةً لِقلوبهم لِيَشْتَدَّ ثباتُهُم عند لِقائِهم عَدوَّهُم.

بَلاغَةُ الالتِفات:

التَّصريح بالتَّكَلُّمِ أبلَغُ في تَحْقيقِ العَظَمَةِ والسُّموِّ والمَهابَةِ

في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيبَةِ إلى التَّكلُّم، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ﴾ وارِدٌ علَى أُسلوبِ الغَيْبَةِ؛ إذِ الاسْمُ الظّاهرُ بمنزلَةِ الغَيْبَةِ، ثُمَّ حوِّلَ التَّعبيرُ إلى التَّكلُّم في قوله تعالَى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، وقد كان مُقْتَضَى الظّاهرِ: (إذْ يوحي ربُّكَ إلى المَلائكةِ أنَّهُ معكُمْ)، ونُكْتَةُ العدولِ مِنَ الغَيْبَةِ إلى التَّكلُّمِ: ما في التَّصريحِ بالتَّكلُّم مِنَ العَظَمَةِ والبرَكَةِ والمَهابَةِ.

دِلالَةُ المَعيَّةِ في قَوْلِه: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾:

مِن مَعيَّةِ اللهِ تَعالَى لِأَهْلِ الإيمانِ: إزالَةُ الخَوْفِ عنهم

المَعيَّةُ في قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾، جائزٌ أنْ يكونَ المرادُ، أنَّ اللّه تعالَى أوحَى إلى المَلائِكَةِ، أنَّهُ معَهُم حالَ إرْسالِهم رِدْءًا لِلْمُسْلِمينَ، ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ: أنَّ اللّه ﷻ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3080.

أوحى إلى الملائِكَة أنّه معَ المُؤْمِنينَ. والثّاني أظْهَرُ؛ لأنَّ المَقْصودَ مِن هذا الكَلامِ إزالَةُ الخَوْفِ، والملائِكَةُ لَم يخافوا مِنَ الكُفّارِ حتَّى يُحتاجَ إلى إزالتِه منهمْ(1).

دِلالَةُ (الفاءِ) في قَوْلِه: ﴿فَثَبِّتُوا۟﴾:

إِمْـدادُ الـلـهِ تَـعـالَى عِـبـادَهُ بـالمَـلائِـكَـةِ مِـن أقْـوَى موجِباتِ التَّثْبيتِ

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ يُرادُ بها تَرْتيبُ ما بعدَها علَى ما قَبْلَها؛ وذلك أنَّ إمدادَهُ سُبحانَهُ إيّاهُم مِن أقْوَى موجباتِ التَّثبيتِ(2)، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الفاءُ فصيحةً، فقد أفْصَحَت عن شَرْطٍ مقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا كان اللّه سُبحانَهُ معكُم في هذا التَّأْييدِ، فثبِّتوا الَّذين آمنوا(3)، وهذا علَى القَوْلِ بأنَّ المعيَّةَ للملائِكَةِ وهو خِلافُ الأولَى.

بَراعَةُ المَجازِ في قَوْلِه: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾:

المُـرادُ بالتَّثْبيتِ إزالَةُ الاضْطِرابِ النَّفْسيِّ النّاشِئِ عَـنِ الـخَـوْفِ والاضطراب

التَّثْبيتُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ مجازٌ في إزالَةِ الاضْطِرابِ النَّفسانيِّ الَّذي ينشَأُ عن الخَوْفِ وعَدمِ استقرارِ الرَّأْيِ واطمئنانِه(4)، والمطلوب بتثبيت الَّذين آمنوا، أنْ "قوّوا عزائم المؤمنين، وثبِّتوا قلوبَهم، أي: اجعلوا قلوبهم، كأنَّها مربوطةٌ عليها، فلا يخافون أيَّةَ أغيارٍ مِن عدوِّهم"(5).

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ في قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾:

العِنايَةُ الإلَهيَّةُ بالمُؤْمِنينَ، تَكونُ بقدرِ ما حَصَّلوهُ مِنَ الإيمانِ

عُرِّفَ المُثَبَّتونَ بالاسْمِ المَوْصول (الّذي) في قَوْلِه ﷻ: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾؛ لِما تدلُّ عليه جُمْلَةُ الصِّلَةِ ﴿ءَامَنُوا۟ۚ﴾ مِن التَّعليل، فإيمانُهم هو الباعِثُ على هذه العنايَةِ(6)، وفي هذا حثٌّ على تحْصيلِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 463/15.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/4.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3080/6.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 281/9.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4600/8.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 281/9.

هذا الوَصْفِ ليَتَحقَّقَ لأصحابِها مِنَ العنايَةِ بقدرِ ما حصَّلوهُ منه، وهو يقول للمؤمنين: "إيّاكم أنْ تظنّوا أنَّ كثرةَ العدَدِ أو قوَّةَ العُدَدِ، هي الَّتي تَصْنعُ النَّصرَ، بل النَّصرُ دائمًا من عند اللّه تعالى وهو سبحانه القائل: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 249]"[1].

عِلَّةُ فصْلِ قَوْلِه: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

كِفايَةُ اللهِ سُبْحانَهُ المُسْلِمينَ تَخذيلَ الكافِرينَ، بما لا يدخل في مهمَّة الملائكةِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه بيانًا، فبينه وبينَ ما قَبْلَهُ كمالُ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، واردٌ على سَبيلِ بيانِ المعيَّةِ في قولِه قَبْلُ: ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ﴾[2]. ويُجوزُ أن تكونَ الجُمْلَةُ استئنافًا ابتدائيًّا جاريةً مجرَى التَّعليلِ، لإفادَةِ التَّثبيتِ[3]، والأظْهَرُ أنَّ هذا الاسْتِئنافَ مُرادٌ به إخبارُهم بما يَقْتضي التَّخفيفَ عَنْهم في العملِ الَّذي أمَرَهم اللّهُ تعالى به؛ وذلك بأنْ كفاهُمُ اللّهُ سُبحانَهُ تخذيلَ الكافِرينَ بعمَلٍ آخَرَ غيرِ الَّذي أمَرَ به الملائكَةَ، وعلَى هذا فليستِ الجملَةُ بيانًا للمعيَّةِ في قولِه: ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ﴾[4].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿سَأُلۡقِي﴾ دونَ (سَنُلْقي):

قَهْرُ اللهِ يرعب الجبابرة والكفرة، وأصحاب العتوِّ والطُّغيان والأَثَرة

في قولِه: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿سَأُلۡقِي﴾ دون (سَنُلْقي)، مع أنَّ النّونَ أدْخَلُ في الدِّلالَةِ على التَّعظيمِ؛ دفعًا لِتوهُّمِ أنْ يكونَ لِلْملائكَةِ المخاطَبينَ سببٌ في إلْقاءِ الرُّعْبِ في قلوبِ الكافرينَ[5]، وما في ﴿سَأُلۡقِي﴾ مِنَ الإشعارِ بعَظَمَةِ هذا الإلْقاءِ؛ إذْ تكفَّلَ اللّهُ تعالى به، فعظَمَةُ اللّه كفيلةٌ بإرعاب

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4600/8.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 237/8.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 166/5.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/4.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 282/9.

الكفرة، مهما كانت سَطْوَتُهم، ومهما زعموا من قوَّةٍ، أو ادَّعوا من غلبةٍ وقهر، فاللّٰه من ورائِهم محيطٌ.

تَوْجيهُ المتَشابه اللَّفْظِيِّ:

دِقَّـةُ البَـيـانِ القرآنِيِّ في انْتِقاءِ الألفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

قالَ اللّٰه ﷻ: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: 12]، وقال ﷻ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ﴾ [آل عمران: 151]، ووجهُ المغايَرَةِ بينَهُما أنَّ آيةَ آلِ عمرانَ سُبِقَتْ بقولِ اللّٰه جلَّ وعلا: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران: 150]، فلَمّا كان مُقتضَى الظّاهرِ فيها أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (سيُلْقي في قلوب الذين كفَروا الرُّعْبَ)، لكن لمّا كان الوَعْدُ من المتكلِّم الحاضِر المعتزِّ بنفسه أدْعَى للثِّقةِ، وكان نونُ العظَمةِ أدلَّ على هذا المعنى؛ ناسبَهُ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: 150]، بخلافِ آيةِ الأنفالِ، فإنَّه عُدِلَ فيها عن ضميرِ العظَمَةِ، لئلّا يُفْهَمَ دخولُ الملائكةِ في فِعْلِ الإلقاءِ، كما تقدَّم.

بديعُ الطِّباقِ في الآية:

إظْهارُ شَرَفِ أهْلِ الإيـمـانِ وبَـيـانُ حَـقـارَةِ أهْـلِ الكُفْرانِ

في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ طباقُ إيجابٍ، بينَ ﴿ءَامَنُواْۚ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾، وفي ذلك إظهارٌ لشَرَفِ أهلِ الإيمانِ، وعظيمِ منزلَتِهم، وبيانٌ لحقارَةِ أهلِ الكُفْرِ وانحطاطِ رُتْبَتِهم؛ وذلك أنَّ الضِّدَّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ أو قُبْحَهُ ضِدُّهُ.

دِلالَةُ الأمْرِ في قَوْلِه: ﴿فَٱضْرِبُواْ﴾:

تَأْييدُ اللهِ تَعالَى عِبادَهُ المُؤْمِنينَ بالمَلائِكَةِ مُشارِكةً لهم وتسديدٌ

الفاءُ للتَّرتيب والتَّعقيب، والأمْرُ في قولِ اللّٰهِ جلَّ وعلا: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾، يُرادُ به الإخبارُ عَنْ صورَةِ الحالِ، (كما تقولُ إذا وصَفْتَ حَرْبًا لِمَن تُخاطِبُهُ: لَقينا القَوْمَ وهَزَمْناهُم، فاضْرِبْ بسَيْفِكَ

حَيْثُ شِئْتَ، واقْتُل وخُذْ أسيرَكَ؛ أيْ: هذه كانَتْ صِفَةَ الحالِ)[1]، ويَجوزُ أن يكونَ أمْرًا على بابه، وفي المأمورِ بهذا قولانِ[2]: أحدهُما: أنَّهم المُسْلِمونَ، ويكونُ في هذا التفاتٌ في الخِطابِ مِنَ الملائكَةِ إلى المؤمنينَ[3]، وهذا القولُ فيهِ بُعْدٌ؛ لأنَّ هذهِ السّورةَ نَزَلَتْ بَعْدَ انتهاءِ المعرَكَةِ. والآخَرُ: أنَّهمُ المَلائِكَةُ، فقد أُمِروا بقطْعِ الأعناقِ والأصابعِ على كيفيَّةٍ مخالِفَةٍ لما جرَتْ به العادَةُ، وعلى هذا فيكونُ إسنادُ الضَّرْبِ إليهم حقيقةً، وهذا أقْوَى[4]. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ تسديدَ ضرباتِ أهلِ الإيمانِ، وتوجيه المُشْرِكينَ إلى جِهَتِها، فيكونَ إسنادُ الضَّرْبِ إلى الملائِكَةِ مجازًا، وهو مجازٌ عَقْليٌّ، علاقتُهُ السَّبَبيَّةُ؛ إذِ الملائكَةُ كانوا سببًا في ضَرْبِ المسلمينَ أعناقَ الكُفّارِ وبنانَهُمْ.

دِلالَةُ الفَوْقيَّةِ بين الإيجازِ والكِنايَةِ:

ضربةُ الحقِّ المؤيَّدةُ، مكينةٌ في قصدها مسدَّدةٌ

الفَوْقيَّةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ فيها مسالِكُ لأهْلِ العِلْمِ[5]: أوَّلُها: أن تَكونَ ﴿فَوۡقَ﴾ زائدةً، والمرادُ: فاضرِبوا الأعناقَ، وهذا قولٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ اللَّفْظَ إذا ورَدَ في القرآنِ الكريم لا يَنْبَغي لأحدٍ أن يحْكُمَ عليهِ بأنَّه دونَ مَعْنًى. وثانيها: أن تَكونَ ﴿فَوۡقَ﴾ بمعنى (على)، وهذا معروفٌ في لغةِ العرَبِ، فإنَّ العربَ تَقولُ: ضَرَبْتُ فلانًا على عُنُقِه، وضَرَبْتُهُ فوْقَ عُنُقِه، والمعنى واحدٌ. وعلَى هذا الوَجْهِ؛ يكونُ في الآيةِ إيجازٌ بالحذْفِ، وذلك أنَّ مَفْعولَ (اضْرِبوا) محذوفٌ، والتَّقديرُ: فاضْرِبوهُم فوقَ الأعْناقِ، أي: علَى الرِّقابِ. وثالثُها: أن يكونَ المرادُ بـ ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ الرُّؤوس، والمرادُ: فاضربوا الرُّؤوسَ، فيكونَ في هذا كنايةٌ عَنْ مَوْصوفٍ؛ وذلكَ لأنَّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/508.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/283.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3080.
(4) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 4/538.
(5) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 4/551 - 552.

الرَّأْسَ مِن صِفَتِه أنَّه فوْقَ العُنُقِ، ونُكْتَةُ التَّعبيرِ بالكِنايَةِ وصْفُ أبلَغِ ضَرَباتِ العُنُقِ وأحْكَمِها، وهيَ الضَّرْبَةُ الكائِنَةُ فوقَ عَظْمِ العُنُقِ ودونَ عَظْمِ الرَّأسِ[1].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾:

الـشِّـدَّةُ على الكُفّارِ المُحارِبِينَ، عقابٌ لهم على عدوانهم المُهِين

ذكر (ال) في ﴿ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ يُرادُ بها بَعْضُ الجِنْسِ، فهي عهديَّةٌ، والمقصودُ: أعناقُ الكُفّار، كما يُفْهَمُ ذلِكَ مِنَ السّياقِ، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ اللّامُ عِوضًا عَنِ المُضافِ إليه، أيْ: اضرِبوا أعناقَهُمْ[2].

نُكْتَةُ التَّنصيصِ على ما ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ و﴿بَنَانٖ﴾:

ضَـرْبُ الأعْـنـاقِ وضَـرْبُ الـبَـنـانِ تعبيرٌ عن دحْرِ الـظُّـلـم، وقـهْـرِ العدوان

في قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ خُصَّ ما فوقَ الأعناقِ والبَنانُ بالذِّكْرِ في هذه الآيةِ الكريمة، إيماءً إلى ضَرْبِ ما شاؤوا مِن أجسادِ الكُفّار؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ما فوقَ العُنُقِ - وهو الرَّأْسُ - أشْرَفُ الأعضاء، والبنانُ عبارَةٌ عَن أضعفِها، فذِكْرُ الأشْرَفِ والأضْعَفِ، تنبيهٌ على جميعِ الأعضاء؛ لأنَّ البين مُسْتَحضَرٌ في الطَّرفَيْنِ[3]. ويجوزُ أن يكونَ تخصيصُ الأعْناقِ والبَنانِ؛ لكَوْنِ ضربِ الأعناقِ إتلافًا لأجسادِ الكفّار، وضَرْبِ البنانِ إبطالًا لصلاحيَّةِ المضروبِ للقتالِ؛ إذْ إنَّ تناولَ السِّلاحِ يكونُ بالأصابع[4]، فإذا ضُرِبَتِ البَنانُ؛ تعطَّل مِنَ المَضروبِ القِتالُ، وعَجَزَ عنِ المحاربَة، بخلافِ سائرِ الأعْضاء[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/508.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/283.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/463.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/283.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/379.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الرُّعْب والخَوْف:

الخوف أعمُّ من الرُّعب، والرُّعبُ أشدُّ الخوف وأعلاه

الخَوْفُ: غَمٌّ يَلْحقُ العبدَ مِن توقُّعِه المكروهَ[1]، فهو خاصٌّ بالزَّمن المُسْتَقْبَل[2]، أمّا الرُّعْبُ؛ فهو أخصُّ؛ إذْ هو الخَوْفُ الشَّديدُ الَّذي يملَأُ القلوبَ، وقد وردَ في القرآن الكريم في خمسَةِ مواضعَ، جميعُها دالٌّ على كونِه معجزةً، فكان الأنْسَبُ في المُعْجِزَةِ أن يُعبَّر بالخَوْفِ الشَّديد المخالِف لِلْعادَةِ، وقد جاءَت أربعَةُ مواضِعَ مِن هذه الخَمْسَةِ في وصفِ الحَرْبِ، وما أصابَ الكُفّارَ فيها من خوفٍ عظيمٍ ملأَ قلوبَهُم، وهي قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [آل عمران: 151]، وقولُه سُبحانَهُ: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأنفال: 12]، وقولُهُ تعالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأحزاب: 26]، وقولُهُ جلَّ وعلا: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحشر: 2]، أمّا الموضِعُ الخامسُ؛ فقد جاءَ في سياقِ مُعجزةٍ أيضًا، وهي قصَّةُ أصحابِ الكَهْفِ، وسببُ الرُّعْبِ: ما ألبسَهُمُ اللّهُ تعالى إيّاهُ مِنَ الهَيْبَةِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ [الكهف: 18][3].

---

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.

(2) الشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 284/1.

(3) مُحمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 240 - 241.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣﴾ [الأنفال: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عـدلُ الله في دحرِ الكافرين، بسبب حربهم ومشاقَّتهم لله ورسوله

لمّا ذكر اللّهُ تعالى نُصرتَهُ وتأييدَهُ لأهل الإيمان، وإلقاءَهُ الرُّعْبَ في قلوبِ أهل الكُفْرِ، وأمْرَهُ المؤمنينَ بقتالِهمْ؛ ذَكَرَ في هذه الآيةِ علَّةَ تَسْليطِهم عليهِم، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾(1)، أي: إنَّهم تحدّوا اللّه ورسولَه، فكانوا يناوِئونهما ويشاقّونهما، بكلِّ صلفٍ وتَطاولٍ وغرور، ومَنْ تُسَوِّلُ له نفسُهُ ذلك، فيعتدي على مقام الألوهيَّة الأعظم، أو يتطاولُ على حُرمة الرَّسول الأكرم؛ فإنَّه سوف يُعاقَبُ العقابَ الشَّديدَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَآقُّواْ﴾: الشّينُ والقافُ تدلُّ تصريفاتُها على انصِداعِ الشَّيْءِ الشَّديدِ صَدْعًا نافذًا إلى عُمْقِه(2)، ومنه الشَّقُّ؛ وهو الخُرْمُ الواقِعُ في الشَّيْءِ(3)، ثُمَّ يُحمَلُ علَى هذا المعنى على جِهَةِ الاسْتِعارَةِ، كقولِهم عنِ الخلافِ: الشِّقاقُ؛ وذلك إذا انصدَعَتِ الجماعَةُ، وتفرَّقتْ، ويُقال لِمَنْ أصابَهُ أمرٌ شديدٌ: أصابَ فلانًا مَشَقَّةٌ، كأنَّهُ لِشدَّةِ هذا الأمْرِ ينصَدِعُ الإنسانُ منه، وينشَقُّ(4). وشقَّ فلانٌ العصا، أي: فارَق الجماعة، وانشقَّت العصا، أي: تفرَّق الأمرُ، والمشاقَّةُ والشِّقاق: الخلافُ والعداوة(5)، قال الشّاعر:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شقق).
(3) الرّاغب، المفردات: (شقّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شق).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (شقق).

إذا كانَتِ الهَيْجاءُ وانْشَقَّتِ العَصا *** فحَسْبُكَ والضَّحّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدُ[1]

وقولُ اللّهِ تعالَى: ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾، معناهُ: حارَبوا اللّه سُبحانَهُ، وجانَبوا دينَهُ وطاعَتَهُ، وسُمّي الكُفّارُ مُشاقّينَ للّهِ تعالَى؛ لكونِهم لمّا أعرضوا عَنْ أوامرِ اللّهِ تعالَى، وكذَّبوا بها، وصدّوا؛ تباعَدَ ما بينَهُم، وانفصَلَ، وانشقَّ[2].

2) ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾: العينُ والقافُ والباءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنَيَيْنِ؛ أحدهُما: تأخيرُ شيءٍ وإتيانُهُ بعد غيرِه، والآخرُ: ارتفاعٌ وشدَّةٌ وصعوبَةٌ[3]، ومِن هذا الأخير: العقابُ، لما فيه مِنَ الشِّدَّةِ في الإيلام، وهو والعقوبَةُ والمعاقبَةُ مختصَّةٌ بالعذابِ[4]، ويصِحُّ أن يَرْجِعَ معناهُ إلى الأصلِ الأوَّلِ، وهو إتيانُ الشَّيءِ بعد آخرَ، وذلك أنَّ العقابَ يَسْتَحِقُّهُ صاحبُهُ عَقيبَ فِعْلِه[5]، وهذا هو المعنى المرادُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ استحقاقِ المشاقّين المعتدين، لما نالوا مِنَ العقابِ والهزيمة والنَّكال

ذلك الَّذي حصَلَ لِلْكُفّار مِن ضَرْبهم فوْقَ الأعْناقِ، وضَرْبِ كُلِّ بنانٍ منهم؛ هو جزاءٌ لهم وعِقابٌ، بسَبَبِ مُفارَقَتِهم أمْرَ اللّهِ تعالَى، وأمْرَ رَسولِه ﷺ، وعِصْيانِهم لهما، ومَن يُخالِفُ أمْرَ اللّهِ سُبحانَهُ وأمْرَ رسولِه ﷺ؛ فإنَّ اللّه ﷻ شَديدُ العِقابِ لَهُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ[6].

(1) البيت لجرير الخطفيّ، وليس في ديوانه، ومذكور بلا نسبة في خزانة الأدب: 581/7، وفي شرح شواهد الإيضاح، ص: 374، وكذلك عند السيوطي، شرح شواهد المغني: 900/2، وابن يعيش، شرح المفصّل: 51/2، وابن منظور، لسان العرب: 1/ 312، وعند الزّبيديّ، تاج العروس: (شقق).

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 288/5.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).

(4) الرّاغب، المفردات: (عقب).

(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 239.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 433/13. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾:

بَيانُ عِلَّةِ تَسليطِ اللهِ تَعالَى عِبادَهُ المُؤْمنينَ على الكَفَرَةِ المُشاقِّينَ

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه تعليلًا؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ لمّا ذَكَرَ أَمْرَ عبادِه المؤمنينَ بقتالِ الكَفَرةِ؛ أعقبَهُ ببيانِ عِلَّةِ تَسْليطِهم عليهِم، فقالَ جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾[1]، فالجملةُ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فإنَّ قولَ اللهِ تعالَى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾، يبعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سؤالًا؛ وهو: لمَ أوقعَتْ عليهم هذهِ العقوبَةُ الشَّديدَةُ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾.

نكتة تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بالإشارَةِ:

تَمْييزُ جَزاءِ الكافِرينَ أكمَلَ تَمْييزٍ وأبْيَنَهُ في السّياقِ الحكيم

عُرِّفَ المسندُ إليهِ بالإشارَةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، ليتميَّزَ جزاؤُهُم أكملَ تمييزٍ؛ إذِ الإشارَةُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما حلَّ بهم مِن إلقاءِ الرُّعْبِ في قلوبهم، وما أصابَهُم من ضربِ الرُّؤوسِ والأطرافِ[2]، فإذا تميَّزَ جزاؤُهُم؛ تبيَّنَ موجِبُ ذلكَ من المشاقَّةِ المذكورَةِ بَعْدُ أبْلَغَ بيانٍ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عَظَمَةُ تَسَلُّطِ أهْلِ الإيمانِ على الكافِرينَ في بَدْرٍ وشِدَّةُ ذلك وفَظاعَتُهُ

في قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ جاءَ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعْدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ، للإيماءِ إلى عظَمَةِ التَّسْليطِ المذْكورِ قبلُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾، وللإيذانِ ببُعْدِ درجَتِه في الشِّدَّةِ والفظاعَةِ[3]، ومن المنطقيِّ أن يكونَ المشارُ إليه في مستوى الفعلِ المخالفِ من جهةٍ، وفي مستوى

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 287/5.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4.

العقاب المسلَّطِ على أصحابه الَّذين شاقّوا اللّه ورسوله، وتحدّوا قُدرةَ اللّهِ العليا، ولم يَنْصاعوا إلى هَدي الرَّسول المبلِّغ ونصحه، فنالوا ما ذُكِر في السّياق السّابق، وما أشير إليه في السّياق اللّاحق.

دلالةُ لفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾ على خطاب الأمَّةِ من خلال خطابِ الرَّسول:

دورُ النُّبوَّةِ في تجسيد الأوامر القرآنيَّةِ تلقّيًا وبلاغًا عن الإرادة الإلهيَّة

الكافُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ من قول اللّهِ تعالَى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾: حرفٌ دالٌّ علَى الخِطاب، والمرادُ به النَّبيُّ ﷺ، وتكونُ أمَّتُه داخلَةً في هذا الخطابِ بالمعنى والتَّبَع[1]، ويَجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ لكلِّ مَن يتأتّى خطابُه، فيكونُ الخطابُ خارجًا عن أصلِه في الدِّلالَةِ على مُعيَّنٍ، والقَصْدُ مِن ذلك إرادَةُ العُموم[2]. والوَجْهانِ متآيِلانِ كما هو ظاهِرٌ.

دِلالَةُ الباءِ في قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾:

مُشاقَّةُ اللهِ ورسولِه، خزيٌ في الدُّنيا، وعذابٌ في الآخرة

الباءُ في ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ من قولِ اللّه جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ للسَّبَبيَّةِ، والمعنى: فعَلْنا بهم ذلكَ بسببِ أنَّهم حادّوا اللّه تعالى ورَسولَه ﷺ[3]، وباءُ السَّببيَّةِ تُفيدُ معنى التَّعليلِ، فهيَ تُقَوّي علَّةَ فصلِ الجملَةِ عمّا قبلَها[4]، والمشاقَّةُ جعْلُ أنفسِهم في جانبٍ يواجه جانبَ المؤمنين باللّه ورسوله، لذلك استحقّوا عذابَ اللّه وعقابه، بسبب المشاقَّةِ، وعليهم آنئذٍ أن يتحمَّلوا العقابَ الشَّديد من اللّه ﷻ[5]، فكانت الباء موحيَةً بالسَّبب الَّذي من أجلِه وقع عليهم العقابُ والهوانُ.

نُكْتَةُ التَّوكيدِ والتَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي:

جاءَ النَّظْمُ القرآنيُّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، دونَ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 509/2.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 287/5، والزّمخشريّ، الكشّاف: 205/2، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 284/9.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3081/6.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 283/9 - 284.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4602/8.

(ذلك بمشاقَّتِهم اللّهَ ورسولَهُ)؛ لِما في التَّعبير بالفِعْلِ الماضي ﴿شَآقُّواْ﴾ مِن إفادَةِ التَّحقُّق، المُقْتَضي استِحْقاقَهم ما ذُكِرَ مِن تَسْليطِ أهْلِ الإيمان عليهم، إضافةً إلى توكيد الجملة بـ(إنَّ) والاسميَّة، وتكرارِ الضَّمير الرّاجع إليهم، وذلك لبيان عِظَم هذه المُشاقَّة بحقِّ اللّه ورسوله وقُبحِها.

مشاقَّةُ الله ورسوله نتاجُ الصِّراع بين الحقِّ والباطل على مدى الزَّمان

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في الآية:

المشاقَّةُ في قولِ الله تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ يُرادُ بها العُدْوانُ بِعِصْيانٍ وعِنادٍ، واشتقاقُها مِنَ الشَّقِّ؛ وهو الخُرْمُ الواقِعُ في الشَّيءِ[1]، واستعمالُهُ في العُدْوان بعصيانٍ وعنادٍ استعارةٌ؛ إذْ شُبِّهَ ذلك بالصَّدْعِ والخُرْمِ بجامِع الإخلالِ بأمرٍ صالِحٍ في كُلٍّ، على جِهَةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، ويجوزُ أنْ تكونَ المُشاقَّةُ مشتقَّةً مِنَ الشِّقِّ، وهو جانبُ الشَّيءِ، وذلك أنَّ المعاديَ المخالِفَ لمّا كانَ متباعِدًا عن عُدوِّه؛ جُعِلَ كأنَّه في شِقٍّ آخرَ[2]، والاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ كذلكَ، وهذانِ الوجهانِ متكامِلانِ؛ وذلك أنَّ المعاديَ للشَّرْعِ بعصيانٍ وعنادٍ يُخِلُّ بأوامِرِ اللّهِ تعالَى وأوامرِ رسولِه ﷺ، ويكونُ متباعدًا متجافيًا عَنْها بعصيانِه لَها.

المعاديْ لِلشَّرْعِ بِعِصْيانٍ وضلالة، يواجِهُ أوامِرَ الله ورسوله بعِنادٍ وجهالة

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ الأعظم (الله):

عُلِّقَت مُشاقَّةُ الكفَرَةِ بالاسْم الأعظم (اللّه) في قولِ اللّه جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾؛ زيادةً في تشنيع فظاعَتِها، وتَقْبيحِ صورَتِها؛ إذْ قد شاقّوا المَلِكَ الأعْلَى الجامعَ لِصفاتِ الجلالِ والكمالِ الَّذي لا يُطاقُ انتقامُهُ[3]، وهذه المُشاقَّة في هذا السّياق "بيانٌ للسَّببِ الَّذي مِن أجْله أمرَ اللّه المسلمين بضرب هؤلاءِ المشركين، هذا

مُشاقَّةُ الله تعالَى فظاعَتُها شَنيعَةٌ، وصورَتُها قَبيحَةٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (شق).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 284/9.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8.

الضَّرب الَّذي مكنَّهم اللّه به من رؤوس أعدائِهم، فهم قد شاقّوا اللّهَ ورسوله، أي: خالفوهما، وعصوا أمرهما، وليس جزاء مَن يشاقِقِ اللّهَ ورسولَهُ إلّا أنْ يَلْقى جزاءَهُ عندَ اللّهِ، واللّهُ شديدُ العقابِ"[1].

نُكْتَةُ إيجازِ الحَذْفِ في الآية:

مُـعـاداةُ أوليـاءِ اللهِ معصيَةٌ للهِ تَعالَى، ومُخالَفَةٌ لِرَسولِه الكريم

ذهبَ بعضُ أهلِ العِلْم إلى أنَّ في قولِ اللّه جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ حذفًا، والتَّقدير: ذلك بأنَّهُم شاقّوا أولياءَ اللّه تعالَى، فحُذِفَ المضافُ (أولياء)، وأُقيم المُضافُ إليه مُقامَهُ[2]؛ لقَصْدِ التَّعظيم، مبالغةً في التَّنفيرِ مِن معاداةِ أولياءِ اللّهِ تعالَى؛ إذْ إنَّ معاداتَهُم معاداةٌ للّهِ سُبحانَهُ، والأَظْهَرُ ألّا حَذْفَ في الآيَةِ، كما تُشْعِرُ بذلك المقابلَةُ بينَ الاسْمِ الأعظم (اللّه) و(رسوله)، وتَكونُ معاداةُ أولياءِ اللّه تعالَى داخلَةً بالالتِزام في مشاقَّةِ اللّهِ تعالى ورسولِه ﷺ؛ لأنَّ معاداتَهُم مِن جملَةِ مُخالفةِ أوامِرِهما.

بلاغةُ التَّعْريضِ في الآية:

المُخالَفَةُ بالمُشاقَّةِ عَـذابٌ، وطاعَةُ الـلّـه ورسـولـه أمانٌ وثوابٌ

في التَّصريح بسببِ انتقامِ اللّهِ تعالَى مِن الكَفَرةِ وتسليطِهِ أولياءَهُ عليهم، في قولِه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ تعريضٌ لِلْمُؤمنينَ؛ ليَسْتَزيدوا مِن طاعة اللّهِ تعالى وطاعَةِ رسولِه ﷺ، وذلكَ أنَّه إذا كانَتِ المخالفةُ بالمُشاقَّةِ سببًا في هذا العِقابِ الشَّديد؛ فيوشِكُ أن يكونَ ما هو مخالفةٌ للّهِ تعالى ورسولِه ﷺ دونَ مُشاقَّةٍ موقِعًا في عذابٍ دونَ ذلكَ، وجديرٌ بأن يكونَ ضدُّ ذلك وهو طاعتُهُما مقتضيًا للخيرِ والثَّوابِ الجزيلِ[3].

نُكْتَةُ الإدْغامِ في الفِعْلِ الماضي والتَّفكيك في المُضارِع:

قَوْلُ اللّهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 5/580.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/288.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/284.

عَداوَةُ المُشْرِكينَ كانت قبلَ الهِجْرَةِ مساترةً، فصارت بعدها مجاهرةً

﴿وَرَسُولَهُۥ﴾، أُظْهِرَ الحرفانِ في الفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُشَاقِقِ﴾، وأُدغِما في الماضي ﴿شَآقُّواْ﴾؛ لأنَّ السّياقَ في بيانِ قصَّةِ غَزْوَةِ بدْرٍ، وفيها قِتالُ المسلمينَ لِمُشْرِكي العرَبِ، وكان أمرُ مشركي العَربِ في عداوتِهم بعد هجرةِ النَّبيِّ ﷺ شديدًا وجهارًا؛ فكان الأنسَبُ إظهارَ الحرفَيْنِ ليُحاكيَ ذلك ظهورَ العداوَةِ، وأُدْغِمَ الحرفانِ في الفِعْلِ الماضي؛ لأنَّ ما سبقَ الهجرةَ (كانَ ما بين مُساتَرَةٍ بالمُماكرَةِ، ومُجاهَرَةٍ بالمُقاهَرَةِ)[1]، فناسبَهُ الإدْغامُ لِما فيه مِن سَتْرِ حَرْفٍ في حرفٍ، وذلك مُحاكٍ لخفاءِ العَداوَةِ.

سِرُّ التَّصْريحِ باسمِ الرَّسولِ الأكرمِ:

مُشاقَّةُ اللهِ سُبْحانَهُ تَسْتَلْزِمُ مُشاقَّةَ رَسولِه ﷺ

صُرِّحَ بذِكْرِ النَّبيِّ ﷺ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، لِلْإِشْعارِ بأنَّ مشاقَّةَ اللّهِ سُبحانَهُ تستلزِمُ مشاقَّةَ رسولِه ﷺ، وأنَّ طاعةَ اللّه تعالى تقْتَضي طاعةَ رسولِه ﷺ، وأنَّ عصيانَ الرَّسولِ ﷺ، هو مُشاقَّةٌ للّهِ تعالى ومحادَّةٌ لَهُ[2].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ:

غرضُ الوَعيدِ والتَّهديدِ، تَحْقيقُ التَّوْبَةِ مِنَ الآثامِ، والرُّجوعِ إلى ربِّ الأنامِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فيه التعبيرُ بالفعْلِ المضارِعِ ﴿يُشَاقِقِ﴾ مِن نَدْبٍ إلى التَّوبَةِ بتَقْييدِ الوعيدِ، والتَّهديد بصيغةٍ دالَّةٍ على الاستِمْرارِ[3]، ودلَّ المضارِعُ بطريقٍ آخرَ على استمرار هذه المُشاقَّة على مدار الزَّمان، لاستمرار الصِّراع بين الحقِّ والباطل.

دِلالَةُ (مَنْ) في قَوْلِه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾:

(مَنْ) في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ شرطيَّةٌ، بدليلِ جَزْمِ المضارعِ ﴿يُشَاقِقِ﴾ بَعْدَها، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/238.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3081.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/238.

بَيانُ تَرْتيبِ شِدَّةِ العِقابِ على مُطْلَقِ المُشاقَّةِ

﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ هو جوابُ الشَّرْطِ، أو دليلُ الجَوابِ، وقُرِنَ بالفاءِ لكونِه وقعَ جملةً اسميَّةً[1]، والجملة الشَّرطيَّة تؤتي أُكُلَها في إثباتِ حُكْمِها من خلال قوَّتها في ربط جواب الشَّرط بفعله، والجملة "بيانٌ لشدَّة العقاب في الدُّنيا والآخرة، وهي دالَّةٌ على جواب شرطٍ محذوف هذه علَّته، والمعنى: فإنَّ اللّه مُنزِلٌ عقابَهُ الشَّديد بهم في الدُّنيا؛ لأنَّهم يغالبون اللّه ورسوله، ونسوا أنَّ اللّه تعالى غالبٌ على كلِّ شيء"[2].

تَوْجيهُ المُتَشابه اللَّفْظيِّ بين آيات المُشاقة:

التَّفَنُّنُ في اسْتِعْمالِ الصِّيَغِ الصَّرْفيَّةِ المُلائِمَةِ من فصيحِ البيانِ القرآنيِّ

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ [النّساء: 115]، وقال سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤﴾ [الحشر: 4]، ووجهُ المغايَرَةِ في فعلِ المشاقَّةِ بين إظهارِه وإدْغامِه يدورُ حولَ الظُّهور والخفاءِ، فحيثُ أُريدَ الظُّهورُ؛ كان الإظْهارُ أنسبَ، وإذا قُصِدَ الخفاءُ؛ كان الإدغامُ أنسبَ، وبيانُ ذلكَ: أنَّ آيةَ النِّساءِ وردَتْ في سياقِ مُشاقَّةِ النَّبيِّ ﷺ؛ حيث أظْهَرَ جماعَةٌ ذلك، وأرادوا نُصرةَ طُعْمَةَ على الرَّجُلِ اليهوديِّ، فناسبَ الإظْهارُ الإظهارَ، وأمّا آيةُ الأنفال؛ فهيَ في سياقِ ذِكْرِ قصَّةِ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وعداوَةُ مُشْرِكي العربِ كانت عداوةً ظاهرةً بيِّنَةً، بدليل صيرورَتِها إلى القتالِ والحربِ؛ فكان فكُّ الإدغام أنسبَ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. وأمّا آيةُ الحشْرِ؛ فهي في ذِكْرِ يهودِ بني النَّضير الَّذين حاولوا قتلَ رسولِ اللّه ﷺ، بعد معاهَدَتِهم لهُ على الصُّلْحِ، ثمَّ نكثوا العَهْدَ، وبالَغوا في إخفاءِ مُشاقَّتِهم لرسولِ اللّه ﷺ، وشِدَّة كيدِهم لَهُ وللإسْلام، فكان الإدغامُ أنسَبَ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 288/5.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3081/6.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالاسمِ الأعظمِ (الله):

عُلِّقَت المُشاقَّةُ بالاسْمِ الأعظم (اللّه) في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ ليُطابقَ الجزاءُ المذكورُ هُنا ما تقدَّم من تعليلِ تَسْليطِ اللّهِ تعالى أولياءَهُ على الكفَرةِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، وفي هذا التَّعليقِ زيادَةٌ في تشنيعِ فظاعَةِ هذه المشاقَّةِ، وتَقْبيحِ صورَتِها.

زيادَةُ تَشْنيعِ مُشاقَّةِ اللهِ ورَسولِه، وتبشيعِ صورَتِها في النُّفوس

سِرُّ الإظْهارِ للفظِ الجلالةِ في مَوْضِعِ إضْمارِه:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إظهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظّاهرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَمَن يُشاقِقْهُما)، وذلك لنُكْتَتَيْن[1]: أوَّلُهُما: تربيَةُ المَهابَةِ وإظهارُ كمالِ شَناعَةِ ما اجترؤوا عليه، وعظيمِ ما اقترَفوهُ. والأُخرَى: الإشْعارُ بعِلَّةِ الحُكْمِ.

إظْهارُ شَناعَةِ ما اجْتَرَأ عليه الكَفَرَةُ، وعَظيمِ ما اقترَفوهُ

دِلالَةُ الفاءِ في قَوْلِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

الفاءُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ رابطَةٌ لِجَوابِ الشَّرْطِ الواردِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وفيه إشعارٌ بالعِلّيَّة، وأنَّه سينالُهُم من شِدَّة عقوبَةِ اللّه تعالَى بسببِ مشاقَّتِهم لَهُ ولرسولِه ﷺ، "وأمّا عقاب مُشاقَّة اللّهِ والرَّسول، فهو الخزي والنَّكال والهزيمة في الدُّنيا، والعذاب الشَّديد، في نار جهنَّم في القيامة، والمقصودُ من إيراد هذا العقاب الزَّجرُ عن الكفر والتَّهديد عليه، وتوبيخ الكافرين، فالعقابُ على ذلك نوعان: عاجلٌ في الدُّنيا، ومؤجَّلٌ في الآخرة"[2].

مُشاقَّةُ اللهِ تَعالَى ورَسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ عِلَّةٌ لِشدَّةِ العُقوبَةِ

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في الآيَة:

في قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ جُملَةُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ جوابُ الشَّرْطِ، أو هو

مَنْ يُشاقِقِ اللهَ تَعالَى ورَسولَهُ؛ يُعاقِبْهُ اللهُ تَعالَى أشَدَّ العِقابِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/11، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3081.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 9/271.

دَليلُ الجَوابِ، وعلَى الثّاني، فإنَّ في الآيَةِ إيجازًا بالحَذْفِ؛ إذْ إنَّ الجوابَ محذوفٌ، والتَّقدير: (ومَن يشاقِقِ اللّه ورسولَهُ؛ يُعاقِبْهُ اللّهُ تعالَى أشدَّ العقابِ؛ فإنَّه سُبحانَهُ شديدُ العِقابِ)، فطويَ الجوابُ، وأُبْقيَ ما يدلُّ عليه، فيَكونُ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ كنايةً عَن عِقابِ المُشاقّينَ[1].

نُكْتَةُ التَّأْكيدِ في قَوْلِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

شِدَّةُ عِقابِ اللهِ تَعالَى، وتَحَقُّقُ إِيصالِهِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ

أُكِّدَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، بالأداة (إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ، تقويةً لشدَّةِ عقابِ اللّهِ تعالَى، وتحقُّقِ إيصالِه لِمَن يستحقُّهُ، ممَّن شاقَّ اللّهَ تعالَى ورسولَهُ ﷺ، والتَّأكيد يُكمِّل الشَّرط ويقوّيه، وعليه: "فَإنَّ اللّه شَديدُ العقابِ، وأيًّا ما كانَ، فالشَّرطيَّةُ تكملةٌ لما قبلها، وتقريرٌ لمضمونِه، وتحقيقٌ للسَّببيَّةِ بالطَّريقِ البرهانيِّ، كأنَّه قيل ذلك العقابُ الشَّديد، بسببِ مُشاقَّتِهم للّه تعالى ورسولِه، وكلُّ من يشاقق اللّه ورسولَه، كائنًا مَنْ كان، فلهُ بسببِ ذلكَ عقابٌ شديدٌ"[2].

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بالعَلَميَّةِ:

بَيانُ شِدَّةِ العِقابِ الصّادِرِ مِمَّنْ جَمَعَ صِفاتِ الجَلالِ والكَمالِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلميَّةِ في قولِ اللّه جلَّ وعلا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ لإدخالِ المهابَةِ في نفوسِ المخاطَبينَ، والمبالغَةِ في بيانِ شدَّةِ العقابِ الصّادِرِ ممَّنْ جَمعَ صفاتِ الجلالِ والكَمالِ، وقد كان العقاب الشَّديد جزاء وفاقًا، لكونهم قد شاقّوا اللّه ورسوله، وليس جزاء من يعاندُ اللّه ورسوله ويعصهما، إلّا أن يلقى جزاءه عند اللّه، بأشدِّ ما يكون العقاب، وهو عذابٌ لا يطاق، واللّه شديد العقاب، وقد أشار الخطيب إلى هذا بقوله: "والإشارة هنا إلى هذا العذاب الَّذي صبَّه اللّه عليهم، وجرَّعهم كؤوسه على أيدي المؤمنين.. وذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 284/9.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4.

هو جزاؤهم في الدُّنيا، أمّا في الآخرة؛ فلهم أنكى وأمرُّ، إنَّه عذاب النّار[1]، ولذلك أُكِّدَ بأنَّه شديدُ العقاب.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَحلِّ الإضْمارِ:

دَفْعُ تَوَهُّمِ عَوْدِ الضَّميرِ على أقْرَبِ مَذْكورٍ مع إخْراجِ الجُمْلَةِ مَخْرَجَ المَثَلِ

لَم يُضمَرِ المُسْنَدُ إليه في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فإنَّه شديدُ العقابِ)؛ لِنُكْتَتَيْن؛ إحداهُما: لئلّا يُتوَهَّمَ عَوْدُ الضَّميرِ إلى أقربِ مذكورٍ، وهو رسولُ اللّه ﷺ، وأنَّ المقصودَ أنَّ اللّه سُبحانَهُ يُجْري على يدَيْهِ ما هو مِن جِنْسِ العقابِ لِلْكَفَرَةِ، فإنَّ هذا وإن كان حقًّا في نفسِه إلّا أنَّه ليسَ مرادًا هنا. والأُخرَى: لتخرُجَ الجُمْلَةُ مخرجَ التَّذييل الجاري مَجْرَى المَثَلِ، بخلاف ما لو جِيءَ بالمسنَدِ إليه مضمرًا؛ فإنَّه يكونُ تذييلًا غيرَ جارٍ مجرَى المَثَلِ، فلا يَستقلُّ بنفسِه، بل يفتقِرُ إلى غَيْرِه في بيان أصلِ المرادِ منه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالعِقابِ في قَوْلِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

لا قُدرةَ للكُفّارِ الخاسِئين على مُغالَبةِ قُدرةِ اللهِ ربِّ العالمين

عَبَّرَ السّياقُ بلفظ ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾، في قَوْلِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، إشارَةً إلى أنَّهم ليسوا في مقامِ مُغالَبَةِ اللّهِ سُبحانَهُ، وإنَّما هُم في مقامِ مَنْ يُؤدَّبُ، ويُعاقَبُ، ويُرَدُّ خاسئًا[2].

بلاغةُ الاحْتِباكِ في الآيةِ:

إظْهارُ الحَرْفَيْنِ في مَقامِ إظْهارِ العَداوَةِ، وإدْغامُهما في مَقامِ خَفائِها

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ حذفٌ مقابَليٌّ، وهو المُسَمَّى: احتباكًا، وذلك أنَّ (ذِكْرَ الفِعلِ المُدْغم أوَّلًا دَليلٌ على حَذْفِ المُظْهَرِ ثانيًا، والمُظْهَر ثانيًا علَى حَذْفِ المُدْغَم أوَّلًا)[3]، وتقديرُ الاحتباكِ: ذلك بأنَّهم شاقُّوا اللّه ورسولَهُ وشاقَقوهُما، ومَن يُشاقِّ اللّه ورسولَه ويُشاقِقْهُما؛ فإنَّ اللّه

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 580/5.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3081/6.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 239/8.

شديدُ العقابِ، وهذه وجهة نظر واجتهاد، والأظْهَرُ أنَّ هذا ليسَ مِن قبيلِ الاحتباكِ، وإنَّما نوَّعَ في صياغَةِ الفعْلِ لنُكْتَةٍ معنويَّةٍ؛ بأن أُظْهِرَ الحرفانِ في مقامِ بيانِ إظهارِ العَداوَةِ، وأُدْغِما في مقامِ بيانِ خفائِها.

بَلاغَةُ التَّذْييلِ في الآية:

العِقابُ الشَّديدُ نائِلٌ كُلَّ مُشاقِقٍ لِلَّهِ تَعالَى ورَسولِه ﷺ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تذييلٌ، وهو تذييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِه بنفسِه، وعَدَمِ احتياجِه إلى ما قبْلَهُ في فهْمِ أصلِ المرادِ منه، والقَصْدُ منه تقريرُ مَضْمونِ ما قبْلَهُ، وتحقيقٌ لِلسَّبَبِيَّةِ على سَبيلِ البُرْهانِ، فكأنَّهُ قيلَ: ذلك العقابُ الشَّديدُ، هو بِسَبَبِ مُشاقَّتِهم للّهِ تعالَى ورَسولِه ﷺ، وكُلُّ مَن يُشاقِقِ اللّهَ سُبحانَهُ ورَسولَه ﷺ كائنًا مَنْ كانَ؛ فإنَّ لَهُ بِسَبَبِ ذلك عِقابًا شديدًا؛ فتحصَّلَ مِن ذلكَ نتيجَةٌ، وهيَ: أنَّ لهؤلاءِ الكفَرَةِ بِسَبَبِ مُشاقَّتِهم للّه ورسولِه عِقابًا شَديدًا[1].

وفي هذا التَّذييلِ أيضًا تعميمُ الحُكْمِ بالعقابِ الشَّديد، لكلِّ مَن يُشاقِقُ اللّهَ ورسولَهُ ﷺ، ولا يختصُّ بمَنْ وردَ السّياقُ بذِكْرِهم[2].

بلاغةُ المَجازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ:

الإِخْبارُ عَنْ شِدَّةِ عِقابِ اللهِ تَعالَى لِلزَّجْرِ عَنِ الوُقوعِ في أسْبابِه

قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ يُرادُ بها الزَّجْرُ عَنِ الكُفْرِ والتَّهديدُ عَلَيْه، فهو مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ؛ إذْ لا يُقصَدُ منه مجرَّدُ الإخبارِ، وإنَّما لازِمٌ مِن لوازِمِه[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِقاب والعَذاب:

العِقابُ والعذابُ يَرِدانِ مرادًا بهِما النَّكالُ، ومجازاةُ الذَّنْبِ بمِثْلِه، ويفترِقانِ مِن وجهَيْنِ[4]: أحدُهما: أنَّ الأصلَ الدِّلاليَّ لـ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 284/9.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 464/15.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239 - 240، ومحمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 341 - 343.

العذابُ أعمُّ وأوسع دلالةً من العقاب، وكلاهما من ألفاظ القرآن الفصيحةِ

(العذاب) يدلُّ على الضَّرْبِ، والأصلَ الدِّلاليَّ لـ (العقابِ) دالٌّ على الشدَّةِ، وتأخُّر شيءٍ وإتيانُهُ بعدَ غيره. ثانيهما: أنَّ العقابَ يُنبئُ عَنِ الاستحقاقِ؛ لأنَّه لا يكونُ إلّا عَقِبَ ذنْبٍ، بخلافِ العَذاب؛ فإنَّه أعَمُّ، فقد يقَعُ على مَن يَستَحِقُّهُ ومَن لا يَستَحِقُّهُ، ثمَّ إنَّ كلمةَ (العقاب) تكون لما يكون في الدُّنيا، و(العذاب) يأتي في الدُّنيا، ويأتي في الآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ [الأنعام: 165] في الدُّنيا، ولم يصف نفسه بأنَّه سريع العذاب، لما بين اللَّفظين من فرقٍ، ولفظ (العذاب) استُعمل في الدُّنيا، قال تعالى:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥﴾ [النّمل: 5]، واستُعمل موصوفًا بلفظ خزي في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾ [البقرة: 114]، وجاء لفظ العذاب بمعنى العقاب في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النّور: 2]، وهذه عقوبة الزِّنى، سمّاها عذابًا، ممّا يدلُّ على أنَّ العذاب أوسعُ مِنَ العقاب؛ لأنَّه يستعمل دنيا وآخرة، ويُستعمل بمكانِ العقاب(1).

(1) حسام النّعيمي، روائع البيان القرآنيّ (بتصرّف)، موجودة على الشّابكة، منشورة عام: 2023م.

﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤﴾ [الأنفال: 14]

المناسبةُ بين سببِ عقاب المُشاقّين، وبين ما يقال لهم عند مباشرةِ العذابِ المهين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا خُتِمَتِ الآيَةُ المتقدِّمَةُ - ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ - بذِكْرِ السَّبَبِ الموجِب لإهانَةِ الذينَ كَفَروا وبما لَهُ مِنَ الصِّفَةِ العَظيمَةِ؛ أُتْبِعَ ذلكَ ببَيانِ ما يُقالُ للكَفَرَةِ حالَ تلبُّسِ العذابِ بهِمْ؛ مزيدًا في تَبْكيتِهم وتَقْريعِهم وتَوبيخِهم، فقال سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذُوقُوهُ﴾: الذّال والواو والقافُ، تدورُ اشتقاقاتُها علَى معرفةِ طَعْمِ الشَّيْءِ، بمعنَى: إيقاعِهِ على الحِسِّ بالتَّناوُلِ منه، ويلزَمُ منه اختبارُهُ[2]، وهذا مرادُ مَن جَعَلَ معنى أصلِ المادَّةِ اختيارَ الشَّيءِ من جهةِ الطَّعْمِ[3]، والذَّوق: يكون فيما يُكره ويُحمد، قال اللّه تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النّحل: 112]، أي: ابتلاها بسوءِ ما خُبِّرت من عقاب الجوع والخوف[4]، ويُستعمَلُ الذَّوْقُ مجازًا في مُطلَقِ الإحْساسِ[5]، ومعنَى قَوْلِ اللّه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾: تَلَقَّوُا العذابَ، وأحِسّوا بهِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ما ذاق المشركون يوم بدر هو عذاب الدُّنيا، وعذاب الآخرة أشدُّ وأدهى

يوجِّه السّياقُ الخطابَ للمشركين، مشيرًا إلى هذا العذاب الَّذي صبَّه اللّه عليهم، وجرَّعهم كؤوسه على أيدي المؤمنين؛ وذلك هو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/238.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ذوق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(4) ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/46.

جزاؤهم في الدُّنيا، أمّا في الآخرة، فلهم أنكى وأمرُّ[1]، وخلاصةُ الآية: ذلِكُمُ العذابُ الَّذي عجّلته لَكُم - أيُّها الكافِرون المشاقّونَ للّهِ تعالَى ورسولِه ﷺ - مِنَ الضَّرْبِ فوقَ الأعناقِ، وضربِ البَنانِ؛ فذوقوه عاجلًا في الحياةِ الدُّنيا، ولَكُم في الآخرة عذابُ النّار[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

الآيـةُ استئنافٌ جـديدٌ؛ لأنَّها بـيَّـنـت ما يـقـال لأولئك المُشاقّين بعد استحقاقِهم العذابَ

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ وهو قوله جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، حيث إنَّ الجملةَ سيقت هنا لمخاطبة الكفّار، أي: ذلكم الضَّرب والقتل، وما أوقع اللّه بهم يوم بدر، فكأنَّه قال: (الأمر ذلكم فذوقوه)، وكذا فسَّره سيبويه[3]، والخطاب في ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾ للمشركين الَّذين قتلوا، والَّذين قُطِعت بنانُهم، أي: يقال لهم هذا الكلام، "حيثُ تُضْرَب أعناقهم وبَنانهم بأن يُلقى في نفوسهم، حينما يصابون: إنَّ إصابتَهم كانت لمُشاقَّتهم اللّه ورسوله، فإنَّهم كانوا يسمعون توعُّدَ اللّهِ إيّاهم بالعذاب والبطش، وكانوا لا يخلون من اختلاج الشَّكِّ نفوسَهم، فإذا رأوا القتل الَّذي لم يألفوه، ورأى الواحدُ منهم نَفْسَه مضروبًا بالسَّيف، ضربًا لا يستطيع له دفاعًا، عَلِمَ أنَّ وعيدَ اللّه تحقّق فيه، فجاش في نفسه أنَّ ذلك لمشاقَّته اللّه ورسوله"[4].

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾:

التَّعْجيلُ بإعادَةِ التَّذْكيرِ بالعَذابِ زيادةٌ في التَّفْريعِ

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾ في محلِّ رفع خبرٌ لمبتدأٍ محذوف، والتَّقدير: الأَمْرُ ذَلكُم، ولا يصحُّ أن يكونَ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ مُبْتَدَأً، و﴿فَذُوقُوهُ﴾ خبرَهُ؛ إذْ إنَّ ما بعْدَ الفاءِ لا يكونُ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 580/5.

(2) ابن جرير، جامع البيان، 433/13 - 434، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.

(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 509/2.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 285/9.

خبرًا لِمُبتدأٍ، إلّا في أحوالٍ، لَيسَ هذا مِنها[1]، وفي حذفِ المبتدأِ تعجيلٌ بإعادَةِ التَّذكيرِ بالعذابِ المذكورِ قبْلُ.

نُكْتَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ بالإشارَةِ في قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾:

تَمييزُ العَذابِ أكْمَلَ تَمْييزٍ وأبْيَنَه، هو أبْلَغُ في تَقْريعِ الكَفَرَةِ

عُرِّفَ المسنَدُ بالإشارَةِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾، ليتمَيَّزَ عذابُهُم أكملَ تَمْييزٍ وأبْيَنَهُ؛ وذلك أنَّ الإشارَةَ في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى العذابِ المعجَّلِ اللّاحِقِ الكُفّارَ من ضربِ الرُّؤوسِ والبَنانِ، فإذا تميَّزَ العذابُ هذا التَّمييزَ؛ كانَ أبلَغَ في تقريعِهم بما ذُكِرَ بَعْدُ مِن قَوْلِه تعالَى: ﴿فَذُوقُوهُ﴾.

سِرُّ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعْدِ: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

فَظاعَةُ العَذابِ الّذي صَبَّهُ اللهُ تَعالَى على الكَفَرَةِ جَزاءً وِفاقًا

جاءَ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعْدِ في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾؛ إيماءً إلى عظَمَتِه، وإشعارًا ببُعْدِ درجَتِه في الفظاعَةِ والشِّدَّةِ؛ إذِ الإشارَةُ بـ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى العذابِ الَّذي صبَّهُ اللّهُ تعالَى عليهِم، وجرَّعَهُم كُؤوسَهُ علَى أيدي أهلِ الإيمانِ[2]، فأُنزِلَ البعدُ المعنويُّ منزلَةَ البُعدِ الحِسّيِّ لاشتراكِهما في معنى البُعد.

سِرُّ تعيينِ المُخاطَبِ بقَوْلِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾:

تأكيدُ عُمومِ الخِطابِ لِلْكافِرينَ جَميعًا، هو تحقيقٌ للعدلِ العامِّ

الكافُ في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾ حرفٌ دالٌّ على الخِطابِ، والميمُ حرفٌ دالٌّ على الجَمْعِ، والمُخاطَبُ هُمُ الكُفّارُ المشاقّونَ للّهِ تعالَى ورسولِه ﷺ[3]. وجيءَ بضميرِ الخطابِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/464، وفي المسألة تفصيل: حيث يجوز في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أربعةُ أوجه؛ أحدها: أن يكونَ مرفوعًا على خبر ابتداء مضمر، أي: (العقاب ذلكم)، والثّاني: أن يرتفعَ بالابتداء، والخبرُ محذوفٌ، أي: (ذلكُ العقابُ). والثّالث: أن يرتفع بالابتداء، والخبرُ قوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾، وهذا على رأي الأخفش، فإنَّه يرى زيادة الفاء مطلقًا، أعني: سواءً تضمَّن المبتدأ معنى الشَّرط أم لا، وأمّا غيرُه فلا يُجيز زيادتها إلا بشرط أن يكون المبتدأ مشبَّهًا لاسم الشَّرط، والرّابع: أن يكون منصوبًا بإضمار فعل يُفَسِّره ما بعده، ويكون من باب الاشتغال. يُنظر: السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 5/581.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/580.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/288.

جَمْعًا؛ قصدًا إلى تأكيدِ عمومِ الخطابِ لِلْكافِرينَ جميعًا، وأنَّهم كُلُّهُم مخاطَبونَ بذَلِك[1].

بَلاغَةُ الالتِفاتِ في الآيَة:

تَحْويلُ الأُسْلوبِ إلى الخِطابِ أبْلَغُ في التَّقْريعِ والإهانَةِ والتَّوْبيخِ

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾، التفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخطابِ؛ وذلكَ لأنَّه تقدَّمَ الكلامُ عَنِ الكفَرَةِ بأُسْلوبِ الغَيْبَةِ في قولِه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ ثُمَّ حوِّلَ ذلكَ إلى الخِطابِ في قولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾[2]؛ ليَكونَ مُمَهِّدًا لصيغَةِ الأمْرِ في قولِه ﷻ: ﴿فَذُوقُوهُ﴾، وذلِكَ أبلَغُ في التَّقْريعِ والإهانَةِ والتَّوبيخِ؛ فإنَّ اسْتِعْمالَ أُسْلوبِ الخِطابِ في هذه المَقاماتِ أبلَغُ في تحقيقِ مَقْصوداتِها.

دِلالَةُ (الفاءِ) في قَوْلِه: ﴿فَذُوقُوهُ﴾:

بلاغةُ الإيجازِ في تَعْجيلِ العَذابِ العَظيمِ لِلْكافِرينَ، وفي الآخرةِ أعْظَمُ عَذابًا

الفاءُ في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾ فصيحَةٌ، وهي الدّاخِلَةُ على جَوابِ شَرْطٍ مقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا كانَ هذا عذابَكُم في الحياةِ الدُّنْيا؛ فذوقوهُ[3]، فظهر في ذكر الفاء بلاغةُ الإيجازِ بالحذف.

دِلالَةُ الأمْرِ في قَوْلِه: ﴿فَذُوقُوهُ﴾:

الشَّماتَةُ بالكافِرينَ حالَ تمكُّنِ أهْلِ الإيمانِ منهم يَزيدُهُم ذِلَّةً وهوانًا

الأمْرُ بالذَّوْقِ ﴿فَذُوقُوهُ﴾ من قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾، لَم يَجْرِ على حقيقةِ الأمْرِ من الدِّلالَةِ على الإلزامِ والإيجابِ، بَلْ خَرَجَ على أصلِه إلى مَعْنًى مجازيٍّ، وهو الشَّماتَةُ والإهانَةُ[4]، بقرينَةِ كَوْنِ المذوقِ هو العذابَ، وذلك أنَّ الكفَرَةَ المشاقّينَ للّهِ تعالَى ورسولِه ﷺ في حالٍ مَهينَةٍ مِنَ الهزيمَةِ في الدُّنيا، وتسَلُّطِ أهلِ الإيمانِ عليهم، وهذا قاطِعٌ بأنَّ أمرَهُم صادِرٌ علَى وجهِ الإهانَةِ والشَّماتَةِ لهُمْ؛ زيادَةً على ما هُم فيهِ مِنَ الذِّلَّةِ والمهانَة.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3082/6.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 205/2، والطّيبي، فتوح الغيب: 48/7، والآلوسي، روح المعاني: 168/5.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3082/6.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 285/9.

بَراعةُ المَجازِ في قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾:

الذَّوْقُ إحساسٌ بآلَةٍ خاصَّةٍ، ويُستَعمَلُ في معنى الإحساسِ بحاسَّةِ اللَّمْسِ مَجازًا

الذَّوْقُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾ مُسْتَعْمَلٌ مجازًا في معنَى الإحْساسِ بحاسَّةِ اللَّمْسِ، وهو مجازٌ مُرسَلٌ، بعلاقَةِ الإطلاقِ[1]؛ وذلك لأنَّ الذَّوْقَ إحساسٌ بآلَةٍ خاصَّةٍ، فأُطْلِقَ عَنْ هذا القَيْدِ، واستُعْمِلَ في مطلَقِ الإحساسِ، ويجوزُ أنْ تكونَ العلاقَةُ مَلْزوميَّةً؛ وذلك أنَّ الإحْساسَ لازِمٌ للذَّوْقِ، ويحْتَمِلُ أن يَكونَ ذَوْقُ العذابِ اسْتِعارَةً لإِحْساسِه؛ وذلك لأنَّ الذَّوْقَ أقْوَى الحواسِّ المُباشِرَةِ لِلْجِسْمِ، فشُبِّهَ بِهِ إحساسُ الجِلْدِ[2]، ففي قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالذَّوْقِ في قَوْلِه: ﴿فَذُوقُوهُ﴾:

العذابُ الدُّنيويُّ يَسيرٌ بالنِّسْبَةِ لشدَّةِ العَذابِ الأُخْرَوِيِّ

في التَّعبير بالذَّوْقِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾ وعيدٌ عظيمٌ، حيث جُعِلَ ما أصابَهُم مِنَ العذابِ الدُّنْيَويِّ العظيمِ بمنزِلَةِ الذَّوْقِ الَّذي هو مقدِّمَةٌ للطَّعام، فكذلك عذابُهُم هذا مقدِّمَةٌ لعذابٍ أعظَمَ، وهو عذابُ النّارِ، ولِذا قالَ البقاعيُّ: "واعْلَموا أنَّه بالنِّسْبَةِ إلى ما تَسْتَقْبِلونَهُ، كالمَذوقِ بالنِّسْبَةِ إلى المَذوقِ لِأجلِه"[3]، فما أصابَهُم من الآلامِ في الدُّنيا بالنِّسْبَةِ للعذابِ الأعظَمِ المعدِّ لهُم في الآخرةِ بمنزِلَةِ الذَّوْقِ؛ لأنَّ الذَّوْقَ لا يَكونُ إلّا بتَعَرُّفِ طَعْمِ اليَسيرِ ليُعْرَفَ به حالُ الكَثيرِ[4]. وفي التَّعبيرِ بالذَّوْقِ أيضًا: إشارَةٌ إلى آلامِ العذابِ، فقد ذاقوها وأحَسّوها، وذاقوا النَّكالَ والقَتْلَ، وذاقوا الذِّلَّةَ بَعْدَ الاسْتِكْبارِ[5].

سِرُّ التَّأكيدِ في قَوْلِه: ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾:

المُبالَغَةُ في إثْباتِ وُقوعِ العَذابِ على الكُفّارِ وتَحَقُّقِ إيصالِه إليهِمْ

أُكِّدَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، بـ (أنَّ) والجملة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 285/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 188/7.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 240/8.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 464/15، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 281/2.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3082/6.

الاسميَّةِ مبالغَةً في إثباتِ وُقوعِ العذاب على الكُفّارِ، وتحقُّقِ إيصالِه إليهِم، وأنَّ العذابَ هو عقوبةُ اللّه لمن خالف هَدْيَهُ، وخرج عن نهجه، فهو مستحقٌّ بذلك لعذاب النّارِ، وعذابُها أسوء العذاب وأشدُّه، ولهذا أكَّد اللّه أنّه للكافرين.

اجتماعُ العذابِ الدُّنْيَوِيِّ والعذابِ الأُخْرَوِيِّ على الكافِرينَ

دِلالَةُ الواوِ في قَوْلِه: ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الواوُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ عاطفةٌ، والمعنى: العقابُ المعجَّلُ هو الَّذي أصابَكُم في الدُّنيا مِن ضربِ الرُّؤوسِ والبنانِ؛ فذوقوهُ عاجلًا مع أنَّ لَكُم في الآخرةِ عذابَ النّار آجِلًا[1]، ويَجوزُ أن تكونَ الواوُ حاليَّةً بمعنى: ذلكم فذوقوه والحالُ أنَّ للكافرين عذابَ النّار.

الكُفْرُ أعْظَمُ أسْبابِ التَّعْذيبِ بالنّارِ، جزاءٌ من الله العزيز الغفّار

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَحلِّ الإضْمارِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضْمار، وذلك أنَّ مقتضَى الظّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وأنَّ لَكُم عذابَ النّارِ)، ولكنَّهُ عُدِلَ عَنْ ذلكَ لِنكاتٍ[2]؛ إحداها: تعليقُ الحُكْمِ بالوَصْفِ؛ ليكونَ تعليلًا، فكُفْرُهُم هو عِلَّةُ تعذيبِهم في النّار. وثانيها: توبيخُهُم على كُفْرِهِمْ. وثالثُها: تعميمُ الحُكْمِ؛ إذْ لو وردَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وأنَّ لكُم عذابَ النّارِ)؛ لتُوُهِّمَ اختصاصُهُ بالمذكورينَ قَبْلُ ممَّن قاتلَ أهلَ الإيمانِ في بَدْرٍ، ولكنْ لمّا أُظْهِرَ الاسْمُ؛ تبيَّنَ عُمومُ الحُكْمِ بعموم عِلَّتِه.

أعْظَمُ النّاسِ نَصيبًا مِن عَذابِ جَهَنَّمَ هُمُ الكافِرونَ لكُفرهم الماحق

دِلالَةُ تقديم المُسْنَدِ في قَوْلِه: ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾:

قُدِّم متعلَّقُ الخبرِ ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ على اسم (أنَّ)، وهو ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، والأصلُ: وأنَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 240/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4، وطنطاويّ، الوسيط: 54/6.

عذابَ النّارِ للكافِرينَ، وفي ذلكَ نُكْتَتان: إحداهُما: إفادَةُ القصْرِ؛ وذلك أنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ، يدلُّ عليهِ بالفَحْوَى، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا ليسَ حقيقيًّا؛ لِوُرودِ أدلَّةٍ متكاثِرَةٍ في الشَّرْعِ في وعيد العُصاةِ بالنّارِ، إلّا أنَّ الموحِّدين ممَّن يدخلونَ النّار بسَبَبِ ذنوبهم، ولم يغْفِرْها اللّهُ تعالى لهمْ؛ لا يُخلَّدونَ فيها، فأفادَ هذا أنَّ قَصْرَ عذابِ النّارِ على الكافرينَ، ليس قصرًا حقيقيًّا، وإنَّما سيقَ الكلامُ على وجْهِ القَصْرِ للإشْعارِ، بأنَّ لهم أعْظَمَ نصيبٍ مِن عذابِ جهنَّمَ. والأُخْرَى: أنَّ تأخيرَ المسنَدِ إليهِ أنسَبُ في التَّلاؤُمِ الصَّوْتيِّ لفَواصلِ الآيِ؛ فإنَّ بعدَ هذه الآيةِ قولَهُ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: 15].

دِلالَةُ اللّامِ في (الكافِرينَ):

كُلُّ مَنْ لا يَدينُ بدينِ الإسْلامِ، فإنَّ مآلَهُ نارُ جَهنَّمَ خالِدًا فيها

اللّام في (الكافِرينَ) مِن قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ يُرادُ بها الاستغْراقُ(1)، أي: أنَّ لكلِّ الكُفّارِ عذابَ النّارِ؛ لما تقرَّر في الشَّريعَةِ، مِن أنَّ كلَّ مَن لا يَدينُ بدينِ الإسْلامِ، فإنَّ مآلَهُ نارُ جَهنَّمَ خالِدًا فيها.

بَلاغَةُ التَّذْييلِ في الآيَة:

اجْتِماعُ الكَفَرَةِ في جَهَنَّمَ للعَذابِ، هو حُكم الله على من كفر وما تاب

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ جملةٌ تذييليَّةٌ؛ والمعنى: وأنَّ لكُم في الآخرَةِ عذابَ النّار، معَ جميعِ الكَفَرَةِ(2)، "إذًا فالهزيمة لمعسكر الكفر والذِّلة، هي مجرَّدُ نموذجِ ذوق هيِّن، لما سوف يحدث لهم يوم القيامة من العذاب الأليم، وعذاب الآخرة سيكون مهولًا"(3).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 285/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 285/9.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4605/8.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الأنفال: 15 - 16]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلهما:

العلاقةُ بين تقرير عقاب الكفّارِ وعذابهم، وأمْرِ المؤمنين بالثَّبات والشَّجاعة في الحرب

لَمّا بيَّنَ اللّهُ تعالَى إهانَةَ الكُفّارِ في الدُّنْيا بتَسْليطِ أهلِ الإيمانِ عليْهِم، ضربًا لرؤوسِهم وبَنانِهم، وفي الآخِرَةِ بما لهم مِنْ عذابِ النّارِ؛ أتْبعَهُ بنَهْيِ المؤمِنينَ عنِ الفِرارِ منهم، وتَهْديدِ مَن نكَصَ عنهم بَعْدَ البَيانِ المتقدِّم، وهو يدَّعي الإيمانَ، فقالَ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾[1]، "فيأمرُ اللّهُ تعالى عباده المؤمنين بالشَّجاعة الإيمانيَّة، والقوَّة في أمره، والسَّعي في جَلْبِ الأسباب المُقوّية للقلوبِ والأبدان، ونهاهم عن الفرارِ إذا التقى الزَّحفان"[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَحۡفٗا﴾: الزّاي والحاءُ والفاءُ، تدلُّ اشْتِقاقاتُها على بُطْءِ الحَرَكَةِ مَعَ الاحْتِكاكِ بالأرْضِ مِن ثِقَلٍ أو نَحْوِه[3]، وأصْلُ الزَّحْفِ: انْبِعاثٌ مَعَ جَرِّ الرِّجْلِ[4]، ومنه زَحْفُ الصَّبيِّ على الأرضِ قَبْلَ المَشْيِ؛ فإنَّ حرَكَتَهُ بَطيئَةٌ وفيها جرٌّ للأرْجُلِ، وكذا الجَماعَةُ يَزْحَفونَ إلى العَدوِّ[5]؛ لأنَّ اندفاعَهُم نحو العَدوِّ ومُضيَّهُم إليه قُدُمًا فيهِ بُطْءٌ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 240/8.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 317.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زحف).
(4) الرّاغب، المفردات: (زحف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زحف).

ليكونَ ذلكَ على جِهَةِ التَّحرُّسِ والتَّرصُّدِ لِلْفُرْصَةِ، ومنْهُ قولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾[1].

2) ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾: الدّالُ والباءُ والرّاءُ، تدلُّ تصريفاتُهُ على آخرِ الشَّيءِ وخَلْفِه[2]، ومنه الدُّبُرُ؛ وهو نَقيضُ القُبُلِ مِن كُلِّ شَيْءٍ[3]، ومنه: أدبارُ السُّجودِ، وهي أواخرُ الصَّلواتِ، وإِدْبارُ النُّجومِ: عند الصُّبحِ في آخرِ اللَّيلِ[4]، ووَلّاهُ دُبُرَهُ: كِنايَةٌ عَنِ الهزيمَةِ والفِرارِ مِنَ المعرَكَةِ[5]، ومنه قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، فهو نَهْيٌ لهم عَنِ الانْهِزامِ[6].

3) ﴿مُتَحَرِّفًا﴾: الحاءُ والرّاءُ والفاءُ، تدلُّ تصاريفُها على نِهايَةِ جانبٍ أو وجْهٍ من الشَّيْءِ، يَبْدَأُ بهِ جانِبٌ آخَرُ، ومنه الانحرافُ، وهو: العُدولُ والمَيْلُ عَنِ الشَّيءِ إلى جانبٍ منه[7]، وحرفُ الشَّيءِ طَرَفُهُ، ومنه قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحجّ: 11] أي: علَى طَرَفٍ مِنَ الدّينِ، ليسَ لَهُ ثَباتٌ فيهِ، (كالَّذي يَكونُ على طَرَفِ الجَيْشِ، فإنْ أحسَّ بظَفرٍ قَرَّ، وإلّا فرَّ)[8]. وقولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾، أي: مائلًا لأجلِ القِتالِ، وذلك إذا مالَ عَنْ مُعْظَمِ القتالِ ووسَطِ الصَّفِّ إلى مكانٍ هو أَمْكَنُ لَهُ؛ بقصدِ الكَرِّ والفرِّ[9].

4) ﴿مُتَحَيِّزًا﴾: الحاءُ والواوُ والزّايُ تدورُ اشتقاقاتُها حَوْلَ الجَمْعِ والتَّجمُّعِ، ولِذا يُقالُ لكلِّ مَجْمَعٍ وناحيَةٍ: حَوْزٌ وحَوْزَةٌ، ومنه قولُهُمْ: حمَى فلانٌ الحَوْزَةَ، أي: المَجْمعَ والنّاحيةَ[10]. وقولُ اللهِ ﷻ: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: يَصيرُ إلى حَيِّزِ فِئَةٍ مِنَ المُسْلِمينَ - أي: ناحيتِهم - يَمْنَعونَهُ مِنَ العدوِّ[11]، والتَّحوُّزُ التَّفعُّل، والتَّحيُّزُ التَّفيعل، وقال أبو إسحاق في معنى الآية،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 286/9.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبر).
(3) الحميريّ، شمس العلوم: (دبر).
(4) الخليل، العين: (دبر).
(5) الفيّوميّ، المصباح المنير: (دبر).
(6) الرّاغب، المفردات: (دبر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حرف).
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 66/4.
(9) بطّال الرّكبيّ، النّظم المستعذب: 278/2.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوز).
(11) الهروي، الغَريبَين: (حوز)، والرّاغب، المفردات: (حيز).

أي: إلّا أنْ يَنحازَ، أي: ينفرد ليكون مع المُقاتِلة، وأصله: متحيْوز، قلبت الواو ياء لمجاورة الياء، ثمَّ أُدغمت فيها، ويقال: هو (تفيعل) من الحوز[1]، قال الشّاعر:

تَحَيَّزُ مِنّي خيفَةً أنْ أضيفَها *** كَما انْحازَتِ الأفْعَى مَخافَةَ ضارِبِ[2]

5) ﴿بَآءَ﴾: الباء والواوُ والهَمْزَةُ تدُلُّ تصريفاتُها على مساواةِ الأجْزاء في المكانِ، وذلك ضدُّ النَّبْوِ الذي هو منافاةُ الأجْزاء[3]، ويدلُّ أيضًا علَى معنى الرُّجوعِ[4]، تقول العربُ: باءَ بإثمِه، إذا رَجَعَ به[5]. ويُستعمَلُ البَواءُ في مُراعاة التَّكافؤ، ومنه قولُ العرَب: فلانٌ بواءٌ لفلانٍ؛ إذا ساواهُ، ومنه قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 16]، أي: حلَّ مُبوَّأً، ومعَهُ غضَبُ اللّهِ تعالَى، واسْتِعْمالُ (باءَ) هَهُنا فيهِ إشارةٌ إلى أنَّ مكانَه الموافق يَلْزَمُه فيهِ غضَبُ اللّهِ تعالَى، فكَيْفَ بغَيْرِه مِنَ الأمكِنَةِ؟![6].

6) ﴿بِغَضَبٍ﴾: الغين والضّاد والباءُ، تَدور اشتقاقاتُها على معنى الشِدَّةِ والقوَّة، ومنه تسميَةُ العربِ الصَّخرةَ الصُّلبةَ بالغَضْبَةِ[7]، ومنه الغضَبُ؛ فإنَّه دالٌّ على شدَّةِ الغاضبِ وقوَّته، فإنَّ العبدَ إذا اسْتَشْعَرَ القُدرةَ؛ كان منه الغضبُ، وإنِ اسْتَشْعَرَ العَجْزَ؛ كان منه الحُزْنُ[8]. وأمّا قولُ الرّاغب في حقيقة الغضَبِ: إنَّهُ (ثورانُ دَم القَلْبِ إرادةَ الانْتِقام)، ورتَّب عليهِ أنَّ معنى الغضبِ في حقِّ اللّهِ تعالى، هو الانتقامُ دونَ غيره[9]؛ فغيرُ مُسلَّم، إذ حقيقةُ الغضبِ المذكورةُ عند الرّاغب، هي غضبُ المخلوقِ لا غضبُ الخالقِ، فإنَّ الغضبَ مِنَ الصِّفاتِ المعنويَّةِ الَّتي تُدْرَكُ بآثارِها، ومن آثارها في حقِّ المخلوقِ، ما ذكرَهُ الرّاغبُ، لا على أنَّ ذلك هو حقيقتُهُ[10]، فغضبُ اللّهِ تعالَى المذكورُ في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو غضبٌ يليقُ بجلالِ اللّه وعظَمَتِه.

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (حوز).
(2) البيت للقطاميّ. ينظر: الصّحاح واللّسان والتاج (حوز؛ حيز)، والحميريُّ، شمس العلوم: 1657/3.
(3) الرّاغب، المفردات: (باء).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بوأ).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (بوأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (باء).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).
(8) ابن تيميَّة، الرِّسالة الأكمليَّة فيما يجب لله من صفات الكمال، ص: 53.
(9) الرّاغب، المفردات: (غضب).
(10) يدلُّ على عدمَ صحّة تفسيرِ غَضَبِ اللهِ تعالى بالانتقامِ قولُ الله تعالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزّخرف: 55]، فإنَّ معنى ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا، فجَعَلَ الانتقامَ أثرًا مترتِّبًا علَى الأسَفِ، فدلَّ علَى أنَّهُ غيرُهُ، يُنظر: ابن عثيمين، القول المفيد: 422/1.

7) ﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾: الهَمْزَةُ والواوُ والياء، تدورُ تصريفاتُها على مَعْنَيَيْن: التَّجمُّعُ، والإشفاقُ[1]، ومِنَ الأوَّلِ التَّأوّي، وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[2]، والمَأْوَى: المكانُ الَّذي يُنْصرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[3]، والمَأْوَى في قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ﴾ المصير الَّذي يَأْوي إليه يومَ القيامَةِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نــداءٌ عــامٌّ لـلـمـؤمـنـين، لـلـثَّـبـات في مـواجـهـة المُعتدين، دون استدبار ولا فرار

يا مَنْ آمَنَ باللّهِ تعالى واتَّبعَ رسولَهُ ﷺ، إذا قابلْتُمُ المُشْركينَ في القِتالِ متقارِبَيْن؛ فلا تولّوهُم ظُهورَكُم، فتَنْهَزِموا عنهم، ومَن يولِّهم مِنكُم ظَهْرَهُ هاربًا منهم، غَيْرَ مُنْعَطِفٍ لِقتالِهم، بأنْ يُريَهُمُ الفرَّ مَكيدَةً منه، وهو يُريد الكَرَّ عليهم، أو غَيْرَ صائرٍ إلى حَيِّزِ المُؤْمِنينَ الَّذينَ يَفيئُونَ به معَهُم إليهم لِقتالِهمْ؛ فقد رَجَعَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ واسْتَحَقَّهُ، ومصيرُهُ الَّذي يأْوي إليه يومَ القيامَةِ جَهَنَّمُ، وبِئْسَ الموضِعُ الَّذي يصيرُ إليهِ ذلكَ المَصيرُ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ قَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

التَّحذيرُ مِنَ الوَهَنِ ومن الفِرارِ عند مواجهة العَدوِّ الأرعن

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا ابتدائيًّا[5]، فإنَّ اللّهَ سُبحانَهُ لَمّا ذكَّر المؤمنينَ بما أيَّدَهُم بِهِ يومَ بدرٍ مِنَ الملائكَةِ والنَّصْرِ من عنِده؛ اعترَضَ في خلالِ ذلكَ بتحذيرِهم مِنَ الوَهَنِ والفِرارِ من عُدوِّهم، وفي ضِمْنِ ذلكَ أمرٌ لهم بالثَّباتِ والصَّبْرِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(2) الخليل، العين: (أوى).
(3) ابن أبي نصر الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(4) الهروي، الغَريبَيْن: (حوز)، والرّاغب، المفردات: (حيز).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 9/286.

نُكْتَةُ النِّداءِ بـ(يا) في قَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

جاء النِّداءُ بـ (يا) في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهي في الأصل لِنداء البَعيدِ، ونداءُ اللّهِ سبحانه لعبادِه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المخلوقين، فجديرٌ أنْ يَكونَ بأداةِ النِّداء لِلْبَعيدِ، وفي التَّعبير بأداة النِّداء لِلْبَعيد نِكاتٌ: أولاها: بُعْدُ ما بين الخالِق والمَخْلوقِ مِنَ المَكانةِ. وثانيها: أنَّه نداء مِنَ الخالِق، وهو مُقْتَضٍ أعلَى العلوِّ وأبعدَهُ. وثالثها: عِظَمُ شأنِ موضوع النِّداءِ، وإظهارُ العنايَةِ بِهِ والمُبالَغَةُ في حَثِّهم علَى المُحافظَةِ عليه[1].

الـحَـثُّ علـى الصَّبْرِ والثَّباتِ، والتَّحْذيرُ مِنَ الوَهنِ والفِرارِ

سِرُّ النِّداءِ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

النِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ في قَوْلِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيهِ ضَرْبٌ مِن تَقْوِيَةِ النِّداءِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّ (أيّ) لا يُفْهَمُ المرادُ مِنها إلّا باسم بعْدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهام إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وفي هذا نَوْعُ توكيدٍ، وفي اقترانه بـ(ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصل يُرادُ به التَّنبيهُ.

الانْـتِـقـالُ مِـنَ الإبْـهـامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ مِـنْ مُـقَـوّيـاتِ المَعَاني

دلالةُ النِّداءِ باسْمِ الإيمانِ:

وقَعَ النِّداءُ باسْمِ الإيمانِ في قَوْلِ اللّهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لكونِ الإيمانِ صَبْرًا وفِداءً، فالنِّداءُ باسم الإيمانِ تحريضٌ علَى الصَّبْرِ عند اللِّقاءِ، والثَّباتِ عند الصِّعاب[2]؛ لِما يُشْعِرُ بهِ وصفُ الإيمانِ مِنَ الاستعدادِ لامتثالِ ما يأمرُهم اللّهُ تعالَى به؛ وذلك لأنَّهُ أخصُّ أوصافِهم تُجاهَ أوامرِ اللّهِ ﷻ[3]، كما قالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النّور: 51].

أخَصُّ أوصافِ المؤمنين: امْتِثالُهم الأوامِرَ، وانزجارُهم عنِ الزَّواجرِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 12/4.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3084/6.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/10.

نُكْتَةُ مَجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

حَثُّ أهْلِ الإيمانِ على تَجْديدِ إيمانِهم والثَّباتِ عليه

جاءتِ جملةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا، في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّد والحدوث؛ حثًّا لِلْمُخاطَبين على تَجْديد إيمانِهم والاستمرارِ عليه، وفي الإتيانِ بها فِعْلًا ماضيًا هاهُنا إشعارٌ بأنَّ وصفَ الإيمانِ ثابتٌ لهم، وأنَّهُم مُتَحَقِّقونَ به؛ لأنَّهم آمنوا بمجرَّد أن سمعوا الحقَّ.

فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ مِن قَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

حَقيقَةُ الإيمانِ مُسْتَقِرَّةٌ في النُّفوسِ، ولها تخضعُ النَّواصي، وتُطأطَأُ الرُّؤوسُ

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهو المُؤْمَنُ به، وفي ذلك مَسْلَكانِ: أحدُهما: ظهورُ أفرادِ المؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ لَهُ حقيقةٌ شَرْعيَّةٌ مَعْروفةٌ، فإذا أُطْلِقَ لفظُ الإيمانِ انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلكَ الحَقيقةِ، مِن غَيْرِ افتِقارٍ إلى التَّنصيص على مُتَعَلَّقه. والآخر: إرادَةُ العموم؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُؤْذِنٌ بالعُموم، والمعنى: آمَنوا بجَميع ما يجبُ الإيمانُ به شرعًا.

نُكْتَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بـ ﴿إِذَا﴾:

الحَقُّ والباطلُ في صِراعٍ دائِمٍ، لا ينتهي إلى يوم القيامة

في قَوْلِه: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفًا﴾ أداةُ الشَّرْطِ (إذا) تَدُلُّ في الأَصْلِ علَى تحقُّق وقوعِ مَدْخولِها، ولذا كانَ الغالِبُ في الفِعْلِ المُسْتَعْمَلِ معها، أن يكون ماضيًا؛ للدِّلالة على تحقُّق الوقوع المُناسِب لِما تُفيده (إذا)، والتَّعبير بهذا في قوله سُبْحانَهُ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفًا﴾ إشعارٌ بتحقُّقِ لقاءِ المؤمنينَ الكفرَةَ، وأنَّ القِتالَ بينَهُم كائِنٌ لا محالَةَ؛ إذْ لا يَزالُ الحقُّ والباطِلُ في صِراعٍ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالصِّلَةِ في قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

تَحْريضُ المُؤْمِنينَ على الثَّباتِ في مواجهةِ مَنْ كَفَرَ باللهِ تعالَى وآذَى أولياءَهُ

في التَّعبير بالاسْم الموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تَحْريضٌ أشدُّ لِلْمُؤْمنينَ؛ إذْ إنَّهُم أُمِروا بالثَّباتِ مقابِلَ مَنْ كَفَروا بربِّهِم، وآذَوْا أولياءَهُ، وأخْرَجوهُم من ديارِهم، وظاهَروا على ذلِكَ[1].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/10.

كفرُ الكفّار جراءةٌ على الله الواحد القهّار

سِرُّ مَجيءِ جُملَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

جاءتِ جملةُ الصِّلَةِ فعْلًا ماضيًا: ﴿كَفَرُواْ﴾، في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾؛ للدِّلالَةِ علَى تجدُّدِ الكُفْرِ فيهم؛ وفي هذا زيادَةُ حثٍّ على مُصابَرةِ هؤلاءِ وقِتالِهمْ؛ إذْ عَظُمَت جراءَتُهُم على ربِّهم ﷻ بالكُفْرِ به وبما يجبُ الإيمانُ به، وفي الإتيانِ بجملَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا، إشعارٌ بأنَّ وصفَ الكُفْرِ ثابِتٌ لهم مُتَحَقِّقٌ فيهِمْ.

تَعظيمُ شَأْنِ أهلِ الإيمانِ، وحَطُّ أقْدارِ أهْلِ الكُفْران

بَلاغَةُ الطِّباقِ اللّفظي:

في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾، فيه طباقُ إيجابٍ بينَ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾، وفي هذا بيانُ عظيمِ التَّفاوُتِ بينَ الطّائفتَيْنِ؛ تعظيمًا لأهلِ الإيمانِ، وحطًّا وتَحقيرًا لأهْلِ الكُفْرِ؛ لأنَّ الضِّدَّ يُظْهِرُ حُسْنَ ضِدِّه وقُبْحَهُ.

الحَثُّ على الثَّباتِ والمُصابَرَةِ حالَ لِقاءِ الكَفَرَةِ

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿زَحۡفٗا﴾:

لفظ ﴿زَحۡفٗا﴾ من قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾ مصدَرٌ، وقع حالًا، ولِذا لَم يُجْمَعْ، كقولِ العربِ: قومٌ عَدْلٌ ورِضًى[1]، وجاءَ التَّعبيرُ عَنْ حالِ لقائِهم بالمصدَرِ لقصْدِ المبالَغَةِ في التَّشبيه، والمعنى: إذا لقيتُم الّذين كفروا حالَ كَوْنِهم مُحارِبينَ، وهُم مِنَ الكثْرَةِ بحَيْثُ لا يُدْرَكُ مِن تحرُّكِهم إلّا كما يُدْرَكُ مِنَ الزَّحْفِ[2].

تَصْويرُ مَشْيِ الطّائِفَتَيْنِ في الكَثْرَةِ والاحْتِراسِ في صورَةِ الزّاحِفِ

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في الآيَة:

في قَوْلِه تعالَى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾ استعارة، فأصلُ الزَّحْفِ مشيٌ مع جرِّ الرِّجْلِ، ومنه انْبعاثُ الصَّبيِّ قبْلَ أن يمشيَ، فشُبِّهَ مشيُ الطّائفتَيْنِ بعضِهم إلى بعضٍ في القِتالِ بالزَّحْفِ، على طريقَةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، وفي ذلك نُكْتَتانِ؛ إحداهما: الإشعارُ بأنَّ كُلَّ طائفَةٍ تمْشي إلى نظيرَتِها مشْيًا رُوَيْدًا قبْلَ التَّنادي

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 336/4.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 240/8.

للقتالِ؛ لأنَّ كلًّا منهما يَدْنو إلى الآخَرِ باحْتِراسٍ وتَرَصُّدٍ لِلْفُرْصَةِ[1].

وثانيهما: الدِّلالَةُ علَى كثْرَةِ المُقاتِلينَ، حتَّى إنَّهم مِن كثْرَتِهم الكاثِرةِ يُرَوْنَ كأنَّهم شيءٌ يَزْحَفُ؛ وذلك لأنَّ الجميعَ يُرَوْنَ بمنزِلَةِ الجسْمِ الواحدِ المُتَّصلِ، فتُحَسُّ حركتُهُ بالنَّظرِ إليه في غايةِ البُطْءِ وإن كانَت في نَفْسِ الأمْرِ علَى غايَةِ السُّرْعَةِ[2].

دِلالَةُ الفاءِ في قَوْلِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾:

النَّهْيُ عَنِ الفِرارِ مِن النِّزالِ دعوةٌ للثَّباتِ في كلِّ الأحوالِ

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ واقعَةٌ في جوابِ الشَّرْطِ[3]؛ لكونه جملةً طَلَبيَّةً، فالفاءُ رابِطَةٌ بين الشَّرْطِ ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾، والجوابِ: (لا تولّوهُمُ الأدْبارَ)، ووجود الفاء دلالة على بلاغة الحَذْفِ، على تقدير: (إذا لقيتم الَّذين كفروا زحفًا؛ تعيَّن عليكم القتالُ، فلا تولّوا الأدبار).

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَوْلِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾:

المُرادُ بالنَّهْيِ عَنْ تَوْليَةِ الأدْبارِ: النَّهْيُ عَنِ الفِرارِ والانكسارِ

تَوْلِيَةُ الأدْبارِ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾، كنايَةٌ عن الفرارِ مِنَ الأعداءِ، بقرينَةِ ذِكْرِه في سياقِ لقائِهم، فتَوْليَةُ الأدبار مُستعمَلٌ في لازِمِ مَعْناهُ، مع بعضِ معناهُ الأصليِّ؛ وذلك لأنَّ صرفَ الظَّهرِ إلى العَدوِّ بعْدَ النَّصرِ للانْصرافِ إلى المعسكَرِ مِنَ الضَّروراتِ، وليسَ هذا بالمَنْهيِّ عنه، وإلّا لَزِمَ منه أن يَبْقَى المُسْلِمون مواجهِينَ جيشَ عَدوِّهم مواجهةً دائمَةً، فدلَّ هذا على أنَّ المرادَ بالنَّهْيِ عَنْ توليَةِ الأدبارِ النَّهْيُ عَنِ الفرارِ مِنَ الأعداءِ قَبْلَ النَّصرِ أو القَتْلِ[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 464/15، والخازن، لباب التّأويل: 299/2، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 286/9.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 12/4.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/10.

(4) الخازن، لباب التّأويل: 299/2، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 289/9.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالأدْبارِ دونَ الظُّهورِ:

تَقْبيحُ فِعْلِ الفرار، وتَبْشيعُ الانْهِزامِ، للحفاظ على الأُمَّة

عُدِلَ عنِ التَّعبير بالظُّهور إلى التَّعبير بالأدبار في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾، فلَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (فلا تولّوهم الظُّهور)؛ تقبيحًا لِفعْلِ الفارِّ، وتَبْشيعًا للانْهِزام، وتنفيرًا منه؛ لأنَّ القُبُلَ والدُّبُرَ يُكَنَّى بهما عَنِ السَّوْءَتَين[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ دونَ (أدْبارِكُمْ):

المُسْلِمُ في النِّزال مُكَلَّفٌ بفِعْلِ نَفْسِه وغَيْرِه؛ مُبالَغَةً في وحدة الإسْلامِ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ دونَ (أدْبارِكُم)، في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾، فلَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (فلا تولّوهُم أدْبارَكُمْ)؛ إشعارًا بأنَّ المُسلِمَ في القِتالِ، قد كُلِّفَ بفِعْلِ نفسه وبفِعْلِ غيرِه، مبالغَةً في اتِّحادِ كلمةِ أهلِ الإسْلام؛ لئلّا يتطرَّقَ الوَهَنُ إليهم، وذلك لأنَّ العَبْدَ إذا ولَّى دُبُرَهُ هاربًا؛ كان ذلكَ سببًا لِتَوَلّي غَيْرِه؛ لِما يُلْحِقُهُ هَرَبُهُ من وهَنِ العَزائم، وبهذا صَحَّ نَهْيُهُ عن فِعْلِ غيرِه بهذا الاعْتِبارِ، فإذا رأى غيرَهُ ولَّى دُبُرَهُ؛ وجبَ عليه ألّا يولّيَ هو دُبُرَهُ، بل يَصْبِرُ، ويثْبُتُ، ويُقاتِلُ عمَّن ولَّى دُبُره ليَرْجِعَ، ويُقاتِلَ[2].

بَراعَةُ الالتِفاتِ مِنَ الجَمْعِ إلى الإفْرادِ:

وُجوبُ التَّضافُرِ والتَّآزُرِ وعدمِ جَوازِ الانْفِرادِ بِرَأْيٍ دونَ الجَماعَةِ

في قَوْلِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾، التفاتٌ بالعَدَدِ مِنَ الجَمْعِ ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾، إلى الإفْرادِ ﴿يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾، فذكَرَ الفارَّ مُفْرَدًا؛ للإشارَةِ إلى وجوب التَّضافُرِ والتَّآزُرِ، وألّا ينْفَرِدَ المقاتِلُ برأيٍ دونَ باقي الجماعَةِ، وألّا يَكونَ إلّا معَهُمْ[3].

دِلالَةُ التَّنْوينِ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ مِن قَوْلِه: ﴿يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾:

التَّنوينُ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 292/5، والخفاجيّ، عناية القاضي: 259/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 169/5، وطنطاويّ، الوسيط: 61/6.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 281/2.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3084/6.

عِوضٌ عَنِ المُضافِ إليه، وهو إيماءٌ إلى يوم اللِّقاءِ الَّذي دلَّ عليه قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والتَّقدير: (ومَن يولِّهم دُبُرَهُ يومَ لقائِكُمُ الَّذين كفَروا)، ففيهِ إيجازٌ بحذْفِ جُملَةٍ[1].

طَـيُّ بعض الكَلامِ وإبْقاءُ ما يَدُلُّ عَلَيْه من فصيح البيان

دِلالَةُ (اللّامِ) في قَوْلِه: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾:

اللّامُ في قَوْلِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ لامُ التَّعليل، و(إلّا) للاستثناء، والمعنى: إلّا في حالِ مجانبَةِ مُعظَم القتالِ ووسطِ الصَّفِّ إلى مكانٍ أمكنَ لَهُ لأجْلِ القِتالِ بالكَرِّ والفرِّ[2].

جـوازُ التَّزحزح عن وسَطِ الصَّفِّ لِأجْـلِ الـقِـتـالِ بالكَرِّ والفَرِّ

دِلالَةُ الرَّبْطِ بالفاءِ:

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ رابطَةٌ لِجَوابِ الشَّرْطِ في قولِه: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ﴾، وذلك أنَّه لمّا جيءَ بالشَّرْطِ؛ كان ذلك محلًّا لتوقُّعِ السّامِعِ للجوابِ، وتفريغ ذهنِه لهُ، فجيءَ بالفاءِ إشعارًا بأنَّ الفِعْلَ المُتَحدَّث عنه قَبلُ سببٌ لهذا الجزاءِ[3].

تَرْتيبُ غَضَبِ اللهِ تَعالَى على مُجانَبَةِ وسَطِ الـصَّـفِّ لِـغَـيْرِ قَصْدٍ صَحيحٍ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالبَوْءِ في الآيَة:

عُبِّرَ بالبَوْءِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للإشعارِ بلُزومِ غضبِ اللّهِ تعالَى لهم أينَما حلّوا؛ إذْ معنى قولِ اللّه سُبحانَهُ في هذه الجملة من الآيَة ﴿فَقَدۡ بَآءَ﴾: حلَّ مُبوَّأً، ومعَهُ غَضَبُ اللّهِ جلَّ وعلا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ مَكانَه الملائمَ لَهُ يَلْزَمُه فيهِ غَضبُ اللّهِ سُبْحانَهُ، فكَيْفَ بغيْرِه منَ الأمْكِنَةِ؟[4]

الفارُّ مِنَ المَعْرَكَةِ تلحقه لعنةُ الله السّاحقة، وآثار غَضَبِه الماحقة

دِلالَةُ (الباءِ) في: ﴿بِغَضَبٖ﴾:

الباءُ في قَوْلِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للإلصاقِ والمُلابَسَةِ، أي: إنَّه قد رجَعَ وغضبُ اللّهِ تعالى ملاصِقٌ

من باء بغضَبِ اللـهِ تـعـالَى؛ فقد خَسِرَ الدُّنيا والآخرة

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 510/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 292/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 290/9.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 241/8.
(4) الرّاغب، المفردات: (باء).

لهُ ومُلابِسٌ، وهذا فيه إشعارٌ بلُزومِ الغضبِ عليه؛ لعظيمِ جُرْمِه وشنيعِ فِعْلَتِه[1].

سِرُّ تَنْكيرِ الغَضَبِ في قَوْلِه: ﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ﴾:

عِظَمُ العَذابِ في الآخرة على قدرِ الفِعالِ الفاجرة

تَنكيرُ الغضَبِ في قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يُرادُ به التَّعظيمُ والتَّفخيمُ، فهُم قد باؤوا بغِضَبٍ عظيمٍ؛ لعِظَمِ جُرْمِهم وشناعَةِ صنيعِهم، وزادَ الغضبَ دِلالةً على التَّعظيمِ وصفُهُ بـ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ الجارَّ والمَجْرورَ مُتعَلِّقٌ بمَحْذوفٍ صفةٌ لـ (غضبٍ)، فأفاد مجموعُ ذلك: كونَهم باؤوا بغضبٍ مؤكَّدٍ؛ فقد اجتمعتِ الفخامةُ الذّاتيَّة المُستَفادَةُ من تَنْكيرِ الغضَبِ، والفخامةُ الإضافيَّةُ المُستَفادةُ من إضافَتِها إلى الاسمِ الأعظمِ (اللّه)[2].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّهَكُّمِيَّةِ:

التَّهكُّمُ مِن أشَدِّ أنـواعِ العَذابِ، وأكـثرُه تأثيرًا في البلاغ

في قَوْلِه: ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ استعارة تهكّميَّة، فأصلُ المَأْوَى: المكانُ الَّذي يُنْصرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[3]، وإنَّما يُؤْوَى إلى مكانٍ فيه استقرارٌ واطمئنانٌ، فمجيءُ التَّعبيرِ القرآنيِّ عن جهنَّمَ بالمَأْوَى في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ﴾ من بابِ الاسْتِعارَةِ التَّهكُّمِيَّة، وهذا أشدُّ وقعًا على النُّفوسِ؛ لِما فيها مِنَ الإنْزالِ لِقدرِ المخاطَبِ والحَطِّ منه[4].

تَوْجيهُ المُتَشابِه اللَّفْظِيِّ:

دِقَّـةُ الـنَّـظْـمِ الـقـرآنيِّ في اختيارِ حُـروفِ المَـعـانـي، بما يُناسِبُ السّياقَ

جاء التَّعبيرُ في هذا الموضعِ بالواوِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ﴾، وفي آلِ عمرانَ بـ (ثُمَّ)، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 197]، وجيءَ بـ (ثُمَّ) في آلِ عمرانَ؛ لأنَّ هذه الآيَةَ سُبِقَتْ بقَوْلِ اللهِ جلَّ وعلا: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/291.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/13.
(3) الحُمَيْديّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين، ص: 266.
(4) يحيى العلويّ، الطِّراز لأسرار البلاغة: 1/127.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، وتصرُّفُهم في التِّجارَة وإصابتُهم الأمْوالَ، قد يطولُ زَمَنُهُ، ولذا ذُكِر حَرْفُ العَطْفِ (ثُمَّ) الدّالِّ على التَّراخي.

بخلافِ آيةِ الأنْفالِ؛ فقد وردَ العَطْفُ فيها بالواوِ، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لعدمَ تضمُّنِها ما يقتضي التَّراخي، فكان الأنسبُ العطفَ بالواوِ المفيدةِ الاشتراكَ في الحُكْمِ.

بَلاغةُ الاعْتِراضِ في الآيةِ الكريمة ودوره في الدَّلالة:

تَدْريبُ المُسْلِمينَ على الشَّجاعَةِ والإقْدامِ، والثَّباتِ عند لِقاءِ الأعْداءِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ بين قولِه سُبحانَهُ قَبْلُ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾، وقولِه ﷻ بَعْدُ: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾، وفي هذا الاعتراضِ تدريبٌ للمُسْلِمينَ علَى الشَّجاعَةِ والإقْدام والثَّبات عند لقاءِ الأعْداءِ، وهيَ طريقَةٌ حسنَةٌ عند العَرَبِ، وقد زادَها الإسْلامُ تقويةً[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المأْوَى والمثْوَى:

المأوى أعمُّ من المثوى، لكنَّ الإقامةَ في المثوى أكثرُ دوامًا

ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ المأوَى والمَثْوَى بمعنًى واحدٍ، وفرَّق بينهما جماعةٌ، وحاصلُ الفرقِ بينهُما من وجْهَيْنِ: أحدهما: أنَّ المأوى أعمُّ من المثوَى؛ لأنَّ المثوَى يتضمَّنُ معنى الإقامةِ، بخلاف المأْوَى[2]، فقد يدلُّ على معنَى الإقامة، وقد لا يدلُّ عَلَيْها؛ ولذا قد يأوي الإنسانُ إلى مكانٍ عارضٍ، ولذا جاء في الحديث قولُ النَّبيِّ ﷺ: «انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُم حَتَّى أَوَوا المَبيتَ إلى غارٍ»[3]

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/10.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 301/2، والهرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 222/5.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم: (2272) واللَّفظ له، ومسلم في صحيحه، برقم: (100).

- في القصَّة المشهورة - فعبَّر عن مَبيتِهم العارِض في غارٍ بالإيواءِ. وثانيهما: أنَّ الإقامةَ إن دلَّ عليه لفظ (المأوى) يُفارق الإقامةَ التي يدلُّ عليه لفظُ (المَثْوَى)؛ لأنَّ الإقامةَ في المثوَى إقامةٌ مع دوامٍ، بخِلافِها في المأوى[1]، فالمأوى قد يُقيم فيه المرءُ إقامةً طَويلَةً، ولكنَّ المثوَى تقتضي الإقامةَ الدّائمةَ[2]، وقد جُمِعَ بين المَأْوَى والمَثْوَى في آيةٍ واحدةٍ، وهي قولُ اللّٰه تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾ [آل عمران: 151]، وهو يؤيِّدُ أنَّ في المثوى أمرًا زائدًا على المأوَى، ففي ذِكْرِ المَثْوَى بعد المأوى إشارةٌ إلى خُلودِهم، ولذا قُدِّم المأوى؛ بالنَّظر إلى التَّرتيب الوجوديِّ؛ فإنَّ الكافرَ يأوي ثُمَّ يَثْوي[3].

---

(1) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروقُ اللُّغويّة في القرآن الكريم، ص: 167 - 168.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1450/3.

(3) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 352/2.

﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٧﴾ [الأنفال: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نسبةُ النَّصرِ كُلِّه لله، تبرُّؤٌ من الحولِ والقوَّةِ، الدّاعيةِ إلى التَّنازعِ في الغنائِم

لَمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآياتِ السّابقةِ أسبابَ نَصْرِه وتأييدِه للمؤمنين بإمدادِهم بالملائكةِ وتثبيت أقدامِهم، ونحو ذلك من أسبابِ النَّص التّي سبق ذكرُها في الآياتِ، وظنَّ المؤمنون أنَّهم هم الذين قَتلوا المشركينَ حقيقةً؛ بيَّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنّه الفاعلُ الحقيقيُّ لهذا النَّصرِ، بقتلِه للكافرين وتصويبِه الرَّمي إليهم، وأنَّ ما أجراه اللّهُ تعالى على أيدي المؤمنين؛ فهو بتوفيقِ اللّهِ لهم، فالآيةُ عَودٌ لإتمامِ الحديثِ في قولِه: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأنفال: 12].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿رَمَيۡتَ﴾: الرَّميُ يُقالُ في المقالِ، كنايةً عن الشَّتم كالقَذْفِ، نحو: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النّور: 6] ويُقالُ في الأعيانِ كالسَّهم والحَجَرِ[1]، وهو ما عناه قولُه تعالى هنا: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2]، وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، أي: نصرَك[3].

2) ﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾، ﴿بَلَآءً﴾: يُقالُ: بَليَ الثَّوبُ بلًى وبَلاءً، أي: خَلِقَ، وبَلَوْتُه: اختبرتُه، كأنّي أخلَقتُه من كَثْرةِ اختباري له، قالَ تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ [البقرة: 155]. وسُمّيَ الغَمُّ بلاءً من حيثُ إنَّه يُبْلي الجِسمَ، ومن هذا الوجهِ سُمّيتِ التَّكاليفُ بلاءً؛

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 366، والفخر الرّازي، مختار الصّحاح: (رمى).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 406/1، والرّاغب، المفردات، ص: 366، والشَّوكاني، فتح القدير: 423/2.
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ص: 244.

لأنَّ فيها مشاقًّا على الأبدانِ، ولأنَّها اختباراتُ اللّهِ تعالى للعبادِ، تارةً بالمسارِّ؛ ليشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليصبروا، فصارتِ المِنحةُ والمِحْنةُ جميعًا بلاءً، فالمحنةُ مقتضيةٌ للصَّبرِ، والمنحةُ مقتضيةٌ للشُّكرِ، قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾، وإذا قيلَ: ابتلى فلانٌ كذا وبلاهُ، فذلك يتضمَّنُ أمرين: أحدهما: تَعَرُّفُ حالِه، والوقوفُ على ما يُجهَلُ من أمْرِه، الثّاني: ظهورُ جودتِه ورَداءتِه، وربَّما قُصِدَ به الأمرانِ، وربَّما يُقصَدُ بِهِ أحدُهُما، فإذا قيلَ في اللّه تعالى ابتلاه، فليس المرادُ منهُ إلّا ظهورَ جودتِه ورداءتِه دونَ التَّعرُّف لحالِه والوقوفِ على ما يُجهَل من أمْرِه، إذ كانَ اللّهُ علّامَ الغيوبِ[1]، وعلى هذا قولهُ ﷻ: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]، وقولُه تعالى هنا: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ أي: ليُعرِّفَ المؤمنينَ نِعْمتَهُ عليهم من النَّصرِ والغَنيمةِ والأجْرِ والمَثوبة[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللّهُ ﷻ هو الَّذي مكَّن للمسلمين يومئذٍ من عدوِّهم، وأنَّ يدَ اللّهِ تعالى هي الَّتي ضَرَبَتْهُم تلك الضَّربةَ القاضيةَ، وأنَّ المسلمين لم يكونوا إلّا أسبابًا ظاهرةً، أجرى اللّهُ على أيديهم ما أخذَ بِهِ عدوَّهم، فالنَّصرُ ليس بحَوْلِكم ولابقوَّتِكم قتلْتُم أعداءَكم مع كَثْرَةِ عَددِهم وقِلَّةِ عَددِكم؛ بل هو الَّذي أظْفرَكم عليهم[3]، ثمَّ قالَ تعالى لنبيِّه ﷺ في شَأْنِ القَبْضةِ من التُّراب الَّتي حَصَبَ بها وُجوهَ الكافرينَ يوم بَدْرٍ حينَ خَرَجَ من العريشِ بعدَ دُعائِه وتَضرُّعِه واسْتكانتِه لربِّه، فرماهم بها، وقالَ: «شاهَتِ الوُجوهُ»، ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

النَّصرُ مِنَ اللهِ وحدَهُ؛ لأنَّهُ موجِدُ الأسبابِ، وصاحبُ القوّةِ الّتي ليس لها غلاب

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 145، والفخر الرّازي، مختار الصِّحاح: (بَلَيَ).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/272.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 3/581.

رَمَىٰ﴾، فلم يَبْقَ مُشرِكٌ إلّا دَخَلَ في عَينَيْه من ذلكَ التُّرابِ شيءٌ[1]، فطفِقَ المؤمنونَ يَقْتلونَهم ويأسِرونَهم، وكان في ذلك نعمةٌ عظيمةٌ من اللّهِ على المؤمنينَ، حيثُ أظْهرَهم على عَدوِّهم مع كَثْرةِ عددِهم وعُدَّتِهم؛ ليعرِفوا بذلك حقَّهُ، ويشكُروا نِعْمتَه وفضلَه عليهم ورحمتَه بهم[2]، فهو سميعٌ لدعائِهم واستغاثتِهم عليمٌ بصدقِ نيّاتِهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الفاءِ في عبارة: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾:

تعليلُ الأفعالِ بيانٌ لحقيقتِها، وإصلاحٌ لعقيدةِ مَن قامَ بالفعلِ

الأَظْهرُ أنَّ الفاءَ فصيحةٌ، ناشئةٌ عن جملة: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ [الأنفال: 12]، تُفصِحُ عن مُقدَّرٍ قَبلَها شرطٍ أو غيرِه[3]، والأكثرُ أن تكونَ شرطًا، فتكونَ رابطةً لجوابِه، والتَّقديرُ هنا: إذا عَلِمتُم أنَّ اللّهَ أوحَى إلى الملائكةِ بضرْبِ أعناقِ المشركين، وقَطْعِ أيديهم، فلم تقتلوهم أنتُم، ولكنَّ اللّه قَتَلَهم، أي: فقد تبيَّنَ أنَّكم لم تقتلوهم أنتُم، أو على تقديرِ: إنِ افتخرتُم بقَتْلِهم؛ فأنتُم لم تقتلوهم، والمعنَى واحدٌ[4]، وكلُّ تقديرٍ يحقِّقُ مقصودَ السّورةِ، وهو التَّدريبُ على التَّبرُّؤِ مِنَ الحَولِ والقوَّةِ، وعدمِ نسبةِ النَّصرِ للأسبابِ.

ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ عاطفةً على جملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ [الأنفال: 15]، أي: يتفرَّعُ على النَّهيِ عن أنْ تولّوا المشركينَ الأدْبارَ تَنْبيهُكُم إلى أنَّ اللّهَ هو الَّذي دَفَعَ المشركينَ عنكم، وأنتُم أقلُّ منهم عَدَدًا وعُدَّةً، والتَّفريعُ بالفاءِ تفريعُ العلَّةِ على المعلولِ، فإنَّ كونَ قتلِ المشركينَ

---

(1) رواه ابن جرير، المعجم الكبير، برقم: (11750)، وقال الهيثميُّ في مجمع الزَّوائد: 87/6: "رجالُه رجال الصَّحيح".

(2) ابن جرير، جامع البيان: 136/9، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 271/2 - 272.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 293/9.

(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 149/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 295/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 586/5.

ورَمْيِهم حاصلًا من اللهِ لِأمْنِ المسلمينَ، يُفيدُ تعليلًا وتوجيهًا لِنَهيهم عن أنْ يولّوهُمُ الأدْبارَ، ولأمرِهمُ الصَّبرَ والثَّبات، وهو تعريضٌ بضمانِ تأييدِ اللهِ إيّاهم إنِ امّتثلوا؛ لقولِه: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

دَلالةُ دخولِ النَّفْيِ على المضارعِ، في مقابلِ الإثباتِ في الماضي:

النَّصرُ للهِ ومن الـلـهِ، وليس للأسبابِ

الظّاهرُ أنَّ دخولَ النَّفي على المضارعِ والحالِ - بأنَّ القتلَ كان حاصلًا - تأكيدٌ على أنَّهم لا حولَ لهم ولا قوَّة في القتلِ، فكأنَّهُ لم يحدث منهم قتلٌ، فعبَّرَ عمّا كانَ بما لم يقع، وجاءَ في مقابلِهِ الماضي النّاسبُ حقيقةً ماحدثَ للّهِ، ولذلك يظهرُ فواتُ هذه الفائدةِ البلاغيَّةِ، لو قيلَ: ما قتلتموهم، ولكنَّ اللّه قتلَهم، فمضتِ الآيةُ على تصحيحِ الاعتقادِ في نسبةِ النَّتائجِ إلى مسبِّب الأسبابِ سبحانه لا إلى الأسبابِ، وتدريبٍ على التَّبرُّؤ من الحولِ والقوَّة، وكم من سيفٍ يضربُ، ولا يكونُ قتلٌ! وكم من سُمٍّ يُحتسى، ولا يكون موتٌ! وكم مِن مُتَردٍّ مِن عَلٍ، ولايموتُ! فلو كانتِ النَّتائجُ للأسبابِ؛ لَتحقَّقَ الموتُ من سُمٍّ يُحتَسى، وسيفٍ يُضرب، فما أجلَّ كلامَ اللّهِ! فيكونُ المعنى: كان منكم الضَّربُ، ولم يكن منكم القتلُ، وكان منك الرَّميُ، ولم تكنِ الإصابةُ.

دَلالةُ نفيِ القتلِ وفاعله مع كونِهِ واقعًا:

الفاعلُ الحقيقيُّ له هو اللهُ، وهو الذّي بيده الموت والحياة

أصْلُ الخبرِ المنفيِّ أن يَدُلَّ على انْتفاءِ صدورِ المسنَدِ عنِ المُسنَدِ إليه، لا أنْ يدُلَّ على انْتفاءِ وقوعِ المُسنَدِ أصلًا، فلذلكَ صحَّ النَّفْيُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ مع كونِ القَتْلِ حاصلًا بدليلِ وقوعه حِسًّا، وإنَّما المَنفيُّ كونُه صادرًا عن أسبابِهم - كما تقدَّمَ آنفًا - فالفاعلُ الحقيقيُّ هو اللّهُ ﷻ وإن كانت صوَرُ الفعلِ حصلتْ منهم ظاهرًا، أي: لم يكونوا هُمُ الفاعلَ على وجْهِ الحقيقةِ والتَّأثير، فاللّهُ تعالى هو الَّذي قتلَهم بإلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِهم وتَسْليطِكم عليهم،

فإذا عَلِمتُم ذلكَ؛ فاعْلَموا يقينًا أنَّكم لم تقتلوهم، ولكنَّ اللّه هو الَّذي قَتَلَهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقتلِ دونَ الموتِ:

القتلُ سببٌ من أسبابِ الموتِ، ليس إلّا

عبَّرَ بالقتلِ دونَ الموتِ في قولِه: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾، ولم يقل: (فلم تميتوهم)؛ لأنَّ الموتَ ليس من قدراتِ أفعال البشرِ، إنَّما هو مختصٌّ بهِ سبحانه فهو الَّذي يحيي، ويميتُ، ولأنَّ القتلَ أخصُّ من الموتِ؛ لأنَّهُ نقضٌ للبنيةِ الجسديَّةِ أوَّلًا، أمّا الموتُ؛ فهو خروجٌ للرّوح من غيرِ نقضٍ للبنيةِ، وهذا غيرُ مناسب لسياقِ الآية؛ لأنَّها في الحديث عن غزوة بدرٍ وما تحملُهُ هذه الكلمةُ من مواجهةِ المؤمنين للكفّار، وذلك يكونُ بالمقاتلةِ بينهم؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالقتلِ هو المناسبُ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (القتلِ) دونَ لفظ (الحربِ):

الحربُ عامٌّ، والقتلُ من نتائجِه

عبَّرَ بالقتلِ دونَ الحربِ؛ لأنَّها أعمُّ من القتلِ، فهي تشملُ الهجومَ والإغارةَ والصَّدَّ والمواجهة، وهذا ما قامَ به المسلمونَ في المعركةِ، فلم يردِ القرآنُ أنْ ينفيَ دورَهم في المعركةِ من حربِ المشركين، وإنَّما أرادَ نفيَ القتلِ الَّذي هو نتيجةُ الحربِ إثباتًا للعنايةِ بالنَّتائجِ كما هو الشَّأنُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ دون (فلم تقاتلوهم):

دفعُ التَّوهُّمِ بالمشاركةِ في صيغةِ الإثباتِ، لتتناسبَ مع العطفِ فيما هو آتٍ

عبَّرَ بقولِه: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ دونَ المفاعلةِ (فلم تقاتلوهم)؛ لأنَّ المُفاعلةَ تكون بين طرفين، فلو عبَّر بها هنا؛ لَما تناسَبَ مع ما هو آتٍ بالعطفِ، ولكنَّ اللّه قَتَلَهم، فعبَّر بغيرِ صيغة المشاركة؛ دفعًا لوهم المشاركةِ في صيغةِ الإثباتِ، فيكونُ اللّهُ هو الَّذي شاركَ الكفّار، ولئلّا يلزمَ منهُ أن يقالَ: فلم تقاتلوهم، ولكنَّ اللّه قاتلَهم، وهذا غلطٌ فاحشٌ.

وجهُ الاستدراكِ بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

وَجْهُ الاستدراكِ المُفادِ بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ أنَّ الخبرَ نَفَى أنْ يكونَ القتلُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 447/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 294/9.

الواقعُ صادرًا عنِ المخاطَبينَ، فكانَ السّامعُ بحيثُ يتطلَّبُ أكانَ القتلُ حقيقةً أم هو دونَ القتل، ومَنْ كان فاعلًا له؟ فاحْتيجَ إلى الاسْتدراكِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾[1]؛ للتَّأكيدِ أنَّ فاعلَ القتلِ هو اللّهُ.

وممّا يذكرُ في سرِّ الاستدراكِ بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: أنَّها هي المناسبةُ لمقامِ النَّفي والإثبات، يؤكِّد ذلك ما ذَكَرهُ السَّمينُ الحلبيُّ بقولِه: "وجاءت هنا (لكنَّ) أحسنَ مجيءٍ لوقوعِها بين نفيٍ وإثباتٍ"[2].

اللُّطفُ في توجيهِ الأفعالِ وتفسيرِها، فالاستدراكُ أفضلُ من التَّخطئةِ وألطفُ

دَلالةُ اختيارِ لفظِ الجلالةِ (الله)، اسمًا للفظ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

جاءَ اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ اسْمًا لـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ لِما في ذِكرِه مِن إحْياءِ المهابةِ في النُّفوسِ، وزيادةِ التَّأييدِ والتَّثبيت لرسولِه ﷺ وصحابتِه - رضي الله عنهم - وثباتِ هذه الوِلايةِ التّامَّةِ والنُّصرةِ الدّائمةِ لهم، بما يُحقِّقُ وجودَ الطُّمأنينةِ ونزولَ السَّكينةِ في قلوبِهم[3].

التَّأييدُ والتَّثبيتُ، من فِعلِ الله بعبادِه، حين يأذَنُ بنصْرِهم

دَلالةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على خبرِه الفعليِّ:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾ قدَّمَ المُسنَدَ إليه على المُسنَدِ الفعليِّ دونَ أنْ يُقالَ: ولكنْ قتَلَهمُ اللّهُ؛ لأنَّ نفْيَ اعْتقادِ المخاطَبين أنَّهم القاتلونَ قد حصلَ من جُملةِ النَّفي، فصارَ المخاطَبونَ مُتطلِّبينَ لمعرفةِ فاعلِ قتلِ المشركين، فكانَ مُهمًّا عندَهم تعجيلُ العلمِ بها[4].

تأكيدُ نسبةِ القتلِ للهِ وحدَهُ، لأنَّه الفاعلُ على الحقيقة

الغرضُ من أسلوبِ المجازِ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾ مجازٌ مرسلٌ من قبيلِ إطلاقِ المسبِّب وإرادةِ السَّبب؛ لأنَّ اللّه تعالى هو السَّببُ؛ إذ هو الموفِّقُ، وهو المؤيِّدُ، وهو المُمِدُّ بالملائكة[5].

تعظيمُ التَّأييدِ والإمدادِ، الحاصل من ربِّ العباد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/294.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/586.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/294.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/294.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3078.

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ على ما قبلَها:

التَّرقّي في بيانِ أنَّ سببَ النَّصرِ التَّأييدُ والإمدادُ

دلَّ العطفُ على الانتقال من خطابِ المؤمنين بنفي قَتلِهم صناديدَ الكفرِ وزعماءَ الشِّرك، وإنَّما القتلُ حصلَ بسببِ التَّأييدِ والإمدادِ إلى خطابِ رسولِ اللّهِ ﷺ بنفي أن يكونَ رمْيُهُ سببَ النَّصرِ، وإنَّما سببُ النَّصرِ التَّأييدُ والإمدادُ.

دَلالةُ الاسْتطرادِ بعبارة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾:

سببُ النَّصرِ هو تأييدٌ من اللهِ لرسوله ﷺ

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ اسْتطرادٌ بذِكْرِ تأييدٍ إلهيٍّ آخرَ، لم يَجْرِ له ذِكْرٌ في الكلامِ السّابق، وهو إشارةٌ إلى أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ بعدَ أنْ حرَّضَ المؤمنينَ على القتالِ يومَ بَدرٍ أتاهُ جبريلُ، فقال: خُذْ قَبْضةً من تُرابٍ، فارْمِهم بها، فأخَذَ حَفْنَةً من الحَصْباءِ، فاسْتقبلَ بها المشركينَ، ثمَّ قال: «شاهتِ الوُجوه» ثمَّ نفَحهم بها، ثمَّ أمرَ أصحابَهُ، فقالَ: «شُدّوا» فكانتِ الهزيمةُ على المشركينَ حيثُ لم يَبْقَ مُشرِكٌ إلّا أصابَهُ شيءٌ من الحصى في عينَيْهِ، فشُغِلَ بعينَيْه، فانْهزَموا[1].

دَلالةُ عطفِ الجملةِ المنفيَّةِ بـ (ما)، على الجملةِ المنفيَّةِ بـ (لم):

النَّفيُ بـ (ما) و(لم)، حَسَبَ الإيجابِ الواردِ في السّياق

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ على قولِه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾؛ لأنَّ (لم) نفيٌ للماضي، وإن كانَ بصورةِ المضارع؛ لأنَّ لنَفْيِ الماضي طريقَيْنِ؛ إحداهما: أنْ تدخُلَ (ما) على لفظِه. والأخرى: أنْ تَنْفيَهُ بـ (لم)، فتأتيَ بالمضارع، والأصلُ هو الأوَّلُ، فالمضارعُ المنفيُّ بـ (لم) في قوَّةِ الماضي المنفيِّ بـ (ما)، ولأنَّ النَّفيَ ينبغي أنْ يكونَ على حَسَبِ الإيجابِ[2]، وفي هذا التَّلوينِ في النَّفي إعلاءٌ لقدرِ النَّبيِّ ﷺ تفريقًا بين خطابِهِ وخطابِ أصحابِهِ، بتوجيهِ النَّفي إلى الماضي معنًى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 294/9، وهذه الرِّواية تقدَّم ذكرُها في بيان المعنَى الإجماليّ، وأُعيدتْ هنا لمناسبتها للوجهِ البلاغيّ المثبَت في المتن.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 295/5، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 586/5.

وصورةً، فليس حالُهُ كحالِ الصَّحابةِ؛ لأنَّ النَّفيَ بـ (لم) امتدادٌ من الماضي إلى الحاضرِ، أمّا النَّفيُ بـ (ما)؛ فيشملُ الماضي فقط.

نُكتةُ نَفْيِ المُثْبَتِ في الرّمي، وعدمِه في القتل:

رَميُهُ ﷺ كان معجزةً ربانيَّةً

في سياقِ الآيةِ مُبالَغةٌ من وجهَيْنِ؛ أحدُهما: أنَّ النَّفيَ جاءَ على حَسَبِ الإيجابِ لفظًا، والثّاني: أنْ نَفَى ما صرَّحَ بإثباته، وهو قولُهُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾، ولم يُصرِّحْ في قولِه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقولِه: إذْ قَتَلْتُموهم، وإنَّما بولِغَ في هذا؛ لأنَّ الرَّميَ كانَ أمرًا خارقًا للعادةِ مُعجزًا، وهو آيةٌ من آياتِ اللّهِ العظيمةِ[1]، وفيه تكريمٌ للنَّبيِّ ﷺ بتخفيفِ نفي الرَّمي، ويتبيَّن ذلك أنْ لو قيلَ: وما رميت، ولكنَّ اللّه رمَى، فلا يكون لفعلِه أيُّ إثباتٍ، كما مضى من خطابِ المؤمنين، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ رَمْيَ رسولِ اللّهِ ﷺ كان كسْبًا، ورمْيُ اللّهِ تعالى كان خَلْقًا[2].

بلاغةُ التَّفريق بينَ القتل والرَّمي بالتراب:

شاهت الوجوه حين رمَى الرّسول بالحَفْنة في مُكْنَةٍ وثِقةٍ بالله

تظهرُ بلاغةُ أسلوبِ القرآنِ الكريمِ في التَّعبيرِ عنِ الفرقِ بين قتلِ المسلمين للكفّارِ، ورمي الرَّسولِ ﷺ إيّاهم بالتُّرابِ؛ أنَّ الأوَّلَ: فعلٌ من أفعالِهم المقدورةِ لهم بحسبِ سُنَنِ اللّهِ في الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، وأنَّ الثّاني: (الرَّمي) لم يكن سببًا عاديًّا لإصابتِهم وهزيمتِهم، فليسَ مُشاهدًا، كضربِ أصحابه ﷺ لأعناقِ المشركين، ولا غيرَ مُشاهدٍ؛ لأنَّه لا يكون سببًا لشكايةِ أعينهم وتشويهِ وجوههم لقلَّتهِ وبُعده عن راميه، ولكونهم غيرَ مستقبلين له، ومن ثَمَّ كانت الحاجةُ ماسَّةً إلى بيانِ الفَرْقِ بينهما، وذلكَ بعدمِ استقلاليَّةِ المسلمين في القتلِ بالسَّببيَّة لأنَّهُ لولا تأييدُ اللّهِ ونصرُهُ؛ ما حصل لهم هذا النَّصرُ، فاللّهُ سخَّرَ لهم أسبابَ القتلِ. أمّا الرَّميُ؛ فهو من فعلِه - سبحانه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/295، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/586.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/185.

وحدَه - بدونِ كسبٍ عاديٍّ للنَّبيِّ ﷺ في تأثيرِه، فالرَّميُ منه كان ظاهريًّا لِتظهرَ المعجزةُ على يديه ﷺ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذۡ﴾ دونَ (وقت):

التَّعبيرُ بـإِذْ مُـتَّـسـقٌ مع نـظـمِ الـسّـورة الـكـريـمـةِ، في التَّذكيرِ بما كانَ من حال ضعفِ المسلمين

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿إِذۡ﴾ دون (وقت) في قولِه: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ مع اشتراكِهما في معنى الزَّمنِ إلّا أنَّ ﴿إِذۡ﴾ يُعَبَّرُ بها عن الزَّمنِ الماضي بخلافِ الوقتِ، فإنَّه يطلقُ على نهاية الزَّمنِ المضروبِ للعمل، ولهذا لا يقالُ إلّا مُقيَّدًا نحو وقتِ كذا، وعلى هذا، فالمناسبُ هو التَّعبيرُ بـ ﴿إِذۡ﴾ على رأي من يقولُ: إنَّ الآيةَ نزلت بعد انتهاءِ الغزوةِ، وصار الحديثُ عنها من الزَّمنِ الماضي، كما أنَّ في التّعبيرِ بإذ اتِّساقًا مع نظمِ السّورةِ الكريمةِ في التَّذكيرِ بما كانَ من حالِ ضعفِهم حيثُ وردَ هذا الظَّرفُ اثنتي عشرةَ مرَّةً في السّورةِ الكريمةِ، ولم يجتمع هذا العددُ في سورةٍ أخرى لما لهذا الظَّرفِ من أثرٍ في استدعاءِ الأحداثِ الماضيةِ.

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿رَمَيۡتَ﴾:

توفُّرُ العنايةِ على إثباتِ الفعلِ، لا لكونِ المعجزة كانت بالله، لا بمن رُمِيَ

لّما كانَ الرَّميُ قصَّةً مشهورةً بينَهم، حَوَتْ أمرًا خارقًا جَلَلًا - كما تقدَّم - حُذِفَ مفعولُ الرَّمي في المواضعِ الثَّلاثةِ لورودِ الفعلِ ﴿رَمَيۡتَ﴾، وكذلكَ فإنَّ المقصودَ الأصليَّ بيانُ حالِ الرَّمي نفيًا وإثباتًا، إذ هو الَّذي ظهرَ منه ما ظهرَ، وهو المنشأُ لتغيُّرِ المرميِّ به في نفسِه، وتكثُّرِه حيثُ أصابَ عيني كلِّ واحدٍ من المشركين[2].

سرُّ ذكرِ مفعولِ القتلِ مُثبتًا ومنفيًّا:

لا شبهةَ في أنّ رَمْـيَ الـرّسـول ﷺ، كان بتسديد من الله

ذكرَ مفعولَ القتلِ؛ لأنَّه فعلٌ من أفعالِ المؤمنين المقدورةِ لهم بحسَبِ سُنَنِ اللهِ في الأسبابِ الكونيَّةِ؛ بخلافِ رمي النَّبيِّ ﷺ إيّاهم بالتُّراب، فلم يُذكر مفعولُه بأن يُقال: (وما رميت

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 375/10.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 477/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 294/9.

وجوهَهم)، إذ لا شبهةَ هنا في عدمِ استطاعة النَّبيِّ ﷺ لهذا الأثرِ استقلالًا بكسبِهِ العاديّ[1].

دَلالةُ الفعلِ ﴿رَمَيۡتَ﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

الرَّميُ الأوَّلُ والثّاني مجازيّان، والثّالثُ حقيقيٌّ، لإثباتِ معجزَةِ اللهِ لرسولِه ﷺ

الرَّميُ حقيقتُه: إلقاءُ شيءٍ أَمْسَكَتْهُ اليَدُ، ويُطلَقُ الرَّميُ على الإصابةِ بسوءٍ من فعلٍ أو قولٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النّور: 6]، فيجوزُ أن يكونَ الفعلُ ﴿رَمَيۡتَ﴾ الأوَّلُ، والثّاني في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ مُستَعْمَلَيْنِ في معناهما المجازيِّ، أي: وما أَصَبْتَ أَعْيُنَهم بالقَذَى، ولكنَّ اللّه أصابَها به؛ لأنَّها إصابةٌ خارقةٌ للعادةِ، فهي معجزةٌ للنَّبيِّ ﷺ وكرامةٌ لأهلِ بَدرٍ، فنُفيَتْ عنِ الرَّمي المعتادِ، وأُسنِدَتْ إلى اللّهِ؛ لأنَّها بتقديرٍ خفيٍّ من اللّهِ ﷻ ويكونُ قولُه: ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ مُستعمَلًا في معناهُ الحقيقيِّ[2].

وممّا يُذكرُ - أيضًا - هنا أنَّ النَّفيَ والإثباتَ واردانِ على شيءٍ واحدٍ باعتبارين، فالمنفيُّ هو الرَّمي باعتبارِ الحقيقةِ، والمثبتُ هو الرَّمي باعتبارِ الصّورةِ[3].

دَلالةُ قَيْدِ الفعلِ بظرفِ الزَّمانِ في ﴿إِذۡ﴾:

تحقُّقُ فعلِ الرَّمي منه ﷺ في غزوة بدرٍ الكبرى

في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ يُرادُ تحقُّقُ فعلِه ﷺ يومئذٍ، أي: يومَ بدرٍ حين أخذَ قبضاتٍ من حَصًى وتُرابٍ، فرَمَى بها وجوهَ القومِ ثلاثَ مرّاتٍ، فانهزموا عندَ آخرِ رَمْيةٍ. وكذلكَ فإنَّ في قولِه: ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ زيادةَ تقييدٍ للرَّمي، وأنَّه الرَّميُ المعروفُ المشهورُ[4].

دَلالةُ الاسْتدراكِ في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

أثرُ الفعلِ من اللهِ تعالى، وصورتُه من رسولِ اللهِ المؤيَّدِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ إعلامٌ بانْتفاءِ أنْ تكونَ تلكَ

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 519/9.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 295/9.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 185/9.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 511/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 295/9.

الرَّميةُ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ مَدفوعةً بيدِه ﷺ ولكنَّها مدفوعةٌ بقُدرةِ الخالقِ الخارجةِ عن الحدِّ المتعارف، فهي معجزةٌ إلهيَّةٌ سلَّحَ اللّهُ بها نبيَّه ﷺ[1]، كما أنَّ فيه بيانَ أنَّ العِبرَةَ بأثرِ الفعلِ لا بصورتِه.

دلالةُ تقديم المسندِ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾، على عامله الفعليِّ ﴿رَمَىٰ﴾:

التَّأكيدُ على أنَّ فعلَ الرَّمي وأثرَهُ كانَ منَ الله

لَمّا كانَ رَمْيُ الحصَى الحاصلُ بيدِ الرَّسولِ ﷺ حاصلًا منه فعلًا، وهو أمرٌ مُشاهدٌ لا يقبَلُ الاحْتمال؛ احْتيجَ في نَفْيِه إلى التَّأكيد، بإسنادِ الرَّمي إلى اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ إبطالًا لاحْتمالِ المجازِ في النَّفي بأنْ يُحمَلَ على نَفْيِ رَمْيٍ كامل، فلمّا أُريدَ نفيُ تأثيرِه؛ أُسْنِدَ لمن بيدِه وبأمرِه التَّأثيرُ الحقيقيُّ، وهو إيصالُ وإصابةُ عُيونِ جيشِ المشركين[2].

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾:

بيانُ العللِ إيضاحٌ وإقناعٌ، لمن غابت عنه الحقائق

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾ عَطَفتِ الفعلَ على عِلَّةٍ مستفادةٍ ممّا قبلَه، والتَّقديرُ: ولكنَّ اللّه رمَى ليمحقَ الكفّارَ، وليُبْلِيَ المؤمنين، وذلكَ للتَّدليلِ على أنَّ هذا البلاءَ الحسَنَ من اللّهِ وحدَه، فاللّهُ هو الَّذي رَمَى، وهو الَّذي قتلَ، ومَحَقَ الكافرين[3].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾:

البَلْوُ كشفٌ لحقائقِ النُّفوس، وإبراز لما تنطوي عليه الصّدور

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾ لامُ التَّعليل، وله وجهان: الأوَّلُ: هو أنَّ قتلهمُ المشركينَ وإصابةَ أعْيُنِهم كانا الغَرضَ من هَزْمِ المشركين، فهو العِلَّةُ الأصليَّة، والوَجْهُ الثّاني: وهي أنْ يُبليَ اللّهُ المؤمنين بلاءً حسنًا، أي: يُعطيهم عطاءً حَسَنًا يشكرونَه عليه، فيظهرُ ما يدُلُّ على قيامِهم بشُكرِه ممّا تُختبَرُ به طويَّتُهم لمن لا يعرفُها، وهو العطاءُ والنَّصرُ والغنيمةُ في الدُّنيا والجنَّةُ في الآخرة[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/477، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/296.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/511، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/295 - 296.
(3) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/587، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/296.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/296، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/296.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾:

البَلْوُ أمرٌ متجدِّدٌ مستمرٌّ في حياة المؤمنين، وهو بحاجةٍ إلى الإمدادِ وحُسن الاستعدادِ

عبَّر بالمضارع الَّذي يفيدُ التَّجدُّدَ؛ لأنَّ البلاءَ موصوفٌ بالحُسنِ، فاللهُ ﷻ يعطيهم ويمنحُهم مِنَحًا عديدةً في هذهِ الغزوةِ وغيرها، ففي هذهِ الغزوةِ أعطاهم النَّصرَ على المشركين، والأسرَ لصناديدهم، واغتنامَ أموالهم، فضلًا عن العطاءِ الأُخرويِّ، وهو نعيمُ الجنّاتِ، فهو تجدُّدٌ مستمرٌّ، ومن اللهِ الإمدادُ، وعلى المؤمنين حُسْنُ الاستعدادِ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دونَ (الَّذين آمنوا):

البشارةُ بثباتِ الوصفِ وديمومتِهِ، من فصيح البلاغ

آثرَ التَّعبيرَ بوصفِ المؤمنين دونَ الَّذين آمنوا لمدحِهم، وللدَّلالةِ على رسوخِهم في الإيمانِ، وللدَّلالةِ على ثبوتِ هذه الصِّفةِ فيهم على وجهِ الدَّيمومةِ.

دَلالةُ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿مِنۡهُ﴾:

تشريفُ الإبْلاءِ، من لُطف الله في التّكرمة والعطاء

﴿مِنۡهُ﴾ جارٌّ ومجرورٌ، وضميرُهُ (الهاء) عائدٌ إلى اسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ و(مِن) للابْتداءِ المجازيِّ لتشريفِ ذلكَ الإبْلاءِ، ويجوزُ عَوْدُ الضَّميرِ إلى المذكورِ من القَتْلِ والرَّمي والظَّفَرِ بالمشركين، ويكونُ (مِن) للتَّعليلِ والسَّببيَّة[1].

دَلالةُ المفعولِ المطلَقِ في ﴿بَلَآءً﴾ ونكتةُ تنكيرِه:

تأكيدُ الفعلِ وتحقُّقُ حصولِهِ، مقصد في السّياق

قولُه: ﴿بَلَآءً﴾ مفعولٌ مطلَقٌ لفعلِ ﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾ مُؤكِّدٌ له؛ لأنَّ فعلَ ﴿وَلِيُبۡلِيَ﴾ دالٌّ على بلاءٍ حسنٍ[2]، وقدْ دلَّ التَّنكيرُ على تعظيمِه ورفعِ درجتِه.

دَلالةُ وصفِ المفعولِ المطلقِ بالحُسنِ في قولِه: ﴿حَسَنًاۚ﴾:

جاءَ وصفُ المفعولِ المطلق ﴿بَلَآءً﴾ بكونِه ﴿حَسَنًاۚ﴾؛ ليَدُلَّ على أنَّ هذا البلاءَ هو عطاءٌ جميلٌ من اللهِ، وإحسانٌ إلى المؤمنين، وأنَّ

(1) السَّمين الحلبي، والدُّرُّ المصون: 5/587، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/297.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/296.

الوصف بالحُسنِ، تعظيمٌ للمنَّةِ، وتأكيد لفيوضات العطاء

اللّهَ تعالى ما فعَلَ ما فعَلَه إلّا لذلك[1]، كما أنَّ وصفَ البلاءِ بالحسن إشارةٌ إلى الوجهِ الآخرِ من وجوهِ الابتلاءِ، وأنَّه قد يكونُ غيرَ حسنٍ، فقد عافَى اللّهُ المؤمنين من أنْ يُبْلَوا بالقتل، وأن يُمتَحنوا بالأسرِ، ولكنَّ رحمةَ اللّهِ تعالى بالمؤمنين جعلت البلاءَ بالخيرِ دونَ الشَّرِّ وبالعافيةِ دونَ البلاءِ، دلَّ على ذلك وصفُ البلاءِ بالحسنِ[2].

موقعُ جملةِ التَّذييلِ ودلالتهُ في السّياق:

التَّذييلُ تأكيدٌ للمضمونِ، وتعليلٌ لهُ، بما يزيد في رَونقه

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، هو جملةٌ مستأنفةٌ وقعت تذييلًا لتأكيدِ مضمونِ ما مضى، فلمّا سبقَ الحديثُ عن خطراتِ نفوسِ المؤمنين في كراهيَّتِهم لقاءَ العدوِّ وعدم رغبتِهم في ذلك؛ لأنَّهم لم يتأهَّبوا للقاءِ ذات الشَّوكة؛ ذُيِّلت الجملةُ بهذا التَّذييل، وجاء التَّأكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾ لإثباتِ سمعِهِ سبحانه لأقوالِهم، وعليمٌ بما في نيّاتهم.

دلالةُ الاقترانِ بين (السّميع) و(العليم):

التَّعلُّق بهذين الاسمين الجليلين مطلوبٌ في الشَّدائدِ والأزماتِ

الاقترانُ بين الاسمينِ الجليلينِ، في مَواطنِ الأزماتِ وأوقاتِ الشَّدائدِ، إحضارٌ للمَهابةِ، وضبطٌ للتَّصرُّفِ، وإخلاصٌ للنّيّاتِ.

دلالةُ تقديم ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾:

تقديمُ الأخصِّ على الأعمِّ، معينٌ على تربيّةِ المهابةِ

قُدِّم اسمُ ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لأنَّهُ أخصُّ منهُ، وللاهتمامِ بأحداثِ المعركة؛ لأنَّ معظمَ أحوالِ القتالِ في سبيلِ اللّهِ تدورُ على الأمورِ المسموعةِ، مثل: جلبةِ الجيش وقعقعةِ السِّلاحِ، ويأتي بعد ذلك وصفُ العلمِ الَّذي يتعلَّقُ بجميع المعلوماتِ الظّاهرةِ والخفيَّةِ، ففيها ما هو من حديثِ النَّفسِ، مثل: أمرِ الخوفِ وتسويلِ النَّفسِ القعودَ عن القتال، وكلُّ ذلك يتعلَّقُ بالعلم[3].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/150.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 3/582.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/480.

دَلالةُ الخَتْمِ بهاتَيْنِ الصِّفتَيْنِ الجليلَتَيْنِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

تطمين قلوب المؤمنين، بسداد قيادةِ أكرم المرسلين

جاءَ خَتْمُ الآيةِ الكريمةِ بصفتَيْن جليلَتَيْن من صفاتِ اللّهِ ﷻ وهما: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ إيْذانًا وتَطْمينًا لقلوبِ المؤمنينَ بقيادةِ رسولِهم الكريم ﷺ، بأنَّ اللّه تعالى قد سمعَ دعاءَهم واسْتغاثتَهم، وعلمَ أنَّهم وكَلوا أنفُسَهم لعنايتِه ونَصْرِه، فقبلَ دعاءهم، ونَصَرَهم[1].

ويمكنُ أن يكونَ المرادُ بأنَّ اللّه سميعٌ لكلامِكم وما تَفْخرونَ به، عليمٌ بما انْطوَتْ عليه الضَّمائر، ومَنْ يُقاتلُ لتكونَ كلمةُ اللّهِ هي العليا، والأظهرُ الدَّلالةُ الأولى، لِما عُلِمَ من صِدْق الصَّحابةِ - رضي الله عنهم - مع اللّهِ ورسولِه، وتفانيهم في الدِّفاعِ عن دينِه، والجهادِ في سبيلِه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابتلاء والاختبار:

الابـتـلاءُ كـالاخـتـبـار، إلّا أنّـه يـكـونُ بتحميلِ المكارِه والمشاقِّ، وفي الخيرِ والشَّرِّ معًا

النّاظرُ في أغلبِ معاجمِ اللُّغةِ يجدُ أنَّ الابتلاءَ بمعنى: الاختبارِ، مع أنَّ النّاظرَ في استعمالِ القرآنِ الكريم لهذين اللَّفظين يجدُ فرْقًا دقيقًا، وإن اشتركا في المعنى العامِّ، فلكلِّ لفظٍ ما يميِّزُه، فالابتلاءُ: يكونُ بتحميلِ المكارِه والمشاقِّ، ويكونُ في الخيرِ والشَّرِّ معًا، أمّا الاختبارُ؛ فهو أمرٌ عمليٌّ يُستخدمُ بهدف تحديدِ معاييرِ الدِّقَّة والصَّوابِ والصِّحَّةِ في الأمرِ المعروضِ على المختبِر، وعلى هذا فالابتلاءُ يَقْتضي اسْتخراجَ ما عندَ المبتَلَى من الطّاعةِ والمعصية.

وأمّا الاختبارُ يكونُ بتحميلِ المكارِه، وبفعلِ المحبوب، فيقالُ: اخْتبرَهُ بالإنعامِ عليه، ولا يُقالُ: ابْتلاهُ بذلك، ولا هو مُبتلَى بالنِّعمة، كما قد يُقالُ: إنَّه مُخْتَبَرٌ بها[2]، وعلى ذلك فالاختبارُ جزءٌ من الابتلاءِ، والابتلاءُ أعمُّ من الاختبارِ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 296/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 297/9.

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 10، والرّاغب، المفردات، ص: 145، والفخر الرّازي، مختار الصِّحاح: (بَلَيَ).

الرَّمي والقذف:

عبَّر بالرَّمي دونَ القذفِ لوجودِ فرقٍ بينهما، ويقال في المقالِ كنايةً عن الشَّتمِ والقذفِ، فالملاحظُ أنَّ الرَّمي أعمُّ من القذفِ؛ لأنَّ القذفَ يُلمَح فيه البعدُ والقوَّةُ، وهذا غيرُ مناسبٍ لسياقِ امتنانِ اللّهِ على رسولهِ في أنَّ رميَهُ ﷺ لم يكن ليؤثِّرَ بذاتهِ لولا فضلُ اللّهِ تعالى على رسولهِ في تصويبِ أثرِ الرَّمي إلى وجوهِ المشركين وأعينِهم.

الرَّمي أعمُّ مِنَ القذف، وهو في الأعيان، والقذف يُلْمَح فيه البُعد والقوّة

وفيهِ إشارةٌ إلى دفْعِ توهُّم قد يتصوَّرهُ البعضُ من التَّعبيرِ بالقذفِ وما يحملُه من قوَّةٍ وبُعدٍ إلى أنَّه قد وصَلَ بذاتهِ إلى كلِّ المشركين، وفيه تعليمٌ للمسلمين أن يأخذوا بالأسبابِ، وأن يتركوا النَّتائجَ على اللّهِ تعالى.

﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨﴾ [الأنفال: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين نَصْرِ الله لعباده المؤمنين، وإضعافِ كيدِ الكافرين

لَمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ للمؤمنين أنَّكم لستُم الَّذين قَتَلتُم المشركين بقوَّتِكم في يوم بدرٍ، ولكنَّ الَّذي قتلَهم هو اللّهُ، وهو الَّذي أوصلَ أثرَ التُّرابِ إلى وجوه المشركين، فقُتِلوا، وهُزِموا؛ جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ لبيانِ أنَّ ما تقدَّم إنَّما هو بأمرِ اللّهِ ﷻ فهو سبحانه الَّذي أوهَنَ كَيْدَ عدوِّهم، وأبْطَلَ مكرَهم، وأخْمَدَ قوَّتَهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُوهِنُ﴾: الوَهْنُ: ضَعْفٌ من حيثُ الخَلْقُ، أو الخُلُقُ، قالَ تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ [لقمان: 14]، أي: زادَها ضعفًا على ضَعْفٍ، ومنه قولُه تعالى هنا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]، أي: مُضعِفُ كيدِ الكافرين[3].

2) ﴿كَيۡدِ﴾: الكافُ والياءُ والدّالُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معالجةٍ لشيءٍ بشِدَّةٍ، ثمَّ يتَّسعُ البابُ، وكلُّه راجعٌ إلى هذا الأصلِ، والكَيْدُ: ضربٌ من الاحتيالِ قد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعملُ في المذموم أكثرَ، ويُطلق على المعالجةِ، قالوا: وكلُّ شيءٍ تعالجُه؛ فأنتَ تكيدُه، هذا هو الأصلُ في الباب، ثمَّ يسمّون المكرَ كَيْدًا، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ [الطّور: 42]. ويقولون: هو يكيدُ بنَفْسِه، أي: يجودُ بها، كأنَّه يعالجُها لِتخرجَ.

ولِلْكَيْدِ إطلاقاتٌ كثيرةٌ، منها: أنْ يُخرِجَ الزَّنْدُ النّارَ ببُطءٍ وشدَّةٍ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 468/15، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 245/8.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 887، والفخر الرّازي، مختار الصِّحاح: (وهن).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 272/2.

والحَرْبُ، يُقالُ: خرَجوا، ولم يَلْقَوْا كَيْدًا، أي: حَرْبًا[1]، وقولُه تعالى هنا: ﴿مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: مُضعِفُ مَكْرِ الكافرين ومُبطِلُهُ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإخبارُ بإضعافِ كيدِ الكافرين بشارةٌ للمؤمنين

هذهِ الآيةُ بشارةٌ أُخرى ساقَها اللّهُ تعالى للمؤمنين معَ ما حَصَلَ من النَّصرِ المؤزَّرِ يومَ بدرٍ، أعْلَمَهم فيها ﷻ بأنَّه مُضعِفُ مَكْرِ الكافرين فيما يُستقبَلُ، ومُصَغِّرُ أمرِهم، وأنَّهم وكلَّ مالِهم في تَبارٍ ودَمارٍ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

البِشارةُ بإضعافِ مكرِ الكافرين

الإشارةُ في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى ما تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ من قَتْلِ اللّهِ للكافرين، ورَمْيِه إيّاهم، والبلاءِ الحَسَنِ[4]، وفي اسْمِ الإشارةِ هنا تأكيدٌ لما تقدَّمَ من الأمورِ الثَّلاثةِ، وأنَّها علَّةٌ للتَّوهين، وفيه كذلك تنبيهٌ على أهمّيَّةِ ما يَرِدُ بعدَه، وهو البِشارةُ للمؤمنينَ بتوهينِ مكرِ الكافرين وإبطالِه. وفيه إشارةٌ إلى عَظَمةِ الأفعالِ الَّتي ذَكَرها اللّهُ فيما سبق من آياتٍ، وذلك بالامتنانِ على المؤمنين بما فعلهُ اللّهُ تعالى لهم من كسرِ شوكةِ المسلمين وإضعافِ عزيمتِهم.

دلالة التَّنوُّعِ الإعرابيّ للفظ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

ثـراءُ المعنى للدِّلالةِ على تحقُّقِ ما تقدَّم

وقعتِ الجملةُ ممّا سبقَ موقعَ التَّعليلِ، لما ذكر في الآيةِ السّابقةِ وما قبلَها من الأحداثِ، وقد أثْرى هذا التَّعليلُ تنوُّعَ إعرابِ اسمِ الإشارة، ومع كلِّ إعرابٍ معنًى، وكلُّها معانٍ متعانقةٌ، ومن هذه الوجوه:

الأوَّلُ: خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: الأمرُ ذلكم، أو: حَتْمٌ وسابقٌ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 149/5، وابن منظور، اللِّسان: (كيد).

(2) ابن عطيَّة، المحرَّرُ الوجيز: 512/2، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 272/2.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 272/2.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 512/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 297/5، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 245/8.

وثابتٌ ذلكم[1]، وكونُه خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ رابطٌ وثيقٌ للمعنى بالأحداث السّابقة المذكورةِ في السّورة.

الثّاني: مبتدأ، والخبرُ محذوفٌ، والتّقديرُ: ذلكمُ الأمرُ، وكونهُ مبتدأً يجعلُ الخبرَ محذوفًا، وتذهبُ النّفسُ في تقديرِه كلَّ مذهبٍ، ذلكم الأمرُ، ذلكمُ النَّصرُ، ذلكم التَّأييدُ، وكلُّ ذلك لا يُمتنع.

الثّالثُ: في موضعِ نَصْبٍ، تقديرُه: فعَلْنا ذلكم[2]، وكونُه بقيَّةَ جملةٍ فعليَّةٍ محذوفةٍ، والمذكورُ مفعولُها فيه توفيرٌ للعنايةِ على ما وقعَ.

وسرُّ التَّعبيرِ بضميرِ الخطابِ للجمعِ التَّوجُّهُ للجميعِ بإعلانِ ذلك النَّصرِ والفوزِ والظَّفرِ على المشركينَ.

دَلالةُ العَطْفِ بالواوِ في الآية:

النَّصرُ والتَّوهينُ عطاءان للمؤمنين

لَمّا كانَ خبرُ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ محذوفًا، وتقديرُه: ذلكمُ الأمرُ، عُطِفَتْ عليه جملةُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: ذلكم الأمرُ وأنَّ اللّه، أي: المقصَدُ إيلاءُ المؤمنين، وتوهينُ كيدِ الكافرين، وإبطالُ حيَلِهم، وكأنَّ المعنى: ذلكم مرادُ اللّهِ نصرُ المؤمنين وتوهينُ الكافرين، وكأنَّ توهينَهم مِنَّةٌ أخرى غيرُ النَّصرِ؛ لأنَّهُ لا يلزم من كلِّ نصرٍ توهينُ الأعداءِ، فالجمعُ يقتضي المغايرةَ، فهما عطاءان إلهيّان للمؤمنين، ففي هذا العطفِ بشارةٌ فوقَ بُشرى النَّصر ببُشرى إضعافِ شأنِ المشركين وتوهينِ كيدِهم[3]، ويمكنُ أنْ يكونَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ من قبيلِ عَطْفِ البيانِ على ما تقدَّم من القتْلِ والرَّمي، والمبتدأُ هنا الأمرُ، أي: الأمرُ ذلكم[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 297/9.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 512/2، والنَّسَفي، مدارك التنزيل: 637/1، وأبو حيّان، البحر المحيط: 297/5.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3088/6.

(4) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 407/2، والزَّمخشري، الكشّاف: 150/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 478/2.

غرض إيراد لفظ الجلالة، إلقاءُ الرُّعب في قلوبِ الكَفَرة، وتربيةُ المهابةِ عند البَرَرة

سرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ ﴿ٱللَّهَ﴾، دونَ الإضمارِ:

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ الجلالةِ مُظْهَرًا دونَ أن يقولَ: (وأنَّه موهنُ كيدِ الكافرين)، مُضمَرًا لإلقاءِ الرُّعب والخوف في قلوبِ المشركين، ولأنَّ توهينَ كيدِ الكافرين يناسبُهُ صفاتُ الجلالِ والعِزَّة والقهرِ، ولا يتأتَّى ذلك إلّا مِنَ التَّصريح باسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾.

ثباتُ توهينِ كَيدِ الكافرين وتأكيدُهُ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة:

جاءتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بيانًا لثباتِ (ذلكمُ الأمرُ) فهو سنَّةٌ إلهيَّةٌ عظيمةُ الشَّأنِ أراكُموها بأعيُنِكم من قتلِ أعدائِكم وهزيمتِهم وتوهينِ كيدِهم وإبطالِ مكرِهم، فما عليكم إلّا التزامُ طاعتِه وطاعةِ رسولِه ﷺ، ولا تنظروا في عاقبةِ شيءٍ ممّا يأمُرُ به ﷺ، فإنَّه ما ينطقُ عنِ الهَوى؛ بل إنَّما هو وحْيٌ نوحيه إليه، ونحن لا نأمرُ بشيءٍ إلّا بعدَ تدبيرِه على أحكمِ الوجوهِ وأتقنِها[1].

توهينُ كيدِ الكافرين في الحالِ والاستقبالِ

أثَرُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في ﴿مُوهِنُ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ ثلاثُ قراءات[2]:

الأولى: ﴿مُوَهِّنٌ كَيْدَ﴾ بفتح الواوِ وبتشديدِ الهاءِ وبالتَّنوينِ في ﴿مُوَهِّنٌ﴾ ونَصبِ ﴿كَيْدَ﴾.

والثّانيةُ: ﴿مُوهِنٌ﴾ بتسكينِ الواوِ وتخفيفِ الهاء وبالتنوين ونَصبِ ﴿كَيْدَ﴾.

والثّالثةُ: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ بإضافةِ ﴿مُوهِنُ﴾ إلى ﴿ كَيْدِ﴾.

وفي القراءتين الأوّلَيْن يكونُ المعنَى: أنَّ اللّهَ سيوهنُ كيدَ الكافرين، وفي القراءةِ الثّالثة تكونُ الإضافةُ في ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/245.

(2) الأولى: قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وأبي جعفر، والثّانية: قراءة ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبي بكر عن عاصم، وخَلَف، ويعقوب، والثّالثة: قراءة حفصٍ عن عاصم، ينظر: ابن الجزَري، النَّشر: 2/207، والقاضي، البدور الزّاهرة، ص: 129.

لتحقيقِ إضعافِ كيدِ الكافرينَ وإبطالِه باستمرارٍ، والمعنى: أنَّ اللّه موهِنُ كيدِ الكافرينَ في هذا الحالِ الَّذي هم عليهِ في يومِ بَدْر، وفي المستقبلِ كذلك(1).

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿مُوهِنُ﴾ دونَ الفعلِ:

دوامُ توهينِ كيدِ الكافرين، مِن وعيد الله لكلّ كافر مَهين

آثرَ التَّعبيرَ باسم الفاعل ﴿مُوهِنُ﴾؛ لأنَّهُ يدلُّ على الحالِ والاستقبالِ، وهذا ما أرادهُ اللّهُ ﷻ جبرًا لخاطرِ هؤلاءِ المستضعفين من المؤمنينَ من قِبَلِ صناديدِ الكفرِ؛ لأنَّ قواهم قد وهنتْ في بدرٍ، وفيما يأتي بعد بدرٍ؛ فلا مجالَ بعدَ اليوم للغطرسةِ والاستعلاءِ من مشركي مكَّة على المؤمنين، بخلافِ هذا الفعلِ، فلا يؤدّي هذا المعنى؛ لأنَّ الفعلَ يفيدُ التَّجدُّدَ والحدوثَ، والمرادُ هنا إنهاءُ عهدِ الظُّلم والاستهانةِ بالمسلمين من المشركين، وذلك بتوهينِ قواهم الجسديَّةِ والنَّفسيَّةِ، ففي التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ كمالٌ للبشارة.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، دونَ (الَّذين كفروا):

بيان درجة الغطرسة في النّكران، عند أهل الكُفران

آثرَ التَّعبيرَ بالكافرين دونَ الَّذين كفروا؛ للإشارةِ إلى بلوغهم الغايةَ في كفرِهم الَّذي استحقّوا بهِ قَتْلَهم وأَسْرَهم في غزوةِ بدرٍ، وتوهينِ كيدهِم بسببِ عنادِهم وغطرَستِهم. وفيه إشارةٌ إلى رسوخِ الكفرِ في قلوبهم؛ حتَّى فقدوا الاستعدادَ للإيمان، بخلافِ الَّذين كفروا، فليسوا على هذهِ الدَّرجةِ من الغطرسةِ، بدليلِ إسلامِ بعضهم؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالاسم مجرَّدٌ عن الزَّمانِ، ودالٌّ على التصاقِ الصِّفةِ باستمرارٍ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكَيْد والمَكْر:

الكَيدُ أقوى مِنَ المكرِ، وهو إيقاعٌ للمكروهِ بالآخرِ قَهْرًا، ولا

---

(1) محمَّد سالم، الهادي شرح طيبة النَّشر: 2/265.

يُشترَطُ فيهِ القوَّةُ، وكلُّ ذلكَ كانَ بالمشركين، فأوهنَهُ اللّهُ، وأبْطلَهُ بقوَّته وقدرتِه.

الكَيدُ: إيقاعُ المكروهِ بالآخرِ قَهْرًا، وهو أقوى مِنَ المكر، والمكرُ يكونُ مع تدبُّرٍ وفِكْرٍ

أمّا المكرُ؛ فلا يكونُ إلّا مع تدبُّرٍ وفِكْرٍ، وإن اشتركا في ذلك، إلّا أنَّ الكَيْدَ أقْوَى مِنَ المكرِ، والشّاهدُ: أنَّه يتعدَّى بنفسِه، والمكرُ يتعدَّى بحرفٍ، فيُقالُ: كادَهُ يَكيدُهُ، ومَكَرَ بهِ، ولا يُقال: مَكرَهُ، والَّذي يتعدَّى بنَفْسِه أقْوى.

والكَيْدُ اسْمٌ لإيقاعِ المكروهِ بالآخرِ قَهْرًا، سواءٌ عَلِمَ أم لا، ومنه يُقالُ: فلانٌ يكيدُ لنَفْسِه، أي: يُقاسي المشقَّةَ[1]. وقد آثرَ التَّعبيرَ بالكيدِ؛ لأنَّهُ غلبَ استعمالُهُ في الاحتيالِ على تحصيلِ ما لو اطَّلع عليه المكيدُ؛ لاحترزَ منهُ، فهو احتيالٌ فيه مَضرَّةٌ ما على المفعول بهِ، وهذا ما قصدهُ الكافرونَ في الإضرارِ بالمسلمين، ذلك أنَّ جيشَ المشركين الَّذين جاؤوا؛ لإنقاذِ العيرِ من أيدي المسلمين، ولمّا علموا بنجاةِ عيرِهم الذين خرجوا من أجلِها أبَوا أن يرجعوا إلى مكَّةَ، وأقاموا في بدرٍ، فنحروا الجَزورَ، وشربوا الخمرَ، وضربوا الدُّفوفَ، إلى غيرِ ذلك ممّا فعلوا، وليس ذلك لمجرَّدِ اللّهو، بل ليتسامعَ العربُ، فيتساءلوا عن سببِ ذلك، فيُخبَروا بأنَّهم غلبوا المسلمين، فيصرفَهم ذلك عنِ اتِّباعِ الإسلامِ، فأرادَ اللّهُ توهينَ كيدِهم بتلكَ الهزيمةِ الشَّنعاءِ[2].

الوهن والضَّعف:

الضَّعفُ خلافُ القوَّةِ، وهو نقصٌ في القوَّةِ البدنيَّةِ، يترتَّب عليهِ عجزٌ في القدرةِ الحسيَّةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالوهنِ دونَ الضَّعفِ، لوجودِ فرْقٍ بينَهما، فالضَّعفُ خلافُ القوَّةِ، ويكون في البدنِ، وفي النَّفس، وفي الحال؛ بخلافِ الوهنِ فهو ضعفٌ على ضعفٍ يؤدّي إلى فتورٍ في القوَّةِ النَّفسيَّةِ، وضعفٍ في الإرادةِ والعزيمةِ.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 508، والحسيني، الكلّيّات: 125/4، 182، وابن منظور، اللِّسان: (كيد) و(مكر).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 297/9.

وأمّا الضَّعفُ؛ فهو نقصٌ في القوَّةِ البدنيَّةِ يترتَّب عليهِ عجزٌ في القدرةِ الحسيَّةِ، يؤكِّد ذلك قولهُ تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ الآية، وعلى هذا يفترقُ الوهنُ عن الضَّعفِ في أنَّ الضَّعفَ يتعلَّقُ بالخللِ والنَّقصِ في القوَّةِ البدنيَّةِ، أمّا الوهنُ؛ فمتعلِّقٌ بضعفِ القلبِ والعزيمةِ، ولذلك كان هو المناسبُ هنا؛ لأنَّ كفّارَ مكَّةَ كانوا أصحابَ قوَّةٍ وسطوةٍ وسلطانٍ على القبائلِ العربيَّة، وكانوا يستطيلون، ويفخرونَ بكلِّ ذلك على أهلِ الإيمانِ، فلمّا نصرَ اللّهُ المؤمنينَ مع قلَّةِ عددهم وعتادِهم على المشركين؛ وهنوا في أنفسِهم، ولمّا وهنوا في أنفسِهم؛ وهنَ كيدُهم للمسلمين، وبذلك انتهى عهدُ استضعافِ المسلمين، وكُسِرَت شوكةُ مشركي مكَّةَ.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾ [الأنفال: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

توهين كيد الكافرين، نهايتُه الهلاكُ، وسبيلُهُ البَوارُ

لَمّا تضمَّنَتِ الآيةُ السّابقةُ إيقاعَ الإهانةِ بالكفّارِ في وقْعةِ بَدْرٍ، الوعدَ بإلزامِهم بالإهانةِ فيما يأتي؛ جاءت هذه الآيةُ لتُفصِّلَ الأمرَ بتهديدِهم في قالبِ اسْتجلائِهم، فقالَ تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ - أيُّها الكُفّارُ - بعدَ هذا اليومِ كما اسْتفتحتُم في هذه الوقعةِ عند أخْذِ أسْتارِ الكعبةِ وقتَ خروجِكم بقولِكم: اللهمَّ انْصُرْ أهْدَى الحزبَيْنِ، وأكْرَمَ الجُندَيْنِ، وأعْلى الفِئَتَيْنِ، وأفضلَ الدِّينَيْنِ، ووقْتَ تَرائي الجَمعيْنِ، بقولِ أبي جَهْل: اللهمَّ أقطعُنا للرَّحِم، وآتانا ما لا يعلمُ، فأحِنْه الغداةَ، أتاكُمُ الفتحُ كما أتاكم في هذا اليوم، فقد جاءكُمُ في هذا اليومِ بنصرِ المؤمنينَ الفَتْحُ الَّذي اسْتفتحتُم له؛ لأنَّهم أهدَى الفئتَيْنِ وأكرمُ الطّائفتَيْنِ، وإنْ تنتهوا عن مِثْلِ هذهِ الأقوالِ والأفعالِ المتضمِّنةِ للشَّكِّ أوِ العنادِ، فهو خيرٌ لكم، وقد رأيتُم دلائلَ ذلك، وإن تعودوا إلى المُغالَبةِ؛ نَعُدْ إلى خِذلانِكم، ولن تُغنيَ عنكم جماعتُكم الَّتي تَرْجعونَ إليها للاعْتزازِ بها شيئًا ولو كَثُرتْ؛ لأنَّ اللّهَ المَلِكَ الأعْظمَ مع المؤمنينَ الرّاسخينَ في الإيمانِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسْتَفْتِحُواْ﴾: الفَتْحُ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ، وذلك ضربان: أحدهُما يُدرَكُ بالبصرِ، كفتحِ البابِ وفتحِ المتاعِ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/246.

﴿فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمۡ﴾، والثّاني: يُدرَكُ بالبصيرةِ، كفتْحِ الهمِّ، وهو إزالةُ الغمِّ، وهو أضرُبٌ: أحدُها: في الأمورِ الدُّنيويَّة، كغمٍّ يُفرَّجُ، أو فقرٍ يُزالُ بإعطاءِ المالِ ونحوه، الثّاني: فتحُ المستغلقِ من العلوم، كقولِك: فلانٌ فتحَ من العلمِ بابًا مغلقًا، وفاتحةُ كلِّ شيءٍ: مبدؤهُ الَّذي يُفتَحُ به ما بعدَهُ، وبه سُمّيَ فاتحةُ الكتابِ، وفتحَ القضيَّةَ فِتاحًا: فصلَ الأمرَ فيها، وأزالَ الإغلاقَ عنها، قالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89]، والاسْتفتاحُ: طلبُ الفتْحِ[1]، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾، أي: طلبتُم الظَّفرَ، أو طلبتُم الفَتاح، أي: الحُكْم - وهو المرادُ هنا - أو طلبتُم مبدأ الخيراتِ، فقد جاءكم ذلكَ بمجيءِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 89]، أي: يسْتنصرونَ اللّه ببعثةِ محمَّدٍ ﷺ[2].

2) ﴿فِئَتُكُمۡ﴾: الفِئَةُ: الجماعةُ المتظاهرةُ الَّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضُدِ، قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45][3]. وقولُه تعالى هنا: ﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـًٔا﴾، أي: جماعتُكم، أو جمعُكم مِنَ الجُموعِ ما عَسَى أن تجمعوا[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّهُ تعالى للكفّارِ في هذهِ الآيةِ: إن تطلبوا حُكْمَ اللّهِ عليكم بالهلاكِ والهزيمةِ، فقد جاءكم ما تطلبونَ، وإن تنتهوا، وتُسْلِموا، وتتركوا عداوةَ النَّبيِّ ﷺ فهو خيرٌ لكم وأجدى، وإن تعودوا إلى محاربتِهِ؛ نَعُدْ نحنُ إلى نَصْرِه وهزيمتِكم، ولن تغنيَ جماعتُكم

حُكْم الله نازل على الكافرين، وتهكُّمُهم مآلُهُ الهلاكُ، وكلَّما عـادوا، قوبِلوا بـمثـلِ مـا وقـع بهم

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 621 - 622، وابن منظور، اللِّسان: (فتح).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 621 - 622، والبغوي، معالم التَّنزيل: 342/3.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 650، والفيروزآبادي، القاموس: (فيأ).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 272/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 427/2.

وقوَّتُها شيئًا عنكم، ولو كَثُرتْ، وأنَّ اللّه معَ المؤمنين بالنَّصرِ والتَّأييدِ والتَّوفيق(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الاسْتئنافِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

أسلوب التَّهكُّم بالمشركين، له أثر في أحوالهم ومآلهم

وردَ الاسْتئنافُ في الجملةِ الشِّرطيَّة: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ على سبيلِ التَّهكُّم وهذا التَّهكُّمُ تتضِّحُ صورتُه في اسْتخدام البيانِ الإلهيِّ للفظِ (المجيء)، حيثُ جاءتْ جُمَلُ الشَّرطِ برُمَّتِها بيانًا لهذا المعنَى وتأكيدًا له، مع ما تضمَّنهُ من التَّوبيخِ لهم في قولِه: إنْ تطلبوا الفَتْحَ؛ فقد جاءكم، أي: كما تَرَوْنَهُ عليكم لا لكم، فيكونُ التَّهكُّمُ في نفسِ الفتحِ حيثُ وُضِعَ موضعَ ما يُقابلُه(2).

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِن﴾ دونَ إذا في قوله: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾:

الاستفتاح مِنَ الكفّار ضياع وبوار

آثَرَ التَّعبيرَ بـ﴿إِن﴾ دون (إذا)؛ لأنَّ ﴿إِن﴾ تفيدُ الشَّكَّ في الوقوعِ أو قلَّةِ الوقوعِ ونُدرتِه؛ بخلافِ (إذا) الَّتي تفيدُ تحقُّقَ الوقوعِ، وعلى هذا فالمناسبُ هنا التَّعبيرُ بـ ﴿إِن﴾؛ لأنَّ أصلَ طلبِ الاستفتاحِ أن يكونَ في الخيرِ، وطلبِ النَّصرِ منَ اللّهِ، والملاحظُ أنَّهُ جاء هنا من الكفّارِ، وكانت النَّتيجةُ على غيرِ ما يريدونَ، فهُزموا لعدمِ إيمانِهم باللّهِ، فصارَ استفتاحُهم في حُكْمِ المعدوم.

سرُّ اختيارِ ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ دونَ الدُّعاءِ:

الاستفتاح إزالةُ الإغلاقِ، وقد كان كَفَرةُ قريش يدعون طلبًا للنّصر

آثَرَ التَّعبيرَ بالاستفتاحِ لتعدُّدِ معانيه، ومنها الحُكْمُ، وهو المرادُ هنا؛ لأنَّ الحُكْمَ يكونُ بينَ أطرافٍ متنازعةٍ كلٌّ يدَّعي أنَّه صاحبُ الحقِّ، فيأتي الحكمُ ليزيلَ هذا التَّنازعَ، ولمّا كان الفتحُ معناهُ: إزالةُ الإغلاقِ، وهو كالحكمِ - أيضًا - في إزالةِ الإغلاقِ الموجودِ في

(1) حجازي، التفسير الواضح: 8/100.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/512، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/478، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/298.

القضيَّةِ، وكفّارُ مكَّةَ في خصومتِهم مع النَّبيِّ ﷺ كانوا يستفتحونَ، ويقولون: "اللهمَّ انصر أعلى الجُندين، وأكرمَ الفئتين، وخيرَ القبيلتين"، فكانَ التَّعبيرُ بطلبِ الفتحِ هو المناسبُ لهذا السّياقِ، أمّا الدُّعاءُ؛ فهو عبادةٌ خالصةٌ للّهِ تعالى وكفّارُ مكَّةَ كانوا مشركين يدعونَ مع اللّه إلهًا آخرَ؛ لذلك لم يَرِدْ لفظُ الدُّعاء.

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾:

الاستفتاح دون إيمان يربط بالله، لا معنى له، ولا فائدة منه

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ للعلمِ بهِ، فهم يستفتحونَ على المسلمينَ، ولمّا كان استفتاحُهم وهو طلبُ النَّصر على المسلمين على غيرِ منطقِ الفطرةِ والعقلِ؛ حُذِفَ، ولم يُذْكر.

بلاغةُ الاستعارةِ في مجيءِ الفتح:

أسلوب التّهكم من أبلغ البيان

في قولِه: ﴿جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ فيهِ استعارةُ المجيءِ للحصولِ عندَهم تشبيهًا بمجيءِ المُنجِد؛ لأنَّ جعلَ الفتحِ جائيًا إيّاهم يقتضي أنَّ النَّصرَ كانَ في جانبِهم ولمنفعتِهم، والواقعُ يُخالفُ ذلك، فعُلِمَ أنَّ الخبرَ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بقرينةِ مخالفتِه الواقعَ بمَسمَعِ المُخاطَبينَ ومرآهم.

دلالةُ الخطابِ في سياقِ آيةِ الاستفتاح:

التَّعجيلُ بمواجهةِ المتهكِّمين تثبيتٌ للمؤمنين الرّاسخين

جاءَ الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ موجَّهًا للمشركين، فيكونُ الكلامُ اعتراضًا خوطِبَ به المشركونَ في خلالِ خطاباتِ المسلمينَ بمناسبةِ قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: 18]، والغرضُ من الاعتراضِ المعاجلةُ بالحديثِ عن مواجهةِ المتهكِّمين تثبيتًا للمؤمنين.

بلاغةُ الالتفاتِ على اعْتبارِ الضَّميرِ في ﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ للمشركين:

المشركونَ المتهكِّمونَ بالمؤمنين، أبعدُ ما يكونون عنِ النَّصرِ

في قولِه: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ الآية، التفاتٌ من طريقِ الغَيْبَةِ الَّذي اقْتضاه قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وفيه تنبيهٌ

لهم، وبيانٌ لغفلتِهم عنِ الحقِّ؛ إذْ كيفَ يمكنُ أنْ يَسْتنصروا باللّهِ، وهم أبعدُ ما يكونونَ عنه[1]؟.

بلاغةُ الإتيانِ بفعلِ الشّرطِ مضارعًا دالًّا على الطّلبِ مع مضيّ الحدَث:

المرادُ اسْتحضارُ حالةِ تكريرِهم الدُّعاءَ بالنَّصرِ على المؤمنين

وردَ قولُه تعالى: ﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ بصيغةِ المضارعِ معَ أنَّ الفعلَ قد مضَى زمانُه، لقَصْدِ استحضارِ الحالةِ من تَكْريرِهمُ الدُّعاءَ بالنَّصرِ على المسلمين، وفي استحضارِ الحالةِ الماضيةِ تذكيرٌ لهم بالخزي والهزيمة اعتبارًا بآثارِها المديدةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفاءِ، في ﴿فَقَدۡ﴾:

معاجلةُ المتهكِّم بمطلوبه، دالٌّ على شِدَّةِ غضبِ اللهِ عليه

عبَّر بالفاءِ في قوله: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُمُ﴾ للدَّلالةِ على سرعةِ مجيءِ نتيجةِ الاستفتاحِ لهم بهزيمتِهم في يومِ بدرٍ، وفيه إشارةٌ إلى تعجُّلِهم في طلبِ الفتحِ.

دَلالةُ اقْترانِ جوابِ الشَّرطِ بـ (قد):

مجيءُ الهزيمةِ للمشركين أمرٌ محقَّقٌ لا مفرَّ منه

جاءتِ الفاءُ الرّابطةُ لجوابِ الشَّرطِ مقترنةً بـ (قدْ) الدّاخلةِ على الفعلِ الماضي ﴿جَآءَكُمُ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ وقوعِه، ويكونُ قولُه: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ معناهُ: نَصْرُ أعلاهما، وقد زعمتُم أنَّكم الأعلى، فالتَّهكُّم في المجيءِ، أو فقد جاءكم الهزيمةُ والقهرُ، فالتَّهكُّم في نفسِ الفتح، حيثُ وُضِعَ مَوضِعَ ما يقابلُه.

دَلالةُ تقديم المفعولِ بِهِ على الفاعلِ:

تخصيصُهم بمزيدٍ منَ التَّهكُّم والازدراءِ

في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ تقدَّمَ المفعولُ به، وهو (كافُ) الخطابِ على الفاعلِ﴿ٱلۡفَتۡحُۖ﴾، وجاءَ هذا التَّقديمُ على خلافِ الأصلِ؛ ليدلَّ على التَّخصيصِ والعنايةِ بِهِ والاهْتمامِ بأمرِه، والمعنى: فقد جاءَ المشركينَ الفتحُ، وهذا على معنَى التَّهكُّم - كما تقدَّم - أي: تخصيصُهم بمزيدٍ من التَّهكُّمِ والازْدراءِ، والاهتمامُ بشأنِ ما ظنّوهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 9/298.

من أنَّ اللّه ناصرُهم، بإحباطِهم وتأييسِهم إذْ ليس الأمرُ كما ظنّوا؛ بل هو وهْمٌ لا دليلَ عليه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جَآءَكُمُ﴾ في جوابِ الشَّرطِ:

عبَّرَ بالماضي في جوابِ الشَّرط لإفادةِ تحقُّقِ وقوعِ نتيجةِ الاستفتاحِ، وهو هزيمتُهم الَّتي صارت أمرًا محقَّقًا لا يُختَلفُ عليهِ.

كلُّ وعيدٍ مِنَ اللهِ محقَّقُ الوقوعِ

بلاغةُ إسنادِ المجيءِ إلى الفتحِ:

في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ فيهِ استعارةُ المجيءِ للحصولِ عند المشركينَ تشبيهًا بمجيءِ المُنجِد؛ لأنَّ جعلَ الفَتحِ جائيًا إيّاهم يَقْتضي أنَّ النَّصرَ كان في جانبِهم ولمنفعتِهم، والواقعُ يُخالفُ ذلك، فكانَ في ذلك التَّشبيهِ إشعارٌ بالتَّهكُّمِ بهم وخِذْلانِهم والازْدراءِ بعقولِهم الَّتي لم تَعِ إلى زمنِ هذهِ الواقعةِ أنَّهم على باطلٍ، وأنَّ محمَّدًا ﷺ على حقٍّ[2].

التَّهكُّمُ والاستخفافُ بالمشركين، مزيدٌ مِنَ التّهوينِ مِن حالِهم ومكرِهم

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفتحِ دونَ غيرِه:

قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بهِ دونَ غيرِهِ مِن بابِ التَّهكُّمِ بهم؛ لأنَّهُ وُضِعَ موضعَ ما يقابلُه، وهو الهزيمةُ.

مَنْ خَذَلَه الله فلا ناصرَ له مِن دونِه

دلالةُ عطفِ: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ على ما قبلَها[3]:

تظهرُ مناسبةُ عَطْفِ: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ إلى قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على ما قبلَها: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ من بابِ عطفِ الوعيدِ على الوعدِ، والمعنى: انتهوا عن كُفرِكم بعدَ ظُهورِ الحقِّ في جانبِ المسلمين[4].

عطفُ الوعدِ على الوعيدِ تعظيمٌ للوعدِ وترهيبٌ بالوعيدِ

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إن) في السّياق:

اختارَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَإِن﴾ في قولِهِ: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾؛ لأنَّها تفيدُ

---

(1) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 111.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 298/5، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 298/9.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 14/4.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 478/15، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 299/9.

انتهاءُ الكافرين عن معاداةِ المؤمنين يقلُّ حدوثُه

الشَّكِّ، في الوقوعِ أو نُدرةِ الوقوعِ وقلَّتِه، وهو المناسبُ للسِّياق؛ لأنَّ اللّه يعلمُ أنَّ مشركي مكَّةَ لن ينتهوا عن حربِ المسلمين بسهولةٍ، فسيحاولون مرّاتٍ ومرّاتٍ مقاتلةَ المسلمين، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعضًا منهم سينتهي عن مقاتلةِ المسلمين، وفي هذا إخبارٌ من اللّهِ تعالى بإيمانِ بعضِهم.

دلالةُ الفعلِ ﴿تَنتَهُواْ﴾:

لا خيرَ إلّا في الانتهاءِ التّامِّ عنِ العداءِ قولًا وفعلًا

آثرَ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَنتَهُواْ﴾؛ لأنَّهُ يحملُ معنى الكفِّ عن أيِّ عملٍ عدائيٍّ للمسلمين أو العزم عليه؛ لأنَّ النَّهيَ هو الزَّجرُ عن الشَّيءِ، ومن حيثُ المعنى، لا فرقَ أن يكونَ بالقولِ أو بغيرِه، وما كان بالقولِ لا فرقَ أن يكونَ بلفظ: (اجتنب كذا)، أو بلفظ: (لا تفعل)، إذًا، لفظُ النَّهي أعمُّ مِن غيرِه، كالزَّجرِ مثلًا؛ لذلك اختارهُ القرآنُ، في تحذيرِ المشركين؛ لأنَّ الغرضَ انتهاؤهم عنِ القتالِ والمنازعةِ، وأيضًا الانتهاءُ عنِ الكفرِ والشِّركِ.

سرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾:

الخيرُ الدّائمُ في الدُّنيا والآخرةِ، في التَّوحيدِ والانتهاءِ عنِ العداوةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالخيريَّةِ في قولِه: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ما هم عليه من الكفرِ والقتالِ للمسلمين شرٌّ لهم في دنياهم وأُخراهم، وأنَّ الانتهاءَ عن الكفرِ والقتال، هو الخيرُ لهم في الدُّنيا والآخرة، ولا يتأتَّى ذلك من لفظِ (أفضل) مثلًا؛ لأنَّه قد يشير إلى أنَّ ما هم عليهِ فيهِ فضلٌ، والأمرُ ليس كذلك.

دَلالةُ عَطفِ الشَّرطِ على الشَّرطِ:

عودةُ الكفّارِ للقتالِ تعيدُ لهم الهزيمةَ، والجزاءُ من جنسِ العملِ

جاءتْ جملةُ الشَّرطِ ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ﴾ معطوفةً على جملةِ الشَّرطِ سابقتِها، فكانَ ذلك عطفًا للشَّرطِ المتضمِّن للوعيدِ على قولِه: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾، أي: إنْ تعودوا إلى العنادِ والقتالِ؛ نَعُدْ، أي: نعُدْ إلى هَزْمِكم، كما فعلْنا بكم يومَ بَدْرٍ، وفي الاتِّفاق بين الشَّرط وجوابِه تأكيدٌ على أنَّ الجزاءَ من جنسِ العمل.

دَلالةُ حذفِ المتعلَّقِ في فعلِ الشَّرطِ ﴿تَعُودُواْ﴾ وجوابِهِ ﴿نَعُدۡ﴾:

ضرورةُ صِدْقِ التَّوجُّهِ إلى اللهِ، والاعْتمادِ على نصرِه دونَ سواهُ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ﴾ أي: إنْ تعودوا إلى طَلَبِ النَّصرِ؛ نَعُدْ، فننصُرْكم، أي: لا يَنقُصُ ذلكَ من عطائِنا، يُعلِمُهُمُ اللّهُ صِدْقَ التَّوجُّهِ إليه، أي: لا تَعْتمدوا إلّا على نصرِ اللّهِ(1).

وعلى أنَّ الكلامَ مع المشركين يكونُ المعنى: وإن تعودوا إلى قتالِ المسلمين؛ نعُدْ إلى قهرِكم وخذلانِكم، كما كان في يومِ بدرٍ.

دَلالةُ العطفِ بجملةٍ منفيَّةٍ ﴿وَلَن تُغۡنِيَ﴾:

تيئيسُ الكفّارِ منَ النَّصرِ حاضرًا ومستقبلًا، إذ لا أَمَلَ لهم في عونِ اللهِ ونصرِه

جاءَ العطفُ بالجملةِ المنفيَّةِ ﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ على ما تقدَّمها من العَوْدِ لهزيمتهم؛ إنْ عادوا للعنادِ والقتالِ، تأْييسًا لهم من الانْتصارِ في المستقبلِ كُلِّه، فالمشركونَ كانوا يومئذٍ واثقينَ بالنَّصرِ على المسلمينَ لِكَثْرَةِ عَدَدِهم وعُدَدِهم، فلم يكُ ينفعُهم ذلكَ كلُّه شيئًا؛ لأنَّه بلا إيمانٍ باللّهِ، فهو كَسَرابٍ بقيعةٍ يحسَبُه الظَّمآنُ ماءً، حتَّى إذا جاءَه؛ لم يجدْه شيئًا(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿وَلَن﴾:

تأكيدُ نفي قدرةِ الجمعِ على نصرةِ المشركين تيئيسٌ لهم

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَلَن﴾ الَّتي تُفيدُ النَّفيَ المؤكَّدَ، وفي هذا تحذيرٌ للمشركين وإعلانٌ بهزيمتهم في كلِّ الأحوالِ مهما كانت معهم الكثرةُ من العددِ والعُدَّةِ، وفيه بشارةٌ بنصرِ المسلمين.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿وَلَن تُغۡنِيَ﴾ دونَ (لن تنفع):

نفيُ عدمِ الإغناءِ، مبالغةٌ في إذلالِ الكافرين

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿وَلَن تُغۡنِيَ﴾ دونَ (لن تنفع)؛ لأنَّ نفيَ الغنى مع أسبابِ وجودِه أبلغُ في الإذلالِ، وأشدُّ في التَّنكيل بهم، فهم يملكون أسبابَ الغنى بكثرةِ العدادِ والعُدَّة، ومع ذلك ما أغنتْ عنهم أموالُهم، ولا أولادُهم من إيقاعِ الهزيمةِ بهم في يومِ بدرٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/300 - 301.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، 9/299.

بلاغةُ تقديمِ المجرورِ ﴿عَنكُمۡ﴾ على ﴿فِئَتُكُمۡ﴾:

تقديمُ المجرورِ لإفادةِ تخصيصِ عَدَمِ إغنائهم، بجمعِهم أو جَمْعِ غيرِهم

تقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿عَنكُمۡ﴾ على ﴿فِئَتُكُمۡ﴾ - وخاصَّةً بعد النَّفي ﴿وَلَن تُغۡنِيَ﴾، لحَصْرِ الإغْناءِ عنهم وتَخْصيصِه بالذّات من فئتِهم، أو من فئةِ غيرهم، أي: من جَماعتِهم أو من جماعةِ غيرِهم، فالإغْناءُ أو عَدَمُهُ متعلِّقٌ بهم هم أنفسُهم؛ لأنَّهم هم الَّذين اسْتنصروا على المؤمنينَ ظنًّا منهم أنَّهم أهلٌ للغَلَبةِ والنَّصرِ، فنفَى عنهم ذلكَ بالكُلّيَّةِ؛ لأنَّهم معاندونَ متكبِّرونَ[1]، وفي تقديمِ شبهِ الجملةِ على الفاعلِ تخصيصٌ لهم بعدمِ قُدرةِ أحدٍ على نصرِهم؛ لأنَّهم المقصودونَ بالتَّبكيتِ.

تنوُّعُ المرادِ بضميرِ الخطابِ: ﴿عَنكُمۡ﴾:

ضميرُ الخطابِ يتناولُ المؤمنينَ والمشركين

قد يكونُ المرادُ بكافِ الخطابِ المؤمنين، فالنَّصرُ غيرُ مضمونِ الحصولِ عليه إلّا إذا اسْتنصروا باللّهِ، واسْتَغْنَوْا بهِ عن غيرِه تعالى ولو كانتْ فئتُهم كثيرةً، وقد يكونُ المرادُ بكافِ الخطابِ المشركين، فالنَّصرُ غيرُ حاصلٍ لهم، ولو حَشَدوا له جمعًا كثيرًا منهم أو من غيرِهم؛ لأنَّهم غيرُ مؤمنينَ باللّهِ، والنَّصرُ من عندِه وبأمرِه[2].

سرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿فِئَتُكُمۡ﴾:

تقليلُ الكثرةِ كَشَفَ عن ضعفِ قوَّتِهم

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿فِئَتُكُمۡ﴾؛ لأنَّ المرادَ بها الجماعةُ الَّذين يكونون رِدءًا للمحاربين، أو الجماعة المتظاهرةُ الَّتي يرجعُ بعضُها إلى بعضِ التَّعاضُدِ، وفي هذا إشارةٌ إلى قوَّتِها وتماسكها ضدَّ المسلمين؛ فالملاحظُ على هذا التَّعبيرِ أنَّه يشيرُ إلى أنَّ المشركين يعتمدونَ على ردْئِهم من الَّذين لم يشاركوا في غزوة بدرٍ بعد انهزامِ جيشِهم؛ لذلك لم يذكرِ القرآنُ كلمةَ جيشِهم؛ لأنَّه انهارَ ولم يَعُدْ له وجودٌ في هذه المعركةِ، وفيه بشارةٌ بانهزامِ جيشِ مشركي مكَّةَ، وأنَّه وإن طال الوقتُ لن يكونَ لهُ وجودٌ.

---

(1) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 107 - 108.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 245/8 - 246، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

سرُّ التَّعبيرِ بقولهِ: ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

التّكثيرُ يفيدُ المبالغةَ في التَّيئيس، مِنَ الاستفادةِ بفئتِهم

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿شَيۡـٔٗا﴾، الَّتي جاءت في سياقِ النَّفي، وهي نكرةٌ؛ لأنَّها تدلُّ على عمومِ نفي الإغناءِ، والزّيادةِ في التَّيئيس مِنَ الاستفادةِ بفئتِهم وجماعتِهم.

دَلالةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾:

اتِّصالُ ما قبلَها بما بعدَها

﴿وَلَوۡ﴾ هنا امْتناعيَّةٌ حاليَّةٌ، جاءتْ مع الواوِ قبلَها في معنَى الحال، فجملتُها ﴿وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ حاليَّةٌ، أي: لن تُغنيَ عنكم فئتُكم شيئًا، والحالُ أنَّه لو كثُرَتْ ما أغْنتْكم، فكيفَ وفئتُكم قليلة؟[1].

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَأَنَّ﴾:

التَّعليلُ يكشفُ المقاصدَ، ويشرحُ صدورَ المؤمنين

عُطِفَ قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على ما قبلَها؛ لأنَّها بمنزلةِ التَّعليلِ لتعليقِ جميعِ ما تقدَّم: لمجيءِ الفتحِ والتَّربُّصِ بالمشركين، فإنْ عادوا للقتالِ؛ عُدْنا لهزمِهم، والجموعُ الكثيرةُ لا تغني بدونِ إيمانِ أهلِها[2].

بلاغةُ التَّذييلِ في ختامِ الآية:

المؤمنونَ في معيَّةِ اللهِ ونصرتِهِ دائمًا

العبرةُ بالخواتيم، فجاءتْ خاتمةُ هذه الآيةِ ببيانِ أهمّيَّةِ الإيمانِ في قلوبِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ وأنَّ معيَّةَ اللّهِ بنصرِه وتأييدِه مُصاحبةٌ للمؤمنين دونَ غيرِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

الإيمانُ باللهِ توفيقُ العنايةِ، وضمانُ الهدايةِ

في ختامِ الآيةِ إظهارٌ في مقامِ الإضْمارِ؛ لأنَّ مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: وإنَّ اللّهَ معكم، فعدَلَ إلى الاسْمِ الظّاهرِ للإيْماءِ إلى أنَّ سببَ عنايةِ اللّهِ بهم هو إيمانُهم[3].

---

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 588/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 301/9.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

دلالة تعدُّدِ القراءاتِ في قولِه: ﴿وَأَنَّ﴾:

التَّعليلُ والتَّأكيدُ يحقِّقانِ معيَّةَ المؤمنين

في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ قراءتان: القراءةُ الأولى بفتحِ همزةِ (أنَّ)، وهي على تقديرِ لامِ التَّعليلِ، أي: ولأنَّ اللهَ معينُ المؤمنين، عطفًا على قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨﴾ [الأنفال: 18]، والقراءةُ الثّانيةُ: بكسرِ همزةِ (إنَّ)، على الاستئنافِ، فهو تذييلٌ للآيةِ في معنَى التَّعليل؛ لأنَّ التَّذييلَ لِما فيه مِنَ العُمومِ يَصلُحُ لإفادةِ تعليلِ المُذَيَّلِ؛ لأنَّه بمنزلةِ المقدِّمةِ الكُبرَى للمقدِّمةِ الصُّغرَى[1].

دَلالةُ تعريفِ المسنَدِ إليهِ بالعَلَميَّةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

تأكيد المهابةِ في القلوبِ، واليقينُ بأنَّ النَّصرَ من عندِ اللهِ وحدَهُ

اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ سَيِّدُ الأسماءِ وسَيِّدُ الأعلام، وإيرادُه هنا بالإسْنادِ إليه، لزَرْعِ المهابةِ في القلوب، واليقينِ التّامِّ بأنَّ النَّصرَ والتَّأييدَ والمعيَّةَ الحقيقيَّةَ هي من اللهِ وحدَه دونَ سواه، قالَ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: 10]، وقالَ ﷻ: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 160].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمعيَّةِ في قولِه: ﴿مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

كمالُ المعيَّةِ الإلهيَّةِ، مع كمالِ العقيدة الإيمانيّة

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالمعيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لبيانِ أنَّ مناطَ المعيَّةِ الحقيقيَّةِ بالإيمان، أي: والأمرُ أنَّ اللّه مع المؤمنين، فمعيَّةُ اللهِ مُتحقِّقةٌ مع الكاملينَ في الإيمانِ نصرًا وتأييدًا[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَتْح والنَّصْر:

الفتحُ: الفصلُ بين الحقِّ والباطل، والنَّصرُ: يختصُّ بالمعونةِ على الأعداءِ

الفتحُ: الحكمُ والفصلُ بين الشَّيئَيْن، ومنه الفصلُ بين الحقِّ والباطل، ويُطلَقُ على الفصلِ بين الشَّيئَيْنِ ليظهرَ ما وراءَهما، ومنه: فتحُ الباب، ثمَّ اتُّسِعَ فيه، فقيلَ: فتحَ إلى المعنَى فتحًا؛ إذا كَشَفَه،

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 588/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم، 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 588/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.

والفاتحُ: الحاكمُ، وقد فتحَ بينَهما، أي: حَكَم، ومنه قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89][1].

أمّا النَّصرُ؛ فيختصُّ بالمعونةِ على الأعداءِ، والنُّصرةُ لا تكونُ إلّا على المنازِعِ المُغالبِ والخَصْمِ المناوئِ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51]، وقالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾ [الفتح: 3]. وقالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦﴾ [الصّافّات: 116]، وعلى هذا؛ فالفتحُ أعمُّ والنَّصرُ أخصُّ.

الفِئَة والطّائِفَة:

الفئةُ: الجماعةُ، المتعاضِدةُ، وهي ألْيقُ بسياقِ الآيةِ مِنَ الطّائفة

الفئةُ: هي الجماعةُ المتفرِّقةُ مِن غيرِها، وتُطلَقُ على الجماعةِ المتظاهرةِ الَّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضُد، قالَ تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45]. والفئةُ في الحرب: القومُ يكونون رِدْءَ المحاربين، قالَ تعالى: ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ [الأنفال: 16]، ثمَّ قيلَ لجمعِ كُلِّ مَنْ يمنعُ أحدًا، وينصرُه: فئةٌ[2].

والطّائفةُ: في الأصلِ الجماعةُ الَّتي من شَأْنِها الطَّوْفُ في البلادِ للسَّفر، ويجوزُ أنْ يكونَ أصلُها: الجماعةُ الَّتي تَستوي بها حَلْقةٌ يُطافُ عليها، ثمَّ كَثُرَ ذلكَ حتَّى سُمِّيَ كلُّ جماعةٍ طائفةً، قالَ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحُجرات: 9][3]، وعلى هذا فالفئةُ أعمُّ مِنَ الطّائفةِ.

تَعودوا وترجِعوا:

العَوْدُ: فِعْلُ الشَّيءِ ثانيةً على الحقيقة، وفي الابْتداء مَجازًا، فهو أوسعُ مدلولًا من الرُّجوعِ

الرُّجوعُ: فِعْلُ الشَّيءِ ثانيةً، ومصيرُه إلى حالٍ كانَ عليها. والعَوْدُ: يُستعمَلُ في هذا المعنَى على الحقيقةِ، ويُستعمَلُ في الابْتداءِ مجازًا، يُقالُ: قد عادَ إليَّ من فلانٍ مَكروهٌ، وإن لم يكنْ قد سبقَه مكروهٌ قبلَ

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 396، والرّاغب، المفردات، ص: 621، وابن منظور، اللّسان: (فتح).
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 245/1، والعسكريّ، الفروق، ص: 396، والرّاغب، المفردات، ص: 650.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 334، والرّاغب، المفردات، ص: 531.

ذلك، وتأويلُه أنَّه لحقَني منه مَكْروهٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿۞قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88]. والمعنى: لَتَدْخُلُنَّ في دينِنا، فإنَّه عليه السلام لم يكنْ على دينِهم قطُّ[1]. وقدِ اختارَ التَّعبيرَ بالعَودِ دونَ الرُّجوعِ؛ لأنَّ العَوْدَ معناهُ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنهُ؛ بخلافِ الرُّجوع: فهو العودُ إلى ما كانَ منهُ البدءُ، أو تقديرُ البدءِ مكانًا أو فعلًا أو قولًا[2]. وعلى هذا، فالتَّعبيرُ بالعَودِ هو المناسِبُ للسّياق؛ لأنَّه تحذيرُ المشركين مِنَ العَودِ إلى قتال المسلمين بعد انصرافِهم عنهُ بالهزيمةِ.

المجيء والإتيان:

كلا اللّفظَين يعني الإقبال إلى مكان أو شيء، ولكنّ المجيء فيه صعوبة ومشقّة

آثَرَ التَّعبيرَ بالمجيءِ دونَ الإتيانِ، لوجودِ فرقٍ بينهما، حيث يتميَّزُ المجيءُ بالصُّعوبةِ؛ فهو بذلك يختلفُ عن الإتيانِ؛ لذلك ناسبَ التَّعبيرُ بالمجيء هنا لما لحقَهم من القتلِ والأسرِ، فالمجيءُ لم يكن سهلًا، إنَّما كان صعبًا عليهم بما جلبَهُ لهم من القتلِ والأسرِ.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 250، والحسينيّ، الكلّيّات: 2/390، والجُرجاني، التَّعريفات، ص: 114، 164.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (عود - رجع).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

المناسبة بينَ التّنديد بالعناد والجحود، والدّعوة لطاعة اللّه ورسوله دون كُنود

لَمّا أراهُم اللّهُ آياتِ لُطفِه وعنايتَهُ بهم في الآياتِ السّابقةِ، ورأوا فوائدَ امتثالِ أمرِ الرَّسولِ ﷺ بالخروجِ إلى بدرٍ، وقد كانوا كارهينَ الخروجَ؛ جاءت هذه الآيةُ لتأمرَهُم بطاعة اللّهِ ورسولِه شكرًا على نعمةِ النَّصرِ، واعتبارًا بأنَّ ما يأمرُهم بِهِ عواقبُهُ كلُّها خيرٌ، لذلك حذَّرهم من مخالفةِ أمرِ اللّهِ ورسولِه(1)، وممّا يذكرُ في المناسبةِ أنَّه لمّا كان سببُ ما أحلَّهُ اللّهُ بالكفّارِ - مِنَ الإعراضِ عن إجابتِهم فيما قَصَدوا من دعائِهم ومن خِذلانِهم في هذهِ الوقعةِ وإيجابِ مثلِ ذلكَ لهم أبدًا - هو عصيانُهمُ الرَّسولَ ﷺ، وتولّيهم عن قَبولِ ما يسمعونَه منهُ؛ حذَّرَ المؤمنينَ من مثلِ حالِهم ذاكَ بالتّمادي في التَّنازعِ في الغنيمةِ أو غيرِها، فقال: يا أيُّها الَّذين آمنوا أطيعوا اللّهَ الَّذي له جميعُ العِزِّ والعَظَمةِ، وأطيعوا رسولَهُ ﷺ تصديقًا لِدَعْواكُمُ الإيمان، ولا تَتَولَّوْا عنه في حالٍ من الأحوال، وأنتم تسمعونَ لِما يقولُهُ، أو أنتم تُصدِّقونَه؛ لأنَّ ارتكابَ شيءٍ من ذلكَ يُكذِّبُ دَعْوَى الإيمانِ، وينطبقُ على حالِ الكُفّارِ(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡمَعُونَ﴾: السَّمعُ قوَّةٌ في الأُذُنِ به تُدرَكُ الأصواتُ، وفعلُه يُقالُ لهُ: السَّمعُ أيضًا، وقد سمِعَ سمعًا، ويُعبَّرُ تارةً بالسَّمعِ عنِ الأُذُن، نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 302/9.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 469/15، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 247/8.

فعلِه كالسَّماعِ، نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝﴾ [الشُّعراء: 212]، وتارةً عن الفَهْمِ، وتارةً عن الطّاعة، قالَ تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النِّساء: 46]، أي: فهِمْنا قولَك، وارْتَسَمْنا له[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحثُّ على طاعة اللـه ورسـوله؛ لأنّ الخيرَ كلَّهُ كامنٌ في توخّيها بعلمٍ وثبات

يأمرُ اللّهُ تعالى عبادَهُ المؤمنينَ بطاعتِه وطاعةِ رسولِه ﷺ، ويزجرُهم عن مخالفتِه والتَّشبُّهِ بالكافرينَ به المعاندينَ له، وخاصَّةً بعدَما عَلِموا ما دعاهم إليه، ووضُحَتْ أمامَهمُ الدَّلائلُ والبراهينُ على صدقِه في رسالتِه ودَعْوتِه[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ افْتتاحِ الآيةِ بأسلوبِ النِّداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

النِّداءُ للاهْتمام بما وراءَهُ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي

افْتتاحُ الآيةِ الكريمةِ بالنِّداءِ للاهْتمامِ بما سيُلْقى إلى المخاطَبينَ، قَصْدًا لإحضارِ الذِّهنِ لِوَعْيِ ما سَيُقالُ لهم، فنزَّلَ الحاضرَ مَنزلةَ البعيدِ، فطلبَ حضورَهُ بحرفِ النِّداءِ الموضوعِ لطلبِ الإقْبالِ[3]؛ لأهمِّيَّةِ ما يُلقى في شأنِ الجهادِ بالدِّفاعِ عن المؤمنين والضُّعفاءِ مِنَ الشُّيوخِ والنِّساءِ والذُّرِّيَّة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمنادَى ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أهليَّةُ المؤمنين الكاملةُ لتحمُّلِ التَّكاليفِ الإلهيَّةِ

التَّعريفُ بالموصوليَّةِ في جملةِ النِّداءِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للتَّنبيهِ على أنَّ الموصوفينَ بهذهِ الصِّلةِ من شأنهم أن يتقبَّلوا ما سيُؤمَرون به، وأنَّه كما كانَ الشِّركُ مُسبِّبًا لمُشاقَّةِ اللّهِ ورسولِه في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]؛ فخليقٌ بالإيمانِ أن يكونَ باعثًا لأهلِه على طاعةِ اللّهِ ورسولِه، وفي ذلكَ كذلكَ رفْعٌ لأقدارِهم ومكانتِهم عندَ اللّهِ[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 425، وابن منظور، اللِّسان: (سمع).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/273.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/303.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/298، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/303.

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملةِ الصِّلةِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

أفـادَ الفعلُ الماضي تحقُّقَ الإيمانِ في قلوبِهم، وملازمتِهم لهذه الصِّفةِ

جاءتْ جملةُ الصِّلةِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فعلًا ماضيًا ليُفيدَ تحقُّقَ هؤلاءِ الموصوفينَ بهذه الصِّلة بالإيمان، وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ؛ فخليقٌ بهم - وهم على هذه الصِّفةِ الملازمةِ لهم - أنْ يكونَ إيمانُهم باعثًا لهم على طاعةِ اللّهِ ورسوله، وكأنَّ في تلبُّسِهم في هذا الإيمانِ عَودًا على ما وردَ في أوَّلِ السّورةِ بقولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]، وفي ذلك إشارةٌ جَليَّةٌ هنا إلى أنَّ تحقُّقَ وصْفِ الإيمانِ فيهم وإفراغَهُ في صورةِ الشَّرطِ في أوَّلِ السّورةِ ما قُصِدَ منه إلّا شحذُ العزائم، والانْتظامُ في سِلْكِ المؤمنينَ المطيعينَ للّهِ ورسولِه حقًّا وصِدْقًا[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما سيُلقى عليهم فيهِ مشقَّةٌ، لاسيِّما أنَّ الأمرَ، في سياقِ الحربِ والجهادِ، وهذا أمرٌ تكتنفهُ صعوباتٌ كثيرةٌ وعراقيلُ متعدِّدةٌ، فلا يستطيعُ الصَّبرَ عليها والتَّغلُّبَ على مخاطرِها إلّا من أوتي إيمانًا راسخًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأمرِ بعد التَّمهيدِ له بالنِّداءِ:

للطّاعةِ أثرٌ عظيمٌ في حياةِ المؤمنين، فلا بُدَّ منَ المسارعةِ في التزامِها

جاءَ قولُه تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أمرًا بالطّاعة، وعَوْدًا على الأمرِ بالطّاعةِ الَّذي افْتُتِحتْ به السّورةُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، كرجوعِ الخطيبِ إلى مقدِّمةِ كلامِه ودَليلِه؛ ليأخُذَها بعدَ الاسْتدلالِ في صورةِ نتيجةٍ أسْفَرَ عنها احْتجاجُهُ؛ لأنَّ مطلوبَ القياسِ هو عَيْنُ النَّتيجة، ولما لطاعةِ اللّهِ ورسوله من أثرٍ عظيمٍ في حياتِهم، فهي سبيلٌ للنَّصرِ العظيمِ والغُنْمِ الوفيرِ، ولا يتحقَّقُ ذلكَ إلّا لمن كانَ قلبُهُ عامرًا بالإيمانِ باللّهِ ورسولِه، وهذا كلُّه مَدْعاةٌ للمسارعةِ في التزامِ تلكَ الطّاعةِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/303.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/302.

سرُّ تكرارِ الأمرِ بالطّاعةِ في السّياق الحكيم:

التّأكيدُ على أهمّيّةِ طاعةِ الرّسولِ ﷺ

كُرِّرَ الأمرُ بالطّاعةِ في هذهِ الآيةِ مع سبقِ ذِكْرِ الأمرِ بها في أوَّلِ السّورةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ليعطفَ عليها قولَهُ: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ وأيضًا لمّا كان الكلامُ من أوّلِ السّورةِ إلى هنا واقعًا في شأنِ الجهادِ؛ عُلِمَ أنَّ المرادَ (وأنتم تسمعون دعاءَهُ إلى الجهادِ)، ويحملُ ذلك مخاطرةً بالنَّفس وبالمال، ولمّا كانت المخاطرةُ بالنَّفس شاقّةً شديدةً على كلِّ أحدٍ، وكان ترْكُ المالِ بعدَ القُدرةِ على أخذِهِ شاقًّا شديدًا، والنَّفسُ بطبيعتِها تتبرَّمُ من ذلك، جاء الأمرُ بالطّاعةِ للّهِ ورسولِه مرَّةً ثانيةً لتأديبِ النُّفوس وتربيتها على الانقيادِ لأوامرِ اللّهِ[1]، وممّا يؤكِّدُ هذا المعنى ما ذَكَرهُ الطَّيبيُّ في سرِّ تكرارِ الأمرِ بالطّاعةِ أنَّ الغرضَ تشديدُ الأمرِ بطاعةِ الرَّسولِ ﷺ وتحريضُ الصَّحابة - رضوانُ اللّهِ عليهم - على الانقياد لأمرِه والامتناعِ عن مخالفتِه، لاسيَّما أنَّ الآياتِ قبلَها في قصّة بدرٍ، وأطالَ الكلامُ فيها، وبعد ذلك كرَّ إلى ما بدأ به، وشدَّد فيه غايةَ التَّشديدِ (طاعة الرّسول ﷺ) حيثُ جعلَها من طاعةِ اللّهِ تعالى وحذَّرَ من مخالفتهِ ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾[2]، وفي اقتران الإيمانِ بالطّاعةِ إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ لا تقوم حقيقتُهُ إلّا على الطّاعةِ لِما تحملُ دعوةُ الإيمانِ مِن أوامرَ ونواهٍ، فالإيمانُ ليس مجرَّدَ إقرارٍ باللِّسان، بل لا بدَّ من تصديقِه بالعمل، ولذلك ذمَّ اللّهُ المنافقين بقولِه: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾[3].

دَلالةُ ذكرِ اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

مقامُ التّعظيمِ للهِ يزرعُ المهابةَ، يُهيِّئُ لالتزامِ الطّاعةِ

ذِكْرُ اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في هذا المقامِ مقامِ التَّعظيم، مقترنًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 132/9.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 59/7.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 585/3.

بالأمرِ بطاعتِه تعالى الَّذي هو رأسُ الأمرِ كُلِّه؛ لِزَرعِ المهابةِ في قلوبِ المؤمنينَ ودَفعِهم للمسارعةِ في امْتثالِ الطّاعة المُطلَقةِ للّه، وللتَّمهيدِ والتَّنبيهِ على أنَّ ما سيأتي من أوامرَ وزواجرَ هي شرعٌ من اللّهِ العظيم، فلا بدَّ من التزامِها[1]، وهذا دليلٌ على الاعترافِ بالعبوديَّةِ للّهِ ربِّ العالمين، ويلزمُ من ذلكَ دوامُ الانقيادِ.

بلاغةُ العطفِ بحرف (الواوِ):

طاعةُ الرَّسولِ ﷺ طاعةٌ للهِ تعالى، وعصيانُهُ عصيانٌ له

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ عطفًا على اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، ووحَّدَ بينهما بالأمرِ بالطّاعةِ لبيانِ أهميَّةِ طاعةِ رسولِه ﷺ، فطاعةُ الرَّسولِ ﷺ طاعةٌ للّه، فالمعنَى: وأطيعوا رسولَ اللّهِ[2]، وفيه إشارةٌ إلى تشريكِ الرَّسولِ ﷺ في أمرِ التَّشريع، ووجوبِ الالتزامِ بطاعتهِ فيما يُشَرِّعُ؛ لأنَّ طاعةَ اللّهِ تعالى تكونُ على العموم، وطاعةُ الرَّسولِ ﷺ في تفصيلِ الأحكامِ وتطبيقاتِها، في هذا ردٌّ على مَن يُسَمّونَ أنفسَهم بالقرآنيّين.

بلاغةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ للذّاتِ العَليَّةِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

تشريفُ مقامِ رسولِ اللهِ ﷺ، وضرورةُ طاعتِه

في قولِه تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ عَوْدُ الضَّميرِ (الهاء) إلى اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، أي: أطيعوا اللّه، وأطيعوا رسولَ اللّهِ، وفي هذا تشريفٌ جليلٌ لرسولِ اللّه ﷺ، وتحفيزٌ للمؤمنينَ على طاعةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فإنَّ طاعتَهُ طاعةٌ للّهِ، فكلتا الطّاعتين شيءٌ واحدٌ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالرِّسالةِ دونَ النُّبوَّةِ:

في مقامِ التَّشريعِ، الأنسبُ التَّعبيرُ بالرِّسالةِ لأهميّتها في السّياقِ المفصح

عبَّر بالرِّسالةِ دونَ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تشريعاتٍ وتوجيهاتٍ تتعلَّقُ بحياةِ الأمَّةِ عمومًا، وفي أمرِ الجهادِ خصوصًا، وكلُّ ذلك من مقتضياتِ الرِّسالةِ.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/479.

(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/150.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/150، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/479.

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ الطّاعةِ:

حُذِفَ متعلَّقُ الطّاعةِ في قولِه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وإن كان السّياقُ في شأنِ الإجابةِ إلى أمرِ الجهادِ، وتركِ المالِ إذا أمرَ اللّهُ بتركِه للدِّلالةِ على العمومِ؛ ليشملَ كلَّ ما يصدرُ عنِ اللّهِ ورسولِه، ويدخلُ أمرُ الجهادِ والمالِ في هذا دخولًا أوَّليًّا.

المقصودُ عمومُ الطّاعةِ، لا العباداتِ الحسيّة فحسب

بلاغةُ عطفِ أسلوبِ النَّهيِ على أسلوبِ الأمرِ في الآية:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ﴾ عُطِفَ النَّهيُ هنا على الأمرِ في قولِه: ﴿أَطِيعُواْ﴾ لبيانِ أنَّ المرادَ هو الأمرُ بطاعةِ اللّهِ ورسولِه ﷺ، والنَّهيُ عن الإعراضِ عن طاعتِهما؛ فكلاهما مُستحقٌّ للّهِ وللرَّسولِ ﷺ، والنَّهيُ عن التَّولّي عن الرَّسولِ نهيٌ عن الإعراضِ عن أمرِ اللّهِ، ويمكنُ أن يُرادَ: أطيعوا اللّهَ ورسولَه، ولا تولَّوا عن هذا الأمرِ وامْتثالِه، أو ولا تتولَّوا عن رسولِ اللّهِ ﷺ، ولاتخالفوه[1].

التَّأكيدُ على طاعةِ اللّهِ ورسولِه، فهي قِوامُ الأمرِ كلّه

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّخفيفِ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾:

قولُه: ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ أصلُه (تَتَوَلَّوْا)؛ لأنَّ (تفعَّل) دخلَتْ عليه تاءُ المخاطَبِ بالفعلِ المستقبل، فحُذفتِ الواحدةُ، والمحذوفةُ هي تاءُ (تفعَّل)، والباقيةُ هي تاءُ العلامة؛ لأنَّ الحاجةَ إليها هنا ماسَّةٌ جدًّا ليَبقى الفعلُ مستقبلًا[2]، وفي التَّخفيفِ إشارةٌ إلى وجود تباطُؤٍ قد يحدث من بعضِ المؤمنين، ليس عن قصدٍ، ولكنَّه عن اجتهادٍ أخطَؤوا فيه؛ فيُعَدُّ ذلك مِن صوَرِ التَّولّي، أمّا قراءةُ التَّشديدِ؛ فتُشيرُ إلى النَّهي لمن يُمعِنون في الإعراضِ عن طاعةِ اللّهِ ورسولِه.

﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ بتاءٍ واحدةٍ لإفادةِ المستقبلِ

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ المفرد ﴿عَنۡهُ﴾:

إفرادُ الضَّميرِ المجرورِ بـ (عن) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾؛ لأنَّه راجعٌ إلى الرَّسولِ ﷺ؛ إذْ هذا المناسبُ للتَّولّي بحسَبِ الحقيقة،

رجوعُ الضَّميرِ إلى الرَّسولِ ﷺ، يفيدُ أنّ التَّولّي عن الرَّسولِ تولٍّ عن الله

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/150، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/479.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/513.

فإفرادُ الضَّميرِ هنا يُشبِهُ ترشيحَ الاسْتعارةِ، وقد تقدَّم أنَّ النَّهيَ عن التَّولّي عنِ الرَّسولِ نهيٌ عن الإعراضِ عن أمرِ اللّهِ، لقولِه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: 80][1].

وممّا يُذكر في سرِّ ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو الَّذي خاطبهم، وهو المتحدِّثُ باسم ربِّه عنهم، ولا يُتصوَّرُ أن يكونَ التَّولّي عن اللّهِ تعالى بل لتَّولّي عنه ﷺ وإنَّ نسبةَ التَّولّي منهم للّهِ تعالى لا تليقُ[2]، ويحتملُ أن يكونَ الضَّميرُ راجعًا إلى الأمرِ الَّذي دلَّ عليهِ ﴿أَطِيعُواْ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّولّي دونَ غيرِه:

النَّهيُ عنِ الأعلى، تنبيهٌ للنَّهي عنِ الأدنى

آثرَ في التَّعبيرِ التَّولّي دونَ غيرِه؛ لأنَّ لتَّولّيَ يأتي بمعنى الإعراضِ أو الانصرافِ، والمعنى: لا تنصرفوا، وأنتم تسمعون القولَ؛ لأنَّ الانصرافَ، وهم يسمعونَ القولَ يتضمَّنُ معنيين: أوّلهما: أن يكونَ التَّولّي نفسيًّا، فهم يكونون سامعين، لكن غيرَ مُنفِّذين. ثانيهما: أن يعرضوا عن النَّبيِّ ﷺ حسّيًّا، وهو يتكلَّم، وهم يسمعون[3]، فقد عبَّر عن الأعمِّ؛ ليشملَ النَّهيُ عمّا دونَهُ.

دلالةُ النَّهي في قولِه: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾:

النَّهيُ عن الإعراضِ يؤكِّدُ الطّاعةَ

دلَّ النَّهيُ على وجوبِ الانتهاءِ عن التَّولّي مطلقًا، لا لتقييدِ النَّهي عنهُ بحالِ السَّماعِ، وفيهِ تحذيرٌ للمؤمنين من أن يخرجوا عن طاعةِ اللّهِ، وأن يخالفوا الرَّسولَ فيمَ يسمعون من آياتِ اللّهِ[4].

بلاغةُ قَيدِ النَّهي بالجملةِ الحاليَّةِ: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾:

ذمُّ التَّولّي، والتَّنفيرُ منهُ، وتأكيدُ وجوبِ طاعتِهِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ في موضعِ الحالِ من ضميرِ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾، والمقصودُ من هذه الحالِ تَشويهُ التَّولّي المَنهيِّ عنه والتَّنفيرُ منه، فإنَّ العصيانَ مع توفُّرِ أسبابِ الطّاعةِ أشدُّ منه في حينِ انْخرامِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3093/6.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3092/6.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 188/9.

بعضِها، وفي هذا السّياقِ تأكيدُ وجوبِ طاعتِه والمواعظِ الزّاجرةِ عن مخالفته، فهو سماعُ فهْمٍ وإذْعانٍ[1]، وهذهِ دعوةٌ إلى حُسنِ الاستماعِ، كما أنَّ في ذكرِ هذهِ الجملة تسجيلًا عليهم، وتحقيقًا للبلاغِ فيهم، ممّا يُسقط العذرَ، ويُشعرُ بالتَّهديدِ والوعيد.

دَلالةُ السَّمعِ في قولِه: ﴿تَسۡمَعُونَ﴾:

السَّمعُ وعدمُ العملِ بالمسموعِ، لا يُعدُّ سمعًا

المرادُ بالسَّمعِ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ حقيقتُه، أي: في حالٍ لا يعوزُكم تَرْكُ التَّولّي - بمعنى الإعراض - وذلكَ لأنَّ فائدةَ السَّمعِ العملُ بالمسموع، فمَنْ سمعَ الحقَّ، ولم يعملْ به؛ فهو والَّذي لا يَسمعُ سواءٌ في عَدَمِ الانْتفاعِ بذلكَ المسموع[2].

دَلالةُ تقديمِ المسنَدِ إليه على خبرِه الفعليِّ:

تأكيدُ سماعِهم وتحقُّقُهُ، يقتضي الإقبالَ لا الإعراضَ

الجملةُ الحاليَّةُ ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ تقدَّمَ فيها المسنَدُ إليهِ على خبرِه؛ لأنَّهُ لَمّا كان الأمرُ بالطّاعةِ كلامًا يُطاعُ؛ ظَهرَ هذا الأمرُ موقعَ ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾، فلمّا كانَ الكلامُ الصّادرُ من اللّهِ ورسولِه من شأنِه أنْ يقبَلَهُ أهلُ العقولِ وذوو البصيرة؛ كانَ مجرَّدُ سماعِه مُقتضيًا عدمَ التَّولّي عنه؛ لأنَّه دعاءٌ مِنَ اللّهِ ورسولِه لجماعةِ المؤمنينَ بالقرآنِ والمواعظِ والآياتِ، فهم أحقُّ مَن يسمعُ سماعَ فهمٍ وتدبُّرٍ ثمَّ التزامٍ وعملٍ[3].

دلالةُ حذفِ مُتَعَلَّقِ ﴿تَسۡمَعُونَ﴾:

العبرةُ بالسَّماعِ لا بالمسموعِ

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿تَسۡمَعُونَ﴾؛ لإفادةِ العموم، وإن كان المقصودُ سماعَ ما يُتلى مِنَ الحُججِ والبراهين، أو ما يتعلَّق بأمرِ الجهادِ، لكنَّ القرآنَ حَذَفَ المُتعلَّقَ؛ لأنَّ كلَّ ما يُسمع من رسولِ اللّهِ هو خيرٌ للفردِ وللأمَّة، فالعبرةُ بالسَّماعِ؛ لأنَّ كلَّ ما يقولهُ رسولُ اللّهِ جديرٌ بالسَّماعِ، فتوفَّرتِ العنايةُ على الفعلِ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/479، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/303.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/303.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/513، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/303 - 304.

سرُّ اختيارِ السَّماع دونَ غيرِه:

البلاغُ طريقةُ السَّماعُ، وهو مِن مألوف المعنى

اختارَ السَّماعَ دونَ غيرِه؛ لأنَّ موضوعَ الطّاعةِ للّهِ ورسوله لا يتأتَّى إلّا عن طريق البلاغِ، والبلاغُ أوَّلُ وسيلةٍ له النِّداءُ، والأُذُنُ هي أوَّلُ مستقبلٍ لهذا النِّداءِ؛ لأنَّها آلةُ الإدراكِ، ولذلك كانت حكمةُ اللّهِ تعالى أن يبلِّغَ الرَّسولُ ﷺ دعوتَهُ عن طريق السَّماعِ، وليس عن طريقِ الكتابةِ؛ لأنَّها أمَّةٌ أمّيَّةٌ، والسَّماع دليلٌ على إقامةِ الحُجَّةِ، ولا يناقضُ ذلك أنَّه أرسلَ بعضَ الرَّسائلِ إلى غيرِ العربِ.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين الأمر بطاعة الله ورسوله، وبين الامتثال بالقول والفعل معًا

لَمّا بيَّنَ في الآيةِ السّابقةِ صِفةَ المؤمنينَ في طاعتِهم للّهِ ورسولِه، ونهاهم عن التّولّي عن أوامرِ رسولِ اللّهِ ﷺ في أيِّ حالٍ من الأحوال، وذكرَ حالَهم في سَمْعِهم لِما يقولُه رسولُ اللّهِ عنِ اللّه، وأنَّهم يُصدِّقونَه تمامَ التَّصديق؛ قالَ هنا مؤكِّدًا لذلك في هذه الآية: ولا تكونوا - أيُّها المؤمنونَ - كالَّذينَ يقولونَ بألْسنتِهم: إنّا قَبِلْنا تكاليفَ اللّهِ تعالى ثمَّ إنَّهم بقلوبِهم لا يقبَلونَها، ولا يعملونَ بها، وهي صفةٌ للمنافقين، كما أخبرَ اللّهُ عنهم بقولِه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: 14][1].

المَعنى الإجماليُّ:

التَّظاهرُ بالسَّمعِ مع عدمِ العملِ بمقتضاهُ، ضلالٌ مُبينٌ، ونفاقٌ مُهين

نَهى اللّهُ تعالى المؤمنينَ أنْ يكونوا كالَّذينَ يكتفونَ بمجرَّدِ الدَّعوى الخياليَّةِ الَّتي لا حقيقةَ لها، وهو التَّظاهرُ بالسَّمْعِ لما يُلقيه إليهم رسولُ اللّهِ ﷺ من أوامرِ ربِّه ونواهيه، ولكنَّهم لا يفهمونَها، ولا يَعملونَ بها، فإنَّها حالةٌ لا يرضاها اللّهُ ولا رسولُه، بل هي دليلُ النِّفاقِ الَّذي لا رَيْبَ فيه[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ العطفِ بالواوِ، في ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾:

العطفُ تقريرٌ لِما تقدَّمَه، وتحذيرٌ عن مخالفتِه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ الآية عطفًا على ما تقدَّمَه، تقريرًا للنَّهي السّابق، وتحذيرًا عن مخالفتِه، بالتَّنبيهِ على أنَّها مؤدّيةٌ إلى انْتظامِهم في سِلْكِ الكَفَرةِ، بكونِ سماعِهم كلا سَماعٍ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 469/15، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 247/8.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 271.

أي: لا تكونوا بمخالفةِ الأمرِ والنَّهي، كالَّذين قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يسمعون[1]، والمقصودُ بعدم السَّماعِ عدمُ الاستجابةِ، كأنَّهُ قيل: ولاتكونوا كالَّذين قالوا: سمعنا، وهم لا يستجيبون.

بلاغةُ نفيِ الكَوْنِ ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾، على نَفْيِ الفعلِ مباشرة:

تشويهُ التَّولّي عن رسولِ اللهِ ﷺ، والتَّحذيرُ مِن اتِّباعِ أهلِ الضّلال

وردَ النَّفيُ بفعلِ الكَوْنِ ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ ليُحَقِّقَ هذا النَّفيُ عدمَ الانْخراطِ في سِلْكِ مَنْ كانوا على هذه الشّاكلةِ في كذبهم بقولِهم: سَمِعْنا ظاهرًا، وهم لا يَسمَعون على وجهِ الحقيقةِ بالفَهم والعملِ بالمسموعِ، ففي هذا النَّفيِ لفعلِ الكَوْنِ مزيدُ تشويهٍ للتَّولّي عنِ الرَّسولِ ﷺ بالتَّحذيرِ من أنْ يكونوا كالَّذين قالوا: سمعْنا، وهم لا يسمعون[2].

الغرضُ مِنَ التَّشبيهِ بقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾:

التَّشبيهُ هنا لتجنُّبِ ما وقعَ فيه المشركونَ والمنافقونَ في سماعِهمُ الكاذب

في بلاغةِ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ أَثَرٌ عظيمٌ في حثِّ النَّفْسِ على عدمِ التَّشبُّهِ أوِ التَّجنُّب، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا﴾ [الأنفال: 47]، فأرادَ بيانُ اللهِ من هذا التَّشبيهِ هنا تَنْفيرَ المؤمنينَ من الوقوعِ في مَغَبَّةِ خداعِهم وكذبِهم، بالتَّظاهرِ بالسَّماعِ دونَ فهمٍ أو عملٍ بالمسموعِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بإيرادِ الصِّلةِ بدلَ الصِّفةِ:

الصِّلةُ كاشفةٌ عنِ العلامةِ الَّتي بها يُعرفون

قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾، وفيه إيرادُ اسْمِ الصِّلةِ بدلَ الصِّفةِ في الآية، لبيانِ أنَّ أصحابَ هذه الصِّلةِ - وهم الكافرون - معروفونَ عند المؤمنينَ بمشاهَدَتِهم، وبإخبارِ القرآنِ عنهم، فقد عَرَفوا ذلكَ من المشركين من قبلُ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: 31]، وقالَ ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: 25].
فهذه الصِّلةُ المصدَّرةُ بالتَّشبيهِ أعادتْ إلى ذهنِ المؤمنينَ التَّذكيرَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/479.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/304.

بأصحابِها، وأضفَتْ معه التَّحذيرَ من التَّشبُّهِ بأهلِ الفئةِ الذَّميمةِ الَّذين يقولون للرَّسولِ ﷺ: سَمِعْنا، وهم لا يُصدِّقونَه فيما جاءَهم بِهِ من عندِ اللهِ، ولا يَعملون به[1].

بلاغةُ المرادِ باسمِ الموصولِ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾:

توجيهُ العنايةِ على جملةِ الصِّلةِ، ودلالتها في السّياق

عبَّرَ باسمِ الموصولِ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ ليشملَ الكفّارَ والمنافقين واليهودَ الّذين يدَّعون السَّماع، وهم في ذلك على قسمين؛ الأوَّل: الكُفّارُ المعاندون من اليهودِ الّذين قال اللهُ فيهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ الآية، وأمثالهم من الكفّارِ والمعاندين من أهلِ مكَّةَ الذين قال اللهُ في حقِّهم: ﴿وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾. الثّاني: المنافقون الذين قال تعالى في بعضِهم: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾[2].

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بأسلوبِ طباقِ السَّلبِ:

التَّشنيعُ عليهم بوضعِهم في صورةِ من يسمعُ ولا يَسمَعُ في آنٍ واحدٍ

قولِه: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، وفيه تحذيرُ المؤمنينَ من التَّشبُّهِ بحالِ هؤلاءِ الَّذين يقولونَ بأفواهِهم: سمعْنا، وهم لا يسمعونَ، أي: سمعوا بآذانِهم، ولم يسمعوا بقلوبِهم، ويدلُّ الجمعُ بين الإثباتِ والنَّفي على أنَّ السَّماع على أقسام، أوَّلها: سماعُ تفهُّمٍ وتدبُّرٍ وإدراكٍ وتنفيذ، وهذا الَّذي يطلبهُ اللّٰهُ تعالى ونبيُّه من المؤمنين، الثّاني: سماعٌ من غير تدبُّرٍ وإدراكٍ، وهذا ما نهى اللّٰهُ تعالى عنه، وهو إن لم يكن نفاقًا، فهو غفلةٌ عن الحقِّ، وليس سماع وعي وإنصاتٍ، الثّالث: سماع أهل النِّفاق الذين يقولونَ: (سمعنا وعصينا)، والملاحظُ أنَّ القسمين الأخيرين سماعٌ كلا سماعٍ[3]،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/479، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/304.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/523.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3093.

وعلى هذا فالمنفيُّ كمالُ السَّماعِ للتَّنبيهِ على أنَّ سماعَهم لعدم ترتُّب المقصودِ عليهِ كلا سماعٍ ومُنَزَّلٌ منزلةَ العدمِ(1)، والغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بأسلوب طباقِ السَّلبِ التَّشنيعُ عليهم ووضعُهم في صورةِ من يسمعُ، ولايسمع في آنٍ واحدٍ، وهو ما لا يكونُ من عاقلٍ.

بلاغةُ تقييدِ قولِهم: ﴿سَمِعۡنَا﴾ بالجُملةِ الحاليَّةِ بعدها:

قَـرنُ الـنَّـفـيِ بـالإثـبـاتِ، تحقيقٌ لانتفاءِ العقلِ، فالجمعُ بين المتناقضاتِ لا يـكـونُ من عاقلٍ

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿قَالُواْ﴾، أي: قالوا ذلكَ، والحالُ أنَّهم لا يسمعونَ، حيث لا يُصدِّقونَ ما سَمِعوهُ، ولا يَفهمونَه حقَّ فهْمِه، فكأنَّهم لا يَسمعونَ رأسًا، وإنْ كانوا ظاهرًا يسمعونَ(2)، فكيف بعاقلٍ يسمعُ، ولا يسمعُ ؟.

بلاغةُ تقديمِ المسنَدِ إليهِ على خبرِه الفعليِّ:

تـقـريـرُ انْـتـفـاءِ الـسَّـمْـعِ عنهُم وتأكيدُه

تقديمُ المسنَدِ إليهِ على خبرِه الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾؛ للاهْتمام به ليتقرَّرَ مَفهومُهُ في ذِهْنِ السّامعِ، فيُرسِّخُ اتِّصافُهُ بمفهومِ المُسنَدِ، وهو انْتفاءُ السَّمعِ عنهم(3)، وإنَّما جاء التَّقريرُ للتأكيدِ من إسنادِ نفي السَّمعِ مرَّتين مرَّةً إلى المبتدأ، وأخرى إلى الضَّميرِ العائدِ على المبتدأِ، فكأنَّه في قوَّةِ ما لو قيلَ: يسمعونَ، لا يسمعونَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ منفيًّا:

عدمُ استماعِهم متجدِّدٌ مستمرٌّ

عبَّرَ بالمضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾؛ لإفادةِ اسْتمرارِهم على عَدَمِ السَّمعِ(4).

بلاغةُ أسلوبِ التَّعريضِ:

بـيـانُ حـالِ الـكـافـريـن والـمـنـافـقـين، والتَّبرُّؤُ منهم

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، استخدمَ القرآنُ الكريمُ أسلوبَ التَّعريضِ في هذهِ الآيةِ؛ لأنَّهُ المقصودُ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/49.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/479.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/304.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/304.

الأهمُّ منها، وذلك بالتَّعريض بأهلِ هذه الصِّلة مِنَ الكافرينَ أوِ المنافقينَ، لا خشيةَ وقوعِ المؤمنينَ في ذلك، فهم في حِصْنٍ مَكينٍ من التَّردّي في هاويةِ السَّماعِ وعَدَمِ الاتِّباع، ولكنَّه إيماءٌ بأخذِ مزيدِ الاحْتياطِ، والتَّبرُّؤِ التّامِّ مِنَ المشركينَ والمنافقينَ، وما هم عليه مِنَ الخداعِ والتَّكذيبِ والضَّلالِ[1].

سرُّ العدولِ عن الماضي إلى المضارعِ، في الجملةِ المنفيَّةِ:

الفعلُ الماضي لا يدلُّ على الاسْتمرارِ بالنَّفيِ والإثباتِ، بخلافِ الفعلِ المضارع

جاءَ لفظُ الجملةِ المنفيّة: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ دونَ قولِه: (وهم ما سمعوا)؛ لأنَّ لفظَ المُضيِّ (سمعوا) لا يَدُلُّ على اسْتمرارِ الحالِ ولا دَيْمومَتِه؛ بخلافِ نَفْيِ المضارع ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾، فكما يَدلُّ إثباتُه على الدَّيْمومةِ في قولهم: يَسمعُ، يعطي، يَمنَعُ، كذلكَ يَجيءُ نفيهُ[2].

نكتةُ اسْتخدامِ (لا) في النَّفْيِ بَدَل (ما):

(لا) أوسعُ في نفيِ المضارع، وأدلُّ على نَفْيِه في المستقبلِ من (ما)

قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾، جاءَ حرفُ النَّفي (لا) دونَ (ما)؛ لأنَّها أوسعُ في نَفْيِ المضارعِ من (ما)، وأدَلُّ على انْتفاءِ السَّماعِ في المستقبل، أي: هم ممَّن لا يَقْبلُ أن يَسمَعَ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/304.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/299.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/299.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بينَ الدّعوة لطاعة الله ورسوله، وكون السّامع دون استجابةٍ شرٌّ منَ الدّوابِّ

لَمّا ذكرَ اللّهُ في الآيةِ السّابقةِ حالَ أولئكَ الّذين قالو: سَمِعْنا بآذانِنا، ولا يستجيبونَ لِما سَمِعوا، فكأنَّهم لم يَسمَعوا؛ جاءت هذه الآيةُ، فشبّهتْ حالهم تلكَ عندَ اللّهِ بحالِ الأصَمِّ في عدمِ السَّماعِ لعدَمِ الانْتفاعِ به، والأبْكمِ في عدمِ كلامِه لعدمِ تكلُّمِه بما ينفعُ، والعادمِ للعقلِ في عدمِ عقلِه لعدمِ انْتفاعِه به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾: الدَّبُّ والدَّبيبُ: مشيٌ خَفيف، ويُستعمَلُ ذلكَ في الحيوان، وفي الحشَرات أكثر، وكلُّ ماشٍ على الأرضِ دابَّةٌ، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ [النّور: 45]، وقالَ ﷻ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: 45]، وقيل: عنَى الإنسانَ خاصَّةً(1)، والأولى إجراؤها على العُموم.

2) ﴿ٱلصُّمُّ﴾: الصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمْعِ، وبه يوصَفُ مَنْ لا يُصغي إلى الحقِّ ولا يَقبلُه، قالَ تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 18]، وقولُه تعالى هنا: ﴿ٱلصُّمُّ﴾، أي: الَّذينَ يصمّون آذانَهم، أي: يكتُمونَها عن سماعِ الحقِّ وقَبولِه(2).

3) ﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾: الباءُ والكافُ والميمُ أصلٌ واحدٌ قليلٌ، وهو الخَرَسُ، والأَبْكَمُ: الأخرسُ الَّذي لا يتكلَّم، وإذا امْتنَعَ عن الكلام جهلًا أو تعمُّدًا، يُقالُ: بَكُمَ عن الكلام، وقد يُقالُ للَّذي لا يُفصِحُ: إنَّه

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 156/2.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشّوكاني، فتح القدير: 429/2.

لَأبْكَمُ، والأبْكَمُ للَّذي وُلِد أخْرسَ، فكلُّ أبكمَ أخرسُ، وليس كلُّ أخرسَ أبكمَ، ويُقالُ: بكيمٌ في معنَى أبكمَ، وجمعوهُ على أبْكام، كشَريفٍ وأشرافٍ[1]. وقولُهُ تعالى هنا: ﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾ أي: الَّذين لا ينتفعون بالنُّطقِ، أو البُكْمُ عن فهمِه أصلًا[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

شرُّ الخلقِ هو الَّذي يسمعُ ولا يجيبُ، ويوعَظ ولا يستجيب

أخبرَ ﷻ أنَّ هذا الضَّرْبَ من بني آدمَ الَّذين قالوا: سمعنا، وهم لا يسمعونَ هم شرُّ الخَلْقِ والخليقةِ، فهم صُمٌّ عن سَماعِ الحقِّ، بُكْمٌ لا يقولون: الحقَّ، كأنَّهم فقدوا حاسَّةَ الكلامِ، فهمُ الَّذين لا يَعْقِلونَ على وجْهِ الحقيقةِ الفرقَ بين النّورِ والظَّلامِ، والهُدَى والضَّلال، والإسلامِ والكفرِ، فهؤلاء شرُّ البَرِيَّة؛ لأنَّ كلَّ دابَّةٍ ممّا سواهُم مطيعةٌ للّهِ فيما خَلَقها لهُ، وهؤلاء خُلِقوا لعبادةِ اللّهِ وحدَهُ، فكفَروا، وأشْركوا معهُ غيرَهُ، ولهذا شبَّهَهُمُ اللّهُ بالأنعامِ، فقالَ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179][3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في الآية:

بيانُ سوءِ حالِ المعاندين الصُّمّ، لفقدهِم مقوِّماتِ الإنسانيَّة

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ اسْتِئنافٌ مسوقٌ لبيانِ كمالِ سوءِ حالِ المشبَّهِ بِه مبالغةً في التَّحذيرِ، وتقريرًا للنَّهيِ الوارِدِ في قولِه السّابق: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[4]، فالغرضُ من الاستئنافِ تقريرُ سوءِ حالِ الكافرين.

دلالةُ الجملةِ الاعتراضيَّة:

التَّعريضُ بسوءِ حالِ من قالوا: (سمعنا وهم لا يسمعون)

يمكنُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ مُعترضَةً، وسَوْقُها في

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/284 - 285، والرّاغب، المفردات، ص: 140.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/273، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/429.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/273.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/479.

هذا الموضعِ تعريضٌ بالَّذينَ قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يَسمعونَ، بأنَّهم يُشبهونَ دوابَّ صمّاءَ بَكْماءَ[1].

بلاغةُ التَّأكيدِ بـ الأداة المؤكّدة (إنَّ):

إثباتُ الشَّرّيَّةِ التّامَّةِ للكفّارِ

جاءَ حرفُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدًا لشَرّيَّةِ هذهِ الفئةِ العاتيةِ من الكفّارِ، فهي شَرُّ النّاسِ عندَ اللهِ ﷻ وأنَّها أخسُّ المنازلِ لديْهِ، لا يُتصوَّرُ وجودُ أسوءَ منها مكانةً، ولا أسْفَلَ منها دَرَكةً[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ إليهِ معرَّفًا بالإضافةِ:

أفادَ تركيبُ (شَرّ الدَّوابّ) المبالغةَ في النَّهيِ والتَّحذيرِ

جاءتْ كلمةُ ﴿شَرَّ﴾ مُسندةً إلى كلمةِ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾؛ لتكتسبَ بهذا الإسنادِ التَّعريفَ، فتستوعبَ باسْمِ التَّفضيلِ ﴿شَرَّ﴾ جميعَ الدَّوابِّ بمعناهُ الحقيقيِّ؛ بل أكثرَها وأشَدَّها شَرًّا، وفي هذا ما فيه مِنَ المبالغةِ في التَّحذيرِ والإيْغالِ في النَّهيِ والنَّكيرِ[3].

بلاغة الاستعارة التَّمثيليَّة في الآية:

التَّأكيدُ على ذمِّ الكفّارِ بالتَّصويرِ البيانيِّ المفصحِ عن المراد

في قولهِ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية، استعارةٌ تمثيليَّةٌ، شبَّهَ فيها من لا يسمعُ الحقَّ، ولا يدركهُ، ولا يبصرُ الآياتِ، ولا يتأمَّلُها بالدّابَّةِ الَّتي لا تسمعُ مواطئَ الأقدامِ، فتطؤها، ومن لا ينطقُ مستغيثًا، فتدقُّهُ الأمورُ دقًّا، ومن لا يعقلُ ما يضرُّهُ، فيكونُ فريسةَ الكلِّ، وجامعُ التَّشبيهِ هو عدمُ الفائدةِ من هذه الحواسِّ في كلٍّ منهم[4]، وقد شبَّههم بالدَّوابِّ لجهلهِم وعدولهم عن الانتفاعِ بما يقولونَ، أو لأنَّهم من الدَّوابِّ، وصفهم بذلك على طريقِ الذَّمِّ؛ لأنَّهُ إذا عبَّر عن الإنسانِ بأصغرِ ما ينطبقُ عليهِ اسمُ الدَّوابِّ والحيوان، كان ذلك تحقيرًا لهُ، واستهانةً بأمرهِ، من زعيمٍ يرفعُ ويخفضُ، إلى حيوانٍ لا يملكُ من أمره شيئًا تدعكهُ الأرضُ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/305.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/513.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/479، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/306.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3095.

بالأقدام، وهو حيوانٌ كلُّه آفاتٌ، فاقدٌ لكلِّ حواسِّ الإدراكِ الحسّيَّة والمعنويَّة[1].

سرُّ التَّعبيرِ بعبارة: ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾:

التَّأكيدُ على انتفاءِ الخيرِ في الكفّارِ

آثرَ التَّعبيرَ بوصفِ ﴿شَرَّ﴾ دونَ (أسوأ)؛ لأنَّ الشَّرَّ يقابلهُ الخيرُ؛ بخلافِ الأسوأِ، فيقابلهُ الأحسنُ، والمقامُ هنا يناسبهُ التَّعبيرُ بالشَّرِّ؛ لأنَّهُ لا يوجدُ خيرٌ في هذهِ الفئةِ مِنَ البشرِ، فهم شرٌّ محضٌ؛ بخلاف الأسوأِ فقد يوجدُ فيه بعضُ الخيرِ مع النُّدرةِ، وليس ذلك مرادًا.

بلاغةُ تقديمِ شبهِ الجُملةِ على المسندِ (عندَ الله):

الموصوفونَ بأنَّهم شرُّ الدَّوابِّ، أمْرهم مقرَّرٌ في علمِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ

تقديمُ شِبهِ الجُملةِ في قولِه تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ قيدٌ أُريدَ بهِ زيادةُ تحقُّقِ كونِهم شرَّ الدَّوابِّ بأنَّ ذلكَ مُقرَّرٌ في علم اللّه؛ وليس مجرَّدَ اصْطلاحٍ ادِّعائيٍّ، أي: هذه هي الحقيقةُ في تَفاضُلِ الأنواعِ لا في تَسامُحِ العُرْفِ والاصْطلاح، فالعُرْفُ يَعُدُّ الإنسانَ أكملَ من البهائم، والحقيقةُ تُفصِّلُ حالةَ الإنسانِ، فالإنسانُ المُنْتَفِعُ بمواهبه - الَّتي منحَها اللّهُ له - فيما يُبلِّغُه إلى الكمالِ هو بحقٍّ أفْضَلُ من العُجْم، والإنسانُ الَّذي دَلَّى بنَفْسِه إلى حضيضِ تعطيلِ انْتفاعِه بمواهبِهِ السّاميَةِ يَصيرُ أحطَّ من العَجماواتِ[2].

سرُّ الوصفِ بالصُّمِّ والبُكمِ، دون سواه مِنَ الأوصاف:

التَّأكيدُ على الذَّمِّ بنفي أداةِ السَّمعِ وأداةِ التَّعبيرِ عنِ السَّمعِ

وُصِفوا بالصُّمِّ والبكم؛ لأنَّ ما خُلِقَ لهُ الأذنُ واللِّسانُ، سماعُ الحقِّ والنُّطق به، وحيثُ لم يوجد بهم شيءٌ من ذلك صاروا كأنَّهم فاقدونَ للجارحَتَينِ رأسًا[3].

بلاغةُ التَّرتيبِ في سياق الآية:

قوله تعالى: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، تقدَّمَ فيه الصُّمُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 133/8، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3095/6.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 306/9.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 15/4.

السَّمعُ أصلٌ، والنُّطقُ فرعٌ لهُ مبنيٌّ على وجودِه، وفقدُ العقل غايةٌ في الشَّرِّيَّةِ

على البُكْم في الآيةِ الكريمة؛ لأنَّ صممَّهم متقدِّمٌ على بُكمِهم من حيثُ الواقعُ، فإنَّ السُّكوتَ عنِ النُّطقِ بالحقِّ مِن فروعِ عدمِ سماعِهم له، كما أنَّ النُّطقَ به من فروعِ سماعِه.

سرُّ وصفِهم بعدمِ التَّعقُّل في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾:

تحقيقُ كمالِ سوءِ حالِهم، وانعدام آلة الفهم لديهم

جاءَ وصفُهم بعدَمِ التَّعقُّلِ تحقيقًا لكمالِ سوءِ حالِهم، فإنَّ الأصمَّ الأبْكَمَ إذا كانَ له عقلٌ، رُبَّما يفهمُ بعضَ الأمورِ؛ يُفهِمُهُ غيرُه بالإشارة، ويَهتدي بذلكَ إلى بعضِ مَطالبِه، وأمّا إذا كانَ فاقدًا للعقلِ - أيضًا - فهو الغايةُ في الشَّرّيَّة وسوءِ الحال، وبذلك يَظهرُ كونُهم شَرًّا من البهائم حيثُ أبْطلوا ما به يمتازونَ عنها، وبه يفضُلونَ على كثيرٍ من خلقِ اللّٰهِ ﷻ فصاروا أخَسَّ من كلِّ خَسيسٍ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أفادَ اسمُ الموصولِ وصفَهم بانْتفاءِ العَقْلِ

أفادَ اسْمُ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وصفَهم بانْتفاءِ العقلِ عنهم، أي: عَقلِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ، بَلْهَ عقلَ التَّقبُّلِ، فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هنا ممّا يناسبُ المشَبَّهين، إذْ هو اسْمٌ موصولٌ بصيغةِ جمعِ العقلاءِ، وهذا تخلُّصٌ إلى أحوالِ المشبَّهين[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ التَّعريضِ:

تشبيهُ الكفّارِ والمنافقينَ بالدَّوابِّ، في انتفاءِ الإدراك، وفقْدِ العقلِ

في قولِه تعالى: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية تعريضٌ[3] بالَّذين قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يَسمعون، بأنَّهم يُشبِهونَ دَوابَّ صَمّاءَ بَكْماءَ لا تعقل، فشُبِّه المشركون والمنافقون بالصُّمِّ في عدمِ الانْتفاعِ بما سمعوا؛ لأنَّه ممّا يَكْفي سماعُه في قَبولِه والعملِ به، وشُبِّهوا بالبُكْم في انْقطاعِ الحُجَّةِ والعَجْزِ عن ردِّ ما جاءهم به القرآنُ، وفهِمِ ما قَبلوا، ولا أظْهروا عُذرًا عن عدمِ قَبولِه.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/479 - 480.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 9/306.

(3) التَّعريض كلامٌ أُريد به لازمُ مدلوله، وهو أنْ تذكرَ شيئًا يُدَلُّ به على شيءٍ لم تذكره، أي: تذكر كلامًا دالًّا على ما تريدُ دون التَّصريح به، كما يقولُ المحتاج لغيره: جئتُ لأُسلِّمَ عليك، ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 199، وفضل عباس، أساليب البيان، ص: 350 - 351.

وأصلُ التَّعريضِ في تشبيهِهم بالدَّوابِّ بأنَّ الدَّوابَّ ضعيفةُ الإدراكِ، فإذا كانتْ صمّاءَ كانت مَثَلًا في انْتفاءِ الإدْراك، وإذا كانت مع ذلكَ بُكْمًا انْعدَمَ منها ما يَعرِفُ به صاحبُها ما بها، فانضمَّ عدَمُ الإفهامِ إلى عدمِ الفَهمِ، وانضمَّ إليهما فقدُ العقلِ، فهي ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ(1).

سرُّ الاكتفاءِ ببعض الصِّفاتِ:

ذمُّ الأُسُسِ يستتبعُ ذمَّ الفروعِ

قوله تعالى: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ اكتفى فيه بهذه الصِّفاتِ؛ لأنَّه هي الأساسُ الَّذي نبني عليه وسائلَ الإدراكِ، فإذا فقدوا منفعةَ السَّمعِ والنُّطقِ والعقلِ، كانوا كأنَّهم فقدوا هذه المشاعرَ والقوى بأن خُلِقوا خداجًا ناقصي هذه المشاعرِ أو طرأتْ عليهم آفاتٌ أذهبتْ هذه القوى، فهذهِ المشاعرُ خُلِقَتْ لهم، فأفسدوها على أنفسِهم، إذ لم يستعملوها فيما خُلِقَت لأجله، وهو العبادةُ(2).

سرُّ التَّعبير بنفي العقلِ دونَ غيرِه، مِن وسائل الإدراك:

فقدُهُم وسائلَ الإدراكِ يؤدّي إلى وصفِهم بعدمِ العقلِ

في قولِه: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ نفيَ العقلِ عنهم نتيجةٌ لوصفِهم بالصُّمِّ البُكمِ؛ لأنَّهم فقدوا أهمَّ طرقِ الإدراكِ والتَّواصل، فأصبحوا لا يفقهونَ شيئًا؛ لأنَّ العقلَ يكتسبُ معارفَهُ عن طريقِ هذه الحواسِّ، ولذلك المرادُ هنا عدمُ الفهمِ؛ لأنَّ العقلَ على نوعين؛ الأوَّلُ: عقلٌ غريزيٌّ مميِّزٌ مقابلٌ للجنونِ، ويطلق على القوَّة المتهيِّئة لقبولِ العلم، الثّاني: العقلُ المُكتسبُ المقابلُ للجهلِ وعدمِ الفهم الَّذي هو مناطُ التَّكريم، ويُطلَقُ هذا العقلُ على العلم الَّذي يستفيدُهُ الإنسانُ بهذهِ القوَّةِ العاقلةِ، وهو يرجعُ إلى العقلِ الغريزيِّ؛ لأنَّهُ من نتيجتِه، ولذلك كلُّ موضعٍ ذمَّ اللّهُ فيه الكفّارَ بعدمِ العقلِ، فهو إشارةٌ إلى النَّوعِ الثّاني، ومنه هذا الموضع(3).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 9/305 - 306.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/380.
(3) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/393.

سرُّ اختلافِ فاصلةِ آيتي الأنفال [22] و[55]، مع اتِّفاق صدرهِما:

اختلافُ سياقِ السِّباقِ هو مَناطُ اختلافِ الفواصل

قال تعالى: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: 55]، فقد اختلفت فاصلةُ الآيةِ الأولى مع الآيةِ الثّانيةِ؛ لأنَّ الأولى يسبقُها قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، فوصَفَ اللّهُ من استخدموا سمعَهم وأقوالهم، فيما لا فائدةَ منهُ بالصُّمِّ البكمِ الَّذين لا عقلَ لهم، ناسبَ ذلك هذا الختامَ؛ أمّا الآيةُ الثّانيةُ، فسبقها قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، والسّياق متعلِّقٌ بالذين كفروا، وهم على نوعَينِ منهم من آمنَ، ومنهم من لم يؤمن؛ لذلك كان ختامُ الآية لهذا الصِّنفِ.

﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكملة الكلام عنِ الصُّمِّ البُكمِ الّذين لا عقل لهم، بتأكيد الذَّمِّ المتحقّق ببيانِ علَّته

لَمّا بيَّن اللّهُ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ صفاتِ شرِّ الدَّوابِّ عندَه؛ أثارَ سؤالًا عند السّامعِ بأن يقولَ: ما لِلْقادرِ ﷻ لم يقبلْ بمن هذا شأنُه إلى الخيرِ؟ أجابَ بأنَّه تعالى جَبَلَهم من أوَّلِ الأمرِ - وهو ﷻ لا يُسألُ عمّا يفعل - فهو أعلمُ بحالِ قلوبِهم واسْتعدادِهم لقَبولِ الحقِّ أو رَفْضِه حاضرًا أو مستقبلًا، فعلمَ سبحانه أنَّه لا خيرَ فيهم، فتركَهم على ما علمَ منهم، ولو علمَ فيهم قَبولًا للحقِّ؛ لَهداهُم إليهِ، وجعلَهم مُستجيبينَ له[(1)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾: العلمُ إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتِه. والعلمُ نظريٌّ وعمليٌّ، فالأوَّلُ: ما إذا عُلِمَ فقد كَمُل، نحو: العلمُ بموجوداتِ العالَم، وهذا خاصٌّ باللّه، قالَ تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]. والثّاني: ما لا يتمُّ إلّا بأنْ يُعملَ كالعلمِ بالعباداتِ، والعلمُ كذلك عقليٌّ وسمعيٌّ. والتَّعليم: تنبيهُ النَّفسِ لتصوُّرِ المعاني، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [العلق: 4]. وُصِفَ اللّهُ تعالى بالعلمِ؛ لأنَّه لا يخفَى عليه شيءٌ، كما قالَ ﷻ: ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقَّة: 18]، وذلكَ لا يصحُّ إلّا في وصفِه تعالى[(2)].

2) ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾: تقدَّمَ معنى السَّمعِ لغةً في الآيتين [20 - 21]، وأمّا قولُه تعالى هنا: ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ في موقعها في السّياق، فمعناه: لَأفْهَمَهم، أي: أسْمعَهم سَماعًا يَفهمونَ به، فيَستجيبون[(3)].

(1) البقاعي: نظم الدُّرر: 248/8.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 580 - 581، وابن منظور، اللِّسان: (علم).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 479/2.

3) ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: أَعْرَضَ: أظْهرَ عَرْضَهُ، أي: ناحيتَهُ، فإذا قيل: أَعْرضَ لي كذا، أي: بَدا عَرْضُه، فأمْكَنَ تناولُهُ، وإذا قيل: أَعْرَضَ عنّي، فمعناهُ: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، كما قالَ تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النِّساء: 63]، وقالَ تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 32][1].
ومنه هنا في الآية: ﴿لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾، أي: تَوَلَّوْا عن ذلك قَصْدًا وعِنادًا بعد فهمِهم ذلك، والحالُ أنَّهم في غايةِ الإعراضِ والإدْبارِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

انتفاءُ الخيرِ في طينتِهم وجبلَّتِهم، جَعَلَهم أهلًا لعدمِ السَّماعِ

في هذهِ الآيةِ أخْبرَ ﷻ أنَّه لو عَلِمَ أنَّ فيهم خيرًا؛ لأفْهمَهم، ولكن لا خَيْرَ فيهم، ولذلكَ تَوَلَّوْا عنِ الطّاعةِ، وأعرَضوا عن الحقِّ، وهذا دليلٌ على أنَّ اللّه تعالى لا يَمنعُ الإيمانَ والخيرَ عن أحدٍ، إلّا عمَّن لا خيرَ فيه، والَّذي لا يَزْكو لديْه، ولا يُثْمِرُ عندَه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَوۡ﴾:

تعدُّدُ المعطوفِ عليهِ، تنوّعٌ في الدّلالة

يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِه: ﴿وَلَوۡ﴾ عاطفةً لجملتِها على جملة: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ باعْتبارِ أنَّ الدَّوابَّ مُشبَّهٌ به الَّذينَ قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يَسمعون. ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً لجملتِها على شِبهِ الجملةِ في قولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[4].

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الشَّرطِ ﴿عَلِمَ﴾:

انْتفاءُ علمِ اللهِ بشيءٍ يُساوي عِلمَه بعدمِه

يَدُلُّ فعلُ الشَّرطِ ﴿عَلِمَ﴾ بعدَ ﴿وَلَوۡ﴾ على أنَّ انْتفاءَ علم اللّهِ بشيءٍ يُساوي علمَهُ بعدمِه؛ لأنَّ علمَ اللّهِ لا يختلفُ عن شيءٍ، فصارَ معنَى ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾: لو كانَ في نفوسِهم خيرٌ[5].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 559 - 560، وابن منظور، اللِّسان: (عرض).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، وتيسير الكريم الرّحمن، ص: 271.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿عَلِمَ﴾ دونَ المضارعِ (يعلم):

علْمُ اللهِ بعدمِ هدايتِهم أزليٌّ

عبَّرَ بالفعلِ الماضي ﴿عَلِمَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ عِلْمَ اللّهِ بهم وبأحوالِهم في عدمِ انتفاعِهم بالسَّماعِ لو أسمعَهم لعدمِ وجودِ الخيرِ فيهم، أمرٌ أزليٌّ ليس حديثًا ولا طارئًا؛ لأنَّ علمَ اللّهِ تعالى على أربعةِ أقسامٍ: جملةِ الموجوداتِ، وجملةِ المعدوماتِ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من الموجوداتِ لو كان معدومًا، فكيفَ يكون حالُهُ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من المعدوماتِ لو كان موجودًا، فكيفَ يكونُ حالُهُ، والقسمان الأوَّلان: علمٌ بالواقعِ، والآخران: علمٌ بالقَدَرِ، والآيةُ من القسمِ الأخيرِ، وهو العلمُ بالمقدَّراتِ، وليس من أقسامِ العلمِ بالواقعاتِ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ إليهِ باسْمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

العلمُ الأزليُّ بالمقدوراتِ، للهِ وحدَهُ لا لأحدٍ سواهُ

وردَ اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُسنَدًا إليه علمُه ﷻ للدَّلالةِ على أمورٍ ثلاثة؛ الأوَّلُ: أنَّ عِلْمَ اللّهِ أزليٌّ قديمٌ. الثّاني: إجراءُ أمرِهم على المألوفِ من حكمةِ اللّهِ في خَلْقِ أجناسِ الصِّفاتِ وأشخاصِها. الثّالثُ: أنَّ ما سبقَ وكلَّ شيءٍ لا يخرجُ عن قُدرةِ اللّهِ تعالى ومنه هذا الشَّيءُ، أي: لو شاءَ اللّهُ أنْ يُجريَ أمرَهم على غيرِ المعتادِ من أمثالِهم لَفعَلَ سبحانه وبهذا يُعلَمُ أنَّ كلَّ من لم يؤمنْ منَ المشركينَ حتَّى ماتَ على الشِّركِ؛ فقدِ انْتفتْ مخالَطةُ الخيرِ نَفْسِه، وأنَّ كلَّ من آمنَ منهم، فهو في وقتِ عنادِه وتَصْميمِه على العنادِ، قدِ انْتفتْ مخالطةُ الخيرِ نَفْسِه، ولكنَّ الخيرَ يلمعُ عليه، حتَّى إذا اسْتولَى نورُ الخيرِ في نَفْسِه على ظُلمةِ كُفرِه؛ ألْقَى اللّهُ في نَفْسِه الخيرَ، فأصبحَ قابلًا للإرشادِ والهُدَى، فحقَّ عليه أنَّه قدْ علمَ اللّهُ فيه خيرًا حينَئذٍ، فأسْمعَهُ[2].

من خصائصِ لغةِ القرآنِ مجيءُ ﴿وَلَوۡ﴾ على غيرِ بابِها:

أداةُ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾ وُضِعتْ للدَّلالةِ على انْتفاءِ الشَّيءِ لأجْلِ انْتفاءِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 200/3.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 308/9.

غيرِه، فإذا قلتَ: لوْ جئتَني لأكرمتُك، أفادَ أنَّه ما حصلَ المجيءُ، وما حصلَ الإكرامُ، وهذا هو الأصلُ عندَ النَّحْويّين. لكنَّ ﴿وَلَوْ﴾ قد لا تفيدُ إلّا الاسْتلزامَ، فأمّا الانْتفاءُ لأجْلِ انْتفاءِ الآخرِ، فلا يُفيدُه هذا اللَّفظُ، والدَّليلُ عليهِ هذه الآيةُ، وتقريرُهُ: أنَّ كلمةَ (لو) لو أفادَتْ هنا ما ذكرَهُ النَّحْويون؛ لكانَ قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ يقتضي أنَّه تعالى ما علمَ فيهم خيرًا، وما أسمعهم، ثمَّ قال: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ فيكونُ معناهُ: أنَّه ما أسْمَعهم، وأنَّهم توَلَّوْا لكنَّ عَدَمَ التَّولّي خيرٌ مِنَ الخيراتِ، فأوَّلُ الكلامِ يَقْتضي نَفْيَ الخيرِ، وآخرُه يَقْتضي حصولَ الخيرِ، وذلكَ مُتناقضٌ، فثبتَ أنَّ القولَ بأنَّ كلمةَ (لو) تُفيدُ انْتفاءَ الشَّيءِ لانْتفاءِ غيرِه، لا يَصِحُّ في هذا المقامِ هنا في الآيةِ؛ لأنَّه يوجِبُ هذا التَّناقضَ، فوجَبَ ألّا يُصارَ إليهِ[1].

(وَلَـوْ) هنا تفيدُ الاسْتلزام، فلو أُجريتْ على أنَّها حـرفُ امْـتـنـاعٍ لامْتناعٍ؛ لَوقعَ التَّناقُضُ

دلالةُ التَّنكيرِ في قوله: ﴿خَيۡرٗا﴾:

أفادَ التَّنكيرُ في قوله: ﴿خَيۡرٗا﴾ العمومَ والشُّيوعَ، والمعنى: لم يعلمِ اللّهُ فيهم شيئًا من جنس الخيرِ.

انـتـفـاءُ الـخيرِ منهم على وجهِ العمومِ، حكم عليهم بالهلاك

دلالةُ التَّقييدِ بقولهِ: ﴿فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾:

جاءَ تقريرُ الكلامِ، لو حصلَ فيهم خيرًا؛ لأسمعهم اللّهُ الحُجَجَ والمواعظَ سماعَ تعليمٍ وتفهيمٍ، ولو أسمعَهم بعد أن علمَ أنَّه لا خيرَ فيهم، لم ينتفعوا بما أسمعَهم، وتولَّوا وهم معرضون، لمّا سألوا رسولَ اللّهِ ﷺ أن يحيي لهم قصيَّ بنَ كلاب وغيره من أمواتهم؛ ليخبروهم بصحَّةِ نبوَّته ﷺ فبيَّنَ اللّهُ تعالى أنَّهُ لو علمَ فيهم خيرًا، وهو انتفاعُهم بقولِ هؤلاءِ الأمواتِ؛ لأحياهم حتَّى يسمعوا كلامَهم، لكنَّه تعالى علمَ منهم أنَّهم لا يقولون هذا الكلامَ إلّا على سبيلِ العنادِ والتَّعنُّت، وأنَّهم لو أسمعهم اللّهُ تعالى كلامَهم؛ لتولَّوا عن قبولِ الحقِّ[2].

انـتـفـاءُ الـخيرِ فيهم دالٌّ على انتفاءِ أن يكونَ منهم خيرٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.
(2) ابن التَّمجيد، حاشية ابن التّمجيد مع حاشية القونويّ: 50/9.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾:

من لم ينتفعْ بكلامِ اللهِ؛ فهو فاقدٌ للسَّمعِ، خالٍ من الفهم

عبَّرَ بيانُ اللهِ تعالى عن عدَمِ وجودِ خيرٍ في إدراكِهم يعلمُهُ اللّهُ تعالى ولكنَّهم لا خيرَ في جِبلَّةِ مداركِهم، فلا يعلمُ اللّهُ فيه خيرًا لخُلوِّهم عنهُ بالمرَّةِ، فلم يُسمِعْهم كذلكَ لخلوِّه عنِ الفائدةِ وخروجِه من الحكمةِ، فلذلكَ لم ينتفعوا بكلامِ اللّهِ، فهم كمَنْ لا يَسمع[1].

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالكنايةِ في الآيةِ:

لَمّا انْتفى اسْتِعدادُ مَداركِهم للخيرِ؛ سَلَبَ اللهُ منهم القابليَّةَ للإجابةِ والهداية

﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ عبارة بليغةٌ في ذمِّهم؛ إذْ لو علمَ اللّهُ منهم خيرًا؛ لَأسمَعهم إسْماعَ تفهُّمٍ وهدًى، فوقعتِ الكنايةُ عن عدمِ اسْتعدادِ مَداركِهم للخيرِ بعلم اللّهِ عدَمَ الخيرِ فيهم، ووقعَ تشبيهُ عدمِ انْتفاعِهم بفهمِ آياتِ القرآنِ بعدمِ إسماعِ اللّهِ إيّاهم؛ لأنَّ الآياتِ كلامُ اللّهِ، فإذا لم يَقْبلوها، فكأنَّ اللّه لم يُسمِعْهم كلامَهُ، فالمرادُ انْتفاءُ الخيرِ الجبلّي عنهم، وهو القابليَّةُ للخيرِ، ومعلومٌ أنَّ انْتفاءَ علم اللّهِ بشيءٍ يُساوي علمَهُ بعدمِه؛ لأنَّ علْمَ اللّهِ لا يتخلَّفُ عن شيءٍ[2].

دَلالةُ (في) في قولِه: ﴿فِيهِمۡ﴾:

(في) للظَّرفيَّة المجازيَّةِ الَّتي تُعبِّرُ عن مُلابَسةٍ باطنيَّة

(في) حرفُ جرٍّ، وهو هنا يُفيدُ الظَّرفيَّةَ المجازيَّةَ الَّتي هي في معنَى المُلابَسة، ومِن لَطائِفِها هنا أنَّها تُعبِّرُ عن مُلابَسةٍ باطنيَّةٍ، وهذه لا يعلمُ بها إلّا اللّهُ ﷻ فلو علمَ اللّهُ في مَكْنونِ قلوبِهم اسْتعدادًا وقابليَّةً واسْتجابةً للخَيْرِ؛ لوفَّقهم للرَّشادِ وهَداهم للحقِّ[3]، كما أنَّ حرفَ الوعاءِ دالٌّ على انتفاءِ أن تكونَ الهدايةُ في مكوِّنهم وتكوينهم، فالتَّعبيرُ بحرف الوعاءِ أبلغُ في نفي هدايتِهم من التَّعبيرِ بـ (من).

بلاغةُ العطفِ في الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ معطوفٌ على ما تقدَّمَهُ ﴿وَلَوۡ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 480/2.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 300/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.

إسماعُهم للحقِّ مَسبوقٌ بعلمِ اللهِ فيهم خيرًا، ولكنّهم لا خير فيهم

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾، أي: الإسْماعُ هنا متوقِّفٌ على علم اللّهِ بوجودِ خيرٍ في نفوسِهم، والمعنَى: لو أَسْمَعهُمُ اللّهُ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّرٍ، ولَوَقفوا على حَقيَّةِ الرَّسولِ ﷺ وأطاعوهُ، وآمنوا به، ولكن لم يعلَم فيهم شيئًا من ذلك لخُلوِّهم عنه بالمرَّة، فلم يُسمِعْهم كذلكَ لِخُلوِّه عن الفائدة وخروجِه عن الحِكمة[1].

المفارقةُ في المعنَى بين الفعلَيْن: ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾، و﴿أَسۡمَعَهُمۡ﴾:

(لأسْمَعَهم) ما يسمعون، و(أسمعهم) سماعَ تفهُّمٍ وانْتفاعٍ

قولُه تعالى: ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ أي: لَأفْهمَهم ما يسمعون، وهو ارْتقاءٌ في الإخبارِ عنهم بانْتفاءِ قابليَّةِ الاهْتداءِ عن نفوسِهم في أصْلِ جبلَّتِهم، فإنَّهم لَمّا أخبرَ عنهم بانْتفاءِ تعلُّمِهمُ الحكمةَ والهُدَى؛ فلذلكَ انْتفَى عنهم الاهْتداءُ، ارْتقَى بالإخبارِ في هذا المعنَى بأنَّهم لو قَبلوا فهْمَ الموعظةِ والحِكمةِ فيما يَسمعونَه من القرآنِ وكلامِ النُّبوَّة؛ لَغلبَ ما في نفوسِهم من التَّخلُّقِ بالباطلِ على ما خالَطَها من إدْراكِ الخَيْر، فحالَ ذلكَ التَّخلُّقُ بينَهم، وبينَ العملِ بما سمعوا، وبما علِموا، فتولَّوْا، وأعْرضوا، ولهذا فإنَّ قولَهُ: ﴿أَسۡمَعَهُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ بمعنَى: أسْمعهم سَماعَ تفهُّمٍ، وهم على هذه الحالةِ العاريةِ من الخيرِ بالكُلّيَّةِ، لَتولَّوْا عمّا سَمِعوهُ من الحقِّ، ولم يَنْتفعوا به قطُّ، أوِ ارتدّوا بعدَما صدَّقوه، وصاروا كأن لم يسمعوه أصلًا[2].

والحاصلُ أنَّ السَّماعَ له درجاتٌ، أسفلُها: أن يعمدَ من يُتلى عليه القرآنُ ألّا يسمعَهُ مبارزةً له بالعداوةِ من أوَّلِ وهْلةٍ؛ خوفًا من سلطانه على القلوبِ أن يغلبَهم عليها، كالَّذين قال اللّه فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾، ويليها من يستمعُ وهو لا ينوي أن يفهمَ، ويعلمَ كالمنافقين المُشارِ إليهم بقولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/480.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/480، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/307 - 308.

﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ الآية، ويليها من يستمع لأجلِ التماسِ شبهةٍ للطَّعن والاعتراضِ، كما يفعلُ المعاندون من المشركينَ، وفي أيّامنا المستشرقون المعادون للإسلام، وهذه الدَّرجاتُ كلُّها لغيرِ المؤمنين، ويليها أن يسمعَ ليفهمَ، ويتدبَّرَ، ثم يُحكمَ له أو عليه(1).

دَلالةُ الاقْترانِ بين جملتَي الشَّرط ﴿وَلَوۡ عَلِمَ﴾ ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ﴾:

الاقـــترانُ بين جملتَيِ الشَّرطِ اسْتلزاميٌّ، بين علمِ اللهِ عدمِ خيريّتهم، وعدمِ فهْمِهم للمسموع

قد يُظَنُّ أنَّ فيما بين هاتين الجُملتَيْن الشَّرطيَّتَيْنِ تفرُّعًا، أي: تفرُّعُ الثّانية على الأولى تفرُّعَ القضايا بعضِها على بعض في تركيب القياسِ؛ لأنَّ ذلكَ لا يجيءُ في القياسِ الاسْتثنائيِّ، ولا أنَّه من تفريعِ النَّتيجةِ على المقدِّمات؛ لأنَّ تفريعَ الأَقْيسَةِ - بتلكَ الطَّريقة الَّتي تُشبهُ التَّفريعَ بالفاءِ - ليس أسلوبًا عربيًّا، فالجُملتان في هذه الآية كلُّ واحدةٍ منهما مُستقلَّةٌ عن الأُخرى، ولا تجمعُ بينَهما إلّا مناسبةُ المعنَى والغَرضِ، فليس اقْترانُ هاتَيْنِ الجُملتَيْنِ هنا بمنزلةِ اقْترانِ قولِهم: لو كانت الشَّمسُ طالعةً؛ لكانَ النَّهارُ موجودًا، ولو كانَ النَّهارُ موجودًا؛ لَدَرَجَتِ الدَّواجِنُ، فإنَّه قد يَنْتُجُ: لو كانتِ الشَّمسُ طالعةً؛ لدَرجَتِ الدَّواجنُ، بواسطةِ تَدرُّجِ اللُّزوماتِ في ذِهْنِ المَحْجوجِ تقريبًا لفهمِه، فإنَّ ذلكَ بمنزلةِ التَّصريحِ بنتيجةٍ، ثمَّ جعلَ تلكَ النَّتيجةَ الحاصلةَ مقدِّمةَ قياسٍ ثانٍ، فتُطوى النَّتيجةُ لظهورِها اخْتصارًا، وهذا ليسَ بأسلوبٍ عربيٍّ، إنَّما الأسلوبُ العربيُّ في إقامةِ الدَّليل بالشَّرطيَّة أنْ يقتصِرَ على مُقدَّم وتالٍ، ثمَّ يُستدرَكُ عليه بالاسْتنتاج بذكرِ نقيضِ المقدَّم، وإذا كانَ ذلك كذلكَ؛ فإنَّ ﴿وَلَوۡ﴾ الواقعةَ في هذه الجملةِ الثّانيةِ من قَبيلِ ﴿وَلَوۡ﴾ المُشتَهِرَةِ بين النُّحاةِ بـ (لو) الصُّهيبيَّةِ بسببِ وقوعِ التَّمثيل بها بينَهم بقولِ عمرَ بنِ الخطّابِ رضي الله عنه: «نِعْمَ العبدُ صهيبٌ، لو لم يَخَفِ

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/525.

اللّه؛ لم يَعْصِه»[1]. وذلك أن يُستعملَ (لو) لقَصدِ الدَّلالةِ على أنَّ مضمونَ الجزاءِ مُستمِرُّ الوجودِ في جميعِ الأزْمنةِ والأحوالِ عند المتكلِّم، فيأتي بجملةِ الشَّرطِ حينئذٍ مُتضمِّنةً الحالةَ الَّتي هي مَظِنَّةُ أنْ يتخلَّفَ مضمونُها عند حصولها الجزاءَ؛ لو كانَ ذلك ممَّا يحتملُ التَّخلُّفَ، فقولُه: «لو لم يَخَفِ اللّه؛ لم يَعْصِه»؛ المقصودُ منه انْتفاءُ العصيانِ في جميعِ الأزْمنةِ والأحوالِ حتَّى في حالِ أمْنِه من غضبِ اللّهِ، فليس المرادُ أنَّه خافَ، فعصَى، ولكنَّ المرادَ أنَّه لو فُرِضَ عَدَمُ خوفِه؛ لَمَا عَصَى، وبناءً على ما تقدَّم، فإنَّ هذا الاسْتعمالَ يُضعِفُ معنَى الامْتناعِ الموضوعِ لهُ (لو)، وتصيرُ (لو) هنا في مجرَّدِ الاسْتلزامِ على طريقةٍ مُسْتعمِلةٍ للمجازِ المرسَلِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسْتعارة، في قوله: ﴿لَتَوَلَّواْ﴾:

استعارةُ التَّولّي من عدمِ فهمِهم واسْتجابتِهم

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ ليس المعنَى على أنَّه لم يُسمِعْهم، فلم يتولَّوْا؛ لأنَّ تولّيهم ثابتٌ، وهو مستعارٌ من عدمِ فهمِهم وامْتثالِهم، فالمعنَى: على أنَّهم يتولَّوْنَ في حالةٍ ما، لو سمعهمُ اللّهُ الإسماعَ المخصوصَ، وهو إسْماعُ الإفهامِ، فكيفَ إذا لم يسمعوه[3]؟ وكأنَّه فرارُ يوم الزَّحفِ من إسماعِ الفهمِ والاستجابةِ، والاستعارةُ تصوِّرُ عداوتَهم للحقِّ والهُدى.

بلاغةُ قَيْدِ التَّولّي بالجملةِ الحاليَّة ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾:

الجملةُ الحاليَّةُ مؤكِّدةٌ لمعنَى التَّولّي

جملةُ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿لَتَوَلَّواْ﴾، وهي مُبَيِّنةٌ للمرادِ مِنَ التَّولّي، وهو معناه المجازيُّ، فالمعنَى: أنَّه لو أسمَعهم بعدَ أنْ علمَ أنَّه لاخيرَ فيهم لن ينتفعوا بالْحجَجِ والمواعظ، ولَتولَّوْا، وهم مُعرِضون[4].

(1) هذا الخبرُ لا أصلَ له، ولا يوجدُ بهذا اللَّفظ في شيءٍ من كُتُب الحديث، ينظر: علي القاري، المصنوع، ص: 202، وإسماعيل العجلونيّ، كشف الخفاء: 2/323، والسُّيوطيّ، تدريب الرّاوي: 2/175، وذكر السُّيوطي أنَّه من كلام النُّحاة، ولا أصلَ له في الحديث النَّبويّ.

(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/488 - 489، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/309 - 311.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/470، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/310 - 311.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/470، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، 9/311.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الحاليَّةِ الاسْميَّةِ:

أفادتِ الجملةُ الاسْميَّةُ تمكُّنَ إعراضِهم

جاءتْ صيغةُ جملةِ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ اسْميَّةً للدَّلالةِ على تمكُّنِ إعراضِهم وثباتِهم عليه، أي: إعْراضًا لا قَبولَ بعدَهُ[1]، وهو قيدٌ مناسبٌ لوصفهم بعلم اللّهِ الأزليِّ بعدم هدايتِهم، وتعليلٌ لوصفهم بعدمِ الهدايةِ؛ لأنَّ إعراضَهُم ثابتٌ مستمرٌّ.

دَلالةُ وقوعِ الإعراضِ حالًا للمتوَلّين:

مِنَ المتولّينَ مَن أقْبَلَ إلى اللهِ، ثُمَّ كانَ مِن خيرَةِ المسلمين

أعْقبَ في قولِهِ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ بجملتِه الحاليَّة قولَه: ﴿لَتَوَلَّواْ﴾؛ ليدُلَّ بمفهوم المخالفةِ أنَّ مِنَ التَّولّي ما يُعقِبُهُ إقْبالٌ، ويَصدُقُ على ذلكَ تولّي الَّذين تَوَلَّوْا، ثمَّ أسْلموا بعدُ، كمُصْعَبِ بن عُمَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

دلالةُ الجمعِ بين التَّولّي والإعراضِ:

التَّأكيدُ على الإصرارِ على عدمِ الهدايةِ

قولُهُ: ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ جَمعَ اللّهُ بين التَّولّي والإعراض لوجودِ فرْقٍ بينهما، يقول صاحبُ المنار: "وفرقٌ عظيم بينَ التَّولّي العارضِ لصارفٍ مؤقَّتٍ، وتولّي الإعراضِ والكراهةِ الَّذي فقدَ صاحبُه الاستعدادَ للحقِّ وقبول الخيرِ فقدًا تامًّا". والصِّنفُ الأخيرُ هو المرادُ في هذهِ الآيةِ؛ لأنَّهم فقدوا الاستعدادَ للإيمانِ[3]، فلم يوفِّقهم اللّهُ للسَّماعِ النّافعِ، حيثُ أفسدوا فطرتَهم، فصاروا ممَّن وصفَهم اللّهُ بقولِهِ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/311.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/311.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/524.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال: 24]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

ذِكْرُ الضِّدِّ عقِبَ ضِدِّه زيادةُ بيانٍ لسوءِ حالِ السّابقينَ

لَمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ في الآياتِ السّابقةِ أنَّ شرَّ الدَّوابِّ، لو علمَ اللّهُ فيهم خيرًا؛ لأسمعهم، وبيَّن أنّهم لا يسمعون، ولا يعقلون، من على المؤمنين بما مَنَحَهم من الإيمانِ، ويسَّرَ لهم من الطّاعةِ، كأنَّه قيلَ: إنَّكم لستُم مثلَ أولئك المطبوعِ على قلوبِهم الَّذين امتنعوا عن الطّاعة؛ لأنَّهم ما خُلقوا إلّا للكفرِ، فما تيسَّرت لهم أسبابُ الإجابةِ، أمّا أنتم؛ فمُنِحتمُ الإيمانَ، ووُفِّقتم للطّاعة، فاستجيبوا للّهِ وللرَّسولِ؛ إذا دعاكم لما يحييكم، واغتنموا تلك الفرصةَ؛ لأنَّكم ستحشرون إليه، ويجازيكم على ما قدَّمتم(1).

ومن أوجهِ المناسبةِ أنَّ ما مضَى من نَكالِ الكافرينَ؛ كان مُسَبَّبًا عن عَدَمِ الاستجابةِ للّهِ وللرَّسول، لذا أمرَ اللّهُ المؤمنينَ بها في هذه الآيةِ تحذيرًا من الكَوْنِ مع الكَفَرةِ في مِثْلِ حالِهم، فيُحشَرون معهم، فأمرَهم أنْ يمتثلوا دعوةَ اللّهِ ورسولِه لما فيه صلاحُهم في دنياهم وآخرتِهم، ولِيحذروا أن يَعودوا إلى الكفرِ بعدَ أنْ هداهمُ اللّهُ للإيمانِ، فيحشُرُهم يومَ القيامةِ على هذه الحال(2).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾: الجوابُ يُقالُ في مقابَلةِ السُّؤال، والسُّؤالُ على ضربَيْن: الأوَّلُ: طلبُ مَقالٍ، وجوابُه المقالُ، والثّاني: طلبُ نَوالٍ،

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/192.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/252 - 253.

وجوابُه النَّوالُ، فعلى الأوَّلِ قولُهُ تعالى: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: 31]. وعلى الثّاني قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: 89]، أي: أُعْطيتُما ما سألتُما، والاسْتجابةُ: هي الإجابةُ، وحقيقتُها هي التَّحرّي للجواب والتَّهيُّؤ له، لكن عُبِّرَ بهِ عن الإجابةِ لقلَّةِ انْفكاكِها عنها، كما في الآيةِ هنا: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾[1]، والمرادُ: أجيبوا، وأطيعوا[2].

2) ﴿يُحْيِيكُمْۖ﴾: الحياةُ: هي صفةٌ توجبُ للموصوفِ بها أنْ يعلمَ ويَقْدِر، والحياةُ تُطلقُ على قوى عديدةٍ، أحدُها: القوَّةُ النّاميةُ الموجودةُ في النَّباتِ والحيوان، قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30]، والثّانيةُ: القوَّةُ الحسّاسةُ، وسُمّيَ الحيوانُ حيوانًا، قالَ ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ [فاطر: 22]، والثّالثةُ: القوَّةُ العاملةُ العاقِلة، كقولِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122]، والرّابعةُ: عبارةٌ عن ارتفاعِ الغَمِّ، قالَ تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: 169]. والخامسةُ: الحياةُ الأُخرويَّةُ الأبديَّة، وذلك يُتوصَّلُ إليه بالحياةِ الَّتي هي العقلُ والعلم، وهذا هو المعنَى المرادُ في قولِه تعالى هنا: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾ [الأنفال: 24][3]. وقد وردَ من معاني يُحييكم: الإيمانُ، والحقُّ، والقرآنُ، والنَّجاةُ، والعصمةُ في الدُّنيا والآخرة، وجميعُها تصلُحُ للمعنَى المراد[4]. والسّادسةُ: الحياةُ الَّتي يوصَفُ بها الباري ﷻ فاللّهُ حيٌّ، أي: لا يصحُّ عليه الموتُ، وليس ذلكَ إلّا للّهِ[5] ﷻ.

3) ﴿يَحُولُ﴾: حَوَلَ: الحاءُ والواوُ واللّامُ أصلٌ واحد، وهو تحرُّكٌ في دَوْر، فالحَوْلُ: العامُ، وذلكَ أنَّه يَحولُ، أي: يدور، وحالَ الشَّخصُ يحولُ؛ إذا تحرَّكَ، وكذلكَ كلُّ مُتحوِّلٍ عن حالة، وفي المثَلِ: لو كانَ ذا حيلةٍ لتحوَّلَ[6]، فأصلُ الحَوْلِ تغيُّرُ الشَّيءِ وانفصالُه عن غيرِه، وباعْتبارِ الانْفصالِ قيل: حالَ بيني وبينَك كذا[7].

4) ﴿ٱلْمَرْءِ﴾: يُقال: مَرْءٌ، ومَرْأَةٌ، وامْرُؤٌ، وامْرَأةٌ، قالَ تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النِّساء:

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 210، وابن منظور، اللّسان: (جوب).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشّوكاني، فتح القدير: 430/2.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 268 - 269.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 213/9 - 214.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 268 - 269، والجُرجاني، التَّعريفات، ص: 94.
(6) أبو عبيدة، الأمثال، ص: 737، وعبد الرحمن، مجمع الأمثال: 175/2.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 121/2، والرّاغب، المفردات، ص: 266.

[176]. والمَرْءُ: الرَّجُلُ، تقولُ: هذا مَرْءٌ صالح، وهما مَرْءان، ولا يُجمَع، والمروءةُ: كمالُ المَرْء، كما أنَّ الرُّجولةَ كمالُ الرَّجُلِ[1].

5) ﴿تُحۡشَرُونَ﴾: حَشَرَ: الحاءُ والشّينُ والرّاءُ: السَّوْقُ والبَعْثُ والانْبعاثُ، والحَشْرُ: الجمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمعٍ حَشْرٌ، قالَ تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 47]، وسُمّي يومُ القيامةِ يومَ الحَشْرِ كما سُمّي يومَ البَعْثِ والنَّشرِ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستجابةُ للهِ والرَّسولِ هي الحياةُ في الدُّنيا والآخرةِ، وكلُّ ذلك بتوفيقِ اللهِ

يأمُرُ اللّهُ ﷻ عبادَهُ المؤمنينَ بما يَقْتَضيهِ الإيمانُ منهم، وهو الاسْتجابةُ للّهِ وللرَّسولِ بالانْقيادِ لما أمرَ به، والمبادَرَةِ إلى ذلك، والدَّعوةِ إليه، والامْتثالِ لأوامرِه ونواهيه، فإنَّ في ذلكَ حياةَ القَلْبِ والرّوح، ثمَّ حذَّرَ عن عدمِ الاسْتجابةِ للّهِ وللرَّسول، فيُحالُ بينَكم وبينَه، وتختلفُ قلوبُكم بأمرِ اللّهِ، فهو تعالى الَّذي يَحولُ بينَ المَرْءِ وقلبِه، واعْلَموا أنَّكم سَتُحشَرونَ إليهِ في يومٍ لا رَيْبَ فيه، فيُجازَى المُحسنُ بإحسانِه، والمُسيءُ بعصْيانِه[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ ارتباطِ هذه الآيةِ بآيةِ الإيمانِ والطّاعة:

الاسْتجابةُ نتيجةٌ ومَقصَدٌ لمقدِّمةِ الأمرِ بالطّاعةِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ إعادةً لمضمونِ قولِه سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الآية: 20] الَّذي هو بمنزلةِ النَّتيجةِ من الدَّليل، أو مَقْصَدِ الخُطبةِ من مقدِّمتها، فأعقَبَ بيانُ اللّهِ ﷻ كلَّ ما تقدَّمَ من مضامِنَ ومعالمِ طاعةِ اللّهِ ورسولِه بالأمرِ بالاسْتجابةِ للرَّسولِ ﷺ؛ إذا دعاهم إلى شيءٍ تأكيدًا لما سبقَ مِنَ الأمرِ بالطّاعة، فإنَّ دعوتَه

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 766، وابن منظور، اللِّسان: (مرأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/66، والرّاغب، المفردات، ص: 237.
(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 271 - 272.

إيّاهم إحياءٌ لنفوسِهم، وضمانٌ لهم لثباتِ قلوبِهم على الحقِّ وحَشْرِهم على هذه الحالِ المُرضيةِ لربِّهم[1].

بلاغةُ تكرارِ النِّداءِ في سورةِ الأنفالِ:

تكرارُ النِّداءِ بوصفِ الإيمانِ، تربيةٌ وحثٌّ على الالتصاقِ بهذا الوصفِ العالي

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، النّاظرُ في آياتِ هذه السّورةِ يجدُ تكرارًا لأسلوبِ النِّداءِ، ولا سيَّما نداءُ أهلِ الإيمانِ، فقد تكرَّر أكثر من مرَّةٍ فيها؛ لأنَّها نزلت في أحداثِ غزوةِ بدرٍ، وكلُّها كانت بصنعِ اللّهِ وتدبيرِهِ وتأييدِهِ، والغرضُ منها تربيةُ المؤمنين وإعدادُهم لمستقبل الأيّامِ في ملاقاتهم للمشركين، فكان تكرارُ النِّداءِ بالإيمانِ لتربيتهم وتأهيلِهم وتحذيرِهم من المخالفاتِ الَّتي تؤثِّر على إيمانهم وعلى كيانِ الأُمَّةِ، مِنَ الفرارِ مِنَ الزَّحفِ، وعدمِ طاعةِ اللّهِ ورسولِه، وعدمِ الاستجابةِ لكلِّ ما يصدرُ من أوامرَ، وعدمِ الرُّكونِ إلى الأموالِ والأولادِ وحبِّ الدُّنيا، فكلُّ هذه النِّداءاتِ من بابِ العنايةِ والرِّعايةِ بالمؤمنين.

بلاغةُ الاسْتفتاحِ بأسلوبِ النِّداءِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

إثارةُ همَّةِ المؤمنينَ ودفعُهم لامْتثالِ أوامرِ اللهِ بندائِهم

النِّداءُ من أساليبِ التَّحفيزِ واسْتدعاءِ الهمَّةِ للقيامِ بما وراءِ النِّداءِ من أمرٍ جَلَلٍ ذي أهمّيَّةٍ خاصَّةٍ، وهكذا هنا صُدِّرتِ الآيةُ الكريمةُ بالنِّداءِ؛ لتنشيطِهم إلى الإقْبالِ على الامْتثالِ بما يَرِدُ بعدَهُ من الأوامرِ، وتنبيههم على أنَّ فيهم ما يوجِبُ ذلك[2]، وعلى المؤمنين أن يجمعوا قلوبَهم وعقولَهم لتلقّي المنادى بهِ، وفيهِ إشارةٌ إلى تنبيهِ السّاهي والغافل؛ للعودةِ إلى حظيرةِ الإيمانِ بنداءِ اللّهِ لهم، وهذا دليلُ حُبِّه سبحانه لعبادِهِ المؤمنين.

بلاغةُ ذِكْرِ المنادَى بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

أفادَ الاسْمُ الموصولُ تأكيدَ صِفَةِ الإيمانِ، وهذا أدْعَى للاسْتجابةِ

جاءَ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بعدَ النِّداءِ لتأكيدِ صفةِ الإيمانِ في قلوبِهم، فهو خطابٌ للمؤمنينَ الصّادقينَ الَّذين هم أعْرفُ النّاسِ

---

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/430، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/311.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/480.

بحقيقةِ الإيمان، وأكثرُ استجابةً وامتثالًا للّهِ وللرَّسولِ إذا دعاهم لما يُحييهم[1]، وفيه إشارةٌ إلى استحضارِهم في ذهنِ السّامعِ بجملةٍ معلومةِ الانتساب.

سرُّ التَّعبيرِ بجملةِ الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وبالفعلِ الماضي:

الـدَّلالـةُ على رسـوخِـهـم في صفةِ الإيمان

يُعبَّرُ بجملةِ الصِّلةِ غالبًا في سياقاتِ التَّكليفِ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي للتَّرقّي السُّلوكيِّ والعبادي للوصولِ إلى مقام الحضورِ والمشاهدةِ، ولذلك جاءَ النِّداء في سورة النّورِ بقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فالملاحظُ أنَّ النِّداءَ جاء بعد أمرِ التَّوبةِ، وهذا يعني: أنَّهم يعيشون آثارَ الإيمانِ وثمراته اليانعةَ الَّتي تدلُّ على رسوخِ الإيمان. وقد وردَ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإيمانِ فيهم، ووصْفُهم بالإيمانِ إيماءٌ إلى التَّعليلِ بأمرِهم بالطّاعةِ فيما سبق، فكونُهم آمنوا باللّهِ ورسولِه، يعني: أنَّ الإيمانَ هو الَّذي يَقْتضي أنْ يثقوا بعنايةِ اللّهِ بهم، فيَمتثِلوا أمرَهُ؛ إذا دعاهم[2]، وينتهوا؛ إذا نهاهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأمرِ ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ بعدَ النِّداء:

تأكيدُ الاسْتجابةِ وسرعةُ القيامِ بها

قد غَلَبَ استعمالُ الاستجابةِ في إجابةِ طَلَبٍ مُعيَّنٍ، ولذلكَ مُهِّدَ له بالنِّداء، لتسريعِ استجابتهم؛ لِما سيقَ هذا النِّداءُ من أجْلِه[3]، أيضًا؛ لأنَّ الاستجابةَ، هي أولى علاماتِ الطّاعةِ.

وجهُ المناسبةِ بين الماضي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ والأمرِ ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾:

تحقُّقُ الباعثِ إثـارةٌ للعملِ بمقتضاه

جاءت الدَّعوةُ بأسلوبِ النِّداءِ موجَّهةً للمؤمنينَ بقولِه تعالى: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ بصيغةِ الماضي لتحقُّقِ الإيمانِ في قلوبهم، ثمَّ جاءَ بمضمونِ ما يريدُه اللّهُ منهم، وهو الاستجابةُ للّهِ وللرَّسولِ بصيغةِ

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/514.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/311.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/480، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/312.

الأمر؛ لأنَّه لا يُتصوَّرُ أن يستجيبَ لأوامرِ اللّهِ وطاعةِ رسولِه ﷺ من لم يعمُرْ قلبَه الإيمانُ به سبحانه وتعالى[1] فتحقُّقُ الباعثِ مدعاةٌ للاستثارةِ لتحقيقِ مقتضياتهِ.

إجابةُ الدّاعي توفيقٌ من اللهِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ دونَ (أجيبوا) لوجودِ فرْقٍ بينهُما؛ فالفعلُ (استجاب) لا يكونُ إلّا فيما فيهِ قبولٌ لمّا دُعي إليهِ، نحو قولِه: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾، وغير ذلك من الآياتِ الَّتي دعا بها بعضُ الأنبياء، كما في سورة الأنبياء، مثل أيّوبَ وزكريا ويونسَ، أمّا الفعلُ (أجاب)؛ فهو أعمُّ من الاستجابةِ؛ لأنَّه قد يجيب المدعوُّ بالمخالفةِ؛ فبينهما عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ[2]، كما أنَّ الهمزةَ والسّينَ والتّاء تدلُّ على الطَّلب، وكأنَّ المعنى: اطلبوا التَّوفيقَ من اللّهِ للإجابة، فالسّينُ والتّاء للطَّلب، ومعنى ذلك: أنَّ المنادين يطلبون إجابةَ أنفسِهم، فالخيرُ عائدٌ إليهم لا لمنفعةِ من يجيبون[3].

سرُّ إسنادِ الاستجابةِ للألوهيّة دونَ الرُّبوبيَّةِ:

الإشعارُ بالمهابةِ عونٌ على الاستجابةِ

أُسندتِ الاستجابةُ في هذه الآية للّه سبحانه، في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ﴾، مع أنَّه وردَ في سورةِ الشّورى ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم﴾، لكنَّ السّياقَ مختلفٌ، فالأمرُ هنا يتعلَّق بشأنِ الجهادِ والقتالِ مع المشركين، وهذا أمرٌ تكتنفُهُ صعوباتٌ كثيرةٌ، والنَّفسُ هنا تغلبها أهواؤها، فتحتاجُ إلى تشريعاتٍ تلجمُها عن رغباتِها، فكانتِ التَّشريعاتُ الإلهيَّةُ المتواليةُ في هذهِ النِّداءاتِ، وطلبَ ربُّنا هنا من المؤمنين الاستجابةَ لهُ دونَ فتورٍ أو تكاسلٍ، فكان لفظُ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/311.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 2/291.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3097.

هو الَّذي يزرعُ المهابةَ في قلوبِ المؤمنين من التَّباطؤِ أو التَّخاذلِ في تنفيذِ الأوامرِ.

بلاغةُ تعريفِ الرَّسولِ باللّامِ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾:

فعلُ الاستجابةِ متعلِّقٌ بالرَّسولِ ﷺ

دخلتْ لامُ التَّعريفِ على قولِه: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ للإشارةِ إلى استقلالِه ﷺ بفعلِ الاستجابة، تَنْبيهًا على أنَّ استجابةَ الرَّسولِ ﷺ أعمُّ مِنَ استجابةِ اللّهِ[1].

الفرقُ بين طلبِ الاستجابةِ للهِ، وطلبِ الاستجابةِ للرَّسولِ:

بروز مفهوم العموم والخصوص، في السّياق الحكيم

استجابةُ الرَّسولِ ﷺ أعمُّ من استجابةِ اللّهِ؛ لأنَّ الاستجابةَ للّهِ، لا تكونُ إلّا بمعنَى المجازِ، وهو الطّاعةُ، بخلافِ الاستجابةِ للرَّسول ﷺ، فإنَّها بالمعنَى الأعمِّ الشّاملِ؛ للحقيقةِ: وهو استجابةُ ندائه، وللمجازِ: وهو الطّاعةُ، فأريدَ أمرُهم بالاستجابةِ للرَّسولِ بالمعنَيَيْنِ، كلَّما صَدَرَتْ منه دعوةٌ تَقْتضي أحدَهما[2].

وممّا يُذكَرُ في هذا - أيضًا - أنَّ المرادَ استجيبوا للّهِ تشريعًا، وللرَّسول ﷺ بلاغًا، وغايةُ التَّشريع والبلاغِ واحدةٌ، فلا بلاغَ عن الرَّسولِ إلّا بتشريعٍ من اللّهِ ﷻ حتَّى مع تفويضِ رسولِ اللّهِ بأن يُشرِّعَ، فهو لم يشرِّعْ من نفسِه، إنَّما شرَّعَ بواسطة حُكْمٍ مِنَ اللّهِ تعالى حيثُ قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[3].

دلالةُ ﴿إِذَا﴾، في قولِه: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾:

البلاغُ محقَّقُ الحصولِ، لأنّه أمرُ الله الملزم للمُبلِّغ والمُبلَّغ معا

عبَّر بـ ﴿إِذَا﴾ التى الّتي تفيدُ التَّحقيقَ؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ يقومُ بأمرِ دعوتِهم لا محالةَ؛ لأنَّ اللّه تعالى أمرَهُ بدعائِهم، وهذا دليلٌ على قيامِه ﷺ بأمرِ الدَّعوةِ والبلاغِ على أكملِ وجهٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 312/9.
(2) أبو السَّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 312/9.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي، ص: 4640.

بلاغةُ القيدِ بـ ﴿إِذَا﴾ على قولِه: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾:

دعوة النّبوّة حياة للأمّة، وإزاحة للغمّة

هذا القيدُ يحقِّقُ أمرين: أوّلهما: الدَّعوةُ إلى إيقاظ العقلِ، وحملِه على النَّظر في كلِّ أمرٍ يواجهُهُ، أو يُدعى إليه؛ ليزنَهُ بميزانِ الحقِّ والخيرِ، وهذا يعني احترامَ العقلِ الإنسانيِّ، وإعطاءَهُ الحقَّ في البحثِ والنَّظرِ في أمورِ الشَّريعة. وثانيهما: أنَّ ما تحملهُ أوامرُ الشَّريعةِ وأحكامُها؛ هو الخيرُ المطلقُ الَّذي لا يزدادُ على البحث والنَّظرِ إلّا وضوحًا وبيانًا[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الواحدِ ﴿دَعَاكُمْ﴾:

توحيدُ الضَّمير للدَّلالة والتَّأكيدِ على أنَّ الاسْتجابةَ للرَّسول كالاسْتجابةِ للهِ

لم يقُلْ بيانُ اللّهِ: إذا دعاكم في قولِه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وهو أصلُ التَّعبيرِ، لكنَّه اكْتَفَى بإعادةِ الضَّميرِ للواحدِ ﴿دَعَاكُمْ﴾؛ لأنَّ ذكرَ أحدِهما مع الآخرِ هو على سبيلِ التَّوكيد، فالاستجابةُ لرسولِ اللّهِ ﷺ كاسْتجابتِه للّهِ، أي: في طاعتِه والتزامِ دَعوتِه، قالَ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النِّساء: 80][2]، وممّا يذكرُ في ذلكَ - أيضًا - أنَّ إفرادَ الضَّميرِ دليلٌ على توحيدِ الغايةِ، فلم يفصلْ بين حكم اللّهِ التَّشريعيِّ وبلاغِ الرَّسولِ لنا.

بلاغةُ قَيْدِ فعلِ الأمرِ بالشَّرطِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾:

الرَّسولُ ﷺ لا يَدْعوهم إلّا لما فيه إحياءٌ لأنفُسِهم

ليس قولُه تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾ قيدًا للأمرِ بالاسْتجابةِ أو تَقْييدِ الدَّعوةِ ببعضِ الأحوال؛ بل هو قيدٌ كاشفٌ ومُنبِّهٌ على أنَّ دعاءَه إيّاهم لا يكونُ إلّا إلى ما فيه خيرٌ وإحياءٌ لأنفُسِهم، وهو المباشِرُ لدعوةِ اللّهِ تعالى[3].

دَلالةُ إيثارِ اللّامِ في ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾:

التَّعليلُ خطابُ إقناعٍ للمدعوّين

اللّامُ في قولِه: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾ لامُ التَّعليل، أي: دعاكم لأجْلِ ما هو سببُ حياتِكم الرّوحيَّة، وإذا كانتْ حياتُهمُ الرّوحيَّةُ في الدُّنيا

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 588/3.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 301/5، والنَّسَفي، مدارك التَّنزيل: 639/1.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 312/9 - 313.

على شاكلةِ ما يُرضي اللّه؛ كانت سببَ إعمارِ حياتِهمُ الأُخرويَّةِ بوافرِ نعيمِ اللّهِ وفضلِ اللّه[1]، والتَّعليلُ خطابٌ مقنعٌ للمدعوّين؛ لأنَّهُ فيهِ بيانُ المصلحةِ المترتِّبةِ على استجابتِهم. وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لمّا كان اجتناءُ ثمرةِ الطّاعة في غايةِ القربِ؛ نبَّه على ذلك باللّام دون (إلى)، فقال: ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ أي: ينقلُكم بعزِّ الإيمانِ والعلمِ عن حالِ الكَفَرةِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ(ما) الموصوليَّةِ:

المطلوبُ عمومُ الاستجابةِ، لتعميمِ الاستفادةِ من الدّعوة

آثرَ التَّعبيرَ بـ (ما) الّتي تفيدُ العمومَ؛ لأنَّها تطلقُ على القرآنِ، وعلى الجهادِ، فالقرآنُ حياةٌ؛ لأنَّهُ سببُ العلمِ، والعلمُ حياةٌ، فجازَ أن يسمّيَ سببَ الحياةِ بالحياةِ، وأطلقَ على الجهادِ حياةً؛ لأنَّه توهينٌ لقوَّةِ العدوِّ، وفي في ذلك حياةٌ للمسلمين، أو لأنَّ الجهادَ سببٌ لحصولِ الشَّهادةِ، وهي توجبُ الحياةَ الدّائمةَ[3].

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالاسْتعارةِ في قولِه: ﴿يُحۡيِيكُمۡۖ﴾:

إحياءُ الإنسانِ بطاعةِ اللهِ والاسْتجابةِ لرسولِ اللهِ، كإحياءِ الميّت

الإحياءُ تكوينُ الحياةِ في الجَسَدِ، والحياةُ قوَّةٌ بها يكونُ الإدراكُ والتَّحرُّكُ بالاخْتيارِ، ويُستعارُ الإحياءُ تبعًا لاسْتعارةِ الحياةِ للصِّفةِ أوِ القوَّةِ الّتي بها كمالُ موصوفِها فيما يُرادُ منه، مِثْلَ حياةِ الأرضِ بالإنْباتِ، وحياةِ العقلِ بالعلمِ وسَدادِ الرَّأيِ، وضدُّها الموتُ في المعاني الحقيقيَّةِ والمجازيَّةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ [النّحل: 21]، وقولِه ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122]، وتُستعارُ الحياةُ والإحياءُ لبقاءِ الحياة، والإحياءُ هذا مستعارٌ لما يُشْبِهُ إحياءَ الميِّت، وهو إعطاءُ الإنسانِ به كمالَ الإنسانِ، فيعمُّ كلَّ ما به ذلكَ الكمالُ من إنارةِ العقولِ بالاعْتقادِ الصَّحيحِ والخُلُقِ الكريم، ولمّا كانَ دعاءُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/312.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/201.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/136.

الرَّسولِ ﷺ لا يخلو عن إفادةِ شيءٍ من معاني هذه الحياة؛ أمرَ اللّهُ الأُمَّةَ بالاسْتجابةِ والامْتثالِ لما يَدْعو إليه الرَّسولُ ﷺ (1).

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِه: ﴿يُحۡيِيكُمۡۖ﴾:

تجدُّدُ الإحياءِ واستمرارُه يعيِّنُ على تجدُّدِ الاستجابةِ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ المضارعَ ﴿يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ إشارةً إلى أنَّ الاستجابةَ لما دعا إليه الرَّسولُ ﷺ مستمرَّةٌ ودائمةٌ في حياتِه وبعدَ مماتِه.

دَلالةُ (الواوِ) في ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الواوُ عاطفةٌ لمضمونِ هذه الجملةِ بسابقتِها، وأثرُها في المعنى أكيد

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ عطفتْ مضمونَ هذه الجملةِ بمضمونِ الجملةِ الَّتي قَبْلَها، فيكونُ عطفُها عليها عطفَ التَّكملةِ على ما تُكَمِّلُهُ(2).

دَلالةُ الافْتتاحِ بفعلِ الأمرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

لفتٌ لذهنِ المخاطَبِ للاهْتمامِ بمضمونِ الأمرِ

صُدِّرتِ الجملةُ بـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للاهْتمامِ بما تتضمَّنُهُ، وحثِّ المخاطَبينَ على التَّأمُّلِ فيما بعدَه، وذلكَ من أساليبِ الكلامِ البليغِ أن يَفتتحَ بعضَ الجُمَلِ المُشتمِلَةِ على خبرٍ أو طَلَبٍ فهْمٍ بـ اعلم أو تعلم، لَفْتًا لذهنِ المخاطَب، وفيه تعريضٌ غالبًا بغفلةِ المخاطَبِ عن أمرٍ مهمٍّ، فمن المعروفِ أنَّ المُخبرَ أو الطّالبَ ما يُريدُ إلّا علمَ المخاطَب، فالتَّصريحُ بالفعلِ الدّالِّ على طلبِ العلمِ مقصودٌ للاهْتمام(3).

دَلالةُ التَّعبيرِ بأداةِ التَّوكيدِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾:

تأكيدُ اتِّصالِ علمِ اللهِ بعزمِ المرءِ قبلَ تنفيذِه

التَّعبيرُ باسْمِ الجلالَةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وقد سبقَتْهُ ﴿أَنَّ﴾ لتأكيدِ أنَّ علمَ اللّهِ تعالى يخلُصُ بينَ المرْءِ وعَقْلِه خُلوصَ الحائلِ بين شيئَيْنِ، فيكونُ شديدَ الاتِّصالِ بكليْهما، أو أنَّ المعنَى: أنَّ اللّهَ يعلمُ عزمَ المرءِ ونيَّتَه قبلَ أنْ تنفعلَ بعَزْمِه وجوارِحِه، فشبَّه علمَ اللّهِ بذلكَ بالحائلِ بين شيئَيْنِ في كونِه أشدَّ اتِّصالًا بالمحوَّلِ عنه من أقربِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/481، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/312 - 313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 9/314.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/314.

الأشياءِ إليه على نحوِ قولِه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: 16][1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسْتعارةِ التَّمثيليَّة:

تعلُّقُ صفةِ العلمِ أو القُدرةِ بتنفيذِ ما عزمَ عليه المرْءُ، أو صرْفِه عن فعلِه

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ إسنادُ الحَوْلِ إلى اللّهِ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ اللّه مُنزَّهٌ عن المكان، والمعنَى: يَحولُ شأنٌ من شؤونِ صفاتِه، وهو تعلُّقُ صفةِ العلمِ بالاطِّلاعِ على ما يُضمِرُهُ المرْءُ، أو تعلُّقُ صفةِ القُدرةِ بتنفيذ ما عزَمَ عليه المرءُ أو بصرفه عن فعلِه، والمرادُ بالقلبِ هنا عَقْلُ المرْءِ وعزمُه[2]، شبَّهَ منعَهُ سبحانه العبادَ من الوصولِ إلى الشَّيءِ بالحيلولة بين رغباتِ القلوبِ وبين تحقيقِها.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَحُولُ﴾:

صيغةُ (يَحولُ) تفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَحُولُ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ذلكَ يتجدَّدُ، ويستمرُّ، وهذا في معنَى قولِه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: 16][3].

نكتةُ إيرادِ ﴿يَحُولُ﴾ في السّياق:

أفادَ (يَحولُ) تحذيرَ المؤمنينَ مِنَ التَّراخي، أو التَّنصُّلِ من الاسْتجابةِ

المقصودُ من إيرادِ الفعلِ ﴿يَحُولُ﴾ في سياقِ الآيةِ تحذيرُ المؤمنينَ من كلِّ خاطرٍ يخطُرُ في النُّفوسِ من التَّراخي في الاسْتجابةِ إلى دعوةِ الرَّسولِ ﷺ، والتَّنصُّلِ منها، أو التَّستُّرِ في مُخالفتِه، وهو معنَى قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: 235]. وفيه كذلك حثٌّ على المبادَرةِ إلى إخلاصِ القُلوبِ وتَصْفيتِها قبلَ إدراكِ المنيَّةِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 315/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9.

المــرءُ بعمـلِه وتصرُّفاتِه، ومن حـسن عمله اتّسع تأثيره في محيطه

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡمَرۡءِ﴾:

المرادُ بـ ﴿ٱلۡمَرۡءِ﴾ عملُه وتصرُّفاتُه الجِسْمانيَّةُ؛ لأنَّه هو المعوَّلُ عليه في سياقِ الآية، حيث يحولُ اللّهُ بينَ عَزْمِ العبدِ في قلبِه وتَنْفيذِ ما عزمَ عليه[1]، وفيه إشارةٌ إلى دعوةِ الإنسانِ إلى كمالِ التَّخلُّق بصفات المروءةِ الَّتي منها الاستجابةُ للّهِ وللرَّسول.

التَّعبيرُ بالظَّرفِ الــدّالّ على البينيّة، تمثيلٌ لـغـايـة قُـربـهِ تعالى مِنَ العَبْدِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿بَيۡنَ﴾:

أصلُ الحَوْلِ - ويُقالُ: الحُؤُلُ - منعُ شيءٍ اتِّصالًا بين شَيئَيْنِ أو أشياء، قالَ تعالى: ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ﴾ [هود: 43]. وكلمةُ (بينَ) تَقْتضي شيئَيْن، فما يكونُ تحوُّلٌ إلّا إلى أحدِهما لا إلى أمرٍ خارجٍ عنهما كالطَّبائع، فإنَّ ذلكَ تحويل، وليس حُؤُلًا، وفي هذا التَّعبيرِ تعدُّدُ المراد فيه، أوَّلًا: أنَّ اللّه تعالى مالكُ الإنسانِ في أفكارِه ومشاعرِه، فهو موجِّهٌ قلبَهُ إلى ما يريدُهُ سبحانه أي: هو الّذي يحولُ المرءَ وقلبَهُ واتّجاهَهُ، فهو لا يملك من أمرِه شيئًا، وهذا المعنى يفسِّرُهُ قولُهُ ﷺ: «يا مقلِّبَ القلوبِ، ثبِّتْ قلبي على دينِكَ»[2]، والثّاني: أنَّ اللّه بأوامرِه ونواهيهِ يحولُ بينَ المرءِ وقلبِهِ، أي: بين المرءِ وما تهواهُ نفسُه، ويشتهيهِ قلبُهُ، فالشَّريعةُ قامعةٌ للنُّفوسِ، كابحةٌ للأهواءِ، الثّالثُ: تمثيلٌ لغايةِ قربه تعالى من العبدِ، كقولِه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: 16]، ولا مانعَ من الجمعِ بين هذه المعاني، فاللّهُ تعالى مُطَّلِعٌ على مكنونات القلوب على ما عَسى يغفُلُ عنه صاحبُها، وفيه تصويرٌ وتَخْييلٌ لتملُّكه على العبدِ قَلْبَه، بحيثُ يفسخُ عزائمَه، ويُغيِّرُ نيّاتِه ومقاصدَه، ويحولُ بينَه وبينَ الكفرِ إنْ أرادَ سعادتَه، ويُبدِّلُه بالأمْنِ خوفًا، وبالذِّكر نسيانًا، أو ماهو عكسُ ذلك، وما أشبهَ ذلكَ من الأمورِ المعترضةِ للعبدِ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9.

(2) أخرجه الترمذيّ في سننه، برقم: (2140)، وقال: حديث حسن.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 152/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9 - 316.

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالقلبِ دونَ غيرِه:

القلبُ محلُّ الأماني، ومستودع المعاني

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ القلبِ دونَ غيرِه؛ لأنَّ القلبَ محلُّ الأماني، والمرادُ هنا أنَّهُ سبحانه يَحول بينَ المرءِ وبينَ ما يتمنّاهُ، ويريدهُ بقلبِه؛ لأنَّ الأجلَ يَحولُ دونَ الأمَلِ، وذلك بأنَّ الموتَ يقطعُ الأجَلَ، وهذا يقعُ في القلبِ.

دَلالةُ عطفِ قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾:

الجمعُ بينَ التَّحذيرِ والتَّذكيرِ، مِن فصيح التَّعبير

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ على قولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ لأنَّه لمّا كانَ المعطوفُ عليه تحذيرًا؛ كان المعطوفُ تذكارًا لِما يؤولُ إليه أمرُهم من البعثِ والجزاءِ بالثَّوابِ والعقاب، ويمكنُ أنْ يكونَ تهديدًا لهم[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالإضمارِ، في قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾:

مِن جمالِ التَّعبيرِ، مسايرةُ أسلوبِ المعطوفِ عليه

في قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، الضَّميرُ الواقعُ اسْمُ (أنَّ) ضميرُ اسْمِ الجلالة، وليس ضميرَ الشَّأنِ لعدمِ مناسبتِه، ولإجراءِ أسلوبِ الكلامِ على أسلوبِ قولِه السّابق: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾[2].

دَلالةُ تقديمِ قولِه: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

أفادَ تقديمُ شِبْهِ الجملةِ الاخْتصاصَ

قولُه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ تقديمُ مُتعلَّقِ ﴿تُحۡشَرُونَ﴾، وهو ﴿إِلَيۡهِ﴾ لإفادةِ الاخْتصاص، أي: إليه لا إلى غيرِه تُحشَرون[3].

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

استحالةُ الحَشْرِ إلى غيرِ الله، ممّا هو معلوم من العقيدة بالضّرورة

أفادَ البناءُ للمفعول في ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ على أنَّ اخْتصاصَ الحَشْرِ الآنفِ الذِّكر، يُكَنَّى به عن انْعدامِ ملجأٍ أو مَخْبأٍ تَلتجئونَ إليهِ من الحَشْرِ إلى اللّهِ، فكَنَّى عنِ انْتفاءِ المكانِ بانْتفاءِ محشورٍ إليه غيرِ اللّهِ بأبْدَعِ أسلوبٍ[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 303/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 303/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 316/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 316/9.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 316/9.

سرُّ التَّعبيرِ بالحشرِ دونَ الجمعِ:

التَّعبيرُ بالحشرِ يفيدُ الجمعَ مهما يكنِ العددُ، ومهما تناثرت الأجزاءُ، أو تباينت، أو تداخلت في الأجسام، فاللهُ يحشرُ كلَّ عضوٍ، ويجمعهُ مع بقيَّةِ أجزائهِ، وعلى هذا فالحشرُ جمعٌ مع شدَّةِ الضّيق وتزاحمِ الأجزاءِ.

مَنْ أوجد الخَلْق مِن عدم فِي البداية، لا يعجزه البعثُ والحشرُ في النّهاية

سرُّ اختلافِ التَّعبيرِ بين كونه يَحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما في الأنفس:

الله تعالى يعلم خبايا النّفوس، ودواخلَ القلوب

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾، وبين قولهِ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾، نجد اختلافَ التَّعبير في الآيتين؛ لأنَّ آيةَ البقرةِ يسبقُها الحديثُ عن عدَّةِ المتوفَّى عنها زوجُها، وحَظَرَ المواعدةَ سرًّا إلّا بالقولِ المعروفِ، ونهى عن عزم العقدِ قبلَ بلوغِ الكتابِ أجلَهُ، ومعلومٌ أنَّ أمورَ الشَّهوةِ غالبةٌ في هذا المجالِ بين الرَّجُلِ والمرأةِ، فأرادَ قطعَ هواجسِ التَّساهلِ والتَّناجي، فناسبَ ذلك التَّهديدُ بعلمِ ما في النُّفوسِ. أمّا آيةُ الأنفالِ؛ فقد بُدِئَتْ بطلبِ الاستجابةِ لما يجدِّد الحياةَ، وقد يتوهَّمُ عدم القدرةِ على تغييرِ الحالِ؛ لذلك ناسبَ ما يدلُّ على لطيف قدرتهِ سبحانه بأنَّه يحولُ بينَ المرءِ وقلبهِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المرْء والرَّجُل:

قولُنا: رجلٌ، يُفيدُ القوَّةَ على الأعْمال، ولهذا يُقالُ في مَدْحِ الإنسانِ: إنَّه رَجُل.

المـرءُ: الـرَّجُـلُ مع تحقُّقِ أدبِ النَّفْس

والمرْءُ: الرَّجُل، يُفيد أنَّه أدَبُ النَّفْسِ، ولهذا يُقال: المروءةُ أدَبٌ مخصوصٌ، وهي كمالُ المرْءِ، كما أنَّ الرُّجولةَ كمالُ الرَّجُلِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 249، والرّاغب، المفردات، ص: 766.

(تُحشَرون) و(تُرجعون):

الحَشْرُ: هو الجمعُ مع السَّوْقِ، والشّاهدُ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشُّعراء: 36]، ومنه: يومُ الحَشْرِ؛ لأنَّ الخَلْقَ يُجمَعون فيه، ويُساقون إلى الموقف، والأصلُ في الحَشْرِ لغةً: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم، وإزعاجُهم، وسَوقُهم إلى الحربِ ونحوِها[1].

الحَشْرُ: جمعٌ مع سَوْقٍ، والإخراجُ مِنَ المقرِّ مع الإزعاج، وهو حالُ النّاسِ يومَ البعث

والرُّجوع: فعلُ الشَّيءِ ثانيةً، ومصيرُه إلى حالٍ كانَ عليها، أو تقديرُ البَدْءِ مكانًا كانَ أو فعلًا أو قولًا، وبذاتِه كانَ رجوعُه أو بجزءٍ من أجزائِه، أو بفعلٍ من أفعالِه، فالرُّجوعُ: العَوْدُ، والرَّجْعُ: الإعادةُ[2].

(دعاكم) و(ناداكم):

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالدُّعاءِ دونَ النِّداءِ في قولِه: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ مع وجودِ تقاربٍ بين الكلمتين، إلا أنَّه آثرَ التَّعبيرَ بالدُّعاءِ؛ ولأنَّ الدُّعاءَ يكونُ بلفظِ الطَّلبِ سواءٌ كان معه نداءٌ، أم لم يكن، بخلافِ النِّداء، ولأنَّ الدُّعاءَ أخفُّ من النِّداءِ، لكلِّ ذلك آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالدُّعاءِ دونَ النِّداءِ[3].

الدُّعاءُ: طلبُ الفعل، والنِّداءُ: إجابةٌ للصَّوت، والدُّعاءُ للقريبِ والنِّداءُ للبعيدِ

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 188 - 189، والرّاغب، المفردات، ص: 237.
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 250، والحسيني، الكلّيات: 390/2، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 114.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 108/2.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعقيبُ النِّداءِ والأمرِ يؤكِّدُهُ النَّهيُ عنِ الظَّنِّ، بتركِ الظَّالِمِ دونَ عقابٍ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ الأمرَ بالاستجابةِ للّهِ ولرسولِه، فربَّما ظنَّ المجيبُ أنَّه لا يلزمه إلّا نفسُه، وليس عليه تعريضُ نفسِه للأذى، بالأخذِ على يدِ من لم يستجبْ للّهِ ولرسولِه؛ نبَّهَ في هذه الآيةِ على أنَّ ذلكَ منابذةٌ للدّين، واجْتثاثٌ له من أصلِه؛ لأنَّ تَرْكَ العاصي على عِصْيانِه كَتَرْكِ الكافرِ على كُفرانِه، وذلكَ موجبٌ لعمومِ البلاءِ، ومزيدِ القضاءِ[1]، وممّا يذكرُ في المناسبةِ - أيضًا - أنَّه لمّا حذَّرَ اللّهُ تعالى الإنسانَ في الآيةِ السّابقةِ من أنَّهُ يحولُ بينهُ وبين قلبِه؛ حذَّره في هذه الآيةِ من الفتنِ، فكأنَّهُ قالَ: احذروا فتنةً إن نزلت بكم؛ لم تقتصر على الظّالمين خاصَّةً، بل تتعدَّى إليكم جميعًا، وتصلُ إلى الصّالحِ والطّالحِ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٗ﴾: أصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النّارَ لِتَظهرَ جَوْدتُه من رداءته، واستُعملتِ الفتنةُ في إدخالِ الإنسانِ النّارَ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾، وتأتي الفتنةُ بمعنَى العذاب، قالَ تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ [الذّاريات: 14]، أي: عذابَكم، وتأتي بمعنى الاختبار، وجُعِلَت الفتنةُ كالبلاءِ في أنَّهما يُستعمَلانِ فيما يُدفَعُ إليه الإنسانُ من شِدَّةٍ ورَخاء، وهما في الشِّدَّةِ أظهرُ معنًى وأكثرُ استعمالًا، وقد قالَ فيهما ﷻ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35]. وقولُه تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 256/8، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 316/9.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 138/8.

﴿فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحديد: 14]، أي: أوقعتُموها في بَليَّةٍ وعذاب[1]، وعلى هذا قولُه هنا: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾، أي: اختبارًا وبلاءً[2].

2) ﴿تُصِيبَنَّ﴾: يُقالُ: أصابَ كذا، أي: وجدَ ما طَلَبَ، كقولك: أصابَه السَّهمُ، وأصابَ الَّذي قصَدَه، أي: وجدَه، والصَّوْبُ: الإصابةُ، يُقالُ: صابَهُ وأصابَه، أصابَ السَّهمَ؛ إذا وصلَ إلى المَرْمَى بالصَّواب، والمصيبةُ أصلُها في الرَّمية، ثمَّ اختُصَّتْ بالنّائبةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ [النِّساء: 62]، وأصابَ جاءَ في الخير والشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ [التَّوبة: 50][3]، ومن الثّانيةِ قولُه هنا: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ أي: تصيبُ الصّالحَ والطّالحَ[4].

3) ﴿خَآصَّةٗۖ﴾: التَّخصيصُ والاختصاصُ والخُصوصيَّةُ والتَّخصُّصُ: تفرُّدُ بعضِ الشَّيءِ بما لا يُشاركُه فيه الجُملةُ، وذلكَ خلافُ العُموم، والتَّعمُّم، والتَّعميم، والخاصَّةُ: ضدُّ العامَّة، وقد خصَّه بكذا يخصُّه، واختصَّه يختصُّه، قالَ تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ [آل عمران: 74][5]، وقولُه تعالى هنا: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾، أي: هي عامَّةٌ لا تختصُّ إصابتُها بما يباشِرُ الظُّلمَ منكم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُحذِّرُ اللّهُ تعالى عبادَه المؤمنين اختبارًا ومِحْنَةً يَعمُّ بها المسيءَ وغيرَه، لا يَخُصُّ بها أهلَ المعاصي ولا مَنْ باشرَ الذَّنبَ، بل يُعمِّمُها

الفتنةُ لا تصيبُ أهلَ المعاصي فحسب، وإنَّما تَعمُّ مَن معهم عند عدم رَدْعهم عنها

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 623 - 624، وابن منظور، اللِّسان: (فتن).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 218/9.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 495 - 496.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 274/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 431/2.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 284، وابن منظور، اللِّسان: (خصص).
(6) الشَّوكاني، فتح القدير: 431/2.

حيثُ لم تُدفعْ، وتُرفعْ[1]، كالفتنِ الَّتي تهدُّ كيانَ الأمَّةِ، وتزعزعُ أركانَها، وكظهورِ البدعِ والمنكراتِ، ونحو ذلكَ، فهذهِ فتنٌ لا تصيبُ أصحابَها فقط، بل تلتهم نيرانُها الأمَّةَ جميعًا؛ لذلك حذَّرَ اللّهُ منها، وشدَّد العقوبةَ على من خالفَ أمرَهُ، فهو معاقِبُهُ في الدُّنيا والآخرة[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ العطفِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

بيانُ تأكيدِ التزامِ التَّقوى، باعتبارها محور العبادة والمعاملة

جاءَ العطفُ بالواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ على نَسَقِ ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ و﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾؛ لأنَّ الاسْتجابةَ للّهِ وللرَّسولِ، والعلمَ بأنَّ اللّه يحولُ بينَ المرءِ وقَلْبه، يولِّدانِ التَّقوى في النُّفوسِ، فأخبرَهم: إن لم تتَّقوا اللّه؛ تعُمَّكم فِتنَةٌ[3].

بلاغةُ الافْتتاحِ بالأمرِ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

التَّحذيرُ من الوقوعِ في فِتنةٍ إنْ لم تتحقَّقِ التَّقوى

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمةُ بالأمرِ بالتَّقوى تحذيرًا لهم خشيةَ أنْ تُصيبَهم فتنةٌ، تضطربُ بها أحوالُهم، ويَخْتلُّ بها نظامُ جماعتِهم، فيفشَلوا، وتذهبَ ريحُهم[4].

دَلالةُ التَّنكيرِ في لفظ ﴿فِتْنَةً﴾:

التَّنكيرُ لإفادةِ العُمومِ، مبرز للمعنى الموجود

دلَّ التَّنكيرُ في قولِه: ﴿فِتْنَةً﴾ على العمومِ، أي: عموم معنَى ﴿فِتْنَةً﴾، فقد تكونُ إقرارًا للمُنكَرِ بينَ أظْهُرِهم، أو افتراقَ الكلمةِ بينَهم، أو عذابًا ينزلُ بساحتِهم، أو عقوبةً جاريةً على سَنَنِ اللّهِ في عقوباتٍ تحصُلُ بحوادثَ كونيَّةٍ تُسبِّبُ هلاكًا أو دمارًا أو ترويعًا يعمُّ الصّالحَ مع الطّالحِ[5].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/274.
(2) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 9/104.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/256.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/515، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/316.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/152، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/304.

تنوُّعُ الإعرابِ في موقعِ الجملةِ ممّا قبلَها:

(لا تُصيبَنَّ) جوابٌ للأمرِ، أو نَهْيٌ بعدَ أمرٍ، أو صفةٌ لـ(فِتْنَةً)

قولُه تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ فيه وُجوهٌ إعرابيَّةٌ عديدةٌ:

أن يكونَ جوابًا للأمرِ، أو نهيًا بعد أمرٍ، أو صفةً لفتنةٍ.

فإذا كان جوابًا؛ فالمعنَى: إنْ أصابتْكم فتنةٌ لا تُصيبُ الظّالمينَ منكم خاصَّةً، ولكنَّها تعمُّكم، وإذا كانت نهيًا بعد أمرٍ، فكأنَّه قيل: واحْذروا ذَنْبًا أو عقابًا، ثمَّ قيل: لا تَعرَّضوا للظُّلم، فيصيبكم العقابُ، أو أثَرُ الذَّنْب، ووَبالُه على مَنْ ظلمَ منكم خاصَّة، وإذا كانَ صفةً لفتنةٍ على إرادةِ القول، كأنَّه قيل: واتَّقوا فتنةً مَقولًا فيها: لا تُصيبَنَّ، وإذا قيلَ: كيفَ جازَ أنْ تدخُلَ النّونُ المؤكّدةُ في جوابِ الأمرِ؟

الجوابُ: هو أنَّ فيه معنَى النَّهْي، فإذا قيل: انْزِلْ عن الدّابةِ لا تَطْرَحك، جازَ أن يُقالَ: لا تَطْرَحنَّكَ، وكذلكَ هنا: لا تُصيبَنَّ[1].

دَلالةُ ﴿لَا﴾ النَّهي، في سياقِ الآية:

(لا) للنَّهْي في السّياقِ الحكيمِ

حرفُ (لا) في قولِه تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ نَهْيٌ بقرينةِ اتِّصالِ مَدْخولِها بنونِ التَّوكيدِ المختصَّةِ بالإثْباتِ في الخبرِ وبالطَّلب، إذْ جَعْلُ (لا) هنا للنَّفيِ فيه شذوذٌ؛ لأنَّ النّونَ لا تدخُلُ المنفيَّ في غيرِ القَسَم[2].

دَلالةُ توجيهِ النَّهيِ للفتنةِ، وهي مِنَ المعاني لا المباني:

المرادُ تحذيرُ المخاطَبِ مِنَ الأمرِ المنهيِّ عنه بطريقِ الكنايةِ

توجَّهَ النَّهيُ للفتنةِ بما اقْتضاهُ مقامُ المبالغةِ من التَّحذيرِ هنا والاتِّقاءِ من الفِتْنة، فأكَّدَ الأمرَ باتِّقائِها بنَهْيِها هي عن إصابتِهم إيّاهم مع أنَّها من المعاني لا المباني؛ لأنَّ هذا النَّهيَ من أبْلَغِ صيَغِ النَّهي بأنْ يوجَّهَ النَّهيُ إلى غيرِ المرادِ نَهْيُه، تنبيهًا له على تحذيرِه من الأمرِ المنهيِّ عنه في اللَّفظ، والمقصودُ تحذيرُ المخاطَبِ بطريقِ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 407/1، والزّمخشري، الكشّاف: 152/2 - 153، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 515/2.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 515/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 482/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 317/9.

الكناية؛ لأنَّ نهيَ ذلكَ المذكورِ في صيغةِ النَّهي يستلزمُ تحذيرَ المخاطَبِ، فكأنَّ المتكلِّمَ يجمعُ بين نَهيَيْن، ومنه قولُ العرب: لا أَعْرِفنَّكَ تفعَلُ كذا، فإنَّه في الظّاهر المتكلِّمُ نَفْسُه عن فعلِ المخاطَب، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 27]، ويُسمَّى هذا بالنَّهْيِ المحوَّل، فلا ضميرَ في النَّعتِ بالجُملةِ الطَّلبيَّة(1).

وجهُ المعنَى على كونِ ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾، جملةً استئنافيَّةً:

تأكيدُ الأمرِ باتِّقاءِ الفِتنَةِ معَ زيادةِ التَّحذيرِ بشُمولِها

يجوزُ أنْ تكونَ جملةُ: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ نَهْيًا مُستَأنَفًا؛ تأكيدًا للأمرِ باتِّقاءِ الفتنةِ مع زيادةِ التَّحذيرِ بشمولِها مَنْ لم يكن من الظّالمين(2).

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به اسْمًا موصولًا:

الاسْمِ الموصولِ لإفادةِ تأكيدِ وقوعِ الفِتْنَةِ

أفادَ سَوْقُ المفعولِ به ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسْمًا موصولًا تأكيدَ وقوعِ الفتنةِ بالظّالمينَ، وتعدّيها لمن سكتَ عنِ الظّالمين حَصْرًا لهاتَيْنِ الفئتَيْنِ بالعقاب، ومبالغةً في التَّحذيرِ من هذه الفِتْنَة.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنكُمۡ﴾:

الظُّلمُ من المؤمنينَ أقبحُ منه من غيرِهم

(مِن) في قولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾ للتَّبعيضِ أو للتَّبيين، وفائدتُه: التَّنبيهُ على أنَّ الظُّلمَ منكم أقْبحُ منه من غيرِكم(3).

دَلالةُ عدمِ إصابةِ الظّالمينَ بالفِتْنَةِ وحدَهم:

مَنْ لا يُنكِرُ على الظّالمين ظُلمَهم، ويَرْكَنُ إليهم؛ تُصِبْهُ الفِتْنَةُ

دلَّ سياقُ الآيةِ على أنَّ الفتنةَ لا تختصُّ إصابتُها بمَن يُباشِرُ الظُّلمَ منكم؛ بل يعمُّه وغيرَه، كإقرارِ المنكَرِ بينَ أظْهُرِهم، والمداهَنَةِ في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر، وافْتراقِ الكلمة، وظُهورِ البِدَع، والتَّكاسُلِ في الجهادِ في سبيلِ اللّه، والرُّكونِ إلى الظّالمين، وغيرِ ذلك ممّا تستغرقُ معانيه كلمةَ الظُّلم(4).

---

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 515/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 305/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 318/9.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 482/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 318/9.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 482/2.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 482/2.

دَلالةُ التّأكيدِ على عدَمِ إصابةِ الظّالمينَ وحدَهم:

المقصودُ بالتّحذيرِ هم المؤمنون

اسْمُ فاعلٍ مؤنَّثٌ لجَرَيانِه على فِتْنةٍ، فهو مُنتصِبٌ على الحالِ من ضميرِ ﴿تُصِيبَنَّ﴾، وهي حالٌ مفيدةٌ هنا؛ لأنَّها المقصودُ من التَّحذيرِ، والأصلُ في هذا أنْ تكونَ ﴿خَآصَّةٗۖ﴾ نعتًا لمصدرٍ محذوفٍ، تقديرُه: (إصابةً خاصَّةً)، فهي نَصْبٌ على الحالِ لَمّا انْحذفَ المصدرُ من الضَّميرِ في ﴿تُصِيبَنَّ﴾، وهذا الفعلُ هو العاملُ، ويمكنُ أنْ تكونَ حالًا من الضَّميرِ في ﴿ظَلَمُواْ﴾[1].

سرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾:

السّكوتُ على الظُّلمِ مشاركةٌ سكوتيَّةٌ فيه

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾، بهذا التَّركيبِ دونَ غيرِه؛ لأنَّه يحملُ دعوةً إلى التَّناصُحِ بين المؤمنين، وإلى التَّناهي فيما بينهم عن المنكرِ، وإلّا فإنَّ سكوتَ السّاكتين منه عن ظلم الظّالمين، وبغي الباغين هو اعترافٌ ضمنيٌّ بهذا الظُّلمِ وإجازةٌ له، ومن هنا لم يكن ما يحلُّ بالظّالمين من بلاءِ اللّهِ ونقمتِه واقعًا بهم وحدَهم، بل يصيبُهم، ويصيبُ من رآهُم، ولم ينكر عليهم؛ لأنَّ المجتمعَ الإنسانيَّ جَسَدٌ واحدٌ، وما يصيب بعضَهُ من فسادٍ وانحلالٍ لا بدَّ أن يتأثَّرَ بِهِ المجتمعُ كلُّهُ، فكان مِنَ الحِكمةِ دفعُ الشَّرِّ ومحاربتُهُ في أيِّ مكانٍ يطلُّ بوجهِهِ، فإذا قصَّروا في أداءِ هذا الواجبِ في محلِّ المؤاخذةِ والمعاقبةِ، أصابهم جميعا ما حذَّرتْ منه الآية، ولم يقتصر العقاب على العُصاة وحدهم[2].

دلالةُ جملةِ الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ دونَ الظَّلَمَةِ:

الظُّلمُ مَناطُ التَّحذيرِ ومدارهُ

عبَّر بجملةِ الصِّلةِ للإشعارِ بعلَّةِ التَّحذيرِ، وأنَّه بسببِ الظُّلمِ، وأيضًا؛ لأنَّ الذين يسكتون عن المنكرِ، ظلموا أنفسَهم، وظلموا دينَهم، وظلموا مجتمعَهم.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 306/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 318/9، ورجَّح ابن عطيَّة الوجهَ الأوَّل، يُنظر: ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 516/2.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 589/3.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿خَآصَّةٗۖ﴾:

علّة عقاب الظّالم الفاعل، ومن لم يفعل أيضًا

في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾، عبَّرَ فيه بقولِه: ﴿خَآصَّةٗۖ﴾، للإشارةِ إلى دفْعِ توهُّم في خاطرِ بعضِهم بأنَّ العذابَ مقصورٌ على الّذين ظلموا فقط، فأزالَ القرآنُ الكريمُ هذا الفهمَ الخاطئَ، وبيَّنَ عمومَ العقابِ للظّالمِ والمظلوم.

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

معنى عطف مضمونِ جُملةِ (واعلَموا) على مضمونِ ما قَبلَها

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ عَطَفَتْ مضمونَ هذه الجملةِ على مضمونِ الجملةِ الَّتي قبلَها، فيكونُ عطفُها عليها عطفَ التَّكملةِ على ما تُكمِّلُهُ، وكأنَّ بيانَ اللّهِ، قال: الفتنةُ تُصيبُ الَّذين باشَروا الظُّلمَ، والَّذين سَكَتوا عنهم، أو رَكَنوا إليهم، وهؤلاء سيصيبُهُمُ العقابُ الشَّديدُ من اللّهِ، ويمكنُ عطفُ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ هنا على ما تقدَّمَها في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: 24]، فمَنْ حالَ اللّهُ بينَه وبينَ قلبه؛ فإنَّ مصيرَه إلى عقابِ اللّهِ، أو أنَّ الحَوْلَ بين المَرءِ وقلبِه فتنةٌ؛ فاتّقوا اللّهَ في هذه الفتنةِ أن تُصيبَكُم[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الظُّلمُ يقتضي شدَّةَ التَّحذيرِ منهُ

افتتَحَ بيانُ اللّهِ تعالى جُملةَ: واعْلَموا أنَّ اللّهَ شديدُ العقابِ بفعلِ الأمرِ بالعلم للاهْتمامِ لِقَصْدِ شدَّةِ التَّحذيرِ[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ بِهِ جملةً مؤكَّدةً:

إنَّ الَّذين ظَلموا والسّاكتين عنهم سواء؛ لتركهم النّهيَ عنِ المنكر

جاءَ التَّعبيرُ بالجُملةِ المؤكَّدةِ لبيانِ أنَّه تعالى شديدُ العقابِ - لا محالةَ - لمن يُخالفُ أمرَهُ بارْتكابِ الظُّلمِ أو السُّكوتِ عنه، وفي هذا عَوْدٌ على قولِه السّابق: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾، فذلكَ يَشمَلُ مَنْ يُخالفُ الأمرَ بالاسْتجابةِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/314.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/318.

سرُّ العُدولِ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ:

الاسْـمُ الجليلُ (الـلـه) يَـزرعُ المـهـابـةَ في الـنُّـفـوسِ، ويُـنـفِّـرُها مِـنَ الظُّلمِ

في قولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، ذُكِرَ اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لِزَرْعِ المهابةِ في القلوب، والتَّحذيرِ الشَّديدِ من الوقوعِ في مغبَّةِ الظُّلم أوِ السُّكوتِ عنه وعن أهلِه، فإنَّ اللّه شديدُ العقابِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ مُعرَّفًا بالإضافةِ:

الـتَّـعـريـفُ بـالإضـافـةِ لـلـمـبـالـغـةِ في شدَّةِ عقابِ اللهِ

في قولِه تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ عُرِّفت ﴿شَدِيدُ﴾ بإضافتِها لـ ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾ للمُبالغةِ في بيانِ عقابِ اللّهِ، وشدَّتِه على الظّالمين، ومَنْ وافقَهم، أو سَكَتَ عنهم، أو رَكَنَ إليه(1).

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ دونَ (شديدِ العذابِ):

تـحـذيـرُ المتَّقين بـنـاسـبـةِ الـتَّـخـويـفُ من شدَّةِ العقابِ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ دون شديدِ العذابِ؛ لأنَّ الآيةَ بُدِئَت بالأمرِ بالتَّقوى، ومن لوازمِ التَّقوى العلمُ بشدَّةِ ما ينتظرُ الظّالمَ والمخالفَ لأوامرِ اللهِ العقابَ المعدَّ لهُ؛ لأنَّ العقابَ، يأتي بعد ارتكابِ جرمٍ شديدٍ يهدِّدُ كيانَ الأمَّةِ، كما في هذه الآية.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

فِتْنة وبَلاء:

الـفـتـنـةُ: أشـدُّ الـبـلاءِ، وفـيـهـا معنَى الاخْتبارِ والعذابِ

البلاءُ يكونُ ضررًا، ويكونُ نفعًا، وإذا أردْتَ النَّفعَ؛ قلتَ: أبْليتُه، وفي القرآن: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ [الأنفال: 17]، ومن الضُّرِّ بَلَوْتُه، وأصلُه أن تختبِرَه بالمكروهِ، وتستخرجَ ما عندَه من الصَّبرِ به، ويكونَ ذلكَ ابتداءً(2).

والفتنةُ فيها معنَى الاخْتبارِ؛ لأنَّها مَأخوذةٌ من إدْخالِ الذَّهبِ النّارَ لاخْتبارِ جَوْدتِه من رَداءتِه، وتُستعمَلُ بمعنَى البلاءِ فيما يُدفَعُ إليه الإنسانُ من الشِّدَّةِ والرَّخاء، وفي الشِّدَّةِ أظْهرُ وأكثرُ اسْتعمالًا، وتأتي الفتنةُ بمعنى العذابِ(3).

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/516.

(2) العسكري، الفروق، ص: 105، والرّاغب، المفردات، ص: 145.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 623 - 624، وابن منظور، اللّسان: (فتن).

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: 26]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلَها ثلاثةُ أوجهٍ:

الأول: أنَّه "لمّا أمرَهُم بطاعَةِ اللهِ وطاعةِ الرَّسولِ ﷺ ثم أمرَهُم باتِّقاءِ المعصية؛ أكَّد ذلك التَّكليفَ بهذهِ الآيةِ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ وذلك لأنَّه تعالى بيَّن أنَّهم كانوا قبلَ ظهورِ الرَّسولِ ﷺ في غايةِ القلَّةِ والذِّلَّة، وبعد ظهورِه صاروا في غايةِ العِزَّةِ والرِّفعةِ، وهذا يوجبُ عليهم الطّاعَةَ وتركَ المخالفةِ"[1].

التَّذكيرُ بحالِ الضَّعفِ والقلَّةِ باعثٌ على دوامِ الشُّكرِ والرِّفْعَةِ

الوجهُ الثّاني: أنَّهُ لمّا أعلمهم سبحانه بأنَّهُ إلهٌ قادرٌ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ليلزموا سبيلَ الاستقامةِ، وكان من أشدِّ العقابِ الإذلالُ؛ حذَّرَهُموه بالتَّذكيرِ بما كانوا فيه من الذُّلِّ؛ لأنَّهُ أبْعَثُ على الشُّكرِ، وأزجرُ عن الكفرِ، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾[2].

الوجهُ الثّالثُ: أنَّ في مجيءِ هذه الخطاباتِ - بعد وصفِهم بالذين آمنوا في الآياتِ السّابقةِ - إيماءً إلى أنَّ الإيمانَ هو الَّذي ساقَ لهم هذه الخيراتِ كلَّها، وأنَّه سيكونُ هذا أثرهُ فيهم، كلَّما احتفظوا عليه؛ كفوه من قَبْلِ سؤالِهم[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾: الضّادُ والعينُ والفاءُ أصلان متباينان، يدلُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 474/15.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 259/8.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.

أحدُهما على خلاف القوَّةِ، ويدلُّ الآخرُ على أن يُزادَ الشَّيءُ مثلهُ، و﴿مُسْتَضْعَفُونَ﴾ من الأصلِ الأوَّل، يقال: تضعَّفْتُهُ واستضعفْتُهُ للَّذي يضعِّفُهُ النّاسُ، ويتجبَّرونَ عليه في الدُّنيا للفقرِ ورثاثةِ الحال، وقيلَ: الضُّعفُ بالضَّمِّ في الجسد، والضَّعفِ بالفتحِ في الرَّأي والعقلِ، وقيل: هما معًا جائزانِ في كلِّ وجهٍ[1].

والمعنى في الآيةِ موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، فمعنى ﴿مُسْتَضْعَفُونَ﴾: معدودونَ من الضُّعفاء لقلَّتِهم وذلَّتِهم وخوفِهم، وهوانِهم على النّاس، فكانوا مضطهدينَ مقهورينَ في أرضِ مكَّةَ قبلَ الهجرة[2].

2) ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾: التَّخطُّفُ: شدَّةُ الخطفِ، والخطفُ والاختطافُ: هو استلابٌ في خفَّةٍ، وقيل: هو الاختلاسُ والأخْذُ في سرعةٍ، وخَطَّفَ بالتَّشديدِ أصلُهُ: اختطفَ، فأُدغمتِ التّاءُ في الطّاءِ، وأُلقيتْ حركتُها على الخاءِ، فسقَطَتِ الألفُ، وخطفَهُ، واختطفَهُ، كما قالوا: نزعَهُ، وانتزعَهُ، ويقالُ للشَّيطان: الخطّافُ؛ لأنَّهُ يخطفُ السَّمْعَ، أي: يسترِقُهُ[3].

ومعنى ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾: يأخذَكُم أعداؤكم، فيفتِكوا بكم بدونِ كُبرى مشقَّةٍ، ولا طولِ محاربةٍ؛ إذ كانوا أشدَّ قوَّةً منكم[4].

3) ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾: الهمزةُ والواوُ والياءُ أصلانِ: أحدُهما التَّجمُّعُ، والثاني: الإشفاقُ، يقال: أوى وآوى بمعنًى واحدٍ، أوى إلى كذا: انضمَّ إليهِ، وأوى إلى اللهِ: رجعَ إليه، ومن المدودِ ما جاءَ في الدُّعاءِ: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكَم مِمَّنْ لا كافيَ له ولاَ مُؤْوِيَ»، والمأوى: المنزلُ والمكانُ الَّذي يأوي إليه، وأوى لَهُ: رَقَّ لَهُ، وأشفقَ عَليه[5].

ومعنى ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾: جعلَ لكم مأوًى تأوونَ إليه، وتتحصَّنونَ فيه من أعدائِكم الكفّارِ، فآواكم في المدينةِ، وحفظَكم، ورعاكم[6].

4) ﴿وَأَيَّدَكُم﴾: التَّأييدُ مصدرُ أيَّدَ: الهمزةُ والياءُ والدّالُ: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ضعف).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 477/13، والآلوسي، روح المعاني: 182/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خطف).
(4) ابن عاشور، التحرير: 320/9، والمراغي، تفسير المراغي: 190/9.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أوى).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 479/13، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 101/3، والآلوسي، روح المعاني: 182/5.

القوَّةِ والحفظ، يقال: أيّده اللهُ، أي: قوّاهُ، والإيادُ: كلُّ معقلٍ أو جبلٍ حصينٍ أو كنفٍ وسترٍ، وهو كلُّ حاجزٍ للشَّيءِ يحفظُهُ، ويتقوَّى به[1].

ومعنى ﴿وَأَيَّدَكُم﴾: قوّاكُم، وقوَّى شوكتَكُم بمظاهرةِ الأنصارِ، أو بإمدادِ الملائكةِ والتَّثبيتِ الرَّبّاني يومَ بدرٍ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ تذكَّرَ ضعفَهُ عندَ قوَّتِه، وذِلَّتَهُ عند عزَّته؛ أوى إلى ركنٍ متينٍ وملاذٍ أمينٍ

يذكِّرُ اللهُ ﷻ المؤمنينَ بحالِهم، وهم قليلٌ في غايةِ الضَّعفِ وشدَّةِ الخوفِ والهوانِ على النّاس، فهُم مضطهَدونَ مقهورون مشتَّتون، يستضعفُهُم الكفّارُ، فيفتنونَهُم عن دينِهم، وينالونَهم بالمكروهِ في أنفسِهم وأعراضِهم، يخافونَ منهم أن يتخطَّفوهم دونَ كبرى مشقَّةٍ، فيقتلوهُم، ويذكِّرهم سبحانه بفضلِه ومنَّتِه عليهم؛ إذ آواهُم إلى حماهُ، وقوَّتِه ورعايتِه، وجعلَ لهم مأوًى يأوونَ إليه، وإخوة يتحصَّنونَ بهم، وقوّاهم بنصرِه لهم في بدرٍ، وأطعمَهم حلالًا طيِّبًا، فكانت لهم الحياةُ الآمنةُ القويَّةُ الغنيَّةُ.

فمن ذا الَّذي يتأمَّلُ هذه النَّقلةَ الكبيرةَ من الفزعِ إلى الأمنِ، ومن الضَّعفِ إلى القوَّةِ والنَّصرِ، ومن الفقرِ إلى الغنى والرِّزقِ الطَّيِّب والمتاعِ الكريم، ثمَّ لا يشكرُ اللهَ المنعمَ؟

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ ودلالتها:

عَطْفُ تذكُّرِ نعمِ اللهِ على الأمرِ بطاعتِه يبعثُ في النُّفوسِ الشُّكرَ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ والمعنى: استجيبوا للهِ فيما يدعوكم إليهِ، واعلموا بأنَّ اللهَ لا تخفى عليه نيّاتُكم، واحذروا من فتنةِ الخلافِ على الرَّسول

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، ص: 38، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أيد).

(2) القرطبي، أحكام القرآن: 394/7، والآلوسي، روح المعاني: 182/5.

ﷺ وتذكَّروا نعمةَ اللّهِ عليكم بالعزَّةِ والنَّصرِ بعد الضَّعفِ والقلَّةِ والخوفِ[1].

بلاغةُ التَّوسُّطِ بين الكمالَيْن:

الارتباطُ بين تذكُّرِ النِّعمِ ودوامِ طاعةِ اللهِ ارتباطٌ وثيقٌ لا ينفكُّ

بينَ قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٌ﴾ - وما قبلَهُ من جُملٍ عُطِفَتْ عليها - توسُّطٌ بين الكمالين لاشتراكِهما في الإنشائيَّة، ووجودِ تناسبٍ وارتباطٍ بينها؛ إذ إنَّ في أمرِهم - بتذكُّر نعمِ اللّهِ عليهم بالعزَّةِ والنَّصرِ بعد قلَّتِهم وضعفِهِم - تقويةً للأمرِ بطاعته ومراقبتِه وعدمِ مخالفةِ رسولِه ﷺ.

غرضُ الأمْرِ:

معرفةُ امتنانِ الرَّحمنِ أمانٌ من افتتانِ الشَّيطانِ

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ الامتنانُ وتذكيرُهم بالحالِ الَّتي كانوا عليها وبالحالِ الَّتي صاروا إليها، فبعدَ القلَّةِ كثَّرهم، وبعد الخوفِ أمَّنهم، وبعد الضَّعفِ قوّاهم.

سِرُّ اختيارِ مُفردةِ الذِّكرِ:

الذِّكرُ تذكُّرُ الجنانِ وذكُرُ اللِّسانِ

اختارَ البيانُ القرآنيُّ مفردةَ الذِّكر دونَ غيرِها في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٌ﴾؛ لأنَّها أوسعُ معنًى، فهي تشملُ التَّذكُّرَ للماضي والتَّأمُّل في المستقبل، وتشملُ التَّذكُّرَ الفكريَّ والذِّكرَ باللِّسان، بناءً على أنها من الذِّكر، فتكونُ للمستقبلِ المتضمِّن تذكُّرَ الماضي، أي: تذكَّروا لتذكُروا نعمةَ اللّهِ عليكم، أي: تشملُ على دعوةٍ للتذكُّرِ والتَّأمُّل في حالِهم من قبلُ ومن بعدُ.

ويرى ابنُ عاشورٍ أنَّها من الذُّكرِ، قال رحمَهُ اللّهُ: "فعل (واذكروا) مشتقٌّ من الذُّكرِ - بضمِّ الذّالِ - وهو التَّذكُّرُ لا ذكرُ اللِّسان، أي: تذكَّروا"[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/318.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/318.

المرادُ بـ (إذ) ما يذكرُهُ المُخاطَبُ من أمرِ الماضي في المستقبلِ

معنى ﴿إِذۡ﴾ بينَ الظَّرفيَّةِ والمفعوليَّةِ:

اختلفَ العلماءُ في إعرابِ ﴿إِذۡ﴾ على رأيين[1]:

فهي إمّا أن تكونَ اسمَ زمانٍ مجرَّدٍ عن الظَّرفيَّةِ مفعولًا به، وتقديرُهُ: (واذكروا زمنَ كنتُم قليلًا)[2]، وإمّا أن تكونَ ظرفًا لمفعولٍ بهِ محذوفٍ تقديرُهُ: (واذكروا حالَكم إذ أنتُم قليلٌ)، أو: (واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ أنتُم قليلٌ)[3].

ولا يجوز أن تكونَ ظرفًا لـ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾؛ لأنَّها للمستقبلِ، فلا يكونُ ظرفُهُ إلّا مستقبلًا، وإذ: ظرفٌ ماضٍ يستحيلُ أن يقعَ فيه المستقبلُ[4]؛ لأنَّه يقتضي طلبَ المحالِ، وهو طلبُ الذِّكر في ذلك الزَّمنِ الذي قد مضى قبلَ وجودِ المخاطبينَ، والمرادُ ذكرُ الوقتِ نفسِه لا الذِّكرُ فيهِ[5].

الإضافةُ تعريفٌ بحالِهم في الزَّمنِ الماضي

معنى إضافةِ ﴿إِذۡ﴾:

أفادَت إضافةُ ﴿إِذۡ﴾ للجملةِ ﴿أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ تعريفَ المضافِ[6]، أي: التعريفُ بالوقتِ الَّذي كان المسلمونَ فيه قليلًا مستضعفينَ يتخطَّفهم النّاسُ، وبهذه الحالِ الَّتي كانوا عليها، فكأنَّه خاطَبهم: اذكروا في مستقبلِ زمانِكم ماضيَكم؛ كي تبقوا على ذُكْرٍ وتذكُّرٍ لنعمةِ اللهِ عليكم.

استشعارُ استمرارِ القلَّةِ والضَّعفِ مُعينٌ على الاستجابة

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة:

عبَّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾، ولم يقل: (واذكروا قلَّتكم واستضعافَكم في الأرضِ)؛ للإيذانِ باستمرارِ ما كانوا فيه من القلَّةِ وما يتبعُها من الضَّعفِ والخوفِ والاستضعافِ[7]؛ إذ إنَّهم في وقت

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 188.
(2) الكشاف، الزمخشري: 2/213، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/319.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/516.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/307.
(5) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 78.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/319.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/17، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/319.

نزولِ الآياتِ ما زالوا في قلَّةٍ، ولذلك قدَّرَ ابنُ عطيَّةَ المفعول المحذوف بـ "حالكم الكائنة أو الثّابتة؛ إذ أنتم قليلٌ"(1)، ففيه مزيدُ امتنانٍ ورائحةُ اختصاصٍ، أي: أنتم دونَ غيرِكم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإفرادِ دونَ الجمعِ:

الإخبارُ بالمفردِ عـن الجماعةِ تأكيدٌ للضَّعفِ

جاءَ الخبرُ مفردًا ﴿قَلِيلٌ﴾، وهو خبرٌ عن ضميرِ الجماعةِ ﴿أَنتُمۡ﴾، ولم يأتِ بصيغةِ جمعٍ مثل (أقلة) أو (قليلون)؛ لأنَّ قليلًا وكثيرًا قد يجيئانِ غيرَ مطابقينِ لما جريا عليهِ، وفي هذهِ الحالةِ يُعامل موصوفُهما معاملةَ لفظِ شيءٍ أو عدد، قال تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: 1]، وفي هذا التَّقديرِ (شيء) إشارةٌ إلى مزيدِ ضعفٍ فيهم؛ إذ هم شيءٌ قليلٌ.

سِرُّ اختيارِ لفظِ ﴿قَلِيلٌ﴾:

لـفـظُ (قـلـيـلٌ) أوسعُ في الدَّلالةِ على المعنى المرادِ وأنسبُ في بلاغةِ النَّظمِ

أخبرَ القرآنُ عن المخاطبينَ بقولِه: ﴿قَلِيلٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٌ﴾، دونَ ﴿أَذِلَّةٞۖ﴾ كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ [آل عمران: 123] رغمَ أنَّ المفسِّرين فسَّروا (أذلة) بقليلِ العددِ والعدَّة؛ ذلك لأنَّ لفظَ (أذلَّة) لا يؤدّي الغرضَ في الدِّلالة، كما يؤدّيه لفظُ (قليل)؛ لأنَّه لا يُشترط في الأذلَّة قلَّةُ العدد، بخلاف لفظ (قليل) فإنَّه يشتملُ على قلَّة العددِ، ويوحي بالذلَّةِ التي صرَّحت بها بقيَّةُ ألفاظِ الآية.

كما أنَّ لفظَ (قليل) يناسبُ ما جاء بعدَهُ من الألفاظِ: ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾، بما يكمِّل صورة المشهدِ؛ إذ غالبًا ما تكونُ قلَّةُ العددِ سببَ الضَّعفِ ومقدِّمةً له، وسببَ استضعافِ غيرِهم لهم، ويناسبُ الخوفَ من التَّخطُّف الَّذي يسهل في العددِ القليلِ بدونِ أيّةِ مشقَّةٍ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 516/2.

مطلق الاستضعاف دالٌّ على غاية الضَّعفِ

دلالةُ السّينِ والتّاءِ:

دلَّ وجودُ السّين والتّاء في المفردةِ القرآنيَّةِ ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ على طلبِ ضعفِهم، فالاستضعافُ: طلبُ ضعفِ الشَّيء بتهوينِ حالهِ، أي: إنَّ كفّارَ قريشٍ أو العرب أو فارس والرّوم يريدونَ، ويطلبون ضعفهم، ولذلك عبَّر باسمِ المفعول للدَّلالة على غايةِ ضعفهم، يقول البقاعيُّ: "لمّا كان وجودُ مطلق الاستضعافِ دالًّا على غاية الضَّعف بُني للمفعولِ قولُهُ: ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ أي: لا منفذَ عندَكم"[1]، فالطَّلبُ من غيرِهم لا منهم.

احتمالُ (أل) للعهدِ ولشبيهِ الجنسِ، وكلاهما دليلٌ على شدَّةِ ضعفِهم

معنى (أل) في كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في كلمةِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تحتملُ وجهين:

أحدهما: أن تكونَ عهديَّةً، والمرادُ مكَّةُ، والتَّعبيرُ عنها بالأرضِ على هذا الوجهِ باعتبار عظمِها، كأنَّها هي الأرضُ كلُّها، ولأنَّ حالَهم كان في بقيَّةِ البلادِ كحالِهم فيها أو قريبًا من ذلك[2]، "والمعنى تذكيرُ المؤمنين بأيّام إقامتهم بمكَّة قليلًا مستضعفين بين المشركين، فإنَّهم كانوا حينئذٍ طائفةً قليلةَ العددِ قد جفاهم قومُهم، وعادوهم، فصاروا لا قومَ لهم، وكانوا على دينٍ لا يعرفُهُ أحدٌ من أهلِ العالمِ، فلا يطمعونَ في نصرٍ موافقٍ لهم في دينِهم، وإذا كانوا كذلك، وهم في مكَّةَ فهم كذلك في غيرها من الأرضِ"[3].

والآخرُ: شبيهٌ بتعريفِ الجنسِ، والمرادُ بالأرضِ الدُّنيا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 56][4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 259/8.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 259/8.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.

براعةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ:

التَّعبيرُ بالظرفيَّةِ إيـذانٌ بتغلغلِ استضعافِهم في الأرضِ

عبَّر القرآنُ بالظَّرفيَّةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للإشارةِ إلى لطيفتين:

الأولى: تغلغلُ استضعافِهم في الأرضِ الَّتي هي مكَّةُ إن كانت اللّامُ عهديَّةً، ويقاسُ عليها غيرُها، فحالُهم في بقيَّةِ البلادِ كحالِهم في مكَّةَ أو قريبًا من ذلك(1)، فقد كانوا مستضعفينَ من قبلِ كفّارِ قريشٍ وكفّارِ العربِ والفرسِ والرّومِ، أو في الدُّنيا إن كانتِ اللّامُ شبيهًا بتعريفِ الجنس.

ولا تعارضَ مع قولِه تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إذِ اللَّطيفةُ ذاتُها، ولكنَّ المعنى يختلفُ وفق العاملِ، فيكونُ المعنى في هذه الآيةِ إفادةَ تغلغلِ استخلافِ اللّهِ وتمكُّنِه لهم في الأرضِ.

الثّانيةُ: إشارةٌ إلى ركونِهم إلى الأرضِ، كأنَّهم غائرونَ فيها في ظلامٍ منخفضٍ، لا قدرةَ لهم على النهوضِ منها، منغمسونَ في ضعفِهم وخوفِهم، لا يدرونَ أين يتوجَّهون؟ كالصَّيد الذي يخاف من الجوارحِ تحوم فوقَه(2).

بلاغةُ ترتيبِ المذكوراتِ:

قلَّةُ أهلِ الحقِّ سـبـبٌ لـطـمعِ أهلِ الباطلِ بهم واستضعافِهم

قدَّمَ القرآنُ الخبرَ الأوّلَ ﴿قَلِيلٞ﴾ على الخبرين ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿تَخَافُونَ﴾ من باب تقديم السَّببِ على المسبَّبِ، فالقلَّةُ في العدد تؤدّي إلى الاستضعافِ، والقلَّةُ والاستضعافُ يؤدّيان إلى الخوف، وفي هذا إشارةٌ إلى خطورةِ التَّفرُّق وأهمّيَّةِ الجماعة، وأنَّ التَّفرُّقَ سببٌ لطمع الآخرين واعتدائهم.

نُكْتَةُ إسنادِ الخوفِ إلى واوِ الجماعةِ:

الخوفُ متحقِّقٌ عـنـد الاجـتـمـاعِ فـكـيـف مـعَ الانفرادِ

أفادَ إسنادُ الخوفِ إلى واوِ الجماعةِ في الفعلِ المضارعِ ﴿تَخَافُونَ﴾ لطيفتينِ اثنتينِ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 259/8.
(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 166/2.

الأولى: أنَّ الخوفَ واقعٌ منكم حالَ اجتماعِكم، فكيفَ عندَ الانفرادِ[1]، وهذا فيه إشارةٌ إلى شدَّةِ ضعفِهم وكثرةِ استضعافِهم.

الثّانيةُ: أنَّ فيه إشارةً إلى أهمّيَّة التَّوحُّد والجماعة، وأنَّه سبيلُ تأييدِ اللّهِ ونصرِه، فلمّا كانوا في تلك الحالةِ الَّتي هي في غايةِ الضَّعفِ، وكانت كلمتُهم مجتمعةً على أمرِ اللّهِ الَّذي هو توحيدُهُ وطاعة رسولِه، أعقبَهم الإيواء في دارٍ منيعةٍ، وأيَّدهم بالنَّصرِ وأحسنَ رزقَهُم[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِع:

استحضارُ حالِ الخوفِ مشعرٌ بكمالِ نعمةِ الأمنِ

الغالبُ أن يأتيَ الماضي مع (إذ)، ولكنَّ النَّظمَ هنا أتى بالمضارع: ﴿تَخَافُونَ﴾ لفائدتين:

الأولى: استحضارُ الحالِ الَّتي كان عليها المسلمونَ، وهي حالُ الخوفِ الشَّديد، إضافةً إلى أنَّ استحضارَ الحالِ إنَّما يكونُ في الأمورِ المهمَّة والعظيمَة، ممّا يشيرُ إلى صعوبةِ الحالِ الَّتي كانوا عليها، وهذا كلُّه بهدف تصويرِ حالهِم التي كانوا عليها بما يحقِّقُ الأثرَ في نفوسِهم، وهو شعورُهم بنعمةِ الأمنِ التي تفضَّل بها المولى سبحانه عليهِم.

الأخرى: الإشارةُ إلى استمراريَّةِ الخوفِ فترةً من الزَّمنِ ليست بالقصيرةِ، وإلى عدمِ انقطاعِه بشكلٍ كاملٍ، فما زالَ تهديدُ أعداءِ الإسلام من الفرسِ والرّومِ والمنافقين وغيرِهم قائمًا، قبلَ نزول الآياتِ وإلى قيامِ السّاعةِ.

براعَةُ الاستعارَةِ:

تشبيهُ الكافرينَ بالكواسرِ دليلٌ على شراسةِ أعداءِ الإسلامِ

التَّخطُّفُ شدَّةُ الخطفِ، والخطفُ: الأخذُ بسرعةٍ، وهو هنا مستعارٌ للغلبةِ السَّريعةِ؛ لأنَّ الغلبةَ شبهُ الأخذِ، فإذا كانت سريعةً

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/259.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/206.

أشبهتِ الخطفَ، أي: يأخذكم أعداؤُكم بدونِ كبرى مشقَّةٍ، ولا طول محاربةٍ؛ إذ كنتُم لقمةً سائغةً لهم، وكانوا أشدَّ منكم قوَّةً، لولا أنَّ اللّه صرفَهم عنكم، وقد كان المؤمنونَ خائفين في مكَّةَ، وكانوا خائفين في طريقِ هجرتيهم، وكانوا خائفين يومَ بدرٍ، حتَّى أذاقَهم اللّهُ نعمةَ الأمنِ من بعدِ النَّصرِ يومَ بدرٍ[1].

نكتةُ استعمال أنْ المصدريَّةِ بدلَ المصدرِ الصَّريح:

إطنابُ الألفاظِ يُسهِم في تصوير المعاني

آثرَ البيانُ الإلهيُّ مجيءَ مفعولِ ﴿تَخَافُونَ﴾ مصدرًا مؤوَّلًا من أنِ المصدريَّةِ ومدخولِها ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ بدلَ المصدرِ الصَّريح (خَطْفَ)، لما في ذلك من الإطنابِ والتَّوكيدِ اللَّذينِ يسهمانِ في رسم صورةٍ للتربُّصِ الوجل، والتَّرقُّبِ الفزِع، والأيدي تمتدُّ لتخطفَ القلَّةَ المسلمةَ على سبيلِ التَّدريجِ، كما تتخطَّفُ الجوارحُ الصّيودَ.

دلالةُ استعمالِ العمومِ:

تمالؤُ المشركينَ على المسلمينَ توصيفٌ لشدَّة ضعفِهم

استعملَ البيانُ القرآنيُّ مفردةَ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وهو لفظٌ عامٌّ أُريدَ بِهِ الخصوصُ، رغم أنَّ الحديثَ عن قوم معهودين، وهم المشركونَ من أهلِ مكَّةَ وغيرهم، أي: طائفةٌ معروفةٌ من جنس النّاس من العرب الموالين لهم[2]؛ لأنَّ حالهم كان في بقيَّةِ البلاد كحالِهم فيها أو قريبًا من ذلك[3].

معنى الفاءِ ودلالتها:

تفريعُ الإيواءِ على استضعافِ النّاسِ للمؤمنينَ

(الفاء) حرفُ عطفٍ وتفريعٍ؛ لكون ما قبلها ﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ أي: قلَّةُ المسلمين وضعفُهم وخوفهم وهوانُهم هو علَّةٌ لما بعدَها، وهو قولهُ تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾، وهذه الجملةُ الفعليَّةُ في محلِّ الجرِّ معطوفةٌ مفرَّعةٌ على الجملة الاسميَّةِ في قوله: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ على كونِها مضافًا إليه لـ ﴿إِذۡ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/320.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/319.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/259.

دلالةُ استعمالِ لفظِ الإيواءِ:

أعظمُ المِنَنِ التي تظهرُ في ثنايا المِحنِ

يدلُّ استعمالُ النَّظم لِلَفظِ الإيواءِ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ بعد ذكرِ خوفِ التَّخطُّفِ ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ على عظيمِ رحمتِه وفضلِه ومنَّتِه وتشريفِه لهم سبحانَهُ؛ لأنَّها أتت في وقتٍ هو أشدُّ ما يكون فيه خوفٌ وضعفٌ وهوانٌ على النّاس وحاجةٌ إلى العطفِ والحمايةِ والسَّندِ؛ إذ إنَّ أعداءهم يأخذونَهم، ويفتكون بهم بدونِ كبرى مشقَّةٍ ولا طولِ محاربةٍ؛ إذ كانوا أشدَّ قوَّةً منهم.

بلاغةُ التَّوسُّطِ بين الكَمالَيْن:

تكاملٌ بين الإيواءِ والتَّأييدِ يبرزُ عظمةَ المنعِمِ ورحمتَهُ

بين قولِه تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ وقولِه تعالى: ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ توسُّطٌ بين الكمالين لاشتراكِهما في الإنشائيَّةِ، ووجودِ التَّناسُبِ والارتباطِ بينهما؛ إذ إنَّ كلًّا من الإيواءِ والتَّأييدِ نعمةٌ من اللّهِ يكمل بعضها بعضًا؛ فالإيواءُ: ضمُّ ضعيفٍ مع رأفةٍ وشفقةٍ عليه، والتَّأييدُ: هو تقويتُه وحفظُه.

علَّةُ حَذْفِ المتُعلَّقات وذكرِها:

بيانُ عمومِ أثرِ الإيواءِ في المؤمنينَ

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مُتعلَّقَ فِعْلِ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾؛ فلم يقل: (آواكم إلى المدينة) بخلافِ ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ و﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للإشارةِ إلى وفرةِ الدَّلالةِ في ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾؛ فالإيواءُ مِنَ اللّهِ ﷻ يعني: المددَ والقوَّةَ والعنايةَ والرِّعايةَ، وغير ذلك، فلو أنَّهُ ذكرَ متعلّقَ الفعلِ لحصرهِ بما ذكرَ، فأفادَ الحذفُ عمومَ أثرِ الإيواءِ فيهِم.

معنى الباءِ ودلالتها:

تأييدُ اللهِ للمؤمنينَ مصاحبٌ للنَّصرِ

حرفُ الجرِّ (الباء) في قولِه تعالى: ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ يحتملُ معْنَيين:

الأوَّلُ: الإلصاقُ، أي: إنَّ تأييدَ اللّهِ لهم أتى ملتصقًا بنصرهِ لا ينفكُّ عنهُ.

الآخرُ: المصاحبةُ، بمعنى (مع) وهو الأقربُ، والمعنى: أيَّدكم مصحوبين بنصرهِ.

دلالةُ الإضافةِ:

نصرُ اللهِ يعمُّ أشكالًا عديدةً تدلُّ على مِنَنٍ مديدةٍ

قولهُ تعالى: ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ اسمٌ معرَّفٌ بالإضافة، وهو من صيغ العموم؛ لذا فإنَّ المعنى البلاغيَّ الَّذي تفيدُهُ هذه الإضافةُ هو عمومُ نصرِ اللّهِ تعالى، ليشملَ أنواعًا كثيرةً، فقد أيَّدهم بقوَّته، كما قالَ ابن عبّاس[1]، وأيَّدهم بمظاهرةِ الأنصارِ، وأيَّدهم بإنزالِ الملائكةِ يومَ بدرٍ[2]، وأيَّدهم بنصرهِ على الكفّارِ[3]، أو بغير ذلك، فيدخلُ فيه كلُّ نصرٍ مِنَ اللّهِ تعالى للمؤمنين، كما أنَّ هذهِ الإضافةَ ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ تفيدُ التَّشريفَ، تشريفَ هذا النَّصرِ وتشريفَ المنصورين، وأنَّهُ واردٌ من القادرِ سبحانَهُ، فهو قوَّةٌ وعزَّةٌ ورحمةٌ ربّانيَّةٌ، وتدلُّ على إسنادِ التَّأييدِ بالنَّصرِ إلى اللّهِ.

بلاغةُ ترتيبِ الأفعالِ:

الأمنُ جالبٌ للنَّصرِ، والنَّصرُ طريقُ الظَّفرِ

في هذه النِّعمِ رابطٌ يصلُ بعضُها ببعضٍ، ويسمحُ للواوِ أن تجمعَ بينها، فهؤلاءِ قومٌ كانوا قليلين مستضعفينَ، يخشونَ أن يُفتكَ بهم، ويسلبهم الحرّيَّةَ، فلا جرمَ كانت نعمةُ الأمنِ لها المكانُ الأوَّلُ بين نعمِ اللّهِ عليهم، ولم يقفِ الأمرُ عند حدِّ الأمنِ، بل زادَ عليهِ أن أيَّدهُم بنصرِه، ولم تنتهِ نعمُهُ عند حدِّ الطُّمأنينةِ والغلبِ، بل رزقَهم رغدَ العيشِ، وطيِّباتِ الحياة[4].

بلاغةُ الوصلِ:

وُصِلَ بين الجملِ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ و﴿وَأَيَّدَكُم﴾ و﴿وَرَزَقَكُم﴾، أي: عُطفتِ الجملتانِ الخبريَّتانِ ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ و﴿وَرَزَقَكُم﴾ على قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ الَّتي في محلِّ جرٍّ؛ لأنَّها جملٌ متغايرةٌ، وتشتركُ في المعنى، وهو التَّذكيرُ بنعمةِ اللّهِ على المؤمنينَ: الأمنُ بعد الخوفِ،

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 105/10.
(2) البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 347/3.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 17/4.
(4) أحمد البدوي، من بلاغة القرآن: 136.

الكثرةُ بعد القلَّةِ، والقوَّةُ بعدَ الضَّعفِ، ومن محسِّناتِ هذا الوصلِ هنا تناسبُ الجملتينِ في المُضيِّ[1].

بلاغةُ الإدماجِ:

الإشعارُ بسَعَةِ الرِّزْقِ تطييبٌ لخواطرِ المحاويجِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ إدماجٌ بذكرِ نعمةِ توفيرِ الرِّزقِ في خلالِ المنَّةِ بنعمةِ النَّصرِ وتوفيرِ العددِ بعد الضَّعفِ والقلَّةِ، فإنَّ الأمنَ ووفرةَ العددِ يجلبانِ سعةَ الرِّزقِ[2]، أي: قَرَنَ بين الغرضِ المسوقِ لهُ الكلامُ، وهو تحقيقُ الأمنِ ووفرةِ العددِ، والغرضِ الآخرِ، وهو سعةُ الرِّزقِ، بدونِ تكلُّفٍ.

دلالةُ حرفِ ﴿مِّنَ﴾:

الإيماءُ إلى طيِّباتٍ لم تأتِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للتَّبعيض، وهي تفيدُ التَّحفيزَ على الشُّكرِ؛ لأنَّ ما أكرمَهم به من إحلالِ الغنائمِ أو الحلالِ من الرِّزقِ هو جزءٌ من الطَّيِّبات الَّتي أعدَّها لهم، ففيه إيماءٌ لأرزاقٍ لم تأتِ، وأعظمُها رزقُ الجنَّة.

فائدةُ التَّعبيرِ بالطَّيِّباتِ:

الطَّيِّباتُ هي غنائمُ لم تَطِبْ إلّا لهذهِ الأمَّةِ أو حلالٌ توافقُهُ الفطرةُ

عبَّرَ القرآنُ بالطَّيِّباتِ دونَ مرادفاتِها للإشارةِ عند من فسَّرها بالغنائمِ الكاملةِ الطَّيِّبةِ بالإحلالِ وعدمِ المنازعِ[3]إلى أنَّها لم تحِل، ولم تطِب إلّا لهذه الأمَّةِ، وأنَّها من خصائِصها، وعند من فسَّرها بالحلالِ من الرِّزقِ[4] إلى طيبِ هذا الرِّزقِ، وأنَّهُ ليس بخبيثٍ؛ فقد جعلَهُ ملائمًا للطِّباعِ، شهيًّا للأرواحِ، نافعًا للإشباعِ، "وتقولُ العربُ: طابَ لي هذا، أي: فارقَتْهُ المكارهُ"[5].

(1) من محسّنات الوصل: أن تتناسبَ الجملتانِ في الاسميَّةِ والفعليَّةِ، وفي المُضي والمضارعة، وفي الأمر والنَّهي، وفي الإطلاقِ والتَّقييدِ. يُنظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 160.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 320/9.

(3) الزمخشري، الكشاف: 213/2، والبقاعي، نظم الدرر: 206/3.

(4) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 173/2.

(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 429/2.

بلاغةُ المقابلةِ:

تقابلٌ بين الأحوالِ المتضادَّةِ تستوجبُ الأعمالَ الجادَّةَ

المقابلةُ من المحسِّناتِ البديعيَّة، وفي الآيةِ مقابلةٌ بين القلَّةِ والإيواءِ؛ لأنَّ القلَّةَ يحتاجونَ إلى إيواءٍ، والضَّعفِ والتَّأييد؛ فالضَّعيفُ يحتاجُ إلى تأييدِ القويِّ، والخَوْفِ والرِّزق؛ فمن أعظم أسباب الخوفِ: ذهابُ الرِّزق، فالآيةُ الكريمةُ اشتملَتْ في صدرِها على ثلاثةِ معانٍ يقابلُها في آخرِها ثلاثة معانٍ على التَّرتيب، ففي صدرِها القلَّةُ والضَّعفُ والخوفُ قابلها الإيواءُ والتَّأييدُ والرِّزقُ.

علَّةُ الفصلِ:

الشُّكرُ علَّةٌ لإتمامِ النِّعم

فصلَ القرآنُ قولَهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ عمّا قبلَها، أي: لم يأتِ بحرفِ العطفِ الواوِ؛ لأنَّهُ لا يُرادُ عطفُ الجملةِ على ما قبلَها، وإنَّما الغرضُ هنا من مجيءِ لعلَّ دونَ أن تُسبقَ بواوٍ إفادةُ معنى التَّعليلِ، فقولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ بيانٌ لحكمةِ الأمرِ بتذكُّرِ النِّعم، وأنَّهُ في قوَّةِ المفعولِ لأجلهِ لـ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾؛ ولذا فسَّرها الزمخشريُّ وأبو حيّانَ بإرادةِ أن تشكروا نعمَ اللّهِ[1]، وفسَّرها البقاعيُّ بقولِه: "ليكونَ حالُكم حالَ من يُرجى شكرُهُ"[2].

غرضُ استعمالِ حرفِ التّرجي:

إيقاعُ رجاءِ الشُّكرِ في المخاطَبينَ

سبقتْ ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ بـ (لعلَّ) لتحقُّقِ الغرضِ البلاغيِّ منها في إحكامِ معنى الفاصلةِ، وهو إبرازُ المتَمَنَّى في صورةِ المُمَكَّنِ المطْموعِ فيه، بغيةَ الإشعارِ بكمالِ العنايةِ بهِ، والتَّلهُّفِ على الحصولِ عليه، أو تحقيقه[3].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ:

نِعَمُ اللهِ تعالى تستلزمُ شكرَهُ

أفادتِ الفاصلةُ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ إحكامَ اللَّفظِ وإحكامَ المعنى، أمّا إحكامُ اللَّفظِ؛ ففي التَّطريبِ وراحةِ النَّفسِ بإعطائِها

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/213، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/307.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/206.
(3) عبد الرحمن، البلاغة اللغوية، ص: 252.

نغمًا خاصًّا؛ إذ خُتِمت بالواوِ والنّونِ، والواو من حروفِ المدِّ الَّتي هي من الحروفِ الطَّبيعيَّةِ في الجرس، وتسمَّى بالهوائيَّة والجوفيَّة، وبذلكَ تكونُ مناسبةً للمقام، وهو مقام تذكُّرِ النِّعم ووجوبِ شكرِها، وهذ يقتضي جوًّا هادِئًا تتحقَّقُ فيهِ الرّاحةُ النَّفسيَّةُ.

وأمّا إحكامُ المعنى وإكماله؛ فقد جاءت الفاصلةُ مكينةً مستقرَّةً في مكانِها، مطمئنَّةً غيرَ نافرةٍ ولا قلقة، بل تشكِّلُ جزءًا من المعنى؛ فقد مهَّدتِ الآيةُ بمعنًى يناسبُ الفاصلةَ، فإنَّهُ لمّا ذكرَ نعمةَ الإيواءِ والتَّأييدِ والرِّزقِ الطَّيِّب؛ أثارَ في الذِّهن ما تستلزِمُهُ هذهِ النِّعمُ، وهو الشُّكر، فكان ذلك توطئةً لورودِ الفاصلةِ الَّتي دخلتْ عليها (لعلَّ)، يقولُ الرّازي: "لعلَّكم تشكرونَ، أي: نقلناكم من الشِّدَّة إلى الرخاء، ومن البلاءِ إلى النَّعماءِ والآلاءِ، حتى تشتغلوا بالشُّكرِ والطّاعةِ، فكيفَ يليقُ بكم أن تشتغلوا بالمنازعةِ والمخاصمةِ بسببِ الأنفالِ؟"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

النِّعمةُ صَيْدٌ شُكرُها قيْدٌ

استعمل القرآنُ صيغةَ المضارعِ المسبوقِ بـ(لعلّ) في قولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ للتَّنبيهِ على ضرورة استمرارِ الشُّكرِ حتَّى تدومَ النِّعمُ، وألّا يحيدوا عن أسبابِ بقاءِ عزِّهم، قال ابنُ عاشور: "وقد نبَّههم اللّهُ تعالى بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، فلمّا أعطوا حقَّ الشُّكرِ؛ دامَ أمرُهم في تصاعدٍ، وحينَ نسوهُ أخذَ أمرهم في تراجعٍ، وللّهِ عاقبةُ الأمورِ"[2].

غرضُ حذفِ المفعولِ بِهِ:

العمومُ يدلُّ على كُنْهِ الشُّكرِ المطلوبِ

ذِكرُ المفعولِ بهِ يؤدّي إلى تخصيصِ الشُّكر بأمرٍ واحدٍ؛ من الإيواء أو التَّأييد بالنَّصرِ أو تحليل الغنائم، وهذا مُخلٌّ بالإفصاحِ عن كُنْهِ المطلوبِ منهم، وهو الشُّكرُ على جميعِ نعمِهِ الَّتي لا تعدُّ ولاتحصى.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 474/15.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 321/9.

وخاصة أنَّ ألفاظَ الآيةِ الكريمةِ الَّتي سبقت ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ تمتازُ بوفرةِ الدَّلالةِ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ و﴿وَأَيَّدَكُم﴾، و﴿وَرَزَقَكُم﴾، فالإيواءُ والتَّأييدُ من اللّهِ ﷻ تعني: المددَ والقوَّةَ والعنايةَ والرِّعايةَ، وبالتّالي جاء ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ محذوفَ المفعولِ نتيجةً لهذهِ النِّعمِ المتعدِّدةِ التي تستحقُّ الشُّكرَ والاعترافَ بفضلِ اللّهِ عليهم.

نكتةُ إيثارِ الصِّيغِ الفعليَّةِ:

تغيُّرُ الأحوالِ تناسبُهُ صيغُ الأفعالِ الَّتي تدلُّ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ

في عرضِ أحوالِ المسلمين في حالتينِ مختلفتينِ: حالةِ الذِّلَّةِ (الاستضعاف والخوف وتخطُّف النّاس لهم) وحالةِ العزَّةِ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ و﴿وَأَيَّدَكُم﴾، و﴿وَرَزَقَكُم﴾ و﴿تَشۡكُرُونَ﴾، وفي ذلك دلالةٌ على التَّحوُّلِ والتَّغييرِ الَّذي تناسبهُ صيغُ الأفعالِ أكثرَ ممّا تناسبُهُ الأسماءُ الَّتي تفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ، وهذا من بلاغةِ التَّناسبِ بين صيغِ الألفاظِ ومعانيها ودلالاتِها.

❁ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

الذُّكر والذِّكر:

الـذُّكـرُ: استحضارٌ وعدمُ نسيانٍ، وذِكرٌ باللِّسان، والـذِّكـر: صيتٌ وثناءٌ

الذُّكرُ بالضَّمِّ: ضدُّ النِّسيانِ، يقالُ: اجعلْهُ منكَ على ذُكرٍ بضَمِّ الذّالِ، أي: لا تنسَهُ، والذِّكْرُ: يكونُ باللِّسانِ وبالقلبِ، وذِكْرُ الحقِّ بالكسرِ: هو الصَّكُّ (لحفظ الحقِّ فيهِ ثابتًا قويًّا لا يُجحدُ، ولا ينسى)، والمبنيُّ للمفعولِ ومضارعه وفعل الأمرِ من (ذكر) أكثرُهُ لِذكرِ اللِّسانِ، وبَعْضُهُ لِلذِّكرِ ضدَّ النِّسيانِ، أو يصلحُ لهما معًا.

والذِّكرُ بالكسرِ: الصّيتُ والثَّناءُ، والعلاءُ والشَّرفُ، يقالُ: رجلٌ ذَكِرٌ وذكيرٌ، أي: جيِّدُ الذِّكرِ شَهمٌ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4][1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 302، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذكر).

مادَّةُ الكلمتين واحدةٌ، وهي الذّالُ والكافُ والرّاءُ، وقد يجتمعُ المعنيانِ معًا، كما في وصف كتابِ اللّهِ تعالى بالذِّكر؛ لكونهِ محفوظًا شريفَ القدرِ، ولما فيهِ من تذكيرٍ بما تضمَّنَ من قصصٍ ومواعظَ، والفرقُ بين اللَّفظينِ يحدِّدُهُ السّياقُ(1).

الإيواءُ والالتجاءُ:

الإيـــواءُ: ضمُّ المـــأوي مع الـشَّـفـقـةِ، والالـتـجـاءُ: استنادُ اللّاجئِ إلى حصنٍ قويٍّ

الإيواءُ: المعنى المحوريُّ للإيواءِ: ضَمٌّ مع ضعفٍ ما، كالحاجةِ إلى حمايةٍ أو راحةٍ أو إحساس الآوي بحاجةِ المأويِّ إلى العطفِ ونحوهِ، فالإيواءُ ضمٌّ مع إشفاقٍ على المأويِّ، وأكثر ما في القرآنِ من هذا التركيبِ يرجعُ إلى هذا المعنى، وأمّا ما جاءَ مع أصحابِ النّارِ من معنى المأوى، كقولهِ تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ [آل عمران: 151] ففيهِ معنى الضَّمِّ ومعنى التَّهكُّمِ أيضًا(2).

والالتجاءُ: يقالُ: لجأْتُ والتجأْتُ، والملجأُ: الحيِّزُ القويُّ الحصين، يحفظُ ويمسكُ ما يلوذُ به، ويدخلهُ، كالمعقل لهُ، ولجأ إلى اللّهِ: استندَ إليهِ، ودخلَ في حماهُ، والتجأْتُ إلى اللّهِ: استنَدْتُ إليهِ، واعتضَدْتُ بهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [الشورى: 47] أي: عَلِموا أنَّ اللّه وحدَهُ هو الرُّكنُ الشَّديدُ الحصينُ(3).

كلا اللَّفظين فيهما معنى الحاجةِ إلى الحمايةِ والسَّندِ والحصنِ القويِّ، ولكن يمكنُ ملاحظةُ بعضِ الملامحِ المميِّزة لكلِّ لفظ:

فالإيواءُ: إحساسُ الآوي بحاجةِ المأويِّ إلى الحمايةِ والعطفِ، فيكونُ إيواؤُهُ له ضَمًّا مع إشفاقٍ عليهِ وحفظهِ ورعايته.

وأمّا الالتجاءُ: فهو إحساسُ اللّاجئِ بالحاجةِ إلى السَّندِ والحمايةِ والحصنِ المنيع.

---

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 389.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى)، والراغب، المفردات، ص: 43، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أوى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لجأ).

وكأنَّ الالتجاءَ هو الخطوةُ الأولى، وتكونُ من اللاّجِئ باتِّجاهِ الآوي، ويكونُ الإيواءُ استجابةً لطلبِ اللاّجِئ وضمِّه والإشفاقِ عليهِ وحمايتِه، وقد يكونُ هناكَ التجاءٌ، ولا يكونُ إيواءٌ؛ إذا لم تتمَّ الاستجابةُ من الملتجِئ إليهِ.

المحتويات

الجزء التاسع 7

سورة الأعراف 9

- [الأعراف: 164] 10
- [الأعراف: 165 - 166] 25
- [الأعراف: 167] 46
- [الأعراف: 168] 58
- [الأعراف 169] 69
- [الأعراف: 170] 89
- [الأعراف: 171] 97
- [الأعراف: 172] 112
- [الأعراف: 173] 129
- [الأعراف: 174] 138
- [الأعراف: 175] 144
- [الأعراف: 176] 157
- [الأعراف: 177] 172
- [الأعراف: 178] 180
- [الأعراف: 179] 188
- [الأعراف: 180] 209
- [الأعراف: 181] 223
- [الأعراف: 182] 231
- [الأعراف: 183] 236
- [الأعراف: 184] 241
- [الأعراف: 185] 249
- [الأعراف: 186] 264
- [الأعراف: 187] 271
- [الأعراف: 188] 291
- [الأعراف: 189 - 190] 311
- [الأعراف: 191 - 193] 342
- [الأعراف: 194] 361
- [الأعراف: 195] 371
- [الأعراف: 196] 382
- [الأعراف: 197] 394
- [الأعراف: 198] 404
- [الأعراف: 199] 415
- [الأعراف: 200] 431
- [الأعراف: 201] 443
- [الأعراف: 202] 459
- [الأعراف: 203] 470
- [الأعراف: 204] 488
- [الأعراف: 205] 496
- [الأعراف: 206] 508

سورة الأنفال 519
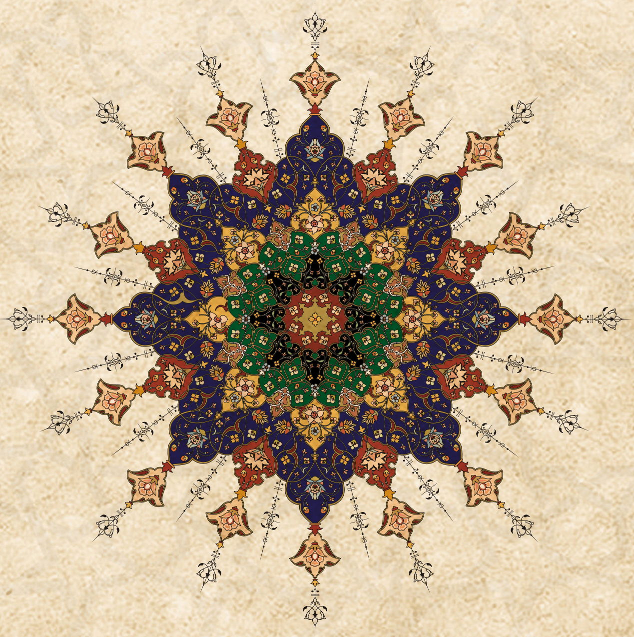
- [الأنفال: 1] 535
- [الأنفال: 2] 551
- [الأنفال: 3] 566
- [الأنفال: 4] 573
- [الأنفال: 5] 582
- [الأنفال: 6] 592
- [الأنفال: 7] 603
- [الأنفال: 8] 614
- [الأنفال: 9] 619
- [الأنفال: 10] 630
- [الأنفال: 11] 642
- [الأنفال: 12] 657
- [الأنفال: 13] 669
- [الأنفال: 14] 682
- [الأنفال: 15 - 16] 689
- [الأنفال: 17] 702
- [الأنفال: 18] 717
- [الأنفال: 19] 724
- [الأنفال: 20] 737
- [الأنفال: 21] 746
- [الأنفال: 22] 751
- [الأنفال: 23] 758
- [الأنفال: 24] 767
- [الأنفال: 25] 782
- [الأنفال: 26] 790